

عزراة فجيا الريح

علامة الأسد ٥ الكتاب ١

فرنسيس ريفرز

ترجمة: سعيد باز

عزراة فجيا الريح

فرنسيس ريشرز



ophir

A Voice In The Wind

Copyright © 1993, 2002 by Francine Rivers. All rights reserved.
Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC.

صوت نجي الريح

فرنسين ريفرز © ١٩٩٣، ٢٠٠٢. حقوق الطبع محفوظة
نُشِرت باللغة العربية بالترتيب مع براون أند ميلر لترازي أسوسيتيس، أل . أل . سي .

Arabic Edition @ 2011 by Ophir Printers & Publishers. All rights reserved.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

صوت نجي الريح

الطبعة العربية الأولى ٢٠١١
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٥٦٦٥ ٧٦٨ ٦ ٩٦٢٢

فاكس: ٥٦٣٩ ٧٦٨ ٦ ٩٦٢٢

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١١/٨/٣٢٥١

ISBN 978-90-5950-135-5

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

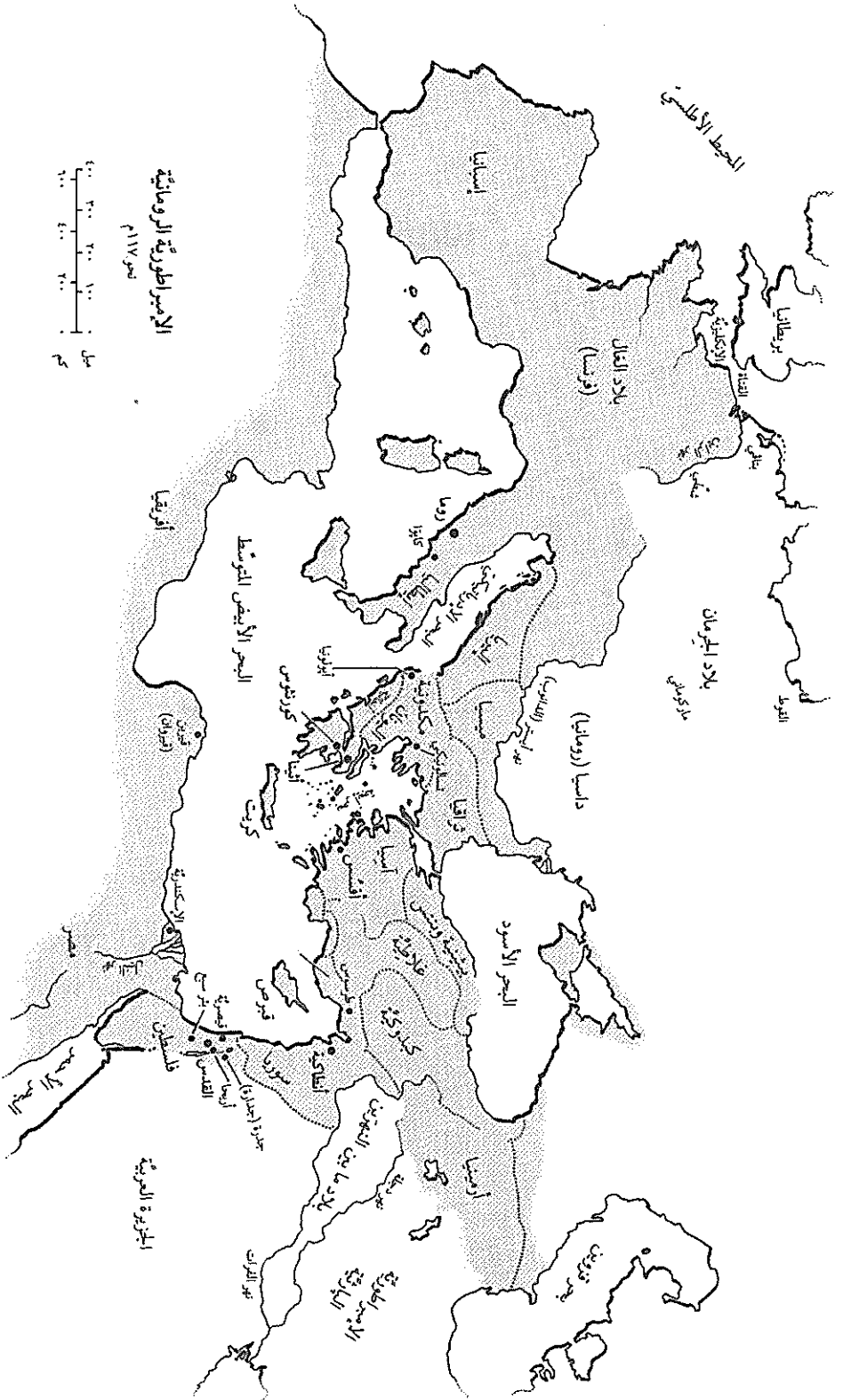
أهدي روايتي هذه، مع كلِّ المحبَّة،
إلى أمِّي فريدا كِنغ
التي تجسِّدُ حقًا مثالَ الخادمِ المتواضعِ.



الفهرس



- ٨ خريطة الإمبراطورية الرومانية (١١٧ م)
- ٩ الجزء الأول: مدينة القدس
- ٣٣ بلاد الجرمانيان
- ٥٣ الجزء الثاني: روما
- ٤٠١ الجزء الثالث: أفسس
- ٥٤١ خاتمة
- ٥٤٣ صدى في الظلام
- ٥٥٥ مسرد ألفبائي (شرح أفاظ)



مدينة القدس





كانت المدينة تُدخّن بصمّت تحت الشمس الحارّة، مُتَعَفِّنةً مثلَ آلاف الجثث المُنطَرِحَة التي سقطت في معارك الشوارع. وهبّت من الجنوب الشرقيّ ريحٌ شديدةٌ حارّة، حاملةٌ رائحة الفساد المُنتِنَة. وخارج أسوار المدينة، كان الموتُ نفسه مُتربّصاً، في أشخاصٍ تيطس، وهو ابن فسبازيان، وستين ألفَ جنديٍّ من الفيالق العسكرية مُتأهبينَ لنهب المدينة المقدّسة.

حتّى قبلما عبر الرُومان واديّ الشوك وعسكروا على جبل الزيتون، كانت الفرق المتناحرة داخل أسوار القدس قد مهّدت السبيلَ لخراب المدينة.

وكان لصوصُ اليهود الذين هربوا الآن كالجِرذان أمامَ الفيالق الرومانيّة قد أغاروا على المدينة حديثاً وقتلوا مواطنيها البارزين، واستولوا على الهيكل المقدّس. وإذ ألقوا القرعة من أجل الكهّنوت، جعلوا بيت الصلاة سوقَ طغيان.

في أعقاب اللصوص، جاء الثوّار والغيورون سريعاً. وبتوجيه من الرُعاء المتنافسين - يوحنا وسمعان وأليعازر - اجتاح الصّحبُ الأحزاب المتناحرة داخل الأسوار الثلاثة. وإذ انتفض هؤلاء تحبّراً وتكبّراً، قطعوا أوصال المدينة قطعاً دامية.

اقتحم أليعازر قلعة أنطونيا، وقتل الجنود الرُومان داخلها، مُنتهكاً السبب وشرائح الله. وهاج الغيورون فقتلوا ألقاً أخرى مِن حاولوا إرجاع النّظام إلى مدينةٍ مسعورة. وأقيمت محاكمٌ غير شرعيّة، وازدريت قوانينُ البشر وشرائحُ الله إذ سيق إلى القتل مئات من الرجال والنساء الأبرياء. وأحرقت إبان الاضطراب بيوتٌ ملأى حنطة. وسرعان ما حلّت المجاعة في أعقاب ذلك.

عندئذٍ صلّى أتقياء اليهود، في يأسهم، طالبينَ بلجاجة أن تأتي روما على المدينة العظيمة. فإنّ أولئك اليهود اعتقدوا أنّ المتنازعين داخل المدينة سيّتحذون عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - في قضيةٍ واحدة: التحرّر من روما.

وقد جاء الرومان فعلاً، رافعينَ راياتهم المقيّمة، وصيحةً حربهم مُجَلِّجُل في أنحاء اليهوديّة كلّها. واستولوا على جدارا ويُطباطة وبئر سبع وأريحا وقيصريّة. وقد زحف رجالُ الفيالق المُقتدرون على حُطى الحُجاج الأتقياء الذين توافدوا من جميع أنحاء الأُمَّة للعبادة والاحتفال

١ الغيورون هم حزبٌ سياسيٌّ متطرّف، كانوا يسعون للإطاحة بالحكم الرومانيّ على اليهود (الناشر).

بأيام العيد الكبير المقدّسة المُواكِبَة لِعِيدَي الفطير والفصح. فإنَّ عشرات الآلاف من الأبرياء تدفّقوا إلى داخل المدينة ووجدوا أنفُسهم في خِصْم حرب أهليّة. ثُمَّ أغلِقَ العَيورون الأبواب عليهم فَعَلِقوا في الداخل. وواصلَ الرومان تقدّمهم حتّى تردّدت أصدااء الدّمار عبر وادي قدرون، ولا سيّما على أسوار القُدس. وأقام تيطس حصارًا على المدينة المقدّسة القديمة، عاقدًا عزمته على إنهاء الثّورة اليهوديّة مرّةً وإلى الأبد.

أخذَ يوسيفوس - قائدُ يَطباطة الساقطة اليهوديّة الذي أسره الرومان - يبكي ويُنادي من على السّور الأوّل الذي استولى عليه جنودُ الفيلق الرومانيّ. ويأذن من تيطس، توسّل إلى شعبه كي يتوبوا، مُنبّها إيّاهم أنّ الله ضدّهم وأنّ الثّبواتِ بالهلاك على وَشَك أن تتحقّق. والأقلاء الذين سمعوا له، واستطاعوا الإفلات من العَيورين في هروبهم، وصلوا إلى طمّاعي بلاد الشام، ففتشهم هؤلاء طلبًا لقطع الذهب التي افترضوا أنّهم ابتلعوها قبل مُغادرة المدينة. أمّا الذين لم يُبالوا بتوسّلات يوسيفوس فقد كابدوا غضبَ آله الحرب الرومانيّة بكامله. وإذا قطع تيطس كلّ شجرة في نطاق كيلومترات، صنعَ منجنيقات وآلات حصارٍ أمطرت المدينة بوابلٍ من الرّماح والحجارة، بل الأسرى أيضًا.

ومن ساحة السّوق العُليا حتّى العقرة السفلى، مرورًا بوادي الجبّانين بينهما، باتت المدينة تتلوّى وتململُ تمرّدًا.

وداخل الهيكل العظيم، ذوّب القائدُ الثائر يوحنا أواني الذهب المقدّسة لاستعماله الشخصي. وبكى الأبرار على المدينة المقدّسة، عروس الملوك، أمّ الأنبياء، موطن داود الملك الراعي. فعندما مزّقتها أبنائها، انظرحت منهوبةً مسلوبة بلا حول ولا قوّة، تنتظر ضربتها القاضية من أيدي الأمميين الأجنبيّين الممقوتين.

لقد دمّرت الفوضى صهيّون، ووقفت روما مُتأهبةً لتدمير الفوضى... في أيّ زمان... وفي أيّ مكان.

أسندت هُدسة أمّها، وترقرق الدمع في عينيها وهي ترفعُ الشّعْر الأسود إلى الوراء عن وجه أمّها الهزيل الشاحب. كانت أمّها جميلةً في ما مضى. وتذكّرت هُدسة كيف كانت تُراقب أمّها وهي تُرخي شعرها على ظهرها مُتألئًا في تموجات كثيفة. إنّه تاجُ مجدّها، كما كان بابا يقول. وها هو الآن باهتٌ وخشِن، وخدّها المتورّدان آنذاك باتا أبيضين وغاثرين. وقد انتفخ بطنها من سوء التغذية، وراح يُستشف من ثوبها الفوقي الرّماديّ عن عظام رجليها وذراعيها الهزيلة.

مدينة القدس

رفعت هَدْسَة يد أمها، وقبَلَتْها بِحَنان، وقد بَدَت كَمِخْلَبٍ من عَظْم، رَحوٍ وبارد. ”ماما؟“
لا جواب. ونظَرَتْ هَدْسَة عبر العُرفة إلى أُختها الصُغرى لَيْثَة، مُنطَرِحَة على فراشٍ قَشٍّ وَسِخٍ
في الزاوية. لقد كانت نائمةً - والحمدُ لله - فَنُسِي إلى حينٍ عذابهم البطيء وهم خائرون من
شِدَّة الجوع.

رفعت هَدْسَة شعرَ أمها ثانيةً، والصَّمْتُ يَلْفُها مثل كَفَنٍ حازٍ، والألمُ في مِعَدتها لا يكاد
يُحتمل. وكانت أمسٍ تامًا قد بَكَتْ بُكاءً مُرًّا لما تَمَتَّت أمها بكلماتِ شُكرٍ لله من أجل الوجبة
التي استطاع مَرُقُس أن يَجلبها لهم: جلدِ تُرسٍ من جُندي رومانيٍّ مَيّت.

كم سيمضي من الوقت قبل أن يموتوا جميعًا؟

وبينما هي مُكتئبةٌ في ظلِّ الصَّمْت، نَسَى لها بعدُ سَماعٌ أبيها مُتكلِّمًا إليها بذلك
الصَّوت الحازم، لكن الرقيق: ”ليس في وَسع البشر أن يتجنَّبوا المَصير، حتَّى لو رأوه سَلَفًا“.

كان حنانًا قد تَفوَّه بهذه الكلمات قبل أسابيع قليلة، مع أنَّ الرِّمن المُنقضي بدا الآن كأنه
ذهر. وكان قد قضى ذلك الصباح كُلَّهُ مُصلِّيًا، وهي كانت شديدة الخوف. لقد علمت أنه سيفعل
ما دأب في فعله قبلاً: أنه سيَقصد إلى غير المؤمنين ويكرزُ لهم بالسيد المسيح، يسوعَ الناصري.

”لماذا ينبغي أن تنطلقَ من جديدٍ وتتكلمَ إلى هؤلاء الناس؟ كدت تُقتلَ آخرَ مرَّة!“

”هؤلاء الناس، هَدْسَة؟ إنهم بنو شعبك.“ ما زال في وَسعها أن تحسَّ لمسِّه الرقيقة
على خَدِّها. ”علينا أن نغتنمَ كلَّ فرصةٍ للتكلمَ بالحقِّ والمُناداة بالسَّلام، ولا سيَّما الآن.
بقي وقتٌ قصيرٌ جدًّا لكثيرين جدًّا.“

أنداك تشبَّثت به. ”رجاءً، لا تذهب. أبي، أنت تعرفُ ما سيحدث. ماذا سنفعل من
دونك؟ إنك لا تستطيعُ إحلالَ السَّلام. لا سلامَ في هذا المكان!“

”لستُ أتكلَّم عن سلامِ العالم، يا هَدْسَة، بل عن سلامِ الله. أنتِ تعرفين هذا.“
ثمَّ أضافَ بعدما ضمَّها بشدَّة: ”سكوتًا، يا بُنيَّتي. لا تبكي هكذا.“

رفضت أن تدعَّه يذهب. فهي تعلمُ أنَّهم لن يستمعوا إليه - أنَّهم لم يُريدوا أصلًا أن
يسمعوا ما يريدُ إخبارهم به. إنَّ رجالَ سِمعان سيقطِّعونه إرْبًا إرْبًا أمامَ الجمهور، ليكونَ عبرةً
لكلِّ مَنْ يُناصرون السَّلام. فهكذا فعلوا بأخرين.

غير أنه مسَّ ذقنَها برفق، فيما يدها صُلبتان وعيناه فائضتان حنانًا، وقال: ”يجب أن
أذهب. مهما حدث لي، فالربُّ دائمًا معكم.“ وبعدما قبَّلها وعانقها، أبعدَها عنه لِيُعاثِقَ ولَدَيه

الآخرين ويُبَلِّغهما، وأضاف قائلاً: ”مرقس، ستبقى هنا مع أمك وأختيك“.
ثم أمسكت هَدَسَة بأمها وهزتها قائلةً بتوسل: ”لا يمكن أن تدعيه يذهب! ليس هذه المرة!“

”اسكتي يا هَدَسَة. من تخدمين بمُعارضة أبيك هكذا؟“

جاء توبيخ والدتها، مع أنها تفوّهت به برفق، شديد الوقع على مسمع هَدَسَة. وكانت قد قالت مراراً كثيرة من قبل إنه حين لا يخدم المرء الله، فهو بالأحرى يخدم الشرير من دون أن يدري. فغالبت هَدَسَة الدُموع، وأطاعت، ولم تزد كلمة واحدة.

لقد وضعت رِفقة يدها على وجه زوجها ذي اللحية الشائبة. كانت تعلم أن هَدَسَة على حق: فربما لا يرجع؛ والأرجح أنه لن يرجع. ولكن إذا كانت تلك مشيئة الله، فلعل شخصاً واحداً يخلص من جرّاء تضحّيته. وقد يكون شخصٌ واحدٌ كافياً. اغزورقت عينها، ولم تستطع - بل لم تجرؤ - أن تتكلم. فإنها لو فعلت ذلك، لربّما انضمت إلى هَدَسَة في التوسل إليه أن يبقى أمناً في ذلك البيت الصّغير. ولكن حنانياً كان يعلم أفضل منها ماذا كانت مشيئة الله له. وهو قد وضع يده فوق يدها، فحاولت ألا تبكي، ثم قال بوقار:

”تذكري الربّ، يا رِفقة. نحن جميعنا معاً فيه.“

ولم يرجع.

انحنت هَدَسَة فوق أمها بُغية حمايتها، وهي تخشى أن تفقدها أيضاً. ”أمّاه؟“ ولا جواب بعد. كان تنفّسها بطيئاً، ولونها شاحباً. ماذا كان يؤخّر مرقس طويلاً؟ لقد مضى منذ الفجر. يقيناً أن الله لن يأخذه أيضاً...

في سكون الغرفة الصغيرة، تعاطم خوف هَدَسَة. وأخذت ترفع شعر أمها إلى الوراء شاردة الذهن. رجاءً يارب، رجاءً! لم تكن الكلمات لتأتي - على الأقل كلمة واحدة ذات معنى مفيد - بل مجرد أنين صاعد من أعماق نفسها. رجاءً، ماذا؟ أن يمتهم الآن جوعاً قبل أن يجيء الرومان بسيفهم أو يكابدوا عذاب الصليب حتى الموت؟ أه، يا الله، أه! ثم جاء دُعاؤها، يائساً وغير محدّد، ملؤه الخوف والعجز: ساعدنا!

لماذا جاءوا أصلاً إلى هذه المدينة؟ لقد كرهت مدينة القدس.

كافحت هَدَسَة اليأس داخل كيانها. وكان قد بات ثقيلاً جداً، حتى شعرت به كما لو كان حملاً مادياً ثقيلاً يشدّها إلى قعر هوة مظلمة. وحاولت أن تفكر في أوقات أفضل، في

لحظات أسعد، إلا أن تلك الأفكار أبَّت أن تُوافيها.

ثمَّ فكَرَّتْ في الشهور الماضية البعيدة، حينَ سافروا من الجليل، غيرَ متوقِّعين قطعاً أن يعلِّقوا في المدينة. فعشيَّة دُخولهم إلى القدس، نصبَ أبوها خيمةً على مُنحدرِ جبليٍّ يَرى منه جَبَلُ المُرْيَا، حيثُ كاد إبراهيم يُقدِّم إسحاقَ ذبيحة. وحكى لهم قصصاً عن صِغره، إذ كان ولداً يسكنُ خارج المدينة العظيمة تماماً، مُتحدِّثاً إلى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل بشأنَ شريعة موسى التي تربي تحت أحكامها. وتحدَّث بشأن الأنبياء، كما تحدَّث بشأن يسوع، المسيح المُخلص.

تلك الليلة، نامتْ هدسةٌ وحَلَمَت بالربِّ يسوع مُشبِّحاً الآلاف الخمسة على مُنحدرِ جبليٍّ. تذكَّرتُ أن أباهما أيقظَ العائلة عند الفجر. وتذكَّرتُ كيف أنَّ الثور، عند شروق الشمس، انعكسَ على رُخام الهيكل وذهبه، مُحوِّلاً البناءَ إلى منارةٍ مُتألِّتةٍ بالبهاء المُتوهج يمكن أن تُرى من بُعدٍ أميال. وما زالت هدسةٌ قادرةٌ أن تشعر بالرهبة التي خابجتها حيال ذلك المنظر المجدد. ”أوه يا أبي، ما أروع هذا!“

آنذاك قال أبوها برزانة: ”نعم، ولكن ما أغلب ما تكون الأشياء ذات الروعة العظيمة ملائمةً بالفساد الفظيح!“

ورغمَ الاضطهاد والخطر اللذين تربصا بهم في أورشليم، كان أبوها مُفعمًا بالفرح والرجاء لدى دخولهم الأبواب. عسى هذه المرَّة أن يستمع مزيدٌ من بني قومه، وأن يُسلم مزيدٌ منهم قلوبهم للربِّ الذي قام من بين الأموات.

بقي في مدينة القدس قليلون من المؤمنين، أتباع الطريق، وقد سُجِن كثيرون، ورجم بعضٌ بالحجارة، وطُرد عددٌ أكبرٌ بعدُ إلى أماكنٍ أخرى بعيدة. فلِعازر وأختاه ومريمُ المجدلِية طُردوا خارجاً؛ والرسول يوحنا- صديقُ العائلة العزيز- غادرَ أورشليم قبل سنتين، آخذاً معه أمَّ الربِّ. ولكنَّ والدَ هدسة بقي. ومرَّة كلِّ سنة، كان يرجعُ إلى المدينة بصُحبة عائلته ليَجتَمعوا مع مؤمنين آخرين في غُرفةٍ علويةٍ. هنالك اشتروكوا في الحُبز والخبز، تماماً كما فعل ربُّهم يسوعُ عشيَّة صلِّبه. وهذه السنة، قدَّم شمعون بن أدونيا عناصرَ حَمَلِ الفصح:

”إِنَّ الحَمَلَ والحُبزَ الفطيرَ والأعشاب المرَّة، الخاصَّة جميعاً بالفصح، لها عندنا معنى مُماثلٌ للذي عند إخوتنا وأخواتنا اليهود. فالربُّ يَتَمَّم كُلَّ عنصر. إنه هو حَمَلُ الله الكاملُ الذي حملَ مرارةَ خطايانا، مع كونه هو نفسه بلا خطيئة. وكما طُلب من العبرانيين المأسورين في مِصرَ أن يَضَعوا دمَ حَمَلٍ على أبوابهم حتَّى يجتازَ عنهم غضبُ الله ودينوتته، كذلك تماماً سفكُ السيِّد المسيح دمه من أجلنا حتَّى نَمَثَلَ أمام الله بلا عيب في يوم الحِساب الآتي. إننا

أبناء إبراهيم وبناته؛ لأننا بإيماننا بالرب يسوع مُخلَّصون بنعمة الله...“.

كانوا يقضون الأيام الثلاثة التالية صائمين ومُصلِّين ومُكرِّرين تعاليم السيد المسيح، وفي اليوم الثالث يُرثَمون ويبتهجون ويكسرون الخبز مرةً أخرى مُحتفلين بقيامة الرب. وكل سنة، في أثناء الساعة الأخيرة من الاجتماع، كان أبو هدسة يحكي قصته الشخصية. ولم تكن هذه السنة مُختلفة عن سواها. كان الأكترون قد سمعوا قصته مرارًا كثيرة من قبل، ولكن كان بين الحضور دائمًا من اهتموا إلى الإيمان حديثًا. فإلى هؤلاء تكلم أبوها.

وقف ذلك الرجل البسيط ذو الشعر واللحية الأشيبين، والعينين السودوين المُفعمتين نورًا ووقارًا، وليس فيه ما هو فائق أو استثنائي. حتى إنه، في كلامه، كان عاديًا. إنما لمس الله هي التي جعلته مُختلفًا عن الآخرين.

باشَرَ كلامه بهدوء، ناظرًا إلى عيون القاعدين حوَالَيْهِ: ”كان أبي رجلًا صالحًا من سبط بنيامين، أحبَّ الله وعلمني شريعة موسى. كان تاجرًا بقرب مدينة القدس، وتزوج بوالدتي التي كانت ابنة فلاح فقير. لم تكن أغنياء، ولا كنا فقراء. ومن أجل كل ما كان لدينا، أعطى والدي المجد والشكر لله.

”عند إقبال الفصح، كنا نُقبل دُكاننا الصغير، ندخل المدينة، حيث تُقيم والدتي عند الأصدقاء وتُعدُّ عِدَّة الفصح، فيما نقضي أنا ووالدي وقتنا في الهيكل. وقد كان سماعي كلمة الله أحسن من أكل اللحم، وحلَّمتُ بأن أصير أحد الكُتَّبة الدينيين. غير أن ذلك لم يتحقق. فلما كنت في الرابعة عشرة، توفِّي والدي؛ وإذ لم يكن لي إخوة أو أخوات، اضطررتُ إلى تسلُّم مصلحته. كانت الأيام عسيرة جدًّا، وكنتُ صغيرًا وعديم الخبرة، غير أن الله صالح. فهو دبر الأحوال.“

إذ ذلك أعمَصَ عينيه، وأضاف: ”ثم انتابني حُمى، وصارعتُ الموت. وكان في وسعي أن أسمع أمي وهي تبكي وتصرخُ إلى الله، فصلَّيتُ: رباه، لا تدعني أموت. أمي تحتاج إلي. إنها من دوني وحيدة، لا أحد يُعيلها. رجاء، لا تأخذني الآن! ولكن جاء الموت. وقد أحاط بي مثل ظلمة باردة وتشبَّت بي.“

ساد العُرفة سكوتٌ يكاد يُلمس فيما السامعون ينتظرون الخاتمة.

مهما كان عدد المرَّات التي فيها سمعتُ هدسة هذه القصَّة، فهي لم تمل منها ولا فقدت تأثيرها. وبينما أبوها يتكلم، كان في وسعها أن تلمس القوة القاِمة والمُوحِشة التي استولت عليه مرَّة. وإذ سرت فيها قشعريرة باردة، طوَّقت ساقيها بذراعَيْها وضمتَّهما إلى صدرها، فيما

مدينة القدس

مضى أبوها يقول :

”قالت أُمِّي إِنَّ الأَصْدِقَاءَ كانوا يَحْمِلُونَنِي فِي الطَّرِيقِ إِلَى قَبْرِي إِذْ مَرَّ يَسُوعُ. وَقَدْ سَمِعَهَا الرَّبُّ تَبْكِي، فَتَحَنَّنَ عَلَيْهَا. لَمْ تَعْرِفْ أُمِّي مَنْ هُوَ عِنْدَمَا أَوْقَفَ مَوْكِبَ الْجَنَازَةِ، وَلَكِنْ كَانَ مَعَهُ كَثِيرُونَ مِنَ الأَتْبَاعِ، فَصَلَّاهُ عَنِ المَرَضِيِّ والعُرجِ. ثُمَّ عَرَفْتَهُ، لِأَنَّهُ لَمَسَنِي فَمَمْتُ حَيًّا“.

أَرَادَتْ هَدَسَةَ أَنْ تَقْفَرَ وَتَهْتَفَ فَرَحًا. وَبَكَى بَعْضُ مِنَ الَّذِينَ حَوَالَيْهَا، وَقَدْ شَلَّتْ وَجُوهُهُمْ عَجَبًا وَرَهْبَةً. وَأَرَادَ آخَرُونَ أَنْ يَلْمَسُوا أَبَاهَا، أَنْ يَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَجُلٍ رَدَّ يَسُوعُ المَسِيحَ الحَيَاةَ إِلَيْهِ. وَكَانَتْ لَدَيْهِمْ أَسْئَلَةٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا. بِمِ شَعَرَتْ لِمَا قَمْتُ؟ هَلْ تَكَلَّمْتُ مَعَهُ؟ مَاذَا قَالَ لَكَ؟ كَيْفَ كَانَ مَنْظَرُهُ؟

فِي تِلْكَ العُلِّيَّةِ، مَعَ المُؤْمِنِينَ المُجْتَمِعِينَ، كَانَتْ هَدَسَةُ تَشْعُرُ بِالأَمَانِ. وَكَانَتْ تَشْعُرُ بِالقُوَّةِ. فِي ذَلِكَ المَكَانِ، تَسَنَّى لَهَا أَنْ تَلْمَسَ حُضُورَ اللهِ وَمَحَبَّتَهُ. ”لَمَسَنِي فَمَمْتُ حَيًّا“. إِنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقَهَّرَ أَيَّ شَيْءٍ.

ثُمَّ كَانُوا يُغَادِرُونَ العُلِّيَّةِ، وَحِينَما يَسِيرُ أَبُو هَدَسَةَ مَعَ العَائِلَةِ، عَائِدِينَ إِلَى البَيْتِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَنْزِلُونَ فِيهِ، يَثُورُ خَوْفٌ هَدَسَةَ الدَائِمِ مِنْ جَدِيدٍ. وَقَدْ صَلَّتْ دَائِمًا طَالِبَةً أَلَّا يَقِفَ أَبُوهَا وَيَتَكَلَّمَ. فَمَتَى حَكَى قِصَّتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، بَكَوا وَابْتَهَجُوا. أَمَّا عِنْدَ غَيْرِ المُؤْمِنِينَ، فَقَدْ كَانَ مُحِطًّا اسْتَهْزَاءً. وَكَانَ الفَرْحُ والأَمَانُ اللَّذَانِ تَشْعُرُ بِهِمَا بِمَعِيَّةِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَشَارَكُونَ مَعَهَا فِي الإِيمَانِ يَتَبَدَّدَانِ مَتَى شَاهَدَتْ أَبَاهَا يَقِفُ أَمَامَ جُمْهُورٍ لِيُعَانِي إِهَانَاتِهِمُ الجَارِحَةَ.

كَانَ يُنَادِي مُجْتَذِبًا النَّاسَ إِلَيْهِ: ”اسْتَمِعُوا إِلَيَّ، يَا رِجَالَ يَهُودَا! اسْتَمِعُوا إِلَى البِشَارَةِ الَّتِي سَأُبَشِّرُكُمْ بِهَا“.

وَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ أَوَّلَ الأَمْرِ. فَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرُ السِّنِّ، وَهُمْ قُضُولِيُونَ. وَلَطَمًا كَانَ الأَنْبِيَاءُ حَالَةً اسْتِثْنَائِيَّةً. إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا مِثْلَ القَادَةِ الدِينِيِّينَ، بَلْ تَكَلَّمَ بِبِساطَةٍ مِنْ قَلْبِهِ. وَدَائِمًا ضَحِكَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَسَخَرُوا مِنْهُ. وَرَشَقَهُ بَعْضُهُمْ بِالخُصْرِ والفَوَاكِهِ الفَاسِدَةِ، كَمَا نَعْتَهُ بَعْضُهُمْ بِالْجَنُونِ، فِيمَا اسْتَشَاطَ آخَرُونَ سَاخِطِينَ إِزَاءً قِصَّةِ قِيَامَتِهِ، وَصَرَخُوا بِأَنَّهُ كَذَّابٌ وَمُجَدِّفٌ.

وَقَبْلَ سَنَتَيْنِ، تَعَرَّضَ لِلضَّرْبِ الشَّدِيدِ حَتَّى اضْطُرَّ صَدِيقَانِ إِلَى إِعَادَتِهِ مَحْمُولًا إِلَى البَيْتِ الصَّغِيرِ المُسْتَأْجَرِ الَّذِي كَانُوا يَنْزِلُونَ فِيهِ دَائِمًا. وَحَاوَلَ أَلْفَانَةُ وَبَنِيَا أَنْ يُحَاجَّاهُ، فَقَالَ أَلْفَانَةُ:

”يَا حَنَانِيَا، عَلَيْكَ أَلَّا تَرْجِعَ إِلَى هُنَا. فَالْكَهَنَةُ يَعْرِفُونَ مَنْ أَنْتِ وَيُرِيدُونَ إِخْرَاسَكَ. لَيْسُوا عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الغِبَاوَةِ تَجْعَلُهُمْ يُقِيمُونَ مُحَاكِمَةً، وَلَكِنْ هُنَاكَ أَشْرَارًا كَثِيرِينَ

يُنْقَدُونَ مشيئة سواهم لقاء شاكل . انْقُضْ غُبار أورشليم عن حذائك، واذهَبْ إلى مكانٍ ما حتَّى تُسَمَعَ الرِّسالة“.

”وفي أيِّ مكانٍ آخر يمكنُ أن يكونَ ذلكَ إلَّا هُنا حيثُ ماتَ ربُّنا وقام؟“

وقال بنايا: ”كثيرونَ مِن شهدوا قيامته قد فرَّوا من السجن والموت بأيدي الفَرِّيسيِّين . حتَّى لعازر غادرَ اليهوديَّة“ .
”أين ذهب؟“

”قيلَ لي إنَّه أخذَ أختيه ومرَّ المجدليَّة إلى بلاد الغال؟“

«لا يمكنُ أن أُغادرَ اليهوديَّة . فمهما حصل ، هنا يُريد لي الله أن أكون .“

خيِّم الصمِّتُ على بنايا لحظةً طويلة ، ثُمَّ نكَّس رأسه ببطء ، قائلاً: ”إِذا ، فلتكنْ مشيئة الله“ .

وكان ألقانة قد أذعنَ ووضعَ يده على يد والد هَدَسَة . ”إنَّ سَلْموث وقورُش باقيان هنا . وهما سيُساعدانك عندما تكونُ في القدس . أمَّا أنا فسأُضي بعائلتي بعيداً عن هذه المدينة . وبنايا ذاهبٌ معي . ولْيُضيء عليك وجهُ الله ، يا حنانيًّا . سنُصلي دائماً لأجلك ولأجل رفقة ، ولأجل أولادِكُما أيضاً“ .

بَكَتْ هَدَسَة ، وتبدَّدتْ آمالها بمغادرة هذه المدينة البائسة . كان إيمانها ضعيفاً . فأبوها دائماً غفرَ لمُعذبيِّه ومُهاجميه ، فيما صلَّتْ هي طالبةً أن يُكابدوا كُلَّ نيرانِ جهنَّم جزاءً ما فعلوه به . وكثيراً ما صلَّتْ كي يُغيِّر الله مشيئته ويُرسِلَ أباهما إلى مكانٍ غير أورشليم - مكانٍ ما صغيرٍ وأمن ، حيثُ يرغبُ الناس في سماعه .

وكم قالَتْ لها والدتها ، مُحاولةً أن تُعزِّيها: ”هدَسَة ، نحنُ نعلمُ أن كلَّ الأشياء تعملُ معاً للخير للَّذين يحبُّونه ، أولئك المدعوِّين حسبَ قصده“ .

”أيُّ خيرٍ في التعرُّض للضُّرب؟ أيُّ خيرٍ في تلقِّي البصق؟ لماذا ينبغي أن تتألَّم هكذا؟“

في تلال الجليل الأمانة ، والبحرُ الأزرق مُنبسِطُ أمام هَدَسَة وزنابقُ الحقل وراءَ ظهرها ، كانت تستطيعُ أن تؤمِّنَ بحبَّة الله . وفي بلدتها عند تلك التلال ، كان إيمانها قويًّا ، وقد جعلها تشعرُ بالدَّفء وجعل قلبها يترنَّم .

ولكن في أورشليم أيضاً جاهدت. لقد تشبَّثت بإيمانها، ولكنها وجدته مُنفلتاً منها. فكان الشكُّ رفيقها، والخوفُ عارماً كاسحاً.

”أبي، لماذا لا يسعنا أن نؤمن ونبقى صامتين؟“

”نحن مدعوون لتكون نور العالم.“

”إنهم يزدادون بغضاً لنا سنةً بعد سنة.“

”الْبُغْضُ هو العدو، يا هَدَسَةَ، لا الناس.“

”الناس هم الذين يضربونك، يا أبي. ألم يقل لنا الربُّ نفسه إنه يجب ألا نطرح الدرر أمام الخنازير؟“

”هَدَسَةَ، إذا كان لي أن أموت من أجله، فسأموتُ بِفَرَحٍ. إن ما أفعله هو لأجل قصده الصالح. فالحقُّ لا ينطق ثمَّ يعودُ فارغاً. يجب أن يكون لك إيمان، يا هَدَسَةَ. تذكري الوعد. نحنُ جزءٌ من جسد السيد المسيح، وفي المسيح لنا حياةٌ أبديةٌ. لا شيءٌ يقدرُ أن يفصلنا. لا قوَّةٌ على الأرض. ولا حتَّى الموت.“

وإذ ضغطت بوجهها على صدره، والعباءةُ الحثينةُ النَّسِجُ تكادُ تخدشُ جلدَها، سألت: ”لماذا، يا أبي، أقدرُ أن أؤمنَ وأنا في بلدتنا، أمَّا هنا فلا؟“

فوضَّعَ يدهُ على يدها، وقال: ”لأنَّ العدوَّ يعرفُ أين تكونين أكثرَ تعرُّضاً للهزيمة. هل تذكرين قصَّةَ يهوشافاط؟ لقد هجمَ عليه بنو موآب وعمون وجبل سَعِيرٍ بجيشٍ جبارٍ. فحلَّ روحُ الربِّ على يَحْزَئِيلَ، وقال اللهُ بواسطته: «لَا تَخَافُوا وَلَا تَرْتَاغُوا بِسَبَبِ هَذَا الْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ، لَأَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ لَكُمْ بَلِ اللهُ». وبينما رثموا وسبَّحوا الربَّ، أقام الربُّ نفسه أكمِنَّةً على أعدائهم. وفي الصباح، لما جاء أهلُ يهوذا إلى المَرْقَبِ في البرِّيَّةِ، شاهدوا جُثَّتَ القتلى. ولم ينجُ أحدٌ من المُهاجِمِينَ. فالشَّعبُ لم يرفَعوا حتَّى يداً في المعركة، وقد تحقَّقَ الفوزُ فيها.“

ثمَّ قبَّلَ رأسها وقال: ”اثبتي في الربِّ، يا هَدَسَةَ. اثبتي، ودعِهِ يُحاربُ حروبك. لا تحاولي أن تحاربي وحدك.“

تهدت هَدَسَةَ، مُحاولَةً أن تتجاهلَ الحُرْقَةَ في معدتها. كم تفتقدُ نصيحَ أبيها في وحشة هذا البيت الصامتة. لو صدقت كلَّ ما علَّمها إياه، لا بهجتُ بكونه الآن عند الربِّ. غير أنها تألمت من الحزن الذي تدقُّ وغمرها موجةٌ بعد موجة، ناشراً معه غضباً غريباً مرتبكاً.

لماذا وجب أن يكون أبوها مُختلاً هكذا لأجل السيد المسيح؟ إنَّ الشعبَ لم يريدوا أن

يسمعوا، وهم لم يؤمنوا. وقد أعاظتهم شهادة أبيها، وجعلتهم كلماته يُجنون حقدًا. لماذا لم يستطع، مرّة واحدة فقط، أن يبقى صامتًا ويظلّ داخلَ الحدود الآمنة لهذا البيت الصغير؟ إذا لكان بقي على قيد الحياة، هنا في هذه الغرفة، مُعزّيًا إيّاهم ومُعطيًا إيّاهم رجاءً، بدل مُغادرتهم كي يُعلوا أنفسهم وحدهم. لماذا لم يستطع أن يكون مُتعلقًا هذه المرّة بعينها وينتظر هدوء العاصفة؟

انفتح الباب على مهل، وقفز قلبُ هَدَسَة هَلَعًا، مُعيدًا إيّاها فجأةً إلى الحاضر العابس. لقد اقتحم اللصوص البيوت أسفل الشارع، وقتلوا ساكنيها لأجل رغيفٍ من الخُبز المدخّر. ولكنّ من دخلَ كان مرقس. فأطلقت نفسها، مُنفرجةً لرؤيته. وهمست بعطف: "كنت خائفةً عليك. مضى على غيابك ساعات".

دفع الباب حتّى انغلق، وبدا عليه الإنهاك الشديد، واستندَ إلى الجدار بقربٍ أختيه. "ماذا وجدت؟" كانت تنتظره ليُخرج أيّ شيءٍ وجدّه من تحت قميصه. فأُتي طعام يوجد، يجب أن يُخبأ، وإلا هاجمهم أحدٌ ما من أجله.

نظر إليها مرقس يائسًا. "لا شيء. لا شيء البتّة. لا حذاءً باليًا، ولا حتّى جلد ترسٍ من جنديّ ميت. لا شيء". ثمّ بدأ يبيكي وكتفاه تهتران.

"أشش، ستوقظ ليّنة وماما". ومدّدت هَدَسَة أمها من جديدٍ برفقٍ على الحرام، ثمّ ذهبت إلى مرقس، فطوّقتة بذراعيها وأسندت رأسها إلى صدره. "لقد حاولت، يا مرقس. أنا أعرف أنّك حاولت".

"ربّما كانت مشيئة الله أن نموت".

فقالّت من دون تفكير، وقد عاجلتها الدموع: "لست على يقين بأنّي أريدُ مشيئة الله بعد الآن. قالت ماما إنّ الربّ سيُدبر". ولكنّ كلامها بدا فارغًا. فإيمانها ضعيفٌ جدًّا. وهي ليست مثل أبيها وأمها. حتّى ليّنة، على الرُغم من صغرها، كانت تحبّ الربّ من كلّ قلبها. ومرقس بدا مُتقبلًا الموت تمامًا. فلماذا كانت هي دائمةً من يسألُ ويشكّ؟

ليكن لك إيمان. ليكن لك إيمان. حين لا يكون لك أيّ شيءٍ آخر، فليكن لك إيمان.

قال مرقس وهو يرتجف، ساحبًا إيّاها خارجَ أفكارها الكثيبة: "إنّهم يطرحون الجثث في وادي إل ربادي وراء الهيكل المقدّس، آلاف الجثث، يا هَدَسَة".

تذكّرت هَدَسَة هولَ وادي هِنوم. فهناك كان أهلُ القُدس يتخلّصون من الحيوانات النافقة وغير الطاهرة، ويكبّون نُفاية الليل. وكانت سلالٌ من الأظلاف والأحشاء وبقايا

مدينة القدس

الحيوانات من الهيكل تُحمَل إلى هناك وتُرمى. وقد غَزَت المكانَ الجِرْدَانُ وطيبورُ الجِيفِ، وكثيرًا ما حملت الرياحُ الحارَّةَ رائحةَ التَّنِّ إلى أرجاء المدينة. وكان الوالد يُسمِّي ذلك المكانَ جِهِنَّا. ”في موضعٍ غير بعيد من هنا صُلِبَ ربُّنا“.

أدخلَ مَرْقُسُ يدهُ في شعره من فوق جبينه، وقال: ”حِفْتُ أن أقترِبَ أكثر“.

أطبقتُ هَدَسَةَ عَيْنِيهَا إطباقًا قويًا، ولكنَّ السؤالَ برزَ جليًا وفجأ زُعَمَ إرادتها: هل طرَحَ أبوها في ذلك المكان، بلا كرامة، متروكًا حتَّى يتحلَّلَ تحت حرارة الشمس؟ ثمَّ عَضَّتْ شفتيها وحاولتْ طَرْدَ تلك الفكرة بعيدًا.

وقال مَرْقُسُ ببطء: ”لقد رأيتُ تِيطُسَ. كان يعبُرُ راكبًا برفقةٍ بعضٍ من رجاله. ولما رأى الجُثثَ، صرخ. لمَ أقدرُ أن أسمعَ كلماته، ولكنَّ رجلاً قال إنَّه كان يدعو إلى يهوه قائلًا إنَّ ذلك ليسَ من فِعْلِهِ هو“.

”إذا استسلَّمتِ المدينةُ الآن، فهل يُبدي رحمة؟“

”إن استطاعَ السيطرةُ على رجاله. فهُم يكرهون اليهودَ ويريدون أن يَروهم مُبادِين“.

”ونحنُ أيضًا من جُمَلَتِهِمْ“. ثمَّ أضافتْ مُرتعدةً: ”لن يعرفوا الفرقَ بين المؤمنين أتباعِ الطريقِ وأعضاءِ حزبِ الغيورين، هل يعرفون؟ فلا فرقَ عندهم بين مُثيرِ فتنَةٍ ويهوديِّ تقِيٍّ، أو حتَّى مسيحيِّ“. واغرورقتَ عيناها. ”أهذه مشيئةُ الله، يا مرقس؟“

”قال والدنا إنَّها ليستْ مشيئةُ الله أن يُعاني أحد؟“

”إدًا، لماذا ينبغي لنا نحن أن نُعاني؟“

”إننا نتحمَّلُ العواقبَ من جِراء ما فعلناه لأنفسنا، ومن جِراء الخطيئة التي تسود هذا العالم. لقد غَفَرَ السيِّدُ المسيحُ لِلصَّ، ولكنَّه لم يُنزلهُ عن الصليب“. ثمَّ دسَّ يدهُ في شعره ثانيةً، وأضاف: ”لستُ حكيماً مثل والدنا. لا أجوبَّةَ عندي عن السَّببِ، ولكنِّي أعلمُ أنَّه يُوجدُ رجاء“.

”أيُّ رجاء، يا مَرْقُس؟ أيُّ رجاءٍ يوجد؟“

”اللهُ دائماً يُبقي بقيَّة“.

٣ نلقتُ عنايةَ قُرَّائنا الكرام إلى وجود مسرد للمصطلحات ابتداء من صفحة ٥٥٥ أدرج فيه عددٌ من المصطلحات التي شاعت في تلك الحقبة التاريخية (الناشر).

دام الحصار ثقيلاً. وبينما انحسرت الحياة داخل مدينة القدس، لم تهن روح المقاومة عند أهلها. وبقيت هدسة داخل البيت الصغير، سامعة هول ما يجري خارج بابهم غير المقل تماماً، إذ كان رجل يركض في الشارع صارخاً: "لقد صعدوا على الشور!".

ولما خرج مرقس ليرى ما يجري، أصابت الهستيريا ليثة. فتوجهت هدسة إلى أختها وعانقتها بقوة. وقد شعرت بأنها تكاد تُجن هي أيضاً، ولكن اعتناءها بأختها الصغرى أسهم في تهدئتها شخصياً.

"سيكون كل شيء بخير، يا ليثة. اهدئي!" وبدت كلماتها بلا معنى في أذنيها هي. ثم أضافت مربة أختها برفق: "الرب يحرسنا".

ابتهاال من الكذبات المعزية، لأن العالم كان ينهار حوالهم. ونظرت هدسة إلى أمها عبر الغرفة فأحست الدموع آتية من جديد. وابتسمت أمها بفتور، كما لو كانت تريد أن تطمئننها، غير أنها لم تشعر بأية طمأنينة. ترى، ماذا سيحل بهم؟

لما رجع مرقس، أخبرهن بالمعركة الدائرة داخل الأسوار. فاليهود حولوا مجراها وبدأوا يردون الرومان.

ولكن تلك الليلة، تحت جح الظلام، تسلل عشرة من جنود أحد فيالق الجيش الروماني عبر حרב المدينة واستولوا على قلعة أنطونيا. ووصل القتال إلى مدخل الهيكل المقدس تماماً. ومع أن هجوم الرومان قد رُد ثانية، فقد رَدوا بتدمير بعض أساسات القلعة، وفتحوا الطريق إلى دار الأم. وفي محاولة لإلهاء الرومان، هاجمهم الغيورون عند جبل الزيتون. وإذا أخفق الهجوم، تبددوا. ثم صلب الأسرى أمام أسوار المدينة حتى يراهم الجميع.

خيم الهدوء من جديد. ثم عم المدينة كلها هول جديد أشد فتكاً، إذ انتشر خبر امرأة جائعة أكلت ابنها. عندئذ اشتعل لهيب البغض الروماني ناراً متأججة.

نادى يوسيفوس بني شعبه ثانية، مؤكداً أن الله كان يستخدم الرومان لإهلاكهم، إتماماً لنبؤات النبيين دانيال ويسوع. ثم جمع اليهود كل ما استطاعوا العثور عليه من المواد الجافة والرق والقرار، وملأوا الأروقة المسقوفة. واندفع الرومان إلى الأمام، فأحلى اليهود الساحة، واستدروا الرومان إلى داخل الهيكل. وما إن بات هؤلاء في الداخل، حتى أضرَم اليهود النار في مقامهم المقدس، مُحرقين جنوداً كثيرين داخله حتى الموت.

استعاد تيطس السيطرة على جنوده المسخطين، وأمر بإخماد النار، ولكن ما إن نَحَج هؤلاء في إنقاذ الهيكل، حتى شن اليهود هجوماً جديداً. وهذه المرة لم يستطع جميع ضباط روما أن

مدينة القدس

يكتبوا جماح جنود الفيلىق الروماني الساطحين. واذ دفع هؤلاء تعطشهم للدماء اليهودية، أشعلوا الهيكل من جديد، وقتلوا كل كائن بشري وجدوه في طريقهم فيما باسروا نهب المدينة المقهورة.

سقط الرجال بالئات إذ اكتنفت ألسنة اللهب الستارة البابلية المطرزة بخيوط دقيقة زرقاء وقرمزية وأرجوانية. ومن على سطح الهيكل العالي، نادى نبي كذاب الشعب أن يصعدوا وينجوا. وترددت في أرجاء المدينة صرخات الكرب من الناس وهم يحترقون أحياء، مختلطة بأصوات القتال في الشوارع والأزقة. والتهم السيف رجالاً ونساءً وأطفالاً، من دون تمييز.

حاولت هدسة أن تبقّي صوت الموت خارج ذنبيها، ولكنه كان يدوي في كل مكان. وماتت أمها في اليوم الحار من شهر آب/أغسطس ذلك الذي فيه سقطت أورشليم. وعلى مدى يومين، ظل مرقس وهدسة وليثة ينتظرون، عالين أن الرومان سيعثرون عليهم عاجلاً أو أجلاً ويفتكون بهم كما فتكوا بكل شخص سواهم.

هرب أحدهم في شارعهم الضيق. وصرخ آخرون وهم يصرعون بلا رحمة. وأرادت هدسة أن تقفز وتهرب، ولكن إلى أين يمكنها أن تذهب؟ وماذا بشأن أختها وأخيها؟ فانكفات من جديد لتتوارى في ظلال العرف الصغيرة المظلمة، مسكة بأختها ليثة.

مزيد من أصوات الرجال. أعلى. أقرب. ثم حطم بابٌ مُنفَتِحاً في مكانٍ غير بعيد. وصرخ الأشخاص الذين في الداخل، فأخرسوا واحداً بعد واحد.

جاهد مرقس، وهو ضعيف ومضني، حتى وقف على قدميه أمام الباب، مُصلياً في سره. وحقق قلب هدسة بشدة، وقد تشنجت معدتها الحاوية. كره من الألم. وسمعت أصوات رجال في الشارع. كانت الكلمات يونانية، واللهجة ساخرة. وأصدر أحد الرجال أوامر بتفتيش البيوت التالية. ثم تحطم باب آخر، وانطلق مزيد من الصراخ.

اقترب من بابهم وقع أحذية ذات مسامير. فقفز قلب هدسة دُعراً. "أه، يا الله..."

قال لها مرقس والهدوء بادٍ عليه على نحو غريب "أغمضي عينيك، يا هدسة. اذكري الرب"، فيما انفتح الباب محطماً. ثم أطلق مرقس صوتاً أجش مُتهدجاً، وخرّ جاثياً على ركبتيه. وتنا رأس سيف يقطر دماً من ظهره، مُخصباً رداءه الرمادي باللون الأحمر. وغمر العرفة الصغيرة صراخ ليثة العالي.

ثم ركل الجندي الروماني مرقس إلى الوراء، مُحزراً سيفه.

لم تستطع هدسة أن تنبس بصوت. ولم تستطع أن تتحرك حيث حدقت إلى الرجل ودرعه مُغطى بالغبار ودم أخيها. وقد برقت عيناه من وراء مُقدّم خوذته. حتى إذا تقدّم إلى

الأمم، رافعاً سيفه المدمى، تحركت هَدَسَةً بسرعة ومن دون تفكيرٍ واعٍ، فدفعت لَبِيَّةً أرضاً وارتمت فوقها. وصلت: أه، يا الله، لِيَنْتَه الأُمُرُ سريعاً؛ لِيَكُن عاجلاً! ولأدَّت لَبِيَّةً بالصمت. وكان الصوتُ الوحيدُ هو صوتُ تنفُّسِ الجنديِّ الحَشِينِ المُرْعَجِ، مُختلِطاً بالصَرَخَاتِ الصادرةِ من أسفلِ الشارع.

شددَ تَرْتِيوسُ قبضتَه على سيفه، وحدَّقَ إلى الفتاة الصغيرة المهزولة تحته مُغْطِيَةً فتاةً أصغرَ بعدُ. كان عليه أن يقتلَهما كِلتَيْهما مُنهيًا الأَمْرَ بسرعة! هؤلاء اليهود الملاحين كانوا أفةً على روما. إنهم يأكلون حتى أولادهم! فلتَبَدِّ النساءُ فلا يولدَ مزيدٌ من المُحارِبين. هذه الأُمَّة تستحقُّ الإبادة. ليس عليه إلا أن يقتلَهما ويتخلصَ منهما.
ما الذي أوقفه؟

رفعت الفتاة الكبرى نظرها إليه، وعيناها السوداوان مملوءتان خوفاً. كانت بالغة الصغر والهزال، ما عدا عينيها الكبيرتين جداً على وجهها الشاحب. إن شيئاً ما حوَّالَها أوهرن قوَّة ذراعِ القاتلة، فهدأ تنفُّسُه وتباطأ خفقانُ قلبه.

حاولَ أن يُذكِّرَ نفسه بالأصدقاء الذين فقدَهم. فديوكليس قُتِلَ بحجرٍ عندَ بناء تجهيزات الحصار. وملسيناس وقعَ عليه سِنَّةُ محارِبين عندَ اختراقِ السورِ الأوَّل. وكايبانوس أُحرقَ حتى الموت عندما أضرمَ اليهودُ النَّارَ في هيكَلهم. وألبيون ما زال يُعاني من جِراءِ جراحه بسنهمِ يهوديِّ.

على الرُّغم من ذلك بردت حرارةُ دمه.

أزلَ تَرْتِيوسُ سيفه، وهو مُرتعد. وإذا ما زال مُتَقِظاً لأَيَّة حركة تُصدرها الفتاة، أجالَ نظره في أنحاء العُرْفَةِ الصغيرة. لقد انجلى بصرُه من الغمامة الحمراء. إنَّ مَنْ قتلَه كان ولدًا. وهو مُنطَرِحٌ في بركةِ دَمٍ بِقَرَبِ امرأة. وقد بدت وادِعَةٌ، كما لو كانت نائمةً فحسب، وشعرُها مُمشطٌ بترتيب، ويدها مطوَّيتان على صدرها. فعلى خلافِ أولئك الذين اختاروا أن يطرَّحوا موتاهم في الوادي، مددَ هؤلاء الأولادُ أُمَّهم بكرامةٍ لائقة.

كان قد سمعَ خبرَ امرأةٍ أكلت ولدها، وغدَّى ذلك ضَغِينتَه على اليهود، تلك التي اكتسبها منذُ عشرِ سنينٍ طوَالِ في اليهوديَّة. ولم يكن يُريد شيئاً سوى مَحْوهم من على وجه الأرض. فهم لم يكونوا إلا مصدرَ بلاءٍ لروما منذ البداية، مُتمرِّدين ومُتكبِّرين، غيرَ قابلين أن يَنحَنوا أمامَ أيِّ شيءٍ سوى إلههم الواحد.

إلهٌ واحدٌ حقيقيٌّ. التوى فمُ تَرْتِيوسِ القاسي التواءَ سُخرية. مجانين، كلهم. فإيمانُ

مدينة القدس

المرء بإله واحد فقط ليس مدعاةً للشخيرة فحسب، بل هو أيضاً أمرٌ همجيُّ يُنافي الحضارة. ثمَّ إنَّهم - على الرُّغم من جميع توكيداتهم المقدَّسة وإصرارهم العنيد - شعبٌ غيرٌ مُتمدِّنين. فأليك ما قد فعلوه بهيكلهم الخاص.

كم قُتِلَ من اليهود في الأشهر الخمسة الأخيرة؟ لم يُكَلَّف نفسه عناء الإحصاء وهو ينتقل من بيتٍ إلى آخر، يسوقه تعطُّشه للدِّماء، مُتصيدياً إياهم كالحيوانات. قَسَمًا بالآلهة، لقد تلذَّذ بذلك، حاسِبًا كُلَّ مَوْتٍ قِسْطًا رمزيًّا بسيطًا يُوَدِّيه عَوْضًا عن الأصدقاء الذين سلَّبوه إياهم.

لماذا تردَّد الآن؟ أكان ذلك شفقةً على طفلةٍ يهوديةٍ نكدةٍ غادِرةٍ؟ أرحمُ أن يقتلها ويُريخها من يؤسها. لقد كانت نحيلاً جدًّا من شدَّة الجوع حتَّى أمكَن أن يُطَيِّرها بنفخة، وخطا نحوها خطوةً أخرى. في وُسعه أن يقتلَ كلتا الفتاتين بضربةٍ سيفٍ واحدة... وحاولَ أن يستدعي الرُّغبة في فعل ذلك.

لبِثت الفتاة تنتظر. كان واضحًا أنَّها مرعوبة، غير أنَّها لم تسترحم كما استرحم كثيرون جدًّا. فهي والفتاة التي تحتها كلتاها كانتا ساكتتين ساكتتين تُراقبان. انعطفت قلبُ ترتيوس، وشعرَ بالضعف. ثمَّ أخذَ نفسًا سريعًا خَشِينًا، وزفرَ بحدَّة. ودسَّ سيفه في الغمد على خاصرته. "ستعيشان، ولكنكما لن تشكراني على ذلك".

كانت هدسة تعرف اليونانية. فقد كانت هذه لغةً شائعةً بين جنود الرومان، وهكذا كانت تُسمع في جميع أنحاء اليهودية. وبدأت هدسة تبكي. فأمسك ترتيوس بذراعها، وأوقفها على قدميها ببترة واحدة.

نظر ترتيوس إلى الفتاة الصغيرة المنطرحة على الأرض. كانت عيناها مفتوحتين وشاخصتين إلى مكانٍ بعيدٍ فرَّ إليه ذهنها. ولم تكن تلك أول مرةٍ فيها يرى ترتيوس حملقة كهذه. فهي لن تدوم طويلاً.

ارتاعت هدسة من التظرة الجوفاء في عيني أختها. فانحنت وطوّقتها بذراعيها، قائلة: "ليئة، أختها!" وحاولت أن تُنهضها.

علم ترتيوس أن البنت الصغيرة قد ماتت، لا محالة، وأن تركها حيث هي معقول أكثر. ولكن الطريقة التي بها حاولت البنت الكبرى أن تحمَّع الصغيرة بذراعيها وترفعها أثارَت شفقتَه. فحسَى وزن البنت الخفيف كان أثقلَ من أن تحمله هدسة.

أزاح ترتيوس هدسةً لا مبالياً، ورفع الفتاة الضئيلة بسهولة، وطرَحها برفقٍ على كتفه

كأنها كيس حنطة. ثم أمسك الفتاة الكبرى بذراعها، ودفعها خارج الباب.
كان الشارع هادئاً، إذ واصل الجنود الآخرون تقدّمهم ودوّت صرّخات بعيدة. فمشى
بسرعة، متنبّهاً إلى أنّ الفتاة كانت مُجاهدٌ لمُجاراته.

عقب جؤ المدينة بتانة الموت. كانت الجثث في كل مكان، وقد سقط بعضُها بسيف
الجنود الرومان الذين كانوا ينهبون المدينة المقهورة، وبعضها من جُراء الجوع، وهذه الآن
مُنتفخة ومُتحلّلة بعد أيام من تركها هناك حتى تتعفن. وحملت أمارت الرُعب التي غطت
وجه الفتاة ترتيوس على التساؤل كم مضى عليها من الزمن وهي محبوسة في ذلك البيت.
قال وهو يبصق على التراب: "مدينتكم المقدسة العظيمة!"

مسّ الألم ذراع هَدسة إذ انغرزت أصابع الجندي في لحمها. وتعثرت بساق رجل
ميت. وكانت الديدان الغازية تزحف على وجهه كُله. الأموات في كل مكان، وهَدسة تكاد
يُغشى عليها.

كلما أوغلا في السير، ازدادت أهوال المجزرة. فالأجساد المتحللة كانت مطروحة
وهي مُتشابكة مع الحيوانات المقتولة. وكانت تنانة الدّم والموت قويّة جداً حتى غطت
هَدسة فمها.

صاح ترتيوس بجندي كان يفصل الأموات: "إلى أين نأخذ الأسرى؟" وكان جنديان
يرفغان رقيقاً رومانياً من بين يهوديين. وبدا جنود آخرون يحملون غنائم من الهيكل. وقد
امتلاّت عربات بأوانٍ ذهبية وفضية براقّة، من طُسوت وصحاف وقُدور ومناثر ومِقصات
فتائل. كما كُدست مجارف وقُدور من نحاس، فضلاً عن مَعاسِل ومَبَاخِر وأدوات أخرى
كانت تُستعمل في خدمة الهيكل.

رفع الجندي عينيه نحو ترتيوس، وألقى نظرة خاطفة على هَدسة وليئة. "سر في الشارع،
ثم انعطف وادخل عبر البوّابة الكبيرة، ولكن هاتين الاثنتين لا تبدوان مُستحقّتين عناء
الاهتمام بهما".

نظرت هَدسة إلى رُخام الهيكل النقي أصلاً، ذاك الرُخام الذي كان يبدو من بعيد
مثل جبل يُكلله الثلج. أمّا الآن فهو مُسودّ، وقد اقتلعت قطع منه من جُراء حجارة الحصار،
وانصهر الذهب وزال. وكانت أجزاء كاملة من الجدار قد انهارت. الهيكل المقدس! لم يكن
إلا مكاناً آخر للموت والخراب.

تحركت هَدسة بتناقل، وقد أمرضها وروّعها كل ما شاهدته. وألهب الدخان عينيهما

وحلقها. وبينما هم سائرون مُحَاذَاةِ سُورِ الهيكل، كان في وُسْعِهَا أَنْ تَسْمَعَ صَوْتَ ارْتِعَابٍ مُتَعَالِيًا وَمُتَمَوِّجًا، مُنْبَعِثًا مِنَ الدَّخْلِ. كَانَ فَمُهَا جَافًا، وَأَخَذَ قَلْبُهَا يَخْفِقُ بِضَّرْبَاتٍ أَشَدَّ وَأَسْرَعَ إِذِ اقْتَرَبُوا مِنَ الْبَوَابَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دَارِ النِّسَاءِ.

دَفَعَ تَرْتِيوسُ الْفَتَاةَ دَفْعَةً عَنِيفَةً. "لِيُنِّمَ عَلَيْكَ، فَأَقْتُلِكَ حَيْثُ تَسْقُطِينَ، وَأَخْتَكِ مَعَكَ!" كَانَ دَاخِلَ الْهَيْكَلِ أَلْفٌ مِنَ النَّاجِينَ، بَعْضُهُمْ يَنْتَجِبُونَ فِي بُؤْسِهِمْ وَأَخْرُونَ يُوَلُّوْنَ عَلَى مَوْتَاهُمْ. وَدَفَعَهَا الْجَنْدِيُّ أَمَامَهُ عِبْرَ الْبَوَابَةِ، فَرَأَتْ جُمْهُورَ الْبَائِسِينَ قُدَّامَهَا، وَقَدْ اِكْتَضَتْ بِهِمْ دَارَ النِّسَاءِ. وَكَانَ أَغْلِبُهُمْ مَهْزُولِينَ جَوْعًا، ضَعْفَاءَ، يَأْسِينَ.

أَنْزَلَ تَرْتِيوسُ الْفَتَاةَ عَنْ كَتْفِهِ. وَأَمْسَكَتْ هَدَسَةَ بَلِيَّةَ مُحَاوَلَةٍ إِسْنَادَهَا. فَخَرَّتْ مُتْرَحَّةً، وَتَشَبَّثَتْ بِحِضْنِ أُخْتِهَا فِي فَتُورٍ، وَأَدَارَ الْجَنْدِيُّ ظَهْرَهُ، ثُمَّ مَشَى مُبْتَعِدًا.

كَانَ الْأَلْفُ يَجُولُونَ هَائِمِينَ، بِحَثًّا عَنْ أَقْرِبَاءٍ أَوْ أَصْدِقَاءٍ. وَاحْتَشَدَ آخَرُونَ فِي مَجْمُوعَاتٍ أَصْغَرَ مُنْتَجِبِينَ، فِيمَا كَانَ بَعْضٌ وَحْدَهُمْ يُحَدِّقُونَ إِلَى لَا شَيْءٍ، مِثْلَمَا فَعَلَتْ لَيْثَةُ. وَكَانَ الْهَوَاءُ سَاخِنًا جَدًّا، حَتَّى لَمْ تَكَدْ هَدَسَةُ تَسْتَطِيعُ التَّنْفُسَ.

شَقَّ لَأوِيٌّ رِدَاءَهُ الْأَزْرَقَ وَالرَّبْرَقَالِيَّ الْبَالِيَّ، وَصَرَخَ بِأَلَمٍ عَاطِفِيٍّ مُبْرِحٍ: "إِلَهِي! إِلَهِي! لِمَاذَا تَرَكْتَنَا؟" وَأَخَذَتْ امْرَأَةٌ بِقَرْبِهِ تُؤَلِّلُ بِشَكْلِ يَرْتَى لَهُ، وَثَوْبُهَا الرَّمَادِيُّ مُضْرَجٌ بِالْدَمِّ وَمُزَّقٌ عِنْدَ الْكَتْفِ. وَكَانَ شَيْخٌ مُتَلَفِّعٌ بِثِيَابٍ مُخَطَّطَةً بِالْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ جَالِسًا وَحْدَهُ، مُسْتِنِدًا إِلَى جِدَارِ دَارِ النِّسَاءِ، وَشَفَاتِهِ تَتَحَرَّكَانَ. وَعَرَفَتْ هَدَسَةُ أَنَّهُ مِنَ السَّنَهْدَرِيمِ، وَثِيَابُهُ تُمَثِّلُ زِيَّ الصَّحْرَاءِ وَحِيَامِ الْأَوْلِيَيْنِ.

اِخْتَلَطَ بِالْجُمْهُورِ أَشْخَاصٌ نَذِيرُونَ بِشَعْرِهِمُ الطَّوِيلِ الْمُضْفُورِ، وَغَيُورُونَ بِسِرَاوِيلِهِمُ الْخَشِينَةِ الْمُتَسَيِّخَةِ وَقُمَصَانِهِمُ الَّتِي يَلْبَسُونَ فَوْقَهَا صُدْرَاتٍ قَصِيرَةً دُونَ أَكْمَامٍ، لَهَا أَهْدَابٌ زُرْقَاءُ عِنْدَ كُلِّ طَرْفٍ. وَمَعَ أَنَّهُمْ جُرِّدُوا مِنْ خَنَاجِرِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ، فَقَدْ ظَلُّوا يَظْهَرُونَ حَظْرِينَ.

ثُمَّ نَشِبَ عِرَاكٌ، وَشَرَعَتِ النِّسَاءُ بِالصُّرَاخِ. فَشَقَّ اثْنَا عَشَرَ جَنْدِيًّا رُومَانِيًّا طَرِيقَهُمْ بَيْنَ الْجُمْهُورِ، وَصَرَعُوا الْمُتَعَارِكِينَ وَبِضْعَةَ أَشْخَاصٍ آخَرِينَ ذَنْبُهُمُ الْوَحِيدُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَرِيبِينَ جَدًّا مِنْهُمْ. وَوَقَفَ ضَابِطٌ رُومَانِيٌّ عَلَى أَعْلَى الدَّرَجِ، وَصَاحَ عَلَى الْأَسْرَى. وَأَشَارَ إِلَى بِضْعَةِ رِجَالٍ آخَرِينَ وَسَطَ الْجُمْهُورِ، فَجُرُّوا بَعِيدًا كَيْ يُصَلَّبُوا.

اسْتَطَاعَتْ هَدَسَةُ أَنْ تُنْهِضَ لَيْثَةَ وَتَنْتَقِلَ إِلَى مَكَانٍ أَكْثَرَ أَمَانًا بِجَانِبِ الْجِدَارِ، قُرْبَ

اللأوي. وإذ غابت الشمس وخيم الظلام، ضمت ليثة بشدة، محاولة أن تدفنها. ولكن في الصباح، كانت ليثة ميتة.

كان وجهه أختها الحلو خالياً من الخوف والألم. وقد ارتسمت على فيها ابتسامة لطيفة. شدت هدسة أختها إلى صدرها، وهزتها بقوة. وتفاقم الألم فملاًها ياساً عميقاً جداً، حتى تعذرت عليها مجرد البكاء. ولما أقبل نحوها جندي روماني، لم تكذب تلاحظه، إلى أن حاول أن يأخذ ليثة ويبيدها منها. فتشبثت بها بشدة أقوى.

”إنها ميتة. أعطيني إيها“.

دست هدسة وجهها في طية عنق ليثة، وأخذت تنوح. وكان الروماني قد شاهد ميتات كثيرة حتى تقسى قلبه. فضرب هدسة ضربة واحدة جعلتها تفلت أختها، ثم رفسها مبعداً إيها بعيداً.

وإذ اعترها الدوار، وتصلب جسمها من شدة الألم، حملت عاجزة فيما حمل الجندي ليثة إلى عربة كدست فيها جثث آخرين ماتوا في أثناء الليل. ورمى جسد أختها الهش فوق الكومة.

أطبقت هدسة عينيها، وجذبت رجليها، ثم حنت رأسها على ركبتيها، واسترسلت في البكاء.

مرت الأيام سريعاً. وماتت مئات من جراء الجوع، وأكثر منهم من جراء اليأس وفقدان الرجاء. وأخذ بعض الأسرى الأقوياء البنية لحفر قبور جماعية.

سرت شائعات بأن تيطس أصدر أوامر بهدم المدينة كلها، لا الهيكل وحده. إنما وجب الإبقاء على قلاع فاسيلوس وهيبيكوس ومرينة لأغراض دفاعية، والإبقاء أيضاً على جزء من الشور الغربي. ولم يكن قد حدث شيء مثل ذلك منذ أن دك الملك البابلي نبوخذ نصر هيكل سليمان. فإن أورشليم، مدينتهم المحبوبة، لن تكون في ما بعد.

أحضر الرومان حنطة للأسرى. ورفض بعض اليهود الذين ما زالوا مقيمين رقابهم ضد الحكم الروماني حصصهم، في حركة عمرد أخيرة وميتة. وكان المرضى والضعفاء الذين حرموا من الطعام هم من يرثي لحالهم؛ لأن الرومان لم يريدوا تبديد الحنطة على أولئك الذين لا يرجح أن يبقوا على قيد الحياة بعد المسيرة المقبلة إلى قيصرية. ولما كانت هدسة في عداد هؤلاء، فإنها لم تعط أي طعام.

مدينة القدس

ذات صباح، أخذت هَدَسَةٌ مع الآخرين إلى خارج أسوار المدينة. وحدثت بُرْعِبٌ إلى المنظر الذي تلقاها. فإنَّ آلافَ اليهود كانوا مصلوبين أمام أسوار القدس المنهارة، فيما طيورُ الجَيْفِ تستمتع بنهشهم. وكانتِ التُّرْبَةُ تحتَ عُدَّةِ الحصارِ قد شربتْ كثيراً من الدَّماءِ حتَّى صارتْ حمراءَ فاقعةً وُضْبَةٌ كالقِرْمِيدِ. أمَّا الأرضُ ذاتُها فكانتْ خارجَ نطاقِ أيِّ شيءٍ توقَّعتْ هَدَسَةٌ. فما عدا غابةَ الصلبانِ الواسعةِ الرَّهيبَةِ، لم تكنْ هناك شجرة، ولا شجيرة، ولا حتَّى وَرَقَةٌ عُشْبٍ. لقد تراءتْ أمامها أرضٌ مُقفِرة، ومن ورائها المدينةُ العظيمةُ التي باتتْ رُكامًا.

صاح حارسٌ: ”واصلوا التقدُّم!“ وكِراجهُ يلوخُ في الهواءِ بقُربِ هَدَسَةٍ ويُفرِّقُ على ظهرِ أحدِ الرُّجالِ. وأنَّ رجلٌ آخرٌ أمامها أُنْبِتًا شديدًا ثُمَّ انهيار. ولَمَّا سحبَ الحارسُ سيفه، حاولتِ امرأةٌ وقفه، ولكنَّه لكَمَّها بقُبضته، ثُمَّ بضربةٍ واحدةٍ سريعةٍ شقَّ شريانًا في عنقِ الرُّجلِ المنهار. فأمسك الرُّجلُ المرتعشُ بذراعه، وجرَّه إلى حافةِ مهوى الحصارِ ودفعه من فوقِ الجُرفِ. فتدحرجَ الجِسمُ على مهلٍ إلى القعرِ، حيث استقرَّ على الصُّخورِ بين جُثثِ أخرى. وساعدَ أسيرٌ آخرٌ المرأةَ المنتحبةَ للوقوفِ على قدميها، ثُمَّ تابعَ الجميعُ تقدُّمَهُم.

أقعدَهُم أسِروهم حيث يَرَوْنَ ويسمَّعون ما يجري في مُعسكرِ تيطس.

قال رجلٌ بمرارة: ”يبدو أننا لا بُدَّ أن نُعانيَ مُشاهدةَ حفلةِ انتصارِ رومانيةٍ“، وقد دلَّتِ الأهدابُ الزَّرْقَاءُ المُتدلِّيةُ من صُدْرتهِ أَنَّهُ ينتمي إلى حزبِ العَيورين.

فهمس أحدهم قائلاً له: ”أسكْتُ، وإلَّا صيرتَ طعمًا للغربانِ مثل أولئك المساكينِ المجانينِ الآخرين!“

وأمامَ أنظارِ الأسرى، تشكَّلتِ الفيالقُ وتقدَّمت في وحداتٍ مُدرِّبةٍ بإتقانٍ قُدَّامِ تيطس وهو مُتألِّقٌ بدِرْعهِ الدَّهبيِّ. كان عددُ الأسرى أكثرَ من عددِ الجنودِ، ولكنَّ الرُّومانَ تحرَّكوا مثلَ وحشٍ حربٍ هائلٍ واحدٍ، في نظامٍ وانضباطٍ. وبالنسبةِ إلى هَدَسَةٍ، كانت مُشاهدةُ إيقاعِ خَطوِ آلافٍ من الرُّجالِ السائرين في تشكيلاتٍ كاملةٍ أمرًا مُروِّعًا. فإنَّ صوتًا واحدًا أو إشارةً واحدةً أمكنَ أن يجعلَ المئاتِ يتحرَّكون مثل شخصٍ واحدٍ. كيف يتأتَّى لأيِّ قومٍ أن يعتقدوا أَنَّهُم قادرون على قَهْرِ أمثالِ هؤلاء؟ لقد سدَّوا الأفق!

ألقي تيطس خُطبةً، مُتوقِّفًا بين حينٍ وآخر، لدى هُتافِ الجنودِ له.

ثُمَّ وُزَّعتِ المكافآت. وقد وقفَ الضُّباطُ قُدَّامَ الرُّجالِ، بِدروعهم المُتظفَّةِ والبرِّاقَةِ تحتَ ضوءِ الشمسِ. وتولَّيتِ لوائحُ تنوُّهُ بالذين أُنجِزوا مآثرَ عظيمةً في الحربِ. ووضعَ تيطسُ يديه أكاليلَ من ذهبٍ على رؤوسهم وحلِيَّ ذهبيةً حولَ أعناقهم. وأعطى بعضهم رِماحًا ذهبيةً

طويلة وشارات فضيَّة. وكوفى كل واحدٍ بشرف ترفيعه إلى رتبة أعلى.

نظرت هدسة حوالها إلى رُفقاتها، وأحسَّت ضغينتهم المريرة. فإنَّ اضطرارهم إلى مشاهدة هذا الاحتفال ذرَّ ملحا على جراهم المفتوحة.

وُزعت على الجنود أكداً من الغنائم. ثمَّ تكلم تيطس ثانية، مُتدحاً رجاله ومُتمنياً لهم حظاً طيباً وسعادةً غامرة. وحيَّاه الجنودُ مُتهلِّلين بهتافاتهم التأيديَّة الفرحة، مرةً بعد أخرى، إذ نزلَ واجتازَ بينهم.

أخيراً، أصدرَ الأوامرَ بمباشرة الوليمة. وكانت أعدادُ كبيرة من الثيران مُسكَّة ومُعده عند المذابح المُخصَّصة لآلهة الرومان. فما إنَّ أصدرَ تيطس الأمر، حتَّى نُحرت الثيرانُ قرباناً. وكان والدُ هدسة قد أخبرها بأنَّ شريعة موسى طلبت سفك الدَّم كفارة عن الخطيَّة. وقد عرفت أنَّ الكهنة داخلَ الهيكل المقدس كانوا يُجرون الذبائح يوميًا، تذكيراً دائماً بوجوب التوبة. غير أنَّ أباه وأمه علمها منذ نعومة أظفارها أنَّ السيِّد المسيح قد سفك دمه كفارة عن خطيَّة العالم، وأنَّ شريعة موسى قد تمت في السيِّد المسيح، وأنَّ لا حاجة بعد إلى الذبائح الحيوانية. ومن ثمَّ فهي لم ترقُط حيوانات تُقدَّم ذبائح. والآن شاهدت بارتعاب واشمئزاز ذبح ثور بعد آخر قرابين شكر. وأمراضها منظرُ إراقة كثير من الدَّم على مذابح من حجر. فأغمضت عينيها، وأشاحت بوجهها، واضعة يدها على فمها.

وُزعت الثيران المذبوحة على الجيش المنتصر لإقامة وليمة عظيمة. وحمل هواء الليل رائحة اللحم المشوي المُعذبة إلى الأسرى الجائعين. وكان من شأن اليهود الأتقياء أن يرفضوا أكل ذلك اللحم، حتَّى لو قدَّم إليهم. فالتراب والموت أفضل من اللحم المُقرب إلى آلهة وثنية.

أخيراً، جاء الجنودُ وأمروا الأسرى بالاصطفاف لأخذ حصصهم من القمح والشعير. فهضمت هدسة بضعف، ووقفت في الصف الطويل، مُتيقنة بأنها ستُحرم الطعام أيضاً. وقد ملأت الدموع عينيها حتَّى لم تعد ترى جيِّداً. أه، الله، يا الله، افعل كما تشاء! ولما جاء دورها، فعرت كفيها، مُنتظرة أن تُدفع جانباً. ولكن بدلاً من ذلك، تدفقت الحبوب الذهبية من المعرفة إلى راحتي يديها.

كادت تسمع صوت أمها: "الربُّ يدبر".

ورفعت رأسها ناضرة في عيني الجندي الشاب. كان وجهه، وقد لوحته شمس اليهودية، قاسياً، خالياً من أية عاطفة. "شكراً!" قالتها باليونانية وتواضع بسيط، وليس لديها أدنى

مدينة القدس

فكرة عمّن يكون الجنديّ ولا عمّا كان ممكناً أن يفعل . فترجرت عيناه . ودفعها أحدهم من وراء دفعة قويّة، لاعتناً إياها بالأراميّة .

وبينما هي تمشي مُبتعدةً، لم تدر أنّ العسكريّ الشابّ كان ما يزال يُراقبها . فإنّه أقحم المِغرفة في الترميل ثانية، وصبّ الحنطة في راحتيّ التالي في الصفّ، من دون أن يُزيح عينيه عنها . قعدتْ هدسةً على مُنحدر التلّ . كانت مُنفصلةً عن الآخرين، وحدّها داخل ذاتها . وحينما حنت رأسها، أحكمتْ يديها على الحنطة . وغمرتها العاطفة . ثمّ همست بانكسار : ” ترتّب قُدّامي مائدةً تجاة مُضايقيّ “ ، وشرّعت تبكي ، مُضيفةً : ” أه ، يا أبت ، سامحني . أصلحْ طريقي . إنّما برفوق ، يا ربّ ، لئلاّ تجعلني كلا شيء . أنا خائفة . أيها الأب ، أنا خائفةٌ جدّاً . احفظني بقوة ذراعك “ .

ثمّ فتحتْ عينيهما ، وفتحتْ يديها من جديد ، قائلةً : ” الربّ يُدبر “ ، وأكلتْ على مهل ، مُستمتعةً بكلّ حبة .

لما غابتِ الشمس ، شعرتْ هدسةً على نحوٍ غريب بأنّها في سلام . حتّى بوجود كلّ الخرابِ والموتِ حوالَيْها ، وكلّ المعاناة التي تنتظرُها ، شعرتْ بقُرب الله . ورفعتْ نظرها إلى سماء الليل الصافية ، فإذا النجومُ مُتلاثلة . وهبّ نسيمٌ لطيف ، فذكرها ببلدتها الجليل .

كان الليلُ دافئاً... وهي قد أكلتْ ... إنّها ستعيش . لقد قال لها مرقس مرّةً : ” الله دائماً يُبقي بقيّة “ . بين أفرادِ عائلتها جميعاً ، كان إيمانها هو الأضعف ، وروحها هي الأكثر تشكيكاً والأقلّ جرأةً . وبينهم جميعاً ، كانت هي الأقلّ استحفاً . فسألَتْ وهي تبكي بهدوء : ” لماذا أنا ، يا ربّ ؟ لماذا أنا ؟ “

بلادُ الجرمان



٢

رفع أترتيس يده عاليًا، مُعطيًا أباه إشارةً بأنَّ فيلقًا رومانيًا يتقدّم إلى الفُسْحَة. وكان المحاربون الجرمانيون مُختبئين في الغابة يتربّصون، وقد أمسك كلُّ منهم فراميا: رُمحًا يخشاه الرّومان كثيرًا؛ لأنَّ في طَرْفِ قناته القويّة حربةٌ قصيرةٌ نحيفةٌ حادّةٌ كالموسى في وُسْعها أن تخترق الدروع، ويُمْكِن أن يُطلقَ بِدقّةٍ من مسافةٍ بعيدة، أو يُستخدَم في القتال اللّاحِمِيّ.

وإذ رأى أترتيس أنَّ اللحظةَ مؤاتية، أنزلَ يده. فأطلقَ أبوه في الحال صيحةَ الحرب. فارتفعتِ الصّيحةُ وانتشرتْ مدى الأفق فيما رُدّدها رجالُ الحاشية وهم يقرعونُ تروسهم لطيّواز، إله الحرب عندهم. وقد انضمَّ إليهم مَرَكوبس، قائدُ قبيلةِ البرُكتيري، موحدُ القبائل الجرمانية، فضلًا عن باقي رجال قبيلتي البرُكتيري والبَتافي، البالغ عددهم مئة رجل. وتردّدتْ أصداؤُ الصّوت المُرُوج والمُشوش عبرَ الوادي في الأسفل كزَمَجرة صادرة من شياطينِ الجحيم. فكشّر أترتيس إذ رأى جنودَ الفيالق الرومانيّ يفقدون اتزانهم. وفي تلك اللحظة تدفّقَ رجالُ القبائل نازلينَ مُنحدرَ الجبل لشنّ الهجوم.

فاجأتِ الصّرخاتُ الهَمْجيّة الرّومان وأربكتهم، فلم يسمَعوا أوامرَ قوّادهم بأنَّ ينتظموا في تشكيلةٍ "السّلحفاة". فإنَّ القوّاد كانوا يعلمون أنَّ دفاعهم الحقيقيّ الوحيد في مواجهة الهَمْجيين هو هذه المناورة الحربيّة، حيث يتقدّم الرجالُ معًا مُتلاصقين وتروسهم مرفوعةٌ نحو الخارج من كلِّ جهةٍ وفوق رؤوسهم، مُشكّلين بذلك درعًا يتعذّر اختراقها، شبيهةٌ بترس السّلحفاة. ولكنَّ رؤيةَ حشيدٍ من المحاربين الشّرسين شبه الثّور، مسلّحين برماح تتدلّى من خُصورهم، جعلتْ صفوفَ الفيالق تتشكّلتْ وقتًا كافيًا لإتاحة فُرصةٍ لرجال القبائل يحتاجون إليها أمس الحاجة. فإذا برماح فراميا تتطايّر، وبيجنود الفيالق يتساقطون.

كان أبو أترتيس، هرْمَن، على رأسٍ "تشكيلةِ الإِسفين" التي باشرتِ الهجومَ المُفاجئ.

٥ بلادُ الجرمان هي المنطقة الواقعة شمال الإمبراطوريّة الرومانيّة وشرقها، وكانت قسمين: بلاد الجرمان السفلى، وتقع غرب نهر الراين وجنوبه، وتمثّل اليوم مناطق شمال شرق فرنسا، وأجزاء من بلجيكا وهولندا، وكانت تحت السيطرة الرومانيّة؛ وبلاد الجرمان العُظمى، وتقع شرق نهر الراين وشمال نهر الدانوب وتمثّل اليوم بأجزاء كبيرة من ألمانيا، وهي لم تقع يومًا تحت السيطرة الرومانيّة. وللإطلاع جغرافيًا على هذه المنطقة، نرجو مراجعة الخريطة على صفحة ٨ (الناشر).

فإنه، وخوذة شيخ القبيلة تتلأأ على رأسه، قادَ عشيرته خارجَ مخبئها في غابة البسيسية الكثيفة، فيما اندفع محاربو قبيلة الشطي نازلين مُنحدر التل. كان معظم رجال القبائل، بشعرهم المُرخی المتموج، لا يلبسون أكثر من مُجرّد ساعم - عباءة قصيرة واقية مشدودة عند الكتف بدبوس بُرونزيّ بسيط - ويتسلحون فقط بترس من حديد وجلد وبرمخ فراميا. فرُعماء القبائل الأكثر غنى وحدهم كانوا يحملون سيوفًا ويعتَمرون خوذة.

رمى أترتيس رمحه وهو راكض، زاعقًا بصيحته الحريية. فاخترق الرُمح ذو الرأس الحاد نحرَ حاملِ شارة (علم) روماني، وجعل الشارة تسقط أرضًا. فالتقطها روماني آخر، ولكن أترتيس أسرع إليه وقصم ظهره بضربة واحدة من قبضتيه المكوّرتين. ثم انتزع الرُمح من القتيل، وطعن به جندياً آخر.

ركضت نساء القبائل مع الأولاد نازلين مُنحدر التل، وقعدوا يصرخون ويهتفون لمحاربيهم. لن تطول المعركة كثيرًا، لأنَّ عنصر المباغتة كان حسنةً وقتيةً فحسب. فما إن يُسيطر الرومان على الوضع، حتّى ينسحب المحاربون الجرمانيون. وقد علم هؤلاء أنَّ فرصتهم ضئيلة في معركة مُتطاولة مع قوأت روما المُدرّبة تدريبًا عاليًا. وفي أثناء الأشهر الأخيرة، استخدم رجال القبائل التكتيك الذي حقق النتيجة الفضلى: مهاجمة جناحي الجيش تكررًا، وإنزال ضربات سريعة، ثم الانسحاب حالما تبدأ المعركة بالانعكاس.

انكسر رمح أترتيس إذ أقحمه في درع قائدٍ مئة روماني. فأقسم بطيواز وأهوى بترسه على رأس أحد المهاجمين، فيما انتزع سيفًا قصيرًا (يُقال له غلادْيوس) من قائدٍ مئة ميت، مُتمكّنًا بالكاد من تجنب الضربات التي وجهها رومانيان آخران. وكان غير مُعتادٍ أن يُقاتل بسيف قصير، فعلم أنَّ عليه أن يتراجع قبل أن يُهزم.

وسرعان ما تبدد دُعرُ الفيلقِ الأولي. إذ توسّط المُتعاركين ضباطٌ يمتطون جيادهم، مُستخدمين سيوفهم وصائحين بأوامرهم. فتقاربت الصفوف من جديد، وشرع انتظام الرومان وانضباطهم يطغيان على مهاجميهم.

شاهد أترتيس أخاه فأرس يسقط أرضًا. فرجّح سيفه وبتّر ذراع روماني. ولما حاول الوصول إلى أخيه، هجم عليه روماني آخر، وواجه صعوبةً في البقاء حيًا حيال براعة الرجل باستخدام السيف القصير، وصدّ طعنةً بعد أخرى. ثم استخدم قوّة وحشية، ودفع بكامل وزن جسمه القويّ قائد المئة، فجعله يصطدم بثلاثة آخرين.

ثم سمع أباه يصرخ: "ظَهرك، يا أترتيس!" فانحنى برشاقة وهو يدور عاجلاً، رافعًا

بلاد الجرمان

وخافضاً السيف بسرعة، فكسّر عظم مهاجمه فيما هو يقطع صُعوداً مغينٍ فخذٍ المهاجم ويشقُّ بطنه. فزَعقَ الرَّجُلُ وسقطَ قبل أن يتمكّن أترتيس من سحب سيفه وتحريره.

عندئذٍ كان قائد المئة الذي أوقعه أترتيس قد نهض من جديد وتوجّه نحوه. فاندفع أترتيس بلا سيفٍ وأمسكَ بساقِ مهاجمه، وأسقطه أرضاً. ثمّ قفزَ على الرَّجُل، وأمسكَ برأسه، وشده شدّةً قويّةً كسرت رقبته. وانتزعَ السيفَ القصيرَ من أصابع القتيل، ثمّ هبَّ واقفاً وأهوى به على رومانيّ كان يسحب سيفه من جرمانيّ صريع. وقد أصاب أترتيس الرَّجُلَ في جانب عنقه المكشوف فاندفع منه نبع دمٍ طرطش وجه أترتيس. فأرخى السيف، وانتزع فرايما من جسم جنديّ قتيل وهو يفرُّ راکضاً.

لَمْ يستطع أن يرى خوذة أبيه المذهبة، وكانت القوّات الجرمانية تتضاءل فيما أعاد الجنود الرومان التجمّع وأطلقوا الفتك المنظم الذي اشتهروا به. وإذا بمركوبس، وذراعه اليسرى مرخيةً بلا نفع إلى جنبه، يصيحُ برجاله أن يتراجعوا. فعلى نقيض التفكير الرومانيّ، لم تر القبائل آيةً إهانةٍ في إخلاء الساحة عند تحوّل المعركة. وحذا رجال البتافي حذو أولئك، فانكفأوا، تاركين عشيرة أترتيس وراءهم عرضةً للخطر. فعلم أترتيس أن الحكمة تقضي بأن ينسحب رجال الشطبي إلى الغابات مع الآخرين، ولكنّ دمه كان فائزاً، ويده ما تزال قويّة. فهجمَ بسرعة على رومانيّين، مُطلقاً صيحته الحربية.

خرّ عمّ أترتيس صريعاً، إذ احترق صدره سهم رومانيّ. وحاول ابن عمّه زلف أن يصل إليه، فصرعه قائد مئة. فزَعقَ أترتيس ساخطاً، وضرب ضرباتٍ سريعةً ميمناً ويساراً، فجوف جانب خوذة جنديّ رومانيّ وجرح ذراع آخر جرحاً عميقاً. وكان كثيرون جدّاً من رجال القبائل يسقطون، ثمّ فازت الحكمة أخيراً. فصاح أترتيس بباقي أفراد عشيرته أن يتوجّهوا إلى الغابات. فتوزّروا في الغابة، وكان الرومان خلفهم مُحبطين وأسوأ تأهباً من أن يُطارِدوهم.

على بُعد نصف ميلٍ (نحو ٨٠٠م) أعلى التل، وجد أترتيس أخته مارتا على رُكبتيّها تُنظف جرح زوجها في كتفه. وكان أخوه بقربهما فاقد الوعي، وقد ضمّد جرح ساقه تضميداً مُحكماً وتوقّف نرف دمه.

كشّر أصيبي تالماً وهو يتلقّى إسعافات مارتا الرشيقّة الوثيقة. وقال: "أبوك!" رافعاً يده بإشارةٍ واهية.

اندفع أترتيس راکضاً بين الشجر، فالتقى أمّه ممسكةً بأبيه. كان أحد جانبيّ خوذة

أبيه معجوقًا والدّم يسيلُ على نُحاسِها المذّهب. فزَعَقَ أترِيسَ زَعَقَةً وحشيّةً وخرَّ رَاكعًا على رُكبتيه.

كانت أمه، بوجهٍ شاحبٍ ومُنقبِضٍ، مُنكبّتهً بانفعالٍ وقلبيّ على مُداواة جُرحٍ غائرٍ في بطن أبيه المكشوف. وبكت إذ دفعت أحشاءه إلى الداخل من جديد، وحاولت إقفال الجُرح، مُتوسّلةً: "هرْمُن، هرْمُن، هرْمُن...".

أمسك أترِيسَ بمعصمَي أمّه المضرّجين بالدّماء، مُثنيًا إيّاها عن جهودها المسعورة.
 "اتركيه!"
 "لا!"

واشدّت قبضتها إذ هزّها هزّةً أخيرة، قائلاً: "أمّاه! لقد مات. لا يُمكنك أن تفعلِي شيئًا بعد".

هدأت، ولانت مُقاومتها العنيدة. فأرخاها أترِيسَ، وأنزلت ببطءٍ يديها المضرّجتين على فخذَيْها مُرتحيتين. ثمّ أطبقَ أترِيسَ عيني أبيه المحملقتين، ووضعَ يديه على صدره الهامد. وقعدت أمّه ساكنةً تمامًا بضَعِ لحظات، ثمّ مالّت إلى الأمام ناشجةً، وجذبت رأسَ زوجها إلى حضنها. وبطّرفِ عباةٍ القصيرة، مسحت وجهه كما لو كان ولدًا صغيرًا.

قال أترِيسَ: "سأحمله إلى الآخرين". فأعلت أمّه كتفي هرْمُن، ورفّعه أترِيسَ عن الأرض. وبللت الدُموع وجهَ أترِيسَ الصُلب إذ تعثرت تحت وِزْنِ جِسمِ أبيه، وهوى على رُكبةٍ واحدة. فصرّ بأسنانه مُقاومًا الإعياء، ونهضَ ومشى باذلاً في كلِّ خطوةٍ جهدًا كبيرًا.

لما وصل إلى مكان أخته وأصيبي، أنزل أباه باعثناء ومدّده بجانب جُثتي دُلغا ورُلف اللتين استطاعت نساءً عائلته استرجاعهما. وبينما هو يتنفس بشدّة شاعرًا بالضعف يسري صاعدًا عبر عموده الفقريّ، أخذ التميمة المنقوشة - جالبة الحظ - التي كانت حول عنق أبيه، وأطبق يده بقوة على الصُورة الخشبيّة، وقد نُقشت هذه من سينديان البُستان المقدّس وحمت أباه في معارك كثيرة. وحاولَ أترِيسَ أن يستمدّ القوّة من التميمة، غير أنه شعرَ بيأسٍ عميق. خسرَ القومُ في المعركة، وتوّفي أبو أترِيسَ. وستؤول الرّعاية إلى أترِيسَ، إن كان قويًّا كفايةً للإمساك بزمامها. ولكن هل كان يُريدها؟

تبينَ زيفُ نبوّات فيليدا، العرّافة البرُكتيريّة التي كان تُقيم مُستترّةً في قلعتها، حيث لم يُبح لأبي إنسان أن يراها. فمع أن يُوليوس سيفيلس وتوّاره أهلكوا الفيالق الحدوديّة، فقد باتت

بلاد الجرمان

الثورة آنذاك أخذت في الإخفاق. وبعد سنة واحدة، لم تعد الحرية في متناولهم.

تبوأ فسبازيان عرش الإمبراطورية بعد مضي اثني عشر شهراً شهدت سقوط ثلاثة أباطرة. والآن، تحت إمرة دوميتيان، ابن الإمبراطور الأصغر، أرسلت ثمانية فيالق إضافية لمحاربة يوليوس سيفيلس. وكانت فيليدا قد تنبأت بأن حادثة دوميتيان ستهممه، غير أن الفتى وصل إلى الحدود على رأس فيالقه، بدلاً من الاختباء خلفهم. فإذ اكتسب شهرة بأنه تدرب محارباً، بدا عازماً على إثبات ذاته قائداً قديرًا مثل أبيه فسبازيان، وأخيه تيطس. وإذا باليافع الغرّ ماضٍ قدماً على درب النجاح.

هزّ دوميتيان القوّات الثائرة، وأسرهم. ثم أمر بأن يُعشر رجال يوليوس سيفيلس. فصُفّ الأسرى، وصُلب واحد من كل عشرة رجال. وإذا قيّد يوليوس سيفيلس وسيق إلى روما، أخذت وحدة القبائل التي أيّده بالتصدع. وبدأت جماعات تتشق. وسيق كثيرون من البتاقي أسرى. ومن قبيلة أتريتس ذاتها، بات واحد من كل ثلاثة رجال في عداد الأموات.

أحسّ أتريتس غضبه يشتد إذ نظر إلى أبيه. فقبل ثلاثة أسابيع فقط، كان زعيم الشطي قد طرح قطعاً من أعصاب سنديانة مقدّسة ولحائها على قماشة بيضاء. ولم يتمكن من قراءة علامة واضحة بواسطتهنّ، إلا أن الكاهن قال إن أصوات الصهيل والشخير التي أصدرها الحصان الأبيض أكّدت إحراز انتصار.

انتصار! أين كان ذلك الانتصار؟ هل انقلبت عليهم حتى ألهمتهم؟ أم أثبتت الآلهة الرومانية أنها أقوى من طيواز، إله الحرب الجبار؟

وبعدما حمل رجال قبائل آخرون موتاهم إلى القرية، اجتمعوا وأفادوا أن الرومان زحفوا شمالاً.

قطع أتريتس خشباً ليبيّن كوخ موت لأبيه، فيما ألبست أمه زوجها أفخر رداء فرو لديه، وأعدت طعام الجنازة. وقد حضرت أفضل ما عندهم من أوعية الفخار والطاسات والأطباق، بقر زوجها، مائة الأوعية بعصيدة الحنطة، والطاسات بنبيد الميد القوي. ووضعت على الطبق قطعاً كبيرة مشوية من لحم الغنم والخنزير. حتى إذا فرغت، أضرم أتريتس النار في كوخ الموت. وتأججت نيران أخرى متوهجة في الظلام.

قالت أمه: "فضي الأمر"، والدموع تجري على خديها. ثم وضعت يداً رقيقة على كتف أتريتس، قائلة: "ستجمع الرجال في البستان المقدس مساء غد".

علم أنّ أمّه افترضت أنه سيصير شيخ القبيلة، فقال: "الأمر بأيدي الكهنة".

"لقد اختاروك فعلاً، شأنهم شأن رجالنا. ومن أنسب منك؟ ألم يطيعوا أمرك بلا تردّد عندما تحوّلت وجهة المعركة؟ ثمّ إنّ رجال الشطّي كانوا آخر الذين غادروا الساحة".

"فقط لأنّ أبي قد صرع، وليس بفضل أيّة بسالة باهرة مني".

"ستكون الزعيم، يا أترتيس. لقد علم هرمن أنّ هذا اليوم سيأتي. ولهذا درّبك كما فعل، مُعاملاً إياك أقسى من أبنائه الآخرين. إنّ العلامات أفادتنا عند ولادتك أنّك ستصير قائداً عظيماً".

"لقد أخطأت العلامات من قبل".

"أمّا هذه المرّة، فلا. من الأمور ما ليس بالاختيار. ولا يسعك أن تُقاوم القدر. هل تذكر ليلة اصطحبك أبوك للمثول أمام المجلس وقدم إليك تُرسك ورمحك؟"

قال "نعم!" كايحاً حزنه وهو يُحدّق إلى السنة اللهب، وجثمان أبيه ظاهر للعيان فيما جدران الكوخ تنهار. ثمّ كور قبضته؛ فأخبر شيء أرادّه هو أسر الزعامة.

"تلك الليلة صرت رجلاً، يا أترتيس. وقد تقدّمت في الرّجولة منذ ذلك الحين. فإنّك قتلت عدوك الأوّل وأنت في الرابعة عشرة". وابتسمت فيما عيناها الزرقاوان تتألّان بالدموع. "لم تكّد تملك شارين تحلقهما فوق عدوك القليل، غير أنّك كسّطت وجهك حتّى انسلخ عملاً بتقليدنا".

ثمّ شدّت يدها عليه، قائلة: "وكنت في الخامسة عشرة لما أخذت أنيا عروساً لك، وفي السادسة عشرة لما فقدتها وهي تلد، وفقدت ابنتك أيضاً. وبعد سنتين انتصرت على غزاة من البركتيري، ومُنحت شرف نزع الخاتم الحديدي من إصبعك. وقد قال أبوك إنّك حاربت أفضل من أيّ مُحاربٍ آخر رآه يوماً. إنّه كان فخوراً بك". وأضافت مُتشبّته بذراعه: "وأنا فخورٌ بك!".

وخيم عليها الصمت حيناً، فيما ترقّق الدمع في عينيها وجرى على وجهها، وهي تنظر إلى السنة اللهب من جديد. وقالت: "كان لنا سلامٌ مُدّة سنتين".

"ثمّ جاء يوليوس سيفيلس وأخبرنا بشأن الثّورة في روما".

فقال، ناظرةً إليه مرّةً أخرى: "نعم، وعن فرصةٍ حرّية!".

"لقد اعتلى عرش روما فسبازيان، يا أمّاه".

بلاد الجرمان

”فسبازيان إنسان. وعندنا طيواز في صفنا. ألم تسمع نبوات فيليدا؟ إن الحريّة لن تأتينا هديّة، يا أترتيس. يجب أن نقاتل في سبيلها“.

مرّر أصابعه في شعره الأشقر رجوعاً، وحدّق إلى النجوم في العلاء. ليت له معرفة كاهن وفي وسعه أن يقرأ الجواب هناك، في السماوات! لقد أراد أن يُحارب حقاً. أراد ذلك إرادة جعلت عضلاته تشتد وتصلب، وقلبه يخفق خفقاً أسرع. وكان يشعر بأنه أوفر حياةً وحيويّة حين يكون في ساحة الحرب، مُقاتلاً لأجل النّصر، وللحفاظ على حياته بالذات. ولكن بصيفته زعيماً، ستكون عنده أمور أخرى يُفكر فيها، وأشخاص آخرون يُعنى بهم.

”ولمّا كنت ولداً، حلّمت بمغادرة القبيلة والانضمام إلى حاشية مُركوبس“. قالت أمّه هذا بهدوء.

فرمّقها أترتيس بنظرة تعجب. هل كانت تعلم كل ما في فكره؟

ومست وجهه برقّة. ”لم تُفصح عن ذلك قطّ وفاءً لأبيك، ولكنه كان يعلم مثلي أيضاً. أترتيس، إن لك مصيراً آخر. لقد استطلعت العلامات عند ولادتك. ستقود شعبك إلى الحريّة“.

فقال بانقباض: ”أو إلى الموت“.

قالت برزّانة: ”كثيرون سيّموتون. وأنا منهم“.

فقال: ”أمّاه“، ولكنّ يدها اشتدّت على ذراعه، مُسكِتة إياه.

”هكذا سيكون. لقد رأيت ذلك“. وتغيّمت عيناها الزرقاوان وصار القلق يُستشّف منهما. ”سيصير اسمك معروفاً في روما. ستُحارب كما لم تُحارب قبلك رجل آخر في قبيلة الشطّي، وستنتصر على كلّ عدو“. وقد كان صوتها غريباً ونائياً. ”ستأتي عاصفة تهب على الإمبراطوريّة كلّها وتُهلكها. ستأتي من الشّمال والشّرق والغرب، وأنت ستكون جزءاً منها. وهناك امرأة. امرأة سوداء الشعر وسوداء العينين - امرأة ذات طُرق غريبة، ستُحبّها“. ثمّ سكّتت، وعيناها تطرفان كمنّ يستيقظ من سُبات عميق.

خفق قلب أترتيس بسرعة. لقد رأى أمّه على هذه الحال مرّات قليلة من قبل، وكلّ مرّة سرّت البرودة في قعر معدته. لو كانت امرأة أخرى، لأهمّل كلامها كأنه صادر من أمّ تحلم بالعظيمة لابنها. ولكنه ما كان ليستطيع ذلك، لأنّ أمّه كانت رائبة وعزّافة مُحترمة، يُوقرها بعضهم كما لو كانت إلهة.

ثُمَّ انْضَحَتْ تعبيراتُ وجهها. فأخرجتْ نَفْسها وابتسمتِ ابتسامَةً باردة. وقالت: "عليك أن تستريح، يا أترتيس. عليك أن تستعدَّ لما ينتظرك". ونظرتْ بعيداً إلى جَمْرِ كوخ الموت المتوهج. "تكادُ النارُ تخبو. اتركني وحدي مع هرمن". قالت ذلك برقة، ووجهها كالذهب في ضوء النار المترجرج.

مضتْ ساعاتٌ قبل أن يستطيعَ أترتيس النُّوم. ولما نهضَ عن فراشه المحشوقشاً عند الفجر، وخرج من البيت المستطيل، شاهدَ أمه تجمَعُ عظامَ أبيه من بين الرَّماد وتضعُها في وعاءٍ خزفيٍّ للدَّفن.

مات أربعةٌ رجالٍ آخرين من جراح المعركة قبل أن تبلغَ الشمسُ ساعةَ الضُّحى، وعكفَ أهلهم على بناءِ أكواخٍ مَوْتٍ أخرى.

بُلِّغَ أترتيس أنَّ فارًّا اعتقل، فعَلِمَ أنَّ رجالَ القبيلة يتوقَّعون منه أن يترأسَ المجلس. وقد علم ما ينبغي أن يفعل، إلاَّ أنَّ إصدارَ حكمٍ على رجلٍ - حتى لو كان شخصاً مثل واعست - آثارَ استياءه.

اجتمعَ الرجالُ في بُستانِ السَّنديان، حيثُ المجلسُ الأعلى قُربَ الشَّجرة المقدَّسة. وكان هواءُ الليلِ بارداً ورطباً، وأصواتُ الضَّفادع والبُوم تتردَّدُ أصداؤها غريبةً ومُخيفةً حولَ الرجالِ المُجتمعين. واحتلَّ أترتيس مَوْضِعاً وضيعاً، مُتمنِّياً، إلى حدِّ بعيد، أن يتولَّى الرئاسةَ رُدَّ أو هُلتَ بدلاً منه. فهما كانا رجلين مُقتدرين، أكبرَ منه سنًا.

أُخرجَ عُندرد، الكاهنُ، الأصنامَ من جذعِ السَّنديانة المقدَّسة المُجَوَّف، وعلَّقها على الأغصانِ السُّفلى. وفيما هو يَتميمُ رُقى وصلوات، أزالَ الغِطاءَ عن القرنينِ الذهبيَّين ورفعهما عاليًا، وكانا مُزيَّتين برموزٍ منقوشة.

لَمَّا أنزلَ الكاهنُ هذا العُنصرَ المقدَّس، ظلَّ أترتيس بلا حراك. وانتقلتْ عينا الكاهنِ الزُّرقاوان الباهتتان ببطءٍ من رجلٍ إلى الذي يليه، ثُمَّ استقرَّتَا على أترتيس. فابتدأ قلبُ أترتيس يخبط. وتوجَّه الكاهن نحوها، فأحسَّ العرقُ يتصبَّبُ من جلده. فالكهنةُ والزُّعماءُ وحدهم كان مسموحًا لهم بمَسِّ الأصنامِ المقدَّسة والقرنينِ العظيمين. ولَمَّا ناوله الكاهنُ إِيَّاهما، رأى منقوشًا على أحدهما صورةَ رجلٍ بثلاثة رؤوس يحملُ فأسًا، وحيَّةٌ تحتضنُ صغارها. وقد ظهرَ على القرن الآخر رجلٌ حاملًا منجلاً وجارًا ماعزًا. كان أترتيس يعلمُ أنَّه إذا مسَّ القرنينِ المقدَّسين فقد أعلنَ ذاته بصفته الرُّعيم الأعلى الجديد. وكان الرجالُ قد أخذوا يُطلقون الهتافات ويرفَعون رماحهم تهنيتًا.

بلاد الجومات

سَكَنَ أَتْرَيْتِسُ أَصْصَابَهُ، وَوَضَعَ رَمَحَهُ عَلَى الْأَرْضِ بِقُرْبِهِ، وَمَدَّ يَدَيْهِ شُكْرًا عَلَى كَوْنِهِمَا ثَابِتَتَيْنِ. وَإِذْ تَحَلَّى الْكَاهِنُ عَنِ الْوَتْنِ الْمُقَدَّسِ لِأَتْرَيْتِسِ كِي يُحَافِظَ عَلَيْهِ، نَهَضَ الزَّعِيمُ الْجَدِيدُ رَافِعًا الْقَرْنَيْنِ عَالِيًّا. فَأَعْلَى الرِّجَالُ هُنَافَاتِهِمْ، وَهَزُّوا رِمَاحَهُمْ مُصَوِّتِينَ بِمَوَافَقَتِهِمْ. وَصَرَخَ أَتْرَيْتِسُ إِلَى طِيَوَازٍ، فَتَرَدَّدَتْ فِي الْغَابَاتِ أَصْدَاءُ صَوْتِهِ الْعَمِيقِ.

أَشْعَلَ الْكَاهِنُ مَجَامِرَ الْبُخُورِ، فِيمَا حَمَلَ أَتْرَيْتِسُ الْقَرْنَيْنِ إِلَى الْمَذْبَحِ. وَلَمَّا وَضَعَهُمَا هُنَاكَ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ لِيَتَقَبَّلَ بَرَكَاتِ الْكَاهِنِ الْأَعْلَى. فَتَضَرَّعَ غُنْدَرِدُ إِلَى طِيَوَازٍ أَنْ يَهْدِيَ زَعِيمَ الْعَشِيرَةِ الْأَعْلَى الْجَدِيدِ، وَأَنْ يَمْنَحَهُ الْحِكْمَةَ وَيُعْطِي ذِرَاعَهُ الْمُحَارِبَةَ الْقُوَّةَ. وَأَحْسَ أَتْرَيْتِسُ وَجْهَهُ وَجِسْمَهُ يَسْتَخِنَانِ عِنْدَمَا صَلَّى الْكَاهِنُ طَالِبًا لَهُ أَنْ يُرْزَقَ زَوْجَةً وَأَنْ يَكُونَ قِرَانَهُمَا مُثْمِرًا. عِنْدَمَا فَرَّغَ غُنْدَرِدُ، نَهَضَ أَتْرَيْتِسُ وَأَخَذَ الْخَنْجَرَ الَّذِي قُدِّمَ إِلَيْهِ. وَبِضْرِبَةٍ سَرِيعَةٍ، شَقَّ عِرْقًا فِي مِعْصَمِهِ. وَوَسَطَ الشُّكُونِ الْمُخَيِّمِ، مَدَّ ذِرَاعَهُ وَأَرَاقَ دَمِهِ عَلَى الْقَرْنَيْنِ الْمُقَدَّسَيْنِ قُرْبَانًا.

نَاوَلَهُ غُنْدَرِدُ خِرْقَةً بِيضَاءَ كِي يُوَقِّفَ سَيْلَ دَمِهِ. فَلَفَّهَا أَتْرَيْتِسُ بِأَحْكَامٍ، ثُمَّ حَلَّ الْحَزَامَ الْجِلْدِيَّ الرَّقِيقَ الَّذِي كَانَ يَضُمُّ صُرَّةً صَغِيرَةً عَلَى خِصْرِهِ. وَكَانَتْ أُمُّهُ قَدْ أَعَدَّتْهَا لَهُ قُرْبَانًا لِلْأَلِهَةِ. فَمَا إِنَّ سَكَبَ الْكَاهِنُ مُحتَوَى الصُّرَّةِ فِي الْمِبْخَرَةِ، حَتَّى طَلَعَ لَهَا بُضْبُئِيلُ ثُمَّ انْفَجَرَ أَلْوَانًا حَمْرَاءَ وَزَرْقَاءَ زَاهِيَةً، شَهَقَ عَلَى أَثَرِهَا الرُّجَالُ بِذَعْرِ.

تَمَائِلَ غُنْدَرِدُ وَأَنَّ إِذْ عَبَقَ الْهَوَاءُ بِرَائِحَةِ طَيِّبَةٍ ذَكِيَّةٍ. وَلَوَّحَ بِيَدَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، مُتَعَبِّدًا، مُتَكَلِّمًا بَلُغَةً لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا طِيَوَازٍ وَالْأَلِهَةَ الْغَابَاتِ. وَوَضَعَ الْكَهَنَةُ الْآخَرُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَتْرَيْتِسِ، مُقْتَادِينَ إِيَّاهُ نَحْوَ الْمَذْبَحِ مِنْ جَدِيدٍ، حَيْثُ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَبَّلَ الْقَرْنَيْنِ فِيمَا جَرَّحَ الْكَهَنَةُ أَنْفُسَهُمْ بِسَكَكِينٍ مُقَدَّسَةٍ وَأَرَاقُوا عَلَيْهِ دِمَاءَهُمْ مُبَارِكِينَ.

تَسَارَعَتْ دَقَّاتُ قَلْبِهِ بِشِدَّةٍ، وَتَلَاحَقَتْ أَنْفَاسُهُ بِسُرْعَةٍ. وَجَعَلَتْ رَائِحَةُ الْبُخُورِ الذَكِيَّةِ رَأْسَهُ يَهِيْمُ بِرُؤْيٍ وَحُوشٍ مُجْنَحَةٍ وَأَجْسَادٍ بَرُونَزِيَّةٍ مُتَلَوِّبَةٍ، مَحْبُوسَةٍ دَاخِلَ أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ الْمُقَدَّسَةِ فِي قِتَالٍ حَتَّى الْمَوْتِ. فَأَرَجَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ بِسُرْعَةٍ، وَزَعَقَ زَعَقَةً وَحْشِيَّةً، وَقَدْ تَعَاظَمَتِ الْحَمَاسَةُ فِي دَاخِلِهِ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيَنْفَجِرُ. ثُمَّ دَوَّى صَوْتُهُ الْعَمِيقُ فِي أَرْجَاءِ الْغَابَةِ الْكَثِيفَةِ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا.

تَقَدَّمَ غُنْدَرِدُ إِلَيْهِ، وَلَمَّا وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ كَانَتْ كَالنَّارِ. ثُمَّ أَمَالَ رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَمَحَ بِأَنْ تُوَسِّمَ الْعَلَامَةَ عَلَى جَبْهَتِهِ. وَقَالَ لَهُ غُنْدَرِدُ "إِشْرَبْ!" مُقَرَّبًا طَاسًا فَضِيًّا إِلَى شَفْتَيْهِ. فَتَجَرَّعَهُ أَتْرَيْتِسُ، وَقَدْ تَبَاطَأَ حَبْطُ قَلْبِهِ الرَّاعِدُ إِذْ تَدَوَّقَ خَلِيطَ نَبِيذِ الْمِيدِ وَالِدَمِّ الْقَوِيِّ.

لَقَدْ تَمَّ الْأَمْرُ. وَهُوَ الْآنَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ الْجَدِيدِ.

ثُمَّ نَهَضَ، وَاحْتَلَّ مَقَامَ الشَّرْفِ، وَبَوَّجَهُ مُتَجَهِّمٌ بِأَشْرَ مَهْمَتِهِ الْأُولَى: إِعْدَامِ وَاحِدٍ مِنْ أَقْدَمِ أَصْدِقَائِهِ.

جُرَّ وَاعْغَسَتْ إِلَى أَمَامِ الْمَجْلِسِ، وَطَرِيحٌ قُدَّامَ أُتْرَيْتِسَ. وَقَدْ تَصَيَّبَ وَجْهَ الْقَبْلِيِّ الشَّابِّ عَرَقًا، وَأَخَذَ فَمُهُ يَهْتَزُّ بِعَصِيْبَةٍ. وَإِذْ شَاهَدَ أُتْرَيْتِسَ صَدِيقَهُ وَاعْغَسَتْ، تَذَكَّرَ أَنَّ وَاعْغَسَتْ قَدْ تَسَلَّمَ تُرْسَهُ وَرَمَحَهُ قَبْلَهُ هُوَ بِشَهْرٍ وَاحِدٍ.

صَرَخَ وَاعْغَسَتْ يَائِسًا: "لَسْتُ جَبَانًا! لَقَدْ خَسَرْنَا الْمَعْرَكَةَ! أُتْرَيْتِسَ، رَأَيْتَ أَبَاكَ يُصْرَعُ. وَكَانَ رِجَالُ الْبَتَّافِيِّ يَفْرُونَ إِلَى الْغَابَاتِ."

"لَقَدْ اسْقَطْتُ تُرْسَهُ"، قَالَ رُدُّ ذَلِكَ وَوَجْهَهُ الْقَاسِي الْخَلِيقِ بَرُونِزِي وَرَافِضُ لِلْمَسَاوِمَةِ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ جَرِيْمَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ رَجُلٌ مُتَّهَمًا بِهَا أَحَطًّا مِنْ تَلِكِ، مَهْمَا كَانَ شَابًّا أَوْ غَيْرًا.

فصاح وَاغْغَسَتْ: "لَقَدْ انْتَرَعَ مِنْ يَدَيَّ! أَقْسِمُ عَلَى ذَلِكَ!"

وسأله أُتْرَيْتِسَ: "هل حاولت استرجاعه؟"

فسرحت عينا وَاغْغَسَتْ بعيدًا، وقال: "لم أستطع الوصول إليه".

هَمَّهِمَ الرِّجَالُ بِرَفْضِهِمْ ادِّعَاءَ وَاعْغَسَتْ. وَحَدَّقَ رُدُّ إِلَيْهِ بِأَشْمِئزاز، وَعَيْنَاهُ الزَّرْقَاوَانُ تَقْدَحَانِ شَرَّرًا. "رَأَيْتُكَ بِنَفْسِي هَارِبًا مِنَ السَّاحَةِ مِثْلَ كَلْبٍ مَذْعُورٍ". ثُمَّ صَاحَ بِأُتْرَيْتِسَ وَالْمَجْلِسِ: "عِقَابُ الْجُبْنِ مُقَرَّرٌ، وَلَا تَأْجِيلَ لَهُ. إِنَّ قَانُونَنَا يَطْلُبُ مَوْتَهُ!"

لَوْحَ أَفْرَادِ الْقَبِيلَةِ بِسُيُوفِهِمْ، وَإِنْ كَانَ بِحِمَاسَةٍ غَيْرِ شَدِيدَةٍ. فَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ اسْتَسَاغَ إِعْدَامَ رَجُلٍ مِنْ عَشِيرَتِهِمْ. وَلَمَّا رَفَعَ أُتْرَيْتِسَ سَيْفَهُ، تَقَرَّرَ الْحُكْمُ. وَحَاوَلَ وَاعْغَسَتْ أَنْ يَفِرَّ سَرِيعًا، مُتَرْتِّحًا وَرَافِسًا الرِّجَالَ الَّذِينَ حَاوَلُوا الْوَصُولَ إِلَيْهِ. ثُمَّ جُرَّ، وَهُوَ يَسْتَرْحِمُ صَارِحًا، إِلَى حَاقَةِ مُسْتَنْقَعٍ. فَانْغَرَزَ عَقْبَاهُ فِي الثَّرْبَةِ اللَّيْنَةِ، وَجَاهَدَ بَعْنَفٍ، نَاشِجًا وَمُتَوَسِّلًا. وَسَعِمَ أُتْرَيْتِسَ فَاسْقَطَهُ أَرْضًا بِقَبْضَتِهِ. ثُمَّ رَفَعَهُ عَالِيًا وَطَرَحَهُ فِي الْوَحْلِ بِنَفْسِهِ. وَأَلْقَى شَيْخَانٍ فَوْقَهُ حَاجِرًا ثَبَّتَاهُ بِعَمُودَيْنِ طَوِيلَيْنِ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَهُ عَالِقًا فِي الْمُسْتَنْقَعِ.

كَلَّمَا تَخَبَّطَ وَاعْغَسَتْ تَخَبُّطًا أَشَدًّا، تَسَارَعَ غَرْقُهُ. وَلَمَّا غَاصَ رَأْسُهُ، مَدَّ يَدَهُ لِلتَّمْسُكِ بِأَيِّ شَيْءٍ. فَسَحَبَ أَحَدَ الشَّيْخَيْنِ الْعَمُودَ بِسُرْعَةٍ وَطَرَحَهُ جَانِبًا. وَحَذَا الْآخَرَ حَذْوَهُ. فَتَشَبَّثَتْ أَصَابِعُ وَاعْغَسَتْ الْمُوحَلَّةُ بِالْحَاجِرِ. وَأَخِيرًا ارْتَحَتْ وَانزَلَتْ، فِيمَا تَصَاعَدَتْ بِضِعِّ فِقَاقِيعِ آخِرِيَّةٍ إِلَى السُّطْحِ.

بلاد الجرمان

وقَفَ الرَّجَالُ صامتين. ليس في مِيتَةِ كهذه أيُّ انتِصار. فالموتُ تحتَ سيفِ رومانيٍّ أفضلُ من الضَّياعِ في خِزْيِ المُستَنقَعِ ونسيانِهِ الفاسد.

أنكفأ أترتيس إلى الرجلِ الموحشِ الأشيبِ الواقفِ وحدَهُ جانبًا. ووضعَ يده على كَتِفِ هَرِغاستِ وأمسكها بشدَّة، قائلاً: ”أنتَ صديقُ والدي. ونحن جميعًا نعلمُ أنكَ رجلٌ شريف، ولا نلومُك على حُجُبِ ابنِكَ“. فارتعشَ وجهُ الرجلِ الصُّلبِ، ثمَّ سكنَ وفارقتِ العاطفةُ قَسَماتِهِ. وشعرَ أترتيسُ بالشفقة، إلاَّ أنَّه لم يُبدِ سوى الاحترام، قائلاً: ”أهلاً بكَ حولَ ناري!“ ثمَّ غادرَ المُستَنقَعِ، وتبعه الآخرون.

إنما هَرِغاستُ فقط تخلفَ عنهم. ولما مَضُوا جميعًا، قعد القُرُفصاءُ وأسندَ جبينَهُ على رُمحِهِ، وبكى.

كان سَقِيرُسُ ألبائسُ ماجوريان قد حاربَ هذه القبيلةَ الجرمانيةَ العنيفةَ من قبل. فعلى مدَّةِ الشهرينِ الأخيرين، كان رجالها قد تعقبوا فيالقَ رومانيَّةٍ شتى، شائِنِ هَجَماتِ مُباغِتَةٍ يتوارونَ على أثرها حالاً بعد أن يكونوا قد نزعوا مقداراً وافراً من صفوفِ الأعداء، كأنَّهم سحابةٌ مهلكة. حتَّى إنَّ القائدَ الرومانيَّ - رُغمَ كونه قد تَوَقَّعَ بالفعل هجوماً من قِبَلِ رجالِ القبائلِ الجرمانيينِ وحسبَ حسابِهِ تماماً- أذهلته الضراوة التي كان يواجها الآن.

ما إنَّ سمعَ سَقِيرُسُ صيحةَ الحرب، حتَّى أصدرَ إشارةً شَنُّ هُجُومِ مُعاكِس. فهؤلاءِ الجرمانيونَ الممقوتون كانوا يلعبون لعبةً لا إنصافَ فيها، مُنزِلين ضريبتهم مثل أفعى سامَّةٍ تَظهُرُ من لا مكان ثمَّ تنسلُّ بسُرعةٍ لتتوارى في جُحرِها. والطريقةُ الوحيدةُ لِقَتْلِ أفعى هي أن يُقطعَ رأسها.

انتقلَ الفُرسانُ إلى مواقعهم بعيداً عن أعينِ الرُقباء. وباشرتِ الصُفوفُ دورها الذي تدرَّبَت عليه. وإذ شرعَ حشدُ المحاربين العُراة يركضون من بين الأشجار، حدَّدَ سَقِيرُسُ الذي كان يركضُ أمامَ سربِ ذئابه، وشعره الأشقرُ يتطايرُ وراءه مثل راية. فصعقَ الغضبُ الشديدُ أوصالَ الجنديِّ، ثمَّ حلَّ محلُّه في الحال تقريباً عزمٌ هائل. لا بُدَّ أن يَعْتَقِلَ ذلكَ الهَمَجِيَّ الشابَّ ويُقيِّده بالسلاسل. فساقَ فرسه إلى الأمام، صائحاً بمزيدٍ من الأوامر.

اندفعَ الهَمَجِيَّ الشابُّ مُباشرةً نحو قلبِ الفيلقِ، مُستخدِماً رُمحهُ المدمَّى ببراعةٍ فائقة جعلتَ رومانَ الصَّفِّ الأماميِّ يتراجعون مذعورين فراراً منه. وبِيسالة، أعطى سَقِيرُسُ إشارةً أخرى، فأصدرتِ الأبواقُ أمراً جعلَ الفُرسانَ الرومان ينفكثون عن مُطاردةِ القبليِّين وينضمُّون

إلى الصُفوف مُجدِّداً. وبعد استيعاب الهجوم الأوَّلِيّ، تراصَفَ الرُّومان من جديد وتماسكوا، مُتقدِّمين لتلقِّي ما يَمَكُنُ أن يأتيه الهَمَجِيُّون، مُستدرِّجين إياهم بذلك إلى فَخِّ الفَيْلق.

دخل سَقِيرُس مُطمئناً فرسه إلى وسط المُتقاتلين، مُلوِّحاً بسيفه يميناً ويساراً، وهو يعرف من أساليب القتال الجِرمانيَّة ما يكفي لجعله يُدركُ أن لديه بِضَعُ دقائق فقط قبل توجُّهِ رجال الكمين إلى الغابة. فإن أفلتوا من جنود الفَيْلق، يتوارون مُجدِّداً ليعودوا إلى الهجوم في ما بعد. إنَّما في تلك اللحظة عينها أدرك سَقِيرُس أن قائدهم تنبَّه إلى الفخَّ وبدأ يصيحُ برجاله.

دوى صوت سَقِيرُس، وهو يُسرِّعُ فرسه، قائلاً: "أمسكوا العِملاق!" وانحنى لحظة كاذ فرامياً يصيب رأسه. وإذ شَرَطَ بسيفه مُهاجِماً آخر، شتم. "العِملاق! أمسكوه! العِملاق!"

صَفَرَ سَقِيرُس صَفرةً حادَّة، مُصدِّراً إلى رجاله مرَّةً أُخرى إشارة الانسحاب. وقد سقط رُدَّ بسهم في ظهره، وصاح هُلت بالآخرين صياحاً مسعوراً. فشقَّ بعضُ طريقهم بين الصُفوف، ولكنَّ أترتيس علق. فأقحم رأس رُمحه في أحد الجنود، وأعلى طرفَ قناته تحت ذقنِ جُنديٍّ آخر هاجمه من وراء. وقبل أن يتمكَّن من انتزاع الرُّمح، صدمه آخرٌ في ظهره صدمةً قويَّة. فانساق بذلك الرُّخم، وهو قابضٌ على رمحه. وتدحرج وهبٌ واقفاً على قدميه، مُحرِّراً سلاحه ومُدخِلاً رأس رُمحه الحادَّ جدًّا في بطنِ أحد المُهاجمين.

ثمَّ لمح بريقاً إلى يمينه فمال، وأحسَّ ألماً حادًّا لاسعاً من جرح سيفٍ في كتفه اليمنى. وكان ضابطٌ من الفرسان يسوقُ حصانه نحوه صائحاً. وأحاط به ستَّةُ جنود أطبقوا عليه.

صاح أترتيس صيحةً حرب ضارية، واندفع نحو أصغرِ جُنديٍّ مُقبِلٍ إليه، فأحدثَ فجوةً كبيرةً في جانبِ خوذته، ثمَّ شقَّ أعلى فخذه. وإذ هجم عليه جُنديٌّ آخر، انحنى انحناءً حادَّةً ودارَ رافساً بعقبه وجهَ الجُنديِّ. واندفع الضابطُ الرُّومانيُّ بفرسه إليه مُباشرةً، ولكنَّه استطاع أن يتدحرج ويقفَ على قدميه مُسرِّعاً، وإذ لَوَّح بيديه عاليًا أطلقَ صرخةً حادَّةً صادحةً جعلتُ جوادَ الضابطِ يتراجع. فتفادى أترتيس من حوافره، واستعاد رمحه.

تراجَعَ الرُّومان حالماً عاد رُمحُ الشطِّيِّ إلى يده. وإذ كافح الضابطُ للسيطرة على حصانه، صاح عاليًا مُصدِّراً الأوامر إلى جنوده، وقد احمرَّ وجهه من الغضب الشديد.

لَم يجد أترتيس سبيلاً إلى الفرار، وعقدَ عزمه على أن يأخذَ معه كلَّ ما أمكته من الجنود الممقوتين. فكشَّر عن أسنانه، وأخذَ يترجِّع دائراً، مُنتظراً الهجوم. ولَمَّا تقدَّم جُنديٌّ إلى الحلقة، واجهه مُسكاً الرُّمحَ بكلتا يديه. فأزاح الجُنديُّ سيفه وانتقلَ دائراً إلى اليمين، فيما استدعى الآخرون شجاعتهم. وهجمَ الرومانيُّ أولاً، فتفادى أترتيس من ضربة السيف

بلاد الجرمان

بسهولة، وبصقَ على وجه الرجل قبل دفعه بعيداً. فثار غيظُ الجندي، وهجمَ من جديد. وإذ كان أترتيس يتوقَّع ذلك، أدار رُمحَه وسدَّد بطرفه ضربةً شديدة إلى صُدغِ الجندي غير الحكيم. وما إن هوى الجندي، حتَّى شقَّ أترتيس بسُرعةٍ وريدَ عنقِ الرَّجُلِ المنطرح. فنَتَرَ جسدُ الجندي نترًا شديدًا، لكنَّ وجيزًا، ومات.

وأقبلَ على أترتيس جنديٌّ آخر، مُرَّحًا سيفه. فراغَ جانبًا ودار، مُتوقِّعًا طعنةً في ظهره من سيفِ أحدِ الرُّجالِ المُحيطين به من كَثَب. ولكنها لم تأت. فكأنَّما أرادَ أولئك الرومانُ أن تكونَ آخرُ عمليةٍ قَتَلِ يقومون بها كفاحًا مريًا.

أعيقَ الجنديُّ الثاني سريعًا بجرحٍ بليغٍ في عَرَضِ فخذه. وكاد أترتيس يقتله لو لم يدخلَ آخرُ الحلقة ويصدِّ طعنةَ الرمح. ولَمَّا جُرَّ الجريحُ إلى الوراء، واجهَ أترتيس عدوًّا ثالثًا، فعاجله بطعناتٍ حادةٍ سريعةٍ وأجبره على التراجع. فانفردتِ الحلقةُ ثُمَّ أَطَبَقَتْ من جديد بسُرعة. وإذا بالرومانيُّ الذي يُواجه أترتيس يهوي بترسه بقوةٍ فيرثُ على سِنانِ الرُّمَحِ المعدنيِّ الطويل، مُرَّحًا سيفه في الوقت نفسه. فانحنى أترتيس انحناءً حادًا ودارَ لولبيًا، وأصابَ بقناةِ رمحه الطويلة قفا رأسِ الرَّجُلِ. فسقطَ الجنديُّ أرضًا، وتعرَّفَ وجهه بالثراب، ولم يُحرِّك ساكنًا.

استشاطَ الرُّجالُ غيظًا، وصرخوا ساخطين، وشجَّعوا اثنينِ آخرينِ وهم يتحدون هذا الهمجيَّ. وحادَ أترتيس برشاقةٍ فائقةٍ حتَّى اصطدمَ أحدهما بالآخر. فركلَ الغبارَ عليهما وبصقَ ضاحكًا. إن كان لا بُدَّ أن يموت، فليمُتْ وهو يهزأ بأعدائه.

كان سفيروس، وهو مُنفرجُ الساقين على ظهر جواده الأسود، يراقبُ الجرمانِيَّ الشابَّ مُقاتلًا. فعلى الرُّغم من تطويق الجنود له، وحتميةَ موته، سَخِرَ بمهاجميه جهراً. وبينما سفيروس يُراقب، رجَّحَ العِملاقُ سيفه في دائرةٍ واسعة، مُقهِّقها فيما الجنودُ الرومان يتراجعون. ولَمَّا تحداه آخر، عامله على عَجَل، مُستعملاً رُمحَه الطويل مثل سيفٍ وهراوة معاً. ثُمَّ خطا فوقَ الرَّجُلِ الساقط أرضًا، حاملاً السلاح بكِلتا يديه ومكشَّراً بشراسة، مُهدِّداً الآخرين بسُخريَّةٍ مُبرِّراً بتلك اللُّغة الهمجيَّة التي لا يستطيعُ أن يفهمها إلا قِبَلِيَّ جرمانِيَّ. ولَمَّا أَقبلَ عليه مُتحدِّدًا آخرُ بعدُ، حادَ بسُرعةٍ فائقةٍ جعلتِ الجنديَّ يُجاوزه تمامًا. وحاولَ الرَّجُلُ أن يكبح نفسه، ولكنَّ الأوان كان قد فات. فإنَّ الهمجيَّ سدَّد بطرفِ الرُّمَحِ ضربةً قويَّةً إلى خُوذةِ الجندي، ثُمَّ أدار الرُّمَحَ حالاً ليشرطَ الرُّقبةَ المكشوفة بلا شفقة.

صاح سفيروس ساخطًا: "كفى هذا! هل تنوون أن تموتوا واحدًا فواحدًا؟ اطرحوه

أرضًا! ولما دخل الحلقة ثلاثة جنود، عاقدين العزم على سفك دم الجرمانى الشاب، صاح القائد ثانية: "أريدُه حيًّا!"

مع أن أتريتس لم يفهم الأوامر، عَلِمَ أنَّ شيئًا كان يتغيَّر من سيماء أوجه مهاجميه. فقد استخدموا سيوفهم لصدَّ ضرباته، ولكن ليس لردِّها. لعلَّهم تَوَّأ أن يُقوه حيًّا وقتًا كافيًا حتَّى يصلبوه. وإذا أطلق صرخةً غاضِبة، هجم عليهم بضراوة. إن كان الموت مُقبلاً عليه، فليستقبله وفي يديه فراميا.

أطبق عليه مزيّد من الجنود، وأخذوا يضربونه بثروسهم ضربًا عنيفًا. وأمسك أكبرهم الرُمح، فيما وضع آخرُ مُسطَّح سيفه على جانب رأسه. فصرخ إلى طيواز ساخطًا، وخفض فرامياه، ونطح بجبته وجهه عدوّه بشدَّة. وفيما هوى الرجل، اندفع أتريتس بقوةٍ مُجاوِزًا رجلين آخرين. ثم راعٍ من ضربةِ تُرس، ولكن قبل أن يتمكّن من رفع سلاحه مُجددًا أصابه مُسطَّح سيفٍ فأفقدَه الصَّواب لحظةً. ورفع قدمه مُسدِّدًا رفسةً شديدةً إلى مغينٍ فخذ أحد المهاجمين، ولكن أصابت ظهره ضربةٌ أخرى جعلت ركبتيه تنثنيان. ثم أوقعته ضربةً ثانية.

وعلى نحوٍ غريزي، انقلب وحاول الوقوف على قدميه مُجددًا، ولكن أربعة رجال أمسكوا بذراعيه وساقيه، وأرغموه على البقاء مُنظرًا فيما حاول آخر أن ينتزع الرُمح من قبضته المضمومة. وواصل أتريتس صراخه الضاربي وهو يُكافح ويُصارع. ثم ترجل القائد الرومانى ووقف فوقه. وأصدر أمرًا هادئًا، فوضع على صدغ أتريتس قفا سيفٍ غليظ وظلّ مُتشبِّهًا بالرُمح حتَّى فهرته الظلمة.

استيقظ أتريتس ببطء. وإذا فقدَ الحِسَّ حيًّا، لم يعرف أين هو. وكان بصره مضطربًا، ورائحة الدَّم والبول تملأ منخريه، بدلًا من أريج الغابة النقي. وقد كان رأسه ينبض، كما ذاق دمًا في فمه. وحاول أن ينهض، فلم يستطع أن يتحرك إلَّا قليلًا جدًّا، قبل أن تبثَّ خشخشة السلاسل وخزات ألم في صدغيه، وتعيد إليه إدراك هزيمته كاملاً. فخرَّ من جديد وهو يئنُّ. لقد خيبت نبوءة أمه أماله. فهي قالت إنَّ أيَّ عدوٍ لن يهزمه، ومع ذلك فما هو مُمدد هنا، مُقيَّدًا على لوحٍ من خشب بانتظار مصير مجهول. لقد خذل شعبه، وخذل نفسه.

"إن كُنَّا سنموت، فلنمُت أحرارًا!" هكذا هتف رجاله المُحاربون لما عرض عليهم الاختيار بين الانتقال بالقبيلة إلى الشمال ومواصلة الكفاح ضدَّ السيطرة الرومانية. وكم أله هذا التعهد بشدَّة الآن مُحدثًا غُصَّة في حلقه، لأنَّه لا هو ولا رجال القبيلة فكروا مرَّة في وقوعهم أسرى. فإذا كانوا لا يهابون الموت، اندفعوا إلى الحرب مُصمِّمين أن يقتلوا من أعدائهم

بلاد الجرمان

أَكْبَرَ عَدِدٍ مُمْكِنٍ . إِنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ مَصِيرُهُمُ الْمَوْتُ حَتْمًا . وَقَدْ اعْتَقَدَ أْتْرِيْتِسُ وَرِجَالُ قَبِيلَتِهِ أَنَّ أَجْلَهُمْ سَيُؤَافِيهِمْ فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ .

أَمَّا الْآنَ ، وَأْتْرِيْتِسُ مُدَدُّ وَمُقَيَّدٌ ، فَقَدْ اخْتَبِرَ ذُلَّ الْهَزِيمَةِ الَّتِي يَعْتَصِرُ الْأَحْشَاءُ . وَجَاهِدَ بِقُوَّةٍ لِلْإِفْلَاتِ مِنْ قِيودِهِ ، فَعُغِشِيَ عَلَيْهِ حِينًا . وَإِذْ نَهَضَ ثَانِيَةً بَعْدَ لِحْظَاتٍ ، انْتَهَرَ زَوَالَ الدُّوَارِ وَالْعَثِيَانِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ .

أَدَارَ رَأْسَهُ مُحَاوِلًا أَنْ يُحْمَنَ مَوْضِعَهُ . كَانَ فِي غَرْفَةٍ صَغِيرَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِأَزْنَادِ الْخَشَبِ الْغَلِيظَةِ . وَقَدْ تَسَرَّبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ دَاخِلًا مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ عَالِيَةٍ ، جَاعِلًا إِيَّاهُ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ جُزْئِيًّا حَيْثُ وَخَزَ الْأَلْمُ أَنْحَاءَ رَأْسِهِ . وَكَانَ مَشْبُوحًا ، وَمَرْبُوطًا عَلَى طَاوِلَةٍ كَبِيرَةٍ بِالسَّلَاسِلِ ، وَقَدْ نَزَعَ عَنْهُ حَتَّى سَاعُغُمَهُ . فَتَحْرُكُ بِيَطَاءٍ ، فَاحِصًا قِيودَهُ وَالْأَلْمُ يَلْسَعُ أَنْحَاءَ كَتْفَيْهِ وَظَهْرِهِ . وَلَمَحَ عِنْدئِذٍ حَوْلَ مِعْصَمَيْهِ وَكَاحِلِيهِ سَلَاسِلٌ قَصِيرَةٌ غَلِيظَةٌ مُوصُولَةٌ بِأَغْلَالٍ مِنْ حَدِيدٍ . ثُمَّ دَخَلَ الْغَرْفَةَ رَجُلَانِ .

فَنَهَضَ أْتْرِيْتِسُ قَلِيلًا ، هَارًا قِيودَهُ هَرًا عَنِيفًا . وَتَفَوَّهَ بِشَتِيمَةٍ قَصِيرَةٍ بَدِيئَةٍ أَهَانَهُمَا بِهَا . غَيْرَ أَنَّهُمَا وَقَفَا رَابِطِي الْجَأْشِ ، مُسْتَمْتِعِينَ بِانْتِصَارِهِمَا . كَانَ أَحَدُهُمَا يَرْتَدِي دِرْعًا فَاحِرًا وَعِبَاءَةً قِرْمِزِيَّةً ، وَيَحْمِلُ خُوْدَةً بَرُونِزِيَّةَ اللَّوْنِ تَحْتَ إِبطِهِ . وَعَرَفَ أْتْرِيْتِسُ أَنَّ ذَلِكَ الضَّابِطَ الْعَالِي الرُّتْبَةَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ وَقَفَ شَامِتًا عِنْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ الْآخَرُ يَلْبَسُ ثَوْبًا وَاسِعًا حَسَنَ النَّسِجِ يُسَمَّى تُنِكَا وَعِبَاءَةً سَفَرٍ دَاكِنَةً ، كِلَاهُمَا يَدْلَانِ عَلَى الثَّرَاءِ .

قَالَ سَفِيرُسُ مُكَشِّرًا ، وَهُوَ يَنْظُرُ مِنْ أَعْلَى فِي عَيْنِي الْمُحَارِبِ الشَّابِّ الزَّرْقَاوِينَ : ”أَهْ ، إِذَا اسْتَعَدَّتْ وَعَيْكَ . أَنَا مَسْرُورٌ إِذْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَيٌّ وَقَدْ اسْتَرَجَعْتَ بَعْضَ وَعَيْكَ . لَا بَدَّ أَنْ رَجَالِي يَرْغَبُونَ أَنْ يَرَوْكَ مُجَلَّدًا وَتُصَلَّبَ ، وَلَكِنَّ عِنْدِي لَكَ مَشْرُوعًا آخَرَ أَكْثَرَ تَرْيِيحًا“ .

لَمْ يَكُنْ أْتْرِيْتِسُ يَفْهَمُ اللَّاتِينِيَّةَ أَوْ الْيُونَانِيَّةَ ، وَلَكِنَّ أَسْلُوبَ الضَّابِطِ الْمُتَغَطِّسِ أَثَارَ طَبِيعَتِهِ الْمُتَمَرِّدَةِ . فَكَافَحَ الْقِيودَ بِشِدَّةٍ ، غَيْرَ مُكْتَرِبٍ بِالْأَلْمِ الَّتِي سَبَّبَتْهُ لَهْ .

”حَسَنًا ، مَا رَأَيْتُكَ فِيهِ ، يَا مَلْسِينَاَسُ؟“

فَرَدَّ التَّاجِرُ : ”إِنَّهُ يَدْمِدُمٌ مِثْلَ وَحْشٍ وَهُوَ كَرِيهُ الرَّائِحَةِ“ .

فَضَحِكَ سَفِيرُسُ ضَحْكَةً خَفِيفَةً وَقَالَ مُصَحِّحًا : ”انْظُرْ إِلَى هَذَا الْأَسِيرِ نَظْرَةً طَوِيلَةً جَيِّدَةً ، يَا مَلْسِينَاَسُ . اَعْتَقِدْ أَنَّكَ سَتَجِدُهُ يَفُوقُ الْمَأْلُوفَ ، وَالسَّعْرُ الَّذِي طَلَبْتَهُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ مُنَاسِبٍ“ .

اشْتَدَّ غَيْظُ أْتْرِيْتِسِ إِذْ اقْتَرَبَ التَّاجِرُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ وَأَخَذَ يَتَمَعَّنُ فِيهِ بِجَشَعٍ . وَلَمَّا مَدَّ الرَّجُلُ

يده ليلمسه، انتفض بقوة هزاً السلاسل هزاً عنيفاً. فما زاده تفجراً الألم في رأسه وكتفه إلا سُخْطاً شديداً. وبيصق على الرجل شامخاً "خنزير روماني فاسد!" مواصلاً المقاومة.

كشّر ملسيناس اشمزازاً، وأخرج من طية كُمه خرقه صغيرة، ومسح تنيكه بتأثق. "ليس الجرمانيون أفضل من الحيوانات، وبأي لسان همجي يبرير!"

أمسك سقيرس بالشاب من شعره، مرجعاً رأسه قسراً. "حيوان، نعم. ولكن يا له من حيوان! إن له وجه أبولو وجسم مارس". فانتفض الجرمانى بشدة، محاولاً أن ينشيب أسنانه في ذراع مُعذّبه. ودفع سقيرس رأس الشاب إلى الورا ثانياً، مُشدداً قبضته عليه هذه المرة.

"أنت تعلم جيداً، يا ملسيناس، أن نظرة واحدة إلى هذا الهمجي الشاب الحسن الخلق ستجعل نساء روما يهمن بالألعاب". ثمّ نظر إلى وجه ملسيناس المتورّد، وقال مُيلاً فمه بسخرية: "وبعض الرجال أيضاً، كما أعتقد، إن كان لي أن أحكم على أساس سيماء وجهك!"

زَمّ ملسيناس شفتيه تماماً. ولم يستطع أن يُحوّل نظره عن وجه المحارب الشاب. كان يعلم أن الجرمانيين عُنفاء، ولكن نظرة واحدة منه إلى عيني هذا المحارب الزرقاوين بثت رعدة خوف في بدنه. فهو لم يشعر بالأمان، حتى لو كان الشاب مُقيداً. وقد أثار ذلك جشعه. أه، إنما المال هو المال، و سقيرس كان يطلب ثروة ثمناً لهذا الأسير. "إنه جميل جداً، يا سقيرس، ولكن هل يمكن تدريبه؟"

ضحك سقيرس وأفلت شعر المحارب الأشقر: "تدريبه؟ كان يجب أن تُشاهد هذا الهمجي وهو يُقاتل. إنه الآن محارب أفضل من أي واحد أرسلته إلى ساحة المحاربين في آخر عشر سنين". ثمّ ازدادت ابتسامته انبساطاً. "لقد قتل أكثر من اثني عشر جندياً مُدرباً في الدقائق القليلة الأولى من المعركة. وقد استلزم الأمر أربعة جنود مُتمرسين لتثبيتته أرضاً. لم يستطيعوا انتزاع ذلك الفراميا القنّاك من يده، قبل أن يصرعوه لي". وضحك ضحكة تهكم. "لا أعتقد أنه يحتاج إلى كثير من التدريب. فما عليك إلا إبقاؤه مُقيداً حتى تغدو مُستعداً لإطلاق سراحه في ساحة المحاربين".

أعجب ملسيناس بالعضلات المقتولة في الجسم القوي. فإذا طلي بالزيت، يبدو

٦ من التقاليد الشعبية المتبعة آنذاك، كان الناس يتجمعون في مدرجات ضخمة يتحارب على ساحاتها رجال ضد بعضهم بعضاً، حياة لقب بطل المحاربين؛ وأحياناً أخرى ضد حيوانات مفترسة من أسود أو غور. وفي الحالة اللاحقة، يكون المتحاربون، على العموم، من الأسرى (الناشر).

بلاد الجرمان

أشبهه بإله برونزي اللون. ثم تلك اللبدة من الشعر الأشقر الطويل. إن الرومان يحبون الشقرا!
كان ملسيناس يأمل أن يخفص سفيرس الثمن، فقال متنهدا تنهدة أسف: ”مهما
يكن، فما تطلبه باهظ“.

”إنه يستحق ذلك، وأكثر!“.

”الإله ما زس نفسه لا يستحق سعرك“.

هز سفيرس كتفيه استهجانا. ”موسف أنك لا تستطيع دفع ثمنه“. وأشار نحو الباب.
”تعال! سأبيعك اثنين آخرين أدنى نوعية“.
”أليس من مساومة؟“

”هذه مضيعة لوقتي ووقتك. إن بروخورس سيشتريه بلا مباحكة ببضعة آلاف من
السسترسات“.

”بروخورس! أخذت ملسيناس سورة سُخطِ عند ذكرِ مُنافسه.

”سيصل غدا“.

فامتقع وجهه، وقال متمما: ”حسن جدا. سأخذ هذا“.

وابتسم سفيرس ابتسامة عريضة، قائلا: ”قرار حكيم، يا ملسيناس. أنت داهية في ما
يتعلق باللحم البشري“.

”وأنت، يا عزيزي سفيرس، لك قلب تاجر أسود“.

”هل ترغب في رؤية الآخرين؟“

”قلت إنهم أدنى. اعرضهم على بروخورس. سأضع ختمي على الاتفاقية الخاصة
بهذا، وسيحول المبلغ إليك حالما أعود إلى روما“.

”اتفقنا!“

ثم توجه ملسيناس إلى الباب المغلق وقرع عليه. فدخل سريعا رجل يرتدي تنكا بسيطاً.
وانحنى ملسيناس مودعا سفيرس. وقد كان يعلم أن الرحلة إلى اللودس، مدرسة تدريب
المحاربين، لن تكون قصيرة. ”اعتن به، يا كوينتس. لقد فتح جراحه. لا أريد له أن ينزف
حتى الموت قبل أن يصل اللودس في كاپوا“.

روما



٣

سَكَبَ دَسِمُسُ فَنَدَاشِيوسَ فَالِيرِيانَ مَزِيدًا مِنَ الخَمْرِ، ثُمَّ خَبَطَ الإِبْرِيْقَ الفِضِّيَّ عَلَى طَاولَةٍ مِنَ رُخَامٍ. وَنَظَرَ عَبْرَ الطَّاولَةِ إِلَى ابْنِهِ المُسْتَلْقِي عَلَى الأَرِيكَةِ، وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ عَلاماتُ التَّرَاحِي. كانَ الشَّابُّ يَمْتَحِنُ صَبْرَ الرَّجُلِ. وَقَدْ مرَّ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ دُونَ أَنْ يَصِلَ دَسِمُسُ مَعَهُ إِلَى نَتِيجَةٍ.

ارْتَشَفَ مَرْقُسُ خَمْرَةَ فَالِيرِنيا الإِيطالِيَّةَ وَنَكَّسَ رَأْسَهُ. ”خَمْرَةٌ فَاخِرَةٌ، يا أَبِي“. إِطْرَاءٌ قُوْبِلَتْ بِنَظْرَةٍ مُتَحَجِّرةٍ. فَكَالعَادَةِ، كانَ الأبُّ يُحاوِلُ أَنْ يُوجِّهَ ابْنَهُ إِلَى السَّبِيلِ الَّذِي اخْتارَهُ لَهُ. وَابْتَسَمَ مَرْقُسُ لِنَفْسِهِ. أَكانَ أبُوهُ يَتَوَقَّعُ الاسْتِسلامَ المُشْرُوطَ حَقًّا؟ عَلَى كُلِّ حَالٍ، هُوَ واحِدٌ مِنَ أولادِهِ. فَمتى يُدْرِكُ الشَّيْخُ القالِيرِيانِيُّ أَنْ لا بِنَهُ أَفكارَهُ الخاصَّةَ الَّتِي يُوَدُّ أَنْ يُنْفِذَهَا، وَسَيَبْلَهُ الخاصَّ الَّذِي يَمضِي فِيهِ؟

كانَ أبُوهُ رَجُلًا لا يَهْدَأُ، تَأخُذُهُ نوباتُ غَضَبٍ سَريِعةٍ عَندما لا يَنالُ مُرادَهُ. فواصِلَ مَسعاهِ مُراوِغًا، وَتَصَرَّفَهُ هادئٌ فِي الظاهرِ، الأَمْرُ الَّذِي كانَ مَرْقُسُ يُدْرِكُ عَمامًا أَنَّهُ مُجَرَّدَ واجِهَةٍ لَسْتَرِ حِدَّةِ أَطباِعِهِ الَّتِي تَغْلِي وَراءِها.

”مَرْقُسُ، إِنَّ فَسبازِيانَ يَبقى واحِدًا مِنَ العامَّةِ، رُغَمَ ذِكاائِهِ وَقَدْرَتِهِ التَكْتِيكِيَّةَ بِصَفْتِهِ قائِدًا عَسْكَرِيًّا. ولأنَّهُ عامِّيٌّ، فَهو يَكْرَهُ الأَرِستُقْراطِيَّةَ الَّتِي كادَتْ تُدمِّرُ إِمْبِراطورِيَّتِنَا. لَقَدْ ادَّعى أَحَدُ أَعْضاءِ مَجْلِسِ الشَّيُوخِ أَنَّ عالِمَ الأَنسابِ لَدِيهِ رَدٌّ نَسَبَ الإِمْبِراطورِ إِلَى جَويِيتِرِ، فَضَحِكَ فَسبازِيانَ فِي وَجْهِهِ“.

هَزَّ مَرْقُسُ كَتْفَيْهِ بِلامُبالاةٍ وَنَهَضَ عَنِ الأَرِيكَةِ. ”هَكَذا سَمِعْتُ، يا أَبِي. لَقَدْ أَزاحَ أربِعةَ شَيُوخٍ يَعودُ نَسَبُهُمُ إِلَى رومولُسَ وَرِمْسُ“.

”إِنَّ كُنْتُ تُصَدِّقُ مِثْلَ هَذا الهُراءِ“.

”مِنَ مَصْلَحَتِي الفُضْلَى أَنْ أَصَدِّقَ. فَهَذا الفِلاقِثِيُّ يَعتَرِفُ صِراحَةً بأنَّهُ ابْنُ جابِي ضِرابِ إِسبانيٍّ، وَقَدْ يُسَبِّبُ ذَلكَ سَقوطَهُ النِّهائِيَّ. إِنَّهُ رَجُلٌ مِنَ العامَّةِ تَسَلَّمَ زِمامَ إِمْبِراطورِيَّةِ أُسُسَتْ عَلَى أنسابِ مُلوَكِيَّةِ“.

٧ رومولُسَ وَرِمْسُ، بِحَسَبِ التَّقْلِيدِ المِثُولُوجِيِّ، هُمَا التَّوأمانِ اللَّذانِ أُسَّسا رَوما (النَّاشِر).

”مُجَرَّدُ كَوْنِ المرءِ كَبِيرَ جَمَاعَتِهِ لَا يَعْنِي أَنَّهُ أَذْكَاهُمْ أَوْ أَفْضَلُهُمْ. فَقَدْ يَفْتَقِرُ فَسْبَازِيَانُ إِلَى السَّلَالَةِ الْأَثِيرَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ وُلِدَ لِيَكُونَ قَائِدًا“.

”أَنَا أَشَارِكُكَ فِي إِعْجَابِكَ بِفَسْبَازِيَانِ، يَا أَبِي. لَقَدْ كَانَ الْإِمْبِرَاطُورُ غَلْبًا مَجْنُونًا خَرَفًا، وَالْإِمْبِرَاطُورُ أُوثُو جَشِيْعًا وَجَاهِلًا. أَمَّا فَتْلِيُوسُ، فَأَظُنُّ أَنَّ السَّبَبَ الْوَحِيدَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ إِمْبِرَاطُورًا كَانَ حَيَازَةَ الثَّرَاءِ الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنْ مَلءِ بَطْنِهِ بِأَكْبَادِ الْوِزِّ وَالسِّنَةِ الْعَصَافِيرِ الطَّنَّانَةِ. مَا رَأَيْتُ قَطْرَ رَجُلًا يَأْكُلُ بِمِثْلِ شِرَاهَتِهِ“، ثُمَّ انْبَسَطَتْ ابْتِسَامَتُهُ الْجَافَّةُ. ”فَسْبَازِيَانُ هُوَ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَدَيْهِ الْقُوَّةُ الْكَافِيَةُ لِإِبْقَاءِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ مُتَمَاسِكَةً“.

”تَمَامًا، وَسَيَحْتَاجُ إِلَى شِيُوخِ صِغَارِ السَّنِّ وَأَقْوِيَاءِ يُسَاعِدُونَهُ“.

اسْتِطَاعَ مَرْقُسُ أَنْ يُحَسِّنَ تَصَلُّبَ ابْتِسَامَتِهِ. إِذَا، هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ. وَكَانَ قَدْ سَاءَلَ نَفْسَهُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ أَبَاهُ يُذَعِّنُ بِسَهُولَةٍ بِالْغَلَةِ لَمَّا رَفَضَ مَرْقُسُ اقْتِرَاحَ زَوَاجٍ مُنَاسِبٍ عَرْضَهُ عَلَيْهِ. فَالآنَ اتَّضَحَ السَّبَبُ. لَقَدْ كَانَ لَدَى أَبِيهِ مَوْضِعٌ أَكْبَرُ يَتَحَدَّثُ بِهِ: السِّيَاسَةُ. وَكَانَتْ هَذِهِ لِعَبَةٍ دَمٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى طَرِيقَةِ تَفْكِيرِ مَرْقُسِ، إِنْ وَجِدَتْ تِلْكَ الرِّيَاضَةَ أَصْلًا.

لَمْ تَلْطَفِ الْأَلِهَةُ بِأَبِيهِ فِي السَّنِينَ الْقَلِيلَةِ الْأَخِيرَةِ. فَقَدْ كَلَّفَتْهُ التَّيْرَانُ وَتَحْرُكَاتُ الْعَصِيَانِ بِيَضْعِ مَخَازِنِ وَمَلَائِيْنِ السَّسْتَرَسَاتِ ثَمَنًا لِلْبَضَائِعِ التَّالِفَةِ. وَهُوَ حَسِبَ نَيْرُونَ مَسْؤُولًا، رُغِمَ مُحَاوَلَاتِ الْإِمْبِرَاطُورِ إِلْقَاءِ اللَّوْمِ عَلَى جَمَاعَةِ الْمَسِيحِيِّينَ مُتَّهَمًا بِإِيْثَامِهِمْ بِحَرِيقِ رُومَا. وَكَانَ الْمُتَقَرَّبُونَ مِنْ نَيْرُونَ يَعْرِفُونَ حُلْمَهُ بِإِعَادَةِ تَصْمِيمِ رُومَا وَبِنَائِهَا، وَتَسْمِيَتِهَا نَيْرُوپُولِيسَ. وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْمَجْنُونَ نَحَجَّ بِالْأَحْرَى فِي تَدْمِيرِ الْمَدِينَةِ.

وَتَرَنَّتْ رُومَا مُتْرَدًا عَلَى نَيْرُونَ بِسَبَبِ سُوءِ التَّدْبِيرِ.

ثُمَّ أُثْبِتَ غَلْبًا أَنَّهُ مَخْبُولٌ. فَلَمَّا أَمَرَ جَمِيعَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا عَطَايَا وَمِنَحًا مِنْ نَيْرُونَ بِإِعَادَةِ تِسْعَةِ أَعْشَارٍ إِلَى الْخَزِينَةِ، ضَمِنَ لِنَفْسِهِ الْمَوْتَ. وَبَعْدَ أَسَابِيْعٍ قَلِيلَةٍ قَدَّمَ الْحَرَسَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّ رَأْسَ غَلْبًا إِلَى أُوثُو وَأَعْلَنُوا هَذَا التَّاجِرَ الْمَفْلِسَ إِمْبِرَاطُورَ رُومَا الْجَدِيدِ.

وَتَعَثَّرَتْ رُومَا.

لَمْ يَكُنْ حُكْمُ أُوثُو أَفْضَلَ حَالًا. فإِذْ عَزَّتْ فَيَالِقُ فَتْلِيُوسَ إِيطَالِيَا، وَدَحْرَتْ حَامِيَةَ الْحَرَسِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّ الشَّمَالِيَّةَ، انْتَحَرَ أُوثُو. وَلَكِنْ مَا إِنْ تَسَلَّمَ فَتْلِيُوسَ زِمَامَ السُّلْطَةِ، حَتَّى زَادَ الْوَضْعَ سُوءًا بِالتَّخْلِيِّ عَنِ مَسْؤُولِيَّاتِهِ الْمَفَاسِدِ عِنْدِ الْمُحَرَّرِ، أَرْيَاتِيكُسَ. وَلَمَّا كَانَ فَتْلِيُوسَ خِنْزِيرًا فَاسِدًا، انْصَرَفَ إِلَى عَيْشَةٍ نَهْمٍ شَهْوَانِيٍّ بِدِينِ كَسْلَانِ.

وَبَيْنَمَا السُّلْطَةُ فِي جَزْرٍ وَمَدٌّ كَمَوْجَةٍ عَاتِيَةٍ، انْتَشَرَ الْجَيْشَانِ فِي أَرْجَاءِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ. إِذِ

روما

استمرت ثورة بلاد اليهودية. وانطلقت ثورة أخرى في بلاد الغال. واتحدت القبائل الجرمانية تحت إمرة سيفيلس المدرب على أيدي الرومان، وهاجمت محافز الحدود. وجئت روما على ركبتيها.

واستلزم الأمر قيام فسبازيان لإيقافها على قدميها من جديد. فإذ انتشرت في أنحاء الأقاليم أخبار تفشخ الحكومة، أعلنت فيالق القواد فسبازيان إمبراطورًا لها، وأيدوا ذلك الإعلان بإرسال القائد أنطونيوس على رأس جيش كبير إلى إيطاليا لخلق قتليوس. وبعدما هزم أنطونيوس جيشًا في كرمونا، زحف إلى روما، وقتل جنود قتليوس بلا رحمة. أما قتليوس نفسه، فقد عُثر عليه مُختبئًا في القصر، وجُرَّ شِبَةً عارٍ في الشوارع. وقد رشقه المواطنون بالزوث وعذبوه بلا شفقة. ولم يكفهم حتى موته. فإن الجماهير والجنود مثلوا بجثته، إذ جرّوها بخطاف في شوارع المدينة، ثم تخلصوا من أشلائها بطرحها في نهر التيبير العكس.

قال دسّمس متجهّمًا: "أما تقول شيئًا؟"

أيقظته كلمات أبيه من استرساله في التفكير الخالم. لقد رأى في السنين القليلة الماضية كثيرين جدًّا يموتون حتى رغب عن الاشتغال بالسياسة. إذ قُتل شُبَّانٌ كانت غلظتهم الوحيدة أنهم ساندوا الرّجل الخطأ. لا شك أن فسبازيان رجلٌ شريفٌ وقدير، ومتمرسٌ بالحرب. ولكن في رأي مرقس، لا يعني ذلك أنه لن يسقط ضحيةً لسُم إحدى سراريه (نسائه غير الشرعيات) أو خنجرٍ مُعتال.

"أبي، كان لكثيرين من أصدقائي مطامح سياسيّة. مثلًا هيمينائس وأكيلا. فماذا حلّ بهذين؟ لقد أمرا بالانتحار لما اشتبّه نبرون بأنهما خائنان، فقط على أساس وشاية من شيخ حسود. وپودنس قُتل لأن أباه كان صديقًا شخصيًا لأوثو. وأبيكس لقي مصرعه لما دخل أنطونيوس روما. وغير ذلك، عند التأمل في حياة مُعظم أباطرتنا ونهاياتهم، لا أجد السياسة على الخصوص مهنةً سليمةً أو كريمةً."

قعد دسّمس، مُرغمًا نفسه على هدوءٍ كان بعيدًا عن الشعور به، وقد ميّز سيماء وجه مرقس جيّدًا. حبذا لو تسنى أن توجه إرادة ابنه القويّة بطريقة مناسبة إلى شيءٍ آخر سوى المتع الأنانيّة.

"مرقس، أعد النظر في موقفك. ما دام فسبازيان على العرش، فالوقت مؤات للمطامح السياسيّة. أن الأوان لاختيار سبيلٍ ذي قيمة لحياتك. لقد كانت الأحوال مُضطربة، ولكن الأمور الآن تحت حكم رجلٍ ذكيٍّ وعادل". ثم رأى منظر الاستغراب

على وجه ابنه، فقصدَ إلى بيت القصيد. ”إن مليون سسترس سيشتري لك مكانًا في طبقة الفرسان ومقعدًا في مجلس الشيوخ“.

سكن مرقس غضبه واصطنع سيماء دُعاة ساخرة: ”حتى أصير واحدًا في فئة طالما استهزأت بها وازدريتها؟“

”حتى تصير واحدًا من أهل النظام الجديد في روما!“

”أنا من أهله فعلاً، يا أبي“.

فمال دسّمس إلى الأمام وكوّر إحدى قبضتيه، قائلاً: ”ولكن في منصب عال، يمكنك أن تحوز مقدارًا وافراً من السلطة“.

وأطلق مرقس ضحكة ساخرة، قائلاً: ”كاد أنتيغونوس يفتقر وهو يحاول أن يقضي بين الرّاع من العامة. إنك، يا أبي، تتجنّب الألعاب، ولكن تمويلها ضرورةً سياسية، كما تعلم جيدًا. فمهما كان الثمن، يجب استرضاء الجمهور. وحياة الألهة، أترضى بأن ترى جنى عمرك يُراق على الرّمل في ساحة محارِبين تأبى أن تزورها؟ أم ننفق آلاف السسترسات على ولائم تقام لأولئك الأرستقراطيين السّمان الذين تمقتهم جدًّا؟“

كبح دسّمس غيظه إذ سمع كلماته التي طالما تفوّه بها مُكرّرةً على مسمّعه. كان ذلك أسلوب نقاش يستخدمه مرقس عادةً— أسلوبًا يكرهه دسّمس بشدّة. ”إنّ زمن الجيشان الكبير قد يكون زمن فرصةٍ كبرى“.

”أوه، إنني موافق من كلّ القلب، يا أبي. غير أنّ رياح السياسة أسرع من أن يُغيّر اتجاهها، ولست أنوي أن تحرفني بعيدًا!“ ثمّ ابتسم بشفتين مشدودتين ورفع كأسه. ”مطامحي في جهةٍ أخرى“.

فقال دسّمس: ”أن تأكل وتشرب وتمتّع بالحياة قبل أن تموت“. أخذ مرقس نفسًا عميقًا قبل الاستسلام لغضبه المنبعث. ”وأن أجعلك أغنى بما أنت الآن فعلاً“. ثمّ أمال فمه ساخرًا. ”إن أردت، يا أبي، أن تُخلّف علامةً على الإمبراطورية، فلتكن في شجر الأرز والحجر. لقد أهلكنا نيرون بالنار، وغلبنا وأوثو وقتليوس بالثورات. فليكن لبيت فاليريان دور في روما الناهضة من جديد“.

غامت عينا دسّمس. ”كنت أتمنى لو سعتُ إلى شرف أن تصير شيئًا بدل أن أراك تسعى وراء المال كأبي تاجرٍ عادي“.

”ما كنت لأدعوك عاديًا، يا سيدي“.

خبطَ دَسِمُسُ كأسه على الطاولة الرُخاميَّة مُلَطَّنًا إيَّاهَا بالخمر. ”أنتَ وقح. إننا نبحث في مُستقبلك أنتَ“.

أَنْزَلَ مَرْقُسُ كأسَ خمرِه وعمدَ إلى ردِّ التحدي. ”لا، بل تُحاولُ أن تُمليَ عليَّ الخُطَطَ التي أعددتها لي دونَ استِشارتي. إن أردتَ وجودَ فاليريانيِّ في مجلس الشيوخ، فخذُ أنتَ المقعد. يؤسِّفُني أن أُخيِّبَ أملكَ من جديد، يا أبي، ولكنَّ لديَّ خُطَطِي الشخصيَّة الخاصَّة بحياتي“.

”أيسَعُك أن تطلعنني على ما تشمله هذه الخُطَطُ؟“

”أن أستمتع بما لي من حياةٍ قصيرةٍ على الأرض، مُنفقًا بنفسِي بالتأكيد على سبيلي الخاص، وأنتَ تعلمُ جيِّدًا أنني أستطيعُ ذلك“.

”وهل تنوي أن تتزوَّجَ أريًا؟“

أحسَّ مَرْقُسُ دمه يسُخنُ عندَ ذِكرِ أريًا بجفاف. ولم تكنْ تصرُّفاتُها المُتَّسمة بالحويَّة والمَرَحُ تروقُ أباه. فأشاحَ بنظره بعيدًا وهو مُنزعج، ثم رأى أمه وأخته آيتين من البُستان. فنهضَ مُنفرجًا لانهاء ذاك الحديث. إنَّه لم يرد أن يقولَ أيَّ شيءٍ يندمُ عليه لاحقًا.

نظرتُ أمه إليه مُتسائلةً إذ خرجَ لِلقاء التحيَّة عليها. وقالت له عندما انحنى لِقبُّلِ خدِّها: ”هل كلُّ شيءٍ بخير، يا مَرْقُسُ؟“

”أليستِ الحالُ هكذا دائمًا، يا أمَّاه؟“

قالت جوليا من وراء أمِّها، مُستطلعةً بدِّها: ”كُنتما تتحدَّثان، أنت وأبوك، حديثًا طويلًا“.

فقال: ”مُجرَّدُ أعمال“، وقرصَ خدِّها قليلًا بعاطفةٍ ودِّيَّة. ها إن ابنةَ الرابعة عشرة قد صارتُ صبيَّةً جسناةً حقًا.

دخلت فيبي التريكلينيوم - وهي غرفةُ سُفرةٍ رحيبةٌ أنيقةُ الأثاث والتزيين - قدامَ ابنيها. كانت هذه الغرفةُ عادةً تؤتيها إحساسَ سُرورٍ عند دخولها. ولكنها ذلك اليومَ لم تكدُ تلاحظُ ما حولها، إذ كانت عيناها شاخصتين إلى زوجها. فقد بدا دَسِمُسُ مُتوتِّرًا، وشعره الأشيب مُلتفَّ على جبينه المُندى. وقعدت على الأريكة بجانبه، واضعةً يدها على يده، قائلةً برقةٍ: ”ألم يَجِرِ الأمرُ حسنًا؟“

حتَّى أصابعه على أصابعها، وضغطَ برفق. لقد لمَحَ القلقُ في عينيها وحاولَ تهدئتها.

كان قد مضى على زواجهما ثلاثون عامًا، وقد قَوِيَ حُبُّهُمَا، رَغَمَ سكونِ هَوَاهُما منذ مدَّةٍ طويلة. ”إنَّ مَرْقُسَ يزدرى بمهنة السياسة الشريفة؟“

ضحكتِ الصبيَّةُ جوليا بِمَرَحٍ حِيَالِ المُفاجأة: ”شريفة؟ أبي، أتَنطِقُ بالكلمة شريفة مع السياسة في الجُملةِ نفسها؟ أنتِ تَمْتَقُ السياسيِّين. لم يَكُنْ لديك قطُّ شيءٌ صالحٌ تقولُه عنهم، والآن تقترح أن يصيرَ مَرْقُسُ واحدًا منهم؟ لا يُعقلُ أن تكونَ جادًا على وجه الاحتمال!“

ابتسمَ مَرْقُسُ ابتِسامةً عريضةً إِزاءَ بَوحِ أخته الصَّغرى الصَّريح. تركها تقول أولَ شيءٍ يخطر في بالها قبلَ اعتبارِ حَسِّ الدُّعابة عندَ أبيهما، أو بالأحرى افتقاره إليه. ”يبدو أَنَّهُ على الرُّغم من تعليقاتِ أبينا المُتكرِّرة على شرعيَّةِ مُعظَمِ الشيوخِ المريبة كانت لديه تطلُّعاتٌ خفيَّةٌ كلَّ حينٍ لرؤيةِ فاليريانيِّ في المُنتدى العامِّ.“

فقالَتْ جوليا، وقد برَّقَتْ عيناها البُنِّيَّتان الداكنتان: ”أوه، أَلنَّ يكونَ ذلكِ رائِعًا؟ مَرْقُسُ، أستطيعُ أن أراكَ فعلاً واقفاً أمامَ مجلسِ الشُّيوخِ“. ثُمَّ وَقَفَتْ واتَّخَذَتْ وضِعًا مسرحيًّا. فإذ دفَعَتْ ذقنَها إلى العلاء، لَمَّت رداءَها أو عباءَتَها المطرَّزةَ بأناقة- ثوبَ الپالُس- وتخالَّطتْ ذهابًا وإيابًا أمامَ أخيها وأبويها، ويدها على صدرها، وقد ارتسمتْ على وجهها أماراتٌ كنتك التي للملكاتِ الجليلاتِ جعلتْ حتَّى دَسِمُسُ يبتسم.

جذبَها مَرْقُسُ إلى الأريكةِ قائلاً: ”أقعدي أَيْتها العفريتة!“

أمسكتْ جوليا بيده، وكان يتعذَّرُ كبُحُّها حين تسترسلُ في المَرَحِ، قائلةً: ”ستكونُ شيئًا جميلًا جدًّا، يا مَرْقُسُ.“

”جميلًا؟ ذاكِ وصفٌ أفضلُ أن يُنعتَ به سكورپسُ الوسيم“. وكانت هذه إشارةً منه إلى تاجرٍ ثريٍّ جاء من أفسسٍ للتَّعاملِ التجاريِّ مع أبيهما، وقد تأثَّرتْ جوليا جدًّا بعيْنَيْهِ السوداوين وبشَرَّتِهِ الداكنة.

”أصحيحُ أن لديه غلامًا يُعاشِرُه؟“

عندئذٍ قالت فيبي: ”جوليا!“ وقد صعَّقَها أن تسمعَ ابنتَها الصَّغيرة، تتحدَّثُ بأمرٍ كهذه.

فلَوَّتْ جوليا قَسَماتِ وجهها، وقالت: ”إني أعْتَذِرُ، يا ماما.“

”أين سمعتِ أمورًا كهذه؟“

”كان أبي يقولُ لمَرْقُسِ إنَّه لا يَثِقُ برَجُلٍ يُصاجعُ ذَكَرًا خاصًّا به، وقال مَرْقُسُ...“

Logg

وتدخّل مرّقس قائلاً: "كم من الوقت قضيت واقفة خارج الببليوتيكا؟" مُسكِتاً إيّاها قبل أن تستطيع مواصلة الثرثرة، وقد استاءَ لأنّها استرقت السَّمع على حديثه مع أبيه في المكتبة، وأيضاً لأنّها أحرّجت أمّها التي اتّضح أنّها صُعقت إزاء كلام صريح كهذا. فإنّ جوليا ابنة الأربع عشرة سنة عرفت من أمور العالم أكثر مما عرفته أمهما وهي في الرابعة والأربعين. وربما كان ذلك لأنّ أمهما لم تُرد أن تعرف.

"كنتُ مجتازةً فحسب". وبعد فوات الأوان، رأّت جوليا الامتصاص في وجه أمّها، فغيّرت الموضوع بسرعة. "هل تنوي أن تصيرَ شيخاً، يا مرّقس؟"
 "لا". ثمّ التقى نظره نظرَ أبيه. "إن أردت أن تكون لك يدٌ في السياسة، فساعِد أنتيغونُس المسكين".

فقال دَسِمُس: "أنتيغونُس؟ ذلك الغرّ الذي يحول مُنادياً على التّمائيل ليشترّيها منه الأرسقراطيون؟"

"تحف فنيّة، يا أبي، لا تمائيل!"

فشخّر دَسِمُس شجرةً سُخريّة.

وملاً مرّقس كأس أبيه مُجدداً، ثمّ ناوَله إيّاها. "قال لي أنتيغونُس عصرَ هذا اليوم إنّه كان على استعداد لشقّ عروقه فوق كلفة الألعاب التي ضمّنها الأسبوع الماضي. في وسعك أن تحوزَ شيخاً خاصّاً بك بسعرٍ صفقة لا يُجاوز بضع مئاةٍ من السّسترسات. وقد حظّي فعلاً بعطف الإمبراطور على يدِ دوميتيان، ابنِ فسبازيان. فهو وأنتيغونُس يعكفان معاً على التّدريب في اللودُس بصفتهما محاربين. ولن يمضي وقتٌ طويل حتّى يغدو قاعداً في مجلس الشيوخ، إلّا إذا قتل نفسه أولاً بالتأكيد".

فقال دَسِمُس بجفاء: "أشكّ في أن يؤدّي أنتيغونُس نفسه أذىً بالغا، إلّا من طريق الصدفة".

"إنّ أنتيغونُس مُعجب بسنيكا، وأنت تعلم أن سنيكا دعا إلى الاتّجار. فإذا مات أنتيغونُس، نكون قد خسرنا حسنةً كبرى". قال ذلك وفي صوتِه نبرةً تسليةً ساحرة.

ارتعبت فيبي. "كنتُ أظنّ أنّ أنتيغونُس هو صديقك، يا مرّقس".

قال بلطف: "هو كذلك، يا أمّاه. صديقٌ مُكتتبٌ حالياً". ثمّ نظرَ إلى أبيه. "إنّ الطموح

السياسي كثيرًا ما يؤدي إلى الفقر“.

انقبضَ فم دَسْمُس. إنَّ ما قاله ابنه صحيح. فهو يعرف أكثر من شيخ واحد انتحروا لما تبدد ثراؤهم تحت وطأة مسؤوليات المنصب. ذلك هو ”القضاء بين الرعاع“، على حدّ تعبير مرقس. وهذا تصريح بارع. والرعاع أشبه بعشيقه ليل كثيرة الكلفة وعدية الوفاء. ثمَّ لأنَّ إشفاقًا وقال: ”تبيّن ما حاجاته، وسنبحث الأمر“.

فاجأ مرقس إذعان أبيه. وكان قد توقع نقاشًا طويلًا وحاميًا قبل أن يحصل منه على دينار واحد. فحدّد مبلغًا جعل أباه يرفع حاجبيه. ”قلت لأنتيغونوس في الحمامات عصر اليوم إنَّ والدي مُحسنٌ حكيمٌ وكرم“.

فقال دَسْمُس: ”صحيح؟“ وقد تنازعه الفخر والغضب حيال وقاحة ابنه.

ابتسم مرقس ابتسامة عريضة رافعًا كأسه تحيةً. ”ستجد أنتيغونوس فتى شكورًا. لقد تباحثنا في اتفاقيات بناء بشيء من التفصيل قبل رجوعي إلى البيت هذا المساء. وكان مستعدًا جدًا للموافقة“.

رأى دَسْمُس أن ابنه قد باشر فعلاً تنفيذ مشاريعه الخاصّة. ”وماذا ستبنيان، يا مرقس؟ هياكل لإلهة الحظ؟“

”ليس شيئًا بهذه الفخامة، يا أبي، بل منازل لأرستقراطيّك الجدد والنُبلاء، على ما أظنّ. ومساكن للعامة، إن شئت“.

ارتاعت فيبي من التوتّر بين الأب وابنه، فأومت برأسها لعبد فرثي واقف بالباب. ”لك أن تخدمنا الآن“. فأشار الفرثي، وإذا عبدان يونانيان شابان يدخلان بصمت ويقعدان في الزاوية من دون تطفل. باشر أحدهما التّفخّ بهدوء في مصفّار، والآخر العزف بهدوء على فيثار. ودخلت جارية مصريةً حاملةً طبقًا فضيًّا عليه شرائح لحم مشويّ من خنازير سمنت في غابات السنديان.

انتقى مرقس قطعة لحم وهو يقول: ”وعدت أنتيغونوس بأن أطلّعه على قرارك هذا المساء“. فقال دَسْمُس بجفاف: ”كنت على يقين تامّ بأنّي سأوافق“.

”لقد علمتني ألا أدع البتّة فرصة تفوتني. فرجما لا تأتي ثانية أبدًا“.

”ليتنى لم أعلمك بعض الأشياء التي علمتك إيّاها“.

بعد الانتهاء من لَوْن الطعام الأول، وُضِعَ أمامهم لَوْن آخر. فنقبت جوليا بين الفواكه

واختارت عنقودًا صغيرًا من العنب السوري. وقصم مرقس دراقه فارسيّة. وقد بقي الفرثي واقفًا بالباب مديد القامة وساكن الحركة. ولما فرغت الكؤوس، ملأها الجارية المصرية مجددًا. قال دسيس ناظرًا في فكرة مرقس: ”يسهل الحصول على الرخام من لونا وبارس. ولكن الأرز شحيح النمو في لبنان، مما يجعل أسعاره أعلى. فأفضل لنا أن نستورد الخشب من اليونان“.

وسأل مرقس: ”لماذا ليس من بلاد الغال“.

”ما يزال في تلك المنطقة اضطراب كثير. فإن صار لديك اتفاقيات يجب العمل بها، فلا بد أن تكون المواد تحت يدك، لا في طريقها إليك“.

أوما الفرثي للشابة المصرية أن تحضر طاسات الماء الساخن المعطر. وإذ انحنى لتضع طاسًا أمام مرقس، رفعت عينيها إلى عينيه، فيما تحمل عيناها رسالة جليّة. فابتسم مرقس ابتسامة خفيفة، وغمس يده في الطاس، منظرًا أصابعه من اللحم وعصير الفاكهة. وأخذ المنشفة التي ناولته إياها الفتاة، جاعلاً حملته تسرح عليها، وهي واقفة تنتظر أمره.

قالت فيبي بلطف: ”هذا كل شيء، يا بيثية“، وصرفت الفتاة. لم تكن المصرية الشابة الجارية الأولى في بيت آل قاليريان تغرم بابنها، الأمر الذي تعرفه فيبي جيدًا. وقد كان مرقس وسيماً وذا جسم حسن، يفيض رجوليّة. ولم تكن أخلاقه كما تمت فيبي أن تكون، بل كانت بالحقيقة متعارضةً عموماً مع كل ما قد علمته إياه وهو على ركبتيها. فإذا كانت شابة جميلة راغبة، كان مرقس على أتم الاستعداد للتفضل. وفي الواقع أن دائرة مرقس الاجتماعية اشتملت على شابات رومانيات راغبات أكثر عدداً من أن يعمد بطريقة غير مناسبة إلى خداع جارية مصرية مفتونة به في بيتهم بالذات.

لقد تسلى مرقس باستهجان أمه، ولكنه نقد طلبها الصامت. فطرح منشفة الأيدي على الطاولة ووقف. ”سأذهب وأطلع أنتيغونوس على قرارك، يا أبي. إنه سينفرج كثيراً. وأنا أشكرك“.

قالت جوليا خائبة الأمل: ”أنت خارج من جديد؟ أه يا مرقس! لقد جئت منذ ساعات قليلة، وقصيتما أنت وأبي معظم الوقت في التحدث. لم تفتح لنا حتى فرصة للمحادثة!“
فانحنى وقبل خدها، قائلاً: ”لا يمكنني البقاء هذا المساء، يا جوليا“. ثم همس في أذنها وحدها: ”سأخبرك عن الألعاب عندما أرجع“.

شاهد دسيس وفيبي ابنتهما مغادراً. وهبت جوليا واقفة، وتبعته. وقد كانت فيبي دائماً

مسرورة بروية مدى تعلقي جوليا بأخيها الأكبر، وشدة محبة مرقس لأخته الصغرى. وكان فارقُ العُمرَ بينهما ثماني سنين، بعدما فقدت ولديها الآخرين في طفولتهما.

ولكن مؤخرًا ألقى تقارُبهما فيبي. فإن جوليا كانت جريئةً وعاطفيةً جدًا، وهذه طبيعةٌ تفسد بسهولة. وكان مرقس قد تطوّر إلى أبيقوريٍّ صريح. فقلّمَا رأى في الحياة غايةً سوى كسبِ المال ونهبِ كلِّ متعةٍ تنالها يده. وافترضت فيبي أنه لا يسعها أن تلومَ الشبان والشابات الذين اعتنقوا هذه الفلسفة؛ لأنّ الاضطرابَ وسفكَ الدّمِ أهلكا كثيرين جدًا في أثناء السنين القليلة الماضية. فالحياة كانت مُتقلّبةً. غير أن فيبي ألقفتها مواقف كهذه.

ماذا حلّ بأداب السلوك؟ ماذا حلّ بالطهارة والأمانة؟ كانت الحياة أكثرَ من مُجرّد متعة. كانت واجبًا وشرّفًا. كانت إنشاءً عائلّة. كانت اعتناءً بالآخرين الذين ليس لديهم أدنى وسيلةٍ للاعتناء بأنفسهم.

نظرت إلى دسيمس، الذي كان مُستغرفًا في التفكير. فمست يده ثانية، جاذبةً انتباهه. ”أتمنى أن أرى مرقس مُتزوجًا ومُستقرًا. ماذا قال بشأن مُصاهرة آل غاريبالدي؟“
”قال لا“.

”ألم تستطع أن تحمله على تغيير رأيه؟ إن أولمبيا فتاةٌ فاتنة“.

أجاب دسيمس: ”كما لاحظت منذ قليل، في وَسع مرقس أن يختارَ خياره من الشابات الفاتنات، الحُرّاتِ والعبدات. ولا أعتقد أنّ الزواج يُغريه أيّ إغراءٍ شديد“. وقد ساءل نفسه هل كان ابنه ما يزال غيبًا إلى حدّ يجعله يظنُّ أنه مُعزّم بأريا. فذلك كان موضع شكّ عنده. قالت فيبي: ”لقد صارت حياته بلا هدفٍ إلى أبعد حدّ“.

”ليست بلا هدف، يا عزيزتي، بل أنانيّة، مُنغمسة في اللذات“. ثمّ نهض، وأنهض زوجته معه. ”إنه مثل كثيرين جدًا من أصدقائه الأرستقراطيين الشبان. فهو يحسبُ الحياةَ صيدًا عظيمًا، حيثُ كلُّ اختبارٍ طريدهُ تلتهم. وما أقلّ التفكير، هذه الأيام، في ما هو خيرٌ بالنسبة إلى روما!“

خرجوا إلى البهو ذي الأعمدة، وهو رواقٌ طويلٌ يُحيط بالفناء. وتهاديا بين أعمدة الرُحام الأبيض ثمّ خرجا إلى البستان. كان ذلك المساءُ دافئًا، والتّجوم تتلألأ في السماء الصافية. وقد تعرّج الممشى بين الشجيرات المقلّمة والأشجار المزهرة. وكان مُنصبًا في حوض الزهور

٩ من معنّقي الفلسفة الأبيقورية التي تؤمن بأنّ اللذة هي الغرض الأسمى في الحياة (الناشر).

روما

تمثال زُخامي لامرأة عارية، وقسيمها الذكر في الجانب الآخر من الممشى. شكلان كاملان يتألفان ببياضهما الناصع تحت ضوء القمر.

سرح فكر دسِمُس راجعًا إلى اليوم الذي فيه حُلقت حياة مرقس أوّل مرّة. لقد أخذنا معًا شعر اللّحية إلى هيكل جوييتر، حيث قرّب مرقس قربانه وصار في عداد الرّجال. بدا ذلك كأنه كان يوم أمس - ومنذُ عمرٍ مضى. وفي أثناء السنين الفاصلة، ساعدَ دسِمُس الصبيّ على إتقان البلاغة وإتمام التدرّب العسكري. ولكنّ في مكانٍ ما على الطّريق، فقد السيطرة على ابنه، بل فقد ابنه.

وضَعَ يده على يد فيبي إذ استقرّت على ذراعه، قائلاً: "كنتُ أرجو إقناع مرقس بأنّ نظامًا جديدًا قد يُحدِثُ تغييراتٍ في الإمبراطوريّة تدعو إليها الحاجةُ الماسّةُ".

فسألّت فيبي بلطف، واضعةً يدها الأخرى على يده: "أليس شأنًا جديدًا أن يُريد المرءُ بناءً روما من جديد؟" وقد بدا دسِمُس قلقًا جدًّا، ولم يكن حسنَ الحال مؤخرًا، مع أنّه لم يتكلّم قطّ بما أزعجه. لعله كان مجرّد القلق بشأن مستقبل مرقس، ومستقبل جوليا أيضًا.

قال دسِمُس: "إنّ روما في حاجةٍ إلى إعادة بناءٍ"، ولكنّه كان يعلم أنّ مرقس قليلُ الاهتمام بأمر الإمبراطوريّة، إلّا من حيث تأثيرها فيه شخصيًا. فلم تكن لديه أسبابٌ لأثانيّة للرغبة في إعادة بناء بيوت رومانيّة، بل كان دافعهُ الوحيد زيادة ثراء آل فاليريان. إذ إنّ المرء لا يسعُه أن ينهب الحياة بلا وسيلةٍ للقيام بذلك، والمال هو الذي يُوفّر تلك الوسيلة.

افترضَ دسِمُس أنّه يُلام على انشغال مرقس بالمال. فإنّه قضى مُعظم حياته في اصطناع ثروة آل فاليريان بواسطة مشاريعٍ شتى. وقد بدأ في أفسس، مالِكًا لجزءٍ من سفينةٍ صغيرة. وها هو الآن مُقيمٌ في روما ذاتها، مُشرفًا على أسطولٍ تجاريٍّ كامل. وسفنه تُسافرُ في جميع البحار المعروفة، وترجعُ مشحونةً بالبضائع من كلّ بلدٍ في الإمبراطوريّة تقريبًا: مواشٍ وصوفٍ من صِبليّة، عبيدٌ من بريطانيا، حيواناتٍ بريّةٍ من سواحل أفريقيا، أطيابٍ نادرةٍ وجواهرٍ وخصيانٍ من قرثية وبلاد فارس، حنطةٌ من مصر، قرفةٌ وصبرٌ وخلاصة الأفيون من بلاد العرب.

وقد سافرت قوافلُ فاليريان بعيدًا إلى الصّين لتعود مُحمّلةً بالحرير والأصباغ والتوابل والأعشاب الطيّبة، مع اللؤلؤ والجزع العقيقيّ والماس والعقيق الأحمر. ومهما طلبت أسواق روما، كانت تجلبه القوافلُ والسفنُ الفاليريانيّة.

تنبّه دسِمُس إلى ذكاء مرقس منذُ حدائته. فقد كان يتمتّع بموهبةٍ في كسب المال. إذ كانت أفكاره حسيّفةً وحده متينًا. بل أهمُّ من ذلك أنّه استطاع أن ينقذ بصيرته إلى داخل

نفوس الناس. ولطالما افتخرَ دَسِمُسُ بقدرات ابنه الطبيعيَّة، غير أنَّه لاحظَ في خُلُقِ ابنه ناحيةَ أحزنته كثيرًا. فزُغم سِحْرَ مَرْقُسَ وذكائه الكبيرين، دأبَ في استغلال الناس.

وتذكَّرَ دَسِمُسُ أوَّلَ مرَّةٍ أدركَ فيها كم بات ابنه صُلْبًا. كان ذلك منذ ثلاث سنين، ومَرْقُسُ ابنُ تسعِ عشرة.

”في الرَّمْلِ ذهبُ أكثرَ ممَّا في الحنطة، يا أباي.“

”الناس يحتاجون إلى الحنطة.“

”إنَّهم يطلبون الألعاب، ولا يمكنُ إجراءَ الألعابِ من دون الرَّمْلِ لامتناسص الدَّمِ المُرَاق.“

”المثأتُ جياغٌ ومحتاجون إلى الطَّعام. يجب أن نفكِّر في ما هو أصلحُ لشعبنا.“

أنداك تحدَّاه ابنه أوَّلَ مرَّةٍ. ”أحضِرُ سفينتين، إحداهُما مُحَمَّلَةٌ حنطَةً والأخرى رملًا، لترى أيُّ الحمولتين يُدْفَعُ ثمنُها وتُفَرَّغُ أوَّلًا. فإنَّ كانتِ الحنطة، أفعلُ مهمما طلبتِ طوال السنة التالية. ولكنَّ إن كانتِ الرَّمْلُ، تُولِّيني إدارةَ سِتِّ سُنِّ، أفعلُ بها ما أشاء.“

كان دَسِمُسُ واثقًا جدًّا بأنَّ الحاجةَ سترجِّحُ على الرِّغبة، أو ربَّما كان يأمل ذلك.

وفي الأخير، حازَ مَرْقُسُ سِتِّ سُنِّ. وطالما كان ذلك كَيْفَةً في قلب دَسِمُسُ حتَّى اعترفَ لنفسه الآن بأنَّه انفرجَ إذ عَلِمَ أنَّ مَرْقُسَ سيملاً تلك الشُّفْنُ خشبًا وحجارة، لا مزيدًا من الرَّمْلِ أو الضَّحايا لأجلِ ساحةِ المحاربين.

تنهَّدَ الأب. لقد كانتَ فيبي على خطإٍ في قولها إنَّ مَرْقُسَ بلا هدف. فإنَّه كان ذا هدفٍ موحَّدٍ في سعيهِ وراءَ الغنى والمتعة، مُحَصِّلًا منهما كلَّ ما استطاع.

عند البابِ الأماميِّ، طرحَ مَرْقُسُ عباءته على جسمه، وقبَّلَ جوليا في جبينها. ”سأصطحبُكِ إلى الألعابِ عندما تكونين قد كبرتِ قليلًا.“

حَبَطَتْ جوليا الأرضَ بقدمها المُصنَدَلَة على نحوٍ أنيق، وقالت: ”إنِّي أكرهك عندما تتفضَّلُ عليّ، يا مَرْقُسُ.“ وما إنَّ فتحَ الباب، حتَّى أسرعَتْ وتشبَّثتْ بذراعه. ”رجاءً، مَرْقُسُ! لقد وعدتني.“

فقال مُتضاحكًا: ”ما فعلتُ شيئًا كهذا.“

”حَسَنًا، حسبتُ أنَّك وعدت. أه، مَرْقُسُ. هذا ليس إنصافًا. لم أحضِرِ الألعابِ

قطّ، وسأموتُ حقًّا إن حُرِمْتُ ذلكَ“ .

”تعرفين أن أُمِّي ستقطعُ رأسي إن اصطحبْتُكُ“ .

”ستُسامِحُكُ بأيّ شيءٍ، وأنتِ تعلمُ هذا. أضيفُ أنّه لا داعيَ لأن تعرفَ أُنّا. في وُسْعِكَ أن تقولِ إنَّك أخذتني في جولةٍ بعَرَبَتِكَ الجديدة. هَلّا تأخذُني إلى المدرِّجِ مُدَّةَ ساعةٍ أو ساعتين. رجاءً يا مَرُقُسُ! إذلالٌ فظيعٌ أن أكونَ بين صديقاتي الوحيدة التي لم تُشاهدِ مُباراةً في ساحةِ المحاربين“ .

”سأفكرُ في الأمرِ“ .

علِمْتُ جوليا أنّه يُماطلُها. فتراجعتُ قليلاً وأمالَتُ رأسها، قائلةً: ”قالت لي غلافيرا إنَّك تصطحبُ أريا. وهي لا تكبرُني إلا بثلاثِ سنواتِ“ .

قال: ”أريا هي أريا!“

”ليس من شيمِ الرُومانِ عدمُ مُشاهدةِ الألعابِ“ .

وضعَ مَرُقُسُ يدهَ بِسُرعةٍ على فمها وأسكَّتْها. ”أيّ فورةٍ عاطفيّةٍ أخرى، وانسي الموضوع!“ واغرورقتُ عينها حالاً، فلانَ مُجاهمها. ”سواءً وافقتُك أم لا، فالآنَ ليس أنسبُ وقتٌ لي لاصطحابِكِ إلى أيّ مكانٍ“ .

قالَتِ مُتهكِّمةً: ”لأنَّك خيَّبتِ أملَ أبينا بافتقاركِ إلى الطُمُوحِ النبيلِ؟“

”لستُ أرى شيئاً نبيلاً في السياسة، ولا في الزَّواجِ“ .

فاتسَعَتِ حَدَقَتنا جوليا، وقالت: ”أبونا يريدُ لك أن تتزوَّجَ؟ بَمَن؟“

”لقد لَمَحَ فقط، ولم يُقدِّمِ أيّ اقتراحٍ“ . وبينما سرَّته جوليا بثرثرتها التي لا تنتهي، لم يُردُ أن يبلغَ خبرَ رَفْضِهِ لأوليمبيا إلى باب آل غاربيالدي على يدِ واحدةٍ من صديقاتِ جوليا الصغيرات. ثمَّ إنَّه لم يرفضُ أوليمبيا بمقدار ما رفضَ الزَّواجَ نفسه. فإنَّ مُجرَّدَ فكرةٍ قضائه باقِي عمره مع امرأةٍ واحدةٍ كانتِ فكرةً مُروَّعةً.

كان قد فكَرَ حيناً أن يتزوَّجَ بأريا، في أوجِ علاقةِ الحُبِّ الجامحة التي جمعتَهما. إنَّما حُسُّه الحَسَنُ أبقاه صامتاً. أريا، أريا الجميلةُ المُثيرة. في البداية، كان مُجرَّدَ التفكيرِ في الأمرِ يؤتِيه بهجّةً قُصوى. وكان بعضُ الأحيانِ يُحسُّ دمهَ يَغلي لمُجرَّدِ مُشاهدتها وهي تصرخُ على مُحارِبين يتصارعان في ساحةِ المحاربين حتّى الموت. ما زالت أريا مُمتعةً، وما زالت فاتنةً وذاتِ فكاهاةٍ محبَّبة، ولكنْ رُعِمَ كلُّ ما لديها من أوجهِ الفتنة كانت قد بدأتِ تُصجِرُه.

”قضيئنا، أنت وأبوك، أكثر من ساعةٍ معًا. فأنت إنما لا تريد أن تقول لي من هي. لا أحد يُخبرني بأي شيءٍ أبدًا. لستُ بعدُ طفلةً، يا مرقس“.

”إذًا، كُفّي عن التصرّف كطفلة“، وقبّلَ خدّها. ”عليّ أن أذهب“.

”إن لم تأخذني إلى المدرّج، أقولُ لأُمّي ما سمعتهُ عنك وعن زوجةِ پتروپس“.

صُعبٌ، ولم يستطع إلا أن يضحك. ”لم تسمعي ذلك خلسةً في هذا البيت. أراهن على أنّك سمعته من إحدى صديقاتك الصغيرات الفاسدات“، ثمّ برّمها بسرّعة، وصفّعَ ففأها صفعَةً قويّةً جمّدتها. فأطلقت زعقةً ألم، وتحرّرت منه نترًا، وعيناها السوداوان تقدحان غيظًا.

نظرَ إليها من علّ مكشّرًا. ”إن قبّلتُ أن اصطحبك...“ فهدأت جوليا في الحال إزاء إزعاجه، وقد تألّقت على وجهها الجميل ابتسامةً ظفّر. ”قلّت إن، أيتها الساحرة الصغيرة. إن قبّلتُ، فلن يكون ذلك لأنك هددتِ بترديدِ شائعاتٍ عن زوجةِ شيخ!“

فبورّزت تبيوّرًا جميلًا، قائلةً: ”أنت تعرفُ أنّي لن أفعلَ ذلك حقًا“.

قال: ”لن تُصدّقكِ الوالدةُ إن فعلتِ“، وهو يعلمُ أنّ أمّه لم تُصدّق يوماً الأسوأ عنه.

وكانت جوليا أيضًا تعلمُ ذلك. ”لطالما رغبتُ في حضورِ الألعاب“.

”سيغمي عليكِ على الأرجح عندما ترين الدّمَ أوّلَ مرّة“.

”أعدك أنّي لن أُخزبك، يا مرقس. حتّى إنّي لن أُجفل، مهما سأل من دم. أقسم على ذلك. متى سنذهب؟ غدًا؟“.

”ليس بهذه السرعة. سأخذك في المرّة التالية التي يتعهّد فيها أنتيغونس الألعاب“.

”أوه يا مرقس، إنّي أحبّك. أحبّك كثيرًا“. قالت هذا وهي تُعانقه. فابتسم بمودّة، قائلاً: ”نعم، أعلم. ما دمتِ تحصلين على ما تريدن!“

E

خَرَجَ مَرْقُسُ إِلَى الشَّارِعِ وَتَنَفَّسَ مِنْ هَوَاءِ اللَّيْلِ تَنَفُّسًا عَمِيقًا. وَقَدْ سَرَّ بِأَنْ يَصِيرَ خَارِجَ الْبَيْتِ. كَانِ يَحِبُّ أَبَاهُ، وَلَكِنَّ لَدَيْهِ هُوَ أَسَالِيْبٌ تَفْكِيرٍ مُخْتَلِفَةٌ بِشَأْنِ الْأُمُورِ. فَلِمَاذَا تَشْتَغَلُ إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَتَوَيَّ أَنْ تَسْتَمْتَعَ بِجَنَى تَعْبِكَ؟

لَقَدْ رَاقَبَ حَيَاةَ أَبِيهِ. كَانِ الْفَالِيرِيَانِيُّ الشَّيْخُ يَنْهَضُ عِنْدَ السَّاعَةِ صَبَاحًا، وَيَقْضِي سَاعَتَيْنِ فِي الْأَثْرِيَوْمِ، صَحْنِ الدَّارِ، مُوزِعًا الْمَنَحَ عَلَى الزَّيَّاتِنِ الَّذِينَ كَانِ مُعْظَمُهُمْ قَدِ انْقَطَعُوا عَنِ الْعَمَلِ مِنْذُ سَنَيْنِ. ثُمَّ يَتَنَاوَلُ فُطُورًا ضَمِيلًا، وَيُغَادِرُ إِلَى الْمَخَازِنِ. وَفِي وَقْتٍ مُتَأَخَّرٍ مِنْ عَصْرِ النَّهَارِ، يَتَمَرَّنُ فِي الْجِمْنَازِيَوْمِ وَيَسْتَرخي فِي الْحَمَّامَاتِ، مُتَحَدِّثًا مَعَ أَرِسْتَقْرَاطِيِّينَ وَسِيَاسِيِّينَ، وَتُجَّارٍ أَغْنِيَاءَ آخَرِينَ. ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْبَيْتِ لِيَتَعَشَّى مَعَ زَوْجَتِهِ وَعَائِلَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُوَ إِلَى كُتْبِهِ. وَالْيَوْمَ التَّالِيَّ شَبِيهُ الَّذِي قَبْلِهِ، وَالْحَالُ عَلَى الْمَنَوَالِ نَفْسَهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بَعْدَ آخَرَ.

أَرَادَ مَرْقُسُ مِنَ الْحَيَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. أَرَادَ أَنْ يُحِصَّ دَمَهُ يَتَدَفَّقُ فِي عُرُوقِهِ، كَحَالِهِ فِي سَبَاقِ الْعَرَبَاتِ، أَوْ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ مُبَارَاةٍ جَيِّدَةٍ بَيْنَ مُحَارِبِينَ، أَوْ فِي رِفْقَةِ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ. وَكَانِ يَسْتَمْتَعُ بِتَرَاخِي الشُّكْرِ بِخَمْرَةٍ جَيِّدَةٍ، أَوْ بِالْمُشَارَكَةِ فِي لَيْلَةٍ هَوَىٰ وَلَذَّةٍ. وَيُرَوِّقُهُ أَنْ يَتَذَوَّقَ مَا كَلَّ فَآخِرَةً جَدِيدَةً وَنَادِرَةً. وَيَهْوَى مُشَاهَدَةَ الرَّاقِصَاتِ وَسَمَاعِ الْمُغَنِّينَ وَحُضُورِ الْمَسْرِحِيَّاتِ. كَانَتْ الْحَيَاةُ جَوْعًا يَنْبَغِي إِشْبَاعَهُ. وَقَدْ أُعِدَّتِ الْحَيَاةُ كَيْ تُبْتَلَعَ، لَا كَيْ تُرَشَّفَ. وَلَكِنَّ الْعَيْشَةَ تُكَلِّفُ مَالًا... كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ.

رُغِمَ جَمِيعُ خُطْبِ أَبِيهِ وَطَرُوحِهِ، كَانِ عَلَى يَقِينٍ بِأَنْ مَا يُدِيرُ رُومًا وَالْعَالَمَ لَيْسَ الشَّرْفُ، بَلِ الذَّهَبُ وَالنُّقُودُ. فَالْمَالُ يَشْتَرِي الْأَحْلَافَ، وَالْأَتْفَاقَاتِ التِّجَارِيَّةَ؛ وَالْمَالُ يُدْفَعُ أَجُورًا لِلْجُنُودِ وَثَمَنًا لِلْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ فِي سَبِيلِ تَوْسِيعِ حُدُودِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ. وَالْمَالُ اشْتَرَى السَّلْمَ الرُّومَانِيَّ^١. نَزَلَ مَرْقُسُ بِخَطِيئَةٍ ثَابِتَةٍ مُنْهَدِرَ التَّلِّ الْأَفِيئْتِينِيَّ. كَانَتْ الْمَدِينَةُ تَعِجُّ بِاللُّصُوصِ الْمُتْرِبِّصِينَ بِضَحِّيَّةٍ غَافِلَةٍ يَنْقُضُونَ عَلَيْهَا. وَكَانَ مَرْقُسُ حَذِرًا، اسْتِجَابَاتُهُ الطَّبِيعِيَّةُ سَرِيعَةٌ وَخَنَجَرُهُ حَادًا. حَتَّى كَانِ مِنْ شَأْنِهِ تَقْرِيْبًا أَنْ يُرْحَبَ بِهَجُومِ يَسْتَهْدِفُهُ. فَإِنَّ عِرَاكًا جَيِّدًا دَامِيًا قَدْ يُصَرِّفُ الْحَيَاتِ الَّتِي أَتَارَهَا أَبُوهُ بِمَطَالِبِهِ وَتَوَقُّعَاتِهِ. لِمَاذَا هَذَا التَّرْفُعُ الْمُفَاجِئُ عَنِ الْمَالِ مِنْ قَبْلِهِ، وَهُوَ قَدْ

١٠ السَّلْمُ الرُّومَانِيَّ (Pax Romana) هُوَ حَقِيقَةٌ كَانَتْ فِيهَا دَوْلُ حُوضِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ تَحْتَ الْحُكْمِ الرُّومَانِيَّ، فَكَانَ الشَّرْفُ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْمُتَوَسِّطِ مِيسُورًا وَأَمِنًا (النَّاشِر).

قضى عمره مُكدِّسًا للمال؟ ثمَّ أطلقَ مرقُسَ ضحكةً خشنة. على الأقل، هو كان صادقًا في نشدانه الغنى. فهو لم يتظاهر بأنَّه يزدرى بذلك الذي يسرَّ له نطَّ الحياة الذي ابتغاه.

صارت قعقة العجلات أعلى إذ اقترب مرقُس من الشوارع العامة. فإذا العرَّباتُ المجرورةُ المحمَّلةُ بضائعٍ تجري مُجهَّدةً في أنحاء المدينة، مُثيرةً ضجيجًا يصدعُ الرأسَ أكثرَ من ذلك الذي تُحدِّثه معظمُ المَراكِز. كان ينبغي له أن يُغادرَ البيتَ في وقتٍ أبكر، قبل رَفَعِ الحَظَرِ عن المركباتِ المُدوَّلةِ الداخلةِ إلى روما.

تخطى مرقُسَ الشوارعَ العامةَ وسلكَ الشوارعَ المتعرجة، مُحاولًا تجنُّبَ حركة السَّيرِ الكثيفة. وظلَّ قريبًا من الجدرانِ حتَّى لا يتبلَّلَ بالماء الذي يطرح من النوافذ العُلَيَا. وبينما هو يعبرُ شارعًا عريضًا رئيسيًا، رأى عربةً تنقلب. وإذا براميلُ الخمرِ تفلَّتْ من حبالها وتندرج، والرجال يصيحون والأحصنة تصهل. وأهوى السائقُ اليونانيُّ بكرابجه على رجلٍ حاول أن يُدحرج برميلًا ليسرقه. وبدأ رجلان آخران يتعاركان في الشارع.

اصطدمَ بمرقس بائعُ جِوَالٍ يحملُ إبريقَ خمرٍ وسلَّةَ خُبز، وعلى كَتِفِهِ فخذُ خنزير. فشمَّته مرقُس ودفعه جانبًا ومضى شاقًا طريقه وسط الحشْد. ولما نفذ، توجه إلى جسر التَّيْبِر. كانت رائحةُ الغائطِ الكريهة قويَّة. وحياةِ الآلهة، تاقَ إلى نَسَمَةِ من هواء الرِّيفِ المنعش! لعلَّه يعمدُ إلى الاستِثمارِ في أرضِ جنوبِ كاپوا. فالمدينة أخذتُ في النُموِّ والأسعارُ سترتفع.

عبرَ الجسرَ بخطى واسعة، ومشى جنوبًا نحو حدائق يوليوس. لم يكن بيتُ أنتيغونُس بعيدًا جدًّا، وتلك المشية نفعته.

فتح البابَ عبدٌ زنجيٌّ. كان طولُ ذلك الإثيوبيِّ نحوَ مترين، وهو قويُّ البنية. وإذا تأمله مرقُس صعودًا ونزولًا، قرَّر أنه لا بدَّ أن يكون واحدًا من مُقنَّبات أنتيغونُس الأفريقيَّة الجديدة. فإنَّ أنتيغونُس كان قد تحدَّث بشأن شراءِ محاربٍ مُدربٍ يجعله حارسه الشخصي. ورأى مرقُس أن تلك نفقة لا مُسوّغَ لها، ما دام الأرسطراطيُّ الشابُّ لم يصِرْ بعدُ في وُضْعٍ يُعرِّض حياته للخطر.

قال مرقُس للعبد: ”مرقس لوشيانُس فاليريان“.

فانحنى الزنجيُّ كثيرًا، وصحبَ مرقُس إلى غرفةِ اللواتمِ الواسعة عبرَ الرُّدهة. كان جوُّ كئيِّبٍ مخيمًا على الغرفة المضاءة على نحوٍ قائم. وكان شابان حَسَنًا البنية، حولَ خصرٍ كُلُّ منهما مِعْزُزٌ وعلى رأسه إكليلٌ من ورق الغار، يعزفان موسيقى سوداويَّة على مزمارٍ وقيثار، فيما أصدقاؤُ أنتيغونُس يتحدثون همسًا. وقد اتَّكأ بعضهم على أرائك وهم

روما

يأكلون ويشربون. وكان پترووس يحتل أريكة، وبقره طبق أطعمة شهية. ولم ير مرقس زوجة الشيخ، فانيا، فساءل نفسه هل ذهبت إلى ضيعتهما الريفية حسب الخطة.

وجد مرقس أنتيغونوس متكئاً ومستمعاً بخدمات جارية نوميدية حسناء. فاقرب إليهما. وإذ كتف ذراعيه، استند إلى عمود زحام لاويًا فمه بابتسامة ساخرة وهو يُراقبهما لحظات قليلة.

”أه أنتيغونوس، لما غادرت حضرتك الجليلة ظهر اليوم، كُنَّا نُفكر في القيام برحلة عبر نهر ستايكس. وما أنا أجذك هنا تعبد الإله إروس“.

فتح أنتيغونوس عينيه، وحاول التركيز. وإذ تملص، صرف الفتاة بدفعة خفيفة، ووقف مُتقلِّبًا، سكرانًا على نحو واضح. ”عزيزي مرقس، هل إلى جنازة جئت أم إلى احتفال؟“

”إلى احتفال بالتأكيد. لقد وعدتُك، أليس كذلك؟ ستحصل على ما تحتاج إليه في أثناء هذا الأسبوع“.

أطلق أنتيغونوس نفسه بارتياح كبير. ”حمدًا للآلهة على سخائها!“ . ولدى ملاحظة نظرة مرقس الساخرة، أضاف الأرستقراطي الشاب حالاً: ”وعلى عائلتك بلا ريب“. ثم صفق بيديه، فأجفل ستة ضيوف من تراخيهم: ”أوقفنا هذا اللحن الجنائزيّ واعزفنا لنا شيئاً أكثر حيوية“. وأوماً لعبدٍ بصيقي صدر. ”هات لنا مزيداً من الخمر والطعام“.

قعد أنتيغونوس ومرقس، وبدأ يتناقشان في خطّهما بشأن الألعاب التي سيقمها أنتيغونوس إكراماً للإمبراطور. فقال أنتيغونوس: ”يجب أن يكون لدينا شيء جديد ومُشوق لتسليّة إمبراطورنا النبيل فسبازيان. ربّما ثور. قلت لي إن إحدى قوافلكم وصلت منذ بضعة أيام“.

لم يكن مرقس ينوي قط أن يبيع أنتيغونوس ثوراً يؤدى ثمنها من مالٍ سُحب من خزينة أهله. فإن هبة قدرها نصف مليون سسترس كانت كافية، من دون إضافة حيوانات ثمينة إليها. ”قد يتلقى الشعب، على نحو أفضل، تمثيلاً لواحدة من معارك الإمبراطور الأكثر نجاحاً في منطقة اليهودية“.

قال أنتيغونوس: ”وصل خبرٌ يفيد أن مدينة القدس دُكت. لقد حوصرت تلك المدينة المهجورة خمسة أشهر، وقُتل آلاف من جنودنا. أه، ولكن كان الأمر يستحقّ عناؤه، علماً بأن أولئك القوم الأردباء كادوا يُفنون جميعهم“. ثم فرّق أصابعه، فأقبل سريعاً عبداً يحمل صينيةً فاخرة. فانتقى أنتيغونوس حبة تمر. ”ساق تيطس تسعين ألفاً من الأسرى إلى قيصرية“. وعلّق مرقس قائلاً: ”إذا باتت بلاد اليهودية أخيراً في سلام“.

”في سلام؟ هه! ما دام يهودي واحد حيًا، فسيكون عصيانًا مُسلحًا، لا سلام البتة!“
 ”قوة روما كامنّة في تسامحها، يا أنتيغونوس. فنحن نسمح لشعبنا بأن يعبدوا أيّ
 إلهة شاءوا.“

”على أن يعبدوا الإمبراطور أيضًا. أمّا هؤلاء اليهود، فقد بدأ جزء من هذا البلاء
 لأنهم رفضوا تقبّل تقديم قرابين لإمبراطورنا في هيكلكم. وقد زعموا أنّ ذبائح الأجنبيّين
 تُدنّس مقامهم المقدّس. حسنًا، الآن ليس عندهم مقامٌ مقدّس“. ثمّ دسّ حبة التمر في فمه
 وهو يضحك.

تناول مرقس خمرًا قدّمها فرثيّة جميلة، قائلاً: ”لعلهم الآن يتخلّون عن إيمانهم التافه.“
 ”قد يفعل بعضهم ذلك، ولكنّ أولئك الذين يدعون أنفسهم أبرارًا لن يُدعِنوا
 أبدًا. فالأغبياء ينظرون ساجدين أمام إله لا يستطيعون أن يروه، ويرفضون حتّى الموت
 أن يحنوا رقابهم قليلاً للإله الحقيقي الوحيد، الإمبراطور.“

نقل پترويس جسمه الضخم على أريكة قريبة. ”على الأقلّ هم أكثر إمتاعًا من أولئك
 المسيحيّين الجبناء. حاصر يهوديًا في مواجهة أيّ شخص فأنتك ترى بأية صراوة يُقاتل، ولكنّ
 صنع مسيحيًا في ساحة المحاربين، فإنّه يجثو على ركبتيه ويرمّ لإلهه غير المنظور، ماثًا دون أن
 يرفع إصبعًا للدفاع عن نفسه“. ثمّ تناول لونا آخر من الطّعام الشهّي عن الطّبق الفضيّ،
 قائلاً: ”إنهم يرضونني.“

كان مرقس يتذكّر جيّدًا مئآت المسيحيّين الذين أمر نيرون بإعدامهم. حتّى إنّه غمس
 بعضهم بالقار والزّفت وأضرمّ فيهم النار ليكونوا مشاعلًا للألعاب. وقد كان الرّعاع متعطّشين
 إلى دماء المسيحيّين في أعقاب مزاعم الإمبراطور أنّ أتباع تلك الطائفة أضرموا النار في روما،
 إتمامًا على ما يظنّهم لنبوتهم بأنّ العالم سينتهي محترقًا بالنار. ولكنّ الرّعاع لم يكونوا على علم
 بأحلام نيرون الخاصّة بشأن مدينة جديدة يُسمّيها باسمه.

إنّ مشاهدة رجالٍ ونساءٍ يموتون بلا قتال خلّفت لدى مرقس شعورًا غامضًا بالقلق،
 انزعاجًا نهشّه نهشًا. وبينما دعاهم پترويس جُبناء، لم يكن مرقس متيقنًا بموافقة على ذلك
 التّخمين. فمن شأن الجبان أن يهرب أمام أسدٍ يهاجمه، لا أن يقف ثابتًا في مواجهته.

مال أنتيغونوس نحو مرقس، وهمس بينما تعلق وجهه ابتسامة مأكرة: ”وصلت أريا الحسنة.“
 دخلت أريا من الحدائق، ضاحكة مع شائتين أخريين. كان رؤها الأبيض ملفوفًا بأناقة
 حول جسمها الأهيّف، وخصرُها النحيف مُطوّقًا بحزامٍ عريضٍ مرصّع بالذهب والجواهر،

على طراز حِزامِ رَأْتِ أَحَدَ المحاربين يرتديه في ساحة المحاربين. كَانَتْ قد دَأَبَتْ في تبييض شعرها الأسود بِالرَّبْدِ البَتَاقِيِّ، وَكَانَتْ خُصِّلَ شعرها الشقراءُ الآنَ مَصفورةً وملتفةً في حلقات على رأسها الشامخ. وقد تُرِكَتْ لُفيقاتُ شعرِ كَأَنَّهَا إطَارُ لَوَجْهها ذي التقاسيم الناعمة.

ابتسمَ مَرُقُسُ ابتسامَةً واهية. يا لَلطهارة والأوثنة الهشَّة! كم من رجالٍ خدعتهم تلك الصُّورةُ الحُلوة، فيما تكمُنُ وراءها شهوةٌ شرَّهة، وشاذَّةٌ أحيانًا؟

أجالتَ بصرها حتَّى رأته، فابتسمت. كان يعرفُ تلك النَّظرةَ جيِّدًا، ولكنَّه لم يعدُ يستجيبُ لها كعادته في بدايةِ علاقتهما. فَرُغَمَ رَدُّه الابتسامَةَ لها، كاد يتمنَّى لو لم تحضُر. فالحرِّيَّةُ التي كان قد شعرَ بها قَبْلَ لحظة، تلاشتْ لدى عبورِ أريَّا الغرفة.

اتَّكَأت على أريكته بلِّبَاقَة، قائلَةً- وفي صوتها العذب لسعة خافتة- ”مَرُقُسُ، المُخلِصُ دائمًا. سمعنا الموسيقى تتغيَّرُ ونحن في الحدائق. أدركتُ أنَّك أنقذت عزيزنا أنتيغونُس من الإفلاس“.

أدهشته نبرتها الحادَّة، وأمسكَ يدها الصغيرة البيضاء ثُمَّ قَبَّلها. كَانَتْ أصابعها باردةً ومرتعشة. وكان شيءٌ ما ناقصًا. فقال: ”في الوقت الحاضر فقط، إلى أن يتمكنَ من حيازة مقعدٍ في مجلس الشيوخ، ويبدأ الاستفادة من الخزينة العامَّة“.

عندها لَانَ فمُها، وقالت: ”إنَّ هواءَ المساء مُنعش، يا مَرُقُس“.

فقال أنتيغونُس، لاويًا فَمَه بِضِحْكةٍ ساخرة: ”هو كذلك فعلاً، فتمتَّع به ما دام الأمرُ في وُسْعِكَ، مهما كَلَّفَكَ ذلك“. وَعَصَرَ ذلك اليوم ذاته، كان قد تحرَّى عن أريَّا: ”لماذا، يا مَرُقُس، يقوى شغفُ امرأةٍ ما برجلٍ مُعيَّن، فيما يَضْعُفُ شغفُه بها؟“ فقد بدا جليلاً للجميع، ما عدا السيِّدة المَعْنِيَّة، أن مَرُقُس أخذَ يعتريه السَّامُ منها.

نهَضَ مَرُقُسُ، ووضعَ يدَ أريَّا على ذراعه، ثُمَّ خرجا إلى الحدائق، حيث تَمَشَّيا على الممرِّ الرُّخاميِّ تحت ضوء القمر. لم يُقلِّل مَرُقُسُ قَدْرَ أريَّا. فما كان مُمكنًا نَبَّذها بسهولة، إذ قصَّت معه زمناً أطولَ ممَّا قصَّت مع سائرِ مُحبِّيها. وعلمَ أن الأمرَ يتعلَّقُ بِسألته أقلَّ منه بطبيعته. فبينما قَتِنَ بها من البداية، لم يَقَعْ كُلِّيًا قَطُّ في أسْرِ سِحْرها، وهذا اختبارٌ لم تُكنَ أريَّا الشابَّةُ قد تعودته.

قالت: ”هل رأيتَ تمثالَ أنتيغونُس الأخير؟“

”أفروديت؟“ رُغَمَ رِضَى أنتيغونُس التامِّ بصنيعِ فَنَّانِيه اليونانيين، لم يتأثر مَرُقُسُ بالتحفة المنجزة. فهو لم يعتقد أن أنتيغونُس سيَجْني ربحًا وافراً من ذلك التمثال المبدع

المقيت. وأبوه كان على حق في تقديره لأنار أنتيغونس الفنيّة. فكل ما استحقته كان شجرة سُحرية تقريبًا.

”ليس تمثال إله هذه المرّة، حبيبي. أعتقد أنّ هذا الأثر هو أفضل ما صنعه. وعليه أن يطلب ثروة فيه، إلاّ أنّه خبأه بعيدًا لنفسه. لقد أراني إيّاه في وقت مبكر من هذا المساء، ولكن لم يره أحد سواي“. ثمّ اصططحته على المرّ إلى طرف الحدائق البعيد. ”إنّه في تلك الناحية، وراء تلك الشجيرات الصغيرة“.

كان منصوبًا في حوض زهور بقرب سور الرّخام العالي تمثال رجل واقف وراء شايّة حسنة ذات شعر طويل مُتهدّل. رأسها مائل إلى جهة واحدة، وعيناها محفوظتان. ويذا الرجل على كتفها وعلى وركها. وقد أضفى النحات على هاتين اليدين قوّة بحيث بدا أنّ الرجل يُحاول أن يعطف الشايّة ويُعانقها. وجسمها الفتّي الأهيف يفيضُ مقاومةً وبراءة. إنّما كان فيها أيضًا هوى مكبوت. فعيناها مستورتان وشففتاها مُنفرجتان كأنها تُحاول أن تأخذ نفسًا. وقد بدا الصّراع مع الرجل أقلّ منه داخل نفسه.

قالت أريا: ”انظر إلى وجه الرجل. في وسعك أن تشعر برغبته وخبّيته. أمر... مؤثّر جدًا، أليس كذلك؟“ ثمّ هوّت بمرّوحتها على وجهها.

وقف مرّقس بلا حراك مُتأملًا التّمثال، وقد أذهله أن يجد ضمن مجموعة أنتيغونس أثرًا رائعًا كهذا. إنّ تقييم أريا دقيق. فهذه تحفة، وهي تستحقّ ثمنًا جيّدًا. ولكنه كان يعلم أنّ أيّ شيءٍ يقوله الآن سيُكرّر في مسمع أنتيغونس، ويسهم في زعّ سعره إن قرّر بيع التّمثال. ومن ثمّ رمق مرّقس خطوط الرّخام الأبيض النقيّة الأنيقة بشيءٍ من اللامبالاة. ”إنّه أفضل نوعًا ما من نتاجه المعتاد“.

”أليس في وجهك نظر، يا مرّقس؟“

”أعتقد أنّه سينال لقاء هذا سعرًا أفضل من أسعار أغلب التّوافه التي يبيعها“. ولو كان هذا التّمثال ملكه هو، لما تحلّى عنه. ولكن على كلّ حال، لم يكن دخله يتوقّف على فرقة نحاتين يصنعون آلهة وإلاهات من حَجَر لثنصّب في حدائق الأغنياء.

”توافه! هذه تحفة، وأنت تعرف هذا جيّدًا“.

”لقد رأيت عَشْرَاتٍ مثلها تمامًا في نصف حدائق پلاتين“.

”ولكن لم تر قطّ واحدةً مثيرةً للمشاعر كهذه“.

رجل

صحيح، على مرقس أن يعترف بذلك. فالفتاة تُحاكي الحياة تمامًا، حتى لقد أحس أنه لو مسها لوجدتها دافئة.

تقوس فم أريا. ”قال أنتيغونوس إنه طلب نحت الرجل وراءها من أجل الحشمة.“
ضحك مرقس ضحكة خافتة. ”متى صار أنتيغونوس مهتمًا بالحشمة أو بالرقباء والحسباء؟“

قالت أريا: ”إنه لا يريد إثارة استياء المحافظين في مثل هذا الوقت الحساس من مسيرته السياسية. ألم يُعجبك التمثال؟ إنني أستطيع الجزم بناءً على ذلك الألق النهم في عينيك. هل تملك واحدًا من تماثيل أنتيغونوس؟“

”بالكاد! إن لصناعه عين العائمة، وذوقي لم يمل يومًا إلى النساء البديئات.“

”إن أنتيغونوس لا ينحس نساءً بديئات البتة، يا مرقس. هن شهوانيئات. وأنت تعرف الفرق يقينًا.“ ثم رفعت نظرها إليه، وأضافت: ”فانيا بدينة.“

منذ لحظات سمعت أريا الشائعات عن لقائه العابر مع زوجة الشيخ. لم ترقه النظرة الامتلاكية على وجهها. ”مكتنزة أو ممتلثة وصف لها أفضل جدًا، يا أريا، وأصح بكثير.“

برقت عيناها السوداء وان. ”إنها تشبه حمامة متخممة!“

”أريا، خلوتي، مؤسف أن تُصدقي كل ما تسمعيه.“

ارتفع ذقن أريا. ”أغلب الشائعات لا تبدأ دون أساس من الصحة.“

”أليس مُدهشًا كيف تعرفين عن نشاطاتي أكثر بكثير مما أعرف أنا؟“

”لا تهزأ بي، يا مرقس. أنا أعلم أن الأمر صحيح. فانيا كانت هنا، وكانت مُعتدة بنفسها جدًا من أجل ذلك.“

احتد مرقس قائلاً: ”وحياة الآلهة، ماذا ستفعلين؟ تستجوبيتها أمام پترويس؟“ ففي أوقات من هذا النوع كان مرقس يجتد النساء على العموم مصدرًا انزعاج ملعونًا.

”كان پترويس مُشغلاً بحشو فمه بأكباد الورد فلم يهتم أي اهتمام.“

”إنه يهتم بفانيا اهتمامًا قليلًا. وذلك جزء من مُسكلتها.“

”وأحد الأسباب التي جعلتها ناضجة تمامًا حتى تقطفها. أليس كذلك؟ يُحيل إلي أنك قابلتها في حدائق يوليوس فقط بداعي الإشفاق عليها في مِحنتها المُحزنة.“

”خفضي صوتك!“ إنه لم يعمد إلى أي قطف. فقد كانت فانيا هي التي بادرت

إليه في أثناء إحدى حفلات الألعاب. ولم يُقابَلها في الحداث إلا لاحقاً، حيث قضى معها عصرَ نهارٍ طويلاً وحميماً.

”إنَّها حنْزيرة!“

صرَّ مرقسُ بأسنانه. ”وأنتِ، عزيزتي أريا، مُصْجِرة“.

جمدَت أريا هُنيئةً، وقد أذهَلها الهجومُ المفاجئُ، ثُمَّ انفجَرَ غضبُها، وحاولتُ أن تصفَع مرقس. غيرَ أنَّه أمسَكَ مِعصَميها بسهولة، وتضاحك من قُورة غضبها.

”مُصْجِرة، أأنا كذلك؟“ ووافتها الدُموعُ تَوًّا، فزادتُ سُخْطَها بعد. ”أيُّها الكلبُ الخائن!“

”وأنتِ يا عزيزتي، كانتِ لكِ لَحَطَاتُ الخيانةِ الخاصَّةِ بكِ. مثلاً ذلك المُحارِبُ ذو الشَّبْكة. أتذكُرين؟ لِمَ تُطِيقِي صبراً حتَّى تُخبريني“.

”فعلتُ ذلك لِأثِيرِ عَيرتك!“

كانَ امرأً يسرُّها أن تعلمَ أنَّه اشتعلَ غِيظًا لما حَكَّتْ له تفاصيلَ لقائِها مع أحدِ المُحاربين. وقد صرفَها من ذهنه، مُشمئزًا من تباهيتها الأجوْفِ وسُرعة غضبه هو.

عَضَّت أريا شفتيها وهي تتأمَّلُه حينًا. ”ماذا حلَّ بنا، يا مرقس؟ مرَّت مدَّة لم تكُنْ تستطيعُ فيها احتمالَ البُعدِ عني“. والآن، كانتِ هي التي تتوقُّ إليه توقُّاً نَهيمًا.

كادَ مرقسُ يقولُ لها الحقيقةَ، ثُمَّ رأى أنَّ مُخاطبةَ غُورِها هو أمرٌ أفضل. ”أنتِ مثِلُ الإِلهةِ ديانا. إنَّك تُحِبِّين الصيد. لقد أسرتني منذُ مُدَّة“.

علمتُ أنَّه كان يحاولُ تهدئتها. فقالتُ بهدوءٍ: ”ولكنَّك لم تُعد في حوزتي. ليس كذلك يا مرقس؟“ وقد شعرتُ بأنَّمُ الخسارة الحادَّة. ثُمَّ اغرورقتُ عيناها. فلمُ تُحاولِ حبسَ دموعها. لعلَّ الدُموعُ تجعله يرقُّ كما جعلتُ سِواه. ”حسبتُ أنَّي كنتُ أعني لك شيئًا“.

قال: ”بل تعنين لي“، وأخذَها بين ذراعيه. ثُمَّ رفعَ ذقنها وقبَّلها. فأشاحتُ بوجهها، وأحسَّ ارتجافَها. فجذبَ وجهها نحوه من جديد وقبَّلها ثانيةً، شاعرًا بأنَّها باتتُ أقلَّ مقاومةً.

”لطالما أُعجبتُ بكِ يا أريا. جمالكُ، شغفكُ، حيويَّتُك. إنَّك تُريدين الاحتفالَ بالحياة، وهكذا ينبغي أن يكونَ واقعُ الحال. أنتِ تُريدين تحريِبَ كلِّ شيء. وكذلك أنا أيضًا“.

”أنتِ الرُّجُلُ الوحيدُ الذي أحببته يوماً، يا مرقس“.

فضحك، إذ لم يتمالك نفسه.

أفَلتت أريا من ذراعيه، وحدقت إليه، ناسية دموعها. ”كيف يمكنك أن تضحك وأنا أقول لك إنني أحبك؟“

”لأنك كذابة حلوة صغيرة. أبهذه الصبورة السريعة والمناسبة نسيت أريستوبولس وسوسيپاتر وخوزا، وبضعة آخرين؟ حتى فادس، ذلك المسكين. اعتقد أنك حاولت فقط أن تزي هل تقدرين أن تحتديبيه بعيدا عن محاربه. وقد جرت مراهنات على هذه الحكاية الصغيرة. وخسر كثيرون مبالغ ضخمة لما نجحت فعلا في جعله يُعزم بامرأة“.

ضمت أريا شفقتها جانبا، وقعدت على البنك وصالت رجليها. ثم قالت محدقة إليه بصفاقة: ”ولكن فانيا، يا مرقس. علي أن أعترض. إن الأمر مذل جدا بالحقيقة. فهي تكبرني بعشر سنين على الأقل، وليست جميلة مثلي تقريبا“.

”ولا خبيرة مثلك أيضا“.

فرفعت رأسها. ”إذا لم تكن مسرورا بها“.

”هذا ليس من شأنك“.

وانقبض فمها. ”هل تنوي مقابلتها ثانية؟“

”وهذا أيضا ليس من شأنك“.

برقت عيناها السوداءوان. ”أنت ظالم، يا مرقس. أنا أخبرك بكل شيء“.

فأمال فمه بابتسامة ساخرة. ”لأنك طائشة، وقاسية“.

اتسعت حدقتا عينيها المتوقدتين، وقالت ببراءة: ”قاسية؟ كيف يمكنك أن تتهمني

بالقساوة وأنا لم أفعل شيئا سوى إرضائك من أول الطريق؟“

”عندما يحسبُ رجلُ نفسه مُعزما بامرأة، لا يريد أن يسمع كل تفصيلة تخص

شؤونها مع آخرين“.

”وهل كنت مُعزما بي؟“ ثم قامت وذهبت إليه. ”هل أذيتك، يا مرقس؟ أفعلت

ذلك حقاً؟“

لمح الارتياح في عينيها. فقال بصراحة: ”لا“، ملاحظا وجهها يتجهم. لقد أثارته

سخطه. نعم، كثيرا ما حرّكت مشاعره، ولكن سهامها أخطأت مرمى قلبه دائما. غير أنها

لم تكن وحيدة في ذلك. فإنه ما شعر قط بشغف يحتاج كيانه تجاه أي شخص أو أي شيء.

مررت طرف ظفريها على حنكته. ”أنت إذا لا تحبني؟“

”أجِدُكَ تَسْلِيَةً مُسِرَّةً“. وإذ لاحظَ استيائها، حَنَى رَأْسَهُ وَمَسَّ شَفَتَيْهَا بِشَفَتَيْهِ مَسًّا رَقِيقًا. ”أحيانًا، أَكثَرَ مِنْ مُسْلِيَةٍ“.

بدا عليها الاضطراب. ”هل أحببتني يومًا، يا مَرْقُس؟“.

أمرٌ إصْبَعُهُ بِرَفْقٍ نَزُولًا عَلَى خَدِّهَا النَّاعِمِ، مُتَمَنِّيًا لَوْ أَنَّ مَوْضِعَ الْحُبِّ لَمْ يُثْرَ أَصْلًا. ”لا أعتقد أنني قادرٌ على ذلك“. ثُمَّ قَبَّلَهَا عَلَى مَهْلٍ. أمرٌ مألوفٌ بينهما!

لعلَّ ذلك كان الأمرُ الخَطَأَ بينهما. فلم يبقَ سِرٌّ بَعْدُ، ولا شَغْفٌ شَدِيدٌ مِنْ جَانِبِهِ. إذ إنَّ مِلْمَسَ بَشْرَةِ أَرِيَا النَّاعِمَةِ، وَرَائِحَةَ شَعْرِهَا، وَمِذَاقَ فَمِّهَا، لَمْ تُعَدِّ تَشِيرَةً. حَتَّى أَحَادِيثُهُمَا بَاتَتْ إِعَادَاتٍ مُبْلَةً. فَكُلُّ مَا أَرَادَتْ أَرِيَا أَنْ تَتَحَدَّثَ بِشَأْنِهِ كَانَ أَرِيَا. أَمَّا الْبَاقِي فَكُلُّهُ ذَرَائِعُ.

”لستُ مستعدًّا للأمرِ حَتَّى النِّهَايَةِ“. قال ذلك حَابِسًا نَفْسَهُ، مُبْمِلًا رَأْسَهَا إِلَى الْوَرَاءِ. ”لَمْ أَقُلْ إِنَّهُ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ“.

”أنا أعرفك أفضل من فانيا“.

”الآن تَنَسِّي أمر فانيا؟“

”أستطيعُ أنتَ ذلك؟ أه يا مَرْقُس، لَنْ تَكُونَ أَيُّهُ وَاحِدَةً مُثِيرَةً مِثْلِي“. وَتَحَوَّكَتْ يَدَاهَا عَلَيْهِ. ”ذَهَبْتُ إِلَى مَعْبَدِ عَشْتَارُوتِ الْيَوْمِ، وَسَمَّحَتْ لِي الْكَاهِنَةُ بِمُشَاهَدَةِ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ لِأَحَدِ الْعَابِدِينَ. هل أريك ما فعلته، يا مَرْقُس؟ أَحَبُّ ذَلِكَ؟“

دفعها مَرْقُسُ عَنْهُ بَعِيدًا، وَهُوَ مُثَارٌّ لَكِنْ مُشْمَتٌّ عَلَى نَحْوِ تَعَدُّرِ تَفْسِيرِهِ. ”مَرَّةً أُخْرَى، يَا أَرِيَا. مُسْتَبَعَدٌّ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الْمُنَاسِبُ“. فَقَدْ كَانَ مُتَنَبِّهًا جَدًّا إِلَى أُمُورٍ أُخْرَى. إِذْ كَانَ الضَّحِكُ يَنْبِعُ مِنَ الْمَنْزِلِ. وَكَانَ لِحْنُ فَرِحٍ يُعَزَفُ بِزَمَارٍ مِنْ قَصَبٍ. فَأَرَادَ مَرْقُسُ أَنْ يُغْرِقَ نَفْسَهُ اللَّيْلَةَ فِي الْحُمْرَةِ، لَا فِي امْرَأَةٍ.

بَدَتْ أَرِيَا مُتْصَابِقَةً، وَلَكِنْ مَهْمَا حَاوَلَ مَرْقُسُ فَهُوَ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَشْعُرَ تَجَاهَهَا بِأَيِّ شَيْءٍ. تَحَرَّكَ ضَوْءُ الْمَشْعَلِ، فَجَذَبَ حَمَلَقَةَ مَرْقُسِ إِلَى التَّمَثَالِ مِنْ جَدِيدٍ. وَإِذْ رَاقَبَتْهُ أَرِيَا، حَاوَلَتْ أَنْ تَسْبِطِرَ عَلَى مِشَاعِرِهَا الْمُضْطْرَمَةِ. وَانْقَبَصَ فَمُّهَا إِذْ رَأَتْ مَرْقُسَ يَتَأَمَّلُ تَمَثَالَ الْعَاشِقِينَ الْفَتِيئِينَ الَّذِي يَخْصُ أَتِنْيُونُسُ بِاهْتِمَامٍ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ ذَاكَ الَّذِي بِهِ نَظَرَ إِلَيْهَا. وَتَلَهَّفَتْ أَنْ تَسْمَعَهُ يَتَوَسَّلُ كَمَا يَفْعَلُ خُوزَا.

ولكنَّ مَرْقُسَ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ خُوزَا، وَهِيَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تَحْسِرَهُ. فَهُوَ غَنِيٌّ، وَهُوَ وَسِيمٌ... وَفِيهِ شَيْءٌ يَسْتَهْوِيهَا: شَغْفٌ شَدِيدٌ وَتَمَلُّمٌ لَا يَهْدَأُ.

كَبَتَتْ أَرِيَا كِبْرِيَاءَهَا، وَشَبَكَتْ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهِ دَسًا. ”إِنَّ التَّمَثَالَ يُعْجِبُكَ فَعَلًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِنَّهُ جَيِّدٌ جَدًّا. وَأَشْكُ فِي تَخَلِّي أَنْتِيغُونُسَ عَنْهُ. فَهُوَ مُغْرَمٌ بِهِمَا“ .
قال مَرْقُسُ: ”سَنَرَى!“

ثُمَّ عَادَا إِلَى الْبَيْتِ وَانضَمًّا إِلَى الْحَفَلَةِ مُجَدِّدًا. فَاتَّكَأَ مَرْقُسُ، وَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِي أَفْكَارِهِ، بِقُرْبِ أَنْتِيغُونُسَ عَلَى الْأَرِيكَةِ. وَتَدَفَّقَتِ الْخَمْرُ بِسَخَاءٍ فِيمَا تَحَدَّثَا بِالسِّيَاسَةِ. وَاعْتَرَى أَرِيَا الضَّجْرَ، فَذَكَرَتْ افْتِتَانَ مَرْقُسَ بِتِمَثَالِ الْعَاشِقِينَ. فَقَطَّبَ أَنْتِيغُونُسُ حَاجِبِيَهُ، وَغَيَّرَ الْمَوْضُوعَ. وَاقْتَرَحَ مَرْقُسُ احْتِمَالِيَّةَ الْاِحْتِيَاجَاتِ الْمَالِيَّةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، مُتَحَسِّرًا عَلَى كُلْفَةِ إِقَامَةِ الْأَلْعَابِ لِلْعَامَّةِ، وَالْحَفَلَاتِ لِلْأَرِسْتِقْرَاطِيِّينَ، وَالتَّزَامَاتِ بَاهِظَةٍ أُخْرَى تَتَرْتَّبُ عَلَى الْمُنْصَبِ السِّيَاسِيِّ. وَفِي الْحَالِ لَمَسَ أَنْتِيغُونُسَ وَجُوبَ السَّخَاءِ.

”سَيَكُونُ التَّمَثَالُ فِي حَدَائِقِ آلِ فَالِيرِيَانِ قَبْلَ نَهَايَةِ الْأَسْبُوعِ الْمُقْبِلِ“. هَذَا كَانَ عَرْضَهُ السَّخِيَّ!

كَانَ مَرْقُسُ يَعْرِفُ كَيْفَ يَعْْمَلُ عَقْلُ أَنْتِيغُونُسَ. فَهُوَ يَنْسَى الْوَعْدَ عَلَى نَحْوِ مَلَاثِمٍ حِينَ يَكُونُ سَكْرَانَ. وَبِابْتِسَامَةٍ خَفِيفَةٍ، سَكَبَ لِنَفْسِهِ وَأَلْتِيغُونُسَ مَزِيدًا مِنَ الْخَمْرِ. ثُمَّ قَالَ مُومِنًا لِأَحَدِ الْعَبِيدِ: ”سَأُعْنِي بِالتَّرْتِيْبَاتِ“ .

تَجَهَّمُ وَجْهَهُ أَنْتِيغُونُسَ فِيمَا أَصْدَرَ مَرْقُسُ الْأَوَامِرَ بِنَقْلِ التَّمَثَالِ إِلَى دَارَةِ آلِ فَالِيرِيَانِ فِي غُضُونِ تِلْكَ السَّاعَةِ.

وَقَالَتْ أَرِيَا: ”أَنْتِ سَخِيَّةٌ، يَا أَنْتِيغُونُسُ، لَا سَيِّمًا عَلَى مَرْقُسِ الَّذِي قَلَّمَا يَعْتَبِرُ الْجَمَالَ الْحَقِيقِيَّ“ .

فَاتَّكَأَ مَرْقُسُ إِلَى الْوَرَاءِ بِتَرَاحٍ، وَابْتَسَمَ لَهَا ابْتِسَامَةً سَاحِرَةً. ”الْجَمَالَ الْحَقِيقِيَّ نَادِرٌ، وَقَلَّمَا يُدْرِكُهُ مَنْ يَمْلِكُهُ“ .

احْمَرَّ وَجْهُ أَرِيَا غَضَبًا، وَنَهَضَتْ بِرَشَاقَةٍ، ثُمَّ وَضَعَتْ يَدَهَا النَحِيفَةَ الْمُحَلَّلَةَ بِالْجَوَاهِرِ عَلَى كَتْفِ أَنْتِيغُونُسَ. ”سِرْ بِانْتِيَابِهِ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ، لِثَلَا تَبِيْعَ نَفْسِكَ لَطَمُوحٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعَامَّةِ!“

رَاقِبَتِهَا أَنْتِيغُونُسَ تَمَشِي مُبْتَعِدَةً، ثُمَّ قَالَ لِمَرْقُسَ مُكَشِّرًا: ”أَرِيَا الْجَمِيلَةَ سَمِعْتَ عَنْ مَوْعِدِ لِقَائِكَ مَعَ فَايِنَا“ .

فَقَالَ مَرْقُسُ: ”امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ مَتَعَةٌ، وَاثْنَتَانِ لَعْنَةٌ“. ثُمَّ حَوَّلَ الْحَدِيثَ رَجُوعًا إِلَى

السياسة، وفي الأخير إلى اتّفاقيّات البناء. وربّما يستفيد أيضًا من دخول أنتيغونوس مجلس الشيوخ. حتّى إذا طلع الفجر، كان قد نال جميع الضمانات المطلوبة لنشر اسمه كبنّاء في جميع أنحاء روما، ولملء خزائنه بوزنات الذهب.

سيّيسر له أن يُحقّق هدفه. فقبل بلوغه الخامسة والعشرين، سيفوق أباه غنى ومقامًا.



وَقَفَتْ هَدَسَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ فِي الصَّفِّ الطَوِيلِ الَّذِي يَضُمُّ رِجَالًا وَنِسَاءً عِبْرَانِيِّينَ، فِيمَا تَمْشَى بَيْنَ الْأَسْرَى نَخَّاسُونَ^{١١} مِنْ أْفُسُسٍ مُرْتَدُونَ نِيَابًا فَاخِرَةً، مُفْتَشِّينَ عَنِ الْمُرْشَحِينَ الْأَسْلَمِ. وَكَانَ الْأَسْرَى الْعِبْرَانِيُّونَ قَدْ حَظُّوا بِمَقْدَارٍ مِنَ الْحِمَايَةِ مَا دَامُوا سَائِرِينَ مَعَ تَيْطُسَ. أَمَّا الْآنَ، بَعْدَمَا غَادَرَهُمْ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، فَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمُ النَّخَّاسُونَ، وَأَخَذُوا يَتَخَيَّرُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ كَالْجَوَارِحِ الْبَايِضَةِ عَنِ جَيْفِ تَلْتَهُمَهَا.

كَانَ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ الرِّجَالِ الْأَلْيَقِ وَالْأَوْسَمِ قَدْ ذَهَبُوا مَعَ تَيْطُسَ، زَاخِفِينَ إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ جَدِيدٍ مَعَ فَيْالِقِهِ لِمُشَاهَدَةِ خَرْبِ مَدِينَةِ الْقُدْسِ قَبْلَ السَّفَرِ إِلَى مِصْرَ. وَمِنْ هُنَاكَ يُوْخَذُونَ بِحَرِّا إِلَى رُومَا، حَيْثُ يَعْضُضُ تَيْطُسُ أَسْرَاهُ فِي احْتِفَالِ النَّصْرِ، وَيُرْسِلُهُمْ إِلَى الْأَلْعَابِ الَّتِي تُقَامُ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ.

صَرَخَتْ إِحْدَى النِّسَاءِ عَالِيًا لَمَّا عَرَّاهَا حَارِسٌ رُومَانِيٌّ مِنْ تَنْكِهَةِ الرَّثِّ، لِئَتِيحَ لِلنَّخَّاسِ تَفْحُصًا أَدَقًّا. وَإِذْ حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَرَّ نَفْسَهَا بِيَدَيْهَا، ضَرْبَهَا الْحَارِسُ. فَوَقَفَتْ بِلَا حَرَكَ وَهِيَ تَشِيخُجُ فِيمَا الرَّجُلَانِ يَتَمَعَّنَانِ فِيهَا.

قَالَ النَّخَّاسُ بِاشْتِمَازٍ: "إِنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ سَسْتَرَسًا وَاحِدًا!" ثُمَّ مَضَى، فَطَرَحَ الْحَارِسُ الرُّومَانِيُّ التَّنِكَ الْمَمْرُوقَ عَلَيْهَا.

كَانَتْ النِّسَاءُ الْأَجْمَلُ قَدْ تَعَرَّضْنَ، قَبْلَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، لِلَامْتِهَانِ عَلَى أَيْدِي الضُّبَّاطِ الرُّومَانِ، ثُمَّ لِلْبَيْعِ جَوَارِي فِي الْمَدِينِ الَّتِي سِرْنَ فِيهَا. وَقَدْ بَقِيَتْ جَمَاعَةٌ ضَعِيفَةٌ، مَعْظُمُهَا مِنَ الْعَجَائِزِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَخْرَكُنَّ أَبْشَعَ مِنْ أَنْ يَحْظِينَ بِانْتِبَاهِ الْجُنُودِ الرُّومَانِ. وَلَكِنْ رُغِمَ كَوْنُهُنَّ غَيْرَ جَمِيلَاتٍ، كَانَتْ لَهُنَّ مَرْيَّةٌ. إِذْ بَقِينَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَشْهُرٍ مِنَ الزُّحْفِ الْمُضْنِيِّ وَالشَّدَائِدِ. وَفِي كُلِّ مَدِينَةٍ مَرَّبَهَا تَيْطُسُ، أُفِيَمَتْ أَلْعَابُ، وَمَاتَ آلَافُ الْأَسْرَى. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْقَلَّةَ الْقَلِيلَةَ بَقِيَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَلَمَّا اتَّخَذَ تَيْطُسُ الْأَمِيرَةَ الْهِيَرُودِيَّةَ بَرْنِيسَ عَشِيقَةً لَهُ، مَرَّ زَمَنٌ رَجَاءٍ وَجِيزٌ بِأَنْ يُعْفَى الْعِبْرَانِيُّونَ مِنَ الْأَعَابِ أُخْرَى. وَصَلَّى هُؤُلَاءِ طَالِبِينَ أَنْ تُنْقِذَهُمْ بَرْنِيسَ عَلَى غَرَارٍ مَا فَعَلَتْ الْمَلِكَةُ أَسْتِيرَ قَبْلَ قُرُونٍ. غَيْرَ أَنَّ حُبَّ تَيْطُسِ لِلْأَمِيرَةِ الْفَتِيَّةِ الْحَسَنَاءِ لَمْ يَجْلِبِ الْخِلَاصَ لَشَعْبِهَا. فَقَدْ

١١ العاملون بالنخاسة أي تجارة العبيد (الناشر).

ارتوتُ بدمائهم ساحاتُ المحاربين في قيصرية فيلبس وعكاً وصور وصيدون وبيروت وأنطاكية. ومن الآلاف الذين غادروا مدينة القدس، بقيت أولئك النساء الهزيلات القليلات.

عانت هَدَسَة كما عانى سواها. فقد سافر الموت مع الأسرى على الطريق، مُصطحباً إليهم عبر الحرّ والغبار، وحَصَص الطعام الضئيلة، والمرض، واحتفالات النصر الرومانية. ولما وصلت فيالِق تيطس والأسرى إلى أنطاكية، بقي على قيد الحياة أقل من نصف الذين أخذوا من مدينة القدس.

تفاطر أهل أنطاكية من المدينة للترحيب بتيطس كإله. وتبع ابن الإمبراطور الوسيم نساء عيوئنهن كعيون الأطباء، وأولادهم يُجرّجون الخطى وراءهم. منذ عهد قريب، كان يهود أنطاكية الأحرار يتقاتلون في ما بينهم، مثيرين حزازة السوريين. فرُشقت هَدَسَة والآخرين بكتل الطين وهم سائرون، فيما السوريون يصيحون شاقمين الأسرى ومُطالبين بإعدامهم. أخيراً دفع الحراس الرومان المهاجمين إلى الوراء. وانتشر خبر بأن السوريين أرادوا من تيطس أن يأخذ معه يهود مدينتهم الأحرار، ولكن تيطس رفض وانزعج من مطالبهم التي لا تنتهي. وبعد، فما عساه يفعل بمزيد من اليهود تحت يده؟ لقد دمر بلدكم، وباتت مدينتهم المقدسة خراباً، ولديه منهم كل ما يحتاج إليه لأجل الألعاب. فمن كان يريدكم؟

طالب السوريون بأن تُزال من أنطاكية الألواح النحاسية المنقوش عليها امتيازات اليهود، ولكن تيطس رفض مرة أخرى. ثم تقدم خطوة أخرى فأصدر إعلاناً- لأسباب لا يعلمها إلا هو- بأن يستمر يهود أنطاكية الأحرار في التمتع بالامتيازات التي سبق أن كانت لهم دائماً. وإن حرموها، نحاسب روما السوريين.

بينما ضمنت سلامة يهود أنطاكية هكذا، كانت حياة الأسرى البائسين عرضة لأخطار متفاوتة. فإذا عقد تيطس عزمه على تجنب النزاعات المستقبلية التي قد تحدث في إقليم اليهودية الروماني، شرع يشتت الناجين من اليهود في جميع أنحاء بلدان الإمبراطورية الرومانية. وقد كان الطلب دائماً على عبيد أقوى البنية، فبيعت أعداد كبيرة منهم في مجموعات ترتبط معاً، ثم تُسرى إلى سفن متوجهة إلى كل إقليم من الإمبراطورية.

أحد بعض اليهود إلى أجواف مئة سفينة، حيث سيقضون باقي حياتهم مُحركين للمجاديف. وأرسل آخرون إلى بلاد الغال لقطع الأشجار وإمداد المدن الرومانية المتوسعة بالخشب. ورُحلت مجموعات كبيرة بحراً إلى إسبانيا لرعي المواشي أو العمل في المناجم الفضة. وبعث مئات آخرون إلى اليونان لحمل الرخام في المقالع. أما الأكثر عصياناً وتكبراً،

روما

فبيعوا إلى أعدائهم من زمن الأجداد، أي المصريين. هؤلاء سيموتون وهم يجرفون الرَّمْل ويحملونه في سفنٍ نقلٍ تحمله بدورها إلى ساحات المحاربين في أرجاء الإمبراطورية، حيث يرتوي الرَّمْل من دماء اليهود المُرَاقاة لتسلية الجماهير الرومانية.

فبعدهما بيع أفضل الأسرى، بقي الآن أضعفهم وأبشعهم. وكانت هدسة بين آخرٍ يضع مئات سيجري تشتيتهم. والتاجر الذي عكف على معاينتهم الآن كان ينوي شراء نساجين وفلاحين وعبيد بيتيين وبغايا (عاهرات). فشبكة هدسة يديها، وصلت طالبة أن تنجى من الأخيرات.

قال جندي روماني " ما رأيك في هذه؟" فآثرت امرأة من الصف.

نظر إليها الأفسسي الأسمر بنفور. "أبشع من أي شيء رأيته يوماً". ثم واصل سيره، متكلمًا باستخفاف عن النساء الباقيات. "تذكر أنني اشتري عبيدات كي يخدمن بغايا المعبد اللواتي في هيكل أرطيميس. فيجب أن يكن جذاباتٍ إلى حد ما".

خفق قلب هدسة بقوة على نحوٍ مغيثٍ إذ اقترب التاجر إليها. يارب، دعه يتجاوزني. فلاكن غير مرئية. إن تنظيف الأقدار أهون عليها من خدمة إلهة وثنية.

توقفت النحاس أمامها. فحدقت إلى قدميه الملعين صندلاً جلدياً رقيقاً مخيطاً بألوان زاهية. كان كتان ردايه الفاخر أزرق ونظيفاً. وشعرت بالبرد والمرض إذ واصل التحديق إليها، ولم ترفع رأسها. ثم قال فجأة: "هذه معقولة". وأمسك بذقنها رافعاً وجهها. فنظرت إلى عينيه الباردتين وكادت تفقد وعيها.

قال الجندي: "إنها صغيرة السن جداً".

"كيف تخطوها؟" أدار التاجر رأسها يساراً ويمينا. "لنر أسنانك يا فتاة. افتحي فمك". فارتعش ذقن هدسة وهي تمتثل، فيفحص أسنانها. "أسنان جيدة".

وقال الروماني: "إنها نحيلة جداً".

فأمال التاجر رأسها ثانية وتأملها من كتب. وقال: "الطعام الحسن سيغيرها".
"إنها بشعة".

رمق النحاس الجندي الشاب وقال: "ليست أبشع من أن يعينك أمرها. أما كنت تستعملها؟"

فصلب الجندي الروماني إذ شعر بالإهانة والاشمئزاز إزاء هذا الإيحاء، وقال:

”لم ألمسها قط“ .

”ولم لا؟“

”إنها واحدة من الأتقياء“ .

فضحك التاجر، وقال شاخراً: ”واحدة من الأتقياء. هذا سبب يزيدني رغبة في شرائها. إن نصف رجال أفسس لن يروفهم شيء أكثر من أن تكون يهودية تقيّة في مُتناول أيديهم“ . ثمّ نظر إلى هدسة ثانية، وفمه مُنبسط بابتسامة جعلت معدتها تحميش .

نقرت عَضَلَةٌ في وجه الجنديّ الرومانيّ . ”ما شأنني إذا دفعت ثلاثين قطعة فضّة في فتاة ستغدو في عداد الأموات قبل وصولك إلى أفسس؟“

”تبدو صحيحة كفاية في نظري، وقد صمدت هذه المدة الطويلة. أشك في أن تقتلها المهام الصارمة التي سيطلب منها أن تؤذيها في الهيكل“ .

”أراهن بحصّتي من الملح على أنها ستقتل نفسها قبل وصولك إلى أفسس“ .

”ولماذا تقدّم على الاتحار؟“

”يظهر أنك لا تعرف شيئاً عن هؤلاء القوم. فهذه تفضّل أن تكون ميتة على أن تخدم ما تحسبه إلهاً وثنيّاً“ . ثمّ أمسك بمقدّم تنيك هدسة ودفعها إلى الأمام نترًا . ”ولكن هاكها. خذها. إن يهودية واحدة بالناقص أمرٌ يخفف أعبائي“ .

سرت فُشعريرة برد في بدن هدسة إذ نظر النحاس إليها من جديد. وتصبّب جلدها عرقًا. وانقطع الدّم عن وجهها وترنّحت، فيما اشتدت قبضة الروماني على تنيكها لإبقائها واقفة كي يواصل الأفسسيّ تفحصها .

تمعن النحاس فيها من كَثبٍ وقد ضاقت عيناه. ”لعلك على حقّ. تبدو على وشك السقوط ميتة الآن تمامًا“ . ثمّ قلب يده في الهواء بازدياء، وواصل تقدّمه. ”هؤلاء اليهوديات البغيضات كلهن! إنني أفضل شراء مصريّات“ .

أطلقها الجنديّ الشاب، ثمّ سار وراء التاجر. فاندفعت هدسة حالاً، وقبضت على يده، وقبّلتها بعدما قالت: ”باركك الله من أجل رحمتك!“

نتر يده منها. ”لقد شكرتني مرّة من قبل. هل تذكرني؟ أعطيتك ملء مغرقة من الحنطة، وأنت...“ ثمّ أضاف مكشّراً: ”راقبتك تُصلين. ميلاً بعد ميل، شهرًا بعد شهر، تُصلين. بأيّ خيرٍ نفعك ذلك؟“

اغرورقت عيناها.

فقال "بأي خير؟" غاضبًا، وطالبًا منها جوابًا على ما يبدو.
"لست أدري بعد".

فعبس عبسة خفيفة، مُتأملًا عينيها. "ما زلت تؤمنين، أليس كذلك؟ أنت غيبية. جميعكم أغبياء". وبدأ يستدير، ثم نظر إليها مرة أخرى ووجهه مُتجهّم. "لم أعمل لك معروفًا. إنَّ عبدات الهيكل يُعاملنَ معاملةً حسنةً جدًا. لا سيّما البغايا. فقد يصير عندك سببٌ حتّى تلعينني عاجلاً أو آجلاً".
"أبدأ!"

"عودي إلى الصّف".

قالت: "لن ألعنك أبداً"، وفعلت ما أمرها به.

اشترى النخّاس عشر نساءٍ ومضى. وجاء نخّاسٌ يونانيٌّ في اليوم التالي. فاشترى هَدَسَةَ عبدة بيتية. وإذا ربّطت بحبل مع عشر نساءٍ أُخر، اقتيدت في شوارع أنطاكية. وتراكض صبيةٌ صغارٌ سمرٌ بمحاذاة النساء، راشقين إياهنّ بالرّوث ومُطلقين عليهنّ ألقاباً بذيئة. فصرخت عليهم امرأةٌ يهوديةٌ بصورةٍ هستيرية، وإذا بالرّوث يصيرُ حجارة. وطرّد حُرّاس النخّاس الصّبيةَ ثمّ عرّوا المرأة التي صرخت عليهم وضربوها. وإمعانًا في إذلالها، أُجبروها أن تمشي باقي الطريق عارية.

ارتفعت أشرعة السفن قدام هَدَسَةَ، وغمرت رائحة البحر مُصطحبةً ذكرياتٍ حادةً عن الجليل وأبيها وأمها، وأخيها وأختها. وإذا أعمتها الدُموع، مَشَتْ باضطرابٍ مع النساء الأخرى وهنّ يُنخسنّ للصعود إلى السفينة على معبرٍ خشبيّ.

هبطت هَدَسَةَ درجًا شديد الانحدار، واجتازت الممرّ الضيق بين صفوفٍ من عبيد السفن الذين يتولّون تشغيلَ المجاذيف. وبينما هي مُجتازة، حدّق إليها بلا عاطفةٍ إثيوبيون سودّ البشرة، وبريتونيون زرق العيون، وغاليون داكنو الشعر. وكان سلّمٌ آخرٌ قد دُلّي إلى بدن السفينة. واستقبلتها رائحةٌ كريهةٌ مُغثيةٌ صادرة من الغائط والبول والعرق والقيء.

حالمًا هبطت، لاحت لها أشكالٌ مُبهمة تتحرّك. ومضت لحظةً قبل أن تتكيّف عيناها مع الظلمة، فتدرك أنّها شاهدت ثانيَ طاقم من العبيد المُجذّفين. "نساء!" كلمةٌ واحدةٌ قالها باليونانيةً واحدٌ من العبيد، مُبيّنًا بها كم من السنين مضت منذ رؤيته إحداهنّ.

حُلَّتِ الحِيَالُ وَسُفِقَتِ الشُّبَاكَةُ^{١٢}، وَتُبَّتِ الأَقْفَالُ. وَفِي ثَوَانٍ قَلِيلَةٍ، قُبِضَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْعَارِيَةِ، وَسُرْعَانَ مَا خَفَّ صَرَاعُهَا فِيمَا تَعَالَتْ أَصْوَاتُ أُخْرَى مُرْوَعَةٍ. فَفَرَّتْ هَدَسَةٌ مَذْعُورَةٌ وَهِيَ تَنْشِجُ، مُحَاوِلَةً أَنْ تَصْمُ أذُنَيْهَا عَنْ أَصْوَاتِ الصَّرَاعِ الْيَائِسِ فِي الظَّلَامِ. وَنَسِبَ عِرَاكُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ. فَصَارَ بَدَنُ السَّفِينَةِ أَشْبَهَ بِهَاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ مُصْطَخِبَةٍ، وَاحْتَبَّتْ هَدَسَةٌ مَسْعُورَةٌ فِي أَقْصَى غِيَاهِبِ الظَّلَامِ.

أخيراً انتهى الصَّرَاعُ، وَسَمِعَتْ هَدَسَةٌ امْرَأَةً تَنْشِجُ عَلَى نَحْوِ هَسْتِيرِيٍّ. وَلَمَّا رَفَسَ أَحَدُهُم الْمَرْأَةَ وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَحْرُسَ، زَحَفَتْ مُوهِنَةً وَسَطَ الحَشْدِ النَّتَنِ عَلَى الأَلْوَابِ الخَشْنَةِ. حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَتْ، مَدَّتْ هَدَسَةٌ يَدَهَا وَلَمَسَتْهَا. فَانْتَفَضَّتِ الْمَرْأَةُ بِحِدَّةٍ، وَكَلَّمَتْهَا هَدَسَةٌ بِرِقَّةٍ. ”هَهُنَا مَكَانٌ، بِقُرْبِي“.

كَانَ فِي وَسْعِ هَدَسَةٍ أَنْ تَشْعَرَ بِارْتِعَاشِ الْمَرْأَةِ إِذْ جَثَمَتْ بِقُرْبِهَا فِي العَتَمَةِ. وَازْدَادَ ارْتِجَافُهَا، فَسَمَتْ هَدَسَةٌ جِلْدًا بَارِدًا رَطْبًا. لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا كَلِمَاتٌ تُعْزِي الْمَرْأَةَ بِهَا، مَعَ أَنَّهَا أَرَادَتْ مُسْتِمِيَةً أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ. وَبَدَأَتْ الْمَرْأَةُ تَبْكِي ثَانِيَةً، كَاتِمَةً الصَّوْتِ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَلَى رَكْبَتَيْهَا الْمَرْفُوعَتَيْنِ.

انْسَدَّتْ حَنْجَرَةٌ هَدَسَةٍ. فَزَعَتْ رِدَاءَهَا وَأَعْطَتْهُ لِلْمَرْأَةِ، مُبْقِيَةً فَقَطْ تَنْكُهَا الرِمَادِيُّ الطَّوِيلَ تَسْتَرِّ بِهِ. وَقَالَتْ بِرِقَّةٍ: ”الْبَسِي هَذَا“. فَفَعَلَتْ الْمَرْأَةُ مَا طَلَبْتَهُ هَدَسَةٌ، وَهِيَ تَرْتَجِفُ بِشِدَّةٍ. وَطَوَّقَتْهَا هَدَسَةٌ بِذِرَاعِهَا، وَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا، رَافِعَةً إِلَى الْوَرَاءِ شَعْرَهَا الْمُبْدِ النَّتَنِ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ بِشَعْرِ أُمِّهَا.

سَمِعَ صَوْتٌ يَقُولُ بِانْتِحَابٍ: ”طُوبَى لِلْعَاقِرِ الَّتِي لَا تَرَى أَبَدًا لَهَا وَلِدًا يُعَانِي هَذَا!“

خَيَّمَتِ الصَّمْتُ عَلَى شَاغِلِي بَدَنِ السَّفِينَةِ. وَلَمْ يَخْرُقْهُ سِوَى صَرِيحِ السَّفِينَةِ، وَدَقَّاتِ الطَّبْلِ فِيمَا قُرِعَ عَلَيْهِ ضَرْبٌ مُوقِعٌ لِلْعَبِيدِ الْمُجْدُفِينَ، وَخَبَطِ الْمَجَازِفِ. وَكَانَتْ الشُّبَاكَةُ تُسْفَقُ بِضَعِ مَرَاتٍ فِي الْيَوْمِ، لِيُؤَمَّرَ الْعَبِيدُ الْمُرَاحُونَ بِالصَّعُودِ فِيمَا يُرْسَلُ الْمُنْهَكُونَ إِلَى الأَسْفَلِ. وَأَحْيَانًا كَانَ يُفْرَقُ كِرْبَاجٌ فَرَقَعَةٌ قَوِيَّةً، فَيَنْتَزِعُ لَهَا ثَ أَلَمٌ مِنْ عَبْدٍ مُتَكَاسِلٍ.

مَرَّتِ النَّهَارَاتُ وَاللَّيَالِي مَعًا. وَكَانَتْ هَدَسَةٌ تَبْقَى نَائِمَةً، لَا تَسْتَيْقِظُ إِلَّا مَتَى سُفِقَتِ الشُّبَاكَةُ لِتَبْدِيلِ المَّلَاحِينَ، أَوْ تَوْزِيعِ حِصَصِ الطَّعَامِ الضَّئِيلَةِ. وَقَدْ ضَاعَفَ تَمَائِلُ السَّفِينَةِ بِؤَسَ بَعْضِهِمْ وَهَمَّ مُنْطَرِحُونَ مَرْضَى فِي العَتَمَةِ النَّتِنَةِ. وَكَانَ الهَوَاءُ مُحْصُورًا وَفَاسِدًا، فَتَاقَتْ هَدَسَةٌ إِلَى نَسْمَةِ هَوَاءٍ نَظِيفٍ وَحَلَمَتْ بِبِلْدَتِهَا الْجَلِيلِ.

هَبَّتْ عَاصِفَةٌ فِيمَا السَّفِينَةُ مُبْجِرَةٌ بِمُحَاذَاةِ سَاحِلِ لِيْقِيَا. فَأَخَذَتْ السَّفِينَةُ تَعْلُوَ وَتَهْوِي

١٢ هي قضبان متوازية أو متقاطعة لحجز الأسرى، وهي أشبه ما تكون بوابة الزنزانة في السجن (الناشر).

على الأمواج فيما الرِّياح تصفرُّ وتُعول. ودُعِرَ العبيدُ، فتدافعوا ليتشبَّثوا بأيِّ سَنَدٍ، مُستغيثينَ عالياً بستَّةِ آلهةٍ في سِتِّ لُغات.

اندفعَ رشاشُ الماء نزولاً إلى بَدَنِ السفينة وجرى ذهاباً وإياباً، مُبللاً تُنكَ هَدَسَةَ الرِّثِّ وهي مُتَمسِّكةٌ بإحدى دعائم السفينة. وإذ تشبَّثت بِشِدَّةٍ مُرْتِعِشَةً، أخذتِ تُصَلِّي وسطَ الصُّراخ. وارتفعتِ السَّفينة بِحِدَّةٍ بالغةٍ حتَّى بَدَتْ كأنَّها ستُحلَّقُ عن الماء. ثُمَّ هَوَتْ فجأةً، فهبطَ معها بطنُ هَدَسَةَ. وخبطَ البَدَن على البحر بقرعةٍ شديدة، فارتعدتِ السفينة كلها كما لو كانت ستنتصدع.

تشبَّت الرِّجالُ مَسعورين بالشُّبَّابة فيما تدفَّق عليهم مزيدٌ من الماء نُزولاً. ”أُخرجونا! أُخرجونا!“

وإذ تمايلتِ السفينةُ ثانيةً، وقعَ أحدهم على هَدَسَةَ فأفلت قبضتها. فانزلت واصطدمت بإحدى العوارض فيما علَّتِ السفينةُ ثانيةً. وكان صوتُ البحر الهادرٍ مثلَ وحشٍ برِّي. ثُمَّ مالَتِ السفينة إلى ناحيةٍ واحدة، وأحسَّت هَدَسَةَ الماءَ الباردَ يغمُرُها. أيُّها الأب السماوي، ساعدنا! خلَّصنا كما خلَّصت تلاميذَ السيِّد المسيح في بحر الجليل! وطلبتِ مُتَمسِّكاً تقبُّضه، فما وجدتِ أيَّ واحد. ثُمَّ صدمها شيءٌ في رأسها صدمةً قويَّة، فتلاشى الصَّوت. وهامت في الظلام، فاقدة كلِّ وعي.

أيقظها إيقاعُ الطُّبلِ الرِّتيبِ وضربُ المجاذيف. وسكَّنَ صُدغَها النابضين صوتُ لطمِ البحر لمُقدِّمِ السفينة، وتلاطمه على جانبيها. وخيَّل إليها أنها كانت تحلِّم. كان رأسها يؤلمها، وقد جفَّت تُنكُها وشعرها أيضاً، وماءُ البحر يغمُرُ بَدَنِ السفينة. وكان عبدان يُعبَّتان قَرَباً ويُعلِّقانها بطرفِ حبلٍ حتَّى ترفعَ وتُفرِّغ.

فعدتِ امرأةٌ بقربها ومسَّت حاجبيها. ”كيفَ حالِك؟“

”رأسي يؤلمني قليلاً. ماذا جرى؟“

”صدَّمتِ رأسِك في أثناء العاصفة.“

”هل سكتتِ إذا؟“

”منذ زمن! وقد تبدَّل الملاحون أربعَ مرَّاتٍ منذ سكونها. سمعتُ الحارسَ يقولُ إنَّنا نتجاوزُ رودس.“ ثُمَّ فضَّت خِرْقَةً وسخه وناولتها إيَّاهَا. ”احتفظتِ لكِ بشيءٍ من الحنطة.“

قالتِ هَدَسَةَ: ”شُكراً لك!“ أخذتِ التَّقدمة.

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: "لَقَدْ أَعْطَيْتَنِي رِذَاءَكَ". وَعَرَفَتْ هَدْسَةَ مَنْ هِيَ.

ذَابَتِ الْأَيَّامُ مَعًا، بَنَاهَاتِهَا وَلِيَالِيهَا، فِي صَمْتٍ مُظْلِمٍ. وَبَيْنَمَا جَرَّدَ الْوَسْخُ وَالطَّعَامُ الضَّئِيلُ وَانْعِدَامُ الْخُصُوصِيَّةِ وَإِسَاءَةُ الْمُعَامَلَةِ بَعْضًا مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِمْ، دَفَعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ هَدْسَةَ نَحْوِ اللَّهِ. لَقَدْ قَالَ أَبُوهَا إِنَّ الْمُعَانَةَ تَجْلِبُ الْإِحْتِمَالَ حَتَّى يَنْتَقِي الْمَرْءُ لِمُوجِهُةِ أَيِّ شَيْءٍ يَنْتَظِرُهُ. وَلَمْ يَرْفُقْهَا أَنْ تُفَكِّرَ فِي مَا يَنْتَظِرُهَا. فَالْإِمْكَانَاتُ أَكْثَرُ هَوَلًا مِنْ أَنْ تُسْتَعْرَضَ، وَالْمَوْتُ آتٍ بِطَرُقٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا. غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ دَائِمًا لَهَا كُلِّي النَّظَرِ وَكُلِّي الْقُدْرَةِ وَكُلِّي الْحُضُورِ، وَلَطَالَمَا طَمَأَنَّتْهَا أَبُوهَا إِلَى أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَفَاعَلُ لِأَجْلِ غَايَتِهِ الْخَيْرَةِ. وَرُغْمَ ذَلِكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَجِدَ أَيَّ هَدَفٍ فِي مَا تُقَاسِمُهُ هِيَ وَأَوْلَادُكَ الَّذِينَ حَوَالِيهَا. فَالْآخَرُونَ، شَأْنُهُمْ شَأْنُهَا، إِنَّمَا وَجِدُوا فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ فِي الْوَقْتِ غَيْرِ الْمُؤَاتِي. فَسِوَاءَ أَمِينِ حِزْبِ الْغُيُورِينَ كُنْتَ أُمُّ رُومَانِيًّا، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَلْمَسَ أَيَّ فَرْقٍ. ذَلِكَ أَنَّ الْجَمِيعَ كَانُوا أَهْلَ عُنْفٍ وَظُلْمٍ.

وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنْ أصدقاءِ الْعَائِلَةِ قَدْ اعْتَقَدُوا أَنَّ نِهَآيَةَ الزَّمَانِ الَّتِي تَكَلَّمُ بِشَأْنِهَا السَّيِّدُ الْمَسِيحُ قَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الرَّبَّ سِيرِجُوعُ وَيَمْلِكُ فِي أَتْنَاءِ حَيَاتِهِمْ. بَلْ تَخْطِي بَعْضُهُمُ الْهَدَى فَبَاعُوا كُلَّ مَا لَهُمْ وَقَدَّمُوا الْمَالَ إِلَى الْكَنِيسَةِ. ثُمَّ اسْتَرَاخُوا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ كَيْ يَنْتَظِرُوا النِّهَايَةَ. إِنَّمَا أَبُوهَا لَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ. فَقَدْ وَاصَلَ حَيَاتَهُ كَالْمُعْتَادِ مُسْتَغْلًا بِمَهْنَتِهِ.

"هَدْسَةُ، إِنَّ الرَّبَّ سِيرِجُوعُ فِي حِينِهِ. لَقَدْ قَالَ لِتَلَامِيذِهِ إِنَّهُ سِيَأْتِي كَمَا يَأْتِي اللَّصُّ فِي اللَّيْلِ. لِهَذَا السَّبَبِ لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ رَجُوعَهُ سَيَكُونُ مُتَوَقَّعًا. فَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ سِوَى أَنَّهُ سِيَأْتِي. وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَعْرِفَ مَتَى."

يَقِينًا أَنَّ خِرَابَ الْهَيْكَلِ وَمَدِينَةَ صِهْيُونِ كَانَ مِنْ عِلَامَاتِ إِقْبَالِ نِهَآيَةِ الْعَالَمِ عَلَيْهِمْ. يَقِينًا أَنَّ الرَّبَّ سِيرِجُوعُ الْآنَ. إِنَّهَا أَرَادَتْ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ. وَهِيَ تَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ. غَيْرَ أَنَّ إِحْسَاسًا عَمِيقًا دَاخِلَ كِيَانِهَا حَذَّرَهَا مِنَ الْإِنْقِاذَاتِ السَّرِيعَةِ. فَاللَّهُ لَمْ يَتَدَخَّلْ دَائِمًا. وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَسْفَارِ الْمُقَدَّسَةِ اسْتِخْدَمَ الْأُمَّمَ الْوَثْنِيَّةَ لِجَعْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَحْتُونُ عَلَى رُكْبِهِمْ.

هَمَسَتِ الْمَرْأَةُ: "هَلُمَّ نَرْجِعْ إِلَى الرَّبِّ، لِأَنَّهُ هُوَ افْتَرَسَ، فَيَشْفِينَا، ضَرْبَ فَيْجِبْرِنَا. يُحْيِينَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ؛ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ يُقِيمُنَا فَنَحْيَا أَمَامَهُ."

فَتَابَعَتْ هَدْسَةَ مِنْ حَيْثُ تَوَقَّعَتِ الْمَرْأَةُ، تَالِيَةً كَلِمَاتِ النَّبِيِّ هُوشَعَ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ: "لِنَعْرِفْ، فَلِنَتَّبِعْ لِنَعْرِفَ الرَّبَّ. خُرُوجُهُ يَقِينٌ كَالْفَجْرِ. يَأْتِي إِلَيْنَا كَالْمَطَرِ، كَمَطَرٍ مُتَأَخَّرٍ يَسْقِي الْأَرْضَ."

أَمْسَكَتِ الْمَرْأَةُ يَدَ هَدْسَةَ. "لِمَاذَا فِي الظَّلَامِ فَقَطْ نَتَذَكَّرُ مَا سَانَدْنَا فِي الثُّورِ أَيْضًا؟ مَا

روما

فَكَرَّتْ فِي كَلِمَاتِ النَّبِيِّ مِنْذُ الطَّفُولَةِ، وَالآنَ فِي هَذِهِ الظُّلْمَةِ تُؤَافِنِي بِصُورَةٍ أَوْضَحَ مِنْهَا يَوْمَ سَمِعْتُهَا تَقْرَأُ. وَبَكَتْ بِهَدُوءٍ. ”لَا بَدْءَ أَنْ يُونَانَ شَعَرَ بِمِثْلِ هَذَا الْيَأْسِ الْقَاتِمِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ“. قَالَتْ هَدْسَةٌ مِنْ دُونِ تَفْكِيرٍ: ”كَانَ النَّبِيُّ هُوَ شَعَرَ بِتَكَلُّمِ عَنِ يَسُوعَ وَالْقِيَامَةِ“.

أَفَلَتَتِ الْمَرْأَةُ يَدَ هَدْسَةَ، وَحَدَّثَتْ إِلَيْهَا فِي الظَّلَامِ. ”أَنْتِ مَسِيحِيَّةٌ؟“ وَكَانَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَقَعٌ لَعْنَةٍ. فَارْتَاعَتْ هَدْسَةٌ، وَلَمْ تُجِبْ. لَقَدْ أَحْسَسَتْ حَقْدَ الْمَرْأَةِ الْبَارِدَ. كَانَ الصَّمْتُ الَّذِي نَشَأُ بَيْنَهُمَا أَتَحَنُّ مِنْ جِدَارٍ. وَأَرَادَتْ هَدْسَةٌ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا مَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدِ الْكَلِمَاتِ الْمُؤَاتِيَةَ. ثُمَّ قَالَتِ الْمَرْأَةُ لَهَا: ”كَيْفَ يُعَقَّلُ أَنْ تُوَمِّنِي بِأَنْ مَسِيحَنَا قَدْ جَاءَ؟ هَلْ أُنْقِذُنَا مِنَ الرُّومَانِ؟ وَهَلْ إِلَهُنَا يَمْلِكُ الْآنَ؟“ وَشَرَعَتْ تَبْكِي.

هَمَسَتْ هَدْسَةٌ: ”لَقَدْ جَاءَ يَسُوعَ لِيُقَدِّمَ الْكَفَّارَةَ عَنَّا“.

فَامْتَقَعَ وَجْهُ الْمَرْأَةِ حَقْدًا وَحَزْنًا، وَقَالَتْ: ”لَقَدْ عِشْتُ بِمُقْتَضَى شَرِيعَةِ مُوسَى طَوِيلَ عَمْرِي. فَلَا تُحَدِّثْنِي بِشَأْنِ الْكَفَّارَةِ“. ثُمَّ نَهَضَتْ وَابْتَعَدَتْ وَقَعَدَتْ بِقُرْبِ بَضْعِ نِسَاءِ أَحْرِيَاتٍ، حَيْثُ حَدَّثَتْ إِلَى هَدْسَةَ لَحَظَاتٍ، ثُمَّ أَشَاحَتْ بِوَجْهِهَا. أَسْنَدَتْ هَدْسَةٌ رَأْسَهَا عَلَى رِكْبَتَيْهَا، وَكَافَحَتْ الْيَأْسَ.

لَمَّا وَصَلَتِ السَّفِينَةُ إِلَى أَفْسُسَ، أُصْعِدَتِ الْعِبَادَاتُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ وَرُبِطْنَ مَعًا مِنْ جَدِيدٍ. وَتَشَقَّتْ هَدْسَةٌ هَوَاءَ الْبَحْرِ الْمُعِشِ. وَبَعْدَ نَهَارَاتٍ وَلِيَالٍ طَوِيلَةٍ فِي جَوْفِ السَّفِينَةِ، مَضَتْ بَضْعُ لَحَظَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَتَكَيَّفَ عَيْنَاهَا مَعَ ضَوْءِ الشَّمْسِ السَّاطِعِ، وَتَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ مَا حَوْلَهَا. فَإِذَا الْأَرْضُفَةُ نَابِضَةٌ بِالنَّشَاطِ الصَّاحِبِ. الْعَمَّالُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَجْتَهِدُونَ فِي أَشْغَالِهِمْ. فَعَلَّةٌ لَوْحَتِهِمُ الشَّمْسُ يَشْتَغِلُونَ عَلَى صِيَانَةِ سَفِينَةٍ رَاسِيَةٍ بِجَانِبِ تِلْكَ الَّتِي أَقَلَّتْ هَدْسَةٌ، وَهَمَّ عَلَى سِقَالَاتٍ مُسْتَعْدِمِينَ الْقَارِ فِي حَشْوِ حَزْوِ السَّفِينَةِ وَسَدِّ دُرُوزِهَا. وَإِلَى يَسَارِهَا سَفِينَةٌ رُومَانِيَّةٌ أُخْرَى، وَالْحَمَّالُونَ يُجَاهِدُونَ صَاعِدِينَ السَّلَالِمِ وَعَلَى أَكْتَافِهِمْ أَكْيَاسُ رَمَلٍ، ثُمَّ يَهِيطُونَ الْمَعَابِرَ الْخَشَبِيَّةَ بِتَنَاقُلٍ لِيَطْرَحُوا الْحُمُولَةَ فِي عَرَبَةٍ لَتَنْقَلِ الْأَكْيَاسَ بَعِيدًا إِلَى سَاحَةِ مَحَارِبِينَ أَفْسُسِيَّةٍ. وَمِنْ ثَمَّ يَعْمَدُ نَقَالُونَ آخَرُونَ إِلَى حَمَلِ أَكْيَاسِ الرَّمْلِ وَحَطَّهَا عَلَى مَوَازِينٍ. ثُمَّ يَزِيئُهَا كَيْالُونَ وَيَقِيدُونَ وَزْنَهَا فِي دِفَاتِرٍ. عِنْدئذٍ تَعَثَّرُ رَجُلٌ وَسَقَطَ صَنْدُوقٌ فِي الْبَحْرِ، فَغَاصَ غَطَّاسٌ عَارٍ لَانْتِشَالِهِ.

كَانَتْ الْأَوَامِرُ تَصْدُرُ عَالِيًا بِسَتْ لُغَاتٍ مِنْ سِتِّ سُفُنٍ. ثُمَّ فَرَّقَعَ كِرْبَاجٌ مِنْ جَدِيدٍ، وَصَاحَ الْحَارِسُ الْمَسْئُولُ عَنِ مَجْمُوعَةِ هَدْسَةَ بِالنِّسَاءِ أَنْ يَنْزِلْنَ عَلَى الْمَعْبَرِ الْخَشَبِيِّ. وَجَرَى

سَوْفَهُنَّ فِي شَارِعٍ تَحْفُ بِهِ عَلَى الْجَانِبِينَ أَكْشَاكُ الشُّجَارِ وَيَبْعُجُ بِالزَّبَاتِنِ الصَّاحِبِينَ. فَتَوْقَفَ كَثِيرُونَ وَحَمَلَقُوا، وَكَالَ آخَرُونَ شَتَائِمَ: ”يَهُودِيَّاتُ فَاسَدَاتُ مُنْتِنَاتُ!“

تَحَرَّقَتْ هَدْسَةُ مِنَ الْخِزْيِ. كَانَ الْقَمْلُ يَسْرَحُ فِي شَعْرَهَا، وَتُنِكُّهَا كَرِيهَ الرَّائِحَةِ وَمُلَطَّنَا بِالْغَائِطِ الْبَشْرِيِّ. وَبِصَقَتِ امْرَأَةً يُونَانِيَّةً عَلَيْهَا حِينَ مَرَّتْ، فَعَصَّتْ شَفَتَهَا حَتَّى لَا تَبْكِي.

أَخَذَنَ إِلَى الْحَمَّامَاتِ، حَيْثُ جَرَدَتْهَا امْرَأَةٌ قَوِيَّةٌ بِفَظَاظِلَةٍ مِنْ تُنِكِّهَا الْبَالِي، ثُمَّ حَلَقَتْ كُلَّ شَعْرَهَا. وَإِذْ شَعَرَتْ هَدْسَةُ بِالْإِذْلَالِ، تَمَنَّتْ لَوْ تَمُوتَ. وَكَانَ الْأَسْوَأُ حِينَ فَرَكْتَ الْمَرْأَةَ كُلَّ مَحْنِيَّاتٍ وَشَقُوقٍ جَسْمِ هَدْسَةَ بِمَرْهَمِ كَرِيهَ الرَّائِحَةِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا بِاقْتِصَابٍ: ”إِبْقِي وَاقْفَةَ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ أَنْ تَغْتَسِلِي“. وَقَدْ أَحْرَقَهَا الْمَرْهَمُ كَالنَّارِ. وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ مُضْنِيَّةٍ، أَمَرَتْهَا الْمَرْأَةُ بِدُخُولِ الْغُرْفَةِ التَّالِيَةِ، وَقَالَتْ: ”نَظِّفِي نَفْسِكَ جَيِّدًا، وَإِلَّا فَعَلْتُ أَنَا ذَلِكَ بِكَ!“ فَطَاعَتْ هَدْسَةُ، شَاكِرَةً عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْوَسْخِ الَّذِي صَارَ قَشْرَةً عَلَى جِسْمِهَا فِي أَثْنَاءِ الْإِيحَارِ وَالسَّفَرِ الطَّوِيلِينَ. وَقَدْ قَتَلَ ذَلِكَ الْمَرْهَمُ الْحَشْرَاتِ.

ثُمَّ نَصِيحَتْ بِمَاءٍ بَارِدٍ جَدًّا وَأَمَرَتْ بِدُخُولِ الْحَمَّامَاتِ.

دَخَلَتْ هَدْسَةُ غُرْفَةً وَاسِعَةً فِيهَا بَرَكَةٌ كَبِيرَةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنَ الرُّخَامِ الْأَبْيَضِ وَالْأَخْضَرِ. كَانَ حَارِسٌ حَاضِرًا، فَاسْرَعَتْ إِلَى الْمَاءِ كَيْ تَسْتَرِ عُرْيَهَا. وَلَمْ يَكِدِ الرَّجُلُ يُلَاحِظُهَا.

سَكَّنَ الْمَاءُ الْحَارُّ جِلْدَ هَدْسَةَ الْمُتَثَبِّبِ. لَمْ يَسْبِقْ لَهَا أَنْ دَخَلَتْ حَمَّامًا رُومَانِيًّا، فَتَلَفَّتَتْ حَوَالِيهَا بِرَهْبَةٍ. وَكَانَتْ الْجُدْرَانُ مَكْسُوسَةً بِلُوحَاتِ جِدَارِيَّةٍ رَائِعَةٍ جَدًّا بِحَيْثُ مَرَّتْ هُنَيْهَةً قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ هَدْسَةَ أَنَّ الْمَنَاطِرَ تُصَوِّرُ آلِهَةً وَثَنِيِّينَ يُغْوُونَ نِسَاءَ أَرْضِيَّاتٍ. فَخَفِضَتْ حَمَلَقَتَهَا إِذْ تَوَقَّدَ خَدَّاهَا حَجَلًا.

أَمَرَهَا الْحَارِسُ مَعَ الْأَخْرِيَّاتِ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْبَرِكَةِ وَالدُّخُولِ إِلَى حُجْرَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ أُعْطِيْنَ مَنَاشِيفَ رِمَادِيَّةً لِتَجْفِيفِ أَنْفُسِهِنَّ. وَقُدِّمَتْ إِلَيْهِنَّ نِيَابٌ، فَزَلَّقَتْ هَدْسَةُ عِبْرَ رَأْسِهَا التَّنِيكَ الْأَغْبَرَ الْبَسِيطَ وَالثَّوْبَ الْفَوْقِيَّ الْبُنِّيَّ الدَّاكِنَ. ثُمَّ لَفَّتِ الزَّنَارَ الْمُقْلَمَ بِالْأَحْمَرِ وَالْبُنِّيَّ حَوْلَ خَصْرِهَا مَرَّتَيْنِ، وَرَبَطَتْهُ بِأَحْكَامٍ، فَتَهَدَّلَتْ أَطْرَافُهُ الطَّوِيلَةُ الْمَنْسُولَةُ عَلَى وَرِكَيْهَا. وَأُعْطِيَتْ خِرْقَةً بُنِّيَّةً بَاهِتَةً غَطَّتْ بِهَا رَأْسَهَا الْمَحْلُوقَ، وَرَبَطَتْهَا خَلْفَ عُنُقِهَا لِتَشْبِيَتِهَا. أَحْيِرًا أَلْقِيَتْ عَلَيْهَا قِلَادَةُ الْعَبِيدِ الْمُخْرِزِيَّةِ، ثُمَّ عُلِقَ لَوْحٌ حَوْلَ رَقَبَتِهَا.

دَخَلَ الْمَالِكُ عِنْدَمَا جُهِزَتْ. وَلَمَّا وَصَلَ لِيَقْفَ أَمَامَ هَدْسَةَ، تَفَحَّصَهَا بِدَقَّةٍ. ثُمَّ رَفَعَ اللُّوْحَ وَكَتَبَ عَلَيْهِ شَيْئًا قَبْلَ التَّقَدُّمِ إِلَى التَّالِيَةِ.

أَخَذَنَ إِلَى سُوقِ النَّخَاسَةِ مَرْبُوطَاتٍ مَعًا. وَتَسَاوَمَ الْمَالِكُ وَالدَّلَالُ حَتَّى اتَّفَقَا عَلَى عُمُولَةٍ.

ثُمَّ أُرْسِلَ بِيَّاعٌ إِلَى الرَّصِيفِ الْمَزْدَحِمِ لِكَيْ يَجْتَذِبَ جُمْهُورًا، وَشَرَعَ يُنَادِي: ”نِسَاءَ يَهُودِيَّاتٍ لِلْبَيْعِ. أَفْضَلُ أَسِيرَاتٍ تَيْطُسُ بِأَيْخَسِ الْأَسْعَارِ!“ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ حَشْدٌ، حَلَّ الْمَالِكُ إِحْدَى النِّسَاءِ، وَأَمَرَهَا بِالْوُقُوفِ عَلَى طَاوِلَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ ضَخْمَةٍ مَصْنُوعَةٍ عَلَى غِرَارِ دُولَابِ الْفَخَّارِيِّ. وَقَدْ وَقَفَ عَبْدٌ شَبَهُ عَارٍ، وَعَلَى كَتْفِهِ الْعَرِيضَةِ حَبِلٌ، مُنْتَظِرًا الْأَمْرَ بِإِدَارَتِهَا.

رَشَقَ الْمُتَفَرِّجُونَ الْمَرْأَةَ بِالشَّتَائِمِ وَالْإِهَانَاتِ. وَصَاحَ أَحَدُهُمْ: ”عَرَّهَا حَتَّى نَرَى أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْبِضَاعَةِ تَبِيعُ فَعَلًا! يَهُودِيَّاتٌ مَلْعُونَاتٌ! أُرْسِلُهُنَّ إِلَى الْكَلَابِ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ!“ لَقَدْ وَقَفَتِ الْمَرْأَةُ مُنْتَصِبَةً فِيمَا الْعِيُونَ تُحَدِّقُ إِلَيْهَا مُبَاشِرَةً إِذْ أُدِيرَ الدُّوَلَابُ حَتَّى يُتَاحَ لِلْمُحَدِّقِينَ إِلَيْهَا أَنْ يَرَوْا الْبِضَاعَةَ الْمَعْرُوضَةَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ.

إِنَّمَا كَانَ بَيْنَ الْحُضُورِ مَنْ يَطْلُبُونَ عِبَادَاتٍ لَبِيئَتِهِمْ. وَهَكَذَا بَاعَتِ النِّسَاءُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ: طَبَّاحَةٌ، حَيَّاقَةٌ، حَيَّاطَتَيْنِ، جَلِيسَةُ أَطْفَالٍ، طَبَّاحَةٌ، سَقَاءَةٌ. وَكُلَّمَا بَاعَتْ وَاحِدَةً، كَانَتْ تَوْمَرٌ بِالْتَزُولِ عَنِ الدُّوَلَابِ الضَّخْمِ لِيَمْضِيَ بِهَا مَالُكُهَا الْجَدِيدَةَ جَارًا إِيَّاهَا بِحَبِلٍ. وَقَدْ أَحْسَسَتْ هَدَسَةُ الْحَرِمَانَ وَهِيَ تُرَاقِبُهُنَّ ذَاهِبَاتٍ.

كَانَتْ هِيَ آخِرَ وَاحِدَةٍ تَقِفُ عَلَى الدُّوَلَابِ.

قَالَ الدَّلَالُ: ”إِنَّهَا صَغِيرَةٌ وَنَحِيلَةٌ، وَلَكِنَّهَا أَكْمَلَتْ الْمَسِيرَةَ مِنَ الْقُدْسِ إِلَى أَنْطَاكِيَّةٍ، فَهِيَ قَوِيَّةٌ جَدًّا. سَتَكُونُ عَبْدَةً بَيْتِيَّةً جَيِّدَةً!“ ثُمَّ افْتَتَحَ الْمَزِيدَةَ بِثَلَاثِينَ سَسْتَرَسًا، أُسُوءَ بِالْأَخْرِيَّاتِ. وَلَمْ يُزَازِدْ أَحَدٌ، فَخَفَضَ السَّعْرَ إِلَى خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ، ثُمَّ إِلَى عَشْرِينَ، ثُمَّ إِلَى خَمْسَةِ عَشْرٍ.

أَخِيرًا اشْتَرَاهَا رَجُلٌ يَرْتَدِي ثَوْبًا فَضْفَاضًا أَبْيَضَ مُزْرَكَشًا بِالْأَرْجَوَانِ. فَنَزَلَتْ عَنِ الدُّوَلَابِ وَوَقَفَتْ أَمَامَ الرَّجُلِ، حَانِيَةً رَأْسَهَا احْتِرَامًا، وَشَابَكَةً يَدَيْهَا. وَكُلَّمَا أَطَالَ تَفْحُصَهَا، بَدَأَ طَوْقُ الْعَبِيدِ النِّحَاسِيِّ حَوْلَ عُنُقِهَا أَضْيَقَ. وَلَمَّا نَزَعَ الْحَرِيقَةَ عَنِ رَأْسِهَا، اخْتَلَسَتْ نَظْرَةً كَافِيَةً لِرُؤْيَةِ عَيْنَيْهِ الْخَائِبَتَيْنِ. وَقَالَ لَهَا: ”أَمْرٌ مُؤَسِّفٌ أَنَّهُمْ حَلَقُوا رَأْسَكَ. فَلَوْ كَانَ شَعْرُكَ مَوْجُودًا، لَرُبَّمَا بَدَوْتَ أَكْثَرَ شَبِيهَا بِالْإِنَاثِ“. ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهَا الْحَرِيقَةَ، فَرَبَطَهَا بِسُرْعَةٍ مِنْ جَدِيدٍ.

تَمَّتْ بِانْزِعَاجٍ كَبِيرٍ: ”تَرَى، أَيُّ إِلَهٍ يُجَازِحُنِي هَذِهِ الْمَرَّةَ؟“ فِيمَا أَمْسَكَ بِالْحَبْلِ الْمُرْبُوطِ حَوْلَ مِعْصَمَيْهَا، وَبَدَأَ يَمْشِي بِسُرْعَةٍ عَلَى الرَّصِيفِ. فَأَخَذَتْ هَدَسَةُ تَخْطُو خُطُوتَيْنِ مُقَابِلَ كُلِّ خُطْوَةٍ مِنْهُ، مُتَسَارِعَةً كَيْ تَلْحَقَ بِهِ، وَبَدَأَ جَنْبُهَا يُؤَلِّمُهَا.

جَزَّهَا بَرُوكُوبُسُ وَرِأَاهُ، مُسَائِلًا نَفْسَهُ عَمَّا يَفْعَلُ بِهَا. فَإِنَّ زَوْجَتَهُ، أَفِينَاخَرِسَ، سَتَقَطُّعُ رَأْسَهُ إِنْ اصْطَحَبَهَا إِلَى الْبَيْتِ. إِذْ كَانَتْ أَفِينَاخَرِسَ تَزْدَرِي بِالْيَهُودِ، وَتَدْعُوهُمْ حَوْنَةً وَأَهْلًا لِلْإِفْنَاءِ.

وقد قُتل ابنُ صديقتها الفضلى في إقليم اليهودية. فهزَّ رأسه. ترى، ماذا استحوذ عليه حتى اشتري الفتاة أصلاً؟ وماذا يفعلُ بها الآن؟ عشرةٌ سسترسات بهذه المخلوقة الضعيلة. أمرٌ يدعو إلى السُخرية. كان يطوفُ على الأرصفة، مُنصرفاً إلى شأنه الخاص، حاملاً بالإبحار إلى كريت مُخلِّفاً كلَّ بلاياه ورائه، إذ لحقَ بذلك الدَّلال. وقد دفعه الفضولُ إلى رؤية الأسيرات اليهوديات، وشعرَ بشفقةٍ غير مألوفة عندما لم يتقدَّم أحدٌ لشراء هذه.

ما كان ينبغي أن يذهبَ إلى أرصفة المرفأ اليوم، بل كان ينبغي أن يذهبَ إلى الحمامات لِيُمسِّج. ألمه رأسه، وكان جائعاً، واستشاطَ سُخطاً على نفسه لشعوره بأدنى شفقةٍ على هذه الفتاة. لو أبقى يده مدلاةً إلى جنبه، لكان شخصٌ سواه يجزُّها الآن موقراً عليه عناءَ مواجهة هذه المشكلة.

ربَّما ينبغي أن يُقدِّمها هديةً إلى تيباريوس، وهكذا يتخلَّص منها. فتباريوس يحبُّ الشابات، ولا سيَّما من هُنَّ أصغر سنّاً من أن يحبلن. ثمَّ رمقها بنظرةٍ أخرى. فومضتْ عينها البُنِّيَّتان الواسعتان لِعَينيه، ثمَّ أشاحتها بسُرعة. إنَّها مُرتاعةٌ حتى الموت. ولمَ لا؟ فمعظم بني شعبها قد ماتوا. مئاتُ الألوْف منهم، كما سمعتُ. ولا يعني ذلك أن اليهود لم يستأهلوا الإبادة بعدَ كلِّ البلاء الذي سبَّبه لروما.

قَطَبُ بروكوبس تقطيباً شديداً. إنَّ تيباريوس لن يُريدها. فهي ليستُ إلا عظاماً وجِلداً مَشدوداً وَعَينَينِ مُعَانِيتَينِ قَامَتَينِ كَبيرَتَينِ. حتى الشَّهوانِي ما كانتُ مثُلُ هذه لِتُثبِرَه. مَنْ سِوَاهُ إِذَا؟

ربَّما كليمنتيا. لعلَّها تحتاجُ إلى خادمةٍ أخرى، ولكنَّه لم يشعرَ بميلٍ إلى مُواجهة عشيقته النُكداءِ اليوم. وشكٌّ في أن يزدادَ حبُّها إليه من طريق هديةٍ ما هي سوى عبدةٍ مهزولة، ولا سيَّما أنَّه لم يَفرِّغْ لرؤية صانعهِ وشراء الخلى المطلوبة لتتدلى أمامَ عَينِها الجَشَعَتَينِ. وهي ما زالتُ ساخطةٌ بسبب البرُوش الذي أهداه إليها. فهو لم يُدرِك أنَّها كانتُ بالغةَ الدَّهَاء، ولا خطرٌ في باله إمكانُ أن تعرَّضَ ذلك البرُوش لتعرفَ قيمتهِ على وجه السُرعة. لقد صاحتُ عليه قائلةً: ”بعدَ كلِّ وعودِك، كيف تجرؤُ على إعطائي حِلِيَّةً مُزيِّفةً!“ وقدفَّت رأسه بالحلية الجميلة. إنَّ النَّساءَ غيرُ جَذَّاباتٍ على نحوٍ مُنفرِّ حين يبيكين، ولا سيَّما عندما تجري دموعهنَّ من الغَيط. ووجهُ كليمنتيا، الجميلُ عادةً، لبسَ فِناجَ بَشاعةٍ رهيباً، حتى استردَّ بروكوبس الحِلِيَّةَ المُنتَقِصةَ وفرَّ من الغُرفة. ثمَّ قبلتُ زوجته الحِلِيَّةَ بتقديرٍ بالغ.

كان بضعةُ ضبَّاطِ رومانٍ من قادة المئات واقفين حراساً على صفٍّ من العبيد المهزولين

روما

المُرْهَقِينَ الَّذِينَ رُبِطُوا بِحَبْلِ مَعًا وَهُمْ يَصْعَدُونَ إِلَى ظَهْرِ إِحْدَى الشُّفْنِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَجْمُوعَةُ تَضُمُّ أَرْبَعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَوْ أَكْثَرَ. فَنَادَى بُرُوكُويسُ الضَّابِطَ الْوَاقِفَ عِنْدَ رَأْسِ مَعْجَرِ التَّحْمِيلِ، سَائِلًا: "إِلَى أَيْنَ أَنْتُمْ مُتَوَجِّهُونَ؟"
رَدَّ الضَّابِطُ جَهْرًا: "إِلَى رُومَا".

غاصَّ قَلْبُ هَدَسَةَ، إِذْ نَظَرَتْ إِلَى الْأَسْرَى وَعَرَفَتْ مَصِيرَهُمْ. يَا اللَّهُ، مُجْنِي، رَجَاءُ!
"أَهْمُ يَهُود؟"

"كَيْفَ يَبْدُو مَنظَرُهُمْ؟ أَيَبْدُونَ مُوَاطِنِينَ رُومَانِيِّينَ؟"

سَأَلَهُ بُرُوكُويسُ: "أَلَكِ مَصْلِحَةٌ فِي وَاحِدَةٍ بَعْدُ؟" وَتَرَتَّ الْحَبْلَ جَارًا هَدَسَةَ إِلَى الْأَمَامِ.
"خَمْسَةَ عَشَرَ سَسْتَرَسًا، فَتَصِيرُ هَذِهِ لَكَ!" فَضَحِكَ الرُّومَانِيُّ ضِحْكَةً سُخْرِيَّةً. "إِذَا، عَشْرَةٌ". وَتَجَاهَلَهُ الرُّومَانِيُّ. "إِنَّهَا قُوَّةٌ كَفَايَةٌ حَتَّى أَكْمَلْتِ الْمَسِيرَةَ مِنْ أَنْطَاكِيَّةٍ. إِنَّهَا قُوَّةٌ كَفَايَةٌ لِأَيِّ شَيْءٍ تَوَيْتَهُ بِشَأْنِ أَوْلَتِكَ الْعَبِيدِ".

"لَنْ تَكُونَ الْقُوَّةُ مَطْلُوبَةٌ مِنْهُمْ".

"سَأَبْعُكَ إِيَّاهَا بِسَبْعَةِ سَسْتَرَسَاتٍ".

فَصَاحَ الرُّومَانِيُّ مِنْ عُلٍّ: "لَنْ أَدْفَعُ فَلَسًا وَاحِدًا لِقَاءَ يَهُودِيَّةٍ. إِلَيْكَ عَنِّي!"

دَفَعَ بُرُوكُويسُ هَدَسَةَ بِقُوَّةٍ إِلَى الْأَمَامِ. "لَكَ أَنْ تَأْخُذَهَا إِذَا! لِقَاءَ لَا شَيْءٍ! خُذْهَا إِلَى رُومَا مَعَ الْبَاقِينَ". وَأَلْقَى حَبْلَهَا مِنْ يَدَيْهِ، أَمْرًا إِيَّاهَا: "أَذْهَبِي وَفِي فِي الصَّفِّ مَعَ الْآخَرِينَ. إِنِّي أَعْسِلُ يَدَيَّ مِنْكَ!"

رَاقِبَتَهُ هَدَسَةَ يُعَادِرُ بِخُطَى وَاسِعَةٍ، فَأَحْسَتِ الْأَمَلَ الضَّمِيلَ مُتَلَاشِيًا. وَقَالَ الْجَنْدِيُّ:
"هَيَّا تَحْرُكِي!" ثُمَّ دَفَعَهَا. وَلَمَّا بَلَغَتْ أَعْلَى الْمَعْجَرِ الْخَشْبِيِّ، نَظَرَتْ إِلَى وَجْهِ الضَّابِطِ. وَكَانَ هَذَا قَدْ تَخَشَّنَ مِنْ جِزَاءِ الْحِمَلَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا طَوَالَ سَنِينَ، فَحَدَّقَ إِلَيْهَا فِي الْمَقَابِلِ بَعَيْنَيْنِ بَارِدَتَيْنِ جَامِدَتَيْنِ.

كَانَ فَسْتُوسٌ يَحْتَقِرُ الْيَهُودَ. فَكَثِيرُونَ جَدًّا مِنْ أَصْدِقَائِهِ قَضَوْا نَحْبَهُمْ عَلَى أَيْدِي أَوْلَتِكَ الْغَادِرِينَ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِالشَّفَقَةِ وَلَوْ عَلَى بِنْتِ صَغِيرَةٍ كَهَذِهِ. وَكَانَ قَدْ رَأَى شَفَتَيْهَا تَتَحَرَّكَانِ وَهِيَ تَصْعَدُ عَلَى الْمَعْجَرِ، فَلَعِمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَضَرَّعُ إِلَى إِلَهَيْهَا غَيْرِ الْمَنْظُورِ كَيْ يُنْقِذَهَا. وَمِنْ بَيْنِ الْمَجْمُوعَةِ كُلِّهَا، كَانَتْ هِيَ الْيَهُودِيَّةُ الْوَحِيدَةَ الَّتِي نَظَرَتْ إِلَى وَجْهِهَا تَامًّا، مُحَدِّقَةً إِلَى عَيْنَيْهِ مَبَاشَرَةً. فَأَمْسَكَ بِحَبْلِهَا وَجَذَبَهَا بَعْنَفٍ إِلَى خَارِجِ الصَّفِّ. فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ ثَانِيَةً. وَرَأَى

خَوْفًا فحسب، دونَ تمرد.

قال: ”أنتِ مُسافِرةٌ إلى روما. وأنتِ تعرفين معنى ذلك، أليس كذلك؟ ساحة المحارِبين! شاهدتُكِ تتضرَّعين إلى إلهكِ كي يُنقِذكِ، ولكنكِ ما زلتِ مُسافِرةً إلى روما على كلِّ حال، أليس كذلك؟“

ولمَّا لم تُقل شيئًا، اشتدَّ غضبُه.

”هل تفهمين اليونانية؟“

”نعم، سيدي.“

كان صوتها خافتًا، ولكن لم يعتره أي ارتعاش. فتَقَسَّتْ شَفَتَا فستوس. ”يبدو أنَّ إلهكِ غيرَ المنظور لا ينوي أن يُنجِيكِ رُغمَ كلِّ شيء، أفينوي ذلك؟ ماذا تقولين إزاء هذا؟“
فرفَعَتْ نَظَرَهَا إليه، وَقَالَتْ: ”إذا شاءَ اللهُ أن أموت، فسأَموت. ولا قوَّةَ على الأرض تستطيعُ تغييرَ ذلك.“

كلماتٌ بسيطةٌ قيلتْ بهدوء، تفوَّهتْ بها فتاةٌ ضعيفة، ولكن كَمَتَتْ فِيهَا بدورُ عَصِيانٍ أَكثَرَ دَمَوِيَّةً. وانقبضتْ شَفَتَا فستوس. ”على هذه الأرض، يا بنت، قوَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ واحدة فقط، وهي قوَّةُ روما.“ ثُمَّ هَزَّ بِرَأْسِهِ لِقَائِدِ المِثَّةِ الواقِفِ على مَقْرَبَةٍ. ”خُذْهَا إلى الأسفل مع الآخرين.“

7

فيما السلاسل تُحَسِّخُشُ والقيودُ تُحَزُّ كاحلي أترتيس، أرغم على النزول من العربة تمامًا داخل اللؤدس في كايوا. وكان ملسيناس قد اشترى تسعة رجال آخرين في طريقه إلى الجنوب، بضعة منهم فقط من أجل ضخامتهم. وأدرك أترتيس سريعًا أن قلوبهم لا تحمل الدماء وعقولهم لا تميل إلى العراك الجيد. فمثل حيوانات الحموله، كانوا يُطيعون كل أمر يُصدر إليهم. وقد نظر إليهم المحاربُ الجرمانِيُّ بعينِ الاحتقار.

تحرك أترتيس بتناقل، مُتألماً من الضرب الذي تلقاه بعد محاولة فراره الأخيرة. فقال الحارسُ أمرًا: ”قف في الصف!“ وأهوى بكرواجه. وسحب أترتيس نفسًا سريعًا إذ ألهبت ظهره وخزات الألم. فستم الحارسُ وأُقيم في الصف.

مشى ملسيناس بمحاذاة صف الرجال المُقيدين بالسلاسل، مُصدرًا الأوامر. وقال لأحدِهِم بجدة: ”قف مُستقيمًا!“ فلكم حارسُ العبد المريض على نحوٍ واضح وجعله يُدعِن. وأبقى الأسرى الآخرون عُيونَهُم مخفوضة في خنوع وافٍ، ما عدا أترتيس: فإنه وقف مُنفرج الساقين وحدق إلى التاجر بعينين مفتوحتين، مُبديًا كل الكره الذي شعر به يُصخ في أنحاء جسمه. وضربه حارسُ بكرواجه على كتفيه ضربةً قويَّة، فلم يُبدل سلوكه، بل أجفل فقط. وقبل أن يُستعمل الكِرباجُ ثانية، قال ملسيناس: ”كفى! لست أريد عليه نُدوبًا أكثر مما ناله حتى الآن“.

أغمض أترتيس عينيه جُزئيًا مُقابل ضوء الشمس، والألم يلتهمه، مُحاولًا أن يتبين ما حوله ليرى آيةً إمكانيةً للهرب. كانت أسوارٌ حجريةٌ عاليةٌ وعريضةٌ تُحيط به. وأنذرت القصبان الحديدية والأبواب الثقيلة والحراس المسلحون المُتقيظون مُستقبل قاتم من الاستعباد القسري لعدوه. وكان أمامه رجالٌ يُدربون لأجل ساحات المحاربين. إذا، هم ينوون أن يجعلوه مُحاربًا، أهذا صحيح؟

كان سهلًا تمييز المُدرب، فهو طويلُ القامة وقويُّ البنية، ويرتدي تُنكًا جلدًا مُدربًا بكثافة، وهو الوحيد الذي يحملُ غلاديوسا في الغمد المُعلق بحزامه. وقد كان هذا السيف القصيرُ للزينة أكثر منه لأي شيءٍ آخر. فهو لم يكن يحتاجُ إليه للحماية ولا لتعزيز أوامره.

لاحظَ مَلْسِيناسُ أين رَكَزَ الجِرمانيُّ الشابُّ نظَرَه، فكشَّرَ بِخُبْتِ. ”ذاك هو تَرَاكُسُ. لن ينفَعَكَ أن تُزَعِجَهَ كما أزعجتني هذه الأسابيعَ الماضية. فمعروفٌ عنه أنَّه يحزُّ عُنُقَ العبدِ لمجرَّد أن يجعلَهَ عِبْرَةً لِمَنْ يعتبرُ“.

كان أترتيس قد تعلَّم شيئاً من اليونانية في أثناء أسابيع أسره القليلة، ولكن لم يهَمَّهُ تهديدُ مَلْسِيناسِ في شيء. فتحركَ حركةً مُفاجئةً كأنه يهْمُ بمهاجمة التاجر. وضحك على تراجع الروماني السريع. كانت تلك آخرَ متعةٍ بقيت عند أترتيس: أن يرى رجلاً يدعو نفسه ”سيِّداً“ ينكمشُ خوفاً منه. فقال ساخراً: ”لو وُلِدْتَ شطيماً، لأغرقناك في مُستنقع“.

لم يكن مَلْسِيناسُ يحتاجُ لأن يفهمَ الجِرمانيَّةَ حتَّى يعلمَ أنه أئين إهانةً فادحة. فاحمرَّ وجهه غيظاً، وأمسكَ بِكِرَباجِ الحارس، وأهوى به على صدر أترتيس بضربةٍ مرَّقت جلدَه. فحبسَ أترتيس نفسه، ولكنه لم يتحرك، بل نظرَ إلى مَلْسِيناس، ثمَّ بصقَ على قدميه.

وما إن رفعَ مَلْسِيناسُ الكِرَباجَ ثانيةً، حتَّى قال أحدُ الحُرَّاسِ: ”وصل سكوريس!“

أنزلَ مَلْسِيناسُ الكِرَباجَ، وردَّه رَمِيًّا إلى حارسٍ قريب، قائلاً: ”راقبه!“

فدمدمَ الحارس: ”ينبغي أن نقتله“.

فقال مَلْسِيناسُ مُتجهِّماً: ”إنَّه الوحيدُ الذي يستحقُّ البَيْعَ“. ولكنه إذ تذكَّرَ أن لديه ضيوفاً، استدارَ بابتسامةٍ واثقةٍ وحيَّةٍ لَبِقةٍ ومضى.

شاهدَ أترتيس رجلاً يُحيط به حارسان مُسلَّحان مُحِيَّيًّا ”السيد“. كان للضيفِ منظرٌ جنديّ، ولكنه كان يرتدي لباسَ أرسنقراطيٍّ لِيِّنِ العريكة. وبعدَ تمعُّنٍ وجيزٍ، صرفَ أترتيس انتباهَه مُجدِّداً إلى الرُّجالِ المُتدربين وراءَ الحائطِ المُشبَّك. كانوا جماعةً مُختلطةً، جيءَ بهم من أقاصي الإمبراطورية الرومانية. برتوتيون موشومون، وغاليون جلودهم بلون الرِّيتون، وأفريقيون سود، كلُّهم يتحرَّكون عند كُلِّ أمرٍ يُصاحُ به. كانوا مُسلَّحين بسيوفٍ من حَسَبِ فقط، وخَصَّعوا لتدريباتهم، وكلُّ رجلٍ منهم يتحرَّك بانتظامٍ موحدٍ على وَقَعِ صوتِ تَرَاكُسِ الجُهورِيِّ. ”أهجم، دافع، ترجَّع عالياً ومُستديراً، صُدَّ، دُر، هاجم. أعدا!“.

أمعنَ أترتيس في النَظَرِ في المُجمَعِ، مُفَتِّشاً من جديدٍ عن سُبُلٍ مُمكنةٍ للفرار. وسرعان ما تضاءلت آماله. إذ لم يسبق له أن رأى قطُّ مكاناً أكثرَ تحصيئاً. فالأسوارُ عاليةٌ وثخينة، وكلُّ بابٍ هو من الخشبِ ومزودٌ بمزلاجين وقفلين. وفي كُلِّ مكانٍ حُرَّاسٌ مُسلَّحون، ينظر بعضهم إليه باحتقارٍ وكأنَّهم استطاعوا إدراكَ نِيَّتِه فتأهبوا لمنعه.

أثارَ صَحِكَ مَلْسِيناسِ أترتيس، جاعلاً الدَّمَّ يغلي في عروقه. وفاقَ لأن يتحسَّسَ رَقَبَةَ

Log

مَلْسِيناس السَّمِينَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَحَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ أَخْرَجَ عَمَلٍ لَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، أَرَادَ أَنْ يَقْتَلَ مَلْسِيناسَ فَيَتَشَفَّى مِنْهُ.

قال مَلْسِيناس: ”حَسَنًا يَا سَكورِيسُ! هل ترى واحدًا يُلبِّي حاجاتك؟“ إذ تَبَّهَ بِاعْتِدَادِ إِلَى أَنَّ مَالِكَ اللُّودُسِ الثَّرِيِّ قَدْ تَبَّتْ نَظَرُهُ عَلَى ذَلِكَ الْجِرْمَانِيِّ الْجَرِيِّءِ. ”إِنَّهُ جَمِيلٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟“ وَحَاوَلَ أَلَّا يَبْدُو كَمَنْ يَفْرُكُ يَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى.

أجاب سَكورِيسُ بِجَفَاءٍ: ”لَسْتُ مُهْتَمًّا بِالْجَمَالِ، يَا مَلْسِيناس. إِنَّ قُوَّةَ الْإِحْتِمَالِ وَالصُّمُودَ مُرَبِّحَانِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ.“
”لَدَيْهِ كِلَاهُمَا.“

”مَنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهِ؟“

”مَنْ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْجِرْمَانِ. كَانَ زَعِيمًا لِإِحْدَى الْقَبَائِلِ، وَقَدْ قَتَلَ فَوْقَ عَشْرِينَ جَنْدِيًّا فِي مَعْرَكَةٍ وَاحِدَةٍ.“

قال سَكورِيسُ: ”مُبَالِغَةٌ مُوَدَّجِيَّةٌ يَا مَلْسِيناس. هُوَ أَصْغَرُ سَنًا مِنْ أَنْ يَكُونَ زَعِيمَ قَبِيلَةٍ.“
ثُمَّ مَشَى مُقَابِلَ صَفِّ الرُّجَالِ. وَلاَحَظَ كُلَّ عَيْبٍ، مِنْ الْأَسْنَانِ الْمُسَوَّسَةِ إِلَى الْبَشْرَةِ الشَّاحِبَةِ. وَقَدْ كَانَ مَلْسِيناسُ مُنْفَعِلًا، وَجَادَلَ بِفُتُورٍ، فِيمَا حَمَلَقْتُهُ تَعَوُّدًا تَكَرَّرًا إِلَى الْجِرْمَانِيِّ. لَا رَيْبَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَقَّعُ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْ ذَلِكَ الْهَمْجِيِّ. ثُمَّ رَجَعَ سَكورِيسُ إِلَى الشَّابِّ وَتَفَحَّصَهُ مِنْ جَدِيدٍ. فَبَدَأَ مَلْسِيناسُ قَلْبًا، وَتَقَطَّرَ الْعَرَقُ عَلَى جَبِينِهِ وَشَفَتَيْهِ الْعُلْيَا.

”الظَّاهِرُ أَنَّهُ ضُرِبَ بِضَعِّ مَرَّاتٍ. فَمَا السَّبَبُ، يَا مَلْسِيناس؟ هَلِ اعْتَرَضَ عَلَى مَرَاوِدَاتِكَ الْجَنْسِيَّةِ؟“

لَمْ يُضْهِكْ ذَلِكَ مَلْسِيناسَ. وَقَالَ، مُؤَمَّنًا لِحُرَّاسِهِ أَنْ يَقْتَرِبُوا أَكْثَرَ: ”لَقَدْ حَاوَلَ الْفِرَارُ، أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.“ فَلَاحِظِي فِي أَنْ يُهَاجِمَ سَكورِيسُ دَاخِلَ اللُّودُسِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، وَذَلِكَ الْهَمْجِيُّ الشَّابُّ كَانَ مُخْبَلًّا إِلَى حَدِّ يَجْعَلُهُ يُقَدِّمُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

لَاَحَظَ سَكورِيسُ حَرَكَةَ الْحُرَّاسِ. فَقَدْ كَانَ لِلْجِرْمَانِيِّ حَقًّا مَنَظَرٌ هَائِلٌ. وَكَانَ مَلْسِيناسُ يَتَعَرَّقُ، فَوَجَدَ سَكورِيسُ ذَلِكَ مُسَلِّيًا. وَالْعَيْنَانِ الزُّرْقَاوَانِ الْمُحَدَّقَتَانِ إِلَيْهِ كَانَتَا شَرَسَتَيْنِ وَمَمْلُوعَتَيْنِ حَقْدًا سَافِرًا. فَالضَّرَاوَةُ غَيْرِ الْمُرَوَّضَةِ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُشْتَرَى. ”كَمْ تَطْلُبُ فِيهِ؟“

”خَمْسِينَ أَلْفَ سَسْتَرَسَ.“ قَالَ مَلْسِيناسُ هَذَا، رَافِعًا صَلَاةً سَرِيَّةً سَرِيعَةً إِلَى مَارَسَ كَيْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْهَمْجِيِّ.

”خمسين ألفاً؟“

”إنه يستحق هذا“.

”مجموعتهم كلها لا تستحق خمسين ألف سسترس. أين وجدتهم؟ يقطفون العنب أم ينشئون الطرُق؟ أو ربّما في غياهب المناجم؟ فإنّ لهم كلّ ما في الحجارة من ذكاءٍ وحياء“. ما عدا الجرّمانيّ، إذ بدا أنّ لديه شيئاً من الذكاء. وهذا أمرٌ مرغوبٌ فيه وخطيرٌ في آنٍ معاً.

ساوَمَ مَلْسِيناس هُنَيْهَةً بِالثَّمْنِ، وَلَكِنَّ سَكورِيسَ هَزَّ رَأْسَهُ رَفْضاً، مُتَفَحِّصاً اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ. وَصَرَ مَلْسِيناسَ بِأَسْنَانِهِ، إِذْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ الْجِرْمَانِيِّ الشَّابِّ، حَتَّى لَوْ عَنَى الْأَمْرُ أَنْ يَبِيعَهُ بِثَمْنٍ أَقَلِّ مِمَّا يَسْتَحِقُّ. فَالشَّيْطَانُ الشَّابِّ قَدْ قَتَلَ بِالْفِعْلِ وَاحِداً مِنْ حِرَّاسِهِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ مَلْسِيناسَ يَعْلَمُ أَنَّ الْجِرْمَانِيِّ الشَّابِّ لَا يَرِغِبُ فِي شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِهِ هُوَ أَيْضاً. وَقَدْ رَأَى ذَلِكَ فِي تَيْنِكَ الْعَيْنَيْنِ الْبَارِدَتَيْنِ كُلَّمَا نَظَرَ إِلَيْهِ. وَشَعَرَ الْآنَ بِذَلِكَ، مِمَّا جَعَلَ الشَّعَرَ عَلَى قَفَا رَقَبَتِهِ يَنْتَصِبُ وَأَحْشَاءَهُ تَدُوُّ بِكَامِءٍ.

”سأبيئك الجرّمانيّ بأربعين ألف سسترس، ولكنّ هذا أدنى ثمن يمكنني النزول إليه“. ”أبقه عندك إذا. كم تطلب في هذا؟“ وقد وقّف يتفحص غالِيًا اشتراه مَلْسِيناسُ مِنْ طَاقِمِ طَرِيقِ.

وَكَالعَادَةِ، كَانَ سَكورِيسَ مُصِيبًا فِي تَخْمِينِهِ لِلْبِضَاعَةِ الَّتِي جَلَبَهَا مَلْسِيناسَ. فَمُعْظَمُ الرِّجَالِ الْوَاقِفِينَ فِي الصَّفِّ يَفْتَقِرُونَ إِلَى الْفِطْنَةِ الَّتِي تُمَكِّنُهُمْ مِنَ الصُّمُودِ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ خَمْسَ دَقَاقِ. وَمِنْ ثَمَّ قَالَ مَلْسِيناسَ ”عشرة آلاف“، دُونَ أَنْ يُلْقِيَ حَتَّى نَظْرَةً عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يُسَعِّرُهُ. وَلَكِنَّهُ بِالْأَحْرَى أَلْقَى نَظْرَةً حَذَرَ عَلَى الْجِرْمَانِيِّ، شَاعِرًا بِقَشَعْرِيرَةِ تَيْنِكَ الْعَيْنَيْنِ الزَّرْقَاوَيْنِ تَخْتَرِقُ مِخَاخَ عِظَامِهِ. لَنْ يُسَافِرَ مَيْلًا آخَرَ مُصْطَحِبًا ذَلِكَ الشَّيْطَانَ.

”دع الجرّمانيّ يُصارعَ ثَرَاكُسَ إِنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَسْتَأْهِلُ السَّعْرَ الَّذِي طَلَبْتَهُ فِيهِ“. إِذَا تَعَدَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَبِيعَ الْجِرْمَانِيِّ، يَتَشَفَّى مِنْهُ بِرُؤْيَتِهِ مَيْتًا.

نَظَرَ إِلَيْهِ سَكورِيسَ مُنْشِدِهَا، وَتَضَاحَكَ مِنْ دُونَ ظَرَافَةٍ. ”ثَرَاكُسَ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تَرَى هَذَا مَقْتُولًا قَبْلَ أَنْ يُبَاعَ؟ لَنْ يَصْمَدَ دَقِيقَةً وَاحِدَةً أَمَامَ ثَرَاكُسَ“.

فَقَالَ مَلْسِيناسَ مُتَحَدِّثًا: ”ضَعْ رِمْحًا فِي يَدَيْهِ، تَرَّ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ“.

ابْتَسَمَ سَكورِيسَ ابْتِسَامَةً سُخْرِيَةً. ”أَعْتَقِدُ أَنَّكَ خَائِفٌ مِنْهُ، يَا مَلْسِيناسَ، رُغْمَ قِيَامِ

جميع حُرَّاسك بحمايتك!“

كان لهذه الملاحظة الساخرة وقعها المؤلمُ جدًّا على مَلْسِيناس. لولا مَلْسِيناس، لاضطُرَّ سكوريسُ إلى مُعادرة محلَّته الفخمة ليبحثَ بنفسه عن بضاعةٍ لأجلِ لودسيه. فصرَّ بأسنانه وقال ببرودة: ”حاول أن يفرَّ أربعَ مرَّات، في آخرها قتل واحدًا من رجالي. كسرَ رقبته.“

رفع سكوريسُ حاجبيه. ”أربعُ محاولات!“ ثمَّ نظر إلى الجرمانِي الفَتِيَّ مُجددًا. ”إنَّ له بالفعل منظرًا نادرًا، أليس كذلك؟ يبدو كأنه لا يرغبُ في أيِّ شيءٍ أكثرَ من شربِ دَمِك. حسنًا، مَلْسِيناس. سأخذُه من تحتِ يدك، بثلاثين ألفَ سسترس.“

فقال مَلْسِيناس ”اتفقنا!“ وهو أبعدُ ما يكون عن الرضى بالرَّيح الضئيل الذي سيَجنيه. ”والآخرون؟“
”هو فقط.“

”الغاليُّ قويٌّ وحسنُ التناصُق.“

”أريدُ الهَمْجِيَّ فقط.“

تراجَعَ مَلْسِيناس خُطوةً إلى الوراء، فيما أمرَ حُرَّاسَه بأن ينزعوا قيودَ الساقين عن مَلْسِيناس قائلاً: ”تيقنوا تقييدَ يديه ورائه بإحكامٍ قبلَ نزعِ قيودِ كاحليه.“ وضحك سكوريسُ بسخرية، إلا أنَّ مَلْسِيناس كان أكثرَ خوفًا من أن يُجازِفَ.

وقفَ أترتيسُ برباطة جأشٍ ودقَّات قلبه مُتسارعة، إذ فُتِحَتِ الأقفالُ وانزلتِ السلاسلُ من حلقات العبيد الآخرين. فُرصةٌ واحدة، ذلك كلُّ ما سيُتاحُ له - فُرصةٌ واحدة فقط. إنَّ طيواز يودُّ أن يراه يموتُ مُحارِبًا. سحبَ الحارسُ السلاسلَ من الحلقات حول أغلال الكواحل، حالًا أربعةَ عبيد قبل وصوله إلى أترتيس. وتنفَّس حارسُ آخرٍ على رقبته. ”إنَّ حاولتَ شيئًا، طرحتُك أرضًا بضربةٍ هراوة كما يُصرِّع كلبٌ مثلك.“ وتترَّ السلاسلُ نترَّةً شديدةً حولِ معصمي أترتيس ليَتيقنَ بأنَّها مُحَكِّمةٌ تمامًا.

ما إنَّ خشخشَتِ السِّلْسِلَةُ مُنفلتةً من أغلال الكاحلين، حتَّى قدحَ دُمُ أترتيس شررًا، فانفجَرَ مُتحرِّكًا. ارتمى بكاملِ قوَّةِ بدنه على الحارس الذي ورائه، ورفعَ رجله، ورفسَ بقدمه مغبنَ الذي أمامه. وإذ أطلقَ صيحته الحربيَّة، دفعَ عنه آخرَ حاولٍ أن يصرِّعه، وهجمَ على مَلْسِيناس تَوًّا، فصرخَ هذا مذعورًا وفرَّ مسعورًا وهو يُصدرُ أوامره طالبًا الاحتماء.

راقبَ سكوريسُ مُتضاحِكًا حُرَّاس مَلْسِيناس وهم يحاولون استعادة السَّيطرة على

الجرماني. ولما اتّضح أنّ الخوف من الجرماني لا يقتصر على ملسيناس وحده، فرّق سكورپس أصابعه، فتولّى حُرّاسه الخاصون الوضع. ونادى ساخراً: "يَمَكُنْكَ أَنْ تَرَجِعَ الآن، يا ملسيناس، وتراقب! إنّ جرمانيتنا يجري إخضاعه".

كافح أترتيس بعنف، ولكنّ رجال سكورپس كانوا أقوى وأسرع. فقد واجهه اثنانٍ منهما معاً بكامل قوتهما، فيما ربط ثالثٌ حبلاً ثخيناً حول عنقه. وإذا كانت يداه مقيّدتين خلفه، لم يستطع الإفلات من الأنشودة. حُجِبَ هواؤه، وحِيلَ دون وصول الدّم إلى دماغه. وبينما هو يختنق، ارتجّ رجّةً عنيفةً فهوى أرضاً على رُكبتيه. ثمّ اضطربَ بصره وسقط إلى الأمام على التراب إذ ضغطَ رجلٌ بركبته الثقيلة على مُنتصف ظهره. وأرخيَ الحبلُ الثخين، دون أن يُنزع، فأتيح لأترتيس أن يشهق هواءً إلى رثتيه الملتهيتين. ثمّ صرّع على التراب، فأطلق شتيمَةً حادّةً.

أمر سكورپس بتراخ: "أوقفوه على قدميه!" فاقترب ملسيناس بحذر، ووجهه شاحبٌ ومُحطّطٌ بالعرق.

"سايبنوس، أريدُ منك أن تُترجمَ بدقةً ما أقول". فاتحنى الحارس طائعا، وفعل ما أمر به. "اسمي سكورپس بركتر كارپوفورس وأنا أملكك. ستقسمُ قسمَ المحارب حتى لا تُجلدَ بالقضبان، أو تُحرقَ بالنار، أو تُقتلَ بالحديد القاطع، إن لم تُطعني. أفهمت؟"

فبصقَ أترتيس على قدميه.

انقبضت عينا سكورپس. "كنت على حقّ في طلبك خمسين ألف سسترس، يا ملسيناس. مؤسفٌ أنّك لم تُصبرَ عليها". وبإشارةٍ منه، ضربَ أترتيس ضرباً وحشياً، إلاّ أنّه ظلّ يُحدّق بصمتٍ إلى سكورپس، رافضاً أن يؤدّي القسم.

وأوماً سكورپس برأسه لضابطه، فابتدأ الضرب من جديد.

قال ملسيناس بإحساس: "أحسب نفسي سعيداً للتخلّص منه. يحسنُ بك أن تتخذَ احتياطاتٍ إضافيةً حيث يتعلّق الأمر به. إن لم يُقسمِ القسم الآن، يعتقد أنّه هزمك".

أوقف سكورپس الضرب بتلويحةٍ يسيرةٍ من يده. "هنالك طرقٌ أخرى لدفع رجلٍ مثله إلى الإذعان. لستُ أرغبُ في قهر روحه، بل إرادته فقط. ثمّ التفت إلى سايبنوس.

"سمّه، وضعه في الحفرة".

فهّم أترتيس الأمر بأن يؤسّم عبداً لروما، وأطلق صيحةً غيظ، مُكافحاً بعنفٍ إذ جرّه الحراس تقريبا نحو الباب الحديديّ المُشبك. ثمّ سُفِقَ البابُ وأُفِقِلَ وراء أترتيس فيما دفعه

روما

حُرَّاسُهُ إِلَى الْكَبِيرِ، حَيْثُ وُضِعَ فِي الْجَمْرِ الْمُتَوَهِّجِ رَأْسَ حَدِيدَةٍ عَلَيْهِ شَعَارَاتُ. فَكَافَحَ كِفَاحًا أَقْسَى، غَيْرَ مَكْتَرٍ حِينَ شَدَّ الْحَبْلَ حَتَّى كَادَ يَنْخَنِقَهُ. أَفْضَلُ لَهُ أَنْ يَمُوتَ مِنْ أَنْ يَحْمَلَ سِمَةَ رُومَا.

إِرْتَخَتْ قَبْضَةُ أَحَدِ الرُّجَالِ عَنْ أُرْتَيْسِ، وَاصْطَدَمَ بِطَاوِلَةٍ. فَأَطْلَقَ الَّذِي وَرَاءَهُ شَتِيمَةً، وَأَمَرَ اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ بِشَدِيدِ قَبْضَاتِهِمْ. وَأَسْقَطَ أُرْتَيْسَ أَرْضًا، حَيْثُ ثُبَّتَ فِيمَا الْحَدِيدَةُ الْمُحْمَاةُ تَسْفَعُ طَبَقَاتِ الْجِلْدِ عَمِيقًا عَلَى عَقْبِهِ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْبَسَ صرْحَةَ أَلَمِ حَنْجَرِيَّةٍ إِذْ كُويَ جِلْدُهُ بِالسَّمَةِ الْعَمِيقَةِ، وَقَدْ مَلَأَتِ الْهَوَاءَ تِلْكَ الرَّائِحَةُ الْحُلُوةُ عَلَى نَحْوِ مُغْثٍ، مُنْبَعِثَةٌ مِنْ احْتِرَاقِ لَحْمِهِ بِالذَّاتِ. وَمِنْ ثَمَّ جُرَّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ مِنْ جَدِيدٍ.

أَحْدَ أُرْتَيْسِ فِي دِهْلِيْزِ طَوِيلٍ مَبْنِيٍّ بِكَتَلِ حَجْرِيَّةٍ. وَبِعَدَمَا أَنْزَلَ دَرَجًا، سَبَقَ فِي دِهْلِيْزِ آخَرَ. ثَمَّ انْفَتَحَ بَابُ ضَخْمٍ، وَنَزَعَتْ سِلَاسِلُهُ، وَأَرْغَمَ عَلَى الْجُثُوِّ، ثَمَّ دَفَعَ بِقُوَّةٍ إِلَى دَاخِلِ حُجْرَةٍ مُظْلَمَةٍ ضَيْقَةٍ. سَفِقَ الْبَابُ وَرَاءَهُ، وَأَقْحَمَ مِزْلَاجَ شِدَّةٍ فِي مَكَانِهِ، وَالصَّوْتُ تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهُ فِي ذَهْنِهِ. أَرَادَ أَنْ يَصْرَخَ. كَانَتْ الْجُدْرَانُ مُطْبَقَةً عَلَيْهِ، وَالسَّقْفُ الْحَجْرِيُّ أَوْطَأَ مِنْ أَنْ يُتَبَّحَ لَهُ الْجُلُوسَ، كَمَا كَانَتْ الْحُجْرَةُ أَقْصَرَ مِنْ أَنْ تُكْتَنَ مِنْ مَدِّ رِجْلَيْهِ. دَفَعَ الْبَابَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكَ. فَأَطْلَقَ شَتِيمَةً، وَسَمِعَ الْحُرَّاسَ يَتَضَاحَكُونَ فِيمَا تُصْدِرُ أَحْدِيَّتُهُمْ ذَاتَ الْمَسَامِيرِ أَصْدَاءَ يَسِيرَةٍ. قَالَ سَابِينُوسُ: "إِنِّي أَرَاهِنَ عَلَى أَنَّ يَوْمًا وَاحِدًا يَكْفِي لَجَعَلِهِ يَصْرُخُ مُسْتَرْحِمًا". ثَمَّ انغلق باب آخر، وخيم سكون.

انْدَلَعَ الْهَلَعُ. أَعْمَصَ أُرْتَيْسَ عَيْنَيْهِ بِأَحْكَامِ مُجَاهِدًا لِلسَّيْطَرَةِ؛ إِذْ بَدَتْ جُدْرَانُ الْحُجْبَرَةِ آخِذَةً فِي الْإِطْبَاقِ عَلَيْهِ. فَصَرَ بِأَسْنَانِهِ وَلَمْ يُطْلِقْ أَيَّ صَوْتٍ، عَالِمًا أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ هَذَا لَكَانَ مُسْتَسْلِمًا لِلرُّعْبِ الَّذِي يَغْمُرُهُ. خَفَقَ قَلْبُهُ خَفَقًا قَوِيًّا، وَلَمْ يَكْدُ يَقْوَى عَلَى التَّنْفُسِ. فَأَخَذَ يِرْكُلُ الْبَابَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، مُتَجَاهِلًا أَلَمَ السَّمَةِ الْوَحَازِ، وَظَلَّ يِرْكُلُ حَتَّى تَرَضَّضَ عَقْبَاهُ.

شَرَعَ أُرْتَيْسُ يَلْهَثُ فَرْعًا، وَعَرَفَهُ يَجْرِي غَزِيرًا. إِنَّ يَوْمًا وَاحِدًا يَكْفِي لَجَعَلِهِ يَصْرُخُ مُسْتَرْحِمًا. كَلِمَاتُ ظَلِّ يُكْرَرُهَا لِنَفْسِهِ حَتَّى غَلَبَ الْغَيْظُ الْفَرْعَ. مَضَتْ سَاعَاتٌ فِي ظَلْمَةٍ حَالِكَةٍ.

وَلَكِي يَحْوَلُ أُرْتَيْسُ دُونَ أَنْ يُجِنَّ، تَكْوَمَ عَلَى جَنْبِهِ وَحَاوَلَ أَنْ يَتَصَوَّرَ نَفْسَهُ فِي غَابَاتِ مَوْطِنِهِ. لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَاءٌ، وَلَا طَعَامٌ. تَشْتَجَّتْ عَضَلَاتُهُ، وَأَنَّ مُتَأَلِّمًا، غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى التَّمَدُّدِ بِصُورَةٍ تَكْفِي لِإِرَاحَتِهَا. وَقَدْ سَرَحَ عَلَيْهِ الْقَمَلُ وَنَهَشَ جِلْدَهُ. فَرَكَلَ الْبَابَ ثَانِيَةً وَلَعَنَ رُومَا مَعَ كُلِّ نَفْسٍ.

قال أحد الحُرَّاسِ: "سَيَتَعَاوَنُ الْآنَ". ثُمَّ انْفَتَحَ الْبَابُ. وَمَا إِنَّ بَحْثَ الْحَارِسِ حَتَّى رَكَلَهُ أَتْرَيْتِسَ فِي وَجْهِهِ فَاسْقَطَهُ عَلَى قَفَاهُ. وَحَاوَلَ أَتْرَيْتِسُ إِبْقَاءَ الْبَابِ مَفْتُوحًا، وَلَكِنَّ الْحَارِسَ الثَّانِي سَفَّقَهُ وَقَفَّلَهُ مِنْ جَدِيدٍ. وَاسْتَطَاعَ أَتْرَيْتِسُ أَنْ يَسْمَعَ الْحَارِسَ الْمُصَابِ شَائِمًا بِالْجَرْمَانِيَّةِ. وَقَالَ آخَرَ: "يَبْدُو أَنَّ يَوْمِينَ لَمْ يُحْسِنَا سَلُوكَهُ".

"فَلَيْتَعَفُنْ فِي الدَّخْلِ! هَلْ تَسْمَعُنِي؟ سَتَعَفُنْ!"

رَدَّ أَتْرَيْتِسُ صَارِخًا شَائِمًا وَرَفَسَ الْبَابَ. وَأَخَذَ قَلْبُهُ يُخْبِطُ، وَنَفْسُهُ يَتَسَارَعُ وَيَصْعَبُ. وَصَاحَ "طِيوَا!" مَالِئًا الْحُجْرَةَ بِصِيحَتِهِ الْحَرْبِيَّةِ. "طِيوَا!" ظَلَّ يَصِيحُ بِاسْمِ إِلَهِهِ حَتَّى بَحَّ صَوْتُهُ، ثُمَّ تَكَوَّرَ عَلَى الْأَرْضِ مُحَارِبًا الْفَرْعَ الَّذِي انْبَعَثَ فِي دَاخِلِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَإِذْ اغْتَمَّ أَتْرَيْتِسُ مَقْهُورًا فِي الظَّلامِ، تَجَرَّفَهُ الْكُوبَيْسِ، فَقَدَّ إِحْسَاسَهُ بِالزَّمَنِ. حَتَّى إِذَا انْفَتَحَ الْبَابُ، حُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَحْلُمُ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ حِينَ أَمْسَكَتْ أَيْدٍ قَوِيَّةٌ كَاحْلِيهِ وَقَوِّمَتْ رِجْلَيْهِ، جَاعِلَةً الْأَكْمَ يَجْرِي فَجَاءَةً فِي أَنْعَاءِ جِسْمِهِ. انْقَبَضَتْ عَضَلَاتُهُ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْوُقُوفَ. وَقَرَّبَ أَحَدُهُمْ مَطْرَةً مِنْ شَفْتَيْهِ، فَتَجَرَّعَ الْمَاءَ الَّذِي تَدْفَقُ مِنْهَا. وَإِذْ جَذِبَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ، رَفَعَتْ ذِرَاعَاهُ عَلَى كَيْتَيْ حَارِسَيْنِ. ثُمَّ أَخَذَهُ هَذَانِ إِلَى غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ وَغَطَّسَاهُ فِي بَرَكَةِ حَجْرِيَّةٍ.

قَالَ الْحَارِسُ بِالْجَرْمَانِيَّةِ: "أَنْتَ مُنْتِنٌ!" وَطَرَحَ إِسْفَنْجَةً عَلَى صَدْرِ أَتْرَيْتِسِ. كَانَ أَنْفَهُ مُتَوَرِّمًا وَمُرْضَضًا، فَعَرَفَ أَتْرَيْتِسُ أَنَّهُ الْحَارِسُ الَّذِي رَفَسَهُ. "اغْتَسِلْ، وَإِلَّا غَسَلْنَاكَ نَحْنُ". نَظَرَ إِلَيْهِ أَتْرَيْتِسُ بَازِدِرَاءَ، وَقَالَ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْنِ مُشَفِّقَتَيْنِ: "كَيْفَ جَرَى أَنْ يَصِيرَ رَجُلٌ مِنَ الْقَبَائِلِ خَادِمًا لِرُومَا؟"

انْقَبَضَ وَجْهُ الْحَارِسِ. "سَمِعْتِكَ تَصْرُخُ اللَّيْلَةَ الْفَائِتَةَ. لَيْلَةٌ أُخْرَى فِي الْحُفْرَةِ فَتَفَقَّدَ عَقْلَكَ وَأَيَّ شَرَفٍ تَظُنُّ أَنَّهُ بَقِيَ لَدَيْكَ، شَانُكَ شَانِي!"

أَطْبَقَ أَتْرَيْتِسُ أَصَابِعَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ يَغْتَسِلُ، مُنْتَبِهًا إِلَى الْحَارِسَيْنِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ. كَانَا يَتَحَدَّثَانِ، وَفَهُمَ أَتْرَيْتِسُ أَنَّ اسْمَ الْحَارِسِ الْجَرْمَانِيِّ، بِصِيغَتِهِ الرُّومَانِيَّةِ، هُوَ غَالْسُ.

لَمَحَ غَالْسُ أَتْرَيْتِسَ يَتَأَمَّلُهُ، فَعَادَ إِلَى كَامِلِ تَنْبُهِهِ، وَقَالَ: "وَقَعْتُ فِي الْأَسْرِ كَمَا وَقَعْتَ أَنْتَ تَقْرِيًّا، وَصَرْتُ عَبْدًا لِرُومَا. وَقَدْ جَنَيْتُ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلَ مَا أَمْكُنُ". ثُمَّ رَفَعَ قِطْعَةَ عَاجٍ مُسْتَطِيلَةً صَغِيرَةً عَلَيْهَا كِتَابَةٌ، تَدُلُّ مِنْ سَلْسَلَةٍ حَوْلَ عُنُقِهِ. "اسْتَغْرَقَ ذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ مِنَ الْمَصَارَعَةِ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ، وَلِكُنِّي كَسَبْتُ حَرْبِيَّ". وَأَرَخَى قِطْعَةَ الْعَاجِ. "فِي وَسْعِكَ أَنْ تَحْدَوْ حُدُوي، رُبَّمَا فِي مَدَّةٍ أَقْصَرَ أَيْضًا إِنْ صَرَفْتَ ذَهَكَ إِلَى ذَلِكَ".

أجال أتريتس نظره الثاقب حوآليه على الجدران الحجرية والحارس المسلح على رأس الدرّج، ثمّ حدّق في عينيّ غالس. "لست أرى أية حريّة هنا". ثمّ وقف عارياً والماء يتقطر منه. "هل أنشفت نفسي أم يسركما منظرى؟"

تناول غالس منشفةً عن رّف ولطمّ بها صدر أتريتس. "حذار، يا عبد. ستتعلّم، وإلّا فإنك ستموت. الخيار بيدك، وهو لا يعني لي شيئاً". وأوماً برأسه نحو رّف عليه ثياب. "خذ تُنكاً وزُناراً وحبلاً، وتستر بها".

التفت أتريتس إلى السُّلم، وذهنه يتخبط، إلّا أنّه لاحظ أنّ حارساً آخر قد انضمّ إلى الآخر. قال غالس، ويده على مقبض سيفه القصير: "ما كنت لأحاول شيئاً لو كنت مكانك". أطبق أتريتس فكّيه، وارتدى اللباس، وصعد السُّلم. كان حارسان يسيّران أمامه، وحارسان وراءه. وكانوا جميعاً يتجنبون المخاطرة. وكان المرء طويلاً، وعلى كلا جانبيه حجرة بعد أخرى. حتى وقف غالس وفتح إحدى الحجرات. "هذا بيتك الجديد، إلى أن تُباع".

قال حارسٌ بشخريّة: "لا يبدو متشوّقاً جدّاً إلى الدخول"، ثمّ دفع أتريتس بقسوة إلى داخل الحجرة الصغيرة. وأجفل أتريتس حين سَفِقَ البابُ وراءه، وأسقط الميزلاج في موضعه. وقال غالس من خلال الشبّابة: "نوماً هنيئاً!"

كانت الغرفة القامئة والشديدة الرطوبة بطول مترين وعرض مترٍ وربع تقريباً. وقد طرّح على رّفٍ حجريّ فراش رقيقٍ مَحشو قشاً. وتحتّه وعاءٌ من طينٍ للغائط. وكانت رسومٌ مَحربشة في الجدران الحجرية. لم يكن أتريتس يُحسِنُ القراءة، ولكنّ الصّور كانت واضحةً إلى حدّ بعيد. رجالٌ يتفالتون ويموتون. رجالٌ ونساءٌ يتزاوجون. خطوطٌ أحدها بعد الآخر، كأنّما رجلٌ كان يعدّ الأيام. وكان محفوراً في الجدار الخلفي كوةٌ غير نافذة وُضِعَ فيها صنمٌ: إلهةٌ بشعةٌ جالسةٌ القُرُفصاء ولها اثنا عشر ثدياً.

تراقصت الظلال المنبعثة من مشعلٍ عبر فتحةٍ فوق رأسه عليها شبّابةٌ حديد. وسمع أتريتس خربشةً حذاءٍ ذي مسامير على الحجر، فرفع رأسه ليرى حارساً يختلس النظر إليه هنيئاً قبل إكمال دوراته.

قعد أتريتس على مفرشٍ وضع من القش. وإذا مشط شعره إلى الوراء بأصابعه، أمسك رأسه بيديه لحظات، ثمّ اتكأ على الحائط الحجريّ البارد. ها هو يرتجف من جديد، داخلاً وخارجاً على السواء.

وبدا أنّ ساعاتٍ مضت قبل أن يسمّع أبواباً تنفتح وأخرين يدخلون المرء. همس أحدهم

وصاح الحارس طالبًا الشكوت. وكان يفتح باب بعد باب إذ يحجز الرجال داخل حُجراتهم ليبيتوا ليلتهم. ثم أعقب ذلك صمتٌ طويل. وسمع أترتيس رجلًا يبكي.

استلقى أترتيس على الرّف الحجري، وأغمض عينيه مُحاولًا أن يتصور غابات بلاد الجرمان، ووجوه عائلته وأصدقائه. فلم يستطع، وكل ما استطاع أن يبصره في ذهنه كان المجمع وأولئك الرجال قائمين بتحركاتهم المعتادة.

تناهت إليه أصوات مَشِي الحارس ذهابًا وإيابًا في الأعلى برتوبٍ كثيب، قارعة في ذهنه أن لن تكون له نجاة من هذا المكان. لا نجاة سوى الموت.

أيقظته صيحة حارس، فوقف ينتظر أن يفتح بابه. ولكن الحارس تخطى بابه. وأصغى فسمع الرجال سائرين بالصف إلى خارج الثكنة، فبعد قابضًا حافة الرّف الحجري.

أخيرًا، فتح غالس الباب، وقال: ”إخلع الرداء الخارجي واتبعني“. واصطف وراء أترتيس حارسان آخران حالمًا خرج إلى الممر. كان يشعر بالضعف من عدم الأكل، فتساءل: أيونون إطعامه أم يُجيعونه حتى يخور؟

أخذ الحراس إلى مجمع التدريب، إلى ثراكس، كبير مُدربي اللؤوس، ويُدعى اللانيستا. كان وجهه ثراكس ملوحًا من الشمس وصلبًا، وعيناه السوداوان حادتين. وعلى أحد خديه ندبة عمودية، ونصف إحدى أذنيه مقطوع. إلا أنه هو أيضًا كان مُعلقًا حول رقبتيه مُستطيل من العاج، دلالة على كونه قد كسب حُرّيته في ساحة المحاربين.

أعلن ثراكس عاليًا لتشكيلة الرجال: ”عندنا عبد جديد من بلاد الجرمان. يعتقد أنه مُحارب. ولكننا نعلم أن جميع الجرمانيين جبناء. فعندما يُحاربون، يختبئون خلف الأشجار ويعتمدون على نصب الكمين! ثم حالمًا تدور المعركة عليهم، كحاليها دائمًا، يفرّون إلى الغابات“.

ضحك بعض الرجال، ولكن أترتيس وفق صامتًا وجامدًا، يُراقب ثراكس وهو يمشي ذهابًا وإيابًا أمام المُتدربين. وقد ازدادت الحرارة اشتدادًا داخل أترتيس مع كل إهانة تفوه اللانيستا بها، ولكن منظر الحراس المتيقظين المسلحين جيدًا، الموضوعين حول العبيد كل بضعة أقدام، أفتح أترتيس بأنه لا يستطيع القيام بأي شيء.

قال ثراكس مُعنفًا في تعذيب أترتيس: ”نعم، نعلم أن الجرمانيين يُتقنون الهرب. والآن، فلنر هل يستطيعون أن يتبؤوا ويُحاربوا مثل الرجال“. ثم وقف أمام أترتيس. ”ما اسمك، يا عبد؟“ وقد تكلم بلهجة جرمانية. فنظر إليه أترتيس بهدوء، ولم يقل كلمة. وضربه ثراكس ضربةً قويّة على وجهه.

روما

ثُمَّ لَوَى ثَرَاكُسَ فَمَهَ بِابْتِسَامَةٍ سِيرَةَ ضَيْقَةٍ، وَقَالَ: ”سَأَسْأَلُكَ ثَانِيَةً: مَا اسْمُكَ؟“
 امْتَصَّ أْتَرِيْتِسَ الدَّمَّ مِنْ جُرْحٍ فِي فَمِهِ مَجْدِيًّا صَوْتًا مَزْعَجًا وَبَصَقَهُ عَلَى الرَّمْلِ.
 قَلَبَتْ ضَرْبَةً أُخْرَى أْتَرِيْتِسَ. وَدَوَّنَ تَفْكِيرَ، هَبَّ وَاقْفًا عَلَى قَدَمَيْهِ وَانْدَفَعَ إِلَى الْأَمَامِ، إِلَّا
 أَنَّ اللَّائِيْسْتَا رَفَسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَاسْتَلَّ غِلَادِيُوسَهُ. وَأَحْسَسَ أْتَرِيْتِسَ رَأْسَ ذَلِكَ السَّيْفِ يَمْسُ
 حَنْجَرَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَطِيْعَ الْإِيْتِيَانَ بِحَرْكَةٍ أُخْرَى.
 قَالَ ثَرَاكُسَ يَهْدُوءُ: ”سَتَقُولُ اسْمَكَ، وَإِلَّا أَنْهَيْتُكَ الْآنَ“.

حَدَّقَ أْتَرِيْتِسَ إِلَى الْوَجْهِ الصَّارِمِ فَوْقَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ ثَرَاكُسَ يَعْنِي مَا قَالَهُ. كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ
 يُرْحَبَ بِالْمَوْتِ لَوْ كَانَ وَاقْفًا وَبِيَدِهِ فَرَامِيَا. وَلَكِنَّهُ لَنْ يَخْسَرَ شَرْفَهُ بِأَنْ يَمُوتَ وَهُوَ عَلَى ظَهْرِهِ فِي
 التُّرَابِ. فَقَالَ: ”أْتَرِيْتِسَ“، صَارًّا بِأَسْنَانِهِ وَرَافِعًا نَظْرَهُ إِلَى اللَّائِيْسْتَا مُحْمَلِيًّا.

قَالَ ثَرَاكُسَ، مُجْرِبًا الْاسْمَ: ”أْتَرِيْتِسَ!“ وَسَيْفُهُ مَا يَزَالُ فِي وَضْعَةِ التَّاهِبِ لِقَتْلِ سَرِيْعٍ.
 ثُمَّ أَضَافَ: ”أَصْبَحَ جَيِّدًا، أَيُّهَا الْفَتَى أْتَرِيْتِسَ. أَطْعِ تَعِشْ. تَحَدَّنِي ثَانِيَةً فَأَحْزَ حَنْجَرَتَكَ كَحَنْزِيرٍ
 وَأَعْلَقَكَ بِقَدَمَيْكَ حَتَّى يُنْزَفَ دَمُكَ قُدَّامَ اللُّوْدُسِ بِمَرَأَى مِنَ الْجَمِيعِ“. وَأَمَرَ رَأْسَ السَّيْفِ
 بِحَيْثُ شَطَبَ الْجِلْدَ وَأَسَالَ بِضِعِّ قَطْرَاتٍ مِنَ الدَّمِ لِيُثَبِّتَ أَنْ تَهْدِيْدَهُ لَمْ يَكُنْ عِبْثًا. ”هَلْ
 فَهَمْتَ؟ أَجِبْنِي! هَلْ فَهَمْتَ؟“

قَالَ أْتَرِيْتِسَ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ: ”نَعَمْ“.
 خَطَا ثَرَاكُسَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَأَعْمَدَ السَّيْفَ. ”إِنْهَضْ!“
 فَهَضَّ أْتَرِيْتِسَ.

وَقَالَ ثَرَاكُسَ بِابْتِسَامَةٍ سَاخِرَةٍ: ”قِيلَ لِي إِنَّكَ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تُقَاتِلَ. حَتَّى الْآنَ لَمْ تُرْنِي
 إِلَّا الْغِيَاوَةَ“. وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ لِحَارَسِ. ”أَعْطِهِ هِرَاوَةَ“. ثُمَّ أَخَذَ هُوَ هِرَاوَةً وَوَقَفَ وَقَفَةً قِتَالٍ. ”لِيَنْزِرْ
 مَا تُحْسِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ!“

لَمْ يَكُنْ أْتَرِيْتِسَ بِحَاجَةٍ إِلَى دَعْوَةٍ ثَانِيَةٍ. فَامْسَكَ الْهِرَاوَةَ بِيَدَيْهِ أَقْفِيًّا، وَأَخَذَ يَدُورَ حَوْلَ
 اللَّائِيْسْتَا مُرَاوِعًا وَمُتَقَادِيًّا، وَتَيَسَّرَ لَهُ تَوْجِيْهُ بِضِعِّ ضَرْبَاتٍ قَوِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْقَلِبَ عَلَيْهِ ثَرَاكُسَ
 سَرِيْعًا وَيُعَلِّيَ الْهِرَاوَةَ تَحْتَ ذَقْنِهِ. وَبِضْرِيَةٍ خَاطِفَةٍ أُخْرَى وَرَاءَ سَاقِيهِ، جَعَلَهُ يَهْوِي أَرْضًا، ثُمَّ
 سَدَّدَ إِلَيْهِ ضَرْبَةً أُخْرَى عَلَى جَانِبِ رَأْسِهِ أَبْقَتْهُ مُنْطَرِحًا. وَقَدِ اعْتَرَاهُ الدُّوَارُ فِيمَا هُوَ مُنْبَطِحٌ عَلَى
 وَجْهِهِ لَاهِثًا لِأَخْذِ النَّفْسِ.

قَالَ ثَرَاكُسَ بِاحْتِقَارٍ: ”لَسْتَ جَيِّدًا إِلَى حَدِّ يُتِيْحُ لَكَ الْبَقَاءَ حَيًّا فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ“،

مُبعِداً بركة هراوة أتريتس. ثُمَّ رمى هرواته هو إلى الحارس الواقف جانباً، ووقف فوق أتريتس، قائلاً: ”قم!“

وقف أتريتس على قدميه من جديد، ووجهه يتأجج خجلاً. وفيما عضلاته مُتصلبة كلها، انتظر أيّ إذلالٍ نواه اللانيسستا تالياً. إنما بأمرٍ من تراكس، انصرف الآخرون مع حراسهم المسلّحين ومندربيهم إلى أقسامٍ شتى من المجمع.

عادَ تراكس اهتمامه نحو أتريتس. ”لقد دفع سكوريس ثمناً غالياً لقاءك. توقعتُ منك أداءً أفضل.“ فأطبق أتريتس أسنانه، وكبرياؤه الجريح نائرة، ولم يقل شيئاً. وابتسم تراكس ببرودة. ”فوجئت بإسقاطك بهذه السرعة، أليس كذلك؟ أه، ولكنك كُنت مُقيّداً بالسلاسل خمسة أسابيع، ثمّ حبست في الحفرة أربعة أيام. لعلّ ذلك يُعلّل حالتك المؤهنة وذهنك المرتبك.“ ثمّ تغيّر سلوكه بدهاء. ”إنّ العطرسة والغباوة ستقتلانك أسرع من قلة المهارة. أبق هذا في بالك، عسى أن تبقى على قيد الحياة.“

وما لبث تراكس أن عاد إلى شؤون الشغل، فتفحص أتريتس مُنتقداً. ”أنت تحتاج إلى مزيدٍ من الوزن والتمرّن والتكيف. وستمتحن. فحين أقتنع بأنك تستأهل وقتي، تنضمّ إلى الذين أدربهم.“ ثمّ أوما برأسه نحو مجموعة ضئيلة من الرجال يتمرنون في زاوية المجمع القُصوى. ”حتّى ذلك الحين، تبقى في عهدته تُروفيّمس.“

التفت أتريتس نحو ضابطٍ مفتول العضلات قصيرٍ يصيح على اثني عشر رجلاً يبدون كما لو كانوا قد جاءوا من المناجم، لا من ساحة قتال. وظهرت على وجه أتريتس السخرية. فسحب تراكس سيفه القصير وسفّق مسطّحه على أتريتس، ضاعطاً بقولاه البارد على بطنه. وقال تراكس: ”قيل لي إنك قتلت حارساً رومانياً في طريقك إلى هنا. أنت لا تبدو خائفاً من الموت. إنما اعتقد أنّ طريقته تُقلّك. وذلك جيّد. فالمحارب الذي يخاف الموت هو عاثرٌ. ولكنّي أُنذرك، يا أتريتس، بأنّ العصيان غير مسموح به هنا. فإنّ ألقيت يداً على أحد الحُرّاس، فستلعن اليوم الذي وُلدت فيه.“ وأحسّ أتريتس الدّم سائلاً من وجهه فيما أنزل تراكس السيف وأصعده بخفة حتى شعر بحدّه ماساً أعضاءه الحساسة. ”الأفضل أن تموت وبيدك سيفٌ على أن تُخصى؟“

ضحك تراكس ضحكة خفيفة. ”لقد حزتُ انتباهك كلّ الآن، أليس كذلك، أيّها الفتى أتريتس؟“ ثمّ ضغط بحدّ السيف مُقرباً إياه على نحوٍ أخطر. وتلاشى التهكم. ”قيل لي إنك رفضت أداءً قسّم المحارب لما أمرك سكوريس بذلك. ستؤدّيه أمامي الآن، وإلاّ تصرّ

خَصِيًّا. وَالخَصِيَّانُ مَطْلُوبُونَ كَثِيرًا فِي رُومًا .

لَمْ يَكُنْ لِأَتْرِيَسِ خِيَارٌ . فَاطَاعَ الأَمْرَ .

أَعْمَدَ ثَرَاكُسَ سَيْفَهُ القَصِيرَ . ” سَرَى الأَنَ : هَلْ يَمْلِكُ هَمَجِيّ جِرْمَانِيّ شِجَاعَةً وَشَرَفًا يَجْعَلَانَهُ يَفِي بِكلامه؟ أَثَبِتْ حُضُورَكَ عِنْدَ ثُرُوفِيمُسَ “ .

قَضَى أَتْرِيَسَ باقِي الصَّبَاحِ رَاكضًا عِبرَ سلسلَةٍ مِنَ العَوَاقِقِ . وَلَكِنْ بَعْدَمَا كَانَ مُقَيَّدًا فِي عَرَبِيَّةٍ بِضَعَةِ أُسَابِيحَ ، وَحَرَمِ الطَّعَامِ بِضَعَةِ أَيَّامَ ، تَعَبَ بِسُرْعَةٍ . غَيْرَ أَنَّ الأَخْرِينَ ، رُغِمَ ذَلِكَ ، كَانُوا أَكْثَرَ إِخْفَاقًا . حَتَّى إِنَّ رَجُلًا مُتَهَمًا بِالكَسَلِ تَعَرَّضَ لِلجَلْدِ بِالكِرْبَاجِ كُلَّ خَطْوَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ طَوَالَ الشُّوْطِ .

وَبَصَوْتِ صَفَّارَةٍ ، أَمَرَهُمُ ثُرُوفِيمُسُ بِالتَّرَاضُفِ فِي صَفِّ أَحَادِي . ثُمَّ سَارُوا فِي رَتَلٍ إِلَى مَبْنَى سَفْرَةٍ لَهُ شِبَاكَةٌ حَدِيدٍ ، حَيْثُ أَخَذَ أَتْرِيَسُ القَصْعَةَ الخَشَبِيَّةَ الَّتِي نَاولَتْهُ إِياها امْرَأَةٌ . فَمَغِيصَتْ مَعِدَتُهُ مَغْضًا مَوْلًا مِنَ رَائِحَةِ الطَّعَامِ . وَقَعَدَ عَلَى بَنَكٍ طَوِيلٍ مَعَ الأَخْرِينَ مُنْتَظِرًا فِيمَا سَازَتْ امْرَأَتَانِ حَامِلَتَانِ سَطْلَيْنِ بِمُحَاذَاةِ صَفِّ الرُّجَالِ ، سَاكِتَيْنِ بِمِغْرَفَةٍ حِصَصًا مِنَ اللِّحْمِ الثَّخِينِ وَيَخْنَةِ الشَّعِيرِ . كُلُّ شَيْءٍ ، حَتَّى الطَّعَامِ ، كَانَ مَحْسُوبًا هُنَا . فَاللِّحْمُ يَبْنِي العَضَلَ ، وَالْحُبُوبُ العَنِيَّةُ تَكْسُو أَتْرِيَسَ بِطَبَقَةٍ مِنَ الدَّهْنِ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحُولَ دُونَ تَرْفِ الرُّجُلِ الجَرِيحِ سَرِيعًا حَتَّى المَوْتِ . وَناولَتْ امْرَأَةٌ أُخْرَى قِطْعًا كَبِيرَةً وَغَلِيظَةً مِنَ الخُبْزِ ، تَتْبَعُهَا امْرَأَةٌ أُخْرَى تَسْكُبُ المَاءَ فِي طَاسَاتٍ مِنَ خَشَبِ .

أَكَلَ أَتْرِيَسُ بِنَهُمَ . وَلَمَّا فَرَعَتْ قَصْعَتُهُ ، سَكَبَتْ لَهُ اليَخْنَةُ امْرَأَةٌ نَحِيْفَةٌ سَوْدَاءُ الشَّعْرِ . ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى أَخَرَ طَقَطِقِ بِطَاسِهِ عَلَى قَصْعَتِهِ لَيْسَتْ دَعِيهَا . وَحِينَ رَجَعَتِ المْرَأَةُ وَمَلَأَتْ قَصْعَةَ أَتْرِيَسِ مَرَّةً أُخْرَى ، هَمَسَ البَرِيْتُونِيُّ المُوَشَّمُ القَاعِدُ إِلَى جَنْبِهِ قَائِلًا لَهُ بِالْيُونَانِيَّةِ : ” عَلَى مَهْلِكِ ، وَإِلَّا عَانَيْتَ مِنْ جَرَاءِ هَذَا فِي تَمْرِيْنَاتِ العَصْرِ “ .

فصاح ثُرُوفِيمُسُ : ” لا كلام ! “

بَلَغَ أَتْرِيَسُ عَلَى عَجَلٍ باقِي يَخْنَتِهِ لَمَّا أَمَرُوا بِالنَّهْوضِ . وَبَيْنَمَا هُمْ خَارِجُونَ بِالصَّفِّ ، أَسْقَطَ قَصْعَتَهُ وَطَاسَهُ فِي نِصْفِ بَرْمِيلِ .

شَعَرَ أَتْرِيَسُ بِالدُّوَارِ وَهُوَ واقِفٌ تَحْتَ الشَّمْسِ ، فِيمَا ثُرُوفِيمُسُ يَخْطُبُ فِيهِمْ عَنِ وَجُوبِ تَعزِيزِ قُوَّتِهِمْ وَجَلْدِهِمْ لِأَجْلِ الصَّمُودِ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ . وَلَمْ يَكُنْ أَتْرِيَسُ قَدْ تَنَاوَلَ وَجِبَةً كَامِلَةً مِنْذُ أُسَابِيحَ ، فَاسْتَسَاعَ وَزْنَ الطَّعَامِ الثَّقِيلِ فِي بَطْنِهِ . وَتَذَكَّرَ الوَلَائِمَ الَّتِي كَانَتْ تَلِي المَعَارِكَ الظَّافِرَةَ دَائِمًا ، وَكَيْفَ كَانَ المَحَارِبُونَ يَحْشُونَ أَجْوَافَهُمْ بِاللِّحْمِ المَشْوِيِّ وَالبِيرَةِ القَوِيَّةِ

حتى لا يعودوا قادرين تقريباً على القيام بما يتخطى حكاية القِصص والضحك.

أخذهم ثروفيمس إلى حلبة تمرين، حيث كان عددٌ من الهالي منصوباً داخل الجدار المشبك بالحديد. والهالي دواليبٌ مُلقاةٌ على جوانبها ومنصوبةٌ على الأرض، تخرقُ مراكزها سوارٍ عموديَّةٌ ثخينة. وقد نتأ من كلِّ عمودٍ سيفان مُغطيان بالجلد، واجدٌ بارتفاع رأسِ رجلٍ والأخر على مُستوى رُكبتيه. وكان كرنكٌ يُحرّكه عبيدٌ يُشغَل الأقراصَ المُسنَّنة التي تُدير الهالي، مرَّحةٌ السيوفِ المُعمَّدة دائرياً بأيةِ سرعةٍ يأمر بها المدرب. وأي شخصٍ يقفُ على الدُّولاب مُضطرباً لأن يقفزَ عن السيفِ الأدنى وينخفضَ بسرعةٍ قبل أن يُصيبه الأعلى في رأسه.

أمر ثروفيمس أترتيسَ والبريتوني أن يؤدِّيا عِرضاً. فاحتلَّا مكانيهما على الدُّولاب أولاً، فيما تولَّى نوميديُّ تشغيل الكرنك. وإذ دارت السارية، قفزَ أترتيس وانخفضَ عن السيفِ المُعمَّد كلِّ مرَّة. وفي الدُّورة السادسة، أُصيب البريتوني في جبهته مباشرةً وسقطَ إلى الورا عن الدُّولاب. أمَّا أترتيس فظلَّ صامداً.

وأمر ثروفيمس قائلاً: ”أسرع!“

فأدارَ التوميديُّ الكرنكَ بسرعةٍ أقوى. وسرعانَ ما أخذَ أترتيس يتعب، غير أنه واصلَ التحركَ وعضلاته مُلتهبة. وقد جاشَ ثقلُ الطعام في معدته، إلا أن السارية ظلت تدور دوراتها السريعة. وبقي ثروفيمس واقفاً يُراقب دون إبداء أيِّ تعبير. فإذا صدرَ أترتيس يرتفع، وحنجرته تعلق. ومسَّ السيفُ الأعلى رأسه، فيما قفزَ عن الأدنى بشقِّ النَّفس. وجرى العرقُ إلى داخل عينيه. وحدَّقَ إلى ثروفيمس فأحسَّ تفجَّرَ ألمٌ في قِصبةِ أنفه. وطارَ إلى الورا، وارتطمَ بالأرض بقوة. فتدحرجَ أنا، وعَصَبَ نفسه على النهوض، وتقياً في التراب. وقد تدفَّقَ الدَّمُ من أنفه المكسور. وفي مكانٍ غير بعيد، وقفَ غالسٌ يضحكُ عليه. فزحفَ بضعَ أقدامٍ مُبتعداً عن الدُّولاب، وهزَّ رأسه مُحاولاً أن يُعيدَ إليه الصِّفاء.

أمر ثروفيمس اثنين آخرين باعتلاء الدُّولاب، وتوجَّهَ إلى أترتيس. ”اركع وأمل رأسك إلى الورا“. وكان تهديداً ثراكس بالخِصاء مُصلتاً فوق أترتيس، فاتخذَ وضعة الخنوع كما أمر. وأمسكَ ثروفيمس برأسه، ثم تَبَّتَ إبهاميه طولياً على كلا جانبي الأنف المكسور وسوى الغُضروف. ”غلطتكَ كانت التحديقُ إليّ“. فصرَّ أترتيس بأسنانه، خائفاً أن يُخزي نفسه بعدُ بأن يُغمى عليه. وقد سال الدَّمُ على فمه وذقنه ولطَّخَ الثَّنِكَ البُني. ولم يُزج ثروفيمس يديه حتى رُدَّ الغضروفُ إلى مكانه تماماً.

روما

قال ثروفيمس بابتسامة عريضة: ”السيدات يُحِبْنَ شيئاً جميلاً يَنْظُرْنَ إليه“. وغسل يديه في سَطَلِ ماءٍ أَمْسَكَهُ له عبد. ثُمَّ أَخَذَ الإسْفَنْجَةَ ورَمَاهَا إلى أترتيس، قائلاً: ”تَعَوِّزُكَ الصَّلَابَةُ في سَبِيلِ قِتَالِ جَيْدٍ“، فيما نَشَفَ يَدَيْهِ بِمِنْشَفَةٍ ناوله العبدُ إياها. ”عندما يتوقَّف النَّزْفُ، انضمِّمِ إلى الآخرين مُجَدِّداً“. ثُمَّ أَسْقَطَ المنشفةَ على التُّرابِ إلى جنبِ أترتيس، وصرفَ انتباهه إلى الرَّجُلَيْنِ التَّالِيَيْنِ على الدُّولابِ.

ضغَطَ أترتيس الإسْفَنْجَةَ المَنْقُطَةَ على وجهه الواخِزِ. فسَكَّنَ الماءُ الباردُ الأَلَمَ، إِنَّمَا دُونَ تَسْكِينِ غَيْظِهِ أو خَيْبَتِهِ. وسمعَ خَبِطَةً وَأَيْتاً إذ طُرِحَ رجلٌ آخَرُ سَريعاً، فصاحَ ثروفيمسُ: ”التَّالِيُ!“

مَرَّ الوَقْتُ بعدَ الظُّهرِ بطيئاً. ولم يأخُذْ ثروفيمسُ الرَّجالِ إلى قِسمِ آخَرٍ مِنَ المُجَمِّعِ حَتَّى كانَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُم قد أنهى بِضَعِ تَوْبَاتٍ على الدُّولابِ.

ارتفعتِ الشمسُ أعلى، وَثَقُلَ حَرُّهَا على المُتَدَرِّبِينَ إذ عادوا إلى مِيدَانِ العَوائِقِ. ومع أَنَّ أترتيسَ كانَ مُتَعَباً، وَتِنَكُهُ مَغْمُوسٌ بالِدَّمِ والعَرَقِ، فقدِ اسْتَطَاعَ القِيَامَ بالأمرِ دُونَ صَعُوبَةٍ تُذَكِّرُ. فبعدَ ما قَضَى عَمْرَهُ في غَابَاتِ بلادِ الجِرمَانِ، لم يَكُنِ الرِّكْضُ عِبرَ الخَواجِزِ أمراً جَدِيداً عليه. إذ إنَّ الانخِفاصَ تحتِ الأَغْصَانِ، والقَفْرَ فوقِ الجُذُورِ والجَلامِيدِ الصَخْرِيَّةِ، والتعَرُّجَ بينَ لفائفِ الصَّنُوبَرِ الكَثِيفَةِ، كانتْ كُلُّهَا أُمُوراً تَلْقائِيَّةً لَدَيْهِ.

آخَرُونَ مِمَّنِ اسْتَرَوْهُم مِنَ المَنَاجِمِ والحَقُولِ تَعَثَّرُوا وسَقَطُوا، لاهِثِينَ لِأَخِذِ النَّفْسِ، ولم يَنْهَضُوا إِلَّا حِينَ كانَ الكِرْباجُ يَهْسُ في الهِواءِ ويُفَرِّقُ على ظُهُورِهِم. ولكنَّ لَمَّا فَرَعَتْ مِعْدَةُ أترتيسِ المُتَحَمَّةِ، بَدَتِ العَوائِقُ التي أَقامَها هؤُلاءِ الرُّومانِ أَشْبَهَ بلعبةِ أَطفالِ.

اشمأزَ ثروفيمسُ من أَداءِ بعضِ المُتَدَرِّبِينَ. ”كَمِ مِنَ الأَيَّامِ قَضِينَا ونَحْنُ نَقُومُ بهذا، وما زَلْتُمْ غيرَ قادِرِينَ على إِنْهاءِ الشُّوطِ! يَحْسُنُ بِكُمْ جَمِيعاً أَنْ تُلَاحِظُوا الجِرمَانِيَّ! إِنْ كانَ ثَمَّةُ أمرٌ واحدٌ يُتَقَنُّه الجِرمَانِيَّ، فذاك هو كِيفِيَّةُ الرِّكْضِ!“

واضطَرمَّ أترتيسُ غَيْظاً إذ أَمَرَ بِاجْتِيازِ المِيدانِ مَرَّتَيْنِ آخَرَتَيْنِ فيما يُشَاهِدُهُ الآخَرُونَ. عندما أَطْلَقَتْ صَفَّارَةٌ آخَرَى، سارَ الرَّجالُ بالِصَّفِّ إلى مَبْنَاهِمِ ثُمَّ نَزَلُوا إلى الحَمَّاماتِ على سَلَمٍ. ولَمَّا كانَ أترتيسُ مُنْهَكاً، أَسْنَدَ ساعِدَيْهِ على الحِجْرِ وهو جالِسٌ في الحَمَّامِ. وقد كانَ أَنفُهُ يَخِزُ، وَكُلُّ عِضْلَةٍ في جِسمِهِ تَوَلُّهُ. فغمَسَ الإسْفَنْجَةَ ووضَعَطَ بِها مَوْخَرَ عُنُقِهِ. وجعلَهُ الماءُ يَشعُرُ بالرِّضَى، كما جعلَهُ يَشعُرُ بِذلكِ أَيضاً عِلْمُهُ بِأَنَّهُ قد أَبْلَى بِلَإٍ حَسَنًا.

كانَ الصَّوْتُ الوَحِيدُ في العُرْفَةِ المِضَاءُ بِالمِشاعِلِ هو تَدْفُقُ الماءِ إلى الحَمَّاماتِ. فلا أَحَدٌ

تكلّم. وقد احتلّ أربعة حُرّاس مواضعهم حول العُرفة. وبمقدار ما تاق أترتيس إلى قتل واحدٍ منهم، علم أنّ تراكس سيستمتّع بإنزال العقوبة التي هدّد بها.

أعطى أترتيس تِنكًا جديدًا. وما إن ارتداه، حتّى أمر بصعود السُلّم. وفي أعقاب وجبةٍ أخرى من اللحم ويخنة الشعير، أكلها أترتيس على مهل، أخذ المتدربون إلى حُجرهم، وحُجزوا فيها لقضاء الليل. فجذب أترتيس الرُداء الحقيير الذي كان قد تركه على الرفّ الحجريّ، وتمدّد على مفرّش القشّ الوضع.

طوال حياته، الأمر الذي رغب فيه أكثر من رغبته القصى في تحسّس تدفقِ الدّم الحارّ، هو أن يكون مُحاربًا— أن يُقاتل. وقد كان شرف في قتل عدوّ يغزو أرضك؛ وشرف في القتال دفاعًا عن شعبك؛ وشرف في الموت في ساحة القتال. ولكن لم يكن أيّ شرف في قتل أُنثادك لتسليّة جمهورٍ رومانيّ.

رفع أترتيس نظره عبر القُضبان الحديديّة، مُحدّدًا إلى الظلال المتراقصة على جدران الممرّ في الأعلى. وقد كان مُتعبًا إلى حدّ بعيدٍ بحيث لم يشعر بأيّ شيء سوى الحزبيّ الشّديد والسُخط العقيم حيال ما كان ينتظره.

V

حاولت جوليا أن تشق طريقها وسط المحتشدين أمامها لكي ترى ساحة المحاربين في الأسفل، فأحسّت يد مرقس أخيها تتشبّث بذراعها. وقال لها ضاحكاً: "لا داعي للعجلة، يا جوليا. إنَّ اللوكاريوس سيرشدنا إلى مقعدنا حين يأتي دورنا". وبينما هو يتكلّم، تلفّت عسى أن يرى الدليل.

"كنت أعتقد أنّك تملك مقصورة خاصة".

"أمّلك واحدة فعلاً، ولكنّها قيد الاستعمال اليوم. وقد حسبت أنّك سحّبتين الجلوس وسط الجمهور والشعور بحماسة الألعاب الحقيقيّة".

كان المشاهدون قد بدأوا يحتشدون على المدرج فعلاً، نازلين الدرّج بأعداد كبيرة، ومنه إلى صفوف المقاعد وتُدعى كافيًا. وقد قامت ثلاثة جدران دائريّة، هي البالتيبي، في أربعة أجزاء متراكبة. أمّا الجزء الأعلى والأدنى مرغوبيّة، فكان البلاطي. والجزء الأقرب إلى ساحة المحاربين كان اليهوديوم، حيث يجلس الإمبراطور. وأمّا الفرسان ومُحامو الشعب فمكائهم وراء وفوق، في أوّل ماينياثم والثاني. وكان ثالث ماينياثم والرابع محجوزين للثبلاء.

قالت جوليا مُغضبةً: "لماذا يتمهلون هكذا؟ لا أريد أن يفوتني شيء".

"إنهم يُحاولون تديب الجمهور. لا تقلقي، يا أختي الصغيرة؛ لن يفوتك شيء. فهم لم يُقدّموا راعي الحفلة بعد". ثمّ ناول الدليل جوازيهما العاجيين وساند جوليا بقبضة مُحكّمة تحت مرفقها وهي تنزل الدرّجات المنحدرة. فأخذها الدليل إلى الصّف الصحيح، وأعاد إلى مرقس الشريحتين العاجيتين حتّى يتسنى له أن يُقارن الرّقمين بالمقعدين الحجريّين. وإذ قدّعت جوليا، قال مرقس: "ستكون الساعات الأولى مُملّة. لا أدري كيف سمحت لك بأن تُفنعيني بهذا. فالقتال الحقيقيّ لن يبدأ إلّا بعد وقتٍ طويل".

لم تكذ جوليا تسمع شكوى مرقس، إذ كانت مفتونةً تمامًا بالجمهور. فقد كان الحضور بالئات، من أغنى الثبلاء إلى أدنى العبيد. وباتت حَمَلَقُها مُثبّتة على امرأة تنزل الدرّج، وفي أعقابها عبدٌ سوريّ يرتدي تِنكًا أبيض. وكان يحمل شمسيةً لِيَقِيها حرّ الشّمس وسلّةً مُثقلّة دون شكّ بالخمر والأطايب.

"مرقس، انظر تلك المرأة. لا بدّ أنّ عليّها ثروة من الحلي! أراهن على أنّ كلّاً من

هَذِينَ السَّوَارِينَ يَزِنُ عَشْرَةَ أَرْطَالٍ، وَهُمَا مُرْصَعَانِ بِالْجَوَاهِرِ“ .
”هي زوجةُ أحد النبلاء“ .

فَرَفَعَتْ نَظَرَهَا إِلَيْهِ، قَائِلَةً: ”كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ ضَعِجًا هَكَذَا، كَمَا يَبْدُو مِنْ مَنَظَرِكَ
وَكَلَامِكَ، وَكُلُّ مَا حَوَالَيْنَا مُشَوِّقٌ جَدًّا؟“

كَانَ قَدْ حَضَرَ الْأَلْعَابَ مِثَّةَ مَرَّةٍ وَأَكْثَرَ. وَالْجِزْءُ الْوَحِيدَ الَّذِي يَسْتَمْتَعُ بِهِ كَانَ مُبَارِيَاتِ
الْمَوْتِ، وَهَذِهِ لِنَ تَأْتِي قَبْلَ سَاعَاتٍ. ”لَأَنْتِي ضَعِجٌ بِالْفِعْلِ! وَكَانَ مِنْ شَأْنِي أَنْ أُسْتَمْتَعَ أَكْثَرَ
لَوْ أَنَّهُمْ تَخَطَّوْا هَذِهِ الْأَلْعَابَ التَّمْهِيدِيَّةَ كُلَّهَا“ .

”وَعَدْتَنِي بِأَنْ تَدْعَنِي أَبْقَى طَالَمَا أَحْبَبْتُ، يَا مَرْقُسُ، وَسَأَبْقَى لِمُشَاهَدَةِ كُلِّ شَيْءٍ. ثُمَّ
إِنَّ اللَّافِتَاتِ قَالَتْ إِنَّ سِيلِيرُسَ سَيُقَاتِلُ الْيَوْمَ. وَقَدْ قَالَتْ أَوْكَتَافِيَا إِنَّهُ رَائِعٌ“ .

”هَذَا إِنْ رَاقَكَ الشَّرَاقِيُونُ الَّذِينَ يَسْتَعْمَلُونَ أَسْلِحَتَهُمْ بِمَهَارَةٍ تَوْرٍ فِي هُجُومٍ كَامِلٍ...“
تَجَاهَلْتُ جُولِيَا تَهَكُّمَهُ. فَمُنْذُ بِأَشْرَ بِنَاءِ الْبَيْوتِ عَلَى التَّلِّ الْأَفِينَتِينِي، كَانَ كُلُّ مَا تَحَدَّثُ
بِشَأْنِهِ هُوَ الشُّغْلُ وَكَمْ يُكَلِّفُ الخَشَبَ وَالْحَجَرَ، وَكَمْ عَبْدًا إِضَافِيًا يَنْبَغِي أَنْ يَشْتَرِيَ لِانْحِازِ
الِاتِّفَاقِيَّاتِ. وَكَانَتْ هِيَ قَدْ تَأَقَّتْ كَثِيرًا إِلَى هَذِهِ الْفُرْصَةِ حَتَّى عَزَمَتْ عَلَى أَلَّا تَدْعَ انْزِعَاجَهُ
مِنْ تَفْوِيْتِ بَضْعِ سَاعَاتٍ عَمَلٍ يُعَكِّرُهَا عَلَيْهَا. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، كَانَتْ هِيَ بَيْنَ صَدِيقَاتِهَا
الْوَحِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَحْضُرِ الْأَلْعَابَ. فَهِيَ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَفْرَحَ وَتَمْرَحَ. وَقَدْ نَوَّتْ أَنْ تَسْتَمْتَعَ بِكُلِّ
صَوْتٍ وَمَنْظَرٍ وَالْحِظَّةِ.

وَلَكِنَّ وَمِصَّةَ شِكِّ جَعَلَتْهَا تَتَجَهَّمُ. فَأَبُوهَا وَأُمُّهَا كَانَا يُظَنُّانَ أَنَّهَا هِيَ وَمَرْقُسَ كَانَا فِي نُرْهَةِ
يَوْمٍ وَاحِدٍ فِي الرَّيْفِ. كَانَتْ تَلِكُ مُجَرَّدَ كِذْبَةٍ صَغِيرَةٍ، وَلَمْ تَكُنْ خَدِيعَةً فِي الْوَاقِعِ. وَقَدْ سَبَقَ
أَنْ أَصْطَحَبَهَا مَرْقُسَ فِي عَرَبْتِهِ. فَمَاذَا يَهْمُ إِذَا كَانَ أَبُوهَا وَأُمُّهَا غَيْرَ مَنْطَقِيَّيْنِ؟ إِنَّ قَوَانِينَهُمَا ظَالِمَةٌ
وَسَخِيفَةٌ. وَكَوْنُ أَبِيهَا يَزْدَرِي مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَالُ الْأَلْعَابِ لَا يَعْنِي أَنْ عَلَيْهَا هِيَ وَمَرْقُسَ أَنْ
يَزِيَا رَأْيَهُ. فَأَبُوهَا مُتَزَمَّتْ وَتَقْلِيدِيٌّ وَمُرَاءٍ. حَتَّى هُوَ كَانَ يَحْضُرُ الْأَلْعَابَ أَحْيَانًا، رُغْمَ رَعْمِهِ أَنَّهُ
لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَتَى اقْتَضَتْهُ أَسْبَابُ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ.

مِنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، كَانَ أَبُوهَا قَدْ قَالَ: ”إِنِّي أَشْمِئُ مِنْ سَمَاعِ الصَّبَابِيَا يَصْرُخْنَ هُنَا فَا
لِرَجُلٍ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ لَصًّا وَقَاتِلًا. إِنَّ سِيلِيرُسَ يَتَبَخَّرُ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ مِثْلَ الدِّيكِ وَيُقَاتِلُ
جَيِّدًا لِيَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَقَطْ. وَمَعَ ذَلِكَ يَجْعَلُنَهُ إِلَهًا“ .

وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى يَدِ مَرْقُسَ، وَقَالَتْ: ”مَرْقُسُ، أَنَا مَسْرُورَةٌ جَدًّا لِاصْطِحَابِي. لَنْ
تَسْتَطِيعُ صَدِيقَاتِي أَنْ يَهْزَأْنَ بِي بَعْدَ الْآنَ“ .

فابتسم لها ابتسامةً سيرةً وهو ذاهل. ”استمتعي ولا تقلقي بأي شيء!“. كان مرقس مُفكراً في ما قاله أبوه عن استخدام العبيد بدل الأحرار لإتمام اتِّفَاقَاتِ العَمَلِ. فقد زعم أبوه أنَّ العبيد كانوا سببَ اعتلال روما، والأحرار يحتاجون إلى عَمَلٍ وِغَايَةٍ. أمَّا مرقس فقال إنَّ الأحرارَ يطلبون أجوراً باهظة. وفي وسعه أن يشتري عبداً، ويستخدمه حتَّى يُكَمِّلَ العَمَلِ، ثُمَّ يبيعه بعد إنجاز المشاريع. بتلك الطريقة، يُوفَّرُ مالاً فيما العَمَلُ جارٍ، بل يجني أيضاً مزيداً من الرِّبْحِ عند إتمامه. وقد أسخَطَ ذلك المنطقُ أباه، إذ زعم أنَّ بقاء روما يوجبُ عليها أن تستخدمَ مواطنيها بالذَّاتِ بدلاً من استيراد العبيد من أمكنةٍ أخرى.

مالت جوليا وتأبطت ذراع مرقس. ”لا داعي لأن تقلق بشأن إخباري والدنا بأنك اصطحبتني إلى الألعاب. لن أقول كلمة“.

قال: ”هذا يُريحني كثيراً“.

فسحبت ذراعها، مُستاءةً من لهجته المُتفضِّلة. ”في وسعي أن أحفظ سرّاً“.

”لن أستمينك على سرِّ!“

”اليس هذا سرّاً؟ إنَّ أبي سيسلخُ جلدك وأنت حيٌّ إذا علم أنَّك اصطحبتني إلى هنا“.

”كانت نظرةً واحدةً إلى وجهه هذا الصُّباحِ كافيةً لإفهامه أنَّك لم تكوني ذاهبةً في نُزهةٍ بسيطةٍ إلى الرِّيفِ“.

”لم يمنحك أن تأخذني من البيت“.

”لعله يعلم أنَّك ستجدين طريقةً أخرى للحضور. وربما فضَّل أن تحضري معي، لا مع واحدةٍ من صديقاتكِ الطائشات“.

”كان في وسعي أن آتي مع أوكتافيا“.

”أهه، مع أوكتافيا الصغيرة البريئة!“

لم ترقها لهجته السَّاحِرة. ”إنَّها تُدبِّرُ الدَّهَابَ إلى الوليمة الاحتفالية عشيَّة الألعاب، حيثُ ترى جميعَ المحاربين من كَثَبِ“.

قال مرقس بجفاف، وهو عالمٌ بذلك الأمرِ جيِّداً: ”صحيح؟ إنَّ أوكتافيا تفعلُ أموراً كثيرةً لستُ أريد لأختي أن تفعلها“.

”لا أدري لماذا لا تروِّقك، وأبوها نفسه يُرافِقُها!“

لم يُعلّق مرقس بشيء، مُتيقنًا بأنَّ أئمةَ معلوماتٍ قد يُورِدُها عن دُرُوسٍ سُبُلُغٍ إلى أوكثاقيا. ومع أنَّ دُرُوسٍ لم يكن وافِرَ الغنى بحيثُ يُشكّلُ خطَرًا عليه، فقد كان له من النُفوذ والمال ما يكفي لجعله مُرِعَجًا.

أطبقت جوليا قبضتها بإحكام في حضنها. كان أخوها يُحاولُ أن يجعلها تشعرُ بالذنب. وذلك كان تصرفًا وحشيًا من قبله، وهي لن تنجُرَ إلى جدالٍ حول أبيهما. ليس الآن. لقد علمت تمامًا أنها كانت تُخالِفُ رغبات أبيها، ولكن لماذا ينبغي أن تشعرَ بالذنب؟ إن مرقس ما يزالُ عائشًا على هواه منذ كان في الثامنة عشرة. ولم يتحنَّ حسُّ أبيهما الأخلاقيَّ السخيف، فلماذا عليها هي أن تنحني؟ فالوالدُ غيرُ منطقيٍّ ومُستبدِّ وصارم. إنَّه يتوقَّعُ منها أن تدرَسَ وتُعَدَّ نفسها لتكون زوجةً صالحة، مثل أمها. حسنًا، لا بأس في ذلك لأمها— إذ بدت مُستمِعةً بعيثتها الدنيويَّة— أمَّا هي فتريد ما هو أكثر. تريد الإثارة. تريد الشَّغف. تريد أن تختبر كلَّ ما يمكن أن يُقدِّمه العالم.

أمال مرقس جسمه. وكان الصُّبج قد جعله يُغمضُ عينيه نصفَ إغماضة. وانقبضَ فمُ جوليا. لا يهْمُها صُبحه. وقد أزعجها دفاعه عن موقف الوالد، ولا سيَّما لأنَّهما كثيرًا ما تخالفا مؤخرًا. وقد تجادلا باستمرارٍ في كلِّ شيء.

التفتت إلى أخيها، فرأت مُنحني فكَّه المُتصلَّب. كان ذهنه شاردًا. وكثيرًا ما رأته وجهه على هذه الهيئة، بحيثُ باتت تعلمُ أنه يُفكرُ في مُشاجرةٍ خاضها مع أبيه. أجل، ذلك ظلم. فلن تدعَ أيَّ شيءٍ يُفسدُ يومها، لا الوالدَ ولا مرقسَ ولا أيَّ شخصٍ آخر.

”قالت أوكثاقيا إنَّها رأت أريا في الحفلات مرارًا“.

لوى مرقس فمَّه ساخرًا. لم تُبلِّغه جوليا خبرًا لا يعرفه أصلًا. ”أريا تفعلُ أمورًا كثيرةً لا أريدُ لك أن تفعلها“.

لماذا يتوقَّعُ كلُّ شخصٍ منها أن تكونَ مختلفةً عن كلِّ فتاةٍ سواها؟ ”إنَّ أريا جميلةٌ وغبيةٌ وتفعلُ كلَّ ما تشاؤه لإرضاء نفسها. أتمنى لو يُتاحُ لي أن أصيرَ مثلها“.

فتصاحك مرقس بلا ظرف، وقال: ”أنتِ أحلى وأبسَطُ من أن تصيري مثلها“.

فقالت: ”أعتقدُ أنَّك تقصدُ إطرائي بهذا“. وأشاحت بنظرها، مُستشيطةً غضبًا في سرِّها. حلوةٌ وبسيطة! كان يمكنُ أن يقولَ أيضًا إنَّها غبيةٌ. لا أحدٌ يعرفها حقًا، ولا حتَّى مرقس الذي يعرفها أفضلُ من أيِّ إنسان. فهي في نظره أخته الصغيرة، فتاةٌ مُعدَّةٌ للتدليل والمناكدة. وأبوها وأُمُّها نظراها عبرَ غمامةٍ من توقُّعاتهما الذاتيَّة، وقضيا كلِّ لحظةٍ من لحظات اليقظة

مُحَاوِلِينَ أَنْ يَقُولِبَاهَا بِمُقْتَضَى تِلْكَ التَّوَقُّعَاتِ.

لَقَدْ حَسَدَتْ جُولِيَا أَرِيَا عَلَى حَرِيَّتِهَا. ”هَلْ تَنْوِي الْحُضُورَ الْيَوْمَ؟ يَسْرُنِي أَنْ أَقْبَلَهَا“.

”أَرِيَا؟“

”نَعَمْ، أَرِيَا. عَشِيقَتِكَ“.

كَانَتْ أَرِيَا آخِرَ شَخْصٍ يُرِيدَ مَرْقُسَ لِأَخْتِهِ أَنْ تَرَاهُ. ”إِذَا كَانَتْ سَتَحْضُرُ، فَلَنْ تَصِلَ قَبْلَ سَاعَاتٍ. لَيْسَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ إِرَاقَةَ الدَّمِّ فَعَلًا. وَعِنْدَمَا تَأْتِي، يَا حُلُوتِي، فَهِيَ سَتَقْعُدُ مَعَ أَنْتِيغُونُسَ، لَا مَعَنَا“.

فَقَالَتْ مُتَعَجِّبَةً: ”أَتَعْنِي أَنْ أَنْتِيغُونُسَ لَنْ يَقْعُدَ هُنَا؟“

”سَيَكُونُ فِي مَقْصُورَةِ رَاعِي الْأَلْعَابِ“.

”وَلَكِنَّكَ تَقْعُدُ مَعَهُ دَائِمًا“.

”لَيْسَ هَذِهِ الْمَرَّةُ“.

”لَمْ لَأ؟“ نَارَ سُخْطِهَا إِذْ أَدْرَكَتِ احْتِمَالِيَّةَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْأَرِسْتَقْرَاطِيُّ الشَّابُّ حَاسِبًا نَفْسَهُ أَهَمَّ مِنْ أَنْ يَقْعُدَ مَعَ ابْنِ تَاجِرِ أَفْسُسِيِّ. ”كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَقْعُدَ فِي مَقْصُورَةِ الرَّاعِي. فَنَظَرْنَا لَكُونِ مَالٍ وَالِدِنَا يُنْفِقُ عَلَى هَذَا كُلِّهِ، لَسْتُ أَظُنُّ أَنْ اسْتِبْعَادَنَا يَصُبُّ فِي مَصْلَحَةِ أَنْتِيغُونُسَ“.

فَقَالَ مَرْقُسُ: ”هَدَّنِي رَوْعِكَ. لَمْ يَكُنْ هَذَا إِهْمَالًا مِنْ قِبَلِهِ. فَأَنَا اسْتَبْعَدْتُنَا“. فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَنْوِي أَنْ يَضَعَ أَخْتَهُ فِي جَوَارِ صَدِيقِهِ الْفَاسِقِ أَوْ عَشِيقَتِهِ الَّتِي لَا تَهْمُهَا الْأَخْلَاقُ. لَقَدْ أَرَادَ جُولِيَا أَنْ تُمَتِّعَ نَفْسَهَا، لَا أَنْ تُفْسِدَ كُلِّيًّا بَعْدَ قَضَاءِ عَصْرِ نَهَارٍ حَارٍّ وَاحِدٍ عَلَى مُدْرَجِ سَاحَةِ الْمَحَارِبِينَ. وَكَانَ أَنْتِيغُونُسُ قَدْ عَلَّقَ مَرَّةً بَأَنَّ جُولِيَا صَائِرَةٌ سَيِّدَةٌ شَابَّةٌ جَمِيلَةٌ، فَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًّا لِتَحْذِيرِ مَرْقُسَ مِنْ نِيَّاتِهِ. فَإِنَّ جُولِيَا كَانَتْ سَرِيعَةَ التَّأَثُّرِ فَوْقَ الْحَدِّ، وَيُرَجِّحُ أَنْ تَسْقُطَ فَرِيْسَةً سَهْلَةً لِهَجُومِ مَنْ أَنْتِيغُونُسَ الْمُحْنَكِ. وَقَدْ أَرَادَ مَرْقُسُ أَنْ يَتَيَقَّنَ عَدَمَ سَقُوطِ جُولِيَا. إِذْ يَنْبَغِي أَنْ تَبْقَى عِذْرَاءً حَتَّى تَتَزَوَّجَ مِنْ رَجُلٍ يَخْتَارُهُ أَبُوهُمَا، وَمَنْ ثَمَّ يَكْتُنْهَا أَنْ تَفْعَلَ مَا تَشَاءُ.

وَسَرَعَانَ مَا عَبَسَ وَجْهَهُ مَرْقُسُ. إِنَّ الْوَالِدَ قَدِ اخْتَارَ فَعَلًا، مَعَ أَنَّ جُولِيَا لَنْ تُعَلِّمَ بِالْأَمْرِ قَبْلَ إِتْمَامِ جَمِيعِ التَّرْتِيبَاتِ. وَكَانَ الْوَالِدُ قَدْ أَطْلَعَ مَرْقُسَ عَلَى اخْتِيَارِهِ قَبْلَ سَاعَةٍ فَقَطْ، فُبَيْلَ دُخُولِ جُولِيَا الْعُرْفَةَ، قَائِلًا: ”التَّرْتِيبَاتُ جَارِيَةٌ لَزَوْاجِ أَخْتِكَ. وَسَيُعْلَنُ عَنْ ذَلِكَ فِي غُضُونِ هَذَا الشَّهْرِ“.

كَانَ مَرْقُسُ مَا يَزَالُ مَصْعُوقًا. لَوْ شِئْتُ أَبُوهُ فِي نِيَّتِهِ أَنْ يَصْطَحِبَ جُولِيَا إِلَى الْأَلْعَابِ، مَا

كان أفشى السرّ. وقد نظرَ هو إلى أبيه بحدَر، مُتسائلاً عن سببِ إطلاعه على الخطبة، وقال مُطمئناً أباه: ”لم أرخ زِمَامَ جوليا قط في أيّ وضع. إنها أختي، وسأعنى بحماية سمعتها“. ”أعلمُ هذا، يا مرقُس، ولكننا- أنت وأنا- نعلمُ أنّ لدى جوليا ميلاً إلى سرعة التأثر. فمن الممكن أن تُفسدَ بسهولة. وعليك أن تحميها كُلما أمكن.“

قال مرقس: ”من الحياة؟“

”من اللّهوِ التافه والفاسد.“

تصلبَ مرقُس، مُتنبّهاً جيّداً إلى أنّ الملاحظة مُصوّبةٌ إلى نمط حياته هو. غير أنّه لم ينفِرُ للجدال، بل قال: ”مَن اخترتَ لها؟“

”كلاوديوس فلاكس“.

”كلاوديوس فلاكس! ألم تستطع أن تجدَ زوجاً أسوأ منه؟“

”أنا فاعلٌ ما أحسبه الأفضلَ لأختك. إنها تحتاج إلى الاستقرار.“

”إنّ كلاوديوس سوف يُضجرُها حتّى الموت.“

”سترزقُ أولاداً وتكونُ قانعة.“

”وحياةِ الألهة، يا أباي، هل تعرفُ ابنتك حقاً؟“

تصلبَ دَسِيسُ، وبرقتَ عيناه السّوداوان. ”أنت جاهلٌ وأعمى في ما يتعلقُ بأختك؟ إنَّ ما تُريده هي ليس الأفضلَ لها. وأنا أحسبُكَ مسؤولاً عن هذا جزئياً.“

أشاحَ مرقُس وجهه، علماً أنّه قد يتفوّه في غضبه بكلامٍ يندمُ عليه لاحقاً. فأصافَ دَسِيسُ: ”مرقُس، اعتنِ بالأّ تخضعِ جوليا للمساومة حين تكونُ في عهدتك!“

كان مرقُس يعلمُ أنّ كلاوديوس رجلٌ ذو نسبٍ أصيل: سِمَةٌ يزدري بها الوالدُ علانيةً ولكنّه يشتمها سراً. وكلاوديوس يملكُ أيضاً قدرًا من الغنى والمقام الاجتماعي. غير أنّ مرقُس شكٌ في أن يكونَ السببُ الحقيقيّ الكامنُ وراءَ اختيار أبيه هو آراءُ كلاوديوس وأخلاقياته التي تبدو نبيلة. وكان كلاوديوس قد تزوّجَ بامرأةٍ واحدة فقط، ظلَّ مُخلصاً لها طوال حياتها، حسبَ الأخبار التي سمعها مرقُس. وقد مضتْ خمسُ سنين منذ وفاتها في أثناء المخاض، ومع ذلك لم يرتبطِ اسمُ كلاوديوس بأيّة امرأةٍ أخرى. فالرجلُ إمّا عفيفٌ وإمّا شاذٌ جنسيًا.

وعلى الرُغم من جميعِ محاسنِ كلاوديوس، لم يرَ مرقُس أنّ هذه الزّيجة ستجلبُ

روما

السَّعادة لجوليا. فَإِنَّ كِلاودِيوسَ كانَ أكبرَ سَنًا من جوليا بكثير، وقد كانَ رَجُلًا فِكْرًا. ورجُلٌ كهذا يكونَ شريكًا بليدًا لِفِتاةٍ لها مِزاجُ جوليا.
”أنتِ ترتكِبُ خطأً، يا أبتِ.“
”إِنَّ مُستقبَلَ أختِكَ ليسَ من شأنِكَ.“

لقدِ اختارتَ جوليا تلكَ اللَّحظةَ لدخولِ العُرفةِ، وبذلكَ منعتُ مَرُقُسَ أن يُبديَ رأيَه بغضبِ حِيالِ عِبارَةِ أبيه الأخيرة. تُرى، مَن يعرفُ جوليا أفضلَ مِمَّا يعرفُها هو؟ فقد كانتَ مثله، تَضطربُ عِظًا تحتَ قُيودِ مفهومِ أخلاقِيٍّ لم يُعدْ موجودًا في أيِّ مكانٍ من الإمبراطوريَّةِ.

في أثناءِ ركوبهما إلى الألعابِ، سلَّمَتِ جوليا الزَّمامَ وتركها تُطلقِ الحِصانينِ في عِدْوَةٍ جامحة. وقد فِكرَ باكتتابِ: إنَّها لم تَكُدْ تَبْلُغُ الخامسةَ عشرةَ من عُمرها... فلتشعُرَ بِرياحِ الحرِّيةِ هابَّةً على وجهها قبلَ أن يزيِّفها الوالدُ إلى كِلاودِيوسِ وتُحجَرَ وراءَ أسوارِ قِصرِ أفيثينيِّ. فالدمُّ الحارُّ الجاري في عروقه هو نفسُه يجري في عروقِ جوليا، والتفكيرُ بمصيرها أمرُّه. وقد خطرَ في باله تقريبًا أن يسمَحَ لأختهِ بأيةِ مُغامرةٍ أرادتها، ولكنَّ شَرَفَ العائلةِ وطموحَه الشخصيَّ ما كانا ليُجيزا ذلكَ.

كانَ إنذارُ أبيه جليًّا، مع أنَّه لم يُفصِحَ عنه: أبقِ أختَكَ بعيدةً من أصدقاتِكَ، لا سيِّما أنتيغونُس. ولم يَكُنْ للإنذارِ داعٍ. ففضلاً عن صَوْنِ عِرْضِ جوليا حِفاظًا على صِيتِ العائلةِ، لم يرعُبُ مَرُقُسَ في زيادةِ علاقتهِ بَأنتيغونُسِ تعقيدًا. وكانَ خبيرًا بصديقه الأرسطراطيِّ خبيرةً أوسعَ من أن يستأمنه على جوليا. فمن شأنِ أنتيغونُسِ أن يُعويَ جوليا ويتزوَّجَ بها فقط ليضمَّنَ لنفسه الوصولَ إلى خزائنِ آلِ فاليريانِ في المُستقبلِ. وما كانَ مَرُقُسُ غيبًا. فإنَّ استِثمارًا ضخمًا في مهنةِ أنتيغونُسِ كانَ ضروريًّا لكسبِ اتِّفَاقِيَّاتِ البناءِ التي يشتهيها مَرُقُسُ، ولكنَّه لم يَنوِّقْ أن يسمَحَ بزيجَةٍ من شأنها أن تُلزِمَه بصورةٍ دائمةٍ.

الآنَ وقد باتتِ الاتِّفَاقِيَّاتُ في يده، يستطيعُ أن يُثبِتَ قُدراته الذاتيةَ على نطاقٍ أوسعٍ. وفي غضونِ ثلاثِ سَنينِ أو أربعِ، سيَعُدُّ أنتيغونُسُ غيرَ نافعٍ له. فبينما وجدَ مَرُقُسُ أنتيغونُسَ مؤنسًا، وذكِيًّا بعضَ الشيءِ، كانَ له من الحِكمةِ ما يكفي لَجعلِه يُدرِكُ أنَّ أنتيغونُسَ لن يدومَ طويلًا في مجلسِ الشيوخِ. فهو يُبَدِّدُ المَالََ ويُسرِفُ في الخمرِ أسرعَ من المعقولِ، ويُغرِطُ كثيرًا في الكلامِ. وذاتِ يومٍ، سيُقيمُ حفلةً يحضرُها أناسٌ كثيرونَ جدًّا، ويسكرُ فوقَ الحدِّ، ويهذرُ بلا انضباطٍ، ويُعويَ زوجةَ أحدِ السياسيينِ المرموقينِ من الغلطِ العَبثِ معها، ثُمَّ يُووِلُ إلى

تلقي أمر إمبراطوريّ بشطبِ معصميه بيديه. وقد نوى مرقس أن يكون بينهما مسافةً سياسيةً بشكلٍ ما قبل أن يأتي ذلك الحين.

ثم أعاده هُتاف جوليا إلى الحاضر. ”أوه، مرقس، الأمرُ مُمتعٌ جدًّا، حتّى لا أكادُ أحتمله!“ كانت أجزاء المدرج تكتظُّ بالرجال والنساء والأولاد. وكان الضجيج يعلو ويدنو كالأمواج المتكسرة في مدّ وجزر. وقلّما رأى مرقس ما يستهويه، فاتكأ إلى الوراء مُتثاقلاً، ناوياً أن يتحمّل مللَ فترة الضحى. أمّا جوليا فقعدت مُستقيمة الظهر ومُتسعة العينين افتتاحاً، مُتلقية كل ما يجري حوالها.

”هنالك سيّدةٌ تحدّقُ إليك، يا مرقس“. وكانت عيناه شبه مُغمضتين مُقابل ضوء الشمس.

فقال بلا مبالاة: ”فلتحدّق!“

”لعلك تعرفها. لماذا لا تفتح عينيك وتنظر؟“

”لأن الأمر عديم الجدوى. فإذا كانت جميلة، فربّما رغبتُ في مُطاردتها، ولكن عليّ أن أبقى وأحمي أختي الجميلة والبريئة.“

فلكّزته مُقهقهةً. ”ولو لم أكن هنا؟“

وفتح إحدى عينيه، فرأى المرأة المذكورة، ثم أغمضها من جديد. ”لا داعي لمزيد من النقاش.“

قالت جوليا: ”هناك كثيرون آخرون ينظرون“، مُفتخرةً بجلوسها في جواره. لم يكن في وسع آل فاليريان أن يُثبتوا تحدّثهم من سلالة ملوكية، ولكن مرقس كان وسيماً جدًّا وعليه سيماء رجولة لافتة. وقد حظي بانتباه الرجال، فضلاً عن النساء. وأبهج ذلك جوليا، لأنهم بعدما نظروا إليه نظّروا إليها أيضاً. وكانت قد قامت باستعداداتٍ خاصّة اليوم، وتيقنت بأنها تبدو في أجمل صورة لها. وقد تنهت إلى النظرة الجريئة من رجلٍ يبعدُ عنهما بضعة صفوف، فتظاهرت بعدم الملاحظة. هل افترض أنها عشيقه مرقس؟ أضحكها الفكرة. وتمت لو تبدو مُحنكةً ومُتحفظة، إلا أنها علمت أن الاحمرار الذي غشى خديها أفسى براءتها.

تُرى، ماذا تفعل أرياً في أجواء كهذه؟ أنتظاهراً بأنها لم تلاحظ تحديقه الرجل السافرة، أم تُبادله بمثلها؟

عند ذاك دوت الأبواق، فأجفلتها. فقالت بانفعال، مائلة إلى الأمام: ”استيقظ، يا

مرقس! الأبوابُ تفتتح!

تثاءبَ مرقس فاغترًا فمه، فيما بوشرت الإجراءات التمهيديّة المضجرة. كان من عادته أن يأتي متأخرًا لكي يتجنّب الإعلانات المملّة بشأن أصحاب الفضل في تمويل ألعاب النّهار. واليوم سيقدّم أنتيغونوس الاستعراض براياته الحفاقة. فلا أحدَ همّه فعلاً من يدفع، ما دامت الألعاب تجري. وبالحقيقة أنّ الشنائم كانت تُطلق عاليًا بعض الأحيان على الرّاعين الذين يستغرق إعلانهم عن دورهم في الإنتاج وقتًا أطول من أن يُطاق.

صفقت جوليا تصفيقًا حادًا جدًا إذ ظهرت العرّبات التي تُقلّ الرّاعين والمحاربين المبارزين. "أوه، انظر! أليسوا رائعين؟" فأضحكته حماستها المفرطة.

ولأنّ أنتيغونوس هو راعي الأحداث العتيدة، فقد تقدّم الاستعراض. كان يرتدي ثوبًا أبيض وذهبيًا فاخرًا، ذا حاشية أرجوانية اكتسبها بشقّ النفس، تدلّ على رتبة الشّيخ الجديدة، لكن الغامضة. وأخذ يلوّح للجمهور فيما سائق عربته يُجاهد لإبقاء الجوادين المهيبين تحت السيطرة. وما إن أمّ هذان دورة كاملة ونصف دورة، حتّى انعطفت السائق بالعربة وأوقفها أمام منصّة الإمبراطور. ثمّ عمد أنتيغونوس، بكلّ ابتهاج مُثل مسرحي، إلى إلقاء الخطبة التي كتبها له مرقس البارحة. واستحسن الجمهور إيجازها؛ أمّا الإمبراطور، فبلاعتها. ثمّ أشار أنتيغونوس بمهابة، فترجّل المحاربون المبارزون من العرّبات ليعرضوا أنفسهم أمام الجمهور الهاتف.

لهثت جوليا وأشازت إلى محاربٍ يخلع عباءة حمراء براقّة. تحتها، كان لابسا درعًا برونزيًا مصقولًا. "أوه، انظر إليه! أليس رائعًا؟" وقد شكّ في خوذته ريش نعام مصبوغ بالوان زاهية، أصفر وأزرق وأحمر. وسار حول ساحة المحاربين دائرًا بحيث يُتاح للمشاهدين أن يلقوا نظرة جيّدة عليه. فالتوى فم مرقس بابتسامة ساخرة. إنّه، هذه المرّة، يتفق مع أبيه: إذ بدا سيليرس مثل ديك يتبختر في مشيته. أمّا جوليا فحملت مفتونة، وكاد يُخيل إليها أنّه أجمل رجلٍ رأته على الإطلاق... حتّى خلع المحاربون الستّة التالون عباءاتهم وانضموا إليه.

سألت جوليا، مُشيرة بيدها: "ما هذا؟"

"أي واحد؟"

"حامل الشبكة والرمح الثلاثي الشّعب."

"إنّه رتياريوس. سينزلونه مقابل مرمّلو، أحد الذين على خوذهم قشور كخراشيف السمك، أو مقابل سكوثر، أي مطارد. أتريّن ذاك الرجل هناك، ذاك المسلّح تسليحًا كاملًا؟ إنّه سكوثر. ويفرض على الواحد من هؤلاء أن يطارد خصمه حتّى يُنهيته فينهيته."

قالت جوليا ضاحكة: ”يُعجبني المرمُلو: صيادٌ مقابلَ سمكة“. كان خدَّاهما مُتورِّدين، وعيناها مُتألقَتين أكثرَ ممَّا رآهما مرقسُ يوماً. فسُرَّ بكونه قد اصطحبها. وصفقتُ بيديها إذ صدحتِ الأبواقُ ثانيةً. ثمَّ سألتُ: ”هل ذاك ثراقي؟“ مُشيرةً إلى مُحاربٍ يحملُ ترساً مُستطيلاً ويعتمرُ خوذةً فيها ريش. وكان معه سيفٌ ورُمحٌ قصيران، وعلى ذراعه اليمنى كُمٌ واقٍ. ”قالت أوكتافيا إنَّ الشراقيين همُّ الأكثرُ إثارةً!“

”ذاك سمني. أمَّا حاملُ الخنجرِ المعقوفِ والترسِ المدورِ الصغيرِ فهو ثراقي“. قال مرقسُ هذا، دون أن يتمكنَ من إثارة كثيرٍ من الحماسة لِكليهما.

توقَّف سيليرُسُ أمامَ مقصورةٍ نساءٍ فاخراتِ اللباسِ، وهزَّ ورِكَّيه لهنَّ. فزَعَقْنَ باستِحسانٍ شهوانيٍّ. وكلِّما باتتْ حركاتُه الغريبةُ أكثرَ صراحةً، تعالَى ضحكهنَّ وضراخهنَّ، وانضمَّ إليهنَّ آخرُ من حواليهنَّ. واندفعَ بضغٍ رجالٍ نازلينَ بصعوبةٍ من فوقِ الصفوفِ لكي يصلوا إلى الإفريزِ فيتمكَّنوا من الانحناءِ ورَميِ الزهورِ إلى المحاربِ المشهورِ. ونادى أحدُهمُ المحاربَ صائحاً: ”سيليرُسُ! سيليرُسُ! أنا أُحبُّك!“

استقبلتْ جوليا كلَّ شيءٍ بعينينِ مفتوحتينِ وفمٍ مفعورٍ. وحوَّلَ مرقسُ انتباهها بعيداً عن الأمورِ التي، أي أنصارِ المحاربينِ المتحمسينِ، ولفته إلى مزايا المحاربينِ الآخرينِ الفضلى. غير أنَّ انتباهها ظلَّ ينجرُّ إلى الورا. وإذا دار سيليرُسُ دورةً كاملةً ومرَّ أمامَ مقعدَيهما، وقفتِ النساءُ وأخذنَّ يهتفنَّ باسمه مراراً وتكراراً وكلُّ منهنَّ تحاولُ أن يعلو صوتها أكثرَ من أصواتِ الأخرياتِ كي تلفتَ انتباهه. وقد ارتعبَ مرقسُ جدًّا إذ نهضتْ جوليا معهنَّ، وقد جرفتها الهستيريا. فجذبها مُزعجاً لإبقائها جالسةً إلى جانبه.

ولكنَّ جوليا قالتُ مُعترضةً: ”اتركني! أريدُ أن ألقى عليه نظرةً أحسنَ. الجميعُ واقفون، ولا يمكنني أن أرى شيئاً!“

فلانَ مرقسُ. صحيح، لماذا لا يدعُها تحصلُ على شيءٍ من الإثارة على سبيلِ التغيير؟ لقد قصتُ مُعظمَ حياتها محبوسةً في البيت، تحت أعينِ أبويهما السَّاهرةِ والمبالغةِ في الحماية. والآنَ حانَ الوقتُ لترى شيئاً من العالمِ خارجَ الأسوارِ العاليةِ والحدائقِ المُزدانةِ بالتماثيلِ. وقفتُ جوليا فوق مقعدها على أصابعِ قدميها، ماطةً عنقها نحو الأمام. ”إنه ينظرُ إليَّ! صبراً حتَّى أقولَ لأوكتافيا. إنها ستغارُ كثيراً!“ ولوَحَّت له ضاحكةً وهاتفَةً باسمه مع الآخرين: ”سيليرُسُ! سيليرُسُ!“

تعالَّت صرخاتُ النساءِ، ولكنَّ جوليا جمدَّت فجأةً، فاغرةً فمها. اتسعتْ حدقتا عينيها،

Laqj

وتأجج وجهها احمرارًا شديدًا. وشدها مرقس بيدها، فجلست سريعًا بجانبه، مغمضة عينيها بشدة فيما ارتفعت صرخات النساء في ما يشبه نوبة شعر هائلة.

ضحك مرقس من سيماء وجه أخته. لقد كان سيليرس فخورًا بجسده فخرا مشهرا، وأمتعته أن يعرضه أمام الجمهور - كل ما أرادوا. وكشتر مرقس قائلا بكل فظاظه أخ أكبر:

”ماذا؟ هل ألقى عليه نظرة حسنة؟“

”كان ينبغي أن تنبهي!“

”وأفسد عليك المفاجأة؟“

”أكره الأمر حين تضحك علي، يا مرقس“. ثم تجاهلته ميملة ذفتها. وكانت النساء يصرخن عاليًا جدًا حتى بدأ يصبينها وجع رأس. ترى، ماذا كان ذلك الرجل المروع يفعل الآن؟ فإن احتجاجا هائلا صدر منهن، ثم أخذن يقعدن واحدة فواحدة. ثم لمحت سيليرس ثانية وهو يضي بخطى واسعة. وانضم إلى الآخرين الواقفين قدام منصة الإمبراطور. وهؤلاء جميعا، رافعين أذرعهم اليمنى، أدوا شعار المحارب بصوت عالٍ.

”آفي، إمبراطر، موريتوري تي سالوتانت!“ سلاما، أيها الإمبراطور، العتيدون أن يموتوا يحيونك!

زعم كل ما قالته أوكتافيا، لم تر جوليا أن سيليرس وسيم على الإطلاق. ففي الواقع أن جزءا من أسنانه مفقود، وعلى فخذة ندبة بشعة، وأخرى على صفيح وجهه. ولكن اكتنفته شيء جعل قلبها يخفق وفمها يجف. لم تكن مستريحة في جلوسها بجانب أخيها المراقب المتضاحك. ولزيادة الأمور سوءا، كان الشاب الجالس دونهما على بعد بضعة صفوف يراقبها أيضا، وقد جعلت أمارات وجهه معدتها تتعقد عقدا.

”وجهك أحمر، يا جوليا.“

فقالت - ودمع الغضب يكاد ينهمر من عينيها - ”أكرهك، يا مرقس! أكرهك حين تهزأ بي!“

ارتفع حاجبا مرقس قليلا إزاء انفعالها الشديد. لعله بات منيعا فوق الحد حيال الاستعراضات الفظة من قبل بعض البستورابي، أو رجال الجنازة، كما كانوا يدعون. إذ لم يعد أي شيء يفاجئه، فيما كل شيء يصعق جوليا ويثيرها. فوضع يده على يدها، وقال بإخلاص: ”إنني أعتذر. خذي نفسا عميقا وهدئي روعك. أعتقد أنني اعتدت هذه المشاهد

إلى حدِّ جعلها لا تصدمُني البتَّةَ“.

قالت: ”لستُ مصدومةٌ. وإن ضحكت عليّ مرَّةً أُخرى، فسأقول لبابا وماما إنَّكَ اصطحبتني إلى الألعاب رغمَ إرادتي“.

احتدَّ طبعُه النَّاريُّ إزاءَ لهجتها المُخطِرة وتهديدها السَّخيف. ما توقَّفت جوليا عن التوسُّل إليه من أجل حضور الألعاب طيلةَ آخر سنتين. فنظرت إليها بعينين ضيقتين ساخرتين، وقال: ”إنَّ كُنْتَ ستصرفين كطفلةٍ مُدُلَّة، أخُذكِ إلى البيت، إلى حيثُ تنتمين!“

وأدركتُ أنه يعني ذلك. فانفجرتُ شفتها، ووافاهَا اللُّدْمُ حتَّى كادتُ تطفحُ عيناها القاتمتان. سبَّ مرقس همسًا. وقد سبق له أن رأى تلك الهيئة المُغمَّمة، فعلم أنَّ جوليا قد تنفجرُ باكيةً دموعًا عاصفةً وتجعله يظهرُ بظهورِ الفظِّ المُعسِّف. فشدَّ يده حول معصمها. ”إنَّ بكيتِ الآن، تُخزينا أمامَ جماهيرِ روما كُلِّها. وأقسيمُ إنِّي لن أحضرَ الألعابَ معك مرَّةً أُخرى“.

حبستُ جوليا دمعها واعتراضها. ولما أشاحتُ بوجهها، تصلَّبت من جرَّاء جهدها لاستعادة السيطرة على عواطفها. إنَّ في وسع مرقس أن يكونَ قاسيًا جدًّا بعض الأحيان. فقد حلا له أن يُناكدها، ولكنَّ لما دافعتُ هي عن نفسها، هدَّدَ بأخذها إلى البيت. وأطبقتُ أصابعَ يديها بقوة.

راقبتُ مرقس هُنيئًا وعيس. كان يصبو لأنَّ يُريها تسليَّةً روما المُفضَّلة. وجوليا كانت شديدةَ التوتُّر وسريعةَ التأثُّر، غير أنها يقيئًا لم تكن مثلَ بعض أولئك النساء اللواتي يُفترِطن في الانفعال حتَّى يقعنَ في هستيريا جامحة.

ضممتُ جوليا شفتيها معًا إذ شعرتُ بأنَّ أخاها يتأمَّلها. إنَّ كان ينتظرُ اعتذارًا، فسينتظرُ إلى الأبد. فهو لا يستحقُّ اعتذارًا بعدما ضحكَ عليها. ثمَّ قالت بزرارة: ”سأحسِنُ التصرفُ، يا مرقس. لَن أُخزيتُك“.

حدتُ مرقس حكمتُه بأنَّ يأخذها إلى البيت الآن، قبلَ بدءِ إراقة الدِّماء. ستغضبُ، بل تمتنعُ عن مكالمته بضعةَ أيَّام... غير أنه طردَ الفكرة. لم يُرد أن يُخيِّبَ آمالها. فلطالما انتظرتُ مشاهدةَ هذا الحدث. وربما علَّلَ هذا حالتها العاطفيَّة المُتوتِّرة.

أمسكَ بيدها وضغطها، وقال مُتجهِّمًا: ”حين يصيرُ الأمرُ أثقلَ من أن تحتلميه، فسندهب“.

غمرها الفرج. ”أه مرقس، لن يصير. فسَمَّا!“ وطوَّقت ذراعَه بذراعها. ثمَّ استندت

إليه، ورفعت نظرها بابتسامة مُشرقة. ”لن تندم على اصطحابي. لن أجفَل عندما يحزُّ سيليرُس حنجرَةً أحد المحاربين“.

صدحت الأبواق، مُعلنة بدء عروص الدرجة الثانية، تلك التي لا تُراق فيها دماء، والتي يُقصد بها تحميس الجمهور. غير أن جوليا سرَّها البايجناري، المُقاتلون المُقلدون. وقد صفت وأطلقت التشجيعات، فلفتت انتباهًا ضاحكًا من المشاهدين الأكثر خبرةً إذ وجدوها أكثر تسيلةً من العرض. ثم ظهر تاليًا اللُسوريي وتقاتلوا بنشاط، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يُلحقوا أذىً بالغًا ببعضهم بعضًا وهم يستعملون أسلحتهم الخشبية.

كانت الشمس قد بلغت أوج الضحى وحميت، ولم يهبَّ أي نسيم على ساحة المحاربين. رأى مرقس نقاط العرق على جبين جوليا الشاحب، ومسَّ يدها فوجدتها باردة. فقال: ”سأستري زقَّ حمر“، وهو يخشى أن يُغمى عليها من الحز. كانت محتاج إلى شيءٍ تشربه، وإلى شيءٍ يقيها حرَّ الشمس اللاهب. وقد كان هو مُستغرقًا في أفكاره الخاصة حتى فاتته إعداد ما يلزم. وكان من عادة أريا أن تُحضّر نبيذًا وطعامًا، وعبداً يحملُ شمسيَّة فوقهما. ”إبقي هنا ولا تكلمي أحدًا“.

في غضون دقائق قليلة، احتلَّ مقعد مرقس ذلك الشاب الذي سبق أن حدَّق إليها. وقال باليونانية في لهجة عامية: ”لقد خذلك حبيبي“.

أجابته بجفاء، وخدَّاها مُتأججان: ”أخي لم يخذلني! لقد ذهب لشراء النبيذ، وسيرجع عاجلاً“.

فقال مسرورًا: ”أخوك؟ أنا نيكانور من كاپوا. وأنت...؟“

”جوليا“. قالتها ببطء، مُتذكِّرة ما قد قاله مرقس، لكنها رغبت في حيازة شيءٍ تُخبرُ أوكثافيا به.

”تعجبني عيناك. عينان كهاتين قد تُفقدان الرجل صوابه“.

تورد خدَّاهَا، وتسارعت دقات قلبها. وشعرت بالشخونة في كل أنحاء جسمها من فرط الارتباك. لم يكن لباسه يليق بطبققتها، ولكنه حاز بنية جسم شديدة أثارَتها: فقد كانت عيناه بُنيَّتين وكثيفتي الأهداب، وكان فمه مُكثرتًا وناضحًا بالشهوة. وإذ رفعت ذقتها من جديد، قالت: ”قال لي أخي ألا أكلّم أحدًا“.

”أخوك حكيم. ههنا كثيرون يرغبون في استغلال شابةٍ فتيةٍ وفاتنةٍ مثلك“. وداعبها صوته العميق إذ أضاف: ”أنت بنتٌ حقيقيَّة لأفروديت“.

أصغَتْ جوليا بافتِتَانِ وَشَبَعِ غُرُور، فيما تكَلَّم هو بإفَاضةٍ وحرارة. وتَشَرَّبَتْ كَلِمَاتِهِ مُثَارَةً على نحوٍ لذيذ. ولكنَّ لَمَّا مَدَّ يَدَهُ الخِشْنَةَ ومَسَّ ذراعَها العارية، تَبَدَّدَ السَّحَر. وبحركةٍ رقيقة، سَحَبَتْ يَدَها.

تخطَّأها نيكاتور بنظره، وغادرَ مُسرِعًا.

قعدَ مَرُقُس بجانبها، وألقى زِقَّ الخمر الثقيلَ في حِضْنِها. ”أَتَقِيمِينَ صداقةً جديدة؟“
”اسمُه نيكاتور. وهو إثمًا جاءَ وجلسَ إلى جانبي وبدأ يتكَلَّم إليّ، ولم أدرِ ماذا أفعلُ لدفعه إلى المغادرة. لقد قال إنِّي فاتنة.“

”وحياةِ الألهة، يا جوليا، لقد طالَتْ مُدَّةُ احتِجَازِكِ بالقفلِ والمفتاح. إنَّكَ ساذجة!“
”لقد أُعجِبْتُ به بالأحرى، رُغمَ كَوْنِهِ عاميًّا“. ثُمَّ نَظَرْتُ من فوقِ كَتِفِها، وسألتُ:
”هل تظنُّ أَنَّهُ سيرجع.“

”إذا رجع، فسيكونُ لأنتيغونُس مزيدٌ من اللّحم يطرحُه لأُسُودِهِ“. ثُمَّ سَكَبَ مَرُقُس نبيذًا في كأسِ نُحاسيَّةٍ صغيرة وناولَها إيَّاهَا.

صدحتُ أبواقُ القتال، مُعلنةُ المَبَارِياتِ الأولى بالأسلحةِ الحادة. فنسيتُ جوليا نيكاتور، وتجرَّعتُ نبيذَها بسرعة، ورمتُ بالكأسِ مُرجعةً إيَّاهَا إلى مَرُقُس، حتَّى تتمكَّن من الاتِّكَاءِ إلى الأمامِ في مقعدها. ولَمَّا كان أنتيغونُس قد استأجَرَ مُوسِيقِيَّين، نُفِخَ في الأبواقِ والقرونِ فيما المقاتِلان يتعَارَكَان. وصدَّ المدافعُ بضَعِ ضربات، ثُمَّ بادَرَ إلى الهجوم، فانبعثتُ أنغامُ المزاميرِ والنَّيَّاتِ مُتقطعةً. وأخذَ الجُمهُورُ يصيحون بالتشجيعِ والتَّوجِيةِ لِمُفضِّلِهم. واستمرَّتِ المَبَاراةُ بعضَ الوقت، فخابَ أملُ جوليا. ”هل يستغرقون وقتًا طويلًا كهذا دائمًا؟“
”أغلبَ الأحيان.“

”أريد أن يفوز الرِّتيرايوس.“

قال مَرُقُس: ”لن يفوز“، وهو يُشاهدُ المَبَاراةَ باهتمامٍ غير كثير. وأضاف: ”قد بدأ يتعبُ فعلاً.“

”كيف عرفت؟“

”من طريقةِ حَمَلِهِ للرَّمحِ الثلاثيِّ الشَّعب. راقبي من كُتب. لاحظي كيف يُنكِّسُهُ ويُرجِّحه إلى جهةٍ واحدة. إنَّه يُبقي نفسه مُنكشِفًا كثيرًا. سينتهي الثراقِي الأمرُ سريعًا.“

كان أحدُ المُدربين يحثُّ الثراقِيَّ على الهجوم، فيما عمدَ مُدربُ آخرٍ إلى جَلْدِ

الرَّيْبَارِيوس وَالصُّرَاخ عَلَيْهِ كِي يُقَاتِلَ قِتَالًا أَشَدَّ. وَأَخَذَ الْجُمْهُورُ يُهْسِهْسُونَ وَيُطْلِقُونَ الشَّتَاتِمَ عَالِيًا، مُتَلَهِّفِينَ لِمُشَاهَدَةِ قَتْلِ. وَاخْتَارَ مُدْرَبُ الرَّيْبَارِيوس اللَّحْظَةَ غَيْرَ الْمُنَاسِبَةَ لِلتَّلْوِيحِ بِكِرْبَاجِهِ، لِأَنَّهُ انْتَشَبَ بِشَوْكَةِ الرُّمْحِ الثَّلَاثِيِّ الشَّعْبِ وَقِتًا كَافِيًا لِإِعْطَاءِ الشَّرَاقِيِّ الْفُرْصَةَ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا. فَإِذَا بَسِيفَهُ يَهْوِي ثَابِتًا وَعَمِيقًا، فَيُسْقِطُ الرَّيْبَارِيوسَ أَرْضًا!

وَوَسَطَ صُرَاخَ الْجُمْهُورِ وَهُتَافِهِ، قَالَتْ جُولِيَا: ”أَه! كُنْتُ عَلَى حَقِّ يَا مَرْقُسَ“.

خَرَّ الرَّيْبَارِيوسُ عَلَى زُكْبَتِيهِ، وَهَا هُوَ مُمْسِكٌ وَسَطَهُ بِبَيْدِيهِ وَالِدَمَّ يَسِيلُ عَلَى مِئْزَرِهِ. وَأَخَذَ الْجُمْهُورُ يَصِيحُونَ، مُنْزِلِينَ أَبَاهِمَهُمْ إِلَى الْأَسْفَلِ: ”قَضَيْ عَلَيْهِ! جَوْغُولَا! جَوْغُولَا!“ وَنَظَرَ الشَّرَاقِيُّ إِلَى الْإِمْبْرَاطُورِ. فَانْزَلَ فَسْبَازِيَانِ إِبْهَامَهُ إِلَى أَسْفَلِ، وَلَمْ يَكِدْ يَتَوَقَّفُ عَنْ حَدِيثِهِ مَعَ أَحَدِ الشُّبُوحِ. ثُمَّ دَارَ الشَّرَاقِيُّ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الرَّيْبَارِيوسِ. وَإِذْ أَمَالَهُ إِلَى الْوَرَاءِ، شَرَطَ شِرْطَةً سَرِيعَةً وَشَقَّ الْوَرِيدَ فِي عُنُقِ الرَّجُلِ. فَانْدَفَعَ نَبْعُ دَمٍ رَشَّشَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْقِطَ الرَّجُلُ الْمَائِتَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَيَرْتَعَشُ، ثُمَّ يَتَمَدَّدُ بِلا حَرَكَ فِي بَرَكَةِ دَمٍ.

التَفَّتْ مَرْقُسُ إِلَى جُولِيَا فَرَأَى عَيْنَيْهَا مُغْمَضَتَيْنِ، وَأَسْنَانَهَا مُطْبِقَةً. فَقَالَ: ”هَذَا أَوَّلُ مَشْهَدٍ قَتَلَ تَرِينَهُ. فَهَلْ رَاقِبْتَهُ حَقًّا؟“

”رَاقِبْتُهُ“. وَتَشَبَّهَتْ يَدَاهَا بِمُقَدَّمِ تِنِكِيهَا. ثُمَّ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ فِيمَا أَخَذَ رَجُلٌ أَفْرِيْقِيٌّ مُرْتَدٌّ زَيْ عَطَارِدٍ يَرْقُصُ عَلَى الرَّمْلِ نَحْوِ الرَّجُلِ الصَّرِيعِ. وَلِأَنَّ عَطَارِدَ هُوَ الدَّلِيلُ الْإِلَهِيُّ لِنُفُوسِ الْأَمْوَاتِ إِلَى أَصْقَاعِ جَهَنَّمَ، جَرَّ الْجُنَّةَ عَبْرَ الْبَابِ. ثُمَّ قُدِّمَتْ إِلَى الْمُحَارِبِ الْفَائِزِ سَعْفَةٌ نَحِيلٌ، فِيمَا جَرَفَ فِتْيَانٌ أَفْرِيْقِيُّونَ آخَرُونَ الرَّمْلَ الْمُصْرَجَ بِالْدَمِّ ثُمَّ غَادَرُوا بِسُرْعَةٍ لَدَى تَقْدِيمِ الْمُحَارِبِينَ التَّالِيَيْنِ.

شَحَبَ لَوْنُ جُولِيَا وَأَخَذَتْ تَرْتَجِفُ. وَمَسَّ أَخُوهَا جَبِينَهَا الْمُنْدَى بِرُؤُوسِ أَصَابِعِهِ فَوَجَدَهُ بَارِدًا. ”رَبِّمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَغَادِرَ“.

”لَا، لَسْتُ أَرِيدُ أَنْ نَغَادِرَ. أَصَابَنِي شَيْءٌ مِنَ الْغَثِيَانِ لِحْظَةً فَقَطْ، يَا مَرْقُسَ. وَقَدْ زَالَ الْآنَ“. ثُمَّ تَأَلَّقَتْ عَيْنَاهَا السُّودَاوَانِ وَاتَّسَعَتَا. ”أَرِيدُ أَنْ أَبْقَى“.

تَأَمَّلَهَا مَرْقُسُ ثُمَّ أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ عِلَامَةً الْمَوَافَقَةِ، فَخَوَّرَهَا بِهَا. وَكَانَ الْوَالِدُ قَدْ قَالَ إِنَّهَا أضعفُ مِنْ أَنْ تَحْتَمِلَ الْأَلْعَابِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُحْطَئًا.

لَقَدْ كَانَتْ جُولِيَا ابْنَةً حَقِيقِيَّةً لِرُومَا.



علم أنخوخ أنه جازف في ما فعل . فبينما وافق سيده على شراء سبعة عبيد، لم يقل شيئاً بشأن شراء يهود . وقد قرّر أنخوخ هذا القرار بنفسه، رُغم حقيقة علمه بأن سيده يُفضّل الغاليين والبريتونيين . غير أنه لما شاهد بني قومه يجلبون بالئات من بلاد اليهودية إلى روما ويُرسَلون إلى ساحة المحاربين كي يموتوا، لم يسعه أن يُفوت الفرصة التي أتاحت له كي يُنقذ حتى قلة منهم . لقد عانى جميع اليهود بلا استثناء، وليس فقط الذين شاركوا في الثورة . ونصف الشاقل الذي كان يُجسب سابقاً من كل يهودي روماني لأجل صيانة الهيكل في مدينة القدس بات الآن يُجسب لأجل بناء مُدرج ضخم . فكان عبيد يهود يحملون الحجارة، وأسرى يهود سيكونون بين أوّل الذين يموتون على الرّمال، ومواطنون يهود يدفَعون قسطَ التمويل الأثقل وطأةً .

صارخ أنخوخ الغيظ والحزن كليهما حيال ما حلّ بموطن آبائه وبني قومه . وحتى هذا الصباح كان عاجزاً عن القيام بشيءٍ كي يُنقذ حتى شخصاً واحداً من بني جنسه . أمّا الآن، ففي عهدته سبعة منهم . غير أنه كان خائفاً . فلا أحد منهم كان قادراً على العمل الشاق الذي سيُطلب منهم في العزبة . حتى إنهم، بعد الحلاقة والاعتسال وارتداء الثنكات الجديدة، كانوا مُثيرين للشفقة ومعدومي النشاط . ومع أنه دفع لقاء كلّ منهم أربع مئة سسترس، لم يكن أيّ منهم يستحق نصف ذلك المبلغ .

نظر إلى الفتاة، مُتسائلاً عما دفعه إلى المُجازفة بشرائها أساساً . أي نفع مُحتمل كان لها؟ غير أنّ نظرة واحدة منه في عينيها جعلته يشعرُ بيد الله عليه، ويسمَع صوتاً هادئاً رقيقاً: أنقذ هذه . لقد اشتراها أنخوخ بلا سؤال ؛ أمّا الآن فتساءلَ قليلاً عما قد يقوله سيده . فإن سيده توقع غالين وبريتونيين، وها هو راجع بسبعة يهود، واحدة منهم فتاة صغيرة لها عينا نيئة . وهكذا صلى أنخوخ بحرارة طالباً حماية الله .

فتح أنخوخ قفل البوابة الغربية، وأدخل العبيد السبعة داخل الأسوار العالية المحيطة بملكية مالكة . واقتادهم عبر الممشى، ثم أدخلهم إلى الجزء الخلفي من البيت . ثم صفّ السبعة في غرفة الاستقبال، حيث كان سيده يُوزع المعاشات كل صباح، وأصدر إليهم تعليمات بأن يقفوا مُستقيمين وصامتين، مُبقيين عيونهم إلى أسفل، ولا يتكلموا إلا إذا وجه السيد سؤالاً بطريقة شخصية .

”سَتَبْقُونَ هنا رَيْثَما أَكَلَمَ السَّيِّدُ. صَلُّوا كي يَقْبَلُ كُلاً مِنْكُمْ. إِنَّ دَسِمُسَ فُندا سِوسِ فالِريانَ لَطِيفُ نُجْاهِ الرُّومانِيَّ، وإِذا وَافَقَ عَلى اقْتِنائِكُمْ، فَسَتَلْقَوْنَ مُعامَلَةً حَسَنَةً. لِيَحْمِنَنا جَمِيعاً إِلَهُ آبائِنا!“

كان دَسِمُسُ مع زَوجَتِهِ في البَهِوِ ذِي الأعمدَة، حيثَ كانَتْ تَبْرُمُ زَهْرَةَ مرغريتا صَغيرَةً بينَ أصابِعِها الرَشيقَةَ وتُصغِي إلى زَوجِها. حَسِبَ أَخنوخُ أَنَّ سَيِّدَهُ مَتَعَبٌ ومَهْمومٌ وَقَليلٌ الظَّرْفَة، إِلاَّ أَنَّهُ أَخذَ نَفْساً عَميقاً واستَجَمَعَ شِجاعتَهُ، واقْتَرَبَ إِلَيْهِما. بَعدَ ذلكَ انتَظَرَ حَتَّى يَتَقَبَّلَ سَيِّدُهُ حَضورَهُ ويأذَنَ لَه بِالكَلامِ بِإِيماءَةٍ مِنْ رَأسِهِ. فَقالَ:

”سَيِّدِي، رَجَعْتُ بِسَبْعَةِ عَبيدِ كِي تَتَفَحَّصَهُمْ.“

”غالِيينَ؟“

”لا، سَيِّدِي. لَم أَجدُ أَيَّ غالِيٍّ، ولا أَيَّ بريتونيٍّ أَيضاً.“ وأَمَلَ أَلَّا تَنكشَفَ الكِذِبَةُ عَلى وَجهِهِ. ”إِنَّهُم مِنْ بِلادِ اليَهُودِيَّةِ، يا سَيِّدِي.“ قالَ هَذا ورَأى فَمَ سَيِّدِهِ يَنقبِضُ حَتَّى صارَ خَطاً قاسِياً.

”اليَهُودُ هُمُ الجِنسُ الأَكثَرُ خِيانَةً في الإمبراطورِيَّةِ كُلِّها، وَأنتَ تأتي بِسَبْعَةِ مِنْهُم إلى داخِلِ بَيتِي؟“

فقالَتْ فيبِي مُبَسِّمَةً: ”أَخنوخُ يَهُودِيٌّ، وما تَوَقَّفَ عَن خَدَمَتِنا بِأمانَةٍ مَدَّةَ حَمسَ عَشرَةَ سَنَةً.“

وَشَكَرَ أَخنوخُ اللهُ عَلى كَونِها حاضِرةً.

ثُمَّ قالَ دَسِمُسُ، مَحَدِّقاً بِبرودَةٍ إلى مُناظِرِهِ: ”بَهذا يَكُونُ قَد خَدَمَ نَفسَهُ.“ وإِذا كانَ العَبْدُ عَندَها قَد فَكَّرَ في الدِّفاعِ عَن نَفسِهِ، فَقد غَيَّرَ رَأْيَهُ ولاذَّ بِالصَّمْتِ. ”أهُولاءِ العَبيدُ مَوْهلُونَ لِلعَمَلِ الشاقِّ؟“

أجابَ أَخنوخُ صادِقاً: ”لا، يا سَيِّدِي. وَلكنَّهُم يَصيرونَ مَوْهلينَ إِذا أَطعَمَناهُم وأَرَحَناهُم.“

”ليسَ لَدَيَّ وَقْتٌ ولا مَيلٌ إلى تَدليلِ مُتَمَرِّدينَ.“

مَسَّتْ زَوجَةَ الرُّومانِيَّ ذِراعَ زَوجِها وَقالَتْ بِلُطفٍ: ”دَسِمُسُ، هَل تَعيبُ رَجُلًا عَلى شَفقتِهِ؟ إِنَّهُم مِنْ بَنِي قَومِهِ. لَقَد خَدَمَنا أَخنوخُ بِوِلاءٍ وَوَفاءٍ. فَعَلَى الأَقَلِّ، لِنَظَرُ إِلَيْهِم وَتَرَ هَل يُناسِبُونَ أَعراضَنا.“

ولَم يَكُونوا يُناسِبُونَ بِالتَّأكيدِ. فَقالَ دَسِمُسُ هامِساً: ”وَحِياةِ الأَلهةِ...“ كانَ قَد رَأى

أسرى كثيرين من بلدانٍ عديدة، ولكن لم يكن واحدٌ منهم يدعو إلى الرثاء مثل هؤلاء الناجين من خراب أورشليم في ضعفهم وبأسهم وخمولهم. فقالت فيبي: "أه!" وقد مسّت الشفقة قلبها الرقيق.

وقال أخنوخ: "لقد كانوا سيُرسَلون إلى ساحة المحاربين، يا سيدي، ولكن - قَسَمًا بالله - سيخدمونك كما خدمتك أنا".

انجذب انتباه فيبي كليًا إلى الفتاة الصغيرة التي كانت عيناها قائمتين بالألم وبمعرفةٍ لأُمورٍ غير منطوقٍ بها، فقالت: "إن سنّها أكبرُ بقليلٍ من جوليا". ثم أضافت بهدوء: "الفتاة، دَسِمُس، مهمًا قرّرت بشأن الآخرين، أريدها".

فعبَسَ قليلًا ونظرَ إلى زوجته شزْرًا. لأيّ غرض؟

"كي تخدم جوليا".

"جوليا؟ ليست مُناسبةً لجوليا".

"ثق بي في هذا الأمر، يا دَسِمُس. رجاء! إن هذه الفتاة ستبلي حسنًا في خدمة جوليا".

نظرَ دَسِمُس إلى الفتاة ثانيةً، مُتأملًا إيّاها بتدقيقٍ أكثرٍ ومُتسائلًا عن أيّ شيءٍ فيها جعلَ زوجته تأخذها بعد رفض كثيراتٍ آخر. فإن فيبي كانت قد قضت مُدَّةً من الرّمن مُفتشةً عن خادمةٍ لابنتيهما. وعرضت عليها عشرات من العبدات، إلا أن آيةً واحدةٍ منهن لم تكن ما طلبته فيبي. والآن، من دون أدنى تردّد، اختارت يهوديةً صغيرة السن مهزولة أشبع بما يُعبر الكلام عنه، وربما كانت ابنةً غيورٍ قاتل.

عند ذلك دخلَ مرقس وجوليا الغناء ضاحكين ومُستبشرين. وصمتا لما رأيا العبيد. ونظرَ مرقس إلى السبعة باشمئزاز، وقال مدهوشًا: "يهودٌ وصلوا حديثًا من بلاد اليهودية؟ ماذا يفعلون هنا؟"

"أحتاج إلى عبيدٍ للعزبة".

"حسبتُ أنك تُفضّل الغاليين والبريتونيين".

فجأهله دَسِمُس وقال لأخنوخ أن يرسل الرجال الستة إلى العزبة في أبينائيس. "الفتاة ستبقى هنا".

فسأل مرقس مصعوقًا: "هل اشتريتهم فعلاً؟" وأضاف، مُلقيًا على الفتاة نظرةً ازدراء:

”حَتَّى هَذِهِ؟ مَا عَهَدْتِكَ مُبَدَّدًا لِلْمَالِ، يَا أَبِي“.

وَقَالَتْ فِيبِي ثَانِيَةً: ”الْفَتَاةُ سَتُخَدِّمُ جُولِيَا“.

أَجَالَتْ جُولِيَا نَظَرَهَا مِنْ أُمَّهَا إِلَى الْفَتَاةِ فإِلَى أُمَّهَا مِنْ جَدِيدٍ. ”أَه، أُمَّاهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونِي تَعْنِينَ ذَلِكَ. إِنَّهَا بَشَعَةٌ عَلَى نَحْوِ رَهِيْبٍ. لَسْتُ أُرِيدُ عَبْدَةً بِشَعَةٍ تَخْدُمُنِي! أُرِيدُ جَارِيَةً كَالَّتِي عِنْدَ أُولِيَا!“

”لَنْ يَكُونَ لَكَ أَمْرٌ كَهَذَا. رُبَّمَا كَانَتْ عَبْدَةٌ أُولِيَا جَمِيلَةً، وَلَكِنَّهَا مُتَعَجِّرَةٌ وَمُخَادِعَةٌ. إِنَّ عَبْدَةً مِثْلَهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْفَّقَنَ“.

”إِذَا بَيْثِيَّةٌ! لِمَاذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْدُمَنِي بَيْثِيَّةٌ؟“

فَقَالَتْ فِيبِي بِحَزْمٍ: ”لَنْ تَصْلُحَ بَيْثِيَّةٌ لَكَ“.

ضَحِكَ مَرْقُسٌ سَاخِرًا. فَهُوَ يَعْلَمُ جَيِّدًا لِمَاذَا لَا تُرِيدُ أُمُّهُ أَنْ تَخْدُمَ بَيْثِيَّةَ جُولِيَا، وَخَيْلٌ إِلَيْهِ أَيْضًا أَنَّهُ عَلِمَ أَسْبَابَهَا لِتَشْتَرِي هَذِهِ الْعَبْدَةَ بِعَيْنِهَا. وَلَوْى فَمَهُ بِلَا ظَرَافَةَ. لَمْ تَكُنِ الْأَخْلَاقِيَّاتُ الْيَهُودِيَّةَ تَسْرُهُ، وَلَكِنْ لَا بِأَسٍ فِي عَبْدَةٍ تَسَهَّرُ عَلَى رَاحَةِ أُخْتِهَا وَحِمَايَتِهَا.

سَأَلَتْ جُولِيَا بِلُطْفٍ: ”مَا اسْمُكَ، يَا بَيْثِيَّةٌ؟“

فَقَالَتْ بِهَدْوٍ: ”هَدْسَةٌ، سَيِّدَتِي“، شَاعِرَةً بِالخِزْيِ حَيَالَ التَّمَعُّنِ الْهَازِئِ الَّذِي أَبْدَاهُ الرُّومَانِيُّ الشَّابَّ، وَالِاحْتِجَاجِ الْإِتِّحَابِيِّ مِنْ قَبْلِ الْفَتَاةِ. وَقَدْ تَعَلَّقَتْ حَيَاتُهَا بِمِيزَانِ حَدِيثِهِمَا. فَشَبَّكَتْ أَصَابِعَ يَدَيْهَا أَمَامَهَا وَأَبَقَّتْ عَيْنَيْهَا مَخْفُوضَتَيْنِ، مُدْرِكَةً تَمَامًا أَنَّهَا سَتَمُوتُ فِي سَاحَةِ الْمَحَارِبِينَ إِذَا تَرَاحَتْ سَيِّدَةُ الْبَيْتِ وَطَلَبَتْ إِرْجَاعَهَا إِلَى سَوْقِ الْعَبِيدِ.

قَالَتْ جُولِيَا بِاسْتِمْتِزَازٍ: ”أَنْظُرِي إِلَيْهَا فَحَسْبُ. إِنَّ شَعْرَهَا مَقْصُوصٌ كَشَعْرِ صَبِيٍّ، وَهِيَ نَحِيلَةٌ جَدًّا!“

فَأَجَابَتْ فِيبِي بِهَدْوٍ: ”الطَّعَامُ الْجَيِّدُ سَيَزِيدُهَا وَزَنًا، وَشَعْرُهَا سَيَطْلُعُ مِنْ جَدِيدٍ“.

”لَيْسَ هَذَا إِضْطَافًا، يَا أُمِّي. يَنْبَغِي أَنْ أُمْكِّنَ مِنْ اخْتِيَارِ خَادِمَتِي الشَّخْصِيَّةِ الْخَاصَّةِ. لَقَدْ اخْتَارَتْ أَوْ كَتَاثِيَا خَادِمَتَهَا. فَلَدِيهَا إِثْيُوبِيَّةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ جَدًّا كَانِ أَبُوهَا زَعِيمًا قَبْلِيًّا“.

فَضَحِكَ مَرْقُسٌ وَقَالَ: ”قُولِي لِأَوْكَتَاثِيَا الْحَسَنَاءِ إِنَّ هَذِهِ نَسِيبَةٌ بِرْنَيْسٍ“.

وَقَالَتْ جُولِيَا بِاحْتِقَارٍ: ”لَنْ تُصَدِّقَ ذَلِكَ أَبَدًا. فَإِنَّ نَظْرَةً وَاحِدَةً إِلَى هَذِهِ الْفَتَاةِ سَتُؤَكِّدُ لِأَوْكَتَاثِيَا أَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ نَسِيبَةً لِلْمَرْأَةِ الَّتِي أُسْرَتْ قَلْبَ تَيْطُسٍ“.

”إِذَا قُولِي لَهَا إِنَّ عِبْدَتِكَ ابْنَةُ رَنْيْسٍ كَهْنَةٍ. أَوْ قُولِي إِنَّهَا وُلِدَتْ نَسِيبَةً لِإِلَهَائِهَا غَيْرِ“

المنظور ولديها قدرات على كشف المستقبل.“

اختلست هُدسة نظرة على الرومانيّ الفتّيّ المستهزئ، فإذا هو وسيمٌ جدًّا، وشعره الداكن مقصوصٌ قصيرًا ومُجعدٌ قليلًا على جبينه. وهو عريضُ المنكبين ونحيف الخصر، يرتدي تنكًا أبيض بحزام من جلد وذهب مُتقن الصنع. وسُيُورُ الجلد في صندله الغالي محبوكة بإحكام حول رِبتَي ساقين ضخمتي العَضَل. ويداه قويتان وجميلتا السِّبِك، لازينة لهما إلا خاتمٌ من ذهبٍ في إصبعه الأولى. وقد دلَّت كلُّ بُوَصَةٍ فيه على غَطْرَسَةٍ نَسَبٍ وثراء. وعلى نقيص قوَّة الشابِّ البَدَنِيَّة، كانت أختُه رقيقة. وقد فُتِنَت هُدسةٌ بجمالها. وحتى عند التذمُّر، كان صوتُ الفتاة مُهدِّبًا ومُطْرِبًا، ولم يُصِفِ احمرارُ الغضب في خديها إلا لوتًا على بشرتها الشَّاحبة. وكانت مُرتديةً رداءً تُوَجهُ أزرقَ باهتًا له حاشية ذهبية. وكان شعرها الأسود الكثيف مضمورًا على رأسها، ومُتَبِّتًا بمشابك ذهبيةٍ ولؤلؤيةٍ تُضاهي قرطي أذنيها. وقد تدلَّت حول عنقها قلادة ثقيلة عليها صورةُ إلهةٍ وثنية.

لاحظَ مَرُقُسُ تمعَّنَ العبدَةَ الصغيرة في أخته. لم يرَ في سيمائها أيَّةَ مرارةٍ أو عداوة، بل بالأحرى افتتانًا مهيبًا. فقد راقبت جوليا كما لو كانت أخته مخلوقةً جميلة لم تُرَقَطْ من قبل. وسرَّ مَرُقُسُ في سرِّه، وفكَّر أن أمه ربما كانت على حقٍّ زُغم كلُّ شيء. فعلى الرُّغم من جميع الأحوال التي واكبت حملة الإياداة في بلاد اليهودية والتي تجت الفتاة منها، كانت في وجهها عذوبة ما، رِقَّةً يمكن أن تُهدئ رُوحَ جوليا الجامحة القَلقة.

”احتفظي بها، يا جوليا“، قال مَرُقُسُ هذا وهو يعلم أن كلمةً واحدة منه تحمل أخته على تغيير رأيها أسرع من أي شيء قد يقوله الوالد أو الوالدة.

فسألت جوليا مدهوشة: ”هل تعني أن علي الاحتفاظ بها حقًا؟“

قال: ”إن فيها مزيَّة غامضة“، ولم يُشِخ بنظره عنها. وكان في وسعه أن يحس غيظ أبيه. ثم قبِل جوليا وأمه مُغادرًا.

لما سرحت عينا مَرُقُس الهازئتان على هُدسة، ترنح قلبها. فانفجرت لدى مغادرته. وعلى كلمته، أذعت الفتاة وتفحصت هُدسة بتدقيق أوفر، الأمر الذي بث لوتًا حارًا في خديها.

قالت جوليا باستعلاء: ”سأحتفظ بها. تعالي معي، يا فتاة“.

فقالت فيبي مُعاتبَةً برقة: ”اسمها هُدسة، يا جوليا“.

وقالت جوليا بعجرفة: ”إذًا، هُدسة تعالي معي“.

روما

تبعثها هَدَسَةٌ طائِعَةٌ، مُتَشَرِّبَةٌ رَوَائِعَ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ. كَانَتْ الْأَرْضِيَّاتُ مَرْصُوفَةً بِالْفُسَيْفِيسَاءِ الْبِرَاقِ، وَالْجُدْرَانُ مِنْ رِخَامٍ. وَقَدْ وُضِعَتْ بِقُرْبِ الْأَبْوَابِ جِرَارٌ يُونَانِيَّةٌ، وَتَدَلَّتْ عَلَى الْحَيِّطَانِ سِتَائِرٌ بَابِلِيَّةٌ. وَعَبَّرْنَا فِنَاءً مَكْشُوفًا فِيهِ شُجَيْرَاتٌ وَنَبَاتَاتٌ مُزْهَرَةٌ، مُزَيَّنًا بِالْتَّمَاثِيلِ الرُّخَامِيَّةِ. وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا خَرِيرُ الْمَاءِ جَارِيًا فِي نَافُورَةٍ وَمُهْدَّتًا لِلْأَعْصَابِ. وَقَدْ تَوَرَّدَ خَدًّا هَدَسَةٌ بِتَأْجِجٍ إِذْ رَأَتْ تِمْتَالَ امْرَأَةٍ عَارِيَةٍ قَائِمًا وَسَطَ الْبِرْكَةِ الصَّغِيرَةِ.

اِقْتَادَتْهَا سَيِّدَتُهَا إِلَى غُرْفَةٍ نُثِرَتْ فِيهَا مَلَابِسٌ كَثِيرَةٌ. ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تَتَكَبَّرُ عَلَى سَرِيرٍ: ”هَذِهِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا يَجِبُ وَضْعُهَا فِي أَمْكِنْتِهَا“.

بَاشَرَتْ هَدَسَةُ الْعَمَلِ، جَامِعَةَ التُّوجَاتِ وَالتَّنِكَاتِ وَالشَّلَالَاتِ عَنِ الْأَرْضِ وَعَنِ مِسْنَدِ الْقَدَمَيْنِ. وَشَعَرَتْ بِمِرَاقِبَةِ سَيِّدَتِهَا لَهَا فِي أَثْنَاءِ عَمَلِهَا، وَهِيَ تَطْوِي الْمَلَابِسَ بِتَرْتِيبٍ قَبْلَ وَضْعِهَا فِي أَمْكِنْتِهَا.

قَالَتْ جُولِيَا: ”يَقُولُونَ إِنَّ أُورُشَلِيمَ مَدِينَةٌ مَقْدَسَةٌ“.

”نَعَمْ، سَيِّدَتِي“.

”هَلْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ؟“

فَاعْتَدَلَتْ هَدَسَةٌ بِبَطْنِهَا وَمَلَّسَتْ تِنِّكَا نَاعِمًا عَلَى ذِرَاعِهَا، وَقَالَتْ بِهَدْوٍ: ”قَلِيلٌ جَدًّا، سَيِّدَتِي“.

نَظَرَتْ جُولِيَا فِي عَيْنَيْ الْفَتَاةِ السُّودَاوِينِ. لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ الْعِبَدَاتِ أَنْ يَنْظُرْنَ إِلَى وَجْهِ سَيِّدَاتِهِنَّ مُبَاشِرَةً، وَلَكِنَّ جُولِيَا لَمْ تَشْعُرْ بِإِهَانَةٍ إِذْ فَعَلَتْ هَذِهِ الْبِنْتُ ذَلِكَ. لَعَلَّهَا لَمْ تَعْرِفْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا. ثُمَّ قَالَتْ: ”ذَهَبَ أَبِي إِلَى مَدِينَةِ الْقُدْسِ مَرَّةً مِنْذُ سَنِينَ كَثِيرَةٍ. وَقَدْ رَأَى هَيْكَلَكُمْ. وَقَالَ إِنَّهُ جَمِيلٌ جَدًّا. أَوْه، لَيْسَ أَجْمَلَ مِنْ هَيْكَلِ أَرْطَمِيسَ فِي أُنْسِسَ بِلَاشِكْ، وَلَكِنَّهُ تُحْفَةٌ تَرَى رُغْمَ ذَلِكَ. أَمْرٌ مُؤْسِفٌ أَنَّهُ هُدِمَ!“

ثُمَّ ابْتَعَدَتْ هَدَسَةُ وَبَدَأَتْ تُسَوِّي الْقِنَانِي وَالْكُوُوسَ عَلَى الْمِنْضَدَةِ.

”مَاذَا حَدِثَ لِعَائِلَتِكَ، يَا هَدَسَةُ؟“

”مَاتُوا كُلُّهُمْ، يَا سَيِّدَتِي“.

”هَلْ كَانُوا مِنَ الْغَيُورِينَ؟“

”كَانَ وَالِدِي تَاجِرًا بَسِيطًا مِنَ الْجَلِيلِ. وَكُنَّا فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ لِاحْتِفَالِ الْفِصْحِ“.

”وَمَا الْفِصْحُ؟“

أخبرتها هَدَسَة كيف أخذَ اللهُ بِكَرِّ كُلِّ عَائِلَةٍ مِصْرِيَّةٍ لِأَنَّ الْفِرْعَوْنَ لَمْ يَسْمَحْ لِمُوسَى وشعبه بِالرَّحِيلِ، وَلَكِنَّ اللهُ صَفَّحَ عَنْ جَمِيعِ الْعِبْرَانِيِّينَ. وَأَصْغَتْ جُولِيَا، ثُمَّ سَحَبَتْ الْمَشَابِكَ مِنْ شَعْرهَا.

”إِذَا كَانَ إِلَهُكُمْ قَدِيرًا هَكَذَا، فَلِمَاذَا لَمْ يَتَدَخَّلْ وَيُنْقِذْ شَعْبَكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ؟“
”لَأَنَّهُمْ رَفَضُوهُ.“

تَحَبَّهَتْ جُولِيَا، غَيْرَ فَاهِمَةٍ. ثُمَّ قَالَتْ: ”الْيَهُودُ غَرِيبُونَ جَدًّا!“ وَأَقْفَلَتِ الْمَوْضُوعَ بِهَزَّةٍ لَا مُبَالَاهٍ مِنْ كَتْفَيْهَا. وَأَشَاحَتْ بِوَجْهِهَا ثُمَّ نَفَضَتْ رَأْسَهَا فَاسْدَلَّتْ شَعْرَهَا عَلَى كَتْفَيْهَا، وَأَرْجَعَتْهُ مُدْخِلَةً أَصَابِعَهَا فِيهِ، وَقَدْ رَاقَهَا مَلَمَسُهُ النَّاعِمَ. إِنَّ شَعْرَهَا جَمِيلٌ. هَكَذَا قَالَ مَرْقُسُ. وَإِذِ الْتَقَطَتْ مُشَطًّا مَصْنُوعًا مِنْ دَرَعِ سُلْحَفَاءَ، قَالَتْ: ”مَنْ السُّخْفُ أَنْ تَوْمَنَ بِشَيْءٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَرَاهُ“. وَأَمَرَتْ الْمُشَطَّ فِي شَعْرِهَا الْأَسْوَدِ الْكَثِيفِ، نَاسِيَةً أَمْرَ الْفَتَاةِ الْعَبْدَةِ.

مَتَى سَيَأْخُذُهَا مَرْقُسُ إِلَى الْأَلْعَابِ ثَانِيَةً؟ لَقَدْ رَاقَهَا أَنْ تُشَاهِدَهَا الْيَوْمَ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَذْهَبَ ثَانِيَةً فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمَكِنٍ.

”مَاذَا تُرِيدِينَ مِنِّي أَنْ أَفْعَلَ الْآنَ، يَا سَيِّدَتِي؟“

طَرَفَتْ جُولِيَا بَعَيْنَيْهَا، مَنْزِعَةً مِنْ مُقَاطَعَةِ أَفْكَارِهَا الْعَذْبَةِ. وَرَمَقَتْ الْفَتَاةَ الْبَائِسَةَ، ثُمَّ أَجَالَتْ نَظَرَهَا فِي الْغُرْفَةِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْ وُضِعَ فِي مَكَانِهِ بِتَرْتِيبٍ. حَتَّى أُعْطِيَةَ السَّرِيرِ مُهَدَّتٍ، وَالْوَسَائِدُ رُتِبَتْ، فَقَالَتْ: ”اعْمَلِي لِي شَعْرِي“، وَرَأَتْ الْفَتَاةَ الصَّغِيرَةَ تُسْحَبُ إِذْ نَاولَتْهَا الْمُشَطَّ. ”أَنْتِ تَعْرِفِينَ كَيْفَ تُصَفِّفِينَ الشَّعْرَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟“

قَالَتِ الْفَتَاةُ مُتَلَعِمَةً: ”أَنَا... أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضْفِرَ شَعْرَكَ، سَيِّدَتِي.“

”لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا اشْتَرَيْتِكَ أُمِّي. أَيُّ نَفْعٍ لِي فِيكَ، إِنْ كُنْتُ لَا تَسْتَطِيعِينَ حَتَّى تَرْتِيبَ شَعْرِي؟“ وَرَمَتْ الْفَتَاةَ بِالْمُشَطِّ فِي حَنْقٍ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ خَارِجَةً مِنَ الْبَابِ. ”بَيْثِيَا! بَيْثِيَا! تَعَالَى إِلَى هُنَا حَالًا.“

أَسْرَعَتِ الْفَتَاةُ الْمِصْرِيَّةُ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ، وَفِي عَيْنَيْهَا نَظْرَةٌ مُبْهَمَةٌ. ”نَعَمْ، سَيِّدَتِي؟“

قَالَتْ جُولِيَا بِسُخْرِيَّةٍ كَافِيَةٍ لِأَنَّ تَجَرَّحَ فِي الصَّمِيمِ: ”إِنَّهَا لَا تُحْسِنُ ضَفْرَ الشَّعْرِ“. وَرَاقِبَتْ

هَدَسَةَ الْفَتَاةِ الْمِصْرِيَّةِ وَهِيَ تَعْمَلُ بِمَهَارَةٍ. وَخُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّ التَّصْفِيفَةَ رَاضِعَةٌ، إِلَّا أَنَّ السَّيِّدَةَ لَمْ تَكُنْ رَاضِيَةً. ”سُوِيَهُ لِي مِنْ جَدِيدٍ“. وَبَعْدَ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، تَنَرَّتْ جُولِيَا الدَّبَابِيسَ الذَّهَبِيَّةَ مِنْ شَعْرِهَا، وَهَزَّتْ رَأْسَهَا بِغَضَبٍ. ”إِنَّهُ أَسْوَأُ مِنْ ذِي قَبْلِ. اغْرُبِي عَنْ وَجْهِي! أَنْتِ أَرَدْتِ أَنْ تَرُدَّ مِنْ هَذِهِ

روما

البلهاء“. وَاغْرورَقَتْ عيناها السوداءوان بدموع الانفعال. ”ليس من الإنصاف ألا يُتاح لي أن أختارَ خادمتي الخاصّة!“

قالتْ هَدَسَة بِصدق: ”سيّدتي، إنّ لكِ أجملَ شعرٍ رأيته على الإطلاق“.

فقالَتْ جوليا بلهجةٍ قارصة: ”ولا عَجَب، بالنّظر إلى ما قد فعلوه بشعركِ“. ظلّنا منها أنّ الفتاة قصّدت أن تتملّقها فحسب. وحدثت إلى الفتاة العبرانيّة، فإذا بها تبدو مجروحةً، وقد غصّت بصَرها. فعَبَسَتْ جوليا، شاعرةٌ بوخزةٍ نَدَمٍ حيالَ خُشونتها. لقد جعلتها الفتاة تشعرُ بعدم الراحة، فأشاحت بعينيها. ”تعالِي إلى هنا. أريدُ خادمةً تستطيع أن تُصفّف شعري كشعرِ أريّا، عشيقَةِ أخي، وستتعلّمين كيف، بدءًا من الآن!“

تناولتْ هَدَسَة المُشطَ بأصابعٍ مُرتعشة، وهي مصعوفةٌ ومُتورّدةٌ خجلًا حيالَ كلامِ سيّدتها الفتية الطائش، وفعلتْ كما قيل لها تمامًا.

ثمّ ذهبنا إلى الحمام، فأمرت جوليا بتذويبِ عُطُورٍ في المياه الفاترة. وقالتْ: ”أنا ضَجِرة. هل تعرفين أيّ قصص؟“

أجابتْ هَدَسَة: ”قِصصَ بني قومي فقط“.

فقالَتْ جوليا: ”أحكى لي واحدةً إذا“، مُتلهّفةً إلى آيةٍ تسليةٍ داخلَ حدود حياتها الرّتيبة. ثمّ أسندت رأسها إلى الرّخام، وأصغتْ إلى صَوْتِ الفتاة الهادئِ الثقيلِ اللّهجة.

حكّتْ هَدَسَة قِصّة يونان والحوت. وبَدَت مُلمّةً لسيّدتها. وهكذا، فلمّا فرغتْ منها حكّت عن مُنازلة داوود الفتى الراعي لجلياتِ العِملاق. فسَرَت تلك القِصّة سيّدتها أكثر بكثير. وقالتْ: ”هل كان وسيماً؟ أعجبتني هذه القِصّة... ستُسلي أوكنايا“.

سعتْ هَدَسَة إلى إرضاء سيّدتها الفتية، ولكنّ ذلك كان صعبًا. فإنّ الفتاة كانتْ مَوْلعةً بنفسها، يُقلّقها أمرُ شعرها، وبسرتها، ولباسها. ولم تكنْ هَدَسَة تعرفُ شيئًا عن الاهتمام المُتقن بمثل هذه الأمور. إلّا أنّها، بداعي الحاجة، تعلّمتْ سريعًا. وكانتْ قد سمعتْ سماعًا بالزّيوت العَطِرة والأدهان التي تُستعمل لتعزير جمال المرأة، ولكنّها لم ترَ شيئًا من ذلك في ما مضى. وقد خَلَبَ لُبّها أن تُشاهدَ جوليا تفرك الزّيْت المُعطر في بشرتها الشاحبة. وقد صفّفت شعرَ سيّدتها وأعادتْ تصفيفه، حتّى تَبِعَتْ جوليا من الجلوس. فلا شيءَ البتّة كان كما أرادته تمامًا.

وكلمّا اجتمعَتِ العائلةُ في عُرفة الشّفرة لتناول الطعام، كانتْ هَدَسَة تقفُ بقُرب أريكة جوليا، مالئةً مرارًا كأسها بالنبيذ المُحفّف بالماء، ومُقدّمةً إليها طاسةً ماءٍ حارٍّ ومِنْشَفَةٌ كي

تغسل أصابعها ومُحَفِّفها. وكان الحديث ينتقل من السياسة إلى المهرجانات ثم إلى الأعمال، فيما هدسة واقفة ساكنة وساكنة، تُصغي باهتمام شديد، وإن حَرِصت على عدم إظهار ذلك. فنَها أُل فاليريان مُناقشاتهم الحادَّة واختلافاتهم الجليَّة في الرأي. إذ إن دَسِيس كان جازماً ومُتصلباً، يستشيطُ غَضَباً بسرعة على ابنه الذي لم يكن يتفق معه في أي شيء. وجوليا كانت تُناكِد وتَسَفَر. فيما كانت فيبي صانعة السَّلام. وقد ذُكرتْ هدسة بأمرها: فهي هادئة ومُتواضعة، ولكنها ذات قوَّة تشدُّ العائلة معاً من جديد حين تصيرُ المُناقشات حامية فوق الحدِّ. في ما بعد، جاءت أوكتافيا زائرة. ونظرت إلى هدسة باشمئزاز، قائلة: ”إنها بشعة. لماذا اخترتها لكِ والدتك أصلاً؟“

طُعنَت كبرياء جوليا، وأمالت دَفنَها. ”هي بشعة، ولكنها تحكي قِصصاً رائعة. تعالي، يا هدسة. خبِّري أوكتافيا بقصص الملك داود وأبطاله. أوه، خبِّريها أيضاً بشأن الرجل ذي الأصابع الستة“^{١٣}

فامتثلت هدسة، وخدَّها متورِّدان خجلاً.

ولما انتهت، قالت جوليا: ”إنها تعرف قِصصاً أخرى أيضاً. لقد أخبرتني بشأن بُرج بلبلَّة يبيِّن من أين جاءت جميع اللُّغات. قِصَّة سخيفة تماماً من دون ريب، ولكنها مُسليَّة“. فاذعنَت أوكتافيا قائلة: ”حسناً، يُخيِّلُ إليَّ أن ذلك معقول. فخدمتي لا تتكلَّم إلا اليونانيَّة البدائيَّة“. وقد مَشَّت هي وجوليا شابتين ذراعيهما في الممرَّات. وقعدتا على بنكٍ بقرب تمثالٍ للاله أبولو وهو عارٍ. وبقِيَت هدسة على مقربة من الصَّبِيَّتين لخدمتهما، فيما اتكأتا معاً تنهَّامسان وتَنضاحكان. أمَّا خادمة أوكتافيا الإثيوبيَّة الجميلة فلم تَقُل كلمة واحدة، بل كانت عيناها المتعاليَّتان تستقرَّان بين الفينة والأخرى على أوكتافيا باشمئزاز خبيث.

بينما هدسة تستمع، أخرجتها صراحة أوكتافيا الزائدة. ولكن أزعجها أكثر بعد إصغاء جوليا الفرح وتلفُّها الجليُّ لتلقَّف كلَّ كلمة وفكرة تصدر عن الفتاة.

وبعد وصفٍ طويلٍ لمهرجانٍ حضرته أوكتافيا وللمغامرات التي كانت لها فيه، سألت: ”أصحیح أنك ستزوِّجين من كلاوديوس فلاكس؟“

فتلاشى مرحُ جوليا، وقالت بيؤس: ”نعم. لقد رُئِب الأمرُ كله، كيف يمكن أن يفعل بي أبي شيئاً كهذا؟ إن كلاوديوس فلاكس في مثلِ عُمره تقريباً“.

١٣ الحديث هنا هو بشأن ابنِ رافا أحد أعداء الملك داود، والذي ورد ذكره في سفر صموئيل ٢١: ٢٠ (الناشر).

”أبوكِ أَفْسَسِي، ويشتهي الدَّم الروماني“.

نأ ذقن جوليا وبرقت عيناها. ليس سراً أن أبا أوكتافيا، درُسس، كان على قرابة بعيدة بالقيصرية من خلال أخت غير شرعية لواحد من أبناء أغسطس. وقد أحببت أوكتافيا أن تُذكر جوليا أن في عروقتها مقداراً من الدَّم الملوكي: وخزة سيرة لجعل جوليا تُدرك كم هي محظوظة بأن تكون لها صديقة ذات نسب لامع كهذا. ”ليس من خطب في دمننا، يا أوكتافيا“. وكان في وسع والد جوليا أن يشتري درُسس بفرقة من أصابعه. فما افتقرت إليه العائلة من حيث الدَّم الملوكي عوّضت هي عنه أي تعويض من طريق الغنى.

ثم ضحككت أوكتافيا قائلة: ”لا تستائي من كل أمر، يا جوليا. فلو كان في وسع أبي أن يُزوجني من كلاوديوس فلاكس، لفعل. إن كلاوديوس يتحدر من سلالة طويلة من الأرستقراطيين الرومان، وهو ما زال محتفظاً بقسم من ثروة عائلته لأنه كان أذكى من أن ينهمك في منصب سياسي. فرمّا كان التزوج به أمراً غير رديء جداً“.

”لا يعنيني في شيء نسبه الملوكي، بل يُرضني مجرد التفكير في لمس لي“. ثم أشاحت وجهها هازة كتفها بلائبالاة، وقد تورّد خدّها انفعالاً.

فمالت أوكتافيا إلى الأمام، ووضعت يدها على يد جوليا، قائلة: ”يا لك من بنت صغيرة!“ ثم أضافت مُقهقهة: ”أغمضي عينيك فحسب، ينته الأمر في بضع دقائق!“

وغيرت جوليا الموضوع مُتعضة. ”اصطحبني مرقس إلى الألعاب مرة ثانية. وقد كانت مثيرة جداً. تسارع حَققان قلبي، ومررت لحظات لم أكد فيها أقوى على التنفس“.

”سيليرس رائع، أليس كذلك؟“

”سيليرس! هه! لست أدري لماذا أنت مولعة به جداً؟ هناك آخرون أوسم منه بكثير“.

”عليك أن تحضري الوليمة عشية الألعاب. فمن كتب، هو رائع جداً“.

”اعتقد أنه بشع بوجود تلك الندوب كلها في أنحاء جسمه“.

”تلك الندوب كلها هي ما يجعله مثيراً جداً. أتعرفين كم رجلاً قد قتل؟ خمسة وسبعين. وكلما نظر لي، فذلك هو كل ما يمكنني التفكير فيه. إنه مثير على نحو لا يُحتمل“.

اقتعرت هُدسة وضعت حيال كل كلمة قالتها، حيث وقفت جانباً بصمت، ورأسها مَحْفُوض وعيناها مُغمضتان بإحكام. وتمنت لو كانت عمياء وصماء فلا ترى وجهيهما المُغممين بالحياة ولا تسمع كلماتهما الغليظة. كيف يمكنهما أن تتحدثا بهذه الحفة عن رجال

يموتون، أو تكونا مُختالَتين هكذا بشأنِ براءتِهما الثَّمِينَة؟ فقد بَدَت أوكتافيا فخورَةً بِفَقْدِ براءتِها، وما بَدَت جوليا إِلَّا تَوَاقُفٌ جَدًّا لِخَلْعِ براءتِها عنها.

ثُمَّ نَهَضَتَا. وَقَالَتْ أوكتافيا: ”قولي لي ما ينوي مَرَقْس فعله هذه الأيام“، شابِكَةٌ ذراعها بذراع جوليا ثانيةً، وهي تبدو مُهْتَمَّةً عَرَضًا ليس أكثر.

لم تُخَدَع جوليا. وبابتسامَةٍ يَسِيرَة، تَحَدَّثَتْ بِشأنِ أريا وفانيا فيما تَمَثَّتْ مع أوكتافيا في الحديقة. فزَعَمَ شَغَفُ أوكتافيا المُعْلَن بِسِيليرُس، عَلِمَتْ جوليا أَنَّها سَتَنسَاهُ في لحظةٍ إِنْ ابْتَسَمَ لها مَرَقْس مرَّةً واحدةً فقط.

اعترى مَرَقْس الأرق، فنَهَضَ عن سريره ووقف في المدخل المفتوح المُؤدِّي إلى البهو ذي الأعمدة. وإذ أَصغَى إلى صوتِ حشراتِ صرَّار اللَّيْلِ تحتِ ضَوْءِ القمرِ الباهت، مرَّ يده على صدره العاري، وحَدَّقَ إلى الفناء في الخارج. لم يستطع أن ينام، ولم يدرِ سببًا لِتَمَلُّمِهِ. كان مشروعُ البناء يجري حسنًا. وكان المالُ يتدفَّقُ عليه. وقد مَضَتْ أريا إلى الرِّيفِ لِقضاءِ بضعة أسابيع، مُحَرَّرَةً إِيَّاهُ من حضورها الثَّقِيلِ وَغَيرَتِها المرَّة. وكان قد قضى أُمسيَّةً مع أصدقائه، مستمتعًا بالأحاديثِ المُنوَّرةِ ومُلاطَفاتِ جوارِي أنتيغونُس.

كَانَتْ الحِياةُ حسنة، وَكَانَتْ صائِرَةً أَحْسَنَ فيما غِناهُ يزداد. فِيمَاذَا إِذَا هذا القَلَقُ المُرْعَجِ وَعَدْمُ الرِّضَى المُبْهَمِ؟

ذهبَ خارجًا كي يتنشَّقَ بعضَ الهواءِ المُنْعِش. حَتَّى البَهُو ذو الأعمدة بدا حابِسًا. فخرَجَ من المدخلِ المُقَنَطَرِ عِنْدَ طرفِ الفناء الشماليِّ إلى الحدائقِ وراءه، حيثُ تَمَشَّى في الممرَّاتِ وَذِهْنُهُ يَقْفُزُ من أمرٍ إلى آخر: شحَناتِ الخشبِ من بلادِ الغال، أريا ونزعةِ الاستئثارِ المُفاجئةِ والمزِججةِ جَدًّا لَدَيْها، أبيه ورفضه لكلِّ شيءٍ يفعُله. لقد كَانَتْ أَعْصابُهُ مشدودةً ومُتوتِّرةً.

توقَّفَ تحتِ العريشةِ المكسوةِ وِردًا، وتنشَّقَ الرائحةَ العَطِرة. لعلَّه قَلِقٌ على جوليا، ولذلك كان مُنْفِعِلًا جَدًّا. فهي كَانَتْ تُقاوِمُ ترتيباتِ الزَّواجِ. وقد انفجرتِ باكيةً مساءً أَمَس، وصرختُ في وجهِ الوالدِ قائلةً إِنَّها تَكْرهُه. فأمرها بالذَّهابِ إلى غرفتها، حيثُ قضتِ الأُمسيَّةَ كُلَّها مع خادمتها الغريبةِ تلك.

لِفَتَتِ انتباهه حَرَكة، فالتفتَ قليلًا. وإذ خادمةُ جوليا اليهوديَّةِ الصغيرةِ قد خرجتْ من مدخلِ البَهُو ذي الأعمدة. وضابقتْ عيناه إذ مَشَتْ على الممرِّ غيرِ بعيدةٍ عن العريشة، حيثُ كان هو واقفًا من دون أن يُلاحظ. ثرى، ماذا كَانَتْ فاعلةٌ خارجَ البيتِ؟ فلا شُغْلَ لها الآن في الحدائقِ في هذه الساعةِ المتأخِّرةِ من اللَّيْلِ.

راقبها تمشي على الممر. وعلم أنها لم تكن تنوي الهرب، إذ سارت في الاتجاه المعاكس للباب القائم في الشور الغربي. ووقفت عند الوصلة المرصوفة بالحصى بين ممشيين. ثم غطت رأسها بشالها، وحثت على الحصى. وإذا شبكت يديها معاً، حثت رأسها.

اتسعت عينا مرقس انشداها. لقد كانت تُصلي إلى إلهها غير المنظور! هنا في الحديقة تماماً. ولكن لماذا في الظلام، خفية عن عيون الآخرين؟ كان ينبغي أن تتعبد مع أخنوخ في المجمع الصغير، حيث يجتمع هو واليهود الآخرون. ودفع مرقس فضوله إلى الاقتراب منها أكثر. فإذا هي ساكنة جداً، وصورتها الجانبية واضحة تحت ضوء القمر.

كانت متضايقة. وكانت عيناها مغمضتين، وشفتاها تتحركان مع أنها لا تتكلم بصوت عال. وقد جرت الدموع على خديها. وبأعين مكتوم، انبطحت على الحصى ووجهها إلى أسفل، مادة ذراعيها، واستطاع عندئذ أن يسمعها هامسة بكلمات في لغة لم يفهمها. أهى الأرامية؟ اقترب مرقس أكثر، وقد أثر فيه تأثيراً غريباً منظر الفتاة ساجدة أمام إلهها. كثيراً ما رأى أمه تُصلي إلى الآلهة البيتيّة في اللاراريوم، حيث كانت مقاماتها ومذابحها، ولكنها لم تسجد مُنبطحة قط. فإذا كانت مُتعبدة لأصنامها، اعتادت أن تذهب كل صباح لتضع أقراص الملح قرباناً لهن وترجي منهن حماية أحبائهن. ولم يكن الوالد وضع قدمًا داخل اللاراريوم منذ توفي أخوا مرقس الأصغر بالحمى. أما مرقس نفسه فقد كان قليل الإيمان بالآلهة، مع أنه تعبد للمال ولأفروديت. فالمال وافقه؛ وأفروديت لبت حواسه. وكان مُعتقد أنه آية قوة يمتلكها الإنسان تصدر من داخل نفسه، من إرادته وجهده، لا من أي إله.

ثم نهضت الفتاة العبد.

كانت صغيرة ونحيلة، لا مثل بيثية بمُنحنياتها المغرية، وفمها المكتنز، وعينيها المثيرتين. وقد وقفت العبرانية الصغيرة تحت ضوء القمر وقتاً طويلاً، ورأسها مَحني، مُنباطة على ما يظهر في مُغادرة الحديقة الهادئة. وأمالت رأسها إلى الوراء حتى انسكب ضوء القمر على وجهها. كانت عيناها مغمضتين، وبسمة رقيقة مُرسمة على فمها. فرأى مرقس في وجهها المرفوع سلاماً لم يسبق أن أحسّه - سلاماً كان يتوق إليه ويطلبه.

”لا ينبغي لك أن تكوني في الحديقة في هذا الوقت من الليل.“

أجفلت من وقع صوته، وبدت على وشك الإغماء إذ رآته يمشي نحوها. وتوترت جسمها، ثم عادت إلى كامل سكونها، وأصابها مُتشيبة بشالها الرقيق الذي انسدل الآن على كتفيها. أمال مرقس رأسه قليلاً إلى جهة واحدة، وقال محاولاً أن يستجلي سيماء وجهها:

”أهذه مَارسَتُكَ المُعتادة؟ أن تُصَلِّيَ إلى إلهك كلَّ ليلةٍ فيما أهل البيت نيام؟“

خفق قلبُ هَدَسَةَ بقوة. أَحَزَرَ أَنَّهَا مَسِيحِيَّةٌ، أم كان ما يزال يعتقد أنها يهودية؟ ”قالت السيدةُ إنَّ هذا مَسْمُوحٌ به“. وقد ارتعش صوتها على نحو ملحوظ. كان ذلك الليل دافئًا، ولكنها شعرت بالبرد فجأة، ثمَّ بالشخونة مجددًا إذ رأت أنه لا يرتدي إلا مئزرًا.

توقَّف على بُعدِ بضع أقدامٍ منها، سائلًا: ”هل أُمِّي أم جوليا قالت لك ذلك؟“ فرفعت نظرها إليه، ثمَّ خفضت عينيها احترامًا بسرعة. ”أمك، يا سيدي“.

”إذًا، يُخَيَّلُ إليَّ أن الأمر مَسْمُوحٌ به، ما دامت عبادتُك لا تتدخلُ بواجباتك تجاه أختي“.

”كانت السيدةُ جوليا نائمةً عندما خرجتُ، يا سيدي. وما كنتُ لأُخرج لولا ذلك“.

تأملها مَرَقَسٌ لَحَظَات. ماذا كان لدى هؤلاء اليهود حتى يتأتى لهم أن ينظر حوا ساجدين أمام إله لا يمكنهم أن يزوهه؟ لم يُدرِك من الأمر أيَّ فحوى. وعلى كلِّ حال، لم يكن يروِّفه أحدٌ منهم سوى أخنوخ، كما أنه لم يكن يستأمنهم. ولم يكن مُتيقنًا بأنه يستأمن هذه الفتاة، أو يريد لها أن تكون في عِداد أهل البيت. فهي حصيلةُ حُرَابِ أورشليم، ولذلك لديها سببٌ- إن لم يكن حقٌّ- في مُعادة الرُّومان. وهو أراد أن تبقى جوليا سالمة.

غير أن الفتاة بدت غير مؤذية تمامًا، بل جبانةً أيضًا. ولكنَّ المظاهر قد تكون مُضللَّة. فرفع أحدَ حاجبيه، وقال يمتحنها:

”إنَّ روما تتسامحُ حيالَ جميع الأديان، ما عدا تلك التي تُحَرِّضُ على الثَّورة والعصيان. والصَّبيحةُ اليهوديةُ المُطالبُةُ بالدمِّ الرومانيِّ ما تزالُ صَبيحةً شائعةً على مدى السنين، وهي السَّببُ الذي من أجله باتتُ مدينتُكم المُقدَّسة خرابًا الآن“.

لم تُجِبْ هَدَسَةَ بشيء. فما قاله كان صحيحًا إلى أبعد حدِّ.

رأى مَرَقَسٌ في سيمائها الرُّعب، ليس إلا. فاقترَبَ منها بعدُ كي يُتاحَ له أن يتأملَ وجهها بصورةٍ أفضل، وعندئذٍ تجاوزت، إذ ارتفعَ ذقنُها شيئًا يسيرًا. وتبيَّنَ له أن عُرْيَه خدشَ حياءها. فابتسمَ ساخرًا، وقد أضحكته ارتباكُها. تُرى، كم من الرُّمن مضى منذُ أن رأى آخرَ مرَّةٍ فتاةً يُحرجُها أيُّ شيءٍ حقًّا؟

فقال: ”لا تخافي، يا بنت. ليس لديَّ أدنى رغبة بأن أُلْسِكِ“، رُغمَ أنه وجدَ نفسه مُتمعنًا فيها. وكانت قد اكتسبتَ وزنًا في أثناء الأسابيع القليلة الماضية. وباتَ شعرها الآن

يكتنف وجهها الصغير بنعومةٍ مثل قَلَنْسُوَةٍ سوداء. وكانت بعيدةً من أن تكون جميلة، إلا أنها لم تعد بشعة. ولما لم يتكلّم رَنَت إليه، فصَبَقَ حِيَالَ عَيْنَيْهَا الداكنتين وعَمِقِهِمَا الحافل بالأسرار. وعبَسَ قليلاً.

قالت، غيرَ رافعةٍ نظرها إليه بعدُ: ”هل لي أن أرجع إلى البيت الآن، يا سيدي؟“
 ”ليس الآن“. وظلَّ مُسَمَّرًا في طريقها بثبات. وقد خرجَ كلامه أقسى مما قصد، فبدت على استعدادٍ للهرب منه. وفي سبيل ذلك، كان عليها أن تدوسَ حديقةَ الزهور كي تدورَ حوله، وقد شكَّ في أن تكونَ لديها الجرأةُ لمحاولةِ القيام بذلك.

لقد أحاطَ بهذه الفتاة شيءٌ خلبَ لُبَّهُ. لعلهُ المزيجُ الفاتنُ من البراعة والخوف. وقد ذكّرتَه بالتمثال الذي اشتراه من أنتيغونس، والقائم الآن على بُعدٍ لا يكاد يبلغُ عشرين مترًا من مكانٍ وقوفهما، فوقَ مَصْعَدِ التلِّ. وفكّر في بيثية الحسناءِ مُحْتَلِسَةً ما تيسر لها من الوقت كي تكونَ برفقته. أمّا هذه الفتاة فكان واضحًا أنها تمتن أن تكونَ في أيِّ مكانٍ آخر إلا هنا في الحديقة معه. ورأى أنها خائفةٌ منه، فسأَلَ نفسه عن سبب ذلك: أهو فقط لأنّه رومانيٌّ عدوٌّ لبني شعبها، أم هو شيءٌ آخرٌ أكثرُ جوهريةً؟ وقد كانا وحدهما، وهو غيرُ مُرتدٍ كاملٍ ثيابه.

قال: ”ما اسمك؟ لقد نسيته“.

”هدسة، سيدي“.

فقال مُجربًا إيّاه: ”هدسة؟“

ارتجفت هَدَسَةٌ. بدت طريقةً لفظه للاسم غريبةً ومُستعزبة... وجميلةً إلى حدٍّ ما. ثمَّ قال ثانيةً: ”هدسة!“ وإذا بوقعِ صوته العميق، كأنه مُلاطَفةٌ، يُثير فيها عواطفَ لم تشعُر بها قطُّ من قبل.

”لماذا تُواظِبين على التعبُد لِإِلِهِ تَخَلِّي عنكِ؟“

فاجأها سؤاله، ورفعتَ نظرها إليه. لماذا يودُّ أن يُكلِّمها في أيِّ شيءٍ؟ لقد وقفَ أمامها مُكتمِلَ الرُجولةِ والوسامةِ، مُمثلاً روما نفسها: قويًا، غنيًا، ملائناً بالمغاويِ المخيفةِ.

ثمَّ قال: ”عليك أن تختاري إلهاً آخر. سيرري على الطريق المُقدَّس، واختاري خيارِك من الآلهة، انتقي واحدًا أطفَ بكِ من الإله غير المنظور الذي كُنْتِ مُنْبَطِحَةً أمامه سُجودًا قَبْلَ قليل“.

انفجرت شفتاها، واتقدَّ وجهها بلونٍ مُتأججٍ. كم مضى من الوقت وهو يُراقبها؟ لقد

التمسَّت عرلةَ الحديدية في الليل، طائفةً أنّها ستحتظي بخصوصية، وأنّ واحداً لن يراها هناك. وإذا فكرت في مراقبته لها طوال الوقت، غمرَ البردُ بدنَها.

”حسناً؟ ألا تستطيعين أن تتكلمي؟“

أجابت متلعثمةً: ”إنّ إلهي لم يتخلّ عني، يا سيدي“.

فضحك ضحكةً ساخرة. ”مدينتك المقدسة خربة، وشعبك مُشتتون على وجه الأرض، وأنت عبدة. وتقولين إنّ إلهك لم يتخلّ عنك؟“

”لقد أبقاني على قيد الحياة. ولديّ طعامٌ ومأوى ومالٍ يكون طيبون.“

ذهلَ مرّسٌ حيالَ قبولها الواعد، وعرفانها بالجميل. ”لماذا تعتقدين أنّ إلهك أنعم عليكِ بمثل هذا الإحسان السخي؟“

لذعتها سُخريته، إلّا أنّها أجابت ببساطة على كلِّ حال: ”لكي أخدم“.

”هل تقولين هذا لأنك تحسبين أنّه هو ما أتوقّعه منك؟“ فأطرقت رأسها. ”انظري إليّ، يا هدسة الصّغيرة“. وإذ امتثلت، أذهلته مُجدداً عيناها الداكنتان والرائعتان في ذلك الوجه البيضويّ الصّغير. ”أما يهّمك أنّك فقدتِ حرّيتك؟ قولي لي الحقيقة. هيّا الآن، يا بنت، تكلمي!“

”جميعنا نخدم شخصاً ما أو شيئاً ما، يا سيدي“.

فابتسم. ”افتراضٌ يُثير الاهتمام. ومن أخدمُ أنا؟“.

ولمّا بدت أشدَّ جُبناً من أن تُحيب، استخدمَ سحره للمُداخلة. ”لستُ أنوي أن أمسكُ بأذى، يا صغيرة. يمكنكِ أن تجاوبي من دون خوفٍ من مُعاقبتي لك. برأيك، من أخدمُ أنا؟“

”روما“.

فأضحك ذلك، وقال مُكرّراً: ”روما“ ثمّ نظرَ إليها من علٍّ مُكشّراً، وأضاف: ”فتاةٌ غبية. إذا كنّا جميعنا نخدمُ شيئاً ما، فأنا أخدمُ رَغباتي ومطامحي. إنّي ألبيّ حاجاتي الخاصّة على طريقتي من دون مُساعدةٍ أيّ إله“. وحتّى بينما هو يتكلّم، تساءلَ عن سببِ اعترافه بهذا المُجرّد فتاةٍ عبدة لا يمكنُ أن تهتمّها أمورٌ كهذه. وتساءلَ أكثرَ بعدُ لماذا ينبغي أن تبدو حزينّةً جدّاً.

وإذ أزعجه أن تنظرَ إليه فتاةٌ عبدة نظرةً أقربَ إلى الشفقة، قال مُستهزئاً: ”هذه غاية الحياة، أليست هي؟ أن تسعي إلى السعادة وتحصلي عليها أينما استطعت. فما رأيك؟“

روما

فطلَّت واقفةً بلا كلام، وعيناها منكستان مرّةً أخرى. وأرادَ فجأةً أن يهزّها. ثمّ سأَلها ثانيةً، أمرًا هذه المرّة: ”ما رأيك؟“

”لستُ أعتقد أنّ غايةَ الحياة هي أن يكون المرءُ سعيدًا، بل هي أن يخدم. هي أن يكون نافعًا.“

فقال: ”بالنسبة إلى عبدة، ربّما كان هذا صحيحًا“. ثمّ حوّل نظره عنها. وقد شعر بأنّه مرهق... مرهقٌ حتّى عظامه.

”ألستنا جميعنا خُدّامًا مُستعبدين لأيّ شيءٍ نتعبّد له؟“ وجعلتُ كلماتها رأسه يعلو ويدور نحوها من جديد. لقد أثارَت استياءه، إذ بدا وجهه الجميل مُتجهّمًا بازدراءٍ مُتغَطِّرس. فعصّت شفّتها مرعوبةً. كيف تجرأت على التكلّم بهذه الحرّيّة المُفرطة مع رومانيّ كان مُمكنًا أن يأمرَ بقتلها استجابةً لمُجرّد نزوة؟

”إذًا، بكلماتك أنتِ، ما دمّت أخذمُ نفسي، فأنا عبدٌ لنفسي. أهذا هو ما تقولينه؟“
تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، والدّم يتلاشى من وجهها. ”التمسّ عفوك، يا سيّدي. لستُ فيلسوفة.“

”لا تنسحبي الآن، يا هُدسة. حدّثيني بعدُ حتّى أتسلّى“. ولكنّه لم يبدُ مُتسلّيًا.
”ما أنا حتّى تسألني عن أيّ شيءٍ؟ أألدّي أيّ حكمةٍ أنقلها إليك؟ أنا مُجرّدُ عبدة.“
إنّ ما قالته صحيح. فأني أجوبةٌ تملك عبدةً حتّى تُقدّمها إليه؟ ولماذا بقي في الحقيقة معها؟ لقد ضايقتُ شيءٌ ما. وهو أرادَ فعلاً أن يعرفَ منها شيئًا. أرادَ أن يسألها أيّ مُقايضاتٍ أقامت مع إلهها غير المنظور حتّى كابدت كلّ ما كابدته وما زالت مُتمتعةً بسيماء السّلام التي رأها وحسدها عليها. ولكنّ بدلًا من ذلك، قال بحدّة: ”هل كان أبوك عبدًا أيضًا؟“
لماذا كان يُعذبها؟ فأجابّت بهدوء: ”نعم“.

”وماذا كان سيّدُه. جِمْ آمَن؟“

”آمَنَ بالحُب.“

كان ذلك مُبتدلاً جدًّا. فأجفل. لقد سمعه من أريا وصديقاتها يتواترُ كافٍ. أو من بالحُب، يا مرقس. وافترض أنّ ذلك كان سببَ قضائها في الهياكل وقتًا كثيرًا، مُشتركةً في الحُبِّ ومُشبعةً نفسها به. إنّه يعرف كلّ شيءٍ عن الحُبِّ. وقد تركه الحُبُّ مُنهكًا وخاويًا. إذ كان في وسعه أن يُغرق نفسه في امرأة، مُسترسلاً في المتعة الحسّية واللذّة، ولكنّ حين ينتهي

الأمر ويُغادر، يجد نفسه ما زال جائعًا... جائعًا إلى شيء لا يستطيع حتى تحديده. لا، ليس الحب هو الحل. بل ربما كان الأمر كما اعتقد دائمًا: القوة تأتي بالسَّلام، والمال يأتي بالقوة. لماذا فكر في أن يتعلم شيئًا من هذه الفتاة؟ إنه يعرف الجواب لنفسه أصلًا، أليس كذلك؟ ومن ثم قال بجفاء: ”يمكنك أن ترجعي إلى البيت“، وحاد من الطريق حتى تمر. رفعت هدسة عينها نحوه. كان وجهه الجميل منخططًا بعمق، عاكسًا أفكاره المضطربة. إن مرقس فاليريان كان يملك كل ما يمكن أن يُقدّمه العالم لرجل. ومع ذلك، ها هو واقف هناك صامتًا ومحرومًا على نحوٍ مُستغرب. أكان كل تكبره وغناه مجرد علامة خارجية على عذاب داخلي؟ لقد تأثر قلبها في الصميم. ماذا لو قالت له عن الحب الذي قصدته؟ أضحك أم يأمر بإرسالها إلى ساحة المحاربين؟

كانت تخاف أن تتكلم إلى روماني عن الله. فهي تعلم ما عمله نيرون. وتعلم ما كان يجري كل يوم في ساحة المحاربين. ولذلك أبقّت ما تعلمه سرًا. فقالت بركة: ”عسى أن تدرك السَّلام، يا سيدي“. ثم دارت ومضت. نظر إليها مرقس مدهوشًا. لقد تكلمت بكل لطف، كما لو كانت تبتغي أن تعزيه. وراقبها حتى توارت عن نظره.

٩

وجدَ مرقس نفسه مُراقِبًا اليهوديَّةَ الفتيةَ كلِّما كان في البيت. وقد تساءَلَ عما اتَّسمت به ممَّا فتنه بها كثيرًا. وكانت مُخلصَةً كلِّيًا لأخته، وبدت مُتحمَّسةً لكلِّ حالةٍ وحاجةٍ لدى جوليا، مُعتمِنَةً بها برفق. كان بيثية قد خدَمت جوليا قبل هدسة، ولكنَّ المصريَّة لم تُكن مُولعةً بها. فجوليا كانت دائمة التوتُّر وصعبة المراس. وبيثية أطاعت. أمَّا هذه اليهوديَّة الفتية فقد خدَمت. وكان في وَسع مرقس أن يرى ذلك في الطريقة التي وضعت بها يدها على كَتِف جوليا كلِّما كانت أخته تُعاني واحدةً من حالات اضطرابها. ولم يكن قَطُّ قد رأى شخصًا سوى أمِّه يلمَسُ جوليا بتلك الطريقة. والأمرُ الأكثرُ إذهالًا أن لمسةَ هدسةَ بدت مُهدِّئةً لأخته.

إنَّ إعلانَ الوالد لزواج جوليا وَصَعَ البيتَ في وَضع مُضطرب، كما وضع هدسة على المِحْك. فما إن خرجت الكلمات من فم الوالد، حتَّى أخذت جوليا نوبةً هستيرية ما زالت مُد ذاك حائمةً بقرِب السطح.

ليلةً أخيرها أبوها بالأمر، صرخت في وجهه: "لن أتزوج به، لن أتزوج! لا يمكنك أن تُضطرنِّي! سأهرب! سأتحر!"

فصفتها أبوها على وجهها. وما كان قد فعل ذلك قَطُّ من قبل. وقد دُهِشَ مرقس جدًّا بحيث لم يفعل شيئًا سوى الجلوس على الأريكة التي كان مُتَّكئًا عليها، وخبِط كأسه على الطاولة.

قالت أمُّه لاهثة: "دَسْمَس!" وقد صدمتها بالمثل أن يفعل الأب شيئًا كهذا. ليس أن جوليا لم تستحق ذلك. ولكن، رُغم ذلك، كان صفعها على وجهها أمرًا لا يُغتفر.

وقفت جوليا صامتةً في ذهول، ضاغطةً يدها على خدِّها. وقالت - كما لو استحال عليها تصديق الأمر هي أيضًا - "أنت ضربتني. أنت ضربتني!"

فقال الأب من بين أسنانه، وهو شاحِبُ الوجه: "لن أتقبل شيئًا من نوباتك الهستيرية، يا جوليا. تكلمي إليَّ بنبرة الصَّوت تلك، فأصغعك ثانية. فهمتِ؟"

طفحت عينها بدموع عاصفة، فيما أطبقت يدها بمدودةً إلى الأسفل إلى جنبها.

”ما أفعله، أفعله لأجل مصلحتك، لو كان لك فقط عقل يفهمه. ستتزوجين كلاوديوس فلاكس. إنه مُحترَمٌ جدًّا، وله ملكيةٌ ضخمة في الرِّيف الأيپنيني الذي تعترفين بأنك تُحِبِّينه حتَّى أكثر من روما. وقد كان زوجًا عطوفًا ومُخلصًا لزوجته قبل وفاتها. وسيكون هكذا لك أيضًا“.

”إنه كبير السن وعاجز“.

”عمره تسع وأربعون، وصحته جيّدة“.

”لن أتزوج به! أقول لك: لن أتزوج!“ صرخت جوليا بهذا، وانفجرت باكية. ”سأكرهك إذا أجبرتني. قَسَمًا! سأكرهك إلى أن أموت!“ ثم خرجت من الغرفة راكضة. تبعها مرقس على الفور، ولكن صوت أمه الرقيق أوقفه: ”مرقس، دعها وشأنها. هدسة، اهتمي بها“. وشاهد مرقس الفتاة تُسرِعُ خارجة من الغرفة.

صرَّ مرقس بأسنانه قائلاً: ”هل كان ذلك ضروريًا، يا أجي؟“ وقد جاش طبعه رُغم هدوئه المهذب ببرودة.

حدق دسْمُس إلى يده من عل، ووجهه شاحبٌ ومُتجهّم. وإذ ضمَّ أصابعه في قبضة، أغمض عينيه، ثم غادر من دون أن ينبسَ بِنِتِ شفة.

وضعت الأم يدها بإحكام على ذراع مرقس إذ همَّ بأن يقوم ويتبع أباه، قائلة: ”مرقس، دعه وشأنه. لن يساعِدَ جوليا أن تقفَ في صفِّها في هذا الأمر“.

”ليس له حقُّ بأن يضربها“.

”كان له حقُّ الأب. إن لكثيرٍ من الخلل في الإمبراطورية علاقةٌ بأباءٍ لم يؤدبوا أولادهم. وما كان لها حقُّ بأن تُكلِّمَ أبك كما كلِّمته!“

”ربما لم يكن لها الحقُّ، ولكن يقيئًا كان لها السبب! كلاوديوس فلاكس. وحياة الألهة، يا أمّاه! لا ريبَ أنّك ضدُّ هذه الزَّيجة“.

”لستُ ضدّها بالحقيقة. إن كلاوديوس رجلٌ جيّد. ولن يكونَ لدى جوليا أيُّ سببٍ للغمِّ من قبيله“.

”ولا للشُرور“.

”ليس الشُرورُ هو كلُّ ما في الحياة، يا مرقس“.

هزَّ مرقس رأسه غاضبًا، وغادرَ الغرفة. وتمهّل ثم انعطفَ نحو غرفة جوليا. أراد أن

روما

يتيقن بنفسه أنها بخير. فكانت ما تزال تبكي، ولكن ليس بصورة هستيرية شديدة، وكانت اليهودية الفتيحة مُسبكةً بها كأم، مُرجعةً شعرها بلطفٍ ومُتحدثةً إليها. فوقفَ غيرَ مُلاحظٍ في المدخل يُراقبهما.

قالت جوليا مُنتحبةً، وهي مُتشبثةٌ بالفتاة كأنها تيممةٌ تجلبُ الحظَّ وتدفعُ الأذى: ”كيف يُعقل أن يُفكرَ والدي تزويجي بذلك العجوز البائس؟“

”إنَّ والدك يُحبُّك، يا سيّدي. وهو لا يُريد لكِ إلا الخير.“

تراجع مرقس بحذر، ولكنه بقي في الممشى، مُسترقاً السَّمع.

قالت جوليا باكيةً: ”كلّا، لا يُريد. إنّه لا يهتمُّ بأمرى البتّة. أمّا رأيتَه يضرُّني؟ كلُّ ما يهّمُه أن يظلَّ مُسيطرًا عليّ. لا يمكنني أن أفعلَ أيَّ شيءٍ من دون موافقته الصريحة، وقد سئمتُ ذلك. ليت دروسس كان أبي. إنَّ أوكنافيا تستطيع أن تفعلَ أيَّ شيءٍ يحلو لها.“

”سيّدي، أحيانًا لا يصدرُ ذلك النوعُ من الحرّيةِ عن المحبّة، بل عن قلةِ الاهتمام.“

توقّف مرقس انفجاريًا آخرَ من جوليا حيال هذه العبارة الهادئة العذبة. وبعدَ صمتٍ طويل، قالت جوليا: ”تقولين أغرب الأشياء، يا هدسة. ففي روما، إذا أحببت شخصًا ما، تسمحين له بأن يفعلَ ما يشاء...“ ثمّ تضاءلَ صوتها.

”ماذا تُريدن أن تفعلين، سيّدي؟“

تمّطى مرقس قليلًا، فرأى جوليا تجلسُ صامتةً إلى حين، مُرتبكةً ومُضطربةً. وما لبثت أن قالت مُتجهمةً: ”أيّ شيء“. واستدركت: ”كلّ شيء“. ثمّ تابعتَ بعدَما وقفتَ مُرتجةً: ”ما عدا الزواج بكلاوديوس فلاكس المترهل.“

انتفض مرقس حيالَ تقديرها لكلاوديوس. وشاهدَ أخته تعبرُ العُرفةَ إلى ميزنتها، حيث التقطت زجاجةً يونانيةً صغيرةً من العطر الغالي. ”لا تستطيعين أن تفهمي، يا هدسة. ماذا يمكنك أن تعرفي؟ أحيانًا، أشعرُ بأنّي عبدةٌ أكثرَ منك“. وببكاءٍ خبيبةٍ مكبوت، ضربت بالزجاجة عرض الحائط عبر العُرفة، مُحطمةً إيّاها. فتطايرَ رشاشُ العطر وسال على الفُسيفساء التي عليها رسومُ أولادٍ يتواهبون مَرَحًا بين الزهور الوافرة، مائلًا العُرفةَ بالعِطرِ الذكي القوي.

كفّت جوليا عن البكاء. وأومات برأسها كما لو كانت تُبدي موافقتها على شيءٍ طلبته هدسة. ثمّ بدأت هدسة تُغني، بالعبرية، وهي ما تزال مُسبكةً بذراعي جوليا. وقد أغمضت جوليا عينيها وأخذت تُصغي، رُغم كونها لا تفهم اللغة، وقد علمَ مرقس ذلك. وهو أيضًا لم

يُكِن يفهمها. غير أنه وجدَ نفسه مُصغياً كذلك، وهو واقفٌ في الظلال، لا إلى الكلمات، بل إلى صوتِ هدسة العذب. ثمَّ غادرَ وهو مُضطرب.

ولمَّا انضمَّ إلى أمه عند النافورة، سألتَه: ”هل هدأت جوليا؟“

فقالَ وهو شارِدُ اللَّبِّ: ”يبدو ذلك. إنَّ تلك اليهودية الصَّغيرة تُلقني عليها رُقية“.

ابتسمت فيبي. ”هي جيِّدةٌ جدًّا لجوليا، علمتُ أنَّها ستكون هكذا. كان شيءٌ ما يكتنفها يومَ أتى بها أختنوخ إلينا“. ثمَّ أجرتَ يدها في ماء البركة الصَّافي. ”أرجو ألا تُقاتِلَ أبك بشأن هذا القرار“.

”لا يكادُ كلاوديوس فلاكس يُثيرُ رغبةَ فتاةٍ بمِزاج جوليا، يا أمَّاه“.

”إنَّ جوليا لا تحتاجُ إلى إثارة، يا مرقس. فهي تحضنُها داخلَ نفسها. ويمكنُ أن تلهيها كحُمى. إنَّها تحتاجُ إلى رجلٍ يهدئُها“.

”أمي، إنَّ كلاوديوس فلاكس ليس فقط سيهدئُها، بل سيجعلها أيضًا تنام وهي واقفة“.

”لستُ أرى رأيك. فهو رجلٌ نبيهٌ ولديه كثيرٌ يُقدِّمه“.

”صحيح، ولكن هل أبدتَ جوليا يومًا أيَّ اهتمامٍ بالفلسفة أو بالأدب؟“

تنهدت فيبي من أعماقها. ”أنا أعرف، يا مرقس. لقد فكَّرتُ في المصاعب التي تنتظرها. ولكن من كنتُ تودُ أن يختارَ أبوك؟ واحدًا من أصدقائك؟ أنتيغونس، على وجه الاحتمال؟“

”كلا، البتَّة!“

فضحكتُ برقةَ حيالِ جوابه السريع هذا. ”إذًا، يجبُ أن توافق. إنَّ جوليا تحتاجُ إلى زوجٍ يؤتيها النضجَ والاستقرار. وهاتان الميزتان لا تُوجدان عادةً لدى رجلٍ أصغر سنًّا“.

قالَ بحِفَاء: ”أمَّاه، إنَّ الشابةَ الصغيرةَ تحتاجُ إلى أشياء في الرَّجُل تتخطى النضجَ والاستقرار“.

”إنَّ الشابةَ الصَّغيرةَ التي لها شيءٌ من الفطرة السليمة تُدركُ أنَّ الخلقَ والذكاءَ يصمدان طويلًا أكثرَ من الفِتنَةِ والملاحِ الجميلةِ والبنيةِ المتينة“.

”أشكُ في أن تُهدئَ جوليا حِكْمَةً كهذه“.

”على الرُّغم من الحركات المسرحية، ستُدعِنُ جوليا لقرارِ أبيك، وتغدو أحسنَ قبولًا له“. ثمَّ طَوَّتَ يديها ورفعَتَ عينيها إليه.

”إلا إذا حرّضتها على العصيان“.

انقبض فمه. ”ليست بحاجة إلى تحريض، يا أمّاه، إن لها عقلاً خاصاً بها!“

”مرقس، أنت تعرف مقدار التأثير الذي لك في أختك. فلو تكلمت إليها...“

”آه، لا. لا تحيّريني إلى هذا. إن كان لي صوت في هذا الأمر، ينبغي لجوليا أن

تختار من تريد“.

”من ستختار أختك؟“

انتقل ذهنه فجأة إلى الفتى الوسيم المنحط في ساحة المحاربين. والأرجح أنه فلاح.

فانزعج من تذكره ذلك اللقاء. وتوترت عضلة في حنكه. إن جميع الشابات الصغيرة تفتنهنّ

الوجوه الجميلة؛ وأخته ليست استثناءً. ”كلاوديوس فلاكس ليس مناسباً لها“.

”أعتقد أنك مُخطئ جداً، يا مرقس. أما علمت أن أباك لم يذهب إلى كلاوديوس

فلاكس، بل هو جاء إلينا؟ إن كلاوديوس واقع في حبها“.

تبادل كلاوديوس فلاكس وجوليا أقراص الحنطة- وتُدعى فار- أمام الأعين اليقظة

لكاهنتين كبيرتين في هيكل زفس (زيوس). وكانت جوليا شاحبةً وعديمة العاطفة. ولما

أمسك كلاوديوس يدها وقبّلها قبله خفيفة، رفعت نظرها إليه، وخدّاهم متورّدان. فتصلّب

دسمس، متوقّفاً فورة انفعال. ورأى عيني ابنته مُغرورتين، فعلم أنها استطاعت أن تجعل

نفسها غبيّة أمامهم أجمعين.

خيّم الشكون في قاعة الهيكل، وأصنام الرّخام تبدو شبه يقظة. وكان وجه مرقس قناعاً

كثيباً، وعيناه السوداوان تقدحان شرّاً. كان قد جادلّ جدلاً طويلاً وشاقاً ضدّ هذا الزواج.

وقد اقترح عقد كوميشيو، أو شراء عروس، زواجٍ سهلٍ نقضه بالطلاق. ولكنّ دسمس

رفض التفكير في ذلك.

”لن تقترح على كلاوديوس اقتراحاً كهذا فتجلب العار على عائلتنا! أما حسبت أمراً

أكثر ترجيحاً بكثيرٍ أنه سيرغب في تطليق أختك آخر الأمر؟ فعلى الرّغم من كلّ جمال

جوليا ومرحها البهيج، هي مزهّوة وأنايئة وسريعة التأثير. ومزيج كهذا يُثير سريعاً أعصاب أيّ

رجل. ألم تتعلم ذلك مع أريا؟“

امتقع مرقس غضباً. ”ليست جوليا مثل أريا في شيء“.

”إنّ الزواج على أساس كنفرياشيو من رجلٍ مثل كلاوديوس سيضمّن ألا تصير مثلها“.

”أَلَك نِثْقَةٌ ضَمِيلَةٌ جَدًّا بِابْنَتِكَ شَخْصِيًّا؟“

”أَحِبُّهَا أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِي ذَاتِهَا، وَلَكِنِّي أَرَى عِيوبَهَا جَدًّا“. وَهَزَّ دَسِمُسُ رَأْسَهُ بِأَسَى. لَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْجَمَالَ يَذْوِي سَرِيعًا حِينَ يَقْتَرُنُ بِالْأُنْثَى، وَأَنَّ فِتْنَةَ جُولِيَا أَدَاءُ اسْتِغْلَالٍ. أَمَّا مَرْقُسُ فَلَمْ يَرِ فِي أُخْتِهِ إِلَّا مَا أَرَادَ أَنْ يَرَاهُ: طِفْلَةً جَرِيئَةً عَنِيدَةً. إِنَّهُ لَمْ يَرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصِيرَ إِلَيْهِ إِذَا أُرْخِيَ لَهَا الرِّمَامَ. وَلَكِنْ بِوُجُودِ الزَّوْجِ الْمُنَاسِبِ، يُمْكِنُ أَنْ تَنْصَجَ جُولِيَا لِتَصِيرَ امْرَأَةً مِثْلَ أُمِّهَا.

كَانَتْ جُولِيَا بِحَاجَةٍ إِلَى اسْتِقْرَارٍ وَتَوْجِيهِ. وَمِنْ شَأْنِ كِلَاوَدْيُوسِ فَلَكَسَ أَنْ يَمُدَّهَا بِكَلِمَاتِهِمَا. وَمَعَ أَنَّ دَسِمُسَ أَقْرَبُ بَأَنَّ فَلَكَسَ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا شَابَّةً صَغِيرَةً، فَإِنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ أُمُورٌ أُخْرَى أَهَمُّ: الشَّرْفُ، وَالْعَائِلَةُ، وَالْوَاجِبُ. لَقَدْ أَرَادَ دَسِمُسُ أَنْ يَضْمَنَ لِابْنَتِهِ مُسْتَقْبَلًا مُحْتَرَمًا، وَمَا كَانَ أَيُّ مَقْدَارٍ مِنَ التَّعْلِيلِ الْمُنْطَقِيِّ مِنْ قِبَلِ ابْنِهِ الْحَامِي الطَّيِّعِ لِيُقْنِعَهُ بِالْعُدُولِ عَنْ ذَلِكَ. فَالْحَرِيَّةُ بِإِلَازِمَةِ إِجَازَةِ مَجْلِبَةٍ لِلْمَهْلَاكِ. وَيَوْمًا مَا، قَدْ فَهَمُّ وَلَدَاهُ كِلَاهُمَا وَيَغْفِرَانِ.

رَاقِبٌ دَسِمُسُ ابْنَتَهُ تَرَفَعَتْ ذَقْنَهَا قَلِيلًا وَتَبَسَّمُ لِكِلَاوَدْيُوسِ ابْتِسَامَةً جَرِيئَةً. فَشَعَرَ بِدَقْفَةٍ مِنَ الْفَخْرِ وَالْفَرَجِ. رُبَّمَا كَانَ لَهَا الْحَسُّ الَّذِي جَعَلَهَا تُدْرِكُ أَيُّ رَجُلٍ صَالِحٍ قَدْ تَزَوَّجَتْ نَوًّا، وَرُبَّمَا كَانَ تَكْيِيفُهَا سَيَجْرِي أَسْرَعَ مَا تَوَقَّعَ أَيُّ شَخْصٍ. وَحَيَاةِ الْأَلْهَةِ، لَقَدْ أَحْبَبَهَا حُبًّا جَمًّا. رُبَّمَا لَمْ تَكُنِ الْغَيْبَةَ الَّتِي خَشِيَ أَنْ تَكُونَهَا. فَأَمْسَكَ بِيَدِ فَيِّبِي وَضَعَهَا قَلِيلًا، رَاضِيًا بِأَنْ يَشْهَدَ زَوَاجَ جُولِيَا أَمَامَ الْكَهَنَةِ عَلَى أُسَاسِ كُنْفَرِيَاشِيو، الْقِرَانِ الْأَكْثَرَ تَقْلِيدِيَّةً، ذَاكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا نَقْضُهُ وَالَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدُومَ حَتَّى الْمَوْتِ. وَأَحْسُ حُرْقَةَ الدَّمْعِ فِي عَيْنَيْهِ، إِذْ تَذَكَّرَ يَوْمَ زَوَاجِهِ هُوَ وَالْحُبُّ الَّذِي شَعَرَ بِهِ لِعُرُوسِهِ الْخَائِفَةِ. إِنَّهُ مَا زَالَ يَحِبُّهَا.

كَانَتْ أَوْكَتَافِيَا أَوَّلَ مَنْ عَانَقَ جُولِيَا بَعْدَ الْمَرَاسِمِ، إِذْ أَحَاطَ الضُّبُوفُ بِالْعُرُوسِينَ لِتَهْنِئَتِهِمَا. وَقَدْ اخْتَلَطَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَتَعَالَتْ فِي الْقَاعَةِ الْمَقْدَّسَةِ، مُحَدِّثَةً أَصْدَاءً مُتَرَدِّدَةً. وَاقْتَرَبَ الْكَاهِنَانِ مِنْ دَسِمُسِ فَأَعْطَاهُمَا أَجْرَتَهُمَا، وَأَخَذَ الْوَثِيقَةَ الْمُثَبَّتَةَ لِلزَّوْاجِ. وَدَسَّتْ فَيِّبِي بَضْعَ قَطْعِ نَقْدِيَّةٍ فِي أَيْدِيهِمَا، طَالِبَةً مِنْهُمَا بِهَدْوٍ أَنْ يُوقِدَا بِخُورًا وَيُقَدِّمَا بِخُورًا الْمُبَارَكَةَ الزُّبَيْجَةَ. لَقَدْ سَخَا دَسِمُسُ عَلَيْهِمَا، وَهَمَا وَعَدَا بِأَنْ يَفْعَلَا ذَلِكَ. ثُمَّ مَضَى فِي سَبِيلِهِمَا، وَالنَّقُودُ تُخَشِّشُ فِي كَيْسَيْهِمَا.

رَاقِبٌ دَسِمُسُ بِوُخْزَةٍ أَلَمَ فِيمَا كَانَتْ ابْنَتُهُ الْفَتِيَّةُ الْجَمِيلَةُ تَتَقَبَّلُ التَّمَنِّيَاتِ الطَّيِّبَةَ مِنْ ضِيُوفِهِمْ. سَيَصْطَحِبُ كِلَاوَدْيُوسُ جُولِيَا فِي رِحْلَةٍ وَجِيزَةٍ بَعْدَ الْوَلِيمَةِ الَّتِي تُقَامُ اللَّيْلَةَ. وَقَدْ نَوَى أَنْ يَأْخُذَهَا، بَعْدَ أَسَابِيحٍ قَلِيلَةٍ، إِلَى عَزْبَتِهِ الرَّيفِيَّةِ بِقُرْبِ كَابُوَا، حَيْثُ سَيَسْكُنَانِ. وَبِكُلِّ تَأْكِيدٍ، وَافَقَ دَسِمُسُ، عَلِيمًا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَفْضَلُ لَهَا. فَإِذَا تَحْتَجَّبَ هُنَاكَ، تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ

التأثيرات الفتاكه من قِبَلِ شَابَاتٍ مِثْلِ أَوْكْتافيا وأريا، بأفكارهنَّ الحديثة المتعلّقة بالاستقلاليّة والأخلاقيّة. وستكون بعيدة من مرقس.

ولكنْ أه، كم سيفتقدُها، وهي ابنته الوحيدة!

ابتسمت فيبي له خلال دموعها، وقالتْ بهدوء: ”إِذَا، قُضِيَ الأَمْرُ! لقدِ انتهتْ جميع المعارك، وكُسِبَتِ الحربُ أخيراً. أعتقدُ أنّهما سيفلِحان، يا دَسِمُس. حسناً فعلتْ لأجلها. ستشكرُك ذات يوم.“

انضمُّوا إلى ضيوفهم، وخرَّجوا إلى ضياء الشمس. وساعد كلاوديوس جوليا في الجلوس على كرسيّ يُشبه الهودج مُغطى بالزهور. فعلم دَسِمُس أنّ كلاوديوس سيكونُ زوجاً عطوفاً وصبوراً. وراقب كلاوديوس ينضمُّ إلى جوليا وميسك يدها. لقد كان واضحاً أنّه هائمٌ بها، إلّا أنّها بدت صغيرة جداً، وحساسة جداً.

بينما موكبُ العروسين الجديدين يتحرّك ببطءٍ في شوارع روما المزدهمة، هتف الناسُ لهما. وصاح بعضُ الشبان الأفظاظ بتعليقاتٍ بذئبة جعلتْ خديّ فيبي يتوردان وهي مُتكتئةٌ بجانب دَسِمُس. فإذا عاشتْ مُدلةً وراء أسوار بيتهما العالية، كانت في مأمّنٍ من مُعظّم تصرفاتِ الرّاع الدّاعرة وغير المُهدّبة.

تاق دَسِمُس إلى سَكينة الرّيف. تاق إلى المياه الصافية الزّرقاء في بحرٍ إيجه. تاق إلى تلال موطنه. لقد سنّم روما.

جلست فيبي إلى جنبه تحت الظلّة، وورّكها مُلاصقةً لِوَرِكِه. مرّت تلك السّنون كلّها وهو ما زال يشعرُ باشتهاءٍ قويٍّ لِزَوجتِه، وإنْ كانتْ أفكارُ الموت قد أوهنتْ عزيمته، والألم الذي انتابه بين الفينة والأخرى في البداية قد بات الآن رَفيقاً دائماً. فتناولَ يدها، وشبك أصابعه بأصابعها. وابتسمت له. هل خامرها شكٌ في ما علّمه: أنّ مَرَضَه كان يتفاقم؟

اجتمع الضيوفُ في قاعة الشّفرة لِوليمة العرس. كان دَسِمُس قد أبقى العددَ قليلاً، لا أقلّ من إلهات الحُسنِ الثلاث ولا أكثرَ من إلهات الفنِّ السّبع. وكانت فيبي قد زينتْ الغرفةَ بكثيرٍ من الزّهور المُعطرة الزاهية الألوان. ولم يكن دَسِمُس يثقُ قطُّ باعتقادها أنّ عطرَ الزّهر الشّدّيّ يُعطّل أدخنة المصابيح، ولا مفاعيل الخمرة سترأقُ بسخاء هذا المساء. وقد كان مُتعباً، والألم المائلُ دائماً يسلبُه قوّته. وأثارت رائحة الزّهور الثقيلةُ غثيانه.

خلع كلاوديوس وجوليا حِذاءَيهما، واتّكأ على الأريكة الأولى، فيما احتلّ الآخرون مقاعدَهم على الأرائك المُحيطة بهما. وقد اتّكأ كلاوديوس ملاصقاً لجوليا، وأخذ يُكلّمها

برقة. فتوردت خجلاً. وإذ باتت مراسم الزواج وراءها، بدت أحسن حالاً.

كان دسّمس يرجو أن يجعلها كلاوديوس تحبُّ سريعاً. فعندما يكون طفلٌ في حضنها، تستقرُّ بصورةٍ أسهل زوجةً رومانيّةٍ صالحة. عندئذٍ تُعنى بنار موقدها وتُدبّر بيتها كما دُرّبتها فيبي. وينشغلُ ذهنها بتعليم أولادها باكرًا والاعتناء بعائلتها؛ بدلاً من الألعاب وثرثرات القيل والقال الداعرة.

كان أختوخ واقفاً بالباب، فأوماً له دسّمس برأسه أن يأمر العبيدَ بإحضار الغسّطس، أي المقبّلات.

في المطبخ، شاهدتْ هدسة سيجانُس يُرتّب المشهيات الغنيّة على أطباقٍ من فضّة. فملأتْ روائح الأَطعمة الغريبة والشهيّة العُرفة الساخنة، وجعلَ فَمها يتحلّب. وقد رتّب الطباخُ بعنايةٍ كلَّ ضرعٍ خنزيرةٍ حتّى تكوّنت تشكيلةٌ نجميّةٌ بارزة، وأضافَ قطعاً من السمك الهلّامّي وبيض السمك والأعشاب الخضراء الغضة لتوسيع الرّسمة. وعرضَ في طبقٍ آخرٍ تمثال طائرٍ في عُشٍّ مصنوعٍ من أكباد الورز، وصُفّت قطعٌ بيضٌ بحيثُ تبدو شبيهةً بالرّيش الأبيض. لم تكن هدسة قد رأت طعاماً كهذا من قبل، ولا تنشّقت مثل تلك الرّوائح المبهجة. وكان الخدّام يُثرثرون عن الرّواج بين كلاوديوس وجوليا.

”لا بدّ أن السيّد قد تنفّس الصّعداء لتزويجها“.

”سيكون فلاكس مشغولاً إلى أقصى حدّ“.

”يمكنها أن تكون مبهجة حين لا تكون في إحدى نوباتها المسعورة“.

تواصلَ الحديثُ حواليّ هدسة. وقد تمنّى مُعظم الخدّام ألاّ تُسعدَ جوليا، إذ كرهوا تصرّفاتها المتعطرسة وفورات غضبها. أمّا هدسة فلم تُشارك في القيل والقال، بل راقبتْ مذهولةً سيجانُس وهو يعمل.

وإذ خلّبت لُبها التّشكيلات التي ابتكرها، قالت: ”ما رأيتُ قطُ أطعمةً بهذا الشّكل“.

”ليست مثل صنّيع طباخي القصر، ولكنها أفضل ما أحسنه“. ثمّ رفع نظره إذ دخلَ أختوخ. فمسحَ العرقَ عن وجهه، وعائِنَ الأطباقَ بعينٍ فاحصة، مُجرّياً تغييراتٍ بسيطةً أخيرة.

وإذ شعرتْ هدسة بأنّها تشرّفت بمُشاهدة الطباخ يُجري التّعديلات النهائيّة، قالت: ”كلُّ شيءٍ رائعٌ الرائحة والمنظر، يا سيجانُس“.

سرّه ثناؤها، فأبدى كرمًا. ”لك أن تندوّفي أيّ شيءٍ يفضّل عنهم“.

فقال أخنوخ بحزم: ”لن تمسّ شيئًا من ذلك. ضُروغُ خنزيرات، سمك الجلكي، قنأفد البحر، بيض السمك، عجل مطبوخ بلبن أمّه“. وإذ نظرَ باشمئزاز إلى التشكيلة الجميلة، هزّ كتفيه قائلاً: ”شريعتنا محرّم علينا أن نأكل أيّ شيءٍ غير طاهر“.

شعرَ سيجائس بالإهانة، فقال: ”غير طاهر! من شأن الإهكم اليهودي أن يسلب البهجة من فم أقرّ يتيّم! أعشابٌ مرّة، خبزٌ بلا خمير! ذلك هو ما يأكله اليهود“.

تجاهلَ أخنوخ سيجائس، وأوماً لبضعة عبيدٍ بأخذ الأطباق. ثمّ نظرَ إلى هدسة من علّ بشيءٍ من الحزم الأبوي. ”سيكونُ عليك أن تتطهّري بعد الخدمة هذا المساء“.

انكملتْ هدسة في داخلها حيال ذلك التعليق الفظّ على مهارة سيجائس في الطبخ، ورمقت سيجائس بنظرة اعتذار. وكان وجهه قد احمرّ من الغضب.

أشارَ أخنوخ إلى ضروع الخنازير باشمئزاز، وأمرَ هدسة قائلاً: ”خُذي ذاك الطبق. حاولي ألاّ تمسّي شيئاً منه“. فرفعتِ الطبقَ وتبعّت أخنوخ إلى خارج المطبخ.

بينما وضعتْ هدسة الطبقَ أمام جوليا، كانت جوليا تتصاحك مع أوكتافيا. فأومات لها بالانصراف، وغمست أصابعها في السمك الهلاميّ وبيض السمك، فيما تناوَل كلاوديوس ضرعَ خنزيرة مَحشواً بالمحار. وسكبَ أخنوخ الخمرَ المعسولة في كؤوسٍ من فضة فيما عزفَ بضعةً موسيقيّين أحياناً رقيقةً بالمزمار والقيثار.

تراجعتْ هدسة واستندت إلى الجدار. لقد أفرجتْها رؤية جوليا ضاحكةً ومُتحدثةً من جديد، وإن كانت قد شكّت في أن يكون ذلك لتترك انطباع حسن لدى رفقاتها أكثرَ منه بدافع الشرور الفعليّ. فرغم كلِّ فرحٍ جوليا ومرحها، كان فيها فراغٌ ما أحزنَ هدسة. وقد كان في وسع هدسة أن تهديّها، وأن تخدمها، وأن تحبّها، غير أنّها لم تكن قادرةً على سدِّ ذلك الفراغ.

اللهم، إنّها تحتاج إليك! إنّها تظنُّ أنّ جميعَ القصص التي أحكيها لها هي لتسليتها فقط. إنّها لا تسمع شيئاً. يا ربّ، أنا غيرُ نافعة تماماً. لقد شعرتْ هدسة بخنانٍ جَمّ تجاه جوليا- حنانٍ شبيه بالذي كانت تشعرُ به تجاه ليثة.

تشرّبتْ هدسة جمالَ الأمسية وهي تخدم بصمت. وقد غمرت أنغامُ المزمار والقيثار العذبة أرجاء العُرْفَة، فيما الموسيقيّون يعزفون بهدوء في الزاوية. وكان كلُّ شيءٍ غايةً في الرّوعة. الحُضورُ بتوجّاهتهم وحُلاهم، العُرْفَة المُزينة بالزهور، الوسائد الزاهية الألوان، الطعام

الفاخر؛ غير أن هَدَسَةَ أَيْقَنْتَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْعُرْفَةِ فَرَحٌ ضَمِيلٌ، رُغَمَ جَمِيعِ مَظَاهِرِ الْاِحْتِفَالِ وَالْبَذَخِ فِي تِلْكَ الْأَمْسِيَّةِ.

بَدَا دَسِمُسُ قَالِيْرِيَانِ شَارِدًا وَشَاحِبًا. وَكَانَتْ فِيْبِي قَالِيْرِيَانِ قَلِقَةً عَلَيْهِ بِوُضُوحٍ، إِلَّا أَنَّهَا حَاوَلَتْ أَلَّا تُزَعِّجَهُ بِاسْتِفْسَارَاتِهَا. وَغَازَلَتْ أَوْكَتَافِيَا مَرْقُسَ بِجَسَارَةٍ، وَلَكِنَّهُ بَدَا بِرِمَا مُبَادِرَاتِهَا، نَاهِيكَ بِرَفَقَتِهَا ذَاتِهَا. وَقَدْ كَانَ لِضُحُكِ جُولِيَا حَاشِيَةً مِنَ التَّالِقِ الْمَفْرَطِ، رُغَمَ كَوْنِهَا مُصَمِّمَةً عَلَى أَنْ تَبْدُو سَعِيدَةً مِنْ أَجْلِ الْمَظَاهِرِ، وَلِمَنْفَعَةِ أَوْكَتَافِيَا أَكْثَرَ مِنْ مَسْرَّةِ عَائِلَتِهَا بِعَيْنِهَا. فَلَا أَحَدَ سِوَى كِلَاوْدِيُوسِ كَانَ مَخْدُوعًا، وَهُوَ كَانَ هَائِمًا فِي الْحُبِّ، خَافِلًا عَنِ كُلِّ شَيْءٍ مَا عَدَا جَمَالَ عُرُوسِهِ الْفَتِيَّةِ.

بَاتَتْ هَدَسَةُ مُهْتَمَّةً عَمِيقًا بِهَذِهِ الْعَائِلَةِ الَّتِي تَخْدُمُهَا. وَقَدْ صَلَّتْ بِلَا انْقِطَاعٍ لِأَجْلِ كُلِّ فَرْدٍ فِيهَا. وَكَانَتْ الْعَائِلَةُ فِي هَذَا الْاجْتِمَاعِ تَبْدُو مُتَقَارِبَةً جَدًّا، غَيْرَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِيهَا كَانَ يَشْدُو بِأَتْمَاهِ مُعَاكِسٍ، كَمَا كَانَ الْجَمِيعُ يَتَصَارِعُونَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَكُلٌّ مَعَ نَفْسِهِ أَيْضًا. أَكَّانَ مِنْ طَبِيعَةِ الرُّومَانِ أَنْ يَظْلُوهَا فِي عِرَاكِ كُلِّ حِينٍ؟ فَإِنَّ دَسِمُسَ، وَهُوَ رَجُلٌ عِصَامِيٌّ جَمَعَ ثَرَوَتَهُ بِيَدِهِ، يُكَافِحُ الْآنَ لِیُصْلِحَ مَا قَدْ جَلَبَهُ غِنَاهُ عَلَى وَلَدَيْهِ. وَفِيْبِي، الْوَقِيَّةُ دَائِمًا وَالْمُحِبَّةُ أَبَدًا، تَلْتَمِسُ الْعِزَاءَ وَالْبَرَكَةَ مِنْ أَصْنَامِهَا الْحَجَرِيَّةِ.

صَلَّتْ هَدَسَةُ لِأَجْلِ جُولِيَا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الْآخَرِينَ مُجْتَمِعِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاهَا جُولِيَا كَمِي تَخْدُمُهَا، وَجُولِيَا ضَحِيَّةً لِأَقْوَى سِمَاتِ الشَّخْصِيَّةِ لَدَى الْجَمِيعِ. فَقَدْ كَانَتْ مَالِكَةً لِإِرَادَةِ تُسَاوِي إِرَادَةَ أَبِيهَا، وَإِخْلَاصِ أَقْوَى مِنْ إِخْلَاصِ أُمِّهَا وَإِنْ كَانَ أَقْلُ انْتِقَائِيَّةً، وَشَغَفٍ مَشْبُوبٍ كَذَلِكَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ مَرْقُسَ يَمْتَلِكُهُ.

تَلَقَّى مَرْقُسُ بِفَتُورٍ مُغَازَلَةٍ أَوْكَتَافِيَا، وَهُوَ مُتَّكِيٌّ عَلَى أَرِيكَةِ بِقُرْبِهَا. وَاقْتَرَبَتْ إِلَيْهِ حَتَّى مَسَّتْ وَرِكَّهَا وَرِكَّهُ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً سُخْرِيَّةً، وَتَنَاوَلَ قِطْعَ بَيْضٍ بَعْدَمَا غَمَسَهُ بِكَبِدِ الْوَزِّ. لَقَدْ كَانَ لَهَا كَامِلٌ مَكْرٌ هَرِيَّةٌ تَمُوءُ!

عِنْدئذٍ سَاءَلَ مَرْقُسُ نَفْسَهُ عَمَّا كَانَتْ أَرِيَا تَفْعَلُهُ لِقَتْلِ الْوَقْتِ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ. لَقَدْ غَضِبَتْ حِينَ أَخْبَرَهَا أَنَّ أَبَاهُ رَفَضَ أَنْ يَدْعُوَهَا إِلَى الْعُرْسِ أَوْ إِلَى الْاِحْتِفَالِ بَعْدَهُ. وَاسْتَشَاطَتْ غَيْظًا بَعْدَ مَا عَلِمَتْ أَنَّ دُرُوسُسَ وَأَوْكَتَافِيَا سَيَحْضُرَانِ. وَكَانَتْ تَحْسِبُ دُرُوسُسَ مُجَرَّدَ عَامِيٍّ بَارِكْتَهُ إِلَاهَةُ الْحِطِّ. فَعَلَى غِرَارِ أَبِي مَرْقُسِ، اشْتَرَى دُرُوسُسَ جَنْسِيَّتَهُ وَمُحْتَرَمِيَّتَهُ.

وَقَدْ قَالَتْ لَهُ أَرِيَا أَمْسِ، إِذْ كَانَا مَعًا بَعْدَ حَضُورِهِمَا الْأَلْعَابِ: ”أَبُوكَ لَا يَعْتَقِدُ أَنِّي أَصْلِحُ لَكَ كَفَايَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟“

”إنه يعتقد أن معظّم الصّبايا في هذه الأيام مُتحرّرات فوق الحدّ.“
 ”طريقة مُهدّبة للقول إنه يحسبني أفضل بقليل من عاهرة عامّية. أبحسب أنّي أنا
 من أفسدتك، يا مرقس؟ أما كان ممكناً أن يحزر أن العكس قد حصل؟“
 فضحك مرقس. ”إنّ شهرتك سبقت شهرتي كثيراً. وكان ذلك أحد الأسباب التي
 من أجلها طاردتك بجنونٍ بالغ، حتّى أتبين بما كان ذلك الحديث كله!“ ثمّ قبلها متواثياً.
 غير أنّها لم تتحوّل عن الموضوع. ”ماذا تقول جوليا بشأن هذه الترتيبات كلها؟“
 تنهد مرقس برماً، وقال محاولاً أن يُعيد الاشمزاز عن صوته: ”لقد قبلت ما لا بدّ منه.“
 ”يا لها من بنتٍ مسكينة! إنني أشفقُ عليها.“ وكان في صوتها رنةٌ سُخرية ضايقت
 مرقس. ”ستكون أفضل بقليل من أمةٍ تملوكة حالمًا تُعلن التّعهدات ويتبادل العروسانِ
 أقراصَ الخنطة أمام الكهنة. لن تكون لها أيّ حقوقٍ أبداً.“
 ”إنّ كلاوديوس لن يُعاملها بالعسف.“
 ”ولن يُثيرها أيضاً.“

راقب مرقس كلاوديوس وأخته على الأريكة الأولى. كان جليلاً أنّ كلاوديوس مفتون.
 فإنه تأمل كلّ ما فعله جوليا، بانتشاهٍ بين لكلّ شخصٍ بين الحُضور أنّه هائمٌ حبّاً. أمّا جوليا
 فقد اعتراها الدوار، لا لأنّها كانت مسرورةً بزواجها، بل لأنّ أخنوخ ظلّ يملأ كأسها بالنبيذ
 المعسول. فإذا سكرت، فلن تشعرَ بأيّ ألم، ولا بأيّ سرور.

وقفت هُدسةً جانباً، كعادتها دائماً، سُكوناً في خِصمّ الفوضى. وقد أطلقت نظراتها
 المحمّلة ما بين العائلة والضيوف. وإذ راقبها مرقس، خمّن مشاعرَها مُجاهةً كلّ شخص:
 الاهتمامُ مُجاهةً أبيه، الإعجابُ مُجاهةً أمّه، العطفُ مُجاهةً جوليا، الفُضولُ بشأن كلاوديوس.

ترى، مِمّ شعرت من نحوه هو؟

لم يكن قد تكلم إليها منذ الليلة التي فيها راقبها وهي تُصلّي، مع أنّه أينما كانت جوليا
 فهنالكَ كانت هُدسةً أيضاً. وهو ما سمعها قطّ تقول أكثر من كلمةٍ أو اثنتين، رُغم قول جوليا
 إنّها كثيراً ما كانت تحكي قصصاً مُسليّة عن شعبها. وقد حكّت قصّةً عن طفلٍ لعبدين تركّ
 بين نباتات حلفاء النّيل، ثمّ عثرت عليه أميرةٌ مُلوكية. ودارت قصّةً أخرى حول عبرانيّةٍ
 صارت ملكةً بلادِ فارس وأنقذت شعبها من الإبادة. كما تحدّثت قصّةً أخرى بعدُ بشأن واحدٍ
 من رجال الله طُرِحَ في جُبّ أسود، ومع ذلك بقيّ حيّاً بعد ليلةٍ كاملةٍ قضاها هناك سليماً من

أيّ أذى. وقد عدّ مرقس حكايات الفتاة مُجَرَّدَ قِصَصٍ بَسِيطَةٍ لِقَتْلِ عَصْرِ نَهَارٍ طَوِيلٍ وَمُضْجِرٍ. إِلَّا أَنَّهُ عِنْدَمَا رَاقَبَهَا كَادَ يَتَمَنَّى لَوْ اسْتَطَاعَ الْفِرَازَ مِنْ هَذَا الْاِحْتِفَالِ، وَالذَّهَابَ إِلَى الْحَدِيقَةِ مَعَهَا، لِيَسْمَعَ قِصَصَهَا بِنَفْسِهِ. أَتَحْكِي لَهُ إِحْدَاهَا، أَمْ تَقْعُدُ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ مُرْتَجِفَةً خَوْفًا مِنْهُ، كَمَا فَعَلْتَ آخِرَ مَرَّةٍ كَانَا هُنَاكَ؟

أَحْسَتْ حَمَلَقَتَهُ، وَالتَفَتَتْ نَاحِيَتَهُ، فَالتَقَّتْ عَيْنَاهَا الدَاكِنَتَانِ عَيْنِيهِ لِحَيْطَةً، مُسْتَفْسِرَتَيْنِ. وَرَفَعَ يَدَهُ قَلِيلًا، فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ حَالًا. ”نعم، سيّدي؟“

كَانَ صَوْتُهَا رَقِيقًا وَعَذْبًا، وَقَدْ أَبَدَتْ سِيْمَاءَ الْجَارِيَةِ، مُنْتَظِرَةً الْأَمْرَ بِلا حَرَكَ. فَبَدَأَ عَلَيْهِ الْاِسْتِيَاءُ غَيْرُ الْمُبْرَّرِ، وَإِذْ نَسِيَ وَجُودَ أَوْكَتَافِيَا بِجَانِبِهِ عَلَى الْأَرِيكَةِ سَأَلَ هَدْسَةَ: ”أَمَا زِلْتِ تُصَلِّينَ لَيْلًا فِي الْحَدِيقَةِ؟“

وَقَالَتْ أَوْكَتَافِيَا سَاخِرَةً: ”الْيَهُودُ يُصَلُّونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِقَلِيلٍ مِنَ الْخَيْرِ.“

انْقَبَضَ فَمُ مَرْقُسُ إِذْ غَدَّتْ قَسَمَاتُ وَجْهِ هَدْسَةَ أَكْثَرَ تَحِيَّجًا بَعْدَ. وَوَدَّ لَوْ لَمْ يَسْأَلْهَا عَنْ أَمْرِ شَخْصِيٍّ كَهَذَا، عَلَى الْأَقْلَى لَيْسَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ. وَاسْتَرْسَلَتْ أَوْكَتَافِيَا فِي اسْتَهْزَائِهَا بِالْيَهُودِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكْتَرِثْ بِهَا، بَلْ قَالَ: ”مَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ فِي الْوَالِيْمَةِ، يَا هَدْسَةَ؟“ وَكَأَنَّمَا كَانَ ذَلِكَ غَرَضُهُ الْوَحِيدَ مِنْ اسْتِدْعَائِهَا. فَلِمَاذَا اسْتَدْعَاها؟

تَكَلَّمْتُ بِوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، سَارِدَةً الْأَطْعَمَةَ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا فِي الْوَجْبَةِ الرَّئِيسِيَّةِ. ”لَحْمٌ غَزَالٍ أَسْمَرٌ مَشْوِيٌّ، سَمَكٌ الْجَلْكِي مِنْ مَضِيقِ صِقْلِيَّةٍ، حَمَامٌ مَشْحُوٌّ بِلَحْمِ الْخَنْزِيرِ وَحَبِّ الصَّنُونْبَرِ، كَمَاةٌ، تَمْرٌ أَرِيحَا، زَيْبٌ، تَفَاحٌ مَسْلُوقٌ بِالْعَسَلِ، سَيِّدِي“. وَقَدْ كَانَتْ لَهْجَتُهَا شَبِيهَةً بِلَهْجَةِ بِيثِيَّةٍ وَهِيَ تَتَكَلَّمُ إِلَيْهِ أَمَامَ أُمِّهِ. وَلَكِنْ حِينَ يَكُونَانِ وَحِدَهُمَا، يَكُونُ صَوْتُ بِيثِيَّةٍ أَغْنَى وَأَعْمَقُ بِكَثِيرٍ. تَأْمَلُ فَمَ هَدْسَةَ الْجَمِيلِ الشَّكْلِ، وَقَنَاةَ حَنْجَرَتِهَا النَحِيلَةَ حَيْثُ كَانَ نَبْضُهَا يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ، ثُمَّ دَاخِلَ عَيْنَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ. وَهِيَ لَمْ تَتَحَرَّكَ، غَيْرَ أَنَّهُ شَعَرَ بِهَا تَنَأَى عَنْهُ. هَلْ رَأَتْهُ كَأَسَدٍ وَهِيَ الْفَرِيسِيَّةُ؟ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْ لَهَا أَنْ تَخَافَ مِنْهُ. ”أَنْتِ ذَاهِبَةٌ بِصُحْبَةِ جُولِيَا إِلَى كَابُوَا؟“

”نعم، سيّدي.“

خَالَجَهُ شَعُورٌ بِالْخَسَارَةِ، وَضَايِقُهُ الْأَمْرِ. ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ قَلِيلًا، أَمْرًا إِيَّاهَا بِالْاِنْتِصَافِ.

”إِنَّهَا عَادِيَّةٌ جَدًّا. لِمَاذَا اشْتَرَيْتَهَا أُمَّكَ أَصْلًا لِأَجْلِ جُولِيَا؟“

عَادِيَّةٌ؟ نَظَرَ مَرْقُسُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى هَدْسَةَ إِذْ اِحْتَلَّتْ مَكَانَهَا عِنْدَ الْحَائِطِ. بَسِيطَةٌ، رَمًّا.

روما

هادئة، يقيئاً. ولكنها اتسمت بحسنٍ لم يستطع تحديده، بشيءٍ يسمو على ما هو مادّي. ”إنّها تخلو تماماً من الغرور“ .

”كما ينبغي لكلّ عبدة أن تكون“ .

فقال بجفاء: ”وهل إثيوبيّتك كذلك؟“

أحسّت أوكتافيا التعلّق اللّاذع، وغيّرت الموضوع. وإذ غمّس مرقس أصابعه في كبد الورز، ترك حديثها يَنهال عليه. فقد كان فكره في الألعاب، وهي تعرف أكثر ممّا ينبغي لسيدة عن بضعة مُحاربين. وبعد دقائق قليلة، صَجَرَ منها مُجدِّداً، وأخذ يُصغي إلى الحديث الدائر حوَالِيه، إلّا أنّه استطاع أن يشعر بقليلٍ من الاهتمام بكَروم كلاوديوس وبساتينه.

قَدّم لَوْن الطّعام الرئيسيّ، ووجد نفسه مُراقباً هَدَسَةً من جديد وهي ترفع طبق ضُروع الخنزيرة وتضع آخرَ فيه لحمٍ غزالٍ أَسَمَرَ أمام جوليا وكلاوديوس. لا أحدٌ بدا مُلاحظاً إيّاها أبداً- لا أحدٌ سواه هو- وقد أحسّ حضورها بكلِّ عِرْقٍ من عُرقه.

أكان ذلك فقط لكونه سَتِيماً وطالِباً السُلوان؟ أيّ سلوان؟ أم كان فيها بالحقيقة شيءٌ يفوق العادة، شيءٌ تحت سطح ما هو مألوف؟ ذلك هو ما تساءل عنه كلُّما رآها.

عندما رفعت صينيّة المُقبّلات عن طاولته، راقبَ يديها القويّتين الهزليتين. وإذ سارت مُبتعدةً، تَرَجَرَجَتْ حَمَلَقْتُهُ على تمايلٍ وَرَكِيها النحيلتين تمايلاً لطيفاً. إنّ سِتَّةَ أشهرٍ في حوزتهم قد حَوَّلَتِ البنتَ اليهوديّة الصّغيرة المهزولة إلى شابّةٍ صالحةٍ للزّواج ذاتِ عَيْنَيْنِ دَاكِنَتَيْنِ جميلتين تَكْتَنِفُهُمَا الأسرار.

لقد عَلِمَ أنّ هَدَسَةَ كَانَتْ في مِثْلِ سنِّ جوليا تقريباً، ممّا يجعلها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. فماذا خطر في بالها عندما رأت سيّدتها تتزوَّج؟ هل تَأَقَّتْ إلى زوجٍ وعائلةٍ يَخْصَانها هي؟ لم يكن نادراً أن يتزوَّج العبيدُ البيثيون. فهل كان في هذا البيت شخصٌ حَظِيّ باهتمام هَدَسَةَ؟ إنّ أخنوخ هو اليهوديُّ الوحيد هنا، وهو كبيرُ السنِّ بحيثُ يصلحُ أن يكون أباً لها. أمّا العبيدُ اليهود الآخرون الذين اشتراهم الوالد فقد أرسلوا إلى العزبة في الرّيف.

عدّلت هَدَسَةَ الصّينيّةُ أمام جوليا كي تصير اللّقمُ الأشهى في مُتناوَلِ يَدِها. وإذ انحنّت، تأمّلَ مرقس كاحليها الرقيقين وقدميها الصّغيرتين المُصنّدتين. ثمّ أغمض عينيه. لقد بقيت على قيد الحياة بعد خرابِ بَلَدِها وهلاكِ أهلها. وقد سارت أكثر من ألفٍ وخمسة مئة كيلومتر على بعضٍ من أَحْسَنِ أراضي الإمبراطوريّة. كما عاينتُ وَخَبَرْتُ أشياءَ ليس في وَسْعِه إلاّ تصوُّرها فحسب. إنّ أَرَادَ ذلك... وهو لم يُرد.

كَانَتِ الموسِيقَى المَهْدِئَةُ تُرْعِجُ أعصابه. لم يستطع أن يطرد من رأسه فكرة مُرافِقَةِ هَدَسَةِ لأخته إلى كايوا. وماذا يهيمُ إذا ذهبت إلى هناك؟ فماذا كانت هي بالنسبة إليه سوى عبدة في بيت أبيه، عبدة تتخدمُ أخته؟

عندئذٍ رقصت بيثية، فألتهته إلى حين بحركاتها المَتموجَّة وتدوير أوشحتها المتهدلة الزاهية الألوان. وأثارَت دُروسس، إن لم نُقل كلاوديوس الرزين، القلقُ جدًّا على عروسه المَترنحة سكرًا الآن. أمَّا مَرُقُس فكان في مرارة. إذ أمرضته فكرة وجود أخته برفقة زوجها الهريم؛ وأكابته فكرة الافتقار إلى حضور هَدَسَةِ الهادئ في أرجاء البيت.

عزف الموسيقيون فيما أنشد شاعر، وقُدِّم اللون الأخير: كعك نبيذ حلو وبلح محشو جزوا. في هذا البيت فقط كان مَرُقُس يشعر بالعجز. فهو ما زال تحت رعاية أبيه المُستبد. لقد كان ابنًا لا رجلًا مُستقلًا. وكانت له إرادة ذاتية شرسة، تسببت بمعاركهما المتواترة. ولئن علم مَرُقُس أن الموت سيجعله مُنصرًا ذات يوم، فإن ذلك لم يكن نوع النَّصر الذي انتظره مُتلهفًا. ومع أنهما نادرًا ما اتفقا، كان يحبُّ أباه. وقد كانا مُتشابهين جدًّا، صَوَانة تحكُّ صَوَانة. وكان دَسِمُس قد تسلَّق طريقه بأظفاره، من بحارٍ إلى تاجرٍ غني. وبات له الآن أسطول كبير. ولمَّا لم يقنع مَرُقُس بالوضع الرُّاهن، أراد أن يتوغَّل أبعد. أراد أن يأخذ ثروة أبيه ويُنوع استثمارها في مَشاريع ومَناطقٍ أخرى، بحيث لا يعتمدُ ثراء العائلة فقط على رضى نيتون أو مارس، إلهي البحر والحرب. وحتى الآن كان أبوه قد قاومَ ومبقيًا الزمام بيده، رُغم جنبي مَرُقُس أرباحًا ضخمة من السفن السَّت التي أعطاها أبوه إيَّاهَا حتى يُديرها. وقد استثمر تلك الأرباح في الخشب والغرانيت والرُّخام وإنشاء المباني. وداعبت رأسه فكرة الاستثمار في الأحصنة الأصيلة التي كان تُربِّي للسباقات.

في الحادية والعشرين، كان مَرُقُس قد أصاب نجاحًا لافتًا وحظيَ باحترام رفاقته. وفي الخامسة والعشرين، سيفوقُ أباه غنى ومقامًا. فربما عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - سيُدرك دَسِمُس قاليريان أن التقليد والقيَم البائدة يجب أن تُخلى الساحة للنجاح.

رجعت هَدَسَةُ إلى المطبخ بعدما صرفها كلاوديوس لذلك المساء. وقد لمحت النظرة في عيني جوليا: شرارة غَضَبٍ حيال تجرئه على صرفِ خادمته الشخصية... ثم خوفٌ عذراء ساذجة.

أطلق سيجانُس هَدَسَةَ إلى العمل في غسل الأواني والقدور. وأرسل العبدتين الأخرين لتنظيف الطاولات في غرفة السفرة، إذ كان الضيوف قد غادروا لبيتوا ليلتهم. وكان ما يزال متألماً جدًّا من ملاحظات أخنوخ، فقال: "أعتقد أن عليك أن تغتسلي بمياهٍ أظهر بعد غسلك

روجا

هذه القدور“. ثم أضاف: ”أيديك فقط، أم عليك أن تغتسلي من رأسك حتى قدميك أيضاً، لكي تتيقني حقاً أنك يهودية صغيرة طاهرة وحسنة من جديد؟“

عصت على شفيتها، وبادتته النظر، مستمعة إلى التأدي وراء سؤاله اللاذع. وابتسمت له متمنية لو كان يستطيع أن يفهم. ”أنا متأسفة لأنك أهنت، يا سيجانوس. لقد كان كل شيء شهياً والنظر والرائحة. فجوليا والآخرون تلذذوا بكل قضة“.

أخذ سيجانوس القدر التي غسلتها، وعلقها. ”لماذا ينبغي أن تعتذري عما قاله؟“

”أخنوخ مقيّد بالشرعة. ولو لم يظن أنني على وشك مخالفتها، لما قال شيئاً“.

هدأ خاطر سيجانوس، وأخذ يراقبها وهي تغسل الأواني ثم تحققها وتضعها في أماكنها. لقد أعجبته هذه العبدة الصغيرة السن. فعلى خلاف الأخرى اللواتي وجب أن يقال لهن ما يفعلن، كانت هي ترى ما يحتاج إلى تسوية، وتقوم بالأمر. وقد قصت الأخرى وقتاً طويلاً في تأدية واجباتهن، متذمرات من كل شيء. أما هدسة فكانت لا تتذمر من شيء، وتخدم كما لو كانت الخدمة مسرّتها. وقد كانت تتعلم بسرعة، بل تساعد غيرها أيضاً متى سمح الوقت.

قال سيجانوس: ”لقد فصل كثير. بيثية والبنات الأخر سبعن وأخلدن إلى النوم. والموسيقيون وكل شخص سواهم قد أكلوا أيضاً... الجميع ما عدا أخنوخ، فليمت من الإمساك عن الطعام! اقعددي وكلي شيئاً. كل ما تناولته الليلة هو الخبز. خذي شيئاً من الجبن والخمر“. ثم قعد على البنك بمحاذاة الطاولة. ”تذوقني صرع خنزيرة. أعرف أنك لم تتناولي في حياتك طعاماً شهياً كهذا. أي ضرر يمكن أن يحدث هذا لك؟“

لا ضرر على الإطلاق، كما كانت هدسة تعلم جيداً، ليس من منظور أن ذلك قد يُنجسها. فإن ما يُنجسها ليس ما تدخله فمها، بل ما يخرج من فمها، سواء كلام فظ أم اغتياب، أم قيل وقال، أم كلام تباه أو تمجيد. ومع ذلك لم يكن في وسعها أن تأكل من هذا الطعام لأن أخنوخ الذي ما زال عائشاً تحت الشريعة اليهودية كان يعافه. وهو قد أنقذها من ساحة المحاربين، وجاء بها إلى هذا البيت الجميل، إلى هؤلاء القوم الذين باتت تحبهم، وكان أختا لها من بني جنسها. فأن تأكل من هذا الطعام أمر يهينه ويسيء إليه؛ وما كان في وسعها أن تفعل ذلك مهما تحلب فمها لأجل شيء يسير تذوقه.

غير أنها كانت تحسب سيجانوس صديقاً أيضاً. وأن ترفض تذوق ما اجتهد كثيراً في صنعه أمر يؤلمه أيضاً. فنظرت إلى وجهه من جديد، وأدركت أن هذا كان امتحاناً لإخلاصها.

وقد كان أخنوخ مُخاشِئاً ومُتَكَبِّراً، وباراً في عين نفسه بعضَ الأحيان. ولكنه أثبت أنه عطوفٌ وجريءٌ، إذ خاطَر بنفسه كي يُنقِذها مع الرجال الستة الذين أتى بهم إلى هذا البيت. وكان سيجائس متكبِّراً بالمثل ومُبادراً إلى الاستياء والهجوم. ولكنه أيضاً كان كريماً ومريحاً، يحكي الطُرفَ للعبادات في أثناء العمل.

كانت رائحةُ الطعام شهيةً جداً، حتَّى مُعِصَت مَعِدَةُ هَدَسَةَ من الجوع. فإنَّها لم تُكنْ قد أكلتْ منذ الصباح الباكر. وكان الإغراءُ بالأكل من هذه الأطايب شديداً، إلا أنْ أخنوخ كان يهملها كثيراً.

ثُمَّ قَالَتْ معذرةً: ”لا أستطيع!“

فقال مُشتمِّراً: ”بسبب شريعتك اللعينة.“

”أنا صائمة، يا سيجائس“. من شأنه أن يفهم هذا. فحتَّى الوثنيون يصومون.

قال: ”من أجل جوليا! ألا يكفي أنك تُصلين لأجلها كلَّ حين؟ فلماذا تتركين طعامك أيضاً؟ إنَّ الصُوم لن يُلينَ قلبها. حتَّى اثنتا عشرة ذبيحةً دمويَّةً لن تُنجِزَ ذلك!“

ثُمَّ مَضَتْ وغسَلت الأوانيَ الباقية، غير راعيةٍ في الإصغاء إلى انتقاده لسيدتها. إنَّ في جوليا عيوباً. فقد كانتْ أنانيَّةً ومغرورة. وأيضاً كانتْ جميلةً وناضجةً بالحياة والحيويَّة. وقد أَحَبَّتْها هَدَسَةُ وخافَتْ عليها، إذ كانتْ مُتلَهِّفةً جداً إلى السَّعادة.

لم يسبقْ لهَدَسَةُ أن وُجِدَتْ بينَ ناسٍ مثلِ آلِ قَاليرِيان، لديهم كثيرٌ جداً لكنْ قليلٌ جداً. فقد كانوا بحاجةٍ إلى الربِّ، إلا أنَّها افتقرتْ إلى الشجاعة لإخبارهم بالأمر العجائبيَّة والعجيبة التي تعرفُها. وحاولتْ، غير أنْ الكلماتِ عُلِقَتْ في حَنَجرتها، وقد أبقاها الخوفُ صامتة. وكلِّما لاحَتْ فُرْصة، تذكَّرتْ ساحاتِ المحارِبِ على طول الطريق من مدينة القدس، وسمعتْ من جديدِ صراخِ الرُّعبِ والألمِ ذلك الذي انتابَ لياليتها أحياناً. لن يُصدِّقَ أيُّ فَرِدٍ في هذا البيت أنْ أباهَا قد ماتَ ثُمَّ أقامه السيِّدُ المسيحُ حيًّا، ولا حتَّى أخنوخ الذي كان يعرفُ الله. فما سيفعلونه هو أن يحكموا عليها بالموت.

وفكَّرتْ يائسةً: ”لماذا أبقيتني حيَّة، يا ربِّ؟ أنا عديمة النِّفع لهم“. مع أنَّها حَكَّت لجوليا قِصصاً حكاها أبوها لها في الجليل، فإنَّ جوليا تسلَّتْ بها فحسب، ولم تسمعْ أيَّ دورس فيها. فكيف يمكنُ أن تختارَ جوليا الحقَّ إنْ لم يكنْ لها أذنان تسمعانه؟ كيف يمكنُ أن تطلبَ السيِّدَ المسيحَ إنْ لم تشعُرْ باحتياجها إلى مُخلِّصٍ؟ فإنَّ جوليا لم تفهم، رُغمَ القِصص التي حَكَّتْها هَدَسَةُ لها، تلك القِصص التي وردتْ في الأسفار المقدَّسة عن تدخُّلِ الله لأجل

شعبه. وقد كانت جوليا مقتنعةً بأنَّ كلَّ فردٍ قد وُضِعَ على هذه الأرض لكي يمتلك كلَّ ما استطاع وكى يفعلَ ما يحلوه له. فليس فقط أنَّ جوليا لم تشعرُ بحاجتها إلى مُخلَّص، بل إنَّها لم تُردِ مُخلَّصًا في الأساس.

رأتُ هَدَسَةَ الثروة والرِّفاهية اللّتين تتمتع بهما آلُ فاليريان لعنةً عليهم. فبسبب من ذلك كلِّه، لم يشعروا بأية حاجةٍ إلى الله. كانوا ينعمون بالدِّفء والطَّعام الفاخر واللباس الأنيق والمسكن الفخم. وكانوا يستمتعون بالاستجمام والتسليّة الوافزين، وفي خدمتهم حاشيةٌ كبيرةٌ من العبيد. وفيبي وحدها تعبدت لآله ما، وقد خصّصت بتقواها آلهةً من حجرٍ لا يمكنُ أن تُعطىها شيئًا في المقابل، على الأقلِّ السلام والفرح.

هزّت هَدَسَةَ رأسها أسفًا. وتساءلت: كيف نصلُ إلى أشخاص لا يشعرون بحاجةٍ إلى مُخلَّص أو برغبةٍ فيه؟ ربّاه، ماذا أفعل لأجعلهم يدرِّكون أنَّك ههنا في حديقتهِم، وأنَّك مُقيمٌ في بيتهم، إنَّ لم يكن في قلوبهم؟ إنني عاجزة. إنني جبانة. إنني أخذلُ جوليا، يا رب. إنني أخذلهم كلَّهم. فورا الالبتسامات والضحك، هم هالكون. يا إلهي، ما أعظمك! إن آلهة روما وإلهاتها أجمعين لا يستطيعون إقامة نفسٍ واحدة من بين الأموات، كما قد فعلت أنت. ومع ذلك، فإنَّ هؤلاء القوم لن يؤمنوا.

أقبل سيجانُس إليها قائلاً: "لم أقصد أذيتك". لقد شاهدت أمارات الضيق تُجهِّم وجهها في غضون الدقائق القليلة الماضية، وأحسَّ أنه ملوم. كان اعتباره لجوليا ضئيلاً، وما أكثر ما سمعها تزعق في نوبة غيظٍ وقد أفسدت العاطفة الجامحة وجهها الجميل! ولكن - لسببٍ لا يُعلَّل - كانت هذه الفتاة العبدة تحبُّها وتخدمها بتفانٍ مُقترنٍ بالمحبة. فقال محاولاً أن يبدو معزياً: "لا داعي لأن تقلقي بشأن جوليا. ستجدُ طريقها الخاصَّ".

"ولكن هل يؤتيها طريقها السلام؟"

فقال سيجانُس ضاحكاً: "السلام؟ ذلك آخر شيءٍ تُريده جوليا. إنَّها تُشبه أخاها كثيراً، سوى أنَّ مرقس يفوقها ذكاءً إلى أقصى حد. إنَّ له دهاءً أبيه، دون أدنى ذرةٍ من أخلاقيّاته". ثمَّ أضاف بسرعةٍ مُلتبساً له عُذراً: "ليس العيبُ عيبَ مرقس، بل هو عيبُ الثورات. فقد رأى كثيرين جدًّا من أصدقائه يُقتلون أو يؤمرون بأن يَنتحروا. ومما يُعقلُ أنَّه تبنى الفلسفة القائلة: «عش ليوملك، لأنك عدًا تموت»".

"إنَّه لا يبدو مُطمئنًا".

"أفي هذا العالم شخصٌ واحدٌ مُطمئنٌ؟ إنَّ الأغبياء والأموات وحدهم مُطمئنون".

أخزرت هُدسَة الأعمال التي طلبها سيجانُس منها، وانتظرت أن يكلفها القيام بشيءٍ آخر بعد. ثم نظفًا معًا المناصِد، وتخلّصًا من بقايا الطّعام، وغسلا الأطباق ولعاعها، ووضعها في أماكنها. وقد تحدّث سيجانُس بفخر بشأن بلاد اليونان.

”الرومان يملكون العالم، ولكنهم يحسدون اليونانيين. فالرومان فقط يعرفون كيف يخوضون الحروب. إنهم لا يعرفون شيئًا عن الجمال والفلسفة والدين. وما لا يسرقونه، يُقلّدونه: ألّهتنا وإلهاتنا، هياكلنا، فننا وأدينا. وهم يدرسون فلاسفتنا. ربّما يكونون قد انتصروا علينا، ولكننا نحن قولبناهم من جديد.“

سمعت هُدسَة الفخرَ تمزّوجًا بالغيظ.

ومضى سيجانُس يقول: ”هل عرفت أن السيّد ولد في أفسس؟ كان ابن تاجر فقيرٍ يقرب الميناء. وبفضل براعته، جعل نفسه رجلًا عظيمًا. وقد اشترى جنسيته الرومانيّة“. ثمّ علّق مُبرّرًا الخيانة: ”كانت تلك خطوةً حكيمة. فعندما فعل ذلك، تجنّب بعض الضرائب وكسب امتيازات اجتماعيّة لنفسه ولعائلته.“

كانت هُدسَة على علم ببعض تلك الامتيازات. فإن الرسول بولس أطلق من السجن غير مرّة بفضل جنسيته الرومانيّة. ثمّ إذا كان لا بدّ أن يموت المرء، فإن يموت سريعًا بضريّة سيف أفضل من أن يموت مُعلّقًا على صليب. ذلك أن حاملي الجنسيّة الرومانيّة كانوا يُعدّمون برحمة. فبولس قُطع رأسه، في حين أن بطرس، الجليلي، صلب مقلوبًا رأسًا على عقب، بعدما أرغم على مُشاهدة زوجته تُعذب ثم تُقتل.

ارتعدت هُدسَة. كان في وسعها أحيانًا أن تنسى المشهد المَهول الذي ظهرت فيه آلاف الصُّلبان مُقابل أسوار مدينة القدس. أمّا هذه الليلة، فقد رأتها مرّة أخرى، مع وجوه الرجال المُعلّقين عليها. وتمتّ لسيجانُس ليلة سعيدة، بعدما قالت: ”عليّ أن أحزم بعض الأمتعة نهائيًا للسيدة جوليا.“

كان مصباح الزيت في غرفة نوم جوليا ما يزال مُضاءً. وكانت أربعة صناديق قد أقيمت بعدما ملئت تمامًا. وقد بقي صندوقان آخران مفتوحين. فالتقطت هُدسَة تِنكًا أزرق باهتًا وطوّته بترتيب، ثمّ وضعته فوق آخرَ أصفرَ موضوع في الصندوق أصلًا. وأخرجت باقي ممتلكات جوليا وصرتّها. ثمّ أطبقت الصندوقين وأقفلتُهما. ووقفت مُستقيمةً، وأجالت نظرها في أنحاء الغرفة. ثمّ تنهّدت، وقعدت على كرسيّ بلا ظهر.

قالت فيبي من المدخل: ”الأمر عقيم، أليس كذلك؟“ ورأت فيبي العبدّة الفتيّة

Log

تَجْفِلُ إِذْ فَوْجَتْ. وَقَدْ بَدَتْ ضَمِيلَةً وَبَائِسَةً، وَهِيَ جَالِسَةٌ وَالصَّنَادِيقُ الْمُقْفَلَةُ حَوْلَهَا. فَوَقَفَتْ حَالًا، وَوَاجَهَتْ سَيِّدَتَهَا. وَقَالَتْ فِيبِي: "تُرَى، كَيْفَ حَالُهَا اللَّيْلَةَ؟" ثُمَّ دَخَلَتْ الْعُرْفَةَ. وَقَالَتْ هَدْسَةَ: "نَعَمْ، سَيِّدَتِي!"

فَابْتَسَمَتْ فِيبِي، وَقَالَتْ مُتَنَهِّدَةً: "لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنَامَ. إِثَارَةٌ فَوْقَ الْحَدِّ. إِنِّي أَتَقَدَّمُ مِنْذُ الْآنَ. وَقَدْ بَدَوْتُ كَمَا لَوْ كُنْتُ تَفْتَقِدِينَهَا أَنْتِ أَيْضًا." وَبَادَلَتْهَا هَدْسَةُ الْإِبْتِسَامَةَ: "إِنَّهَا مُفَعَّمَةٌ بِالْحَيَاةِ إِلَى أَقْصَى حَدِّ."

مَرَّرَتْ فِيبِي يَدَهَا عَلَى سَطْحِ مِرْيَنَةَ جُولِيَا النَّاعِمِ، وَقَدْ بَاتَ مُجَرَّدًا مِنْ مُسْتَحْضَرَاتِ تَجْمِيلِهَا وَعَطُورِهَا وَعُغْلِبِ حُلَاهَا. ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا قَلِيلًا وَنَظَرَتْ إِلَى هَدْسَةَ. "سَيَّرِسُلُ كِلَاوَدْيُوسُ شَخْصًا يَأْخُذُكَ مَعَ أَغْرَاضِ جُولِيَا." "نَعَمْ، سَيِّدَتِي."

فَأَجَالَتْ نَظَرَهَا فِي الْعُرْفَةَ، قَائِلَةً: "رَبَّمَا قَبْلَ نَهَايَةِ الْأُسْبُوعِ. لَيْسَتْ الرِّحْلَةُ إِلَى كَابُوَا مُتَعَبَةً. فَعَلَى طُولِ الطَّرِيقِ مَنَاطِرٌ رَيفِيَّةٌ جَمِيلَةٌ. وَسَيَكُونُ لَكَ مُتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ لِإِفْرَاقِ أَغْرَاضِ جُولِيَا، وَالتَّحْضِيرِ لِقُدُومِهَا إِلَى بَيْتِهَا الْجَدِيدِ." "سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ حَاضِرًا لَهَا، سَيِّدَتِي."

"أَعْرِفِ ذَلِكَ". وَنَظَرَتْ فِيبِي إِلَى الْفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ، فَشَعَرَتْ بِدَفْءٍ غَامِرٍ تُجَاهَهَا. لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ الْفَتِيَّةُ لَطِيفَةً وَأَمِينَةً. وَمَهْمَا تَكُنَّ جُولِيَا مَشَاكِسَةً، فَقَدْ عَلِمَتْ فِيبِي أَنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ أَحَبَّتْ ابْنَتَهَا.

قَعَدَتْ فِيبِي عَلَى سَرِيرِ جُولِيَا، وَقَالَتْ: "حَدِّثْنِي بِشَأْنِ عَائِلَتِكَ، يَا هَدْسَةَ. مَاذَا كَانَ أَبُوكَ يَشْتَغَلُ لِكَسْبِ الرِّزْقِ؟" "كَانَ تَاجِرَ أَوَانٍ فَخَارِيَّةً، سَيِّدَتِي."

أَوْمَأَتْ فِيبِي لِهَدْسَةَ بِأَنْ تَقْعَدَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الصَّغِيرِ بِقَرَبِ السَّرِيرِ. "هَلْ كَانَ يَكْسِبُ مَا يَكْفِي لِعِيشَةٍ كَرِيمَةٍ؟"

لِمَاذَا كَانَتْ تَسْأَلُهَا أَسْئَلَةً شَخْصِيَّةً مِنْ هَذَا النُّوعِ؟ أَيُّ اِهْتِمَامٍ مُحْتَمَلٍ كَانَ بِمَكْنَأِ أَنْ تُثِيرَ لَدَى هَذِهِ السَّيِّدَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْأَنْيَقَةِ؟ مِنْ تَمَّ قَالَتْ: "لَمْ نَكُنْ نَجُوعُ قَطَّ."

"أَكَانَ يَصْنَعُ أَوَانِي الْفَخَّارِ أَمْ يَبِيعُهَا فَقَطَّ؟"

"صَنَعَ كَثِيرًا مِنْهَا، بَعْضُهَا بَسِيطٌ وَبَعْضُهَا جَمِيلٌ جَدًّا."

”كان مُجتهدًا وكادحًا، لكن مُبدعًا“.

”قصد إليه الناس من أقاليمٍ أخرى“. رُغم شرائهم بضاعته، كانت تعلم أنهم جاءوا بالأحرى كي يسمعو قصّته. وتذكّرت المرازِ الكثيرة التي فيها استمعت إليه مُتكلّمًا إلى غريبٍ جاء كي يسمع عن قيامته من الموت.

رأْتُ فيبي الدّمع يترقرق في عيني الفتاة العبدّة، فحزنت. ”كيف مات؟“
أجابته هدسة: ”لست أدري. خرج إلى الشارع كي يتكلّم إلى الناس، ولم يرجع قطّ.“
”كي يتكلّم إليهم؟“
”عن سلام الله“.

عبست فيبي. وكانت على وشك أن تقول شيئًا، ثم تردّدت. ”وأنتِ؟ أهي عائشة في مكانٍ ما؟“

فأجابته هدسة: ”لا، سيّديتي“. وأطرقت رأسها.

ورأْتُ فيبي الدّموع التي حاولت الفتاة إخفاءها: ”ماذا حدث لها؟ وللآخرين في عائلتكِ؟“

”ماتت جوعًا قبل بضعة أيام من استيلاء الفيالق الرومانيّة على مدينة القدس. كان الجنود ينتقلون من بيتٍ إلى بيتٍ ويقتلون الجميع. ودخل أحدُهم البيت الذي كنّا فيه، وقتل أخي. ولا أدري لماذا لم يقتلني أنا وأختي الصغيرة أيضًا.“
”ماذا جرى لأختكِ؟“

”أخذ الربُّ ليّنة في أوّل ليلة بعد وقوعنا في الأسر“.

أخذَ الربُّ... يا لها من طريقةٍ غريبةٍ للتعبير عن الأمر! تنهدت فيبي وأشاحت بنظرها. ثمّ قالت برقة: ”ليّنة... اسمٌ جميل“.
”لم تكن قد بلغتِ العاشرة من العمر“.

أغمضت فيبي عينها. فكّرت في ولديها اللذين ماتا بالحُمى. وغالبًا ما عزّت ضروبُ الحُمى المدينة، إذ كانت تُحيط بها المُستنقعات وتتعرّض تكرارًا للفيضانات البغيضة من نهر التّيبّر الكبير. وقد نجى بعضٌ من الحُمى، مثل دسّمس، إنّما ليعانوا نوبات البرّدية سنةً بعد سنة. وآخرون ألحّ عليهم السّعال حتّى نزفت رئائهم وماتوا.

لقد كانت الحياة غير مضمونة تمامًا، الأمر الذي أيّدته شهادة هدسة. إذ إنّها فقدت كلّ

مَنْ أَحَبَّتْ فِي الْقُدْسِ. وَلَطالما تَكَلَّمْتُ عَنْ سَلامِ اللَّهِ، وَلَكِنْ حَتَّى بُوْجودِ الأِلهَةِ لَمْ تَبْدُ أَيُّ ضَمَاناتٍ. فَمَهْمَا قَصَصْتُ فِيَّي من سَاعاتٍ كَثيرةٍ مُتَضَرِّعَةً إلى هَسْتِيا إِلهَةِ المَوْقَدِ، وَهيرا إِلهَةِ الزَواجِ، وَأَنيْنا إِلهَةِ الحِكمةِ، وَهَرَمَسِ إِلهِ السَّفَرِ، وَإِلى دَرِيزَةِ مِنَ الأِلهَةِ البِيتِينِ الأَخرينِ، لِأَجْلِ حَمايةِ أَحِبَّائِها، أَفَلَا يَمكُنُ أَنْ يَكُونَ هَناكَ إِلهٌ أَوْ إِلهَةٌ أَخرانِ أَكثَرُ قُوَّةً بِحِثِّ يَخِطِفانِهِم مَناها؟ حَتَّى دَسِسُوسَ كانَ في الوَقْتِ الرَاهِنِ مَريضاً وَمُحاوِلاً إِخفاءَ الأَمْرِ عَنِ الجَميعِ. وَقَدِ أَحْرَقَتِ الدُمُوعَ عَينِيا فِيَّي إِذِ أَطبَقْتَ يَدَيا بِشَدَّةٍ. أَكانَ يَعتَقُدُ أَنَّ في وَسِعِهِ إِخفاءَ أَيِّ شَيءٍ عَناها؟ وَضَعْتَ هَدَسَةَ يَدَها عَلى يَدِ فِيَّي، وَقالَتْ: ”أَنْتِ مُتَضايِقَةٌ، يا سَيِّدَتِيا“.

أَهدَشْتُ فِيَّي لِمسَةِ الفِتاَةِ الرَقيقَةِ. ”إِنَّ العالَمَ مَكانٌ شَديدُ التَقَلُّبِ، يا هَدَسَةُ. نَحُنُ في مَهَبِّ نَزَواتِ الأِلهَةِ“. وَتَهَدَّدتِ. ”وَلَكِنَّكِ تَعرِفينِ ذَلكَ، أَليسَ كَذلكَ؟ فَأَنْتِ قَدِ خَسرَتِ كَُلَّ شَيءٍ: العائِلَةُ وَالدِّيارُ وَالحُرِّيَّةُ“. وَتَأَمَلْتُ هَدَسَةَ في ضَوءِ المَصابِحِ: تَقوِيسَةُ خَدَّيَها الناعِمَةِ، عَينَها الدَكاكِنتَينِ، بَنيتَها النَحيِلَةَ. وَكانَتْ قَدِ رَأَتِ مَرَقَسَ يَناظِرُ إِلى الفِتاَةِ بِاِفْتِتانِ مُستَطَلعِ. لَمْ تَكُنْ هَدَسَةُ أَكبَرَ مِنَ جَولِيا بِأَكثَرَ مِنَ سَنةٍ، إِذِ كانَتْ في السادِسةِ عَشرةِ عَلى الأَكثَرِ، غَيرَ أَنَّها كانَتْ مَختَلِفَةً عَناها اِختِلافًا جَدرِياً. فَقدَ كانَ لَها تَواضُعٌ هادِئٌ مُكتَسَبٌ عَبرَ الأَلمِ. وَكانَ هَناكَ أَيضاً شَيءٌ آخَرَ... حَناؤُ حُلُوٍّ وَنادِرِ يُضِيا عَينَها الدَكاكِنتَينِ. وَلَعَلَّها، رُغَمَ عُمُرِها الغَرضِ، كانَتْ تَمَلكُ الحِكمةَ أَيضاً.

أَمسَكْتُ فِيَّي بِبَيدِ هَدَسَةَ بِشَدَّةٍ. ”إِنِّي أَعَهدُ بِابنِتي إِليكِ، يا هَدَسَةُ. أَطَلَبُ أَنْ تَسهَريَ عَليها وَتَعتَني بِها كَُلَّ حَينٍ. سَتَكونُ صَعبَةَ المِراسِ أَغَلَبَ الأَحيانِ، بَلِ رُبَّما قاسِيةً، مَعَ أَنِّي لا أَستَطيعُ أَنْ أَصدُقُ أَنَّها سَتَكونُ هَكذا عَن عَمَدِ أَبَداً. لَقدَ كانَتْ جَولِيا طِفلَةً لَطيِفَةً وَمُحِبَّةً جَداً. وَما زالَتْ هاتانِ الصِّفَتانِ في داخِلهِا. غَيرَ أَنَّها في أَمَسِّ الاِحتِياجِ إِلى صَديقةٍ- إِلى صَديقةٍ حَقيقِيَّةٍ، يا هَدَسَةُ، وَهي لَمْ تَختَرِ بِحِكمةٍ قَطَّ. لِهذا السَّببِ انْتَقِيتُكَ يَومَ أَحضَرَكَ أَخنوخُ إِليَنا مَعَ باقِيا الأَسرَى. فَقدَ رَأيتُ فيكَ إِنسانَةً قَدِ تَكونُ قادِرَةً عَلى الوَقوفِ بِجانِبِ ابنِتي في جَميعِ الأَحوالِ“. ثُمَّ تَفَحَّصتِ عَينَها. ”هَلِ تَعدِنيَ بِأَنْ تَفعَليَ ذَلكَ؟“

إِنَّ هَدَسَةَ، بِصَفتِها عَبدَةَ، لَمْ تَكُنْ تَمَلكُ حَياراً آخَرَ سَوى العَمَلِ بِمَشيئةِ سادِتها. غَيرَ أَنَّها عَلِمَتْ أَنَّ الوَعدَ الَّذي طَلَبَتهُ سَيِّدُتها لَمْ يَكُنْ وَعَداً يُقَطَّعُ لِذَلكَ السَّببِ وَحدَه. لَقدَ تَكَلَّمْتُ فِيَّي لِوقيانا فَالِيرِيانِ، وَلَكِنْ هَدَسَةُ أَحسَّتْ أَنَّ اللَّهَ نَفسَهَ كانَ مِنَ يَطَلُبُ مَناها أَنْ تَحبَّ جَولِيا في جَميعِ الأَحوالِ، مَهْمَا جَريَ مِنَ هَذا اليَومِ فَصاعِداً. لَنْ يَكُونَ ذَلكَ سَهَلاً؛ لِأَنَّ جَولِيا كانَتْ عَنيِدَةً وَأَنايَّةً وَطائِشَةً. وَقَدِ عَلِمَتْ هَدَسَةُ أَنَّها تَستَطيعُ أَنْ تَقولَ إِنَّها سَتَحاوِلُ. وَفي وَسِعِها أَنْ

تقول إنها ستبذل قصارى جهدها. فمن شأن أيّ الجوابين أن يُرضي السيّدة. غير أنّ كليهما لن يُرضي الربّ. أمشيئتك أم مشيئتي هي ما ستكون؟ هكذا سأل السيّد المُعلّم. فعليها أن تختار. لا غداً، بل الآن، في هذه الغُرّة، أمام هذه الشاهدة.

كانت فيبي تعلم تماماً ما طلبته. إذ يصعبُ عليها أحياناً أن تحبّ ابنتها بالذات، ولا سيّما في أثناء هذه الأيام الأخيرة التي فيها جعلت جوليا حياةً دسّمسّ عسّةً بانسةً جدّاً، مع أنّه كان يتصرّف في سبيل مصلحتها الخاصّة. وقد أرادت جوليا سلوك طريقها الذاتي مهما كان الثمن، إنّما هذه المرّة لم تنل مُبتغاها. ولمحت فيبي صراعاً في قسّمات وجه العبدّة الفتيّة، فسرها أنّها لم تُحبّ في الحال. فمن شأن جوابٍ سريع أن يصير عاجلاً وغداً منسيّاً.

أغمضتْ هدسّة عينيها وزفرتْ نفسها على مهل، ثمّ قالت برقةً: ”لكن إرادتك!“

شعرت فيبي بوجهٍ فرح لأنّ جوليا ستكون في عهدة هدسّة. لقد كانت تثقُ بهذه الفتاة، وفي هذه اللحظة شعرت نحوها أيضاً بحنانٍ عميقٍ وثابت. إنّ عبدةً مُخلصةً تُساوي وزنها ذهباً. وقد صدق حدسها بشأن شراء هذه العبرانيّة الصغيرة.

ثمّ نهضت فيبي. إذ مسّت خدّ هدسّة، ابتسمت لها من خلال دموعها. ”عسى أن يُباركك إلهك دائماً!“ ووضعت يدها على الشّعر القائم الناعم، كما تفعل أمّ، ثمّ غادرت الغُرّة بهدوء.



ركض أترتيس على الطريق، مُجَارِيًا سُرْعَةَ الْعَدُوِّ الْمُضْنِيَةِ الَّتِي حَافِظَ عَلَيْهَا ثَرَاكْسُ وَهُوَ مُتَمَطِّئٌ الْحِصَانُ بِقُرْبِهِ. وَقَدْ حَقَّرَهُ ثَرَاكْسُ وَشَجَّعَهُ بِالتَّبَادُلِ، مُسِكًّا بِزِمَامِ الْحِصَانِ لِيُيَقِّيَهُ يَعدُو عَلَى نَحْوِ ثَابِتٍ. وَصَهَلَ الْجَوَادُ الخَلَابُ رَافِعًا عُرْفَهُ الأَبْيَضَ بِغَضَبٍ، بُغْيَةً تَحْرِيرِ رَأْسِهِ، فِيمَا الأَثْقَالُ الَّتِي يَرْتَدِيهَا أترتيسُ تَغْدُو أَثْقَلَ مَعَ كُلِّ مِيلٍ يُقَطِّعُ. فَصَرَ الجَرْمَانِيُّ بِأَسْنَانِهِ مُحْتَمِلًا الأَلَمَ، وَوَاصَلَ السَّيْرَ فِيمَا جِسْمُهُ يَنْصَحُ عَرَقًا، وَعَضَلَاتُهُ تُجْهِدُ، وَصَدْرُهُ يَلْتَهَبُ.

تَعَثَّرَ أترتيسُ مَرَّةً، فَتَمَالَكَ نَفْسَهُ وَشَتَمَ هَامِسًا. مَزِيدًا مِنْ ذَلِكَ بَعْدُ، فَيَهْوِي وَيُخْزِي نَفْسَهُ. فَرَكَّزَ فِكْرَهُ عَلَى بُلُوغِ مَعْلَمِ المِيلِ التَّالِي، وَلَمَّا شَاهَدَ ذَاكَ المَعْلَمَ ثَبَّتَ ذَهْنَهُ عَلَى بُلُوغِ التَّالِي.

أَمَرَ ثَرَاكْسُ قَائِلًا: "قِفْ!" فَحَطَا أترتيسُ ثَلَاثَ خَطَوَاتٍ أُخْرَى وَتَوَقَّفَ. ثُمَّ انْحَنَى، وَتَمَسَّكَ بِرُكْبَتَيْهِ، وَسَحَبَ الهَوَاءَ إِلَى رَتْنِيهِ المَجْهَدَتَيْنِ جَدًّا.

قَالَ ثَرَاكْسُ بِخَزَمٍ: "أَسْتَقِمْ كَمَا تُكْمِلُ المَسِيرَةَ". وَرَمَى إِلَيْهِ مَطْرَةَ مَاءٍ.

قَلَبَ أترتيسُ المَطْرَةَ وَشَرِبَ بِلَهْفَةٍ مُرْطَبًا حَلَقَهُ الجَافَ. وَقَبَلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا مُعِيدًا إِيَّاهَا، رَشَّ مَاءً عَلَى وَجْهِهِ وَعَلَى صَدْرِهِ العَارِي. ثُمَّ أَعَادَ القَرِيْبَةَ وَتَمَشَّى ذَهَابًا وَإِيَابًا عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ حَتَّى تَبَاطَأَ نَفْسُهُ إِلَى مَعْدَلِهِ العَادِيٍّ وَبَرَدَ جِسْمُهُ مِنْ حَرَارَتِهِ المُتَقَدِّةِ.

قَالَ ثَرَاكْسُ مُكَشِّرًا: "لَقَدْ جَذَبْتَ الاِتِّبَاءَ، يَا أترتيسُ"، وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ نَحْوَ الجَانِبِ

الأخر من الطريق.

والتفت أترتيس عبر الطريق، فرأى شابَّتين في بستانٍ دَرَّاقٍ. كَانَتْ إِحْدَاهُمَا تَرْتَدِي

تُنْكَ كَتَّانٍ أبيضَ فَاخِرًا، وَالأُخْرَى تُنْكَا بُنْيَا وَثَوْبًا فَوْقِيًّا بُنْيَا أَبْهَتَ مَعَ زُنَّارٍ مَقْلَمٍ.

قَالَ ثَرَاكْسُ هَارِئًا: "إِنَّهَا وَاقِعَةٌ كَعَزَالَةٍ مُنْحَفِزَةٍ لِلْفِرَارِ. يَبْدُو أَنَّهُمَا لَمْ تَرَيَا قَطُّ رَجُلًا عَارِيًا

مِنْ قَبْلِ". وَضَحَكَ بِسُخْرِيَةٍ "لَا حِظَّ كَيْفَ تُحْمَلِقُ السَّيِّدَةَ".

كَانَ أترتيسُ أَكْثَرَ إِعْيَاءَ مِنْ أَنْ يَتَأَثَّرَ كَثِيرًا بِالاِتِّبَاءِ المَرِحِ مِنْ قِبَلِ شَابَّيَةٍ جَمِيلَةٍ، أَوْ يَهُودِيَّةٍ

صَغِيرَةٍ مَصْدُومَةٍ، أَوْ بِسُخْرِيَةِ اللَّائِنِسْتَا الَّذِي يُدْرِبُهُ بِشَأْنِ هَذَا الأَمْرِ. وَتَاقَى إِلَى بَنكِهِ وَبُرُودَةِ زَنْرَانْتِهِ.

وَقَدْ اسْتَرَاحَ كَفَايَةً لِاسْتِثْنَاءِ مَسِيرَةِ العُودَةِ، إِلاَّ أَنَّ ثَرَاكْسَ بَدَأَ فِي مِرَاجٍ يُتِيحُ لَهُ تَسْلِيَةَ نَفْسِهِ.

"انظُرْ إِلَيْهَا نِظْرَةً طَوِيلَةً جَيِّدَةً، يَا أترتيسُ. جَمِيلَةٌ، أَلَيْسَتْ هَكَذَا؟ سَلْتَلْقِي كَثِيرَاتٍ

مثلها حين تدخلُ ساحة المحاربين. فإنَّ نساءَ ذواتِ نشأةٍ أرسطوقراطيةٍ سيصطخبنَ للظفرِ بانتباهك. ورجالاً أيضاً. وسيعطبك الجميعُ أي شيء - الذهبَ والحلى وأجسادهم - مهما طلبت، وبأية طريقة طلبته.

وابتسمَ بفتور، ثمَّ أضاف: ”صاحبتني امرأة اعتادت أن تنتظرنني وأنا أقاتل. كانت تُريد مني أن ألمسها ويدي ما تزالان زلقتين بدم أحدهم قد قُتِلَ قِتْلَةً جيّدة. فإنَّ ذلك كان يُثيرُ شغفها حتّى الجنون“. وانقلبتِ ابتسامته إلى تكشيرة تهكم. ”ليتنى أعلم ما حلَّ بها!“ ثمَّ عطفَ حصانه إلى الجهة المقابلة.

نظرَ أترتيس عبرَ الطريق ثانيةً، مباشرةً إلى الفتاة اللابسة ثوباً أبيضَ والواقفة في ظلِّ الشجرة. وحدّقَ إليها بجسارةٍ حتّى أشاحتَ نظرَها. ثمَّ تكلمتَ إليها اليهوديّة الصّغيرة، فدارتا ومشتا راجعتين في البستان. ونظرتَ إليه الفتاة ذاتِ الثوبِ الأبيض رجوعاً من فوق كتفها، ثمَّ رفعتَ هُذبَ ثوبها وبدأتَ تركض، وضحكها المرحُ يتناهى إليه.

قال ثراكس: ”الرّومان ينحازون إلى الشّقر. فتمتّع بالهوى ما دام باقياً، يا أترتيس. خذْ كلَّ ما تستطيع الحصول عليه!“ ثمَّ لكزه بعقبِ كرابجه وقال: ”لقد ذهبت. باشِرِ عدوةَ العودة. انعطفْ شمالاً عند مُفترقِ الطّرق، وعُدْ بين التلال“. وقد عيّنَ له الطريقَ الصاعدَ الصّعب.

نسيَ أترتيس أمرَ الفتاتين، وانطلقَ من جديد. وقد عدا في سرعةٍ منتظمةٍ يعلمُ أنّه يستطيعُ المحافظةَ عليها، ولكنَّ ثراكس انتهره حتّى يسرعَ أكثر. فشحذَ عزمته، وركضَ صاعداً التلّ، موفّقاً تنفّسه.

كان أترتيس قد خضعَ لأربعة أشهر من التّدريب المصنفي في اللودس. أوّلَ شهرٍ درّبه ثروفيمس. وقد راقبه ثراكس من كَثب، وسرعانَ ما تولى هو تدريبه. وإذ عهدَ ثراكس بالمتدريين الآخرين إلى غالس وسواه، قضى مُعظمَ وقته عاملاً في أترتيس. فدفعه قُدماً أقسى من الباقين، وعلمه جيّلاً لم يُطلعِ الآخرين عليها.

”إنَّ أصغيتَ إليّ وتعلّمت، فقد تصمّدُ زمنًا يكفي لكسبِ حرّيتك“.

فقال أترتيس من بين أسنانه الصّارة: ”يُشرّفني اهتمامك بي“.

وكشّرَ ثراكس ببرودة. ”سأجعلك بطلاً. إنَّ نجحتَ في البقاء حيّاً، أمّحج أنا في إحرازِ صِيتِ يُكسبني مقاماً في لودسِ روما الكبير، بدلاً من قضاء باقي عمري في مطرّدة الأرانب هذه“.

روما

على خلاف كثير من الآخرين، لقي أترتيس في التمرينات متعة بالغة. فإذا كان قد تدرَّب طوال حياته مُحارِبًا، لم يُكُنْ تدرُّبه مُحارِبًا هنا إلاَّ توسيعًا لمهاراته. وقد نذرَ أن يستعمل ذات يومٍ كلَّ ما تعلَّمه ضدَّ رُوما نفسها.

في سبيل تلك الغاية، باتَ خبيرًا في استعمال الغلادْيوس، أي السيف القصير، مع أنَّ ثراكس خصَّه أغلب الأحيان بالرُّمَح الثلاثي والشُّبْكة اللذين يحملهما الرُّتْياريوس. وبضع مرَّات، طرح أترتيس الشُّبْكة جانبًا في خيبته وهاجم خصمه بضراوة بالغة اضطرت ثراكس إلى التوسُّط لئلا يفقد مُتدربًا.

كان الغضب هو ما أبقى أترتيس سائرًا. فقد استخدمه لكي يدفع نفسه في العداوات الطويلة. واستخدمه لكي يُبدد الاكتتابات التي انتابته ليلًا، إذ يسمَع وقع حذاء الحارس ذي المسامير وهو يمشي دُوراته. واستخدمه لكي يزوِّد في نفسه الرُّغبة في تعلُّم كلِّ طريقة ممكنة لقتل رَجُل، أملاً أن يكسب حريته ذات يوم بحيث لا يتأخَّر بعد لأيِّ شخص أن يسوده.

لم يكسب أترتيس أصدقاء. فقد أبقى نفسه نائيًا عن باقي المحاربين. لم يُرد أن يعرف أسماءهم. لم يُرد أن يعرف من أين جاءوا، ولا كيف أخذوا. فذات يوم قد يواجه واحدًا منهم في ساحة المحاربين. وفي وَسعه أن يقتل غريبًا دون أدنى ندم. أمَّا أن يقتل صديقًا فأمرٌ سيظلُّ ينتابه إلى الأبد.

رأى اللُّودس في مدَّ نظره البعيد، فاستردَّ أنفاسه مرَّة ثانية. والتهمَّت رجلاه امتداد الطريق المنبسط. وأطلق ثراكس عنان الحصان قليلًا حتى يسبقه. ثمَّ صَفَر حارس صفرة حادة من مركزه على السور، فانفتحت بوابة المُجمَع تجاوبًا.

ترجَّل ثراكس وألقى الزمام في يد أحد العبيد. وأمالَ فمه قائلاً: ”إلى الحمامات، يا أترتيس، ثمَّ اذهب إلى فليغون لأجلِ جلسةٍ تدليك. لقد أبلتَ حسنًا اليوم، وستُكافأ“.

دخل أترتيس عُرفةً لتبديل الثياب، وتجرَّد من المئزر الرطب، وأخذ منشفة، وذهب إلى عُرفة التَّييداريوم، حيثُ الماء دافئٌ ومريح. فاسترخى واغتسلَ مُتمهلًا، مُتجاهلاً الآخرين المُتحدِّثين بأصواتٍ منخفضة حتى لا يسمَع الحُراس. ثمَّ غادر التَّييداريوم ودخل العُرفة التالية، الكلداريوم، أقرب عُرفةٍ إلى المراحل. هناك تنشقُّ الهوائ المُشبع بالبخار، فيما فرَّك عبدٌ جسمه بزيت الرُّيتون، ثمَّ كَشَطَه بِكَشَطَةٍ شبيهة بالسُّكين.

في العُرفة التالية، غطس أترتيس في الفردجداريوم. فكانت المياه الباردة صدمةً سارَّة، وسبَّح قاطعًا طولَ البركة ذهابًا وإيابًا. ثمَّ انطرح على الحافة ونفَّض رأسه مُطرطشًا الماء حوَّاليه

ككلبٍ يُنْفَضُ فَرَوْه. ورجعَ إلى التَّيْدَارِيُوم لأجلِ بضعِ دقائقٍ من الراحة، قبل أن يؤمَّرَ بدخولِ غرفةِ التَّدْلِيكِ.

كان فليغونَ فظًا. فقد صَرَبَ عضلاتِ أترَيْتِس ودلَّكها حتَّى ارتخَتْ. وبدأ أن كلَّ شيءٍ في هذا المكانِ الفاسدِ مُصمَّمٌ لتعطيمِ الجسمِ ثُمَّ بنائه من جديد، مع تحويلِ اللَّحْمِ إلى فُولاذٍ . أكلَ أترَيْتِسِ بِنَهَمٍ من اللَّحْمِ وبِخنةِ الشَّعِيرِ، ثُمَّ سارَ مع الآخرينَ رجوعًا إلى مَبْنَى الرُّزْنَانَاتِ. وإذِ احتَجَزَ لِقضاءِ اللَّيْلِ، تمدَّدَ على بَنِكَه ووضَعَ ذراعَه وراءَ رأسِه. وحاولَ ألا يُفَكِّرَ في أيِّ شيءٍ. ثُمَّ نَبَهَتْهُ هَمَهْمَةُ أصواتِ رجالِ وانفتاحِ بابِ. كان أحدهمَ آتيا نحو حُجْرَتِه. فجلسَ واستندَ إلى الجدارِ الحجريِّ الباردِ وقلبه يخفقُ خَفَقًا شديدًا.

انزاحَ القفلُ الحديديُّ وانفتحَ البابُ الخشبيُّ الثَّقِيلُ. كان غَالَسٌ واقفًا في الخارجِ، وأمامَه فتاةٌ عَبدَةٌ. ثُمَّ دخلتِ الفتاةُ الرُّزْنانةَ بغيرِ أن تنظرَ إلى أترَيْتِس، وأقفلَ غَالَسُ البابَ وراءَها. وبِلا كَلِمَةٍ، تقدَّمتْ إليه ووقفتْ أمامَه. فنهَضَ عنِ البَنِكِ، ونظرَ إليها، فتدكَّرَ الفتاةَ الجميلةَ ذاتِ الثوبِ الأبيضِ، تلك التي راقبتَه من ظلِّ شجرةِ الدَّرَاقِ، وأحسَّ موجةَ شهوةٍ وغضبٍ. كان في وُسْعِه أن يصبَّ ضغينته فيها ويستمتعَ بالأمرِ. ولكنَّ هذه الفتاةَ كانت أشبه بالعبدةِ العبرانيَّةِ الصغيرةِ. ولمَّا مدَّ أترَيْتِس يده كي يلمسها، فعَلَّ ذلك بحقدٍ.

بعد قليلٍ، وقفَ أترَيْتِس في جانبِ الغرفةِ الأخرِ. وسمعَ خَرْبِشَةً من فوقِ، فعلمَ أنَّ حارسًا كان يُراقِبُ. فامتقعَ وجهُه من وصمةِ الحِزِي، وكان عليه أن يكبَّتِ الحافِرَ على الصُّراخِ. لقد صارَ أكثرَ بقليلٍ من حيوانٍ يُحدِّقُ إليه ببلاهةٍ.

توجَّهتِ الشابَّةُ إلى البابِ، بعدما مُتَّعتْ مرَّتينِ، ووقفتْ تنتظرُ. وأبقى أترَيْتِس ظهرَه مُدارًا نحوها، من أجلِ خِزِيه هو بمقدارِ أقلِّ وباعتبارِ خِزِيها هي بمقدارِ أكثرِ. وما لبثَ أن خَشَّخَشَ القفلَ وانفتحَ البابُ، ثُمَّ أُغْلِقَ من جديدٍ وأقفلَ أيضًا. لقد مَضَتِ العبدَةُ، ونالَ أترَيْتِسِ المُكافأةَ التي وعدَه بها ثراكسِ.

اجتاحتْ أترَيْتِسِ وَحشَةً شديدةً مُوهنةً. ماذا لو كلَّمها؟ أكانتْ أجابتْ؟ سبقَ أن جاءتِ إليه، وقد شعرَ بالميلِ الخفِيِّ إلى عَدَمِ التفوُّهِ بشيءٍ، بل إلى عدمِ النَّظَرِ إلى وجهها أيضًا. لقد جاءتِ إليه لأنَّها أرسلتْ لتخدمَه. وهو قَبْلَ لكي يُصرِّفَ التوتُّرَ الفادحَ الذي أنشأته العبوديَّةُ فيه، ولكن لم يكنْ دفءٌ ولا حُبٌّ ولا إنسانيَّةً. إنَّها آتته إشباعًا جسديًا عابِرًا، أعقبه دائمًا خِزِيٌّ يُندِّي الجبينَ.

استلقى على البَنِكِ الحجريِّ ووضَعَ ذراعَه وراءَ رأسِه، محدِّقًا إلى الشَّبَاكَةِ في الأعلى.

روما

تذكر زوجته ضاحكةً وراكضةً في الغابة، وجديلتها الشفراء تفقر على ظهرها. وتذكر ممارستهما الحب في مرجة تحت ضوء الشمس. وتذكر الرقة التي تشاركا فيها. لقد اختطفها الموت باكراً جداً. وأحس حرقه في عينيه، فجلس مكافحاً الكآبة التي جعلته يود لو يحطم رأسه على الجدار الحجريّ.

تري، ألم يعد إنساناً؟ أحوّلتته ستة أشهر في هذا المكان إلى حيوانٍ يستسلم للغرائز الدنيا؟ لو مات لكان أحسن حالاً! ثم تحول بعيداً عن فكرة الانتحار. كان الحراس دائماً متنبهين إلى المحاولات، ولكن الرجال لم يعدوا سبلاً لقتل أنفسهم رغم مساعي الحراس لمنع ذلك. فإن رجلاً أكل فنجاناً من فخار قبل تمكن الحراس من وقفه، ومات في غضون ساعات قليلة بعدما تمزقت أحشاؤه. كما أن رجلاً آخر أقحم رأسه بين شيعاع دولاب التدريب، فكسرت رقبته. وقبل ليلتين فقط، عمد رجل آخر إلى تمزيق عباءته وحاول شق نفسه متدلياً من شباك السقف.

لم يعتقد أترتيس أن في إنهاء حياته بيده أي شرف. فعند موته، أراد أن يأخذ معه ما أمكن من الرومان، أو بمن يخدمون روما. أخيراً، أغمض عينيه ونام، حالماً بالغابات الكثيفة في بلاد الجرمان، وبزوجته المتوفاة.

في اليوم التالي، لم يُركضه ثراكس، بل اصطحبه إلى ساحة المحاربين الصغيرة المخصصة للعرض. وقد أشركه في سلسلة من تمارين التثميمة والتמיד. وارتاب أترتيس من الحراس الأربعة الذين كانوا واقفين داخل الأسوار على أبعاد متساوية، وألقى نظرة على مقصورة المشاهدين. فإذا سكورپس واقف مع رجل أسود طويل القامة مرتد تنكاً أحمر ذا حاشية ذهبية.

قال ثراكس بالجرمانية: "لنر إن كنت تستطيع أن تتفوق عليّ، يا أترتيس". ورمى إليه بإحدى هراوتين طويلتين ثخينتين. ثم رضى وانتقل إلى ناحية واحدة، مقلّباً الهراوة بمهارة مراراً وتكراراً، ومُنْتَظِراً. وقال مُستهزئاً بأترتيس: "هيا، هاجمني إن كنت تجرؤ. أرني إن كنت قد تعلمت شيئاً".

شعر أترتيس بالارتياح لوزن هراوة السنديان في يديه. وكان طرفها قد لُفَّ بالجلد ليصيرا غير حادّين. وقد رتب سكورپس هذه المباراة لسبب من اثنين: إما أن الأفريقي كان غنياً وطالباً شيئاً من التسلية، وإما أنه كان يبغى شراءً محاربٍ لنفسه. وكلا السببين لم يوافقا كبرياء أترتيس. وإذ كان سكورپس بعيداً عن متناول يده، ركز حقه كله على ثراكس.

تحرك أترتيس ببطءٍ وحذرٍ حول ثراكس، مُلتَمِسًا فتحه. وأهوى ثراكس بضربةٍ سريعةٍ حادةٍ، فصدها أترتيس، ودوّت في ساحة العرض الصغيرة أصداءَ قرقعة الخشب على الخشب. وأزاح ثراكس ثقله، ثم دار بشرعة، وأصاب أترتيس بضربةٍ على جانب رأسه أحدثت جرحًا بقرب عينه.

جري الغيظ الشديد في عروق أترتيس، ولكنّه كظّمه بقوة التكيف والإرادة. ثم تلقى ضربتين أخريين، وأنزل بأترتيس ضربتين جعلتاها يترنح على قدميه. وإذا استعمل حرارة غضبه لإمداده بالقوة، بادر إلى الهجوم. وكان قد تعلم أن يُراقب عيني خصمه بدلاً من يديه ليُدرك ما يتوهمه الخضم. وبعدما صدّ ضربتين، وجّه الهراوة الطويلة في كُلية ثراكس، وشهد نظرة اللانيسستا الذاهلة وهو يتعثر. فلوح بالهراوة في دائرة خاطفة وسدد الضربة إلى رأس ثراكس. وتفادى اللانيسستا منها، ثم هب واقفاً على قدميه. كانت كلمة واحدة منه كافية كي يتدخل الحراس. ولكنّه لم ينيس بكلمة.

دوّت قرقعات الهراواتين الطويلتين السريعة الحادة في أنحاء ساحة العرض. وقد جرى العرق من كلا الرجلين، وكانا بصرخان مع كل ضربةٍ شديدة. وإذا رأى أترتيس أنّهما يُصاهيان أحدهما الآخر بمساواةٍ بالغة لا تتيح له كسبَ أفضلية، رمى هراوته وتمسك بهراوة ثراكس، مُستخدماً كامل قوته لإنزالها إلى ذقن اللانيسستا. وكان يعرف جميع حيل اللانيسستا. فمن شأن ثراكس أن يحاول إزاحة قدميه بسرعة. ولما قام بتلك الحركة، رفع أترتيس ركبته بضربةٍ قوية. فإذا بثراكس يزفر نفساً حاداً، وقد جمدت عيناه كزجاج يُظهر الألم، وارتخت أصابعه. إذ ذاك أعلى أترتيس ركبته ثانية، ثم استخدم الهراوة كي يدفع اللانيسستا ويُسقطه أرضاً على ظهره.

ومن طرف عينه، رأى حارساً يتقدم حالماً سقط ثراكس. وعلم أن لديه وقتاً قليلاً. فأفلت الهراوة الطويلة، وانبطح على ثراكس، وأمسك الحوذة بيده اليسرى ورفع اليمينى إلى الورا. فانسعت عينا ثراكس وحاول أن يتفادى من الضربة التي كان هو نفسه قد علمها، فيما صاح مُصدراً أمراً بعد فوات الأوان. وأهوى أترتيس بعقب يده على أنف ثراكس، فخلع العُصروف وأقحمه داخل وجهه.

جرّه حارسان بعيداً عن جسم ثراكس المُتشنج. فرفع رأسه عالياً وأطلق صيحته الحربيةً ابتهاجاً بالانتصار. وإذا كان الأدرينالين ما زال مُتدققاً في جسمه، طرح أحد الحارسين أرضاً، وأقحم قبضته في بطن الآخر، مُنتزِعاً الغلادبوس من غمده فيما الحارس يسقط. وإذا استل

الثالث والرابع سَيفِيهما، صاح سكوريس من المقصورة: "لا تقْتُلَاهُ!".

أَعَمَدَ الحارسانِ السَّيْفَيْنِ، واستَعَمَلَا شَبَكَةً لِإِسْقَاطِ أترِيس. وإذ عَلِقَ فِيهَا كحيوانِ بَرِّيٍّ مُتَقَلِّبٌ، ثَبَّتَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي الرَّمْلِ، وانتزعا الغلادِيوسَ من يده. ثُمَّ وَضَعَا أَصْفَادًا حَوْلَ مِعصَمِيهِ وَكاحِلِيهِ، وَجَرَاهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَدَمِيهِ وَهُوَ يَقْدِفُ الشَّنَائِمَ بِالْيُونَانِيَّةِ. وَأوقَفَاهُ أَمَامَ مَقصورةِ المُشَاهِدِينَ.

رَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى سكوريس وَضَيَّفَهُ، فِيمَا صَدَرُهُ يَجِيشُ، وَتَفَوَّهُ عَالِيًا بِأَقْبِحِ الألقَابِ الَّتِي التَّقَطُّهَا فِي أَثْنَاءِ الأَشْهُرِ السَّنَةِ الَّتِي قَضَاهَا فِي اللُّودُس. وَحَدَّقَ إِلَيْهِ سكوريسُ مِنْ عُلٍّ، وَوَجْهُهُ شاحِبٌ وَمُتَمَقِّعٌ. أَمَّا الرَّجُلُ الأَسْوَدُ فابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً، وَقَالَ لِسكوريسُ شَيْئًا، ثُمَّ غَادَرَ المَقصورةَ.

وَفِي غَضُونِ سَاعَةٍ، باتِ أترِيسُ مُقَيَّدًا فِي عَرَبَةٍ أُخْرَى مَعَ غَالِيٍّ وَتُرْكِيٍّ وَبَرِيتُونِيَّيْنِ مِنْ لُودُسَاتٍ أُخْرَى فِي كاپُورَا. وَقَدْ تَقَدَّمَهُمُ الرَّجُلُ الأَسْوَدُ رَاكِبًا فِي هُودَجٍ مُظَلَّلٍ يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةُ عبيدٍ. كَانَ اسْمُ الأَفْرِيقِيِّ باتو. وَكَانَ مَمْلُوكَ الإمبراطورِ قَسْبازِيانِ، وَشاعِلَ المَنْصِبِ المُمَيَّزِ بِصِفَتِهِ اللَّائِنِسْتَا الأَكْبَرِ فِي لُودُسِ رُوما.

لَقَدْ كَانَ أترِيسُ مُتَوَجِّهًا إِلَى قَلْبِ الإمبراطوريَّةِ.

قَالَتْ جُولِيَا لَهَدَسَةَ بِلَهْجَةٍ صَرَفٍ: "قُولِي لَه إِنَّ بِي صُدَاعًا"، مِنْ دُونِ أَنْ تَنْظُرَ مَجْرَدَ نَظَرٍ إِلَى العَبْدِ الواقِفِ فِي المَدْخَلِ نَاقِلًا طَلَبَ كِلَاودِيوسِ اللطيفِ بِأَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْهِ فِي البِلبِلِيوتِيكا. حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَتَوَقَّفَ قَلِيلًا عَنِ اللُّعْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَلْعَبُ بِهَا، بَلْ أَسْقَطَتِ عَظِيمَاتِ اللُّعْبَةِ عَنِ ظَهْرِ أَصَابِعِهَا وَرَاقِبَتِهَا تَقَعَقَعُ عَلَى الأَرْضِيَّةِ الرُّخَامِيَّةِ. وَلَمَّا لَمْ تَسْمَعْ هَدَسَةَ تَتَكَلَّمُ وَلَا البَابَ يُغْلَقُ، رَفَعَتْ نَظَرَهَا بِنَزَقٍ فَرَأَتْ نَظْرَةَ هَدَسَةَ المُتوسِّلَةِ. وَقَالَتْ أَمْرَةً بَعَطْرَسَةَ: "قُولِي لَه!" فَلَمْ يَكُنْ لَدَى هَدَسَةَ خِيَارٌ أُخَرَ سِوَى تَبْلِيغِ رِسَالَةِ سَيِّدَتِهَا.

قَالَ بِرِيسِسُ هَمْسًا "سَمِعْتُ!" وَاسْتَدَارَ.

وَأغْلَقَتْ هَدَسَةَ البَابَ بِهَدْوٍ، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى سَيِّدَتِهَا الفَتِيَّةِ. أَكَانَتْ أَنانِيَّةً وَغِييَّةً إِلَى الحَدِّ الَّذِي تَحْرَمُ بِهِ زَوْجِهَا أَدْنَى مُجَامَلَةٍ؟ مِمَّ سَيَشْعُرُ كِلَاودِيوسُ فَلَكَسْ؟

وَإِذْ رَأَتْ جُولِيَا نَظْرَةَ هَدَسَةَ، بَادَرَتْ إِلَى الدَّفَاعِ. "لَا رَغْبَةَ لَدَيَّ فِي قَضَاءِ أَمْسِيَّةٍ مُضْجِرَةٍ أُخْرَى فِي البِلبِلِيوتِيكا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الفِلسَفَاتِ المُمِلَّةِ. كَيْفَ لِي أَنْ أَعْرِفَ أَوْ أَهْتَمَّ بِمَا فَكَّرَ فِيهِ كَاتِبُ رُومَانِيٍّ مِثْلَ سَنِيكا عَاشٍ قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ عَامٍ؟" ثُمَّ التَّقَطَّتِ العَظِيمَاتِ مِنْ

جديد وأمسكتها بقبضتها، وقد حرقتِ الدُموعُ عينيها. لماذا لا يدعُها وشأتها فحسب؟ وألقتِ العُظيَماتِ أرضاً، فنطّط وتدرجت في نسقٍ غريب. ثمّ جلست على عَقَبِيها.

انحنتِ هَدَسَة وجمعتِ العُظيَماتِ واحدةً فواحدة. وقالتِ جوليا: ”أنتِ لا تفهمين فعلاً. ولا أحدٌ يفهم.“

”هو زوجك، يا سيّدتى.“

ارتفع ذقنُ جوليا حالاً. ”هل يعني هذا أنّ عليّ أن ألبّي كلّ استِداءٍ منه وكأني عبدة؟“

لم يَسَحْ هَدَسَة سِوى أن تُسائل نفسها عمّا سيُفعله كلاوديوس فلاكس عندما يُقال له إنّ زوجته الفتيّة رفضت أن تأتي إليه على أساس الحجّة الضعيفة المُتمثلة في الصُداع. كانتِ جوليا في البداية قد مثلتِ دَورَ العروسِ الفَرِحَة، لكي تُخلّف لدى صديقاتها انطباعاً حَسَنًا أكثرَ منها لإبهاجِ زَوجها. إلاّ أنّها ما إنْ غَدَت خارجَ روما حتّى باتت مُهذّبةً على نحوٍ مؤلِم. فإذ استقرت في كايوا، صارتِ مشاكسةً.

كان كلاوديوس فلاكس رجلاً ذا صَبْرٍ عظيم، ولكنّ تحرُّوً جوليا على رفضه بوقاحة كان مُرَجِّحاً أن يُزعزعَ تلكَ الفضيلة. وعلى مدى الأشهر الستة الماضية، تغاضى كلاوديوس عن نكِدِ جوليا. غير أنّ العِصيانَ والحشونة الصريحين لا بُدَّ أن يُثيرا غضبه. وقد خافتِ هَدَسَة على سيّدتها. أكان من عادة الأزواج الرُومانيّين أن يضرّبوا زوجاتهم؟

ثمّ إنّها، بكلِّ صدق، كانتِ مُنزعةً أيضاً. أكانتِ جوليا عمياءَ جدًّا بحيثِ فاتها أن ترى أنّ كلاوديوس فلاكس رجلٌ ذكيٌّ وحليمٌ ولطيف؟ فهو كان زَوجاً صالحاً لأيةِ امرأةٍ شائِة. وقد فعلَ كلُّ ما في وُسعه لتسلية جوليا، إذ عرفها إلى أصدقائه، واصطحبها في جولاتٍ بالعَرَبَة في أنحاء كامبانيا، واشترى لها الهدايا. غير أنّها لم تبادله أدنى اعتبارٍ في المُقابل. فإنّ عرفانها بالجميل كان روتينياً، وكان كلُّ ما يفعله كان حقاً لها وواجباً عليه.

طلبتِ هَدَسَة طريقةً للتحاوُر معها، إذ قالت: ”إنّه لطيفٌ مُجَاهَك، يا سيّدتى.“

فقالَت جوليا بشهقةٍ ازدراء: ”لطيف! أمِنَ اللُطف أن يفرضَ عليّ اهتماماته حين لا أريدُها؟ أمِنَ اللُطف أن يُطالبَ بحقوقه حين يُنفّرني حتّى مُجرّد التفكير فيه؟ إنني لا أريدُ أن أقضي العَشيّة معه.“ ثمّ وضعتْ يديها على وجهها، وقالت: ”كم أكره أن يلمسني!“ وأضافتِ مُرتاعةً: ”إنّ جسده شاحبٌ كالموت.“

أحسّت هَدَسَة الحرارةَ تتدفّقُ إلى وجهها.

روما

”إِنَّ مُجْرَدَ التفكير فيه يُرْضِنِي“. ثُمَّ نَهَضَتْ جوليا وتوجَّهَتْ إلى النافذة، وأخَذَتْ تُحَدِّقُ إلى الفناء.

نظرتْ هَدَسَةَ من فوق يديها المُطَبَّقَتين، غير عارفةٍ ما تقوله لتَهْدِئَةِ سَيِّدَتِهَا. إِنَّ مِثْلَ هذا الحديث السافر أخرجها. فماذا كَانَتْ تَعْلَمُ عن حَمِيمِيَّاتِ الحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ؟ لَعَلَّهَا أَمْرٌ لَمْ تُطْفِقْهُ جوليا، وينبغي لها هي أَلَّا تَتَسَرَّحَ كَثِيرًا في الحُكْمِ. ثُمَّ قَالَتْ هَدَسَةَ: ”رَبِّمَا تَتَغَيَّرُ مِشَاعِرُكَ عندما تُرْزَقِينَ أَوْلَادًا“.

فَقَالَتْ جوليا بَوْمُضَةٍ من عَيْنَيْهَا القَامَتَيْنِ: ”أولاد؟ لَسْتُ على استعدادٍ لِإِنجَابِ أَوْلَادِ. لَمْ أَعِشْ حَيَاتِي بَعْدَ“. وَمَرَزَتْ يَدَهَا على مُطْرَزَةٍ بِابِلِيَّةٍ. ”لَا بَدَّ أَنْ الأَلِهَةَ مُتَّفِقَةٌ معي، لِأَنِّي لَمْ أُحِبُّ بَعْدَ، وِلَيْسَ ذَلِكَ من قَلَّةِ مَحَاوَلَاتِ كِلَاودِيوسِ. آه، إِنَّهُ يُحَاوِلُ وَيُحَاوِلُ. فَرُغَمَ جَمِيعِ آمَالِ أَبِي بِنَسَبِ مَلوكِي، رَبِّمَا فَسُدَّتْ بِزُرْتُهُ فَعَلًّا“.

تَحَوَّلَتْ مَرَاتُهَا إلى تَسْلِيَةٍ لَمَّا نَظَرَتْ إلى هَدَسَةَ من جَدِيدٍ، فَضَحَكَتْ. ”إِنَّ وَجْهَكَ مُتَوَدِّدٌ كَثِيرًا“. وَلَكِنْ مَا لَبِثَتْ ابْتِسَامَتُهَا أَنْ قَتَمَتْ، فَاتَّكَأَتْ على أَرِيكَةِ. وَحَدَّقَتْ إلى لَوْحَةٍ جِدَارِيَّةٍ زَاهِيَةٍ يَظْهَرُ فِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ يَقْفِزُونَ في وَادٍ صَغِيرٍ بِأَحْدَى الغَابَاتِ. وَكَانُوا يَتَضَاخَكُونَ قَرَحًا وَمَرَحًا. لِمَاذَا لَا يَمَكُنُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتُهَا مِثْلَ ذَلِكَ؟ لِمَاذَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَحْوَزَ زَوْجًا كَبِيرَ السِّنِّ وَمُضَجِرًا كَهَذَا؟ أَعْلَيْهَا أَنْ تُحْبَسَ بَعِيدًا في هَذِهِ الدَّارَةِ بِكَابُورَا بَاقِي عُمْرِهَا؟ لَقَدْ تَأَقَّتْ إلى إِثَارَةِ رُومَا. وَافْتَقَدَتْ ظَرِافَةَ مَرْقُسِ. وَأَرَادَتْ المَغَامِرَةَ، وَمَا كَانَ كِلَاودِيوسُ لِيَصْطَحِبَهَا وَلَوْ إلى لُودُسِ تَدْرِيْبِ المَحَارِبِينَ لِتُشَاهِدَ حَلِيقَةَ تَدْرِيْبِ.

قَالَتْ حَالِمَةٌ: ”هَلْ تَذْكُرِينَ المَحَارِبَ الَّذِي رَأَيْنَاهُ؟ كَانَ جَمِيلًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مِثْلَ أبُولُو. كَانَ جِلْدُهُ بَلَوْنُ البُرُونزِ وَشَعْرُهُ كَالشَّمْسِ“. وَوَضَعَتْ يَدَهَا بِرِفْقٍ على مَعْدَتِهَا. ”لَقَدْ جَعَلَنِي أَرْتَعَشُ مِنَ الدَّاخِلِ. وَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ، أَحْسَسْتُ كَمَا لو كُنْتُ أَشْتَعِلُ“.

ثُمَّ التَفَتَتْ، وَوَجَّهَهَا شَاحِبٌ وَعَيْنَاهَا تَتَلَأَلَانِ بِدَمُوعِ الخِيبةِ المُرَّةِ. ”وَمَا أَنَا لَا أَزَالُ أَجِدُّ بِقُرْبِي كِلَاودِيوسَ الَّذِي يَجْعَلُ دَمِي يَبْرُدُ“.

تَذَكَّرَتْ هَدَسَةَ المَحَارِبِ. وَكَانَتْ جوليا قَدْ أَصْرَتْ على التَّمَشِّيِ في البُسْتَانِ تَالِي يَوْمٍ وَتَالِيهِ، وَلَكِنْ مِنَ الخَيْرِ أَنَّ المَحَارِبَ وَمُدْرَبَهُ لَمْ يَظْهَرَا ثَانِيَةً.

وَقَفَّتْ جوليا مُضْطَرِبَةً، وَفَرَكَتْ صُدْغَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: ”بِي صُدَاعٌ حَقًّا. إِنَّ مُجْرَدَ التفكير في كِلَاودِيوسِ يُصِيبُنِي بِالصُّدَاعِ“. وَخَطَرَ في بَالِهَا بَعْدَ تَأَخُّرِ الوَقْتِ أَنَّ كِلَاودِيوسَ قَدْ يَكُونُ غَاضِبًا حِيَالِ رَفْضِهَا. فَلَيْسَ مِنَ اللَّائِقِ أَنْ تَرَفُضَ زَوْجَهُ أَيَّ طَلْبٍ لَزَوْجِهَا. وَفَكَّرَتْ في أَمَّهَا

فَشَعَرْتُ بِالذَّنْبِ. حَتَّى لَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِهَا تَقْرِيْبًا أَنْ تَرَى نَظْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ وَتَسْمَعُ تَوْبِيْخَهَا، الرَّقِيْقَ لَكِنْ الْأَسْعَ.

عَضَّتْ جُولِيَا عَلَي شَفِيْطِهَا بَعِيْظٍ. لَمْ تَكُنْ قَطُّ قَدْ رَأَتْ كِلَاوَدِيُوسَ غَاضِبًا. وَبَدَأَ قَلْبُهَا يَخْفِقُ بِقُوَّةٍ.

”لَنْ يُصَدِّقَ عَلَي وَجْهَ الْاِحْتِمَالِ، وَلَكِنِّي لَسْتُ فِي حَالٍ جَيِّدَةٍ. اذْهَبِي وَتَكَلَّمِي إِلَيْهِ نِيَابَةً عَنِّي“. قَالَتْ هَذَا مُشِيرَةً بِيَدِهَا نَحْوَ الْبَابِ، وَأَضَافَتْ: ”بَلِّغِيهِ تَحِيَّاتِي الرَّقِيْقَةَ، وَاشْرَحِي لَهُ أَنِّي سَأَسْتَحِمُّ حَمَامًا طَوِيْلًا ثُمَّ أَنَامُ. وَاسْتَدْعِي لِي كَاتِيًا“. إِنَّ پَرَسِيْسَ الْخَبِيْثَ ذَاكَ رُبَّمَا أَخْبَرَ كِلَاوَدِيُوسَ بِأَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْعُظْمِيَّاتِ.

اسْتَدْعَتْ هَدْسَةَ الْعَبْدَةَ الْمَكِدُونِيَّةَ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى الْبَيْلِيُوتِيكَا عَبْرَ الْمَمْرِّ الدَّاخِلِيِّ. وَكَانَ الْبَيْتُ الْكَبِيْرُ هَادِئًا وَسَاكِنًا.

كَانَ كِلَاوَدِيُوسَ جَالِسًا إِلَى مَكْتَبِهِ، وَأَمَامَهُ دَرْجٌ مَنشُورٌ. وَقَدْ جَعَلَ ضَوْءُ الْمِصْبَاحِ حُطُوْطَ الشَّيْبِ فِي رَأْسِهِ تَبْدُو بِيضَاءَ بَرَّاقَةٍ. فَرَفَعَ نَظْرَهُ قَائِلًا: ”بَلِّغِي نِيَابَتِي مِنْذُ حِيْنَ أَنَّ السَّيِّدَةَ جُولِيَا مُصَابَةٌ بِضُدَاعٍ“. وَقَدْ كَانَتْ لَهْجَتُهُ نَاشِئَةً، وَعَلَى سِيْمَائِهِ اللَّامُبَالَاةُ، لَا الْغَضَبُ. ”هَلْ غَيَّرْتَ رَأْيَهَا؟“

”لَا، سَيِّدِي. إِنَّ السَّيِّدَةَ جُولِيَا تَبَعَتْ بِتَحِيَّاتِهَا الرَّقِيْقَةَ، وَتَأْسَفُ لِكَوْنِهَا لَيْسَتْ فِي حَالٍ جَيِّدَةٍ. سَتَسْتَحِمُّ ثُمَّ تَنَامُ.“

كَشَّرَ كِلَاوَدِيُوسَ مُنْزِعِجًا. فَهَكَذَا يَكُوْنُ قَدْ طُرِدَ حَتَّى قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. وَهُوَ لَمْ يُخَدِّعْ بِأَعْذَارِ جُولِيَا وَلَا انْزَعَجَ مِنْهَا، بَلْ شَعَرَ بِالْفَرَجِ فِعْلًا. فَاتَّكَأَ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيْلًا وَأَطْلَقَ نَفْسَهُ عَلَى مَهَلٍ. إِذْ إِنَّ مُحَاوَلَتَهُ تَسْلِيَةً جُولِيَا قَدْ بَاتَتْ مُمْلَةً. فَفِي غَضُوْنِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنَ الزَّوْاجِ، كَانَ قَدْ عَلِمَ الْكَثِيْرَ عَنِ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ، وَقَلِيْلٌ مِنْ ذَلِكَ حَبِيْبُهَا إِلَيْهِ. فَابْتَسَمَ مُوجِعًا. لَقَدْ كَانَتْ جَمِيْلَةً وَجَدِيْرَةً بِالْإِعْجَابِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ سَخِيْفَةً وَأَنَايَّةً.

وَهُوَ كَانَ مُغْفَلًا كَبِيْرَ السِّنِّ، يُحَلِّقُ عَالِيًّا فِي سَمَاءِ الْحُبِّ الشَّهْوَانِيِّ.

أَوَّلَ مَرَّةٍ لَمَحَ جُولِيَا فِيهَا، صَعَقَهُ شَبْهُهَا بِهِيْلَانَةِ زَوْجَتِهِ الْمَحِيْبَةِ. وَقَدْ حُخِّلَ إِلَيْهِ - أَوْ بِالْأَحْرَى حَلَمَ - أَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ تَقْمُصُّ لَهَا. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مَخْبُولًا مَسْطُولًا، أَسْكَرَهُ الْأَمَلُ وَتَشَبَّثَ بِاِحْتِمَالِيَّةٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ. فَالْأَلِهَةُ إِنَّمَا كَانَتْ تَعْبَثُ بِهِ.

غَمَّرَهُ التَّفَكِيْرُ فِي هِيْلَانَتِهِ بِالْوَحْشَةِ. فَتَذَكَّرَ حُضُورَهَا الْعَذْبَ بِتَوَقُّعٍ مُؤْلِمٍ. إِنَّ جَمِيْعَ السِّنِيْنَ الَّتِي قَضَاهَا مَعَهَا لَمْ تَكُنْ كَافِيَةً. وَمَا كَانَ عَمْرُؤُ بِكَامِلَةٍ لِيَكُوْنَ كَافِيًا.

روما

لقد كانت هيلانة هادئة، مُتأمِّلة، رقيقة، قانعة بأن تقعد معه في هذه العُرْفَة ساعات. وكانا يتحدثان بكلّ شيء: الفنون والألْهية والفلسفة والسياسة. حتّى الشُّؤُونُ الدُّنيويَّةُ اليوميَّةُ المتعلِّقة بما قاله مُراقِبُهُمَا لَقِيَتِ اهْتِمَامًا لدى هيلانة. أمّا جوليا فيمكنُ وصفُها بأنّها حركةٌ دائمةٌ وطاقَةٌ لا تكادُ تُضَبِّطُ. وقد أَحَسَّ أهواءُ جامحةٌ تتصارعُ دائمًا داخلِها- أهواءٌ لا يستطيعُ أن يملكَ زمامَ السَّيطرةِ عليها. لقد كانت جميلة، أجملَ من هيلانة، ذاتُ خُطوطٍ رقيقةٍ ونُعمَةٍ كالمِرمرِ النَّقِيّ. ولكنّها كانت مُقلِّقة.

لم يَسْتَهوَ جوليا شيءٌ، ربّما سوى لُودُساتِ المُحاربةِ التي زخرتَ بها منطقة كايوَا. وقد أرادتُ أن تزورَ واحدًا من تلك الأمكنة الهَمْجيَّةِ وترى كيف يُدرَّبُ المحاربون. أرادتُ أن تعرفَ كلَّ شيءٍ عنهم. وكلّما حاولَ كلاوديوس أن يوجِّهَ الحديثَ إلى مسالكٍ أخرى فيها فِكْرٌ أكثرُ تنويرًا، كانت تُعيدُ الحديثَ إلى أولئك البائسين المساكين وراءَ الأسوارِ العاليةِ والقضبانِ الشَّخينة.

لعلّه توقَّعَ منها أكثرَ ممَّا ينبغي. فقد كانت صغيرة السنَّ وعديمةَ الخبرة. كانت ذاتُ ذهنٍ نشيط، ولكنَّ اهتماماتها كانت ضيّقة جدًا. فهيلانتهُ كانت عقْلابيَّة؛ أمّا جوليا فكانت جسدانيَّة. وبينما جتني بعضَ المتعة من جَسَدِ جوليا الجميلِ الفَتِيّ، كانتِ المتعة آخذةً في التقلُّص، وباتتِ العاقبةُ أكثرَ تشبيهًُا للهيمَّة. ومع هيلانة، سبقَ أن تشاركَ في الشَّغفِ والرَّقَّة. حتّى إنَّهما أحيانًا كانا يتصاحكان ويتحدَّثان إلى أن يناما. أمّا جوليا فقد احتملتُ حيازته بِصَمْتٍ مُضخِّ. وهو لم يبقَ في عُرفتها قطُّ وقتًا يتخطى الضَّروري.

لقد لازمتَه الوَحْشَةُ التي لا تُطاق من جرّاءِ بقاءه بعدَ رحيلِ هيلانة. وفكّر في التغلُّبِ على تلك الوحشة بِتزوُّجِ جوليا الفتيةِ النابضة بالحياة. فكَم يمكنُ أن يكونَ الرُّجُلُ مُخطئًا؟ لم يكنُ بينهما أيُّ شيءٍ مُشتركٍ. وما توهُّمه حُبًا لم يكنُ إلّا الحاجةُ الجسدانيَّةُ لدى رُجُلٍ مُغفلٍ. كَم ينبغي أن يكونَ كيوييد ضاحكًا بعدما أطلقَ سهمه مُستقيمًا وصائبًا! لقد فقدَ كلاوديوس عقله، ولكنَّ لم يفقدَ قلبه، ولذَهِ الآن باقي حياته كي يتوبَ عن حماقته.

نشرَ كلاوديوس الدَّرَجَ بعدَ، واستغرقَ في دراساته لأديان الإمبراطوريَّة. وهذا موضوعٌ مهمٌّ كفايةً بحيث يُبقيه مشغولًا إلى أن يطلبَ نفسه الإله حادِس- إلهُ الجحيمِ.

وفي الصباح التالي، شاهدَ زوجتهَ الفتيةَ تتمشّي بين الحدائق مع خادمتها. ثمَّ رأى جوليا قاعدةً على بنكِ رُخاميٍّ وهي تقطفُ الأزهار، فيما وقفتُ خادمتُها مُتكلمةً. وقد رفعتُ جوليا نظرها مرَّةً وعلقتُ تعليقًا وجيزًا، ثمَّ أومأتُ للخادمة بأن تُتابعَ الكلام. وراقبَ لحظاتٍ طويلةً

فيما الفتاة العبدة تتحدث، ثم خرج لينضم إليهما، دفعه الفُصول إلى سماع ما كانت تقول. رآته جوليا مُقبلاً، فأطرقت رأسها. ورآته هَدَسَةً أيضاً، فتوقفت عن حكاية قصتها. وعلكت جوليا شفتها السفلى، مُتسائلة هل يُوبخها على رَفْصها الانضمام إليه في البيليوتيكيا مساءً أمس. ولكنّه لم يقل شيئاً عن ذلك حينما انضم إليها. ووقفت هَدَسَةً في سُكوتٍ لائق لدى اقتراب سيدها. أمّا جوليا فتمنت أن يقول كلاوديوس ما يريدُ قوله، ثم ينصرف. بعد يقرب زوجته على البنك. "كانت خادمك تتكلم إليك". ورأى دق الاحمرار يغمر وجه الفتاة العبدة.

"كانت تحكي لي قصة أخرى من قصصها".

"أي نوع من القصص؟"

قطفت جوليا زهرةً أخرى، وقالت: "عن شعبها. القصص تُساعد على تقطيع الوقت حين يكون هناك قليلٌ نقومُ به". ثم رفعت الزهرة إلى أنفها وتنشقت الرائحة العطرة القويّة. وسأل كلاوديوس: "قصص دينية؟"

نظرت جوليا إليه من خلال أهداب عينيها، وضحكت برقة. "في نظر فتاة يهودية، كل شيء ديني".

نظر كلاوديوس إلى خادمة جوليا بزيد من الاهتمام. "أود أن أسمع بعضاً من قصصها حين تستطيعين توفيرها، يا عزيزتي. فأنا أقوم بدراسة مقارنة للأديان. وسيكون مفيداً أن أسمع ما يمكن أن تقوله خادمك عن أساسيات إيمان اليهودي بإله غير منظور".

وهكذا كان، في المرة التالية التي فيها أرسل كلاوديوس پريسيس لاستدعاء زوجته، أن جوليا أرسلت تحياتها وتأسفاتها الرقيقة... وهَدَسَةً بدلاً منها.



أمسك مرقس بإحكام لجام جواده الأبيض الجديد، وهو يقوده وسط المزدحمين بقرب أبواب المدينة. كان الحصان فحلاً رائعاً وصل حديثاً من بلاد العرب، وقد وتره الضجيج والجلبة. وما لبث مرقس أن رأى أنه لا يحير كثيراً من التقدم وهو سائر على قدميه، فاعتلى ظهر الحصان. وصاح على بضعة رجال أمامه: "حيدوا جانبا والآن تعرضتُم للدوس". فرفع الجواد رأسه الكبير ووثب مهتاجاً. وحثه مرقس على التقدم، مراقباً الراجلين يفسحون له الطريق بسرعة. خارج أسوار روما، عجت الطريق بالمسافرين الذين يريدون دخول المدينة. كان الأفقون سائرين على الأقدام، حاملين كل ما لديهم في أكياس على ظهورهم، فيما كان الأغنياء يحملون عالياً على هودج فاخرة ذوات كراسي، أو يجرون في عربات فخمة مذهبة ذوات ستائر حمراء. وكانت العربات ذوات الدواليب الأربعة والأحصنة الأربعة (رايدرا) محملة بعدد كبير من المسافرين، فيما ذوات الدولابين والحصانين (سيزيوم) - وهي أسرع وأخف - تحوي في الطليعة. أما سائقو العربات التي تجرها الثيران، وهي مشحونة بالبضائع، فلم يكونوا على عجلة من أمرهم، علماً منهم بأن عليهم الانتظار إلى ما بعد الغروب حتى يرفع الخطر عن مركباتهم.

ركب مرقس نحو الجنوب على طريق فيا أيبا، فخوراً بالجواد الذي اشتراه حديثاً. وقد سمح للحصان بأن ينطلق مسرعاً، رافعاً رأسه عالياً بخيلاء وهو ينترب بخضب مبتغياً أن يعدو. كانت الطريق تعج بمبعوثي الأقاليم البعيدة والرسميين الرومان وجنود القبائل والتجار والباعة والعبيد مما يزيد على عشر ولايات مخضعة. وركب مرقس عبر الضواحي، مجاوزاً فرقة بناء تضم عبداً وسجناء وجنوداً منهمكين جميعاً في تحسين طريق تؤدي إلى دارات جديدة في التلال. وقد كانت المنشآت الجديدة تطلع كالأعشاب على كل منحدر حول المدينة.

كلما ابتعد عن المدينة، تنفس على نحو أيسر. لقد أراد أن يهرب من ضوضاء المدينة، من الجلبة التي لا تنقطع والالتزامات المزعجة. وكان تقريباً قد فرغ من بناء الإنسولايبى - مساكن عالية ضخمة في مجموعات تملأ كل منها صفًا متلاصقًا في المدينة - بقرب ميدان مازس وسوق المواشي. وقد بدأ الناس فعلاً بالاصطفاف للحصول على مكان في مبانيه، لكونها أحسن بُنياناً من أغلب المساكن وأقل عرضة للاحتراق. وعاجلاً استدق عليه

بَدَلَات الإيجار. أمَّا الدَّارَةُ التي كَانَتْ قَيْدَ الإنشاء على تَلِّ الكايبتولين، فقد أُحْجِرَ نِصْفُهَا، ومع ذلك تَلَقَّى بِشَانِهَا أَرْبَعَةَ طَلَبَات، كُلُّ منها أَفْضَلُ من سَابِقِهِ. غيرَ أَنَّهُ لم يَقْبَلْ أَيًّا منها. إذ كَانَ قد نوى أَنَّهُ ما إن يَنْجِزُ البِنَاءَ حَتَّى يعمدَ إلى فَتْحِ الدَّارَةِ لبِضْعَةِ ضيوفِ أَثْرِياءِ مَحْصُوصِينَ، ثُمَّ يُقِيمَ مَزَادًا عَلَنِيًّا خَاصًّا ليرْفَعِ الثَّمَنَ أَكْثَرَ بَعْدَ.

كَانَ أَبُوهُ يَضْغَطُ عَلَيْهِ لِتَحْمُلِ مَزِيدٍ من المَسْئُولِيَّةِ في أَعْمَالِ الشَّحْنِ البَحْرِيِّ. وَلَكِنْ مِشَارِعَهُ الخَاصَّةُ كَانَتْ تَحْرِي حَسَنًا وَتَشْغَلُ قِسطًا من وَقْتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ صَدَّ أَبَاهُ. فَمَا التَّحَدِّي في تَوَلِّي المَسْئُولِيَّةِ لِعَمَلٍ قَائِمٍ وَمُؤَوَّدٍ فِعْلًا؟ لَقَدْ أَرَادَ أَن يَبْنِي اسْمَهُ الخَاصَّ وإمْبِراطُورِيَّتَهُ الشَّخْصِيَّةَ الصَّغِيرَةَ داخِلَ الإمبراطُورِيَّةِ. ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ قَائِمًا بِذَلِكَ. فَإِنَّ شُهْرَتَهُ قَدْ انْتَشَرَتْ بِأَطْرَادٍ من طَرِيقِ الاتِّفَاقِيَّاتِ التي رَتَّبَهَا أَنتيغُونُسُ عِبرَ عِلاقَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ.

وَكَانَ أَنتيغُونُسُ سَبَبًا آخَرَ من أَجْلِهِ أَرَادَ مَرْقُسُ أَن يُعَادِرَ رُومًا بِضِعَّةِ أَيَّامٍ. فَإِنَّهُ سَتَمَّ الإِصْغَاءَ إِلَيْهِ مُنْتَجِبًا بِشَأْنِ مَشْكَلاتِهِ، وَمُسْتَعْطِيًا المَالَ. وَقد تَكَلَّمَ بِحَرْيَّةٍ مُفْرِطَةٍ مُنْتَقِدًا ذَوِي المَنَاصِبِ!

كَمَا أَرَادَ أَيضًا مَسَافَةً تُبَعِّدُهُ عَن أَرِيَا. فَقد انْقَطَعَ عَنِ التَّماسِ رِفْقَتِهَا، وَلَكِنَّهَا لم تَكْفُ عَنِ السَّعْيِ إِلَيْهِ. وَهِيَ قَالَتْ لَهُ إِنَّ فَاِنِيَا كَانَتْ بِصَدَدِ تَطْلِيقِ پِتْرُوسِ، وَقد دَأَبَتْ في إِخْبَارِ الجَمِيعِ بِأَنَّ لَدَيْهَا عَشِيقًا، وَلَمْ يُرِدْ أَن يَزِيدَ ذَلِكَ البَلَاءَ أَيضًا على كَتِفِيهِ. وَتَجَهَّمُ إِذ تَذَكَّرَ تَأَلَّمَ أَرِيَا وَتَبَرَّتْهَا الغَاضِبَةُ.

”أَهوَ أَنْتِ، يَا مَرْقُسُ؟“

فَأَجَابَ صَادِقًا: ”لَمْ أَرُ فَاِنِيَا الحَسَناءَ مِنْذِ الحَفْلَةِ التي أَقامَها أَنتيغُونُسُ قَبْلَ الأَلْعَابِ الأُولِيناريَّةِ. لَقَدْ كُنْتُ هُنَاكَ، أَلَا تَذَكَّرِينَ؟ وَقد سَبَحْتَ عَارِيَّةً في نَافُورَةِ أَنتيغُونُسِ إلى السَّاتِيرَاتِ“^{١٤}. كَانَتْ أَرِيَا سَكَرَانَةً وَغَاضِبَةً بِضَرَاوَةٍ لَمَّا رَأَتْهُ في الحَدَائِقِ مع فَاِنِيَا. وَهُوَ رَمَاهَا في البَرَكَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ شَكَّ في تَذَكُّرِهَا ذَلِكَ.

وَإِلَّآنَ بَاتَتْ أَرِيَا تَحْضُرُ كُلَّ احتفالِ وولِيمَةٍ يُقِيمُهُمَا، شُوكَةً دائِمَةً في خَاصَرَتِهِ. وَإِذ جَرَحَ رَفْضُهُ كِبْرِياءَها، قَالَتْ لِأَصْدِقَائِهَا إِنَّها صَجِرَتْ مِنْهُ، مع أَنَّهُ بَدَأَ واضِحًا جَدًّا أَنَّها ما تَزَالُ تُرِيدُهُ. فَكَانَ إِصْرًاها مُرِيكًا وَمُحْرِجًا.

لَقَدْ وَجَدَ شَيْئًا من الرَاحَةِ في حالَتِهِ العَدِيمَةِ الارتِباطِ. ففِي وَسْعِهِ أَن يَفْعَلَ ما يَحِلُّو لَهُ، وَمَتَى شَاءَ ذَلِكَ، وَمَعَ مَنْ أَرَادَ. وَعَلَى مَدَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، تَمَتَّعَ بِمَلُونِيَا، وَهِيَ امْرَأَةٌ كَانَتْ صَدِيقَةً

١٤ ساتير (Satyr) هو إله إغريقي من صغار الآلهة، رأسه وبدنه الأعلى كالإنسان، وله قرنان وأذنان ورجلان كالماز (الناسر).

لتيطس، ابن الإمبراطور. وبواسطتها، قُدِّمَ مَرْقُسُ إلى تيطس. وكان فلاقيوس الأصغر مُكْتَنِبًا لانتهاه علاقته الغرامية بالأميرة اليهودية برينيس. فمع أنها كانت أسيرته، فهي قد أسرته. وقد تساءل مَرْقُسُ عن الشائعات التي انتشرت في أرجاء الإمبراطورية بأن تيطس أراد أن يتزوج بيهودية. ولم يُصدِّق ذلك حتَّى التقى تيطس نفسه. فلولا إصدارُ فسبازيان أمره بإنهاء العلاقة، لربما أقدم تيطس على ذلك فعلاً.

ما كان على تيطس قط أن يفكر مجرد تفكير في التزوج بامرأة غريبة الجنس كذلك. فربما كان ذلك مزيحاً من قضائه شهوراً كثيرة جداً في حوض الحِمَلات العسكرية وأوقاتاً طويلة جداً تحت شمس اليهودية الحارة. وقد كانت النساء هناك حتَّى يقهرهنَّ الرجال ويتمتعوا بهنَّ، لا لكي يقبلن حياة الرجال رأساً على عقب، أو يعتنن العيصان في أنحاء الإمبراطورية. ففكر مَرْقُسُ في هدسة، ثم طرد صورة وجهها اللطيف بعيداً. وصرف أفكاره نحو مقالع الصُخور. فقد اشترى مساهمة في اثنين منها يبعدان عن روما مسيرةً تقل عن يوم واحد بعد سماعه شائعة نقلها إليه واحد من وكلائه. إذ إنَّ واحداً من عبید البلاط لدى فسبازيان استرق السَّمع على حديث بين الإمبراطور وبضعة أعضاء في مجلس الشيوخ بشأن بحيرة نيرون قرب البيت الذهبي. وكان فسبازيان يفكر ملياً في تحفيف البحيرة وجعلها موقعاً لمدرج كبير جداً بحيث تتسع مقاعده لثمة ألف من العامة.

ستدعو الحاجة إلى أطنان من الحجارة، وأين تُشترى أفضل من المقالع الأقرب إلى روما؟ ومع أن لمرقس حصّة ضئيلة في المقالع، فإنه حتَّى الحصّة اليسيرة ستساوي ثروة حال مباشرة المشروع الضخم.

ابتسم مرقس ابتسامة عريضة، وأرخبى رأس الجواد كي يعدو مسرعاً على الطريق المنحدر. وقد انعشته سرعة مطيته وقوتها، فتسارع دمه تجاوباً. ثم خفف الحصان سرعته بعد بضعة أميال، وتنشق مرقس باستمتاع هواء الريف المنعش.

ود لو يعلم كيف تجري أحوال جوليا مع زوجها الهرم كلاوديوس. لم يكن قد رآها منذ شهور، وهي لم تكن تتوقع قدومه، فسرتته فكرة مفاجأتها تماماً.

اشترى طعاماً من سوق في الهواء الطلق بإحدى السقييات (البلدات) الصغيرة، وتابع مسيرته. ومرّ بمسافر غني يأمر عبده بنصب خيمة لقضاء الليل. ففي وجود تلك الحاشية الكبيرة المحيطة بالرجل، وتواتر جنود الفيالق الرومانيين على الطريق، كان احتمال حصول اعتداءٍ مسافر ضئيلاً. ومبيت ليلة في فندق محلي كان دعوة إلى وقوع سرقة، أو أسوأ.

كان لمرقس أصدقاء على الطريق، ولكنه اختار ألا يُعرج عليهم. فقد أراد أن يختلي بنفسه، أن يسمع الصممت وأفكار رأسه. وانتقى مكانًا للمبيت بعيدًا تمامًا عن الطريق، ومستورًا بتشكيلة من الغرائب.

كان المساء دافئًا، فلم يحتج إلى نار. فنزع السرج والحرام عن جواده، ثم نظفه بالفُرْشاة. وكان هنالك جَدْوُل ماء وكثير من العُشب للرعي. فربط الفحل بحبل طويل يتيح له الوصول إلى كليهما، ثم استلقى تحت النجوم.

ترمَّ الشكون العذب في أذنيه كما لو أن حوريات الغابات كُنَّ على مقربة منه، فتشبع منه مُستسيغًا السلام. ولكن ما لبث أن فارقه ذلك السلام إذ انشغل فكره بعشرات قرارات العمل التي عليه أن يتخذها في أثناء الأسابيع المقبلة. فقد بدا أنه كلما ازداد نجاحًا، زادت حياته تعقيدًا. حتى الفرار بضعة أيام اقتضى جهدًا ضخمًا.

على الأقل، لم يكن في مركز أبيه الاجتماعي. فهو غير مُضطَرَّ إلى الجلوس على كرسي كورول باكرًا كل صباح لتوزيع الدنانير على عشرين زبونًا أو أكثر، واقفين وقبعاتهم في أيديهم. وكانوا دائمًا يتلکأون، طالبين النصح، مُقدمين التملق، مُنحنين تعبيرًا عن تشكراتهم غير المُخلصة.

كان أبوه رجلًا كريمًا، ولكن في بعض الأوقات كان يخلُ حتى بقطعة النقد التي يتصدق بها. وقد قال إنها تنزع من الرجال الرغبة في أن يشتغلوا بأنفسهم. فليقاء بضعة دنانير، كانوا يبيعون احترام الذات لديهم. ولكن أي خيار بقي للرومانيين حين بات عدد السُكَّان مُكتظًا بوافدين من كل إقليم مُضجع، وهيمنت البضائع الأجنبية على السوق؟ وقد طالب الثمال الرومانيون الأحرار بأجور تفوق ما يأخذه العبيد الإقليميون. فالرومانيون حسبوا أنفسهم أرفع من تلقى الأجور العامة. وقد تمسك الأقسسيون، أمثال أبيه، بكل فرصة مُتاحة.

إذ ولد مرقس وتربى في المدينة الخالدة، شعر بأن ولاعين تنازعه. فهو كان رومانيًا أكثر منه أفسسيًا. غير أن أباه كان ما يزال يشعر بأن جذوره ضاربة عميقًا في أفسس. وقبل بضعة ليالٍ، قال أبوه ساخطًا: "لئن كنت رومانيًا بشراي الجسدية، ففي دمي أنا أفسسي، وسأبقى هكذا دائمًا... مثلي مثلك!"

تعجب مرقس من حمس أبيه، وشرح دسُس الأسباب التي من أجلها صار مواطنًا رومانيًا: "كان أمرًا مهمًا في ما مضى أن يكون المرء رومانيًا، كي يضمن الحماية والفرصة. وقد اقتضى الأمر وقتًا وجهدًا. إنه كان شرقيًا يُسبغ على قلة مُختارة اكتسبته. أمًا في هذه

روما

الأيام، فأني رجلٍ يحملُ الثَّمَنَ يستطيعُ أن يكونَ رومانيًا، حليفًا كان أم عدوًّا! لقد باتت الإمبراطوريةُ مثلَ عاهرٍ عامَّة، ومثلَ العاهرِ هي مُنحَلَّةٌ وفاسِدةٌ من الداخلِ“ .

بدا أبوه مُنجدبًا، وتحدّث بسرِّعةٍ مُستفزةٍ بشأنِ الموطِن الذي تركه منذ أكثر من عقدين مَضِيًا. حتَّى قيادةُ فسبازيان المُقتدرةِ للإمبراطوريةِ لم تُسكِّنِ افتراضاتهِ الكثيية. فكأنما سَعَتْ قوَّةٌ مجهولةٌ داخلَ القاليريانيِّ الكبيرِ إلى جَذبه رجوعًا إلى أفسس.

تنهَّد مرقس وفكَّر في أمورٍ أكثرَ إبهاجًا وأقلَّ إزعاجًا. ملُونيا بعينِها الخضراوين وإغواءاتها المُتقنة، غلافيرا بتقاطيعِها الناعمةِ المُبهجةِ للحواس. ومع ذلك، فعندما نام، كانتِ المرأةُ التي شغلتُ أحلامه كُلَّها هي يهوديَّةٌ فتيَّة، يداها مرفوعتان نحو السَّماءِ إلى إلهها غيرِ المنظور.

ابتهجتُ جوليا برويةٍ أحيها ابتهاجًا بالغِ الانفعال. إذ ارتمت بين ذراعيه ضاحكةً ومُعبرةً عن جزيلِ شُكرها على قدومه. فرفعها وقبَّلها بحنان. ثُمَّ أوقفها على قدميها من جديد، مُطوِّقًا إياها بذراعه إذ خرَّجا إلى الفناء. لقد كبرتُ قليلًا في أثناء الأشهر التي انقضتْ منذُ رآها آخرَ مرَّة، وبَدتْ أجملُ ممَّا كانتُ في أيِّ يومٍ من الأيام.

”أين زوجك المشغوف؟“

فهزَّت كتفيها بلا مُبالاة، وقالتِ ملوِّحةً بيديها استهيجانًا: ”ربَّما في المكتبة، عاكفًا على دُروجهِ مُجددًا. ماذا جاء بك إلى كابوا؟“

قال: ”أنتِ!“ فخورًا بمدى جمالِها البالغ. وقد كانتُ عيناها مُتألِّقتين ومُشرقتين، ترحيبًا به.

”أنصطحبيني إلى أحدِ اللُودسات؟ ليس لدى كلاوديوس وقتٌ لانصرافه إلى دراساته، وأنا يكادُ يقتلني التوقُ لأن أرى كيف يُدرَّب المحاربون. هلاً تصطحبيني، يا مرقس! آه، رجاء! سيكون الأمرُ مُمتعًا جدًّا“ .

”لا أرى مُشكلةً في ذلك. هل من لُودسٍ مَخصوصٍ تُريدنَ زيارته؟“

”هنالك واحدٌ غيرُ بعيدٍ من هنا. إنَّه يخصُّ رجلًا اسمه سكوريس يركُزُ كارپوفورس. وقد سمعتُ أنَّه واحدةٌ من أفضلِ منشآتِ التَّدريبِ في الإقليمِ“ .

كانتُ حدائقُ كلاوديوس واسعةً وجميلةً. وكان عدَّةُ عبيدٍ يقومون بالتشذيب والتَّهذيب والتَّعشيب لإبقاء الممرَّاتِ مُرتبةً. وقد تنقَّلتِ الطيورُ مُرفقةً ومُغرَّدةً على أغصانِ الأشجار الوارفة. كانت تلك الدَّارةُ ملكًا لعائلةِ كلاوديوس منذ سنين كثيرة. وقد ماتتُ زوجته هيلانة

هناك. ولم يرَ مرقس أية علامة على أن طيفها قد ضاءلَ سعادة جوليا الزوجية. فهي بدت الآن أسعدَ منها يومَ قُطعت نُدور الزواج.

سأل مرقس بابتسامة مُناكدة: ”كيف تجري أحوالكِ مع زوجك؟“

فأجابَت جوليا بابتسامةٍ طفيفة: ”جيدة إلى حدِّ بعيد. أحياناً نتمشى في الحدائق، وأحياناً نتحدَّث“. وضحكت من الابتسامة الخبيثة التي أبداها لها. ”ذلك الشيء أيضاً، إنما ليس كثيراً هذه الأيام، والحمد للآلهة!“

ارتسمت على وجه مرقس عُبسةٌ سريعةٌ إذ جرَّت جوليا قدامه وقعدت على بِنكِ رُخاميٍّ تحت ظلِّ سنديانة عتيقة. ”أخبرني بكلِّ شيءٍ عن روما، يا مرقس. ماذا يجري هناك؟ أيُّ قالٍ وقيلٍ فاتني؟ إنني أتحرقُ توقاً لأن أعلم.“

تحدَّث مرقس بعضَ الوقت، فيما تشرَّبت أخته تماماً كلَّ ما قاله. ثمَّ أحضرتْ خادمةً نبياً وفاكهة. ولم يكن مرقس قد رآها قبلاً. فصرفتها جوليا، وكشَّرت في وجهه. ”اسمها كاتيا. جميلة، أليست؟ حدار أن تحبها وأنت هنا، يا مرقس! إنَّ ذلك لا بد أن يحدِّش حسَّ الاحتشام لدى كلاوديوس.“

”هل بعث اليهودية الصغيرة التي أعطتكِ الوالدة إياها؟“

”هدسة؟ لن أتخلَّى عنها مُقابلَ أيِّ شيءٍ! إنَّها مُتفانية ومُطبعة، وقد كانت ذات نفعٍ جزيلٍ جداً لي طوال الأشهر القليلة الماضية.“

كان في آخرِ جُزءٍ من عبارتها رسالةٌ خفية، إذ تألأت الفتنة في عينيها. فابتسم ابتسامةً ساخرة، سائلاً: ”حقاً؟“

قالت: ”إنَّ كلاوديوس مأخوذٌ بها كثيراً.“

تفجَّر في داخل مرقس دَفقٌ حارٌّ مُفاجئ من العاطفة القائمة. ولم يستطع أن يُخمِّن مشاعره، لأنَّ ما قبضَ معدته كان مُضايقاً إلى أقصى حدِّ. فسأل بلهجة هادئة مضبوطة: ”وأنتِ راضيةٌ بالوضع؟“

”أكثرُ من راضية. أنا مُبتهجة!“ وقتمتِ ابتسامتها إذ رأَتْ سيماء وجهه. ثمَّ عضتْ شفتيها كطفلةٍ باتت فجأةً غيرَ واثقةٍ بنفسها. ”لا داعيَ لأن تنظرَ إليَّ هكذا. لا يمكنكِ أن تعي كم كان الأمرُ مروَّعاً، يا مرقس. إنني لم أكذُ أحملة.“

ازدادَ غضباً، وأمسكَ بمعضمها إذ أشاحت بنظرها. ”هل عاملِكِ بقسوة؟“

قالت: "ليس بقسوة، على وجه الدقة". ورفعت نظرها نحوه بارتباك. "بإصرار فحسب. لقد باتت مُملًا، يا مرقس. ما كان ليدعني وشأني ولو ليلة واحدة. ثم خطرت لي فكرة إرسال هَدَسَة. ليس من خطأ في ذلك، أهنالك خطأ؟ إنها مجرد عبدة. وعليها أن تخدم وفق أية طريقة أقررها. وكلاوديوس يبدو قانعًا تمامًا بهذا الترتيب. فهو لم يتذمر".

ضحج الدم في رأس مرقس. "ستحصل فضيحة إذا حيلت قبلك".

فقالت جوليا: "لا يهمني الأمر. فليفعل بها ما شاء، ما دام يدعني وشأني. لا أستطيع احتمال لمس إياي". ثم وقفت ومشت مُبتعدة عنه، ماسحة الدموع عن خديها الشاحبين.

"لم أرك منذ أشهر، والآن أنت غاضب علي".

وقف مرقس وذهب إليها. وأمسك كتفها بشدة، قائلاً بلطف: "لست غاضبًا عليك. سكوتًا، يا صغيرة". ثم أدارها وضمها بحنو. كان يعلم أن ترتيبات كهذه تجري في كثير من البيوت. فأى شأن له إذا قررت أخته اعتمادًا بمآزسات من هذا النوع في بيتها؟ وما دامت سعيدة، فأى فرق يحدث ما فعلته؟

غير أنه أحدث فرقًا بالفعل. وقد قال لنفسه إن قلقه على زواج أخته هو الذي أزعجه. ولكن فكرة حيازة كلاوديوس فلاكس أخته وهَدَسَة كليتهما اعتملت في داخله، أكثر مما تصور.

عندئذ انضم كلاوديوس إليهما. وقد بدا نشيطًا بالنسبة إلى رجل في الخمسين، وقانعًا بزواجه. وراقبه مرقس مع جوليا باقي عصر النهار، حتى العشيّة. فإذا أمر واحد كان جليًا: أن كلاوديوس لم يعد هائمًا في حُبها. لقد عاملها باحترام وحياءٍ مُهدبين، ولكن شرارة الغرام كانت غائبة على نحو ملموس.

كانت جوليا مُسترخية، وتابعت سائلة مرقس عن روما. لم تبدل أيّ جهد لإشراك كلاوديوس في حديثها، مُتجاهلة إياه بوقاحة تقريبًا. حتى إذا اشترك فعلاً في الحديث، أصغت إليه بحالة من السأم والتصبر جعلت مرقس ينقبض داخلًا. غير أن كلاوديوس نادرًا ما كان لديه ما يقوله. فهو أصغى بتأدب إلى حديثهما، ولكنه لم يبد كثير الاهتمام بشؤون الدولة أو بما جرى في مختلف المهرجانات. لقد بدا ذاهلاً ومُستغرقًا في أعماق تفكيره الخالم.

إتكأوا على الأرائك لتناول العشاء. وقدّم ليكون طبقًا رئيسيًا خنزير طري وافز العُصارة كان قد سُمن بالبلوط. ولكن شهية مرقس كانت ضئيلة فأكل قليلًا، وشرب خمرا أكثر من العادة. وبدل أن يبدد الشرب التوتّر لديه، ضاعفه. وقد كانت هَدَسَة تقوم بخدمة جوليا.

بعد نظرة أولى خاطفة إلى اليهودية، لم ينظر إليها مرقس ثانية. غير أنه لاحظ أن كلاوديوس فعل ذلك عدّة مرّات. وقد ابتسم مرّةً ابتساماً رقيقة جعلت يد مرقس تتشبّث بكأس الخمر. وبدت جوليا راضيةً تماماً.

عزف موسيقيون بالناي والقيثارة ألحاناً مهذّبةً تُسكن قلباً مضطرباً. وفي أعقاب تقديم اللون الأخير المؤلّف من الفواكه، رفع كلاوديوس كأسه الذهبية ثم قلبها. فانتشر رشاش الخمرة الحمراء على الأرضية الرخامية سكباً لألتهته، مُعلّناً بذلك انتهاء العشاء.

أرادت جوليا أن تجلس في الحدائق، فقالت: ”لدينا، أنا ومرقس، أمورٌ كثيرةٌ جدّاً نتحدّث بها، يا كلاوديوس“. وشبكت ذراعها بذراع مرقس، مُبيّنةً بوضوح أنّ رقيقة زوجها أمرٌ غير مرغوبٍ فيه. ولاحظ مرقس أنّ كلاوديوس ابتسم بحماسة، مُفْرِجَ الأسارير.

قال كلاوديوس: ”بالتأكيد، يا عزيزتي“، وهو ينحني ليقبل خدّها. وشعر مرقس بأصابعها مشدودةً على ذراعه. فاعتدل كلاوديوس ونظر إليه. ”أراك صباحاً، يا مرقس. مهما أردت، فما عليك إلا إخبار پرسيس“. ثم غادرهما.

سألت هُدسة: ”هل تُريدن شيئاً، سيّدتي؟ الطقّس باردٌ هذا المساء“.

اخترق صوتها قلب مرقس، وشعر بدقّة غضبٍ مُتقدّمةٍ عليها. وغادرت الغرفة ثمّ عادت بِشالٍ من الصوف، وألقته برفقٍ على كتفي جوليا. وراقبتها علناً، غير أنّ عينيها لم ترتفعا نحو عينيّه مرّةً واحدة. ثمّ انحنّت هُدسة انحناءةً يسيرة، وترجعت خطوةً إلى الوراء.

حين قعدا في الحديقة، أردت منه جوليا أن يُحدّثها بشأن جميع مباريات ساحة المحاربين التي شاهدتها طوال الشهور الماضية. وسألتها مرقس بقصصٍ شتى عن مبارياتٍ فيها أخفقت حُطط المتقاتلين.

”رمى البريتوني سيفه وأخذ يركض دائرياً داخل ساحة المحاربين مراراً. كان صغيراً وسريعاً جدّاً بحيث جعل الغالي يبدو مثل ثور يتحرّك بتثاقل. وقد جاوَز البريتوني الضئيل وهو راكض سيفه ثلاث مرّات دون أن يخطُر في باله قط أن يلتقطه. وهدر الجمهور ضحكاً“.

ضحكت جوليا أيضاً: ”هل تمكّن الغالي من الإمساك به؟“

”لا، وصارت المباراةُ مِلمةً جدّاً، فأمر الغالي بالخروج من ساحة المحاربين، وأدخلت إليها زُمرةً من الكلاب المُدربة. ولم يصمد البريتوني الصغير طويلاً بعد ذلك. فبعد دقائق قليلة، انتهى الأمر“.

روما

تَنهَّدتْ جوليا. ”رَأَيْتْ مِنْذُ مُدَّةٍ مُحَارِبًا يَعدُو مَعِ مُدْرِبِهِ عَلى طَريقنا. لَقد كان سَريعًا جَدًّا. كان في وُسْعِهِ أن يَدْرِكَ ذلكَ البَريتونِيَّ بِسَهولَةٍ“. ووضَعَتْ يَدَها عَلى فَخْذِ مَرْقُس.

”مَتى تَصلُحُ جُنُبِي إلى اللُّودُسِ؟“

أجاب بِابْتِسامَةٍ ساهِيَةٍ: ”أَمَهلِني يَومًا أُستَريحُ فيهِ من سَفرِتي، ثُمَّ نَحنُ في الأَمْرِ“. ومَهما حاول، عَجَزَ عَن مَنعِ ذَهنِهِ مِنَ الشُّرودِ رَجوئًا إلى هَدِسة.

”لَا أريدُ أن نَحنُ في الأَمْرِ. فَكُلَّمَا بَحثُتُ فيهِ مَعِ كَلاوديوس، يُغَيِّرُ المَوضوع. يَقولُ إنَّ وَقْتَهُ لَا يَتَسَعُ لِاصطِحابِي. وَلَكنَّ لَدِيهِ مُتَسَعًا مِنَ الوَقتِ. فَهو إنَّما لَا يَريدُ أن يَذهب. وَإِن رَفضتَ طَلبِي، فَسَأهَندِي إلى طَريقَةٍ لِزِيارَةِ لُودُسِ بِمُفَرَدِي“.

فقال مُتَضحِكًا: ”ما زِلتِ تَهَددِني بِالعَواقِبِ الوَخيمة، كَما أرى“.

”لَيسَ الأَمْرُ مُضحِكًا. لَا يَمَكنُكَ أن تَتَصورَ كَما هو مُضَجِرٌ أن أَعِيشَ في الرِّيفِ“.

”كُنْتِ تُحَيِّنِ الرِّيفَ“.

”لِقَضَاءِ أُسبوعٍ أو أُسبوعَينِ، عَندَما كُنْتِ صَغيرةً. أَنَا امْرَأَةٌ الآنَ، يا مَرْقُس. لَقد سَمِئْتُ اللُّعِبَ بِالعَظِيماتِ والنَّردِ“.

فقرَصَ خَدَها مازِحًا، وَقال: ”إِذا اسْتَقَرَّيَ وَأُنجِبي بَعضَ الأَولادِ. سَرَّحِي الصُوفِ وَأَنسِجِيهِ مِثْلَ الوالِدةِ“.

قَدَحَتِ عَيناها اسْتِياءً، وَقالتِ بوقارٍ بِالغِ: ”حَسَنٌ جَدًّا!“ وَهَمَّتْ بِالنُّهُوضِ.

فأمسَكَ مَرْقُسُ مِعصَمَها ضاحِكًا، وَأَقعدَها مِنَ جَديدِ. ”سَأُصلُحُ جُنُبَكَ، أَيُّها الأختِ الصَغيرة. بَعدَ غَدٍ، سَأُجَري التَّرتِيباتِ اللّازِمةَ“.

أشَرَقَتِ أَسارِيرُها حَالا. ”عَلِمْتُ أَنَّكَ لَن تُحَيِّبَ أَملي“. وَإِذ باتَ هَواءُ المِساءِ بارِدًا، رَجَعَا إلى البَيتِ.

اسْتخدَمَ مَرْقُسُ حَمَّامَ كَلاوديوسِ الفَاحِرِ. وَسَرَّيَ عَنهُ لَمَّا أرسَلتْ جُوليا إلىهِ كاتِيا، فَناولَتَهُ المِنشَقَةَ وَهو يُغادِرُ المَاءَ، وَعرضتْ عَليه أن تَفرِكَ جِسمَهُ بِالزَبُوتِ المُعَطَّرةِ وَتَكتَشِطَ جِلدَهُ.

غَيرَ أَنَّهُ صَرَفَ كاتِيا، مُفضِّلًا مُدَلِّكَ كَلاوديوسِ. لَقدِ امتَطى الحِصانَ سَاعاتٍ طَويَلةً، وَنامَ عَلى أَرْضِ صُلْبَةٍ. فَكانتْ عَضلاتُهُ تَولُّهُ، وَلَم تَكنْ يَدُ امْرَأَةٍ رَقيقَةً هِىَ ما يَطلبُهُ. رُجْمًا في ما بَعدُ!

وفِما العَبدُ يُدَلِّكُ عَضلاتِهِ، فَكَّرَ في هَدِسة.

وَإِذِ اسْتَرَخى قَليلاً بَعدَ التَدليكَ، انكفأَ إلى عُرفَةٍ ضِيوِفِ فَسِيحةً، واسْتَلقى عَلى سَريِرِ.

وحدقَ مَشْدُوهاً إلى جِدَارِيَّةٍ أُنِيقَةٍ فيها صورةُ أطفالٍ يلعبون في حقلٍ زهور. لعلَّ هذه الغُرْفَةُ مُعَدَّةٌ لتكوُنَ حُجْرَةَ نَوْمِ أطفال.

خَطَرَتْ له فِكْرَةَ قَاتِمَةٍ. ما فُرْصَةٌ جُولِيَا أن تُرْزَقَ أولادًا إذا سَمَحَتْ لِخَادِمَتِهَا بأن تَغْتَصِبَ حَقَّهَا؟

كَانَتْ السَاعَةُ مُتَأَخِّرَةً. وَلَا بُدَّ أن تَكُوْنَ جُولِيَا قد أُخْلِدَتْ إلى النَّوْمِ منذ وقتٍ طَوِيلٍ، وَلَيْسَتْ في حَاجَةٍ الآنَ إلى خَادِمَتِهَا. فَوَدَّ لو يَعْلَمُ إنَّ كَانَتْ هَدَسَةٌ ما تَزَالُ تَحْضِي إلى الحَدِيقَةِ لَيْلًا كي تُصَلِّيَ إلى إلهِهَا. وإذ حَسِبَ أَنَّهُ سَيَجِدُهَا هُنَا، قَامَ وخرَجَ. ولَمَّا لم يَجِدْهَا، دَخَلَ البَيْتَ من جَدِيدٍ واستدعى عبدًا.

قال: "أَحْضِرْ هَدَسَةَ إِلَيَّ!" ولَمَحَ ومَضَى الدهشَةُ الوجيزَةُ قَبْلَ أن يَكْظِمَ العَبْدُ مَشَاعِرَهُ. "اعتذاراتي، سيدي، ولكنَّهَا مع السيِّدِ."
فقال عابِسًا: "مع السيِّدِ؟"

"نعم، سيدي. لقد استدعاها السيِّدُ بعدَ العِشاءِ. هل أَحْضِرُ لك شَيْئًا؟ أترِيدُ قَلِيلًا من النَّبِيذِ". ثُمَّ سَلَكَ حَلْفَهُ بَعْصَبِيَّةً، وخَفَضَ صَوْتَهُ. "أترغِبُ في أن أستدعيَ لك كَاتِيَا؟"

"لا". كان العِشاءُ قدِ انْتَهَى منذ ساعات. فهل لَبِثًا مَعًا طِيلَةً هذا الوقت؟ تَدْفُقُ دُمُ الغَضَبِ في عروقِ مَرْقُسٍ. "أين مَهَاجِعُ السيِّدِ؟"
"ليس السيِّدُ في مَهَاجِعِهِ، يا سيدي. إنَّهُ في البِيبِلِيوتِيكَا."

صَرَفَهُ مَرْقُسُ بِنْتَرَةٍ من يَدِهِ. إنَّهُ يَنوِي أن يَضَعَ حَدًّا لَأَيِّ شَيْءٍ كان جَارِيًا بين كِلاودِيوسِ فِلاكسِ وهَدَسَةَ. ولم يَسْعَهُ أن يَتصوَّرَ لماذا كانت جُولِيَا غَيبِيَّةً هَكَذَا حتَّى سَمَحَتْ أن يَصِلَ الأمرُ إلى هذا الحدِّ. فغادرَ عِرْفَتَهُ واجتازَ الرُّواقِ المُفْضِي إلى المَكْتَبَةِ. وإذا البابُ مُفْتوح.

ما إنِ اقْتَرَبَ مَرْقُسُ، حتَّى سَمِعَ كِلاودِيوسِ مُتَكَلِّمًا. "بينَ جميعِ هذه الشَّرَائِعِ العَدِيدَةِ التي ذَكَرْتِهَا لي في الأَيَّامِ القَلِيلَةِ المَاضِيَةِ، ما الشَّرِيعَةُ العَظْمَى إِذَا، تلكَ التي تَحُلُّ محلَّ البَاقِيَاتِ كُلِّهَا؟"

"تُحِبُّ الرَّبَّ إلهَكَ من كُلِّ قَلْبِكَ، ومن كُلِّ نَفْسِكَ، ومن كُلِّ فِكْرِكَ. هذه هي الوَصِيَّةُ الأولى والعَظْمَى. والثانيةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كِنَفْسِكَ. بهَاتَيْنِ الوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ والأَنْبِيَاءُ".

روما

انتقلَ مَرْقُس إلى المدخل، ورأهما قاعدين أحدهما بقرب الآخر. كانت هَدَسَة جالسةً مُستقيمة الظهر على طَرَف كُرسيّ قصير، ويدها مَطْوِيَتان في حِضنها. أمّا كلاوديوس فكان مُستريحًا أكثرَ على أريكته، مُحدِّقًا مُباشرةً إلى وجهها. اتكأَ مَرْقُس بتراخ على إطار الباب، محاولًا إبقاء رأسه باردًا رُغمَ تدفُّقِ الغضبِ الحارِّ، وقال بفتور: ”وماذا لو كان قريبيك عدوًّا؟“ رفع كلاوديوس نظره مدهوشًا. كان واضحًا أنه لم يُرحَّب بالتَّطفُّل. فلم يعبأ مَرْقُس، بل أعادَ انتباهه إلى هَدَسَة. وكانت واقفةً ورأسها مُطرَّق، بانتظار أن يصيرَها سيِّدها. قال كلاوديوس: ”لك أن تذهبي، يا هَدَسَة“، ووقف.

لم يتحرَّك مَرْقُس من مدخل الباب، فلم تستطع أن تمرَّ. فتأملها من قِمةِ رأسها القائم حتى قدميها الصَّغيرتين المُصنَدَلتين. وانتظر أن ترفعَ عينيها وتتنظرَ إليه، غير أنها لم تفعل ذلك. قال كلاوديوس: ”ادخل واقعد، يا مَرْقُس“، مُزيحًا محبَّرتَه وريشَه، ولأفَّا دَرَجًا على مكتبه. استقامَ مَرْقُس قليلًا، فمرَّت هَدَسَة بقربه. وسمعَ وَقَعَ خطاها الناعمَ عبر الممشى. وقال كلاوديوس لمَرْقُس وهو يبتسمُ له مؤاسيًا: ”يلزمني دائمًا بضعةَ أيامٍ حتى أتكتيف مع الشكون من بعدِ روما“.

دخلَ مَرْقُس الغرفة. ولم يكن الشكون هو ما أبقاه مُستيقظًا.

قال كلاوديوس: ”هل لي أن أقدم لك شيئًا من الخمر؟“

ثمَّ سكبَ له كأسًا قبل أن يُجيب، وناولَه إيَّاهَا. فأخذها مَرْقُس وراقبه يسكبُ أخرى لنفسه. وقد كان كلاوديوس مُستريحًا وعينه أكثرُ إشرافًا ممَّا كانتا طوال العصر بصُحبة جوليا. يبدو أن رِفقة هَدَسَة كانت مُحفزة!

قال مَرْقُس برُتوب: ”أسفٌ لأنِّي قاطعتُ ما كان يجري بينك وبين خادمة أختي“.

أجاب كلاوديوس وهو يتكلم على أريكة: ”لا داعي للاعتذار. في وُسعنا أن نتابع غدًا“. ثمَّ أضافَ بعدما قعدَ مُستريحًا: ”هل رغبت أن تُحدِّثني بشأن أختك؟“

”زوجتك؟“

ابتسم كلاوديوس قليلًا. وقال بحُزن: ”عندما تشاءُ هي ذلك“. ثمَّ ارتشفَ رشفةً من كأسه، وأشارَ لمَرْقُس بأن يقعد. ”إذا أردتَ إذني باصطحابها إلى واحدٍ من اللُودسات المحليَّة، فلك ذلك. سأعطيك بعضَ الأسماء“.

فقال مرقس: ”سأجري الترتيبات غدًا“.

”أكان ذلك هو كل ما يجول في فكرك، يا مرقس؟“ لقد أحسّ توتر الرجل الأصغر سنًا، بل شعرَ بغضبه، مع أنه لم يستطع أن يسير الغور ليقدر سبب الغضب.

”أكل شيء بخير بينك وبين جوليا؟“

فسأل كلاوديوس بشيء من الدهشة: ”هل قالت إنه ليس كذلك؟“

أدرك مرقس أنه واقف على أرض رملية. فهذا بيت كلاوديوس، لا بيته هو. وجوليا زوجة كلاوديوس، وهدسة عديتها. وليس لمرقس أي حق بمساءلة رجل آخر عن معاملته لزوجته، أو كيفية استخدامه لعبده. فقال ببطء: ”لا. فهي قالت لي إنها قانعة“. ثم ضاقت عيناه ببرودة، وأضاف: ”إن جوليا بريئة فوق الحد“.

تأمله كلاوديوس بتدقيق أكثر، سائلًا: ”ماذا يجول في فكرك حقًا، يا مرقس؟“

قرّر مرقس أن يكون صريحًا. ”علاقتك بخادمة أحتي“.

”هدسة؟“ عدل كلاوديوس جلسته، ووضع كأسه جانبًا. ”إن أختك كسبت شكري وعرفاني الذي لا يفنى لما أرسلتها إليّ. فهي أول شخص يهودي تكلم بحرّية بشأن ديانتها. إن معظمهم ينظرون إلينا بصفتنا وثنيين. أمر مضحك، أليس كذلك؟ كل ديانة تنظر إلى الآخر على أنها وثنية، ولكن في توحيد اليهود لله كثيرًا من التكرّر. هدسة مثلاً. فهي عبدة متضعة ومُتفانية ومُطبعة. ولكن إيمانها بالهيا يتسم بصفة من اللامساومة“.

ثم وقف وتوجّه إلى دروجه. ”إن هدسة تحلب لبّي. لقد كسبت منها عن تاريخ اليهود وحضارتهم الدينية في الشهرين الأخيرين أكثر مما تيسر لي جمعه في سنين. فهي تعرف الكثير عن أسفارهم المقدسة، على الرغم من حقيقة كون معظم النساء اليهوديات يمتنعن من دراسة توراتهنّ. يبدو أن أباهما قد علمها. فلا بدّ أنه كان مُفكرًا حرًا. أصغ إلى هذا“.

نشر درجته ووضع عليه ثقلًا يُثبته. ”إلهي، إلهي، لماذا تركنتي، بعيدًا عن خلاصي، عن كلام زفيزي؟ إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب؛ في الليل أدعو فلا هُدوّ لي“.

ثم رفع كلاوديوس نظره. ”هل تسمع ما ينطوي عليه الأمر من كرب شديد؟ لقد ذرقت الدُموع في المساء الذي فيه استشهدت لي بهذه الأقوال. فهي لم تكن في نظرها مُجرّد كلام شعري“. ومرّر إصبعه نزولًا على الشطور المكتوبة.

”قالت إن سقوط أورشليم سبق التنبؤ به بسبب شرور شعبها. وهي تؤمن بأن لإلهها يدًا في كل شيء يحدث على الأرض“.

”مِثْلَ زَفْسٍ“ .

فرفع كلاوديوس نظره أيضًا، وقال: ”لا، ليس مثل زفس. إنَّ إِلَهَهَا مُطْلَقٌ تَمَامًا، فهو لا يَتَشَارِكُ في حُكْمِهِ مع جَمَهْرَةٍ من الآلهة والإلاهات الأخرى. وهي تقول إنَّه لا يتغيَّر. ولا يُفَكِّرُ كما يُفَكِّرُ الإنسان. سأقرأ كلماتها الخاصَّة عن الأمر“. وسحبَ دَرَجًا آخَرَ نشره على الطاولة، وأخذَ يفتشُ أيضًا.

”هنا ذلك! ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابنَ إنسان فيندم. هل يقول، ولا يفعل؟ أو يتكلَّم ولا يفهم؟“ ثمَّ رفع كلاوديوس نظره، وعينه تالِّقانِ سُلوَانًا. ”حَكَتْ لي قِصَّةٌ مُسْتَلِيَةٌ فضلاً عن هذا الشاهد من كتابهم المُقدَّس. كانت عن مَلِكٍ اسمه بالاق، استأجرَ نبيًّا اسمه بلعام ليَلْعَنَ بني إسرائيل. وفي الطريق إلى مُقابلة المَلِكِ، توقَّفَ حِمَارٌ بلعام على الطريق لأنَّ ملاكًا يَحْمِلُ سَيْفًا اعترضَ في السبيل“.

سأل مَرْقُسُ بانسِدها: ”ملاك؟“

فأجاب كلاوديوس على الفور: ”كائنٌ قَوطِيعِيٌّ يَعْمَلُ في خدمة إِلَهِهِمْ. قالتْ هَدَسَةُ إنَّ هذه الكائنات ظهرت للنَّاسِ على مرِّ التاريخ. إنَّهم حَمَلَةٌ رسائلٍ مثلَ عَطَارِدٍ. وهم خُدَّامُ إِلَهِيَّها“. ثمَّ لَوَّحَ بيده مُكَمِّلًا تفسيره. ”على كُلِّ، حاولَ النبيُّ أن يضرِبَ الحمارَ كي يتقدَّم، ولكنَّ الحمارَ جَمَدَ في مكانه، ثمَّ كلَّمه أخيرًا“. وَضَحِكَ. ”بعدها وصلَ النبيُّ إلى المَلِكِ، وكلِّما حاولَ أن يلعنَ الشَّعبَ خرجتِ اللَّعْنَةُ بَرَكَةً“. ثمَّ أَفَلَّتِ الدُّرُجُ، ولَفَّه بِسُرْعَةٍ، ووضعه في كَوْمَةٍ مع دُرُوجٍ أُخرى. فنظَرَ مَرْقُسُ إلى الدُّرُوجِ، وتصورَ ما تمثله من ساعاتٍ وساعاتٍ قُصِيتٍ مع هَدَسَةَ.

”تؤمن هَدَسَةُ بأنَّ إِلَهِيَّها يُعنى عنايةً شَخْصِيَّةً بكلِّ واحدٍ مِنَّا، يهودًا كُنَّا أم لا. وقد قالتْ إنَّ الأسفارَ العبريَّةَ المُقدَّسة هي المِصْبَاحُ الذي يَنيرُ سبيلَ حياتها“. وأشارَ إلى دَرَجٍ آخر. ”تقول إنَّه يستحيلُ على إِلَهِيَّها أن يكذب. فعندما يقطعُ وعدًا، يقي به حتَّى نهايةِ الرِّمَانِ. إنَّ مراحِمَه لا تزول، وحنانه لا يفنى“.

أطلقَ مَرْقُسُ ضِحْكَةً سُخْرِيَّةً. ”قال لي تيطسُ إنَّ أكثرَ من مليونٍ يهوديٍّ قُتلوا في تدميرِ مدينةِ القدس، وإنَّ ألافًا لا تُحصى صُلبوا. إنَّ كان ذلك هو نوعَ الرَّحمةِ والحنانِ الذي يُسيِّغُه إِلَهِيَّها على شعبه، فأمرٌ عجيبٌ أَلَّا يتوافدَ اليهودُ إلى هيكلِي أرطَميس وأبولو“.

”هذه أفكارِي بعينها. وقد تباحثنا في هذا الأمرِ أيضًا. فهي تنظرُ إلى خرابِ أورشليمِ على أنَّه عِقَابٌ عادلٌ لبتني إسرائيلَ على عدمِ إيمانهم وأمانتهم. وهي تقول إنَّ إِلَهِيَّها

يستخدمُ الحربَ والعناءَ والعذابَ وسيلةً لإرجاعِ شعبه إليه. مفهومٌ ممتع، أليس كذلك؟ أن يكونَ الألمُ وسيلةً للحفاظِ عليهم وإيقانهم في حمى إيمانهم! وقد قالتُ شيئاً آخرَ كان أسيراً. إذ يبدو أن رجلاً اسمه يسوعُ الناصريُّ تنبأً بخرابِ أورشليم. وقد صلبه شعبه الخاص. غير أنها تقولُ إنَّ جميعَ الأنبياءِ العبرانيين بلغوا نهايةً سيئة. وبعضُ من اليهودِ يعبدون يسوعَ هذا بصفته ابنِ الإلهِ المتجسّد. هؤلاء يدعون أنفسهم مسيحيين. وهذه ملةٌ يهوديةٌ.

فقال مرقس: "لا بدُّ أن تتذكّر أن نبيرون حاولَ إبادتهم بعد حريق روما".
 "نعم، وأحدُ معتقداتهم أن العالمَ سيبلغُ نهايةً ناريةً، وأنَّ هذا المسيحُ سيعودُ على رأسِ جيشٍ جبّارٍ ويُقيم مملكته الخاصّة على الأرض".

قلّما اهتمَّ مرقسُ بدراسةِ كلاوديوس المقارنة للمِللِ الدنيّة في الإمبراطوريّة. "أنا على حقٍّ إذا في أن أفترضُ أنّك لا تنامُ معها؟"

فرفَع كلاوديوس نظره عن دُروجه، وقال: "مع جوليا؟"
 "مع هدسةً".

"هدسة؟ إنها مُجرّد فتاةٍ قاصِر".

قال مرقس ببرودة: "إنها في عمُرِ أختي".

تورّد خذاً كلاوديوس. ومرّت لحظةٌ طويلةٌ مؤلمةٌ قبلَ أن يُجيبَ ببطءٍ ورزانةٍ بالغة. "إنَّ أختكَ زوجتي، يا مرقس. ولكَ وعدي بأن أكونَ مُخلصاً لها كما كنتُ لهيلانة".

نادراً ما شعرَ مرقسُ بالارتباك، إلاَّ أنّه شعرَ بالارتباك يغمُرُه عند رؤيته سيماءَ وجهه كلاوديوس. فهو لم يُوذِه فقط، بل فتحَ أيضاً جرحاً قديماً. ومن ثمَّ قال مُحاولاً الاعتذار عن حُشونته التي لا تُغتفر: "كنتُ قَلْباً على أختي. لكَ اعتذاراتي، إن كنتُ قد أهنتك".

مرّت لحظةٌ صمتٍ طويلةٌ أخرى قبلَ أن يتكلّمَ كلاوديوس قائلاً: "الاعتذار مقبول".
 شربَ مرقسُ ما في كأسه، ووضعها على الطاولة، وقال: "أتمنى لكَ ليلةً سعيدة، يا كلاوديوس". ثمَّ غادرَ المكتبة.

قالت جوليا: "لقد ذهبَ إلى روما!" راميةً شالها جانباً، ومُتهالكةً على أريكتها باكتئاب.

فسألتُ هدسةً: "أخوك، سيديتي؟" وهي تلتقطُ الشالَ وتطويه بترتيب.

"لا. المُحاربُ الذي رأيناه على الطريق قبلَ خمسةِ أسابيع. تبينَ لي أن اسمه

أترتيس. لقد قتلَ اللّائيسستا في اللّودس، وبيعَ إلى رجلٍ اسمه باتو، يُدربُ مُحاربِي الإمبرطور. وقد أُخِذَ إلى روما قبلَ شهرٍ. ” ثُمَّ أَشَاحَتْ بَنَظَرِهَا، وَعَلَى وَجْهِهَا الْجَمِيلِ خُطُوطٌ مَرَارَةٌ. ” وَأَنَا مَحْجُوزَةٌ هُنَا فِي كَابِوَا. سَتْرَاهُ أَوْ كِتَابِيَا يُقَاتِلُ قَبْلَ رُؤْيَتِي إِيَّاهُ. وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَشْرَبَ خَمْرًا مَعَهُ فِي أَحَدِ الْمِهْرَجَانَاتِ الَّتِي تَسْبِقُ الْأَلْعَابَ. ” وَاعْرُوزَقَتْ عَيْنَاهَا بِدَمُوعِ الْإِسْفَاقِ عَلَى الذَّاتِ.

مع أنّ هَدَسَةَ ضَبَطَتْ أَسَارِيرَهَا كِي لَا تُبَدِّيَ شَيْئًا مِمَّا شَعَرَتْ بِهِ، فَقَدْ انْفَرَجَتْ لِرَحِيلِ الْمُحَارِبِ. رُبَّمَا تَتِمَكَّنُ جُولِيَا الْآنَ مِنْ إِبْعَادِهِ عَنِ فِكْرِهَا وَالْإِنْصِرَافِ إِلَى زَوْجِهَا. وَلَنْ يُخَيِّبَ كِلَاوَدْيُوسَ أَمَالَهَا. فَإِنَّهُ لَطِيفٌ وَذَكِيٌّ وَحَسَّاسٌ وَحَنُونٌ. وَعِلْمًا مِنْهُ بِمَشَاعِرِهَا، لَنْ يُلَخِّعَ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ حَقُوقِهِ الزَّوْجِيَّةِ. وَإِنْ أَمَهَلَتْ جُولِيَا نَفْسَهَا بَعْضَ الْوَقْتِ فَحَسْبُ، يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّمَ إِبْدَاءَ الْحُبِّ لَهُ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ الرَّجُلَ الْمُتَّصِفَ بِمَا يَتَّصِفُ بِهِ.

وَقَدْ صَلَّتْ هَدَسَةُ بِلَا انْقِطَاعٍ لِأَجْلِهِمَا كِلَيْهِمَا.

طَوَّتْ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً مَعَ كِلَاوَدْيُوسَ فِي الْمَكْتَبَةِ. وَأَحْزَنَتْهَا أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُوحَّشًا. وَقَدْ شَغَلَ فِكْرَهُ طَلْبُهُ لِلْمَعْرِفَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُشْبِعْهُ تَمَامًا. وَحَاوَلَتْ هِيَ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِنْ خِلَالِ شَوَاهِدِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّتِي عَلَّمَهَا أَبُوهَا إِيَّاهَا. أَرَادَتْ أَنْ تُحَدِّثَهُ بِشَأْنِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ. وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ ذَلِكَ؟ إِذَا كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِخَالِقِ، أَوْ بِسُقُوطِ الْإِنْسَانِ، أَوْ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْفِدَاءِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَرْفُضَ الرَّبَّ.

لَمْ يَبْدُ أَنَّ كِلَاوَدْيُوسَ أَدْرَكَ أَهْمِيَّةَ أَيِّ شَيْءٍ مِمَّا أَخْبَرَتْهُ بِهِ. وَكَمَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى جُولِيَا، فَقَدْ كَانَتْ دَرُوسُ الْحَقِّ مُجَرَّدَ قِصَصٍ لَتَقْطِيعِ الْوَقْتِ، شَيْئًا يَعْمِدُ إِلَى كِتَابَتِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ دُرُوجِهِ. فَالْإِلَهُ الْقُدُّوسَ كَانَ مُكَدِّسًا فِي كَوْمَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ جَمَهْرَةٍ مِنَ الْإِلَهَةِ فِي مُخْتَلَفِ أُنْحَاءِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ، مُجَرَّدَ مِلَّةٍ أَوْ دِيَانَةٍ أُخْرَى مُثْبِتَةٍ لِلْإِهْتِمَامِ بِمَا تَحْفَلُ بِهِ رُومَا.

أَحْزَنَ ذَلِكَ هَدَسَةَ. فَإِنَّ كِلَاوَدْيُوسَ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ، وَهِيَ كَانَتْ تَخْذُلُهُ كَمَا تَخْذُلُ جُولِيَا. بَلْ كَانَتْ تَخْذُلُ الرَّبَّ. وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ أَبِيهَا أَنْ يَعْرِفَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ كِي يَفْتَحَ أَعْيُنَهُمَا وَأَذَانَهُمَا لِلرَّبِّ يَسُوعَ.

شَيْءٌ أُخَرُ أَرْعَجَ هَدَسَةَ إِزْعَاجًا شَدِيدًا مِثْلَ عَقْمِ نَشْدَانِ كِلَاوَدْيُوسَ لِلْمَعْرِفَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ: أَنَّ جُولِيَا انْكَفَأَتْ عَنِ زَوْجِهَا أَكْثَرَ فَاكْثَرٍ. وَالْآنَ، بَدَلًا أَنْ يَدَّ كِلَاوَدْيُوسَ يَدَهُ لِاجْتِنَابِ زَوْجَتِهِ، وَاطْبَ عَلَى اسْتِدْعَاءِ هَدَسَةَ. كَانَ اللَّقَاءُ أَوَّلَ الْأَمْرِ يَجْرِي فَقَطْ فِي الْمَكْتَبَةِ خِلَالِ سَاعَاتِ الْمَسَاءِ، حِينَ لَا تَعُودُ جُولِيَا تَحْتَاجُ إِلَيْهَا. وَقَدْ تَبَاحَثَا دَائِمًا فِي الْحِضَارَةِ وَالذِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةَيْنِ.

ولكن في أثناء الأسبوع الأخير، استدعاها كلاوديوس مرتين في منتصف النهار، وهي تخدم جوليا ومرقس. واليوم استدعاها إلى الحدائق حاملاً اصطحَب مرقس جوليا في نزهة بالعربة خارج الدّارة.

جاء پرسیس في طلبها. كان يُدير عبيد البيت، ويخدم كلاوديوس بتفانٍ... وقد احتقر مُعاملة جوليا لسيده.

قال پرسیس وهو يقتاد هَدَسَة إلى سيده: "لقد زوّدت سيدي بسبب كي يعيش من جديد. حسبنا كلنا أنه سينتحرماً فقد السيده هيلانة. وقد تزوّج بالسيده جوليا لأنها تُسبها. كانت تلك خديعة قاسية من قِبَل الآلهة". ثم تمهل ووضع يده على ذراعها. "إن تقديمك إلى السيّد كان الفعل اللأناني الوحيد الذي عملته السيده جوليا منذ قدمها إلى هنا. فلطالما كنت ناعمة له". ثم أوما برأسه نحو المدخل المفتوح. "إنه ينتظرك في الحدائق".

جلل الخزي هَدَسَة. لقد علمت أن العبيد البيتين الذين يحتكون بجوليا يكرهونها. هل كانوا يرجون أن يرفض كلاوديوس زوجته لمصلحة عبدة ليس إلا؟ لا يكن ذلك! ثم مصّت مُترددة إلى كلاوديوس، مُرتبكة لوجودها في حضرته في الهواء الطلق.

تحدت كلاوديوس بشأن المحاربين. ومع أنه كان قد حضر الألعاب، شأنه شأن سائر الرومان، فإن مشاهدة موت رجل كان أمراً بغضاً عنده. وقد ضايقه افتتان جوليا بذلك. "هل حضرت الألعاب كثيراً في روما؟"

"لا، سيدي. لقد اصطحبها أخواها بضغ مرّات".

"هل شجع دسّمس على ذلك؟"

احمرّ وجه هَدَسَة.

فابتسم لها كلاوديوس من عل. "أنت لا تُفشين سراً مقدساً أو تُمنّيت عليه ياخباري شيئاً عن زوجتي، يا هَدَسَة. فلن يتخطى أذني أبداً".

فقلت: "لم يعلم السيّد".

"ما خطر ذلك في بالي، وإن كنت أتصور أنه شك في ذلك. من الصعب كف جوليا عن فعل ما تشاؤه". ثم سأل إن كان عند العبرانيين مُحاربون عظاماء. فأخبرته هَدَسَة عن استيلاء يشوع على أريحا وبّت خوف الله في الكنعانيين. وأخبرته كيف تسلق يونانان، ابن الملك شاول، وحامل سلاحه تلاً وهزماً حامية من أعدائهم هزيمة نكراء، وبذلك

غَيْرًا أَهْجَاءَ حَرْبٍ بِكَامِلِهَا. وَأَخْبَرْتَهُ بِقَصَّةِ شَمَشُونَ.

ضَبَحَكَ كِلَاوَدِيُوسَ ضَبْحَكَةً سَاخِرَةً. ”يَبْدُو أَنَّ شَمَشُونَكَ هَذَا كَانَ بِهِ ضَعْفٌ مُهْلِكٌ حِيَالَ النِّسَاءِ غَيْرِ الْأَمِينَاتِ. فَأَوَّلًا، زَوْجَةٌ خَائِنَةٌ، ثُمَّ زَانِيَةٌ فِي غَزَّةَ، وَأَخِيرًا دَلِيلَةُ الْجَمِيلَةِ، لَكِنِ الْمُحْتَالَةِ“. وَهَزُّ رَأْسِهِ فِيمَا هُوَ يَتَمَشَّى مَعَهَا عَلَى الْمَمَرِّ، وَيَدَاهُ مَطْبُوقَتَا الْأَصَابِعِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. ”إِنَّ وَجْهَهَا حَسَنًا وَجِسْمًا جَمِيلًا يُعْمِيَانِ الرَّجُلَ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ مِسْعَرٍ مُحَمَّمَى تُكْوَى بِهِ عَيْنَاهُ“. ثُمَّ تَنَهَّدَ. ”أَجْمِيعُ الرَّجَالِ عَبِيدٌ لِأَهْوَائِهِمْ، يَا هَدْسَةُ؟ أَجْمِيعُ الرَّجَالِ مُغْفَلُونَ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ؟“ وَنَظَرَ أَمَامَهُ مُبَاشِرَةً، مُشْتَتِّ الْأَفْكَارِ. ”...كَمَا كُنْتُ أَنَا مُغْفَلًا لَمَّا تَزَوَّجْتُ بِجُولِيَا؟“

إِذ تَضَايَقَتْ هَدْسَةُ جِدًّا حِيَالَ كَلِمَاتِهِ وَمِزَاجِهِ الْكَثِيبِ، تَوَقَّفَتْ فِي الْمَشْيِ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى ذِرَاعِهِ، بِلَا تَفْكِيرٍ. لَقَدْ بَدَأَ غَايَةً فِي الْاِكْتِنَابِ وَالْيَأْسِ. وَأَرَادَتْ أَنْ تُعَزِّيَهُ. ”لَا تُفَكِّرْ هَكَذَا، يَا سَيِّدِي. لَمْ يَكُنْ زَوْاجُكَ بِسَيِّدَتِي خَطَأً“. وَفَتَشَّتْ مَسْعُورَةً عَنْ طَرِيقَةِ لِتَعْلِيلِ أَخْطَاءِ سَيِّدَتَيْهَا وَتَبْرِيرِهَا. ”جُولِيَا عَدِيمَةُ الْخَبْرَةِ. أَهْلُهَا بَعْضُ الْوَقْتِ“.

ابْتَسَمَ كِلَاوَدِيُوسَ بِحِزْنٍ. ”نَعَمْ، هِيَ عَدِيمَةُ الْخَبْرَةِ. إِنَّهَا لَمْ تُعَانَ الْمِصَاعِبَ قَطًّا. لَمْ تَجْعِ يَوْمًا، وَلَا احْتَاجَتْ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ. وَلَمْ يُوَخِّذْ مِنْهَا شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ“. وَقَدْ تَكَلَّمَ بِحَقْدٍ. ”غَيْرَ أَنَّ الْوَقْتَ لَنْ يُغَيَّرَ شَيْئًا“.

”جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا مِنْ أَجْلِ الْخَيْرِ، سَيِّدِي“.

”لَقَدْ أَتَانِي خَيْرٌ مِنْ زَوَاجِي بِهَا“. وَمَسَّ حَدَّهَا بِرَفْقٍ. ”عِنْدِي أَنْتِ“. وَابْتَسَمَ بِسُخْرِيَّةٍ إِذْ تَدَفَّقَ التَّوَرْدُ الْحَارُّ فِي حَدْيِهَا، فَاطَّرَقَتْ رَأْسَهَا. ”لَا تَتَضَايِقِي، يَا عَزِيزَتِي. فَبِعَدِ الْأَسَابِيعِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى مِنْ زَوَاجِي بِجُولِيَا، رَأَيْتُ حَيَاتِي مُنْبَسِطَةً أَمَامِي كَأَرْضِ خَرِبَةٍ. وَالْآنَ، مَا دُمْتُ أَنْتِ عِنْدِي، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْتَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ“.

رَفَعَ كِلَاوَدِيُوسَ رَأْسَهَا، وَحَمَلَقَ مِنْ عُلٍّ فِي عَيْنَيْهَا الْمَغْرُورِقَتَيْنِ، لِحِظَّةٍ طَوِيلَةٍ، مُتَأَمِّلًا إِيَّاهَا بِحُنُوقٍ. وَقَالَ بَهْدُوءٍ: ”الْهُوَى يَدُومُ لِحِظَّةً فَقَطًّا، أَمَّا الْهِنَانُ فَعُمْرًا. إِنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى صَدِيقٍ، إِلَى شَخْصٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَدِّثَهُ وَيَتَّقَّ بِهِ“. ثُمَّ انْحَنَى وَقَبَّلَ جَبِينَهَا، كَمَا كَانَ مِنْ عَادَةِ أَبِيهَا أَنْ يَفْعَلُ. وَإِذِ اسْتَقَامَ، زَلَقَ يَدَيْهِ نَزُولًا عَلَى ذِرَاعَيْهَا، وَأَمْسَكَ يَدَيْهَا بِإِحْكَامٍ. ”أَنَا مُعْتَرِفٌ بِجَمِيلِكَ“. ثُمَّ قَبَّلَ أَصَابِعَهَا وَأَفْلَحَتَهَا، وَمِنْ ثَمَّ تَرَكَهَا وَحَدَّهَا فِي الْحَدِيقَةِ. فَقَعَدَتْ عَلَى بَنِكَ، وَبَكَتْ.

وَمِنْ ثَمَّ، إِذْ لَمَحَتْ سَيِّمَاءَ التَّجَهُمِ عَلَى وَجْهِ جُولِيَا وَهِيَ تُحَدِّقُ إِلَى الْحَدِيقَةِ عَبْرَ النَّافِذَةِ مُنْزِعَةً لِأَنَّ مُحَارِبًا مَضَى إِلَى رُومًا، تَمَنَّتْ مِنْ جَدِيدٍ لَوْ تَعَلَّمَتْ مَاذَا يَسْعُهَا أَنْ تَعْمَلَ كَيْ تُجِدَّ

حُبَّ كلاوديوس لزوجته الفتيّة. فلم يكن من الصّواب أن يتحوّل إليها هي.

قالت هدسة بلطف: ”السيد في مكتبته، سيديتي. لك أن تستمتعي برفقته“.

رمقتها جوليا بنظرة هشة. ”إن كلاوديوس يُصغرنني حتّى الموت. خيرٌ أنّه يهتمُّ بدرجة أكثر منه بي“. ثمّ تنهدت وأساحت بوجهها مجدداً، وقد بدت أشبه بطفلة سريعة التأثير منها بزوجة فتيّة أنانيّة نكدة. ”أنا متعبّة وحلقتي جاف“.

سكبت لها هدسة كأس نبيذ. ”قدماك مُعبّرتان، سيديتي. هل تُريدين مني أن أغسلهما

لك؟“ فأبدت جوليا موافقتها بهزّة رأس لا مبالية، وذهبت هدسة لإحضار الطست.

دخل مرّس الغرفة. وجاشت معدة هدسة على نحو غريب لما حيا جوليا. وأحسّت

نَبْضَهَا يَتَسَارَعُ إذ اقترب إليها. لكأنما مجرد حضوره جعل جلدّها يَحْرُزُ وَخْزًا ودمها يسخن.

وأبقت رأسها مطرّقا إذ جثت وصبّت الماء على قدمي جوليا المُعبّرتين. ثمّ سكبت زيتا مُعطرًا

على راحة يديها وشرعتُ تدلكُ قدمي جوليا برفق فيما مضتُ تحدّث أخاها.

”أتمنعت زيارة اللودس، أيتها الأخت الصّغيرة؟ أم أفسدها غيابُ جرمانيك؟“

وقد كان مُمازحًا، لا مؤثّبا.

”كانت حسنة. فالمباراة بين الرّتياريس والشرافيّ كانت مُسليّة“.

قال مُداعبًا: ”لا تبدين مُتحمّسة“، وهو يُراقب هدسة تُمسّحُ قدمي أخته. وقد بدت

يُداها رقيقتين، لكنّ ثابتتين. ”لقد حادّثت كلاوديوس. إنه يجري دراسةً جدّيةً في أديان

الإمبراطوريّة“.

انزعجت جوليا من ذكر زوجها، وقالت: ”ليس لديّ أدنى اهتمام بما يقوم به كلاوديوس“.

فقال مرّس بقُتور: ”من الحكمة أن تهتمّي“. وشعرت هدسة بحمّلقته في قفا رأسها

على نحو مُركّز كما لو كان يلامسها. وقد تنبّهت غير مرّة في أثناء زيارته إلى نظرتِه العجلى،

قائمة وأسرة... ومُتّهمة.

قالت جوليا: ”كلاوديوس حُرٌّ في فعل ما يشاء. وحياة الألهة، ليتني أستطيع أن أكون

حُرّة مثل الرّجل“. ثمّ سحبت قدميها فجأة، فرشّشت وجه هدسة بالماء، وأمرت بغضب:

”نُشفي قدمي. سأمشّي في الحديقة“. ونظرت إلى أخيها نظرة مُتجهّمة. ”وحدي!“

فقال مرّس ساخرًا: ”كما يشتهي قلبك، يا أختي الصّغيرة. مثل هذا المزاج الرائق

يستحقّ الوحدة“.

روما

وما إن غادرت جوليا الغرفة، حتى جمعت هَدَسَةَ الحِرْقَةِ الرُّطْبَةِ وُجَّاجَةَ الزيتِ المُعَطَّرِ
وَطَسْتَ الماءَ الوَسِخَ، وهَمَّتْ بالانصراف. إلا أن مَرْقُسَ سَدَّ طريقَها.

”لا تكوني مُستعجِلةً جدًّا. إنَّ قَدَمِي مُتَسَخِّتانِ أيضًا. أفرِغِي الطَّسْتَ في حَوْضِ
التَّيْبَةِ هناك، ثُمَّ ارجِعي إلى هنا“.

فعلتْ هَدَسَةُ ما أَمَرَتْ به. ولَمَّا رَجَعَتْ، جَلَسَ مَرْقُسُ على الأريكة. ففجَّتْ عند قَدَمِيهِ،
ونزَعَتْ صندلَه بِيَدَيْنِ مُرْتَجِفَتَيْنِ. وتناولتِ الإبريقَ نِصْفَ المِلاَنِ، وكادَتْ تُسْقِطُهُ أرضًا. وإذ
أَمْسَكَتِ المِقْبَضَ بإحكام، صَبَّتِ الماءَ على قَدَمِي مَرْقُسَ، ثُمَّ وضَعته جانبًا من جديد. وقد
كان في وَسْعِها أن تُحْسِنَ انتباهَه مُرَكِّزًا عليها وهي تسكُبُ الزيتَ وتفركُ راحتيها معًا قبل البَدْءِ
بتمسِيحِ قَدَمِيهِ. وأحدتْ في حَنَجْرته صوتًا عميقًا جعل أحاسيسَ غريبةً تتفجَّرُ في قَعْرِ معدتها.

سألها عابَسًا: ”ما العلاقة بينك وبين زَوْجِ أختي؟“

ففاجأها سؤالُه وأريكتها. ”إنَّه مَعْنِي بِديانةِ أجدادي، يا سيدي“.

قال شاكًا: ”فقط بِديانتك. أليس من شيءٍ آخر؟“ ومدَّ يده فجأةً، فأمسَكَ ذَقْنِها
بِخُشونة، وتترَ رأسها إلى فوق. وإذ رأى الاحمرارَ المُتَأَجِّجَ في خَدَّيها، استَشَاط غضبًا.
”أجيبيني! هل صرْتَ سُرِّيته؟“

فقالَتْ، وخذأها مُتورِّدانِ على نحوٍ مؤلمٍ: ”لا، سيدي. إننا نتحدَّثُ بشؤونِ شعبي
واللهي. واليوم، تحدَّثُ بشأنِ المُحارِبينِ وجوليا“.

لانت يده. ورفَعَتْ نظرها إليه من عَيْنَيْنِ قَامَتَيْنِ صادقتَيْنِ. إنَّها بريئة. ”أما لمسكِ قَطِّ؟“
وأفلتَها، فأطرقتْ رأسها من جديد.

”ليس بالطريقة التي تَعْنِيها“.

اجتاحتَه حرارةُ غَضَبٍ. ”بأيةِ طريقةٍ إذا؟“

”لقد وضَعَ يده على كَتِفِي اليوم. أمسك يديّ و...“

”و؟“

”قبَلْهُما، سيدي“. ورفَعَتْ نظرها إليه. ”قال: «إنَّ كلَّ رَجُلٍ يحتاجُ إلى صديقٍ».
ولكنَّ ليس من الصَّوابِ أن أكونَ أنا ذاك الصَّديق، يا سيدي. رجاءً! كلِّمِ أختك،
سيدي. شجَّعها على أن تُلاطِفَ زَوْجَها. أن تكونَ لطيفةً معه، لا أكثر، إذا شاءت ذلك. إنَّه
رَجُلٌ مُوحَش. وليس من الصَّوابِ أن يلتفِتَ إلى عَبدَةٍ طلبًا للرِّفْقَةِ“.

قال مرقس: "أعجزون على انتقاد جوليا؟" وراقب خديها يشتملان ثم يشحبان شحوب الموت. فأضاف: "يفهم من كلامك أنها مهملة لواجباتها من حيث كونها زوجة، وغير لطيفة تجاهه".

"لم يكن قصدي أن أنتقد، يا سيدي. هكذا يفعل بي إلهي، وهكذا يزيد، إن كنت أكتب عليك". ورفعت نظرها إليه بتوسل. "السيدة جوليا غير سعيدة. وكذلك زوجها أيضاً".

"ماذا توقعين مني أن أفعل بشأن ذلك؟"
"إنها تسمع لك".

"هل تظنين أن محادثتي إليها ستغير أي شيء؟" أقل مما قد تظن. وقال باقتصاب: "أتمني قدمي". ففعلت هدسة ذلك ويدها ترعيفان الآن. نشفت قدميه باعتناء، وربطت سيور صندله. ثم وقف ومشى مبتعداً عنها، وعواطفه تجيش احتداماً.

لم يكن يحتاج إلى هدسة لتبين له أن زواج أخته كان أخذاً في التفسخ، ولم تكن جوليا تفعل أي شيء لمنع ذلك. لقد ألقته هذا الأمر... ولكن ما بدا كأنه ينخره من الداخل أكثر بعد كان تفكيره بقضاء هدسة ساعات مع كلاوديوس في خلوة المكتبة. قالت إن فلاكس يحتاج إلى صديق. أكان ذلك كل ما احتاج إليه؟ طالما دأب مرقس في تحديث نفسه بأنه يريد أن يرى زواج جوليا سويًا لأجل سعادة أخته. وفجأة أدرك الحقيقة: أنه أراد ذلك ليس لأجل أخته، بل لكي يدع كلاوديوس هدسة وشأنها... وقد أصاب هذا الإدراك عصبًا نابضًا بالألم. نظر مرقس مجددًا إلى هدسة وهي تلتقط المنشفة وزجاجة الزيت والطست. لقد وجدها أكثر جمالاً كلما رآها. ليس أنه استطاع أن يرى أي تغيير جسمي كبير فيها. فإنها كانت ما تزال نحيلة جدًا، وما زالت عيناها كبيرتين جدًا، وفمها مكتنزًا جدًا، وبشرتها قائمة جدًا. كان شعرها قد طال حتى كتفها، ولكن نظرة فاحصة إليها تبين أنها ما زالت وضيعة. غير أن شيئًا من الجمال اكتنفها.

تيسر له أن يرى أنها كانت ترعيف ارتجافًا شديدًا، وأحس وخزة قديمة من الشعور بالذنب لكونه قد روعها هكذا. كانت مجرد عبدة، وما كان ينبغي أن تعنيه مشاعرها. غير أنها عنته فعلاً، بل عنته فوق الحد. وقد كره الطريقة التي كان كلاوديوس ينظر بها إليها.

ثم إنه - إذ راقبها وتشبع بحس قربها - خضه إدراك آخر: أنه كان غيورًا! وحياة الألهة، إنها نكتة غريبة. لقد كان غيورًا على عبدة. فإنه، وهو مواطن روماني بالولادة، وقف هناك مفتونًا

بيهودية مهزولة صغيرة ذات عيّن قاتمتين كبيرتين ترتجف خوفاً منه . كم ستضحك أرياً!
كان الوضع مضحكاً، وإن كان غير نادر . فإن أنتيغونس أقام علاقاتٍ بعبيده، ذكوراً
وإناثاً . وقد فكرَ مرقس في بيثية، طالبةً إياه في جُنجِ الظلام بعاطفةٍ مشبوبةٍ وشوقٍ . لا، لم يكن
أمراً نادراً أن تُستخدم عبدةٌ لأجل الإشباع الجنسيّ الأنثويّ .

راقبَ هَدَسَة تُفرغُ الماءَ في حوضِ النَّحْلة، ثمَّ ترجعُ لتضعَ الإبريقَ الفارغَ في المغسلِ .
كلُّ ما عليه هو أن يأمرها . وتساوَجَ حَفَقَانُ قلبه . ثمَّ استقامتْ حاملةً المغسلَ والإبريقَ بيديها،
فيما المنشفةُ المرطبةُ مطويةٌ على ذراعها . وإذ عبرتِ الغرفةَ، وضعتِ الإبريقَ والطستَ في
خزانةٍ صغيرة، وحطتِ الرُّجاجةَ على سطحها مع سِتِّ غيرها . ثمَّ استقامتْ من جديد،
والمنشفةُ الرطبةُ في يديها .

نظر مرقس من علٍّ إلى جسمها النَّحيل، وهي مرتديةٌ ثوباً صوفياً بُنيّاً محزوماً بكساءٍ
مُقلَّمٌ يُبينُ انتماءها . فهي يهوديةٌ، وقد كان لدى اليهود مفهومٌ أخلاقيٌّ صارمٌ على نحوِ
مُضحكٍ : البتولة حتّى الزواج، والأمانة حتّى الممات . إنَّ قيودهم تتحدّى طبيعةَ الرَّجُل،
ولكنَّ في وَسْعِه أن يجعلها تنتهكَ جميعَ شرائعها بكلمةٍ واحدةٍ منه . فكلُّ ما عليه هو أن
يأمرها، فتضطرَّ إلى الطاعة . وإنَّ أبْت، فله أن يُعاقبها بأيةِ طريقةٍ يشاؤها، حتّى بالموت إنَّ رَغِبَ
في ذلك . لقد كانتِ السُّلطةُ على حياتها بيده .

رفعت نظرها إليه، سائلةً : ” هل تُريد شيئاً آخرَ بعد، يا سيدي؟ ”

كلُّ امرأةٍ احتلَى بها من قَبْلُ جاءتْ إليه عن طيبِ خاطر، أو بحثتْ عنه : بيثية، أرياً،
فانيا، وأخرُ كثيراتٍ قَبْلَهُنَّ وبعدهنَّ . وإذا أمرَ هَدَسَة، فهل تذوبُ بينَ يديه، أم تصرخُ صراخاً
شديداً ومديداً لأنَّه دنسها؟

لقد علِمَ . إنَّها لم تكنِ مثلاً غيرها .

ولم يخطُرُ في باله، قبل أن يغدو مُمتطيّاً جواده في طريق العودة إلى روما، أنه للمرّة الأولى
في حياته قد وضعَ مشاعرَ شخصٍ آخرَ قَبْلَ مشاعره .

١٢

لم يكن أتريتس مهيأاً لأبته روما وروعيتها. ففي غابات بلاد الجرمان الكثيفة كان قد رأى جنود الفيالق المتمرسين والمنضبطين جداً، في دروعهم وتواراتهم الجلدية المعززة بالنحاس. وقد واجه ضراوة الضباط العنيفة. غير أنه ما تصور قط ازدحام الناس في روما نفسها، وتنافر نغمات اللغات، وكثرة المواطنين والأجبيين على السواء منحدرين إلى المدينة مثل النمل، والرُخام المتلالئ في الأعمدة والمباني، والتنوع الهائل في روما نفسها.

كان شريان الإمبراطورية الرئيسي، الطريق الأيباني، مُحْتَقناً بالمسافرين الوافدين من اثني عشر إقليمًا داخل الإمبراطورية، وجميعهم يصطخبون لأجل الدخول إلى المدينة. وقد سدَّت الطريق عربات يقترب بعضها من بعض قَدْرَ المُسْتَطَاع، بانتظار رَفْعِ الحَظَر عند الغروب وفتح الأبواب. كان باتو، المُكَلَّفُ خدمةَ الإمبراطور، على رأس الصف. وقد فرغ الحراس من التدقيق في أوراقه وفحص حمولته من المحارين. وما إن فُتِحَتِ الأبواب، حتى استطاع أتريتس أن يشعر بتدفق الأدرينالين إذ اندفعت العربات والمركبات والثيران والبشر مُسرِعين في سيرهم لدخول المدينة.

جعل الصَّجِجُ والعَجِجُ داخل أبواب المدينة رأس أتريتس يدور. يونانيون وإثيوبيون، وهمجيون من بريطانيا، وغاليون ذوو شوارب كثيفة، وفلاحون من إسبانيا، ومصريون وكبدوكيون وفرتيون، تدافعوا يشقون طريقهم في الشوارع المكتظة. وقد جلس روماني داخل هودج رقيق الستائر يحمله عاليًا أربعة بينيين. ومرت أخرى يحملها نوميديون. واختلط عرب في كوفياتهم الحمراء والبيضاء ببرابرة من داقيا وثرانيا. ولعن يوناني صاحب دُكَّانٍ سوريًا.

كانت الدكاكين على جانبي الطرقات. وقد انتشرت حانات الخمر على جانبي الشوارع، وازدحمت كلها بالزبونات. وما بين الحانة والأخرى - في ازدحام وتلاصق يوهمان بوجود جدران مشتركة - قامت أكشاك باعة الفواكه والكتب، والعطارين والصبّاغين، وباعة القبعات النسائية، وباعة الزهور. وكان بعضهم يُدللون للمارة على بضائعهم وخدماتهم. وقد جذب نافخ زجاج الاتبابة إلى دُكَّانه بعرض فته على نحو مسرحي، فيما دلى صانع صنادل أحذيته من سقف صندوق شحن. ودخلت امرأة سميئة ترتدي توجة زرقاء، يتبعها ولدان سمينان على السواء، دُكَّان جوهري طلبًا للمزيد مما زين به أصلًا شعرها وعنقها وذراعها

روما

وأصابها. وفي الناحية المُقابِلة من الشارع، احتشدَ جَمْعٌ لِمُشاهدةِ جنديَّيْنِ مُتمرِّسينِ يُجادِلانِ باقِعَ جِلْدِيَّاتٍ. وقد استرسل أحدهما في الضَّحِكِ فيما دفعَ الآخر صاحب الدُّكَّانِ في كومةٍ من البضائعِ الجِلْدِيَّةِ.

نص رأسُ أتريتس أُلماً وهو قاعدٌ في العربة مُقيِّداً، يُعَين المدينة. ولم يستطع سوى التَّحديقِ صامِتاً في ذهول. ففي أيِّ اتِّجَاهِ نظر، كانت هناك مَبَانٍ: دكاكينُ صغيرةٌ وأسواقٌ أوسع؛ مساكنُ قَدْرَة فحمة؛ هياكلُ رُخاميَّة ضخمة ذواتُ أعمدةٍ بيضاء ناصعة، ومعابدُ أصغرُ مَكسوَّة بالأجرِّ ومُعشاة بالذهب - تُدعى فانا- تُؤوي المُتعبدين.

كانتُ روما مُشتعلةً بالألوان. فالمباني الضخمةُ كانتُ مُشيَّدةً بالغرانيت الأحمر والرَّماديِّ والمرمر، والرُّخام السَّماقِيّ من مصر، والرُّخام الأسود والأصفر من نوميديا، والسيبولينو الأخضر من أوبلند، والحجارة البيضاء من مَقَالعِ كارارا بقُرب لونا. وكانتُ تُقامُ كلُّ يومِ بيوتٌ مَبنيَّةٌ بالخشب والقرميد والجِصُّ المُكلس. حتَّى التَّمائيلُ كانت مَطليَّةً بالألوانِ مُبهَرجةً، ومنها ما كُسي أقمِشةً زاهية.

وفي وسط الفخامة، أصابتُ ننانةُ عاصِمَةِ الإمبراطوريَّةِ رأسَ أتريتس بالصُّداعِ ومَعِدتهِ بالجَيْشانِ. فتناقَ إلى هواءِ موطنه النقيِّ المُنعشِ، ورائحةِ الصَّنوبرِ الحادَّةِ. وقد كان في وَسْعِهِ أن يشمَّ رائحةَ طبخِ اللحمِ الشهيَّةِ مُختلطةً بِننانةِ نهر التَّيْبِرِ الملوَّثِ وشبكةِ الصَّرفِ الصَّحِّيِّ الكريهة، تلك التي كانتُ تُدعى كلواكا ماكسيما. وكَبِتِ امرأةٌ مياهاً مُبتذلةً من نافذةِ مسكنِ في الطابقِ الثاني، فأخطأتُ بالكادُ عبداً يونانيًّا حاملاً صُروراً لسيِّدته. وكان ماشٍ آخرُ أقلَّ حظًّا. فإذا تَبَلَّلَ بالغُسالةِ، وقفَ يُطلقُ الشتائمِ بصوتِ عالٍ على المرأةِ. وما كان من هذه إلا أن وضعتُ دلوها جانباً وحطتُ سَلَّ الثيابِ على حافةِ النافذةِ. وبينما واصلَ الرَّجُلُ رَشَقَها بألغازِ جارحة، تجاهلتهُ وعلقتُ بِضعةٍ تُنكاتِ على حَبْلِ غسيلِ.

تاقَ أتريتس إلى بساطةِ قريتهِ، وإلى الراحةِ في بيتِ خشبيِّ مُستطيلِ بقُرب نارٍ مُطهرةٍ. تاقَ إلى السكينة. تاقَ إلى الخُلوةِ.

حدَّقَ رجالٌ ونساءٌ من جميعِ الجنسيَّاتِ بِبَلِّهِ إليه وإلى الآخرين في العَرَبَةِ. وقد تقدَّموا تقدُّماً بطيئاً وسطَ الرُّحمةِ الشديدةِ، وأُتيحَ وقتٌ وافِرٌ للنَّاسِ كي يقتربوا إليهم ويُدلُّوا بتعليقاتٍ وتلميحاتٍ مُهينة. وبدا أنَّهم وجدوه مُثيراً للاهْتِمَامِ بصورةٍ مخصوصةٍ. وقد لمسهُ رجُلٌ بطريقةٍ جعلتِ الشَّعْرَ على قفا رَقَبتهِ ينتصبُ. فاندفعَ بقوةٍ نحوه، وهو لا يُريد إلا كسرَ عنقه، إلا أنَّ السُّلاسِلَ حالت دونَ ذلك. وهكذا أصدَرَ باتو امرأةً، فاقتربَ بِضعةٍ حُرَّاسِ إلى العَرَبَةِ أكثرَ

حتى يُبقوا المعجّين بعبيدين. ولكنّ ذلك لم يمنعهم أن يلحقوا بهم وينادوا بمراوداتهم الداعرة. في بلاد الجرمان، كان الرجال الذين يشتهون رجالاً يُغزقون في مُستنقع، وبذلك يُزال شذوذهم من العالم إلى الأبد. آه، لكنهم في روما كانوا يتحدثون علناً بشأن شغفهم الفاسد، مُنادين به من على السطوح ونواصي الشوارع، وعلى قارعة الطريق، فيما هم يتبخثرون كالطواويس.

أحسّ أترتيس احتقاراً مُحتمداً في قلبه. إنّ روما المشهورة بنقاوتها وفخامتها كانت مُستنقعا نبتاً من البشريّة المنحطّة الغارقة في ذنس الفساد. لقد اشتدّت ضغينته وثارَتْ في داخله كبرياء أشدّ ضراوةً بعد. فإنّ قومه كانوا أطهاراً، لم يُدنسهم الذين لقوا الهزيمة على أيديهم. أمّا روما، على النقيض، فقد تقبّلت مهزومياً بسرور وتشربت عوائدهم. لقد تسامحت روما حيال كلّ إفراط، وتقبّلت كلّ فلسفة، وشجّعت على كلّ ممارسة بغیضة. إنّ روما التصقت بكلّ وافد.

لما جرت العربة عبر أبواب المدرسة العظيمة، شعر أترتيس بالانفراج لوجوده في مُحيط مألوف. فكأنما غدا في بيته حال عبور الأبواب الصفيقة إلى داخل مدرسة المحاربين ذات الأسوار الحجرية العالية. وقد كان ذلك شعوراً مُزعجاً.

كان الفرق قليلاً بين هذا اللؤدس وذلك الذي في كاپوا. فقد كان فيه مبنى مُستطيل كبير ذو فناء مكشوف في الوسط، حيث كان الرجال يتدربون. وحوّل الفناء امتدّ ممرّ مسقوف تُفضي إليه عُرف صغيرة. وكان هنالك مطبخ، ومُستشفى، ومُستودع أسلحة، ومأو للمُدرّبين والحُرّاس، وسجنّ ذو أصفاد، وقضبان حديد للوسم، وكراييج. فلا بدّ أن يضمّ هذا اللؤدس أيضاً حُجرات انفراد صغيرة حيث لا يتسع المكان لجلوس الرّجل أو مدّ رجليه. وكان الأمر الوحيد غير الموجود هو مقبرة واسعة. فقد كان من غير القانوني أن يُدفن الأموات داخل أسوار روما.

حتى بعد إغلاق الأبواب وراء أترتيس، كان في وسعه أن يسمع ضجيج المدينة. وكان الظلام قد حلّ بعد غروب الشمس، فأنازت مشاعل طريقهم. وكافح أترتيس اليأس الذي غمره وهو يُقتاد إلى موضعه. فحتى لو فرّ فعلاً من هذا المكان، لاضطرّ إلى شقّ طريقه عبر المدينة، مُجاوزاً أبواب المدينة وحُرّاسها. وحتى لو أفلح في مُغادرة روما، لبقّي بعيداً جداً عن موطنه، وهو لا يدري كيف يرجع إليه.

بدأ يدرك سبب تفتيش كلّ رّجل قبل دخول زنزانته، ومثي الحُرّاس ذهاباً وإياباً فوق

رأسه طوال ساعات الليلة المظلمة الطويلة. وقد بدأ الموت يبدو كما لو كان صديقاً.

باتت الحياة ذات تَمَطِّ مألوفٍ من جديد. وفي المدرسة العظيمة، كان الطعام أفضل وأوفر منه في عهدة سكوريس بْرُكْتَر كارپوفورس. وتمنى أتريتس لو يعلم هل يكون له لائيستا آخر يحل محل ثراكس ويُعادله عطرسَةً وغباوة.

تبين أن باتو رجلٌ يختلفُ عن الآخرين الذين التَقاهم أتريتس في أثناء عبوديته. فهذا الإنيوبي كان ذكياً ومُحنكاً. ومع أنه كان أصلبَ عوداً من ثراكس، فإنه لم يلجأ قط إلى التهكم أو الإذلال أو العسف البدني غير الضروري كي ينال ما يبتغيه من مُدربيه. وقد داخل أتريتس نَجْمَة باتو احتراماً حاقد، علَّه منطقياً بالقول لنفسه إن باتو ليس رومانياً، ومن ثم فهو مقبول. وعلم من الإصغاء إلى مُحادثات الآخرين أن بينه وبين ذلك الأسود نُقطةً مُشتركة. فإن باتو كان زعيم قبيلته، لكونه الابن البكر لزعيم لقي حتفه في ساحة القتال على يد جندي روماني.

تحت وصاية باتو، تعلَّم أتريتس أن يكون ماهراً في استخدام يده اليسرى كما كان في استخدام اليمنى. ولتقوية العَصَل، جعله باتو يستعمل أسلحةً أثقل بمرتين من تلك التي سمستعملها في ساحة المحاربين. وقد أدخله باتو في مُبارياتٍ مع محاربين آخرين كانوا أكثر خبرةً بكثير، وعددٌ منهم سبق أن قاتلوا في ساحة المحاربين بالفعل. وفي مُنازلاتٍ مُمارسة القتال، جرح أتريتس مرتين. ولم يُوقِف باتو القتال قط عند نزفِ الدَّم أوّل مرّة. إذ كان ينتظر حتى تغدو حياة أحدهم على المحك قبل أن يصد ضربةً قاتلة.

عكف أتريتس على العمل باجتهادٍ فاق فيه الآخرين. وكان يُصغي ويُراقب صامتاً، مُتأملاً كلَّ رجلٍ بتدقيق، عالماً أن حياته تتوقَّف على ما يتعلَّمه في هذا المكان البغيض.

كانت نساءً يأتين إلى اللودس أحياناً، نساء رومانيات وجدن أمراً مُسلِّياً في السير على حُطى المحاربين. وتحت الأعين الساهرة من بضعة حُرّاسٍ مُسلّحين، كُنَّ يتمرنن مع المُتدربين. وإذ كُنَّ يرتدين تُنكاتٍ قصيرةً مثل الرجال، كانت سيقانهن مكشوفة. ونظر أتريتس إلى هؤلاء النساء بعين الاحتقار. فقد كُنَّ مُتغَطِّراتٍ في إصرارهن على أنهنَّ بارعات كأيَّ رجل، مُطالباتٍ كلَّ حين بأن يُدَلَّرن.

لقد كانت أمُّ أتريتس امرأةً قويّة، قادرةً على حوض معركة عند الضرورة. ومع ذلك لم يسمَعها قط مرّة تدعي بأنها أفضل من أيِّ رجل، ولا حتى مُعادلةً ولو للآدنى بين رجال القبيلة. كان زوجها هرمن، زعيم الشطي، ولم يكن له نظير. وكانت هي ساحرة وعرافة، وما

كان لها نظيرة أيضًا بين نساء الشطبي جميعًا. وقد حُسِبَتْ إلهةً بِحُكمِ حَقِّها الشخصيِّ .
فكر أترتيس في آيبا، زوجته الفتيّة. وكانت حلاوتها قد أيقظت فيه اندفاعًا رقيقًا إلى
حمايتها. فقد أراد أن يحميها من الأذى، ولكنَّ إلهة الغاية أخذوها منه، مع ابنه أيضًا.
نظر إلى امرأة رومانيّة فتيّة تتمرّن مع الرجال. ما كانت أيّة امرأة من قبيلته ليمشي بِحُطّى
واسعة لابسة ثياب رَجُل ومُلوّحة بسيف، كما لو أنّ مُجرّد ذكر كونها امرأة لا بدّ أن يُثير
الغَيْب والحِزّي. والتوى فم أترتيس احتقارًا. إنَّ هؤلاء النساء الرومانيّات جئنَ إلى اللودس
مُزديّات الرجال، ثمَّ جاهدنَ كي يصرنَ رَجلات!

لاحظ أنّهنَّ لم يتحدّين قطّ المُدربين جيّدًا، بل اخترنَ بالأحرى أصغر مُبتدئٍ يُجرّبن
شَفرتهنَّ فيه، ثمَّ يتبخرنَ حين يُسلنَ دمًا. وقد اعتقدنَ أنّهنَّ برهنَّ كونهنَّ مساويات للرجال.
يا لها من نُكته! إنّ جميع الذين تتناوَشن معهم كانت تُقيدهم قوانين غير مُفصّح عنها.
فالرومانيّات الحُرّات وحدهنَّ جئنَ كي يُلاعِبنَ المُحاربين، وخذش واحد في بشرة رومانيّة
بيضاء جميلة يمكن أن تُكلّف الرجل حياته، إلا إذا كانت المرأة مُنصفه وتكلّمت بسرّعة
تُكفي للصفح عنه.

وجاءت إلى اللودس نساءً أُخر أيضًا، لا لكي يُقاتلن، بل كي يتفرّجنَ من فوق حواجز
الشُرقة الأمنة. وقد سمح باتو بذلك لأنّ من المُحاربين من كانوا يعملون باجتهادٍ أوفّر تحت نظر
امرأة، ولا سيّما إذا كانت جميلة. فكان أولئك الرجال يتنوّون ويتناقون ويتباهون، ويظهرون
بمظهر الحمقى، فيما النساء يُقهقهن فوق الأرائك المُشرّفة على الفناء. أمّا الآخرون، على غرار
أترتيس، فقد تجاهلوا حضورهنَّ، مُدربين أذهانهم على الدروس التي ينبغي تعلّمها بعد.

كذلك أيضًا جاء إلى اللودس رجال رومانيّون كي يتدربوا، ولكنَّ أترتيس أبقِي بعيدًا
عنهم. وكان قد مضى على مُزاوَلته التدرّب هناك ثلاثة أشهر حين شاهد أرسطراطي شابّ
حسب نفسه مُحاربًا ماهرًا وقال لباتو إنّه يُريد أن يتناوَش معه، فحاول باتو إقناعه بالعدول عن
الأمر. ولكنَّ ذلك الرومانيّ الشابّ أصرَّ على الأمر، واثقًا بمهارته الشخصية.

نادى باتو أترتيس، وأشار بيده إلى الشابّ قائلاً: ”أعطيه قتالًا جيّدًا، ولكن لا تُسل
دَمه“. فتأمّل أترتيس الأرسطراطي الشابّ وهو يُمارس التلويح والترجيح والتصويب بواسطة
غلابيوسه، ثمَّ قال لباتو مُكشّرًا:

”لماذا أريد أن أسيلَ دَمَ رومانيّ؟“

بقِي أترتيس على بُعدٍ محسوب، مُتحيًا للشابّ أن يتقدّم ويبيّن طاقة احتماله ومهارته.

روما

وإذ تَوَخَّى الجرْمَانِيُّ الهمجِيُّ الابتِياهُ والحذرَ أَوَّلَ الأمرِ، امتَحَنَ خصمَهُ حتَّى عرفَ مَكَامِنَ ضعفه. وفي غضونٍ بضعِ دقائق، تَبَيَّنَ حتَّى للشابِّ الأرعنِ مَنْ هو سيِّدُ الساحة. وقد لابعه أترتيسَ حتَّى غَطَّت وجهه وجِسْمُهُ فَطَرَاتُ العَرَقِ، وبرَقَتْ عيناه بالخوفِ على نحوٍ واضح. ونادى باتو: ”ارجع عنه، أترتيس!“

فكشَّرَ أترتيسَ غضبًا، وقال: ”أهذا أفضلُ ما تستطيع روما تقديمه؟“ وتحركَ بسرعةٍ فشطَبَ وجهَ الرُّومانيِّ. فلهتَ الرجلُ وترنَّحَ إلى الوراءِ، مُسَقِّطًا غلاديوسته، وقد خَلَفَ أترتيسَ خطأً دقيقًا من الدَّمِ نازلًا على صدرِ الرومانيِّ. وعند رؤيةِ الدَّمِ، تفجَّرتَ في ذهنِ الهمجِيِّ دَفْقَةٌ حارَّة، فأطلقَ صيحةً حربيَّةً بينما أعلى السِّيفَ وأدَّاهه. فإذا به يقرعُ فولاذًا، إذ صدَّ باتو الضَّربة.

قال باتو بهدوءٍ: ”في يومٍ آخر“، مُسِكِّمًا مِقْبَضَ سيفِ أترتيسَ بأصابعٍ قويَّةٍ كميلزَمَةٍ. ونظرَ أترتيسَ، وهو يتنفَّسُ بشدَّة، في عينيِّ اللانيسِتا القامتَيْنِ، فرأى فهما كاملًا. وقال أترتيسَ من بين أسنانه مُوافقًا: ”في يومٍ آخر“، وأرخى سلاحه.

وإذ كان الرومانيُّ قد أنقذَ من كبرائه ما يكفي لِنَعه من المغادرة، عادَ بِخُطى واسعةٍ إلى ساحةِ المحاربين الصَّغيرة لِيلتَقِطَ غلاديوسته بنفحةٍ من الوقار. وقال مُحدِّقًا إلى أترتيسَ: ”سوف تندمُ على جرحِك لي!“

فقال أترتيسَ ساخرًا: ”قولُ باسل!“ ومشى الرجلُ نحو الباب، فناده باليونانيَّة، لُغَةَ روما الشائعة: ”ارجعْ إن استطعت أن تعثرَ على شجاعتيك. كنتُ أعتقدُ أن لديكم، أنتم الرُّومانيِّين، شهيةٌ للدَّمِ. سأعطيكم دمًا! دمك أنت، أيها الصَّبِيُّ الصغير. في فُنجانٍ، إذا رغبتَ في ذلك“. وضحك ثانيةً. ”قربانٌ سكيبٌ لآلهتك!“

سُفِقَ الباب. وأحسَّ أترتيسَ الصَّمْتَ الهادئَ الذي خيَّم على الفناء. ولم يقلِ الحارسان شيئًا عندَ اقتيادِ أترتيسَ إلى مأواه. وقد توقَّعَ أترتيسَ أن يُجلدَ بالكِرياجِ ويوضَّعَ في الحبسِ الانفراديِّ عقابًا له على ما فعل. إلا أن باتو، بدلًا من ذلك، بعثَ إليه امرأة. وما كانت هذه عبدةً مطبخٍ منهكة، بل مومسًا شابَّة ذات خيالٍ وحسٍّ دُعاية.

انفتَحَ الباب، ووقفتَ ناظرةٌ إليه، ووراءها تمامًا حارس. كانت فتيةٌ جميلة، ومُرتديةٌ ملابسَ مُبهجةٍ تُناسِبُ مَهْرَجَانًا رومانيًّا. ثمَّ قالت: ”جيدٌ، جيدٌ“، مُبتسمةً ومُتأملَةً إِيَّاه من رأسه حتَّى قدميه. وتابعتْ عند دخولها حُجرتَه: ”قال باتو إنك ستروقني“. وضحكتُ إذ وقفتُ مُتجمِّدًا من الصَّدمة، مُحدِّقًا إليها، وكان صوتُها مثلَ موسيقى منسيةٍ من زمانٍ بعيد.

ولم يرجع الحارس حتَّى الفجر.

وفي اليوم التالي، قال أترتيس لباتو: "لَكَ سُكْرِي!"

فابتسم باتو ابتسامةً صفراء. "حسبْتُ أَنَّهُ ينبغي لك أن تحصلَ على شيءٍ جيّدٍ قبل أن تموتَ".

"هنالك أشياء أسوأ من الموت".

تلاشتِ ابتسامةُ باتو، وهزَّ رأسه مُتجهِّمًا. "الحكيم والجاهل يموتان على السواء، يا أترتيس. فما يهمُّ هو أن يموتَ المرءُ ميتةً حسنةً".

"أنا أعرفُ كيف أموتُ ميتةً حَسَنَةً".

"لا أحدَ يموتُ ميتةً حَسَنَةً على صليب. إنَّها ميتةٌ مَقِيئَةٌ بطيئةٌ بلا كرامة، حيثُ يُعْرَى جِسْمُكَ كي يراه الجميع". ونظر إليه في عينيهِ مُباشرةً. "لم تُصغِ إليَّ أمس. لقد ارتكبتَ خطأً مُتهوِّراً، خطأً ربَّما لا تعيشُ بعده. فإنَّ التفوُّقَ على رومانيّ في مُباراةٍ مُنصِفةٍ هو شيءٌ، يا أترتيس. أمّا السُّخريَّةُ به وإذلاله تعمُّداً، فشيءٌ آخر. إنَّ الشابَّ الذي ابتهجتَ جدًّا بهزيمته أمس هو ابنُ عضوٍ مُحترَمٍ في مجلس الشيوخ. وهو أيضًا صديقٌ لصيقٍ وشخصيٌّ لدوميتيان، ابنِ الإمبراطور الأصغر". وقد جعلَ كلماته تدخُلُ أعماقَ أترتيس.

جمدَ الدَّمُ في عروقِ أترتيس. وسألَ بصراحة: "إِذَا، متى أُصلَبُ؟" عالماً أَنَّهُ لا بدُّ أن يَجدَ طريقةً للانتِحار.

"عندما يَشَاءُ الإمبراطور".

وبعد أيامٍ قليلة، انتحى باتو بأترتيس. "يبدو أَنَّ الألهةَ قدِ ابتسمتَ لك. لقد قال الإمبراطورُ إنَّ كثيراً من الوقت والمال قد وُظفَا بحيثُ يُبددانَ تمامًا إذا صَلِبْتَ. وقد أمرَ بأن يُدرَجَ اسمُكَ في برنامجِ الألعابِ للأُسبوعِ المُقبِلِ". ثمَّ وَضَعَ يده على كتفِ أترتيس. "سَيَكُونُ ذلكَ قبلَ شهرينِ من إتمامِ تدريبك، ولكنك على الأقلِّ ستَموتُ وبِيَدِكَ سيف!"

ألْبَسَ أترتيس دِرْعًا مُغشَى مُحكَمًا. وازدري الكابِ الأحمرَ والخوذةَ المُذهبةَ التي شكَّ فيها ريشُ نعام، طارِحًا كِلَيْهِمَا جانِبًا عندما قَدَّمَا إليه. فالتقطَهُمَا عَبدٌ من جديدٍ وناولَ أترتيسَ إيَّاهُما، فقالَ للرَّجُلِ بألفاظٍ جازمةٍ أين يَضَعُهُما. ولكنَّ وجهَ باتو علاه التَّجهمُ، وقال مُنزعجًا:

"لَنْ تلبسَ هذا الزِّيَّ لأجل القتال. إنَّه للاحتفالات الافتتاحية. عليك أن تخلع الكابِ أمامَ الجمهور. هذا جزءٌ من الاستعراض".

”دَعْ أَحَدًا سِوَايَ يَتَبَخَّرُ بِالرَّيْشِ. أَنَا لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ“.

وهزَّ باتو رأسه بشدة، فغادرَ العبدُ حاملاً اللباسَ المبهرج. ”إِذَا جُلُودُ الدُّبِّيَّةِ. إِنَّهَا تُنَاسِبُ الهَمَجِّيَّ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ. إِلَّا إِذَا فَضَّلْتَ أَلَّا تَرْتَدِّيَ أَيَّ شَيْءٍ عَلَى الإِطْلَاقِ. فَمَنْ عَادَاتِكَ الجِرْمَانِيَّةُ أَنْ تُقَاتِلَ وَأَنْتَ عَارٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِنَّ الرِّعَاعَ سَيُعْجِبُهُمْ ذَلِكَ كَثِيرًا جَدًّا“.

طوالَ الأَيَّامِ القليلةِ التالية، قضى باتو وقتًا إضافيًا معه، معلِّمًا إيَّاه حِيَلًا وحرَكَاتٍ قد تُنقِذُ حَيَاتَهُ. وكان اللانيسْتا يُمِرُّهُ حَتَّى يُرَهِّقَا كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَى الحِمَامَاتِ والمُدَّلِّكِ. لم تُبْعَثْ إِلَى مَاوَاهِ نِسَاءً أُخَرَ، ولكِنَّهُ لم يَكْتَرِث. فقد أَجْهَدَهُ التَّعَبُ حَتَّى تَعَذَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمْتَعَ بِوَاحِدَةٍ. وبهذا المُعْدَلِ، لن تَبْقَى لَدَيْهِ قُوَّةٌ لِلقِتَالِ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ، نَاهِيكَ بِالصُّمُودِ وَالنَّجَاةِ مِنَ المِحْنَةِ.

قَبْلَ الأَلْعَابِ بِيَوْمَيْنِ، مَرَّنَهُ باتو، وَلَكِنْ سَمَحَ لَهُ بِكثِيرٍ مِنَ الرِّاحَةِ. وَفِي اللَّيْلَةِ الأَخِيرَةِ، جَاءَ إِلَى زَنَازِنَةِ أُتْرِيْتِسَ. ”سَتَوْخِذُ إِلَى مَاوَى أُخَرَ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ غَدًا. وَدَائِمًا يُقَامُ مَهْرَجَانٌ قَبْلَ الأَلْعَابِ. سَيَكُونُ مُخْتَلِفًا عَنِ أَيِّ وَاحِدٍ سَبَقَ أَنْ عَايَنْتَهُ يَوْمًا، يَا أُتْرِيْتِسَ. فَالِيكَ نَصِيحَتِي. كُلْ وَاشْرَبْ بِاعْتِدَالٍ. امْتَنِعْ عَنِ النِّسَاءِ. رَكِّزْ ذَهْنَكَ وَوَفِّرْ قُوَّتَكَ لِأَجْلِ الأَلْعَابِ“.

فَرَفَعَ أُتْرِيْتِسَ رَأْسَهُ وَسَأَلَ سَاخِرًا: ”أَمَا مِنْ لَذَّةٍ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ؟“

”انْتَبِهْ إِلَى مَا أَقُولُ. إِذَا رَحِمْتِكَ الأِلَهَةُ، فَسَتَعِيشُ. وَإِلَّا، فَعَلَى الأَقْلِّ تَجْعَلُ القِتَالَ قِتَالًا حَسَنًا. فَإِنَّكَ لَنْ تُخْزِيَّ شَعْبَكَ“.

أَصَابَتْ كَلِمَاتُ باتو أُتْرِيْتِسَ فِي الصَّمِيمِ. فَهَزَّ رَأْسَهُ مُوَافِقًا. وَمَدَّ باتو يَدَهُ، فَأَمْسَكَهَا أُتْرِيْتِسَ بِقُوَّةٍ. وَبَدَأَ اللانيسْتا مُتَجَهِّمًا. فَلَوَى أُتْرِيْتِسَ فَمَهَ بِابْتِسَامَةٍ مَائِلَةٍ إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ.

”عِنْدَمَا أَعُودُ، أَتَطَّلُعُ إِلَى مَكَافَاتِي مُتَشَوِّقًا“.

وَضَحِكَ باتو. ”إِذَا عُدْتِ، فَسَتَنَالُهَا“.

كَانَ مُفَرَّرًا أَنْ يَتَقَاتَلَ سِتَّةَ رِجَالٍ فِي اللُّودِيِّ بِلِيَايِي، الأَلْعَابِ المُقَامَةِ لِلْعَامَّةِ، وَهؤلاءِ يُدْعَوْنَ عَمُومًا الرِّعَاعِ الرُّومَانِ. فَأَدخَلَ الرِّجَالَ عُرْفَةَ انْتِظَارٍ، حَيْثُ وَجِبَ أَنْ يَلْبِثُوا رِثْمًا تَحْضُرُ فِرْقَةٌ مِنَ الحُرَّاسِ فَتَأْخِذُهُمْ إِلَى المَاوِيِ المَوْجُودَةِ تَحْتَ سَاحَةِ المَحَارِبِينَ. كَانَ المَحَارِبُونَ الخَمْسَةَ الأُخَرُونَ فِي العُرْفَةِ قد قَاتَلُوا مِنْ قَبْلِ. وَقَدْ نُسِبَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ مَحَارِبًا. وَكَانَ أُتْرِيْتِسَ هُوَ الوَافِدُ الجَدِيدُ الوَحِيدُ. كَمَا أَنَّهُ أَيْضًا كَانَ الرِّجُلَ الوَحِيدَ المُطَوَّقَ مِعْصَمَاهُ وَكَاحِلَاهُ بِالقَيُودِ.

كان الشراقي كبيراً وقويًا. وكان أترتيس قد نازله مرّةً، فعلم أنه أليّ، يمكن التنبؤ بحركاته. وقد كانت القوة الوحشية خطره الأعظم، إذ استخدمها كآلة كَبِش الهدم الحربيّة. وكان القرثي مسألةً أخرى، إذ كانت ضرباته سريعةً لكونه أكثرَ نُحولاً وخِفّةً. وقد كان اليونانيان مُقاتلين جيّدين، غير أن أترتيس سبق أن ناوشهما كليهما فعلم أنه يستطيع أن يغلبهما.

أما الرجل الأخير فقد كان يهوديًا استطاع بطريقة ما أن ينجو من خراب موطنه عند انتصار تيطس. كان ذلك الرجل وسيماً وقويّ البنية، واسمه كالب. ولما كان مشهوداً له بقتل اثنين وعشرين مُحارباً، فإنه شكّل الخطر الأكبر. وقد تأمله أترتيس ملياً، وتمنى لو أُتيحت له فرصةٌ مُنازلته في اللودس، لو جرى ذلك لكان علم كيف يُقاتل الرجل - ولكان علم ماذا يتوقّع، وماذا يتوقّى، وكيف يُهاجمُ هجوماً مُضاداً في سبيل أفضل النتائج.

كان رأس اليهوديّ مَحْنِباً وعيناه مُغمضتين، مُستغرقاً على ما يبدو في تأمل غريب من نوع ما. وقد سبق لأترتيس أن سمع أن اليهود يعبدون إلهاً غير منظور. لعلّ إلههم مثل إلهة الغابات عند أترتيس: حاضِر، لكن مُراوِغ. وشاهد أترتيس شفّتي الرجل تحركاً في صلاة صامتة. فرغم استرخائه واستغراقه في التركيز، شعر أترتيس بأنه مُتنبّه إلى مُحيطه. وقد تأكد هذا عندما رفع اليهوديّ رأسه ونظر في عيني أترتيس مباشرةً، إذ أحسّ تمعّنه. فردّ أترتيس بالتحديق إليه، مُحاولاً أن يسليخ عنه أيّ تظاهرٍ بالشجاعة قد يكون لديه. غير أن ما رآه كان البسالة والقوّة.

حملق أحدهما بالآخر لحظاتٍ طويلةً، مُحمّنين بعضهما بعضاً بلا حقد. كان اليهوديّ أكبر سنّاً وأوسع خبرةً على نحوٍ كبير. وقد أذرت أترتيس حملقته - بغير أن تطرف عيناه - بأنه سيكون فتلاً.

قال: "اسمك أترتيس".

"وأنت كالب، ومشهود لك بقتل اثنين وعشرين مُحارباً".

خيّمت على ملامح الرجل ظلالُ خفقانٍ عاطفة. والتوى فمه بابتسامةٍ خاليةٍ من الدعابة. "سمعتُ أنك حاولت قتل أحد ضيوف اللودس".

"هو طلب ذلك".

"أصلي طالباً ألا يجمعنا الله في المنازل، أيها الفتى أترتيس. لدينا بُغضٌ مُشتركٌ لروما. وسُحزِنني أن أقتلك".

تكلم كالب بإخلاصٍ عميق وثقةٍ بسيطةٍ بالغين جعلاً نبض أترتيس ينشط. غير أنه

لم يُجِب. فأفضّل أن يدعَ كالب يعتقدُ أنّ الشبابَ وقلةَ الخبرة يجعلانه فريسةً سهلة. وربما كان فرطُ الثقة بالنفس نقطةَ الضّعفِ الوحيدةَ عند الرجل، والأداة الوحيدة التي يستطيع أترتيس أن يستخدمها للصمود والنّجاة بعد مُباراةٍ بينهما.

وصلَ جنودُ الإمبراطور. وقد خُصّصَ اثنانٍ منهم لكلِّ مُحارب، ولأترتيس واحدٌ إضافي. ويتكشيرة فاترة، وقفَ أترتيس، وقد بثّت أصفادُه الملتصقةً بجلده دفقةً غضبٍ في أوصاله. أينبغي له أن يدلّف متناقلاً طوال الممشى فيما الآخرون يسرون بخطى واسعة؟ ورأى باتو في مدخل الباب المفتوح. "قل لهؤلاء الكلاب إني لن أهرّب من قتال!"

"إنهم يعرفون ذلك أصلاً. فهم قَلِقون لأنك ستأكلُ واحداً من الضيوف الرومان في الوليمة التي تسبقُ الألعاب".

فضحك أترتيس.

وأمر باتو بنزعِ أصفادِ كاحليه حتى يمشي بلا عائق. فلاحقَ بالآخرين، يُحيطُ به حراسُه، في نفقٍ مُضاءٍ بالمشاعل طوله بضعُ مئاتٍ من الأمتار. ثم أغلقَ وراءهم البابَ الخشبيّ الثقيل. وفي آخرِ النفقِ كانت غرفةٌ مُضاءة. فلما دخلوها، أغلقَ البابَ الثاني وأقبل. وانفتحَ آخرُ يؤدي إلى متاهةٍ من الحجرات تحت المدرج وساحة المحاربين.

زمجرت أسودٌ من مكانٍ ما داخلَ الظلمة، فانتصبَ الشعر على قفا رقبته أترتيس. لم يكن هنالك عازٌّ أعظمٌ من أن يلقى طعمًا للأسود. ومشى المحاربون مع حراسهم عبر الدّهاليز الحجرية الضيقة الباردة. ثم صعدوا درجًا أفضى بهم إلى مهاجعٍ سفلى في قصر. وسمع أترتيس موسيقى وفهقهات إذ دخلوا بهواً رخامياً. كان في آخرِ القاعة بابان ضخمان منحوتان بإتقان، وقد وقفَ عبدان متأهبان لفتحهما، وكلُّ منهما مرتدٌ تنكاً أبيضٌ ذا حواشٍ حمراء وذهبية.

قال أحدهم هاتفاً بحماسة: "إنهم هنا!" وإذا بأترتيس يرى الغرفة تعجُّ برجالٍ ونساءٍ رومانيين مُرتدين توجاتٍ فاخرة زاهية الألوان. وقد توقفت عن الرقص شائبةً ذاتُ إزارٍ زنّاره مُرصعٍ بالجواهر، ومُعظمُ جسميها مكشوف، وذلك حينما تقدّم أترتيس والآخرون إلى وسطِ الغرفة الكبيرة، وتركز عليهم كلُّ انتباه. وقد تفحصهم الرجال والنساء مُحتمنين كما لو كانوا أحصنةً رُكوبٍ أو سباق، مُعلّقين على طولهم وعرضهم وأحوالهم.

راقبَ أترتيس المحاربين الآخرين باهتمامٍ عابر. وبدا التراقيّ والقرثيّ واليونانيّان كلهم مُستمتعين بالوضع. فقد تقدّموا نحو المنصة في أقصى القاعة، مُتبسمين ومُبدئين بعضُ التعليقات لبعضِ الشابات اللواتي راقبنهم. إنّما كالبٌ وحده بقي متجنباً مخالطة الناس.

وحذا أترتيس حذوه، مُرَكِّزًا حَمَلَقَتَهُ على ضيوف الشرف الذين كان يُقدِّم المحاربون إليهم احتفاليًا. ووثب قلبه لما عرف الرجل الذي في الوَسَط.

صفَّهم الحُرَّاس أمام المنصَّة، ووقف أترتيس وجَّهًا لوجه قَدَّام الإمبراطور الروماني، فسبازيان. وقد كان إلى يمينه ابنه الأكبر تيطس، فاتح بلاد اليهودية، وإلى يساره دوميتيان.

رَكَّز أترتيس نظره على فسبازيان. كان للإمبراطور بنيةٍ عسكريٍّ وجِلسُته المتَّسمتان بالقوَّة. وكان شعره الأشيب مَقْصُوصًا قصيرًا جدًّا، ووجهه ذو خطوطٍ واضحةٍ عميقة من جِراء سِنِّي الحَمَلات العسكريَّة الطوال. وقد جلس على مَقْرَبَةٍ منه تيطس، وهو لا يقلُّ عنه إثارةً للإعجاب، تتنَّهي عليه ثلاثُ شابَّاتٍ جميلات. ولئن بدا دوميتيان أقلَّ أسْرًا عند المقارنة، فقد طعن كبرياء أترتيس أن يعترف بأنَّ هذا الفتى المراهق هو مَنْ صدَّع وحدة القبائل الجرمانية. وقدَّر المسافة التي ينبغي أن تتوافر له حتَّى يقفَر وَيَقْتِكَ بواحدٍ من الثلاثة، فعرف أن ذلك مُستحيل. غير أنَّ مُجرَّد فكرة كَسِر رَقَبَةٍ أحدهم جعلت دمه يصبُّ.

تأمَّله فسبازيان دون أيِّ تغرُّر في سيمائه. وحدَّق إليه أترتيس في المقابل ببرودة، مُتمنِّيًا لو كان معصماه غير مُقَيَّدَيْن وبِيَدِهِ سيفٌ قصير. فأمامه على المنصَّة جلسَتْ سُلْطَةُ روما المقتدرة بعينها. وقد تراصَّف الحُرَّاس بمحاذاة جُدران القاعة، ووقف وراء أترتيس اثنان. فإنَّ خُطوةً أخرى منه نحو المنصَّة ستكون خُطوته الأخيرة.

لم يكترث أترتيس بالإعلان الجليل الذي أطلقه قائد المئة، ولا حذا حذو المحاربين الخمسة الآخرين إذ رفعوا قبضاتهم مؤدِّين التحية للقيصر هاتفين. وكان فسبازيان ما يزال يُحدِّق إليه. فسرى الهمس غمغمةً. ورفع أترتيس معصميه المُقَيَّدَيْن، مُبتسِمًا ابتسامًا ساخرة. فأوَّل مرَّة كان مسرورًا بقيوده، إذ أنقذته من دُلِّ تقديم الكرامة لروماني. وأجال حَمَلَقَتَهُ من فسبازيان إلى تيطس فألى دوميتان، ثمَّ أعاد الكُرَّة رُجوعًا، مُتَيْحًا لهم أن يروا كامل قُوَّة صَغِينَتِهِ.

أمسكته الحارسان بذراعيه، فيما اقتيدَ مع الآخرين من القاعة الكبيرة إلى غرفة أصغر. وإذ دفعه الحارسان على أريكة، قال أحدهما بجفاف: "سُتُكْرَم هذا المساء. وغداً توت".

راقب أترتيس المحاربين الآخرين يُواكبون إلى أرائك شرف. وقد لحق بهم إلى العُرفة بعض من ضيوف الإمبراطور وأحاطوا بهم. وكانت شابَّةً رومانيَّة جميلةً تضحك وتُرَبِّتُ الفرثي كما لو كان كلبًا أليفًا.

اقترب إلى أترتيس أيضًا بضعة رجالٍ ونساء، مُتفحِّصين إيَّاه ومُتحدِّثين بشأن قُوَّته

وحججه. فنظر أترتيس إليهم مُحدِّقًا واحتقارٍ واشمئزاز. وعلق رجلٌ وسيمٌ جيّد البنية قائلاً بجفأ: ”لا أعتقد أنه يحبُّ أن يكونَ موضوعَ نقاشٍ“.

”أشكُّ في أنه يفهمُ اليونانيّة، يا مرقس. فمشهورٌ عن الجرّمايين أنّهم أقوياء، لكنّ جهلاء“.

ضحك الرجلُ المُسمّى مرقس. ”من نظرةِ عينيهِ، يا أنتيغونوس، أقولُ إنه فهمَ ما قلتهُ فهمًا جيّدًا جدًّا. إنني سأراهن على هذا، إذ يكتنّفه منظرٌ مُميّز“.

وقال الآخرُ وهما يُغادران: ”ما زلتُ أنوي المراهنة على رجلٍ أرى اليوناني. لقد قالتُ إنّ له قُدرةَ احتمالٍ هائلةً“.

فقال مرقس: ”لا شكُّ أنّها جرّبتها“، فيما مشى مُتباطئًا كي يُلقِيَ على الفرثيّ نظرةً أوثق. ودّ أترتيس لو يعلمُ كم من الوقت عليه أن يتحمّل ”التكريم“. وقد جيء إليه بصينيّاتٍ أطيب، فازدراها. لم يكن قد رأى أو شمّ قطّ أطعمةً كهذه من قبل، فارتاب في الأمر. وشربَ الخمرَ باعتدال، وقد حمي دمه عند رؤيةِ جوارٍ قليلاتِ الثيابِ راقصاتٍ وهنّ يدرن ويتمايلن مُهتزّاتٍ ومُتلوياتٍ في رقصةٍ شهوانيّة.

وقفَ أمامه رجلان، وقال أحدهما للآخر: ”وأسفاه، يا أوريستيس! يبدو أنّ الجرّمانيّ يُفضّلُ النساء“.

فأجاب الآخرُ مُتهنّدًا: ”أمرٌ مؤسفٌ حقًّا“.

انطبقَ حنكُ أترتيس، وشجبت يدهُ على كأسه. لقد شعرَ بتمعنِهما الفاسد، وأقسمَ إنه إذا ألقى عليه أحدهما يدًا فسيفتله.

ثمّ استرعى انتباهَ أترتيس تفجّرٌ ضحك. فإنّ أحدَ اليونانيّين كان قد جذبَ جاريةً إلى حضنه ومضى يقبلها. وقد كانت تصرخ وتجاهدُ للإفلات منه فيما الرّومان حوَالِيهِ يضحكون ويشجعونه على مزيدٍ من الاجترار. وعلى أريكةٍ تبعدُ بضِعَ أقدام، راح الفرثيّ يحشو بطنه بكلِّ نوعٍ من الطعامِ الشهيّ ويُسرفُ في شربِ الخمرِ بلا انضباط. ففكرَ أترتيس: خيرٌ لهذا المُغفلُ أن يُمتّع نفسه، لأنّ هذه آخرُ وجبةٍ طعامٍ يتناولها على الإطلاق، إذا وافاني الحظُّ الطيبُ بأن أواجهه غدًا.

اتكأ كالب على أريكةٍ خفّيةٍ بعيدةٍ تمامًا عن الباقيات. لم يمسك بيده أيّ كأسٍ خمر، ولم يمَسَّ الطبق الذي أمامه. وكانت امرأةٌ واقفةٌ وراءه، تتحدّثُ إليه وتُرَبِّتُ كتفه. غير أنّه لم

يعبأ بها. وكانت عيناه نصف مغمضتين، وعلى سيمائه التجهّم والاكتئاب. فألّحت عليه حينئذ، ثم انصرفت منزعة.

لم يجلس أحد على وسائل أريكة أترتيس. وقد أمر فسبازيان بنزع قيدي معصميه، غير أنّ الحراس وقفوا متيقّظين ومتأهبين خشية أن يُحاول القيام بأي شيء، مُنبهين الضيوف إلى الحفاظ على مسافة أمان بينهم وبينه. وقد سمع عرّضا أحدّهم يقول: "الجرمانيون مثل البرسر كيّين"، أي المحاربين الاسكندينافيين القدامى المسعورين. وبدا أن نصف المجتمعين يُراقبونه، أمّلين أن يشهدوا قورة غيظ مُتهورة. وظلّت بضغ نساء فتيات ذوات لباس فاخر مُبهرج يُحدقن بنهم إلى كل جزء منه. فصرّ بأسنانه. أكانت جميع النساء الرومانيات جريئات هكذا؟ وإذا حاول أن يتجاهلهنّ، رفع كأسه وارتشف شيئاً من الخمر. ثم تقدّمن نحوه حتى يتنّ قريبات تماماً بحيث يسمع بوضوح ما كنّ يقلن عنه. هل حسبنه أصمّ أو مُغفلاً؟

"قال دوميتيان إن اسمه أترتيس. إنه جميل، أليس كذلك؟ إنني أحبّ الشقر حقاً."

"إنه أكثر توحشاً من أن يلائم ذوقي. هاتان العينان الزرقاوان تُصيبانني بقشعريرات البرد."

فردّت إحداهنّ، مُروحة على وجهها بطريقة مسرحية: "أوه! إنهما تُصيبانني بحمى".

وضحكت بضغ نساء ضحكاً رقيقاً، فيما سألت إحداهنّ: "كم رجلاً قتل حسب افتراضك؟ هل تعتقدن أنه سيحظى بفرصة غدا؟ قال لي دوميتيان إنه نازل ثراقي فادس، وهو جيّد مثل كالب من كل وجه".

"سأضع رهاني على هذا. هل رأيت نظرة عينيه لما جيء به إلى الغرفة؟ ثم إنه لم يُحيّ القيصر."

"كيف كان يُمكنه ذلك؟ لقد كان مُقيّداً."

وقالت أخرى بصوت هامس: "يقولون إنّ الجرمانيين يدخلون المعركة عُراء. هل تعتقدن أن فسبازيان سيأمُر بتجريده من ثيابه لأجل المباريات غداً؟"

فضحكت إحداهنّ قائلة بصوت أجشّ: "أوه، لكم أرجو ذلك". وانضمت إلى ضحكتها ضحكات الأخر نصف المكبوتة.

"سأطلب ذلك."

"أرياً! ظننتك تُحبين القرثي."

”لقد سئمته“ .

صَجِرَ أترِيس مِنهَن. وإذ أدَارَ رأسه قليلاً، حدَّقَ مُباشرةً في عيني إحدَى الشاباتِ الخمسِ البُنيَّتين، وهي التي قالتَ إنَّها ستطلبُ أن يُقَاتَلَ عارياً. وقد بدت كثافةُ الضفائرِ في شعرِها الأشقرِ غيرِ المُحتمَلِ أثقلَ وزناً على عنقِها النحيلِ المُطَوَّقِ باللؤلؤِ النادرة. لقد كانت جميلة. وإذ لاحظتِ انتباهه تماماً، رفعتَ حاجباً مُتعالياً لصديقاتِها، وابتسمت له. ولم تجعلها حَمَلَتُهُ الجريئة تتورَّدُ حياءً.

”هل تعتقدن أنه ينبغي لنا أن نقفَ قريباً جداً هكذا؟“

”ماذا سيفعلُ حسبَ اعتقادِكُن؟ هل يَختطفُنِي؟“ قالت أريا هذا وهي ما تزال تبتسمُ في عينيهِ، كما لو كانت تتحداهُ أن يفعلَ ذلك تماماً.

ظلَّ أترِيس يُحدِّقُ إليها. وقد كانت ترتدي حزاماً مُرصعاً بالجواهر يُشبه بتصميمه واحداً كان يرتديه اليونانيُّ. وتوانت حَمَلَتُهُ لحظةً، ثم رفعَ كأسه، وتناولَ جِرةً بطيئةً من الخمر، وصرَفَ انتباهه من جديدٍ إلى الجوارِيِ الراقصات، كما لو كُنَّ أكثرَ إغراءً بكثير.

”أعتقدُ أنكِ تلقيتِ إهانةً، يا أريا“ .

”قد يبدو كذلك“. هكذا جاءَ الجوابُ البارد. ثمَّ ابتعدن، مُريحاتِ أترِيس من حُضورهنَّ المُغيظ. فسأَلَ نفسه ثانيةً كم من الوقتِ ينبغي له أن يتحمَّلَ أمسيَّةَ ”المُلدات“ هذه. وسمحَ بأن تُمَلَأَ كأسه من جديدٍ، مُحاولاً أن يصدَّ ذهنه عن المَرَحِ الذي انقَضَ على روحه.

أخيراً، أخذوا من المهرجان، وأقبلَ عليهم واحداً فواحداً داخلَ زَنَاناتِ صغيرةٍ تحت المُدرَج. فاستلقى أترِيس على الرَّفِّ الحجريِّ وأغمَضَ عينيهِ مُضطرباً نفسه إلى النوم. وحلَمَ بغاباتِ موطنه، ويوقوفه بين الشيوخِ إذ تنبأتُ أمه بأنه سيجيءُ بالسلام لشعبه. وقد جعلته جَلِيَّةً معركةً يتلوى ويثن، وقرعَ أحدَ الحُرَّاسِ البابَ بشدَّةٍ فأيقظَه. ثمَّ نامَ أيضاً نوماً مُتقطعاً، وحلَمَ بأنه في المُستنقع. وكان في وَسعه أن يشعرَ به غائراً عند قدميه، وإذ جاهدَ كي يتحرَّرَ غرقاً وأعمقَ، وثقلَ التربةُ الرطبةُ يُطبِّقُ عليه ويشدُّه إلى الأسفلِ أكثرَ فأكثرَ، حتَّى باتَ تحت سطحِ المُستنقعِ وعَجَزَ عن التنفُّس. واستطاعَ أن يسمَعَ أمهَ وباقيَ أهلِ قريته صارخين فيما صدحَ رنينُ الفولاذِ في أرجاءِ الغابة. وامتلاً الهواءُ بصَرَخاتِ بني شعبه وهم يموتون. ولم يستطعَ أن يُحرِّرَ نفسه من ثِقَلِ التربةِ.

ثمَّ بصرخةٍ شديدة، جلسَ أترِيس مُفبقاً من الكابوسِ بارتجاجةٍ حادة. ومرَّت لحظةٌ

قبلما أدرك أين هو. وقد جرى العرق غزيرًا على صدره رُغم بُرودة الجدران الحجرية. فأطلق نفسه، وأرجع شعره إلى الوراء بأصابع مرتجفة، ثم أخذ نفسًا.

لقد قالت أمه إنه سيحيى بالسّلام لشعبه. فأى سلام جاءهم به؟ أى سلام سوى الموت؟ كم شططًا ما زالوا أحياء وأحرارًا في بلاد الجرمان؟ ماذا حلّ بأمه؟ وماذا جرى للآخرين؟ هل باتوا كلهم الآن، شأنهم شأنه، عبيدًا لروما؟

احتدم غيظًا، وأطبق قبضتيه بإحكام. ثم استلقى وهو يرتجف، مُحاولًا أن يسترخي، ومُحاولًا أن يستريح في سبيل المعركة المقبلة، حتى فيما ضجّ ذهنه بصور عنفٍ غداها توقُّه إلى الانتقام.

غداً. غداً سيموت ويديه سيف.

١٣

جاء الحُرَّاس لأخذ أترتيس بعد طلوع الصُّباح، حامِلين جِلْدَ دُبِّ ثَقِيلًا. واصطَحَبوه في الدَّهْلِيز المُضَاءَ بالمشاعل، فيما أُخْرِجَ الآخرون إلى الجَلْبَةِ وراءَ بَوابَةِ پومپاي، بابِ المَواكِبِ المَرَكِزِيِّ المُفَضِّي إلى المُدْرَجِ الكَبِيرِ (سِيرَكْس مَكْسِيمُس). وكان ضِوَاءُ الشَّمْسِ صَدْمَةً طَبِيعِيَّةً.

صَاحَ أَحَدُ الحُرَّاسِ: "لقد وصلَ الإمبراطورُ وبدأتِ الاحتِفالاتُ الافتِتَاحِيَّةُ". وحتَّتْهُمُ فِرْقَةُ الحُرَّاسِ على الإسراعِ بالصعودِ إلى المَرَكَباتِ التي كانتْ بانتِظارِ نَقْلِهِمُ إلى سَاحةِ المَحارِبِينَ كي يُعَرِّضُوا أَمَامَ المُشَاهِدِينَ المُحْتَشِدِينَ على مَقاعدِ المُدْرَجِ.

أَمَرَ أترتيسُ بِاعتِلاءِ مَرَكَبَةٍ مَعَ كالب. وقالَ اليهوديُّ: "ليُكُنِ اللهُ مَعنا كَلِينًا!"

فقالَ أترتيسُ من بينِ أَسنانِهِ، وهو يُنْبِئُ نَفْسَهُ لِلجَوْلَةِ: "أَيُّ إِلَه؟" وصَاحَ الجُمهورُ صياحًا جامِحًا إذ ظهَرا مَعَ اثنتي عَشْرَةَ مَرَكَبَةً أُخْرَى تُقَلُّ مُحارِبِينَ من مَدارسِ أُخْرَى. وما إنْ رَأى أترتيسُ وسمِعَ أَلْفًا كَثِيرَةً جَدًّا تَمَلُّ المُدْرَجِ الكَبِيرِ، حتَّى تَعَرَّقَتْ يَداهُ وأخَذَ قَلْبُهُ يَحْفَقُ بِشِدَّةٍ. وقد دَوَّتِ الأَبواقُ، وتردَّدتِ الصَّفاراتُ، وهتَمَّتْ أَلْفُ الأصواتِ، حتَّى بدا أنَّ الأَرْضَ نَفْسَها تَهتَزُّ.

كانتْ طَريقُ المَرَكَباتِ بعَرَضٍ يُجاوِزُ خَمسَةَ وَسَتِينَ مَترًا إلى جِهَةٍ واحِدَةٍ، وقد انبَسَطَتْ أَمامَ أترتيسِ بِطُولٍ يَفوقُ سِتِّ مِئَةِ مَتر. وعندَ مَنْتَصَفِ الطَريقِ قَامَتْ مِئْصَةٌ ضَخْمَةٌ (سِپينا). كانتْ مَصنوعَةٌ من الرُّخامِ، وقياسُها نَحو سَبعِينَ مَترًا بِالطُولِ وَسِبعَةَ أَمْتارٍ بِالعَرَضِ. وقد أدَّتِ السِپينا دَوْرَ مِئْصَةٍ لِتَمائيلِ وأعمدَةٍ من رُخامِ، ونوافيرُ تَنسَابُ مَنها المِياهُ المُعَطَّرَةُ، ومذابِحُ لِاثنتي عَشْرَ إِلَها. ومَرَّ أترتيسُ راکِبًا بِهَيْكَلِ صَغيرٍ لِفيَنوسِ حيثُ كانَ الكَهَنَةُ يَوقِدونَ بِخورًا دَفَعَ ثَمَنَهُ سائِقو المَرَكَباتِ. وفي وَسَطِ السِپينا، حَدَقَ أترتيسُ عَاليًا إلى المِسلَّةِ الشاهِقَةِ المَجلوبَةِ من مِصر. وإذ أَعْمَضَ عَينَهِ نِصفَ إغماضِهِ مُقابِلَ الوَهِجِ المُتألِّقِ رَفَعَ نَظْرَهُ إلى الكُرَّةِ الذَهبِيَّةِ المُركَبَةِ على رَأْسِ المِسلَّةِ، فوجَدَها مُتألِّثَةً كَشَمْسِ.

وعلى مَقْرَبَةٍ من أَقصى السِپينا قامَ عَمودانِ، على رَأْسَيْهِما عارِضَتانِ من مَرَمَرٍ. وفوقَ العارِضَتينِ رُكِّرتِ سَبْعُ بِيضاتِ بِرونزِيَّةٍ- هي الرُّموزُ المُقدَّسَةُ لِرَأْسِ فُلُونِ ورَأْسِ هِرَقْلِ، التَّوأمِينِ السَّماوِيِّينَ والقَدَيْسِينَ الشَّفِيعِينَ بِروما- وَسِبعَةُ دَلائِلِ مَكرَسَةِ لِإِلَه نِيتونِ، إِلَهِ البَحْرِ.

انعَطَفَ السائِقُ بِالمَرَكَبَةِ مُستَديرًا انِعْطافًا حادًّا، مُتَجَنِّبًا المِيتابِي بِصُعوبَةٍ، وتلكَ أعمدَةُ

صدًا قائمةً كأشجارِ السُّرو لحماية السبيينا من العَطَبِ في أثناء السِّباقات. كانت هذه المخاريطُ بارتفاع سبعة أمتارٍ تقريبًا، وهي مُزدانةٌ بنقوشٍ تُمثلُ مشاهدَ معاركٍ رومانيَّة. وقد تشرَّبَ أترتيس هذا كُلُّه فيما جرتَ مركبتهُ نازلةً الجهةَ الأخرى من الطريقِ بترَاضيفٍ مع مركبتينِ أُخرينِ .

ثمَّ دارتِ المركباتُ دورةً أُخرى، وتوقَّفتُ أمامَ منصَّةِ القضاء، حيث كان الإمبراطورُ جالسًا مع الرسميينِ الآخرين المسؤولين عن الألعاب. فترجَّلَ كالبِ وحذا أترتيس حذوه، فشعرَ بالحرارة مُنبعثًا من الرَّمَل. وقد كانت حرارةُ الشمس شديدةً، فتاقَ أترتيس إلى طَرحِ جِلْدِ الدَّبِّ عنه. وكانت ظلُّ زاهيةً الألوان تُنشر على حبالٍ منصوبة، لتظليلِ صفوفِ المُشاهدين العُليا. وقد جفَّ حلقُ أترتيس، وتمنى لو يُعطى واحدًا من تُنكات اللوُدس الصوفية الرقيقة.

مشى كالبِ بخطى واسعة على حافة ساحة المحاربن، ماديًا ذراعيه للتَّرحيب بهُتافاتٍ مُعجبيَّة. وفعلَ مثله المحاربون الآخرون، مُتباھينَ بدُروعِ صَدْرٍ مرصَّعةٍ بالفضَّة والذهب. وكان بعضهم مُعلقين سُبوفًا مرصَّعةً بالجواهر النَّفيسة. وقد شكَّ في أعلى الخُوذ البراقة ريشُ نعامٍ وطواويس. وكانت دُروع العَصْد والفخذ منقوشةً بمشاهدٍ معاركٍ. وإذ بُهرَ المُشاهدون، راحوا يهتفون تعبيرًا عن ابتهاجهم، مُنادينَ مُفضَّليهم ومستَهزئين بالآخرين، ولا سيما أترتيس بفرِّوه الهمجي، وهو واقفٌ صامتًا، مُنفرجِ السَّاقين، غارِزِ القَدَمين. وقد أخذَ بعضُ المُشاهدين يُنادونه ويضحكون.

كان الجمهورُ يوجُّ بالأحمر والأبيض والأخضر والأزرق، حيث ارتدى المُشاهدون ألوانَ فرَقهم التي تُبين أيَّ فريقٍ مركبةٍ يؤيِّدون. أمَّا الذين مع الإمبراطور فقد ارتدوا اللون الأحمر بِعظمتهم. وكان منظمُ الاحتفالاتِ الخاصَّة بالألعاب ورئيسها يُدعى المُشرف. فهذا رجَّع إلى الورا أمامَ منصَّة الإمبراطور. وإذ ترجَّل المُشرف من المركبة، وثبَّ المُشاهدون ملوِّحين باللائحات. ديوكليس يركبُ فادس: صديقُ للشعب! فابتسم لابسُ التَّوجَّة الأرجوانيَّة وانحنى ملوِّحًا للجمهور، وألقى خُطبةً وجيزةً أمامَ الإمبراطور.

قدَّم المحاربون أنفُسهم أمامَ الإمبراطور، ومن جُمليتهم أترتيس. إذ رفعَ يده بتحيةٍ رسميَّة مع الآخرين، وهتفَ الجميح: "سلامًا، قيصرا الذين يوشكون أن يموتوا يُحيونك". فعَلقتِ الكلماتُ البغيضة في حنجرة أترتيس، وتكوَّرت يده قبضةً أبقاها في الهواء وقتًا أطولَ بقليل بعد الآخرين.

وإذ صعدَ أترتيس إلى المركبة مُجددًا مع كالبِ، ثبتَّ نفسه من جديدٍ لآخرِ دورةٍ من الطريق قبل اندفاع المركبة عبرَ الأبواب. وبينما كالبِ يترجَّل، قال: "الآن يبدأ الانتظار".

فسألَ أترتيس: "كم من الوقت؟" ماشيًا بجانب كالبِ نحو الماوي التي سيحتجزان

فيها حتى يُستدعى لمباراتهم. وقد تدافعت زمر من النساء نحو الحُرَّاسِ المُحيطين بهما، مُناديات سيليرُس وأريستِس وبيروميثيوس.

”ليس من سبيل لأن نعرف. ساعة. يوماً. والمشهد الحقيقي ليس الألعاب على الإطلاق، بل هو المشاهدون. فعندما يجري سباق، يُمزقون ثيابهم ويجرحون أنفسهم، ويغمى عليهم من الانفعال، ويرقصون كالمجانين، ويُراهنون بكل سسترس في حوزتهم على فريق ما. وقد رأيتُ خاسرين يبيعون أنفسهم لتاجرٍ عبيد في سبيل بضع قطع إضافية من الثقود يُراهنون بها. إنه هوس المِضمار، كما يُسمونه. فالرُومانُيون مهووسون بالخيل“.

ضحك أترتيس ضحكة خفيفة: ”إذًا، نحن مُجرّدُ تسليةٍ ما بين السباقات“.

”اغضب. فهذا يُعطيك قوَّةً إضافية. ولكن لا تدع الغضب يقوى على تفكيرك. ليس إلا إذا كانت إرادتك أن تموت“. ورمق أترتيس بنظرة وهما ماشيان. ”لقد رأيتُ رجالًا يتخلَّون عمدًا عن يقظتهم حتى تُصيبهم ضربة قاتلة“.

”ما كنت لأتخلَّى عن يقظتي!“

ضحك كالب بلا ظرافة. ”لقد رأيتك تُقاتل. إن الغيظ يملأك، بل يُعميك. انظرُ حوالبك إلى الجمهور، يا أترتيس القتي. إن فاتحي العالم هؤلاء عبيد لأهوائهم، وذات يوم ستصرعهم أهواؤهم“. ثم فتح الحارس إحدى الزنانات في الدهليز المُضاء بالمشاعل، وخطأ كالب إليها. وإذ أدار وجهه، حدق في عيني أترتيس مباشرةً، وقال: ”بينك وبين روما أشياء مُشتركة كثيرة“. ثم أغلق الباب، فحجبه عن النظر، وأحكى القفل.

لم يُستدع أترتيس إلا بُعيد الظهر. ولما خرج من زناتته، أُعطي سيقًا عريضًا يُستخدم بكِلتا اليدين، ولم يُعطِ درعًا. وكان عبيدُ يُزيلون حُطامَ مركبتين تالفتين ويُسوون الرَّمْل. كذلك كانت تُقدف إلى الجمهور طيورٌ حجل مشويَّة. وكان مُعظم المشاهدين قد تحدروا من ضوء الشمس والخمر، فاتكأوا يأكلون خبزًا أحضره لذلك اليوم.

طرح أترتيس عنه جلد الدب الثقيل، ومشى بخطى واسعة على الرَّمْل ليواجه خصمه، وكان مرملاً مؤهبًا بعدة غالي، وعلى خوذته شارة سَمكة. وإذ تقدَّم أترتيس إلى الأمام، حيَّاه الجمهور بصرخات الاستهجان وصيحات الازدراء، ورشقوه بعظام طيور الحجل. فتجاهلهم أترتيس ووقف بجانب الغالي وواجه الإمبراطور، رافعًا سلاحه تحيةً. ثم التفت ليواجه خصمه.

دارا أحدهما حول الآخر، مُفتشين عن سبيل للهجوم. وكان الغالي مُتلئ الجسم، فقام بالاندفاع الأولى. دارى ذراعه اليمنى واستخدم جسمه الضخم ليصدِّم أترتيس عندما صدَّ

الهمجى الجرمانى ضربته سيفه. وراع أترتيس من هجمة الغالى، ثم رفع قبضته عالياً وأهوى على خوذته خصمه بضربة شديدة منحرفة. وانتهاز جزء الثانية من الأفضلية ليطعن جنب الغالى بسيفه. ثم أرخى السلاح، وخر الرّجل على ركبتيه. وقد رفع الجريح رأسه ببطء، وسقط على قفاه. ورفع نفسه على مرفقى واحد بضع ثوانٍ قبل أن يموت. فمضى أترتيس مُبتعداً عنه فيما انفجر الجمهور بصرخات الشخيرة. لقد أحسوا أنهم خُدعوا لأن القتال كان وجيزاً.

انتزع أترتيس سلاح الغالى، ورفع في الهواء، وأطلق صيحته الحربية ليطواز. ثم أرخى ذراعه إلى جنبه وتمشى ذهاباً وإياباً أمام المنصة.

وصاح بالإمبراطور والرسميين: "قتلت عشرة من جنود فيالقكم قبل وقوعي في الأسر! واقتضى الأمر أربعة لتثبيتي أرضاً وتقييدي بالسلاسل". ثم رفع سيفه للجمهور. "إن أضعف جرمانى يساوي فيلقاً من الرومانيين الجبناء!"

وعلى نحوٍ يثير الدهشة، هدّر الجمهور استحساناً. إذ حيوا جسارته مُصفاً ومُفقهين. فبصق على الأرض.

وصاح أحد المحامين، يُحيط به أعضاء فوجه: "أعطوه سيليرس!"

فوجه أترتيس غلادبوسه إليه مباشرة. "يا جبان! انزل بنفسك إلى الساحة! أم الدم الرومانى هو ماء؟" وهم المحامي بأن يشق طريقه على الممشى، ولكن بعض الأيدي دفعته إلى الوراء. فضحك أترتيس عالياً، وقال ساخراً: "رجالك خائفون عليك!" ثم قام اثنانٍ آخران. "سيليرس! سيليرس!" التقط المئات هذه الأغنية الرتيبة. ولكن ضابطاً شاباً آخر انحدر إلى ساحة المحاربين قفزاً وطلب درعاً وسلاحاً، وصاح: "لأجل كرامة روما والذين ماتوا على الحدود الجرمانية!" متقدماً بخطى واسعة كي يُنازل أترتيس.

كانا متكافئين تماماً على الصعيد الجسماني، وسكت الجمهور عند صليل السيفين. فلم يُفسح أحدهما للآخر بضع لحظات وهما يصدان الضربات ويُحاولان انتهازاً أفضلية. ثم توقى أترتيس إحدى الضربات القوية، وأقحم كتفه في صدر الرومانى دافعاً إيّاه بقوة إلى الوراء. وعلى الأثر سريعاً، أسقط الضابط الشاب على ركبتيه. فتيسر للرومانى أن يبتعد متدحرجاً ويزحف بعجلة إلى قدمي أترتيس. وقفز أترتيس إلى الوراء فيما ومض الغلادبوس وأحدث جرحاً بليغاً في صدره بطول خمسة عشر سنتيمتراً تقريباً. وإذ انزل أترتيس في بركة دم حيث سقط الغالى، سقط على مهل.

نهض الجمهور كله، صارخين بضراوة إذ هجم الضابط إلى الأمام وفرج رجله فوقه.

ورأى أترتيسُ الغلادايوسَ يرتفع لإنزال الضربة القاتلة، فرفع قبضته بضربة بين رجلي الرجل واضطره إلى الانكفاء مُتألمًا بشدة. ثم تدحرج مُبتعدًا، وهبَ واقفًا على قدميه، ورجح سيفه بكل قوته وأهوى به على درع العنق التي تحمي رقبة خصمه.

هوى الجسمُ المقطوعُ الرأسِ مُنبطحًا على الرمل، وخيم الصمتُ على الجمهور.

والتفت أترتيسُ جاش الصّدر، ثم رفع سيفه المدمى تحديًا لفوج الضابط. فصرخ الجمهور ثانيةً بانفعالٍ شديد. إلا أن جنديين آخرين منعهما جنودُ الإمبراطور من القفز للنزول إلى ساحة المحاربين. وأصدر فسبازيان إشارةً، فتقدم رتياريسُ إلى الأمام.

علم أترتيسُ أنه يُتوقعُ منه أن يؤدي دور السيكوتر، أو ”المطارِد“، ويقبض على حامل الشبكة. وعلم أيضًا أن الرتياريسُ كان صاحبَ الأفضلية. فقد كانت أثقال معدنية صغيرة مُعلقة بأطراف شبكته، بحيث تنفتح في دائرة واسعة متى طرحت. وإذا علق أترتيسُ فيها، تُتاح له فرصة ضئيلة للدفاع. وكان قد تعب أصلاً من المباراتين الأوليين، فلم يُبادر إلى التقدم.

قال الرتياريسُ بصوت عالٍ، تاليًا الأغنية التقليدية الرتيبية: ”أنا لا أطلبك أنت، بل أطلب سمكة!“ ثم طرح شبكته بطريقة تحريية، وجذبها إلى الورا.

وقف أترتيسُ في مكانه، مُنتظرًا أن يأتي الرتياريسُ إليه. فهزئ به حامل الشبكة مزهوًا بنفسه، راقصًا حوله وواصفًا إياه بأنه جبانٌ همجي. وصاح عليه الجمهور كي يُقاتل. وناداه الجنود ”رعيدُ جبان!“ إلا أنه تجاهلهم جميعًا. فلم يكن ينوي قط أن يُنهك نفسه بالركض وراء حامل الشبكة. وهكذا قرّر أن يتيقظ وينتظر فرصته المؤاتية.

عرض الرتياريسُ متباهيًا رميات رائعة للشبكة. وقذف الشبكة الطويلة نحو قدمي أترتيس، قاصدًا أن يوقعه فيها، ولكن أترتيس قفز إلى الورا.

فقال الرتياريسُ ساخِرًا: ”لماذا تهرب؟“ مُرجحًا الشبكة جيئةً وذهابًا، وهو يتقدم. ولما رامها، أمسك بها أترتيس بشدة، صاذا طعنة الرُمح الثلاثي الشعب، ومُعليلًا ركبته بضربة في معدة الرتياريس. ثم لف الشبكة حول رأس الرجل، وركله فخرّ على ركبتيه، وأهوى بعقب غلادايوسه على قفا رأسه، فقتله.

هبَّ الجمهورُ وقوفًا من جديد، هاتفين بضراوة. وبينما أترتيس يتنفس تنفسًا ثقيلًا، مشى مُبتعدًا عن الرتياريس الصريع. كانت عضلاته ترتجف من الإعياء وفقدان الدم. فجثا على رُكبةٍ واحدة، وهز رأسه محاولًا أن يجلو بصره.

وأوما فسبازيان برأسه، فرأى أترتيس ثراقيًا يبرز ويمشي على الرمل. إنه سيليرس!

فأحكمت قبضته على غلادبوسه، ووقف على قدميه، واستعد للقتال من جديد، عالمًا أنه هذه المرة سيموت.

هب آلاف المشاهدين واقفين، ملوحين بمناديل بيضاء - إبداء لانحياز غير متوقع إلى أترتيس. فأجال فسبازيان نظره من الجمهور إلى الهمجي الجرمانى. ومال تيطس نحو أبيه متكلمًا بشيء. ودوى الهدير البشرى حتى بدا كأن المدراج يهتز من الضجيج. وظلت خرق بيضاء تنموج في كل ناحية، مبلغة الإمبراطور رسالة جليلة: أبى الهمجي حيًا، دعه يُقاتل في يومٍ آخر.

لم يرد أترتيس أية رحمة من رعاى الرومان. وانضح الغضب داخل جسمه، مُعطيًا إياه قوة مضاعفة. فتقدم مباعداً رجليه نحو الثراقى صائحاً: "قاتلنى!"

ورد سيليرس صارخاً: "أنت تواق جداً إلى الموت، يا جرمانى!" ورفع نظره نحو الإمبراطور بانتظار إشارة ما، فلم يتلق أية واحدة. ولما وصل أترتيس تقدمه، دار سيليرس ليواجهه وسيفه مجرّد من غمده مستعداً. فإذا بصراخ الرعاع يغدو مقلباً، وقد باتت المناديل البيضاء تتحرك في تناغمٍ مثل قرع طبل. وأصدر فسبازيان إشارة، فأمر سيليرس مدربه بأن ينكفئ. وبرز باتو وأربعة حراس من المدرسة العظيمة نازلين إلى الرمل.

اتخذ أترتيس وقفة قتال، قائلاً وهو تمسك سيفه بكلتا يديه: "ساموت كما أختار!"

طقطع باتو بأصابعه، فتفرق الحراس وهم يتقدمون. ولوح اثنان منهم بكراباجين. وبإيماءة من رأس باتو، فرقع كراباج حول سيف أترتيس، والتف الآخر حول كاحله. وإذا كانت يدا أترتيس زلقتين بالدم، لم يستطع الإمساك بالسيف. فأفلته، ورفع مرفقه ضارباً صفح رأس واحد من الحراس، ورفس آخر دافعاً إياه إلى الورا. فجذب الآخر الكراباج بإحكام، وأفقد أترتيس توازنه وقتاً أتاح للحراس الباقين أن يتشبثوا به. وتعلم محاولاً أن يتخلص منهم. فلمّا لم يستطع، أطلق صيحته الحربية. وأفحم باتو مقبض الكراباج بين أسنانه كي يسكته، ثم سحبوه من ساحة المحاربين وهو يقاوم.

"ضعوه على الطاولة!" وساعدت أيدٍ أخرى رجال باتو، فألقى أترتيس بعنق على قالب خشبي، وقد قيّدت ذراعه وساقاه. وفوس جسمه عاليًا زعم القيود.

قال رجل يرتدي تنكاً مضرّجاً بالدم: "أوقفوا نزف الجرح!" مومئاً بضيق صدرٍ لآخر يغسل يديه في طست من فخار. وبعد أن قال لباتو: "لقد فقدت كثيراً من الدم"، صاح برجلٍ آخر: "دعك من ذلك. إنه ميت، لا محالة. قل لدرؤس إنه يستطيع أن يأخذه للتشريح

إذا عَجَل . فما إن يموت، حتَّى يغدو ذلك مَحْظُورًا حسب القانون. أَسْرِعْ في ذلك، ثُمَّ عُدْ إلى هنا. فأنا أحتَاجُ إلى مُعاوَنَةٍ في علاج هذا!“ ونظَرَ من فوقِ أترِيسِ إلى باتو، سائلًا: ”أهو عائدُ إلى القتال؟“

فأجاب باتو عابسًا: ”ليس اليوم“.

وقال الطبيب: ”جيد، هذا يجعل الأمر أسهل“. ثُمَّ تناوَلَ إبريقًا وسكَبَ دَمًا في كأس، ومزجَ به أفيونًا وأعشابًا طيِّبَةً. ”إنَّ هذا سيُعطيهِ قوَّةً ويُبَرِّدُ تعطُّشه للدم. أبقِ رأسه مُنخفضًا، فأما يشربُه، وإما يغرقُ فيه“. وجذَبَ الجِرَّاحُ خَدَّ أترِيسِ بعيدًا عن لِسْتِهِ، ثُمَّ صبَّ الشَّرَابَ المُخدَّرَ داخلَ فمه.

هَمَّ أترِيسِ بالتقيُّؤ، ولكنَّ الجِرَّاحَ واصلَ السَّكَب. وزعَقَ رجلٌ وراءَ الطبيبِ وباتو، فلم يُجفِلْ أيُّ منهما. وقد انحنى اللانيسْتا، إلا أنَّ أترِيسِ لم يكدَ يرى وجهه من خلال دموع الغَيْظ. ولما فرَغَتِ الكأس، ابتعدَ الجِرَّاح. فأطلقَ أترِيسِ تنهدةً جائشة، وشمَّ بالجرمانية، فيما جسمُه يرتعشُ بشدَّة. وانحنى الطبيبُ فوقَه ثانية، ناظرًا في عينيه. ”الأفيون يفعلُ فعَله“.

فقال باتو: ”حِطُّ جُرْحِهِ“.

واشتغلَ الجِرَّاحُ بِسرعة، ثُمَّ انتقلَ إلى محاربٍ آخر جيءَ به محمولًا على تُرسِه. فوقفتِ باتو بقرْبِ الطاولة، ولوى فمَهَ بابتسامةٍ تفتقرُ إلى المَرَح. ”الموتُ خيرٌ من الرِّحمة الرومانية. أليس كذلك، يا أترِيس؟ إنَّك لا تُريدُ أن تكونَ مديونًا بحياتك لِرِعايِ من الرومان. ذلك هو ما جعلكَ مُجِنُّ غَيْظًا“.

ثُمَّ أمسَكَ باتو بشعرِ أترِيسِ، مُسنِدًا رأسَه إلى الوراء. وهمسَ من بين أسنانه، وعيناه القامتان تقدحان شَرًّا. ”أنت ترمي بعيدًا فرصتَكَ الوحيدةَ للانتقام. إنَّها في مُتناوَل يدك. ففي ساحة المحاربين وحدها تستطيع أن تتأرَّ من روما! أنت تُريدُ أن تكونَ فاتِحًا. إذا كُنَّ واحدًا! حُذِ نِسَاءَهُمْ. حُذِ مالَهُمْ. دَعِ روما تنبطح عند قدميك وتتعبَّد لك. دَعهم يجعلوك واحدًا من ألِهتهم!“

وأضافَ، بعدَما أراحه واستقام: ”والأ، فأنت وسائرُ رجالِ قبيلتِكَ ستُكونون قد مُتُّم في سبيلِ لا شيء“.

١٤

سالتِ الذَّموعَ على خَدَيِ جوليَا، وهي مُستلقيةٌ على سريرها شاحبةَ الوجه. ”يعتقد الجميع أن الغلطةَ غلطتي. إنِّي أرى الطريقةَ التي ينظرون بها إليّ. هُم يلومونني على موت كلاوديوس. أنا أعلمُ أنّهم يلومونني. ليستِ الغلطةُ غلطتي، يا هَدَسَة. ليستِ غلطتي، أهي كذلك؟ لم أُرِد منه أن يلحقَ بي“. واهتزّت كتفها إذ نشجت من جديد.

قالت هَدَسَة بلُطف: ”كنتُ أعلمُ أنّك - لم تُريدي ذلك“، حابسةً ذمومعها وهي تُحاول أن تُعزّي سيّدتها الذّاهلة. فجوليا لم تقصدُ أيّ أذى قطّ. غير أنّها لم تُفكر قطّ إلاّ في نفسها فحَسب، ولا هي فُكرت في ما قد تكون عواقبُ أفعالها.

بدأ صباحَ اليومِ المأساويّ الذي فيه مات كلاوديوس بتَشكّي جوليا من مدى صَجَرِها. وقد أرادتُ أن تذهبَ إلى عرضٍ خاصٍّ في لودُسٍ تدرّب للمحاربين، وطلبتُ أن يُرافقها كلاوديوس. وإذ كان كلاوديوس مُتعودًا تذرّها، لم يكذبُ يكلف نفسه الإصغاءَ إليها. فقد كان مُستغرقًا في دراساته. وألحّت عليه جوليا فأبى، قائلاً لها بتأدّبٍ إنّه عاكفٌ على إتمامِ دراسةٍ عن الديانة اليهوديّة. فغادرتُ جوليا مكانَ الدّرسِ بغيظٍ صامت. ثمّ بدلتُ ثيابها، وأمرتُ بإحضار مركبة.

ولمّا كان پرسیس أكثرَ قلقًا على صيت سيّده منه على شُمة سيّدته، فقد أعلمَ كلاوديوس أنّ جوليا غادرتِ الدّارة بلا مُرافقة. وغضب كلاوديوس لأنّه قوطعَ مرّةً جديدةً بسبب جوليا. فهذأت كأسٌ نبيذٍ أعصابه. وقد افترضَ أنّه في روما كان مأذونًا لزوجةٍ شابّة أن تجولَ في أنحاء الرّيف وحدّها دونَ مُصاحبة، أمّا في كامپانيا فلم يكن ذلك لائقًا. واقترحَ پرسیس أن يُرسِلَ أحدًا وراءها، ولكنّ كلاوديوس قال لا. فقد حان الوقت لأن يتحدّث هو وجوليا بصراحة. وأمر بإحضارِ مَطِيّةٍ من الإسطبلات.

ثمّ بعدَ ساعة، رجعَ الحصانُ إلى البيت وحدّه دونَ كلاوديوس.

وإذ دُعِرَ پرسیس، جمعَ بضعةً رجالٍ آخرين وخرج للبحث عن سيّده. وقد وجدوا كلاوديوس على بُعدِ ثلاثة كيلومتراتٍ ويزيد من اللودُس، مكسورَ الرّقبة من جرّاء سقطه. انتحبتُ هَدَسَة على موت كلاوديوس، وساورها القلق دُعرًا على جوليا. فقد دبّت الفوضى في البيت، ولم يُرد أحدٌ أن يذهبَ للتفتيش عنها. وقال پرسیس إنّه يمكنُ أن تُدان.

وصلت جوليا بُعيدَ الغروب، مُعَبَّرَةً وَمُشَعَّتَةً الشَّعْر. ولما لم يأتِ أحدٌ لمعاونتها، غادرتِ المركبة بلا مُساعدة واندفعت إلى داخل البيت، مُناديةً هَدَسَةً. فركضت هَدَسَةً إليها، شاعرةً بالفَرَجِ لِكَوْنِهَا بخير، وغيرِ عالِمَةٍ كيف تُقدِّمُ على إخبارها بحادثة كلاوديوس.

أمرت جوليا بأقْتِصاب، وهي تمشي إلى غرفتها بَخْطَى واسعة: ”لِيَمْلَأِ الحَمَامُ بالماء الحارَّ المُعَطَّر، وأحضري لي شيئًا أَكَلُهُ. أنا مُعْطَاةٌ بَغْبار الطريق وجائعةٌ جدًّا“.

نقلت هَدَسَةُ التعليماتِ بِسُرعة، وهي تكادُ أن تكونَ على يقينٍ بأنَّها لن تُنفذَ، ثمَّ عجلت وراءَ سيِّدتها.

راحت جوليا تسيرُ في العُرْفَةِ ذهابًا وإيابًا مثل هَرَّةٍ بيتِيَّةٍ غاضبة. وكان وجهها مُتورِّدًا ووسخًا، ما عدا الخُطوطَ البيضاء التي خلقتُها الدَّموع. ولم تُلَاحِظْ وجودَ خَطَبٍ ما من وراء وجه هَدَسَةَ الشاحب وتصرفها العصبِي.

”لقد قلقتُ عليك، سيِّدتي. أين كنتِ؟“

فعمدت جوليا إلى مُهاجمتها بغطرسة، إذ صاحت مُحَبَّطَةً: ”حذارِ أن تتجرأَ أي على مُساءَلتي! لن أجابَ عَبدَةٌ عن سلوكي!“ ثمَّ ارتمت تَعَبَةً على أريكتها بطريقةٍ تُثير الشَّفقة. ”لن أجابَ أحدًا، ولا حتَّى زوجي“.

صبَّت لها هَدَسَةُ قليلًا من الخمر، وناولتها الكأس.

قالت جوليا، رافعةً نظرها إليها: ”يذكُ ترتجف. أكنتِ قَلِقَةً جدًّا عليّ؟“ ثمَّ وضعتِ الكأسَ جانبًا وأمسكت يدَ هَدَسَةَ، قائلةً: ”على الأقل، هنالك إنسانَةٌ تحبُّني“.

فعدت هَدَسَةُ بجانبها وأمسكت بيديها. ”أين كنتِ؟“

”كنتُ في طريق الرُّجوع إلى روما، ثمَّ علمتُ أن ذلك لا ينفع. فلن يكونَ من أبي إلَّا إرجاعي إلى هنا. وهكذا، ها أنا هنا، سَجِينَةٌ من جديد في هذا المكان الموحش“.

”إِذَا، لم تذهبي إلى اللُّودُس؟“

فقالت جوليا بفتور، وفي فمها مرارة: ”لا، لم أذهب“. وأصافت مُتهكِّمَةً: ”لن يكون لائقًا بي أن أصِلَ إلى هناك بلا مُواكبة“. وضحكت ضِحْكَةً خفيفةً ساخرةً من الذات. ”سيقولُ مَرْقُسُ إنِّي عامِيَّةٌ في تفكيري“. ثمَّ وقفتُ ومضتُ مُبتعدةً. واستطاعت هَدَسَةُ أن تُلَاحِظَ التوتُّرَ مُتجمِّعًا من جديد، والعاصفة آتيةً. كيف تُقدِّمُ على إخبار جوليا عن كلاوديوس؟ إنَّ عواطفَ سيِّدتها قد باتتْ حُطامًا ورُكامًا. وعواطفُها هي لم تُعد تحت السيطرة.

سحبَت جوليا بضعةً دبابيسَ من شعرها، وطرختها على الميزينة. فسقطت على الأرضية، وانحنت هَدَسَةً لالتقاطها، فيما قالت جوليا: ”كان ينبغي لي أن أذهب وأشاهد المنازلة. إن فضيحةً صغيرةً قد تُوقظ كلاوديوس إلى واجباته بصفته زوجي. ألن أفعل شيئاً سوى الجلوس على مقربةٍ منه باقي عمري فيما هو يدفن نفسه في دراساته المملة لديانات الإمبراطورية؟ من سيقراها؟ قولي لي. لا أحدٍ معنيّ بها“. واغرورت عينها بدموع الغضب ورتاء الذات. ”إنني أكرهه“.

فقالَت هَدَسَةُ: ”أه، سيديتي!“ عاصّةً شفتها وعاجزةً عن حبس دموعها.

”أنا أعلم أنك مولةٌ به، ولكنّه بليدٌ جداً. فرغم كلِّ ذكائه المُفترض، هو الرجل الأكثر إملاً بين من قابلتهم على الإطلاق. ولا يهمني إذا علم بهذا“. ثم اندفعت إلى الباب، وفتحتَه على مصراعيه، ونادت عبر حديقة البهو ذي الأعمدة المكشوفة: ”أميكنك أن تسمعي، يا كلاوديوس؟ إنك مُضجر!“

شعرت هَدَسَةُ بالخزي حيال تصرف جوليا، وشعرت بالندم. فاندفعت نحو الباب، ودفعت جوليا جانباً، وأغلقتَه.

فصاحت جوليا بصوتٍ حادّ: ”ما الذي تفعلينه؟“

”سيديتي، رجاءً، اهدأي! لقد مات! أتريدين أن يسمعك الجميع؟“

”ماذا؟“ جاءت استجابةً جوليا هزيلةً، وشحِبَ وجهها، غير مُصدّقة.

”إنّه ذهب ورائك. وقد وجدوه على الطريق إلى اللُدوس. لقد سقط عن حصانه وكسر عنقه“.

تراجعت جوليا كما لو كانت قد صُعبت، وعيناها جامحتان. ”وحياة الألهة، ياله من مخبول!“

حدقت إليها هَدَسَةُ مشدوهةً، وعواطفها تجمش. أحسبت جوليا كلاوديوس مخبولاً لأنه سقط عن حصانه أم لأنه ذهب ورائها؟ وعلى مدى لحظةٍ من الزمن، اشمازت هَدَسَةُ منها، ثم ساورها الخزي سريماً. لقد أخفقت في واجبها. كان ينبغي لها أن تمنع جوليا من مُغادرة الدّارة. وكان ينبغي لها أن تخرج ورائها.

صاحت جوليا: ”لا يُعقل أن يكون قد مات. ماذا سأفعل؟“ ثم أخذتها نوبةً هستيريا.

أرسل إلى دَسْمُس فاليريان نعيّ كلاوديوس. وعلمت هَدَسَةُ أنّه يجب وضع ترتيبات

الجنازة، ولكنَّ جوليا- صاحبة السُّلطة وحدها- كانت غير قادرة على اتِّخاذ أيِّ قرارٍ في حالتها الراهنة. وقد سُجِّي جُثمانُ كلاوديوس في مهاجعه، مَغسولًا ومُكفَّنًا... ومُتفسِّحًا.

حزنَ پرسیس على كلاوديوس كما يحزن ابنٌ لِفَقْدِ أبيه. حتَّى الخادِماتُ بَكَيْن. وكان البُستانيون صامتين وواجمين. واجتمع العبيدُ وتحدَّثوا، ولم يُودَّ أيُّ عملٍ.

كانت جوليا على حقٍّ. فقد لاموها كلُّهم فعلاً. وفي جُزءٍ يسيرٍ، لاموا حتَّى هَدَسَة، لأنَّها كانت تخدمُ جوليا وكانت مُخلِصةً لها كلَّ الإخلاص. فعلى الرُّغم من أنَّها خدمت كلاوديوس جيِّداً، مُضِيَّة ساعاتٍ وساعاتٍ في مُعاوَنته على دراساته، فإنَّها لم تكن واحدةً منهم.

كان حزنُ جوليا نابعاً من شعورها بالذُّنب، واتَّخذَ هَرَعُها صورةَ مَخَاوفٍ غيرِ منطقيَّةٍ أو هَمَّتْها أنَّ العبيد يُريدون موتها. فرفضت أن تُغادر مهاجِعها. وأبت أن تأكل، ولم تقدِر أن تنام.

قالَتْ جوليا يوماً، شاحبةً الوجه وذاهلةً: ”ما كان ينبغي قطعاً أن أتزوَّج به. كان ينبغي أن أرفض، مهما قال أبي. لقد كان الزَّواجُ كارثةً من البداية. إنَّ كلاوديوس لم يكن سعيداً. وأنا لم أكنِ الزوجةَ التي أُرادها. فقد كان يريدُ امرأةً مثل زوجته الأولى التي كانت قانعةً بدراسة الدُّروج التافهة“. ثمَّ بَكَت من جديد. ”ليست الغلطةُ غلطتي في موته. لم أُرِدْ منه أن يأتي ورائي“. وتحوَّلت دُموعها إلى غضبٍ غير مُبرر. ”هي غلطةُ والدي. لو لم يُصرَّ على تزوُّجي بكلاوديوس، لما حدثَ شيءٌ من هذا“.

بذلَّت هَدَسَة ما في وُسعها لتسكين مَخَاوفِ جوليا وجعلها ترى الصواب، ولكنَّ جوليا ما كانت لتُصغي. وقد رفضت أن تأكل، تخوُّفاً من أن يُسمِّمها أحدُ عبيد المطبخ. ”إنَّهم يكرهونني. هل رأيت كيف نظرت إليَّ عندما أتت إليَّ بالصَّينيَّة؟ إنَّ پرسیس يُدير شؤونَ البيت وهو يكرهني بقدر ما أحبُّ كلاوديوس“.

حتَّى إذا نامت أخيراً، أيقظتها الكوابيس. وقد ارتاعت هَدَسَة من نوباتِ انفعالٍ سيِّدتها المضطربة وتحليلاتٍ أوهامها الجامحة. ”لا أحدٌ يريد أن يؤذيك، سيِّدتي. إنَّهم قَلِقون عليك“.

كان ذلك صحيحاً. فالعبيد كانوا قَلِقين فعلاً، بعدما سمعوا صدفةً بأنَّهماتِ جوليا التي لا أساسَ لها من الصَّحَّة بأنَّهم يَنوون قتلها. وإذا سمع فاليريان وصدَّق، باتوا جميعاً مُعرَّضين لخطر الإعدام.

لم يأتِ دَسِيسُ فاليريان، إذ كان قد أبحرَ إلى أفسُس في سَفرةِ عملٍ قُبيلَ حادثِةِ كلاوديوس. ولن يَعلمَ بأمر الحادثة حتَّى رُجوعه. وقد وصلت فيبي فاليريان مع مرقس عصرَ اليومِ الثالث. فجاءت كاتبا راکضةً وقرعت بابَ مهاجِعِ جوليا مُعلنةً قُدومَهما.

قالت جوليا، وعيناها شارِدتان من قلة النوم: ”لا تفتحي قفل الباب! إنها خديعة“ .
وبعد بضع دقائق، قالت فيبي: ”جوليا، جوليا، أدخليني يا حبيبتى“ . فلما سمعت جوليا صوت أمها، هُرِعَتْ من سريرها إلى الباب فرفعت مزلاجها، وارتمت بين ذراعي أمها ناشِجةً: ”أمها! إنهم يريدون أن يقتلوني. إنهم كلهم يكرهونني. إنهم يتمنون لو قُتلت أنا، لا كلاوديوس!“

سحبَت فيبي ابنتها إلى داخل الغرفة. ”هراء، يا جوليا. تعالي واقعدي الآن“ . ثم التفتت إلى هدسة. ”ليُحضِرُ أحدُ صناديقي إلى هنا حالاً. لدي شيء أعطيها إياه لتهدئة أعصابها“ .
رأت هدسة مرقس واقفاً في المدخل، وقد امتقع وجهه غضباً وقلقاً. لم تكن كلمة واحدة مما قالته جوليا صحيحة، ولكنَّ تهمها المتهورة كانت كافية لتدمير حياة مجموعة كاملة من العبيد البيتيين، إذا صدقها مرقس. وكانت جوليا تبكي بغزارة، ملتصقة بأُمها.

وما إن رجعت هدسة، ووراءها واحد من الرجال حاملاً صندوقين، حتى طلبت منها فيبي أن تخرج أمفورة صغيرة من علبة مستحضراتها التجميلية. ”أمزجي بضع نقط في كوب نبيذ“ .
صاحت جوليا: ”لن أشرب أي نبيذ في هذا البيت. لقد سمموه!“

فقالت هدسة مكروبة: ”أه، لا، سيديتي“ . وبيدين مُرتجفتين، صبّت قليلاً في كوب وشربت نصفه. ثم مدت يدها بالكوب لترِي جوليا، ونظرت إلى فيبي متوسلةً بدموع: ”أقسم إنه لا أحد ينوي إيذاها“ .

أخذ مرقس الكوب منها. ”أين قلت إن الأمفورة موجودة، أمها؟“ ثم أحضرها وصبَّ النقط في النبيذ، وناول أمه الكوب، وراقب أخته الباكية تشربه. وقال متجهماً: ”إن لم تكوني بحاجة إلي، يا أمي، فهناك ترتيبات يجب أن توضع“ . فأومات برأسها موافقةً، غير فاهمة مرآده. أمسك مرقس ذراع هدسة بإحكام، وأخرجها إلى الممشى بما يشبه الدفع، ثم أغلق الباب وراءه. وإذ تأمل وجهها الشاحب والظلال السوداء تحت عينيها، قال: ”يبدو منظرك كميّت واقف على قدميه! كم مضى على جوليا وهي في هذه الحالة؟“

”ثلاثة أيام، سيدي. منذ علمت بموت كلاوديوس“ .

صعق مرقس حيال الطريقة التي بها قالت هدسة كلاوديوس رافعة الكلفة. فهل باتت تحبها؟ وقال: ”حادثة مؤسفة جداً، حسب الخبر الذي تلقيناه“ . فاغزورت عيناها بالدموع التي حاولت أن تحبسها كما كان واضحاً، وفاصت وسالت على خديها. فقال بتهذيب:

”أذهبي واستريحي. سأكلمك في ما بعد“.

وبينما عكفت أم مرقس على تعزية جوليا، تولى هو إدارة شؤون البيت. وقد روعته الحالة التي كان البيت فيها. إذ بدا أن شيئاً لم يُعمل في بضعة أيام. حتى إن كلاوديوس لم يكن قد دُفن. فأمر مرقس بأن يتم ذلك في الحال. وسأل پرسيس: ”هل زوجته مدفونة هنا؟“ فأجابه بالإيجاب. ”إذًا، ادفن سيّدك بجانبها. وبسرعة!“ ثم أُحرق كل الأثاث الذي كان في مهاجع كلاوديوس الفاسدة، وطُهرت الخُرقة وهُوّيت.

اختلى مرقس بنفسه في المكتبة، وراجَعَ السجّلاتِ والوثائقِ البالغة الدقّة، المتعلّقة بالدّارة والعزبة المحيطة بها. وابتسمَ ابتسامةً ساحرةً وهو يرشّف الخمرَ ويُجري الحسابات. ستتعرّى جوليا جيّدًا حين تُدرِك أن موت كلاوديوس خلّف لها ثروة، وإن لم تكن صاحبة القول الفصل في التصرف بها.

في غياب والد مرقس، كانت له هو السّلطة المطلقة في اتّخاذ القرارات التي يحسبها ضروريّة. لم تكن جوليا قد أبقت كرهاً لكايوا طي الكتمان، وعلم مرقس أنها لن ترغب في البقاء هنا. فأجرى ترتيبات لحضور مُحامٍ ومُعايَنة العقار. وجعل السعْر الذي طلبه مرقس الرجل يكاد يخنق. إلا أن مرقس لم يتزحّزح قط، وقال: ”سأعطيك اسمي عُضوين في مجلس الشيوخ يشتهيان عزية في كايوا“، فأذعن المحامي.

صارت جوليا أكثر هدوءًا، بوجود أمها مقيمةً هناك. فعادت تَأْكُل وتنام مُجددًا. وأطلعتها مرقس على قراره أن يبيع الدّارة، فنسيت غمها تمامًا في غمرة فرحها بعلمها أنها راجعة إلى روما. ”وماذا بشأن العبيد. ماذا ستفعل بهم؟“

”ماذا تريد مني أن أفعل؟“

”أريدُ تبديدهم. ما عدا پرسيس. لقد كان قليل الاحترام دائمًا. يجب أن يُرسل إلى السّفن للتجديف. إنني أصيرُ على هذا“.

أجاب مرقس مُتزعجًا: ”لست في موضع الإصرار على أيّ شيء. فأنت الآن في عهدة والدنا من جديد، وأنا مُنفذُ العقار في غيابه“.

فومضت عينا جوليا: ”أليس لي أن أقول شيئًا بشأن أيّ شيء؟ لقد كنتُ زوجة كلاوديوس“.

”ما كنتِ زوجةً بكلّ معنى الكلمة، على حدّ ما قلّته لي“.

فقفزت من عينيها دموعٌ عاجلة، وقالت: ”أنت أيضاً تتهمني“.

”كان عليّ أن أتحيّ شوّوني جانبا لكي آتي وأصرف شوّونك. انصّحي، يا جوليا! لا تُصعبي الأمور أكثر مما هي صعبة أصلاً“. قال هذا وقد نفد صبره على دموعها وراثتها لذاتها. كان يخرجُ إلى الحدائق وحده كل مساء، حيث يجول بلا هدف ولا هدوء. وساءل نفسه هل كانت هدسة تخرجُ كي تُصلي في الظلام كما اعتادت أن تفعل. إلى أيّ إله ينبغي له أن يُصلي حتى تحلّ هذه العُقّد؟ ماذا عليه أن يفعل بشأن العبيد؟ لقد علم أنّه وجب عليه أن يُقرّر قرارًا ما، ولكنّه كان كارهاً لذلك.

صعد التلّ، وقعدت تحت فأمّ، واحدٍ من الهياكل الصغيرة. وإذ استند إلى عمود رخاميّ، حدّق عاليًا إلى الليل الذي أنارتَه النجوم. لقد علم أنّ ذلك الزواج كان خطأ من البداية، غير أنّه يقينًا لم يتمنّ أن يصيب كلاوديوس أيّ مكروه. وكانت جوليا في الأيام القليلة الماضية قد قالت ما يكفي للكشف عن مدى الشؤ الذي كانت الأمور عليه. وعلم أنّ أكبر قسطٍ من اللوم يقع عليها هي. وها هي الآن قد أثارت مسألةً عليه أن ينظر فيها.

لا أحد خرج للبحث عنها. وبعد بضعة أيام من المراقبة، بدأ يتساءل هل كان شيء من اتهاماتها صحيحًا. فربما لم يسع العبيد فعليًا إلى موتها، غير أنّهم أيضاً لم يوفروا لها الحماية.

”سيدي؟“

أجفل، فجلس مُنتصبًا. وتسارعت دقات قلبه لما رأى هدسة واقفة على مقربة منه في الظلال. وعندما استرخى مُستندًا إلى العمود من جديد، قال بخفة: ”إذًا، لم تقلعي عن الخروج للصلاة إلى إلهك غير المنظور“.

قالت: ”لا، سيدي!“ وسمع الابتسامة في صوتها. ثم اقتربت أكثر. ”هل تسمح لي بأن أكلّمك بحرّيّة؟“ فأوما برأسه موافقًا. ”لا أعتقد أنّ السيّد كلاوديوس كان من شأنه أن يريد لبرسيس أو الآخرين أن يؤخذوا من هذا البيت“.

انقبض فمه. لقد صعد إلى هنا لكي يهرب من المشكلة لو لاحظته، والآن يثير المشكلة أحرّ شخصٍ توقع أن يذكرها. فسأل بفظاظة: ”هل لأم برسيس جوليا على موت كلاوديوس؟“

خيّم الصمت. ”سيدي، لا أحد يُلام على أفعالٍ آخر“.

فنهض، غاضبًا الآن. ”لم تجاوبي عن السؤال، وهذا يُشكّل جوابًا كافيًا. إنّ اتهامات جوليا ليست بعيدة الاحتمال كما حسبت أول الأمر“.

”لا أحد سعى إلى إيذائها قطعاً، سيدي. هكذا يفعل الله بي وهكذا ويزيد، إن لم يكن ما قلته صحيحاً. إنّ پرسيس حزينٌ على سيده كلاوديوس كمن يحزنٌ على أب محبوب. فقد كان صارفاً كلِّ فكره إليه. لقد أتى به السيدُ كلاوديوس إلى هنا لما كان صبياً صغيراً. وقد خدمه پرسيس بحبّةٍ وتفانٍ، ووثقَ به السيدُ في كلِّ شيءٍ، مُعاملاً إياه بمودّةٍ كما لو كان ابنه. إنّ پرسيس لم ينوِ قطُّ أن يحصلَ أيُّ أذىٍ لأختك“.

فقال مرقس باقتضاب: ”ليس لديّ على ما تقولين أيُّ دليل سوى كلامك“.

”حيّ هو الرّب، يا سيدي، إنّي ما كنتُ لأكذبَ عليك“.

صدّقها مرقس، ولكنّ ذلك لم يُغيّر شيئاً. فقد شعرَ بالإرهاق. ”أقعدني معي وأخبرني بما حدثَ ذلك اليوم“. ورَبّت الرّخام بجانبه، فقعدت على مهل، ويداها مشبوكتان بإحكام في حضنها. أراد أن يسكّ يدها ويشجّعها على الوثوق به، ولكنه علم أنّ تصرّفًا كهذا سيأتي بنتيجةٍ مُعاكسة. ”أخبريني. لا داعي للخوف!“

أخبرته بالوقائع الفعلية. أرادت جوليا الدّهاب إلى اللّوّدس، ولم يُرد كلاوديوس ذلك. فذهبت جوليا وحدها، وذهب كلاوديوس كي يُرجعها. وقد علم مرقس ذلك كلّهُ من جوليا نفسها.

سأل مرقس بالتحديد: ”عندما عُثرَ على كلاوديوس وأُعيدَ إلى البيت، من ذهب في طلب جوليا؟“ وهو عالمٌ أنّ أحدًا لم يذهب. ثمّ تكلم قبل أن يُتاح لهُدسة أن تُجيب. ”قالت لي إنّها كانت في طريق الرجوع إلى روما“. وقد استشاط سُخطاً لما قالت له ذلك. فإنّ طبعها تغلّب فعلاً على فطرتها السليمة. ”هل تعرفين ما يمكن أن يحصلَ لامرأةٍ وحيدة على الطريق الأيباني؟ لقد كانت فريسةً سهلةً لقطّاع الطّرق، وأسوأ. فمن ذهب للتفتيش عنها، يا هُدسة؟“

فقالت: ”الغلطة غلطتي أنا. ليسامحني الله، فإنا لم أبحثَ عن السيّدة جوليا كما لم يبحثَ عنها غيري. لم أدر أين أفتش، ولا ماذا أفعل. لذا لم أفعل شيئاً، بل راقبتُ وانتظرتُ. إنّها غلطتي أكثر ممّا هي غلطة أيّ شخصٍ آخر لأنّ مصلحتها من مسؤوليتي“.

كان غاضباً لأنّها جاءت تُدافع عن قضيتهم وقدمت نفسها على سبيل التضحية. ”أنتِ تلومين نفسك على إهمال عبيد بيتِ بجملتهم؟ لطلما كانت أفاكركِ مُكبّةً عليها كلّ حين. لم تتركيها لحظةً واحدة بعدما علّمت موت كلاوديوس. وقد كنتِ مُنهكةً من الاهتمام بها عندما جئتُ“.

ثم نهض. ”ربما وُجدَ احتمالٌ آخر ما أزال مُتردِّدًا في قبوله، ولكن جوليا أصرت عليه منذ قُدومي. هل كنتِ خائفةً على حياتها؟“

اعتراها الخوفُ والهلعُ حيالَ توجهِ أفكاره، فقالتَ تَوًّا: ”لا، سيدي! لم يكن أحدٌ قطُّ خطرًا عليها، ولا مرَّةً على الإطلاق.“

فقال مبتعدًا عنها قليلًا: ”ولا كانوا عونًا أيضًا.“

”كانوا يحبُّون كلاوديوس، وما زالوا يحبُّونه.“

فقاطعتها: ”كفى! لا تأتي إليّ وتتوسلي لأجلهم.“

قالت: ”إنهم أبرياءٌ ممَّا اتَّهَمْتَهُم به“، مُبديةً جسارةً غيرَ مُعتادةٍ في تحدّيه.

فحدقَ إليها، وقال: ”أين البراءة لدى عبدٍ يهملُ واجبه، يا هُدسة؟ إن طلبَ جوليا إرسالَ پرسیس ليكونَ عبدَ تجذيفٍ في الشُّننِ أكثرَ انطواءً على الرِّحمة ممَّا أعلمُ أنه ينبغي أن يفعلَ. إذ يجب أن يُعدَمَ پرسیس لأنَّهُ لم يُعِنَ بِسلامة سيِّدته.“

وقفتَ هُدسة شاهقةً شهقةً خفيفة. ”علمتُ أن ذلك هو ما كنتِ تُفكرُ فيه.“ واقتربتْ إليه. ”رجاءً، مرقس، أتوسلُ إليك. لا تجلبِ على رأسك خطيئةً سفكِ دم بريء.“

ذُهلَ حيالَ ما قالتَه، وحيالَ استخدامها لاسمه المُجرَّد، فحدقَ إليها من علٍّ. كانتَ عيناها تتلألأَن بالدموع، وساءَلَ نفسه عن غايةِ كلامِها. أمِن أجلِ پرسیس جاءتَ تتوسلُ، أم من أجله هو؟ ”أعطيني سببًا فعليًا واحدًا يُبرِّرُ وجوبَ عفوي عنه.“ قال هذا وهو عالمٌ أنه لا سبب.

”يستطيعُ پرسیس أن يقرأ ويكتب ويحسب.“

”وأخرون يستطيعون ذلك.“

”لقد درَّبه السيِّدُ كلاوديوس على تدبيرِ شؤونِ العقارِ كُلِّها.“

”تجهِّم وجهه. ولماذا يُقدِّمُ سيِّدٌ على ذلك؟“

”كي يتمكنَ من التفرُّغِ لدراساته. سيدي، قالتِ السيِّدةُ جوليا إنَّكَ ستبَّيعُ الدَّارةَ لعضوٍ في مجلسِ الشيوخِ يجعلُها مكانَ استجمامٍ وقتيًّا. أفليس من شأنِ عبدٍ بمعرفةِ پرسیس وقدراته أن يثبتَ أنه لا يُقدَّرُ بثمنٍ عندَ مالكٍ مُتغيِّبٍ؟“

ضحكَ ضحكةً رقيقة. ”أحسنِ المُحاجة، يا هُدسة الصغيرة.“ وفكَّرَ في الأمر، ثمَّ هزَّ رأسه. ”يجب أن تؤخِّدَ مشاعرَ جوليا في الحسبان.“

”إنَّهَا تَحْتَاكُ إِلَى تَرْشِيدٍ، لَا إِلَى الْإِنْتِقَامِ عَلَى إِسَاءَةٍ لَمْ تُرْتَكَبْ قَطُّ بِحَقِّهَا“.

علمَ أَنَّهَا عَلَى حَقٍّ، وَلَكِنْ لِمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَيَاةً عَبْدٍ وَاحِدٍ مَهْمَةً جَدًّا؟ مِنْ شَأْنِ تَنْفِيذِ رَغْبَاتِ جُولِيَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَبِيدِ أَنْ يُؤْتِيَهَا بَعْضَ السَّلَامِ. وَلَكِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ يُؤْذِي هَدْسَةَ، الْأَمْرَ الَّذِي أَدْرَكَ أَنَّهُ يَعَافُ أَنْ يَفْعَلَهُ.

فَقَالَ وَهُوَ يَحْكُ قَفَا رَقَبَتِهِ: ”إِنَّ هَذَا الْإِخْفَاقَ الْمَاسَاوِيَّ التَّامَّ سَبَبُهُ تَصَرُّفُهَا“. لَقَدْ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى نَفْعَةٍ طَوِيلَةٍ فِي الْحَمَامِ، وَإِلَى تَدْلِيكَةِ.

وَقَالَتْ هَدْسَةُ: ”عَلَيْكَ الْأَلْحَسَبُ أَنَّهَا مَلُومَةٌ“.

أَدْهَشَهُ أَنْ تُدَافِعَ عَنْ أُخْتِهِ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ وَهَذَا السُّرُورِ. ”لَقَدْ تَحَدَّثَتْ زَوْجَهَا وَهُوَ ذَهَبَ فِي طَلِبِهَا. وَذَلِكَ يَجْعَلُ الْغَلَطَةَ غَلَطَتِهَا فِي نَظَرِ بَعْضِهِمْ“.

”إِنَّهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَلَامَ عَلَى الْخَمْرِ الَّتِي شَرِبَهَا كِلَاوَدْيُوسُ قَبْلَ مَغَادِرَتِهِ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَلَامَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الرُّكُوبَ وَسَقَطَ عَنْ حِصَانِهِ. حَتَّى إِنَّهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَلَامَ عَلَى قَرَارِهِ أَنْ يَذْهَبَ وَيَجِدَّهَا. إِنَّ كُلَّ شَخْصٍ مَسْئُولٌ عَنْ أَفْعَالِهِ. وَلَكِنْ حَتَّى عِنْدُنَا، هُوَ اللَّهُ مَنْ يُقَرَّرُ“.

فَقَالَ بِجَفَافٍ: ”إِذَا، مِنْ جَزَاءِ نَزْوَةٍ إِلَيْهِ غَيْرِ مَنْظُورٍ فَحَسَبَ بَاتَ كِلَاوَدْيُوسُ مَيِّتًا“.

”لَيْسَ مِنْ جَزَاءِ نَزْوَةٍ، سَيِّدِي“.

قَالَ بِضَحْكَةٍ جَافِيَةٍ: ”لَا؟ إِنَّ جَمِيعَ الْأَلْهَةِ يَتَصَرَّفُونَ عَلَى أَسَاسِ نَزَوَاتِهِمْ. فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهُكَ مُخْتَلِفًا عَنِ الْآخَرِينَ أَيْ اخْتِلَافًا؟“

”لَيْسَ اللَّهُ مِثْلَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَبْتَكِرُهَا الْبَشَرُ وَيُصَفِّقُونَ عَلَيْهَا أَفْعَالَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ الْبَشَرِيَّةَ. فَاللَّهُ لَا يُفَكِّرُ وَيَتَصَرَّفُ عَلَى غَرَارِ الْبَشَرِ“. وَخَطَّتْ خَطْوَةً نَحْوَهُ، كَأَنَّ كَوْنَهَا أَقْرَبَ سَيَجْعَلُهُ يَفْهَمُ. ”نَحْنُ كُلُّنَا خَيَوطٌ مُفْرَدَةٌ مَسْجُوجَةٌ مَعًا فِي مُطَرِّزَةٍ خَلَقَهَا اللَّهُ. فَهُوَ وَحْدَهُ يَرَى كَامِلَ الصُّورَةِ. وَلَكِنْ حَتَّى عُصْفُورٌ وَاحِدٌ لَا يَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ عِلْمِهِ“.

لَقَدْ تَكَلَّمَتْ لَا كَعَبْدَةٍ، بَلْ كَامِرَاءَةٍ تَوْمُنُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَقُولُهَا. فَقَالَ مُعَلِّقًا: ”جَمِيعُ تِلْكَ السَّاعَاتِ الَّتِي قَضَيْتَهَا مُتَحَدِّثَةً مَعَ كِلَاوَدْيُوسِ فِي خَلْوَةٍ مَكْتَبَتِهِ حَلَّتْ عُقْدَةَ لِسَانِكَ“. فَاطْرَقَتْ رَأْسَهَا، وَمَدَّ يَدَهُ لِيَرْفَعَ ذَقْنَهَا. ”أَتَعْتَقِدِينَ أَنَّ مَوْتَ كِلَاوَدْيُوسِ جِزْءٌ مِنْ خُطَّةِ إِلَهِيَّةٍ مَا؟“

”أَنْتِ تَهْزَأُ بِي“.

فَأَرْخَاهَا. ”لَا إِنَّمَا أَسْأَلُ نَفْسِي عَنِ إِلَهِكَ هَذَا الَّذِي يُبِيدُ شَعْبَهُ بَحْرِيَّةً، وَيَقْتُلُ رِجُلًا

كانت جريمته الوحيدة إضجار زوجته شابة. وأعجب من كونك ما تزالين تعبدن إلهك هذا، ومن عدم كونك حكيمة كفاية بحيث تختارين غيره“.

أغمضت هدسة عينها: لقد أخفقت في التفسير في كل مناسبة. حتى إنها أخفقت في طرد الشكوك من نفسها.

لماذا أخذت كلاوديوس، يا رب؟ لماذا، حين شعرت بأنني قريبة جدًا منه؟ لماذا الآن، حين تمكنت أخيرًا من استجماع الشجاعة حتى أتكلم عنك؟ لقد كانت لديه أسئلة كثيرة، وأنا حاولت أن أفسر. ولكن، رباه، لم أتمكن من التفاوض إليه؟ إنه لم يفهم. إنه لم يؤمن تمامًا. لماذا أخذته؟ وأنا الآن لا أستطيع أن أجعل مرقس فاليريان يفهم. فهو عاقد عزمه على الهلاك. ثم قالت، لنفسها أكثر منها لمرقس: ”إن الله يجعل جميع الأشياء تتفاعل معًا لأجل الخير“.

فأطلق ضحكة خفيفة ساخرة. ”أه، نعم. لقد طلع خير من هذا فعلاً. فإن موت كلاوديوس حرر جوليا“. ورأى يد هدسة ترتفع إلى حنجرتها حيال كلماته الحسنة. فتمنى بغصة لو يستطيع استرجاعها، عالمًا بأنه جرح هدسة؛ لأن حزنها على موت كلاوديوس فلاكس كان مخلصًا. وقال بصراحة: ”حقيقة قاسية!“

مرت لحظات في أثنائها لم تقل هدسة شيئًا، ثم تكلمت برقة. ”ستكون للسيدة جوليا في روما حرية أقل مما كان لها هنا، يا سيدي“.

تأمل وجهها في ضوء القمر، يدفعه حُب الاستطلاع بشأنها أكثر من ذي قبل. ”أنت فطنة جدًا“. فعندما تدرك جوليا أنه لن تكون لها أية سيطرة مطلقًا على المال الذي ورثته عن كلاوديوس، فإنها ستحبط. ولسوف يأتي التمرد في أعقاب ذلك سريعًا عندما يتولى الوالد زمام السيطرة على شؤونها الاجتماعية أيضًا. وكان مرقس يعلم أن في وسعه أن يتوقع توريطه هو في الاضطراب الذي سينشأ سريعًا. وستلتبس والدته منه أن يستخدم تأثيره في جوليا، فيما يأمره والده بالأفعال شيئًا. أمّا جوليا فستستخدم أية وسيلة تتاح لها لسلك سبيلها الذاتي.

كان امتلاك دارة في كامبانيا أمرًا ذا فتنه خاصة.

أطلق مرقس نفسًا ينم عن التعب. على الأقل حمل واحد قد انزاح عن كاهله. فقد عرف ماذا يفعل بشأن پرسیس والآخرين. لا شيء. لا شيء على الإطلاق. ”يمكنك أن تأوي إلى الفراش الآن. لقد أحمزت ما أردت، فسكنني مخاوفك. إن پرسیس والآخرين سيبقون“.

روما

وتكلّمتُ برِقَّةٍ بالغةٍ بحيثُ علمَ مَرْقُسُ أنَّها لم تَقْصِدْ له أن يسمع. ”كُنْتَ أَنْتَ مَنْ
خَفْتُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ الْكُلِّ، يَا مَرْقُسُ“ .
ثُمَّ رَاقِبَهَا نَازِلَةً عَلَى الطَّرِيقِ، فَعَلِمَ أَنَّه جَمِيعَ الْأَمْسِيَّاتِ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْحَدِيقَةِ كَانَ
يَنْتَظِرُهَا هِيَ وَالسَّلَامَ الدَّاخِلِيَّ الَّذِي سَتَأْتِي بِهِ .

١٥

أَمْسَكَ دَسِمُسُ يَدَ فِيبِي وَسَبَّكَهَا بِذِرَاعِهِ، فِيمَا كَانَا يَمْشِيَانِ عَلَى الْمَشْيِ الْمَرْصُوفِ بِالْحَصَى فِي الْحِدَائِقِ الْمُجَاوِرَةِ لِقَصْرِ الْإِمْبِرَاطُورِ. وَقَدْ قَامَتْ تَمَائِيلُ رُحَامَ مَطْلِيَّةً عَلَى الْأَرْضِيَّاتِ الْمُسَوَّاةِ، وَتَدَفَّقَتْ مِنَ النَّوَافِيرِ مِائَةٌ مُلَطَّفَةٌ ذَاتُ خَرِيرٍ. وَمَرَّ بِدَسِمُسِ وَفِيبِي شَبَّانٌ وَشَابَّاتٌ يَتَصَاحَكُونَ، فِيمَا تَمْشَى أَزْوَاجٌ وَزَوْجَاتٌ آخَرُونَ مِثْلَهُمَا، مُتَشَرِّينَ بِهَاءِ النَّهَارِ.

قَامَ تِمْتَالُ مِنْ مَرَمَرٍ لَصَبِيَّةٍ عَارِيَةٍ تَسْكُبُ الْمَاءَ مِنْ إِبْرِيْقٍ بَيْنَ تَشْكِيلَةِ وَاْفِرَةِ مِنْ زَهْوَرِ الرَّبِيْعِ. وَهَذَا خَرِيرُ الْمَاءِ الْجَارِيِ أَعْصَابَ دَسِمُسِ، فَقَالَ: "لَتَقْعُدُ هُنَا قَلِيْلًا!" ثُمَّ اسْتَرَخَى عَلَى بَنِكِ حَجْرِيٍّ تَحْتَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ.

كَانَتِ السَّفْرَةُ إِلَى أَفْسُسِ قَاسِيَةً، لِأَنَّهُ تَعَبَ سَرِيْعًا. وَلَطَالَمَا شَغَلَتْ فِكْرَهُ دَائِمًا شُؤْنُ عَمَلِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ كَانَ مَشْغُولًا بِأَفْكَارٍ عَدِيْدَةٍ وَمُتْرَابِطَةٍ كَثِيْرَةٍ. وَقَدْ وَاكَبَتْ مَرَضُهُ أَرْمَةً فِي رُوحِهِ، اِعْتِلَالٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ، إِنْ كَانَتْ لَهُ نَفْسٌ.

لِمَاذَا عَمِلَ بِكُلِّ اجْتِهَادٍ طَوَالَ هَذِهِ السَّنِينَ؟ لِأَيِّ هَدَفٍ؟ بَدَتْ حَيَاتُهُ عَقِيْمَةً جَدًّا، وَإِنْجَازَاتُهُ خَاوِيَةً. كَانَتْ عَائِلَتُهُ مَوْطِدَةً وَثَرِيَّةً وَمَطْمَئِنَّةً إِلَى الرَّخَاءِ. وَكَانَ لَهُ مَقَامٌ فِي الْمَجْتَمَعِ الرَّومَانِيِّ. وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَنْعَمَ عَائِلَتُهُ بِمَجْدِ إِنجَازَاتِهِ، مَرَّقَتْهَا إِيدِيُولُوجِيَّاتٌ مُتَضَارِبَةٌ. فَلَمْ تَعُدِ الْوَحْدَةُ قَائِمَةً بَعْدَ: فَهُوَ وَابْنُهُ تَجَادَلَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، مِنَ السِّيَاسَةِ حَتَّى طَرِيْقَةِ تَرْبِيَةِ الْوَالِدِ، وَابْنَتُهُ نَشِدَتْ اِلِسْتِقْلَالِيَّةً بِشِدَّةٍ. لَقَدْ اِسْتِغْلَ عُمَرًا بِكَامِلِهِ لِبِنَاءِ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ، لِإِعْطَاءِ وَلَدِيهِ جَمِيْعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَ هُوَ مَحْرُومًا مِنْهَا تَمَامًا، وَقَدْ نَجَّحَ نَجَاحًا تَخْطَى أَشَدَّ تَوَقُّعَاتِهِ جَمُوحًا. وَلَكِنْ مَاذَا آتَاهُ ذَلِكَ سِوَى اِنْتِصَارٍ فَاَرِغٍ؟

كَانَ مَرْقُسٌ وَسِيْمَا، ذَكِيًّا، عَدْبَ الْحَدِيثِ، مُحْنَكًا. وَكَانَتْ جُولِيَا جَمِيْلَةً، فَاتِنَةً، مُفْعَمَةً بِالْحَيَاةِ. وَكِلَاهُمَا كَانَا مُتَعَلِّمِينَ جَيِّدًا وَمَوْضِعَ إِعْجَابٍ فِي نَظَرِ أَتْرَابِهِمَا. وَرَغْمَ ذَلِكَ شَعَرَ دَسِمُسُ بِيَأْسٍ فَتَّاكٍ، بِإِحْسَاسِ إِخْفَاقٍ بِصَفْتِهِ أَبَاهُمَا.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الذَّهْنَ بِذَاتِهِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَاحَةً حَرْبٍ؟ لَوْلَا فِيبِي، لَشَقَّ شَرَايِيْنَهُ وَأَنْهَى يَأْسَ رُوحِهِ وَمَرَّضَ بَدَنَهُ الَّذِي بَدَأَ يَلْتَهُمْ كُلُّ لِحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ.

رَبْمَا كَانَ اقْتِرَابُ الْمَوْتِ هُوَ الَّذِي فَتَحَ عَيْنِيهِ وَاسْعَتِيْنِ وَجَعَلَهُ يُبْصِرُ بِجَلَاءِ تَامٍ. حَبْدًا لَوْ كَانَ أَعْمَى حِيَالٌ ذَلِكَ كُلُّهُ فَيَعْفَى مِنْ كَرْبِهِ الْعَاطِفِي. وَقَدْ أَمَلَ أَنْ تَوْتِيَهُ زِيَارَتُهُ إِلَى أَفْسُسِ،

مسطر رأسه، شيئاً من السلام. غير أن السلام كان بعيد المنال.

تقدّم عبد لتظليل دسّس، ولكنه صرفه بضيق صدرٍ بإشارة من يده. لقد أراد لدفع الشمس أن يذهب ببرد التوجّس الذي تفاقّم في داخله.

أمسكت فيبي يده، وضغطت بها خدّها، فقال صراحةً: "لقد أخفقت!"

وسألت بلطف: "في أيّ شيء، حبيبي؟"

"في كلّ شيء ذي أهميّة". وتشبّث بيدها كما لو كانت حبل نجاة.

أطرقت فيبي رأسها، متذكّرة آخر مواجهة بين جوليا ودسّس. فقد أرادت جوليا أن تحضّر الألعاب، وأبى دسّس أن يأذن لها، مذكّراً إياها أنّها في فترة حدادٍ على كلاوديوس. والمشهد الذي أعقب ذلك صدم فيبي كما صدم دسّس. إذ صاحت جوليا قائلة إنّها لا تعبأ بأمر كلاوديوس، ولماذا ينبغي لنا أن نحدّ على مغلّ لم يحسن امتطاء حِصان؟ وقد صفعتها دسّس، فوفقت هنيهة في صمتٍ ذاهل، محدّقة إليه. ثمّ اعترى الامتقاع سيماء وجهها على نحوٍ مأساويّ جعلها لا تعرّف تقريباً. فكأنّما إحباط رغباتها أثار في داخلها حضوراً قائماً من نوع ما، واتقدت عينها بسخطٍ جامحٍ جداً جعل فيبي ترتعب.

قالت جوليا لأبيها بحدةٍ مخنوقة: "إنّها غلطتك. أنت سببت موت كلاوديوس. فحدّ عليه أنت، لأنني أنا لئن أخذ. إنني مسرورة لكونه قد مات. هل تسمعني؟ إنني أبتهج لكوني تحرّرت منه. وحياة الآلهة، أود لو أحرّرت منك أنت أيضاً!" ثمّ ركضت من الجهو ذي الأعمدة وبقيت في مهاجعتها حتّى الظهر.

رفعت فيبي نظرها نحو وجه دسّس ذي الخطوط. "لم تعن جوليا ما قالته لك، يا دسّس. ستعذر عنه".

أجل، اعتذرت لاحقاً، بعد وقتٍ طويلٍ جداً، بعدما تكلمت فيبي إليها وأيقظت ما بقي لدى ابنتها من ضمير. وقد فكر دسّس في توسّلات جوليا المصحوبة بالدموع، وفي أذارها عن اتهامها وتصرفها الممقوتين، ولكنّ التعبير الذي ظهر في عينها خلال انفجار الغضب هو الذي ظلّ متقدّداً في ذهنه على نحوٍ مؤلم. لقد كرهته، كرهته كفاية حتّى تمثت له الموت. وكان إدراكاً مروّعاً أنّ الفتاة التي أنجبها وأحبّها كثيراً جداً نظرت بعين الاحتقار إليه وإلى كلّ ما حسبه مقدّساً على السواء.

"كيف يُعقل، يا فيبي أن يكون لنا، أنت وأنا، ولدان مُناهضان تماماً لكلّ ما نؤمن به؟ ماذا حلّ بالفضيلة والشرف والقيم؟ إنّ مرّقس يعتقد أنّ لا شيء حقّ وأنّ أيّ شيء

مُباح. وجوليا تعتقدُ أنَّ الأمرَ الوحيدَ المهمَّ هو سُروُّها الشخصِيَّ. لقد عملتُ طوالَ حياتي لأعطيَ ولديَّ كلَّ ما لم يكنْ لديَّ لَمَّا كنتُ في سنَّهما: الثَّراءَ والثَّقافةَ والمقامَ. والآنَ أنظُرُ إليهما فأتساءلُ هل كانتُ حياتي باطلَةً تمامًا. فهُما أنانيَّان، وليس لهما أدنى ضابطٍ لشهواتِهما. ليس لهما حتَّى خيطٌ رفيعٌ من الخُلُقِ الفاضلِ.“

ألها كلامُه، فالتمسَّتْ طريقةً ما للدِّفاعِ عن ولديها. ”لا تقسُ عليهما جدًّا في حُكمك، يا دَسِيسُ. ليسَّتْ هي غلطتُك، ولا غلطتي، ولا غلطتهما. إنَّ العلةَ هي العالمُ الذي يعيشان فيه.“

”عالمٌ من صُنْعِ مَنْ، يا فيبي؟ إنَّهما يُريدانِ كاملَ السيطرةِ على حياتِهما. يريدانِ أن يتحرَّرا من المعاييرِ القديمةِ. فأنيُّ شيءٌ يشعرانِ بأنَّه جيِّدٌ هو صائبٌ. وأيُّ شخصٍ يعترضُ في طريقِ مسرَّاتِهما يُريدانِ له الدِّمارَ. إنَّهما يُطالبانِ بإزالةِ القيودِ الأخلاقيَّةِ، غير مُدرِّكينِ على الإطلاقِ أنَّ الرِّادعَ الخُلُقِيَّ هو ما يُبقي الإنسانَ مُتَحَضِّراً“. ثُمَّ أغمَضَ عينيه. ”وحياةِ الألهةِ، يا فيبي، أصغني إلى ابنتنا فيعتريني الخزيُّ.“

اغرورَقتَ عينا فيبي، وعضَّتْ على شفتيها. ”إنَّها صغيرةُ السنِّ وطائشةُ“.

فكرَّرَ بِجَفَاءٍ: ”صغيرةُ السنِّ وطائشةُ“. وأضاف: ”وأيُّ عذْرٍ نَحْدُ لمرْقُس؟ إنَّه ابنُ ثلاثِ وعشرين، وليس صغيرًا بعد. وقد قال لي أمسُ إنَّ جوليا ينبغي أن تكونَ حرَّةً لتفعلَ ما تشاء. وقال إنَّ الحدادَ على كلاوديوس مَهزلة. فيبي، لقد مات رجلٌ بسببِ أنانيَّةِ ابنتنا وتحديدها المُعاندِ، وهي لا تهتمُّ مجردَ اهتمام! وهل مرقُسُ أيضًا أصغرُ سنًّا من أن يكونَ له شيءٌ من الإحساسِ بالكرامةِ واللياقةِ بشأنِ ما حدثَ في كامبانيا؟“

أشاحتُ فيبي بنظرِها، مُحفِيَّةٌ دموعَها، وقد ألها تقيُّمُه القاسي لابنتِها. فأمالَ دَسِيسُ ذقنها إليه. ”إني لا ألوُمُك. لقد كُنْتَ أرقَّ الأمَّهاتِ.“

تأمَلتُ وجهَه المُضطربَ، ذا الخطوطِ الغائرةِ جدًّا من جرَّاء الإرهاقِ. ”ربَّما هنا تكمنُ المشكلةُ“. ثُمَّ مسَّتْ صُدغَه. وكان الشَّيبُ قد خالطَ سوادَ شعره. ألم يكنُ في وُسعِ مرقُسِ وجوليا أن يريا أنَّ أباهما مريضٌ؟ أينبغي لمرْقُسِ أن يُجادِلَ في كلِّ شيءٍ؟ أينبغي أن تُغيضَ جوليا أباهما هكذا بِطلباتِها التي لا تنتهي؟

تتهدَّدُ دَسِيسُ من الأعماقِ، وأمسك يَدَ فيبي من جديد. ”أنا خائفٌ عليهما، يا فيبي. ماذا يحدثُ لمجتمعٍ ما عندما تُزال جميع الضوابطُ؟ أرى ولدينا مُولَعينِ بمشاهدةِ الدَّمِ يُراقى في ساحةِ المحاربين. أراهما يَنشُدانِ مجموعةً لا تنتهي من المَنعِ الحُسيَّةِ. إلَّامُ يُفضي هذا كلُّه؟“

Loga

كيف تستطيع العقول غير المنضبطة أن تكون حُرَّة عندما تكون مُستعبدةً لأهوائها الذاتية؟
”ربّما يتغيّر العالم“.

”متى؟ كيف؟ كلما كثر ما لدى وُلدَيْنَا، طلبا المزيد، وقلَّ اهتمامُ ضميريهما بطريقتي الحصول على المطلوب. نحن لسنا الوحيدين اللذين يواجهان هذه الأزمات. فأنا أسمع ذلك من الناس بين حين وآخر في الحَمَامَاتِ كُلِّ يوم. إِنَّ المشكلاتِ عَيْنَهَا تُضني مُعظم أصدقائنا“. ثُمَّ وقف مُتملِّمًا، وقال: ”لِنَتَمَشَّ!“

تمشَّى دَسِمُسُ وفيبي على المشى، ومرًا بِرُوجِينِ يعبدان إروس تحت شجرة مُزهرة. وبعد مسافةٍ قصيرة، كان رُجلان يُقْبِلان أحدهما الآخر على بَنك. فانقبضَ وجهه دَسِمُسُ اشمئزازًا. لقد تخلَّلَ التأثِيرُ اليونانيُّ المجتمعَ الرومانيَّ، مُشجِّعًا على المثلثةِ وجاعلًا إِيَّاهَا مقبولة. وبينما لم يَشجُبْ دَسِمُسُ هذا السلوك، فإنه لم يشأَ أيضًا أن يحتكَّ وجهه به.

لقد أباحت روما كُلَّ مُمارسةٍ تمقوتة، وتقبَّلت كُلَّ فكرةٍ فاسدةٍ باسمِ الحرِّيَّةِ وحقوقِ عامَّةِ الناس. فلم يعدِ المُواطنون يمارسون السلوكَ المُنحرفَ في الخفاء، بل باتوا يعرضونه علنًا بِمُكابرة. وأصحابُ القِيمِ الأخلاقيةِ باتوا هم الذين لا يستطيعون أن يتمشَّوا بحرِّيَّةٍ في مُتنزَّه عامٍّ دون أن يُضطَّروا إلى رؤيةِ استعراضِ مُقززٍ للنفس.

ماذا حلَّ بالرقباءِ العموميين الذين يُعتون بحماية أغلبيةِ المواطنين من الانحطاط الخُلقيّ؟ هل باتَ واجبًا أن تعني الحرِّيَّةُ إبطالَ الحِشمةِ العامة؟ أم هل تعني الحرِّيَّةُ أن في وَسع الجميع أن يفعلوا ما شاءوا في أيِّ وقتٍ أرادوا، دون تحمُّلِ التبعات؟

ثُمَّ أمرَ دَسِمُسُ بإحضارِ اليهودج. لقد كان يتوق لأن يعودَ إلى البيت ويحتلي بنفسه داخلَ جدرانِ دارته الصَّغيرة، وبذلك يُبقي في الخارج عالمًا لم يعد يشعرُ بالانتماء إليه.

رمت جوليا العُظيَّات على أرضيةِ الفُسيفساءِ في عُرفةِ نومها، ثُمَّ ضحكَّت ضحكةً انتصار. وأنتِ أوكتافيا، قائلةً: ”الحظُّ كُلُّه بجانبك، يا جوليا“. ثُمَّ اعتدلتُ، وأصافت: ”أنا أنسحب. لِنُنزِلِ إلى الأسواقِ ونستعرضِ السِّلَعِ المعروضة“.

نهضت جوليا، تاركةً العُظيَّات على الأرض. وقالت باكتئاب: ”لن يُعطيني أبي أيَّ مال“.

فسألتُ أوكتافيا مُرتاعةً: ”أبدًا؟“

أجابت جوليا بلهجةٍ نخيرٍ قلَّدت فيه أباهَا: ”أنا أحبُّ اللالكى، يا أوكتافيا، وأبي يقول

إنها باهظة الثمن وغير ضرورية ما دام لدي ذهب وجواهر أصلاً“.

”وحياة الألهة، يا جوليا. كل ما عليك القيام به هو أن تستديني ما تبتغين. أي خيار يكون لدى أبليك عندئذ سوى الإفراج عن شيء من مال كلاوديوس؟ فإما يفعل ذلك وإما تلوث السمعة التي يحسبها عزيمةً جداً“.

قالت جوليا بصراحة: ”لا أتحاسر أن أفعل ذلك“.

”المال مالك بموجب الحقوق، أليس كذلك؟ لقد كنت متزوجةً بذلك العجوز السخيف. إنك تستحقين تعويضاً ما عن الزمان الذي قضيتيه في كامبانيا“.

”لقد رتب مرقس بيع العقار. وهو قد وظف لي معظم العائدات“.

سألت أوكتافيا باهتمام متزايد: ”فيم وظفها؟“ فقد كان مرقس معروفاً بفطنته المالية.

ومن شأن أبي أوكتافيا أن يُرحب بأيّة معلومةٍ حيث يكون أخو جوليا معنياً.

”لم أسأل“.

فقلبت أوكتافيا عينها. ”ألا ينبغي أن تعلمي أين يذهب مالك؟“

”إنني أثق بحكم مرقس كل الثقة“.

”هل قلت إن عليك ألا تثقي به؟ إنني أقترح فحسب أن من الحكمة أن تكون المرأة على اطلاع“. وصبت لنفسها شيئاً من النبيذ. ”لي صديقة يجب أن تقابلها. اسمها كالاباه. كانت متزوجةً بالمدعو أوريس ليقوس فوتانوس. هل تذكرينه؟ كان

قصيراً وسميناً وبشعاً، وغنياً جداً. وقد اعتاد أن يقعد مع أنتيغونس وأخيك عند مشاهدة الألعاب أحياناً“.

قالت جوليا متضجرةً: ”لا، لست أذكره“.

فلوحت أوكتافيا بيدها بمرح. ”لا يهم، يا عزيزتي. إنه ميت. لقد مات من أسباب طبيعية، مع أنه لا يسعني أن أقول لك أي سبب. ستروك كالاباه“. قالت هذا وهي تمرر

أصابعها في غلبة جواهر جوليا. والتقطت بروساً ذهبياً وتفحصته. كان بسيطاً، لكن أنيقاً، مثل صاحبته على الأغلب. وإذا أسقطت البروش في الغلبة مجدداً، التفتت إلى جوليا. ”إن كالاباه تذهب إلى اللودس كي تتمرن مع المحاربين“.

قالت جوليا مصدومة: ”أتفعل النساء ذلك؟“

”بعض النساء. أما أنا فلا. إنني أفضل كثيراً حضور وليمة الألعاب. فثمّة شيء

روما

مُثِيرٌ جَدًّا فِي مُرَافَقَةِ رَجُلٍ قَدْ يَمُوتُ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ فِي اليَوْمِ التَّالِيِ“. ثُمَّ حَرَكْتَ النَّبِيذَ فِي الكَأْسِ وَابْتَسَمْتَ لَجُولِيَا ابْتِسَامَةً خَبِيثَةً. ”يَنْبَغِي أَنْ تَحْضُرِي ذَاتَ يَوْمٍ“.

”لَنْ يَسْمَعَ لِي أَبِي البَتَّةَ. إِنَّهُ يَعْرِفُ مَا يَجْرِي فِي هَذِهِ الوَلَاتِمِ“.

”مَرَحَ شَهِيٍّ، ذَلِكَ هُوَ مَا يَجْرِي. مَتَى تَفْرَضِينَ ذَاتُكَ وَتَعِيشِينَ حَيَاتِكَ، يَا جُولِيَا؟ لَقَدْ تَزَوَّجْتَ وَتَرَمَلْتِ، وَمَا زَلْتِ تَخْضَعِينَ لِأَبِيكَ فِي كُلِّ مَا يُعْلِيهِ عَلَيْكَ“.

”مَاذَا تُرِيدِينَ لِي أَنْ أَفْعَلَ؟ لَيْسَ أَبِي طَيِّعًا مِثْلَ أَبِيكَ، يَا أُوكتَافِيَا. وَعَلَيَّ أَنْ أَعِيشَ تَحْتَ سَقْفِهِ“.

”جَيِّدٌ. لَقَدْ خَرَجَ اليَوْمَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَنَحْنُ مَا زَلْنَا تَتَكَاسَلُ هُنَا، يُسَاوِرُنَا الصَّجْرَ وَالتَّرْدُّدَ، بِانْتِظَارِ انْتِهَاءِ فِتْرَةِ حِدَادِكَ الَّتِي تَدُومُ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا“. ثُمَّ أَتَتْ عَلَيَّ النَّبِيذَ، وَحَطَّتِ الكَأْسَ. ”كُفَى! سَأَذْهَبُ“.

”إِلَى أَيْنَ؟“

”لِلنَّسُوقِ. لِلتَّمَشِّي فِي المُنْتَزِهِ. وَقَدْ أَزُورُ كَالَابَاهِ. لَسْتُ أُدْرِي. بِصَرَاحَةٍ، يَا جُولِيَا، أَيُّ شَيْءٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الجُلُوسِ هُنَا مَعَكَ وَالاسْتِمَاعِ إِلَيْكَ تَتَنَجِّينَ عَلَيَّ مَصِيرِكَ“. وَالتَقَطَّتْ شَالَهَا.

فصاحت جوليا: ”مهلاً!“

قالت أوكتافيا بلهجة استعلاء: ”لماذا؟ لقد صرت فأرة بيت صغيرة بليدة منذ تزوجت كلاوديوس“. ثُمَّ أَسَدَلْتِ الشَّالَ بِانْتِبَاهٍ عَلَيَّ تَسْرِيحَةً شَعْرَهَا المُتَقَنَّةَ. ”كَمْ بَقِيَ لَكَ مِنَ فِتْرَةِ الحِدَادِ عَلَيْهِ؟ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ؟ أَرْبَعَةٌ؟ ابْعَثِي إِلَيَّ بِرِسَالَةٍ حِينَ تَصِيرِينَ حُرَّةً مِنَ وَاجِبَاتِكَ الاجْتِمَاعِيَّةِ نَجَاةً تِلْكَ المَهْزَلَةِ الَّتِي تَزْعَمِينَ أَنَّهَا كَانَتْ زَوْاجًا سَعِيدًا“.

”لَا تَغَادِرِي، يَا أُوكتَافِيَا. حَسْبَتِكَ صَدِيقَةٌ لِي“.

”أَنَا صَدِيقَتُكَ، أَيَّتُهَا المُغْفَلَةُ السَّخِيفَةُ الصَّغِيرَةُ. وَلَكِنِّي لَنْ أَجْلِسَ عَلَيَّ مَقْرُبَةً مِنْكَ صَبْرَةً حَتَّى المَوْتِ، فَفَطْ لِأَنَّكَ تَفْتَقِرِينَ إِلَى الشَّجَاعَةِ الَّتِي تُمَكِّنُكَ مِنْ تَوَلِّي شُؤُونِ حَيَاتِكَ بِنَفْسِكَ!“

فقال جوليا: ”حسنٌ جدًّا. سأذهب معك. سَتَسُوقُ وَنَزُورُ صَدِيقَتِكَ كَالَابَاهِ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَصَوَّرَ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الأَسْمَاءِ هَذَا. وَرَبَّمَا نَعْرُجُ أَيْضًا عَلَيَّ مَسَاكِينَ مَرْمُوسٍ وَنَرَى هَلْ يَصْطَحِبُنَا إِلَى حَفْلَةٍ مَا. كَيْفَ هَذَا؟ أَهَذَا تَوَلَّى لَشُؤُونِ حَيَاتِي بِنَفْسِي كَافٍ فِي نَظْرِكَ، يَا أُوكتَافِيَا؟“

ضحكت أوكتافيا ضحكة ساخرة. ”سنرى إذا كانت لديك الشجاعة للمضي قدماً في هذا“.

حدقت جوليا إليها، وصققت يديها. ”هدسة، أسرع لي! أحضري لي بالسي البنفسجي وقراطي الجعشت مع القلادة“. قالت هذا وهي عارفة جيداً أن أوكتافيا تحسدها على حُلاها. ثم خلعت تئك الحداد الأبيض الذي ترتديه، ولفته، وألقته على الأرض. ”أه، لا تنسي شالي الصوفي. إنني خارجة مع أوكتافيا وقد تتأخر في العودة إلى البيت“. وضحكت بمرح. ”أشعر منذ الآن بأنني أحسن حالاً“.

قالت أوكتافيا: ”كم من الوقت يلزمك لتصيري جاهزة؟“ مبتسمة قليلاً وشاعرة بأنها تسيطر على الوضع كلياً، الأمر الذي كان تماماً كما يرونها.

أجابت جوليا: ”أمهليني هنيهة بعد“. ثم جلست قبالة مراتها، واضعة الماكياج بسرعة ومهارة. وما لبثت أن توقفت ونظرت إلى أوكتافيا في المرأة بعينين برّاقتين. ”إنسي أمر التسوق، يا أوكتافيا. لنذهب إلى اللودس ونشاهد المحارين يتمرّنون. هل قلت إن في وسعك أن تفعلي ذلك متى شئت لأن لأبيك معارف في المدرسة العظيمة؟“

”على أبي أن يُعلم اللانيستا من قبل، وقد غادر إلى يومپاي أمس. وسيُمضي هناك بضعة أيام في العمل“.

فقالت جوليا: ”أه!“ واضعة من يدها قلم الحمرّة. إن أترتيس كان في اللودس، وقد أرادت أن تراه مجدداً.

”لا يتجهّم وجهك الآن عليّ مرّة أخرى. إن كنت تنوين أن تُشاهدي رجالاً، يمكننا أن نخصي إلى ميدان مارس. إن جنود الفيالق هناك“.

”كنت أرجو أن ألقى نظرة على محارب رأيتُه في كامبانيا. لقد رأيتُه من بُعد فقط إذ كان يعدو بقرب دارة كلاوديوس، ولكنه بدا جميلاً جداً“. ثم ربّنت خديها بشيء قليل من المرهم بعد ودلكتهما به. ”استطعت أن أعلم أن اسمه أترتيس، وأنه قد بيع إلى المدرسة العظيمة“.

قالت أوكتافيا ضاحكة: ”أترتيس!“

”أتعرفين أخباره؟“

”الجميع يعرفون أخباره! لقد ظهر في الألعاب قبل بضعة أسابيع وحول جمهوراً

مُتَعَطِّشًا لِلدَّمَاءِ إِلَى رَعَاعٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَعَبَّدُوا لَهُ .

”ماذا جرى؟ أخبريني بكلِّ شيء!“

وفعلت أوكتافيا ذلك، مُبتدئةً من المِهْرَجَانِ السَّابِقِ لِلأَلْعَابِ وَتَلْقِي أَرِيَا لِلإِهَانَةِ، وَمُنْتَهِيَةً إِلَى أَدَاءِ أَتْرِيَسِ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ . ”لَنْ تَتَمَكَّنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ، حَتَّى لَوْ ذَهَبْنَا إِلَى اللُّوْدُسِ . فَهُوَ مَحْجُوزٌ بِمَنَآئِ عَنِ الرُّؤَارِ الرُّومَانِيِّينَ“ .

”ولكن لماذا؟“

”كَادَ يَقْتُلُ ابْنَ عَضْوٍ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ أَرَادَ أَنْ يَتَنَاوَسَ مَعَهُ . يَبْدُو أَنَّ أَتْرِيَسَ لَمْ يَدْرِكْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَجْرَدَ تَمْرِينٍ . وَقَدْ سَفَكَ دَمَهُ“ .

قالت جوليا: ”كم هذا مُثِيرًا! وَلَكِنَّ أَتْرِيَسَ يَقِينًا لَنْ يَقْتُلَ امْرَأَةً“ .

”يَبْدُو قَادِرًا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ . إِنَّ لَهُ أَشْرَسَ عَيْنَيْنِ زَرْقَاوَيْنِ رَأَيْتُهُمَا عَلَى الإِطْلَاقِ“ .

اضْطَرَمَّتِ العُغَيْرَةُ فِي أَوْصَالِ جُولِيَا، أَعْقَبَهَا غَضَبٌ سَرِيعٌ عَلَى أَبِيهَا لِحِرْمَانِهِ إِيَّاهَا فُرْصَةً حُضُورِ الوَلَائِمِ السَّابِقَةِ لِلأَلْعَابِ كَمَا تَحْضُرُ أَوْكْتَاْفِيَا .

”كُنْتُ مَعَ كَالِبِ فِي المَسَاءِ الَّذِي فِيهِ قُدِّمَ أَتْرِيَسَ أَوَّلَ مَرَّةٍ . لَقَدْ سَمِعْتُ بِكَالِبِ . لَقَدْ قَتَلَ سَبْعَةً وَعِشْرِينَ مُحَارِبًا حَتَّى الآنَ“ . ثُمَّ نَتَرَتْ رَأْسَهَا . ”إِنَّ أَتْرِيَسَ أَشَدُّ وَحْشِيَّةً بِقَلِيلٍ مِنْ أَنْ يَرُوقَنِي“ .

حَمَلَتْ هَدْسَةَ البَالِسَ لِجُولِيَا، وَجَعَلَتْهُ يَنْزَلِقُ عَلَيْهَا، فِيمَا الشَّابَّتَانِ تَتَحَدَّثَانِ . ثُمَّ شَبَكَتِ الحِرْزَامَ الذَّهَبِيَّ وَأَجْرَتْ بَعْضَ التَّعْدِيَلَاتِ لِتَغْدُوَ جُولِيَا بِقَوَامِهَا الرَّقِيقِ أَكْثَرَ جَمَالًا فِي ذَلِكَ التَّنْكَ الطَّوِيلِ . وَبَعْدُذِ عَقْدَتِ قِلَادَةِ الجِمَشْتِ فِيمَا كَانَتْ جُولِيَا تُعَلِّقُ القِرْطِينَ المَثْقُوبِينَ .

وَسَأَلَتْ هَدْسَةَ: ”هَلْ تُوَدِّينَ أَنْ أُسَوِّيَ شَعْرَكَ مِنْ جَدِيدٍ، سَيِّدَتِي؟“

فَقَالَتْ أَوْكْتَاْفِيَا بِضِيْقٍ صَدْرًا: ”إِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا يُفْسِدُ تَرْتِيْبَهُ“ .

قَالَتْ جُولِيَا ضَاحِكَةً: ”إِنِّي لِأَبْذُلُ أَيَّ شَيْءٍ حَتَّى يُسَوِّيَهُ لِي أَتْرِيَسَ بِأَصَابِعِهِ“ . ثُمَّ اسْتَدَارَتْ وَنَهَضَتْ عَنِ كُرْسِيِّهَا الَّذِي لَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ أَمَامِ المِزْيَنَةِ، وَأَمْسَكَتْ يَدِي هَدْسَةَ، وَقَدْ غَدَا مِزَاجُهَا جِدِّيًّا عَلَى نَحْوِ مُفَاجِئَةٍ . ”لَا تُخْبِرِي أَبِي بِشَيْءٍ، حَتَّى لَوْ طَلَبَ تَفْسِيرًا . قَوْلِي لَهُ إِنِّي مَصِيْبَةٌ لِلْعِبَادَةِ فِي هَيْكَلِ دِيَانَا“ .

فَهَمَّهَمَتْ أَوْكْتَاْفِيَا مُتَهَكِّمَةً: ”لَيْسَ دِيَانَا، يَا جُولِيَا، بِلِ هَيْرَا، إِلهَا المَوْقِدِ وَالمِزَاجِ“ .

وَقَالَتْ جُولِيَا، مُفْلِتَةً هَدْسَةَ: ”أُوهِ، لَا يَهْمُنِي . قَوْلِي لَهُ أَيَّ إِلَهٍ تَخْتَارِينَ“ . ثُمَّ حَطَفَتْ

الشالَ منها، ودارتْ نحو الباب مُنْشِرِحَةً، تاركةً النسيجَ الصُوفيَّ الناعمَ يتموِّجَ حوَالِهَا. ”بل أَفْضَلُ أن تقولي له إنِّي ذهبتُ إلى الصَّيدليَّةِ لأجدَ لِنَفْسِي سُمَّا سَريعَ المفعول. فمن شأن هذا أن يُعجِبَهُ“.

وأسرعتنا من البيت هابطتين التلُّ إلى وسط الحشد بقرب أكشاك الباعة.

راق جوليا أن تسيِّرَ في الشوارع المكتنَّة، مُعَايِنَةً كيف تدورُ الرؤوسُ وفيما هي عابرة. لقد علمتْ أنَّها جميلة، وأبهجها انتباهُ الناسِ إليها بعدما قصَّتْ مدَّةً طويلةً وراء الأسوار العالية في بيت أبيها. سيستشيطُ غضبًا عليها، ولكنها لم تشأ أن تُفكِّرَ في ذلك الآن. فمن شأن ذلك أن يُفسدَ باقيَ يومها فحسب.

كان أبوها ميلاً إلى إفساد كامل حياتها إن هي سمحت له. كان أكبر سنًا من أن يتذكَّرَ ماذا يعني أن يكون المرءُ شابًا ومُفَعَّمًا بالحياة جدًّا حتَّى ليشعرُ بأنَّه سينفجر. وهو لم يعدُّ يؤمنُ بالآلهة، بل إنَّه لم يعدُّ يؤمنُ بأيِّ شيءٍ سوى معاييرهِ القديمة وأخلاقاته البائدة.

كان العالمُ أخذًا في الابتعاد عن الأفكار العتيقة، وهو كان مُصمِّمًا على الوقوف بلا حراك. وأسوأ من ذلك أنَّه كان مُصمِّمًا على جعلها تقفُ معه بلا حراك. لقد حاولَ ذلك مع مرقس فأخفق، وهو الآن كان يسحقُ جوليا تحت توقعاته. فكان عليها أن تكونَ قويَّةً كأخيها ولا تسمح لوالدها بأن يُلمِّيَ عليها حياتها. وما كانت لتحدوَّ حدوَّ أمها، قانعةً بأنَّ تعيشَ وراء جدرانٍ حجريةٍ عاليةٍ وتعتنيَ بخدمة زوجها كما لو كان إلهاً. فلها حياتها الخاصَّة تعيشُها، وهي ستفعل بها ما تشاء. ستحضُرُ الولايم السابقة للألعاب وتشرب وتضحك مع المُحاربين. وستحضُرُ اللودي ميغالانيسز (الألعاب) في الأسبوع التالي، وستحتفل بعيد سيبيل (إلهة الخصب) مع صديقاتها. وستجدُ طريقةً ما لمقابلة أتريس.

سألت جوليا، وهما تمشيان وتتوقَّفان هنا وهناك لتنظُرًا الحلى الرخيصة المجلوبة من بلدانٍ أجنبية: ”كم عشيقةً كان لك، يا أوكتافيا؟“

ضحكت أوكتافيا. ”ضيعتُ عددهم!“

”أتمنى لو كنتِ مثلكِ، حرَّةً في أن أفعلَ ما أريد مع مَنْ أختار.“

”ولمَ لا تكونين؟“

”إنَّ أبي...“

”كم أنتِ ساذجة، يا جوليا! عليكِ أن تتولِّي زمامَ السيطرة على حياتك. لقد قاموا

بِخِيَارَاتِهِمْ وَفَعَلُوا مَا أَرَادُوا. لِمَاذَا يَنْبَغِي أَلَّا تَفْعَلِي مَا فَعَلُوا؟“
”يَقُولُ الْقَانُونُ...“

قَاطَعَتَهَا أَوْكَتَافِيَا سَاحِرَةً: ”تَزَوَّجْتِ كِلَاوَدْيُوسَ لِأَنَّ أَبَاكَ رَغَبَ فِي ذَلِكَ، وَالْآنَ كِلَاوَدْيُوسَ مَيِّتٌ. فَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ يَخْصُكَ. وَمَرْقُسُ يَتَوَلَّى ضَبْطَهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَسَنًا، أَخُوكَ مَشْغُوفٌ بِكَ. فَاسْتَغْلِي الْوَضْعَ.“

ارْتَبَكْتُ جُولِيَا حَيَالِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي عَبَّرْتُ بِهَا أَوْكَتَافِيَا عَنِ الْأَمْرِ، وَقَالَتْ: ”لَسْتُ مُتَبَيِّنَةً بَأَنَّ فِي وَسْئِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ.“

فَضَحِكْتُ أَوْكَتَافِيَا. ”أَنْتِ تَفْعَلِينَ ذَلِكَ كُلَّ حِينٍ. إِنَّمَا تَفْعَلِينَهُ فَقَطْ بِشَأْنِ الْأُمُورِ غَيْرِ الْمُهَيِّمَةِ، مِثْلَ الْإِنْسِلَالِ إِلَى الْأَلْعَابِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، بَدَلِ تَوَلِّيِ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَالِ الَّذِي يَخْصُكَ شَرْعِيًّا. أَمِنْ الْإِنْصَافِ أَنْ يَحُوزَ أَبُوكَ وَأَخُوكَ اسْتِعْمَالَ ذَلِكَ الْمَالِ فِيمَا كُنْتِ أَنْتِ مَنْ اضْطَرَّتْ إِلَى النَّوْمِ مَعَ ذَلِكَ الْعَجُوزِ الْكَثِيبِ؟“

تَوَرَّدَتْ جُولِيَا وَأَشَاحَتْ بِنَظَرِهَا، مُدْرِكَةً تَمَامًا كَمْ كَانَتْ زَوْجَةً سَيِّئَةً. ”لَمْ يَكُنْ كَثِيبًا جَدًّا. لَقَدْ كَانَ كِلَاوَدْيُوسَ ذَكِيًّا جَدًّا.“

فَضَحِكْتُ أَوْكَتَافِيَا. ”كَانَ ذَكِيًّا جَدًّا بِحَيْثُ أَضْجَرَكَ حَتَّى الْمَوْتَ. لَقَدْ أَخْبَرْتَنِي بِهَذَا أَنْتِ نَفْسُكَ فِي رِسَالَةٍ، أَمْ لَا تُرِيدِينَ أَنْ تَتَذَكَّرِي مَا كَتَبْتِهِ عَنْهُ؟“

فَجَاءَتْ وَجَدَّتْ جُولِيَا التَّنَفُّسَ صَعْبًا. وَارْتَجَفَتْ قَلِيلًا، مُتَسَائِلَةً كَمْ مِنَ الْأُمُورِ الرَّهِيْبَةِ الْأُخْرَى قَالَتْهَا عَنِ كِلَاوَدْيُوسِ وَأَوْكَتَافِيَا تَتَذَكَّرُهَا جَيِّدًا. فَقَدْ عَلِمَتْ أَوْكَتَافِيَا أَنَّهُ خَرَجَ رَاكِبًا لِلإِتْيَانِ بِجُولِيَا. وَلِمَاذَا أَتَتْ عَلَى ذِكْرِهِ أَصْلًا وَهِيَ تَعْيُ أَنْ ذَلِكَ يُكَدِّرُهَا كَثِيرًا؟ ”لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَ بِشَأْنِهِ، يَا أَوْكَتَافِيَا. أَنْتِ تَعْلَمِينَ هَذَا.“

”إِنَّهُ مَيِّتٌ. فَأَيُّ شَيْءٍ تَتَحَدَّثِينَ بِشَأْنِهِ؟ لَقَدْ ابْتَسَمْتَ لِكَ الْإِلَهَةِ.“

ارْتَعَشَتْ جُولِيَا. وَلَكِي تَلْهِي نَفْسَهَا عَنِ أَفْكَارِهَا الْمُرُوعَةِ، تَوَقَّفَتْ عِنْدَ كَشْفِ عُرْضَتِ فِيهِ قَلَائِدُ بِلُورِيَّةٍ. وَقَدْ كَانَ مَالِكُهُ مِصْرِيًّا دَاكِنَ الْبَشَرَةِ وَوَسِيمًا، يَتَكَلَّمُ الْيُونَانِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ، لَكِنْ بَلَكْنَةِ ثَقِيلَةٍ، مِمَّا أَضْفَى عَلَيْهِ هَالَةً مِنَ الْعُمُوضِ الْأَخَازِ. وَتَفَحَّصَتْ جُولِيَا بِاهْتِمَامٍ إِحْدَى الْقَلَائِدِ، فَإِذَا بِهَا بَارِدَةٌ فِي يَدِهَا، تُحِيطُ بِهَا أَفْعَى تُوَدِّي دَوْرَ الْإِمْسَاكِ بِمُدْلَاةِ الْبِلُورِ الطَّوِيلَةِ وَتُشَكِّلُ عُرْوَةً لِسِلْسِلَةٍ ثَقِيلَةٍ.

”إِسْمِي شُكْرَاسُ، وَأَنَا آتِي بِهَذِهِ الْبِلُورِيَّاتِ مِنْ أَقَاصِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ“. وَرَاقَبَ الْمِصْرِيَّ

جوليا تلتقط قلادة، فقال: ”إنها جميلة، أليس كذلك؟ إن المروّ الوردِيّ يُسكّن عدم التوازن الجنسيّ ويُساعد على صرْف الغضب والغَيْظ والشعور بالذَّنْب، والخوف والغيرة“.

قالت أوكتافيا: ”فلأرّها“. ثمّ أخذتها من جوليا لتتأملها بزيد من التّدقيق.

وقال شكّراس: ”معروف عنها أيضًا أنّها تُضاعِف الحِصْب“.

فضحكت أوكتافيا وردّتها إلى جوليا بسرّعة. ”خُذي، امسكيها أنتِ“.

قالت جوليا ضاحكةً لأوكتافيا: ”ربّما شيئًا أقلّ خطرًا“. ثمّ أشارت إلى عقْدٍ آخر. ”ما

القول في هذا؟“

أجاب الرجل: ”خيارٌ جيّد“. وأضاف بعدما التفتَ العقْد بتوقير: ”إنّ الحَجَر القمر

قدرات على شفاء المَعْدَة، وهو يُسكّن القلق والاكْتئاب. وهو أيضًا يُفيد في عمليّة التّوليد

ويُساعد على حلّ المُشكِلات الأثْويّة“. وإذ لاحظ تكشيرة أوكتافيا، أضاف: ”هديةٌ جيّدة

لامرأة على وَشَك الزّواج“.

قالت جوليا: ”لقد أعجبني“. ووضّعتَه جانبًا. ”ماذا تقول في ذاك الذي هناك؟“

فالتقطَ حليةً بلّور بنفسجِيّة جميلة، ووضّعها على قاعدةِ عرضٍ مُغطّاةٍ بقماش. ”إنّها

من الأليكسندريت، سيّدتي، وهو نوعٌ من حَجَر الكريزوبريل شبه الكريّم، معروفٌ بأنّه يشفي

الانحطاط الداخلي والخارجي“.

وقالت أوكتافيا: ”إنّه يحميك من الهَرَم“.

فعلّق البائع وهو يتأمّلها تحسّسه بأصابعها: ”صحيحٌ، سيّدتي“. ثمّ أشاح بنظره

مُتنبّئًا إلى إبقاء عينه على أوكتافيا فيما انتقى بضِعَ قلاندٍ أخرى. ”الأليكسندريت أيضًا

يُساعد على رَصِفِ العواطف ويظهرُ أعلى إمكاناتِ بَعثِ الفرح“. ووضعَ أمامهما حليةً

بلّور ذات لونٍ فيروزيّ باهت. ”هذا الزّبرجد نوعٌ من البريل، وموصوفٌ بأنّه يقوّي الأحشاء

ويُنقّي الدّم. وهو يُعزّز صفاءَ ذهن المرء ويُساعد على التعبير الإبداعيّ، وسيجعلك على

تناغمٍ مع الآلهة“.

فقالت جوليا: ”لا بدّ أن تروقَ هذه أبي“. وأضافت بعدما وضعت حلية الزّبرجد على

حِدة. ”تعتقد أمّي أنّه مريض“.

”أوه سيّدتي، إذا ينبغي أن تزي هذه البلّورة من العقيق الأحمر. فهي شافيةٌ مُطوّرةٌ

أعلى تطوّر، تفتح القلب وتُشجّع على التواصّل مع أرواح العالم السفليّ، وبذلك تهدي

إلى الطرق العديدة للتَّجَاة من الموت“ .

قالت جوليا: ”يا له من أحمر فاتن!“ ثم أخذتها وقلبتها مرارًا وتكرارًا في يدها، وقالت: ”سأخذها أيضًا“، واضعةً إياها جانبًا مع حلى الزُّبرجد وحجر القمر والأليكسندريت والمرو الوردِيّ البلُّوريات. إذ ذاك شحِبَ وجه أوكتافيا وانقبضَ فمها بشدَّةٍ وبرقتَ عيناها بالחסد المتَّقِد.

ابتسم شكراس ابتسامَةً وانية، وقال: ”جرّبي هذه القِلادة، سيّدي“، مُناوِلًا إياها حربةً من البلُّور النقيّ بطول ثمانية سنتيمترات تقريبًا. فقالت جوليا: ”إنّها أطولُ من المألوف بكثير“ .

”هذه البلُّورة تُنشِطُ الجِسْمَ والعقلَ وتحفزهما. وهي تُتيح لك أن تتواصل مع الإله الذي تختارينه. فمنذ اللحظة التي فيها تلبسينها ستشعرين بقوة البلُّور. إنّها تُوقظُ الحواسَّ وتُبرزُ مفايتنك“ .

قالت جوليا: ”حَسَنُ جدًّا!“ وقد خلّبت صوتُه الرتيبُ الساحر أكثر من البلُّورة. فوضعتها حول عنقها بتوقير.

”هل تشعرين بقوةها؟“

رفعت جوليا نظرها إليه، ففتَرَسَ مُباشرةً في عينيها بنظرة قائمة، مُتَقَدَّة، حادَّة. فشعرت بالاضطراب، ثم بالهدوء التام. وقالت بتهيب: ”نعم، أشعرُ بقوةها“. وتلمّست القِلادة بأصابعها شاردة الذهن، غير قادرة على إشاحة نظرها عن شكراس. ”إنّها جميلة، أليس كذلك، يا أوكتافيا؟“

”إنّها قطعةٌ من حَجَرٍ في سِلْسِلَة“ .

لم يُحوّل شكراس عينيه عن جوليا. ”إنَّ البلُّور هو مُقام الآلهة المصريين القدامى. وصديقَتك تستنزِلُ غضبهم“ .

حدّقت أوكتافيا إليه، وسألَت بنزق: ”أستعدَّة أنت للمُغادرة، يا جوليا؟“ وراقبت المصريّ يمدُّ يده إلى البلُّورة ويمسكها برفق، وسلامياتُ أصابعه تُلامِسُ جوليا. قال شكراس: ”فقط الذين يستحقُّون القوَّة يحوزونها“، مُبتسمًا بطريقة جعلت وجه جوليا يسخن.

وضحكَّت أوكتافيا ضحكةً ناشفة. ”جوليا، في وسعك شراء لآلئ. فلا تُبددي

سَسْتَرَسًا واحدًا على زُجاج!

انكَمَشْت جُوليا قليلاً من مُلامسة شكراس، فتدلَّت البِلُورة الثقيلة على صدرها من جديد. ”ولكنَّها حُلِّي جميلة!“

تأمَّل شَكَراس قِلادة الجَمَشْت الغالية التي تلبسها، وقال: ”إِنَّ قِلادة البِلُور النَّقِيَّ تُساوي أوريوسًا واحدًا“، وهو عالمٌ أنَّها تستطيع شراء تلك وأكثر.

قالت جُوليا مُرتاعة: ”هذا المبلغ؟“ فالأوريوس الواحد يساوي خمسةً وعشرين دينارًا، والدينار كان أجرة عمل يوم واحد.

وقالت أوكثافيا: ”أمرٌ سخيف! مسرورةٌ لأنَّ ذلك كان فوق ما ترغب جُوليا في دفعه. كانت القلائد جميلة، وما دامت هي لا تستطيع شراء واحدةٍ منها فلم تُرد جُوليا أن تشتري واحدةً أيضًا.

”إِنَّ القُوَّة لا تُقْتنى بثمان زهيد، سيديتي.“ قال شكراس هذا بصوته الرخيم الثقيل اللكنة، النام عن أسرار مصر القديمة بعينها. ”هذه أحجارٌ كريمةٌ نادرةٌ أبدعتها الآلهة“.

نظرت جُوليا إلى القلائد التي انتقتها. ”ليس مسموحًا لي بأن أحملَ أيَّ مالٍ في سوقٍ عامَّة“.

”يَمَكِّنُكَ أن توقَّعي لي على المبلغ في دفتر الدين، وسأعنى بتحصيله كما تقولين، سيديتي“.

فقالَتْ بتحفُّظ: ”أنا أرملة، وأخي يُدير ملكيَّتي“.

أجاب شكراس: ”مسألةٌ بسيطة!“ وأخرج دفترًا.

وقالت أوكثافيا بغضب: ”لم تقل بعد إنَّها تُريدُ شراءَ هذه الأشياء“.

فقالَتْ جُوليا: ”ولكنِّي أريد“. وأخذتْ تُراقبُ شكراس وهو يُقيِّد في الدفتر كلَّ قِلادة. ثُمَّ أعطته اسمَ مَرَقَس كاملًا وعنوانه. وسألها هل تُقيم مع أخيها فأجابت بالنفي: ”أسكن مع أبي، دَسْمُس فنداشيوس فاليريان“.

قال شكراس: ”رَجُلٌ عظيمٌ جدًّا!“ ولم يطرحْ مزيدًا من الأسئلة، بل أضاف: ”وقَّعي هنا، من فضلك“. ثُمَّ غَمَسَ الرِّيشة في الحبر، وناولها إيَّاهَا. ولَمَّا وَقَعَتْ، لَفَّ القلائد الأربع بقطعةٍ صوفٍ بيضاءٍ ووضعهنَّ في كيسٍ من الجلد. ومدَّ يده إليها بالكيس مع انحناءٍ احترامٍ رزينة. ”عسى أن يجلبَ لكِ البِلُور الذي تلبسينه كلُّ ما تتمنينَ وأكثر، سيديتي“.

روما

غمرت جوليا الإثارة من جرّاء ما اشتريته، وأصرت على التوقّف في بضعة أكشاكٍ أخرى. وقد اشترت عطرًا في قارورة فاخرة، وأمفورة صغيرة مختومة من الزيت المعطر، وعُلبَة ذُرورٍ مُلوّنة.

قالت أوكتافيا غاضبةً: ”أقسيم بزفس، يا جوليا، إنّي لن أحمل لكِ صُرةً أخرى. كان ينبغي أن تصطحبي خادمتك اليهودية الصغيرة“. ثمّ دفعت الأشياء إلى ذراعي جوليا ومشت مُبتعدة تشقّ طريقها بتعرج وسط الزحام، مُتمنيةً لو أنّها لم تستدرج جوليا إلى تحديّ أبيها والخروج في هذه التزّهة.

سارت جوليا وراءها على عجل، ضاحكةً. ”أنتِ كنتِ من أرادتِ الخروجَ للتسوقِ!“
 ”للتفرّج، لا لشراء كلّ ما تراه العين!“
 ”أنتِ لم تشترى أيّ شيء!“

صرت أوكتافيا بأسنانها حيالَ تعليق جوليا، وقد أزعجها أن تكونَ صديقتها قادرةً على شراء هذه الأشياء الكثيرة دون أدنى تروٍّ، فيما لا تملك هي أيّ مالٍ على الإطلاق. وتجاهلتِ توسّلاتِ جوليا إليها أن تتمهّل. فلم تكن تنوي قطّ أن تعترف لجوليا بالحقيقة. وكلّ ما تمكّنت من التفكير فيه كان القلائد في كيس جوليا الجلديّ الصغير. فإذا كان في حوزة جوليا مالٌ كثير، ربّما ظنّ المرء أنّها ستشترى لصديقتها هديّة. ولكن لا، فهي لم تُفكر إلّا في نفسها!

”أوكتافيا!“

كظمت أوكتافيا غيظها، ووقفت تنتظر. ثمّ رفعت رأسها بكبرٍ، وقالت: ”كلّ شيءٍ رخيصٌ جدًّا ومُبهرجٌ بقِلّةِ ذوقِ هنا. لم أرَ شيئًا واحدًا أعجبتني“.

علمت جوليا جيّدًا أنّ القلائد البُلورية قد راقت أوكتافيا، ولكنّها لم تكن نوايةً أن تُكره على إعطائها واحدةً منها بعدما اضطرت إلى شقّ طريقها بشقّ النفس طوال ذلك الشارع المُزدحم للوصول إليها. فنظرت إليها بأقصى برودةٍ تستطيعها، وقالت: ”أمرٌ مؤسّف! كنتُ أفكر في إعطائك إحدى القلائد“. وقد علمت أنّ أوكتافيا تمنّت اقتناء قلادةٍ لنفسها، إلّا أنّ ذلك لم يكن في مُتناولها. فإنّ مرقس قال إنّ دروسس كان على عتبة الإفلاس الماليّ، وسيكون الانتحار هو السبيل الوحيد لإنقاذ ما بقي لديه من شرفٍ ضئيل.

رمقتها أوكتافيا قليلًا. ”أكنتِ تفكرين في هذا حقًّا؟“
 تابعت جوليا سيرها. ”حسنًا، إنّما ليس بعد. فما كنتُ لأعطي صديقتي الفضلى شيئًا

مُبهرَجًا ورخيصةً“. ثُمَّ التفتت إلى الوراء، وقد سُرَّت بسيماءِ وجهِ أوكتافيا. لقد سئمتْ أساليبها التفضيلية. ”ربما تُعثرين لاحقًا على شيءٍ يُعجبك!“

لما وصلتا إلى ميدان مارس، كانتا كلتاهُما قد تعبتا. لم تُرد جوليا أن تتعدت تحت شجرة ظليّة، بل أرادت أن تجلسَ خارجًا في العراء، أقرب ما يمكن إلى الجنود المُتدربين. وتمنت أوكتافيا لو أنّها لم تقترح القدومَ لمُشاهدة جنود الفيالق الرومان. فقد بدا أنّ جميعهم لاحظوا جوليا في پالسها البنفسجيّ، ولما أعاروها هي اهتمامًا في ثوبها الأزرق. وإذ انزعجت أوكتافيا، تظاهرت بأنّها ضحيرة. فلم يُرقها أن تحبّ جوليا ضياءها. فلطالما كانت هي من ينظرُ إليها الناس حين تكونان معًا. لعلّ عليها أن تُنقص وزنها، أو تُغيّر تصفيفة شعرها، أو تضع مزيدًا من مُستحضرات التجميل. عندئذ تتوارى جوليا في الظلال من جديد. وألقت نظرةً على جوليا، فعلمت أنّ ذلك لن يحصل. لقد كانت الفوارق بينهما أخذةً في الاتساع.

كانت الحياة بلا إنصافٍ تمامًا. فإنّ جوليا قد قبّلتها الآلهة. إذ وُلدت في عائلة ذات ثراءٍ وكلّ ما يمكن أن تشتريه الثروة من سلطةٍ واعتبار. ثمّ زوّجت من رجلٍ غنيٍّ كسر رقبته على نحوٍ مؤاتٍ قبل انتهاء أول سنةٍ من سعادتهما الزوجية، تاركًا ثروةً لجوليا الصغيرة المسكينة، رُغم كونها إلى حدٍّ بعيدٍ جدًّا أغبى من أن تعرف كيف تتولّى إدارتها. أمّا أوكتافيا، فمن شأنها أن تعرف ذلك.

إذ نظرت أوكتافيا أنّ جوليا تنعم بعيشٍ رغيد تمامًا، نهشها الحسد، والتهمت المرارة الأكلة. وقد كان أبو أوكتافيا ينتحل الأعداز دائمًا أمام دائنيه. وكان يقضي أوقاتًا مُتزايدة مع زبوناتِه، ويُفتش عن آخرين يمكن أن يزيدوا في استنزاف خزائنه. وقد علمت أنّ سفرته إلى بومباي كان ذريعةً للابتعاد إلى حين. وكان قد صرخَ عليها أمس وأتهمها بالإسراف في إنفاق المال. وقال إنه كره ”الاستجداء“ من زبوناتِه. فما الشعور الذي افترض أنّها شعرت به كلّما اضطرت هي إلى استجداء أبيها من أجل المال؟ وإن كانوا فقراء فعلاً، فربما كان واجبًا أن يُقلع عن المراهنة في الألعاب. فهو لم يتمكن قط من اختيار سائق مركبةٍ فائز.

لماذا كان عليها أن تكون ابنةً مُغفل؟ ألا تستحقّ جميع الأشياء التي كانت في حوزة جوليا؟ إنّ الأمر الوحيد الذي أمكنها أن تتباهى به كان خادمتها الشخصية، ابنة ملكٍ أفريقيّ قبليّ. وتذكّرت أول مرة اصطفتها إلى منزل جوليا ورأت جوليا مُستحبةً بخادمتها اليهودية الصغيرة البشعة. وقد أزعجها الآن أن يكون حتى ذلك الانتصار الصغير قد باء بالفشل. فإنّ أميرتها الأفريقية كانت مُتعدرةً ومُخيفةً ومستوجبة الضرب دائمًا لحملها على

Log

الطاعة، في حين أن خادمة جوليا اليهودية الصغيرة المتضعة كانت تخدم كما لو أن تلك بهجتها الوحيدة.

وقعت حَمْلَةً أوكتافيا على قِلادة الجَمَشْتِ الفاخرة حول عنق جوليا النحيل. وقد التقطَ القرطانِ المَضاهِيانِ ضياءَ الشمس. فقلبَ الحسدُ معدةَ أوكتافيا، وحوّلَ اليومَ الجميلَ إلى محنةٍ مؤلمة. وكادتْ تكره جوليا التي كان كيسُ الجلد الذي يحوي حُلاها المُشترَاةَ بثمنٍ غالٍ جدًا قبلَ سُويعاتٍ فقط مُلقَى على العُشبِ مَنسِيًا.

مرَّ بهما قائدُ مئةٍ شابٍّ يمطي فرسًا أسمرَ مُحمرًا، وابتسمَ ابتسامَةً عريضةً خبيثة، ليس لأوكتافيا بل لجوليا، فتورّد خدّاهَا كعذراء، ثمَّ جعلها تبدو أجملَ بعد. وتفاقمَ سخطُ أوكتافيا. أطلقتْ جوليا نَفْسًا، وقد تألّقتْ عينها القامتانِ انفعالًا، سائلةً: ”هل رأيتِ الطريقةَ التي بها نظر إليّ؟ أما كان وسيماً؟“

فقالَت أوكتافيا: ”وربّما بليدًا كثور“. وإذ جرحَ كبرياءها تجاهلُ رجلٍ لها، هبّت واقفةً. ”أشعرُ بالحرارة والجوع والضجر، يا جوليا. أنا ذاهبةٌ إلى بيت كالاباه.“

وقفتْ جوليا بسُرعة على قدميها، وقد روعها ألاّ تتمكنَ بعدُ من مُشاهدة الجنود، ولكنْ شدّها الشوقُ إلى ما كان في ذهن أوكتافيا. ”سأذهبُ معك.“

”لستُ على يقينٍ بأنّها ستروقكِ. إنّها إلى حدِّ بعيدٍ جدًا أكثرُ تكلفًا وتأنقًا من أن تستهويكِ.“

”ولكنكِ قلتِ سابقًا...“

قاطعها أوكتافيا بحركةٍ من يدها، قائلةً: ”أوه، أعرفُ ما قلتِ. ولكنكِ ستكونين خارجَ مُحيطكِ تمامًا، يا جوليا“. كان ذلك صحيحًا، غير أنّه لم يكن كاملَ السبب الذي من أجله ابتغتْ صرفَ جوليا. بلا شكّ، قد يكون اصطحابُ جوليا مدعاةً للمرح. فالأرجح أن تعمدَ كالاباه إلى السُخريّة من ريفيّة جوليا. وقد يكون كائس يولونيوس أربانس أيضًا عند كالاباه زائرًا. فإنّ حدةَ عينيّه القامتين ولمسة يديه الباردتين جعلت أحشاءها ترتعش. وكانت قد سمعت الإشاعات المنتشرة بشأنه، غير أنّ هذه لم تجعله إلاّ أكثرَ أسرًا وخطرًا. فهي على يقينٍ أنّه كان أخذًا في الانجذاب إليها.

التقطتْ جوليا كيسَ قلائدِها الجلديّ وصرّ العِطْرَ والزيتَ والدُرور. لقد بدتْ أوكتافيا ناويةً أن تستبِعَها عن كلِّ ما هو مُثير. ”إذا اصطحبتني لمقابلة كالاباه، أعطيكِ واحدةً من قلائدي التي اشتريتها.“

فانقلبت أوكتافيا عليها غاضبةً، وخدّاهما يتأججان. ”أي نوع من الصّدِيقَات تحسبيني؟“
 قالت جوليا: ”لقد أردتِ واحدةً، أليس كذلك؟“ وهي غاضبةٌ مثلها تمامًا، لكن سارة
 لمشاعرها بسميةٍ مُعتادة من الانكشافِ الدامع. ”حسنًا، سأقدم إليك أبةً واحدةً تختارينها.“
 ثمّ تلاعبتِ بمشترّياتها، ومدّت يدها في الكيسِ الجلديّ. ”كنتُ سأعطيكَ واحدةً قبل الآن،
 ولكنك كُنتِ قاسيةً جدًّا، مهاجمةً كلاوديوس مرارًا وتكرارًا.“

تردّدت أوكتافيا، ثمّ أخذتِ الكيس. ”أحقًا كنتِ تنوين أن تُعطيني واحدة؟“
 ”بالتأكيد.“ لقد كان لدى شكّراس مزيدٌ من القلائد. وأي قلادةٍ تختارها أوكتافيا،
 تستطيع جوليا أن تُرسِلَ هدسةً إليه كي تأتي بأخرى بدلًا منها.

قالت أوكتافيا: ”لا بأس إذًا.“ وفتحتِ الكيسَ مُخرجةً القلائد. ”أريدُ قلادةَ
 الأليكسندريت.“ وكانت هذه هي الأعلى ثمنًا. فأخرجتها، وقصّمتها، ولبّستها، نابذةً الحرقّة
 الصوفية البيضاء.

ستصطحبُ جوليا إلى منزل كالاباه. وسيكون أمرًا مضحكًا أن تُراقب كالاباه تسخرُ
 منها بخبث. ثمّ عبّست هنيهةً إذ فكرت أيضًا كم كانت جوليا جميلةً وكيف كانت ردةً
 فعل الضباط الرومان حيالها قبل قليل. إن كائس يحبّ الجميلات، وأوكتافيا يقينًا لم تُرد
 أيّ تدخلٍ في ما كانت تعتقد جازمةً أنّه مُستهلّ أمرٍ بينها وبين كائس. ثمّ هزّت كتفيها
 بلامبالاة... يقينًا أن كائس لن يُعنى بطفلةٍ مدلّلةٍ مثل جوليا.

والتفتت لتبتسم بتسامحٍ في وجه جوليا. ”ليس بيتُ كالاباه بعيدًا من هنا. إنَّها تسكنُ
 تمامًا على التلِّ الواقع وراء الحمامات.“

١٦

دخل مرقس البيت، فوجدَه هادئًا ومُريحًا على نحوٍ يدعو إلى الشكر. وأخذ أخنوخ منه كآبه الأحمر. ”أبي وأُمِّي يستريحان؟“

”لا، سيدي. لقد ذهبا ليمشيًا في المُتنزه“.

”والسيِّدة جوليا؟“

”خرجت مع أوكتافيا“.

تحبهم مرقس. ”بإذن والدي؟“

”لست أدري، سيدي“.

فنظرَ إليه مرقس بعينين مرمومتين، وقال بحفاف: ”لست تدري! تعال، تعال يا أخنوخ. أنت تدري كل ما يجري في هذا البيت. هل طلبتَ إذن والدي، وإن نعم فألى أين ذهبتَ مع أوكتافيا؟“

”لست أدري، سيدي“.

نفدَ صبرُ مرقس. ”هل ذهبتَ عبدتها معها؟“

”لا، سيدي. إن هَدَسَة قاعدة على البنك في البهو ذي الأعمدة“.

”سأتكلّمُ إليها“.

ابتسم مرقس ابتسامة خفيفة لما رأى هَدَسَة جالسةً بهدوء على بنكٍ رخاميٍّ بقرب الجدار. أكانت تُصغي إلى التوافير وغناء العصافير؟ بدت مُضطربةً، ويداها مشبوكتان بإحكام في حضنها فيما هي جالسة على البنك الرخامي. فراقبتها بضع ثوانٍ بعد، وأدرك أنها تُصلي أيضًا. وبسبب انصرافها إلى التأمل، تردّد في الاقتراب إليها.

انقبضَ فمه غضبًا على نفسه. أيّ خطبٍ حلّ به؟ إن هَدَسَة كانت عبدة. فلماذا يهتم إذا قوطعت في صلاتها أو في أي شيءٍ آخر؟ إرادته هي المهمّة، لا إرادتها. وسار نحوها بخُطى واسعة عمدًا. فسمعتَه ونهضت. ولما رفعت نظرها إليه، شعر بإحساسٍ غريب داخل صدره. وإذ انزعج، تكلم بنخسونة. ”أين أختي؟“

”هي في الخارج، سيدي“.

فسأل: ”أين في الخارج؟“ ورأى العبسة اليسيرة ترتسم على جبينها. كان في وسعه أن يقرأ أفكارها تقريبًا. إنها لم ترد أن تخون جوليا. فقد أطرقت رأسها صامتة. وجعلها وفاؤها لأخته راغبًا في أن يكون أكثر لطفًا تجاهها. ”لست غاضبًا عليك. أنا قلق على جوليا. من المفترض أن تبقى في الحداد ثلاثة أشهر أخرى، وأشك في أن يكون الوالد قد أعطاها إذنًا بمغادرة الدارة مع أوكتافيا. أنا على حق؟“

عضت هَدَسَة شفتها ترددًا. لم ترد أن تكذب، ولم ترد أن تعصي جوليا. فأطلقت نفسها برقة، وهي مضطربة. ”قالت إنها ذاهبة إلى هيكل هيرا!“

ضحك مرقس ضحكة ناشفة. ”لن تُحجز أوكتافيا مَيتة في هيكل هيرا. إنها تعبد ديانا، أو أي إله أو إلهة آخرين يُعززان فسوقها“. وبينما هو يقول ذلك تمامًا، واجه ما ينطوي عليه الأمر من نفاق؛ لأنه هو نفسه كان يفعل ذلك بعينه إلى أبعد حد. وقد غمره الغضب. فالأمر عند الرجل يختلف عنه عند المرأة. وهو يختلف على نحوٍ خصوصي إذا كان مُتعلقًا بأخته.

”قولي لي أين ذهبتا، يا هَدَسَة. أنا أعلم أنك تُريدين أن تحميها، ولكن أكون من الحماية السماخ لها بأن تفعل أمرًا طائشًا وأخرق؟ وأوكتافيا معروفة بكليهما. قولي لي أين ذهبتا. سأطلب جوليا وأتي بها إلى البيت. أقسم على هذا“. وبينما هو يقول ذلك تمامًا، ساءل نفسه عن سبب تفسير مقصده لفتاة عبدة، أو حتى حلف بين لهما. رفعت نظرها إليه. ”كانتا ذاهبتين للتسوق، ثم إلى ميدان مازس“.

فقال مرقس بازدراء: ”لمشاهدة جنود الفيالق. ذلك ما تهواه أوكتافيا حقًا، وإن كان ذوقها مَيَّالًا إلى المحاربين أكثر. هل قالتا شيئًا آخر؟“

”قالت السيِّدة أوكتافيا إنها تنوي زيارة صديقة.“

فسأل: ”هل تعرفين اسم هذه الصديقة؟“ وهو يخشى أن تكون تلك تغطية لزيارة صديق من الرجال.

”أظن أن اسمها هو كالاباه.“

انفجر مرقس غضبًا. ”وحياة الألهة!“ لقد كانت كالاباه أسوأ من أي رجل سيئ السمعة قد تصطحب أوكتافيا أخته جوليا إلى مُقابلته. وراح يذرع المكان ذهابًا وإيابًا بغضب، وهو يفرك قفا رقبته. ”إن جوليا لا تعلم أدنى علم ما كانت تُقدم عليه“. لا بد أن يستعيد جوليا... على وجه السرعة.

وقفَ أمامَ هَدَسَةَ، وأمسكَ بكَتْفَيْهَا. ”اسْمَعِينِي وَأطِيعِينِي. عندما يرجعُ أبي وأُمِّي، تحببهما. اختبئي في المطبخ. قومي بأيِّ شيءٍ يمكنكِ القيامُ به. فَإِنِ اسْتَدْعَاكَ وَسَأَلَكَ عَنْ مَكَانِ جُولِيَا، تقولينَ لهما إِنَّهَا ذَهَبَتْ لِعِبَادَةِ هِيرَا، عمَامًا كَمَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونِ قَدْ طَلَبْتَ مِنْكَ أَنْ تَقُولِي. ذلكَ هو كُلُّ شيءٍ. لا تذكُري أوكثافيا. لا تذكُري مِيدَانَ مَارَس، ولا أَيَّ شيءٍ آخر. هل تفهمين؟“

قالت هَدَسَةُ: ”نعم، سيدي، ولكن ماذا عن أخنوخ؟“ وهي عالمةٌ أَنَّهُ سيكون على أتمَّ الاستعداد ليقول أَيَّ شيءٍ لَدَسِسُوسِ فاليريان. فَإِنَّ أَخنوخَ لم يكن مودَّةً بالغةً لجوليا، لا هو ولا أَيُّ عبدٍ آخر في البيت. ومن ثَمَّ أَضَافَتْ بِسُرْعَةٍ - وهي لا تُريدُ أَنْ تجلبَ بلاءً على رأسِ أَخنوخِ - ”إِنَّهُ سَيَشْعُرُ بِأَنَّ وَاجِبَهُ يُلْزِمُهُ أَنْ يَقُولَ لِأَبِيكَ إِنَّهَا غَادَرَتِ الدَّارَةَ“.

إِذْ ذَاكَ أَفْلَتْهَا وَسَبَّ هَمْسًا قَائِلًا: ”أَنْتِ عَلَى حَقٍّ. سَابَعْتُ أَخنوخَ فِي مَهْمَةٍ طَوِيلَةٍ - مَهْمَةٍ مُهِمَّةٍ تَقْتَضِي اهْتِمَامًا شَخْصِيًّا مِنْ قِبَلِهِ“. ونظر إليها من جديد، فلمس انفراج أساريرها. ”سيدي، لقد جئتُ استجابةً لصلواتي“.

فَضَحِكَ وَقَالَ: ”أَنْتِ صَلَّيْتِ لِأَجْلِي حَتَّى أَجِيءُ؟“ فتورَدَ خَدَاها وَأَطْرَقَتْ رَأْسَهَا، وَأَجَابَتْ بِكَلَامٍ مُتَلَعِّمٍ. ”مَاذَا قُلْتِ يَا هَدَسَةُ؟ لِمَ اسْتَطَعْتَ أَنْ اسْمَعَكِ“.

”كُنْتُ أَصَلِّي طَالِبَةً الْعَوْنَ لِجُولِيَا، سَيِّدِي، لِأَجْلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ“.

لَوَى فَمَهُ بِشَكْلِ مُحْزِنٍ، وَقَالَ: ”أَمْرٌ مُؤَسِّفٌ! وَهَا أَنَا هُنَا أَعْتَقِدُ أَنَّي كُنْتُ اسْتِجَابَةً لِصَلَوَاتِ خَادِمَةٍ“. وقد أَضْحَكْتَهُ خَبِيئَةً. ثُمَّ رَفَعَ ذَقْنَهَا، فَرَأَى اللَّوْنَ يَزْدَادُ حِدَّةً بَعْدَ ”كَيْفَ أَكُونُ أَنَا اسْتِجَابَةً لِصَلَوَاتِكَ، يَا هَدَسَةُ؟“

”سَتَسْتَعِيدُ سَيِّدَتِي سَالِمَةً“.

”يسرني أن أعلم أن لكِ مثيلَ هذه الثَّقةِ بي“. ورَبَّتْ بِأُطْفِيفِ تَحْتِ ذَقْنَهَا كَمَا كَانَ يَفْعَلُ بِأَخْتِهِ، مَبْتَسِمًا ابْتِسَامَةً سَاخِرَةً. ”رَبْمَا اسْتَطَعْنَا فِي مَا بَيْنَنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ أَنْ نَحْدِ سَبِيلًا إِلَى حِفْظِ جُولِيَا مِنْ بَلَايَا كَثِيرَةٍ“.

كَسَرَ تَصَرُّفُهُ الْأَفْلَاطُونِيَّ حِدَّةً تَوَثَّرَهَا، وَضَحَكَتْ بِزَفْرَةٍ لَطِيفَةٍ، قَائِلَةً: ”مِنْ فَمِكَ إِلَى أُذُنِي اللَّهِ، يَا سَيِّدِي!“

لم يكن مَرْقُسُ قَطُّ قد سمعها تضحك من قبل. وإِذْ نَظَرَ مِنْ عُلَى فِي وَجْهِهَا الصَّغِيرِ السَّعِيدِ، وَسَمِعَ صَوْتَهَا الْعَذْبَ، كَادَ يَمْسِكُ وَجْهَهَا بِرَاحَتِي يَدَيْهِ وَيُقَبِّلُهَا. ومَلَأَهُ التَّغْيِيرُ الَّذِي

أصابها بدفء مؤلم. لم يكن اشتهاً؛ فهو خبيرٌ جداً بتلك العاطفة. إنما هذه كانت شيئاً آخرَ تماماً. فقد كانت شيئاً أعمق، وأكثرَ عموصاً، شيئاً أقلَّ علاقةً بحواسه منه بروحه - أو بنفسه كما كان من شأنها هي أن تدعوها. لقد شدت قلبه فعلاً.

أدرك كم هو قليلٌ ما يعرفه عنها حقاً. وقال: "لم أسمعك قط تضحكين من قبل". ثم ندم على كلماته في الحال، إذ زال عنها مزاجها الطليق.

فأطرقت رأسها، وقد عادت الفتاة العبدة مرةً أخرى. "أنا أسفة، سيدي. إنني..."

قال بلطف: "ينبغي أن تعمدي إلى الضحك أحياناً أكثر". ولما رفعت نظرها إليه متعجبةً، نظر في عينيها. فخطر في باله مئة سؤال، أعقتها ضيق صدر. لم يكن لديه وقت لهذا، ولم يرد مزيداً من التعقيدات في حياته! إن هدسة لم تكن بيثية. فما كان بسيطاً أن تفهم، ولا سهلاً أن تطرد.

"ابقِي بعيدةً عن نظر والدي إلى أن أرجع. فإن لم تكوني في المتناول، لا يمكنهما أن يطرحا أسئلةً".

راقبته هدسة يمضي. لماذا نظر إليها بتلك الطريقة؟ ضغطت قلبها المتسارع الخفقان بيديها، وتهالكت على البنك، وأغمضت عينيها. ماذا كان هذا الذي شعرت به كلما كانت يقربه؟ لم تكد تقوى على التنفس، وصارت راحتا يديها رطبتين، وانعقل لسانها. كان عليه فقط أن ينظر إليها حتى ترتعش. ومنذ هنيهة فقط، كانت قد شعرت بارتياح بالغ حيال تصرفه حتى انطلق الضحك منها. فماذا يمكن أن يكون فكره فيها؟

حتى لو لم ينظر مرقس فاليريان إليها، كان يأخذها الجيشان حين يكون حاضراً. فإنها كانت تريد منه أن ينظر صوبها، ولكن ما إن ينظر حتى تشعر بالخرق والخيبة والخرج. وقد تمت أحياناً لو كان يبقى بعيداً عن الدارة. ولكن متى بقي بعيداً، كانت تشتاق أن تراه من جديد، لتعلم فقط أنه بخير.

لقد تحدث أبوها بشأن افتتاح الفتاة بالجمال الجسماني. وقد نبهها منذ نعومة أظفارها لأن تنظر إلى الرجل الكامن وراء الوجه الجميل ناشدة النفس، قائلاً: "يمكن أن يكون الوجه الجميل قناعاً لشر رهيب".

كان مرقس جميلاً، مثل واحدٍ من التماثيل المنصوبة بقرب الشوق. وقد نظرت أحياناً إليه ناسيةً كل ما يتعلق بنفسه. لم يؤمن مرقس بأن له نفساً، ولا آمن بوجود آخره كما آمن أبوه وأمه. وهي سمعته اتفاقاً يقول مرةً لوالده إنه حين يموت الإنسان فهو يموت. وقال إن ذلك

هو السبب الذي من أجله أراد أن يأخذ من الحياة كل ما يستطيع .

إن الإله الوحيد في حياة مرقس كان هو ذكائه الذاتي . وكان يضحك على إيمان هدسة ويهزأ ”بإلهها غير المنظور“ . وقد آمن بأن الإنسان يصنع نفسه بانتهازه كل فرصة ثقيل إليه . تباهت بيثية بأن لها سلطاناً على مرقس ، وأنها باستخدام الرقية والقربان الصحيحين تستطيع أن تجعله يرغب فيها . ولم تصدقها هدسة ، غير أنها كثيراً ما شاهدتها في الحديقة في الصباح الباكر ، واقفة في الدخان المعطر المتصاعد من مبخرتها . وكان مرقس يذهب إليها حقاً ، مراراً وتكراراً .

ضغطت هدسة خديها الساخنين بيدها . لم يكن لها أي حق في أن تشعر بشيء ما تجاه مرقس فاليريان . وقد صلت طالبة أن يزيل الله المشاعر المربكة التي أضمرتتها نحوه ، وأن يفتح عينها كي تخدم خدمة فضلى . ولكن لم يكن على مرقس سوى أن يظهر حتى يفتقر قلبها من صدرها .

قالت بيثية إن مرقس كان أفضل عشيق حازته على الإطلاق . وقد قالت تلك المصرية أشياء كثيرة لم ترد هدسة أن تسمعها . فهي لم تشأ أن تعرف ما كان يجري بين الجارية وسيدها .

صلت هدسة طالبة أن يُعزم مرقس فاليريان ويتزوج بامرأة صالحة مثل أمه . لم ترد أن تراه يقع تحت رضى بيثية السود . فإن بيثية كانت مثل مضر في الكتاب المقدس ، مغوية وخادعة ، تجر المرء إلى هلاكه . لقد بدت بيثية حكيمة في طرُق هذا العالم ، ولكنها كانت تجهل تماماً ما جلبته على نفسها . ولربما يسر لها التواصل مع قوى الظلام أن تكسب ما ترغب فيه أيها ، إنما بأي ثمن في النهاية ؟

لقد آمنت فيبي فاليريان أن بيثية تملك قدرات شفاء ، وغالباً ما استدعت تلك الجارية إلى مهجع سيدها . ولكن بعد تلك الأسابيع كلها ، لم تتحسن قط صحة دمسس فنداشيوس فاليريان .

كان السيد يؤمن بالتسامح الديني ، ولذلك سمح لكل شخص في البيت بأن يعبد إلهه بطريقته الخاصة . وكثيرون من العبيد كانوا يتعبدون في معابد وهياكل شتى . فقد سمح لبيثية بأن تذهب يومياً إلى مزار إيزيس بقرب ميدان مارس ، كما سمح أيضاً لأخنوخ بأن يحضر الصلوات الصباحية في مجمع صغير على مقربة من النهر حيث كان كثيرون من اليهود الأحرار يسكنون ويعملون . وكانت القاعدة المفهومة لتقائماً بين العبيد في بيت آل

قاليريان: عِشْ وَدَعْ غَيْرَكَ يَعْشِ! ولكنَّ لما بدأتُ بيثية تستخدمُ رُقاها وجرعاتِها لأجل السيّد، تَبَخَّرَ تَسامُحُ أَخنوخِ كمطرٍ في الصَّحراءِ.

وبينما اصطحبَ هَدَسَةُ إلى السوقِ ذاتِ صباحٍ، قال: ”أصليّ طالبًا أن يضرِبها اللهُ ضربةً مُميّتةً قبل أن تتمكّن من إلحاق مزيدٍ من الأذى بالسيّد بفنونها السوداء“.

”أخنوخ، إنّها حقًا تؤمن في قلبها بأنّ ما تفعله سيّشي السيّد. فهي تصومُ وتُصليّ وتتمأملُ كي تكتسبَ قوَى تعتقدُ أنّها وُعدتُ بها“.

”وهل يُشكّل ذلك عُذرًا عمّا تُمارسه عليه؟“

”لا، ولكن...“

”هي مُخادعةٌ ومُشعوذة“.

”إنّها هي المخدوعة، يا أخنوخ. فهي تؤمنُ بألهةٍ زائفةٍ وتعاليمٍ باطلةٍ لأنّها لم تسمعِ الحقَّ قطّ“.

”أنتِ أصغرُ سنًا من أن تفهمي الشرّ الموجود في العالم“.

”لقد رأيتُ الشرّ في وسط مدينة القدس، قبل زمنٍ طويلٍ من تسلُّق الرومان أسوارها فعلاً“.

فضاقتُ عيناه. ”ماذا تقولين؟“

”لو عرفتُ بيثية الرّب، لكانتِ الأمورُ مُختلفةً بالنّسبة إلى السيّد والنّسبة إليها“.

وبرقتُ عيناه ذهولًا: ”ماذا تقترحين؟ أن أجعلَ عاهرًا مصريةً مُهتديّة؟“

”نقولُ الأسفارُ المقدّسة إنّ راعوث كانت مُوآبيّة، ومع ذلك فيمن خالها جاء ملكنا داؤد، ومن نسلِ داؤد المسيح“.

”كان لراعوث قلبٌ مُهيأٌ لله“.

”كيف نعلمُ أنّ ليس لبيثية قلبٌ كهذا؟ كيف كان لراعوث أن تُقبِلَ إلى معرفة الله لو أنّ زوجها وحماتها لم يُخبرها عنه أوّلاً؟“

”لن أفقَ هنا وأناقشُ في المكتوب المقدّس مع طفلةٍ جاهلة، يا هَدَسَةُ. ماذا يمكنك أن تعرفي؟ سامحيني إذا بدوتُ فظًا، ولكنّ قلبك الرقيقُ لن يُغيّرَ طُرُق العالم، ولا طُرُق عاهرٍ مثل بيثية!“

وضعتُ يدها على ذراعه. ”لا أقصدُ أن أناقش، يا أخنوخ“.

العزیز، عالمةٌ أن لو لم يُرسله الله لشرائها ذلك اليوم في سوق النخاسة لكانت قد هلكت منذ أميد بعيد في ساحة المحاربين. ”إن بني إسرائيل كانوا الشهود الذين اختارهم الله له أمام العالم. فكيف يمكننا أن نكون شهودًا للإله الواحد الحقيقي إذا تشبثنا بالحق كما لو كان ملكًا لنا؟ لقد قصد الله أن يعلن حقه في العالم كله.“

فقال أخنوخ: ”هل تودين أن تعطي حتى الكلاب الأعمىين النجسين ما هو مقدس؟“ ثم هز رأسه في إنكار أسيف. ”أصغي جيّدًا، يا هُدسة. ابقي بعيدة عن بيثية. سُدي أذنيك حياها. إنها شريرة. لا تنسي أن التساهل تجاه الشر هو ما أهلك أمتنا. فاحذري أن يهلكك أنت أيضًا.“

كانت هُدسة راغبةً في البكاء. فهي لم تتكلم بشأن يسوع ولو لمرة واحدة. ولم تتفوه قط بكلمة واحدة تبين كيف أقام الرب أباهًا حيا من بين الأموات. فكأنما كان لسانها ثقلاً هائلاً في فمها، والآن بات قلبها أثقل بعد لأنها ظلت صامتة. أكان أخنوخ ليصغي؟ قالت لنفسها إنه لن يصغي. ومع ذلك، بقي السؤال مطروحًا بلا جواب. فإن بيثية لم تعرف الله؛ وأخنوخ لم يعرف مسيحه. ولماذا؟ لأن خوفها من الرّفص والاضطهاد أبقى الحق محجورًا في قلبها. إن المعرفة التي لديها كانت كنزًا مخبئًا، مقصودًا له أن يعلن لِكليهما، وهي تشبّثت به مُستمدّة منه قوتها، إلا أنها كانت أكثر خوفًا من أن تُفرج عنه.

والآن، رفرَف عصفورٌ صغيرٌ إلى داخل البهو ذي الأعمدة، وحط على التمثال الذي كان مرقس يدعوه ”الهوى المُزدرى“. فضغطت هُدسة صُدغيها بأصابعها وفركتهما برفق. كان الفناء المكشوف غنيًا بالضوء واللون وخرير النافورة المهدئ، غير أنها أحست الظلمة حواليتها، مُطبقة عليها. لقد تاقَت إلى عشرة أشخاص آخرين يُشاركونها في مُعتقداتها. وتلهفت إلى شخصٍ ما مُحدّثه بشأن الله بالطريقة التي بها كانت تُحدّث أباهًا.

شعرت بوحدةٍ بالغة. فقد كان لأخنوخ ناموسه وتقاليدُه، وليبيثية آلهتها الزائفة وطقوسها. وكان لجوليا جوعها إلى الحياة، ولمرقس طموحه. ودسّمس لم يؤمن بشيء، فيما انحنت فيبي ساجدةً لأوثانها الحجرية. ومعنى ما، كان الجميع سواسية، حيث كل منهم يستخدم الدين لإعطائه ما يظن أنه يحتاج إليه، من قوّة ومالٍ ومتعةٍ وسلامٍ وبرٍّ... وعُكاز. لقد أطاعوا شرائعهم الفردية، وقدموا قرايبتهم، وأدوا شعائرهم، راغبين كل حين في أن تتحقّق رغباتهم. وكان أحيانًا يبدو كأنهم نجحوا، ثم لا تلبث أن ترى الشوق الخائب في عيونهم.

إلهي، لماذا لا يُمكنني أن أنادي بالحق من على السطوح؟ لماذا لا أملك الشجاعة لأتكلّم

كما كان أبي يتكلم؟ إنني أحب هؤلاء الناس، ولكن ليست عندي الكلمات التي بها أصل إليهم. أخاف أن أتكلّم جهراً وأقول إنهم على خطأ وإنني على صواب. من أنا إلا عبدة؟ كيف أشرح لهم أنني الشخص الوحيد الحر، وأنهم هم الأسرى؟

وفكرت في كلاوديوس وجميع الساعات التي قضياها معاً وهو يسألها عن الله. كل ما قد قالته دغدغ أذنيه فحسب، ولم تُغيّر كلمة واحدة قلبه. فلماذا كانت كلمة الله تغور إلى الأعماق وتُغيّر حياة بعض الناس، فيما يبدو أنها ترتد عن آخرين؟ لقد أوصى الرب بزرع البذار، ولكن لماذا لم يُلين التربة؟

يارب، ماذا ينبغي أن أفعل كي أجعلهم يسمعون؟

خرجت فيبي إلى البهو ذي الأعمدة. وقد بدت متعبّة ومتوتّرة جداً، بحيث نسيّت هدسة تحذير مرقس وتقدّمت إليها. ”هل أحضر لك شيئاً، سيديتي؟ نيذاً بارداً أو شيئاً تأكلينه؟“

فأجابت فيبي بلهجة ذاهلة: ”ربّما بعض النيذ“. وجرّرت أصابعها في الماء. ومضت هدسة مُسرّعة إلى الداخل، فأحضرت لها النيذ. وإذا بها ما تزال جالسة كما كانت تماماً. فحطت هدسة الصينيّة، وسكبت لها شيئاً من النيذ. فتناولت فيبي الكأس، ووضعتها على البَنك دون أن تمسّها. ”هل جوليا تستريح؟“

تجمّدت هدسة. وعضت على شفتها، مُتفكّرة في ما يُحِب به. فرفعت فيبي نظرها نحوها، والفهم واضح في عينيها. ”لا بأس، يا هدسة. أين بيثية؟“

”ذهبت إلى هيكل إيزيس بعيد مغادرتكما، أنتِ والسيد.“

فتنهّدت فيبي قائلة: ”إذا، لن تعود قبل ساعات“. وارتحفت يدها إذ أمسكت بالكأس. ”إن زوجي يحتاج إلى تسليّة. مرضه...“ ثم حطت الكأس من جديد، وأمسكت يد هدسة، فإذا يداها هي باردتان. ”لقد سمعتك تُغنين لجوليا منذ بضعة أماسي، شيئاً بالعبريّة كما أظن. وقد كان جميلاً. إن سيدك مُتعب، ولكنه لا يستطيع أن ينام. لعله يستطيع أن يستريح إذا غنيت له.“

لم تكن هدسة قد غنت لأحد من أهل البيت سوى جوليا، فتوتّرت أعصابها. واقتادتها فيبي إلى الداخل، حيث ناولتها قيثارة صغيرة، وقالت لها همساً: ”لا تخافي!“ ثم عبرت العرقة إلى زوجها. وكان دسّمس فاليريان مُتكلّماً على أريكته، حيث بدا أكبر سناً من سنوات الثماني والأربعين. وقد كان وجهه مُتغضّباً وشاحباً، حتّى بعد صباح تحت ضوء الشمس.

لما

ولم يَكِدْ يُلاحِظْ هَدَسَةَ إِذْ أَطَاعَتْ أَمْرَ فِيبِي الصَّامِتِ بِأَنْ تَجْلِسَ بِقُرْبِهِ. وَقَالَ بَهْدُوعَ: ”أَكُلْ شَيْءٍ بِخَيْرٍ؟“

”كُلْ شَيْءٍ جَيِّدٍ. إِنَّ جُولِيَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى هَدَسَةٍ حَالِيًّا، وَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ مِنَ الْمُتَمَعِّ أَنْ نَسْمَعَهَا تُغْنِي“. ثُمَّ أَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا لِهَدَسَةَ.

كَانَتْ أُمُّ هَدَسَةَ قَدْ عَلِمَتْهَا الْعِزْفَ. فَدَاعَبَتِ الْآلَةَ، تَارِكَةً ذِكْرِيَّاتِ عَائِلَتِهَا تَنْبَعِثَ وَتَسْتَرْجِعُ لِحْنِ تَعْبُدِهِمْ وَتَسْبِيحَاتِهِمْ مَعًا. وَإِذْ نَقَرَتْ بِضِعَّةٍ أَوْتَارِ بَسِيطَةٍ، رَسَخَتِ النَّعْمَاتِ وَبَاشَرَتِ التَّرْنِيمَ بَهْدُوعَ. ”الرَّبُّ رَاعِيٌّ فَلَا يُعْوِزُنِي شَيْءٌ...“ وَقَدْ رَمَّتْ بِالْعِبْرِيَّةِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِالْيُونَانِيَّةِ، وَأَخِيرًا بِالْأَرَامِيَّةِ، اللَّغَةِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ بِهَا فِي كُلِّ مَا مَضَى مِنْ عُمْرِهَا. وَلَمَّا فَرَعَتْ، أَطْرَقَتْ رَأْسَهَا وَشَكَرَتِ اللَّهَ فِي السَّرِّ عَلَى السَّلَامِ الَّذِي أَعْطَاهَا إِيَّاهُ مَزْمُورُ الْمَلِكِ دَاوُدَ.

عِنْدَمَا رَفَعَتْ نَظْرَهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَجَدَتْ فِيبِي تَتَأَمَّلُهَا، ثُمَّ تَقُولُ لَهَا هَمْسًا: ”لَقَدْ نَامَ“. وَإِذْ مَسَّتْ شَفَتَيْهَا بِرَأْسِ إِصْبَعِهَا، أَصْدَرَتْ إِيمَاءَةً صَرَفٍ لَطِيفَةٍ. فَوَضَعَتْ هَدَسَةُ الْقِيثَارَةَ الصَّغِيرَةَ عَلَى كُرْسِيِّ مُنْخَفِضٍ، وَغَادَرَتِ الْغُرْفَةَ بَهْدُوعَ.

أَلْقَتْ فِيبِي حِرَامًا عَلَى دَسِمُسَ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى الْكُرْسِيِّ وَالتَّقَطَّتِ الْقِيثَارَةَ الَّتِي عَزَفَتْ هَدَسَةَ عَلَيْهَا، فَضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا وَعَادَتْ لِتَقْعُدَ بِقُرْبِ زَوْجِهَا، وَالدَّمُوعَ تَنْهَمُرُ عَلَى خَدَيْهَا.

كَانَتْ كَالآبَاهِ شَيْفًا فُتْنَانِيوسَ أَرُوعَ امْرَأَةً قَابَلَتْهَا جُولِيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

”لَيْسَتْ الْحَيَاةُ كُلُّهَا إِلَّا مَرَحَلَةٌ مِنْ صَيْرُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَتْ جَدِيدًا“. هَكَذَا قَالَتْ كَالآبَاهِ لِمَجْمُوعَةِ النِّسَاءِ الصَّغِيرَةِ الْمُجْتَمِعَةِ عِنْدَهَا. ثُمَّ أَضَافَتْ: ”بُوصِفْنَا نِسَاءً، نَحْنُ نَمْلِكُ أَعْظَمَ إِمْكَانِيَّةٍ لِبُلُوغِ الْأُلُوهَةِ، لِأَنَّ الْأُنْثَى هِيَ مُنْجِبَةُ الْحَيَاةِ“.

أَصَعَتْ جُولِيَا بِانْتِشَاءِ إِلَى أَفْكَارِ كَالآبَاهِ الْمُتَسِمِّةِ بِالْتَمَرُدِّ. وَقَدْ تَكَلَّمَتْ كَالآبَاهِ بِفَصَاحَةٍ مُقَدِّمَةً فِلْسَفَاتٍ جَدِيدَةٍ وَجَذَابَةً دَعَدَعَتْ خِيَالَ جُولِيَا.

كَانَتْ أَوْكَتَافِيَا قَدْ أَخْبَرَتْهَا الْكَثِيرَ عَنِ كَالآبَاهِ فِي طَرِيقَهُمَا مِنْ مِيدَانِ مَارْسَ. ”إِنَّهَا غَنِيَّةٌ، وَلَدَيْهَا عَشَاقٌ كَثُرَ، وَهِيَ تَتَوَلَّى إِدَارَةَ شُؤُونِهَا الْمَالِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَشْمَلُ بِضِعْ مَصَالِحَ مُرِيحَةٍ“.

”أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْمَصَالِحِ؟“

”لَيْسَتْ عِنْدِي آيَّةُ فِكْرَةٍ، وَمِنَ الْفِظَاظَةِ أَنْ أَسْأَلَ. فَمَهْمَا عَمَلْتِ، تُحْسِنُ عَمَلَهُ لِأَنَّهَا تَعِيشُ عِيشَةً مُرْفَهَةً“.

لَمْ تَكُنْ جُولِيَا مُتَبَيِّنَةً بِمَا تَتَوَقَّعُ أَنْ تَجِدَهُ عِنْدَ مُقَابَلَةِ كَالآبَاهِ، وَلَكِنَّ كُلَّ مَا أَحَاطَ بِهَا بِدَا

فريداً. فقد كانت طويلة القامة ورياضية البنية. وبدل أن تصفر شعرها مرفوعاً بطريقة مُتقنة، كما كانت مُعظم الرومانيات يفعلن، صَفَفَتْ شعرها نازلاً في جديلة بسيطة، وقد كان على درجة جميلة من اللون الكستنائي. ولم تكن هي جميلة حقاً. فقد كانت عيناها خضراوين داكنتين تقريباً، وبشرتها سمراء جداً، وحنكها مُطبَّقا بشدة، ولكن حيوياتها وشخصيتها جعلتاها فاتنة. وكان يبدو أنها تملأ بحضورها عُرفة كاملة.

قالت أوكتايفيا إنَّ أحدًا لا يعرف بالحقيقة أيُّ شيء عن خلفيتها كالاباه. وقد زعمت شائعةٌ أنها التقت أوريوس ليقيوس فونتانيوس في مهرجانٍ كانت راقصةً فيه. فأعجب هو بقدراتها الجمنازية المرنة، وأعجبت هي بماله.

ومهما كان تاريخ المرأة، ففي غضون بضعة دقائق من لقاءها، أعجبت بها جوليا كثيراً. فهذه امرأةٌ مُتصِّفة بكل ما تافت جوليا أن تكونه: غنية، مطلوبة، مُستقلة.

قالت كالاباه لضيفاتها: ”كلُّ حياةٍ تُولَّد من خلال امرأة“. فتلقت منهنَّ نَعَمًا رقيقةً تجاوبًا، ثم تابعت: ”عندما يموت رجلٌ ما فهل يُنادي أباه؟ لا! إنه يُنادي أمه. ففي كلِّ واحدةٍ منّا تكمن الإمكانية غير المكبوحه المتعلقة بمن نحن بالحقيقة: إلهات نسينا هوياتنا الحقيقية في حياتنا السابقة. إنَّ المرأة هي ينبوع الحياة، وهي وحدها تملك بذور الألوهة التي يمكن أن تنمو وترفعها إلى الصُّعد السماوية. فنحن حاملات الحقيقة الأزلية“.

كان في وسع جوليا أن تتصوّر ما سيقوله مرقس حيال أفكار كهذه. وقد جعلها التفكير في ذلك تبتسم قليلاً. فالتفتت كالاباه نحوها ورفعت حاجبًا قائما، وقالت مُستفسرةً: ”أنت لا تُوافقين، أيتها الأخت جوليا؟“

شعرت جوليا بالارتباك تحت حملقة كالاباه الثابتة، وطرحت سؤالاً لِتتحمأها. ”لم أفرز بعد، ولكني أودُّ لو أسمع المزيد. كيف نبلغ هذه الألوهة التي تتحدثين بشأنها؟“

فقالت كالاباه ببساطة: ”بعدم التنازل عن سُلطتنا للرجال“. وقد كانت ابتسامتها لطيفة، لا مُتفضلة. ثم نهضت وطافت أمام الأرائك المشغولة في العُرفة، قائلة: ”علينا أن نُحقِّق أقصى إمكانياتنا في جميع المجالات كي نكسب ألوهتنا. علينا أن نُدرِّب عقولنا، ونُمرِّن أجسامنا، ونتواصل مع الآلهة بواسطة التأمل والقرايين“. وتوقفت بقرب أوكتايفيا، وربتت كتفها. ”لنُكثر قليلاً من الانضباط والجديّة، ونقلل من نشدانِ المتعة“.

توردُ خدًا أوكتايفيا، فيما ضحككت الأخرىات. وشُجبت يدها حول الكأس الذهبية. ”أنت تسخرين بي، يا كالاباه؟ لستُ مملوكةٌ كأخرىاتٍ أعرفهن“. ونظرت إلى جوليا نظرة

ثاقبة. ”لي حياة خاصة بي، وأنا حرة في أن أفعل ما أشاء. فلا أحد يقول لي متى أقوم ومتى أقعد“.

فابتسمت كالاباه قليلاً. ”جميعنا كنا تملوكات في وقت ما، عزيزتي أوكتافيا. هل تملكين زمام السيطرة على شيور كيسي نفودك؟“

برقت عينا أوكتافيا إذ رمقت المرأة الأكبر سنًا بنظرة فاحصة. وقد كانت كالاباه على علم وافٍ بوضع أوكتافيا المالي الحقيقي، إذ تناقشتا فيه في خلوة خاصة قبل بضعة أيام. فكيف أمكن كالاباه أن تثيره الآن أمام جوليا والباقيات؟ عندئذ قالت، شاعرة بإفشاء سرها: ”سؤال لطيف وحاذ“.

فابتسمت لها كالاباه ابتسامة تفضل، وقالت: ”خير لك أن تستعملي رأسك وتتزوجي بدلاً من تبديد ذاتك على أكالة الشعير“، مُشيرةً بالتحديد إلى علاقات أوكتافيا العديدة بالمحاربين.

وتورّدت أوكتافيا. ”كنت أحسب أنك صديقتي!“

”أنا كذلك. ألا تقول الصديقة الحق؟ أم تفضلين الأكاذيب والتملق؟“

رفعت أوكتافيا نظرها مُحدقةً إلى كالاباه. لقد جاءت متوقّعةً منها أن تُسرّ برويتها، وجاءت أيضًا مسرورةً بأن تُمزق جوليا لفظيًا. ولكن كالاباه بالأحرى رحبت بجوليا وصوّبت كلماتها اللاذعة نحو نفس أوكتافيا غير المستحقة. وإذا بغضب أوكتافيا إزاء عدم إنصاف الوضع يُطلّق لسانها من عقاله. ”مُحارب شاب قوي خيرٌ من رجلٍ مُسن ضعيف“.

شهقت النساء حيال الإهانة التي وجّهتها أوكتافيا، ولكن كالاباه ضحكّت ضحكة رقيقة. ”عزيزتي أوكتافيا، ما زلت حساسة جدًا إلى أبعد حدّ. وسيستخدم الرجال ذلك سلاحًا ضدك. حذار، أيّتها الأخت الكريمة! إن استمررت عائشة حسب عواطفك، فسينتهي أمرُك إلى لا شيء سوى ذكرياتٍ متعةٍ بين ذراعي رجلٍ مات من أمدٍ بعيد“.

رشفت أوكتافيا خمرتها، ولم تُقل كلمةً أخرى، غير أن استياءها اضطرم في داخلها. كان أمرًا حسنًا جدًا أن تقول كالاباه إن الفتاة يجب أن تتزوج. ولكن لم يكن ذلك سهلًا جدًا بالنسبة إلى أوكتافيا. فلم يكن لدى أبيها مالٌ يُقدّمه مهرًا، وما كان أي رجلٍ ليتقدّم بنقّة عروسٍ فيما كل ما يَسعها أن تعرضه كان أبا غارقًا في الديون تمامًا بحيث يُرجح أن يُطلب منه الانتحار إنقاذًا لسرفه.

والتفتت إلى جوليا، فإذا بها تُراقب كالاباه بافتتانٍ طفلةٍ صريح. فقد كانت تبتلع كل

فكرة تطلقها كالاباه، وعيناها تتلألآن بما يمكن أن يكون بدلاً مما هو كائن. وبدت كالاباه كأنها تتكلم إليها وحدها. فانزمت شفقتا أوكتافيا.

لقد كانت الحياة غير منصفة.

ومضت كالاباه تقول: "لقد هبط ألهتنا وإلهاتنا إلى الأرض ليرونا أن في وسعنا أن نرفع أنفسنا إلى العلى حيث هم بقوة عقولنا الخالصة. صحيح أن الرجال أقوى من النساء جسمانياً، ولكن أهواءهم تتحكم فيهم. فليس جويتير هو من يسيطر على السماوات بقدرته، بل هيرا بعقلها".

رشت جوليا خمرتها. وقد كان لها مذاق متخيم جعلها تشعر بتشوش في رأسها. ثم طرحت إحدى الأخرجات سؤالاً، فمال النقاش إلى السياسة. وإذ ذهلت جوليا لحظة، حدثت إلى أنحاء الغرفة، فأدركت أن الجدران كانت مكسوة بجداريات تصور الشهوة الجنسية. وقد كان في الجدارية التي قبالتها مباشرة مشهد رجل وامرأة متصافرين. وكان وراءهما مخلوق مجنح ذو ملامح غريبة على نحو مخيف، وله جسم هو رجل وامرأة في آن معاً. ولم تستطع جوليا أن تحوّل عينيها عن تلك الجدارية، حتى اجتذب الضحك انتباهها الذاهل. فقد كُن كلهن يراقبها.

وفي محاولة لاستعادة شيء من الوفاق، سألت جوليا: "إله خصب؟"

فأجابت كالاباه بابتسامة ساخرة: "تصوير زوجي لإروس".

نهضت سيدتان للمغادرة. وقبّلت إحداهما كالاباه في فمها، هامسة لها بشيء ما. فهزّت كالاباه رأسها ورافقتها نحو الفناء، حيث كان عبد ينتظر لإيصالهما إلى الباب.

ونهضت أوكتافيا قائلة: "علينا نحن أيضاً أن نمضي". لقد كان النهار كارثة من أوله، وبات رأسها ينبض بشدة. فكل ما أرادت القيام به كان التخلص من جوليا والذهاب إلى البيت.

التفتت كالاباه إليهما وقد بدت عليها أمارات الخيبة. "لا ينبغي أن تغادرا الآن بعدما صرنا وحدنا. لم تتح لي فرصة التعرف إلى صديقتك، يا أوكتافيا".

"لقد تأخرنا، ولم يكن مفترضاً أن نخرج من بيتها في المقام الأول". قالت أوكتافيا هذا بانفعال سريع.

وقالت جوليا: "أنا في حداد. أو ينبغي أن أقول: يفترض أن أكون في حداد". ثم

ضحكت بارتباك.

وضحكت كالاباه أيضًا. ”إنها مبهجة، يا أوكتافيا. أحسنتِ جدًا باصطحابها إلي.“
ثم أمسكت يد جوليا وجذبتها إلى الأريكة من جديد. ”اقعدي قليلاً بعدُ، وخبريني عن نفسك.“

قالت أوكتافيا بانزعاج: ”جوليا، علينا أن نغادر.“

وتنهذت كالاباه بسأم. ”غادري أنت، يا أوكتافيا. لقد سئمتُ حدةً طبعك.“

فأحسنت أوكتافيا بحرقه شديدة في عينيها، وقالت شاكيةً: ”أعاني صداعًا!“

”إذًا، مهما كلّف الأمر، اذهبي إلى البيت واستريحي. لا داعي لأن تقلقي على جوليا. سأعتى بإعادتها سالمّة إلى بيتها. فالآن، اذهبي يا أوكتافيا. لدينا، جوليا وأنا، كثيرٌ نتحدّث به. وحينما تأتيين في المرّة التالية، يا أوكتافيا، أرجو أن تأتي في مزاج أحسن.“

وإذ اندفعت أوكتافيا خارجةً من الغرفة، اعتذرت كالاباه إلى جوليا. ”أتريدين قليلاً من النبيذ بعدُ؟“

”نعم، شكرًا لك. إنه طيبٌ جدًا.“

”يسرّني أنكِ أحببته. لقد أضفتُ إليه بعضَ الأعشاب المخصوصة كي يفتح الذهن.“ وأخذت تطرح أسئلةً وجوليا تُجيب، شاعرةً بمزيدٍ من الاسترخاء بمرور الوقت. وقد كان سهلاً التحدّث مع كالاباه، حتّى وجدت جوليا نفسها تُفصي إليها بتوجّساتها.

ونصحتها كالاباه قائلةً: ”إنّ مقاتلتك لأبيك لن تُكسبكِ ما تُريدن. عليكِ أن تستخدمِي المنطقَ والمُحاجةَ لكسبِ احترامه. عاملِيه بلطف. أحضري له هدايا صغيرة، واقعدي معه، وأصغعي إلى بلاياه. اقضي بعضَ الوقت في معيته. استرضيه. ثمّ اطلبي ما تُريدن، فلا يرفض طلبك.“

دخلَ الغرفةَ بعدُ، وظلَّ واقفًا بصمتٍ على مقربة، حتّى سألته كالاباه عن سبب حضوره، فقال: ”مرقسُ لوشيانسُ قاليريان هنا، سائلًا عن أخته.“

عمّمت جوليا بضيقي سريع: ”أه، وحياةِ الآلهة!“ ثمّ نهضت، إلا أنّها تهالكّت على الأريكة ثانيةً، ورأسها يدور، قائلةً: ”أه، أظنُّ أنّي أكثرُ من شرب النبيذ.“

ضحكت كالاباه وربّنت يد جوليا. ”لا تقلقي بشأن أيّ شيء، يا جوليا.“ ثمّ أوامات برأسها للعبد. ”ادخلِ أخواها إلى هنا.“ وأمسكت بيد جوليا، وضغطتها قليلاً. ”سنصير،

أنتِ وأنا، صديقتين طيبتين، يا جوليا.“ ثم أرختها ونهضت فيما رافق العبدُ مرقس إلى داخل الغرفة. ” ما أحسن أن تأتي لزيارتي، يا مرقس!“ قالت هذا بلهجة ملؤها المرخ الساخر.

”جوليا، نحنُ مُغادِران!“

فقالت كالاباه: ”وأسفاه يا جوليا! يبدو أن أخاك لا يستسيغني. أعتقد أنه يخشى أن أفسدك بالأفكار الجديدة عن الأنوثة ودورنا في المجتمع.“

أجالت جوليا نظرًا فيها، وقالت بتلفظ غير واضح قليلاً: ”أنتما تعرفان بعضكما بعضًا؟“ فأجابت كالاباه، وبسمتها تملوءة سُمًا: ”بالشهرة فقط. فأنا أعرف أريا. وأعرف فانيا. وأعرف عددًا كبيرًا من النساء اللواتي عرفن أخاك.“

تجاهلها مرقس وتقدّم إلى أخته وترنّحت إذ نهضت. فسألها برقة: ”ما بك؟“

فقالت كالاباه عرّضًا: ”لقد أكثرت من شرب النبيذ قليلاً.“

أمسك مرقس بجوليا من ذراعها. ”أفي وسعك أن تمشي، أم ينبغي لي أن أحملك من هنا؟“

سحبت جوليا ذراعها بغضب. ”لماذا ينبغي أن يستبدّ بي كل واحدٍ ويأمرني؟ لقد كنتُ أمتع نفسي أول مرة منذ شهر، فجتت أنت مُقتحمًا وأفسدت الأمر.“

طقطقت كالاباه بلسانها على كليهما، وتقدّمت إلى جوليا. فوضعت يدها على ذراع جوليا وتكلّمت بطريقة مهذّبة. ”هنالك دائمًا يومٌ آخر، أيتها الأخت الصغيرة. اذهبي بسلام، وإلا استسلم مرقس لتلك الأهواء التي تناقشنا فيها سابقًا، وحملك إلى الخارج على كتفه كما لو كنتِ كيس حنطة.“ ثم قبّلت خدّ جوليا، وعيناها تتلألآن ضحكًا حيال النظرة التي ارتسمت على وجه مرقس. ”أهلاً وسهلاً بك لزيارتي في أي وقت.“

أمسك مرقس، وهو مضطرب، ذراع جوليا، ورافقها بثبات من الغرفة. ولما وصلا إلى الباب الأمامي، كانت راكضة تقريبًا. ثم رفعها إلى داخل الهودج المغطى الذي كان بانتظارهما خارجًا، وقعد بجانبها. وقد تبعهما عبد كالاباه بسرعة، وناول جوليا صرّرها. ثم رفع العبيد الأربعة عصوي الحمل إلى أكتافهم وباشروا رحلة العودة إلى البيت.

قالت جوليا مُقطّبة: ”أنت أسوأ من الوالد“، وقد حدّقت إليه قليلاً قبل أن تُحملي عبر الستارة الرقيقة. ”لم أخرج قط هكذا في حياتي!“

فقال بجفاء: ”ستعيشين بعد هذا الحرج.“ وكان يعرف جوليا جيّدًا على نحو كافٍ

روما

بحيث لا يمنعها أن ترى كالاباه ثانية. فأن يمنعها أمرٌ يعني أن يضمّن إقدامها على المخالفة. ”أقترح أن تُباشري التفكير في قصّة جيّدة تحمّينها للوالد والوالدة، إلّا إذا كنتِ تريدين أن تقضي كاملَ فترةِ حدادكِ محبوسةً في عُرفتِك وعندَ البابِ حارساً!“
 رمقته جوليا بنظرةٍ مُتمردة. ”حسبتُك في صَفِيّ.“

”أنا كذلك، ولكنّ كلَّ التقدّم الذي أحرزته مع الوالدِ مَحَوته بهذه الحماقة اليوم. فأطبقي فمكِ، وباشري التفكير في ما ستقولينه لوالدينا حين نصلُ إلى البيت.“
 قالت جوليا: ”كيف عرفتِ أين تجديني؟“ ثمّ ومضت عيناها. ”هدسة!“

فقال بخشونة: ”إنّها لم تُفشِ سِرِّك!“ إذ رأى أنّه من غير المُستبعد أن تُلقِي جوليا اللومَ كلّه على اليهوديّة الصّغيرة. ”لم تقل لي شيئاً حتّى أرغمتها. وعندئذٍ فعلت ذلك فقط لأنّها تُريد حمايتك. إنّ هدسة، شأنها شأنِي، تعلمُ جيّداً ما سيّجري إذا انكشفَ أمرُكِ.“

رفعت جوليا رأسها. ”قلتُ لها أن تقولَ لأبي وأُمِّي إنّي ذهبتُ لأتعبّد في هيكل هيرا.“
 ”ذلك تماماً هو ما قالته لي: هيكل هيرا!“ وأطلقَ ضحكةً ساخرة. ”إلّا أنّي أحسنتُ التقدير، وكذلك سيفعلُ الوالدُ إذا حكّت له هدسةٌ تلك القِصّة الواهية. لقد قال لي أخنوخ إنَّ أوكثافيا جاءتكِ زائرة، وكلُّ مَنْ في روما يعلمُ أنّ صديقتك ليستَ معنيّةً بالشُّجود لإلهة الموقد أو البيت أو الإنجاب!“

”ليستَ صديقتي بعدَ اليوم.“

”ماذا تعنين؟“

أجابت جوليا بنّرةٍ من ذقتها: ”ذلك تماماً. لقد سمعتُ إمعانها في التفضّل عليّ واصطناع الكبرياء. ثمّ إنّ كالاباه أكثرُ إثارةً للاهتمام بكثير.“

انتفضتَ عضلةً في خده. ”أرى أنّك أعجبتِ بفكرتها في تفوّق النساءِ على الرجال. لقد أعجبتكِ فكرةُ التمكّن من أن تصيري إلهة.“

”أعجبتني فكرةُ إمساكي بزمام السّيطرة على حياتي الشخصية.“

”من غير المرّجح أن يحصلَ هذا في أيّ وقتٍ قريب، أختي العزيزة. ليسَ قبلَ أن تتمكّن من إعادةكِ إلى البيتِ دونَ أن يراكِ أحد.“

غير أنّهما لم يتمكّنا من ذلك. فقد كانت فيبي تنتظرهما. ”ذهبتُ إلى عُرفتِك قبل قليل، فلمَ تكوني هناك. أين كنتِ، يا جوليا؟“

اندفعت جوليا تحكي قصتها عن التعبد لهيرا، ثم أضافت أنها ذهبت إلى السوق لاحقاً للبحث عن تعويذة شافية لأبيها. ولدَهشية مرقس، أخرجت من كيسٍ جلديٍّ صغيرٍ قلادةً من العقيق الأحمر، وناولت أمها إيَّاهَا. ”أكد لي البائع أن هذا الحجر الكريم شافٍ على نحوٍ رفيع الإتيان. فإذا لبسَ والدي القلادة، فعسى أن تتحسن صحته.“

أمسكت فيبي بلورة العقيق الأحمر بيدها، وتأملتها طويلاً. ولم تشأ أن تطرح أيَّ أسئلةٍ بعد، إذ أرادت أن تُصدّق أنّ ما حفز جوليا على مغادرة البيت كان الرغبة في التعبد و شراء هديةٍ لدمسُس، ولكنها علمت في صميم قلبها أنّ واقع الحال لم يكن هكذا. فإن قلادة العقيق الأحمر جاءت من كيسٍ مملوءٍ بقلائدٍ أخرى اشترتها جوليا لنفسها. وفي الحقيقة أنّ ”الهدية“ كانت رشوة، أو فكرةً مستدرّكة.

أطلقت فيبي نفسها ببُطء، وناولت ابنتها بلورة العقيق الأحمر من جديد. ”أعطي أباك هذه القلادة عندما ينتهي حدادك، يا جوليا. فإن أعطيتَ إيَّاهَا الآن، فسيُريدُ أن يعرف متى وأين اشتريتها.“

قبضت جوليا على القلادة بيدها قبضاً مُحكماً، وقالت مُفعمَةً برثاء الذات الغاضِب: ”أنت لا تُصدّقينني، أليس كذلك؟ إنّ أمي بذاتها تفكر أسوأ الأفكار بشأنني!“ ثمّ دسّت القلادة العقيقيّة من جديد في كيسٍ مُدخراتها، مُتوقّعةً من أمها أن تحتجّ. ولما لم تفعل فيبي ذلك، قفزت الدموع في عيني جوليا. ورفعت رأسها فرأت الخيبة في عيني أمها. لقد جعلها الشعور بالذنب تتورّد خجلاً، ولكنّ التمرّد جعلها مُعاندةً. ”أرغب في الذهاب إلى عُرفتي. أم يجب عليّ أن أطلبَ إذنك كي أفعلَ هذا أيضاً؟“

فقالَت فيبي بهدوء: ”أنت معدورة، يا جوليا.“

اندفعت جوليا خارجةً من العُرفة وسارت في الرّواق. وراقبت فيبي ابنتها الشابة الجميلة تمشي مُبتعدةً وهي مُتسامخةٌ بغضب. لقد أعيت من مُحاولاتها أن تجعل جوليا تتعقل. وقد ساءلت نفسها أحياناً هل يملكُ كلا ولديها ضميراً. فلم يبدُ قطُّ أنّهما يُدركان عواقبَ أفعالهما بالنسبة إلى الذين حوَالِيهما، ولا سيّما دمسُس. ثمّ رفعت نظرَها إلى مرقس، وسألت: ”هل ذهبتَ إلى الهيكل كي تتعبّد؟“ ثمّ هزت رأسها ودارت لِمِضمي، قائلةً: ”لا بأس، لا أريدُ أن أضعك في موقعٍ يضطرك إلى الكذب من أجلها.“ واجتازت العُرفة إلى كرسيّ، ثمّ تهالكت عليه. إذ رأى مرقس أمه مُعتمّةً جداً، ساوره القلق بشأنها. ”أمّاه، إنّها صغيرة السنّ. وفترة الحداد التي فرضها أبي عليها غيرُ معقولة.“

لم تقل فيبي شيئاً إلى حين. لقد صارعتُ مشاعرَها الذاتية. وكثيراً ما كانت تتفقُ مع ابنها، لأنَّ دَسْمُسَ ربِّما كان قاسياً في إملاءاته، غيرَ مُدخِلٍ في حسابه حماسَةَ الشباب والفوارقَ الفردية. ولكن لا مَرُقُسَ ولا جوليا فهما أين تكمنُ القضيةُ الحقيقية. ومن ثمَّ رفعت فيبي رأسها ونظرتُ إلى مَرُقُسَ برزانة. ”أبوك هو رأسُ هذا البيت“.

قال مَرُقُسُ: ”أنا أفهمُ ذلكَ جيِّداً جداً“. فإنَّ ذلكَ كان أحدَ الأسبابِ التي من أجلها كان يقضي وقتاً قليلاً جداً في الدَّارة واشترى مساكِنَه الخاصَّة.
”إِذَا، احترمِه وأطعِه“.

”حتَّى حين يكون مُخطئاً؟“

”تلكَ وجهةُ نظرٍ، وجوليا ابنته. فتدخلكَ إنَّما يجعلُ الوضعَ أسوأً“.

فأطبقَ يدهَ بإحكامٍ، وقال بغضبٍ: ”أتلومينني على ما حدثَ اليوم؟ لم أشجّعها قطُّ على عدم طاعة والدي!“

وقفتُ فيبي. ”بالحقيقة، شجّعتها، وإن كُنْتُ أشدَّ عَمَى من أن ترى ذلكَ بنفسك. كلِّما جادلتُ أباك علناً واتهمتهُ بِمُخَالَفَةِ المنطقِ والإنصافِ، شجّعتَ جوليا على تحدّيه وإرضاء ذاتها. وأينَ ذهبتِ اليوم، يا مَرُقُسُ؟ فماذا يُرضي جوليا؟“
”أتملكين ثقةً ضئيلةً جداً بأخلاقيات ولديكِ؟“

ساوَر الألمُ بِسَمَةِ فيبي. ”بشأنِ أيِّ أخلاقياتٍ تتحدّثُ، يا مَرُقُسُ؟ أتلكَ القديمة التي تقول إنَّ على الأولاد أن يُطيعوا آباءهم، أم الجديدة التي تقولُ لك أن تفعلَ ما يسرُّك؟“

”أنا راشدٌ يا أمّاه. وجوليا في السادسة عشرة، وهي امرأةٌ مُترقّلة. فلا واحدَ من كِلينا قاصرٍ، وإن كُنْتُمَا- أنتِ ووالدي- تبدوان مُصيرين على رؤيتنا على تلك الحال. كِلانا فردٌ مُستقلٌّ بذاته، ولنا الحقُّ في أن ننشُدَ السعادةَ بطريقتنا الشخصيةً“.

فوقفتُ فيبي مُقابِلَه، مُحزّنةً وذاهلة. ”مهما كان الثمنُ بالنسبة إلى الآخرين؟ بل بالنسبة إليكما أنتُمَا أيضاً؟ إنَّك تسيّرُ بابتهاجٍ في السبيل الذي اخترتهَ لنفسك، جازاً جوليا عليه معك، وأنت لا ترى ما يكمنُ بانتظارك. إنَّك فقط ترى متعةَ اللحظة الحاضرة، دونَ أَلَمِ المُستقبل!“

أمالَ مَرُقُسَ فَمَهَ بابتسامَةٍ واهنة: ”لقد نسيتِ، يا أمِّي، ما يعنيه أن يكونَ المرءُ شاباً“.

”لم أنس ذلك، يا مرقس. لا، لم أنس! ليس الشباب بدواءً عامًّا لأيّ جيل. ولكنّ العالم اليوم أكثر تعقيدًا بكثير، وأكثر امتلاءً بالتأثيرات المهلكة. وجوليا تتقلقل بسهولة مُفرطة“. ثمّ وضعت يدها على ذراعه، وأضافت: ”ألا يمكنك أن ترى أنّ أباك لا يريد أن يُبدد سُرورها، بل أن يحميها من الأذى فحسب؟“

”أيّ أذى في خروج فتاةٍ شابّةٍ مع صديقة لها لشراء طرائف صغيرة ومُشاهدة الجنود يُمارسون تمارين التّدريب في ميدان مارس؟“

لم يكن لدى فيبي مزيد من الكلمات للتفسير. فأطرقت رأسها، عالمة أنّ المزيد من المحاجة عديم النفع. ولدى أمارات هزيمتها، انحنى مرقس وقبل حذها. ”إنّي أحبّك، يا أمّي، وأرى وجهة نظرك، ولكنّي لا أعتقد أنّك تمنحين جوليا كثيرًا من الثقة“.

”إنّها قويّة الإرادة فوق كلّ حدّ“.

”هل تكونين أنتِ وأبي أكثر سعادة بوجود ابنةٍ ضعيفة العقل؟ إنّي أشك في ذلك. حتّى الآن، لم تكن لجوليا أيّة حرّية على الإطلاق. فكيف يسعها أن تتعلّم كيف تتصرّف بها إن لم تمنحها أصلًا؟“

”إنّ مقدارًا يفوق الحدّ من الحرّية يمكن أن يكوّي الضمير“.

”كما أنّ مقدارًا يقل عن القليل يمكن أن يذوي العقل“.

”وإذا قبل أبوك أن يقصّر فترة حدادها ويسمح لها بمزيد من الحرّية، فماذا تفترض أنّها ستفعل بها؟“

فكّر مرقس في كلاباه شيقا فنتانوس. وقال: ”في وسعكما أن تضعا بعض الشروط. بعض الناس مقبولون، وبعضهم لا يقبلون“.

قالت: ”سأتناقش مع أبيك في الأمر لاحقًا هذا المساء“. فإنّ تحرير جوليا قد يكون هو السبيل الوحيد لبلوغ مقدارٍ من السلام في البيت، وإن كان أفضل من ذلك بعد العُثور لها على زوجٍ آخر...

IV

رفع أترتيس رأسه عن طاولة التّدليك ونظرَ بارتياب إلى باتو. ”يريدُ المالك أن يدفع لي عشرين أوريوسًا لأبيت ليلةً واحدةً في فُنْدُقه؟ فماذا يريد مني أن أفعلَ وأنا هناك؟“

أجاب باتو: ”لا شيء، سوى الجلوس في غرفة سُفْرته والنوم في أحد أسرة الفندق. ستلقَى كثيرًا من مثل هذه العروض، يا أترتيس. لقد انتقلت إلى صفوف القِلّة المُميّزة، تلك التي تضمّ الذين يظلّ عددُ قتلاهم يتزايد. ففي حسابك الآن واحدٌ وعشرون قتيلًا، أليس كذلك؟ وكلّما زاد عددُ الذين تقتلهم، تعاضمت شهرتُك. والشهرة تجلب الثروة“.

ألقى أترتيس رأسه على الطاولة من جديد، وأغمض عينيه. وبينما المدلّك يُربّت عضلاته بقوة ويُدلكها بمهارة، سأل: ”وهل تجلب الحرّية؟“

”ربّما في نهاية المطاف. إذا استمرت الألهة تبتسم لك“.

فشتّم أترتيس وقال: ”الألهة مُتقلّبون. ماذا يلزمُني حتّى أكسب حرّيتي بنفسِي؟ كم سيُكلّفني الأمر؟ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟“ ثمّ دفع مُدلّكه جانبًا، وهو يجلس. والتفت المدلّك إلى باتو، ولكنّ اللانيسا نترَ رأسه نحو الباب، صارفًا إياه.

قال باتو بصراحة: ”ربّما لا تكسب حرّيتك أبدًا. فكلمًا ازدادت شهرةً، تضاعفَ ثمنُ حرّيتك كذلك. وأفضل ما يمكنك أن ترجوه هو التّقاعُد والفوزُ بمنصبٍ لانيسا“.

أجاب أترتيس: ”هكذا أصيرُ جزّارًا!“ مُترجمًا الكلمة إلى معناها الحرّفي.

لم يشعر باتو بأية إهانة. ”أين الفرقُ بين ما أفعله وما كنت تفعله في موطنك؟ إنني أعدُّ الرّجال كي يُقاتلوا ويموتوا بشرف“. ثمّ وضع يده على كتف أترتيس. ”اقبل نصيحتي وعش عيشةً حسنةً ما دمتَ تستطيع ذلك. خذ أيّ شيء يُعرض عليك. يومَ قتلت سيليرُس، صرتَ الملكُ المالكُ في ساحة المحاربين الرومانيّة. فأنت شخصٌ محسود، ما دمتَ قادرًا على الاحتفاظ بمكانتك“.

فأطلق أترتيس ضحكةً خالية من المرّح.

”إنني أفهم حزازتك، يا أترتيس. فقد كادت حزازتي تفتك بي حتّى أحرزتُ الأتزان. ستدربُ باستمرار، ولكنك ستقاتل أربع مرّات أو ستأ فقط في السنة. وليست

هذه حياة رديئة. فما بين الألعاب، لديك مُتَسَّعٌ من الوقت لتتَشَدَّ أغراضاً أخرى.“

”مِثْلِ كَسْبِ الْمَالِ؟ لِأَيِّ هَدَفٍ، إِنْ كَانَ لَنْ يَشْتَرِيَ لِي حُرِّيَّتِي؟“
 ”فِي وَسْعِ الْمَالِ أَنْ يَشْتَرِيَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً. إِنْ سَيْلِيرُسُ لَمْ يَكُنْ يَسْكُنُ فِي ثُكْنَةٍ لُودُسَ، بَلِ امْتَلَكَ بَيْتَهُ الْخَاصَّ وَكَانَتْ لَهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْخَدَمِ.
 رَمَقَهُ أَتْرَيْتِسُ بِنَظْرَةٍ تَعْجَبُ. ”كَنتُ أَحْسَبُهُ عَبْدًا.“

فقال باتو بصراحتة الموجهة المعهودة: ”كان عبدًا يملكُ عبيدًا. وقد كان سيليرُسُ مُقاتِلًا أفضل منك. إن ما هزَمه كان تكبُّره الذاتي. لقد بخشَ تقديرَ ذكائك، وأوَّلَ مرَّةٍ منذُ عرفتكُ لم تفقدِ السَّيطرة على طبعك.“

استرسلَ أتْرَيْتِسُ في التفكير. لقد رافقه أن يكونَ له مكانٌ ما يُقيم فيه سوى ززانةٍ حجريَّةٍ عَفِنَةٍ. ثُمَّ نهَضَ عن البنك وانحنى على طَسَبِ ماء، ورشَّ وجهه. ربَّما كان باتو على حق. عليه أن يحصلَ على ما أمكَنه ما دام ذلك مُمكنًا. وكان قبل ذلك بأُسبوعين قد تفادى بشقِّ النَّفس أن ينزعَ سيليرُسَ أحشائه. وتذكَّرَ نَظْرَةَ عَيْنِي سيليرُسَ إذ طعته بالسَّيف في جنبه. لم يتعمَّد أن يجرَّحه جُرْحًا مُميِّتًا، بل جُرْحًا مُعيِّقًا فحسب. فالرَّاعِ الرُّومان هم الذين قتلوا سيليرُسَ. وما زال ضجيج الجماهير الصارخة ”جوغولا! جوغولا!“ يُدوي في أذنيه.

لَمَّا تَدَفَّقَ الدَّمُ من جنب سيليرُس، خرَّ أمامه على إحدى رُكبتيه. ”أصغ إليهم يصرخون مُطالبين بدمي! لقد كانوا مُولعين بي قبل ساعة.“ وازداد صُراخُ الرَّاعِ حِدَّةً حتَّى أخذَ الصوتُ المتعاطفُ الأرضَ نفسَهَا تهتزُّ. ”سَيَنْقَلِبُونَ عَلَيْكَ أَيضًا.“ ثُمَّ رَفَعَ سيليرُسُ رأسَه فرأى أتْرَيْتِسَ عَيْنِهِ من خلال مُقدِّمِ خُوذته، وسمعه يقول: ”اقتلني!“

فوضَعَ أتْرَيْتِسُ يَدَهُ على خُوذة سيليرُس، وأمالَ رأسَه إلى الوراء قليلاً، وشرطَ شِرةَ الخنجرِ السريعة التي شَقَّتْ وريدَ العنق. وجرَّ جنونَ الجمهورِ إذ رُشَّ دَمُ سيليرُسَ على صدرِ أتْرَيْتِس. وسقطَ سيليرُسُ إلى الوراء، مُستندًا بوهنٍ على مرفقيه، ثُمَّ مائتًا وفي عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ مَرَارَةٍ مُرتبكةٍ فيما الرُّعاعُ يصدحون بنبرةٍ رتيبةٍ وبهجةٍ غامرة: ”أتْرَيْتِس! أتْرَيْتِس!“

أغمَضَ أتْرَيْتِسَ عَيْنَيْهِ ونضحَ مزيدًا من الماء على وجهه وصدره. مهما فعل، فلن يتمكن من أن يغسلَ عنه دماءَ قَتلاه. واحدٌ وعشرون رجلًا ماتوا على يده...

ثُمَّ تناوَلَ منشفةً من الكومة ونشَّفَ نفسه. وقال: ”سانام في فُنْدُقِ الرَّجُلِ، ولكن قل له ثلاثون أوريوسًا، وإلا فلا اتفاق.“

”سيكون لنا ثلاثون، أقتطع منها عشرين، خمسة لي لقاء ترتيبي الأمر، وخمسة عشر تُرسل إلى الإمبراطور قرباناً حُسن نيةً.“

ردُّ أترتيس بنظرة باردة. ”قربان حُسن نية؟ قل لفسبازيان أن ينام في فُندق الرجل، ولتجعل الآلهة البراغيث تغزو فراشه!“

فضحك باتو، ثم عاد إلى الجدِّية. ”كن حكيماً مرَّة واحدة، يا أترتيس. أنت ملك للإمبراطور، أحببت ذلك أم كرهته. فلا يسعك أن تُغيِّر ما ترسمه الآلهة. وللإمبراطور سلطه الحياة والموت عليك، وأنت قد فعلت كل ما في طاقتك لإسناطه. كلمة واحدة من فسبازيان فتمزقك الأسود أو الكلاب البرية. أتلك هي الطريقة التي تريد أن تموت بها؟“

رمى أترتيس المنشفة جانباً، وقال: ”إذا أعطيته أكثر مما أنال، فإنِّي أكرمه.“

”كما يحقُّ له. فهو رأس الإمبراطورية التي هزمت بلاد الجرمان. أينبغي أن أذكرك؟ إنك لا تقف أمامه مُنتصراً.“

فرع أترتيس رأسه. ”أنا لست مهزوماً.“

”أما زلت تقود بني قومك؟ أما زلت تعيش في غياهب غابيتك السوداء؟ يا لك من أبله! هل سألت نفسك مرَّة لماذا تُكره على التباري مع رجالٍ مثل سيليرس، وليس مع أسرى آخرين جيء بهم من الحدود؟“

درجت عادة المالكين أن ينزلوا أفضل محاربيهم في مواجهة أشخاصٍ غير مُحترفين، ليضمنوا بذلك الرِّيح ويصنوا استثماراتهم. غير أنَّ فسبازيان أمر بأن يتبارى أترتيس مع أمهر المحترفين الذين حَفَلت سجلاتهم بأكبر عددٍ من القتلى يحمل على الإعجاب. فقد كان القصد واضحاً. إذ أراد الإمبراطور موته، إنما بطريقة تدرُّ ربحاً وتسرُّ الجمهور، مُعززاً بذلك شعبيته السياسيَّة الخاصَّة.

أجاب أترتيس: ”أنا أعرف السبب.“

”بالخ في استخدام القوة، فيجعلك الإمبراطور طعماً للأسود.“

انقبض فم أترتيس. فالموت فريسة للوحوش مُخز مثل الصَّلب، بل ربَّما أكثر خزيًا. ومن ثمَّ قال: ”أعط فسبازيان الخمسة عشر أوروبوساً التي له“، مُنحنيًا انحناءة ساخرة. وإذا دار ليَمضي، أضاف على مهل: ”وليُجلب كل واحدٍ منها لعنة عليه!“

جاء باتو لمقابلة أترتيس متأخرًا تلك الليلة. فنهض أترتيس وقد أثقله التُّعاس. ورمى

باتو إليه بئتك أحمر ذي حاشية ذهبية، وناولته حزاماً جميلاً من جلد ونحاس. وأخيراً أعطاه كتاباً فضفاضاً، قائلاً: ”غط شعرك. إنه أكثر أماناً لجميعنا ألا يعرفك أحد ونحن في الخارج.“
كان الحراس ينتظرون في الرواق. فألقى أترتيس على باتو نظرة تساؤل. ”أنا حطرت جداً حتى أحتاج إلى سبعة حراس؟“

وضحك باتو قائلاً: ”صل إلى إلهتك ألا نحتاج إليهم.“

أحاط به الحراس إذ خرجوا إلى المدينة. وكانت الشوارع الضيقة تعج بالعربات والناس. وقد تجمع الأصدقاء حول النوافير، يشربون خمراً ويتحدثون. ولما عبر عدد من الشبان ووقفوا ليحدثوا إلى أترتيس، أمره باتو: ”أبقى رأسك منخفصاً. ولنمض بسرعة في ذلك الرفاق.“
فأسرعوا في السير. ثم في الظلال من جديد، أبطأوا. ”ليس أمامنا مسافة طويلة نقطعها. فمن الخير أن فنذق پغناكس قريب جداً من المدرج العظيم (سركس مكسيمس).“

تحول سير الحراس إلى خطو عسكري، فذكر وقع أحذيتهم ذات المسامير أترتيس بجنود الفيالق الذين واجههم في بلاد الجرمان. ووكزه باتو ثم أشار إلى حائط حجري خُطت عليه كلمات.

”أترى ماذا تقول اللافثة؟“

”أنا لا أحسن القراءة.“

”ينبغي أن تتعلم. إن الكتابة تعلن أنك حلم صبية فتية. فهنالك إعلان عن الألعاب التالية.“. وبينما هم مجتازون، قرأ باتو الكلمات بصوت عالٍ: ”إذا سمح الجو، فسيتبارى عشرون ثنائياً من المحاربين - بتجهيز من أسطوريوس - مع وجود بؤداء في حال قتل أحدهم سريعاً جداً. وذلك في الأول والثاني والثالث من أيار/مايو، في المدرج الكبير (سركس مكسيمس). سيقاتل الشهير أترتيس. مرحى لأترتيس! وسيعقب المقاتلات صيد رائع لحيوانات برية. مرحى لأسطوريوس!“

فقال أترتيس بطريقة مضحكة: ”أنا متأثر! من يكون أسطوريوس؟“

”إنه مترشح لمنصب سياسي ما. سمعت أنه كان تاجرًا. فسبازيان يُحبذهُ لأنه طلع من طبقة العامة. ولكن ما زال عليه أن ينال تصويت الشعب. ومن شأن تمويل الألعاب أن يضمن له ذلك.“

”أهو قائد جيد؟“

”لا أحد يُبالي ما دام يُؤمّل الألعاب ويؤرّع قليلاً من الخبز لدرء الجوع. وما إن يحظى بالمنصب، حتى يتسنى له أن يفعل ما يشاء“.

عندها قال أحد الحُرّاس: ”كدنا نصل، واعتقد أننا مقبلون على بلوى“.

كان في آخر الشارع فندقٌ مُشتهلٌ بالمصابيح والمِرْح الصاخب. وقد غصَّ المكان بالناس، بل كان أكثرَ جَلْبَةً من أن يتمكّن المرء من دخوله. فتوقّف باتو ودرس الوضع، ثمّ قال مُتجهماً: ”يبدو أنّ صاحبنا ذكرنا أنّنا آتون. سنحاول أن ندخل من الطريق الخلفي“. ثمّ داروا حول الحشد وأقبلوا من شارع آخر ضيقٌ وراء الفندق. وكان رجالٌ ونساء واقفين بالصف عند الباب الخلفي، صائحين كي يُسمَح لهم بالدخول. والتفتت امرأة فرأت الحُرّاس. وفي الحال اتسعت عيناها وجذبت الرجل الذي معها. وصرخت: ”أترتيس! أترتيس!“ فبدأت بضع نساءً آخر يصرخن حالماً عرفته: ”أترتيس! أترتيس!“

وضحك أترتيس، إذ نشطت الحماسة دمه.

أمّا باتو فلم يجد الأمر مضحكاً. ”خير لنا أن نهرب!“

”من النساء؟“ قال أترتيس هذا غير مُصدّق، ثمّ رأى الحشد ينفّضون من حول الباب ويندفعون إليه بأجمعهم مُتدافعين بالأكتاف ومُتسارعين للوصول إليه أولاً. وتحرك الحُرّاس ليقفوا في موقع يمكنهم من صدّ الزحف، ولكنّ المدّ اجتاح اثنين منهم. وارتقت امرأة على أترتيس فلقت ذراعها وساقها عليه. وإذ غرّزت أصابعها في شعره قبّلتها، فيما ستّ آخرُ تشبّث به صارخات على نحو هستيري. فسرت فيه موجة دُعر، ودفع المرأة بعيداً عنه، مُجاهداً للإفلات من الأخرى. وقد تمزّق كابه، ووقعت أيديهن عليه مُتشبّهة به بحماسة لا أمبالية. فاستشاط غيظاً، ولم يهّمه أيهنّ ضرب وبأية قوّة.

صرخ باتو، مُسكاً بإحدى النساء من شعرها ومُبعداً إياها بشدّة: ”امض من هنا وإلا مزّقنك إزباً إزباً!“ فأتاح تصرّف باتو السريع فُسحةً مكنت أترتيس من الفرار.

ركض أترتيس وظلّ يركض إلى أن اختفت خلفه أصوات الصراخ الهستيري ووقع الأقدام المطاردة. وسرعان ما لحق باتو به، وأمره: ”ابق مكانك هنا!“ واندسأ في مدخل باب ليلتقط أنفاسهما. ثمّ مدّ باتو عنقه نحو الخارج وألقى نظرة على الشارع، وقال: ”لا أحد أت. اعتقد أننا ضلّلناهم“. والتفت إلى أترتيس فسأله ضاحكاً: ”حسناً، أي شعور يُخالجك حين تكون غرضاً لهذا الشغف الشديد؟“

رمقه أترتيس بنظرة ساخطة وأمال رأسه إلى الورا، ونبضات قلبه ما تزال مُتسارعة.

وسأله باتو مُكشراً: "هل من ضَرِيرٍ خَطِرٍ؟"

فركَ أترتيس رأسه: "انتزعَ شيءٌ من شعري، وشعرتُ كما لو كُنَّ سيمزقتني إزناً إزناً ليأخذنَ الأشلاءَ معهنَّ إلى البيوت. ولكنني أعتقدُ أنني ما زلتُ سليماً".

فقال باتو: "حَسَن! لِنرُجْ أنْ نتمكَّنْ من إبقائك كذالك". ثُمَّ خَطَا خارجاً إلى الشارع. "أعرفُ مكاناً غيرَ بعيدٍ من هنا، يمكننا الدَّهَابُ إليه. وكلِّمَّا أسرعنا في الوصولِ إلى هناك، كانَ أَفْضَلَ. فَيَطوُلُ قامَتِكَ وضخامةِ بَنِيَّتِكَ وشِعْرِكَ ذاكَ الأشقر، من السَّهْلِ جدًّا أنْ تُعرَفَ. ويبدو أنَّ أولئك النَّسوةَ مُنتَشِراتٍ في جميعِ الشوارعِ لمطاردتك".

"هذه كلها كانت فكرتك. هل تذكرُ؟ ثلاثون أوروبسا!" ثُمَّ شتمَ شتيمَةً ثقيلة. "لم تُنذِرني بما يمكن أن يحدث. أجميعُ الرُّومانيين مجانين؟"

"عندما يغدو مَعْبُودُهُمْ في مُتناوَلِ أيديهم، يُثارون قليلاً. استرخ. سأعيدك سالمًا إلى اللُّدُس. ولا بُدَّ أن ينالَ يَغناكس ما يُساوي مالَه. ستَحْصُلُ على أوروبساتك العَشْرَةَ مع زيادةٍ ما. سأهتَمُّ بالأمرِ بنفسِي".

دخلا رُفَاقًا ضَيِّقًا أفضى بهما إلى ساحةٍ واسعةٍ تُحيطُ بها شققُ سكنيَّة. فقال باتو: "كنتُ أفضي كثيرًا من الوقت هنا". ثُمَّ توقَّفَ أمامَ بابٍ وقرعه. ولمَّا لم يُجِبْ أحد، خبَطَ. فسألَ صوتٌ مكتومٌ عَمَّنْ في الخارج. وعرَّفَ باتو إلى نفسه، فانفتحَ الباب. ودخلَ أترتيس الغُرفةَ المُعتمَّةَ وراءه. ثُمَّ أغلِقَ البابَ خلفهما وأدخَلَ مِزلاجٍ في مكانه.

ظهِرَتْ في مدخلِ البابِ الخلفيِّ امرأةٌ سوداءُ طويلةٌ نحيلة، ويدها سِرَاجٌ من فِخَّار. ثُمَّ قالت "باتو؟" وفي صوتها عَنَّةٌ أسيرة. فكلمها باتو بلغته القومية، ولم تَقُلْ شيئًا. ثُمَّ اجتازَ الغُرفةَ إليها، وأخذَ السِرَاجَ من يدها وحطَّه على طاولة. وإذ حَضَنَ وجهها بيَدٍ واحدةٍ كبيرة، تكلمَ مُجدِّدًا بصوتٍ رقيقٍ ومُتردِّد. فأجابت بَرِقَّةً، والتفتَ باتو إلى أترتيس.

استدارَ باتو قليلاً، وقال لأترتيس: "هذه شيامادو. صديقةٌ قديمة. وقد قِيلَتْ أن تسمَحَ لنا بالبقاء هنا حتَّى الصباح. تُوجدُ غُرفةٌ صغيرة في القِسمِ الخلفيِّ. سيأتيك واحدٌ من الخُدَّامِ بما تأكله. سنرجعُ إلى اللُّدُسِ قبل طُلُوعِ الفجر، فيما يكونُ مُعظمُ أهلِ المدينة نيامًا".

أوما أترتيس برأسه مُوافقًا، ولحقَ بالخُدَّامِ إلى خارجِ الغُرفة. وأحضرتُ إليه صينيَّة. وإذ قعد على القش، أسندَ ظهره إلى الحائط، وشربَ الخمرة. ومع أنَّه كان جائعًا، فلمْ يأكلِ الحُبزَ البائت. لم تُكُنْ الحُجرةُ أكبرَ من زنزانته، وقد مائلتها في البُرودة. وساءلَ نفسه أيكونُ الفُنْدُقُ الذي خَطَّ اسمُه فوق بابِه أحسنَ حالًا؟ ما دام لم يدخله، فهو لَنْ يعلم. وكلِّمًا فُكِّرَ في ذلك أكثر، تفاقَمَ غضبُه.

أخيراً جاء باتو ليتكئ على قائمة الباب. ”كاذ الصبح يطلع، سنغادر حالاً“ .
 ”قبل أن نرجع إلى اللودس، أريد أن أزور پغناكس“ . خبط أترتيس قئينة الخمر
 الفارغة على الأرض، وهب واقفاً. ”جميع أولئك الخطافات الرومانيات المستهترات ينبغي
 أن يكنن قد طرن الآن“ .

ما كان الفجر قد بزغ بعد، وكانت الشوارع خالية، وقد عاد جميع موعدي الليلة
 المنصرمة إلى بيوتهم وأووا إلى أسرتهم. فاقناده باتو أترتيس عبر متاهة الشوارع والأزقة حتى
 وصلا إلى الفندق، حيث لم يكن أحد في الخارج. كانت الستائر مسدلة ومصاريح النوافذ
 مغلقة. وكان الحطام والركام مبعثرين في الشارع. ففرغ باتو الباب بشدة.

وصاح رجل من الداخل: ”امض من هنا! ثم شتمهما ببذاءة وأضاف: ”قلت لكم
 من قبل إن أترتيس ليس هنا! اذهبوا إلى بيوتكم!“

استشاط أترتيس غضباً، وتقدم كي يخلع الباب. فدفعه باتو جانباً وقرع الباب ثانية.
 ”هنا باتو، يا أبه. افتح الباب، وإلا أحرقنا نحن الاثنين هذا الفندق وصيرناه ركاماً حول
 أذنيك!“

ما إن سمع أترتيس المزلاج يُزال والسقطة تُرفع، حتى اندفع إلى داخل الفندق. ”أنت
 مدين لي بثلاثين أوروبوساً لقاء استخدام اسمي فوق بابك!“

رد پغناكس غير مخوف: ”اطمر نارك! سننال ما وعدت به“ . وقد كان رجلاً صلباً
 بطول باتو، يتباهى بصدري هائل وذراعين ضخمين. كان شعره أشيب ومقصوفاً قصيراً جداً،
 وتدل من عنقه قطعة عاج مستطيلة عليها نقش يُعلمه محارباً محزناً. وابتسم ابتسامة عريضة
 حيال اندهاش أترتيس، فبدت فجوات حيث كسرت بضع أسنان أو قلعت كلياً. وقال: ”كان
 ينبغي أن تصطحب عدداً قليلاً آخر من الحراس“ . ثم نظر إلى باتو نظرة خاطفة، وأضاف:
 ”أمر جيد أن هذا الفتى الوسيم يستطيع أن يركض بسرعة فائقة، إه، يا صديقي القديم؟“
 فضحك باتو. ”لم أزه قط أسرع مما كان الليلة“ .

قال پغناكس: ”اجلس!“ وقد بدا قوله أقرب إلى أمر منه إلى دعوة. ثم دفع أترتيس
 نحو صحن الغرفة.

”كان ينبغي أن تتمهل في رقع لافتك“ . وجلس أترتيس على كرسي بقرب
 الكانون كي يستدفع. ثم مرر أصابعه على ثنكه الممزق. ”أنت مدين لي بطقم ثياب
 جديد“ .

فقال پغناكس بجفاف: ”هل من شيءٍ آخر، يا صاحب السيادة؟“
قال باتو: ”وجبة فاخرة وسرير سيُحسنان تصرّفه. وامرأة، إذا كانت واحدة في المتناول.“
”لقد صرفتهنّ جميعاً إلى بيوتهنّ“. وأوماً برأسه نحو مائدة طويلة حيث كانت
وليمة ضخمة مُنتقاة قد أُعدت، ثمّ قال: ”أما الطّعام، فهذه المائدة مُدّت على شرفه“.
والتقط درّاقة فرماها إلى أتريتس قائلاً: ”كلّ هذه بصحّة جيّدة! أعدك بأفضل منها في المرّة
التالية التي تأتي فيها“.

”ماذا يجعلك تعتقد أنني سأرجع إلى جُحر الجِرذان هذا؟“
فقال پغناكس هازئاً: ”أتروقك ززانتك أكثر جدّاً؟“ وابتسم لباتو ابتسامة عريضة.
”أعتقد أنّه خائف من بضع نساء“. وضحك لما نهض أتريتس عن كرسيه شاحباً من الغيظ.
قال باتو امرأاً: ”اقعد! كان پغناكس يقاتل الرجال أفضل منك، قبل أن تولد.“
وضحك پغناكس ضحكاً عميقاً. ”لما رأيته يهرب، تذكّرت أيام مجدي. أتذكر الألعاب
الأبولونارية، يا باتو؟ لقد كانت النساء يلاحقنني يومذاك“. ثمّ بهتت ابتسامته. ”كان كلُّ
واحدٍ يعرفُ اسمي في تلك الأيام“. وفرش ذراعيه. ”والآن، هذا هو ما أملكه“.
فقال باتو: ”حرّيّة وملكيّة“.

”هه! ضرائب وديون. كانت عيشتي أفضل لما كنت عبداً“. ثمّ سكب خمراً في
ثلاث كؤوس، فناول باتو الأولى، وأتريتس الثانية، ثمّ رفع الثالثة قائلاً: ”نحبّ الألعاب!“
وشربها اجترأخاً.

تحدّث پغناكس وباتو عن سنوات صباهما. وعاشا بخيالهما مآثرهما في ساحة المحاربين،
مُتناقشين في أساليب مُحاربين ماتوا منذ ذلك الزّمان البعيد. وحكى پغناكس ما جرى في
عددٍ من مُنازلاته، عارضاً بزّهو النُدوب التي أصيب بها. وقال: ”أعطاني الإمبراطور نيرون
السيف الخشبيّ. وخيّل إليّ أنّ ذلك كان أعظم يومٍ في حياتي. إنّما لم أجد إلاّ لاحقاً أنّ
حياتي انتهت فعلاً. فماذا يبقى لمحاربٍ مُتقاعد؟“

فقال أتريتس: ”عندما أكسبُ حرّيّتي، فسأرجعُ إلى بلاد الجِرمان. وعندئذٍ تبدأ حياتي
من جديد“.

ابتسم پغناكس لأتريتس ابتسامة قائمة. ”لست تفهمّ الآن، ولكنك ستفهمّ في الوقت
المُناسِب. لن تكون يوماً حيّاً كما أنت الآن، يا أتريتس، فيما تُواجه الموت كلَّ يوم“.

روم

نهضَ باتو عن كرسيه، وقال إنَّ عليهما أن ينطلقا راجعين قبل طلوع الصُّوم. فناولَ بغناكس باتو صُرةَ المال. وأعطى أترتيس تُنكًا وكابًا آخزين ليرتديهما، وبينما هم ماشونَ نحو الباب صفَّه على ظهره، وابتسمَ له ابتسامَةً أظهرت فجوات أسنانه، قائلاً: ”سأجعل السيدات يقفنَ في صفِّ مُنظم المرَّة التالية، فلا يُقبل عليك أكثر من اثنتين أو ثلاثٍ في آنٍ معاً“.

بسبب إقفال أبواب المدينة أمام العربات، كانت الشوارعُ هادئة. وفيما أهلُ المدينة نيام، كان أصحابُ الدكاكين مشغولين بتخزين البضائع التي سلَّمت إليهم في أثناء الليل، وبترتيب السِّلَع التي ستُعرض في النهار الآتي.

قال أترتيس: ”بغناكس غيبي. إنَّه حُر. لماذا لا يرجع إلى موطنه؟“

”لقد حاول، ولكنَّه لم يُعد ينتمي إلى بلاد الغال. فإنَّ زوجته كانت قد ماتت، وأولاده تبنَّاهم آخرون ورَبَّوهم. وقد رَحَّب به بنو قومه إلى حين، ولكنَّهم تحبُّوه في ما بعد. إنَّه أُخذَ من بلاد الغال راعيَ قطيعٍ بسيطًا، ورجعَ إليها مُحارِبًا“.

”أنا لم أكن راعيَ قطيع“.

”ماذا لك في بلاد الجرمان؟ زوجةٌ فتيةٌ تملك قلبك؟ هل تظنُّ أنَّها ستنتظركَ عشرَ سنين، أو ربَّما عشرين، حتَّى ترجعَ إليها؟“

”ليس لي زوجة“.

”إذا قرية؟ ماذا بقيَ منها؟ رُكام ورماد؟ بنو قومك؟ أموات؟ مُستعبدون؟ مُبددون؟ لا شيءَ بقيَ لك في بلاد الجرمان“.

لم يُجب أترتيس. لقد غمره الغضبُ القديم العقيم إذ تذكَّر كلَّ ما خسره. وعرَّجَ باتو على كشكٍ خبَّاز، فاشترى رغيفًا، واقطَّعَ منه قطعةً كبيرةً قدَّمها إلى أترتيس، وقال باعتماد: ”لم يبقَ لكينا شيء، يا أترتيس. أنا كنتُ أميرًا. والآن أنا عبد. ولكنَّ أحيانًا يعيشُ عبدٌ لروما أفضلَ من أميرٍ بلدٍ مهزوم“.

ثمَّ رجعا إلى اللودُس في سكون.

كان كائس پولونيوس أربانُس أوسمَ رجلٍ سبقَ أن رآته جوليا يومًا. وأوَّل مرَّة قابلته في منزل كالاياه، لم يفعل شيئًا أكثرَ من الابتسام لها والإمساك بيدها، ولكنَّها أحسَّت أنَّها يكاد يُغمى عليها من دفقة الإثارة التي جرَّت في دمها.

ها هي الآن تنظرُ إليه عبرَ الغرفة، ثمَّ إلى كالاباه وهي تُكلمُ النساءِ المُجتمعاتِ هناك. هذا هو ما كانت تُريده، وهنا المكان الذي كانت تُريده. صحيحٌ أنَّ أباهَا قد أرخى القيودَ التي فرضها عليها، ولكنَّ ذلك لم يكنْ كافيًا في نظرها، ولا سيِّمًا لأنَّ واحدًا من شروطِ مُلايِنَةِ والدِها كان ألا تزورَ كالاباه. فبعيدًا من أن تُدعَنَ جوليا، ازدادت زيارتها لكالاباه. وكانت تكذبُ فحسبَ بشأنِ أين كانت ومَن زارت، حريصةً كلَّ حينٍ على إبداءِ كلِّ مظهرٍ يدلُّ على اتِّباعها رغباتِ أبيها. وبهذا كانت تتجنَّبُ النُّزاعَ والمُحاصرةَ اللذينِ ستتلقَّاهما إذا عرفَ أبوها أنَّها أبقت على صداقتها لكالاباه.

ومرَّس أيضًا لم يستحسن كالاباه، بل احتقرها في الواقع. وقد أسعدها أنَّه كان مسافرًا في شمال إيطاليا بداعي العمل، حيثُ سيمكثُ بضعة أشهر. ففي غيابهِ، وانشغالِ الوالدِ بالعمل، وعدمِ معرفةِ الوالدةِ بالحياة خارجَ أسوار الدَّارة، استطاعتَ جوليا أن تفعلَ ما رغبت فيه. فأنَّ تُعدَّ جوليا صديقةَ كالاباه كان شرفًا عظيمًا، وأيضًا شرفًا آتاهَا شعورًا مُعزِّزًا بالأهميَّة. وقد أوضحت كالاباه لجميع الذين يحضرون اجتماعاتها أنَّها مُنحازةٌ إلى جوليا. غير أنَّها لم تجدِ اجتماعاتِ كالاباه مُسرَّةً بقدر سرورها بكائسِ پولونيوس أربانس، ولو إلى حدِّ ما.

حضرَ كائس إلى دارة كالاباه أغلب الأحيان، وتهيَّبت جوليا حضوره الرُّجولي القوي. فكان عليه فقط أن ينظرَ إليها ليتوجَّه ذهنُها إلى الأفكارِ المُحرَّمة. وقد قالت لها أوكتافيا إنَّه كان عشيقَ كالاباه، ولكنَّ هذه المعلومة غيرَ المُرحَّب بها لم تزده إلا جاذبيَّة. رجُلٌ من أيِّ نوعٍ في وُسعه أن يُرضي امرأةً مثل كالاباه؟ يقينا، رجُلٌ أكثر ذكورةً بكثيرٍ من أيِّ واحدٍ غيره. وإذا كان يخصُّ كالاباه، فلماذا يُحدِّقُ إليها هي؟ ثمَّ كان هنالك أيضًا واقعٌ كونِ أوكتافيا مُتيمِّمةً بالرجُل على نحوٍ جليّ - واقعٌ لم يؤدِّ إلا إلى حفزِ اهتمامِ جوليا بكائس.

حتَّى في اللحظة الحاضرة، عذبتُ عيناه الداكنتان جوليا وداعتها إلى أن تمتن لو تنجو من المشاعر الجياشة التي أثارها فيها. فهوَّت على وجهها، وحاولت أن تُركِّز على انتقادات كالاباه اللاذعة، ولكنَّ ذهنها ظلَّ يجنح إلى الأفكارِ الأكثرِ شهوانيَّة. ثمَّ نهضَ كائس عن أريكته. وإذا أقبلَ نحوها، غمرت دغدغةٌ دافئةً جسمها. وأخذ قلبها يخفقُ بسرعةٍ وشدةٍ بالغتين حتَّى خشيت أن يسمعَ خفقانه.

ابتسمَ كائس قليلًا وهو يجلس على أريكتها. كان في وُسعه أن يلاحظَ أنَّها مُتوتِّرةُ الأعصابِ ومرعوبةٌ إلى حدِّ بعيدٍ؛ وقد جذبتَه براءتها واثارتَه. ”أتوافقين على كلِّ ما تقوله كالاباه؟“

”إنَّهَا ذَكِيَّةٌ جَدًّا“.

”لاَ عَجَبَ فِي كَوْنِهَا مُجْبِكٌ“.

”ألاَ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا غَايَةٌ فِي الذِّكَاءِ؟“

فأجاب: ”هي حقًا سابقة لزمانها كثيرًا“. وبينما هما يتحدَّثان بشأن أفكار كالاباه، أدرك كائس كم كان قليلًا ما تعرفه جوليا عن حقيقة كالاباه. وقد تيسَّر له أن يُحدِّد كم كانت صديقة كالاباه الفتيَّة محدودةً في إدراكها للذَّيْنِ خارجِ عالمِها. فإنَّ كالاباه، بطبيعة الحال، أظهرت للنَّاس فقط ما تُريد لهم أن يَروه، إذ كانت مُحكَّمة. ولم يُخامر كائس أيُّ شكٍّ في أنَّ لدى كالاباه حُطَطًا لابنة آل فاليريان الفتيَّة، غير أنَّه لم يدرِ ما استلزمته تلك الحُطَط. لقد كان يعلمُ يقينًا أنَّ كالاباه ما اعتنت قطُّ بأحدٍ من دون غرض. وهي كانت تجتذبُ جوليا إلى حلقتها الداخليَّة، مُعَامِلَةً إيَّاهَا بِعَطْفٍ حميمٍ أثارَ الغيرةَ لدى غيرها من المعارف الأقدم عهدًا.

كان كائس قد قال لكالاباه منذ بضعة أيَّام: ”يُحَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ أَوْكَتَافِيَا تُنَاسِبُ مَيْلِكَ على نحو أفضل“ مُتَنَبِّئًا إلى حقيقة كونه قد بدأ يسعى في إثر أوكتافيا على سبيل اللُّهُو. ثمَّ أضاف: ”إنَّهَا مطوَاعَةٌ“.

غير أنَّ كالاباه ما كانت لتُزحزح. فقد ابتسمت فقط بتحكُّمٍ وبيَّنت الأوجهَ العمليَّة التي تُسوِّغُ وجوبَ تفكيره في نشدان جوليا. ”عائلتُها تملكُ مالًا ومقامًا، يا كائس. وليس لهم أيُّ صِلاتٍ سياسيَّة فعليَّة إلاَّ من خلال أنتيغونُس، صديقِ مرقس. ولا بدَّ أنَّك تتذكَّر أنَّه فازَ بِمَنَصِبٍ في دار مجلس الشيوخ. فربَّما كان شأنُ غرامِي معها أمرًا نافعًا لك“.

”إذا كان مرقس فاليريان لا يُحبِّدُكَ، فلا أكاد أتصوِّرُ أنَّه قد يُحبِّدُ واحدًا من عُشَاقِكَ المنبوذين“.

فضحكت من ظرافته التهكميَّة. ”أنا لم أُنبدِّكَ، يا كائس. لقد حررتك. أنت تعلمُ جيّدًا جدًّا أنَّ القلقَ كان قد بدأ يُساورك. هل لاحظتِ الطريقةَ التي تنظر بها جوليا إليك؟“

التوى فمُه بابتسامةٍ ضارية. ”كيف يمكنني ألاَّ أنظر إليها هكذا؟ إنَّها لذيذةٌ جدًّا“. إنَّ تحويلَ اهتمامه عن أوكتافيا إلى جوليا لن يكونَ مهمَّةً صعبةً.

”يمكنُ أن تكونَ عائلةٌ جوليا نافعَةٌ لك جدًّا“.

”أحاولين التخلص مني، يا كالاباه؟ هل أخفتك تلك الليلة بشدة شغفي؟“
 ”ما خفت قط من أي شيء يوماً، يا كائس، ولا سيما من رجل. ولكن ما يُثيرك
 لا يُثيرني. إنني أحاول أن أكون سخيّة وأفكر في ما هو الأفضل لصديق عزيز. لست أنا
 المرأة المختارة لك، يا كائس، بل أعتقد أن جوليا فاليريان هي تلك المرأة المختارة.“

كان كائس يعلم أن كالاباه ما فعلت قط أي شيء دون دوافع مستورة. وود الآن لو
 يعرف السبب الذي من أجله كانت مستعدة تماماً أن تُقدم إليه واحدة من تابعيات الجميلات
 كقربان على مذبح. لقد خلب ذلك لُبّه.
 ”ماذا تعرفين عنها؟“

”راقبها في الألعاب، إن لها شغفاً عميقاً لا يُشبهه أحدٌ مجرد شبه، حتى هي
 نفسها. فهي بالنسبة إليك أرضٌ غير مفلوحة تنتظر أن تُحرث فحسب. إنها مُتعطشة إلى
 الحياة. فازرع أيّ بذور ترغب فيها، يا كائس، وراقبها تنمو.“

لم تكن كالاباه قط تُخطئ في تمييز الناس. فأقبل كائس على مُراقبة جوليا باهتمام
 جديد. ووجدها فتيةً وجميلة. وقد كانت تحضر اجتماعات كالاباه سرّاً، ممّا عنى أنها تصرّفت
 بعدم طاعة لأبويها وأخيها. كذلك أيضاً كانت مُتضجرةً من التعقل المملّ وتوّاقةً جداً إلى
 الإثارة: وهذا مزيجٌ مُسكرٌ ما دام في طاقة كائس أن يؤتيها من الإثارة فوق ما يُمكنها حتى
 تصوّره. وقد شعر بالرغبة تشتدّ وهو يُراقبها، عالماً أنها تنبّهت إلى تمغنه. ثمّ نظرت إليه فابتسم.
 وانفجرت شفتاها برقة، فكاد يحسّ حرارة تفاعلها عبر الغرفة.

انجذبت جوليا إلى كائس، ولكنها لم تُبادره بالكلام مثل أوكتافيا، ولا جلست ساكنةً مثل
 غلافيرا، ولا تظاهرت باللامبالاة مثل أوليشيا. فإن جوليا فاليريان نظرت إليه بفضولٍ غير مُقنع.
 ولما نظرت إليها في المقابل، انتظرت بترقب، بدل أن تتظاهر بالحشمة والنجل على غرار الأخريات.
 أراد كائس أن يتبين هل كانت كالاباه على حقّ بشأنها. وأراد أن يتبين إلى أيّ مدى
 يمكن أن تمضي.

قال لها: ”فلنتمسّ معاً في الحديقة.“

فتورّد خدّها، وأجابت: ”أمن شأن كالاباه أن توافّق؟“ مع أن عينيها الداكنتين كانتا
 واعدتتين.

”أنت بحاجة إلى إذن كالاباه لتفعلني ما تريدني؟ ربّما وجب أن تمتحن صدق رؤيتها“

الفلسفية. ألا تقول إنه يجب على المرأة أن تُقرّر قراراتها الخاصة، وتتلقّى سعادتها من حيث انبثقت، وتوجد مصيرها بيدها؟“
 ”أنا ضيفتها“.

”لا عبدتها. إن كالأباه تُعجبها امرأة لها عقلٌ خاصٌ بها، امرأة تأخذ ما تريد.“
 ومرر يده بخفة على ذراعها صعوداً. فإذا بشرتها دافئة تحت الصوف الناعم الذي حيّك منه بالسُّها الأصفر الباهت. وسمع شهيقها الخافت، وأحسّ توتر جسمها. فابتسم في عينيها الغزاليّتين البنيّتين. ”أوه- يا جوليا العذبة- تريدين أن تُمسكي بالثور من قرنيه، أما تريدين؟
 اخُرْجي إلى الحديقة فترى آية فتنة يمكن أن نُشكّل معاً!“

فغزا الاحمراؤ خديها من جديد.

وقالت همساً: ”لا أستطيع“.

فردّ هامساً، مُحاولاً إغاطتها: ”ولم لا؟“ وقد رأى أنها أكثر ارتباكاً من أن تُفصح عن السبب، فتولّى هو ذلك عنها، قائلاً: ”قد تغار كالأباه، ومن ثمّ لا تعودين تلقين الترحيب هنا“.

قالت: ”نعم!“

”لك أن تستريحي تماماً. ما أنا إلا واحدٌ من بُدلاء التسلية الكثيرين عند كالأباه.
 إن بيننا تفاهماً“.

عبست جوليا قليلاً: ”ألسنت مُغرماً بها؟“

فأجاب ببساطة: ”لا“، وانحنى حتى كادت شفاته تلامسان أذنها، هامساً: ”اخُرْجي معي إلى الحديقة، فنكون وحدنا وتحدّث“.

كان في عينيهِ الدّاكتين شغفٌ مُخيف، ورُغم ذلك أرادت أن تخرج معه. لقد استساعت الحرارة المدوّمة التي اجتاحتها، وتدفّق الدّم في عروقها. وأنستها لمسّته أين كانت، حتى فيما أندرها ذهناً بأن شيئاً قائماً وغامضاً يكتنفه. غير أنّ ذلك لم يهّمها. ولم يجعل الشعور بشيء من الخطر إثارتها إلا أكثر حدةً وشدّة. ولكنها ما زالت قلقة بشأن كالأباه. فهي لم تُرد أن تُثير استياءها وتُنشئ عداوةً شديدة.

ونظرت جوليا إلى كالأباه، فتبين لها أنّ مُضيفتها لاحظت تحوّل كائس. وإلى الحبيطة، أحسّت جوليا موجة عاطفة قويّة من نوع ما تندفق من كيان كالأباه، ثمّ لا تلبث أن تمضي.

لقد كانت كالاباه تبتسمُ وكأنَّها تبتغي تشجيعها. ولم ترَ جوليا أيَّةَ أمانةٍ غيرَ أو مُجرِّدِ انزعاج تُعكِّرَ عينيَّ كالاباه اللتين تكتنفهما الأسرار، أو تُقَسِّي ملامحها الرائقة. فرمقتها جوليا بنظرةٍ نِصفها استرحام ونِصفها استفهام.

قالت كالاباه: ”إنَّ جوليا تحتاجُ إلى نَسمةِ هواءٍ مُنعِشةٍ، يا كائس. هلاًّ تصحبُّها إلى الحديقة!“ وشعرَت جوليا بالفرح يتفجَّر داخلها، ثُمَّ تحلَّ محلُّه موجةٌ حرارةٍ إذ أمسكَ كائس بيدها، قائلاً إنَّ ذلك من دواعي سروره.

وبينما هما خارجان، قال لها: ”هكذا نلتِ بَرَكتها. هيَّا إلى هنا، تحت الشجرة“.

لَمَّا طَوَّق كائس جوليا بذراعيه، تشنَّجت بصورةٍ غريزيَّة. ثُمَّ قبلها فأطاح دَفقُ اللدَّةِ كلِّ مُقاومة. وكانت يدها قويَّتين، فذابت على صدره. ولَمَّا انكفأ قليلاً، ضعفت وأخذت ترتجف.

فقال كائس بصوتٍ أجشٍّ، وقد ازداد جسارةً: ”بمعيتي، ستشعرين بأشياءٍ لم تحلمي قطُّ بأنَّك تستطيعين أن تشعرِي بها“. وخالجتُها صرخةٌ ضئيلةٌ من عذابِ الضميرِ حيالِ اجترائه الذي جاوَزَ به الحدَّ.

وشهقت برقةً، قائلةً: ”لا! يجب ألا تلمسني هكذا“.

فما كان من كائس إلا أن ضحك ضحكةً خفيفةً وشدَّها إليه من جديد. وقبلها ثانية، فأخرسَ احتجاجها وأضرمَ شغفها.

شبحت جوليا يديها على صُوفِ ثُوَجته الناعم، وأحسَّت تحت حُرُوفِ عضلاته الصلبة. وبعثَ وَقَعُ نَفسه المُعطرِ بالتوايل موجاتٍ قُشعريةٍ برزت نثوءاتها على مُنحني عُنقها. ثُمَّ أنتِ ببطء، وبعجز، إذ قبلها مرَّةً أخرى.

لقد كان يؤلُّها، ولكنَّها لم تكثُر.

وسألها: ”هل جعل كلاوديوس فلاكس قلبك ينحفي مُتسارِعاً كحالهِ الآن؟“ وخيَّل إليها أنَّها سيغمى عليها من حدَّةِ ما كانت تشعرُ به. ثُمَّ قال بصوته الخشنِ الموتر: ”لو كان على قيِّد الحياة الآن، لانتزعتك منه، ولو عنى ذلك قتله!“ وقد أطرَبتها نغمةُ صوته وأفرعتها على السواء.

وإذ رنَّت جوليا إلى عينيهِ الداكنتين المُتألِّقتين، وأحسَّت الحمى في دمها، تأكَّد لها أنَّ عليها أن تبقى معه، مهما كان الثمن. ”أوه، كائس، أنا أحبُّك. سأفعلُ أيَّ شيءٍ تُريدُه، أيَّ شيءٍ...“

روما

بذلك حصل كائس على جوابه عن المدى الذي قد تمضي جوليا إليه . دون شك ، لن يدفعها دفعا الآن . فما زال بحاجة إلى وقتٍ كافٍ حتى يفعل ذلك ، حين تكون قد باتت تحت سيطرته الكاملة بحيث يغدو التراجع مستحيلاً .

وارتسمت على وجهه ابتسامة . لقد كانت كالاباه على حق بشأن جوليا فاليريان . إن هذه الفتاة خلقت له .

١٨

توجَّسَتْ هَدَسَةٌ سُوءًا إِذِ اقْتَرَبَ يَوْمُ زِفَافِ جُولِيَا. وَمِنذِ اللَّحْظَةِ الَّتِي فِيهَا وَافَقَ دَسِمُسُ فَاَلِيْرِيَانَ عَلَى زَوَاجِ الْكُومِيشِيُو، بَدَتْ جُولِيَا أَكْثَرَ اسْتِقْرَارًا وَاسْتِشَارًا. حَتَّى بَيْنَمَا كَانَتْ هَدَسَةٌ تَتَسَاءَلُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اقْتَرَحَ السَّيِّدُ شِرَاءَ الْعُرُوسِ بَدَلًا مِنْ زَوَاجِ الْكُنْفَرِيَاشِيُو الْمَلْزَمِ، وَقَفَّتْ جُولِيَا أَمَامَ حَفْلِ الْأَصْدِقَاءِ وَتَفَوَّهَتْ بِالتَّصْرِيحِ التَّقْلِيدِيِّ ”أُوْبِي تُو غَايُسُ، إِيغُو غَايَا“: ”حَيْثُ أَنْتِ سَيِّدٌ، أَنَا سَيِّدَةٌ“. وَوَلَدَى إِعْلَانِهَا، قَبَّلَهَا كَايُسُ بُولِينِيُوسُ أُرْبَانُسُ وَحَتَمَ الْعَقْدَ بِخَاتَمِ حَدِيدِيٍّ.

اسْتِطَاعَتْ هَدَسَةٌ أَنْ تَفْهَمَ لِمَاذَا أُغْرِمَتْ جُولِيَا بِأُرْبَانُسُ. فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا وَسِيمًا ذَا حُضُورٍ حَيَوِيٍّ وَتَصَرُّفٍ فَاتِنٍ. وَقَدْ وَافَقَ عَلَيْهِ دَسِمُسُ وَفِيْبِي كِلَاهِمَا. وَمَعَ ذَلِكَ، رُغِمَ افْتِقَارُ هَدَسَةِ إِلى آيَةِ حَقَائِقٍ أَوْ أُسَاسٍ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا شَعَرَتْ بِهِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ مُقْتَنِعَةً بِأَنَّ مَظْهَرَ الرَّجُلِ النَّاعِمِ يَسْتَرُ شَيْئًا قَاتِمًا وَقَبِيحًا. وَكَلَّمَا نَظَرَ كَايُسُ إِلَيْهَا، أَحْسَسَتْ قَشْعِرِيْرَةً مِنْ جَرَاءِ تِلْكَ الْحَمَلَمَةِ الْمَظْلَمَةِ فِي عَيْنِيهِ الْجَرِيئَتَيْنِ.

لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا أَيُّ شَخْصٍ يَسْعَى أَنْ تُسِرَّ إِلَيْهِ بِمِشَاعِرِهَا. فَمَرَّقُسُ قَدْ سَافَرَ بَعِيدًا بِدَاعِيِ الْعَمَلِ وَلَنْ يَعُودَ إِلَى الدِّيَارِ قَبْلَ مُضِيِّ شَهْرٍ آخَرَ. لَوْ كَانَ هُنَا، لَرُبَّمَا اسْتَجْمَعَتِ الشَّجَاعَةُ لِتُحَدِّثَهُ بِالْمَوْضُوعِ. وَلَكِنْ حِينَ يَعُودُ، يَكُونُ الْأَوَانُ قَدْ فَاتَ. وَكَانَ الْكَهَنَةُ قَدْ اسْتَشِيرُوا قَبْلًا، وَعَيَّنَ يَوْمَ سَعْدِ لَزِفَافِ جُولِيَا. فَلَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنْ أَنْ تُزَوِّجَ جُولِيَا قَبْلَ رُجُوعِ أُخِيْهَا. قَالَتْ هَدَسَةٌ: ”مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ يَحْضُرَ أُخُوْكَ زِفَافِكَ“.

فَأَجَابَتْ جُولِيَا: ”بِالتَّأَكِيدِ، أَوَدُّ لَوْ يَحْضُرُ زِفَافِي. وَلَكِنَّ الْكَهَنَةَ قَالُوا إِنَّ ثَانِيَ أَرْبَعَاءِ مِنْ شَهْرِ نَيْسَانَ/أَبْرِيْلِ هُوَ يَوْمٌ سَعْدِنَا. فَتَأَخَّرِ الْعُرْسُ تَحَدُّ لِلْآلِهَةِ وَمَجَلِبَةٌ لِحَظَرِ كَارْتِي. ثُمَّ إِنِّي لَا اسْتِطِيْعُ أَنْ أَصْطَبِرَ أَسْبُوعًا آخَرَ، فَمَا بِالْكَ بِشَهْرٍ؟ وَرَبَّمَا تَأَخَّرَ مَرَّقُسُ، أَوْ رَبَّمَا غَيَّرَ حُطْطَهُ“. ثُمَّ غَاصَتْ فِي الْمِيَاهِ الدَّفَائِقَةِ الَّتِي تَمَلَأُ حَمَامَهَا الْمُعَطَّرَ، وَابْتَسَمَتْ. ”فَضْلًا عَنِ ذَلِكَ، لَقَدْ رَأَيْتِي مَرَّقُسَ أُزَوِّجَ مَرَّةً. وَقَدْ ضَجَرَ فِي زِفَافِي الْأَخِيرِ. فَلَا أَتَصَوَّرُ أَنَّهُ سَيَجِدُ هَذَا الزَّوْاجَ أَكْثَرَ تَشْوِيْقًا عَلَى الْإِطْلَاقِ“.

بَدَا الْجَمِيْعُ مَسْرُورِينَ جَدًّا بِالتَّرْتِيْبَاتِ، حَتَّى بَدَأَتْ هَدَسَةٌ تُسَائِلُ نَفْسَهَا هَلْ أَسَاءَتْ الْحُكْمَ عَلَى أُرْبَانُسُ. وَقَدْ قَضَى سَاعَاتٍ مَعَ دَسِمُسُ، مُتَنَاقِشِينَ فِي التَّجَارَةِ الْخَارِجِيَّةِ

والسياسة. وبدا أنهما مُتَّفِقان بشأن كلِّ شيءٍ تقريبًا. أمَّا فيبي، فقد كانت مفتونةً بصهرها العتيد. حتَّى عبادتُ البيت اعتقدن أنَّ الألهة ابتسموا لجوليا بجعلهم أربانس يُعزَم بها. ومع ذلك، فكأنَّما نفسُ هَدَسَة أُوتيت لمحةً على شيءٍ خبيثٍ وخطِرٍ مخبوءٍ وراءَ التصرُّفات المصقولة والمظاهر الحسنة.

صباحَ العُرس، كانت جوليا مُتوتِّرةً من الإثارة، وعزمتُ أن تظهرَ أجملَ ما ظهرت يومًا من قبل. فقَصَّصْتُ هَدَسَة بضعَ ساعاتٍ وهي تُصَفِّفُ لها شعرها تصفيفًا مُتَقَنَةً ذاتِ حصيلٍ ملتفٍّ وضمائرٍ مجدولةٍ بسلكٍ من اللألئى النادرة والغالية. أمَّا يالسُ زفافِ جوليا فكان من أفخرِ الفلانيلَّة البيضاء، وقد طُوِّقَ خصرُها النَّحيفِ بزُنَّارٍ صوفيٍّ مُثَبَّتٍ بعقدَةٍ هِرَقْلِيَّةٍ لأجلِ الحظِّ السعيد. ثُمَّ أدخلتُ هَدَسَة الحذاءَ البُرْتقاليَّ اللَّونِ في قَدَمي سيديتها الصغيرتين.

قالت فيبي: ”أنتِ جميلةٌ جدًّا“. وغامتُ عيناها بدموعِ الفخر. ثُمَّ أمسكتُ بيدَ ابنتها وقعدتُ معها على السَّرير. ”أأنتِ خائفة؟“

أجابت ”لا، يا أمَّاه“، وقد أضحكها القلقُ الذي لمحتَه في عيني أمَّها. يا ليتها تعلم! لقد كانت تَوَاقَّةً إلى كائسٍ توفًا شديدًا جدًّا لا تكاد تقوى على احتماله. ولم يكنْ عَزُوفُها هو ما حالَ دونَ وصولها إلى سريرِ كائس، بل حسُّ الشَّرَفِ لديه هو.

وبعنايةٍ رقيقة، رتبتُ فيبي الحجابَ البُرْتقاليَّ على رأسِ جوليا بحيثُ بقيَ فقط الجانِبُ الأيسر من وجهها مكشوفًا. وأعطتُ فيبي ابنتها ثلاثَ قِطَعٍ نقدٍ نُحاسيَّةٍ، وقبَّلتُ خدَّها قائلةً: ”واحدةٌ لزوجك، واثنانِ لألهتكِ البيتيَّة. لتبارِكِكِ الألهةُ بالأولاد!“

فضحكتُ جوليا مسرورةً وقالت: ”أه، أمَّاه، رجاء! لتأتانِ الألهةُ في هذه البركة. أنا أصغرُ سنًا من أن يُكبِّلنِي الأولاد“.

وقفتُ هَدَسَة في مؤخَّرِ الحفَلِ داخلَ الهيكل، فيما أمسكُ كائسُ وجوليا أحدهما بيدَ الآخر. وقد تيسَّرَ لها أن تسمعَ زَعَمَ الحَنزيرَةِ المرعوبَةِ الحادِّ وهي تُجْرُ أمامَ المذبح. وإذ حُرَّتْ رَقَبَتُها، تملَّمتُ بشدَّةٍ فيما سالَ دُمُها على المذبحِ ضحيَّةً مقدَّسةً من أجلِ العروسين.

كاد يُعَمَى على هَدَسَة من العَثَيان، ففرتُ إلى الخارج. ثُمَّ قعدتُ وهي ترتجفُ على الدَّرَجَةِ العاليةِ بقُربِ الباب، حيثُ استطاعتُ أن تسمعَ تلاوةَ عقدِ الزَّواج، دونَ أن ترى أو تشمَّ الدَّم. ألقَتُ رأسها على رُكبتيها المرفوعتين، وأصغتُ إلى صوتِ الكاهنِ الرَّتِيبِ وهو يقرأ الوثائقَ التي تتعلَّقُ بالتزاماتِ المهرِ أكثرَ منها بتعهُدِ العروسين أن يُحِبَّ بعضُهما بعضًا مدَّةَ الحياة. لقد أحزنتُ هَدَسَة. فشبكتُ يديها، وصلَّتُ بحرارةٍ لأجلِ سيديتها.

وإذ مرَّ موكبُ الضيوف، نهضت لتتبعهم. وأغلب الذين حضروا العرس كانوا هناك فقط بداعي الالتزام الاجتماعي تجاه دسِمس قاليريان، راعيهم. فقلة من معارف جوليا كانوا لها شيئاً من المودة.

رافقَ الضيوفُ العروسين إلى دارة كائس في الجانب الأقصى من الحيّ الپالينتينيّ، حيث كان عبده قد أعدوا وليمة. ودهنت جوليا قائمتي الباب بزيت، وعلقت إكليلاً من صوف. وأهدت كائس واحدة من قطع النقد النحاسية. وأعطاهها هو تقدمةً من نارٍ وماء، متنازلاً بذلك عن إدارة شؤون بيته لزوجته الجديدة.

ساعدت هَدسة في خدمة الوليمة الفاخرة التي تلت، مُتعبّةً من مدى اختلاف الجوّ عن الوليمة الاحتفاليّة في زواج جوليا الأوّل. وقد علّق أصدقاء كائس تعليقاتٍ بذيئة، وتعالى كثيرٌ من الضحك. وكانت جوليا متألّقة ومُتوردة الخدين وضاحكةً لما اتّكأ زوجها الجديد بلزيقها وهمس في أذنها. عسى أن يكون كلُّ شيءٍ بخير. ولعلّها أخطأت الحكم على أوربانس. استدعيت هَدسة إلى المطبخ، حيث أعطيت صينيةً من فِضة عليها أكبادٌ وزُ مقوّلةً على شكلٍ وحشٍ رهيب ذي أعضاء مُضخّمة. وإذا أخزأها ذلك المشهد الداعر، خبّطت الصينية على الطاولة وتراجعتُ باشمزار. ”ما خطبك؟ إذا ألحقت ضرراً بصنيعي، فستجلدين حتى يُسلخ جلدك عنك. إن السيد طلب هذا الطبق خصيصاً. فخذيه الآن وقدميه إلى سيّدتك.“

قالت: ”لا!“ بلا تفكير، وقد روّعتها مُجرّد فكرة تقديم شيءٍ غريبٍ وبشعٍ جدّاً كهذا إلى جوليا. فإذا بالضربة التي سدّدها الطباخُ إليها تدفّعها إلى الوراء فترطم بالخرانة.

وأمرَ أخرى: ”خذيها أنت!“ فامتثلت بنشاطٍ وسرور. ثمّ أقبلت على هَدسة ثانية، فتراجعتُ بشهقةٍ فزعٍ ووجهها ينفضُ المأ. ”خذي تلك الصينية من هناك وقدميها إلى الضيوف، الآن!“

مَصّت وهي ترتجف، وقد انفرجت أساريها إذ رأت أنّها لم تكن سوى صينيةٍ كبيرةٍ عليها اثنا عشرَ حجلاً صغيراً، مُحمرّةً ومُتألّثةً بطبقةٍ رقيقةٍ من العسل والتوابل.

تضاحك الضيوف وشجّعوا جوليا إذ غمس كائس أصابعه في التّنين وقربها لعروسه. فضحكت جوليا بمرح، ولعقت الطعام عن أصابعه. واعترى هَدسة الغثيان، فتوجّهت إلى الضيوف الأبعدين عن المشهد، وقدمت الحجال.

وطلب بضعة رجالٍ أن يُطلق العروسان إلى مهجعهما. فحمل كائس جوليا على ذراعيه وخرج بها من القاعة.

لما غادرَ كائس وجوليا، بدأ بعضُ الضيوف يُغادرون. وساعدَ دُرُوس أوكتافيا الشاحبةً والباكية على النهوض عن أريكتيها. كانت سكرانة، ولم تكَد تستطيع أن تمشي. ونهَضَ دَسِمُس عن أريكةِ شَرَف، وساعدَ فيبي على الوقوف. فأومأت لهدسة، ومست ذراعها قائلةً: ”سترجعين إلى الدّارة معنا. لقد أخبرنا كائس أنه ربّ خُدّامًا لجوليا مُقدّمًا، وهو قد أعفّاك من واجباتك مُجَاهها. لا داعي لأن يبدوَ عليك القلقُ، يا هدسة. إذا احتاجت جوليا إليك، فأنت تعلمين أنها ستستدعيك. وفي هذه الأثناء، أنوي تكليفك بعضَ الواجبات.“

انطلقت هدسة سريعاً في ممارسة واجباتها الجديدة، وقد ابتهجت بخدمة فيبي. فإنهما تمعنا بقاء ساعات في الحدائق مهتمتين بالعمل في أحواض الزهور، أو في عُرْفَة النَّسج على المغازل. وقد أحببت هدسة العمل في الحديقة أكثر الكُلّ، إذ استمتعت بالمماشي والتعريشات التي كانت مزهرة مع قدوم الربيع. وأحبت ملمس التربة تحت يديها، ورائحة الزهر المنتشرة في الهواء المنعش. وقد رفرقت العصافير بين الأشجار والتقطت بمناقيرها الحَبّ الذي نثرته لها فيبي على منصات الإطعام المكشوفة.

كان دَسِمُس ينضمّ إليهما بين حينٍ وآخر، فيقعد على بنكٍ رخاميٍّ مُبتسماً بوهنٍ وهو يُكلّم فيبي ويُراقبها تعمل. لقد بدا أحسنَ حالاً بقليل، الأمر الذي عزّت بيثية فضله إلى نفسها. غير أنه لم يكن مُكتسباً قوته من جديد. وفيبي شعرت بأنه قد تحسّن لأنه بات الآن تحت ضغطٍ أخفّ بكثير بعدما استقرت جوليا بسعادةٍ مع زوجها. ولكنه لم يشف من العلة التي به، مهما كانت. وقد فقدت فيبي الإيمانَ بفنون المصريّة الشفائية، وكفّت عن استدعائها لخدمة دَسِمُس، بل باتت تستدعي هدسة بدلاً منها.

”عني لنا، يا هدسة.“

عزفت هدسة على القيثارة الصغيرة ورثلت مزاميرَ علمها أبوها إيّاها في الجليل قديماً. وإذ أغمضت عينيها، استطاعت أن تتظاهر بأنّها هناك مُجدداً، حيث رائحة البحيرة وأصوات الصيادين يتنادون. وتيسر لها، إلى وقتٍ وجيز، أن تنسى أهوال ما حدث لها منذ تلك الرحلة الأخيرة إلى مدينة القدس.

وأحياناً غنت أغنيات الأطفال ما قبل النوم، والتي كانت أمّها تُغنيها لها، ولأختها الصغيرة ليثة. كم كانت ليثة طيبة، وكم تفتقدها! ومن حينٍ إلى آخر، في ظلام الليل وسكونه، كانت تُفكر كيف أغلقت ليثة عينيها وذهبتها عن أهوال هذا العالم القاسي وانطلقت بسلام لتكون عند الله. وكانت تتذكر الذكريات الحلوة الحادة عن الركض بحريّة عبر زناقي الحقل

مع أختها، ضاحكةً من طريقة قفز لَيْثَة وسط الأعشاب العالية مثل الأرنب.

سُرَّتْ هَدَسَة بخدمة آل فاليريان، ولا سِيَّما فيبي، إذ ذكَّرتها إلى حدِّ ما بأُمِّها وهي عاكفةٌ على الاهتمام باحتياجات أهل بيتها بفعاليَّةٍ خالصة. وكما كانت أمُّها تقضي ساعةً في التعبُد للربِّ يسوع حالَ نهوضِها صباحًا من النوم، كانت فيبي تدخلُ إلى لارا رُومِها وتسجدُ لألهِتها البيتيَّة. وقد اعتادتُ أن تضعَ أقراصَ خُبز طازجةً على المذبح، وتزوِّدُ المَبَاخِرَ بالمَبْخُورِ، ثُمَّ توقِّدُ المَجَامِرَ لإصعادِ رائحةِ ذكيَّةٍ لألهِتها الحجرية العديدة. ولم تكن صلواتها أقلَّ إخلاصًا على الإطلاق، مهما كان إيمانها في غير موضعه.

دخل مرقس روما، يغمُرُه شعورٌ قويٌّ براحة العودة إلى الديار. كان راضيًا تمامًا بالنتائج التي أحرزها في أسابيع سفره، إذ عقدَ اتِّفَاقِيَّاتٍ مع بضعة تجارٍ ممن تعاملَ معهم أبوه في الماضي. وقبل الذهاب إلى البيت، ذهبَ إلى الحمامات العامة، تائقًا إلى غسلِ غبار الطريق عنه وتوليِّ مدلكٍ لإراحته من الوجع الذي خلفته أسابيع السفر.

كان أنتيغونوس في التَّيِّيدارُومِ، مُنتَقِعًا في الماء الدافئ مع حاشية من المتملِّقين. وتجاهلهم مرقس فيما كان عبدٌ يشطفُه بماءٍ حارٍّ. ثُمَّ نزل إلى الماء مُتَنَهِّدًا واستندَ إلى الحافَّة، مُغْمِضًا عَيْنَيْهِ ومُتِيحًا للمياه أن تُهدِّئه.

صرفَ أنتيغونوس أصحابه عنه، ثُمَّ انضمَّ إلى مرقس. ”طال غيابك يا مرقس. أكانت سفرتك مُريحَة؟“ وتحدَّثنا لحظاتٍ قليلةً بشؤون التجارة والطلبِ الرُّومانيِّ لمزيدٍ من البضائع. قال أنتيغونوس: ”رايتُ جوليا مع زوجها منذ بضعة أيَّام“.

انفتحتَ عينا مرقس حالًا: ”مع من؟“

أجابهُ: ”وحياةِ الألهة! أنت لا تعلم. أظنُّ أنك لم ترَ عائلتك بعد. حسنا، فلأنورِّك بشأن ما جرى في أثناء غيابك. إن أختك الجميلة تزوجت بكائس بولونيوس أربانس منذ بضعة أسابيع. لم تصلني دعوة، ما دمتُ لا أعرف الفتى الماجد. هل تعرفه؟ لا؟ أمرٌ مؤسف. كلُّ واحدٍ يحفرُه الفضول بشأن أربانس، ولكن لا أحدٌ يعرفُ كثيرًا عنه ما عدا كونه، على ما يبدو، يملك كثيرًا من المال. أمَّا كيف كسبه، فلغزٌ مُحير. إنه يقضي مُعظمَ وقته في حضور الألعاب. وتقول شائعةٌ إنه كان عشيق كالاباه شيفًا فُنتانيوس“.

غادرَ مرقس البركة على عَجَلٍ، قائلاً: ”أرجو أن تعذِّرنِي، يا أنتيغونوس“.

ومضى إلى البيت مُباشرةً، فوجدَ أباه في التريكلينيوم (غرفة الشفرة) مع أمه. فأقبلتْ

أُمّه بشهقةٍ فَرَحَ، وعانقتهُ. وقد صعقه ازدِيادُ الشَّيبِ في صُدغِي أبيه، وقَلَّةُ وزنه. وإذ قعدَ على أريكة، وتناولَ كأسَ خمرٍ سكبها له أحنوخ، قال: ”عَرَّجْتُ على الحَمَّاماتِ، ورأيت أنتيغونُسَ“.

فقال دَسِيسُ، وقد رأى شرارَ الغضبِ في عيني ابنة: ”وأخبركَ بأن جوليا تزوجت. من المؤسِفِ أنَّك لم تأتِ إلى البيتِ أولاً وتسمعِ الخبرَ منّا“.

”متى حصل ذلك؟“

برمت فيبي صينيَّةُ شرائحِ العِجلِ بحيثُ تصيرُ القِطَعُ الممتازةُ أقربَ إليه، وقالت: ”منذ بضعةِ أسابيع. كُلُّ قليلاً، يا مَرَقُس. تبدو أكثرَ نحولاً بما كُنْتَ أحرَّ مرَّةً رأيناك“.

عافَ مَرَقُسُ الطَّعامَ، وقال: ”ماذا تعرفان عن هذا الرَّجُلِ؟“

أجاب دَسِيسُ: ”إنه يُتاجرُ بالبضائعِ الأجنبية ويُرْتبِ صفقاتٍ مع الحدودِ الشماليَّةِ“. ثمَّ صبَّ لنفسه مزيداً من الخمرِ، وأضاف: ”غيرَ ذلك، لم يتمكَّنْ وكلائي من معرفة الكثيرِ عنه“.

”وقد سمحتَ لجوليا بأن تتزوجَ به بوجودِ هذه المعلوماتِ الضئيلةِ جدًّا؟“

”استفسرنا عن كائس، وعلمنا ما تيسرَ لنا. وقد دَعَوناه إلى هنا عدَّةَ مرَّاتٍ، فوجدناه ذكيًّا وفاتناً ومُتَقَفًّا. أحتكُّ مُغرَمةً به، وحسبَ جميعِ المظاهرِ هو أيضاً مُغرَمٌ بها“.

”أو بما لها“.

فرفعَ دَسِيسُ أحدَ حاجبيه. ”أهذا هو ما يُغضبُكَ حقًّا بشأنِ الأمرِ كلِّه؟ لا أن زِفافَ جوليا قد فاتك، بل أنك سَنصطِرُّ إلى التخلِّي عن السَّيطرةِ على ملكيَّةِ كلاوديوس“.

لُسعَ مَرَقُسُ، فحطَّ الكأسَ حَبَطًا، وقال جازمًا: ”إذا كُنْتَ تذكُر، فأنا تولَّيتُ المسؤوليَّةَ لأنَّك كُنْتَ في أفْسُس. ولما رجعتَ، طلبتَ منِّي أن أستمرَّ في إدارةِ الملكيَّةِ. لم أقبضَ ربحَ دينارٍ واحدٍ من أيِّ شيءٍ قمتُ به لأجلها“.

وتنهَّدَ دَسِيسُ. ”أستميحكُ عُدْرًا. كان اهتمامك مُقدَّرًا كلَّ حين. وقد تركتُ لك زِمَامَ التصرُّفِ لأنَّ قراراتِكَ كانت صائبة. لقد كانت ملكيَّةُ جوليا في أمانٍ تحت يدِكَ. ولكنَّ عبءَ تلكِ المسؤوليَّةِ رُفِعَ عنك الآن“.

”ليسَ بهذهِ السَّريعةِ، يا أبي. لن أتنازلَ عن السَّيطرةِ حتَّى أتيقنَ بأنَّ زوجَ جوليا هذا ليس مُبَدَّرًا“.

فقال دَسِيسُ بحزمٍ: ”لا حقَّ قانونيًّا لك بأن تحتفظَ بالسيطرةِ على ملكيَّتها. فلما اتَّخذَ

كأيس بولونيوس أربانس أحتك زوجة له، حاز أيضًا كل ما تمتلكه، ومن الجملة كذلك ملكية كلاوديوس .“

فكر مرقس في هدسه، وأحس شعورًا مزعجًا ينعقد في معدته. إنها كانت واحدًا من ممتلكات جوليا. فمن كان أربانس هذا، وأي شعور سيخالجه حيال جارية زوجته الجديدة؟ وإذ ارتبك بشأن مشاعره تجاه فتاة عبدة، اختبأ وراء بواذر قلقة على جوليا.

”وإذا أردت أن تبقي الترتيبات المالية على حالها؟“

”لم يعد من حق جوليا أن تقرر قرارًا كهذا“.

نهضت فيبي واقتربت إلى مرقس. ”ما إن ترى كم هي سعيدة مع كأيس، حتى تشعر شعورًا أهون حيال إعطاء أبيك موافقته على الزواج“.

ذهب مرقس لرؤية جوليا عصر اليوم التالي. ولما وصل إلى دار أربانس، كانت جوليا ما تزال في سريرها. ولكن لما قيل لها إن أخاها قد حضر، لم تتوان عن الانضمام إليه. وقد اندفعت إليه وعانقته هاتفة: ”مرقس! أوه، أنا مسرورة جدًا بلقائك!“

فوجئ مرقس إذ رآها غير مرتبة جدًا. فقد كان شعرها الطويل حتى الحصر مشعثًا، ووجهها دون مستحضرات. وقد بدت متعبة، وكانت ترتجف، كما لو كانت تعاني عواقب الإفراط في الشرب. وظهرت على عنقها سمة حمراء صغيرة مدورة، بيئة مقلقة على شدة الشغف.

فأتملأها قلقًا، وقال: ”تصوري كم فوجئت لما رجعت وسمعتُ خبر زواجك!“

ضحكت جوليا بمرح. ”أنا أسفة، ولكن لم يكن في وسعي أن أنتظر. إذ كان قد مضى على غيابك شهران، ولم تبعث بخبر يفيدنا بأقرب وقت يمكنك العودة فيه. سيُعجبك كأيس. بينك وبينه كثير من النقاط المشتركة. فهو مشغوف بالألعاب“.

”كيف قابلته؟“

فارتسمت ابتسامة خبيث على وجهها، وقالت: ”عرفتنا كالاباء أهدنا إلى الآخر“.

وانقبض فمه حيال اعترافها السريع بتحديها له ولأبيه. ”لا يكاد ذلك أن يكون من الأمور الحميدة“.

أفلتت جوليا يديه وابتعدت عنه. ”يؤسفني أنك لا تحبها، يا مرقس. ولكن ذلك لا يحدث عندي أي فرق على الإطلاق“. ثم التفتت وواجهته غاضبة ومدافعة. ”في وسعي

روما

أن أفعل ما أشاء الآن. ما عدتُ بحاجةٍ إلى إذنِ أبي، أو إذنك، لاختيارِ مَنْ أصادقُ“ .
استطاع مرقس أن يلمس تأثيرَ كالأباه. ”لم أجد لأجدلِكَ، بل جئتُ لأرى هل أنت سعيدة“ .

فارتعشَ ذقنها، وقالت: ”أطمئنك بأنني كذلك. فأنا الآن أسعدُ مما كنتُ في أيِّ يومٍ من حياتي“ .

قال بانزعاجٍ ظاهرٍ: ”حقًا! يسرني سماعُ هذا. لكِ تهنئاتي على الإفلات من برائثنا، واعتذاراتي عن التداخل في حرمتك المحرزة حديثًا“ .

وإزاء غضبه، تبخَّرَ تحديَّ جوليا، وسارعتُ إلى تتيه عن المغادرة. ”أه مرقس! لا تكن صعب المراس كثيرًا! أنت ما جئتُ إلا لرؤيتي، فلا تتشامخْ مُبتعدًا عني. ليس في وسعي تحمُّلُ ذلك“ . وعانقته كما كانت تفعلُ دائمًا منذُ كانت فتاةً صغيرةً تؤلِّفه، فلأن هنيئًا. ثم أضافت بعد ما تراجعت قليلاً: ”أنت لا تحبُّ كالأباه إلا لأنك لا تعرفها كما أعرفها أنا“ . وأمسكت يديه بيديها. ”أنا لستُ مثلَ الوالدة. وأنت تعرفُ هذا. فلستُ قانعةً بأن أغزلَ وأعتى بحاجات الجميع قبل حاجاتي الخاصة. إنني أبتغي الإثارة مثلما تبتغيها أنت، يا مرقس. لقد جمعتُ الآلهة كائس وإيائي معًا“ .

تفحصَ وجهَ أخته باحثًا عن إشراقِ عروسٍ جديدة، فرأى إلى جانبها إرهاقَ عيشيةٍ ماجنة. وربتَ خدَّها بلطف. ”أنت سعيدة حقًا؟“

”أوه، أنا كذلك! إن كائس وسيمٌ ومثيرٌ جدًا. وعندما لا يكونُ هنا، فكلُّ ما أستطيعُ التفكيرِ فيه يتعلَّقُ به وبموعد عودته“ . وتوردُ خدَّها، ثم قالت ضاحكةً: ”لا تنظرُ إليَّ بهذه الطريقة. تعال واقعد معي في التهوذي الأعمدة. لم أكلُ بعد، وأنا جائعةٌ جدًا“ . ثم فرقتُ أصابعها وأمرتُ واحدةً من الخدم بإحضار طعامٍ لها.

تحدتُ جوليا بشأن الحفلات التي حضرتها برفقة كائس، وهي من النوع الذي كان يروق أريًا دائمًا. وقالت كما لو كانت تقرأ أفكاره: ”رأيتُ أريًا منذ بضعة أيام. وسألني عن كنتُ تُقابل. لقد أوقعتُ مُحاربًا في حباتها. جسّمهُ مغمسى بالندوب، وهو بشعٌ جدًا“ .

وتذمّرتُ بشأن ما أحضرته الخادمة، طالبةً منها أن ترجع لإحضار فواكه طازجةٍ وخبز. وقالت بانزعاجٍ: ”إنني أفقدُ هدسة. لقد كانتُ دائمًا تعرفُ ما أريد. هؤلاء الخادماَتُ مغلَّاتٌ وبطيئاتٌ جدًا“ .

فسألها مرقس بأقصى حرصٍ يستطيعه: ”ماذا فعلتِ بها؟“ وكان قلبه يخفقُ بسرعةٍ

وَعَرَقُ بارِدٌ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَسَدِهِ.

”إِنَّ كَائِسَ لَا يَحِبُّ الْيَهُودَ لِأَنَّهُمْ مُفْرِطُونَ الْإِحْتِشَامَ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَحِبَّهَا لِأَنَّهُ رَأَاهَا مُحْتَقِرَةً بَسِيطَةً“.

وَصَلَ أَرِبَانُسُ قَبْلَ أَنْ يُتَاحَ لِمَرْقُسَ طَرْحُ مَزِيدٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ. فَنَهَضَتْ جُولِيَا مُسْرِعَةً حَالِمًا رَأْتَهُ وَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ فَوْرًا. فَقَبَّلَهَا قُبْلَةً خَاطِفَةً نَاطِرًا إِلَيْهَا مُتَفَحِّصًا بِابْتِسَامَةٍ سَاخِرَةٍ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِهَا. وَانْكَمَشَتْ جُولِيَا قَلِيلًا ثُمَّ دَارَتْ. ”مَرْقُسَ، هَذَا كَائِسُ. سَأَتْرُكُكُمْ أَنْتُمَا الْإِثْنَيْنِ وَأُرْتَبُ نَفْسِي قَلِيلًا“. وَمَضَتْ عَلَى عَجَلٍ، تَارِكَةً مَرْقُسَ مَعَ زَوْجِهَا الْجَدِيدِ.

مَشَى كَائِسُ نَحْوَ مَرْقُسَ مُتَهَادِيًا، وَقَالَ: ”لَا بَدَّ أَنْ تَتَسَاءَلَ بِشَأْنِ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا حِينَ تُرْحَبُ بِكَ أَخْتُكَ مِنْ سَرِيرِنَا مُبَاشِرَةً“.

أَتَضَحَّ لِمَرْقُسَ لِمَاذَا أُغْرِمْتَ جُولِيَا بِأَرِبَانُسَ. فَقَدْ كَانَ مِنْ نَوْعِ الرِّجَالِ الَّذِي يَخْلَبُ لُبَّ أَيْةِ امْرَأَةٍ: أَسْمَرَ، حَسَنَ الْبَنِيَةِ، يَفِيضُ رُجُولَةً. وَقَدْ كَانَتْ بِسَمْتِهِ الْغَامِضَةُ تَسِيمُ بِالْتَّحْدِي. فَقَابَلَهَا مَرْقُسَ بِإِحْدَى بَسِمَاتِهِ، كَاطِمًا الدَّفَاعَ إِلَى سُؤَالِهِ عَمَّا فَعَلَ بِهَدَسَةَ.

قَالَ أَرِبَانُسُ: ”جُولِيَا تَتَحَدَّثُ بِشَأْنِكَ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ. يَكَادُ الْمَرْءُ يَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَحَدَّرْتَ مِنْ الْأَلِهَةِ“. وَاتَّكَأَ عَلَى أَحَدِ الْأَعْمَدَةِ الرُّخَامِيَّةِ، مُبْدِيًا حَمَلَقَةً بَارِدَةً.

”لَدَى كُلِّ أُخْتٍ صُغْرَى طَرِيقَتُهَا فِي تَأْلِيهِ أَخِيهَا الْأَكْبَرِ“.

”بَيْنَ عُمَرَيْكُمَا فَرْقٌ مَلْحُوظٌ“.

”فَقَدْنَا أُخْوَيْنَ بِالْحُمَى“.

”إِنَّهَا لَا تَذَكُرُهُمَا“.

”لَمْ تَعْرِفْهُمَا. أَلَيْكَ عَائِلَةٌ، يَا كَائِسُ؟“

اسْتَقَامَ كَائِسُ وَمَشَى بِمُحَادَاةِ حَاقَةِ الْبَرَكَةِ. وَكَانَ الصَّوْتُ الْوَحِيدُ الَّذِي سُمِعَ فِي غَضُونِ لِحْظَاتٍ هُوَ رَشَاشُ النَّافُورَةِ. ثُمَّ قَالَ بِبَسَاطَةٍ: ”لَا! حَتَّى تَزَوَّجْتُ بِجُولِيَا“. وَابْتَسَمَ، فَلَمْ يَكُنْ مَرْقُسَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنْ مَا رَأَاهُ عَلَى وَجْهِهِ كَائِسُ قَدْ رَاقَهُ. ثُمَّ مَضَى يَقُولُ، وَهُوَ نَاطِرٌ إِلَى مَرْقُسَ بَثْبَاتٍ: ”لَقَدْ رَحَّبَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ بِي بِأَذْرُعٍ مَفْتُوحَةٍ“.

”سَأَحْتَفِظُ بِتَرْحِيبِي حَتَّى أَتَعْرِفَ إِلَيْكَ جَيِّدًا“.

فَضَحَكَ كَائِسُ وَقَالَ: ”رَجُلٌ صَرِيحٌ. شَيْءٌ مُنْعِشٌ“. ثُمَّ دَخَلَ خَادِمُ الْيَهُودِ ذَا الْأَعْمَدَةِ وَقَدَّمَ إِلَى كَائِسَ نَبِيذًا. وَإِذْ أَوْمَأَ كَائِسُ بِرَأْسِهِ، تَقَدَّمَ الْعَبْدُ إِلَى مَرْقُسَ، فَرَفَضَ. وَارْتَشَفَ كَائِسُ

نبيذَه هُنَيْهَةٌ، مُتَأَمَّلًا مَرْقُسَ من فوقِ حَافَةِ كَأسِهِ الفِضِّيَّةِ. ”عَلِمْتُ أَنَّكَ كُنْتَ تَتَوَلَّى إِدَارَةَ مَلِكِيَّةِ جُولِيَا“ .

”أَتَوَدُّ الحُصُولَ على كَشْفِ حِسابِ؟“

”على رَاحَتِكَ“ . وَأَنْزَلَ كَأسَهُ. ”بِنَاءِ على كُلِّ ما سَمِعْتَهُ عَنكَ، لَمْ أَظُنَّ أَنَّكَ سَتَكُونُ مُوَافِقًا تَمَامًا على ذَلِكَ“ .

”أَنْتِ زَوْجُ أُخْتِي. وَالمَسْؤُولِيَّةُ عَن مَلِكِيَّتِهَا تَقَعُ على عَاتِقِكَ الآنَ“ .

”صَحِيحٌ! إِنَّهُ مَبْلَغٌ كَبِيرٌ مِنَ المَالِ“ . وَأَشْرَقَتْ عَيْنَاهُ القَاتِمَتَانِ بِشَرًّا.

وَدَّ مَرْقُسُ لو يَدْرِي كَيْفَ عَرَفَ كَائِسُ ما يَنْطَوِي الأَمْرُ عِليه. حَتَّى جُولِيَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ. رَيمًا أَطْلَعَهُ الوَالِدُ على التَّفَاصِيلِ، وَلَكِنَّ مَرْقُسَ شَكَّ في ذَلِكَ. فَقد كَانَ مِنَ شَأْنِ الوالدِ أَن يَدْعَ الأَمْرَ لَهُ.

وَقَالَ كَائِسُ على مَهَلٍ: ”لَعَلَّ في وُسْعِنَا أَن نَتَوَصَّلَ إلى اتِّفَاقٍ في ما بَيْنِنَا. لَكَ أَن تَسْتَمِرَّ في إِدَارَةِ المَلِكِيَّةِ، على أَن تَدْفِعَ لي قِسْطًا مَعْلُومًا كُلَّ شَهْرٍ“ .

أَمْرٌ بَارِعٌ جَدًّا. هَكَذَا فَكَّرَ مَرْقُسُ سَاخِرًا. ثُمَّ قَالَ بِعِنْفَةٍ: ”إِنِّي عَادَةً أَتَقاضِي أَجْرًا لِقَاءِ خِدْمَاتِي“ ، وَهو لَا يَتَوَيَّ أَن يَصِيرَ خَادِمًا خَانِعًا لِأُرْبَانُسَ.

فَقَالَ كَائِسُ بِتَهَكُّمٍ: ”حَتَّى مِنَ عَائِلَتِكَ بِعَيْنِهَا؟“

وَرَدَّ مَرْقُسُ بِأُطْفٍ: ”نِسْبَةُ مَثْوِيَّةٍ مِنَ الأَرْبَاحِ، نِسْبَةٌ كَبِيرَةٌ“ .

فَضَحِكَ كَائِسُ ضَحِكًا خَفِيفًا. ”إِنَّمَا سَاوَرَنِي الفُضُولُ كِي أَرى ما سَتَقُولُ. إِنِّي قَادِرٌ تَمَامًا على تَصْرِيفِ الأُمُورِ بِنَفْسِي. أَنْتِ تَعْلَمُ، يا مَرْقُسُ، أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنِي أَشْيَاءَ مُشْتَرَكَةً كَثِيرَةً“ .

”هَكَذَا قَالَتْ جُولِيَا قَبْلَ قَلِيلٍ“ . وَقد رَاقَهُ بَعْدُ بِدَرَجَةٍ أَقْلٍ أَن يَسْمَعَ ذَلِكَ مِنَ أُرْبَانُسَ.

لَبِثَ مَرْقُسُ فَقط بِقدرِ ما تَسْمَعُ بِهِ اللَّيَاقَةَ. وَرَجَعَتْ جُولِيَا إلى البَهْوِ ذِي الأَعْمَدَةِ مَرْتَدِيَّةً بِالأَسَا صُوفِيًّا غَالِيًّا فَاخِرًا. وَقد لَبِسَتْ لِأَلَمِ حَوْلِ عُنُقِهَا، كَمَا ضُفِرَتْ أُخْرَى في لَفَاتِ شَعْرِهَا المَرْفُوعَةِ عَالِيًّا على رَأْسِهَا. فَمَسَّتْ لِأَلَمِهَا بِأَصْبَعِهَا وَقَالَتْ مُتَبَاهِيَّةً بِهَا أَمَامَ أُخْيَها: ”أَلَيْسَتْ جَمِيلَةً؟“ لَقَدْ كَانَتْ أَغْلَى حُلَى تَافِهَةٍ يَمَكُنُ أَن تَقْتَنِيَهَا امْرَأَةٌ. ”قَدَّمَهَا إلى كَائِسَ لَيْلَةَ عُرْسِنَا“ .

كَانَتْ الحَلَقَاتُ الدَاكِنَةُ تَحْتَ عَيْنَيْهَا قَدْ غُطِّيتْ بِالمَسْتَحْضِرَاتِ بِمَهَارَةٍ، وَأُضْفِيَّ على

خديها الشاحبين وشففتيها شيء من التوريد القرنفلي. ولو لم يرها قبل ساعة، لما كان قد عرف أنها كانت متعبة ومرهقة من جراء الحفلة التي اصطحبها أربانس إليها البارحة. وقد باتت ثرثرتها المنشطة مزعجة، وجاءت إغاظه أربانس لها حافلة بالغمز واللمز، الأمر الذي أضحكها. وإذا لم يعد مرقس قادراً على تحمل المزيد، استأذن وانصرف.

عاد مرقس إلى البيت مكتئباً. ولما دخل المنزل، ناوّل أخنوخ عباءته. وسمع صوت أبيه في القاعة العامة، حيث كان يلتقي عملاءه كل صباح، فذهب لينصم إليه. وقال: "هدسة! حالمًا رآها واقفة أمام أبيه وأمه. وما إن قال ذلك، حتى ارتبك. "ماذا يجري؟"

رفع دسّس نظره إلى ابنه، فرأى على وجهه سيماء لم يسبق قط أن رآها من قبل. "لقد اتهمتها ببثية السرقة". لم يكن دسّس قد تمكن من معرفة حقيقة التهمة حتى الآن. ولاحظ باهتمام متزايد أن مرقس لم يكذب ينتبه إلى العدة المصرية، بل بدا في الواقع أن عينيه شاخصتان إلى هدسة وحدها دون سواها.

"سرقة؟" قالها مرقس جاذبًا حملقته بعيداً عن هدسة لدى دخوله القاعة. وغاص قلبه. ثم نظر إلى ببثية فرأى عينيهما الداكنتين تتلألآن انفعالاً. وكثيراً ما كان قد رأى تلك النظرة في عيني أريا بحيث ميّزاها. فإن ببثية كانت مضطربة غيراً من أجل شيء ما. فسأل ببرودة: "الدى ببثية أي إثبات؟"

أجاب دسّس: "كنا سنتطرق إلى هذا توًا". وكانت فيبي جالسة على مقعد بجواره، شاحبة وذاهلة. وقد وقفت هدسة أمامه صامتة، مطرقة رأسها. ولم تندفع إلى الدفاع عن نفسها حالاً، بل إنَّها بالحقيقة لم تكن قد قالت أي شيء على الإطلاق حتى الآن. فسأل مرقس الخادمة المصرية: "أي إثبات لديك ضد هدسة؟"

قالت ببثية بإصرار: "لقد رأيتها بعيني!" وسمت اثنتين أخريين من عبيد البيت يمكنهما أن تؤيدا دعواها. واستدعاها دسّس، فأجابتا بالإيجاب، قائلتين إنهما رأتا هدسة تعطي امرأة في السوق قطعة نقد.

لم يستطع مرقس أن يصدق ما سمعته أذناه. وقد بدت ببثية معتددة بنفسها وبغضبة إذ وافقت الشهادتان الأخريان شهادتها. فشرع بدفقة من الكره الشديد لها، وساءل نفسه عما وجدته جذاباً لديها في المقام الأول.

قال دسّس متجهماً: "هدسة". فرفعت نظرها مرعوبة ومشحوبة. "أهذا صحيح؟ هل أعطيت امرأة في السوق قطعة نقد؟"

”نعم، سيدي“ .

وَدَّ دَسِمُسُ لو أَنَّهَا كذبت. وتنهَّد تنهَّدَةً ثَقِيلَةً. فَإِنَّهُ سَيَعِيدُ إِلَى جَلْدِهَا، وَتَسَاءَلَ هل يَتَحَمَّلُ جِسْمُهَا النَّاحِلُ تلكَ العُقوبة. ولم تُعْجِبْهُ السِّمَاءُ المُرْتَسِمَةُ على وجهِ بَيْثِيَّة. وارتابَ في أن تكونَ بَيْثِيَّة مُستاءةً من هَدَسَةَ إذ باتتِ الآن تُستدعى لخدمتهما بدلاً منها. ”غادرينا، بَيْثِيَّة“. إن كان سيُضطرُّ إلى مُعاقبة هَدَسَةَ، فلن يفعلَ ذلكَ قُدَّامَ عِبْدَةِ شامِيتة. ثمَّ صرفَ الأخرينَ أيضًا.

قال دَسِمُسُ: ”تعرفين أن عقوبة السرقة هي الجلد“. فانكشست هَدَسَةَ على ما بدا، وإن كانت لم تُقدِّمَ أيَّ دفاع. وكانت فيبي تزدادُ دُهولاً باطراد.

”دَسِمُسُ، لا أستطيع أن أصدق أنها سرقتنا. لقد دأبت في تقديم حسابٍ كاملٍ دائماً...“

رفع دَسِمُسُ يدهُ بمهابة، فلاذت فيبي بالصمت. لقد كان غاضباً لوضعه في هذا الموقف الخرج، وخطابَ هَدَسَةَ مباشرةً. ”إننا ننبه كلَّ عبد يدخل بيتنا إلى العقوبة التي تستدعيها السرقة. فماذا دهالك حتى أعطيت مالا استأمنتك عليه سيديتك؟“

”لقد أعطيتُ قطعةَ النِّقدِ التي أكرمتني بها، سيدي“ .

فقال عابسا: ”قطعةَ النِّقدِ التي أكرمتك بها؟“

”الپكيوليوم، سيدي“ .

طرفت عينا دَسِمُسُ. فكلَّ صباح، كان يجلسُ على كُرسيِّهِ العديمِ الظَّهرِ (الكورول) ويوزعُ قِطَعِ النِّقدِ على عشراتٍ من عُملائه. كذلك أيضًا كان يهبُ كلاً من العبيد الأذنين مبلغاً قدره كُودرنس واحد، وأخنوخ والطباخُ بأكثر. ولم يكذبُ يُصدقُ أن تُعطيَ عِبْدَةَ پكيوليومها.

مالت فيبي مقتربةً إلى دَسِمُسُ من جديد، ووضعت يدها على ذراعه. ”لطالما قدَّمت هَدَسَةَ دائماً حساباً عن كلِّ قطعةِ نقدٍ أعطيتها إيَّاهَا“ .

فتأملَ هَدَسَةَ بتركيزٍ عابسا. ”هل أعطيتِ مرَّةً أيَّ شيءٍ من المال الذي أعطتك سيديتك إيَّاه؟“

”لا، سيدي، بل فقط ما أعطيتني إيَّاه بصفة پكيوليوم“ .

”ولكن لماذا تُعطينَ المبلغ الخاص بك؟“

”لم أكن مُحتاجةً إليه، سيدي، وكأنتِ المرأةُ مُحتاجةٌ.“

”أيّ امرأةٍ كانت هذه؟“

”امرأةُ التقيتها في الشارع.“

اقترَبَ مَرَقْسُ أكثر، وقد أذهله ما كانت تقولهُ. ”أنتِ عَبدَةٌ لا تملكين شيئاً. وهذا المبلغ هو كلُّ ما يمكنُ أن تحصلِي عليه من مال. فلماذا لم تحتفظِي به لنفسك؟“

فأبقت عينيها مخفوضتين على نحوٍ لائق، وقالت: ”عندي طعامٌ أكلهُ، سيدي، ومكانٌ دافئٌ أنا، وفيه، وثيابٌ تسترني. أمّا المرأةُ فلم يكن عندها شيءٌ من هذه كُلِّها. لقد ماتَ زوجها منذ بضعة أشهر، وابنها جنديٌّ على الحدودِ الجِرمانيَّةِ.“

حدَّقَ دَسِمُسُ إليها سائلاً: ”أنتِ اليهوديَّةُ أعطيتِ رومانيَّةً مالا؟“

عندئذٍ رفعتَ نظرَها إليه، وعيناها مُغرورقتان. كانت ترتجفُ خوفاً منه، ولكنها أرادتْ له أن يفهمَ الحقيقةَ. ”لقد كانت جائعةً، يا سيدي. والكودرنسُ الذي أعطيتني كان كافياً لشراء خُبزٍ لها.“

اعتدلَ دَسِمُسُ في جلسته مشدوهاً. لم يستطع أن يتصوّر كيف يتأتى لعبدَةٍ تملك بضعة قطعٍ من النقود أن تصدّقَ بها كُلِّها على واحدةٍ من أعداء بني شعبها. ”لك أن تنصري، يا هُدسة. الپكيوليوم لك، تفعلين به ما يروقُك. فأعطيهِ لِن شئت.“

”شكراً لك، سيدي.“ وراقبها تُغادرُ القاعة، ثمّ التفتت إلى فيبي فرأى عينيها مُغرورقتين، وأمسك يدها.

فنظرت إليه، قائلةً: ”إذا قدّمت بيثية اتهاماتٍ أخرى، يا دَسِمُس، فسأطلبُ إذتك بأن أبيعها.“

قال: ”بيعيها الآن، إذا شئت.“ ثمّ التفتت إلى مَرَقْس. ”إلا إذا أحببت أن تصطحبها كي تدفعي لك السرير في دارتك.“

لم يكن مَرَقْسُ مُدركاً أنّ أباه عالمٌ تماماً بشؤونه الغرامية الخاصة، ولا أنه على استعدادٍ لمناقشته فيها صراحةً أمام أمه. ”شكراً، ولكن لا. لسْتُ أريدُ أيّ شيءٍ آخر مما يتعلّق بها.“

ثمّ قال دَسِمُسُ لفيبي: ”أفعلي كما تريدين.“ فقامت وُغادرتِ القاعة.

نظر الأبُّ والابن أحدهما إلى الآخر. وانقبضَ فمُ مَرَقْس. ”جاءت بيثية إلى غرفتي بملء اختيارها أوّل مرّة.“

”أنا على يقين بأنها فعلت ذلك. ولكنني أشك في أن هدسة ستتصرف يوماً على هذا النحو“.

تصلب مرقس وقدحت عيناه شرراً. ”ماذا تعني؟“

فقال: ”أنت تعرف ما أعني؟“ وتنهَّد ثانية. ”لقد أعادتها جوليا إلينا...“

وتابع مرقس مقاطعاً بسخرية: ”لأن أربانس يكره اليهود المفرطي الاحتشام“.

ترجَّح حاجباً ديسمس، ولكنه لم يدل بأي تعليق حول ذلك الكشف المفاجئ. وكان قد تساءل عن سبب إعادة هدسة. ”يُخيل إلي أنني أتذكر إبداءك تحفظات ماثلة لما جاءت بها أمك. فقد قلت إنها يمكن أن تُضمِر حقدًا على جميع الرومان. وقلت أيضاً إنها بشعة، على ما أذكر“. وبدا واضحاً أن مرقس لم يُرَّقه تذكيره بذلك. فابتسم ديسمس ابتسامة ضيقة. ”حقيقة الأمر أن جوليا قد أعادتها، وأن هدسة الآن تحت حمايتي“.

ضحك مرقس من ذلك التصريح المدهش. وقال: ”وأنت تريد مني أن أبقى يدي بعيدتين عنها“، محاولاً أن يُبدي شيئاً من الدعابة، لكن مُحققاً في إخفاء حدة صوته.

لم يقل ديسمس شيئاً للحظة، وحملته ثابتة ومُخمَّنة بفتور. ثم قال: ”إن مشاعرك تطمو عليها عالية!“ ورأى أن اختياره للكلمات أزعج مرقس أكثر بعد، فقال: ”لا أعتقد أنك استغللت هدسة“. ورفع حاجبيه، شبه متسائل.

أجاب مرقس: ”لا، ما استغللتها، يا أبي“. لقد كان اختياراً للكلمات مُقلِّفاً. ”لم أرغِم امرأة قط على العمل بإرادتي“.

”هنالك سُبُلٌ أخرى للإرغام فضلاً عن السبيل الماديّ. فأنت سيّد؛ وهي عبدة. إن والدتك لم ترض قط على عبثك مع بيثية أو الأخرجات اللواتي حُزَّتهنَّ قبلها. وبصراحة، لم أفكر في هذا الأمر كثيراً قبل الآن. أنت فتية وناقص بالحياة، يا مرقس. ولطالما كانت النساء مُنجذبات إليك دائماً. وقد بدا طبيعياً فحسب أن تحصل على مسرتك“.

ثم نهض عن كوروله ونزل عن المنصة ليقف مقابل ابنه. ”لكن هذه الفتاة مختلفة“. وهز رأسه، وهو ما زال مشدوهاً وحاتراً. ”بعد كل ما مررت هدسة فيه، تتصدق بكل ما تملكه على امرأة رومانية، أم لجندي!“ ثم هز رأسه مرةً أخرى وأطلق نفساً رقيقاً.

ونظر إلى مرقس، قائلاً: ”هدسة ليست كالأخرجات، يا مرقس. إنها ليست أبداً مثل آية واحدة امتلكتها من قبل“. فهي لم تكن مثل آية واحدة عرفها على الإطلاق.

ثُمَّ مَدَّ دَسِيسُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ ذِرَاعَ مَرْقُسَ، مُطْرِبًا وَمُنَاشِدًا فِي أَنْ. ”أَحْصُلُ عَلَى مَسْرَتِكَ
مِنَ الْأُخْرِيَّاتِ، إِنَّمَا دَعَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ وَشَأْنَهَا“.

وبعد ما غادر أبو مرقس الغرفة، قعد مرقس على حافة المنصة ومشط شعره إلى الوراء
بأصابع يده. إنه لم يقطع أي وعود.

كيف يمكنه ذلك فيما كانت هدسة هي كل ما فكر فيه؟

١٩

اعتري الارتجاف جوليا وهي تُكلم كالاباه. وكانت كالاباه تتفهّم دائماً. فقد كانت دائماً تصغي وتقدّم مقترحاتٍ في وسع جوليا أن تُجربها. وقد اتفقت معها وأبدت لها عطفًا صادقًا. ووثقت جوليا بها إلى حدّ جعلها تُخبرها بكلّ ما كان جارياً في زواجها. فلم يكن من شخصٍ آخر سواها يُمكنها التحدّث إليه بشأن كائس ومطالبه المتفاقمة عنفاً وشدوذاً.

”لقد صفتني ثانياً البارحة“. ثمّ وضعت أصابعها على البقعة اللينة فوق عظم وجنتها، وأمالت ذقنها قليلاً كي تُظهر التورم. ”أمكّنك أن تری؟ ههنا. لقد بتّ بارعةً تماماً في استخدام المستحضرات إبان الأشهر القليلة الماضية“. وارتعش فمها. ”كالاباه، كلّ ما قلته كان «هل حالفك الحظّ في السباقات؟» فصرخ عليّ ساباً بأفصح الشتائم ولائماً إياي على خسارته. كنت متوعكةً، ولم تكن الغلطة غلطتي. وقد أفزعني، فهَممتُ بمغادرة الغرفة، إلاّ أنه أمسك بي ورَجَحني مُستديراً وصريني. وقال إنّ أحداً لا يُديرُ ظهره أبداً لكائس بولونيوس أربانس“.

أمسكت كالاباه يدها وربتتها. ”من حقك أن تعرفي ما يفعله بالمال الذي تدّره ملكيتك، يا جوليا“.

”ليس حسباً يقول هو. ومن شأن أبي أن يتفقّ معه“. واغرورت عينها، ثمّ قالت بمرارة: ”وبعد، فأنا مجرّد امرأة، متاعٌ يملكه“. وإذ عصت شفقتها، أشاحت نظرها واستعادت بعض السيطرة على عواطفها. ”أحياناً يأخذني الارتجاف حين ينظر إليّ، لأنّي ما زلتُ أحبّه كثيراً جداً. إنه يجعلني أشعر بأشياء سماويّة جداً، يا كالاباه، بالطريقة التي بها يلمسني ويُقبّلني. ثمّ أحياناً أخرى، ينتابني الخوف الشديد جداً بحيث أود لو أهربُ منه“. ثمّ نظرت إلى كالاباه، وعيناها الداكنتان مُتسعّتان ومضطربتان. ”كالاباه، إنّ كائس يكون كلّ حين جافياً بعد الألعاب. إنه يؤذيني، ويبدو مُستمتعاً بذلك. وهو يضطرني إلى فعلِ أمورٍ لا أريد أن أفعلها“.

رفعت كالاباه ذقنها. ”أمكّنك أن تُخبريني بأيّ شيء“. وابتسمت بسرورٍ رقيق. ”أنا لا أُصدم بسهولة، يا جوليا. فقد رأيتُ وفعلتُ الكثير الكثير في حياتي الشخصية بحيث لا يُفاجئني أيّ شيء في حياتك“. وما لبثت أن عبست إذ تفحصت قليلاً التورم في خدّ

جوليا. "لا بأس بشيء من الخشونة في علاقته بك، ولكنه وحشٌ في إيدائك هكذا". ثم نهضت عن الأريكة. "سأحضر لك شيئاً من النبيذ".

استرخت جوليا بعض الشيء. فلطالما كانت كالاباه متفهمَةً جداً. ولم يكن في وسع جوليا أن تذهب إلى أي شخصٍ آخر. كما لم تستطع أن تُخبر مرقس بشيء عن كايس. فلا بد أن يستشيط مرقس غضباً إذا علم أن كايس ضربها مرة. ومن شأن مواجهةٍ بينهما أن تزيد الأمور سوءاً بكل تأكيد. ولم يكن في وسعها أيضاً أن تكلم أمها، بل إنَّها لم تُرد أن تُكلمها. فلا بد أن ترتعب أمها إذا عرفت الاتِّجاه القاتم الذي جنحت إليه شهوات كايس، هذا إذا صدقت ذلك أصلاً. إذ إنَّها كانت مُفرطة البراءة. ولم تتوقع جوليا أيضاً من أبيها أن يُساعدَها. فهما فعل كايس، فلا بد أن يحكم أبوها بأنَّها هي المُخطئة. ولا بد أن يقول شيئاً من قبيل: "ماذا فعلت حتى جلبت هذا على نفسك؟"

تدفقت الدموع من جديد، وسالت على خديها. إنَّما كالاباه ما كان يروِّفها أن تكون جوليا ضعيفة إلى ذلك الحد. فمسحت وجهها بسرعة حالماً رأته راجعة.

"لا أدري ما كنتُ سأفعل من دونك، يا كالاباه. ليس لي أي شخصٍ آخر يُمكنني أن أتحدَّث إليه".

"لن تُضطرِّي أبداً إلى التصرف من دوني، وأنت تعلمين أنكِ تلقين الترحيب دائماً هنا". ابتسمت كالاباه، وناولتها كأساً فضيَّة. "وضعت في النبيذ بعض الأعشاب لتهدئة أعصابك". وانفجرت أساريُّها بضحكةٍ إسفاق. "لا داعي لأن يبدو عليك القلق، يا جوليا. ليس هذا شيئاً يُسبب لك الأذى. اشربي!" ثم وضعت إصبعها تحت الكأس وأمالتها قليلاً. "اشربي فتتحسَّن حالُك".

شربت جوليا الكأس حتى الثمالة، مُبتغيةً السكينة. وسرعان ما فعلت الخمرُ المُخدِّرة فعلها، فتنفست جوليا الصُّعداء، وتبدد منها التوتُّر.

فعدت كالاباه بجوارها من جديد، قائلة: "أنت الآن أحسنُ حالاً، ألسيتِ كذلك؟ والآن، أخبريني بكلِّ ما قد فعله كايس بك. لا توفري أيَّ تفصيلٍ يسير. فلعلِّي أستطيع أن أقدم إليك نصيحة ما".

فأخبرتها جوليا بكلِّ شيء. وقد خرجت الكلمات مُتدفقةً منها كفيح دُملة. إذ أخبرت كالاباه بكلِّ فعلةٍ مُغيبةٍ عنيفة، وأرضاه أن ترى الغضب مُضطرباً في عيني صديقته. وبدأ الغضبُ يغلي في قعر معدتها أيضاً. فلم يكن يحقُّ لكايس أن يُعاملها هكذا. وقد أدركت

بسرعة وافية أن استعراضه للغنى كان مشهداً مسرحياً، وأن ملكيتها قد غيرت أحواله. فيثروتها من خلال كلاوديوس كانا يعيشان، وكان ينبغي لكائس أن يكون عارفاً بالجميل! بل كان ينبغي أن يُعاملها باحترام.

”أكون مريضة كل صباح حين أستيقظ مُفكرةً فحسبُ في ما قد يفعله بي.“
”وتقولين إنك ما زلتِ تُحِبِّينه؟“

فأغمضت جوليا عينيهما، وأطرقت رأسها خجلاً، واعترفت على مهل: ”نعم! وهذا هو المروّع جدّاً في الأمرِ كُلّه. إنني أحبه جدّاً. فحين يخطو إلى داخلِ الغرفة، فإن قلبي، آه، قلبي...“

”حتى عندما يُعاملك هذه المعاملة؟“

”ليس قاسياً دائماً. فأحياناً، يكونُ كما كان في البداية. آه كالاباه، في وسعه أن يجعلني أشعر كما لو كنتُ أطيُرُ عبر السماوات.“ قالت هذا وهي تُريدُ من صديقتها أن تفهّم.

وقد فعلت كالاباه ذلك. فإنها كانت تعرفُ كائس جيداً جدّاً، وكانت تعرفُ جوليا أفضلَ بعدُ. لقد كانا كلاهما أنانيّين وشديديّ الشّغف. ولئن كانت الإثارة في علاقتهما تُبقيهما معاً الآن، فلن يمضي وقتٌ طويل حتى يدفعهما عدمُ رضى أحدهما بالآخر إلى نشدان الإثارة في مكانٍ آخر.

كان كائس قد بدأ يجنحُ بعيداً فعلاً، مع أن جوليا لم تكن على علمٍ بذلك. فهو الآن مُتزوجٌ منذ ستّة أشهر، وقد قضى بضعة ساعات مُفزعاً عن أهوائه الأشدّ قنماً بوميسٍ تحسبٍ في بيتٍ مكتومٍ للدّعارة. وقد سمعتُ كالاباه بالأمر من شفّتي كائس نفسه، إذ وصفَ لها ما فعله بالتفصيل، متوقّعاً منها أن تُدغدغ وتسلّي. ولكنّها في الواقع اشمازّت، مع أنّها لم تُبدِ ذلك. وقال إنّه استخدمَ عاهراً لأنّه لم يُرد أن يؤذي زوجته، وإنّه أحبّ جوليا ولم يُرد لطبيعته الأخرى أن تخرجَ عن السيطرة. وشجّعته كالاباه على زيارته السريّة، كما شجّعته على التحدّث من أجل سببٍ واحد، ألا وهو جوليا.

لو أطلعتُ كالاباه جوليا الآن على خيانةِ كائس لها، لزعزعَ ذلك ثقةَ جوليا. ولم تكن كالاباه تُريدُ أن ترى ذلك حاصلاً. أفضلُ أن تدعَ علاقتهما وشأنها، وتدعَ الأمورَ تتطور بصورةٍ طبيعيّة، وتدعَ كائس يُدمرُ حبَّ جوليا بيده. فأخيراً، لا بدّ أن يصيرَ كائس أقلّ تكثُماً في مواقعاته الغراميّة. وأخيراً، لا بدّ أن يتبجّجَ بمآثره العشيقيّة.

وربما- قبل ذلك الحين- أَلَقْتُ بعضَ التَّلْمِيحاتِ بحيثُ تسمَعُها عَرَضًا صديقةٌ حسنةٌ
النَّيَّةُ مثلَ أوكتافيا. فإنَّ أوكتافيا كانت جميلةً وغيورًا. ولا بدَّ أن تَشَمَّتْ بخيانة كائس، وتَسَرَّ
يقينًا بإخبار جوليا أنَّ كائس كان ينشُدُ صُحبة نساءٍ أُخَرَ. وستكرهها جوليا من أجل ذلك،
غير أنَّها لن تلبثَ أن تغدو أكثرَ تعقلًا بصورةٍ أسرع.

ولكنَّ قبلَ أن تُدرِكَ جوليا تمامًا طبيعةَ كائس الداعرة، أرادتْ كالاباه حمايتها من
الأذى الفادح.

قالتْ لها: ”عليك ألا تُثيري كراهيةَ كائس أو تُوقظي طبعه الرديء، يا جوليا. من
الحماقة أن تطرحي عليه أسئلة. لقد عرفتِ أصلًا أنَّ ذلك يُثير سخطه. فلا تواجِهيه البتَّة، بل
التَّمسِّي وسيلةً أخرى لتعلمي ما تُريدين أن تعرفيه عمَّا يفعله بوقته وبمالك.“
”أتعنين أن أعين جواسيس؟“

فقالَت كالاباه بتهكُّم: ”جواسيس، كم تجعلين الأمر يبدو مروِّعًا! أفضلُ أن تُفكرِي فيهم
على أنَّهم أصدِقاءٌ مُستعدُّون أن يتَقصَّوا الأمورَ لأجل مَصالحِك، لِقَاء بضعةٍ ستسترسات.“
أجابت جوليا مُتجهِّمةً: ”لستُ أدري.“

فقالَت كالاباه: ”مُجرَّدُ فكرة.“ وغيَّرتِ الموضوع. لقد زرعَتِ البذرة، ولا بدَّ أن تتجذَّر
في حينه. فإنَّ سلوكَ كائس البغيضُ سيَتولَّى الأمر. وقد كانت قضيةُ عدمِ الثَّقة تربةً استنباتِ
تحتاجُ إلى حراثةٍ قبل أن يتيسَّرَ غرسُ أشياءٍ أُخرى وإمهالها حتَّى تنمو. وسيكونُ الحصادُ
جديرًا تمامًا بصبرها. وإذ ربَّتتْ فخذَ جوليا كما تفعل أمُّ، قالت: ”خُذي منِّي ما شئتِ، يا
جوليا، وانسي الباقي كُلَّهُ. أنا أُحبُّكِ كما أنتِ، ولن أستبدلَ العالمَ بك. أَعترفُ بأنَّ لِيستَ
جميعُ اقتراحاتي مُوافقةً لوضِعِك، ولكنَّ يؤلِّني أن أعلمَ أنَّك تُفاسين المأْمُرَ عَجًا.“

استرختْ جوليا تحت تَطميناتِ كالاباه، وشربتْ كلَّ نبيذها. وشعرتْ بالرَّضى على
نحو مُتبع، وإنَّ كانت أحيانًا قد انزعجتْ على نحو غامض تحت حَمَلقة كالاباه الثابتة. فقلت:
”أنا مُتعبة. ولطالما كنتُ مُتعبةً كلَّ حينٍ مؤخرًا.“
”عزيزتي المسكينة، استلقِي واستريحي.“

أجابت جوليا حاملةً: ”يجبُ أن أمضيَ إلى البيت. سنُخرجُ معًا هذا المساء.“

فمرَّرتْ كالاباه رؤوسَ أصابعها على جبين جوليا الشاحب الناعم. ”هل تُريدين أن
تُخرجي؟“

انطَبَقَتْ عينا جوليا، وَقَالَتْ: "أمرُ لا يهْمُنِي. أريدُ فقط أن أنام..."

"إِذَا نامِي، أَيْتُهَا البُنَيَّةُ الحُلُوة. افْعَلِي ما شِئْتِ!"

حَلَمَتْ جوليا بهدِّسَة مُسَدِّ جبينِها وتُنشِدُ لها ترانيمَ عن إلهِها الغريب. لا أَحَدَ خَدَمَها جيِّداً كما خَدَمَها اليهوديَّةُ الصَّغيرة. وافْتَقَدَتْ جوليا حُضورَها الرِّزينَ وعنايَتها العَطوفَ، كما افْتَقَدَتْ قِصَصَها وترانيمَها. وكانت هَدِّسَة تَسْتَبِقُ احتِياجَاتِها دائِماً، أمَّا عَبداتُ كائِسٍ فكانَ يَجِبُ أن يَومِرْنَ أَمراً. فَحَتَّى في حَلَمِها، وَقَفَتْ عَبداتُه يُحَدِّقنَ إليها بأعِينٍ باردةٍ غيرِ طارِفَة، كأعِينِ الحَيَّاتِ، أعِينٍ بَدَت مألُوفَةً ومُرَعِجَة، أعِينٍ كعِينِي كالاباه.

أيقَظَها كالاباه في وقتٍ مُتأخِّرٍ من عَصرِ النَهار. وَقَالَتْ: "لديُّ هودِجٌ ذو كُرسيٍّ، بانتِظارِ إقْلالِكِ إلى مَنزِلِك. يَجِبُ ألاَّ تَتَأخَّرِي."

ولكنْ كانَ الوَقْتُ فعَلاً قد تَأخَّرَ أَكثَرَ ممَّا يَنبَغِي بِكَثيرٍ جَدًّا.

فلَمَّا وَصَلَتْ جوليا، كانَ كائِسٌ بانتِظارِها، غاضِبًا ومُرتابًا، وقد ابْتَكَرَ ذَهْنُه كُلَّ صَنَفٍ من السِيناريوات المُثيرة لَعيرَتِه. "أينَ كُنْتِ؟" وقد أَخَذَ قَلْبُه يَخْفُقُ بِسرعةٍ، واستطاعَ أن يُحِسَّ الغيظَ مُتفاقِمًا في داخِلِه، مع أَنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أن يَعرِفَ أَعلى جوليا أم على نَفسِه. لِماذا تَرَكَ طَبْعُه يَخْرُجُ عن طَورِه البَارِحَة؟ لم يَسَعِه أن يَنسِي نَظْرَةَ عِينِها بَعْدما صَفَعَهَا. فَمَماذا يَكُونُ لو أَنَّها تَرَكَتْهُ؟ "معَ مَنْ كُنْتِ طَوالِ عَصرِ النَهار؟"

انكَمَشَتْ جوليا ونَفَرَتْ عَندما لَمَسَها، وَقَالَتْ: "كُنْتِ في زيارَةِ لِكالاباه. إِنَّكَ تُؤذِنِي!"

فأفَلَتَها كائِسٌ في الحَالِ، وَقَالَ: "كالاباه"، مُتَسائِلًا عَمَّا سَمِعَته جوليا مِنها. ثُمَّ ضاقتْ

عيناها.

"شَرِبنا شِئنا من التَّبِيدِ، وَنَمْتُ بَعْضَ الوَقْتِ". وَأجْفَلَتْ إِذ مَدَّ يَدَه ثانياً، إِلا أَنَّهُ

كانَ رَقيقًا لَمَّا لَمَسَها هذِهِ المَرَّةَ.

قالَ: "خَشِيتُ أن تَكُونِي قد تَرَكَتِنِي". ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَها وأدَارَه إلى جِهَةٍ واحِدَة، فَعَلِمَ

أَنَّها قد بَكَت. إِذ كانت عيناها مُنتَفِخَتينَ قَليلاً وقد غَسَلَتِ الدَّموعُ قَسمًا من الماكياجِ وأزَلَتَه.

إِلا أَنَّها كانت جَميلَةً رُغمَ ذلك. ونَظَرَ إلى العَلامَةِ على عَظْمِ خَدِّها، وكَثُرَ. لم يَقْصِدْ قَطُّ

أن يَؤذِنَها. إِتِما بدا أحيانًا كأنَّ وَحشًا ضارِيًا في داخِلِه كان يُسَيطِرُ عليه ويجعَلُه يَنهالَ على ما

يُقدِّرُه أَفضَلَ تَقدير. "أَسِفُ بِشأنِ البَارِحَة". واغزَورَقتْ عيناها البُنَيَّتان، فخالَجه شعورٌ أسوأ

بَعْدُ. "أنا أَحِبُّكَ، يا جوليا، قَسمًا على هذا بِجَميعِ الأَلهَة. إنْ لم تُسامِحِينِي، فِساأَجِنُ..."

وقبلها، فأحسّ تمّتعها، وساوّرَه اليأس. فهمس: ”أنا أُحِبُّكَ، أنا أُحِبُّكَ كثيرًا جدًا“، وقبلها من جديد بالطريقة التي تروّقها. وبعد لحظات، بدأت تنصهرُ فيه، وعادَ إليه حسُّ السيطرة، تصحّبُه موجةُ سرور. إنّه ما يزال يملكها ما دام قادرًا على إيقاظ أهوائها. قاله الحُب، إروس، كان السيّد المالك على جوليا، شأنها في ذلك شأنه هو. وقد كانا مُتَشابِهين إلى أقصى الحدود. فالتقطها مُطوّقًا إيّاها بذراعيه، ودمه يضحّ. ”سأعوّضُكَ عن الأمر“.

كانت تحبُّ كائس حين يكون هكذا، مُركّزًا شغفه على إرضائها. إنّما عند انتهائهما من لقاءِهما الزوجيّة كان يُعادُها الشّعور بالفراغ، شادًا إيّاها إلى قعرِ هوةٍ من الاكتئاب. فحبّذا لو دامتِ الإحساساتُ الممتعة كلها!

غير أنّ كائس، وهو واقفٌ في الجهة الأخرى من الغرفة، كان راضيًا. فهو يعلمُ كم تحتاجُ إليه، وكيف تُراقبه. ويعلمُ أنّها تحبُّ أن ترونَ إليه. وهذا توكيدٌ إضافيٌّ للسلطان الذي له عليها. التوى فمُه بابتسامةٍ إغاظه، وتقدّم كي يُقبلها، قائلاً: ”أُحِبُّ أن تنظري إليّ هكذا، كما لو كنتُ إلهاً“، وهو يُحمِلُ إليها كما لو كانت قتيّةً ثمينة.

سترت جوليا استياءها من خداعه. ”أينبغي لنا أن نخرجَ معًا هذه الليلة؟ يُمكن أن يكون أنتيغونُس مُصِحّرًا جدًا“.

ارتدى كائسُ تُنكّه. ”صحيحٌ تمامًا، ولكنّه نافع“.

”يعتقد مرقُس أنه مُغفل“.

”كنتُ أحسبُهما صديقين“.

”هما كذلك، ولكنّ ذلك لا يعني أنّ مرقُس لا يدركُ عُيوبَ أنتيغونُس العديدة. فكلُّ ما يستطيعُ التحدّثُ بشأنه دائمًا هو السياسةُ وافتقارهُ إلى المال“.

”إقضي الأمسيّة مع أريا. إنّها تُعجبُكَ“.

”إنّها دائمًا تطرحُ أسئلةً عن مرقُس. لقد باتتُ مُلمّةً ومُثيرةً للشّفقة“.

”إنّ أريا امرأةٌ ذاتُ قُدراتٍ رائعة. يُدهشني أنّ مرقُس فقدَ الاهتمامَ بها“. ثمّ استدارَ ورأى سيماءَ جوليا، فضحك عليها. ”لا داعيَ لأنّ تنظري إليّ هكذا. فأنا إنّما سمعتُ بهذا من آخرين، ولم أكتشفه بنفسي“.

”ولكنّكَ ترعّب في ذلك؟“

فأقبلَ إليها وانحنى نحوها كي يُناكِدها. ”ليس ما دُمتُ مُتّعيني“. ولا حظَّ الكدّمة

روما

على خلدّها. فاستقام، عابساً بعض الشيء. لم يكن مرقس أتياً الليلة، ولكن إذا لاحظت أنتيغونس العلامة على خلدّها، فلا بُدَّ أن يُخبره. وكان في وسع مرقس أن يُثير كل أصناف المشكلات إذا أراد، وقد حصل ما يكفي من المشكلات أصلاً. فقال: ”يبدو أنك مُتعبه. فابقي في البيت واستريحي“.

ابتهجت جوليا باهتمامه المعزّي، ولكن تلميحاته بشأن أريا ما تزال نابضةً في ذهنها. ”أنا مُتعبه، ولكن رُبّما وجب عليّ أن أذهب“.

فقبلها من جديد، بخفة هذه المرّة. ”لا! سأتملّ الأمسيّة من دون مُرافقتك، وأقول لأنتيغونس إنك تزورين والديك“.

اعتدلت جوليا في جلستها، وردت شعرها الطويل المُشعث على كتفيها. ”رأيتُهما منذ بضعة أسابيع. ربّما أذهب لزيارتِهما غدًا“.

فقال: ”استريحي يوماً أو يومين، ثمّ اذهبي. ما كنت لأريد لهما أن يكونا أيّ أكارٍ خاطئةٍ عن عِشتنا“. ولا أن يريا الكدمة التي سببها لها.

كان مزاجه غايةً في الرضى، حتّى قررت جوليا أن تُخاطِرَ بعد. ”أريد أن أحضر هدسةً معي مُجدداً بعد أن أراها“.

فقال بطريقةٍ خاليةٍ من التعبير: ”هدسة؟ من تكون هدسة؟“

”العبدّة التي أعطتني إيّاها أمي“.

”ما علة العبدات اللواتي لديك؟“

لوقالت إنهنّ أخفقن في خدمتها، لربّما أتى بهنّ الآن وضربهنّ قدامها، وهي لم تُرد ذلك. ”كانت هدسة دائماً تستيق احتياجاتي. وما كانت لي يوماً خادمةً سواها في وسعها أن تفعل ذلك“.

فتجهم وجهه وقال: ”أنت تتكلمين عن اليهوديّة الصغيرة، أليس كذلك؟ إنك تعلمين أنّي لا أحبّ اليهود. فهم مُفريطو الاحتشام. إنهم يُضفون على الطهارة أهميّةً تفوق الحد“. ”لم تتعارض دياتها قطّ مع أسلوب خدمتها لي. أمّا بالنسبة إلى الطهارة، فقد اعتدت أن أرسلها إلى كلاوديوس“.

فردّ عليها كائس بنظرة استهجان. ”أكان يرغب فيها؟ إنها بشعة، على ما أذكر“. وإذ رأته أنّ كذبته لن تُقنعه، قالت: ”حسنًا، إنّ كلاوديوس لم يكن مُهتمًا بها بتلك

الطريقة، بل أراد أن يُحادثها“.

فضحك كائس. ” ذلك هو ما يحدث عندما تتزوجين هرماً عاجزاً“.

صايق ضحك جوليا، فودت لو أنها لم تذكر كلاوديوس. إن زواجها الأول كان تسليّة لكائس. ففي واحدة من الولايم الأولى التي حضرها معها، حكى لأصدقائه كامل قصتها الشخصية على سبيل الفكاهة، وكأنها كانت حكايةً مُسليّة: هي، الجمالُ الفتي، أرغمت على التزوج بالهرم الغبي! لقد حَبَكَ كائس لأصدقائه حكايةً مَرِحَةً صاخبةً عن هرمٍ عاجز يُطارِدُ صبيّةً فتيةً شهيةً في أنحاء الرّيف، فلا يُدرِكها أبداً، حتّى يكسرَ عنقه أخيراً في سياقٍ مُحاولته.

أول الأمر، استبعدت حكاية كائس الشعور بالذنب، وجعلت الزواج يبدو مُضحكاً كلياً، كإحدى المشاهد الهزلية التي كانوا يُشاهدونها على المسرح. ولكن بعد مُدّة، باخٌ عُصْرُ الإضحاك من جرّاء تكرار الحكاية. فالآن، كلّما سخر كائس من كلاوديوس، كانت جوليا تشعرُ بالحزني؛ ذلك أن كلاوديوس لم يكن هرماً جدّاً، ولا كان غيبياً. فقد كان له من الذكاء ما جعله يُضاعفُ ثروةَ عائلته، فيما بدا كائس قادراً فقط على خسارة المال في السباقات.

قالت: ”سأرجع هديّة معي“.

”لماذا تُريدونها بهذا الإصرار؟“

”إنّ الخادِمات اللواتي أعطيتني يقمن بواجباتهنّ مُتثاقلاتٍ كالحيوانات غير العاقلة. وعندما لا تكون أنت هنا، يعتريني الضجر حتّى يكاد يقتلني لعدم وجود شيءٍ أفعله. وقد كانت هديّة دائماً تحكي لي قصصاً وتُغنّي أغاني. وكانت دائماً تعرف ما أريد قبل أن أطلب“.

فرفع حاجبيه وفكر في طلبها، ثمّ قال: ”حَسَنٌ جدّاً. لك أن تأتي بها“.

وما إن غادر، حتّى عزمّت جوليا على الذهاب إلى بيت أهلها، لترى أمّها وأباها، وتصطحب هديّة كي تُقيم عندها. فدفعَت الحرامات جانباً، واستدعت خادِماتها، وأمّرت بإعداد حَمَامٍ لها. وقالت لإحداهنّ: ”سأرتدي البالس البنفسجي“، ولأخرى: ”وقلادة الجمشت مع قُرطبيها واللّالي“.

وبعدما اغتسلت وتعتّرت، وضعت ما كياجها بانتباهٍ وافٍ. فقد كان من الأفضل أن يحسب أبواها أن كل شيء كان على أحسن حال. وتمتّت ألا يكون مرقس في البيت. فإنّه كان يعرفها جيّداً جدّاً بحيث لا تجوزُ عليه الحيلة التي تتظاهرُ بها.

ابتهجت أمها برؤيتها، فعانقتها وطحخت عليها كل نوع من الأسئلة فيما هي مُصطحبةً إليها إلى محضر أبيها. وقد سرت جوليا أيضًا إذ رأت بسمه ترحيب مُرسمه على وجهه. فعانقتها هو أيضًا وقبل بركة الخد الذي أدارته له. وقد وجدت والدها نحيلًا وشاحبًا. فتساءلت عن كونه مريضًا حقًا على نحوٍ خطير، ولكنها ما لبثت أن طردت تلك الفكرة بعيدًا في الحال. قالت: ”لقد اشتقت إليكما كليكما كثيرًا جدًا“، وقد أدركت أنها اشتاقت فعلاً. وما أغرب ألا تكون قد لاحظت ذلك قبلما باتت في محضرهما مرةً أخرى! فإنهما كانا عزيزين جدًا لديها حتى غمر السرور قلبها. وهما كانا يُحبانها فعلاً رغم كل شيء.

وفيما استخفها التأثر والبهجة، تحدت بشأن الحفلات والمهرجانات التي حضرتها بصحبة كائس، وبشأن الألعاب والمحاربين الذين شاهدتهم. وتحدت أيضًا بشأن الهدايا النفيسة التي قدمها كائس إليها، عارضةً لآلتها الجديدة بتهانه. ولم تلاحظ مرةً واحدة قلعهما، ولا رأت نظراتهما المتبادلة أو فرعهما المتزايد حيال ما أفشته عن حياتها الجديدة وزوجها.

وطرخت عليهما أسئلةً عمًا جرى في البيت. ولكن كلما ذكرا شيئًا، ذكرها ذلك بشيءٍ آخر وجب أن تُخبرهما به.

ثم قالت: ”أخنوخ، هات لي شيئًا من النبيذ. أنا عطشانة جدًا“. ولما أحضر ذلك لها، شربت نصف كأس، وقالت: ”همم، إنه ليس جيدًا كالذي يشتريه كائس لنا، ولكنه مُنعش“، ثم شربت الباقي. ورأت سيماء أمها فقالت مُقهقهةً: ”لست طفلةً بعد، يا أماء. إن كأسًا من النبيذ لن تُسكرني“.

ثم طرح دسمس أسئلةً دقيقةً عن كائس.

وأمرت فيبي بتقديم وجبة العشاء، ومسدت الأريكة الملاصقة لأريكتيهما، قائلةً: ”اتكثي، يا جوليا“.

تناولت جوليا مقادير ضئيلةً من الوجبة البسيطة المؤلفة من شرائح لحم العجل والفاكهة والخبز، وحدتتهما بشأن الأطايب التي سبق أن تناولتها. وقالت ضاحكةً: ”أحيانًا، أكل حتى أحسب أنني أكاد أنفجر. مزيدًا من النبيذ، يا أخنوخ“.

قالت فيبي: ”تظهرين نحيلةً كحالكِ دائمًا“.

قالت جوليا: ”شكرًا لك!“ مُبتسمةً بسرور. ولم تُخبرهما أن كلاباه قد علمتها كيف تستفرغ ما في معدتها حتى لا يزداد وزنها. كان ذلك أمرًا يُستكره البده به، ولكنه الآن كان

قد أُحْزِرَ بِسُهولةٍ لَمَّا أُتِيحَتْ لَهَا بَضْعُ دَقَاقِ مِنَ العُزْلةِ. وما كَانَتْ لتَأْكُلَ من هذه الوجبة ما يكفي لدفعها إلى القلق بشأن الأمر. فطرحَت قطعةً من لحم العجل مُعيدةً إيَّاهَا إلى الصينيَّة الفِضِيَّة، وأخذتْ حُصْلةَ عِنَبٍ بدلاً منها.

دخلتْ هَدْسَةُ حاملةً طَسْتَيْنِ صغِيرَيْنِ من الماء الحارِّ، وعلى كِلَا سَاعِدَيْهَا حَرِقةٌ مَطْوِيَّة. وابتسمتْ ابتسامةً مُشرِّقةً لَمَّا رَأَتْ جوليا، غيرَ أَنَّهَا تقدَّمتْ لخدمة دَسِيسُ وفيبي بدلاً من جوليا. وانزعجتْ جوليا لَمَّا أَحضرتْ بيثية الطُّسْتِ لها كي تَغْسِلَ يَدَيْهَا. فَإِنَّ هَدْسَةَ كانتْ عبدتها هي، لا عبدتهما. وهي إِنَّمَا أعازتُهُمَا إيَّاهَا فحَسَبَ.

غسلتْ جوليا يَدَيْهَا ونشفتُهما، ورمتْ بِالْحَرِقةِ الرُّطْبَةَ مُعيدةً إيَّاهَا إلى بيثية، مُؤمِنةً لها بأن تنصِرفَ. ”هدسة، اجمعي أشياءكِ. سأرجعُ بِكِ معي“. وما إنْ تفوَّهتْ بهذه الكلمات، حتَّى أَحسَّتِ السُّكُونُ مُخيِّمًا على الغرفة. فسألَتْ بتحدُّ: ”هل من خطأ؟“

قال دَسِيسُ برِقَّةً: ”اتركينا وحدنا، هدسة“.

ونادتها جوليا: ”افعلي كما قلتُ، هدسة!“ ثمَّ نظرتْ إلى أبيها.

فقال: ”كان في علمي أن لَدَيْكِ عددًا من الخادِمات يكفي ويزيد، وأنكِ لم تعودِي محتاجين إليها“.

وقالت فيبي بزميدٍ من الانتباه: ”جوليا، أيُّ احتياجٍ لكِ إلى هدسة بوجودِ أخرياتِ كثيراتٍ غيرها؟“

”الأخريات لا يخدمنني بالطريقة التي تُروِّفني“.

فانزعجَ دَسِيسُ وقال باقتضاب: ”إذَا علميهُنَّ“. كان قد لمَحَ وميضَ العاطفة في عيني هَدْسَةَ. فهي كانت مسرورةً هنا، وقد خدمتهما أفضلَ من أيَّةِ عبدةٍ أخرى قبلها. فلم تكن لديه أيَّةُ رغبةٍ في إعادتها إلى ابنته الأناثية العنيدة، ولا سيِّمًا لأنْ لدى جوليا بالفعل عباداتٍ يفوقُ عددُهنَّ ما محتاجٌ إليه.

أجابت جوليا بغضب: ”كان من شأني أن أعلمهنَّ لو كان لهنَّ شيءٌ من الذكاء. لا يهْمُ كائسٌ إلا كونهنَّ جميلات. إِنَّمَا معظمهنَّ مثلُ عبدةٍ أوكتافيا الإثيوبيَّة، سخيقاتٍ تافهاتٍ تمامًا. لقد أمرتُ بجلدِ إحداهنَّ مرَّتين، ولكنَّها ما زالتْ بليدةً فوق الحدِّ. وكائس لم يُردْ أنْ تخدمني هدسةً لأنَّها بشعةٌ ويهوديَّة“.

فقال دَسِيسُ بجفاء: ”إنَّها ما تزال يهوديَّة“.

وقالت فيبي مُدافِعَةً: ”لم تكن قطُّ بشِعة“.

فرمقتها جوليا قائلةً: ”لقد صرتِ مُتعلِّقةً بها كثيرًا، يا أمّاه“.

وسأل دَسِمُس: ”ما الذي يكرهه كائس في اليهود؟“ فأدرّكت جوليا أنّها قالت أكثر مما ينبغي. إذ شقَّ عليها تقريبًا أن تُطلع أبويها على سببِ اعتراض كائس.

وارتجَلت جوابًا سريعًا: ”لقد قُتِلَ بعضُ أصدِقائه في حِصارِ مدينةِ القُدس“.

فقالَت فيبي: ”في هذه الحالة، أعتقد أنّ الأفضل هو أن تبقى هَدَسَة هنا“.

انفغرَ فمُ جوليا. ”كيف يُعقل أن تقولي هذا؟ إنّها لي. أنتِ أعطيتني إياها“.

قال دَسِمُس: ”أنتِ رَدَدْتِها إلى أمكِ“.

فجلست جوليا على أريكتها، وقالت: ”ما رَدَدْتِها، بل أعرّتها فحسب! لم أقل مرّةً قطُّ إنّ في وُسْعِكِ استِبقاءها لَدَيْكِ، يا أمّاه“.

فقالَت فيبي بوهن: ”لقد خدمتنا أحسنَ خدمة في غضون الأشهر الستة المنصرمة. فلا أعتقد أنّه أمرٌ مُنصِفٌ لها أن تُنقلَ ذهابًا وإيابًا“.

حدّقت جوليا غيرَ مُصدّقة. ”مُنصِفٌ؟ مُنصِفٌ! إنّها عبدة! وماذا بشأني؟ ألا يهّمكما

أمري؟“

إذ ذاك دخلَ مرُقُسُ الغرفةَ وابتسمَ لأخته ابْتِسامَةً ساحِرة. ”يُخَيِّلُ إليّ أنّ الأيامَ القديمة قد عادت. أهلاً بكِ في البيت، يا جوليا“. ثمَّ أقبَلَ إليها وانحنى لِيُقَبِّلَها. ”لِمَ هذه الجَلْبَة كُلُّها، يا أختي الصغيرة؟“

أجابت، مُحدّقةً إلى أبيها: ”يريدان استِبقاء هَدَسَة هنا. إنّها لي وأمنا تتحدّث بشأن الإِنصاف. فهما مُهتَمَّان بأمرِ عبدةٍ أكثرَ منهما بأمرِ ابنتيهما“.

فقالَت فيبي مُرتاعةً: ”جوليا!“

وقالَت جوليا: ”هذا صحيح!“ فيما الدُموع تكادُ تَقْفِزُ من عينيها وقلْبُها ينحُفُّ هيجانًا. لقد كانت مُتَحاِجةً إلى هَدَسَة، وأرادتُ لها أن تكونَ بقربها. ”هل سألني أبي مرّةً عن كون كلِّ شيءٍ بخير؟ وهل يعلم ما ينبغي لي أن أُحمَله؟“

تجهمَ وجهُ دَسِمُس، مُتَسائلاً بشأنِ حِدَّةِ عواطفها. وسألَ بتهمكُم: ”ماذا ينبغي أن تتحملي؟“ فوضعت فيبي إحدى يديها على يده ورمقته بنظرةٍ تلمسُ منه الشكوت.

وتأمَّلَ مرُقُسُ وجهها: ”ماذا جرى لك؟“

فقالته وهي ترتجف: "لا شيء. لا شيء!" ثم نظرت إلى أمها قائلة: "أنت أعطيتني إياها".

قالت فيبي: "نعم، أنا فعلت ذلك"، فيما نهضت وتقدمت إلى ابنتها، وأضافت: "ولك بالتأكيد أن تسترديها". وطوقت خصر جوليا بذراعها، فأحسست تغييراً بارزاً فيها. وفجأة حسبت أنها علمت سبب انفعال جوليا الشديد. "أوه، عزيزتي، لم تكن لنا أدنى فكرة بأنك محتاجة إليها جداً. وفي وسعك أن ترجعي بها معك". وأحسست أن جوليا قد استرخت. "لقد خدمتنا أحسن خدمة". ثم قبّلت صدغ جوليا، قائلة: "سأذهب وأكلم هُدسة".

قالت جوليا: "لا"، وأمسكت يد أمها. إنها لم ترد أن تبقى مع أبيها وحدها، وقد استطاعت أن تشعر بحمقة أخيها الحادة مُخترقة إياها، حافلةً بالأسئلة، كامناً فيها الارتياح. فقالت: "أرسلي مرقس. ففي وسعه أن يطلب منها التأهب. لَدَيَّ بعدُ بضع دقائق فقط قبل مباشرة العودة حتماً إلى البيت، وأنا أريد أن أقضيها معك... ومع أبي".

وجد مرقس هُدسة جالسة على بنك في البهو ذي الأعمدة. وتسارع نبضه لما اقترب إليها. فوقفت وقفة تنم على خضوع. وفكر كم مرة أراد أن يتحدث إليها. فإنه أحياناً كان ينهض باكراً فقط لكي يُشاهدها خارجة عند شروق الشمس لتُصلي إلى إلهها. وفي تلك المرات، كانت تجرّبه الخروج إليها شديدة فوق الحد. ولكنه علم أن أباه كان على حق. فقد كانت مختلفة عن الأخريات جميعاً. وأن يحوزها كما حاز الأخريات أمر لا بُد أن يُدمرها. لقد كان أمراً غريباً أن يهّمه ذلك، غير أن ذلك همّه فعلاً، وقد وفى بوعده أن يدعها وشأنها. "قالت الوالدة إن عليك أن تجمعي أشياءك. أنت ذاهبة مع جوليا".

أجابت هُدسة: "نعم، سيدي"، وهمت بالانصراف.

فقال بصوت أجش: "مهلاً، هُدسة، انظري إليّ!" ولما رفقت عينها إلى عينيه، لمح حزنها، وهم بأن يمد يده ويمسكها. إلا أنه بالأحرى تكلم بخشونة: "أنت لا تريدين أن تذهبي، أليس كذلك؟" وقد بدا كلامه أشبه باتهام، فبدا عليها الارتياح. وكان قد مضى وقت طويل على رؤيته تلك النظرة في عينها آخر مرة، فداخله ندم بالغ، واحتضن وجهها براحتي يديه إذ سيطر عليه دافع لا يقاوم. "لم أقصد قط أن أتهمك. لقد خدمتنا أحسن خدمة. لك أن تقول لي الحق". كانت بشرتها ناعمة جداً، حتى ود لو يتلمس أسارير وجهها كلها ويمسح شعرها بأصابعه. إلا أن يديه انقبضتا. كم سيمضي من الوقت قبل أن يراها مجدداً؟ إنه لم يُرد أن يدعها تضي.

انكسرت هَدَسَةٌ عنه قليلاً، مُزْعِجَةٌ من لِمْسَتِهِ. لو كان الخِيَارُ بِيَدِهَا، لَبَقِيَتْ هُنَا مَعِ فِيبِي وَدَسِمُس، وَلَطَلَّتْ عَلَى مَرْقُسَ مِنْ مَرْقُس. فَإِنَّهُ كَانَ مُضْطَرِّبًا جَدًّا. وَقَدْ كَانَتْ الْحَيَاةُ حَرْبًا فِي نَظَرِهِ، وَكُلُّ إِجْجَازٍ هُوَ مَعْرَكَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُكْسَبَ. إِنَّ حَبِيْبًا لَهُ كَانَ مُسْتَحْيِلًا، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَنْمُو كُلَّ يَوْمٍ. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ وَعَدُّهَا لِفِيبِي بِشَأْنِ اعْتِنَائِهَا بِجُولِيَا. ثُمَّ إِنَّ مُرَاعَاةَ جُولِيَا كَانَتْ أَمْرًا لَازِمًا. فَقَدْ كَانَ ثَمَّةَ حَظَبٍ مَا. وَهَدَسَةٌ عَلِمَتْ ذَلِكَ لِحَظَّةٍ رَأَتْ جُولِيَا: أَنَّ الْعَيْشَةَ مَعَ أُرْبَانُسَ لَمْ تَكُنْ رَاطِعَةً كَمَا صَوَّرَتْهَا جُولِيَا. ”السَّيِّدَةُ جُولِيَا تَحْتَاجُ إِلَيَّ، سَيِّدِي“.

أَحْسَ مَرْقُسُ انْكِفَاءَهَا، وَأَرْخَى يَدَيْهِ عَنْهَا. ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ مُخَيَّبًا. ”لَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ وَالِدِي إِلَيْكَ“. وَفَكَّرَ: أَوْ أَحْتَاجُ أَنَا، مُدْرِكًا كَيْفَ خَدَمَهُ وَجُودَهَا فَعَلًا. أَطْرَقَتْ هَدَسَةٌ رَأْسَهَا. ”وَالدُّتُكَ هُنَا دَائِمًا لِأَجْلِهِ، سَيِّدِي“.

فَرَدَّ عَلَيْهَا بِنَظَرَةٍ حَادَّةٍ. ”لَدَى جُولِيَا أُرْبَانُسُ سِتُّ عِبْدَاتٍ لِلْاعْتِنَاءِ بِهَا“.

وَسَأَلَتْ هَدَسَةَ بِرِقَّةٍ: ”إِذَا، لِمَاذَا جَاءَتْ لِتَأْخُذَنِي؟“

حَوَّلَ مَرْقُسُ وَجْهَهُ الْحَدِيثَ تَمَامًا. ”أَنْتِ لَا تَتَّقِينَ بِأُرْبَانُسَ أَكْثَرَ مِنِّي وَلَوْ قَلِيلًا“. فَأَجَابَتْ بِحَذَرٍ: ”لَا يَسْعُنِي أَنْ أَحْكُمَ، سَيِّدِي“.

”وَلَكِنَّكَ تُحْسِنُ شَيْئًا مَا، أَلَسْتَ كَذَلِكَ؟ أَنْتِ خَائِفَةٌ مِنْهُ؟“

”إِنَّهُ لَا يَلَا حِظُنِي“.

فَقَالَ: ”لَقَدْ لَاحَظْتُكَ، وَأَنْتِ تَعْلَمِينَ ذَلِكَ. وَقَدْ رَفَضَ أَنْ تَكُونِي فِي خِدْمَةِ جُولِيَا“. وَفَجْأَةً بَاتَ أَكْثَرَ انْزِعَاجًا مِنْ ذِي قَبْلِ بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ. ”مَاذَا يَكُونُ لَوْ أُرْسَلْتُكَ جُولِيَا إِلَيْهِ كَمَا كَانَتْ تُرْسَلُكَ إِلَى كِلَاوَدِيوس؟ مَا كَانَ أُرْبَانُسُ لِيَبْتَغِي التَّحَدُّثَ!“

دَبَّتِ الْحَرَارَةُ فِي وَجْهِهَا ارْتِبَاكًا حِيَالِ تَلْمِيحَاتِهِ الْوَاضِحَةِ. ”لَمْ تَكُنْ جُولِيَا تَحِبُّ كِلَاوَدِيوسَ، سَيِّدِي. وَهِيَ تَحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ فَعَلًا“.

تَنَفَّسَ مَرْقُسُ الصَّعْدَاءَ. دُونَ شَكِّ، لَقَدْ كَانَتْ عَلَى حَقٍّ، وَهُوَ شَعَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَرَحِ لَدَى إِشَارَتِهَا إِلَى افْتِقَارِ جُولِيَا إِلَى الْمُوَدَّةِ نَجْمَةَ زَوْجِهَا الْأَوَّلِ. فَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ جُولِيَا كَرِهَتْ كِلَاوَدِيوسَ. وَلَكِنَّهَا، عَلَى النَّقِيضِ، كَانَتْ هَائِمَةً بِحُبِّ كَايُس. فَمِنْ غَيْرِ الْمُرْجَّحِ أَنْ تُرْسَلَ بَعْدَ عِبْدَةٍ بَدَلًا مِنْهَا. حَتَّى إِذَا أَثَارَ غَضَبُهَا اسْتِيَاءً أَوْ سُوءَ تَفَاهُمْ مِنْ نَوْعِ مَا، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُرْجَّحِ عَلَى السَّوَاءِ أَنْ يَقْبَلَ أُرْبَانُسُ بِبَدِيلَةٍ حِينَ يَكُونُ قَدْ اسْتَدْعَى زَوْجَتَهُ. وَقَدْ شَكَّ مَرْقُسُ فِي أَنْ يَكُونَ كَايُسُ مُتَفَهِّمًا كَمَا كَانَ كِلَاوَدِيوسَ، أَوْ أَنْ يُضَاهِيَهُ ضَعْفًا وَلِيْنَ عَرِيكَةَ.

يُضافُ إلى ذلك أن كائس كان هائماً بجوليا كما كانت هي هائمةً به. وقد كان ذلك واضحاً كلِّ الوضوح في المناسبات القليلة التي فيها حضرَ الحدتَ نفسه معهما وأنيحت له فُرصةً لمراقبتهما. فبالحقيقة أن شدةً شغفهما الواحدِ بالآخر أقلقته فعلاً. ذلك أنها لم تُماثل الحبَّ الذي كنهه أبوه وأمه أحدهما للآخر. فقد كانت شيئاً قائماً وعائياً. والآن ستكون هَدَسَةٌ في خِصَمِّ ذلك.

رفعت هَدَسَةٌ نظرَها إلى مَرُقْس، ورأت قلقه. لقد كانت تعلمُ كم يحبُّ مَرُقْس أخته. فأمسكتُ يدهُ بكلتا يديها. ”رجاء، سيدي، حاول أن تثق بي. أنا أيضاً أحبها. سأسهّرُ على أختك على أفضل نحوٍ أستطيعه.“

”ومن سيسهّرُ عليكِ أنتِ؟“

فَرَنْتُ إليه مدهوشةً، وقد تدفَّقَ التورُّدُ إلى خديها. وأفلتتُ يدهُ.

وإذ ساءَ أن يُبيدي هذا المقدار، استدارُ منصرفاً وعادَ إلى داخل البيت. وكانت جوليا تشربُ كأساً أخرى من التبيد، فرفعتُ عينَيها حالَ دخوله، وسألتُ: ”أين هَدَسَةٌ؟“ بلهجةٍ مُتَعَجِرَةٍ حَزَّتْ في أعصابه النابضة بالألم أصلاً.

”لا تستعملي هذه اللهجة معي. أنا لستُ تابعاً خانعاً لك.“

فانتسعت عينا جوليا وقالت: ”أستطيعُ أن أرى أنه ما كان ينبغي أن أجيءَ إلى هنا.“ ثمَّ حطَّت الكأسَ بخبطةٍ قويَّةٍ حتَّى أربقَ التبيدَ متدفِّقاً عن الحافة. ورشَّتْ بضعَ قُطيراتٍ على ياليسها البنفسجي، فأطلقتُ صرخةً ارتعابٍ ضئيلة. ”انظُرِ الآنَ ما حصل!“ وحاولتُ أن تمسحَ نُقطَ التبيد، إلا أن الصوف الرقيق كان قد بدأ يتشرُّبها. ”لقد أعطاني كائس هذا الياليس منذ أيام قليلة!“

سبقَ لمَرُقْس أن شاهدَ نوباتِ غضبِ جوليا، ولكنَّ هذا الاستعراضَ العاطفيَّ كان شيئاً آخر. فتلاشى غضبه. ”هي بضعُ نُقطٍ من التبيد فحسب، يا جوليا.“

”لقد تَلَف، لقد تَلَف!“

ثمَّ دخلتُ هَدَسَةُ الغرفة، حاملةً صُرَّةً صغيرةً مربوطة - فيها بدَلٌ واحدٌ لثيابها. وإذ رأيتُ الحالةَ التي كانت جوليا عليها، أسقطتِ الصُرَّةَ أرضاً، وأقبلتُ إلى سيديتها. ثمَّ انحنَّتُ وأمسكتُ بيدي جوليا كافةً إياهما عن فركهما المسعور. ”لا بأس، سيديتي. إنني أعرفُ ما ينبغي فعله لإزالة اللطخة. وسيعودُ كأنه جديد.“ ورفعتُ جوليا عينَيها نحو هَدَسَةَ، فرأت

هدسة الكدمة التي حاولت جوليا بكل براعة أن تسترها. ونظرت في عيني سيدتها الفتية، فرأت هنالك أيضاً ما هو أكثر وقالت بركة: ”يسرني أنك جئت لاصطحابي، أيتها السيدة جوليا. سيكون مدعاة سرور لي أن أخدمك مجدداً!“

أمسكت جوليا يدي هدسة بإحكام. ثم همست، وعيناها مغروقتان: ”اشتقت إليك كثيراً. إنني أحتاج إليك“. وما لبثت أن طرفت بعينيها وأشاحتها، مُنبهةً إلى أن أبويها وأخاها كانوا يُراقبوننا. فأفلتت يدي هدسة، ونهضت عن الأريكة بجلال ملوكي، مبتسمة من جديد ابتسامتها المشرقة.

لم يلاحظ مرقس إلا بعد ذهاب هدسة وجوليا الصغرة الصغيرة المربوطة قرب الباب. ”لقد نسيت هدسة أشياءها. سأخذهن غداً.“

فنظر دسيسم إليه، وقال: ”أتظن أن ذلك من الحكمة؟“

وأذعن مرقس. ”ربما لا، ولكنني أود أن أعرف ماذا يجري في ذلك البيت ليجعل جوليا في مثل هذه الحالة، ألا تود أنت ذلك؟“

”وهل تعتقد أن هدسة ستعرف بعد ليلة واحدة؟“

”لا، ولكن جوليا ستشعر بحريرة أوفر إذا كنا وحدنا.“

فاوما دسيسم برأسه موافقاً. ”لعلك على حق.“

وقالت فيبي: ”يكون أفضل إذا تمهلت دون محادثتها، يا مرقس“. ثم تهالكت على أريكتها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مشرقة. ”أعتقد أنكما كليكما قلقان بلا سبب. لست أظن أن جوليا تعاني خطباً لن تتكفل بضعة أشهر بتسويته.“

فتجهم دسيسم إزاء قلة اكترائها. ”إذاً ماذا أحدثت انفعالاً عاطفياً كهذا؟ شجار بسيط مع كايس؟“

أمسكت فيبي بيده وعيناها مشرقتان. ”لا، بل أعتقد أن ابنتنا حامل.“

فضحك ضحكة قصيرة. ”أنا على يقين بأننا لو كانت هكذا لقات شيئا ما.“

”إنها ما تزال بريئة جداً، يا دسيسم. وربما هي نفسها لا تعلم ذلك بعد، وأنا إنما

أخمن تخميناً. سأذهب لرؤيتها غداً. هنالك أسئلة ينبغي أن أ طرحها عليها حتى أتيقن.“

رمق دسيسم زوجته مدهوشاً. لقد كانت جادة! وقال مُتسائلاً: ”وَلَد؟“ وحياء الألهة،

إن ذلك شيء يستحق أن يعيش المرء لأجله!

وتمنّى مَرْقُسُ أن تكون أمُّه مُخطئة. فبينما رسمَ خَيْرٌ قُدومَ طِفْلِ بَسْماتِ على وجهي
والديهِ، شكُّ هو شكُّ جَدِّياً في أنَّ خيراً كهذا سيُسرُّ أختَه.
لقد كان بالحقيقة على يقينٍ بأنَّها ستكره ذلك.

•

٢٠

بَكَتْ جوليا بُكاءً مُرًّا. ”لم يلمسني كائس منذُ أخبرته بشأن الطُفل. وهو يرفضُ أن يصطحبني إلى الألعاب أو إلى الولائم التي تُدعى لحضورها. إنَّه يتصرّف كما لو كنتُ أنا وحدي الملوّمة على كوني حاملاً، وكأنّ لا دخلَ له في الأمر!“

وهذاّتها كالاباه بكلماتٍ رقيقة.

فقالَت جوليا باكيةً: ”إنَّه يجذني مُنفرًا.“

وقالَت كالاباه: ”هل قال لك ذلك؟“ عالمةً أنّ كائس كان قادرًا إلى أقصى حدٍّ على

إبداء فُظاظةٍ كهذه.

”لم يكن من الضّروريّ أن يقول لي، يا كالاباه. فأنا أشعرُ بذلك كلّمًا نظر إليّ“. وأطبقت يديها. ”إنّي أعلمُ أنّه يختلي بنساءٍ أُخر“. ثمّ وقفت، والتفتت بعيدًا حتّى لا تتمكّن كالاباه من رؤية وجهها، ولقت نفسها بذراعيها كما لو كان ذلك سيوقفُ الألم. ”جاءتني أوكتافيا زائرةً أمس“.

اتكأت كالاباه قليلًا إلى الورا، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ ساخرة. ”أوكتافيا العزيزة الطيّبة! وماذا ابتغت أن تقول؟“

”لقد وجدتُ بهجتها القصوى في إخباري أنّها شاهدت كائس يُغازل ابنة يوسيبوس، عضو مجلس الشيوخ. وقالَت إنهما تواريا عن الأنظار نحو ساعة واحدة، لكنّها تصوّرت أنّهما كانا يتحدّثان بالسياسة“. وقد كانت لهجتها لاذعةً وساخرة. ”أني وسعك أن تُصدّقني أن تأتي إليّ بقصّة من هذا النوع؟ إنّي أكرهها، يا كالاباه. أقول لك: إنّي أكرهها. وحياة الألهة، أتمنى أن تحلّ بها لعنةٌ رهيبة. كان ينبغي أن تزي وجهها الشامت“.

ثمّ أضافت جوليا غاضبةً: ”ليس ذلك فقط، بل تبجّحت أيضًا بذهابها إلى اللؤس مُجددًا ورؤية أترتيس“. واستدارت، ناسيةً كائس. ”أنا رأيته أوّلًا. هل علمت بهذا؟ رأيته على الطريق بقرب كاپوا قبل أن يصير مشهورًا. أمّا الآن فهي من تراه كلّ يوم تقريبًا، فيما أنا محبوسةٌ في هذا البيت كسجينة. لقد قالَت...“

”قالَت وقالَت وقالت...“ نهضت كالاباه عن أريكتها، مُبتغيةً أن تهزّ جوليا. لقد

رأت المحارب الذي ذكرته جوليا. إنه مفتول العَضَل، ذو جمالٍ وشَغَفٍ لا فِتْنين، إلا أنه همجِيٌّ تمامًا. فكيف يُعقَل أن تنجذب جوليا إليه؟ إن ذلك دون مُستواها، وهو أمرٌ لا يمكن تصوُّره. ”فيم يهْمُك ما تقوله أو كتافيا، يا جوليا؟ أو من تراه؟ ما هي إلا عاهرٌ صغيرةٌ، غبيّةٌ، سطحيةٌ، وهي تعاوُ منك. ألم تُدرِكي ذلك بعد؟ لقد كانت مُغرَمةً بكائس، وهو لم ينظر إليها مرّتين قط. فلحظة دخلت إلى الغرفة، وقع في أسركِ“.

فقالَت جوليا: ”لم يعد كذلك“، مُفعمّة برِثاء الذّات المقرون بالغضب.

”لم يتبدّد كلُّ شيء، يا جوليا. وكُفّي عن ذرعِ الغرفة ذهابًا وإيابًا كامرأة مجنونة. إنك تجعليني أصابُ بدوار. تعالي اقنُدي، ولننظرُ في هذه المُشكلة بتعقّل“. فأقبلت جوليا طائفةً، وأمسكت كالاباه يدها، ثمَّ ضغطتها برفق. ”هل تُريدان هذا الطُفل؟“

تترت جوليا يدها من يد كالاباه، ووقفت مُجددًا. ”أريده؟ إنّي أبغضه. لقد دمّر حياتي. فأنا مريضة كلَّ صباح. وتحت عينيّ دوائرٌ سوداءٌ لأنّه يتعدّر عليّ التّوم بسبب قلّقي بشأن ما ينصرف كائس إلى فعله حين لا يكون معي. ثمَّ إنّي صرّت سمينّة على نحوٍ مُغث“.

فقالَت كالاباه: ”لست سمينّة!“ وقد سرّها نسيانُ جوليا لأتريّس بسرّعة فائقة. ثمَّ مسدتِ الصّوف الناعم في توجّتها ذات الحواشي الحُمر، وراقبت جوليا اختلاسًا. لقد كانت فائقة الجمال، رشيقة جدًا في حركاتها، مثل نُحفة فنيّة. وفي وُسع كالاباه أن تجلس مُحدّقةً إليها طول النّهار. فإنّ فكرة تشويه طفلٍ لجمالها كانت فكرةً بغبيضة جدًا. ”كم مضى على حملك؟“

”لست أدري. لا يُمكنني أن أتذكّر. لم أمهل قط كي أفكّر في الأمر لما انقطع حَيْضي. ثلاثة أشهر، على ما أظن، أو أربعة. أحقًا لا تحسبنني سمينّة؟“ قالت هذا وهي تنظرُ من علٍّ إلى يديها المبسوطتين على بطنها. ”ألست تقولين ذلك فقط كي تجعليني أشعرُ بأنّي أحسنُ حالًا؟“

فتفحّصتها كالاباه مُقومةً، وقالت: ”يبدو عليك شيءٌ من التعب والتوتر، ولكنَّ أحدًا لن يحزرَ أنك حامل. ليس حتّى الآن“.

قالَت جوليا بتجهم: ”ليس حتّى الآن. لماذا وجب أن يحدث هذا حين كنتُ سعيدةً تمامًا؟ ليس هذا إنصافًا. قالت والدتي إنّ الألهة ابتسموا لي. ابتسموا! إنهم يضحكون عليّ. وأنا أكادُ أسمعهم“.

فقالَت كالاباه، بلهجتها الأكثر منطقيّةً: ”إدًا، ضعي للأمر حدًا!“ وقد ارتسمت على

شفتيها ابتسامة فرح.

مسحت جوليا عينيها مرة أخرى، وتمحطت بكياسة، قائلةً بدهول: ”أضع حدًا لأي أمر؟ لحياتي؟ ربما كان ذلك يحسن بي. فهي قد انتهت فعلاً“.

”هراء! أعني أن تضعي حدًا لحملك. فلا موجب للإبقاء على هذا الطفل، ما دام يجعلك بائسة هكذا“.

فرفعت جوليا رأسها مدهوشة. ”ولكن كيف؟“

”أنتِ حقًا بريئة على نحوٍ مضحك، يا جوليا. لست أدري لماذا أبدد وقتي معك. أما سمعتِ قط بالإجهاض؟“

شجبت جوليا، وحدقت إليها مرتاعة. ”أتقولين إن عليّ أن أقتل طفلي الخاص؟“ فأطلقت كالأباه تنهدة رقيقة، وهبت واقفة، مهانة ومغضبة. ”هل هبط تقديرك لي إلى هذا الدرك؟ بالتأكيد، ما كنت لأقترح أمرًا كهذا. فالآن، في مراحل حملك الباكرة، لا يعود ما في داخلك كونه رمزًا إلى الحياة البشرية، وليس حياة فعلية. فهو لا يملك أي مزايا بشرية على الإطلاق، ولن يملك أيًا قبل بضعة أشهر أخرى“.

ولكن جوليا كانت مرتابة ومترددة. ”لقد سرّ أبي وأمّي كثيرًا بخبر حملي. وما أحمله الآن هو طفلٌ في نظرهما“.

”من دون شك. إنها طريقة ماهرة لدفعك إلى القيام بما يريدانه. فهما يريدان لك أن تنجبي لهما حفدة“.

أبعدت جوليا نظرها عن عيني كالأباه الداكنتين القاهرتين. ”لن يوافق أي منهما على الإجهاض“.

فقالت كالأباه: ”وما دخلهما في الأمر؟“ ثم وقفت بمهابة واقتربت إلى جوليا. ”هو هذا النوع من التفكير ما يغيظني. ألا ترين الشرك، يا جوليا؟ ألا تفهمين؟ بإنكارهما عليكِ حقك في الاختيار، يُنكران عليكِ حقك في حماية صحتك البدنية والعقلية والعاطفية. إنهما ينتزعان منك إنسانيتك من أجل مجرد رمز“.

ثم طوّقتها بذراعها. ”جوليا، أمرُك يهمني. وأنتِ تعرفين هذا. فأنا حياتك هي موضع نقاشنا، لا حياة أمك. ولا حياة أبيك، بكل يقين. لقد قامت أمك باختياراتها، وهذه كان جيدة بالنسبة إليها“. وأفلتتها. ”والآن أو أنك لتقومي باختياراتك. من أنت؟ وماذا تريدين“

أنت؟ جوليا، انظري إليّ. انظري إليّ، يا عزيزتي. من الواضح أنّك بائسة من جراء هذا الحمل. إنّ كايس لا يُريد طفلاً. وقد بين ذلك بوضوح تام. فما دام لا يُريد ولداً، وأنت أيضاً لا تُريدين، فلماذا تخوضين هذه المعاناة كلّها؟“

فأجابت جوليا، مُرْتِعِشَةً تحت حَمَلَقَةِ كالاباه: ”لأنني لم أكن أعتقد أنّ في وسعي أن أفعل أيّ شيء بشأن ذلك.“

”هو جسمك، يا جوليا. وأنت صاحبة القرار في أن يكون لك ولد أو لا يكون. وليس لأحدٍ آخر أيّ دخلٍ في الأمر.“

”نعم، ولكنّ أبي لن يُسامحني البتّة...“

”ولماذا ينبغي أن يفكر أبوك في الأمر أصلاً؟ ليس هذا شأنه، أليس كذلك؟ فإنّ سألاك، وكان عليك أن تقولي لهما شيئاً، فقولي لهما إنّ الجنين سقط من تلقاء ذاته.“

فتنهّدت جوليا بوهن. ”لست أدري، يا كالاباه. لست أدري ماذا أفعل؟“ وحدّقت إلى الحديقة خارجاً، فشاهدت هدسة تقطف الأزهار. كيف لأحد أن يبدو غايةً في السكينة رغم كل ما كان يجري في هذا البيت؟ تمتّ لو تخرج إلى ضياء الشمس، فتقعّد معها وتُصغى إلى أغانيها وتنسى كل شيءٍ آخر. وتمتّ لو يُتاح لها أن تنسى سيماء وجه كايس حين قالت له إنّها حُبلى بطفله.

”كيف أمكن أن تكوني مُغفلةً إلى هذا الحد!“ ما تَرَأَل كلماته هذه ترنّ في أذنيها، مع الحَبْر الذي بلغتها إيّاه أوكتافيا بكل سرور: ”لست أعلم يقيناً هل أقاما علاقةً غراميةً، ولكنّهما غابا وقتاً طويلاً جداً.“

كان كايس يُقيمُ صِلاتٍ غراميةً. وكانت جوليا على يقينٍ بذلك. فهو لم يمارس الحبّ في سريرها على مدى أسابيع، ولا بُدّ أن تكون طبيعته الشهوانية قد دفعته إلى نشدان الإشباع في أمكنةٍ أخرى. وما كانت الشريكاتُ الرَّاغباتُ ليضعن أيّ عائق. فقد حامت النساء حول زوج جوليا كما حُمن حول مرقس.

عضّت جوليا شففتها حتّى لا تبكي من جديد. لم تُرد أن تكون حاملاً وتنقلب حياتها رأساً على عقب. لم تُرد أن تغدو سمينّة وبشعةً وتُحسّر كايس. وكل ما أرادته كان أن تخرج من هذا الوضع، أن تتلاشى مُسكِلتها وتعود حياتها إلى سابق عهدها. فلم تستطع أن تحتمل فكرة مشاركة كايس أبة امرأةٍ سواها في الفراش، مع أنّها لم تظن أنّ في وسعها أن تحتمل لمسّه إيّاها مجدداً، ولا سيّما الآن بعدما علّمت بخيانتها لها. فكل ما علّمته كان أنّها تُريد منه أن يرنو

إليها مثلاً كان يفعل من قبل، كما لو كانت هي أجمل امرأة في العالم وهو يريد أن يلتهمها. حدّقت جوليا إلى هدسة في الخارج. ترى، ماذا ستقول بشأن هذا كله؟ لقد تاقت جوليا إلى مُحادثتها.

وتحرّكت كالاباه، حاجبةً الحديقةَ بعض الشيء، وجاذبةً إليها اهتمام جوليا مُجدِّداً. "أيتها الطفلة الجميلة، أيقنّصي الأمرُ بضعة أسابيع فقط حتّى تنسي كل ما علّمك إياه؟ إنك أنت، أنت وحدك، سيّدة مصيرك. لا أحد سواك".

ارتجفت جوليا قليلاً كما لو أنّ ريحاً باردةً هبّت عليها. لقد كانت كالاباه على حق. فذلك هو السبيل الوحيد. ومع ذلك تردّدت؛ إذ إنّ صوتاً ما في داخلها ناداها ألاّ تقدّم على ذلك. وسألت بهدوء: "هل يؤلم الإجهاض كثيراً؟"

فقال كالاباه: "ليس بقدرٍ إنجابٍ ولّد".

وحلّ الخوف محلّ اللّاتيقين. "تتكلمين كما لو كُنّتي عليمّة".

"لا داعي لأن يُعاني المرء الموت كي يعلم أنّه أمرٌ يجب تجنّبه". وابتسمت. "لقد حرصت دائماً أشدّ الحرص أن أحول دون الحبل. لم أرد قط أن أكون سمينّة جدّاً بحيث يتعدّر عليّ أن أرى قدمي ولا يكون عندي ما أنتظره سوى الألم. لقد شهدت ولادة أطفال، يا جوليا، وفي وسعي أن أقول لك إنّهُ أمرٌ شاقٌ ووضيع ومُخز. فهو يستغرق ساعات. وبعض النساء يمتنّ وهنّ يلدن أطفالهنّ. واللواتي لا يمتنّ يقعنّ في أسر العبوديّة ما بقي من حياتهنّ. أتعرفين المسؤوليّة الهائلة التي تنطوي عليها تربية الأولاد؟ إنّ الرجال لا يُساعدون فيها. وليسوا مُضطربين إلى ذلك. وكأيس لن يُساعد بالتأكيد. فإنّ الاعتناء بمولودك وتعليمه سيّعان على كاهلك".

تهالكت جوليا على أريكة، وأغمضت عينيها على الصّورة التي ابتكرتها كالاباه. ألم رهيب تبعه حياة كدح مُضنية. "لم تقل لي أمي قط إنّ هناك طرّقاً لتجنّب الحمل".

فقال كالاباه بهلجة مُفعمّة بالرّثاء: "ما كانت لتفعل ذلك. فالأمر خارج نطاق تفكيرها، يا جوليا. إنّ والدتك ما تزال غائصةً في حمأة التقاليد القديمة التي فرضتها عليها الأجيال غير المُفكّرة السابقة لها. والأولاد هم غايّتها الوحيدة للوجود". ثمّ جلست وأمسكت يد جوليا. "أما ترين بعد؟ إنّ التقاليد قد سجنت النساء على مدى قرون. وقد أنّ الأوأن كي تتحرّرا، يا جوليا. فحطمي قيودك! إنّ هذا عصرٌ جديد".

تنهّدت جوليا. "كالاباه، إنني أفتقر إلى حكمتك، وإلى ثقّتك".

فابتسمت كالاباه وقبّلت خدّها. ”هل تُقبلين يوماً إلى إدراك الحقائق التي علمتُكِ إيّاها في غضون الأشهر المنصرمة؟“

وقالت جوليا بلهجةٍ توسّل: ”قولي لي ماذا يجب أن أفعل.“

”يجب عليك أن تُقرّري قراراتكِ الخاصّة، أيّتها الطيّبة العزيرة.“ ثمّ نهضت ومضت إلى النافذة لتتنظر إلى الحديقة خارجاً. وقد بدت غايةً في الجمال والجلال، لكنّ مظلمةً بطريقةٍ ما حتّى بوجود هالةٍ من ضياء الشمس حولها. ”جوليا، يجب أن تُخطّطي حياتكِ كما تُريدين لها أن تجري. تصوّريها. أبصّريها بذهنكِ، جاريةً كما تجعلينها تجري.“ ثمّ نظرت إليها من جديد، وأضافّت: ”إنّ السعادة تنبع من داخلكِ، من قوتكِ الداخليّة الخاصّة.“

أصغّت جوليا، وقد بثّ فيها الرجاء ما انطوت عليه كلماتُ كالاباه من ثقةٍ وثبات. ”أنا أعلم أنّك على حق.“ ثمّ تنهّدت وأشاحت نظرّها، مُكتنبةً ومصدومة. ”الإجهاض هو الحلّ الوحيد.“ وأطبقت يديها. ”أمّن الصّعب أن نعثر على من يستطيع القيام بذلك؟“

”لا، أبداً. فهذه مُمارسةٌ عامّة. وأنا أعرف على الأقلّ ستّة من الأطباء يُجرونها يومياً.“

”ولكن هل تكون مؤلمة؟“

”سيحصلُ شيءٌ من التوجّع، ولكنّه لن يكون قويّاً ولن يدومَ طويلاً. فسيَنتهي، وستستعيدين حياتكِ من جديد، كما تُريدين لها أن تكون تماماً.“ وتقدّمت إلى جوليا ففعدت بجانبها، واضعةً يدها على يديها. ”متى ترغين أن يُجرى الأمر؟“

رفعت جوليا نظرّها مشحوبةً الوجه. ”ربّما في ظرفٍ أسبوعٍ أو أسبوعين.“

فسحبّت كالاباه يدها، وقالت بتنهّدةٍ رقيقة: ”حَسَنٌ جدّاً. إنّما ينبغي أن تفهمي، يا جوليا. كلّما تأخرت، كانت مُخاطرتُكِ أكبر.“

واجتاح الخوفُ جوليا. ”أينبغي إذاً أن يُجرى لي ذلك الآن؟“

”يكون من الحكمة أن يُجرى بأسرع ما يمكن. صباحَ غدٍ، إذا أمكنَ ترتيبُ الأمر.“

”إلى أين يجب أن أذهب؟“

”إلى لا مكان. أعرف طبيبةً مُتحمّلةً جدّاً، من شأنها أن تأتي هي إليك.“

ثمّ وقفت كالاباه، فتشبّثت جوليا بيدها بمزيدٍ من الإحكام بعددٍ، مقتريةً منها بعينين

ضخمتين مُروعتين. ”هلاً تمكّنين معي إلى أن ينتهي الأمر!“

فمستت كالاباه خد جوليا برفق. "سأفعل أي شيء أردته، يا جوليا".

"أريد أن تكوني معي. سأشعرُ براحةٍ أكبرَ حيالَ هذا الأمرِ إذا كنتِ معي".

انحنت كالاباه ولعمتها لثمة خفيفة على شفثتها. "لن أخونك مثل الآخرين. أنا لستُ

أباك، ولا كائس". ثم استقامت وابتسمت لها من عل. "لقد قررت قرارًا حكيمًا. بعد انتهاء

الإجهاض، يمكنك أن تنسي أنه حصل أصلاً، وتستأنفي حياتك مُجدداً. وسأعلمك ما

ينبغي أن تفعله كي تتفادي من الحبل من جديد".

راقبتُها جوليا تخرج من الغرفة. وما إن باتت وحدها، حتى أخفت وجهها بيديها، وبكت.

علمت هُدسة أن عليها أن تدع جوليا وشأنها حين يكون عندها ضيوف. وقد وجدت أشياء

أخرى تقوم بها ريثما تستدعى. فاليوم، اشتغلت في الحديقة مع سرجيوس، وكان عبداً من

بريطانيا. ولما خرجت جوليا، وجد سرجيوس عملاً في مكانٍ بقرب الممشى يبعدها عنها جيّداً

بحيث يُوفرُ مأمنًا خارجَ مُتناولٍ طبعها السريع الانفعال.

ارتاعت هُدسة إذ رأته أن جوليا كانت تبكي مرةً أخرى. ومنذ زيارة أوكثافيا لسيدتها،

ما تزال مُضطربةً ومُتوترةً، تأخذها نوباتٌ من البكاء والغضب. وقد بدا جلياً أن زيارة كالاباه

لم تُحسن الأمور. فقد جلست جوليا تحت ضوء الشمس، وتذمرت من كونها تشعرُ بالبرد.

وأحضرت لها هُدسة شالها، إلا أنها وجدتُها ما تزالُ ترتجف. "أتشعرين بأنك في خير،

سيدتي؟ أهو الطفل؟"

تصلبت جوليا. الطفل؟ لم يصبر طفلاً بعد. هكذا قالت كالاباه. وكالاباه عليمه. ثم

أمرت باقتصاب: "عني لي!" مومئةً برأسها إلى القيثارة الصغير بقربها. وكان له سيرٌ جلديٌّ

يُتيحُ لهُدسة أن تحمله معها دائماً، فلا تضعه جانباً إلا متى اشتغلت أو نامت. وراقبت جوليا

هُدسة تلتقطه وتبدأ بمداعبة أوتاره برفق. فإذا بلحن رقيق يُهدئ أعصابها المرهقة.

رمت هُدسة، ولكنها لاحظت أن جوليا قلما أصغت. فقد كانت ذاهلة، شاردةً الدهن.

وراقبت هُدسة يدي جوليا تطويان صوفاً بالسها، ثم تتكوران قبضتين شاحبتين الأصابع. فنزعت

عنها القيثارة الصغير، ومضت إليها. ثم جثت وأمسكت بيديها. "ماذا يضايقك هكذا؟"

"هذا... هذا الحمل".

"أنتِ خائفة؟ رجاء، سيدتي، لا تخافي. إن هذا هو الأمر الأكثرُ طبيعياً في الدنيا.

لقد ابتسم لك الرب. فإنَّ إنجابَ ولدٍ هو أعظمُ بركةٍ يمكن أن يمنحها الله لامرأة".

فقال جوليا بمرارة: ”بركة؟“

”أنتِ تُرَبِّينَ حياةً جديدة...“

سحبت جوليا يديها بعيداً. ”ماذا تعرفين عن هذا الأمر؟“ ثم وقفت وابتعدت عنها. وإذا ضغطتْ صدغَيْها بأصابعها، حاولتْ أن تستعيد السيطرة على مشاعرها الجائشة. لقد أن الأوان كي تكف عن التفاعل كطفلةٍ حيال كل شيء. إن كالأباه على حق. يجب أن تتولى بيدها زمام السيطرة على حياتها.

نظرتْ مُجدداً إلى هدسة، وكانت ما تزال جاثيةً بجانب البنك الرخامي، وعيناها البُنيَّتان مُغممتان بالحنان والقلق. فضغطت جوليا قلبها بيدها، وشعرتْ بندامةٍ لا توصف. لقد كانت هدسة تحبها. لهذا السبب احتاجت إليها أمس احتياج. ولهذا السبب استردتها من أمها وأبيها. ثم التوى فمها بمرارة. كم كان أمراً يدعو إلى الشخيرة على نحوٍ يرثى له أن تكون عبدة هي الشخص الذي أحبها بلا قيد ولا شرط! كان ينبغي أن يكون ذلك الشخص أبواها. وكان ينبغي أن يكون كائس.

”لا يُمكنك أن تُدركي ما أعانيه، يا هدسة. فأنت لا تعلمين ما يعنيه أن تكوني مريضة، شاعرةً بالإعياء كل حين، فيما زوجك يَبْذُك. ماذا يُمكنك أن تعرفي بشأن حب رجلٍ على غرار حبي لكائس؟“

وقفتْ هدسة على مهل. وتأملت وجه جوليا، مُتَحيرةً إزاء الاكتئاب الذي رآته. ”أنتِ تحملين طفله.“

”طفلاً لا يُريده، طفلاً فرَّق بيننا. لا مُحدثيني بكون هذا الأمر بركة من عند الآلهة.“ قالت جوليا هذا بغضب.

”أمهلي نفسك وقتاً، سيديتي.“ لماذا يتعدر على جوليا أن تحوز عيني كي ترى وأذنين كي تسمع الرب فتدرك أنها نالت بركة؟

أجابت جوليا: ”إن الوقت لن يُعَيَّرَ أي شيء، بما عدا كونه سيّزِدُ الأمور صعوبة.“ لقد كانت كالأباه على حق. يجب عليها أن تتولى زمام السيطرة. يجب عليها أن تُصِلِحَ الأمور من جديد. ولكنها كانت خائفة من القرار الذي قرّره. لقد هاجمها الشك. فهل مُجرّد كون الأمر مُمارسةً شائعةً يجعله صائباً؟ وإن كان صائباً، فلماذا شن الشك هجمةً عنيفةً عليها؟

أكان هنالك شيء من قبيل الصواب والخطأ؟ ألا يتوقف الأمر كله على الأحوال؟ أما كانت السعادة هي الأمر الأساسي الذي ينبغي إحراره في الحياة؟

أَرَادَتْ مِنْ هَدْسَةِ أَنْ تُدْرِكَ مَا كَانَتْ هِيَ تَجْتَاز فِيهِ. أَرَادَتْ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَكُونُ حَسَنًا، وَإِنَّ قَرَارَهَا إِجْرَاءَ إِجْهَاضٍ كَانَ مَنْطِقِيًّا. أَرَادَتْ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ إِنَّ مَا تُوَشِّكُ عَلَى فَعْلِهِ كَانَ الْأَمْرَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَسَعُهَا أَنْ تَفْعَلَهُ لِتَجْعَلَ الْأُمُورَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كَائِسٍ تَعُودُ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهَا. وَلَكِنَّهَا لَمَّا نَظَرَتْ فِي عَيْنِي خَادِمَتِهَا الْيَهُودِيَّةَ الصَّغِيرَةَ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقُولَ لَهَا أَيُّ شَيْءٍ. فَمَا رَأَتْهُ كَالآبَاهِ مُجَرَّدَ رَمَزٍ، كَانَتْ جُولِيَا تَعْلَمُ أَنَّ هَدْسَةَ رَأَتْهُ حَيَاةً حَقِيقِيَّةً.

وَمَا الْمَهْمُ فِي مَا تَعْتَقِدُهُ عَبْدَةٌ؟ إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَيُّ شَيْءٍ. وَهِيَ لَمْ تَكُنْ أَيُّ شَيْءٍ. إِنَّهَا مُجَرَّدُ عَبْدَةٍ طَرَدَهَا إِلَهَهَا الْخَاصُّ غَيْرِ الْمَنْظُورِ.

وَمَنْ تَمَّ قَالَتْ جُولِيَا، وَاقِفَةٌ مَوْقِفَ دِفَاعٍ غَاضِبٍ: ”إِنَّكَ تَقُولِينَ إِنَّ ذَلِكَ بَرَكَةٌ لِأَنَّ شَخْصًا مَا قَالَ لِكَ إِنَّهُ بَرَكَةٌ. فَأَنْتِ إِنَّمَا تُكْرَرِينَ مَا قَدْ سَمِعْتِهِ. إِنَّ كُلَّ مَا تُغْنِيَنِيهِ وَكُلَّ مَا تَقُولِينِيهِ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ إِعَادَةٌ لِكَلِمَاتِ شَخْصٍ آخَرَ وَأَفْكَارِهِ. أَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ مَا فَعَلْتِهِ دَائِمًا مَعَ كِلَاوَدِيُوسَ؟ تِلَاوَةُ كِتَابِكَ الْمُقَدَّسِ، وَسِرْدٌ قَصَصِكَ لَهُ؟ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ مِنْ عِنْدِكَ. فَكَيْفَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْهَمِي مَا يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أَنْ أَقَاسِيَهُ، وَالقَرَارَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ أَقْرَرَهَا؟“

غَيْرَ أَنَّ التَّكَلَّمَ إِلَى هَدْسَةِ بِفَظَاظَةٍ لَمْ يُوْتِ جُولِيَا أَيُّ فَرْجٍ. بَلْ إِنَّهَا بِالْحَقِيقَةِ زَادَتْ شَعُورًا بِسُوءِ الْحَالِ. ”أَنَا مُتَعَبَةٌ. سَأْمُضِي إِلَى الدَّخْلِ لِأَسْتَرِيحَ.“

”سَأُحْضِرُ لَكَ شَيْئًا مِنَ التَّبِيدِ الْمُحَلِّي الْمُنْكَهَةِ، سَيِّدَتِي.“

كَانَ لَطْفُ هَدْسَةِ مِلْحًا عَلَى جُرحٍ غَيْرِ مُنْذَمِلٍ، وَجَاءَتْ رَدَّةُ فَعْلِ جُولِيَا نَابِضَةً بِالْأَلَمِ الْجَارِفِ: ”لَا تُحْضِرِي لِي أَيُّ شَيْءٍ. لَا تَقْتَرِبِي إِلَيَّ قَطْعًا. إِنَّمَا دَعِينِي وَشَأْنِي فَحَسْبُ!“

عَادَ كَائِسٌ إِلَى الْبَيْتِ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ عَصْرِ النَّهَارِ. وَكَانَ سَاخِطًا، فَعَلِمَتْ جُولِيَا أَنَّهُ قَدْ خَسَرَ فِي السِّبَاقَاتِ مَرَّةً أُخْرَى. وَتَفَاقَمَ اسْتِياؤُهَا حَتَّى عَجَزَتْ عَنْ مُقَاوَمَةِ مُنَاكَدَتِهِ قَلِيلًا، فَقَالَتْ: ”كَانَ حَظُّكَ يَسُوءُ دَائِمًا عِنْدَمَا أَرَفَقْتُكَ.“

اسْتَدَارَ كَائِسٌ قَلِيلًا وَرَمَقَهَا بِعَيْنَيْنِ قَامَتَيْنِ شَرِسَتَيْنِ. ”أَمْرٌ جَيِّدٌ أَنَّكَ كُنْتِ غَنِيَّةً، يَا عَزِيزَتِي، وَإِلَّا لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْكَ نَظْرَةً ثَانِيَةً.“

وَقَعَتْ كَلِمَاتُهُ عَلَيْهَا وَقَوَعَ ضَرْبِيَّةٌ فَعَلِيَّةٌ عَنيفَةٌ. وَلَمْ تَكَدْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَنَفَّسَ بَعْدَ انْقِبَاضِ الْأَلَمِ عَلَى أَثَرِ كَلِمَاتِهِ. أَكَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا؟ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ. فَهُوَ سَكْرَانٌ، وَلِذَلِكَ تَكَلَّمَ بِهَذِهِ الْفَظَاظَةِ. وَلَطَمًا كَانَ بِالْعَ الْفَظَاظَةِ كُلَّمَا سَكِرَ. وَأَرَادَتْ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ بِهَجُومٍ مُضَادٍّ، أَنْ تُسِيلَ دَمَهُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُفَكِّرَ فِي شَيْءٍ قَوِيٍّ يَمُكِنُ لِإِحْجَازِ ذَلِكَ. تَمَّ ابْتِسَامُ لَهَا ابْتِسَامَةً فَاتِرَةً هَازِئَةً عَذَّبَتْهَا. لَقَدْ كَانَ مُتَعَدِّرًا اخْتِرَاقُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ.

سكب كائس لنفسه كأس خمر، وشرّبها دفعةً واحدة. ثمّ انفجر طبعه السيئ، ورمى الكأس الفارغة عبر الغرفة. فقعقت على جدارية تُصوّر فتيات يرحن مع ساطيرات، وأجفلت جوليا. "أفضل لك أن تتمني تحسن حظي في السباقات". قال هذا بمكر، ثمّ غادرها.

جاءت كالاباه باكراً في الصباح التالي. وقد رافقتها امرأة رومانية صغيرة ترتدي توجة بيضاء جديدة ذات حواشٍ ذهبية. وكان يرفقتها عبدٌ يحمل تحت إبطه صندوقاً منقوشاً مشؤوماً. قالت كالاباه، مُطوّقة جوليا بإحدى ذراعيها: "لا داعي لأن يبدو عليك هذا الخوف الشديد، يا جوليا. إن أسلينا بارعة جداً في هذا الأمر. وقد أجزته مراراً كثيرة جداً من قبل". واقتادتها على طول الرّواق المرصوف بالمرمر إلى مهاجع جوليا. "إن شهرتها ناصعة وهي مُحترمة جداً بين بنات جيلها. لقد كتبت عن تفتيات الإجهاض بتكليف من الهيئة الطيبة في السنة الماضية، ونتأجها في الموضوع واسع الانتشار. فليس عليك أن تقلقي بشأن أي شيء".

أمرت أسلينا واحدةً من عبات كائس بأن تزود الكانون بالوقود مجدداً وتبقيته متوقفاً جيّداً حتّى تظّل الغرفة دافئة. وحطّ عبداً الصندوق المنقوش، وفتحت وأخرجت أمفورة. وإذا سكبت شيئاً من محتواها في طاس، أضافت خمرًا، وحملته إلى جوليا، قائلة: "اشربي هذا!"

كان للخمرة الحلوة مذاقٌ شديد المرارة.

قالت أسلينا وهي تدفع الطاس إليها ثانية: "اشربيه كله، كل قطرة فيه". ووقفت تُراقب، ثمّ أخذت الطاس الفارغ من يدي جوليا المرتجفتين وأعطته لبعدها، وأضافت قائلة: "اخلعي ثيابك واستلقي على ظهرك!"

استحوذت على جوليا موجهة دُعر. فأقبلت كالاباه إليها، وأسفعتها. وهمست لها مؤازرةً: "سيجري كل شيء حسناً. نقي بي. حاولي أن تسترخي. فهذا يجعل الأمر أسهل".

فحصتها أسلينا بتدقيق، وقد أفتحمت في داخلها شيئاً وتركته هناك. ثمّ استقامت وغسلت يديها في طست ماءٍ حملها لها عبداً. "لقد مضى على حبلها وقت أطول مما قلت بكثير".

فقالت كالاباه برقة: "لم تكن متيقنة".

أخذت أسلينا منشفةً وتقدّمت لتقف بقرّب جوليا. وابتسمت لها من عل. ثمّ ناولت عبداً المنشفة، ووضعت يدها على جبين جوليا. "ستشعرين بمغصٍ سريعاً، يا عزيزتي. وسيستمر الانزعاج إلى أن يتخلص جسمك من كتلة الخلايا. بضع ساعات، لا أكثر". ثمّ

”تراجعتُ قليلاً ورمقتُ كالاباه بنظرية خاطفة. ”لحظةً من وقتكِ...“

تحدّثنا بصوتين مكتومين قُرب الباب. وبدت كالاباه غاضبة. وسمعتها جوليا تقول:
”لقد زادت أجزتك!“

”إن مهارتي موضع طلبٍ مُتزايد، وأنتِ أصررتِ على إجراء الإجهاض سريعاً جداً. فقد كان عليّ ترتيب برنامجي من جديد كي آتي إلى هنا.“

رجعت كالاباه، وانحنت على جوليا. ”أسفة، جوليا، ولكن يجب أن أسأل. ألدريك أي مال تحت يدكِ؟“

”لا. إن كائس يُدير كل شيء.“

فقالت كالاباه مُتضايقةً: ”يجب أن تُغيّري ذلك. حسنًا، ليس من شيءٍ يُعمل بهذا الشأن الآن. سأضطرُّ إلى إعطائها لآلتكِ ريثما يتيسر لنا الحصول على نقد.“

قالت جوليا: ”لآلكي؟“

”فقط إلى أن يُتاح لي التكلُّم إلى كائس والحصول منه على أجرة أسلينا نظير خدماتها. لا تنظري إليّ هكذا. فلا داعي لأنْ تقلقي بشأن استرجاعكِ لآلتكِ. ستعودُ إلى حوزتكِ قبلَ عصرِ الغد. أعدكِ بذلك. أين هي؟“

ثمَّ غادرت أسلينا الدّارة واللاكيُّ في حوزتها.

ابتدأت انقباضات جوليا بعد ذلك بساعة، ولمَّا بدأت جاءت قويّة وسريعة، مُتداخلاً بعضها في بعض. فتلوت جوليا ألمًا، وسرعان ما تصبّب بدؤها عرقًا. فقالت آنّة: ”قلت إن هذا لن يؤلم!“ غارزة أصابعها في الأغطية وفاتلة إياها.

”أنتِ تقاومين الأمر، يا جوليا. يجب أن تسترخي فلا تتألّمي كثيرًا. كُفي عن المغالبة. الأمر أسرع ممَّا تظنّين.“

وما إن انتهى الانقباض، حتّى جاشت جوليا بكاءً وتنهدًا سريعين. ”أريدُ أمي.“ وقلّبت رأسها ذهابًا وإيابًا على الوسائد، حتّى إذا جاء انقباض آخر عادت تنن. ”هدسة. إليّ بهدسة.“

أقبلت هدسة حاملةً استدعيّت. وما إن دخلت مهاجع جوليا، حتّى علمت أن ثمة خطبًا رهيبًا، إذ قالت كالاباه: ”إن خادمك هُنا، يا جوليا. حاولي الآن أن تهُدئي نفسك.“

انحنت هدسة فوقها مرعوبةً، وقالت: ”سيّدتي، أهو الطفل؟“

فدفعتها كالاباه جانبًا، ورمقتها بعينيها السوداوين قائلّة: ”أخرسي، يا حمقاء! أحضري

طستًا من الماء الساخن وخرقة“. ثم انحنّت نحو جوليا مُجدِّدًا، وقد عاودَ لَهجَتَها اللينُ والعذوبة. فوضعت يدها على بطنِ جوليا الأبيض، وابتسمت. ”يكاد الأمر ينتهي، يا جوليا. لم يبقَ إلَّا وقتٌ قليلٌ بعد“.

”أه جونو، يا إلهة السماء، ارحميني...“ أنت جوليا من بين أسنانها الصارّة، وقد ارتفعت كتفها عن السرير إذ أخذها التعب الشديد.

وبينما هدسة تدفّق الماء في الطست، قالت: ”هل أستدعي طبيبًا؟“
فقال كالاباه: ”لقد جاءتها طبيبة“.

وإذ استحوذت على جوليا نوبة ألمٍ أخرى، تأوّهت. ”ما كنت لأقوم بالأمر لو علمتُ أنه سيكون هكذا. أه، جونو، رحمة، رحمة...“

”هل تظنين أن حملَ طفلي كامل المدة وإنجابَه أمرٌ أسهل؟ أفضل أن تتخلصي منه الآن“.

نزع الدم من وجه هدسة. وأطلقت صرخة رقيقة إذ انزلت الطست من يديها وتحطم على الأرض. فرمقتها كالاباه بنظرة حادة، وردت هي مُحملقة إليها بارتياح.

وقفت المرأة الأكبر سنًا، وأقبلت إلى هدسة بسرعة، وصفعتها على وجهها. ”لا تقفي هناك فيما هي تتألم. افعلي كما يقال لك. أعطيني الطست الآخر من هناك، ثم اذهبي وأحضري ماءً ساخنًا“.

فرت هدسة من الغرفة ملهوفة. ثم التصقت بالجدار الرُخامي البارد خارج الغرفة، وغطت وجهها. وسمعت جوليا تصرخ وراء الباب المغلق، فصعقها صوتُ ألمها المبرح. ثم ركضت وملأت إبريقًا كبيرًا بالماء الساخن من صنوبر الحمام، ورجعت.

عندما دخلت هدسة، كانت كالاباه تقول: ”انتهى الأمر، يا جوليا. كان قد مضى على حملك وقتٌ أطول مما ظننت. لذلك كان الأمرُ صعبًا جدًا. أشش، لا مزيد من البكاء الآن. لقد قضيت الأمر. لن تضطري لأن تتألّمي هكذا بعد“.

وإذ رأته هدسة واقفة في المدخل، قالت: ”لا تقفي هناك، يا بنت. هاتي الماء إلى هنا. ضعي الإبريق بجانب السرير. ثم خذي ما على الأرض وتخلصي منه“.

ركعت هدسة غير قادرة على النظر إلى جوليا، والتقطت بعناية الصرة الصغيرة الدامية عن الأرض. ثم نهضت وغادرت الغرفة بصمت. وتبعته كالاباه حتى الباب، ثم

أغلقته وراءها بإحكام.

وقفت هدسة في الرواق خارجًا. تخلّصي منه. وانسدّت حنجرتُها إذ ضمّت الصّرة الضعيلة إلى قلبها، هامسةً بانكسار: ”أه، اللّهُمّ...“ ثمّ مشّت باضطرابٍ إلى الحديقة، وقد عَشِيَت عيناها من الدّموع.

كانت تعرفُ مرّات الحديقة جيّدًا، فسارت في أحدها إلى شجرة الخوخ المزهرة. ثمّ انهازت مُحْتَضِنَةً الصّرة، وأخذت تَهزّها وذهابًا وإيابًا بينما هي تبكي. وحفرت حُفرةً بيديها المُجَرَّدَتَيْنِ في التّربة اللينة، ووضعتِ الطفلَ المنبوذَ فيها. ثمّ غطّت الحفرة ومسدّت الترابَ برفق. ”لِيُقِمَكَ الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كِي تُرَمَّ مَعَ الْمَلَائِكَةِ...“
ولم ترجع إلى داخل البيت.

عرج مرقس على دارة جوليا زائرًا. كان الشكون التامّ مُخَيِّمًا على البيت، ولمّا أُخِذَ إلى مَهَجَعِ جوليا وجدّها ما تزالُ في السرير. فابتسمت، ولكن لم يكن في بسمتها أيّ مَرَحٍ، وكانت عيناها كليلتين من البؤس. فقال: ”ما خطبك، أختي الصغيرة؟“ وعبرَ الغرفة إليها. لعلّها سمعت شائعات عن خيانات كائس، أو سمعت بخسائره الأحداث عهدًا في السباقات. فقد كانت شاحبةً، وبَدَت مُحَبَّبَةً. ”أأنت مريضة؟“ وكانت خادمة واقفةً بقرب سريرها، مُنْتَظِرَةً أن تخدمها، غير أنّها لم تكن هدسة.

قالت: ”فقدتُ الطّفلَ هذا الصباح“، مُتَجَنِّبَةً حَمَلَقَتَهُ وهي تُمسد الحرام على بطنها. كان الألم قد توقّف، ما عدا فتورَ همّتها الذي بدا مؤهّنًا لها. فلم تستطع أن تتخلّص من الشعور الرهيب بالفراغ والخسارة، كأنّما قد انتزعَ منها أكثرُ من مُجَرَّدِ نسيجٍ مكوّنٍ من خلايا. وكأنّ جزءًا منها قد انتزعَ أيضًا، وقد أدركت الآن أنّها لن تستعيده أبدًا.

رفع مرقس ذقنها، وتأمّل وجهها. ”لقد أُجِريَ لكِ إجهاض، أليس كذلك؟“

فتلاّت عيناها بالدّموع، وقالت: ”إنّ كائس لم يُرد طِفلاً، يا مرقس.“

”هل قال لك أن تفعلي هذا؟“

”لا، ولكن أيّ شيءٍ آخر يَسْعُنِي أن أفعل؟“

ومسّ خدّها برفق. ”أأنت بخير؟“

فأومات برأسها في ضَعْفٍ، واستلقت إلى الورا. ”قالت كالاباه إنّي سأتحسّن في غضون أيّام قليلة. وقالت إنّ الشعورَ بالاكئاب في ما بعد أمرٌ طبيعيّ. فذلك سيّزول.“

كالاباه. كان ينبغي أن يعرف. فأرجع شعرها إلى الوراء عن صدغها، ولثمها برقة. ثم تباعد، فاركأ قفا رقبته بيده. إن قال شيئاً بحق كالاباه، دفع جوليا فقط إلى مزيد من الارتباط بها. فقد كانت جوليا تُشبهه كثيراً من بعض النواحي. وهي لم تُرد أن يلمِّي عليها أحدٌ كيف تعيش حياتها.

”الأمُّ كلُّه صائب، أليس كذلك، يا مرقس؟ ليس من خطي في ما فعلته، هل من خطأ؟“

علم أنها أرادت منه أن يقول إنه موافقٌ على قرارها إجهاض الولد، ولكنه لم يستطع ذلك. كان قد تجنَّب الموضوعَ كلِّما طُرِحَ لأنه كان يُخلفُ لديه انزعاجاً. ولكن جوليا كانت بحاجة إلى عزاء. فعاد وقعد بقربها. ”اسكتي، يا صغيرة! إنك ما فعلت شيئاً لم تفعله مئآت النساء الأخرى قبلك“.

”سيرغبُ كائس في من جديد الآن. أنا أعلم أنه سيرغب“.

انقبض فم مرقس. لقد جاء كي يُحدثها عن كائس، ولكن هذا اليوم لم يكن اليوم الذي فيه يزيد بلاء على بلاياها. فلا داعي لأن تعلم أن خسائر زوجها في رهانات السباق كانت تتراكم بسرعة مخيفة. حتى لو كانت على علم بذلك، فماذا كان في وسعها أن تفعل ما دامت لا تملك أية سيطرة عليه؟

”سأخبر الوالد والوالدة أنك فقدتِ الطفل، وأنت بحاجة إلى وقت كي تستريح وتتعافي“. فهي الآن أكثر ضعفاً وشغفاً من أن تواجِههما. إن نظرة واحدة من أبيها إلى وجهها كفيلاً أن تريه أنها كانت مُقعممة بالشعور بالذنب حيال شيء ما. ومن شأن ذلك أن يفتح باب الأسئلة، ممَّا سيؤدِّي إلى اعتراف هستيري. وقد كانت الصدوع في العائلة واسعة جداً أصلاً، دون زيادة هذا الصدع عليها.

تناول مرقس يد جوليا وأمسكها بإحكام. ”سيكون كل شيء بخير“. وقد لام كائس على جعلها تظن أن عليها إجهاض هذا الطفل كي تفوز بجبه من جديد. ثم مسح دمعاً عن خدَّها وفركها بين أصابعه. أراد أن ينتقم من كائس، ولكن أي شيء يفعله سيؤدِّي جوليا فحسب. وشعر بالعجز. ”نامي قليلاً، يا جوليا“. ثم قبل يدها. ”سأزورك غداً أيضاً“.

تشبَّت بيده بكلتا يديها حالماً وقف. ”مرقس؟ رجاء! حاول أن تجد هدسة، إذا استطعت. لقد أرسلتها كالاباه من الغرفة لكي...“ ثم توقفت وعيناها غائمتان، وتابعت: ”لم ترجع بعد، وأنا أريد منها أن تُغني لي“.

”سأجدها وأرسلها إليك“.

خرج إلى اليهودي الأعمدة. فإذا بضع عبادات واقفات قرب النافورة مُتَهَامِسَات. وما إن لمحتَه إحداهنَّ، حتَّى تفرَّقنَ لِاتِّمَامِ مَهَامِهِنَّ. وسأل واحدةً كانت تغسل بلاط البركة: ”هل رأيت العبدَةَ هَدَسَةً؟“

”ذهبت إلى داخل الحدائق، سيدي، ولم ترجع بعد“.

فمضى مرقس تحت القناطر كي يجدها. ولما وجدها، كانت قاعدة ورُكبتاها مجذوبتان إلى صدرها بشدَّة، ووجهها مستور.

قال: ”إن جوليا بحاجة إليك“. فلم ترفع رأسها. ”هل سمعتني؟ جوليا بحاجة إليك“.

وتفوَّهت بشيء، إلا أنَّ رُكبتَيها كتمتا الكلمات. ثم رفعت يديها ووضعتهما على رأسها، فأرأى أصابعها ملوثةً بالثراب. فأغمض عينيه، وقال: ”لقد علمتُ بالأمر“، مُدْرِكًا ما أرسلت كي تفعله. ”لقد انتهى الأمر الآن. حاولي أن تنسيه. ستتحسُن حالها في غضون يوم أو يومين، ولن يغضب كائس عليها. فكلهما لم يُريدا ولدًا“.

عندئذٍ نظرت إليه، وقد مرَّت الدُموعُ في لطخاتِ الثراب التي لوَّثت خديها المشحوتين. وكانت عينها مملوءتين غمًا ورُعْبًا. ثم هبت واقفةً، فكشَّر اسمئزًا من بقع الدَّم على تُنكها المتسخ بالثراب. وبسطت يديها أمامها مُحَدِّقَةً إليهما، وجسمها يرتعش. ”قالت لي: تخلّصي منه! طفل ضئيل ملفوف بحرقه ومرمي على الأرض كما لو كان نفاية. طفل...“

”أبعدي هذا الأمر من فكرِك. ولا تُفكرِي فيه بعد. ثم إن جوليا لم تكن حاملاً منذ مُدَّةٍ طويلة بحيث يهْمُ الأمر. إنه بالحقيقة لم يكن طفلاً...“

”أه، يا الله...“ وانغرزت أصابعها في تُنكها المُلطخ بالثراب، ثم كررت كلماته بأنَّه كَرِب ”لم يكن طفلاً!“ ونظرت إليه بيأس صارٍ. ”لأنك أنت اقتنيت كليتي؛ نسجتني في بطن أمي... لم تختفِ عنك عظامي حينما صُنِعتُ في الخفاء، ورقيتُ في أعماق الأرض. رأث عينك أعضائي، وفي سفرك كلها كُنَّبت يوم تصوَّرت، إذ لم يكن واحدٌ منها...“

انتصب الشَّعرُ على رقبة مرقس. فقد تكلمت كواحدة من وسيطات الوحي في الهيكل، واخترقته النظرة المُرتسمة في عينها. ”كفي عن هذا!“

غير أنَّها لم تزد إلا بُكاءً، وتكلَّمت الآن بالأرامية ورأسها مرفوعٌ إلى الورا، قائلةً بانسحاق: ”يشوع، يشوع، صالح هم كيمي ماه كازو لويادين“. ”يسوع، يسوع، اغفر لهم

لأنهم لا يدرون ما يفعلون“.

أمسك مرقس كتفها بقوة. ”كفي عن هذا، أنا أقول لك!“ لقد أراد أن يهزها من غيبتها، غير أنها اقتربت منه بصحو تام.

”أنتم الرومانيين مغفلون جدًا بحيث لا خوف لديكم؟ إن الله يعلم حين يسقط عصفور إلى الأرض. أعتقدون أن الله لا يعلم ما تفعلون؟ أتهمكم المسرات السطحية كثيرًا حتى إنكم تقتلون أولادكم لكي تنالوها؟“

أفلتها مرقس وتراجع قليلًا. فتقدمت إليه، وتشبثت ببتكه الأبيض بيديها الملتحنتين بالدم والتراب. ”اليس من خوفٍ لديك؟“

فأمسك معصمها وحرر نفسه. ”لماذا ينبغي أن أخاف؟“ لم يكن إلهها يعنيه في شيء، ولكن أتهامها لسعه مغضبًا إياه. ”ولكن أنتِ ينبغي أن تخافي. إنكِ تتكلمين كلامًا متهورًا بالنسبة إلى عبدة. هل نسيت مدينة القدس سريعًا جدًا؟ ما سمعت قط بامرأة رومانية قتلت رضيعتها حتى تشويه للغداء!“

لم تتراجع حيال غضبه. ”هذه أيضًا رجاسة أمام الله، يا مرقس! ولكن أكون امرأة واحدة جنت من الجوع نظيرة لما عمل هنا؟ أي عذر لجوليا وهي مُحاطة بأسباب الراحة؟ إنها سليمة العقل، وقد فكرت مليًا في هذا الأمر. فهي اختارت هذا الاختيار.“

”ماذا كان يسعها أن تفعل سوى ذلك؟ فهي لم ترد ولدًا، ولا كائس أراد. إن زواجها أخذ في الانهيار.“

”وهل يسهم قتل طفلها في تسوية الأمور من جديد؟ هل تعتقد أن من الصواب أن تدمر شيئًا ما لأنك لا تريده؟ وهل الحياة البشرية رخيصة إلى أقصى حد في نظرك؟ هل تعتقد أن جوليا لن تحاسب؟“

”من سيحاسبها؟ أنت؟“

انكمش وجهه هدسة تغضنًا وراحت تبكي من جديد، وقالت: ”لا، لا!“ ثم هزت رأسها وعيناها مغمضتان، وأضافت: ”ليس لي أن أدين أحدًا، مهما فعل، ولكنني أخاف عليها. الله يعلم“ وغطت وجهها بيديها.

وفكر مرقس، مُشفقًا عليها: إنه إلهها وشرائعه اللعينة من جديد! ”هدسة، لا ينبغي أن تخافي عليها. ليست هذه بلاد اليهودية. لن تخرج وتُرجم. إن روما متحضرة. فليس من

قانونٍ ضِدَّ إجراءِ المرأةِ إجهاضاً، إن كان ذلك خيارها“.

فومضت عينها كما لم يَرهما قط. ”متحصّرة! وماذا عن قانون الله؟ هل تعتقد أنّه لن يُحاسب؟“

”أنت تقلقين فوق الحدِّ بشأنِ ما يمكن أن يُفكّر فيه إلهكِ هذا. وأنا أشكُّ في كونه يُبالي“.

”أنت تعتقدُ أنّه غيرُ موجودٍ لأنك لا تؤمن. إنكم تعبدون إلهةً خلقتموها بأيديكم وخيالكم، وتُنكرون الله العليّ الذي خلقكم من ترابٍ وأعطاكم حياةً. ففي نهاية المطاف، لن يهّم حقاً أمنت أم لم تؤمن، يا مرقس. إذ يُوجدُ فعلاً قانونٌ أسمى من قانون البشر، وليس في وَسعِ إمبراطوركم، ولا جميع فيالقكم، ولا كلُّ معرفتكم الدنيويّة، الوقوفُ ضدّ...“

سَفَقَ مرقسُ يده على فمها قبل أن يسمعها أحد. ”سكوتاً!“ وكافحت فدفعتها بعيداً عن مرأى أهل البيت. ”أنتِ مُغفلةٌ إلى أقصى حدّ، يا هَدَسَة؟ لا تتكلّمي بعدُ عن إلهكِ البغيضِ هذا!“ قال هذا امرأاً وقلبه يخفقُ بشدّة. فما تكلمت به كان تخريباً صارخاً يمكن أن يتسبّب بقتلها.

أبقى يده مشدودةً بثباتٍ على شفّتيها، وهزّها مرّةً واحدةً ليَجعلها تكفّ عن مُقاومته. ”هلاً تصغين إلى صوت العقل! أيّ قوّة سوى روما، يا هَدَسَة؟ أيّ قوّةٍ أخرى على الأرض تصلحُ للمُقارَنة؟ أتعقدن أن إلهكِ القديرِ هذا قويٌّ جدّاً؟ أين كان عندما احتجّت إليه؟ لقد شاهدَ بلادَ اليهوديّةِ تمزُّقها الحرب، ومدينته وهيكله يصيران رُكاماً، وشعبه يُجعلون عبيداً. أهذا إلهٌ ذو قوّة؟ لا! أهذا إلهٌ يُحبك؟ لا! أهذا إلهٌ ينبغي لي أن أخافه؟ أبداً!“

إذ ذاك سكنت، مقتربةً منه بسيماءٍ إشفاقٍ غريبة. فلا يتها، مُريداً لها أن تُدرك الأمور بالعقل. وكانت يده مُندّاةً بدموعها. فتكلّم برقة. ”ليس من سُلطةٍ على الأرض سوى سُلطةِ الإمبراطورِ وسلطةِ روما. فالإمبراطوريّة هي التي تُبقي السلامَ مُتماسكاً. باكس رومانا (السلام الروماني)، يا هَدَسَة. وهو حاصلٌ بثمنٍ غالٍ. فالإيمانُ بوجود أيّ شيءٍ آخر هو حلُمٌ عبديٌّ بالحرّيّة، ودعوةٌ للموت. لقد ولّت أورشليم، ولم يبقَ منها شيءٌ. وقد شتّت شعبك في أنحاء الأرض كالغصافة. فلا تتمسكي بإلهٍ غير موجود، أو- إذا وُجد- يُريدُ على نحوٍ جليٍّ أن يُبيدَ شعبه المختار“.

وسحب يده ببطء، فرأى العلامات التي خلقتها أصابعه على جلدها، فقال: ”لم أقصد أن أؤذيك“. وقد كانت شاحبة وساكنة.

وقالت برقة: ”أه مرقس“، ناظرة في عينيه مباشرة كما لو كانت تبتغي أن تتوسل إليه. ما كان اسمه قد رنَّ قطُّ بهذه العذوبة المتناهية على شفطي امرأة. ”تخلي عن هذا الإيمان الذي لك بإله غير منظور. إنه ليس موجوداً“.

”أفي وسعك أن ترى الهواء الذي تنفسه؟ أفي وسعك أن ترى القوة التي تحرك الأمواج، أو تبدل المواسم، أو تبعث بالطيور إلى ملاذ شتوي؟“ وفاض دمعها. ”أيعقل أن تكون روما غاية في الغباوة رغم كل معرفتها؟ أه، مرقس، لا يمكنكم أن تحتوا الله في الحجر. لا يمكنكم أن تقيدوه في هيكل. لا يمكنكم أن تحبسوه على رأس جبل. فالسما عرشه، والأرض موطن قدميه. وكل ما تراه هو ملكه. ستقوم إمبراطوريات وتسقط إمبراطوريات. إنما الله وحده يسود دائماً أبداً“.

حدق مرقس إليها، وقد فتته ما قالت وانعقل لسانه ارتباكاً حياًل قدرتها على التكلم بمثل هذا الإيمان الراسخ. فلا شيء مما قاله قد نفذ إليها. وإذا بخوف عليها مفاجيء سريع قد طما فوقه كموجة جارفة، أعقبه غضب عنيف على إيمانها العنيد بالهيا غير المنظور.

فقال بتوتر: ”أرسلتني جوليا كي أجديك. أتويز أن تخدميها كما فعلت دائماً، أم ينبغي أن أجد أخرى تحل محلّك؟“

عندئذٍ تغيّر تصرّفها. لكأنما أسدلت على وجهها حجاباً. فأطرقت رأسها، وشبكت يديها أمامها. ومهما كانت المشاعر والمعتقدات التي تعتنقها بشغف شديد، فإنها باتت مستورة بحرص في داخلها الآن. وأفضل أن تبقى هناك. وما لبثت أن قالت بهدوء: ”سأذهب إليها، سيدي“.

سيدي. ها هو السيّد من جديد، وهي العبد. وأحسّ الهوة بينهما مثل جرح مفتوح. فاستقام ونظر إليها من علّ ببرودة. ”اغسلي واطرحي عنك ذلك الثنك قبل أن تذهبي إليها. إنها لا تحتاج إلى ما يذكرها بما قد فعلت“. ثمّ دار وغادرها.

راقبته هدسة منصرفاً، والدّموع تحرق عينيه. وهب نسيم رقيق عبر الحديقة. فأغمضت عينيه، وهمست: ”يشوع، يشوع! ارحمه. ارحم جوليا. يا رب، ارحمهم كلهم!“

٣١

مَشَّطَ أتريتيس شعره إلى الورااء بأصابع يديه. لقد باتَ مُعتادًا الصَّوتَ تمامًا حتَّى لم يَكُدْ يسمعُ وَقَعَ المسامير في نعل حذاء الحارس وهو يمرُّ على القضبان الحديدية فوق رأسه. إلا إذا عاودَه ذلك الحُلم. فعندئذٍ كان يسمع وقع الحُطلى الثقيل ويرى ظلَّ الحارس. وإذا يستبدُّ به القَلتَى، ينهضُ في ظلام زَنزانته، مُتسائلًا عن قُرب طلوع الفجر. أفضلُ أن يكونَ في الفناء قائمًا بالتمرينات القاسية، وأفضلُ أن يكونَ بيده سيف. وقد حَلَفَ الحُلمُ لديه عن غابات موطنه السوداء ذكرى قويَّة جدًا حتَّى حُيِّلَ إليه أنه سيُجنُّ داخلَ أسرِ حُجرتِه.

التقطَ الصَّنمَ الحجريُّ من فجوته في الزاوية. ومرَّرَ أصابعه برقةً على الاثني عشر ثديًا المُتدلِّية من صدر تَمثال المرأة وبطنه. لقد تخلَّى عنه طيوازٌ في بلاد الجِرمان، وكان يحتاج إلى إليه يعبده. فلعلَّ هذه الإلهة تفي بِمُرادِه. ذلك أن أرطيميس راقَت شهوانيته. وقد قال باتو إن كاهنات هيكليها، مُقابلِ تقدمة مالبة، يُساعدن أتباعها المُخلصين في "العبادة". وكان أتريتيس قد زار هيكَل إيزيس ومضى مُشبع الشهوة جدًا، رغمَ انزعاجه الغامض من جزاء تلك الزيارة. كذلك أيضًا كانت نساء يعبدن، في وجود كهنة مُتأحين لهنَّ مُقابلِ أجرة. فقد كانت لروما مسرَّاتها.

خفقت أضواء المشاعل فوق رأسه، وسمع الحُرَّاس يتحدَّثون. فأعاد الصَّنم إلى فجوته، وجلس على بَنكه الحجريِّ. وإذا أسندَ ظهره إلى الحجر البارد، أغمضَ عينيه وحلَمَ مرَّةً أخرى بأُمَّه مُتنبئةً أمامَ مشعلٍ مُتأججة: "امرأةٌ داكنةُ الشَّعر والعينين..." لم يكن قد رأى الحُلمَ طيلةَ أشهر، لا منذ الليلة التي سبقت قتله ثراكس ورؤيته الشابتين في البستان قُرب الطريق إلى كاپوا. غير أن الحُلمَ هذه الليلة كان قويًا وحققيًا جدًا حتَّى تردَّدَ مثل صدَى في الظلام، فإنَّ المرأة التي تحدَّثت بشأنها أمه كانت قريبة.

كانت روما تعجُّ بنساء داكنات الشَّعر والعيون. وكثيراتٍ مَن حضرنَ الولايم السابقة للألعاب كَنَّ جميلاتٍ على نحوٍ لا يُصدَّق. وبعضهنَّ قدمنَ له أنفسهنَّ. وكوسيلةٍ لإهانتهم، نجاهلهنَّ. أمَّا ابتلاؤه صبرَ الإمبراطور، فما كان إلا مسألة رضى. ذلك أنه لم يعد يخشى أن يُصلَبَ أو يُطرحَ للحيوانات الضارية، فالجمهور الرومانيُّ لن يسمحَ بذلك أبدًا. ولمَّا بلغَ عددُ قتلاه تسعةً وثمانين، بات الألاف يتقاطرون إلى المدرج الكبير (سركس مكسيمس) فقط كي

يُشاهدوه يُقاتِل . وما كان الإمبراطور مُغفلاً . فهو ما كان لِيُبَدِّد سلعةً ثمينَةً كهذه بسبب مسألةٍ عديمة الأهميَّة كالكبرياء .

غير أنَّ أترتيس لم يَجِن سرورًا من شهرته، بل وجدها بالحقيقة عاملةً على الإمعان في استعباده . فقد عُيِّن له مزيدٌ من الحُرَّاس، لا للحيلولة دون فراره الذي بات الآن يعلمُ أنَّه مُستحيل، بل لمنع جمهورٍ مفتونٍ به أن يُزقَّه إزبًا إزبًا .

حُطَّ اسمُه على الجدران في كلِّ مكانٍ من المدينة . وكانت الزُّهور والنقود تُرمى إليه قبل القتالِ وبعده، وهدايا المُعجبين تندفقُ إلى اللودُس يوميًا . فلم يستطع أن يظهرَ في أيِّ مكانٍ خارج اللودُس دون أن يُحيطَ به اثنا عشر حارسًا مُدربًا . ولم يُعد يُسمَح له بزيارات فندقٍ يгнаكس بسبب الشعب الذي كانت تُثيره . حتَّى إنَّ مُجرَّد حضوره في أيِّ مهرجانٍ غالبًا ما جعل النساء يُغمى عليهنَّ . وحين يكون على رمال ساحة المحاربين، كان الآلاف يهتفون باسمه مرارًا وتكرارًا حتَّى يبدو مثل نبض قلبٍ عميق صادرٍ عن وحشٍ بدائيٍّ .

إنَّما في أحلامه فقط عاودته ذكرياتُ غامضةٍ عمَّا كانت عليه حاله وهو رجلٌ حُرٌّ في الغابات، يتلقَّى رقةً امرأته، ويسمَع ضحك الأولاد . فإنَّ إنسانيَّته كانت تؤخِّذُ منه على مهلٍ كلُّما واجهَ خصمًا وانتصر .

نظر أترتيس إلى يَدَيْه . كانتا قويَّتين وصلبتين من جرَّاء ساعات التمرن بسيفٍ مُثقلٍ ... بل كانتا مُثقلتين أكثرَ بعدُ بما عليهما من دماء . وتذكَّر وجه كالب وهو ينتظر بلا خوفِ الضربة القاضية فيما الرَّعاعُ المُتعطِّشون للدماء يصيحون: ”جوغولا!“ وكان العرق قد تصبَّب من على جبين أترتيس إلى داخل عينيه . أم كانت تلك دموعًا؟

آنذاك قال كالب، مُترنحًا من فقدان الدَّم: ”حررني، يا صديقي!“ وقد وضع يَدَيْه على فخذَي أترتيس وأمال رأسه إلى الوراء . فلَمَّا أهوى أترتيس بضرِبته، نهض الرَّعاعُ زاعقينَ بابتهاج .

فتح أترتيس عينيه، مُحاولًا أن يطمسَ هذه الذكرى، غير أنَّها بقيت، مثلَ أكلةٍ تنهش نفسه .

وما إن رُفِع مزلاجُ الباب، حتَّى خرجَ أترتيس في صَفٍّ إلى الفناء للتمرن . وقد أكسبه النشاطُ بعضَ الفَرَج، إذ ركَّز على التدرُّب الجِسْمانِيَّ القاسي .

وقف باتو على الشُّرفة، ومعه زوَّار اللودُس . ولم يكن نادرًا أن يُشاهدَ الزوَّار المحاربين في أثناء دوراتِ التدرُّب . فقد جاء بعضهم للشُّراء وبعضهم للتفرُّج . ولم يُعرِّهم أترتيس

أي اهتمام، حتى ظهرت شابَّتَانِ بجانب باتو. فعرفَ أوكتافيا في الحال، لأنَّها غالبًا ما كانت تحضُرُ الولائم التي تُقام قبلَ الألعاب، وقد عُرِفَتْ بأنَّ لها شغفًا بأيِّ محاربٍ راغبٍ في إعارتها نظرةً ثانية. ولكنَّ الشابَّةَ الأخرى هي التي اجتذبت انتباهه. وقد كانت ترتدي بالأسا أزرَقَ ذا حواشٍ صفراءَ وحمراءَ. وكانت فتيَّةً وجميلةً جدًّا، ذاتَ بشرةٍ باهتةٍ وهي داكنةُ الشعر والعينين.

حاولَ أن يُركِّزَ كليًّا على تدربُه، ولكنَّ كان في وسعه أن يحسَّ حَمَلَقَةَ الشابَّةِ إليه على نحوٍ غاييةٍ في التركيز حتى انتصبَ الشَّعرُ واخِرًا على قفا رَقَبَتِهِ. امرأةٌ داكنةُ الشَّعرِ والعينين... تلك كلمات أمه في الحلم. فاقترَبَ منها بنظرةٍ ثانية. وكانت أوكتافيا تهمسُ في أذنها، غيرَ أنَّ انتباهها كان مُركِّزًا عليه تمامًا بحيثُ بدتَ غيرَ مُصغيةٍ. لقد كانت رومانيَّةً، وعاودته نبوءةُ أمه كضربةٍ صادمةٍ.

أي امرأةٍ مُحترمةٍ تُقدِّم على زيارةٍ لودُس؟ هل كانت، على غرارِ أوكتافيا، تشتعلُ اشتهاً لرجالٍ يسفكون الدِّماءَ؟ لقد صرَّخَ ذهنُه ضدَّها حتى حينما وجدَ نفسه مُنجذبًا إليها. وقفت فوقه مثلَ إلهة، لامباليةٍ ومحظورًا مَسْها. وغمزه التَّوقُ والغضب. فتوقَّفَ عن تمرُّنه، ودارَ صوبها ليواجهها بجسارةٍ وتلتقيَ عيناه عينيها. وإذ رفعَ أحدَ حاجبيها، تلقَّى حَمَلَقَتَها، ثمَّ مدَّ لها يده هازئًا. لقد كان مقصده واضحًا، ولكنَّ الفتاة ذات الثوب الأزرق - بدل أن تضحك وتغتنمَ التَّشجيعَ على غرارِ أوكتافيا - وضعتَ إحدى يديها على قلبها وتراجعتَ مُرتبكةً. وقد كلَّم باتو المرأتين، فدارتا ومضتا إلى داخلِ المبنى الرئيسيِّ.

انضمَّ باتو إلى أتريتس في الحَمَّامات. وبينما هو مُستندٌ إلى عمودٍ حجريِّ، ومنشفةٌ ملفوفةٌ حولَ خصره وأخرى مطروحةٌ على كتفه القويَّة، قال: "سُرَّت أوكتافيا لأنك لاحظتها اليوم".

وإذ خرجَ أتريتس من الماء وأخذَ منشفةً عن رَفِّ، أجاب: "لم تكن الإيماءةُ مُوجَّهةً إليها". فقال باتو بظرفٍ ساخر: "إنَّ السيِّدة جوليا جميلةٌ جدًّا بحيثُ تجعل الرجلَ ينسى نفسه ويغضه لروما".

وتوترت عَصَلَةٌ في خدِّ أتريتس، إلاَّ أنَّه لم يُجِبْ بشيءٍ.

"إنَّها مُتزوِّجة من كائسِ پولونيوس أربانس، رجلٌ يحوم على حافةِ الدوائر العُليا. وقد سمعتُ أنَّ له نسبًا مشكوكًا فيه، وخُلُقًا أكثرَ عرضةً للشكوكِ بعد. لقد جنى ثروته منها. إذ كان زوجها الأوَّلَ هَرِمًا ومات في غضون بضعة أشهرٍ من الزواج. وتنازلَ أبوها عن

حقوقه في ميراثها، وعهدَ بإدارته إلى ابنه مَرْقُس، وهو مُستثمِرٌ ذكيٌّ جدًّا. ولكن الآن يُقال إنَّ أربانس يُنفِقُ ثروتها على سباقاتِ المركبات .“

أدخلَ أتريتسُ تنكًا نظيفًا في رأسه، وحملقَ إلى باتو وهو يشدُّ حزامًا على خصره. ”لماذا مُتَعِنِي بحياة السبِّدة الشخصية؟“

”لأنَّ هذه هي أوَّلُ مرَّةٍ فيها أرى امرأةً تخلبُ لُبِّك، امرأةً رومانيَّةً.“ ثمَّ استقامَ وابتسمَ بسُخريَّةٍ. ”لا تشعرُ بالارتياح، يا أتريتس. إنَّ أباهَا أفسُسي، وقد اشترى جنسيته الرومانيَّة بالذهب والنَّفوذ.“

تلكَ الليلة، حلَّم أتريتسُ بأُمِّه مرَّةً أُخرى. وفيما هي تتنبأ، كانت السيِّدة جوليا بثوبها الأزرق هي التي أقبلت إليه عبرَ غياهب الغابة السوداء.

رجعتَ هدسةٌ إلى السوق، مُتوجِّهةً إلى كشكٍ مخصوص كانت زارته أمس مع سيِّدتها. كان المالكُ الرومانيُّ يبيعُ الفاكهة، وقد اشترتَ جوليا عنبًا كي تأكلَ وهي ماشيةٌ في طريقها إلى هيكل هيرا. ولاحظتَ هدسةٌ سيمَّةً صغيرةً منقوشةً على طاولة العرض، فتقصَّصتِ السمكة ورفعتَ نظرها. فنظرَ البائعُ في عينيها مباشرةً، وأوماً برأسه مرَّةً واحدةً فيما استمرَّ يتساومُ مع جوليا. وقد أحسَّتْ هدسةٌ موجةً رجاءٍ بهيجٍ تتعاضمُ داخلَ كيائها.

وإذ تأقت كثيرًا إلى الرُّجوع إلى ذاك الكشك، شقَّتْ طريقها مُتعرِّجًا وسط الزحام. ولما وصلت، وقفتَ جانبًا فيما التاجرُ يبيعُ تُفاحًا لعبيد يوناني. ”سأتيك بخوخ غداً، يا كَلِسْتُس.“

”بِسرِّ أفضلَ من سرِّ الأسبوع الماضي، على ما أرجو، يا تُروفيمُس.“

ثمَّ لَوَّحَ له تُروفيمُس مودِّعًا بمودة، وابتسمَ لها. ”هل رجعتَ لأجل مزيدٍ من العِنب لسيدتك؟“

وتردَّدت، مُتفحِّصةً عينيهِ. هل أساءتِ الفهمَ أمس؟ وانتظرَ دون أن يضغطَ عليها بعد. فنظرتَ إلى طاولة العرض ولم ترَ السمكة. ثمَّ أزاحتِ سلَّةَ تينٍ قليلًا، فوجدتها. فرفعتَ نظرها إليه، وتتبعَتِ نقشَ السمكة الصغير. وهمستَ فيما قلبُها يخفق: ”يسوع المسيح، ابن الله، المُخلص.“

فغمَرَ الدَّفءُ أساريَ وجهه، وقال: ”يسوع هو الربُّ.“ ثمَّ وضعَ يده على يدها، وأضاف: ”علمتَ لحظةً دُخولكِ أمس أنَّك من أعضاء الجسد الواحد.“

فأطلقتَ نفسها في دفقة ارتياحٍ عظيمةٍ جدًّا بحيث كادتَ تلمو عليها، واغرورقتَ عيناها. ”الحمدُ لله. لقد مضى زمنٌ طويلٌ جدًّا...“

نظر تروفيمس حوَالِيهِ، ثُمَّ انحنى مُقْتَرِبًا إِلَيْهَا. وَأَطْلَعَهَا عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ اللَّذَيْنِ فِيهِمَا يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ مَعًا كُلَّ لَيْلَةٍ. ”أَقْرَعِي مَرَّةً وَاحِدَةً، وَانْتَظِرِي، ثُمَّ أَقْرَعِي ثَلَاثًا. وَسَيُفْتَحُ الْبَابُ لَكَ. مَا اسْمُكَ؟“

”هَدْسَةَ، عِبْدَةُ جُولِيَا قَالِيرِيَانِ، زَوْجَةِ كَائِسِ بُولُونِيُوسِ أَرْبَانُسِ.“

”هَدْسَةَ، سَأَقُولُ لِأَخَوَاتِنَا وَأَخْوَاتِنَا أَنْ يَنْتَظِرُوكِ.“

وَإِذْ عَمَّرَهَا الْفَرْحَ وَالتَّرْقُبَ، رَجَعَتْ إِلَى الدَّارَةِ بِأَمَالٍ مُجَدَّدَةٍ. وَكَانَ مِنْ عَادَةِ جُولِيَا أَنْ تَخْرُجَ دَائِمًا، تَارِكَةً لَهَا الْحَرِيَّةَ كَيْ تُصَلِّيَ فِي الْحَدِيقَةِ. إِنَّمَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ، سَتَتَعَبَّدُ وَسَطَ أَصْدِقَاءِ.

فِي وَقْتٍ مُتَأَخَّرٍ مِنْ عَصْرِ النَّهَارِ، دَخَلَ كَائِسُ مَهَاجِعَ جُولِيَا فِيمَا كَانَتْ هَدْسَةُ تُسَاعِدُهَا عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ لِلخُرُوجِ مَسَاءً. وَنَشِبَتْ مُشَاجِرَةٌ مَحْمُومَةٌ.

قَالَ كَائِسُ: ”إِنْ كَانَ لَدَيْكَ وَقْتُ كَافٍ تُوفِّرِينَهُ مِنْ صُحْبَةِ أَوْكَتَافِيَا، تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُوفِّرِي لِي سَوِيَعَاتٍ مِنْ وَقْتِكَ الثَّمِينِ اللَّيْلَةَ! فَإِنَّ أُنَيْسِيُسَ سَيَشْعُرُ بِالْإِهَانَةِ إِنْ لَمْ تَحْضُرِي حَفْلَةَ عِيدِ مِيلَادِهِ.“

قَعَدَتْ جُولِيَا أَمَامَ الْمَرَأَةِ تُرَاقِبُ هَدْسَةَ وَهِيَ تُصَفِّفُ لَهَا شَعْرَهَا، مُتَظَاهِرَةً بِاللَّامُؤَالَةِ حِيَالَ غَضَبِ زَوْجِهَا. إِنَّمَا تَصَلَّبُ ظَهْرَهَا وَحَدَّهَ أَقْرَبَ بِمَطَالِبِ كَائِسِ.

قَالَتْ: ”لَا يَهْمُنِي إِذَا أَهَيْنَ أُنَيْسِيُسَ. قَدِّمِ إِلَيْهِ أَيَّ عَذْرِ يَرُوقُكَ، يَا كَائِسُ. لَقَدْ دَعَعْتَنِي كَالآبَاهِ إِلَى حُضُورِ مَسْرُوحِيَّةٍ.“

فَقَالَ سَاخَطًا: ”إِلَى الْجَحِيمِ بِكَالآبَاهِ! لَقَدْ طَلَبْتُ مِنْكَ الْقَلِيلَ الْقَلِيلَ مُؤَخَّرًا. إِنِّي أَحْتَاجُ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ.“

وَاجَهَتْ جُولِيَا حَمَلَقَتَهُ فِي مَرَاتِهَا. ”أَنْتِ تَحْتَاجُ إِلَيَّ؟ مَا أَرُوعَ هَذَا!“ وَإِذْ اضْطَرَمَّتْ مِنْ جَرَاءِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي كَانَ عَمَلَاءٌ قَدْ بَلَّغُوهَا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الظَّهْرِ تَامًا، دَارَتْ بِطِءٍ وَيَدَاهَا مَطَوِيَّتَانِ قَلِيلًا فِي حُضْنِهَا. فَلِيَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا! وَمَنْ تَمَّ قَالَتْ: ”لِمَاذَا اللَّيْلَةَ، يَا كَائِسُ؟“ مُتَحَدِّثَةً إِلَيْهِ أَنْ يَقُولَ لَهَا الْحَقَّ. لَقَدْ عَرَفَتْ لِمَاذَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الْوَلِيمَةِ. وَوَدَّتْ لَوْ تَدْرِي هَلْ يَمْلِكُ الْوَقَاحَةَ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنَ الْإِعْرَافِ بِذَلِكَ شَخْصِيًّا.

قَالَ مُتَحَامِيًّا عَيْنِيهَا: ”إِنَّ أُنَيْسِيُسَ مُعْجَبٌ بِكَ. وَهُوَ زَمِيلٌ عَمَلٍ لِي. فَلَنْ يُؤْذِيكَ أَنْ تَمْنَحِيهِ ابْتِسَامَةً، أَوْ شَيْئًا مِنَ الْمُغَازَلَةِ الْعَرَضِيَّةِ.“ ثُمَّ سَكَبَ لِنَفْسِهِ بَعْضَ الْخَمْرِ.

فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً وَاهِنَةً، مُسْتَمْتِعَةً بِتَعْذِيبِهِ. لَمْ تَكُنِ الْغَلَطَةُ غَلَطَتِهَا فِي كَوْنِهِ غَيْبًا جَدًّا.

فَلْيَغْلِ بِدَمِهِ! ”لن أدع ذلك المهلوسَ الفاسدَ يَمْسِنِي ببرائته لأنك مديونٌ له بما! “.

فدارَ كائسٌ وحدثَ إليها. ”لقد كنتِ تتجسّسينَ عليّ!“ وشجبتَ يده على الكأس، ثم قال بجفاء: ”أهو اقتراح كالاباه، يا حلوتي؟“

”إن لي عقلاً يخصّني، يا كائس. لقد كانت مسألةً بسيطةً أن أدري بما يجري.“ وضحكك ضحكةً ساخرة. ”إن قلةً حظك في السباقات قد عدت أسطورة. فيبدو أن كل واحدٍ في روما قد علم بخسائرك - كل واحدٍ ما عداي أنا في الواقع.“ وعلا صوتها. ”لقد أنفقت من مالي معتي ألف سسترس في أقل من سنة واحدة!“

حطَّ كائس الكأس على مهل، وأمرَ هُدسةً بلهجة مملوءة سُماً: ”غادِرنا“. وما إن توجّهت هُدسة نحو الباب، حتى تكلمت جوليا. ”وإن كنت لا أريد منها أن تنصرف؟“

”فلتبقِ إذا وتُشاهد ما أفعل بها!“

فأومات لها جوليا بأن تُغادر. ”انتظري في الرواق. سأستدعيك بعد بضعة دقائق.“

”نعم، سيديتي“. وأغلقت البابَ بهدوءٍ وراءها، شاكراً لأن جوليا لم تتماذ في ابتلاء صبر كائس. وقد شكّت في أن تكون سيديتها على علمٍ بمستوى وحشيتها. إذ كان ممكناً سماع صوتيهما بجلاء في الرواق.

”أما وقد تبين أنك مُطلعةٌ تماماً، يا جوليا، تفهمين لماذا من المهم جداً أن تحضري هذه الأمسية!“

”ليقتطع أنسيثس رطل اللحم الذي من حقه، يا كائس. ربّما كان وزن قلبك بهذا المقدار!“

”ستحضرين الليلة، أحببت أم كرهت. فاذهي الآن وتأهبي!“

فانفجرت جوليا مُجيبةً: ”لن أفعل! اصطحب واحدةً من نساتك الأخر، إذا كنت توّاقاً إلى اصطحاب امرأةٍ ما إلى وليمة أنسيثس - أو حتى رجلاً آخر إذا أثرت ذلك. لست أبالي بما تفعل! إنما لن أذهب معك إلى أي مكان، لا الليلة ولا في أية ليلةٍ أخرى!“

ثم تحطمت زجاج وزعقت جوليا ساخطةً: ”كيف تجرؤ على تحطيم أشياءي!“

وزعقت مرةً أخرى، مثألةً هذه المرة. فعاد كائس يتكلم ولهجته تقطر سُخرية، مُناكداً إيّاها. وجاء جوابه زاخراً بالتحدّي. فزعقت جوليا من جديد.

شبكت هُدسة يديها، عاضةً على شفتيها وهي شاعرةٌ بالعجز وراغبةٌ في الفرار من جنونهما.

ثُمَّ تَكَلَّمُ أُرْبَانُسُ مِنْ جَدِيدٍ، بِصَوْتٍ مُنخَفِضٍ وَبَارِدٍ هَذِهِ الْمَرَّةَ. وَتَحَطَّمُ مَزِيدٌ مِنَ الرُّجَاجِ،
ثُمَّ انْفَتَحَ الْبَابُ بِقُوَّةٍ، وَانْدَفَعَ كَائِسٌ إِلَى الْخَارِجِ وَوَجْهَهُ شَاحِبٌ مِنَ الْغَيْظِ. فَتَشَبَّثَ بِهَدْسَةَ
وَطَوَّحَهَا نَحْوَ الْبَابِ الْمَفْتُوحِ، قَائِلًا: ”اعْتَنِي بَأَنْ تَتَأَهَّبَ سَيِّدَتُكَ لِلْمُعَادَرَةِ فِي غَضُونِ سَاعَةٍ
وَاحِدَةٍ، وَالْأَعْمَدُ إِلَى جِلْدِكَ حَتَّى يَنْسَلَخَ جِلْدُكَ عَنْ ظَهْرِكَ!“

هُرِعَتْ هَدْسَةُ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ، خَائِفَةً مِمَّا قَدْ فَعَلَهُ كَائِسٌ بِجَوْلِيَا. ”سَيِّدَتِي...“

كَانَتْ جَوْلِيَا جَالِسَةً بِهَدْوٍ مُذْهِلٍ عَلَى أَقْصَى السَّرِيرِ الْكَبِيرِ الَّذِي كَانَتْ قَدْ شَارَكَتْ
كَائِسَ فِيهِ خِلَالَ الْأَشْهُرِ الْأُولَى مِنْ زَوَاجِهِمَا. وَكَانَ الدَّمُ يَسِيلُ رَقِيقًا مِنْ طَرْفِ فَمِهَا.
”سَيِّدَتِي، أَنْتِ بَخِيرٌ؟ فَمُكِ... أَنْتِ تَنْزِفِينَ.“

رَفَعَتْ جَوْلِيَا أَصَابِعَ مُرْتَعِشَةً إِلَى شَفَتَيْهَا، وَمَسَحَتْ الدَّمَّ. ثُمَّ حَدَّقَتْ إِلَى يَدَيْهَا، وَقَالَتْ
بِحِدَّةٍ جَافِيَةٍ. ”إِنِّي أَكْرَهُهُ. يَا لَيْتَهُ يَمُوتُ!“ وَأَطْبَقَتْ قَبْضَتَهَا، مُحْدَقَةً إِلَى الْفِرَاقِ تَحْدِيقًا قَائِمًا.
”لَتَلْعَنَ الْإِلَهَةُ قَلْبَهُ الْأَسْوَدُ!“

ارْتَاعَتْ هَدْسَةُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، مِثْلَمَا ارْتَاعَتْ تَقْرِيْبًا مِنَ النُّظْرَةِ الْمُرْتَسِمَةِ فِي عَيْنَيْ
جَوْلِيَا. ”سَأُحْضِرُ لَكَ مَاءً.“

فَهَبَّتْ جَوْلِيَا وَاقِفَةً، وَقَالَتْ بِضَرَاوَةٍ: ”لَا تُحْضِرِي لِي أَيَّ شَيْءٍ. إِنَّمَا اسْكُتِي فَقَطْ
وَدَعِينِي أَفْكُرُ!“ وَبِوَجْهِ مَشْحُوبٍ وَمُتَجَهِّمٍ، شَرَعَتْ تَدْرُعُ الْغُرْفَةَ ذَهَابًا وَإِيَابًا. ”لَنْ يُفْلِتَ مِنْ
الْعِقَابِ عَلَى مُعَامَلَتِهِ لِي بِهَذَا الشَّكْلِ.“ ثُمَّ أَوْمَأَتْ بِيَدَيْهَا نَافِذَةَ الصَّبْرِ. ”أَذْهَبِي وَابْعَثِي إِلَى
كَالَابَاهِ بِخَبْرٍ يُفِيدُ عَدَمَ تَمَكُّنِي مِنْ حُضُورِ الْمَسْرُحِيَّةِ مَعَهَا هَذَا الْمَسَاءَ. سَأُزَوِّرُهَا غَدًا وَأُشْرِحُ
كُلَّ شَيْءٍ.“

لَمَّا رَجَعَتْ هَدْسَةُ، كَانَتْ جَوْلِيَا وَاقِفَةً أَمَامَ طَاوِلَةِ مُسْتَحْضَرَاتِهَا التَّجْمِيلِيَّةِ، تُجْرِي أَصَابِعَهَا
عَلَى الْأَوَانِي الرُّجَاجِيَّةِ الْمَلُونَةِ. وَكَانَ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِهَا مَطْرُوحًا عَلَى الْأَرْضِ مُكْسَرًا، مَعَ
أَمْفُورَاتٍ غَالِيَةِ الثَّمَنِ مِنَ الزُّيُوتِ الْمُعْطَّرَةِ. وَقَدْ نَظَرَتْ جَوْلِيَا إِلَى الْخَطَامِ بِصَمْتٍ، وَعَيْنَاهَا
مُتَقَدِّمَتَانِ بِالْغَضَبِ الضَّارِي. فَأَجَالَتْ نَظَرَهَا عَلَى مَا بَقِيَ، وَالتَّقَطَّتْ وَعَاءً صَغِيرًا.

وَإِذْ شُحِبَتْ عَقْدُ أَصَابِعِهَا حَوْلَ الْوَعَاءِ، قَالَتْ: ”إِنَّ أَنْسِيْتُسَ يَجِدُنِي جَذَابَةً، وَقَدْ كَانَ
كَائِسُ يَغَارُ مِنْ طَرِيقَةِ تَحْدِيقِهِ إِلَيَّ. كَمَا كَانَ يَقُولُ إِنَّهُ لَوْ مَسَّ أَنْسِيْتُسَ يَدِي فَقَطْ لَحَزَّ عُنُقَهُ.“
ثُمَّ مَرَّرَتْ رَأْسَ إِصْبَعِهَا حَوْلَ حَافَةِ الْوَعَاءِ، وَقَدِ التَّوَى فَمُهَا بِانْتِسَامَةٍ وَاهِنَةٍ. ”هَاتِي لِي الْيَالَسَ
الْأَحْمَرُ ذَا الْحَاشِيَةِ الْمُزْدَانَةَ بِالذَّهَبِ وَالْجَوْاهِرِ. يَقُولُ كَائِسُ إِنَّهُ أَيْدُو مِثْلَ الْإِلَهِةِ حِينَ أَرْتَدِيهِ
لَهُ، وَسَأَبْدُو مِثْلَ الْإِلَهِةِ هَذَا الْمَسَاءِ. هَاتِي لِي بُرُوشَ الذَّهَبِ الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهُ هَدِيَّةً عُرْسَ.“

قالت هدسّة، خائفةً عليها: ”ماذا تنوين أن تفعلني، سيّدي؟“

فغمست إصبعها في وعاء الحمرة، قائلةً: ”يُريد كائس لي أن أكون جميلةً وفاتنة هذا المساء“. ثُمَّ طَلَّتْ كاملَ شفّتها السفلى باللّون الغنيّ المثير، وضغطت شفّتها معًا، ونظرتُ إلى صورتها في المرآة. ”سأعطيه ما يُريد، وأكثر.“

لَمَّا رَجَعَ كائس، كانت جوليا أكثرَ تألُّقًا ممَّا سبقَ أن رأتها هدسّة يومًا. وعندما رآها كائس، تغيّر مزاجه. فقد رمقها بإعجابٍ غيرٍ محجوب، وزلّق يده على ذراعها نُزولًا، قائلاً: ”إِذَا قَرَرْتِ أَنْ تُسَاعِدِنِي كما ينبغي للزوجة.“

فدارت جوليا أمامه بفتح عابث، وقالت: ”هل تعتقد أنني سأروقُ أنيسيس؟“
”سيجري لاهثًا في أعقابك“. ثُمَّ أَمْسَكَهَا وَقَبَّلَهَا. ”لو كان لدينا وقت، لأبقيتك هنا معي طوال الليل...“

فقالت جوليا بصوتٍ مضطرب: ”كما كان من عادتِكَ أن تفعل“. ثُمَّ أَشَاحَتْ بوجهها لَمَّا حَاولَ أَنْ يُقَبِّلَهَا، وقالت: ”سوف تُفسد ما كياجي.“

”في ما بعد. سنصنّع مظهرًا خادعًا، ونفتنُ أنيسيس ليزولَ عنه مزاجه المعتكر، ثُمَّ نأوي إلى البيت.“

فقبلته قبلةً خفيفةً على حنجرته، وبدا أثرُ شفّتها كشرطية من دم. وإذ أفلتت من ذراعيه، وقفت أمام هدسّة كي تُعيدَ ترتيبَ طياتِ حجابها، وتثبتتُ بروش الذهب جيّدًا. ونظرتُ هدسّة في عينها، فشعرتُ ثانيةً بطعنة خوفٍ عليها. يقينًا أنها علمت أن أيّ انتقامٍ قد خطّطت إنزاله بأربانس لا بُدَّ أن يرتدَّ عليها.

راقبتُهما هدسّة يهبطان الدّرج، مُصلّبةً بصوتٍ مهموس. ثُمَّ رجعتُ إلى مهاجع جوليا. فكسّستِ المفورات المُحطّمة وتخلّصت منها. وإذ فتحتِ الأبواب إلى البهو ذي الأعمدة، هَوَّتِ العُرفة وهي تغسلُ الزيوتِ المُعطرة عن الأرضية الرّخامية. حتّى إذا أتمت عملها، أسدلت شالها على شعرها، وخرجت في عتمة الليل كي تجد البيت الذي كان المؤمنون بالسيد المسيح مُجتمعين فيه.

كانت شوارعُ روما مثلَ متاهة، وقد جعلها الظلام أكثرَ إرباكًا بعدُ. وكانت هدسّة تعرفُ جيّدًا كثيرًا من الشوارع، حيث إنَّ تردّدها إلى الشوق بتكليفٍ من جوليا كان متواترًا. فاهتدت إلى البيت دونَ صعوبةٍ تُذكر. ومن دواعي السخريّة أنه لم يكن بعيدًا عن هيكَل مازس، إله الحرب عند الرومان.

قرعت الباب مرة واحدة، وانتظرت، ثم قرعت ثلاثاً. فانفتح الباب. "ما اسمك، من فضلك؟"

"هدسة، عبدة جوليا فاليريان، زوجة كايس بولونيوس أربانس."

ابتسمت المرأة وفتحت لها الباب كي تدخل. "أهلاً وسهلاً بك. تروفيمس هنا مع عائلته، وقد قال لنا أن ننتظرك. تعالي". ورافقتها إلى غرفة احتشد فيها أناس من جميع الأعمار والطبقات الاجتماعية. ورأت هدسة التاجر بينهم. فأقبل إليها مبتسماً، وأمسك كتيها بقوة، ثم قبلها على كلا خديها مرحباً، وقال: "أقعدني هنا مع زوجتي ومعني، أيتها الأخت الصغيرة". ثم أمسك بذراعها واقادها بين ضيوف فضوليين آخرين إلى عائلته. "أونيس، هذه هي الفتاة التي أخبرتك بشأنها". فابتسمت أونيس وقبلتها مرحباً. ثم خاطب تروفيمس المجتمعين قائلاً: "أيها الإخوة والأخوات، هذه هدسة التي تكلمت لكم بشأنها".

ورحب بها آخرون. غيتا، بسماث، فلغيا، كليستس، أسينكريتس، ليديا، فليغون، أخيقام... أسماؤهم جرت معاً. وشعرت هدسة بأن محبتهم تغمرها. ثم بادر أسينكريتس إلى الإمساك بزمام الاجتماع. "سكوتاً من فضلكم، أيها الإخوة والأخوات. إن وقتنا معاً وجيز. فلنبداً بترنيم التسابيح لربنا".

أغمضت هدسة عينيها، تاركة موسيقى ترنيمة لم تسمعها من قبل، وكلماتها، تطمو عليها وتجدد إيمانها. وقد كانت تتحدث بشأن الضيق والإيمان، وبنقاد الله للمؤمنين من الشر. فشعرت بالانتعاش والبعد الشاسع عن الحياة المضطربة التي عاشها دسبس وفيبي ومرسوس وجوليا. فإذا كانوا غائصين في حمأة الآلهة والإلاهات، وعالقين في السعي إلى السعادة وإشباع مطامحهم الشخصية، كانوا مائتين. أمّا هنا، في هذه الغرفة المتواضعة الصغيرة، بين هؤلاء الناس، شعرت هدسة بحضور سلام الله.

شاهدت هدسة أحراراً بين عبيد، وأغنياء جالسين بجانب فقراء، وكبار السن وفي أحضانهم أولاداً، يرفعون كلهم أصواتهم في تناغم. فابتسمت وأرادت أن تضحك فرحاً. لقد كان قلبها طافحاً، وشعورها بالعودة إلى الديار غامراً، بحيث لم يسعها إلا أن تبتهج.

كانت واحدة بين الترنيمات العديدة مألوفة لديها، مزموراً لداود محبوباً غالباً ما رنمته لدسبس وفيبي في أثناء المدة الوجيزة التي قضتها خادمة لهما. ففيما عيناها مغمضتان، ويدها مفتوحتان وراحتاهما إلى فوق علامة على تقديم التسبيح لله، رنمت من كل قلبها، غير

مُنْتَبِهَةً إِلَى تَوْقِفِ الْآخَرِينَ حَوْلِهَا كَيْ يَسْتَمْعُوا. وَلَمْ تُدْرِكْ ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا انْتَهَتْ. فَأَطْرَقَتْ رَأْسَهَا مُتَوَرِّدَةً الْخَدَّيْنِ، مُرْتَبِكَةً لِأَنَّهَا جَذِبَتْ الْإِنْتِبَاهَ إِلَى ذَاتِهَا.

وَأَعْلَنَ تَرْوِيمُسُ بِظَرَفَةٍ لَطِيفَةٍ: ”لَقَدْ بَارَكْنَا اللَّهَ بِأَخْتِ تَتَقِنُ التَّرْنِيمَ“. فَضَحَكَ الْآخَرُونَ، وَأَمْسَكَتْ أُونَيْسُ يَدَ هَدَسَةَ وَضَغَطَتْهَا بِرِفْقٍ.

ثُمَّ بَسَطَ أَسِينَكْرِيْسُ يَدَيْهِ، وَقَالَ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ: ”اهْتَفِي لِلرَّبِّ يَا كَلَّ الْأَرْضِ!“ وَمَا لَبَثَ الْبَاقُونَ أَنْ انْضَمُّوا إِلَيْهِ مُرْتَمِينَ: ”اعْبُدُوا الرَّبَّ بِفَرَحٍ. ادْخُلُوا إِلَى حَضْرَتِهِ بِتَرْتَمٍ. اَعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ. هُوَ صَنَعْنَا، وَلَهُ نَحْنُ، شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرَعَاهُ...“

فَرَفَعَتْ هَدَسَةُ رَأْسَهَا، مِنْ جَدِيدٍ، وَتَفَوَّهَتْ بِكَلِمَاتٍ مَزْمُورٍ دَاوُدَ الَّتِي تَذَكَّرُهَا جَيِّدًا: ”ادْخُلُوا أَبْوَابَهُ بِحَمْدٍ، دِيَارَهُ بِالتَّسْبِيحِ. اِحْمَدُوهُ، بَارِكُوا اسْمَهُ. لِأَنَّ الرَّبَّ صَالِحٌ، إِلَى الْأَبَدِ رَحْمَتُهُ، وَإِلَى دَوْرٍ قَدَوْرٍ أَمَانَتُهُ“.

ثُمَّ بَسَطَ شَيْخُ دَرْجَا، وَقَالَ: ”سَتُنَابِعُ قِرَاءَتَنَا مُذَكَّرَاتِ مَتَّى اللَّيْلَةَ“. وَلَمْ تَكُنْ هَدَسَةُ قَطُّ قَدْ سَمِعَتْ مُذَكَّرَاتِ الرُّسُلِ، لِأَنَّهَا تَرَبَّتْ عَلَى الْأَسْفَارِ الْعِبْرَانِيَّةِ وَذِكْرِيَاتِ أَبِيهَا عَنْ تَعَالِيمِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ. فَارْتَعَشَتْ إِذْ سَمِعَتْ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَتَبَهَا مَتَّى، وَهُوَ الَّذِي مَشَى مَعَ الرَّبِّ فَوْقَ ثَلَاثِ سَنِينَ. وَتَشَرَّبَتْ الْكَلِمَةَ بَابْتِهَاجٍ، مُسْتَمِدَّةٌ مِنْهَا قُوَّةَ رُوحِهَا.

بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، لُفَّ الدَّرْجُ مِنْ جَدِيدٍ وَوُضِعَ بِحَرَصٍ فِي يَدَيْ شَيْخٍ آخَرَ. ثُمَّ تَنَاقَلَ الْمُجْتَمِعُونَ رَغِيْفَ خُبْزٍ فَطِيرٍ وَكَأْسَ نَبِيذٍ. وَتَلَيْتْ هَمْسًا وَتَكَرَّرًا- كَلِمًا اشْتَرَكَ شَخْصٌ فِي وِلِيْمَةِ الشَّرِكَةِ هَذِهِ الَّتِي نُقِلَتْ مِنْ يَدٍ إِلَى أُخْرَى- كَلِمَاتِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ: ”هَذَا هُوَ جَسَدِي... هَذَا هُوَ دَمِي... خَذُوا كُلُّوْا وَاشْرَبُوا تَذَكَّرًا لِي...“ وَلَمَّا اشْتَرَكَ الْجَمِيعُ، رَتَمُوا تَسْبِيحَةً جَلِيلَةً عَنْ مَحَبَّةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ الْمُخْلِصِ، تِلْكَ الْمَحَبَّةِ الْمُفْتَدِيَةِ الْمُحَرَّرَةَ.

”هَلْ يُوجَدُ بَيْنَنَا أَيُّ مُؤْمِنِينَ جُدُّدٍ يُوَدُّونَ أَنْ يُخْبِرُونَا بِشَهَادَةِ حَيَاتِهِمْ؟“

أَحْسَسَتْ هَدَسَةُ الْحُضُورَ نَاطِرِينَ إِلَيْهَا، فَتَوَرَّدَ خَدَاها مُجَدِّدًا، وَأَطْرَقَتْ رَأْسَهَا فِيمَا قَلْبُهَا يَخْفِقُ بِسُرْعَةٍ وَشِدَّةٍ. فَعَالَ إِلَيْهَا تَرْوِيمُسُ، وَرَبَّتْ يَدَيْهَا الْمُشَبَّكَتَيْنِ، بِطَرِيقَةٍ أَبْوِيَّةٍ. وَقَالَ مُلَاطِفًا: ”هَيَّا، هَيَّا! لَا تَتَوَقَّعْ خُطْبَةً بَلِيغَةً، بَلْ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ مُعْزِيَةٍ مِنْ أُخْتٍ صَغِيرَةٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَنَا“.

قَالَتْ أُونَيْسُ مُدَافِعَةً عَنْهَا: ”دَعَهَا وَشَانَهَا، يَا تَرْوِيمُسُ. نَحْنُ جُدُّدٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهَا. أَنْتَ لَمْ تَقُلْ شَيْئًا طَوَالَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ“.

”إِنِّي دَائِمًا أَرْتَبِكُ عِنْدَمَا أُوْدُّ الْبَدءَ فِي التَّكَلُّمِ“.

روما

وما لبثت هدسة أن قالت: "أنا أريد أن أتكلّم". ثمّ وقفت ونظرت باستحاءٍ إلى الذين حولها. "سامحوني إذا تلعثمت. لقد مضت مُدّةً طويلة لم يُنح لي فيها أن أتكلّم بحرّيّة بين أناسٍ يعرفون الله". وانسدّت حنجرتُها، فبلعت ريقها، وصلّت طالبةً أن يؤتيها الله كلامًا وشجاعة. "لست جديدةً في الإيمان. لقد حَبّرني أبي عن الربّ يسوع منذُ نعومة أظفاري. كان يعرف الأسفار المقدّسة؛ وعلمني كلّ ما تذكّره من التّوراة وتأمّام كلام الأنبياء ووعود الله في شخص يسوع المسيح. ولما كنت صغيرةً جدًّا، أخذني أبي إلى نهر الأردنّ وعمدني في المكان نفسه حيثُ كان يوحنا المعمدان قد رأى الحمامة هابطةً على السيّد المسيح وسمع صوت الله قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب الذي أنا مسرورٌ به كلّ السّور»".

وإذا بأحدهم يقول: "سبحًا للربّ!"

وقعد أسينكريتس على مهل. "هل عرف أبوك الربّ لما مشى على هذه الأرض؟" أَيْصِدْقونها إذا قالت لهم الحقّ كلّهُ؟ أجالّت نظرها من جديدٍ حولها، إلى كلّ وجهٍ طلقٍ جدًّا ومفعمٍ بالترقّب التّواق. كيف يُعقلُ ألا تقول لهم الحقّ وهم مُتلهّفون تمامًا إلى سماع آيةٍ كلمةٍ عن ربّهم القائم من بين الأموات؟ "كان أبي هو الابن الوحيد الباقي حيًّا لأرملةٍ مُقيمة في إحدى مُدن الجليل. ولما كان شابًّا، أصابته حمى ومات. وسمع الربّ أمّه تبكي فأقبل لتعزيّتها. وقد لمس نعش أبي وأقامه من الموت".

فهمست بضعه أصواتٍ بانتشاء: "حمدًا لله!" وانتشرت في الغرفة همهمةٌ همساتٍ مُتأثرة، ثمّ وقف رجلٌ بقرب المؤخر متحمّسًا: "ماذا كان اسم أبيك؟" "حنانيا بار يونا من سبط بنيامين".

فقال الرجل للذين حولها: "لقد سمعتُ به!" ثمّ نظر إلى هدسة ثانية. "كان يملك دُكانَ فحّارٍ في الجليل".

فأومات برأسها تأييدًا، غيرَ قادرةٍ على التكلّم.

وقال شخصٌ آخر: "الرجل الذي هداني إلى الربّ قابله منذُ سنين كثيرة".

وسأل آخر: "أين أبوك الآن؟"

"إنّه عند الربّ".

ثمّ ساد سكوتٌ من الصّمت المهيب، ومضت هدسة تُخبرهم بالباقي. "كُنّا دائمًا نذهبُ

إلى مدينة القدس في أثناء الفصح كي نجتمع مع مؤمنين آخرين من أتباع الطريق. وكُنَّا كُلَّ سنةٍ نجتمعُ في عُليَّة، حيثُ يُبَيِّنُ والدي كيفَ أتمَّ الربُّ يسوع مدلولَ كلِّ عنصِرٍ في الفصح. ولكنْ أخِرَ مرَّةً ذهبنَا، شَبَّ شغْبٌ ودبَّتِ الفوضى في المدينة. وغادَرَ المدينةَ كثيرٌ من أصدقائنا بسببِ الاضطهاد. أمَّا والدي فلم يُرد أن يُغادر. ثمَّ أغلقَ الغيورون الأبواب، فَعَلِقَ الآلافُ في الداخل. وخرجَ أبي في وسطِ قومه، ولم يرجع قطَّ.

فاحتضنتُ أونيس بيديها يَدَي هَدَسَةَ، وسألتها: ”وعائلتُك، أيتها الأخت الصغيرة، ماذا حلُّ بهم؟“

ارتعش صوتُها وهي تُخبرهم. وقد طأطأت رأسها، مُستحيَّةً تقريبًا لوقوفها أمامهم بصفتها الناجية الوحيدة من عائلتها، رغمَ كونها أقلهم استحقاقًا للحياة. ”لستُ أدري لماذا أبقاني الربُّ على قيد الحياة.“

فقال أسينكريتس بوقار: ”ربما لأجل هذه اللَّحظة، أيتها الأخت الصغيرة. إنَّ كلماتك قد شجعتني في وقتِ شكِّ“ واغرورت عيناه. ”إنَّ الله يستجيبُ لاحتياجاتنا في جميع الأمور.“ عادت هَدَسَةُ إلى مقعدها، فيما تحدَّث آخرون بشأن الصَّلوات المُستجابة وكيف تغيَّرت حياة كلِّ منهم. ثمَّ دُكرتِ الاحتياجات، ووُضعتِ الترتيبات. وُرفعت طلباتُ الصلاة، ودُكرتِ أسماءُ الإخوة والأخوات المسجونين أو المُعرضين للخطر.

ونَهضتُ هَدَسَةُ مرَّةً أخرى، سائلةً: ”هل لي أن أطلبَ طلبًا أيضًا؟“ فشجعوها على ذلك، فقالت: ”رجاءً، صلُّوا لأجلِ سادتي: دَسْمُسُ قنداشيوس فاليريان وزوجته فيبي، وابنهما مرقس لوشيانوس. إنهم تائهون في برية الصَّلال. وفي المقام الأول، أتوسَّل إليكم أن تُصلُّوا لأجلِ سيدي، جوليا. إنَّها في الطريق إلى الهلاك.“

٢٢

رجعت هَدَسَة إلى الدَّارَة بِقُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ مُجَدِّدَة، غَيْرَ عَالِمَةٍ بِأَنَّ كَارِثَةً تَنْتَظَرُهَا.

لَمَّا دَخَلَتِ الْبَهْوَ ذَا الْأَعْمَدَة، سَمِعَتِ جُولِيَا تَصْرُخُ. فَسَارَعَتِ الْخَطْوَ صَاعِدَةً الدَّرَجِ الْمَفْضِي إِلَى قَاعَةِ الشَّفْرَة، وَرَكَضَتِ عِبْرَهَا إِلَى الرَّوَّاقِ الْوَاسِعِ الْمُؤَدِّي إِلَى مَهَاجِعِ سَيِّدَتِهَا. فَإِذَا بِخَادِمَةٍ تَصِيحُ بِشَكْلِ هِسْتِيرِيٍّ خَارِجٍ بَابِ جُولِيَا.

”سَيَضْرِبُهَا حَتَّى الْمَوْتِ. مَاذَا نَفْعَلُ؟“

دَفَعَتِ صَرَخَاتِ جُولِيَا هَدَسَة إِلَى التَّصَرُّفِ دُونَ تَفَكِيرٍ فِي الْعَوَاقِبِ. وَمَا إِنْ أَمْسَكَتِ بِمِقْبَضِ الْبَابِ، حَتَّى صُبِعَتِ الْخَادِمَةُ الْأُخْرَى أَيْضًا، وَحَاوَلَتْ أَنْ تُوقِفَهَا. ”لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَدْخُلِي! إِنَّهُ سَيَقْتُلُكَ!“

فَأَبْعَدَتْهَا هَدَسَة عَنْهَا، يَدْفَعُهَا الدُّعْرَ لِلْوَصُولِ إِلَى سَيِّدَتِهَا، رُغْمَ فِرَارِ تِلْكَ مِنَ الْمَشْهَدِ. وَلَمَّا دَخَلَتِ الْغُرْفَةَ، كَانَتْ جُولِيَا عَلَى الْأَرْضِ تُحَاوِلُ أَنْ تَزْحَفَ بِسُرْعَةٍ بَعِيدًا عَنِ أُرْبَانُسَ وَهُوَ يَجْلِدُهَا بِالْكَرْبَاجِ. وَقَدْ زَعَقَتْ مِنَ الْأَلْمِ إِذْ مَرَّقَ الْكَرْبَاجُ النَّسِيحَ الْأَحْمَرَ وَحَمَّرَ جِلْدَهَا.

صَاخَتْ هَدَسَة: ”تَوَقَّفْ، سَيِّدِي!“ وَلَكِنَّهُ لَحِقَ بِجُولِيَا مِنْ جَدِيدٍ مُغْضَبًا. فَحَاوَلَتْ هَدَسَة أَنْ تَصَدَّهُ، وَلَكِنَّهُ دَفَعَهَا جَانِبًا فَوْقَتِ أَرْضًا. وَزَحَفَتْ بِسُرْعَةٍ كَيْ تَعْتَرِضَ فِي طَرِيقِهِ مَجْدَدًا، فِيمَا حَاوَلَتْ جُولِيَا أَنْ تَفْرَّ عَلَى عَجَلٍ. فَضْرَبَ هَدَسَة ضَرْبَةً مُدَوِّخَةً، مُطَوِّحًا إِيَّاهَا عَنْ قَدَمَيْهَا. وَصَرَخَ بِهَا: ”أَخْرُجِي مِنْ هُنَا!“ رَاكِئًا إِيَّاهَا بِشِدَّةٍ فِي جَنْبِهَا قَبْلَ أَنْ يَهْجَمَ عَلَى جُولِيَا مِنْ جَدِيدٍ. ”سَأَقْتُلُكَ، أَيْتَهَا السَّاحِرَةُ اللَّعِينَةُ. وَحَيَاةِ جَمِيعِ الْأَلِهَةِ، أَقْسِمُ عَلَى ذَلِكَ.“

ثُمَّ حَشَرَ جُولِيَا فِي الزَّوَايَةِ، فَانْكَمَشَتْ مُرْتَعِدَةً، مُغْطِيَةً رَأْسَهَا بِذِرَاعَيْهَا وَصَارِخَةً فِيمَا هُوَ الْكَرْبَاجُ عَلَى ظَهْرِهَا.

نَهَضَتْ هَدَسَة مُتْرَنِّحَةً وَمُضْطَرِبَةً الْبَصَرَ. كَانَ عُنْفُ أُرْبَانُسَ أَشْبَهَ بِشَبِيحِ شَرِيرٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَسَمِعَتْ صَرَخَاتِ جُولِيَا الْمَفْعَمَةَ رُغْبًا وَأَلْمًا. فَمَشَتْ مُتَعَثِّرَةً عَبْرَ الْغُرْفَةِ، وَارْتَمَتْ عَلَى جُولِيَا كَيْ تَحْمِيَهَا. وَإِذَا بِلِسْعَةِ الْكَرْبَاجِ تَجْعَلُهَا تَلْهُثُ وَتُجْفِلُ. وَقَدْ تَكَوَّمَتْ جُولِيَا تَحْتَهَا كُرَّةً مُرْتَجِفَةً وَهِيَ تَنْشِجُ عَلَى نَحْوِ هِسْتِيرِيٍّ.

اسْتَشَاطَ أُرْبَانُسَ غَضَبًا، فَصَبَّ سُخْطَهُ عَلَى هَدَسَة. وَإِذْ لَمْ يَكْفِهِ جِلْدُهَا، قَلَبَ طَاوِلَةَ

جوليا، وأسقطَ تمثالاً عزيزاً، وحطّمَ مرآتها. وقال: "لم أنته منك بعد، يا جوليا!" ثم مضى. تباطأ قلب جوليا. "لقد ذهب. سأنهضُ الآن". ولم تتحركِ هَدْسَةُ. "أريدُ أن أنهضَ قبل أن يرجع!" وجهدت جوليا، فانقلبتِ هَدْسَةُ على جنبٍ واحد. ورأت جوليا وجهها شاحباً وساكتاً. "هَدْسَةُ!" ووضعت جوليا مرعوبةً أذنها بقربِ شفّتي هَدْسَةَ المنفرجتين، فإذا بها لا تكاد تتنفس. فلمت جوليا خادمتها على ذراعها، وبكت. وأخذت تهزّها هامسةً: "لقد أنقذتني منه!" ثم مسدت الشّعْرَ عن وجهِ عبدتها المشحوب وقبّلت جبينها. "ستكونين بخير، ستكونين". وقد ضممتها بشدة وهزتها، فيما الغضب يتعاظم في داخلها.

لا مزيد. لا مزيد من هذا، يا أربانس!

ثم افتتح الباب على مهل، وحملتْ خادمةً بحذرٍ من وراء حافته. فحدقت جوليا إليها، وسألت بصوتٍ بارد: "أين زوجي؟" وقد وقفت العبدَةُ في مدخل الباب المفتوح، ووراءها اثنتان أخريان.

أجابت الأولى: "لقد غادر السيد كائس الدّارة".

فقالت جوليا بمرارة: "وهكذا جئت الآن لنجدتي. جبانة. كلكنّ جبانات!" وقد رأَتْ خوفهنّ منها. وكان صحيحاً أنهنّ يخفنّ منها. فسترسَل كلُّ عبدةٍ في هذا البيت إلى ساحة المحاربين لأنهنّ تركنّها تحت رحمة كائس. ثم ضمت هَدْسَةُ ضمّاً أشدّ، مُسَدَّةً شعرها عن وجهها الشاحب. كلُّ واحدةٍ منهنّ ما عدا هذه التي حمتها. وقد كان في وسعها أن تحسّ دم هَدْسَةَ الحارّ مخترقاً كمّ ثوبها.

ثم رفعت رأسها وحدقت إلى العبدات الواقفات في مدخل الباب بانتظار توجيهاتها. جبانات! جاهلات! لقد استحققن الموت. وهي كرهت كلَّ واحدةٍ منهنّ. وما إن قالت امرأة: "تعالين اعتنين بها!" حتى أسرعن إلى الغرقةِ عبدتان وانحنتا كي تُخرجا هَدْسَةَ. "ملّحا جراحها وضمّداها، وأبقياها بعيدةً عن زوجي". وأنشبت أظفارها في ذراع إحداهما. "إذا ماتت، فسأمُرُ بجلدِكما حتى يُسلخ جلدكُما عن ظهريكما. هل تفهمان؟"

فأجابت في الحال مرعوبةً: "نعم، سيديتي".

"بسرعة!" لقد علمت جوليا أنّ عليها أن تُغادر الدّارة قبل رجوع كائس. فحسّى يكون كائس قد صرف غضبه وعاد إلى رُشدِه، كانت حياتها في خطر. وإذا لم يتيسر له أن يعثر عليها، يتوافر لديه وقتٌ يُتيح له أن يفكّر ويستعيد السيطرة على ذاته. فمن دون أن تتمهل كي تُبدّل ثيابها الممرّقة، وضعت على نفسها عباءةً فضفاضةً وخرجت تحت جُنح الليل.

روما

رَكَضَتْ طَوَّلَ الطَّرِيقِ إِلَى مَنْزِلِ كَالَابَاهِ، وَقَرَعَتْ الْبَابَ بِقُوَّةٍ. فَفَتَحَ لَهَا عَبْدُ يُونَانِيٍّ وَسِيمٍ. فَقَالَتْ: ”قُلْ لِكَالَابَاهِ إِنِّي هُنَا“، وَاقْفَةً فِي الْبَابِ تَمَامًا. وَلَمْ يَتَحَرَّكَ قَطُّ إِطَاعَةً لَهَا، فَدَفَعَتْهُ جَانِبًا وَدَخَلَتْ الْغُرْفَةَ الْكَبِيرَى، حَيْثُ كَانَتْ كَالَابَاهُ تَعْقِدُ اجْتِمَاعَاتِهَا. وَقَالَتْ ثَانِيَةً بَعَيْنَيْنِ تَقْدِحَانِ شَرًّا: ”قُلْ لِكَالَابَاهِ إِنِّي هُنَا“

”السَّيِّدَةُ كَالَابَاهُ مَشْغُولَةٌ“.

فَالْتَفَتَتْ جُولِيَا وَحَدَّثَتْ إِلَيْهِ: ”هَذِهِ قَضِيَّةٌ بِالْغَةِ الْأَهْمِيَّةُ“.

”هِيَ طَلَبَتْ أَلَّا يُزْعَجَهَا أَحَدٌ“.

فَقَالَتْ مُسَخَّطَةً: ”سَتَفْهَمُ حَتْمًا! كُفَّ عَنِ مُجَرَّدِ الْوُقُوفِ هُنَاكَ وَالتَّحْدِيقِ إِلَيَّ بِبَيْلِهِ، وَافْعَلْ مَا أَقُولُهُ لَكَ!“

فَغَادَرَ الْغُرْفَةَ، وَأَخَذَتْ جُولِيَا تَتَمَشَّى مُضْطَرِبَةً قَلْقَةً. وَشَدَّتِ الْكَابِ التَّافَةَ حَوْلَ جِسْمِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَوَقَّعَ الْقَشْعِرِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَسْرُبُ إِلَى دَاخِلِ عِظَامِهَا. ثُمَّ رَجَعَ الْيُونَانِيُّ بَعْدَ لِحْظَاتٍ طَوِيلَةٍ.

”سَتُقَابِلُكَ السَّيِّدَةُ كَالَابَاهُ فِي مَهَاجِعِهَا بَعْدَ دَقَاقِقَ قَلِيلَةٍ، سَيِّدَتِي“.

”يَجِبُ أَنْ أَرَاهَا الْآنَ!“ ثُمَّ تَجَاوَزَتْهُ ثَانِيَةً بِضَيْقِ صَدْرٍ. وَأَقْبَلَتْ إِلَى مَدْخَلِ بَابٍ مَفْتُوحٍ، فَرَأَتْ خَادِمَةً حَامِلَةً رُوبًا خَفِيفًا فِيمَا كَالَابَاهُ وَاقْفَةً بِجَانِبِ السَّرِيرِ عَارِيَةً. فَقَالَتْ ”أُوهِ!“ وَتَوَرَّدَ خَدَّاهَا. وَنَظَرَتْ كَالَابَاهُ صَوْبَهَا وَالْغُمُوضُ يَكْتَنِفُ سِيْمَاءَهَا. لَمْ يَبْدُ عَلَيْهَا الْارْتِبَاكُ وَهِيَ وَاقْفَةٌ وَذِرَاعَاهَا مَدُودَتَانِ قَلِيلَا كِي يَتَسَنَّى لِلْخَادِمَةِ أَنْ تَطْرَحَ عَلَيْهَا تَوْجَةً.

قَالَتْ كَالَابَاهُ بِحُزْنٍ: ”حَالَةٌ طَارِئَةٌ أُخْرَى، يَا جُولِيَا؟“ وَقَدْ اتَّسَمَ تَصَرُّفُهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْانْزِعَاجِ.

ارْتَاعَتْ جُولِيَا حِيَالَ ذَلِكَ الْاِسْتِقْبَالَ الْفَاتِرِ. لَمْ تَنْظُنْ قَطُّ أَنَّ كَالَابَاهُ سَتَغَضِبُ عَلَيْهَا بِسَبَبِ تَخْلُفِهَا عَنِ الْمَوْعِدِ. ”أَنَا أَسِيفَةٌ لِتَفْوِيتِي الْمَسْرُوحِيَّةَ، كَالَابَاهُ. لَقَدْ أَرَعَمَنِي كَأَيْسَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَهُ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِالْحَقِيقَةِ أَيُّ شَيْءٍ فِي وُسْعِي أَنْ أَفْعَلَهُ...“

قَالَتْ كَالَابَاهُ: ”هُرَاءُ!“ وَأَضَافَتْ بِصَبْرِ مُضْنَى: ”بَاتَ يَعْتَرِنِي السَّأْمُ الشَّدِيدُ حِيَالَ تَصَرُّفَاتِكَ الْمُتْكَلِّفَةِ، يَا جُولِيَا. فَأَيُّ خَطْبٍ حَلَّ بِكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ حَتَّى شَعَرْتِ بِأَنَّكَ مُضْطَرَّةٌ إِلَى مُقَاطَعَةِ أَمْسِيَّتِي؟“

دَخَلَتْ جُولِيَا الْغُرْفَةَ وَأَسْقَطَتْ عَنْهَا الْعِبَاءَةَ الثَّقِيلَةَ، وَاسْتَدَارَتْ حَتَّى يُتَاحَ لِكَالَابَاهِ أَنْ

تري حرقَ بِالسِّها الأحمَر والتَّدوبَ على ظهَها. وأرضاهَا أن تسمعَ شهقةَ كالاباه.

”أكايسُ فَعَلَ هَذَا بِكَ؟“

”نعم. لقد جُنَّ جنونُهُ الليلية، يا كالاباه. وكان ممكناً أن يقتلني لو لم تتدخل هَدسَةً.“

”خادمَتُكَ؟“

”لقد ارتمت عليّ وتلقّت باقيَ الجلد“. وبدأت تبكي من جديد. ”أظنُّ أَنَّهُ قتلها.

”إنَّها...“

فقاطعتها كالاباه قائلة: ”لا يهَمُّكَ أمرُ عبدتكِ بتاتاً“. ثمَّ اقتادتها إلى السرير. ووضعت

يَدَيها على كَتفي جوليا المُرحِفَتين وأرغمتها على الجلوس. ”سأطلبُ إحضارَ مرهمٍ لظهِركِ.“

وكَلَمَت واحداً من عبيدها. ثمَّ أغلقت البابَ والتفتت إلى جوليا. ”والآن، قولي لي ماذا

جَري حتَّى خرجَ كائسُ عن طوره تماماً.“

وقفت جوليا متوترة. ”نيربوس أخبرني أمس بمقدار آلاف السِّسترسات التي يدينُ بها

كائسُ لأَنِسيُّس. وقال إنَّ كائسَ سعى إلى بيعِ قسمٍ من الاستثمارات التي قام بها مرقس

لمصلحتي، ولكنه لم يستطع.“

”لم يستطع؟“

”يبدو أن مرقس رَبَّ أن يُعلمَ حالاً إذا عُرِضَت أملاكٌ مُعيَّنة في السوق“. قالت

هذا وهي تدرع العُرْفَةَ ذهاباً وإياباً بقلبي واضطراب، وأضافت: ”كان كائسُ يعلمُ أن مرقس

سيُطْلِعني على ما كان جارياً. وقد وضعه ذلك في موقفٍ يحمله على محاولة شراء الوقت

ريشماً يتمكن من تدبير مالٍ كافٍ لوفاءِ دينِ أنسيُّس.“

ورمقت كالاباه بنظرةٍ عَجلى. ”أقامَ أنسيُّسُ حفلةَ عيدِ ميلادِ هذه الأُمسيَّة، وأصرَّ

كائسُ على أن أحضرَ“. ثمَّ توقفت وشرعت ترتعش. ”أشعرُ بالبرد، كالاباه“. فالتقطت

كالاباه عباءةَ جوليا وألقتها على كتفيها. وأحسَّت جوليا أنَّها بائسة.

وقالت: ”إنَّ أنسيُّسَ يجذني جميلة. وقد أظهرَ رغبتهُ في بجلالٍ تام. وكان كائسُ يغازُ منه

دائماً من قبل، ويقول لي أن أجلسَ أبعدَ ما يمكنُ عنه حتَّى لا أشجعه. إنَّما هذا المساءُ أرادَ كائسُ

مَنِّي أن أبتسِمَ لذلك الفاسد المَلقِيت وأغازِله. وقال إنَّ أنسيُّسَ سيَشعُرُ بالإهانة إن لم أحضرُ حفلةَ

عيدِ ميلاده. بالتأكيد، بعدما أطلعتني نيربوس على الحقيقة، علمتُ سببَ إصرارِ كائسُ البالغ.

فقد أرادَ أن يكونَ أنسيُّسُ في مزاجٍ رائقٍ حين يتوسَّل إليه من أجل مُهلةٍ إضافيَّةٍ لسدادِ دينه.“

ثُمَّ قَعَدَت عَلَى السَّرِيرِ مِنْ جَدِيدٍ، مُتَّجِهَةً الْوَجْهَ. ”حَسَنًا، لَقَدْ أَلْغَيْ دَيْنَهُ.“
فَقَالَتْ كَالابَاهُ بِجَفَاءٍ: ”أَلْغِي!“ وَأَشَاحَتْ وَجْهَهَا. ثُمَّ تَنَهَّدَتْ تَنَهَّدَةً ثَقِيلَةً. ”كَيْفَ
دَبَّرْتَ ذَلِكَ؟“

أَجَابَتْ: ”قَضَيْتُ سَاعَةً أَسْأَلِيهِ فِي مَهَاجِعِهِ الْخَاصَّةِ“. وَمَا لَبَّثَتْ أَنْ انْتَفَضَتْ عَلَى
الْحَزْبِيِّ الَّذِي أَتَاهُ اعْتِرَافُهَا، فَهَبَّتْ وَاقْفَةً، وَقَالَتْ مُدَافِعَةً: ”لَطَالَمَا كَانَ كَائِسٌ يَخُونُنِي مِرَارًا
وَتَكَرَّرًا! وَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ كَيْ يَخْتَبِرَ بِنَفْسِهِ وَقَعَ ذَلِكَ.“

بَدَتْ كَالابَاهُ مُوجَّعَةً عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ. ”هَلِ اسْتَمْتَعْتَ بِذَلِكَ؟“

”لَقَدْ اسْتَمْتَعْتُ بِالنَّظَرَةِ الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ كَائِسٍ فِيمَا أَنَا أَبْتَسِمُ لِأَنْسِيْتُسِ
وَأُعَازِلُهُ، كَمَا طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أَفْعَلَ. اسْتَمْتَعْتُ بِالنَّظَرَةِ الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ حِينَ
غَادَرْتُ الْوَالِيمَةَ مِنْ دُونِهِ. اسْتَمْتَعْتُ بِتَصَوُّرِ مَا كَانَ يَجْتَازُ فِيهِ طِيلَةَ وَقْتِ غِيَابِي. أَوْه، نَعَمْ، لَقَدْ
اسْتَمْتَعْتُ بِكُلِّ دَقِيقَةٍ مِنْ ذَلِكَ.“

”أَوْلَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِكَ قَطُّ أَنَّ كَائِسَ سِيرِدُّ الْكَيْلِ كَيْلِينَ؟“

قَالَتْ جُولِيَا: ”لَمْ أَكْثَرْتُ!“ ثُمَّ أَشَاحَتْ بِنَظَرِهَا إِذْ اغْرورَقَتْ عَيْنَاهَا، وَتَابَعَتْ:
”وَلَكِنِّي مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ مُغْضَبًا جَدًّا هَكَذَا، يَا كَالابَاهُ. لَقَدْ كَانَ مِثْلَ الْمَجْنُونِ.“
”إِنَّكَ أَهْنَيْتَهُ أَمَامَ رَفَقَاتِهِ.“

رَفَعَتْ جُولِيَا نَظَرَهَا سَاخِطَةً. ”أَتَدَافِعِينَ عَنْهُ؟ بَعْدَ جَمِيعِ الْمَرَّاتِ الَّتِي جَعَلَنِي فِيهَا أَتَأَلَّمُ؟“
”مَا كُنْتُ لِأَفُكِّرَ فِي الدَّفَاعِ عَنْهُ. إِنِّي أَحْتَقِرُهُ مِنْ أَجْلِ الْأُمُورِ الَّتِي فَعَلَهَا بِكَ فِي
سَبِيلِ مَتَعَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَلَكِنْ فَكَّرِي، يَا جُولِيَا! أَنْتِ تَعْرِفِينَ كَائِسَ. تَعْرِفِينَ كَبْرِيَاءَهُ. تَعْرِفِينَ
قُورَاتِ غَضَبِهِ. سَيَقْتُلُكَ بِسَبَبِ هَذَا.“

شَحِبَتْ جُولِيَا. ”إِذَا، لَنْ أَرْجِعَ.“

”سَتُضْطَرِّينَ إِلَى الرَّجُوعِ، وَإِلَّا خَسِرْتِ كُلَّ شَيْءٍ.“ قَعَدَتْ كَالابَاهُ بِجَانِبِهَا، وَأَمْسَكَتْ
يَدَهَا. ثُمَّ أَخْرَجَتْ نَفْسَهَا عَلَى مَهَلٍ، وَضَغَطَتْ يَدَ جُولِيَا. ”سَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِي نَفْسَكَ.“

فَسَأَلَتْ جُولِيَا، وَعَيْنَاهَا تَسِيحَانِ فِي دَمُوعِ الْفَرَعِ: ”وَلَكِنْ كَيْفَ؟“

أَمَالَتْ كَالابَاهُ ذَقْنَ جُولِيَا نَحْوَهَا، وَتَأَمَّلَتْ عَيْنَيْهَا بِتَرَكِيزٍ. ”سَأَقُولُ لَكَ شَيْئًا لَمْ أُطْلِعْ
عَلَيْهِ قَطُّ أَيَّ شَخْصٍ آخَرَ. فَهَلْ لِي أَنْ أَسْتَأْمِنَكَ عَلَى سَرِّي؟“

طَرَفَتْ عَيْنَا جُولِيَا إِذْ حَدَقَتْ فِي أَعْوَارِ عَيْنِي كَالابَاهِ الْقَائِمَتَيْنِ. وَقَدْ بَدَتْ لَا يُسْبِرُ غُورَهُمَا

وحافلتين بالألغاز. فقالت: ”نعم“، مُرْتَحِفَةً قَلِيلًا.

مالت كالاباه إلى الأمام، وقبّلَتهَا بِرِقَّةٍ عَلَى شَفَتَيْهَا. ”أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ سَتَحْفَظِينَ سِرِّي“. ووضعت راحة يدها برفقٍ على خدّ جوليا، وعيناها تبدوانِ جميلتين وفاتنتين. ”لقد علمت منذ البداية أننا- أنت وأنا- سنكون صديقتين لصيقتين جدًا“. ثم بعد قليل سحبت يدها مُخَلْفَةً لَدَى جوليا إحساسًا غريبًا بالارتباك.

وقفت كالاباه ومشت مُبتعدةً برشاقة: ”الجميع يعتقدون أنّ زوجي أوريوس مات بسكتة دماغية“. ثم التفتت ونظرت إلى جوليا من جديد، مُبتغيةً أن تحتلي ردة فعلها حين تُطلّعها على الحقيقة. ”في الواقع، أنا سممته“. وراقبت عيني جوليا تتسعان من الدهشة، ولكن ليس من الاستهجان. لقد كانت فضولية، تبتغي شروحا، فتابعت كالاباه كلامها.

”بات الزواج منه لا يُطاق. كان كبير السنّ ومُنْفَرًا لما تزوّجتُ به، ولكنني بقيتُ زوجةً ثابتة. فقد توليتُ تدبير شؤونه الماليّة، ومواعيده، وقضايا عزّيته. وقدمتُ إليه النصح السياسيّ الحصيف، وأعدتُ إحياء ثروته المتضائلة. ثم بعد حماقة يسيرة من قبلي، هدّد أوريوس بتطليقي“.

وابتسمت كالاباه على نحو ساخر. ”إننا نعيش في عالم رجال، يا جوليا. ففي وسع أزواجنا أن يرتكبوا الزنى كلّمَا وأفْتهم الرّغبة، ولكنّ معصيةً واحدة من جانب المرأة يمكن أن تُكلّفها حياتها. ليس أنّ أوريوس كانت له الشجاعة كي يُهدّدي بالموت. لا، لقد كرهني، غير أنه كان خائفًا أيضًا. وكان من عادته أن يقول إنّ ذكائي هو ما دفعه إلى الوقوع في حبي، فضلًا عن شهوانيّتي. وفي ما بعد، هدّده خطرُ كِلا الأمرين“. وضحكت ضحكة خفيفة فاترة. ”كلّ ما قاله هو أنه أراد أن يعود حرًا. ولو عادَ كذلك، لدمر كل شيءٍ قد بنيته، ولتركتني مُعدّمة لقاء كل مجهوداتي. وكان من شأن القانون الروماني أن يُبارك حقّه في القيام بذلك“.

ثم نظرت إلى جوليا. ”كان موته سريعًا ورحيمًا. لم أرّد له أن يُعاني أيّ ألم. فقد حطّطت لإقامة وليمة وضيافة. والذين كانوا حاضرين تلك الأمسية قد اقتنعوا بأنّه تعرّض لنوبة دماغية“. والتوى فمها. ”لقد ربّبتُ أن يؤيّد طبيب افتراضهم، استيافًا لأيّ أسئلة قد تُثار لاحقًا. ولكن لم يُثر أيّ سؤال“.

وعادت كالاباه فجلست بجانب جوليا. ”بلا شك، وضحكٍ مُختلف. فكأنّ شاب. وستُضطرّين إلى استخدام شيءٍ أبطلًا مفعولًا لكي يبدو موته طبيعيًا. فهناك سمومٌ معروفة على نطاق ضيق تُسبّب حمى شبيهة جدًا بتلك الشائعة كثيرًا حول روما في أثناء موسم

روما

الفَيْضَانِ هَذِهِ الْأَيَّامِ“. ثُمَّ أَمْسَكَتْ يَدَ جُولِيَا، فَإِذَا هِيَ بَارِدَةٌ وَرَطْبَةٌ. ”أَنْتِ خَائِفَةٌ. إِنِّي أَفْهَمُ. صَدَّقْنِي، أَنَا أَيْضًا كُنْتُ خَائِفَةً، وَلَكِنَّهُ هُوَ دَفَعَكَ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَبِالطَّرِيقَةِ الَّتِي بَهَا يُهْدِدُكَ الْآنَ أَيُّ خِيَارٍ لَدَيْكَ؟ أَعْرِفُ امْرَأَةً خَدَمَتْ زَوْجَةَ أَعْصُطُسَ قَيْصَرَ، لِيَقْبِيَا. إِنَّهَا صَاحِبَةٌ مَعْرِفَةٍ عَظِيمَةٍ، وَفِي وَسْعِهَا أَنْ تُسَاعِدَنَا“.

فَسَأَلَتْ جُولِيَا: ”وَلَكِنْ هَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقْتُلَهُ؟“ سَاحِبَةٌ يَدَّهَا وَوَاقِفَةٌ. لَقَدْ أَرَادَتْ أَنْ تَهْرَبَ.

”أَهُوَ قَتْلُ أَنْ تُدَافِعِي عَنِ نَفْسِكَ؟ هَلْ تَعْلَمِينَ مَا تَوُولُ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ بِلَا عَائِلَةٍ وَلَا سَنْدٍ؟ إِنَّهَا مُعَوِزَةٌ وَتَحْتِ رَحْمَةِ عَالِمٍ قَاسٍ جَدًّا. لَقَدْ دَلَّى أَوْرِيُوسُ سَيْفًا مَجْرَدًا مِنْ غَمْدِهِ فَوْقَ رَأْسِي، فَاخْتَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ“.

شَعَرَتْ جُولِيَا بِالْوَهْنِ وَالذُّوَارِ. وَقَالَتْ بَارْتَعَادُ: ”أَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ آخَرَ؟“ ثُمَّ مَسَّتْ جَبِينَهَا مُتَحَسِّسَةً قَطْرَاتِ الْعَرَقِ تَنْسَابُ مِنْهُ.

تَرَكَتْ كَالآبَاهِ الصَّمْتِ يَمَلَأُ الْغُرْفَةَ بِضَعِّ لِحْظَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ مِنْ جَدِيدٍ. لَقَدْ كَانَتْ تَعْرِفُ جَمِيعَ مَوَاطِنِ الضَّعْفِ عِنْدَ جُولِيَا، وَقَدْ حَانَ الْآنَ وَقْتُ الْإِفَادَةِ مِنْهَا. ”فِي وَسْعِكَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَى أُمَّكِ وَأَبِيكِ وَتُخْبِرِيهِمَا بِمَا جَرَى“.

فَقَالَتْ جُولِيَا سَرِيعًا: ”لَا، لَيْسَ فِي وَسْعِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ“.

”إِنَّ لَأَبِيكَ نَفْوَدًا وَتَأْثِيرًا. فَأَخْبِرِيهِ كَيْفَ ضَرَبَكَ كَايُسُ، وَدَعِيهِ يَسْحَقَهُ“.

”أَنْتِ لَا تُدْرِكِينَ، يَا كَالآبَاهِ. سَيَطْلُبُ أَبِي أَنْ يَعْرِفَ لِمَاذَا ضَرَبْتِي زَوْجِي. إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّي مَلُومَةٌ عَلَى مَوْتِ كَلَاوْدِيُوسِ. فَإِنَّ عَرَفَ الْحَقِيقَةَ بِشَأْنِ أَنْسِيْتُسِ، فَهُوَ لَنْ يَقْفَ فِي صَفِّي“.

وَإِذِ اكْتَفَتْ كَالآبَاهِ بِذَلِكَ، تَوَجَّهَتْ إِلَى حَلِيفِ جُولِيَا التَّالِي. ”وَمَاذَا تَقُولِينَ عَنِ أُمَّكِ؟“ فَقَالَتْ جُولِيَا هَازَةً رَأْسَهَا: ”لَا! لَسْتُ أُرِيدُ لَهَا أَنْ تَعْرِفَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا. لَا أُرِيدُ لَهَا أَنْ تُسِيءَ الظَّنَّ بِي“.

ابْتَسَمَتْ كَالآبَاهِ بِفُتُورٍ. إِنَّ كَبْرِيَاءَ جُولِيَا شَدِيدَةٌ مِثْلَ كَبْرِيَاءِ كَايُسِ. فَسَأَلَتْ: ”وَمَاذَا عَنِ مَرْقُسِ؟“ مُنْتَقِلَةً بِذَلِكَ إِلَى اسْتِعَادِ آخِرِ احْتِمَالٍ.

فَقَالَتْ جُولِيَا- وَاجِدَةً بَعْضَ الْعِزَاءِ فِي هَذَا الْحَلِّ الْإِحْتِمَالِيِّ- ”لَا بُدَّ أَنْ يُذَيِّقَ مَرْقُسُ كَايُسَ جِزَاءَ مَا كَانَ يُذَيِّقُ الْآخَرِينَ، ثُمَّ يُهْدِّدُهُ فَوْقَ ذَلِكَ“.

أجابت كالاباه بتعقل بارد: ”وهذا كله سيُعَرِّضُكَ لخطرٍ أزيد. غير أن هناك احتمالاً آخر قد تنظرين فيه. شجعي مرفُوس على تدمير كائس مالياً“. ثم أضافت برفقة- مترقبة رد جوليا المتوقع بسلوى خفية- ”وما إن يتبدد مالك كله، حتى يوافق كائس دون ريب على الطلاق.“

”وأين ستركتني ذلك؟ لا، ليس هذا حلًا، يا كالاباه. لن يبقى باسمي أوريوس واحد، وسأعود إلى بيت أبي، حيث يلمي هو علي كل حركة لي. وقد أقسمت إني لن أسمع بحدوث ذلك من جديد أبدًا.“

فلأذت كالاباه بالصمت، عالمة أن جوليا لا بد أن توافقها أخيراً على ما يجب القيام به. وهي كانت قد علمت منذ البداية تماماً، لما أضرمت شهوة جوليا وعلاقة كائس بها، أن الأمور ستؤول إلى هذه النهاية.

أخذت جوليا تدرع الغرفة ذهاباً وإياباً، مُلتمسة تبريرات وتسويفات عقلانية. ثم عثرت على ذلك كله، مع موجة من المشاعر العنيفة والمربكة. ”لقد استغلني بأساليب مكروهة. لقد كان خوّاناً. لقد بدد مالي على المقامرة ونساءٍ آخر. ثم إنه حاول أن يستخدم رغبة أنيسيس في لأجل مصلحته الخاصة. أفأنقذه ويكون شاكراً حين يلغى دينه؟ لا، بل يضربني ويُقسِم إنه سيقتلني!“ وبينما هي ترتعش بشدة، جلست وغمرت رأسها بيديها. ”إنه يستحق أن يموت!“

وضعت كالاباه ذراعيها على كتفي جوليا، وبددت بأناقة شعورها بالذنب إذ قالت لها: ”اسكتي الآن، يا جوليا. لقد جلب كائس هذا كله على نفسه.“

”ولكن كيف سيتأتى لي أن أنجز الأمر؟ سأضطر إلى الإقامة معه من جديد، وأنا مرتاعة من الرجوع إليه.“

”ما زال لدي بعض التأثير في كائس. سأكلّمه في الأيام القليلة الآتية، وأفهمه أن معاملتك بالعسف ستنزّل على رأسه كارثة حتمية. إنه ليس مجنوناً إلى التمام، يا جوليا. فسيمارس الانضباط حتى يحمي نفسه من أخيك وأبيك، إنما إلى حين فحسب. نحن كلانا نعرف كائس. سيعمد إلى التفكير في أساليب تتيج له أن يؤذيك، وسيطبخ الوقت أي انضباط لديه على طبعه. لم يبدو عليك الارتعاب الشديد؟ بقي بي. بضع جرعات في أثناء أسبوع واحد، فتسوء صحته. وفي أثناء الأسابيع التي تلي، لن يشكّل كائس أي خطر حقيقي بالنسبة إليك.“

خفق قلب جوليا كعصفور في فخ أمام أفعى. ”وإذا ساوره الشك؟“

”جوليا، عزيزتي، سامحيني إذا قلتُ لك هذا، ولكنَّ كائسَ لن يظنَّ أنكِ قادرةٌ على مثل هذه الحيلة الماكرة. فطالما اعتقدَ دائماً أنكِ دونَ المستوى من الناحية الفكرية. إنَّه لا يُقدِّرُك كما أقدِّركُ أنا. وشهوته تُجاهك هي التي جعلته يجثو على رُكبتيه. فلا داعيَ لأنْ تقلقي بشأنِ ارتيابه. لن يخطُرَ في باله أبداً أنكِ ستكونين قادرةً على التخلصِ منه“. ثمَّ ضغطتْ يدها برفق. ”ولكنَّ يجب أن تتصرَّفي بحكمة“.

فقالَت جوليا مُتلعِثمةً: ”ماذا تعنين؟“

”اعتني به بحرص. إبكي من أجله. ضحِّي لِلإلهة لأجلِ مصلحته. استشيرِي عدَّة أطباء. سأزوِّدكِ بأسماء الذين يُمكنك أن تثقي بهم. وقبل كلِّ شيء، يا جوليا، مهما قال، ومهما ساقَ من اتِّهامات، وإيَّاك أن تردِّي على إهاناته بِمثلها. إيَّاك أن تفقدي السيطرة على طبعك حياله، وإلاَّ تبدد كلُّ شيء! هل تفهمين؟ دعي الذين حوَّالكِ يلاحظوا أنكِ تتصرَّفين تصرف زوجةٍ مُحبِّبة ومُتفانية. وأخيراً، يا جوليا، احزني عليه متى أن الأوان“.

حنَّت جوليا رأسها ببطء، ووجهها مُمتقع. ثمَّ رفعتْ رأسها، وقد سالَ الدمعُ خُطوطاً على خديها.

”ينبغي ألاَّ يبدو عليك فرطُ الحزن، يا صديقتي الصَّغيرة الطيبة. ليس في هذا العالم ما يوصفُ بأنَّه صوابٌ أو خطأ، ولا أسودُّ أو أبيض. إنَّ الحياة حافلةٌ بالمساحات الرمادية، وأولى الغرائز الجوهرية كلها هي البقاء. فالأقوياء يبقون. ليس بالضرورة أقوياء الجسم، بل أقوياء العقل. ولَسوفَ تجتازين هذه الفترة بأمان“.

إذ ذاك وصلَ العبدُ مع الخادمة. فقالت كالاباه للعبد: ”سأعتني أنا بها“. ثمَّ أغلقتِ الباب، وقالت لجوليا: ”أخلعي بالسك، يا جوليا، وانبطحي على سريري ووجهك نحو الأسفل. سأكون رقيقةً قدراً استطاعتي“.

سحبَت جوليا شهقةً عند أوَّل لمسة. فقد أحسَّت كأنَّ ناراَ لسعتها. وما لبثتْ ذلك الإحساسُ أن بردَ، فاسترختْ وسمحتْ لكالاباه بأن تعالجَ جراحها. ”ماذا كان يمكن أن أفعلَ لولاك، يا كالاباه؟“

”أما قلتُ من أوَّل الطريق؟ أنا هنا دائماً. لن تُضطرِّي إلى التصرُّف من دوني“. وتأججت عينا كالاباه الداكنتان بنارِ سوداء. ”عندما يكونُ هذا الأمرُ كلُّه قد انتهى، يجب أن تُركزي فِكرَك على نسيانِ حدوثه أصلاً. عندئذٍ فقط ستمكِّنين من إدراك السعادة الحقيقية. وسأدلك على الطريق“. ثمَّ مرَّرتْ يدها ببطء على ظهرِ جوليا نزولاً. ”لديك كثيرٌ

جداً بعدُ تتعلَّمينه. إنَّ الحياةَ تُشبهُ مسرحيةً، يا جوليا، ونحنُ الكُتَّابُ الذين يُبدِعونها. ففكري في هذا على أنه مُجرَّدُ فَصَلٍ واحدٍ... فَصَلٌ واحدٌ صغير ستليه فصولٌ كثيرةٌ بعدُ...”

٣٣

استيقظت هَدْسَةٌ لَمَّا مَسَّ شَخْصٌ جَبِينَهَا. وَقَالَتْ جُولِيَا: ”إِنَّهَا تَعْرَقُ“ .
فَقَالَتْ إِلَيْشَبَعُ مَخْلُوعَةَ الْفَوَّادِ: ”إِنَّ بِهَا حُمَّى، سَيِّدَتِي. لَيْسَتْ شَدِيدَةً، وَنَحْنُ نَسْهَرُ
عَلَيْهَا مِنْ كَثْبٍ“ .

فَتَحَتِ هَدْسَةٌ عَيْنَيْهَا، فَوَجَدَتْ نَفْسَهَا مُنْبَطِحَةً عَلَى وَجْهِهَا فَوْقَ كَوْمَةِ قَشٍ. كَانَتْ
الْأَرْضِيَّةَ حَجْرِيَّةً سَوْدَاءَ مِثْلِ أَرْضِيَّاتِ الْحُجْرَاتِ الصَّغِيرَةِ فِي الدَّهَالِيزِ الْمُتَلَوُّيَّةِ تَحْتَ الدَّارَةِ،
حَيْثُ كَانَتْ مَوْوَنَةُ الْبَيْتِ تُخْزَنُ. وَكَانَ شَخْصٌ مَا قَدْ رَفَعَ الْحِرَامَاتِ عَنْهَا، وَالآنَ زَلَّهَا بِرَفْقٍ
صُعُودًا حَتَّى تُغَطِّيَهَا إِلَى الْكَتْفَيْنِ. وَمَا لَبِثَتْ جُولِيَا أَنْ قَالَتْ: ”تَبْدُو جِرَاحُهَا غَيْرَ مُلْتَثِمَةٍ“ .

”لَقَدْ كَمَدْنَاهَا بِالْمَلْحِ لِمَنْعِ الْإِلْتِهَابِ، سَيِّدَتِي“ . قَالَتْ لِأَقْنِيَا ذَلِكَ بِلَهْجَةٍ غَايَةِ فِي
اللُّطْفِ وَالذُّعْرِ أَيْضًا بِحَيْثُ عَلِمَتْ هَدْسَةٌ أَنَّ هُنَاكَ خَطْبًا مَا. فَتَحَرَّكَتْ وَكَطَمَتْ شَهْقَةً
خَفِيفَةً فِيمَا جَعَلَهَا الْأَلْمُ الْمَزْعِجَ تَتَمَنَّى السَّلْوَانَ مِنْ جَدِيدٍ.

وَهَمَسَتْ جُولِيَا: ”حَاوِلِي أَلَّا تَتَحَرَّكِي، هَدْسَةٌ!“ وَاضْعَةً يَدًا ثَابِتَةً عَلَى كَتِفِ الْفَتَاةِ
الْمُرْتَحِفِ. ”سَتَجْعَلِينَ الْوَجْعَ أَسْوَأَ وَتَفْتَحِينَ جِرَاحَكِ مِنْ جَدِيدٍ. وَأَنَا إِنَّمَا جِئْتُ لِكَيْ أَتَيِّقَنَّ
بِأَنَّكَ تَتَلَقَّيْنَ عِنَايَةً وَاقِيَةً“ .

سَمِعَتْ هَدْسَةُ الْحِدَّةِ فِي صَوْتِ سَيِّدَتِهَا، وَأَحْسَسَتْ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَكَلَّمُ إِلَى لِأَقْنِيَا-
الْخَادِمَةِ الَّتِي حَاوَلَتْ تَنبِيْهَا عَنِ الدَّخُولِ إِلَى غُرْفَةِ جُولِيَا وَالتَّدخُّلِ لَدَى أُرْبَانُسَ - أَكْثَرَ مِمَّا
إِلَيْهَا هِيَ. فَلَا بَدَّ أَنْ لِأَقْنِيَا تَتَوَلَّى الْآنَ تَمْرِضُهَا. وَقَدْ كَانَتْ إِلَيْشَبَعُ تَبْكِي، فَطَلَبَتْ جُولِيَا مِنْهَا
بِحَفَاءٍ أَنْ تَسْكُتَ.

ثُمَّ سَمِعَتْ هَدْسَةُ هَفِيفَ حَرَكَةٍ إِذْ نَهَضَتْ جُولِيَا وَأَصْدَرَتْ إِلَى الْخَادِمَتَيْنِ أَمْرًا مُقْتَضِبًا
بِإِحْضَارِ طَعَامٍ وَنَبِيذٍ عَلَى وَجْهِ الشَّرْعَةِ. وَإِذْ شَحَذَتْ هَدْسَةُ عِزْمَهَا رُغْمَ الْأَلْمِ، أَرغَمَتْ نَفْسَهَا
عَلَى وَضْعَةِ جُلُوسٍ. وَقَدْ كَانَتْ ضَعِيفَةً جَدًّا، وَشَعَرَتْ بِالْوَحْزِ وَالنَّبْضِ فِي ظَهْرِهَا الْيَابِسِ
الْمُنْقَشِرِ، اِحْتِجَاجًا حَتَّى عَلَى ذَلِكَ الْجُهْدِ الْيَسِيرِ. كَانَ وَجْهُ جُولِيَا فِي ظِلَالِ الْعَتَمَةِ تَمَامًا
بِحَيْثُ لَا يُرَى بَوْضُوحٍ. فَهَلْ خَلْفَ أُرْبَانُسَ نُدُوبًا فِيهَا؟ وَمَا التَّفَتَّتْ جُولِيَا، لَمْ تَرَ هَدْسَةَ آيَّةَ
نَدْبَةٍ، فَتَنَفَّسَتْ الصُّعْدَاءَ. وَقَالَتْ بِفَرَجٍ: ”أَنْتِ بِخَيْرٍ!“

لِأَنَّ وَجْهَ جُولِيَا. وَجِثَّتْ عَلَى رَكْبَتَيْهَا، وَأَمْسَكَتْ يَدَ هَدْسَةَ. ”كَدَّمَاتٌ قَلِيلَةٌ، لَا أَكْثَرَ.

كان ممكناً أن يقتلني كائس لولاك". ثم وضعت يدها على خدي وجهها الشاحب، وعيناها رطبتان وهما تنظران في عيني هَدَسَة: "ماذا سأفعل من دونك؟"
 فقالت هَدَسَة بإحباط: "إِذَا، سأصرف". وقد كان في وسع أربانس أن يأمر بإعدامها لعصيان أمره، حتى لو كان أمره سيء موت سيديتها.

تفادت جوليا من عيني هَدَسَة. فهي لم تُرد أن تكون هَدَسَة في الدارة عند رجوعه. وسيكون صعباً تماماً القيام بما اقترحه كالاباه من دون حضور هَدَسَة. فقالت قول حق إلى الثمام: "لست في أمان هنا". ثم أضافت: "سيقتلك كائس إن تسنى له مد يده إليك. ولذا سأرذك إلى أمي. ومتى تغيرت الأحوال، أرسل في طلبك".

أي أحوال قد تتغير؟ ودت هَدَسَة لو تعلم. فإن أربانس كان يحتقرها كل حين. وقد كان ذلك أمراً غريباً، بالنظر إلى الاشمزاز الغريزي الذي شعرت به هي أيضاً حياله من أول الطريق. وربما كان كرهها لها رداً على ذلك. أمر لم تستطع الجزم فيه.

"ولكن ماذا بشأنك أنت، سيديتي؟" سألت هَدَسَة هذا خائفة على جوليا. فإن أربانس كان رجلاً عنيفاً، مجرداً من المبادئ الخلقية، قائم الأهواء. "لقد قال إنه سيقتلك". ولم يكن لدى هَدَسَة أدنى شك في أنه سيفعل ذلك متى انفجر طبعه الرديء ثانية بمثل ذلك الجنون.

ترججت عينا جوليا، غير أنها ظلت ثابتة على قناعتها. "أنا بعيدة عن مُتناوله. سأمكث عند كالاباه. وهي معه الآن. إن لها تأثيراً في كائس، وستندمه على ما فعل بي. وحالاً تفرغ من إطلاعه على المخاطر التي قد يتحمل عواقبها، سيكون مستجدياً المغفرة مني ومُتوسلاً إلي كي أرجع".

أمعدت هَدَسَة في النظر في وجه سيديتها، فلم تر أية أماره عطف أو رجاء. ولكن كان يتلأأ في عيني جوليا شيءٌ مخيفٌ في حديثه. لقد أرادت الانتقام. فقالت هَدَسَة: "سيديتي..."
 مادة يدها الطليقة كي تمس خدها.

أفلتت جوليا يدها هَدَسَة، وهبت واقفة. كانت هَدَسَة أحياناً تجعلها تشعر بالانزعاج الشديد. فكأنما كان في وسع الفتاة العبدية أن تنظر إلى أعماق نفسها وترى أفكارها. ومن ثم أرغمت نفسها على الابتسام، قائلة: "سيؤول كل شيء إلى الأفضل". لم تُرد لهَدَسَة أن تحزر ما نوت أن تفعله؛ لأنها لو أرادت ذلك لحاولت هَدَسَة إقناعها بالعدول، ولم تكن جوليا تعلم أهمي قوينة كفاية بحيث تصدُّ حاجة هَدَسَة. وإذ فكرت في كالاباه، شعرت بأنها

أكثرُ تصميمًا بعد. لقد كان كائس حَظْرًا يتهدّد حياتها، ويجب أن يموت. وهي لم تفعل شيئًا لتستحقّ مثل تلك المعاملة الوحشية البغيضة على يدي زوجها.

دخلت لافينيا بصينيةً مُحمّلة خبزًا وفاكهةً وشرائح لحم وإبريق خمر. كانت الجارية ترتجف بشدة لما حطت الصينية أمام هدسة. ورمقت هدسة بنظرة استعطاف. فقالت جوليا باحتقار: "انزكينا!" وفرت لافينيا من الحجرة.

تغيّر تصرف جوليا لما باتتا وحدهما من جديد. فقد أقبلت وركعت أمام هدسة، وتقاطعت وجهها طافحةً بعدم اليقين: "لا تقولي لأبي وأمي ومرقس أي شيء عما جرى. فذلك لن يجعل الأمور مع كائس إلا أكثر صعوبة. يجب أن أحاول تسوية الأمور معه والرجوع إلى الدارة. وإن سمع مرقس بما فعله بي، فإني أخشى مما سيفعله انتقامًا".

لقد كانت الاحتمالات أشد قاتمًا من أن تتأمل فيها هدسة. "إنني فاهمة، سيديتي". عضت جوليا شفرتها، وبدا أنها أرادت أن تقول المزيد. ولكن لما فعلت ذلك، لم تكشف أي شيء. إذ قالت: "عندي مشكلات كافية بغير أن يضيف مرقس إليها". وقد بدت مضطربة أكثر مما رأتها هدسة يومًا. "يجب أن أمضي". وفاضت عيناها دموعًا. ثم همست بصوت أجش: "سأفتدك"، ومالت إلى الأمام لتقبل خد هدسة. "سأفتدك أكثر مما يمكنك أن تعرفي".

تشبّثت هدسة بيد جوليا بكلتا يديها، خائفةً عليها وراغبةً في البقاء بقربها. "رجاء، لا تصرفيني بعيدًا عنك!"

بدت جوليا لحيفةً على استعدادٍ لتلبية طلبها. ثم انزمت عيناها بعزمٍ أشد. "إذا أردت تهوين الأمور عليّ، يجب أن تنصرتي، وبأسرع ما يمكن".

تورّد خدًا هدسة خجلاً. إن أربانس لم يكتف قط كرهه لها. ولعل حضورها في أثناء الأشهر الماضية لم يزد علاقةً مُتقلبةً أصلاً إلا توترًا. "إذا، سأصلي لأجلك، سيديتي. سأصلي طالبةً أن يحميك الله".

فقالت جوليا: "في وسعي أن أحمي نفسي!" وهي تقف وتسحب يدها بقوة من قبضتي هدسة. ثم توقفت في مدخل الباب قائلة: "لقد تركت أوامر بأن يُقدّم إليك كل ما أردت".

بينما كانت هدسة تتعافى، علمت من إليشبع ولافينيا بما كان جارياً في البيت. فبعد مقابلة كالاباه، رجّع السيد إلى البيت وأمر بأن يؤتى إليه بخمر. ثم شرب الإبريق دفعةً

واحدة، مُحدِّقًا إلى لا شيء، ووجهه مُتجهِّمٌ جدًّا بحيثُ رَوَّعَ الحُدَّامَ. وفي صباح اليوم التالي جاء مَرُقُسُ لرؤية أخته، فقيل له إنَّها تزورُ بعضَ الصَّديقات. وقالتِ الإِسْبَعُ لهَدَسَةَ: ”عندئذٍ طلبَ أن يُكَلِّمَكِ، ولكننا قلنا له إنَّكَ غادرتِ الدَّارةَ في مهمامٍ كَلَّفَتْكَ سَيِّدَتُكَ إِيَّاهَا.“
 إنَّ مجردَ ذِكرِ مَرُقُسِ جعلَ معدتها تنقبِضُ على نحوٍ غريب. ”هل بدا بخير؟“
 أجابتِ لافينيا بابتسامةٍ حاملة: ”بالحقيقة، نعم. لو أسعفني الحظُّ لأكونَ عبدةً لرجُلٍ نظيره، لخدمتهُ بأيَّةِ طريقةٍ طلبتها.“

رجعتُ جوليا إلى دارةِ كائسٍ مع كالاباه في آخرِ الأسبوع، وتحدَّتِ الثلاثةُ مُطوِّلاً في الببليوتيكا. وقد أحضرتِ الإِسْبَعُ لهم خَمْرًا، فصرَّفت. وبعد ساعة، غادرتِ المرأتان معًا. وحكَّتِ الإِسْبَعُ خبيرَ الزيارةَ لهَدَسَةَ. ”قالتِ السيِّدةُ كالاباه: «سنرجعُ عصرَ غدٍ، بعد أن يكونَ قد أتيحَ لك وقتٌ كافٍ للتفكير في الأمور مليًا، يا كائس. ويرجى أن تكونَ قد عدتَ إلى رُشدِكَ عندئذٍ.“

وقالتِ لافينيا: ”لقد كان مريضًا هذا الصَّباح.“

”ولا عَجَب. فقد قضى الأسبوعَ كُلَّهُ سكرانًا.“

أحضرتِ الإِسْبَعُ لهَدَسَةَ تنكًا جديدًا، ولكنَّ حتى الصُّوفُ الناعم كان مَلَمْسُهُ مُعذِّبًا على ظهرها. فقالتِ لافينيا لها: ”ينبغي أن تمكثي أيامًا قليلةً بعد.“

أجابتِ هَدَسَةُ: ”لقد أرادتِ السيِّدةُ جوليا منِّي أن أغادرَ بأسرع ما يمكن.“ وإنَّ كانتِ جوليا ستَرجعُ غدًا، فإنَّ حضورَ هَدَسَةَ يُحتمَلُ جدًّا أن يُعرضَ سيِّدتها للخطر من جديد، إذا تبينَ لكائس أنها ما تزالُ هناك. ثمَّ لفتِ الحِزامَ العبرانيَّ على مهلٍ حولَ خصرِها، وثبَّتته بكلِّ ما استطاعت من تأنٍّ.

اضطُّرت إلى التوقُّفِ بِضَعِ مَرَّاتٍ في الطريقِ إلى دارةِ آلِ فاليريان. كانت دارةُ أربانُس مَبْنِيَّةً في المنطقة الغنيَّة من المدينة، وكان آلُ فاليريان في الجزء الأقدم على الجانب الآخر من التلِّ الباليينتينِي. فتأنَّتِ هَدَسَةُ، مُتوقِّفةً لشراء ما تأكله في الطريق. وإذا كانت ضعيفةً ومُتعبَةً، قعدتْ بقرب نافورةٍ كي تستريح. فوجدتْ خريرَ الماءِ مُهدِّئًا، وتمنَّت لو تنامُ نومَةً خفيفةً تحت ضوءِ الشمس. ثمَّ أكلتِ الفاكهةَ والخبزَ اللَّذينِ اشتَرَتَهُما، فشعرتَ بأنَّها باتتْ أقوى.

فوجئَ أخنوخُ برؤيتها. ”السَّيِّدُ في مكتبه على ضفَّةِ النَّيْبِرِ، ولكنَّ السيِّدةَ فيبي في الحدائق. سأخذُكِ إليها.“ لم يسألَ عن سببِ إرسالِ جوليا إِيَّاهَا إلى البيت، بل بدا فقط مسرورًا بحضورها. وما إنَّ وصلًا إلى حيثُ كانت فيبي قاعدةً على بنكٍ تحتَ تعريشةِ الوردِ،

حتى قال: "سيديتي، لقد عادت هدىسة إليك".

رفعت فيبي نظرها، فأشرق بابتسامه وجهها الساكن الهادئ. ثم نهضت، وتبين لهدسة أنها نوت أن تعانقها. وقبل أن يتاح لفيبي القيام بهذا الأمر غير اللائق أمام أخنوخ، جثت هدىسة على ركبتيها سريعاً وانحنّت إلى الأمام ماسّة قدمي فيبي في فعل طاعة خاضعة. "لقد ردّنتي سيديتي جوليا إلى خدمتك".

"قومي، يا بنية". وإذ قامت هدىسة، احتضنت فيبي ذقنها بإحبتها، ناظرة إليها بحدّة صريحة. "الحمد للآلهة. إن سيديك وأنا قد افتقدنا بألم ترانيمك وقصصك طيلة هذه الأشهر الماضية". ثم أمسكت بيدها وبدأت تتمشى على الممر. "إنما أخبريني عن ابنتي! قلما سمعنا أخبارها مؤخراً".

أجابت هدىسة عن أسئلة فيبي بأقصى غموض ممكن، مُحاولّة في الوقت عينه أن تطمئنّها. وبدت فيبي قانعّة، فلم تتقصص الموضوع، تاركة هدىسة شاكرة لأنها لم توضع في موقف الاضطراب إلى الكذب.

ثم قالت فيبي: "ستُعفين من واجباتك هذا المساء، يا هدىسة. إن السيد دسيس وأنا سنقضي الأمسية مع زملاء عمّل".

دخل مرقس الدارة في أثناء ساعات المساء الأولى. وقد كان مُتعباً ومُكتئباً. وأعلمه أخنوخ بأنّ والدیه خرجا لقضاء المساء، فأحسّ وطأة الوحشة المضاعفة. ولما سُئل هل يريد شيئاً يأكله، أجاب بالنفي. كما أنه لم يشأ أيضاً أن يشرب شيئاً من الخمر. فقد تلقى معلومات مُزعجة اليوم، ولم يعلم كيف يتدبّر الأمر على أفضل نحو.

وخرج إلى الحدائق كي يُصفي ذهنه، غير أنّ أفكاره المضطربة بدّدت أيّ سلام رجا أن يجده بين أشجار أمّه وأزهارها. وتساوّعت دقات قلبه بحدّة إذ شاهد شخصاً ما جالساً على بنك على مقربة من نهاية الممشى.

"هدسة؟"

فنهضت على مهل، مُتصلبة على نحو غريب، وواجهته. "سيدي".

إنما دققت العاطفة التي أحسّها لدى رؤيتها جعلته دفاعياً. "ماذا تفعلين هنا؟"

"لقد ردّنتي السيدة جوليا".

"لماذا؟"

بَدَتْ مُتَأَذِيَةً مِنْ سِوَالِهِ الْجَافِي. ”إِنَّ زَوْجَهَا يُفَضِّلُ خَادِمَةً أُخْرَى غَيْرِي لِتَلْبِيَةِ
احتياجاتها، سيدي“ .

استندَ مَرْقُسُ إِلَى عَمُودِ الرُّخَامِ. إِنَّ مُحَاوَلَتَهُ أَنْ يَبْدُوَ هَادِئًا لَمَّا تَلَقَّى تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ عَصَرَ
ذَلِكَ النَّهَارِ جَعَلَتْ ذِهْنَهُ يَضْطَرِبُ، وَهِيَ هِيَ حُضُورُ هَدَسَةِ غَيْرِ الْمُتَوَقِّعِ الْآنَ يَجْعَلُ قَلْبَهُ مُتَسَارِعًا
النَّبْضِ. ”وَمَا احتِياجاتُ أُخْتِي تَمَامًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ؟“ ثُمَّ بَدَلَ مَا فِي وَسْعِهِ كَيْ يَرَى وَجْهَهَا
تَحْتَ ضِيَاءِ النُّجُومِ، غَيْرَ أَنَّهَا أَبَقَتْ رَأْسَهَا مُطْرَقًا. وَقَالَ بَعْدَ لِحْظَةٍ مُتَطَاوِلَةٍ: ”ثُمَّ سَائِعَاتُ
مُتَفَشِّئَةٍ. وَأَخْرَجْتُ قِصَّةَ أَنْ أُخْتِي قَضَتْ سَاعَةً فِي مَهَاجِعِ أَنْسِيْتُسِ الْخَاصَّةِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِأَوْرَاقِ
مُوقِعَةٍ تُلْغِي دِيُونَ زَوْجِهَا“ .
فَلَمْ تَقُلْ هَدَسَةً كَلِمَةً وَاحِدَةً.

”أَعْرِفُ سِتَّةَ رِجَالٍ مَدْيُونِينَ لِأَنْسِيْتُسِ بِمَالٍ. وَهُمْ جَمِيعًا خَائِفُونَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَمْرُهُمْ
مَطْرُوحِينَ عَلَى وَجْهِهِمْ فِي مِيَاهِ التَّيْبَرِ إِذَا عَجَزُوا عَنْ وِفَاءِ الدِّينِ فِي الْمَهْلَةِ الْمُحَدَّدَةِ. فَالآنَ،
قُولِي لِي يَا هَدَسَةُ: كَيْفَ أَقْنَعْتُ أُخْتِي أَنْسِيْتُسَ بِإِلْغَاءِ دِيُونَ كَأَيْسَ؟“
وَأَيْضًا لَمْ تَقُلْ هَدَسَةً شَيْئًا، إِنَّمَا كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَحْسَنَ تَوَثُّرَهَا.
اسْتَقَامَ مَرْقُسُ عَنِ الْعَمُودِ، وَأَقْبَلَ نَحْوَ هَدَسَةٍ. ”أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ، وَأُرِيدُ أَنْ
أَعْرِفَهَا الْآنَ“ .

”لَسْتُ أَعْلَمُ شَيْئًا عَمَّا تَقُولُهُ، سَيِّدِي“ .

فَقَالَ: ”لَسْتُ تَعْلَمِينَ“، وَتَشَبَّهَتْ بِذِرَاعِهَا إِذْ تَرَاوَعَتْ عَنْهُ، ثُمَّ تَابَعَتْ: ”أَمْ لَنْ تَقُولِي؟“
ثُمَّ نَتَرَهَا نَحْوَهُ فَأَصْدَرَتْ شَهَقَةً أَلَمَ حَادَّةً، وَهَوَّتْ. فَفُوجئ، وَالتَّقَطَّهَا بِذِرَاعِيهِ قَبْلَ أَنْ تَصْطَلِمَ
بِالْمَشْيِ الْمَرْصُوفِ بِالْخِصْيِ. وَقَالَ مُرْتَاعًا: ”هَدَسَةُ!“ فِيمَا تَرَنَّحَتْ بَيْنَ ذِرَاعِيهِ.

حَمَلَهَا عَائِدًا بِهَا بِشَرَعَةٍ إِلَى دَاخِلِ الدَّارَةِ، مَرْعُوبًا إِذْ أَعْمَى عَلَيْهَا، غَاضِبًا عَلَى نَفْسِهِ
لِإِفْرَاقِ حَيَاتِهِ عَلَيْهَا. وَرَمَقَهُ أَخْنُوحُ بِنِظْرَةٍ دُحُولٍ. ”أَحْضِرْ لِي بَعْضَ التَّيْبِذِ، يَا أَخْنُوحُ. لَقَدْ
أَعْمَى عَلَيْهَا“. وَأَسْرَعَ الْخَادِمُ لِتَنْفِيذِ الْأَمْرِ، فِيمَا مَدَّهَا مَرْقُسُ عَلَى أَرِيكَةٍ. وَأَنْتَ إِذْ زَلَّقَ
ذِرَاعَهُ مِنْ تَحْتِهَا. فَتَجَهَّهْمَ. لَقَدْ كَانَتْ بُقْعَةٌ دَمٍ تَنْزُرُ عِبْرَ صُوفِ تَنْكِيهِ الرِّيقِ. وَإِذْ قَلَبَهَا عَلَى
جَنْبِهَا، سَحَبَ التُّوبَ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلًا. فَرَأَى أَثَرَ جِرْحٍ أَحْمَرَ عَلَى كَتِفِهَا، وَسَبَّ.

حَالِمًا دَخَلَ أَخْنُوحُ الْغُرْفَةَ حَامِلًا صِينِيَّةً، قَالَ: ”لَمْ تَبْدُ بِحَالٍ جَيِّدَةٍ لَمَّا عَادَتْ عَصَرَ
الْيَوْمِ. سَاعَتِي بِهَا، سَيِّدِي“ .

فقال مرقس باقتضاب: "أتترك النبيذ واذهب. ثم أغلق الباب وراءك".
وقال أخنوخ مدهوشاً: "نعم، سيدي".

شق مرقس ظهره تنكها من العنق حتى الحصر. ولما رأى ظهرها، أخذ يرتجف. كيف تلقت فتاة صغيرة هكذا وضعيفة كما يظهر ضرباً مبرحاً كهذا؟ وماذا يمكن أن تكون قد فعلت حتى تستحق الضرب؟ ثم حدق إلى ندوب الكبراج التي رضخت لحمها وجرحته. اثنتا عشرة ضربة على الأقل، ويبدو ثقيلة. إن جوليا، حتى في ذروة غضبها، كانت غير قادرة على مثل هذا العنف. فلا بد أن يكون كائس هو الفاعل.

استيقظت هدسة. وإذا كانت فاقدة حس الزمان والمكان، جلست فانزلق تنكها عن كتفها. فأتسعت حدقتا عينيها، ولت التناك على صدرها، ورفعت نظرها إلى مرقس. وقد تورّد خدّاهما الشاحبان بالاحمرار.

"هل فعل كائس هذا بك؟" لم يكن مرقس قط قد شعر بمثل تلك الدفقة الشديدة من البغض على أي رجل، ولا بمثل هذه الرغبة المتحرقة في الانتقام.

شجبت هدسة من جديد، وبدت على عتبة الإغماء. "لقد كانت الغلطة غلطتي".
فغضب من محاولتها الدفاع عن كائس، وقال: "غلطتك؟ وأي أمر رهيب فعلت حتى تستحقني ضرباً كهذا؟"

فتشبّث بصوف تنكها الممزوق، وأطرقت رأسها مجدداً. "لقد عصيته".

عرف مرقس عن رجال يضربون عبيدهم لمخالفات يسيرة، كالإفراط في بطء الحركة أو قلة الإتقان. أمّا العصيان فكان مسألة أخرى. فإن كان ما قالته هدسة صحيحاً، كان من حق أربائس أن يقتلها. غير أنه علم أن هدسة ما كانت لتفعل أي شيء بلا سبب. "ماذا كان دور جوليا في الأمر؟"

رفعت نظرها إليه بفرع. "كان من شأنها أن توقيف الجلد لو استطاعت، سيدي. فقد دبّرت أمر الاعتناء بي لاحقاً، وأرسلتني إلى هنا لأجل سلامتي".

لم يكن من طبائع جوليا أن تقوم بإحسان من هذا النوع دون وجود دافع خفي ما خاص بها. ثم إن جواب هدسة جاء سريعاً جداً، كما لو كانت عالمة بأنها ستواجه السؤال فأعدت جواباً بصورة مسبقة. لقد كان الأمر ينطوي على أكثر مما قالته هدسة، ولا بد أن جوليا علاقة معينة بالأمر. غير أن مرقس لم يضغط على هدسة، علماً منه بأن وفاءها سيبيحها صامته.

ولما ذهب إلى الدّارة في اليوم التالي، كان شبه متوّقع أن يُقال له أيضًا إن جوليا تزورُ بعضَ الصّدِيقَات، ولكنّها كانت في البيت، وقد بدتْ أجملَ ممّا سبقَ أن رآها. ”اللون الأزرق يُناسِبُكِ“.

فقالت، وقد سرّها إطاراؤه: ”هكذا قيلَ لي. إنّي أحبُّ الألوان، آلافَ الألوان. لقد صمّمتُ هذا الپالَسَ بنفسِي“.

ثمّ دارتْ كي يتسنّى له أن يُعجِبَ بالصّوف الأزرقِ الغنيّ، والحواشي الزّاهية، الحمراء والصّفراء. وردةٌ بينَ الزّهور البرّيّة. وقد ذكره زناؤُ الجِلدِ والنّحاسِ العريضُ بشيءٍ ارتدته أريا، فأقلّقتَه تلكَ الفِكرة.

قالت جوليا: ”كأيسَ متوّعك. فلنتمشَّ في الحديقة لثلاً نزعِجَه“. وشبكتْ ذراعَه بذراعها. ”لقد افتقدتُك كثيرًا، يا مرفُوس. أخبرني ماذا كنتَ تفعلُ مؤخرًا. أخبرني بكلِّ شيءٍ. لقد مضتْ أسابيعٌ مُذ رأيتُك آخرَ مرّةٍ“.

”ليس أني لم أُحاول، يا أختي الصّغيرة. فكلّما عرّجتُ على الدّارة، تكونين في زيارةِ صديقاتك“.

ضحكتْ ضحكةً أكثرَ تألقًا بقليل، ولكنْ حصلَ تغييرٌ يسيرٌ في سيمائها. وأخبرته عن المسرحيّات التي شاهدتها مع صديقة، والولائم التي حضرتها. لم تأتِ على ذِكر أنيسيتس، وتكلّمت قليلاً بشأن كائس. فسئِمَ مرفُوس هذه الألاعيب.

وما لبثَ أن قال: ”ثمّة شائعةٌ عنك وعن أنيسيتس!“ فرأى خديها يتورّدان.

وقالت بحذر، مُتجنّبةً عينيه: ”شائعةٌ من أيّ نوع؟“

فقال بفظاظة: ”أنكِ سمحتِ له بأن يستغلّك في سبيلِ إلغاء ديون كائس“.

فقدحتَ عيناها شررًا، وقالت بتحدٍّ: ”من شأنِي أن أقولَ إنَّ العكسَ هو الصحيح. فليس هو استغلّني، بل أنا استغلّته“.

”لأجلِ بضعةِ سسترسات؟“

فقالت رافعةً ذقنّها: ”لأجلِ خمسينَ ألفَ سسترس“.

”لا يكاد الثّمن يهّم، يا أختي. سواءً أوريوس أم وزنة من الذهب الخالص... لقد بعيتَ نفسك! فهل يسمَحُ لكِ كائس بأن تتولّى وفاءَ ديونه الأخرى بالطريقة نفسها؟“

”من أنتَ حتّى تستجوبيني عن سلوكي؟ لستَ تعرفُ شيئًا عن حياتي. لستَ تعرفُ شيئًا عمّا جرى!“

”إِذَا، أَخْبِرْنِي بِمَا أَوْصَلَكِ إِلَى هَذَا“.

فَأدَارَتْ لَهُ ظَهْرَهَا، مُتَّصِلَةً مِنَ الْغَضَبِ، وَقَالَتْ: ”لَا شَأْنَ لَكَ فِي مَا أَفْعَلُهُ بِحَيَاتِي. لَقَدْ سَمِئْتُ فَرَضَ النَّاسِ إِرَادَتَهُمْ عَلَيَّ“.

فَنَتَرَهَا وَأدَارَهَا كِي تَوَاجَهَهُ، وَقَالَ- دُونَ أَنْ يَتِمَّكَنَّ مِنْ إِخْفَاءِ حِدَّةِ الْإِنْفِعَالِ الشَّدِيدَةِ فِي صَوْتِهِ- ”أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ مَاذَا حَلَّ بِهَدْسَةٍ“.

وَصَاقَتْ عَيْنَاهَا بِاحْتِرَاسٍ: ”إِذَا، لَسْتُ مُهْتَمًّا بِبِي أَبَدًا، بَلْ بَعْدَةَ“.

فَقَالَ- وَقَدْ إِزْدَادَ غَضَبًا- ”إِنَّ مَا جَرَى لَهَا يَعْنيكِ أَنْتِ“.

”مَاذَا قَالَتْ لَكَ عَمَّا جَرَى؟“

”لَا شَيْءٌ“.

”فَكَيْفَ عَرَفْتَ إِذَا أَنَّهَا جُلِدَتْ؟“

”لَقَدْ رَأَيْتُ ظَهْرَهَا“.

فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً وَاهِيةً، مُتَهَكِّمَةً بِهِ. ”هَلْ تَسْتَغْلِبُهَا مِثْلَ بَيْثِيَّةٍ؟“

أَفَلَتْ مَرْقُسَ ذِرَاعِهِ مِنْ ذِرَاعِهَا. وَحَدَّقَ إِلَى أُخْتِهِ، شَاعِرًا بِكُرِهِ مُفَاجِئًا بِمُزْعَجٍ لِمَا آلَتْ إِلَيْهِ. فَتَلَقَّتْ حَمَلَقَتَهُ هُنَيْهَةً، بِصَلَابَةٍ وَعَمْرُدٍ، ثُمَّ انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهَا بِابْتِسَامَةٍ مَرْتَعِشَةٍ، فَرَأَى أُخْتَهُ الصَّغِيرَةَ الْمَحْبُوبَةَ مُجَدِّدًا.

وَقَالَتْ، وَاضِعَةً يَدًا عَلَى صُدْغِهَا: ”لَمْ أَقْصِدُ ذَلِكَ. أَنَا أَسِيفَةٌ. إِنَّ هَدْسَةَ لَيْسَتْ مِثْلَ بَيْثِيَّةٍ فِي شَيْءٍ“. ثُمَّ رَفَعَتْ نَظْرَهَا إِلَيْهِ بِتَوْشَلٍ. ”كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُبْعِدَهَا، يَا مَرْقُسَ. فَلَوْ بَقِيَتْ هُنَا، لَقَتَلْتَهَا كَأَيْسٍ. وَهِيَ تَعْنِي لِي أَكْثَرَ مِمَّا أُسْتَطِيعُ أَنْ أُشْرِحَ. لَسْتُ أُدْرِي لِمَاذَا...“

خُيِّلَ إِلَى مَرْقُسَ أَنَّهُ فَهِيمٌ. فَرُبَّمَا أَثَّرَتْ هَدْسَتُهُ فِي كُلِّ شَخْصٍ مِثْلَمَا أَثَّرَتْ فِيهِ. وَقَدْ بَاتَ حُضُورُهَا الْمُهَيْبُ ضَرُورِيًّا، بِطَرِيقَةٍ مَا. وَمِنْ ثَمَّ سَأَلَ عَلَى نَحْوِ الْطُفِّ: ”مَاذَا جَرَى؟“

تَنَهَّدَتْ جُولِيَا: ”لَمْ يَسْتَحْسِنْ كَأَيْسُ أُسَالِيْبِي فِي تَوَلَّى أَمْرِ دَيْنِ أَنْسِيْثُسَ عَلَيْهِ، كَمَا لَمْ تَسْتَحْسِنِهَا أَنْتِ. وَقَدْ اسْتَشَاطَ غَضَبًا. وَتَدَخَّلَتْ هَدْسَةُ فَتَلَقَّتِ الْعِقَابَ عَوْضًا عَنِّي“.

أَحْسَ مَرْقُسَ تَدْفُقَ حَرَارَةٍ حَادًّا جَدًّا حَتَّى شَعَرَ بِأَنَّهُ كَانَ يَحْتَرِقُ فِي دَاخِلِهِ. ”هَلْ أَلْقَى عَلَيْكَ كِرْبَاجًا وَاحِدًا؟“

”هَلْ يَبْدُو عَلَيَّ كَمَا لَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ؟“ وَلَمَّا اسْتَدَارَ نَحْوَ الْبَيْتِ، وَضَعَتْ إِحْدَى يَدَيْهَا عَلَى ذِرَاعِهِ. ”يَجِبُ أَلَّا تُفَكِّرَ فِي الْإِنْتِقَامِ، يَا مَرْقُسَ. أَقْسِمُ لِي إِنَّكَ لَنْ

تفعل شيئاً. لا تتدخل بأية طريقة. صدقتني، ستجعل الأمور أسوأ مئة مرة“. ثم أسبلت يدها إلى جنبها، وأضافت: ”فضلاً عن ذلك، انتهى الأمر. إن كائس لا يُشكّل خطراً عليّ وهو مريض هكذا“.

”لا تتوقّعي مني أن أشعر بالأسى عليه“.

فرفعت نظرها إليه بسيماء لم يستطع سبر غورها. إذ بدأ أن الرضى والألم وعدم اليقين والاستسلام كانت كلها ماثلة في أغوار عينها. ثم أشاحت بنظرها من جديد. ”يا ليتني أستطيع أن أخبرك بكل شيء“. وبدأت تسيّر مجدداً على الممشى. ثم توقفت وقطفت زهرة. ”أما زلت مُحِبِّينه؟“

قالت: ”لا أستطيع أن أتمالك نفسي“. ونظرت إليه بابتسامة ساخرة. ”لعلني مثل أريا. فهي لم تكف قط عن حُبِّك، كما تعلم“.

وابتسم مرقس بتهكُّم. ”أذلك هو ما تدعيه؟“

نفت جوليا بتلّة بيضاء من الزهرة، وتركتها تتهاذى إلى الأرض. ”هل فكرت مرة في علاقتها غير الشرعيّة باعتبارها علامة على الاستتال؟ أو على اليأس؟“

أكانت تتكلم عن أريا أم عن نفسها؟ وراقبها تنتف بتلّة بعد أخرى حتى تلفت الزهرة. ”لقد كانت لي آمال كبيرة جداً، يا مرقس. إن الحياة عديمة الإنصاف“.

”الحياة هي ما تبنيها عليه“.

نظرت إليه بابتسامة باهتة. ”أرى أنك على حقّ. فحتى الآن، سمحت لآخرين بتسيير حياتي: أبي، كلاوديوس، كائس. أما بعد الآن، فلا. إنني سأفعل ما هو ضروري كي أكون سعيدة“. ونظرت إلى حبيبات لقاح الزهرة على يديها، ثم نفصتها على مهل. ”ينبغي لي أن أتفقد كائس“. وشبكت ذراعها بذراعها إذ توجّها صوب البيت من جديد. ”لعل قليلاً من التبيد يؤتية شيئاً من التحسن“.

٢٤

أَتَتْ احتِفالاتُ أَيَّار/مايو بابتهاجِ غامِرٍ في روما. إذ عمدَ كُهنةٌ يُدَعَوْنَ أحيانًا (حرفيًا يوتنيفكسين، أي مُنشئِي الجُسور) إلى طَرَحِ حُزْمٍ من نبات الأَسَلِ في نهر التَّيْبِر، مُمَثِّلِ أَشْخَاصًا مُقَيَّدِي الأيدي والأرجُل. وكثُرَتِ مِهْرَجاناتُ الربيعِ واحدًا إثرَ الآخرِ في عَرَبِدَةٍ وَصَحَب. وفي أثناء مِهْرَجانِ الخِصْبِ (لوپر كاليا)، تراكضَ شُبَّانُ أَرِسْتَقراطِيون عُرَاءَ على الطريقِ المُقدَّسة، ضارِبين المُتَفَرِّجين بِسُيورٍ من جلدِ الماعز، في الشعائرِ التي ترمزُ إلى الخِصْب. واقتَرَنَ مِهْرَجانُ لِيبَرِاليا، على شرفِ لِيبَرِ إلهِ صناعةِ الخمر، باحتِفالاتِ دِيونيزُوس- أو ”باخُس“ كما كان ذلك الإلهُ يُدعى في روما عموماً- لِيبلِغَ الذُّرُوةَ في طَلَقِ سُكْرٍ وَعَرَبِدَةٍ. وكان باخُس، يُمَثِّلُهُ شابٌ حَسَنُ الصُّورةِ ومُتَأَنَّث، يركبُ مع سيلينُوسِ الفاسِقِ في عَرَبَةٍ تُجَرِّها نُمُور، فيما جمِعُ الصببان الذين بلغوا السادسةَ عشرةَ في جميع أنحاء روما يُلبسون رسميًا تُوْجَةَ الرِّجالِ (تُوْغا فيريلِس) ويُخوِّلون سُلْطَةَ رجالٍ تَحَرَّروا من السُّلْطَةِ الأيوْبِيَّة.

كذلك أُقيمتِ الأَلعابُ بوفورة. فَإِنَّ الأَلعابَ الكُبْرَى (لُودي ميغالنَسيز) اِفْتَتَحَتْ بِنَفْخِ أبواقٍ على شرفِ سِببيل- إلهةِ الطَّبِيعَةِ الفَرِيجِيَّةِ وزوجةِ أتيِسِ إلهِ الخِصْب- وَأُنْبِغَتِ سَريعًا بِاللُودي سِيرِيالِزِ التي اِفْتَتَحَتْ باحتِفالٍ لِتَكريمِ سِيرِيس، إلهةِ الزِراعة. وسَجَّلَ أترِيتِسُ صَرَخَ قَتيلِهِ المِئَةِ في اللُودي فُلُورالِز، فيما مئاتُ المُعجِبين يهتفون بِاسمِهِ ويُلقون عليه أَكاليلَ الرُّهُور. في اللُودُس، سكب باتو خمرًا في كأسِ فَضِيَّة. وكان أترِيتِسُ دائِمًا يشعُرُ بالاكْتِئابِ الشَّدِيدِ بعدَ إِثارةِ ساحةِ المحارِبين المُضنِيَةِ جَدًّا، وإذا بالنَّارِ في دمهِ تغدو باردةً كالجَلِيد. ففي سكونِ اللُودُس، يتنقَّى ذِهْنُهُ من التَعطُّشِ إلى الدَّم، وَيَصيرُ مَغْتَمًّا ومَرَّ النَّفسِ. وعلى خِلافِ سِيلِيزُوسِ الذي كان يَمْرَحُ صاخِبًا في شُهْرَتِهِ ومركزِهِ، ساوَرُ أترِيتِسِ الشُّعُورُ بِالغُربةِ والقَلْبِ. فَإِنَّ بعضًا من الرجالِ لا يتكَيِّفون للعبوديَّةِ أَبَدًا، مَهْمَا كان القَفْصُ ذَهَبِيًّا. وقد كان أترِيتِسُ من أمثالِ هؤلاء.

ناول باتو أترِيتِسَ الكَأْسَ قائلاً: ”إِنَّ سَرِتِسَ في روما كي يُشاهدَكَ تُقاتِلَ“.

تَمَدَّدَ أترِيتِسُ إلى الوراءِ على الأريكة، في وَضْعَةٍ استرخاءٍ ظاهريَّةٍ لم تُخْفِ توتُّرَهُ. حتَّى إِنَّ العُرْفَةَ جاشتْ به على نحوٍ ملحوظ. وسألَ بِجفافٍ: ”وَمَنْ سَرِتِسُ هذا حتَّى أتأثَّرُ؟“ فيما هو يُشربُ خمرتهِ وعيناه الرُّزقاوان تقدحان شَرًّا، وقد شَجِبَتْ أَصابِعُهُ.

”أفسسيّ بالُغ الثَّراء والنُّفوذ يُتاجر بالمحاربين. لقد جاء خصوصًا لكي يراك، وفي وقتٍ قد بلغ فيه صبرُ الإمبراطور حدوده. فإن بقيت على قيد الحياة بعد الألعاب هذا الأسبوع، فربّما يبيعك الإمبراطور، فسرتس يريد شراءك، وهكذا يراك الإمبراطور تُرحل بالسفينة بعيدًا كي تُسَلِّي الأتراك.“

فسأل أترتس ساخرًا: ”أَيكون العبدُ في أفسس أحسنَ حالًا منه في روما؟“

وسكب باتو لنفسه كأسَ خمر. لقد كان مُعجَبًا بأترتس. فمع أنه كان أنيقًا ورشيقًا، وله دماثة محاربٍ رومانيٍّ محترف، فما زال قلبُ هَمَجِيّ يخفقُ بقوةٍ في داخله.

قال باتو: ”الأمْرُ يتوقَّفُ على مُبتغاك: الشُّهرة أو الحرِّيَّة“. ولاحظَ أنه جذبَ كاملَ انتباهِ أترتس. ”السنةُ الماضية، في أثناء الألعاب العامة، أقامَ سرتس مُبارياتٍ تصفية. وقد ابتدأت المُباريات باثني عشرَ ثنائيًا، ثُمَّ أُنزلَ آخرُ ثلاثة رجالٍ أحدهم ضدَّ الآخر“. ورشف خمرته، فيما عينا أترتس شاخصتانِ إليه. ”لقد نالَ النَّاجي حرِّيَّته“.

اعتدلَ أترتس في جِلستِه على مهل.

”سيتوقَّفُ الأمرُ كلُّه على ما تفعله في أثناء الألعاب التالية. إنَّ فسبازيان قد أوكلها إلى دوميتيان“.

أدركَ أترتس الخطرَ الذي انطوت عليه هذه المعلومة. ”كم شخصًا سيكون عليّ أن أقاتل؟“
”واحدًا... أسيرًا“.

فتجهمَ أترتس مدهوشًا. ”أسيرًا؟ لماذا قتلةٌ سهلة كهذه؟ حتّى لا أقدمَ عرضًا جيّدًا كفايةً بحيث أكسبُ اهتمامَ سرتس؟“

هزَّ باتو رأسه نفيًا. وقال باغتمام: ”إنَّكَ تبخسُ خصمكَ تقديره“، عالمًا من التفاصيل أكثرَ ممَّا يستطيع إطلاعَ أترتس عليه. فإنَّ دوميتيان كان داهية. وكان عنيقًا أيضًا.

”لماذا ينوي دوميتيان إنزالي مُقابلَ أسير، مع علمه بأنَّ الأفضليَّة ستكون لي؟“

على الرُّغم من المدَّة الطويلة التي قضاها أترتس في روما، كان ما يزال يجهلُ حُبَّت الذَّهن الرومانيّ. ”ليس دائمًا التدريبُ، أو قوَّة جسم الرجل، ولا حتّى السِّلاحُ الذي في يده، هو ما يؤتِي المرءَ الأفضليَّة، بل إنَّه كيف يُفكِّر. إنَّ لكلَّ رجلٍ مكمُنٌ ضعفه الخاصُّ به، يا أترتس“.

”وما مكمُنُ الضعفِ لَدَيّ؟“

نظر إليه باتو من فوق حاقّة كأسه، إلاّ أنّه لم يُجِب. فلم يكن ذلك في وسعه، دون تعريض حياته للخطر. ومن شأن دوميتيان أن يعرف ذلك، إذ كان قد أعدّ أترپتس مُسبّقًا.

عبس أترپتس بشدّة، مُفكّرًا على نحوٍ تكتيكيّ، مُستأثلاً عن مكمّن ضعفه.

أخيرًا خاطر باتو، مُستجمِعًا كلّ جسارته، فقال: ”أتذكّر ذلك الأرسطراطيّ الرومانيّ الذي كدت تنزّع أحشائه في الأسابيع الأولى لوجودك هنا؟ إنّه لم ينس الإهانة التي تلقّاها من يدك، ولا فقدَ عطفَ دوميتيان. وهما يعتقدان، في ما بينهما، أنّهما قد وجدا طريقةً مُسليّةً لتدميرك“.

”مُسلية؟“

لئن كانت الصداقة غير مُمكنة بينهما، فقد كوّنّا احترامًا مُتبادلًا. وقد علمَ أترپتس أنّ باتو كشفَ له كلّ ما في وسعه عن الألعابِ المُقبلة، وحاول أن يدرك ما لم يُعبّر عنه.

وقال باتو: ”لا تتسّ أن إنجازَ دوميتيان الأعظم كان حملةً ناجحةً على الحدود الجرمانية“.

فأطلق أترپتس ضحكةً سُخرية. ”مهما شاء أن يفتكر، فنحن لم نُهزم. ولسوف تبقى الثّورة ما دام رجلُ جرمانيّ واحدٌ يستطيع أن يتنفّس“.

وقال باتو بصراحة: ”لا يستطيع رجلُ جرمانيّ واحدٌ أن يفعل أيّ شيء. وأيُّ اتّحادٍ قام بين قبائلكم كان قصير الأجل“.

”نحن إخوانٌ ضدّ عدوٍّ مُشترك واحد، وسننهض من جديدٍ عمّا قريب. لقد تنبّأت أمي بأن ربحًا من الشّمال ستجلبُ على روما الدّمار“.

فقال باتو: ”ربحٌ ربّما لا تهبُّ أبدًا في أثناء حياتك“. ثمّ حطّ الكأس ووضَعَ كلتا يديه مَبسوطتين على الطاولة بينهما، وأضاف: ”إقضِ الأيام القليلة التالية مُصلبًا إلى أيّ إله تؤمن به. اطلب الحكمة حتّى تفوز. إنّ دوميتيان قد قرأك جيّدًا، يا أترپتس. وقد تأتي الحرّية أعلى ثمنًا من أن تكونَ راعيًا في دفعه“. ثمّ صرفه.

استرخى دَسِمُس على الأريكة، وأمسك يد فيبي. وأضغى إلى هدسة وهي تُداعب أوتار القيثارة الصغيرة، وتُغني عن فُطعان فوق ألفِ تلّ، وعن راعٍ يرعى قطيعه، وعن البحر والسّماء وصوتٍ في الرّيح. فتركه التّوتر كلّه، ووجد نفسه ينساق هائمًا. لقد كان تعبًا، تعبًا من مُجاهدات الحياة، تعبًا من الألم، تعبًا من مرضه. بعدَ أشهرٍ قليلة سيعود هو وفيبي نهائيًا إلى أفسس، حيثُ مُتلكأته تكفيهما كليهما تمامًا طوال حياتهما. أمّا جميع الأُصول التي له في

روما فسوف يُسَلِّمها إلى مَرْقُس. وقد كان قَلِيقًا على جوليا، إلا أَنَّهُ لم يَكُنْ يستطيعُ أن يفعلَ شيئًا بشأن ذلك. فَالَهَا زَوْجٌ يهْتَمُّ بها، وحياتها الخاصَّة تعيشُها. وهي لم تُعَدِّ في مُتناوَلِ يده. أَحسَّت فيبي اعتِكَارَ مزاجه، وأرادتُ أن تُريحَه من اكتتابه. قد بدا أنَّ الموسيقي العذبة لم تُؤدِّ إلا إلى جَعَلِ استِغراقِ في التفكيرِ الحالمِ أشدَّ وطأةَ هذه الأُمسيَّة. فقالت: ”أحكي لنا قِصَّة، يا هَدَسَّة“.

ألقت هَدَسَّة القيثارة الصغيرة في حضنِها. ”قِصَّةٌ من أيِّ نوعٍ تودِّين أن تسمعي، سيِّدتي؟“ لقد شُغِفَت جوليا بِقِصَصِ المَعاركِ والحُبِّ: داوُد وأبْطالُه، شمشون ودليله، أستير والمَلِكِ أَحشوروش.

قالت فيبي: ”أحكي لنا قِصَّةً عن إلهك“.

حَتَّتْ هَدَسَّة رَأْسَها. كان في وُسْعِها أن تحكيَ لهما عن الخلق. وكان في وُسْعِها أن تحكيَ لهما عن موسى وكيف استخدمه اللهُ لإعطاءِ شعبه الشريعةَ وإخراجهم من مصر إلى أرضِ الآباء. وكان في وُسْعِها أن تحكيَ لهما عن يسوع وكالب ودمار أريحا. ثم رفعت عينيها ونظرت إلى دَسِمُس. فغمزتها دفعةً من الحنان إذ لاحظتِ الخُطوط العميقة في وجهه، وقَسَماتِهِ المُضطربة، وروحَه المحزونة الفؤاد.

وافتها الكَلِماتُ بوضوح كما لو كان أبوها قد نطقَ بها، مثلما فعلَ مرارًا عديدة في دكانه الصغير بمنطقة الجليل، فيما الطينُ على دواب الفخاريِّ لَدَيْه، مُكْرَّرًا مَثَلًا من الأمثال التي حكاها الربُّ يسوع. فصلَّت بصمت: ربِّ، تكلمْ بي حتَّى يسمعا صوتك.

وابتدأت: ”كَانَ لِزُجَلِ ابنان. فقال أصغرُهما لأبيه: «يا أباي، أعطني حصَّتي من الأملاك». فقسَّم الأبُ ثروته بينهما. وبعدَ أيَّامٍ غير كثيرة، جمع الابنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ معًا، وذهب في رحلةٍ إلى بَلَدٍ بعيد. وهناك بدَّدَ ماله بعيشةٍ خلاعة“.

تحركت فيبي بانزعاج، مُفكِّرةً في مَرْقُس. ونظرت إلى دَسِمُس، غير أَنَّهُ كان يُصغي بانتيباه. ”ولمَّا أنفق كلُّ شيءٍ، حدثت في ذلك البلد مجاعةٌ قاسية، فأخذَ يحتاج. ثُمَّ التَّصَقَّ بواحدٍ من أهل ذلك البلد، فأرسله إلى الحقولِ ليطعمَ الخنازير. واشتهى أن يملأ بطنه من الخُرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، لأنَّ أحدًا لم يُعْطِه شيئًا. ثُمَّ رجع إلى صوابه وقال: «كم من أجيرٍ عند أبي يفضِّلُ عنه الخبز، وأنا أموتُ هنا من الجوع! سأقوم وأذهب إلى أبي، وأقول له: يا أباي، لقد أخطأتُ إلى السماء وأمامك؛ ولستُ مُستحقًّا بعدُ أن أدعى ابنك، اجعلني كواحدٍ من أجرائك!» ثُمَّ قام وذهب إلى أبيه“.

وتمهلَّت وطوّت يديها، ثمّ تابعت. ”وبينما الابنُ ما زال بعيداً جدّاً، رآه أبوه، فتحنّن عليه. وركضَ إليه، وعانقه، وقبّله. فقال الابن: «يا أبي، لقد أخطأتُ إلى السّماء وأمامك؛ ولستُ مستحقّاً بعدُ أن أدعى ابنك!».“

علّمت هَدَسَة أنّ النّظر إلى وجه سيّدها مُخالفٌ لكلّ قاعدة بديهية من القواعد التي يجب أن يتقيّد بها العبيد، ولكنّها لم تستطع أن تتمالكَ نفسها. فرفعت عينيها ونظرت مباشرةً في عيني دَسِمُس فتداسيوس فاليريان. فرأت ألمه وشعرت به كما لو كان ألمها. ومضت تقول: ”غير أنّ الأب قال لعبيده: «هيا، أخرجوا الرّداء الأفضل وألبسوه إيّاه، وضعوا خاتماً في يده، وحذاءً في رجليه. وهاتوا العجل المُسمّن، واذبحوه. ولناكُل ونفرح! فإنّ ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد»...“

وغمرَ العُرفة السّكون، فأطرقت هَدَسَة رأسها من جديد.

ونظرت فيبي إلى دَسِمُس فارتاعت من سيماء وجهه. فقد كانت عيناه مُغرورتين. وفي جميع سنوات زواجهما، لم تكن قطّ قد رآته يبكي. فقالت: ”لك أن تنصرفي، هَدَسَة، مُتمنيةً لو أنّها لم تطلبَ منها أن تحكي قصّة. ذلك أنّ هذه القصّة قد طعنت قلبها، وغمرتُها بإشفاقٍ مُروّع يتعذّر تعليله. فنهضت الفتاة بلباقة.

غير أنّ دَسِمُس قال على مهل: ”لا، بل ابقِي!“ وأوما لها بأن تجلس من جديد. ثمّ قال: ”الأب هو إلهك“.

”نعم، سيّدي“.

”إنّ بلدك مُدمر، وشعبك مُستعبد“.

شعرت هَدَسَة بحرارةٍ مُتزايدة حيال سيّدها؛ لقد كان مثل ابنه إلى حدّ بعيد. وتذكّرت مرّقس مُتكلماً بالكلمات عينها في الحديقة قبل عدّة شهور. فيا ليتها كانت أحكم. ويا ليتها تعرفُ الأسفار المقدّسة كما كان أبوها يعرفها. ”البليّة بركة حين تُرجع المرء إلى الله“.

إذ ذاك دخل العُرفة أخنوخُ حاملاً صينيةً نبيذ وفاكهة. فحطها أمام دَسِمُس وفيبي فاليريان، وباشر صبّ النّبيذ.

قالت فيبي: ”ولكنّ ماذا جرى للابن الأكبر الذي بقي عند أبيه؟“

فنظرت إلى أخنوخ باستحاء، وقالت: ”كان في الحقل، ولما جاء واقترّب من البيت، سمعَ موسيقى ورقصاً. فاستدعى واحداً من الخدّام وسأله عمّا جرى. فقال الخادم: «لقد

رجع أخوك إلى البيت، فذبح أبوك العجل المُسمَّن، لأنَّه استردَّه سالمًا مُعافًى». فغضب الابن الأكبر جدًّا، ولم يُرد أن يدخل. وهكذا خرج أبوه وبدأ يتوسَّل إليه. غير أنَّه أجاب قائلاً لأبيه: «ها أنا أخدمك هذه السنينَ الكثيرةَ كلَّها، ولم أخالف قطُّ أمرًا من أوامرك، غير أنَّك لم تُعطيني ولو جدًّا حتَّى أفرح مع أصدقائي. ولكنَّ لما رجع ابنك هذا الذي التَّهم ثروتك مع البغايا، ذبحت له العجلَ المُسمَّن». فقال له: «يا بُنَيَّ، أنت ما زلتَ معي دائماً، وكلُّ ما لي هو لك. إنَّما كان ينبغي أن نفرح ونُسرِّ، لأنَّ أخاك هذا كان ميِّتًا فعاش، وكان ضالًّا فوجد!».

ناولَ أخنوخُ فيبي كاسًا، ثمَّ صبَّ أخرى. ورفع دَسِمُسَ نظره إلى وجهه الجافي إذ أخذها منه، قائلاً: «أيُّ الابنينَ أنتَ، يا أخنوخ؟» فأجاب أخنوخ بضيقٍ صدر: «ليست هذه القصةُ مألوفةٌ عندي، أحضِرْ لك شيئاً آخر، سيِّدي؟»

صرفه دَسِمُسُ، وابتسمَ ابتسامةً واهيةً إذ راقبه يُعادِرُ الغرفةَ. «تخميني أنَّ الابنَ الأكبرَ هو يهوديٌّ صِدِّيقٌ يطُبع الشريعةَ.» وقالت فيبي: «عندئذٍ يكون الأصغر هو اليهوديُّ الذي ارتدَّ عن دينه.» ثمَّ نظرت إلى هَدَسَةَ طلبًا للتَّأكيد.

«لقد خُلِقَ البَشَرُ كلُّهم على صورةِ الله، سيِّدتي؛ لا اليهودُ وحدهم.» ونظرت هَدَسَةَ إلى دَسِمُس. «نحنُ جميعًا ذُرِّيَّةُ الله. وهو يحبُّنا على السواء، أيهودًا كُنَّا أم أمميِّين، عبيدًا أم أحرارًا. فليس في وُسعنا أن نكسِبَ محبَّته كسبًا، بل يمكننا فقط أن نقبلها هديَّةً - هديَّةً هو مُستعدُّ أن يمنحها لكلِّ واحدٍ مِنَّا.»

أذهلت دَسِمُسَ كلماتها، وأذهله بعدُ أيضًا أنَّها نظقت بها بصوت عالٍ. لقد انزلق القناع، ومثَّلَ أمامه وجهه ديانتها الحقيقيُّ. وساءل نفسه هل تُدرك هَدَسَةَ مضامينَ ما عرضته، أو خطرَ إيديولوجيتها على بنية الإمبراطورية الرومانيَّة بعينها. ثمَّ قال: «لكِ أن تنصري في!» وراقبتها تنهضُ بلباقةٍ وتُعادِرُ الغرفةَ.

كان اليهودُ تمقوتين من أجل تزمتهن الأخلاقيَّ وانعزالهن، وتمسُّكنهم المُتشدِّد بشرائعهم، وإيمانهم الصُّلبَ باللهِ واحد. حتَّى إنَّ أخنوخ، وهو عبد، كانت تكتنِفُه عَجْرَفَةٌ مُعَيَّنة، إذ كان يعتقدُ أنَّه عُضْوٌ في جنسٍ مُختار. أمَّا ما قالته هَدَسَةَ عن إلهاها فقد تحطَّى حتَّى ذلك؛ إذ إنَّ كلماتها نقضت أسوار التَّسبب والثَّراث. في وُسع كلِّ إنسانٍ أن يكونَ واحدًا من أولاد الله،

والجميع سَواسيةً في نظره. فما من يهوديٍّ تقِيٍّ يوافقُ على هذا الادِّعاء، وما من إمبراطورٍ رومانيٍّ يُجيزُهُ، لأنَّه ينقضُ كبرياءَ الأوَّلِ وسلطةَ الثاني.

ولكنَّ أزعجَ دَسِيسُ شيءٌ آخرٌ بعد. فإنَّه كان قد سمعَ كلماتٍ مثلَ كلماتِها قبلاً، مُناديٌ بها بصوتِ جَهْورِيٍّ لجمهورٍ اجتمعوا بقربِ المسئلةِ المصريَّة. والرَّجُلُ الذي تكلمَ بها صُلبَ مقلوبًا، رأسه إلى أسفل. وهو رجُلٌ اسمه بَطرس.

فقال بَرزانه: ”يبدو أنَّ صغيرتنا هَدَسَةٌ ليستَ يهوديةً رُغمَ كلِّ شيء، يا فيبي، بل مسيحيةً“.

تعاظَمَ يَأُسُ أترتيسَ مع صَغيثته إذ وقفَ على الرَّمَلِ ورأى أيَّ انتقامٍ قد خَطَطَ له دوميتيان. فقد كان في مواجهته شابٌ قويُّ البنية ذو حَليَّةٍ وشعرٍ طويلٍ مُتموِّج. وقد كان مُرتديًا جِلْدَ دُبِّ وحاملاً فراميا. لقد قال له باتو إنَّه أسير، مُقدِّمًا إليه من التَّحذير ما أمكنه. فإذا هو أسيرٌ جرمانِيٌّ، وواحدٌ من أفرادِ قبيلته بعينها كما دلَّتْ وُشومُه، رُغمَ أنَّه لم يَعْرِفه على وجه التَّحديد.

صاح الرَّعاع ”أترتيس! أترتيس!“ وما لبث نشيدُهم الرَّتِيب أن تلاشى شيئًا فشيئًا لما لم يتحرَّك أترتيسُ مُهاجمًا. وصاح آخرون من الرَّعاع بِشَتائمٍ مُهينة. وما أسرعَ ما تغيَّرتِ الموجة! إذ بدأت موجةٌ أخرى تحجري بين الحشود الذين كانوا يحبُّونه قبل لحظاتٍ فقط. ”اجلدوهما! أحرِّقوهما!“ ورأى أترتيسَ واحدًا من المُدرِّين يخرجُ حاملًا حديدَةً مُحَمَّاة، فعلم أنَّه سينخسُ الأسيرَ الشابَّ كي يُقاتل. ومن جهته هو، ظهرَ باتو قُربَ الجدار، مُتجهِّمَ الوجه. وقد كان ناظرًا بِشَباتٍ نحو مَقصورةِ دوميتيان. فأدار أترتيسَ رأسه، ورفعَ نظره. وإذا دوميتيان وصديقه يضحكان!

وما إن أطلقَ المحاربُ الجرمانِيُّ صرخةَ ألم، حتَّى صبَّ أترتيسَ جامَ غضبه على المُدرِّبِ الرومانيِّ. وأمكَنَ سَماعُ شهقةِ الجمهورِ لما صرَعَ الرَّجُلُ بضربةٍ عنيفةٍ من غلاديوسه. وإذا سادَ الذُّهول، حَيِّمَ الشكون على ساحةِ المحاربين.

واجهَ أترتيسَ المحارب، ووقفَ وقفةً دِفاع. ثمَّ أمرَه بالجرِّمانيَّة: ”أقتلني إذا كنتَ تستطيع!“

فقال الرَّجُلُ مدهوشًا: ”أنتَ سَطِطِي!“

”قاتل!“

غيرَ أنَّ المحاربَ دَلَّى فرامياه. ”لن أقاتلَ أخًا. ليسَ لإبهاجِ جمهورٍ من رَعاعِ الرُّومان!“

ثمَّ نظرَ حَوالِيه إلى حشودِ الناسِ وبقَّ على الرَّمَلِ.

رأى أترتيس نفسه قبل خمس سنين. وشجبت أصابعه وهو ممسك بغلاديوسه. كان عليه أن يجعله يُقاتل، وإلا ماتا كلاهما ميتةً وضيفة. ومن ثمَّ أهان أترتيس ساخرًا الشابَّ الأصغر سنًا، مثلما كان هو قد أهنَّ بسخرية، مُرغًا وجهه بالهزيمة التي أتت به أسيرًا إلى ساحة المحاربين الرومانيَّة. لقد كان يعلمُ مَكَمَنَ النار في قلب الجرمانِي، فنفعَ على النار حتَّى ارتفعَ رأسُ الفرمايا من جديد وقدحت عينا الشابِّ شررًا.

ثمَّ قال المُحاربُ: "أنت رومانيُّ الهيئة، ورومانيُّ الرائحة... أنت رومانيُّ!" جارحًا أترتيس جراحًا أعمقَ ممَّا يمكن أن يعرفَ يومًا.

لقد حاربَ الأسيرُ جيّدًا، إنَّما ليس جيّدًا على نحوِ كافٍ. وحاولَ أترتيس أن يجعلَ القتالَ يطول، إلاَّ أنَّ الرِّعاع لم يَنخدعوا وشرعوا يصيحون بغضب. فانتَهزَ أترتيس الفرصةَ التالية، ولمَّا سحبَ شفرته من جسم المُحارب، خرَّ هذا على ركبتيه، ماسكًا أوسطَ جِدَعِه. وتدفَّقَ الدَّمُ من بين أصابعه إذ رفع رأسه بمشقة.

فقال بخشونة: "ما تصوَّرتُ قطُّ أنني سأموت على يد أخ لي!" وما زال الازدراء واضحًا كلَّ الوضوح.

وقال أترتيس: "أن تموتَ على يدي خيرٌ من أن تُطرحَ للوحوش الضارية أو تُسمَّرَ على صليب روماني". ثمَّ انحنى والتقطَ الفرمايا، مُشدِّدًا عزمته لأجل ما وجبَ أن يفعله. وناولَ المُحاربَ الفرمايا. "ليروا كيف يقدرُ الجرمانِي أن يموت!" ولمَّا اكتفى الرجلُ بالنظر إليه، صاح به: "قم عن رُكبتك!"

استخدم الرجلُ سلاحه للنهوض. وما إن باتَ واقفًا على رجليه، حتَّى أقحمَ أترتيس الغلاديوسَ في عظم صدره وطعن قلبه. ثمَّ أمسك به مُستقيمًا وكلمه في وجهه، قائلاً: "إنِّي أرسلُك إلى الدِّيار، إلى طيواز". وأفلت سيفه، تاركًا الرجلَ يسقطُ إلى الورا مُستقيمًا وذراعاه ممدودتان، فيما الرِّعاع يصرخون استحسانًا.

لم يسترجع أترتيس الغلاديوسَ الرومانيَّ، مُتَنفِّسًا بصعوبة. غير أنَّه انحنى والتقطَ الفرمايا. وفيما عيناه غائمتان بالدموع، استدارَ وحملَقَ إلى دوميتيان. فهو- حتَّى إبَّان انتصاره- علمَ أنه قد هُزم. وإذ دفعَ الفرمايا عاليًا، استنزلَ اللَّعناتِ عليهم جميعًا بالجرمانيَّة.

استدعى باتو أترتيسَ قبلَ إعادته إلى مأواه لِيبيتَ ليلاً. وقال له: "لقد اشتراكَ سرتس من فسبازيان. وستُجر إلى أفسس في غضون يومين".

فارتعشت عَصَلَة في خدِّ أترتيس، ولكنَّه لم يقل شيئًا.

وقال باتو: ”هذه الفرصة اشتريت بضمن غالٍ. فلا تُضيّعها“.
أدار أتريتس رأسه قليلاً، ونظر إلى باتو. ولم يكن باتو قد رأى قط في ما مضى عيني
باردتين هكذا.

قال باتو: ”ليستمرّ الآلهةُ مُبتسمينَ لك ويُعطوك الحرّية التي تستحقّها بعدل!“ ثمّ هزّ
رأسه في أمرٍ صامتٍ للحارسين بأن يأخذوا أتريتس إلى مبيته.
وفي ظلامٍ حُجرتِه، أخفى وجهه بيديه وبكى.

٢٥

قعدت هُدسة على الأرض مع إخوتها المؤمنين، واستمعت إلى أسينكريثس وهو يتكلم بشأن المشقات التي يواجهونها كلهم.

”إن الكفاح الذي نخوضه يُعنى بأن نعيش حياة تقوى في عالم جسداني. فيجب أن نتذكر أن الله لم يدعنا إلى جعل المجتمع مكاناً أفضل للعيش. إنه لم يدعنا لكي نكسب نفوذاً سياسياً، ولا لكي نحافظ على غمط الحياة الروماني. لقد دعانا الله إلى رسالةٍ عليا تتمثل في تبليغ البشر أجمعين البشارة بأن فادينا قد جاء...”

أغمضت هُدسة عينيها، وهي مُطرقة رأسها، وصلت طالبة أن يُسامحها الرب. لقد شعرت بالخجل. فهي لم تبلغ أحداً البشارة. ولما أقبلت الفُرص، أعرضت عنها بدافع الخوف. فسئدها وسيدها طلبا منها أن تحدثهما بشؤون الله، فألبست الحق رداءً مثل. وكان ينبغي لها أن تبشّرهما بيسوع، بموته على صليب، بقيامته، بوعوده لجميع الذين يؤمنون به.

تابع أسينكريثس كلامه، مُتذكراً ما علمه إياه بولس وبطرس قبل استشهادهما. وقرأ ثانية من المذكرات الرسولية، فعالت هُدسة الدموع.

كيف يُعقل أن تحجب الحق عن أولئك الذين أحببتهم كثيراً؟ لقد صلت لأجل كل منكم بلا انقطاع. ولكن، هل كانت الصلاة هي كل ما هو مطلوب منها أن تُقدمه؟ فكيف يُمكنهم أصلاً أن يرجعوا إلى الله إن هي سلّتهم بالقصص فقط ولم تُقدم إليهم حقائق؟ وكيف يمكنهم فعلاً أن يفهموا المعنى الأعمق من وراء القصص إن كانوا لا يعرفون الله؟ ثم ضغطت بقبضتها على صدرها مراراً وتكراراً، طالبة أن تستريح من الألم الذي شعرت به. لقد وضعها الله في بيتهم لأجل غاية، وهي كانت مُحففة في تحقيقها.

لماذا كان آل فاليريان مهوسين تماماً بالأمر العديمة الأهمية؟ فلم يمض أسبوعٌ واحد دون أن تسمع مرقس ودسيمس يتجادلان في السياسة والتجارة. وكان دسيمس يُصرّ قائلاً: ”إن الموازنة الوطنية يجب أن تكون متوازنة، والدّين العام يجب أن يُخفّض!“ فيحاج مرقس بأن السلطات تتولى مقداراً مُفرطاً من السيطرة، ويجب أن توضع لها حدود. وقد ألقى دسيمس الملامة بشأن مشكلات روما على عدم التوازن في التجارة الخارجية، قائلاً إن الشعب الروماني قد نسي كيف يشتغل ويات مكتفياً بأن يعيش على الإعانات العامة.

Logi

فإذا بمرقس يسارع إلى التعليل، قائلاً: ”ما تزال تستورد البضائع طيلة السنين الثلاثين المنصرمة، وتصطنع الثروة من هذا المشروع. أما الآن، وقد بتت متمتعاً بحماية جنسياتك الرومانية، فأنت تريد أن تحرم الآخرين الفُرصَ عينها“. ثم يضحك. ”ليس أنني لا أوافقك جزئياً. فكلما قلت المنافسة، ارتفعت الأسعار أكثر!“

إنما على قضية واحدة اتفق الاثنان: أن الأمة متوجهة نحو الإفلاس.

وفي أعقاب مجادلات كثيرة من هذا النوع، كانت فيبي تستدعي هُدسة كي تعزف بالقيثارة وتهدئ أعصابها المضطربة. وكان قلب هُدسة مُفعمًا بالأسى. فماذا بهم إذا سقطت روما؟ وماذا تهم أمة إذا قيسَت بأبدية نفس إنسان واحدة؟ إنما كيف يُمكنها، وهي فتاة عبدة بسيطة، أن تفتح أعين هؤلاء الرومانيين، الذين باتت تحبهم، على ما هو مُهمٌ حقاً؟ التمسّت الأجوبة في اجتماعها مع المسيحيين الآخرين. فمرةً كانت تجرد الأجوبة هناك، وتارةً كانت لا تجدها.

ثم ضغطت قلبها الموجه بقبضة يدها، وصلت بحرارة: ”أه، يا الله، ساعدني. أعطني الشجاعة. أعطني كلمتك. أضرمها داخل عقلي، انقشها داخل قلبي، دُلني على الطريق للوصول إليهم!“

كيف يُمكنها أن تبدأ تشرح لآل فاليريان عن المُخلص، فيما لا يشعر أحد منهم بحاجة إلى مُخلص؟ كيف يمكنها أن تشرح لهم أنهم يحصون الله الذي خلقهم، وهم يؤمنون بأصنام حجرية سخيفة، لا بالخالق الكلّي القُدرة؟ كيف يمكنها أن تبدأ في إخبارهم بِن هو الله، أو تُبرهن لهم أن الله موجود، إلا بإيمانها الشخصي، إيمان عبدة ضئيل؟ وما الإيمان سوى الإيقان بالأمر التي تُرجى، والافتناع الواثق بالأمر التي لا تُرى؟

يا يسوع، يا يسوع، إنني أُحِبُّكَ. رجاءً، ساعدهم!

إنها لم تعلم حتى الكلمات الصحيحة كي تطلب ما تحتاج إليه. فلائي سببٍ آخر قد وضعها الله في بيت آل فاليريان إن لم يكن كي تزف إليهم البشارة بالسيّد المسيح؟ لقد أحست الجوع الذي فيهم وعلمت أن لديها الخبز الذي يُشبعهم إلى الأبد. لا حاجة بهم أبداً لأن يجوعوا بعد... ولكن كيف تحملهم على الأكل منه؟

إن الصفاء الذي وجدته في الاجتماع مع المؤمنين الآخرين رافقها طول الطريق في شوارع روما. كان في وسعها أن تسكب محبتها لله وتُفهم بين الآخرين. وكان في وسعها أن تبهج بالترنيم والصلاة المُشتركة. وكان في وسعها أن تشترك في مائدة الرب وتشعر بالقرب

إلى الله. فليت في وسعها أن تبقى على ذلك الشعور بالتجدد طوال الليل والنهار التالي.

مشّت بهدوءٍ إلى حدائق الدّارة من الباب الجانبيّ، ودلّت المِزلاج مُجدِّداً. وسارعتِ الخطو على الممشى حتّى دخلت خلفيّة البيت. ثمّ أغلقت الباب على مهل. وما لبثت أن شهقت إذ أمسكت يد قويّة بذراعها، وبرمتها.

قال مرّقس: "أين كنت؟" واشتدت أصابعه مطالباً بجواب، غير أنّها كانت أكثر خوفاً من أن تتكلّم. فقال: "سنتكلّم!" ثمّ دفعها عبر الرّواق إلى داخل غرفة مضاءة بمصباح. وإذا أفلتها، أغلق الباب واستدار نحوها.

ثمّ قال، وعينه تلتالآن غضباً: "إنّ اليهود لا يجتمعون ليلاً، ولا سراً". فانكشّت حيال حِدّة مشاعره.

"سأسألك ثانية! أين كنت؟"

أجابت بصوتٍ مرتعش: "أعبدُ الله مع مؤمنين آخرين".

"بقولك مؤمنين تعنين مسيحيين آخرين، أليس كذلك؟" فشحب وجهها شعوب الموتى لدى اتّهامه. وسألها بخشونة: "ألن تُنكري ذلك؟" فأطرقت رأسها، وقالت برقة: "لا، سيّدي".

وتترّذقتها إلى أعلى. "ألا تعلّمين ما يُمكنني أن أفعل بك لكونك عضواً في ديانة تُنادي بالفوضوية؟ في وسعي أن أسلمك للموت". ورأى الخوف ينبعث في عينيها. ينبغي لها أن تخاف. ينبغي لها أن ترتاع. ثمّ أرخى يده عنها.

"نحن لا تُنادي بالفوضى، سيّدي".

"لا؟ ماذا تُسمّين مُطالبة ديانتيكم بأن تُطيعوا إلهكم فوق إمبراطور؟" واستشاط غضباً. "وحياة الآلهة، مسيحيّة في بيت أبي!" وتساءل لماذا لم يحزُر أعجل من ذلك. ليس على أبيه إلا أن يُدلي بملاحظة مُرتجلة تُلمح إلى الإمكانية، فتتألف قطع الحجية كلها معاً. "ستُصغرن إليّ وتُطيعين. هنا ينتهي الأمر، هدسة. ما دمت معنا، فلن تُغادري الدّارة إلا إذا أمرت بذلك. لن تجتمعي مع هؤلاء المسيحيين مهما تكن الأحوال، ولن تُكلّمي أحداً منهم في الشارع إذا التقيته عرّصاً. هل تفهمين ما أقول؟" ثمّ ضاقت عيناه على وجهها المُمتنع المشحوب. فأطرقت رأسها. "انظري إليّ!"

رفعت رأسها من جديد، ونظرت إليه. وقد كانت عيناها تطفحان بالدموع. وإذا رأى كم

ألمها إيلاًماً عميقاً، ازدادَ غضباً. ”جاوبيني!“

فقالَت بكلِّ رِقَّةٍ: ”لقد فهمتُ“ .

وشعرَ بوخزٍ نَدَمٍ حيالَ فظاظته، وارتعشتَ عَضَلَةٌ في حَنكِه. ”لم تفهمي. إنَّك لا تفهمين شيئاً“. فهي لم تعرِفِ المغامرة التي قامت بها. ”إنَّ هؤلاء القومَ مُضطَرُّون إلى الاختباء في الظلام. إنَّهم مُضطَرُّون إلى كتمان مَراساتهم. حتَّى إنَّهم لا يستطيعون أن ينصبوا تِمثالاً لإلههم داخلَ هيكلٍ لكي يتعبّدوا مثلَ عامَّةِ الناس. لستُ أدري كيف وقعتِ في شباكِ هؤلاء القوم، غير أن ارتباطكِ بهم قد انتهى، وقد انتهى الآن!“

”أروما خائفةٌ جدًّا من الحقِّ بحيثُ يجبُ أن تقضِي عليه؟“

صنَعها مَرُقْس على وجهها صنعةً رنَّحتها وأخرجتَ من شفتيها شهقةً أَلَمٍ ذاهلة. فرفعتَ إلى خدِّها يداً مُرتجفة.

وقال مَرُقْس بصوتٍ أجشٍ: ”لقد نَسيتِ إلى مَنْ تتكلَّمين!“ لم يكن قطُّ قد ضربَ امرأةً من قبل، وحقيقةً كونه قد ضربَ هذه الفتاة جعلتَ قلبه ينعصرُ في داخله. ولكن كان من شأنه أن يضربها ثانية لو أنَّ ذلك سيجعلها تُصغي إليه وتعملَ بتحذيره وأمره.

أفاقت بسرعة، وحنَّت رأسها خضوعاً. ”إنِّي أعتذر، سيدي“ .

التهبَّت راحةً يده، إلا أنَّ ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة إلى تأججِ ضميره. فهي ما فعلتَ قطُّ شيئاً سوى خدمةٍ كلِّ فردٍ من الأسرة بتفانٍ تواقٍ ومحبةٍ شديدة. وفكَّر في سِماتِ الكِراج على ظهرها، عالماً أنَّها تلتفتها عن جوليا. وتذكَّر مُحاجَّتها معه في حديقة كلاوديوس، مُقنعةً إيَّاه بأن يُقيي العبيد، لأنَّها خشيتُ أن يُعاقبه إلهها.

إنَّ الإيمانَ بذلك الإله كان سببَ هذا.

إنَّ الإيمانَ بذلك الإله سيُفضي بها إلى مُكابدة القتل!

وقد وجبَ عليه أن يجعلها تفهم.

رفعَ مَرُقْس ذقنها، فرأى السِّمَّةَ القرنفليةَ التي خلَّفتها أصابعه على خدِّها الشاحب. لم تلتقَ عينها عينيه، ولكنَّه استطاعَ أن يرى أنَّهما كانتا خاليتين من كلِّ تعبيرٍ عن المشاعر على نحوٍ حَذِرٍ. فأحسَّ كما لو أنَّ أحداً قد لكَمه في معدته. وقال بصوتٍ مهموسٍ: ”هدِّسة، لستُ أريدُ أن أؤذيكَ. إنِّي أريدُ أن أحميك“. ثمَّ وضعَ يده على السِّمَّة، مُبتغيًا أن يُعطِّيها وأن يجعلها تزول.

وومضت عيناها لعينييه، فرأى فيهما حُزنًا وحنانًا لا حُدودَ لهما. ووضعت برِفقٍ يدها على يده، كما لو أنها قصدت أن تُعزّيه. فاحتضنَ وجهها بيديه، وشدها إليه، مالتًا رثتيه بشذاها.

”هدسة... أه، هدسة...“ ثم انحنى وقبّلها. وإذا سمعَ شهقتها الخافتة، تسارعت دقات قلبه، ففرغَ أصابعه في شعرها وقبّلها ثانية. كانت يداها تضغطان صدره مبسوطتي الراحتين، ولكنّه جذبها تمامًا إلى ما بين ذراعيه ومال بضمه على فيها. فتصلبت، ثمّ- في لحظة تهورٍ قصيرة- ذابت عليه، ولأنّ فمها تحت فمه، وقد تشبّثت يداها بدل أن تُقاوما. بعدئذٍ- وكأنّها أدركت فجأة ما كان جاريًا- صارعت في دُعرٍ وسُعر.

وأرخاها، فأفلتت منه بنترة واحدة، وقد اتسعت عيناها واسودّتا. ووافاها نفسُها في شهقاتٍ ناعمةٍ جعلت نبض قلبه يتسارع. ثمّ تباعدت عنه إلى الورا. وقال برقة: ”أنا أتوق إليك. ولطالما تقيت إليك من زمان“.

فهزت رأسها، وتباعدت عنه أكثر.

”لا تنظري إليّ هكذا، يا هدسة. إنني لا أهددك بالضرب. أنا أريد أن أحبك“.

”أنا عبدة“.

”لست في حاجة إلى تذكير. فأنا أعرف من أنت وما أنت“.

فأغمضت عينيها بإحكام. لا، لم يعرف. لم يعرف عنها شيئًا حق المعرفة. لا شيئًا ذا أهميّة. ”يجب أن أذهب، سيدي. رجاء!“

”إلى أين؟“

”إلى ماواي“.

”أريد أن أذهب معك“.

نظرت إليه من جديد، ويدها مُتشبّثة بصوفٍ تُنكها. ”الديّ خيار؟“

عرفَ مرّس ماذا ستقول إذا منحها خيارًا. فيعكس جميع الغرائز البشريّة الطبيعيّة، يطلبُ إليها البغيض الطهارة من أتباعه. ”ماذا لو قلت لا؟“

”عندئذٍ أتوسّل إليك ألا تغصبني“.

فشاع الدّم في وجهه حقًا. ”أغصبك؟“ لقد جرّحته الكلمة وأثارت غضبه المُستعز أصلاً. ”إنّ أُسرتي تملكك. وليس اغتصابًا أن أخذ ما أريد من شيءٍ يخصني. علامة على

الاحترام الذي أكنه لك مُجرّد أن...”

وتوقّف، سامعًا نفسه. أوّل مرّة في حياته، غمره خجلٌ لا يُوصف. فاذ حدّق إليها، لحِيظةً واحدةً رأى نفسه مثلما تراه هي بكلّ تأكيد، وأجفلَ عندها. لقد وصفها بأنّها شيءٌ. أجل، شيءٌ! فهل مثّل ذلك حقيقةً تفكيره فيها؟ كأنّها ملكٌ يُستعمل دون اعتبارٍ لمشاعرها؟ حدّق مرّسٌ إليها باكتئاب، ورأى كم كانت ضعيفةً ومُنكشِفةً. فقد كانت شاحبةً ومُتوتّرةً، ونَبْضٌ يخفقُ في حَنَجَرَتِها. وتاق أن يضمّها، أن يُعزّيها.

”لم أعنِ ذلك“. واقترَبَ إليها فرأى جِسْمَها مُتوتّرةً أكثرَ بعد، غير أنّها كانت مُضطّرةً إلى البقاء بداعي الواجب. فمرّرَ قفاً يده على خدّها الناعم نزولاً، مُلتَمِسًا طريقةً ما لإصلاح الحال. وما لبث أن قال: ”لن أعتصِبَكَ!“ ثمّ رفعَ ذقنها. ”أريد أن أحبّك. وأنت أيضاً تُريدني، يا هدسّة. لعلك أكثرُ براءةً من أن تُدرِكي ذلك، ولكنّي أعلم“. وأجرى إصبعه نزولاً على خدّها. ”يا هدسّة الصغيرة الحلوة، فلأرُك ما يمكن أن يكونه الحبّ. قولِي نعم“.

فارتعشت إذ تجاوبَ جِسْمُها مع لمسة يده، والبهجة الرقيقة في صوته، وإحساسِ رغبته المتعاطمة- ورغبتها أيضاً. حتّى إنّها لم تكذّ تقوى على أخذِ النَّفْسِ لِقرْبِهِ منها... ولكنّ ما تكلم بشأنه كان خاطئاً. فما طلبه منها ما كان ليَسرَّ الله.

وقال هامساً: ”قولِي نعم. كلمةً واحدةً صغيرةً تجعلني سعيداً جداً...“
فهزّت رأسها، غيرَ قادرةٍ على التكلّم.
وقال بإصرار: ”قولِي نعم“.

فأغمضت عينيها. يا إلهي، ساعدني! كانت هذه صرختها في أعماق قلبها. لقد أحببت مرّس منذ مدةً طويلة. فإذا المشاعرُ التي أيقظها فيها باتت الآن تنصهرُ في داخلها، مُحْرِقةً عقلها، جاعلةً إيّاها تنسى كلَّ شيءٍ إلّا ملمسَ يديه. وقبلها من جديد، مُنفرجةً شفّتها. فأشاحت وجهها. يسوع، ساعدني كي أقاوم هذه المشاعر! ولمستها يدُ مرّس برِق، فجعلتها صعبةً الإحساس تنكمش وتراجع.

فأغمض عينيها، وقد غمره إحساسٌ غريبٌ حيالَ تراجعها.

”لماذا يجب عليكِ أنتِ، من بين جميع النساء اللواتي رغبت فيهنّ، أن تعبدي إلهاً يطلب الطهارة؟“ ثمّ مدّ يديه من جديد واحتضنَ وجهها بهما. ”تخلّي عن إلهك هذا. فكلّ ما يفعله هو أن يحرمك المتع القليلة التي تهبها الحياة“.

فقال: ”لا“، بصوتٍ رقيق، لكنّه ملأَنَ بالحَزَمِ والعَزمِ.
 ”أنت تُريدُني. في وُسعِي أن أرى ذلك في عَينِكَ؟“
 فأغَمَضَتْهُمَا، وحبَّبتَ نظرَها عنه.

وأطلقَ ضِحكةَ خبيبةٍ خَشِنَةً. ”لِترَ هل تستطيعين أن تقولي لا مرَّةً واحدةً بعد“. ثمَّ
 جذبَها إلى ما بين ذراعِيهِ وقبَّلَ فَمَها مُجدِّداً، مُطلقاً كلَّ الشَّغَفِ الذي ظلَّ مكبوتاً في داخله
 طوالِ أسابيع. فكان مذاقُها مثلَ رَحيقِ الأَليهة، وارتشفَ منها حتَّى باتَ توقُّهُ تقريباً أثقلَ من
 أن يُحتمَلَ. ثمَّ أفلتَها أخيراً.

كانا كلاهما يَرتجفان. وقد امتلأتَ عيناها دموعاً، وباتَ وجهُها مَشحوباً ومَشدوداً.
 نظرَ إليها مرَّقس من علِّ، وأدركَ أنَّه فعلَ ما كان يرجوه. فهي قد أرادتِه. غير أنَّ
 الوجعَ الشديدَ داخلَ جِسمِهِ لم يُوازِ الوجعَ الأعظمَ في قلبه. لقد جعلَها تُريدُه لكي يفوزَ
 بها طوعاً ودون إكراه. ولكنَّه بالأحرى كان قد نصبَ بينهما سوراً أعلى بعد. فهل تثقُ به
 يوماً من جديد؟

لوى شفتيهِ استهزاءً، قائلاً: ”حَسَنٌ جدًّا! اذهبي ونامي على كومة القشِّ الصغيرة
 الباردة، ولِئدْفُكِ إلهُكِ غيرُ المنظور“. وأوماً بيده في إشارةٍ صَرف، ثمَّ أشاحَ وجْهَهُ. وإذ أَطبَقَ
 عَينِيهِ، أصغى إلى وَقعِ خطواتِها الخفيفةِ المُستعجلةِ وهي تُغادرُه.

أطلقَ نَفْساً فظاً وهو يسبُّ، دافعاً بالفعلِ ثمَنَ حماقَتِهِ على الصعيدِ الجِسمانيِّ. ثمَّ عبرَ
 الغُرفةَ وصَبَّ لِنَفْسِهِ حَمِراً. وكان جِسمُهُ يرتجفُ بشدَّة. وقد علمَ أنَّ ذلك حصلَ على سبيلِ
 رَدَّةِ الفعلِ. فهو لم يَحْتَلِ بامرأةٍ منذِ أسابيع. ودخلتَ أرياً أفكارَه دونَ استئذان، فتجهمَ. لقد
 أمرَضَه أن يُفكِّرَ فيها على أثرِ مَشاغِرِهِ حِبالِ هَدَسَةٍ.
 هَدَسَةٍ.

مسيحيَّة!

عاودةً مَشهدُ اثني عشر رجلاً وامرأةً مربوطين بسوارٍ ومُغرَّقين بالقار، يصرخون إذ تُضرمُ
 فيهم النارَ ليكونوا مَشاغِلَ لإِنارةِ مُدرِّجِ نيرون. وبينما هو يرتجفُ بشدَّة، شربَ كأسَه حتَّى الثُمالةِ.

رافقَ ستَّةَ حُرَّاسٍ شخصيَّين مُدرِّبين أترتيسَ بسلامةٍ إلى السفينة. حيثُ كان سَرَتِسَ
 ينتظرُه. فرمَقَه تاجرُ المحاربين بنظرةٍ استقرَّت على وجْههِ. وقال مُخاطباً الحُرَّاسَ: ”لا
 ضرورةً للقيود“.

”ولكن، سيدي، هو...“

”انزعوها“ .

وقف أترتيس ساكنًا فيما الأصفاد تُنزع من معصميه. وكان حشدٌ من المُعجبين قد تبعوه من اللُدُس عبر شوارع المدينة، وتجمّعوا الآن على رصيف الميناء. فمنهم من هتفوا باسمه، ومنهم من بكوا جهارًا، حُزنًا على رحيله.

لاحظ أترتيس أن سرتس كان له حُرَّاسُه الخاصون على متن السفينة. وابتسم تاجرُ المحاربين بمكر، قائلاً بركة: ”لأجل حمايتك، في حال فُكرت بالغطس من على ظهر السفينة وإغراق نفسك“ .

”لا نيّة لي أن أتبحر“ .

فقال سرتس: ”جيد! لقد استثمرت ثروة فيك. ولا أريد أن أراها تُبدد“ . ثمّ مدّ يده قائلاً: ”سر بهذا الاتجاه“ .

دخل مأويّ تحت ظهر السفينة، كانت أصغر من مَهجعه في اللُدُس. وقد فاتحت منها رائحة الخشب وزيت المصايح، بدلًا من الحجر والقش. وإذ دخل أترتيس، خلج كابه.

قال سرتس: ”سنقلع في غضون سويّعات. استرح. سأرسل إليك واحدًا من الحُرَّاس حتّى تلقّي نظرتك الأخيرة على روما وعلى الذين يحبُّونك“ .

فبدلًا أترتيس النّظر بفتور. ”قد رأيت من روما كلّ ما أردت أن أراه أصلًا“ .

وابتسم سرتس. ”ستجد أن لا مدينة تُضاهي أفسس جمالًا“ .

وعندما غادر سرتس، قعد أترتيس على السرير الجداريّ الضيق. ثمّ أسند رأسه إلى الوراء وحاول أن يرى موطنه بعينِ ذهنه.

إلاّ أنّه لم يتمكّن من ذلك .

فكلّ ما تمكّن من رؤيته كان وجهَ مُحاربٍ جرمانيّ فتّيّ.

استدعت فيبي هدسة إلى البهو ذي الأعمدة. وقالت: ”اقعدني بجانبك!“ مُهدّدةً فسحةً لها على البنك الرّخاميّ. وإذ جلست هدسة، غضنت فيبي قطعةً صغيرةً من جلد رقيق. ”لقد مات كائس. تُوفيّ باكراً صباح اليوم. وقد ذهب دسّمس كي يُساعد جوليا في إعداد ترتيبات الدفن“ . ثمّ نظرت إليها بحزن. ”ستحتاج إليك عاجلاً“ .

كان أول فكرٍ خطرٍ في بال هَدَسَةٌ أنَّها ستبتعد عن مرقس. فغاص قلبها. لا بدُّ أن تلك مشيئةُ الله. إذ لم يكن يسعها أن تبقى هنا إذ شاءت أن تسلم من الأذى. وما أرادَه مرقس، وجب ألا تُعطيه أبداً- ليس لأيِّ رجلٍ ما عدا ذلك الذي ستتزوجُه ذات يوم، إذا كانت مشيئةُ الله تقضي بأن تتزوج أصلاً. فلعلَّ هذه هي طريقةُ الله لحمايتها من نفسها. ولا سيَّما إذا لم يكن في وسعها أن تُنكرَ منذ اللحظة التي فيها لمسها مرقس أن الضعف قد اكتنفها. فهي قد نسيت الله... كما نسيت كلَّ شيءٍ ما عدا الأحاسيس الغريبة التي تغمرها. ”سأذهب إليها متى طلبتِ، سيديتي“.

أومات فيبي برأسها موافقةً. ولكن بدل أن تشعرَ بالسرور، كانت قلقة. ”يبدو أن المأساة تلاحق جوليا. فأولاً كلاوديوس، ثمَّ فقدانها الطفل، والآن زوجها الشاب“.

أطرقت هَدَسَةٌ رأسها، مُفكرةً بطفلِ جوليا، منبوذاً في الحديقة.

وقالت فيبي: ”ينبغي أن أشعر من جهة جوليا بأسى يفوق ما أشعرُ به“. ثمَّ نهضت وأخذت تتمشى على الممشى إلى داخل الحديقة. فتبعته هَدَسَةٌ. وتوقفت فيبي بجانب حوض زهور، وانحنى كي تمرَّر رؤوس أصابعها على الأزهار. ثمَّ رفعت نظرها مُبتسمة. ”لقد استمتعتُ برفقتك يا هَدَسَةٌ. نحن نتشارك في حُبنا للزهور، أليس كذلك؟“

وما لبثت أن تلاشت بسمتها حالماً استقامت، ثمَّ انتقلت لتقعد على بَنكِ رُخامي قريب. ”إن مرض سيديك يتفاقم. وقد حاولتُ جاهداً أن يحجب ذلك عني، غير إنني أعلم. أحياناً، يكون الألم في عينيه عظيماً جداً...“ وأشاحت بنظرها، طارفةً لحبس الدموع. ”على مدى سنين كثيرة جداً، استحوذت عليه أشغاله. ولطالماً كانت تستبدُّ بي الغيرةُ حيال استنزافها لوقته وأفكاره. فكأنما همَّ شيءٌ ما أكثر مما يُمكن أن أهمه أنا والأولاد“.

ثمَّ نظرت إلى هَدَسَةٌ، مومنةً لها أن تقعد بجانبها. ”لقد غيرَه مرضه. إذ بات بالغ الاضطراب والقلق. ومنذ بضعة أيام قال لي إنَّ أيَّ شيءٍ مما فعله في حياته لم يكن مُهمًّا، ولن يدوم؛ إنَّ ذلك كله كان باطلاً. والوقت الوحيد الذي فيه يبدو أنه يجد أيَّ سلامٍ هو حين تُغنين له“.

”لعلها الموسيقى أقل من الرسالة، سيديتي“.

فنظرت فيبي إليها. ”الرسالة؟“

”أنَّ الله يحبُّه ويريد منه أن يلتفت إليه طلباً للعزاء“.

”ولماذا يهتمُّ إلهُ عبرانيٍّ بأمير رومانيٍّ؟“

”إِنَّ اللَّهَ يَهْتُمُّ أَمْرَ كُلِّ إِنْسَانٍ. فَجَمِيعَ الْبَشَرِ خَلِيقَتُهُ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِصِيْرُونَ أَوْلَادًا لَهُ وَيَتَشَارِكُونَ فِي مِيرَاثِ ابْنِهِ.“

انحنَت فيبيي إلى الأمام، ثُمَّ أَجْفَلْتُ مِنْ حَسِّ صَوْتِ آخِرِ فِي الْحَدِيقَةِ. لَقَدْ عَادَ مَرْقُسُ إِلَى الْبَيْتِ. وَأَقْبَلَ بِحُطَىٍ وَاسِعَةٍ إِلَى دَاخِلِ الْحَدِيقَةِ، قَائِلًا: ”أُمِّي! لَقَدْ سَمِعْتُ تَوًّا بِمَوْتِ كَائِسٍ“. وَقَدْ خَفَقَتْ حَمَلَقَتُهُ إِلَى هَدَسَةِ هُنَيْهَةٍ.

وَضَعَتْ فِيبِي يَدَهَا عَلَى يَدِ هَدَسَةِ، وَقَالَتْ: ”لِكَ أَنْ تَنْصِرِي فِي“. ثُمَّ وَجَّهَتْ انْتِبَاهَهَا نَحْوَ مَرْقُسٍ مِنْ جَدِيدٍ، فَرَأَتْهُ يُرَاقِبُ هَدَسَةَ وَهِيَ تَمْضِي مُسْرِعَةً عَلَى الْمَشْيِ. وَتَحَرَّكَتْ عَضَلَةٌ فِي مَنْحَنِ حَنَكِهِ. فَعَبَسَتْ فِيبِي قَلِيلًا، وَقَالَتْ: ”أَبُوكَ ذَهَبَ إِلَى جُولِيَا حَالِمًا وَصَلَ النَّعْيِ“. وَقَعَدَ مَرْقُسُ بِجَانِبِهَا عَلَى الْبِنَكِ. ”لَا تُرْسَلِي هَدَسَةَ إِلَيْهَا مُجَدِّدًا“.

فَتَفَحَّصَتْ عَيْنِيهِ مَدْهُوشَةً. ”لَا أُرِيدُ أَنْ أَرْجِعَهَا إِلَيْهَا، يَا مَرْقُسُ، وَلَكِنِّي قَلَّمَا أَمْلِكُ خِيَارًا“. وَرَاقَبَتْ سِيْمَاءَ مِنْ كَتَبِ. ”إِنَّ هَدَسَةَ تَحْصُرُ أَحْتَكُ“.

أَحْسُ مَرْقُسُ أَنَّ أُمَّهُ تَمَعُنُ فِيهِ النَّظَرَ بِحَدَّةٍ، وَأَشَاحَ وَجْهَهُ، مُتَفَكِّرًا هَلْ يُخْبِرُهَا أَنَّ هَدَسَةَ تَلَقَّتْ جَلْدًا عَنْ جُولِيَا وَكَادَتْ تَمُوتُ مِنْ جَرَائِهِ. فَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ، لَرُبَّمَا غَيَّرَتْ أُمَّهُ رَأْيَهَا، وَلَكِنَّ جُولِيَا لَنْ تُسَامِحَهُ الْبَتَّةَ. لَمْ يَكُنْ يَنْوِي قَطُّ أَنْ يُوْذِيَ أَحْتَهُ، إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ تَبْقَى هَدَسَةُ هُنَا، عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ. وَقَدْ عَرَفَ حَلَقَةَ الْأَصْدِقَاءِ الَّتِي كَوَّنَتْهَا جُولِيَا مِنْذُ تَزَوَّجَتْ كَائِسًا. كَمَا عَرَفَ أَيْضًا فِكْرَهُمْ فِي الْمَسِيحِيِّينَ.

”أُمِّي، عِنْدَ جُولِيَا فِعْلًا أَكْثَرُ مِمَّا يَكْفِي مِنَ الْخَادِمَاتِ الشَّخْصِيَّاتِ. فَإِنَّ طَلَبْتُ هَدَسَةَ، فَأُرْسَلِي إِلَيْهَا بِيْثِيَّةٍ عَوْضًا عَنْهَا“.

أَجَابَتْ فِيبِي مُعْتَرِفَةً: ”هَذِهِ فِكْرَةٌ دَخَلَتْ عَقْلِي. وَلَكِنَّ الْقَرَارَ بِشَأْنِهَا لَيْسَ لِي، يَا مَرْقُسُ“. وَمَدَّتْ يَدَهَا لِتَلْمَسَهُ. ”كَلِّمْ أَبَاكَ فِي الْأَمْرِ“.

رَجَعَ دَسِمُسُ إِلَى الدَّارَةِ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ النَّهَارِ. لَقَدْ أُجْرِيَتْ جَمِيعَ التَّرْتِيبَاتِ لِدَفْنِ كَائِسٍ فِي سَرَادِيْبِ الْمَوْتَى خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ. فَإِنَّ الْقَانُونَ الرُّومَانِيَّ كَانَ يَحْظُرُ دَفْنَ الْأَمْوَاتِ دَاخِلَ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، حَتَّى لَوْ وُجِدَتْ أَرْضٌ كَافِيَةٌ فِي دَارَةٍ خَاصَّةٍ. وَمَضَتْ فِيبِي كِي تَقْضِي اللَّيْلَ مَعَ جُولِيَا، بَعْدَمَا كَانَ مَرْقُسُ قَدْ ذَهَبَ لِرُؤْيَيْهَا بُعِيدَ الظُّهْرِ. وَحَسِبَ دَسِمُسُ أَنَّ ابْنَتَهُ هَادِئَةٌ عَلَى نَحْوِ مُذْهِلٍ فِي الْأَحْوَالِ الْمَاسَاوِيَّةِ. فَإِنَّ كَائِسَ كَانَ شَابًّا وَحَيَوِيًّا. وَقَدْ أَتْلَفَتْهُ الْحُمَّى عَلَى مَدَى الْأَسَابِيْعِ الْمَاضِيَةِ:

وَالآنَ، بَيْنَمَا دَسِمُسُ يَسْتَرِيحُ، أَحْضَرَ لَهُ أَخْنُوخُ خَمْرًا. وَكَانَتْ الْغُرْفَةُ بَارِدَةً، فَطَلَبَ مِنْهُ

دَسِمُس أن يملأ الكانونَ حَطْبًا. ثم انضمَّ إليه مَرُقُس، فاتَّكأ على الأريكة، وقال: ”إنَّها تتقبَّل موتَ كائسَ تقبُّلاً حسنًا، أليست كذلك؟“ ثم أخذ يُراقِب دونَ اهتمامٍ كثيرٍ العبيدَ وهم يُقدِّمون وجبةَ العشاء.

قال دَسِمُس: ”اعتقد أنَّها في حالةٍ صدمة“، فيما أخذَ قطعةً من لحم العجل، إلا أنَّه تبينَ أن قابليَّته لها قليلة.

انزَمَ فَمُ مَرُقُس. وفكَّر: إمَّا كانت أخته في صدمة وإمَّا استراحت. غير أنه أبقى أفكاره في رأسه. فإنَّ أباه وأمه لم يعرفا شيئًا عن فَوَراتِ غَيْرَةِ كائسَ أو وحشيَّته. وقد أثبتت جوليا أنَّها كتومٌ جدًّا، حتَّى إنَّه ربَّما لم يكن ليُعرف الحقيقة لو لم يَر تَدوب الجلد على ظهر هدسةَ ويواجهَ أخته بشأنها. فلم يكن في وسعه أن يحزنَ على موت ذلك الوغد؛ لأنَّ الألهة قد أثبتوا لطفهم هذه المرَّة.

حاول مَرُقُس أن يجدَ منفذًا للبحث في شأن هدسةَ وبقائها عندهم، ولكنَّ أباه كان أكثرَ انشغالًا من أن يُتاح له سبيلٌ إلى ذلك. ثمَّ استدعى دَسِمُس هدسةَ. وما إنَّ دخلتِ الغرفةَ بهدوءٍ حاملةً تحت إبطها القيثارةَ الصغيرة، حتَّى اضطَرت أحاسيسُ مَرُقُس. وغمَّنى لو تنظرُ إليه، غير أنَّها لم ترفعَ عينيهما إليه مرَّةً واحدةً إذ شغلَّت مكانها على الكرسيِّ المنخفض. لقد أراد بشدة أن يُحدِّثها على حدة.

قال أبوه: ”غني لنا، هدسة!“

حاول مَرُقُس ألا يتأمَّلها، ولكنَّ كلَّ عَصَب في كيانه بدا مُرَكِّزًا عليها. وبطريقةٍ عَرَضِيَّةٍ حسب الظاهر، راقبَ الحركاتِ الرشيقةَ من أصابعها على الأوتار، وأصغى إلى عُدوبة صوتها. ثمَّ تذكرَ نعمةَ شفَّتها، وكان عليه أن يُشيعَ وجهه. فلما فعل ذلك، تلقى حَمَلَةً أبيه.

ثمَّ قال دَسِمُس: ”كفى!“ ورفعَ يده قليلًا. ولما نهضت، تكلمَ من جديد. ”هدسة هل سمعتِ بِمصابِ السيِّدة جوليا؟“

”نعم، سيِّدي.“

”لما رأيتها اليوم، طلبتُ منِّي أن أردِّك إليها. فاحزمي أشياءك وكوني متأمِّبةً عند الفجر. سيأخذك أخنوخ إليها“. وأحسَّ دَسِمُس ردةَ فعلِ ابنه.

قالت: ”نعم، سيِّدي“، دونَ أن يعترِّي صوتها أيُّ تغَيُّرٍ يُلْمَحُ إلى جَمِشانها الداخلي.

وقال دَسِمُس: ”لقد خدَمتنا حسنًا هذه الأسابيع الماضية. سأفتقدُ موسيقاكِ

وقَصَصَكَ . لكِ أن تنصري في . فطأطأت رأسها، وهمست بكلمة شكرٍ مُرَعِشَةٍ، وانصرفت .
 حدِّقِ مَرُقُسَ إلى أبيه بذعر . ”ليس لجوليا حقٌ فيها!“
 ”ألكِ أنتِ حقٌ فيها؟“

فهبَّ مَرُقُسُ واقفاً عن أريكته . ”أنتِ لا تعرفِ كلَّ ما كان جارياً في تلك الدَّارة!“
 ”أعرفُ ما يكفي ممَّا يجري في هذه! لو لم تحدثْ هذه المأساة المؤسفة، لأرسلتُ
 هَدَسَةَ من جديدٍ قبلَ حلولِ صباحِ الغدِ على كُلِّ حال . إنَّ مشاعركَ بشأنها غيرُ ملائمة .“
 ”لماذا؟ ألاَّها عبدة أم لأنَّها مسيحيَّة؟“

أذهلَ دَسِمُسُ عدمَ إنكارِ مَرُقُسَ لافتتانه . ”كلا السَّبَّينِ كافٍ، ولكنَّ أيًّا منهما لا
 يعينيك . ما يهمُّ هو أنَّ هَدَسَةَ تخصُّ أختك . وأشكُّ في أنَّ جوليا ستقدِّرُ سُخْرِيَةَ وقوعك في
 حُبِّ عِبَدَتِها . ثمَّ ماذا يجري إذا أفلحت في إغواءِ هَدَسَةَ وإحبالها؟“

وإذ رأى دَسِمُسُ سيماءَ ابنه، تحبَّهم . ”لما اشترينا هَدَسَةَ، أهدتها أمُّك إلى أختك . إنَّ
 جوليا ابنتي، وأنا أحبُّها . ولن أعرِّضَ للخطرِ أيَّ تأثيرٍ ما يزالُ لديَّ فيها بسببِ عبديَّةِ هي
 مُتعلِّقةٌ بها تعلقًا غريبًا . فما عداك أنت، بمن وثقتَ جوليا أصلاً؟ بهَدَسَةَ! إنَّ هذه العبرانيَّةُ
 الصغيرة تخدمُ أختك بتفانٍ مُخلصٍ قلَّمَا يُضاهي . وهَدَسَةُ تحبُّ أختك مهما كانت أخطاؤها .
 إنَّ عبدةً مثلها تُساوي وزنها ذهبًا .“

”إنَّ حُبَّها وتفانيها كادا يتسببان بمقتلها قبلَ أسابيعٍ قليلة .“

فقال دَسِمُسُ: ”أعرفُ أنَّ كائسَ ضربها .“

”أعرفتُ أنَّ الضربَ كان مَوْجَهًا إلى جوليا أصلاً؟“

”نعم . إنَّ أختك وأمُّك أعماهنا سحرُ كائس . أمَّا أنا فما أعماني .“

”إذًا، لماذا لم تحلِّ دونَ الزواج؟“

”لأنِّي لم أَرِدُ أن أخسرَ ابنتي كليًّا! لقد أرغمتُها على زواجٍ لم تُرده، فأل ذلك
 إلى كارثة . فلم أستطع التدخُّلَ في آخرِ اختارته لنفسها .“ وإذ نهَضَ عن الأريكة، أجفلَ
 من الألم . ثمَّ مرَّت لحظةٌ قبلَ أن يخمدَ الألمَ ويتمكَّن من التكلُّم .

”أحيانًا، مهما كنتَ تُريدُ أن تحميَ أولادك، تُضطرُّ إلى تركهم يرتكبون أخطاءهم
 الخاصَّة . وكلُّ ما يسعُّك أن تفعله هو أن ترجوَ توجُّهَهُم نحوك عندما يحتاجون إليك .“
 وفكَّرَ في قصَّةِ الابن الضالِّ التي حكَّتها هَدَسَةَ، فكشَّرَ مُتأملًا .

”إنَّ قسماً كبيراً من مشكلات جوليا جرّته عليها أفعالها الشخصية“.

”أعرفُ ذلك! لطالما كانت الحال على هذا المنوال كلَّ حين، يا مرقس. ولكن هل توقفت عن التفكير؟ فلو لا هُدسَة، لربّما ماتت أختك“.

اعترت مرقس البرودة. وإذ تنازعه حبه لهُدسَة وقلقه على أخته، حدّق إلى أبيه باكتئاب.

بدا دسّمس كبير السنّ وشارِد الذّهن، ولكنه بادلَ ابنه بنظرة مُسدّدة تدعو إلى السّكوت. فبعض الأمور أفضلُ أن تبقى دونَ إفصاح. ولئن كان لن يتكلّم أبداً في الأمر، فقد كان يعلم مقدّراً كبيراً ممّا يجري في دارة أربانس. وإذ أغمض عينيه، رأى جوليا فتاةً صغيرة من جديد، جميلة، بريئة، مُبتهجة، تركزُ في الحديقة وتضحك بمرح. ثمّ تذكّرها كما كانت اليوم، ذاهلةً وشاحبة، مُتألّمةً ألماً شديداً جدّاً حتّى لم يكّد يُطيق رؤيتها على تلك الحال.

لقد أمسكت بيد أبيها، ناظرةً إليه بعينين كليلتين، وقالت في عذاب رهيب كما يبدو: ”قبيل موته، نظر إليّ وطلب مني أن أسامحه... لقد أحببته، يا أبي. أحببته. أقسم إنّي أحببته حقاً“.

كانت أعصابها مشدودةً بتوتّر بالغ. فقد كانت ترتجف وهي تبكي، ثمّ ما تلبث أن تهدأ هدوءاً تاماً والدموع تجري على خديها الشاحبين، وأفكارها مُتجهّة نحو داخلها. وقد جاءت كالاباه شيئاً فُتتانيوس تتفقد جوليا، بعد سماعها بموت كائس، غير أن جوليا لم تُرد رؤيتها. ”دعوها تذهب فحسب! رجاء! لا أريد أن أراها. لا أريد أن أرى أحداً!“ وكانت تلك أقرب نقطة بلغتها من فقدان كامل السيطرة على طبعها.

ترجّى دسّمس أن تتمكّن فيبي من إعطاء ابنتهما العزاء الذي تحتاج إليه، ولكنه شكّ في ذلك بطريقة أو بأخرى. فإنّ شيئاً عميقاً ومخبوءاً كان ينهش جوليا. ولم يكن مُتيقناً بأنّه يُريد أن يعرف ما هو. لقد علم ممّا قد فعلته أصلاً ما يفوق الحد: إجهاض حفيده، والمتاجرة بشرفها لوفاء ديون زوجها من جرّاء المقامرة. فمهما كان ما قد فعلته غير هذين، فهو لم يُرد أن يعرف ذلك. إنّ ما عرفه أصلاً ألّه أكثر من المرض الذي كان ينهش أحشاه.

”لا تتدخّل في هذا الأمر، يا مرقس. إنّي أطلب منك أن تنفض يدك منه. إنّ هُدسَة تملك في داخلها صلاحاً لم تُفسده العبوديّة، إنّها تخدم من كلّ قلبها. وجوليا تحتاج إليها، يا مرقس. وما تُريده أنت من هُدسَة يمكنك أن تجده في زاوية أيّ شارع من روما. فرجاء، مرّة واحدة في حياتك، لا تسلب سواك كي تخدم نفسك“.

رجز

حدَّقَ مَرْقُسَ إِلَى أَبِيهِ لِحِظَةً، وَقَدْ طَفَحَ وَجْهُهُ حَرَارَةً، ثُمَّ اجْتَاخَتْهُ بُرُودَةٌ. فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ
مُؤَافِقًا فِي صَمْتٍ، خَافِضًا عَيْنَيْهِ، شَاعِرًا بَأَنَّهُ إِذْ يَفْعَلُ ذَلِكَ يَحْكُمُ عَلَى هَدَسَةِ بِالْمَوْتِ.
لَمْ يَنْبِسِ بِنْتِ شَفَةِ. وَإِذْ كَانَ غَيْرَ رَاغِبٍ فِي أَنْ يَشْهَدَ أَبُوهُ الرُّعْدَةَ الَّتِي أَخَذَتْ فِيهِ،
دَارَ وَغَادَرَ الْغُرْفَةَ.

٣٦

رابع مرّة ذلك الأسبوع، طلبت جوليا من هُدْسَة أن تُعِدَّ ما يلزمُ لزيارة قبر كائس خارج أسوار المدينة. استغرقتِ الرّحلة بِضَع ساعات، وقد عُنِيَتْ هُدْسَة بتوافرِ مُؤْنٍ لتناولِ وجبةِ طعام، وجراماتٍ في حالِ تَحَوُّلِ النّهارِ إلى البُرودة، ونبِيذٍ لتهدئةِ أعصابِ سيّدتها في طريقِ الرُّجوعِ إلى البيت. وكانت جوليا ما تزالُ ترى كوابيس منذ موت كائس. وقد قدّمتُ قرابينَ إلى الألهة البيتيّة، وإلى هيرا أيضًا، ولكن لم ينفعها أيُّ شيء. فلم يكن في وسعها أن تكفَّ عن رؤية وجه زوجها كما بدا قبل موته بلُحِيظَات. إذ فتحَ عينيّه ونظر إليها، وهي تيقنتُ بأنّه كان يعلمُ حقيقةَ الأمر.

كانت تخافُ أن تذهبَ إلى قبره وحدها، ومن ثمّ دَعَت أوكتافيا إلى مُرافقتها اليوم. وقد كان رأيي والدتها أنّ كثرةَ زياراتِ القبرِ أمرٌ غير سليم. وكان مرّسٌ قد ذهبَ معها مرّةً، غير أنّ انشغاله الدائم جعله غيرَ نافع لها. فهي احتاجت إلى شخصٍ يستطيع أن يحميها من أفكارها، وكان لدى أوكتافيا كلّ حينٍ قيلٌ وقالٌ تُفْشِيه.

حملَ أربعةَ عبيدٍ اليهودجِ ذا الستائرِ عاليًا. وحملتُ جوليا إلى الخارجِ فيما حُمِلت مع أوكتافيا عبرَ شوارعِ المدينة المُزدحمةِ إلى الأبواب. وكانت هُدْسَة قد سبقتهما مع بضعة عبيدٍ آخرين، حتّى يكونَ كلُّ شيءٍ مُرتبًا عند وصولهما. واستطاعت جوليا أن تلاحظَ أوكتافيا مُتأملَةً إيّاها، غير أنّها لم تقلّ شيئًا. وقد كانت مُتوتّرةُ الأعصاب، وراحتا يديها تتعرّقان، كما شعرتُ بالغبثان والبرد.

أمعنّت أوكتافيا في النّظرِ إلى جوليا. كانت مُرتديّةً رداءً سُتولًا أبيضَ، ووجهها شاحب، وعيناها باهتتان فاقدتا الحيويّة، وشعرها مُمشطٌ بتسريحة بسيطة، فبدت في حالةٍ مأساويّة وهشة. لم تُعد أوكتافيا تغارُ منها. فقد سمعتُ إشاعاتٍ عن مُقامراتِ كائس وغرامياته. ومن ثمّ ابتسمت مُعتدّةً بذاتها. إنّ جوليا استحققت كلّ ما فعله كائس بها. ولو أنّ كائس أعرّضَ عن جوليا، وتزوَّج بها هي، لكانت الأمورُ مختلفةً. ثمّ ألقت أوكتافيا نظرةً أخرى على وجه جوليا: ما تزال تحبّه، على ما يبدو. فاستساغت أوكتافيا مشاعرَ الشّفقة التي خالجتها حيالَ جوليا.

وقالت لها: "لقد خسرتِ وزنًا منذُ رأيتكِ قبل بضعة أسابيع. ثمّ إنك انقطعتِ عن مُعظمِ صديقاتك. إنّ كالأباه قِلّةٌ جدًّا عليك."

روما

كالاباه! تَرَجَرَجْتَ عينا جوليا. يا ليتها لم تُقَابِلِ كالاباه قَطًا! فَلَوْلَاهَا ما كانت قد قَتَلَتْ كائس قطعًا. ورممت أوكتافيا بنظرة ارتياب. أيّ مقدارِ علمتَ عن مرض كائس؟ أيّ مقدارٍ قالت لها كالاباه؟ ”هل تَرَيْنَهَا كثيرًا؟“

”كلّ يوم. إنني أحضرُ اجتماعاتها دائمًا. وهي تفتقدك.“
”ماذا تقول عني؟“

فعبست أوكتافيا حِيَالاً لهجتها، وقالت: ”تقول عنك؟ وماذا قد تقول؟ إن كالاباه ليست بمن يُثْرَثِرُن، إن كان ذلك هو ما تلمّحين إليه. ينبغي لك أن تعرفي ذلك، وأنتِ أقربُ إليها ممّا كنتُ أنا يومًا.“

أحسّت جوليا وَخَزَ الحَسَدَ في صوت أوكتافيا، وأشاحت وجهها. ”فقط لم أشعرُ بميل إلى رؤيتها مؤخرًا. لا أستطيع أن أفكر الآن في أيّ شيءٍ سوى كائس.“ ثمّ أزاحت الستارة قليلاً حتّى يتسنى لها أن تختلسَ النظرَ إلى المنظر الطبيعيّ المُعشوشب والمُرصَّع بالشجر على طول الطريق الأيبانيّ. ”لستُ أدري ما تتوقَّعه كالاباه مني.“ ورأت طائرًا يُطلقُ جناحيه نحو السماء الزرقاء الصافية، فودّت لو تكونُ كذلك. وتمنّت لو تستطيع أن تطيرَ بعيدًا، بعيدًا جدًا... إلى مكانٍ ناءٍ تمامًا حيثُ لا تُضطرُّ أن ترى كالاباه أو تسمعَ عنها بعدُ. فإنّ مُجرّد التفكير فيها جعلها غايةً في الخوف. لقد كانت كالاباه عالمٌ بكلّ شيءٍ. ومن ثمّ قالت بفتور: ”لا بدّ أنّها تحسبني غيبّةً فوق الحدِّ لاستصعابي موتَ كائس جدًا. قولي لها إنني بخيرٍ فحسب.“
”ينبغي لك أن تقولي لها ذلك بنفسك. فأنتِ مديونةٌ لها بالكثير.“

رمقتها جوليا بنظرةٍ شبه مُرتاعة. ”ماذا تعنين؟ ولماذا أكون مديونةً لكالاباه بأيّ شيءٍ.“
”حسنًا، ألسنتِ الشاكرة؟ لقد عرفتكِ إلى كائس.“

ها قد عادت من جديدٍ لمحّة الغضب تلك الماثلة وراء ابتسامتها أوكتافيا. أما زالت تكرهها لسرقة حبّ كائس، مع أنّ كائس لم يكن له قطُّ أدنى اهتمامٍ بأوكتافيا؟ يقينًا، لقد عرفت ذلك. يقينًا كان ذلك جليًا. ولكن لم يكن في وسع جوليا أن تطيقَ كُرةَ أحدٍ لها في هذا الوقت بعينه.

”لو لم ألتقي كائس، ما كنتُ الآن أحملُ هذا الغمّ كُلّه، أليس كذلك، يا أوكتافيا؟ وهو قد أتاني كثيرًا من الغمّ قبل موته أيضًا!“
”أعلمُ ذلك، لقد سمعتُ شائعات.“

ابتسمت لها جوليا ابتسامه هشة، ونظرت خارج الستارة من جديد. لقد تمتت لو أنها لم تدع أوكتافيا.

وإذ أغمضت عينيها، حاولت أن تفكر في شيء آخر، غير أنها ظلت تتذكر كائس كما كان في اليوم السابق لموته، قائلاً لها إنه يحبها كثيراً وإنه رغب فيها بشدة من لحظة رؤيته لها، وإنه متأسف جداً بشأن اعتسافه لها وشؤونه الغرامية وحظه العاثر. فقد جعلها تشعر بالذنب أقصى شعور حتى كادت تتوقف عن إعطائه السم، ولكنه آنذاك كان قد بات مريضاً جداً بحيث لم يعد ذلك ينفع. فإن الاستمرار في إعطائه إياه أنهى معاناته بسرعة أكثر.

لقد روعها كائس ليلة حاول أن يقتلها، وخيل إليها أن موته سيكون نهاية خوفها. إلا أنه كان أشبه ببدايته. فهي الآن أكثر خوفاً منها في أي وقت مضى. فكأنما حملت معها شبحاً قائماً أينما ذهبت، وكأنما لم تستطع أن تفلت منه.

كان كائس في ما مضى بالغ النشاط والحيوية وموفور الصحة. فطرح الناس أسئلة عن مرضه، وتساءلت هي هل ارتابوا في شيء. ماذا يمكن أن يحصل لها لو فعلوا ذلك؟ وتذكرت مشاهدة امرأة حكيم عليها بقتل زوجها تمزقها الكلاب المتوحشة أشلاء في ساحة المحاربين. فأخذ قلبها يخفق بذعر. ولكن لم يعرف أحد غير كالاباه. كالاباه! فهي أعطتها السم وعلمتها كيف تستخدمه. وقد اعترفت تلك بقتل زوجها لما هدد بتطبيقها. يقيناً أن كالاباه لن تقول شيئاً. ثم شبكت جوليا يديها في حضنها.

لم تكن كالاباه قد أخبرتها كم هو مروّع أن تراقب كائس ينهاز أسبوعاً تلو أسبوع، ويوماً بعد يوم، وساعة إثر ساعة. ولم تقل إن أماً سيحصل.

أغمضت جوليا عينيها بإحكام، مُحاولَةً أن تُبعد صورة كائس وهو شاحب ومُتضائل. فعيناه اللتان كانتا فانتين قبلاً، عَدَتَا جامدتين ككرتي زجاج صغيرتين، ولم بيدُ فيهما قبيل النهاية سوى الظلام والموت. لربما- لو علمت كم سيكون مروّعاً أن تراقبه يموت شيئاً فشيئاً- ما كانت فعلت ذلك. إذاً لكانت تركته ورجعت إلى أهلها، إلى أمها وأبيها ومرقس. ولكانت وجدت طريقة ما غير تلك.

غير أن جميع الأسباب التي ذكرتها كالاباه لوجوب قتله كانت قائمة بعد. فهو قد خانها مع نساء آخر. وقد عذبها عاطفياً، وضربها بدنياً. وكان من شأنه أن يستخدم مالها حتى آخر فلس. فأبي خيار آخر كان لها سوى قتله؟

إن المبررات العقلية وتبرير الذات جاشت في ذهنها، ولكن الشعور بالذنب مرقق

تعليلاتها قطعةً قطعة.

سألته أوكتافيا مُتفحّصةً: ”أنتِ غاضِبةٌ على كالاباه لسببٍ ما؟“

تُرى، كيف تشرحُ جوليا أنّ رؤيةَ كالاباه ذكّرتها فقط بما قد فعلته يداها؟ إنَّها لم تُرد أن تُدكّر.

فقالَت باكتئاب: ”لا! إنَّما لستُ أشعرُ بميلٍ إلى رؤيةِ أشخاصٍ كثيرين في هذا الوقت.“

”أشعرُ بإطراءٍ لأنَّكِ طلبتِ مِنِّي أن أرافقكِ اليوم.“

”نحنُ صديقتان منذُ كُنَّا صغيرتين.“ وملاً عيني جوليا دفقَ مُفاجئٍ من الدمع.

”أنا أسيفةٌ إذا كنتُ قد أذيتكِ أحياناً، يا أوكتافيا. إنِّي أعلمُ أنّي قد أكونُ مروعةً.“

لقد علمتُ أنّ أوكتافيا كانت واقعةً في حُبِّ كائس. وانتزاعه من أوكتافيا أتى جوليا بالهجةِ القُصوى. غير أنّها الآن تَمَنَّت لو لم تفعل ذلك. بل إنّها- وحياةِ جميعِ الآلهة- تَمَنَّت لو أنّ أوكتافيا فازت به.

انحنَّت أوكتافيا إلى الأمام، وقبّلت خدَّ جوليا، قائلةً: ”لِننَسِ الماضي!“ ثمَّ مسحَتِ

الدموعَ عن وجهِ جوليا بطرفِ شالِها، وأصافت: ”أنا قد نسيتهُ على كلِّ حال.“

أرغمت جوليا نفسها على الابتسام. إنّ أوكتافيا لم تنسَ شيئاً قطّ. وقد كان في وُسع

جوليا أن تحسَّ ذلك في لمسة يدِ أوكتافيا الباردة. وهي قد جاءتِ اليومَ لكي ترى عذابها

وتستسيغّه. ”ماذا كُنْتَ تفعلين بوقتِك هذه الأيام، يا أوكتافيا؟ أما زلتِ تزورين اللودُس؟“

فقالَت أوكتافيا هازئةً كَتفيها: ”ليس بالكثرة التي اعتدتها، ما دام أترتيس قد رحل الآن.“

غاص قلبُ جوليا بخيبةٍ عاجلة: ”هل قُتِل؟“

”أوه، لا. اعتقدُ أنّه لا يَهْجُر. ولكنه أيضاً كان شوكةً في خاصرة الإمبراطور، وهكذا

اشتراه أفسسِيُّ يروُج الألعابِ في أبونيا. شاهدتهُ يُقاتِل في أثناء اللودي فلورالز. لقد أنزلَ

مُقابلِ جرمانِيٍّ آخر. مؤسِفٌ أنّها لم تكن مُباراةً مثيرةً جدّاً. فقد انتهت تماماً في غضون دقائق

قليلة، حتّى إنّه لم ينظر ليرى أكان إبهامٌ دوميثيان إلى فوق أم إلى تحت. فقد جعل خصمه

يقف، وتخلّص منه هكذا.“ ورفقتُ إصبعيها.

فقالَت جوليا: ”ليتي استطعتُ أن أقابله!“ مُتذكرةً كم تورّد وجهها من الانفعال يوم

رفع نظره إليها. وإذ تذكّرت إيماءته، شعرت بأولِ دفقةٍ من الدّفء منذُ أسابيع.

وقالَت أوكتافيا: ”هل لاحظتِ أنّ في بعض التماثيل الأكثر حداثةً للإلهين مارس

وأبولو شيئاً من الشَّبَه به؟ لقد كان أجملَ مُحارِبٍ رأيته على الإطلاق. إنَّ مُجرَّدَ مُشاهدتي إيَّاه يتقدَّم على الرَّمْل بِخُطَى واسعةٍ كانت تجعلني أشعرُ بالحرارة تدبُّ في جميع أوصالي. أما علِمْتَ أنَّهم ما زالوا يبيعون تماثيلَ صغيرةً له خارجَ ساحة المحاربين، زُعمَ أنَّه ليس في روما بعد؟“ وهي قد اشترتْ تماثلاً، إلَّا أنَّها تؤثرُ الموت على الاعتراف لجوليا بذلك.

أخيراً، أنزلَ العبيدُ الهودجَ عن أكتافهم، وساعدهما على الترجُّل منه. وكانت هدسَّة وخادمةٌ أخرى قد بسطتا المائدة، غير أنَّ جوليا لم تُبدِ اهتماماً بالأكل، بل وقفت تنظرُ إلى قبر كائس، ثمَّ قالت: ”إنَّه ليس كبيراً جدًّا، أم هو كبير؟“

كان الجوعُ قد نهشَ أوكتافيا، ولكنَّها لم تستعجل. فهي لم تُرد أن تبدو غير مُكترثة بمزاج جوليا المُعترِك. فردَّت أوكتافيا قائلةً: ”إنَّه كبيرٌ بما فيه الكفاية“.

ساءلت جوليا نفسها: أمِن شأنِ إقامةِ ضريحٍ أكبرٍ لكائس أن يجعلها تشعرُ بأنَّها أحسنُ حالاً؟ كان أبوها قد اقترحَ عليها أن تضعَ زمادَ كائس في ضريح العائلة، حيثُ قَبِرَ صغيراً الأسرةِ الراحِلان، ولكنَّ تلك الفِكرة رُوِّعَتها. فهي لم تُرد- متى وافاها الموت- أن تُدفنَ بجانبِ زوجِ قتلته بيدها. وأخذتها الرُّعدة.

فسألتها هدسَّة: ”أتشعرينَ بالبرد، سيِّدتي؟“

أجابت بلهجةٍ فاترة: ”لا“.

وقالت أوكتافيا بضيقِ صدر: ”أنا جائعةٌ جدًّا“، فيما تقدَّمت كي تُعابِنَ شرائح اللحمِ والفاكهةِ والخُبزِ والخمر. وانضمتَ إليها جوليا، غير أنَّها غصبتَ نفسها على أكلِ القليلِ القليل. أمَّا أوكتافيا فأكلتَ بنهم. وبينما هي تقتطعُ مزيداً من الخُبز، قالت: ”في السِّفَرِ شيءٌ يُضاعِفُ قابليتي. وكلُّ شيءٍ رائِعُ المذاق“. ثمَّ نظرتَ إلى هدسَّة. ”لِمَ لا تطلبينَ من عبرانيَّتِكِ الصغيرةِ أن تُغنيَ لك؟“

قالت جوليا: ”كان كائس يكرهها“. ثمَّ نهضتَ ووقفتَ قُربَ القبرِ من جديد، شابكةً ذراعَها حولِ نفسها كما لو كانت تدفعُ عنها قُشعريرةً زُعمَ دفء النهار الصيفي. فذهبتَ هدسَّة إليها. ”حاولي أن تأكلي شيئاً، سيِّدتي“.

”يا ليتني أعلمُ أهو في سلامٍ أم لا!“ قالتَ هذا همساً.

فأطرقتَ هدسَّة رأسها. لقد كان أربانُس رجلاً شريراً، ذا شهواتٍ قائمةٍ عنيفة. والذين رفضوا نعمة الله، وكانوا قُساءةً على إخوانهم البَشَر، مصيرُهُم قضاءٌ الأبديةً في مكانِ العذاب، حيثُ العويلُ وصريرُ الأسنان. إنَّما لم يكن في وَسعِ هدسَّة أن تقولَ ذلكَ لسيِّدتها. ترى، ماذا

يمكنها أن تقول كي تُعزِّي مولاتها فيما بدا أن هذه أحبته كثيرا جدًا؟
وقالت جوليا: ”اتركيني وحدي معه دقائق قليلة“. فامتثلت هَدَسَة.

خفق قلب جوليا ببُطء إذ نظرت إلى الضريح الرُّخامي. كان الاسم - كائس پولونيوس أربائس - منقوشًا في الحجر الأبيض النقي، وتحتة تمامًا الكلمتان: الزَّوْج الحبيب. وكانت تعريشات الزُّهور مُقلَّمة ومقصوفة حوالى الضريح، وعلى سطحه ملاكان مُجنَّحان كاملان. فحنت جوليا على مهل وانحنت إلى الأمام لتُجري إصبعها على الحروف كُلًّا على حِدَة. وإذ التوى فمها بابتسامة مُعذِّبة، قالت: ”أيُّها الزَّوْج الحبيب. لستُ أسِفَّة لقيامي بهذا. لستُ أسِفَّة“. إلا أن الدَّموع ملأت عينها وفاضت على خديها الشاحبين.

ولما رجعت جوليا، وقعدت مع أوكثافيا من جديد، قالت أوكثافيا لها: ”هل تنوين أن تبقي في دارة كائس؟“

خطر في بال جوليا أفكارٌ مُغمَّة أخرى، وجعلتها أكثر اكتئابًا بعد. فبموت كائس، وجدت نفسها من جديد تحت سُلطة والدها. وعين مرقس مرةً أخرى قِيَمًا على ملكيتها. فهذا الأمر لم يهّمها - فمرقس سيُعطيها مهما طلبت - ولكن ما همها فعلاً أن تُعامل مثل طفلة من جديد، وأن تُضطرَّ إلى طلب المال والإذن كي تفعل ما أرادت. وبعد، فأى خيارٍ آخر بيدها ما دام زواجها من جديد بعيد المنال؟ ففي أعقاب اختبارها للزواج مرتين، لم تكن تواقَّة إلى زيجةٍ أخرى.

من ثمَّ قالت: ”لا، ليس في وسعي أن أبقى هناك. إن أبي يُصرُّ على وجوب رجوعي إلى البيت“.

وبأول شعورٍ حقيقيٍّ بالزَّناء من قبيل أوكثافيا، قالت لجوليا: ”أه، كم هو أمرٌ مُروِّع!“
فإن جوليا ستحوزُ حريَّةً قليلةً حالما تغدو تحت سقف دَسِيس فاليريان مُجددًا.

وابتسمت لها جوليا ابتسامةً كئيبة. ”أحيانًا، أحنُّ إلى أيامٍ حيث كنتُ طفلةً صغيرة أركض في أرجاء حديقة أمي. لقد كان كلُّ شيءٍ آنذاك جديدًا جدًا وغايةً في الرُّوعة، والعالمُ بكامله مُنبسطٌ أمامي. أما الآن، فكلُّ شيءٍ يبدو بالغ... السَّواد“. ثمَّ هزت رأسها، مُغالبةً دموعَ تَبَدُّد الأوهام.

قالت أوكثافيا: ”أمهلي نفسك قليلًا، يا جوليا. بعد بضعة أسابيع، أصطحبك إلى الألعاب من جديد. إنها ستساعدك على نسيان بلاياك“. ثمَّ مالت مُقتربةً إليها، وقالت همسًا - ناظرةً إلى هَدَسَة والآخرين - ”أصحيح أنكِ بعثتِ باثنتين من عبداتكِ إلى ساحة المحاربين؟“

رَمَمَتْ جوليا أوكثافيا بنظرة إنداز. لقد حَزَنْتِ هَدَسَّةٌ لَمَّا سَمَعَتْ. وما كانت جوليا قَطُّ لتتَوَقَّعَ أَنَّ عِقَابَ العَبْدَتَيْنِ سيؤْذِي صَدِيقَتَيْهَا الصَّغِيرَةِ، إِلَّا أَنَّهُ أَذَاهَا. وَلَكِنْ آنذاك، لم يَخْطُرْ لجوليا أدنى فِكْرٍ في مُرَاعَاةِ مَشَاعِرِ هَدَسَّةِ، بل كان كُلُّ مَا أَرَادَتْهُ هُوَ الِانْتِقَامَ. فَقَالَتْ جوليا بِصَوْتٍ عَالٍ كَفَايَةً بِحَيْثُ تَسْمَعُهُ هَدَسَّةُ: ”العِصْيَانُ لَا يُمْكِنُ الصَّفْحُ عَنْهُ. لَقَدْ كَانَ كَامِلٌ وَلَائِهْمَا لِكَايْسِ، وَلَمَّا مَاتَ لَمْ يُعَدِّ مُمْكِنًا الْوَثُوقُ بِهِمَا“.

قَالَتْ أوكثافيا بِضِحْكَهٍ رَقِيقَةٍ: ”حَسَنًا، يُحْيِلُ إِلَيَّ أَنْ قَرَارِكَ سَيُبْقِي جَمِيعَ عبيدِكَ مُنْضَبِطِينَ“. وَرَأَتْ أَنْ وَجْهَ العِبْرَانِيَّةِ الصَّغِيرَةِ كَانَ شَاخِبًا.

فَقَالَتْ جوليا: ”أَقْدَرُ لِكَ إِلَّا تَذْكُرِي هَذَا الْأَمْرَ مَرَّةً أُخْرَى“. إِنَّ ذِكْرَ ذَلِكَ لَمْ يُوْتِرْهَا الشَّرُّورَ الَّذِي تَوَقَّعْتَهُ. ثُمَّ نَهَضَتْ، قَائِلَةً: ”الْجُؤُ يُزَادُ بُرُودَةً“. وَأَمَرَتْ هَدَسَّةَ وَالْأَخْرَيْنِ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ. لَقَدْ أَنَهَكَتْ أوكثافيا أَعْصَابَهَا بِكَلَامِهَا الَّذِي لَا يَنْتَهِي، وَأَسْأَلَتْهَا الحَادَّةَ الْمُتَطَفِّلَةَ قَلِيلًا. ثُمَّ أَلْقَتْ جوليا عَلَى قَبْرِ كَايْسِ نَظْرَةً أُخِيرَةً، وَشَعَرَتْ بِوَحْزٍ نَدَامَةٍ حَادٍّ. لَوْ أَنَّ الْأُمُورَ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً، لَمَّا اضْطُرَّتْ لِأَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ.

فِي رِحْلَةِ الرُّجُوعِ إِلَى رُومَا، قَرَّرَتْ جوليا أَلَّا تَعُودَ أَبَدًا إِلَى قَبْرِ كَايْسِ. فَهِيَ لَمْ تَجِدْ سَلَامًا هُنَاكَ. بَلْ إِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ كَانَتْ كُلَّمَا وَقَفَتْ أَمَامَ الضَّرِيحِ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا أَسْوَأُ حَالًا. لَقَدْ مَاتَ كَايْسُ، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ التَّعَاسَةَ الَّتِي سَبَّبَهَا لَهَا قَدْ انْتَهَتْ.

غَيْرَ أَنَّهَا تَمَنَّتْ لَوْ تَعَلَّمُ مَاذَا تَفْعَلُ بِحَيَاتِهَا الْآنَ. لَقَدْ شَعَرَتْ بِأَقْصَى خَوَاءٍ وَوَحْدَةٍ. وَكَانَتْ قَدْ تَوَقَّعَتْ أَنْ تَكُونَ تَرْنِيمَاتُ هَدَسَّةِ وَقِصَصُهَا بِاعْتِنَاءٍ عَلَى الشَّرُّورِ كَحَالِهَا دَائِمًا، غَيْرَ أَنَّهُنَّ أَرْعَجْنَهَا الْآنَ، مُخْلَفَاتٍ لَدَيْهَا فَلَقًا لَمْ تَسْتَطِعْ تَبْدِيدَهُ. كَذَلِكَ أَيْضًا فَعَلَبَتِ الْفَتَاةُ الْعَبْدَةَ مِثْلَ ذَلِكَ. فَقَدْ شَكَّلَتْ طَهَارَتُهَا وَمُعْتَقَدَاتُهَا غَيْرُ الْمُفْسَدَةِ تَحْدِيًا ثَابِتًا لَجُولِيَا. بَلْ كَانَ أَكْثَرَ إِزْعَاجًا بَعْدَ الشُّعُورِ بِالقِنَاعَةِ ذَاكَ الَّذِي كَانَتْ هَدَسَّةُ حَاصِلَةً عَلَيْهِ فِي مَا يَظْهَرُ: أَمْرٌ لَمْ تَخْتَبِرْهُ جوليا فِي حَيَاتِهَا قَطُّ. فَكَيْفَ يَتَأْتَى لِعَبْدَةٍ لَيْسَ لَهَا أَيُّ شَيْءٍ أَنْ تَكُونَ سَعِيدَةً، فِي حِينِ أَنَّهَا هِيَ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ رُغْمَ حَيَازَتِهَا كُلِّ شَيْءٍ؟

وَأحيانًا، قَدْ تَكُونُ جَالِسَةً تُصْغِي إِلَى صَوْتِ هَدَسَّةِ العَذْبِ فَإِذَا بِمَوْجَةٍ مِنَ البُغْضِ الشَّدِيدِ لِلْفَتَاةِ تَحْتَاكُهَا. وَلَكِنْ بِسُرْعَةٍ مِمَّا تَلِيهِ يَأْتِي فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ شَعُورٌ عَمِيقٌ بِالخِزْيِ وَالْحَنِينِ، تَارِكًا إِيَّاهَا مُرْتَبِكَةً وَتَوَاقَّةً إِلَى شَيْءٍ لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْدِيدَهُ.

نَبْضٌ صُدْغَاها. فَضَغَطَتْهُمَا بِرُؤُوسِ أَصَابِعِهَا، وَأَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا وَفَرَكَتْ، وَلَكِنْ الْأَلَمَ لَمْ يَتَلَّاشَ. كَذَلِكَ أَيْضًا لَمْ تَتَبَدَّدْ سِيْمَاءُ كَايْسِ قَبِيلَ مَوْتِهِ، وَلَا كَلِمَاتِهِ الْأَخِيرَةَ الَّتِي تَفَوَّهَ بِهَا لَاهِنًا.

”لا تحسبي أن الأمر قد انتهى...“
لقد عَلِمَ حَقًّا.

”لقد تمَّ التوقيع على كلِّ شيء وبات جاهزًا كي يتسلَّمه وكلائي“. قال دَسِمُس هذا، مُومئًا برأسه نحو رزمةٍ من اللقائف الورقيَّة الملفوفة على مكتبه في البليوتيكَا.
وقال مَرُقس: ”لا يَسْعُنِي أن أُصدِّق أنَّكَ قد أنجزت الأمرَ فعلاً“.

فقال دَسِمُس على نحوٍ جازم: ”ما أزال أفكِّر منذ مُدَّةٍ من الزَّمن في نَقْل مَقَرِّي الرئيسيِّ. إنَّ جميعَ أصولي الماليَّة ستحوَّل رسميًا إلى مَصْرِفَيْنِ في أفسُس. فإنَّ أفسُس هي أقوى ميناءٍ في كلِّ بحار الإمبراطوريَّة، وهي أقربُ إلى القوافل الشرقيَّة، حيثُ اصطنعتُ مالاٌ مُحترَمًا على مرِّ السنين. وإذ تتركزُ المُستورَدات الغاليريانيَّة في أفسُس، فإنَّها ستظلُّ تُمدُّ روما بما تحتاج إليه من سِلَعٍ أجنبيَّة“.

”كيف يُمكنك أن تفعلَ ذلك، يا أبي؟ أليس لديك عرفانٌ بجميل المدينة التي آتتكَ الازدهارُ في المقام الأوَّل؟“

مرَّت لحظةٌ طويلةٌ في أثناءها لم يُقلِّ دَسِمُس شيئًا. لقد أخذت روما منه أكثرَ ممَّا أعطت. وجمهوريَّة روما العظيمة والمحترمة قد ولَّت من زمان. فعلى الرُّغم من كلِّ ما بقي من جمالٍ وعظْمَة، وجدَّ نفسه عائشًا على سطحٍ جُتَّةٍ مُتخلِّلة. ولم يُعد قادرًا أن يحتملَ النَّتانة أو يقفَ جانبًا ويُشاهدَ كيف أثرُ فسادِ الإمبراطوريَّة وانحلالها في ابنه وابنته بعينهما. فلعلَّه إذا رحلَ يُتاح له أن يجذبَهما بعيدًا هما أيضًا.

”يَحزُنُنِي، يا مَرُقس، أننا لم نَرَ الأمورَ قطُّ من زاويةٍ واحدة. وربَّما هكذا يجب أن تكونَ الحالُ بين أبٍ وابنه. فأنا لم أتَّفِقْ مع أبي أيضًا. ولو فعلتُ ذلك، لكننتُ صاحبَ دُكَّانٍ قُربَ أرصِفَّة الميناء في أفسُس“.

هَبَّ مَرُقس واقفًا. ”كيف يتأتَّى لي أن أجعلكَ تنظرُ بعينِ العقل؟ إنَّ العاطفةَ لا تكفي لنقلِ مقرِّ تجارةٍ مُزدهرة، أو استئصالِ عائلةٍ وُلدت ونشأت في روما. إنَّ جميعَ الطُّرق تؤدِّي إلى روما. فنحنُ محوِّرُ المدنيَّة!“

فقال دَسِمُس مُتجهِّمًا: ”لِتَحفظنا الألهة إذا كان الأمر كذلك!“

وأدرك مَرُقس أنَّه لن يصلَ إلى نتيجة. فإنَّ أباه كان قد تكلمَّ أغلب الأحيان بشأنِ الرجوعِ إلى أفسُس حتَّى كادت أذناه تُصمَّانِ حيالَ الأمر، مُستعيدًا إيَّاه باعتباره أحلامَ رجلٍ

هَرِمٍ يَخِيبُ الآمَالَ. وَلَمَّا طَرَحَتْ أُمُّهُ مَسْأَلَةَ الرَّجُوعِ إِلَى أَفْسُسَ، قَالَ لَهَا إِنَّ مَغَادِرَةَ رُومًا غَيْرَ واردة من وجهتي النظر التجاريَّة والشخصيَّة. لقد ارتاعت فوق الحدِّ من تحمُّسِهِ، وهو الآن أدرك السبب. فالقرار قد حُسم، ولم تكن له يدٌ فيه. ولن يفوز بمُساعدةٍ منها في تَنبِي أبيه عن عزمه. وهي أرادت أيَّ شيءٍ يجعلُ والده سعيدًا. فإذا حسب أبوه أنَّ الرَّجُوعَ إِلَى مَوطِنه الأصليِّ سيُسعِدُه، فمن شأن أمه أن تمضي دون أن تهمس بكلمة واحدة تُفيد المُعارضة.

من ثمَّ قال مَرْقُس - عالمًا أنَّه سيكون له في جوليا نصيرٌ - ”وماذا بشأن جوليا؟ ماذا ستقول بشأن مشروعك هذا؟ أم هل كلَّفت خاطرك فقلَّت لها أصلًا؟“
”إنها ذاهبةٌ معنا.“

فضحك مَرْقُس ضحكةً سُخريَّة. ”هل تعتقد ذلك حقًا؟ ستضطرُّ إلى جرِّها إلى السفينة. إنها تُصارحُ كفايةً اضطِرازها إلى المكوث هنا تحت سقِّفك مُجددًا.“

”كلَّمْتُ أختك صباحَ اليوم وأطلعتها على خُططي. وقد بدت مُرتاعةً تقريبًا إلى فكرة مُغادرة رُوما. يُخيَّل إليَّ أنَّ حزنَها من جرَّاء فقدان كائسٍ يحملها على ذلك. فهي تريد أن تكون بعيدةً عن كلِّ ما يُدكرها به“. أو ربَّما كان من نتيجة زيارةٍ من قِبَل كالباه فنتانيوس أن باتت جوليا شاحبةً وكتومًا، وتواقَّةً إلى مُغادرة رُوما.
حدَّق مَرْقُس إلى أبيه، مصعوقًا.

فقال دَسِمُس: ”كلَّمها بنفسك إن كنت لا تُصدِّقني.“

عبَسَ مَرْقُس، مُتسائلًا عن إذعان جوليا. أكانت مَفجوعةً إلى هذا الحدِّ، أم تعلق بإذعانها شيءٌ يتخطى ما تراه العين؟ غير أنَّ مشاعره الشخصيَّة حيال قرار أبيه كانت أكثر من قلقه بشأن مشكلات جوليا. ”ماذا يكون لو قلت لك إنني لست راعبًا في مُغادرة رُوما؟ أمِن شأن ذلك أن يؤجِّل هذا القرارَ الذي قرَّرته دون مُشاورتي؟“

فقال دَسِمُس مُتصلبَ الوجه: ”أمِن الضَّروريِّ أن يُشاوِرَ أبُ ابنته في أيِّ شيءٍ؟ سأفعلُ ما ينبغي لي دون التماسِ مُوافقَتِكَ. في وَسعك أن تُقرِّر قراراتِكَ الخاصَّة. فابق في رُوما إذا سرَّكَ ذلك.“

أحسَّ مَرْقُس صدمةً الخِذلان. ونظرَ في عيني أبيه فرأى العزيمة وصلابة الإرادة اللتين بنتا إمبراطوريَّته التجاريَّة.

فقال: ”رَبِّمًا أبقى. فأنا رومانيٌّ، يا أبي. بالولادة. إنني أنتمي إلى هنا.“

”نصفُ الدِّمِ الذي يجري في عروقك أفسسي، سواءً أفخوراً كنتَ بهذه الحقيقة أم لم تكن“.

هل كان ذلك هو ما اعتقد أبوه أنه كيحه؟ ”أنا فخورٌ بأن أكون ابنك، وما استحيْتُ قطُّ بِثرائي“.

شعرَ دَسِمُسُ بندم شديد على كَوْنِ العلاقة بينه وبين ابنه قد باتت مُتوتِّرةً جدًّا بحيث شعرَ بعدم قُدْرته على الإفْضَاءِ إليه بقرار الانتقال. ”رجائي أن تُقرَّرَ مُرافقتنا، ولكّني أكرِّرُ أنَّ الخِيارَ بيدك“. ثم تناولَ دَرْجًا من كومة الدُّرُوج. ”علمتُ أنه سيكونُ قراراً صعباً عليك“. وناولَه الدُّرُج.

تناول مَرْقُسُ الدُّرُج. وفيما هو يفضُّ الختم وينشرُ الدُّرُج، قال: ”ما هذا؟“ قال دَسِمُسُ ببساطة: ”مِراثك“، وعلى وجهه سيماءٌ حُزنٍ لا يُسيِّرُ غوره. أجالَ مَرْقُسُ حَمَلقته بين أبيه والوثيقة التي في يده. وقرأ بضعةً أسطرٍ ثم دَبَّتْ فيه البرودة. لم يكنِ الابنُ يُعطى قطُّ وثيقةً كهذه فيما أبوه ما يزال حياً... إلا إذا كان الابنُ يُطرَدُ من العائلة. ففي ذهن مَرْقُسُ، أمكنَ وجودُ سببين فقط لإعطاء أبيه إيَّاه شيئاً كهذا: إمَّا أنَّ دَسِمُسُ قد يئسَ من ابنه، وإمَّا أنه قد يئسَ من نفسه. ولم يكنِ في وَسعِ مَرْقُسُ أن يتقبَّلَ أيَّ الخِيارين. فرفعَ نظره، مُوجِّعاً وغازباً.

”لماذا؟“

”لأنِّي لا أدري بأيِّ أسلوبٍ آخر أخبرُك بأن لا نيةً لديّ لإرغامك على فعلِ أيِّ شيءٍ يُخالِفُ إرادتك. لقد برهنتُ أنَّك رجلٌ منذ زمنٍ طويل“. وتنهَّدَ بِمَشَقَّة. ”ربّما إذا ذهبَ معنا تشناق إلى روما مثلما اشتقتُ أنا إلى أفسس. لا يسعُنِي الجُزْمُ، يا مَرْقُسُ. يجب أن تُقرَّرَ بنفسك المكان الذي تنتمي إليه في هذا العالم“.

وإذ غمّرت مَرْقُسُ مَشاعِرٌ مُتضاربةٌ قويّة، وقفَ صامتاً ويده مُطبَّقةً على الوثيقة.

نظر دَسِمُسُ إلى ابنه بحُزن. ”رغمَ جنسيّتي الرومانيّة، والازدهار الذي أعطتني إيَّاه هذه المدينة، أنا أفسسي“. وبسطَ راحةً يده مُلامِسةً مكتبته. ”أريدُ أن أدقنَ في بلدي“.

إنَّه مائت! هذا الإدراكُ المُفاجئُ صعقَ مَرْقُسُ، مُفرِّغاً رثيته من الهواء. وإذا كان مَشدوها، والدُّرُجُ المطويُّ في يده. كان ينبغي أن يدركَ ذلك عاجلاً. ولعلَّه أدركه فعلاً، غير أنه رفض أن يُواجهه حتّى الآن، حين لم يكن لديه خيار. وعلى كلِّ حال، كان أبوه فانيًا. فنظرَ إليه ورأه

على حقيقته: أشيبَ وهَرِمًا وبَشَرِيًّا تامًّا. فألّه ذلك .

وقال: ”إِذَا، هَذَا الْمَرَضُ الَّذِي ابْتُلِيَتْ بِهِ لَيْسَ بِزَائِلٍ“ .
”لا“

”منذُ متى عَلِمْتَ؟“

”من سنة، أو ربّما سنتين“ .

”لماذا لم تُخبرني قبلَ الآن؟“

فقال بصراحة: ”لطالما رأيتني كلَّ حينٍ قوَّةً فعالَةً في حياتك، شيئًا تُنافِسه وتُعارضه. وربّما كانت الكبرياءُ هي السبب. فإنَّ الرجلَ لا يروقه أن يتقلَّصَ في عيني ابنه الوحيد“ .
ثمَّ سحبَ يده عن المكتب. ”ولكنَّ لا بدَّ لنا جميعًا من أن نموت، يا مرقس. فهذا قدَرنا“ .
ولاحظَ التآثر الذي عبَّرتُ عنه عينا مرقس. ”لم أقلَ لكَّ ذلكَ الآنَ لكي أجعلَكَ تشعرُ بالذنب، ولا بأنك مُلزَمٌ بأيِّ شكلٍ من الأشكال“ .
”لا؟“

أجاب دَسِمُسُ مؤكِّدًا: ”لا! ولكنَّ هنالك قرارًا ينبغي أن تُقرَّره. والأفضلُ أن تَنبَسِطَ أمامَكَ جميعَ الحقائق عندَ القيامِ بذلك“ .

علمَ مرقسُ أنَّه إنَّ لم يذهبْ مع عائلته إلى أفسس فلن يرى أباه أبدًا على قيد الحياة مرَّةً أخرى. فوقف، ولفَّ الدَّرَجَ من جديد، ومدَّ يده به. ولكنَّ أباه لم يأخذه.

”مهما كان قرارك، فكلُّ ما هو مُدرَجٌ في هذه الوثيقة هو لك منذُ الآن، تتولَّى إدارته أو تُبدِّده وتبيعه قطعةً قطعة. فافعلْ به كما تشاء. وبالتدبير الحَسَن، لدى جوليا أكثرُ بما يكفي لإيقائنها في بحبوحة مدى الحياة. وقد أعددتُ ترتيباتٍ لأجل أمك“ .

حدَّقَ مرقسُ إليه من علِّ. هلِ استسلمَ أبوه ببساطة؟ ألنَّ يُقاتِلَ هذا الأمرُ أبدًا؟ فأنَّ يُدعِنَ دَسِمُسُ قنداشيوسَ فاليريانَ للموت بسهولة كان أمرًا غيرَ وارِد. ومع ذلك، فهذا هو ذاك الأمرُ بعينه يُحدِّقُ إلى مرقسَ وجهًا لوجه، ومعه حقيقةٌ كونِ أبيه - حتَّى عندَ استِسلامه واستِلقائه كي يموت - يُمسِكُ الأمورَ بقبضةٍ من حديد.

”أه، نعم، يا أبي، لقد دَبَّرتَ أمرَ كُلِّ مِنَّا. فملكِيَّةُ جوليا في يدي، وحياتُ أمِّي مرْتَبَةٌ حتَّى لحظة وفاتها، بل حياتي أنا أيضًا مرْتَبَةٌ بإحكام تام!“ ثمَّ رفعَ الدَّرَجَ بيده. ”في لحظة واحدة، تُخبرُني بأنك تموت، ثمَّ تسلُبني حرِّيَّتي بتسليمي كلَّ ما بنيتُه وعملتُ في سبيله، مُسلِّمًا إِيَّايَ

روما

حياتك في وثيقة“. وَعَصَنَ الدَّرَجَ فِي يده. ”نَمْ تَكُونُ لَكَ الجِراءُ الكاملة لِتَقُولَ لِي إِنَّ يَدَيَّ خِيارًا فِي ما سَأفعلُهُ!“ ورمى الدَّرَجَ المُعَصَنَ على المكتب بين الدَّرُوجِ الأخرى .
وقال: ”أَيُّ خِيار؟“ نَمْ انصرف .

ابتسم ثروفيمس إذ اندفعت هَدَسَة إلى كِشِكِه حاملةً سَلَّتِها. ”لقد افتقدناكِ، أَيْتُها الأختُ الصغيرة“ .

قالت بهدوء- وعيناها غائمتان- ”لقد رجعتُ إلى دارة قَاليريان“. فلَمَّا رُدَّتْ إلى جوليا، عادت إلى حضور الاجتماعات الليلية. وحالما انتقلت جوليا لتُقيمَ مع أبويها من جديد، أطاعت أمرَ مَرَقُسَ بألا تُغادرَ الدَّارةَ إلا إذا أمرتَ بذلك .

وقد فهمَ ثروفيمس واقعَ الحال . فإنَّ هَدَسَة كانت قد طرحتَ مأزِقَها أمامَ الآخرين، وهم حاولوا أن يُساعِدوها كي تُقرَّرَ ما يُريدُ منها الربُّ أن تفعل . فإلَكي تَعَبَّدَ الربُّ مع الآخرين، لا بُدَّ لها من أن تتحدَّى سادَتِها. ولَمَّا كانت عبدة، فقد وجبَ عليها أن تخدمهم وتُطيعهم . ولم يكن مَرَقُسَ قد قال إنَّها لا تستطيعُ أن تَعَبَّدَ الله، بل إنَّها لا تستطيعُ أن تَعَبَّدَ مع الآخرين فحسب . فقرَّرتَ أنه يجبَ عليها أن تُطيعَ مَرَقُسَ، فتُصَلِّيَ وتتعبَّدَ كما كانت تفعلُ قبلَ التقائها ثروفيمس .

نَمْ سألَها ثروفيمس: ”أأنتِ في مَهَمَّةِ جِئارةِ اليوم؟“ مُتسائلاً هل غيَّرتَ رأيَها وأرادتَ أن تكونَ مع آخرين يُشارِكوتَها في الإيمان .
”عَرَضتُ لسَيِّدتي فجأةً رَغبةً مُلِحَّةً في المِشمِش“ .

كان في وَسعِ التاجر أن يجزَمَ بأنَّها مُضطربة، ولكنَّه لم يُلحَ عليها، بل قال: ”سَتُضطرُّ سَيِّدَتُكِ إلى مُعانةِ هذه الرَغبةِ المُلِحَّة، على ما يبدو لي . فلا أحدٌ من باعةِ الفواكه حصلَ على مِشمِش طيلةِ أسابيع . إذ أتلفتِ المحصولَ أَقفةً زراعيَّةً في أرمينيا“ .
فقالَ بكلِّ اكتئاب: ”أه!“

”هل تتوق سَيِّدَتُكِ دائِماً إلى ما هو غيرُ مُتوافِر؟“

رفعتَ هَدَسَة نظرها إليه، فعَبَسَ . وربَّتَ يدها، قائلاً: ”هذه حالُ الروحِ الفَلِقة، أَيْتُها الأختُ الصغيرة . سنُعطيها بدلَ المِشمِش تيناً، تيناً فاحراً شهياً من أفريقيا“. نَمْ انتقى أفضلَ الثمارِ ووضَعَهُنَّ في سَلَّتِها. ”وقد وصَّاني تَوًّا كَرَّرُ من منطقة البحر الأسود . هاكِ، ذُوقي بِضَعِ حَبَّات . سأحدِّدُ لكِ سِعراً جيِّداً“ .

فحاولت أن تُضاهي مزاجه الطيب، قائلة: ”أسعارك دائماً جيدة“. وأكلت حبة كرز، ثم أضافت: ”أعتقد أن السيدة جوليا ستحب هذا الكرز، فهو حلو جداً“.

انتقى تروفيمس أفضل حبات الكرز فقط. ولم يستطع أن يكبح فضوله بعد. ”ماذا يُقلِّقك، أيتها الأخت الصغيرة؟“

فقالت برقة: ”السيد يموت. وهو يعتقد أن رجوعه إلى موطنه الأصلي سيؤتيه السلام“. ثم اقتربت إلى تروفيمس بعينين واسعتين ومضطربتين. ”لقد وُلِد في أفسس“.

تردد تروفيمس. فقد وثبت إلى شفقيته كلمات قلتي وتحذير. ولكن هُدسة كانت تحتاج إلى تشجيع، لا إلى قصص قائمة عن مدينة أشد قنماً بعد. ”سمعت أن أفسس هي أجمل ميناء في الإمبراطورية كلها. فالشوارع من رخام أبيض، وفي مُحاذاتها كثير من الأعمدة والهيكل“.

فقالت هُدسة: ”إنهم يعبدون أرطيمس“.

أجاب: ”ليس الجميع. ففي أفسس مسيحيون. وفيها الرسول يوحنا“.

أشرفت عينا هُدسة. الرسول يوحنا! فحسبما تُسَعِّفها الذاكرة، ما يزال يوحنا جزءاً من حياتها. بالنسبة إلى الآخرين، كان واحداً من المُكرِّمين، واحداً من المُباركين الذين اختارهم الرب كي يمشوا معه في أثناء آخر ثلاث سنين له على الأرض، ومن ثمَّ كان المؤمنون يُعاملونه بمهابة، بل برهبة أيضاً. فقد كان يوحنا بين أوَّل من اختارهم الرب. وكان حاضراً في عرس قانا، حيث حوَّل السيد المسيح الماء إلى خمر. وهو رأى السيد المسيح يُقيم ابنة يائرس من الموت. وكان على الجبل عندما تجلَّى الرب يسوع وظهر إيليا وموسى ليتكلَّمَا معه. وكان يوحنا أقرب ما يُمكن إلى السيد المسيح في أثناء كُزبه الشَّديد في البُستان. وهو من شغل مكان الصداقة الحميمة في العشاء الأخير الذي رتبه الرب. ويوحنا تسمَّع إلى مُحَاكَمَة السيد المسيح، ووقف مع مريم عند الصليب. وقد حضر إلى القبر وشاهد الأكفان الفارغة، وكان واحداً من أوَّل الذين آمنوا.

ثمَّ إنَّ يوحنا كان آخر حلقة ربطتها بأبيها، لأنَّه كان مع الرب يسوع يوم لمس نعش أبيها وأقامه من بين الأموات.

لقد أحبَّت يوحنا تقريباً بمقدار ما أحبَّت أباها. وكان في وسعها أن تتذكَّر فُعودها في حُضن أبيها في عِلِّيَّة مدينة القدس في أثناء الاحتفال بالعشاء الأخير إبَّان فصْح المدينة. آنذاك غلبها التُعاس على ذِراعِي أبيها وهي تسمَّعُ إلى يوحنا وأبيها والآخرين مُتحدِّثين

بشأن الربِّ: ما قاله وما فعله. وقد كان يوحنا واحداً من أصدقاء أبيها. فيا ليتها تستطيع أن تتصل به... ولكن أفسس كانت مدينة كبيرة. إنما فرصُ التقاء يوحنا كانت شبه معدومة. وإذا بصيصُ الأملِ الضئيلِ الذي لاحَ لهُدسَة يخبو ويتلاشى.

ومضى ثروفيمس قائلاً: ”سمعتُ مرَّةً أن أمَّ يسوع، مريم، جاءت مع يوحنا إلى أفسس. أوه، ما كان أروعها من بركة أن تُقابلَ المرأةَ التي حملت ربنًا!“ ثمَّ نظرَ إلى هُدسَة مُبتسماً، وما لبثَ أن لاحظَ أنها ترتجف. فغطَّت يدهُ الكبيرةُ يدها، وعيناه مملوءتان اهتِمامًا. ”م تخافين حقًا، أيتها الأختُ الصغيرة؟“

أخذت نفسًا مرتعشًا. ”من كلِّ شيء. أنا خائفةٌ من كلِّ ما يُعلي هذا العالمُ من شأنه ويحسبه عزيزًا. خائفةٌ من الألمِ والعذاب. وأحيانًا، أخافُ من جوليا. إنَّها تفعلُ أمورًا رهيبية دونَ تفكيرٍ في العواقب. ثروفيمس، إنَّ شجاعتي تخذلني عند كلِّ فرصةٍ يُعطيني الربُّ إيَّها. حتَّى إنِّي أحيانًا أتساءلُ عن كوني مؤمنةً حقيقيَّة. فإذا كنتُ كذلك، أفما أكونُ مستعدةً للمخاطرة بحياتي كي أتكلِّمَ بالحقِّ؟ هل تهتمُّ مكابدةُ موتٍ مؤلمٍ؟“ وتلاأت عينها بالدُموع. لقد كانت تخافُ أكثرَ الكلِّ من المشاعر التي يُثيرها مرقسُ فيها، ولا سيَّما إذ كانت هذه أخذةً في الازديادِ حدَّةً وشِدَّةً.

وقال ثروفيمس: ”هل كان إبليًا شجاعًا في مواجهة تهديداتِ إيزابيل؟ لا! فإنه كان قد أهلكَ توتًا بضعَ مئاتٍ من أنبياءِ الإلهِ بعل، ولكنَّه هربَ من امرأةٍ واختبأ في مغارة. وهل كان بطرس شجاعًا لما ألقى الحُرَّاسُ القبضَ على ربنا يسوع؟ لقد جعله الخوفُ يُنكرُ ثلاثَ مرَّاتٍ أنه يعرفُ الربِّ. هُدسَة، إنَّ السيِّدَ المسيحَ نفسه عرقَ دمًا في البستانِ وطلبَ أن تعبرَ عنه الكأسُ إذا شاء الأب“. ثمَّ ابتسمَ لها ابتسامةً رقيقةً، وأضاف: ”إنَّ اللهَ سيُعطيكَ الشجاعةَ عندما تحتاجين إليها“.

فتناولت يدهُ وقبَّلتها. ”ماذا سأفعل من دونكم جميعًا مُشجعينَ إيَّاي؟“

”معكِ الربِّ. وهو يعولُ النَّفسَ ويعضدها“.

”سأفتقدك أنتِ والآخرين كثيرًا جدًّا. فحتَّى حينَ كنتُ لا أستطيعُ أن أحضُرَ بينكم، كان في وسعي أن أقفَ في الحديقة وأعبُدَ الربَّ معكم. إنَّ أفسسَ بعيدةٌ جدًّا“.

”نحنُ جزءٌ من الجسد الواحد، أيتها الأختُ الصغيرة. فلا شيءَ يمكنُ أن يفصلنا عنِ الربِّ، وفيه نحنُ كلُّنا كيانٌ واحد“.

فأومات برأسها موافقةً، وقد تقوَّت بما قاله، وإن كان ذلك لم ينزع حُزنَها. ”رجاءٌ، واطلبوا

على الصلاة لأجل آل فاليريان، ولا سيّما لأجل جوليا“.

وأوما تُروفيُمس برأسه مُوافقاً. ”وسنُصَلِّي لأجلِك أنتِ“. ثمّ وضع يديه على كتفيها وضغطهما برفق. ”سنرى بعضنا بعضاً من جديد عندما نرحلُ إلى حضرة الرَّبِّ“.

راقب تُروفيُمس هدسة تتوارى في الزحام. سيشتاق إليها. وسيفتقد صوتها العذب وسيماء وجهها حين تُرتل المزامير. إنّ روحها المتضعة قد أثرت فيه، وفي زوجته والآخرين، تأثيراً عميقاً، أعمق ممّا يمكنُ أن تعرفَ على الإطلاق.

ياربُّ، احمها. أقم ملائكة حولها. سوف تقف ضدّ جميع قوّات الشرِّ في تلك المدينة. احرسها من الشرير. سيّج حولها وقوها بروحك. اجعلها نوراً على قمة جبل.

وفي ما بقي من ذلك النهار، صلّى تُروفيُمس لأجلها في أثناء عمله. وقد نوى أن يطلب من الآخرين أن يصلّوا لأجلها أيضاً.

فإذا كانت روما فاسدةً وخطرة، فإنّ أفسس كانت عرش الشيطان بعينه.

أقسس



٢٧

وقفت هَدَسَة على ظهر القُرْبِيطة الرُّومانيَّة (سفينة تجاريَّة بطيئة الإبحار)، مالتة رثتيها بهواء البحر المُشْبَع بالمَلح. وكان قَوْسُ مُقَدِّمِ السَّفِينَةِ المرتفعُ يهوي ثُمَّ يعلو من جديد، مرَّسلاً إلى الهواء رَشاشًا من رِذاذِ الماء البارد. وقد هبَّت رِيحٌ قويَّة، فنفتحت الأشرعة الرُّباعيَّة الأضلاع، وتولَّى البحَّارةُ تشغيلَ الحِبال. فتذكَّرتُ إذ ذاك بحرَ الجليل وأصوات صيَّادي السَّمك عائدِين بصيْدِهِم في نهاية اليوم. وما أكثرَ ما تمثَّت مع أبيها على طول الشاطئ بقُربِ الأرصِفة وسمعتِ الرِّجالَ يصيحون ذهابًا وإيابًا.

نظرتُ هَدَسَة البحَّارةَ وهم يقومون بأعمالهم حوَّاليها، فتذكَّرتُ كلماتِ أبيها. "كان بطرسُ مثلَ هؤلاء. كذلك يعقوبُ ويوحنا، ابنا الرَّعدِ كما سمَّاهما الرَّبُّ. إذ كانوا ثلاثتهم دُنْيويِّين أحيانًا، وغالبًا ما غمَّرتهم الاعتِدادُ بالذَّاتِ."

لقد اختار اللهُ أشخاصًا مثل هؤلاء. وفي هذا وجدتُ هَدَسَة رجاءً. فإنَّ السيِّدَ المسيحَ لم يختَرِ أناسًا كان من شأنِ العالمِ أن يختارَهم. إذ انتقى رجالًا عاديين، ذوي عيوبٍ ظاهرة، وحوَّلهم إلى أشخاصٍ رائعين بروحه القُدوس الساكن فيهم.

يا ربِّ، أنا ضعيفةٌ جدًّا. أحيانًا أشعرُ بأنِّي قريبةٌ منك كثيرًا بحيثُ أرغبُ في البُكاء، وأحيانًا كثيرةٌ لا أستطيعُ أن أحسَّ حُضورَكَ البتَّة. ومرقسُ، يا ربِّ... لماذا أنا مُنجذبةٌ جدًّا إلى مرقسٍ؟

رَبَّتِ الرِّيحُ وجَهِها إذ استدارت من جديد كي تُراقبَ تلالُؤَ النُّورِ مُنعكِسًا عن زُرقةِ الماءِ الشديدة. كان كلُّ شيءٍ رائعا: المناظر، الرائحة، إحساسُ الحرَّةِ فيما السَّفِينَة تتحرَّك على مدى المياه المُنبَسِّط. وإذ طردت من ذهنها الأفكارَ والميولَ المُرعِجة، أطبقت عينيها ورفعت التَشكُّرات من أجل حياتها، ومن أجل الجمال الذي خلقه اللهُ، ومن أجلِ اللهُ نفسه.

أنتُ هنا، يا ربِّ. أنتُ هنا وحوَّالي. ليتني أستطيعُ دائمًا أن أحسَّ حُضورَكَ بهذا العمقِ البالغ. يا ربِّ، أتوقُّ لأنَّ أجثوُ أمامك يومًا وأتعبَّد لك إلى الأبد.

صعدَ مرقسُ من جوفِ السَّفِينَة، وراها على المُقدِّم. لم يكن قد رآها منذ أربعة أيَّام، فاضطربت أحاسيسُه. وإذ اقترب منها، تلقى مُنحنياتِ جِسمِها النحيلَة وطريقةَ تطايرِ حُصَلِ شعرها الدَّاكن حول رأسها. ثُمَّ وقفَ بجانبها تمامًا، مُتشرِّبًا حلاوةَ منظرِها الجانبيِّ الصافي.

وهي لم تُلاحِظه، لأنَّ عَيْنَيْهَا كاتتا مُعْمَصَتَيْنِ وَشَفَتَيْهَا تَتَحَرَّكَانِ. فَأَخَذَ يَتَأَمَّلُهَا مَسْلُوبَ اللَّبِّ. لَقَدْ بَدَتْ مُفْعَمَةً بِأَطْهَرِ نَوْعٍ مِنَ الْمَسْرَةِ، كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْشَقُّهُ حَتَّى الْأَعْمَاقِ. وَمَا إِنْ قَالَ: ”أَتُصَلِّينَ مِنْ جَدِيدٍ؟“ حَتَّى رَأَاهَا تُجِئِلُ. لَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ تَأَسَّفَ عَلَى زِعْزَعَتِهِ صَفَاءَهَا. ”يُجِئِلُ إِلَيَّ أَنْكِ تُصَلِّينَ بِلا انْقِطَاعِ“.

فَتَوَرَّدَ خَدَّاهَا وَأَطْرَقَتْ رَأْسَهَا، وَلَمْ تَنْبِسِ بِنْتِ شَفَةِ. مَاذَا يَسْعُهَا أَنْ تَقُولَ وَهُوَ قَدْ ضَبَطَهَا فِي فِعْلِ عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَمَا أَمَرَهَا بِأَلَّا تَفْعَلَ ذَلِكَ؟ تَمْتَنِي لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ، بَلْ بِالْأَحْرَى لَوْ وَقَفَ بِجَانِبِهَا مُتَشَرِّبًا سَلَامَ قِنَاعَتِهَا، وَلَا سَيِّمَا إِذْ بَدَأَ أَنْ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَحْوِزَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ شَخْصِيًّا. ثُمَّ تَنَهَّدَ قَائِلًا: ”لَسْتُ غَاضِبًا عَلَيْكَ. صَلِّيْ كَمَا تَشَائِنِ“.

عِنْدئذٍ نَظَرَتْ إِلَيْهِ، فَاحْتَرَفَتْهُ حَلَاوَةُ سِيَمَائِهَا الرَّقِيقَةِ. وَتَذَكَّرَ الشُّعُورَ الَّذِي خَالَجَهُ عِنْدَ تَقْبِيلِهَا. ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وَدَسَّ خُصْلَةً مُتَمَرِّدَةً مِنْ شَعْرِهَا وَرَاءَ أُذُنِهَا. وَتَغَيَّرَتْ سِيَمَاؤُهَا قَلِيلًا، فَانزَلَ يَدَهُ.

وَإِذَا أَرَادَ لَهَا أَنْ تَسْتَرْخِيَ مَعَهُ، قَالَ بِمَا أَمَكْنَهُ مِنْ عَفْوِيَّةٍ: ”قَالَتْ أُمِّي إِنْ جُولِيَا كَانَتْ مَشَاكِسَةً. وَأَعْتَقِدُ أَنَّهَا مُحَسَّنَتْ“.

”نعم، سيدي“.

جَعَلَتْهُ رِدَّةً فَعَلِيهَا الْهَادِئَةُ الْخَانِعَةُ يُطْبِقُ أَسْنَانَهُ بِأَحْكَامٍ مِنَ الْغَيْظِ. وَحَوَّلَ نَظْرَهُ عَنْهَا إِلَى الْبَحْرِ كَمَا كَانَتْ هِيَ فَاعِلَةٌ. ”لَمْ أُلَاحِظْ قَطُّ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ مَوْقِفَ احْتِرَامٍ لِأَنَّهَا مِنْ قِبَلِ عَبْدَةٍ يُقِيمُ مَسَافَةً بَعِيدَةً إِلَى أَقْصَى حَدِّ بَيْنِ كَائِنَيْنِ بَشَرِيَّيْنِ“. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ، قَائِلًا عَلَى نَحْوِ مُبَاشَرٍ وَأَمْرٍ: ”لِمَاذَا تَبْنِينَ أَسْوَارًا بَيْنَنَا؟“ لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَدِكْ حُصُونَهَا وَيَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا. فَلَمْ تُجِِبْ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّهَا كَافَحَتْ. ”أَبْنِغِي أَنْ تَقُولِي دَائِمًا سَيِّدِي، يَا هَدَسَّة؟“

”كما ينبغي أن أقول“.

”وَإِذَا أَرَدْتُ أَنَا خِلَافَ ذَلِكَ؟“

شَعَرَتْ هَدَسَّةُ بِأَنَّ كَلِمَاتِهِ أَفْقَدَتْهَا تَوَازُنَهَا، فَمَدَّتْ يَدَيْهَا وَتَشَبَّثَتْ بِحَافَةِ السَّفِينَةِ. وَوَضَعَ مَرْقَسَ يَدِهِ عَلَى يَدِهَا، فَصَعَقَتْهَا حَرَارَةُ لَمْسَتِهِ. وَحَاوَلَتْ أَنْ تَسْحَبَ يَدَهَا، وَلَكِنَّهُ أَمْسَكَ بِهَا وَأَبْقَاهَا حَيْثُ كَانَتْ، أَسِيرَةً. فَقَالَتْ مُتَوَسِّلَةً: ”سَيِّدِي“.

وَسَأَلَهَا بِخَشُونَةٍ: ”أَبْقِيَتِي فِي جَوْفِ السَّفِينَةِ مَعَ جُولِيَا لِأَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْكَ، أَمْ لِكَيْ

تتوازي عني؟“

فقالت: ”رجاء!“ إذ أرادت أن يُطلقَ سراحها، وقد رُوِّعها تدفقُ الإحساسات التي أثارَتها لمسَّته فيها.

”رجاءٌ منِّي. ناديني «مرقس»، مثلما فعلتِ في حديقة كلاوديوس من زمانٍ بعيد. هل تذكرين؟ لقد قُلْتِ مرقس كما لو كنتِ أعني لكِ شيئاً“. لم يكن قد قصَدَ أن يتكلَّم بمثل هذه الجرأة، ولا أن يُطهرَ هذا القدرَ البالغَ من مشاعره حيالها. لكنَّه لم يُعدَ قادرًا على إبقاء الكلمات دفينَةً في داخله. وقد وقفت هي ساكنةً جدًّا، وقد رنتَ إليه بعينيها السوداوين الجميلتين - وهو أرادها فعلًا. ”قُلْتِ لي مرَّةً إنَّكِ تُصلينَ لأجلي“.

”أنا دائماً أصلي لأجلك“. واحمرَّت وجهها خجلًا على نحوٍ جليٍّ إزاءَ اعترافها هذا، فأطرقت رأسها من جديد. ”إني أصلي لأجل جوليا وأمك وأبيك أيضًا“.

وإذ عاد الأمل، مرَّزَ إبهامه على بشرَّةٍ معصمها الناعمة، مُتحمِّسًا النبضَ الجامح. ”ما تشعرين به تُجَاهي مُختلِفٌ عمَّا تشعرين به تُجَاهَهُمْ“. ثمَّ رفعَ معصمها وضغطَ شفَّته عليه حيثُ كان نبضها قويًّا. وما إنَّ أحسَّ عضلاتها تنتفض، حتَّى أفلتها. فتراجعت عنه خطوةً.

حبستَ نفسها برقةً، قائلةً: ”لماذا تفعل هذا، سيدي؟“

قال: ”لأنِّي أريدك“. فأشاحت بنظرها، مُرتبكةً. فأضاف: ”لا نيَّةَ لديَّ في إيدائك“.

”قد تؤذيني دون أن تعلم حتَّى قيامك بذلك“.

أزعجتَه كلماتها. ”سأحسنُ معاملتكِ“. ورفعَ ذقنها حتَّى نظرت إليه. ”م تخافين أكثرَ

الكلِّ، يا هُدسة؟ أمني أم من إلهك هذا غير الموجود؟“

”أخافُ من صَغفي الذاتي“.

فأجأه جوابها وبثَّ دفقةً حراريةً في بدنه. فقال: ”هدسة“، بهمسيةً جشَّاءً، باسطًا يده على نعمة خلدتها الحريَّة. وأغمضت عينها فأحسَّ توقها بجِدَّة، شأنه شأنُ توقه هو. غير أنَّها رفعت يدها، ودفعت يده عنها، فاتحةً عينيها لتنظرَ إليه بتوسُّلٍ ساكن.

وبينما هي تنظرُ إلى البحر المُحيطِ بهما، قالت: ”حين يجتمع رجلٌ وامرأةٌ معًا ببركةِ الله، يكون ذلك عهدًا مقدَّسًا. ولن تكونَ هذه حالنا، سيدي“.

”فإنَّرم فمه. لِمَ لا؟“

”إنَّ الله لا يُبارك الرنِّي“.

فشعر، مَشْدُوها، بالحرارة تتدفق إلى وجهه. لم يكن في وسعه أن يتذكر آخر مرة فيها احمرَّ وجهه خجلاً، وأغضبه أن تربكه جملة سخيفة كهذه من فم فتاة عبدة سادجة. وما كان قد ارتبك من أي شيء طيلة سنين. ”هل يستهجن إلهك الحب؟“
قالت هدسة برقة: ”الله محبة“.

فأطلق ضحكة خفيفة. ”كلام عذراء لا تدري بما تتكلم. الحب متعة، يا هدسة، بل هو المتعة القصوى. فكيف يكون إلهك هذا محبة حين يسن قوانين تحرم أنقى غريزة وفعل طبيعيين بين الرجل والمرأة؟ وما الحب سوى ذلك؟“

تغير اتجاه الريح، ونادى البحارة بعضهم بعضاً. فضحك مرقس ضحكة ساخرة رقيقة، ونظر إلى الماء المتموج، وإلى وميضات النور واللون، غير متوقع منها أن تجاوب قطعاً.

ولكن الكلمات وافت هدسة - كلمات قرأها أسينكريثس مراراً خلال اجتماع المؤمنين، كلمات كتبها الرسول بولس بوحى من الله وأرسلها إلى مؤمني مدينة كورنثوس. وقد شقت نسخة عن رسالته النفيسة طريقها إلى روما. واستطاعت هدسة أن تسمع تلك الكلمات الآن على نحو غاية في الوضوح كما لو أن الله نفسه قد نقشهن في ذهنها، وتلك الكلمات انطبقت على هذا الرجل وهذه اللحظة.

قالت هدسة برقة: ”المحبة تتأني وترفق. المحبة لا تقبح، ولا تطلب ما لنفسها. ولا تحتد، ولا تظن الشوء. المحبة لا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق. المحبة تحتل كل شيء، وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبداً...“

فابتسم لها مرقس ابتسامة تهكم. ”حب من هذا النوع مستحيل“.

”لا شيء مستحيل على الله“. قالت هذا بكل يقين واقتناع مطمئن حتى عبس مرقس.

وطلع صوت دسيس الرقيق من ورائهما قائلاً: ”مرقس!“ فبتس مرقس، والتفت فرأى أباه على بُعد خطوات قليلة مجيلاً نظره بينهما. ثم استقام مرقس وابتسم ابتسامة واهية. لقد بدا جلياً أن أباه كان يتساءل عما يتباحث فيه هو وهدسة بكل تركيز.

ثم خاطب دسيس هدسة قائلاً: ”هل جوليا أحسن حالاً اليوم؟“

”إنها تنام جيداً، سيدي“.

”هل أكلت شيئاً؟“

”زبدية حساءٍ وقليلًا من الحُبزِ الفطيرِ هذا الصباح. لقد تحسّنت كثيرًا“.
 ”هل صرفتكَ؟“
 طرفت عينا هَدَسَة. ”إنها...“

قاطعها مَرُقْس قائلاً: ”هذه أوّل مرّة منذ ثلاثة أيّام تخرُجُ فيها هَدَسَة من الماوي النتنَة.
 أفلا ينبغي حتّى لعبدَة أن تنشقّ نَسَمَة من الهواء المنعش وتستريح هُنيئَةً؟“
 ”ما دامت أحتك في تلك الماوي، يليقُ بهَدَسَة أن تكون هنالك معها، مُعتنيَةً
 باحتياجاتها.“

وَخَزَت عيني هَدَسَة دموعَ خِزيِ ساخنة. ”ألتمِسُ صَفْحَكَ، سيّدي!“ ثمّ هَمَّت
 بالانصراف. لقد أرسلتها جوليا من القَمرة ببياضاتٍ وأطباقٍ وَسِخَة، وفكّرت أن تترتّب
 لحظةً أو لحظتين في نسيم البحر المنعش. فكان ينبغي أن ترجع حالاً بدل أن تستمتع هكذا
 بأنانيّة زائدة.

إلا أنّ مَرُقْس أمسك بمِعصِمِها قائلاً لها: ”لم ترتكبي أيّ خطأ“. وإذ رأى تضايّقها،
 وعلم أنّ له يداً فيه، أفلتها. وراقبها حتّى توارت تحت ظهر السفينة قبل أن يتكلّم.

قال مَرُقْس مُحدّقاً إلى أبيه: ”لم تترك جوليا منذ صعدنا إلى السفينة قبل أسبوع. أكان
 عليك أن تُعَنّفها لوقوفها تحت الشمس وتنفسها الهواء المنعش لحظةً وجيزة؟“

دُهِشَ دَسْمُسُ حِيالَ شَغَفِ مَرُقْس. فإنّ وصفَ الملاحظة اللطيفة التي قدّمها لهَدَسَة
 بكونها تعنيفاً مُبالغ فيه. إلاّ أنّه كان قد أذاها. وهو رأى ذلك كما رآه مَرُقْس عند انصرافها.
 فسأَلَ نفسه عن مدى عمقِ مشاعرِ هَدَسَة تجاه ابنه. ”سأكلّمها“.

سأل مَرُقْس - وقد صلّبهُ الغضب - ”لأيّ غرض؟“

فقال دَسْمُسُ بلهجة تحذير: ”لأيّ غرضٍ أعتبرُهُ مُلائماً“. وخطا ابنه مُجاوِزاً إيّاه.
 فناداه: ”مَرُقْس!“ ولكنّ هذا مشى على ظهر السفينة بخطى واسعة، ومضى إلى الأسفل.

هَبَّت عاصفةٌ أخرجتِ السفينة عن خطِّ إبحارها، وجدّدت دُوارَ البحر لدى جوليا. فصرختُ
 بشدّة عند كلّ عَوَصَة من السفينة، شاتمةً كلّما جاشت مَعِدَّتُها وتقيّأت. وبات نومها مُتقطّعاً في
 أحسن الأحوال، وكثيرَ الكوابيس. وإذ عَدّت فاترةَ الهِمّةِ وشاحبةً، كانت تنذمرُ بلا انقطاع
 عندما تكون مُستيقظة.

كَانَتْ الْقَمْرَةُ الصَّغِيرَةُ بَارِدَةً وَرَطْبَةً. فَحَاوَلَتْ هَدْسَةَ تَدْفِئَةَ جُولِيَا بَتَغَطِيتِهَا بِجِرَامَاتٍ مَسْجُوجَةٍ ثَقِيلَةٍ. وَبَيْنَمَا هِيَ تَرْتَجِفُ بَرْدًا هَدَّاتٍ سَيِّدَتْهَا.

قَالَتْ جُولِيَا: ”إِنَّ الْإِلَهَةَ يُعَاقِبُونَنِي. سَأَمُوتُ. أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي سَأَمُوتُ“.

”لَنْ تَمُوتِي، سَيِّدَتِي“. وَمَسَدَتْ هَدْسَةَ الشَّعْرَ الْمُهْدَلَّ عَنْ جَبِينِ جُولِيَا الشَّاحِبِ، إِلَى الْوَرَاءِ. ”سَتَزُولُ الْعَاصِفَةُ. حَاوِلِي أَنْ تَنَامِي“.

”كَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَنَامَ؟ لَا أَرِيدُ أَنْ أَنَامَ. لَا أَرِيدُ أَنْ أَحْلُمَ. غَنِّي لِي. اجْعَلِينِي أُنْسِي“. وَلَمَّا امْتَلَّتْ هَدْسَةُ، صَاحَتْ جُولِيَا: ”لَيْسَ هَذِهِ التَّرْنِيمَةُ! إِنَّهَا تَوَلَّمْنِي. لَا أَرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ أَغَانِيَّ عَنِ الْهَيْكِ الْبَغِيضِ وَكَيْفَ يَرَى وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ! غَنِّي لِي شَيْئًا آخَرَ. غَنِّي شَيْئًا يُسَلِّينِي! شَيْئًا عَنِ غَرَامِيَّاتِ الْإِلَهَةِ وَالْإِلَهِاتِ، أَغْنِيَاتٍ شَعْبِيَّةٍ عَاطِفِيَّةٍ، أَيَّ شَيْءٍ“.

قَالَتْ هَدْسَةُ: ”لَسْتُ أَعْرِفُ أَيَّ أَغْنِيَاتٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ“.

فَبَكَتْ جُولِيَا بِمَرَارَةٍ، وَقَالَتْ: ”إِذَا انصَرَفِي مِنْ هُنَا وَاتْرَكِينِي وَحْدِي!“

قَالَتْ هَدْسَةُ: ”سَيِّدَتِي...“ مُرِيدَةً أَنْ تُعْزِيَهَا.

فَصَرَخَتْ جُولِيَا: ”اخْرُجِي مِنْ هُنَا، أَقُولُ لَكَ. اخْرُجِي! اخْرُجِي!“

خَرَجَتْ هَدْسَةُ بِسُرْعَةٍ. وَقَعَدَتْ فِي الرِّوَاقِ الضَّمِيقِ الْمُظْلِمِ، وَالرِّيحُ الْبَارِدَةُ تَتَسَرَّبُ إِلَى الدَّخْلِ مِنَ الْأَعْلَى. وَإِذَا جَذِبَتْ رُكْبَتَيْهَا إِلَى صَدْرِهَا، حَاوَلَتْ أَنْ تُدْفِعَ نَفْسَهَا. وَصَلَّتْ. ثُمَّ بَعْدَ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، غَلَبَهَا النَّعَاسُ مِنْ هَبُوطِ السَّفِينَةِ وَتَمَائِيلِهَا. وَحَلَمَتْ بِعَبِيدِ الْقَوَادِسِ يَتَحَرَّكُونَ ذَهَابًا وَإِيَابًا فِي انْسِجَامٍ مَعَ ضَرَبَاتِ الطَّبْلِ. خَفْضًا، سَوْوَشَ، رَفْعًا، خَفْضًا، سَوْوَشَ، رَفْعًا. بُووم، بُووم، بُووم.

كَادَ مَرْقَسٌ يَتَعَثَّرُ بِهَا لَمَّا نَزَلَ بَعْدَ مُسَاعَدَةِ الْبَحَّارَةِ. فَانْحَنَى وَمَسَّ وَجْهَهَا. كَانَ جِلْدُهَا بَارِدًا كَالْجَلِيدِ. فَسَبَّ بِخَفَّةٍ، وَمَسَدَ شَعْرَهَا الدَّاكِنَ رَادًّا إِيَّاهُ عَنْ جَبِينِهَا. كَمْ مَضَى عَلَيْهَا مِنَ الْوَقْتِ وَهِيَ قَاعِدَةٌ فِي الرِّوَاقِ، حَيْثُ تَهَبُّ عَلَيْهَا الرِّيحُ مِنَ الْأَعْلَى؟ وَلَمْ تَسْتِيقِظْ لَمَّا رَفَعَهَا عَلَى ذِرَاعِيهِ وَشَقَّ طَرِيقَهُ إِلَى قَمْرَتِهِ.

مَدَّدَهَا بِحَذَرٍ عَلَى سَرِيرِهِ الْجِدَارِيِّ، وَغَطَّاهَا بِجِرَامَاتٍ فَرَوٍ مِنْ بِلَادِ الْجِرْمَانِ. وَمَشَّطَ خُصَلَ شَعْرِهَا الْمُبَلَّلِ الدَّاكِنَةَ عَنْ وَجْهِهَا الشَّاحِبِ. ”أَبْهَذَةُ الطَّرِيقَةِ يَتَوَلَّى إِلَهُكَ، إِلَهُ الْمَحَبَّةِ، الْإِعْتِنَاءَ بِخَاصَّتِهِ؟“

قَعَدَ عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ، وَرَاقَبَهَا تَنَامًا، فِيمَا حَنَّانٌ مُوجِعٌ يَتَفَجَّرُ فِي دَاخِلِهِ وَيَخْنَقُهُ. أَرَادَ

أن يضمَّها ويحميها، غير أنه لم يُرْحَبْ بمشاعر من هذا القبيل. أفضل من هذا الشغف، كان ذلك الشُّغف العنيف الذي سبق أن شعر به نجاه أرياء، وهو شغف كان يتأجج ثمَّ يبرد... إنَّه أفضل من هذه المشاعر الجديدة والمُقلِّقة التي غمرته نجاه هَدَسَة. فهذه المشاعر قد وافته بالتدرُّج، ناميةً على مهل، مُنتشرةً مثل كرمة شقَّت طريقها في تربة حياتها الصُّلبة. لقد كانت هَدَسَة صائرةً جزءًا منه؛ وقد ألهمت أفكاره والتهمتها.

راح فكره يُراجع جميع الأمور التي قالتها عن إلهها. فلم يستطع أن يدرك المراد من أيِّ أمر منها. لقد قالت إنَّ إلهها هو إلهٌ محبَّة، ومع ذلك سمح بأن يُبادَ عباده وراقب هيكله بصيرٍ رُكَّامًا. وهي أمنت بأنَّ الناصريَّ كان ابنَ إلهها، مسيحًا جاء لإنقاذ شعبها، غير أنَّ هذا الإله / الإنسان نفسه - أو كائنًا ما كان - قد مات ميتةً مُجرِّم على صليب. إنَّ ديانتها ملانة بالمفارقات. وإيمانها يتحدَّى كلَّ منطوق. على الرُّغم من ذلك تشبَّثت به في عنادٍ هادئٍ فاق تفاني أيِّ من كائنات الهياكل الوثنيَّة.

لقد تربَّى على قِصص الآلهة والإلهات. وقد عبدت أمه ستَّة منهم. ومنذ الزمن الذي يستطيع أن يتذكَّره، راقبها وهي تضعُ قرابين الرُّقاق أمام أصنامها كلَّ صباح، قد كانت تزور الهيكل مرَّة كلَّ أسبوع.

ولم تكن التَّقوى مقصورةً على أمه. فقد كان هنالك أخنوخ، العبد الذي اشتراه أبوه لدى وصوله إلى روما. أخنوخ الهرمُ الأمينُ المُستقيم. وأكثر من مرَّة، رآه مرقس يُشيعُ وجهه هازًا رأسه عند دخول فيبي إلى لارارثومها لتقدِّم القرابين إلى أوثانها. فإنَّ أخنوخ كان يستكره الأوثان الرومانيَّة، مع أنَّه لم يُطلع آل فاليريان على مُعتقداته. أكان سكوتُ أخنوخ بدافع الاحترام والتسامح تجاه ممارسات الآخرين الدينيَّة، أم كان سكوتُه علامةً على الاستئثار والكبرياء؟ كان قد سمع القول إنَّ العبرانيين كانوا الجنس المُختار. ولكنَّ لأيِّ سببٍ أُختيروا، ومن اختارهم؟

ونظر إلى هَدَسَة نائمةً بسلام، فعلم أنَّه لو طلب لكشفت له قلبها. فبدل أن تبقى جرَّةً مختومة، سعت ببساطة إلى سكب نفسها أمام الآخرين. وكلُّ شيءٍ فعلته عكس صورة إيمانها. فكأنَّها، في كلِّ ساعةٍ يقظةٍ من كلِّ يوم، كانت عاكفةً على إبهاج إلهها بخدمة الآخرين. وهذا الإله الذي تعبده استولى على كامل تفكيرها واهتمامها. إنَّه لم يكن يطلب زيارةً وجيزةً إلى هيكل، ولا قربانًا ندرتيًا ضئيلًا من طعامٍ أو نقود، ولا صلواتٍ قليلةً بين حينٍ وآخر. بل إنَّ هذا الإله أرادَ كيانها بجُمليته.

ثمّ ماذا نالت هي من عنده؟ أيّ مكافأة تلتّ نظير ورعها؟ لقد كانت عبدة. فلم تكن لها أملاك، ولا حقوق، ولا حماية سوى ما أعطاهها مالكوها. حتّى إنّها لم تكن تستطيع أن تنزّج دون إذن سيدها. وقد تعلّقت حياتها على رضى مالكها، إذ كان ممكناً أن تقتل لأيّ سبب، أو حتّى بلا سبب على الإطلاق. وكانت تتلقّى قطعة نقدٍ واحدةً صغيرةً من أبيه، وغالباً ما تصدّقت بها.

تذكّر السلام الذي غمر سيماءها إذ وقفت ووجهها مقابل الريح - السلام... والفرح. إنّها عبدة، وعلى الرغم من ذلك بدت مالكة إحساسٍ حرّية لم يشعر هو به قط. أكان ذلك هو ما جذبته؟

كانت العاصفة أخذةً في الانحسار. فهزّ مرقس رأسه إذ تيقن بأنّه ينبغي له أن يبتعد عن هدسة لكي يفكر بمزيد من الصفاء. ثمّ غادر قمرته.

إذ وقف مرقس في مقدّم السفينة، حيث كان قد تحدّث إلى هدسة قبل يومين، حملق إلى البحر القائم أمامه. تلك مملكة نبتون. ولكنّ نبتون لم يكن هو الإله الذي يحتاج إليه الآن. فبابيسامةٍ ساحرة، نفوه بصلاةٍ إلى فينوس طالباً أن ترسل كيوييد المجنّح ليضرب قلب هدسة بسهم يجعلها هائمةً بحبه.

”فينوس، إلهة الغرام، دعها تحترق كما احترق أنا“.

ثمّ خففت ريح خفيفة في الأشرعة. المحبّة تتأني وترفق. المحبّة لا تطلب ما لنفسها. كشر مرقس، منزعجاً من أن تعاوده كلمات هدسة الآن، في أعقاب ابتهاله إلى فينوس، مثل همس رقيق في الريح. وسرّح بصره في امتداد البحر الشاسع، فشعر بوحدةٍ موحجة. وأطبقت عليه ظلمة هائلة، مضيقّة عليه من كلّ جهة، شديدة طاغية.

فقال في قلب الشكون: ”سأمتلكها!“ ودار كي ينزل إلى الأسفل.

كانت جوليا واقفةً في الرواق. ”قلت لهدسة أنّ تقعد هنا خارجاً وتنتظر حتّى أدعوك، وقد ذهبتي! لعلها مع الوالدة والوالد، تُعني لهما“.

فأمسكها بذراعها، قائلاً: ”إنّها في قمرتي“.

نترت ذراعها منه، مُحدّقةً إليه كما لو كان قد خانها. ”إنّها عبدتي أنا، لا عبدتك“.

كظم مرقس غيظه. ”أعلمُ هذا حقّ العلم، وهي ليست راقدةً على سريري الجداريّ للأسباب التي تفترضينها. ينبغي لك، يا أختي الصغيرة، أن تُعني عنايةً فضلى بما تملكينه“.

وحاول أن يتذكَّر أن جوليا ما تزال تُعاني دُوارَ البحر بلا انقطاع، ولا يُتَوَقَّعُ منها أن تكونَ في حالتها السَّويَّة. ”لقد تعثَّرتُ بهدِّسَة خارجِ بابِك. كانت مُبلِّلةً حتَّى جِلْدِها. وشِبَهَ مُجمَّدة. إنَّ عبدةً مريضةً لا تكادُ تكونُ كثيرةَ النِّفَعِ لكِ.“

”حَسَنًا، مَن سَيَعْتَنِي باحتياجاتي؟“

جرحتُ غطرسَة كيرياتها مشاعِرَه. فقال بمرارة: ”إلامَ تحتاجين؟“

”أحتاجُ إلى التحسُّن. أحتاجُ إلى النُّزولِ من هذه السفينة!“

فقال، كاظمًا ضيقَ صدرِه: ”ستشعرين بالتحسُّنِ حالما تمسُّ قدمكِ اليابسة“. ثمَّ اصطحبها إلى قمرتها مُجدِّداً.

”ومتى سيكونُ ذلك؟“

أجاب: ”بعدَ يومين أو ثلاثة“، مُساعدًا إيَّها على الاستلقاء في سريرها الجداريِّ. ثمَّ غطَّاهَا بِحِرام.

”ليتني لم أوافقُ على هذه الرِّحلة! ليتني بقيتُ في روما!“

”ولماذا وافقتِ؟“

تَرَقَّرَقَ الدَّمعُ في عينيها. ”لم أَرِدُ أن يُحيطَ بي كلُّ ما يُذكِّرُنِي بما جرى في غضون السنتينِ الأخيرتين. أردتُ أن أفرُّ من ذلك كلِّه.“

أحسَّ مَرُقُس عطفًا مفاجئًا عليها. لقد كانت أختَه الوحيدة، وهو يحبُّها، على الرُّغم من نكدها وطباعها الرديئة. وقد دلَّلها وغمَّجها منذ أن كانت طفلةً حديثةً الولادة. ولن يكفَّ عن ذلك الآن. فإذا قعدَ على حافةِ سريرها الجداريِّ، أمسك يدها، وإذا هي باردة. ”إنَّ الزَّمنَ سيُلاشي الذُّكُريَّاتِ الرديئة. وستبُزُّ أمورٌ أخرى تشغلُ فِكْرَك. يُفترضُ أن أفسس مدينةٌ مُثيرة، يا أختي الصَّغيرة. فأنا على يقينٍ بأنك ستجدين هنالك ما يستهويك.“

”أتريسي في أفسس.“

فرَّغَ أحدَ حاجبيه. ”إدَّا، ذاك هو النِّجمُ الذي هداك. لا بأس في مُبادلةِ المحارينِ نظراتِ غراميةً، يا جوليا، ولكنَّ حذارٍ أن تُفكِّري في الارتباطِ بواحدٍ منهم. إنَّهم صنْفٌ مُختلِفٌ من الرِّجال.“

”قالت أوكثافيا إنَّ المحارينِ يكونون أفضلَ العُشاق.“

فالتوى فمُه بِضحكةٍ تهكُّم. ”أوكثافيا، مُعطيةُ الحِكْمَةِ العظيمة!“

”أعرف أنها لم تزقك قط“.

فقال: ”استريحي“. ثم هم بالوقوف، فأمسكت يده.

”مرقس؟ أي نجم هذاك أنت؟“

لمح مرقس في سيمائها ملامح باردة كانت بعيدة كل البعد عن الأخت التي أحبها حبًا

جمًا. وقال: ”أنت، أمي، أبي“.

”لا شيء آخر؟“

”أي سبب آخر قد يوجد؟“

”هدسة“. ونظرت إليه من جديد، عابسة قليلاً ومُتأملَةً إياه بتركيز. ”مرقس،

أتحبني؟“

فقال بصديق: ”أنا مشغوف بك!“

”أنظّل تحبني إذا فعلتُ أمرًا فظيماً؟“

فانحنى، ورفع ذقنها، ولثمها لثمة خفيفة على شفتيها؛ وجعلها تنظر في عينيه. ”جوليا،

لا يسعك أبداً أن تفعلي أمرًا رهيبًا جدًا يحملني على التوقف عن محبتك. أقسم إنني

كذلك. استريحي الآن“.

تفحصت جوليا عينيه، ثم اتكأت إلى الوراء وهي ما تزال مضطربة.

”أريدُ هدسة“.

”عندما تستيقظ، أرسلها إليك“.

فتصلب وجهها. ”إنها ملكي. أيقظها الآن“.

استشاط مرقس غيظًا إذ تذكر هدسة راقدة في الرواق الرطب البارد.

وإذا بهدسة تقول من مدخل الباب: ”أنا هنا، سيدي“. فالتفت مرقس إلى الورا،

ووجدها ما تزال شاحبة وذاهلة من الإرهاق. وكاد يقول لها أن ترجع إلى السرير، قبل أن رأى

وجه جوليا. وما لبثت جوليا أن قالت- ناسية وجود مرقس تمامًا- ”حلمتُ حلمًا مزعجًا آخر.

ثم استيقظت فلم أجدك هنا. تذكرت أنك كنت في الخارج، ولكن لم أستطع أن أجدك“.

لم يكن مرقس قط قد رأى تلك النظرة في عيني أخته من قبل. فلحظة رأت هدسة، بدا

أن موجة فرج جرفت الغضب والخوف واليأس المتقترن بالارتجاف.

تكلّم مرقس بهدوءٍ ورقّة: ”ها هي هنا معك الآن، يا جوليا“ .
مدّت جوليا يديها إلى الفتاة العبدة، فأمسكت هُدسّة بهما، جاثيةً بجانب السرير
الجداريّ الضيق وضاغطةً بجبينها يدي سيّدتها. وقالت جوليا بفضافة: ”كان ينبغي أن
تكوني هنا لما ناديْتُك“ .
فقال مرقس: ”لا تُوبّخي هُدسّة على شيءٍ لم تُكن لها سيطرةٌ عليه ولا معرفةٌ به“ .
رمقته جوليا بنظرةٍ عاجلة، وفي عينيها سؤال، سؤالٌ أحرّقه. وبابتسامةٍ ساخرة،
خرج مرقس من القمّرة، مُغلّقاً الباب خلفه. وإذ استند إلى الباب، أرجع رأسه إلى الوراء
وأغمّص عينيّه.

٢٨

أخرج حارسان أترتيس إلى ظهر السفينة، ثم إلى المقدم، حيث كان سرتس ينتظره. فابتسم التاجر مُحَيِّبًا، وأومأ إيماءة مؤثرة، لافتًا انتباه أترتيس إلى هيكلٍ مُتأللج وراءه عند مدخل الميناء.

”هيكلُ أرطيميس، يا أترتيس. لقد وُلِدَتْ في الغابات بقرب مَصَبِّ الكايستَر، وما تزالُ تُعَبِّدُ هنا على مدى أكثر من ألفِ عام. إنها إلهتُك، يا أترتيس، تلك الإلهة التي تُمَثِّلُها في حُجْرَتِكَ“.

”كان الصنمُ موجودًا في حُجْرَتِي بكاپوا عند وصولي“. وكان شؤمًا أن يُرمى وثْنٌ حجريٌ بعيدًا، سواء أعبده المرء أم لم يعبده.

”كيفما التقيتها، علمتُ حين رأيتُ مشكاتها في حُجْرَتِكَ في اللودُس أنها قد اختارتك كي تحييء إلى أفسُس“. واستدار سرتس ماديًا يده بفخرٍ عظيم. ”ما تراه أمامك هو أعظمُ هيكلٍ بُنيَ لأيِّ إله على الإطلاق. وهو يُؤوي حجراً مُقدَّسًا أُهبطَ إلينا من السماء، الأمر الذي كان علامةً على أن أرطيميس اختارتُ مدينتنا لتكون نيو كوروسها“.

قال أترتيس: ”نيو كوروس؟“ إذ كانت الكلمة غريبةً عليه.

فقال سرتس ”كناسة الهيكل. وهذا تعبيرٌ كان يُشير في ما مضى إلى أوضاعِ العاملات، وقد كانت مُكرَّسةً للاعتناء بالهيكل المقدس. تعبيرٌ يدلُّ على الاتضاع باتٍ لَقَبَ شَرَف“. ثم أخرج قطعة نقدٍ من صُرَّةٍ على خصره، وقدمها إلى أترتيس كي يراها، وقال- ماسًا بإبهامه النقشَ الظاهرَ عليها- ”نيو كوروس! بهذا مدينتنا مرفعة“.

رفع أترتيس رأسه ورمقَ سرتس بعينين باردتين. ”كان الصنمُ موجودًا في حُجْرَتِي بكاپوا عند وصولي“.

إذ ذاك صارت ابتسامة سرتس ساخرة. ”أُحَسِبُ أن ذلك كان بالصدفة؟ لا شيء يحدثُ صدفةً، يا هَمْجِي. لا يهيمُ كيف عثرتُ على تمثالها. إنَّ ألهة أبيك تخلوا عنك في غابات بلاد الجرمان، ولكن أرطيميس أبقتك على قيد الحياة. أد لها الإكرام الذي تستحقه، تستمرُّ في حمايتك. وإن ازدريتها، تنقلب عليك وتفرِّج فيما أنت تُدمر“.

ثُمَّ لَوَّحَ بِيَدِهِ مِنْ جَدِيدٍ. ”إِنَّ أَرَطَمِيسَ لَيْسَتْ الصَّيَادَةَ الْعَذْرَاءَ، كَمَا يَحْسِبُهَا الرُّومَانُ. فَأَرَطَمِيسُ هِيَ أُخْتُ أَبُولُو، ابْنَةُ لَيْتُو وَزَقْس. إِنَّهَا إِلَاهَةٌ أُمٌّ لِلْأَرْضِ تُبَارِكُ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَأَرْضَنَا بِالْخِصْبِ. كَمَا أَنَّ الْأَيْلَ وَالْحَنْزِيرَ الْبَرِّيَّ وَالْأَرَانِبَ الْوَحْشِيَّةَ وَالذَّنْبَ وَالذَّبَّ هِيَ جَمِيعًا مُقَدَّسَةٌ عِنْدَهَا. وَعَلَى خِلَافِ دِيَانَا الَّتِي هِيَ إِلَاهَةُ الْعَقَافِ، أَرَطَمِيسُ شَهْوَانِيَّةٌ وَعَرَبِيدَةٌ، لَا مُفْرِطَةٌ الْإِحْتِشَامَ وَرِيَاضِيَّةٌ عَلَى نَحْوِ صِرْفٍ“.

نَظَرَ أَتْرَيْتِسُ الْهَيْكَلَ الضَّخْمَ عَبْرَ الْمِنَاءِ. إِنَّ جَمِيعَ الْوَحُوشِ الَّتِي ذَكَرَهَا سَرْتِسُ كَانَتْ تَزْحَرُ بِهَا الْغَابَاتُ السُّودَاءُ فِي مَوْطِنِهِ الْأَصْلِيِّ. وَكَانَ الْهَيْكَلُ - وَهُوَ بِنَاءٌ فَخْمٌ أَفْخَمُ بَعْدُ مِنْ أَعْظَمِ الْهَيْكَلِ فِي رُومَا - يَتَأَلَّأُ تَحْتَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ. فَأَحْسَ أَتْرَيْتِسُ أَنَّهُ يَكَادُ يُغْرِبُهُ.

وَقَالَ لَهُ سَرْتِسُ: ”جِيءَ بِالرَّخَامِ مِنْ جَبَلِ بَرِيُونِ. وَقَدْ بَعَثْتُ جَمِيعَ الْمَدَنِ الْيُونَانِيَّةِ فِي آسِيَا الصُّغْرَى بِتَقْدِمَاتٍ لِلْإِسْهَامِ فِي بِنَاءِ الْهَيْكَلِ الَّذِي يُكْرَمُ الْإِلَهَتَنَا. فِيهِ مِئَةٌ وَسَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ عَمُودًا، ارْتِفَاعُ كُلِّ مِنْهَا سِتُونَ قَدَمًا (نَحْوَ ١٨ مِترًا)، وَكُلُّ مِنْهَا هَدِيَّةٌ مِنْ مَلِكٍ“. ثُمَّ تَوَهَّجَتْ عَيْنَا سَرْتِسِ الدَّاكِنَتَانِ بِالْفَخْرِ. ”تُصَافُ بِاسْتِمْرَارٍ زَخَارِفُ يَصْنَعُهَا أَعْظَمُ فَنَائِي زَمَانِنَا. فَأَيُّ إِلَاهَةٍ أُخْرَى يَسْعُهَا أَنْ تَفْتَخَرَ بِمِثْلِ هَذَا؟“

وَدَّ أَتْرَيْتِسُ لَوْ يَعْلَمُ وَجُودَ قَرَابَةٍ بَيْنَ أَرَطَمِيسَ وَطِيوَا، مَا دَامَتْ تُشَارِكُهُ فِي بَعْضِ سَجَايَاهِ. وَسَأَلَ: ”هَلْ يُسَمَّحُ لِي بِأَنْ أَعْبُدَهَا؟“ مُتَسَائِلًا عَنِ الشَّكْلِ الَّذِي يَتَّخِذُهُ الْإِحْتِفَاءُ بِتِلْكَ الْإِلَاهَةِ.

أَوْمَأَ سَرْتِسُ بِرَأْسِهِ إِيجَابًا، وَقَدْ سَاوَرَهُ الشَّرُورُ. وَقَالَ بِرَحَابَةٍ صَدْرٍ: ”بِالتَّأَكِيدِ! كَمَا هُوَ لَاتِقٌ. اذْهَبْ إِلَى الْأَسْفَلِ. سَيُوتَى إِلَيْكَ بَمَاءٍ وَتُنَكِّ نَظِيفٌ. فَهَيِّجْ نَفْسَكَ. سَأَخُذُكَ إِلَى الْهَيْكَلِ بِنَفْسِي، لَكِي تَجُتَوَّ أَمَامَ الصَّنَمِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَ أَنْ تَوْخِذَ إِلَى اللُّودُسِ“.

وَمَا إِنَّ بَلَغَتِ السَّفِينَةُ الرِّصِيفَ، حَتَّى أُرْسَلَ سَرْتِسُ حَارَسِينَ لِلإِتْيَانِ بِأَتْرَيْتِسِ، فِيمَا انْتَهَرَ اثْنَانِ آخِرَانِ عَلَى ظَهْرِهَا. كَانَ الطَّرِيقُ ذُو الْأَعْمَدَةِ الْمُؤَدِّيَ إِلَى الْأَرَطَمِيسِيِّونَ - كَمَا كَانَ يُسَمَّى الْهَيْكَلُ - مَرصُوفًا بِالرَّخَامِ، وَقَدْ انْتَشَرَتْ بِمِحَازَاتِهِ أَرْوَقَةٌ مَسْقُوفَةٌ. فَكَانَ النَّاسُ يَلْتَفِتُونَ كَمَا يَحْمَلِقُوا وَيَتَهَامَسُوا فِيمَا أَتْرَيْتِسُ يَسِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ. كَانَ سَرْتِسُ مَعْرُوفًا جَيِّدًا، عَلَى مَا يَظْهَرُ، فَبَيْنَ حَضُورِهِ - فَضْلًا عَنِ حَضُورِ الْحَرَّاسِ الْأَرْبَعَةِ الْمُسَلَّحِينَ - أَنَّ الْعِمْلَاقَ الْأَشْقَرَ مَحَارِبُ ذُو أَهْمِيَّةٍ. فَتَجَاهَلَ أَتْرَيْتِسُ الْحَمَلَقَاتِ الْمُتَهَيِّبَةَ الَّتِي تَلَقَّاهَا، مُتَمَنِّيًا لَوْ أَنَّ سَرْتِسَ لَمْ يَخْتَرِ تَسْيِيرَهُ فِي الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي أَثْنَاءِ جُزْءِ النَّهَارِ الْأَشَدِّ اازْدِحَامًا. لَقَدْ ظَهَرَ جَلِيًّا أَنَّ التَّاجَرَ فَعَلَ ذَلِكَ لَكِي يُثِيرَ ضِجَّةً بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

ازدادَ عددُ الدَّكاكين التي تبيعُ مزاراتٍ خشبيَّةَ وفضيَّةَ وذهبيَّةَ، إذ اقتربوا من الأرتَميسيون. فكانَ يُرى في كلِّ مكانٍ نُسخٌ صغيرةٌ عن الهيكل، وبدا أن كلَّ زائرٍ أرادَ أن يشتريَ تمثالاً لأرتَميس ومُجسِّماً لهيكلها يعودُ بهما إلى دياره تذكراً لحِجَّتِه. وقد لاحظَ أترتيسُ أن أصناماً صغيرةً كانت تقريباً في يدي كلِّ شخصٍ مرَّ به.

حدَّقَ أترتيسُ إلى الصُّرْح القائم قُبالتِه، وقد أخذته الرُّهبةُ حيالَ ضخامتهِ وفخامتهِ. كانت أعمدةٌ من اليثبِ الأخضرِ والمرمرِ الأبيض تدعّمُ السُّطوح الأفقيَّة ذات الأعمدة، وقد نُقشَ فيها كلُّ نوعٍ من المناظرِ نقشاً دقيقاً. وكان عددُ كَبيرٍ من الأعمدة ملوَّناً بألوانٍ زاهية ومُزداناً برُسوم، في بعضها إثارةٌ جنسيَّة على نحوٍ سافرٍ.

كانت أبوابُ ضخمةٌ من خشبِ السروِ مفتوحةً على مصراعَيْها. وإذا عبَرها أترتيسُ لدخولِ المعبدِ المقدَّس، لاحظَ أن أجزاءً من السَّقْف المصنوعِ من خشبِ الأرز كانت مفتوحةً نحو السماء. فأجالَ المحاربُ نظره حوَالِيه بيّطء، وعينه المدربةُ لا يكادُ يقوُّها شيءٌ.

قال سرتيسُ: ”أرى أنك لاحظتَ الحُرَّاس. إنَّ الهيكلَ يشتملُ على الخِزَانة. فِحِصَّةُ الأسد من الثروة لآسيا الغربيَّة كلها مُخزونٌ هنا وفي المباني المحيطة“.

كان الهيكلُ الداخلي يعجُّ بالكهنة والكاهنات، وكلُّهم ناشطون نشاطاً بالغاً كالنحلَّاتِ العاملاتِ حولَ ملكتِهِنَّ. فأوماً سرتيسُ برأسه نحوهم. ”الميعابُ زوي هم الكهنة الذين يُجرون طقوسَ الاحتفالِ داخلَ الهيكل. وهم جميعاً خصيانٌ وخاضعون للكاهن الأعلى“.

وإذ انفَعَرَ فمُ أترتيسُ عندما رأى عددًا كبيراً من الفتيات الجميلات، سأل: ”وماذا عن النساء؟“

”عذارى، كلهنَّ. فإنَّ المِلسايي هنَّ الكاهناتُ المُكرَّسات لخدمَةِ الإِلاهة. وهنَّ مقسوماتُ إلى ثلاثِ طبقات، كلُّ منها خاضعةٌ لكاهنةٍ عليا واجدة. وهناك أيضاً بَعايا الهيكلِ المُهيَّاتُ لِامتاعِكَ لاحقاً... إنما أوَّلاً الإِلاهةُ الفاتقةُ السُّمُو!“

ثمَّ دخلا القاعةَ المُعمَّمة بالدُخان، حيثُ تمثالُ أرتَميس المقدَّس. فإذا هي قائمةٌ وسطَ سَحابةٍ من البُخور، ويدها تمدودتان أمامها، بشكْلِ تمثالٍ بدائيٍّ وخشِنٍ على نحوٍ مُفاجئٍ، مصنوعٍ من الذهبِ وخشبِ الأبنوس. وقد كان أعلى جِسمِها مُقسطاً بأثداءٍ مُتدلِّية تمطوطة الحلمات، ووركاها وساقاها مُغطَّاة بنُقوشِ نادرةٍ لحيواناتٍ وتُحلي مُقدَّسات. أمَّا قاعدتها فكانت حجراً أسودَ عديمِ الشَّكل، لعلَّه ذاك الذي قال سرتيسُ إنَّه هبطَ من السماء.

لما تأمَّلَ أترتيسُ تمثالَ الإِلاهة، رأى الرُّموزَ المنقوشة على غِطاءِ رأسِها وحِزامِها وقاعدتها.

أفسس

وفجأةً شهقَ بنفسِه، إذ كان الرَّمز الذي تَوَجَّحُوهُ أَرطَميس هو اسم طيواز بالحُرُوفِ الرُّوثِيَّةِ! وبصِيحَةٍ جَسَّاءٍ، انطَرَحَ أترِيسَ أَمَامَ تِمثالِ أَرطَميس ورفَعَ إليها التَّشكُّراتِ على حِمَايتها إِيَّاهُ طيلةَ أربَعِ سنواتٍ من الأَلعابِ الدَّامِيَّةِ.

أحاطتْ بهِ وضغَطتْ عليه تعزيماتُ الميغابزُوي وترتيلُ المَلِسايبِ الرُّحيمِ. وقد باتتِ رائحةُ البُخُورِ طاغِيَّةً جدًّا حتَّى شعرَ بالعَغيانِ. فنهَضَ سادًّا فَمَهَ بِيَدِهِ ومشى شِبَهَ مُتَعَثِّرٍ خارِجًا من القاعةِ المَسقُوفَةِ ذاتِ الأعمدةِ. وإذ استندَ بِتَثاقُلٍ إلى واحدٍ من الأعمدةِ الضَّخمةِ، سَحَبَ نَسْمَةً هِواءٍ عميقةً، وقلْبُهُ يخفقُ بتناغمٍ مع وقعِ الطُّبولِ والصُّنوجِ وراءه.

وما هي إلاَّ لحظةٌ حتَّى صفا رأسُه، ولكنَّ الجَيْشَانَ داخِلَ رُوحِهِ لَيْثَ قائمًا وخانِقًا.

وفيما عينا سَرَتِسَ تتلألأَنِ بالرُّضَى، قال: ”لقد نادتكِ!“

فقال أترِيسُ: ”عليها نَقشُ طيوازِ بالرُّوثِيَّةِ“.

وقال سَرَتِسُ: ”الأحرفُ الأفسُسيَّةُ التي إذا نفوَّهتَ بها بصوتِ عالٍ كانت لك تعويذةٌ. وإذا لَيْسَتْ كحِجابِ (رُقيَّةِ)، فإنَّها تَدْفَعُ أذى الأرواحِ الشَّريرةِ. والمبنى الذي تراه هناك يحوي أَرشيفًا من الكُتبِ عَنِ الأحرفِ. والرِّجالُ الذين يكتبونها هم أصحابُ العقولِ الأكثرِ ذكاءً في الإمبراطوريَّةِ. أيُّ حرفٍ كان ذا أهمِّيَّةٍ خاصَّةٍ في نظركِ؟“ فأطلعه أترِيسَ على ما يُوثِّره.

”في وَسِعِكَ أَنْ تشتريَ حِجابًا بعدَ أَنْ نُنهِيَ فُرُوضَ عِبادَتِنَا. ثُمَّ أوما سَرَتِسُ برأسه نحوَ بضعِ شابَّاتٍ جَميلاتٍ فاخِرَاتِ المَلابِسِ يتحرَّكْنَ في الظُّلالِ الباردةِ تحتِ سقفِ الرُّواقِ ذِي الأعمدةِ، وقال لأترِيسُ: ”اخترِ خيارَكَ. النِّساءُ جَميلاتٌ وبارِعَاتُ، والشَّبَّانُ أقوياءُ ونَشطاء. ليس من سبيلِ لإحرازِ الاتِّصالِ بأَرطَميسِ أُسرَعُ أو أَفضَلُ من التمتعِ باللذاتِ الجَنسيَّةِ الكثيرةِ التي تُعطينا إِيَّاهَا“.

إنَّ أربَعِ سنينٍ من الوحشيَّةِ وتلقِّي أترِيسَ المُعاملةِ التي يتلقَّاها حيوانٌ مُدَلَّلٌ سحقتِ الجانبَ الألفَ فيه. فدوَّنَ ارتباكًا، نظَرَ أولئك المُتحرِّشاتِ وحدَّقَ إلى امرأةٍ شهوانيَّةٍ ترتدي ثيابًا شفَّافةً حمراءَ وسوداءَ وذهبيَّةَ.

قال أترِيسُ: ”سأخذُ تلكَ“، فأوما لها سَرَتِسُ. فمَشَّتْ نحوَهما، وكلُّ حُطوةٍ منها حركةٌ إثارة. وقد كان صوتُها خافتًا وأجشَّ. وقالت: ”دينارين!“ فناولها أترِيسَ قِطعتي النِّقدِ، فاصطحبتهِ إلى الأسفلِ على الدَّرَجِ، وعبرَ المُبسَطِ المرصوفِ بالرِّخامِ الأبيضِ، ثُمَّ إلى ظِلِّ بيتِ دَعارةٍ بارِدةٍ.

لقد وجد أترتيس إلهته. غير أن الظلمة ظلت ثقيلة الوطأة على نفسه، بعد وقتٍ طويلٍ من خروجه مُجدِّداً إلى ضياء الشمس.

رأت هَدَسَة أن بيت آل فاليريان الجديد أجملُ بعدُ من الدَّارةِ في روما. فقد كان مَبْنِيًّا على منحدرٍ مُشْرِفٍ على شارع كُريتيس، الجزء الأكثرُ ثراءً بقرب قلب أفسس على سفح جبلي بلبل. وقد أدى كلُّ منزلٍ دَوْرَ سَطِيحَةٍ لِلَّذِي يليه، موقراً إطلالةً وافيةً على المدينة الجميلة.

كان للدَّارةِ ثلاثُ طبقات، تَنفُتِحُ كلُّ منها حولَ بهوٍ ذي أعمدةٍ مركزي. وقد توسَّطتِ البهوُ ذا الأعمدة السفليُّ بمُرَّ رُصِيفٍ ما حولها دائريًّا بالرُّخام الأبيض وازدانت بالفُسْفِيساء. كذلك كانت الغُرفُ الداخليَّةُ ذاتُ أرضياتٍ فُسْفِيسائيَّة، وجدرانٍ تكسوها جدارياتٌ جصَّيةٌ تُصوِّرُ مناظرٌ مثيرةٌ جنسيًّا على نحوٍ مُروِّع.

شعرتُ جوليا بالشُّرور حين رأيتُ تلك الرُّسوم. فبسطتُ ذراعيها ضاحكةً وأخذتُ تدرِّعُ عُرفتها. وقالت مُبتَهجةً: "إروس مُعتمراً تاجاً" إذ كان في الزاوية الغربيَّةِ تمثالَ رجلٍ عارٍ ليس عليه سوى إكليلٍ من ورق الغار على رأسه. وكان في إحدى يديه عُنقودُ عنب، وفي الأخرى كأس. فتقدَّمتُ جوليا إليه وأجرتُ يديها عليه. وقالت: "لعلَّ الألهة تنوي أن تُلطفَ بي آخرَ الأمر!" ضاحكةً إذ أشاحتُ هَدَسَة وجهها مُرتبكةً. فقالت جوليا- مُستمتعةً بمناكذتها- "اليهود مُفْرِطو الاحتشام. فأمرٌ عجيبٌ أن ينجبوا أولاداً كثيرين جدًّا!"

اجتمعتِ العائلةُ في قاعة الشُّفرة. وقَدِّمتُ هَدَسَة الطعام، مُتحدِّرةً تماماً من الجداريات الجصَّيةِ الداعرة التي تُغطِّي الجدران الثلاثة، حيثُ ألهةٌ وإلهاتٌ يونانيون يقومون بمُغامراتٍ غراميَّةٍ شتى.

في أثناء الأسابيع الأولى بأفسس، بدا دَسِيسٌ كثيرٌ التحسُّنِ صِحِّياً. حتَّى إنه اصطَحَبَ فيبي وجوليا في نُزهِهٍ بالرَّبْرَبَةِ على طول الشُّفوح الغربيَّةِ من جبلٍ بناييرٍ داغي. ومضى مرُقُسٌ إلى مكاتبِ آل فاليريان بقرب الميناء لِيَتَحَقَّقَ أنَّ جميعَ التحويلاتِ الماليَّةِ المُرتَّبةِ قد أُجريتِ حسبَ تعليماته.

بقيتِ هَدَسَة في البيت مع سائر العبيد، تُفْرِعُ مُتَمَلِّكاتِ جوليا من الصناديق وتُرْتَبُّها. حتَّى إذا أُنجزتِ واجباتها، خرجت لاستِكشافِ المدينة ساعةً بمرَّةٍ واحدة. فإنَّ جوليا أرادتُ أن تعرفَ مواقعَ دكاكينِ الجواهر والثياب. وبينما هَدَسَة تمشي في الشوارع المرصوفة بالرُّخام، مرَّت بهيكلٍ بعدَ آخرٍ، مُكرَّسةٍ جميعها لإلهٍ أو لآخر. ورأت حَمَّاماتٍ ومبانيَّ عامَّة، ومدرسةً

طَبِّ، ومكتبة. ثُمَّ انعطفت عند زاوية، فَلَاحَ أمامها الأرطيمسيون، في شارع يحفُّ به باعةُ الأصنام. وعلى الرُّغم من جمال المبنى المذهل، شعرت هَدَسَةٌ بروحها تنقيص.

غير أنها، إذ دفعها الفضول، تقدّمت وقعدت في رواقٍ ذي أعمدةٍ مسقوفٍ كي تُراقبَ الناس يطوفون حول الهيكل. وكان كثيرون ممن مرّوا بها يحملون مزاراتٍ وتماثيل صغارًا قد اشتروها. فهزّت هَدَسَةٌ رأسها استهجانًا؛ إذ كان مئاتُ الناس يصعدون ويهبطون الدَّرَجَ كي يعبدوا وثنا من حَجَرٍ عديم الحياة والقوّة.

شعرت العبرانيّة الفتيّة بحُزنٍ ووحشةٍ مُوجِعين. وتطلّعت جمالَ الأرطيمسيون وضحامته، فأحسّت أنها صغيرةٌ وبائسةٌ مُقارَنَةً به. ونظرت إلى مئات العابدين، فداخلها الخوف. لقد كانت روما مُخيفَةً تمامًا، ولكن شيئًا ما بشأنِ أفسس أحرزَ روحها جدًّا.

فأغمضت عينيها وصلّت. يارب، أنت هنا في هذا المكان الذي يعجُّ بالعبادين الوثنيين؟ إنني بحاجة إلى الشعور بحضورك، ولكنني لا أشعرُ به. إنني أشعرُ بالوحدة والوحشة. ساعدني في العثور على أصدقاء مثل أسينكريتس وتروفيئوس والآخرين.

ثُمَّ فتحت عينيها، مُحدّقةً إلى الجموعِ بغير أن تراهم فعلًا. لقد علمت أنه ينبغي أن ترجع إلى الدّارة، ولكن الصوتَ الهادئ في داخلها دعاها إلى التريث بضع دقائق بعد. فأطاعت وانتظرت. وأمعنت عيناها في النّظر اتفاقًا في المتقاطرين ذهابًا وإيابًا... ثم عيست. لقد لمحت شخصًا وسط جماعة من الرّجال - شخصًا مألوفًا - فوثب قلبها. فنهضت ووقفت على رؤوس أصابع قدميها، ومطّت عنقها مُعينة في النّظر. إنها لم تكن متوهمة! وإذ غمرها الفرح، ركضت شاقّة طريقها وسط الجموع بجرأةٍ لم تبدّها قط من قبل. ولما اخترقت آخر الأتباع، نادته باسمه بصوت عالٍ، فالتفت وإذا بوجهه يُشْرِقُ دهشةً وفرحًا.

صاح يوحنا الرسول: "هدسة!" وفتح ذراعيه.

ارتمت هدسة بين ذراعي يوحنا باكية. وقالت: "حمدًا لله!" مُتثبّئة به وشاعرةً بأنها في ديارها أوّل مرّة منذ غادرت منطقة الجليل قبل خمسة أعوام.

رجع مرقس باكرًا من مقابلته للعملاء والتجار، فوجد البيت باردًا وهادئًا. ثم وقف مكتئبًا خارج مهججه في الطّبقة الثانية، واتكأ على أحد الأعمدة، مُحدّقةً إلى البهو ذي الأعمدة في الأسفل. كانت خادمة تقوم بعملها في تنظيف رُقاقاتِ الفسيفساء التي تصوّر ساطيرًا يُطارِدُ صبيّةً عارية. وما لبثت الخادمة الفتيّة أن رنت إليه وابتمت. وقد كانت جديدةً

بين أهل البيت، لكونها من جملة مُشترَيَات أبيه لدى وصولهم إلى أفسس. وخامرَ مرقس شعورٌ بأنَّ أباه قد اشترى تلك الفتاة أملاً بأن يُلهمه جمالها الداكن ومَحاسِنُها الممتلئة عن هَوَسِه بهدسة.

لربَّما كان يَحسُنُ بأبيه أيضاً أن يُوفِّرَ ماله!

استقامَ مرقس وعادَ إلى مَهجعِه ليسكِّبَ لنفسه بعضَ النَّبيذ. وإذ رشفَ رشفةً، خرجَ إلى السَّطِيحة، وأخذَ ينظرُ دونه إلى الناس الذين يعجُّ بهم الشارع. وبِحسِّ خارِقٍ من التَّمييز السريع، رأى مرقس هدسة تشقُّ طريقها على نحوٍ مُتعرِّجٍ في شارع كورينثس. كان شعرها مُغطًى بالشَّال المُقلَّم الذي كان من عادتها أن تلبسه، وقد حملت على وركها سلَّة من الدِّراق والعنب، فأكهه لإشباع شهوة جوليا، فيما احتياجاؤه هو ظلَّت غيرَ مُلبَّاة. ورفعتُ هدسة رأسها قليلاً، إلاَّ أنها- إذ رأتَه يُراقبها- لم تُبدِ أيَّة علامةٍ خارجيَّة.

تجهمَ مرقس. لقد بدتُ مُختلفةً على مدى الأيام القليلة الماضية: مُبتهجةً، يغمرها الفرح. ومنذُ بضع ليالات، رجَّعَ متأخراً، فسمِعها تُغني لأبيه وأمه، وكان صوتها العذبُ بالغُ الغنى والصفاء بحيثُ جعلَ قلبه مُوجعاً. ولمَّا دخلَ كي يقعدَ مع أبويه، وجدها أجملَ من ذي قبلَ على الإطلاق.

استندتُ إلى الجدار، وراقبَ هدسة تصعدُ الشارعَ إلى البيت. وقد رفعتُ نظرَها مرَّةً واحدة، ثمَّ لم تُثنِّ قطُّ. وتوارتَ دونه عندَ وصولها إلى المدخل الرئيسيِّ.

وإذ اعتكزَ مزاجه، رجَّعَ إلى داخلِ الدَّارة، ووقفَ في برودة الرِّواق بالطَّبقه الثانية، مُصغياً حتَّى يَنفتحَ الباب. وتهاَمستُ أصواتُ خافتةٍ في الفناء الأسفل، ثمَّ عبرتِ البهو الأعمدة إحدى خادماتِ المطبخ حاملةً سلَّة الفاكهة. فظلَّ لا بدأً.

خرجتُ هدسةً لتتَقَفَ دونه تحتَ دَفقِ ضياءِ الشمس. وأزاحتِ الشَّال الذي كان يُغطِّي شعرها، تاركةً إيَّاه مُهدلاً على كَتفِها. وإذ غمستُ يديها على مهلٍ في حوضِ الماء، رفعتِ الندوة إلى وجهها. فما كانَ أغربَ أن يُبدي فعلَ عاديٍّ كهذا حُسنها ونُبلها الخالص!

كان البيتُ هادئاً تاماً، بحيثُ سمعها مرقسُ تنهَّد.

وقال: "هدسة!" فسكنتُ. ثمَّ أمسكَ الدَّرائزُون الحديديَّ بيده، وقال بصرامة:

"أريدُ أن أكلِّمك. اصعدي إلى مهاجعي. الآن."

انتظرها في مدخلِ الباب المُفضي إلى مهاجعه، شاعراً بممانعتِها أن تدخُل. ولمَّا دخلت، أغلقَ البابَ بإحكامٍ وراءها. فوقفتُ في خضوعٍ ذليلٍ وظهرها نحوه، مُنتظرةً أن يتكلَّم. ورغمَ

كُلُّ هِدْوَيْهَا الظَاهِرِي، أَحْسَسْ تَوَثُرَهَا كَحَزَّةٍ سِكِّين. وَقَدْ جَرَحَ كَبْرِيَاءَهُ اضْطِرَارُهُ لِأَنَّ يَأْمُرَهَا أَمْرًا بِالْمَثُولِ أَمَامَهُ. فَمَشَى مُتَحَطِّطًا إِيَّاهَا وَوَقَفَ بَيْنَ الْأَعْمَدَةِ الَّتِي وَرَاءَهَا سَطِيحَتُهُ. لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا مَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِهْتِدَاءَ إِلَى الْكَلِمَاتِ الْمُنَاسِبَةِ.

ثُمَّ اسْتَدَارَ قَلِيلًا، وَنَظَرَ إِلَيْهَا مُجَدِّدًا. فَانْعَكَسَتْ صُورَةُ تَوْقِهِ فِي عَيْنَيْهَا، يُدَاخِلُهُ الْاضْطِرَابُ وَالْخَوْفُ. ثُمَّ قَالَ هَامَسًا: ”هَدْسَةٌ!“ وَكُلُّ مَا يَشْعُرُ بِهِ حَيَالُهَا مُحَمَّلٌ فِي اسْمِهَا، وَأَضَافَ: ”لَقَدْ أَنْتَظَرْتُ...“

فَقَالَتْ بِصَرَخَةٍ مَكْتُومَةٍ ”لَا!“ وَهَمَّتْ بِالْفِرَارِ.

أَسْكَبَهَا مَرْقُسٌ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّكَنَ مِنْ فَتْحِ الْبَابِ. وَإِذَا أَدَارَهَا قَسْرًا، ضَغَطَهَا عَلَى الْبَابِ. ”لِمَاذَا تُحَارِبِينَ مَشَاعِرَكَ؟ أَنْتِ تَحْبِبِينَني“. ثُمَّ احْتَضَنَ وَجْهَهَا بِرَاحَتِي يَدَيْهِ.

فَقَالَتْ فِي كَرْبٍ: ”مَرْقُسُ، لَا تَفْعَلِ!“

أَجَابَ: ”اعْتَرَفِي بِالْوَاقِعِ“، وَأَدْنَى فَمَهُ لِيَتَلَقَى فَمَهَا. وَلَمَّا أَدَارَتْ رَأْسَهَا جَانِبًا، ضَغَطَ بِفَمِهِ عَلَى حَنْجَرَتِهَا الْحَاوِزَةِ. فَشَهَقَتْ وَحَاوَلَتْ مُجَاهِدَةً أَنْ تَنْحَرَّرَ مِنْهُ.

فَقَالَ بَصْرَاوَةَ: ”أَنْتِ تَحْبِبِينَني!“ مَسِكًا بِذَقْنِهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَرَافِعًا وَجْهَهَا صَوْبَهُ. ثُمَّ غَشَى فَمَهَا بِفَمِهِ، وَقَبَّلَهَا بِجِلْدِ الشَّغْفِ الَّذِي ظَلَّ يَتَنَامَى فِي دَاخِلِهِ أَشْهُرًا. وَارْتَشَفَ مِنْهَا كَرَجُلٍ يَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ. فَذَابَ جِسْمُهَا فِي جِسْمِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يُعَدِّ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَنْتَظَرَ بَعْدَ. فَحَمَلَهَا عَلَى ذِرَاعِيهِ، وَأَخَذَهَا عِبْرَ الْغُرْفَةِ إِلَى أَرِيكَتِهِ.

إِذْ ذَاكَ صَرَخَتْ: ”لَا!“ وَبَدَأَتْ مُجَاهِدًا مِنْ جَدِيدٍ.

فَقَالَ بِخَشْوَةٍ: ”كُفِّي عَنِ مُحَارَبَتِي!“ وَرَأَى عَيْنَيْهَا الدَّاكِنَتَيْنِ وَبَشَّرَتَهَا الْمَتَوَرِّدَةَ، فَأَضَافَ: ”كُفِّي عَنِ مُحَارَبَةِ نَفْسِكَ!“ وَأَمْسَكَ بِعِصْمَتَيْهَا. ”لَقَدْ غَادَرْتُ رُومًا لِأَكُونَ مَعَكَ. إِنِّي أَنْتَظَرْتُكَ أَطْوَلَ مِمَّا أَنْتَظَرْتُ آيَةَ امْرَأَةٍ.“

”مَرْقُسُ، لَا تَحْلِبْ عَلَى نَفْسِكَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ.“

فَقَالَ سَاخِرًا: ”خَطِيئَةُ!“ وَأَهْوَى عَلَى فَمِهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَتَشَبَّثَتْ بِتَنْكِهِ، نِصْفَ مُنَابِعَةٍ وَنِصْفَ مُدْعِنَةٍ. وَظَلَّتْ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّفَ، فَمَا زَادَتْهُ تَوَسُّلَاتُهَا إِلَّا تَصْمِيمًا عَلَى أَنْ يُبْرِهِنَ أَنَّ رَغْبَتَهَا لَيْسَتْ أَقْلٌ مِنْ رَغْبَتِهِ هُوَ. وَارْتَجِفَتْ تَحْتَ لَمْسَتِهِ، فَكَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُحَسِّنَ حَرَارَةَ جِلْدِهَا... وَلَكِنَّهُ ذَاقَ أَيْضًا مَلُوحَةَ الدَّمُوعِ.

وَصَرَخَتْ: ”يَا اللَّهُ، سَاعِدْنِي!“

فاستشاط غضبًا في الحال، وقال: "الله!" ناسيًا كلَّ لطفٍ في تفجّر خيبةٍ مُفاجئ. "نعم، صلّي إلى إله ما. صلّي إلى فينوس. صلّي إلى إروس، عسى أن تتصرّف في مثل امرأةٍ سويّة!" وأحسّ حاشيةً ياقه تُنكّها تتمرّق في يده، كما سمع صرختها الرقيقة المروعة.

وفجأةً تراجعَ شاتماً. وفيما هو يتنفس تنفّساً ثقيلاً، حدّق من علٍ إلى الضّرر الذي أحدثه، ويده ما تزال مُسكّةً بالثنك الممزوق. فإذا ببرودةٍ تجتاحه، فيرخيه من يده، ويقول أنا: "هدسة، لم أقصد أن..." وقد غمره الاشمئزاز من النفس.

وسرعان أن توقّفَ حالاً، إذ دفعه إلى السكوتِ الداهلِ منظرُ وجهها الساكنِ الشاحب. كانت عيناها مُغمضتين ولم تكن هي تتحرّك. وانقطعَ نفّسه تماماً لما أبصرَ شكلها الهامد. "هدسة!" ثمّ هددها بين ذراعيه، مُسنداً إلى الوراء شعرها عن وجهها، ووضعَ يده على قلبها، إذ روعه أن يكونَ إلهها قد أماتها في الحال إنقاذاً لطهارتها. غير أن قلبها كان ينبض تحت راحة يده، فغمره الفرح... حتّى أدركَ بهيّةٍ مُمرضة أنه أوشك أن يغتصّبها.

ثمّ شرعتْ بالنهوض، فمدّدها على الأريكة من جديد وهو لا يقوى على مُواجهتها، وهبّ واقفاً. وتقدّمَ إلى القارورة فصبَّ كأسَ خمر، وكبّها في حنجرتِه، فكانَ مذاقها كالعلقم. وفيما هو يرتجف بشدّة، نظرَ إليها مُجدّداً، فأراها تجلس. وقد كان وجهها مسحوباً. فصبَّ مزيداً من الخمر وحمله إليها.

دفعَ الكأسَ إلى يدها، قائلاً: "اشربي هذه!" وتناولتها بيدينِ مُرتعشتين، فقال: "يبدو أن إلهك يُريد لك أن تظلي عذراء!" وقد أجفلَ في داخله حيالَ جفاء كلماتِه. ترى، ماذا كان صائراً حتّى أمكنه أن يغتصّب الفتاة التي أحبّها؟ ثمّ قال باكتئاب: "اشربيها كلها!" وأحسّ ارتعاشَ أصابعها لما لامست أصابعه. وإذا استولى عليه التدم، وضعَ يديه حول يديها، وجثا أمامها.

قال: "لقد فقدتُ السيطرة..." والألمُ يخنقُ صوته، عالماً أن ذلك ليس عُذراً. وهي لم تنظرَ إليه، غير أن الدموعَ فاضتْ على خديها الشاحبين نَهراً صامتاً، فانقبضَ قلبه. "لا تبكي. هدسة، لا تبكي. رجاء!" وقعدَ بجانبها راغباً في شدّها بين ذراعيه، لكنّه كان خائفاً أن يفعلَ ذلك. ثمّ قال- لامساً شعرها- "أنا أسف. لم يحدثُ شيء. لا داعي للبقاء." وسقطتِ الكأس على الأرض، مُطرّطشةً النبيذَ الأحمر كالدّم على البلاط الرخامي. فغطّت هدسة وجهها وكيفها وترجفان.

نفضَ مرقس ومشى مُبتعداً عنها، لاعتنا نفسه. وقال مُدّبباً ذاته: "إنّ حبي لا يتأني، ولا

يَرُقُّ. لم أَقْصِدْ قَطُّ أَنْ أُؤْذِيكَ. قَسَمًا عَلَى ذَلِكَ! لَسْتُ أُدْرِي مَا جَرَى... مَا فَقدْتُ السَّيْطِرَةَ يَوْمًا بِهَذَا الشَّكْلِ“.

فَقَالَتْ: ”لَقَدْ تَوَقَّفتُ“.

نَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَقَدْ أَدَهَشْتَهُ مُجَرَّدُ تَكَلُّمِهَا إِلَيْهِ. وَكَانَتْ حَمَلَتْهُ ثَابِتَةً، رُغَمَ الْارْتِجَافِ الَّذِي اعْتَرَى جِسْمَهَا.

”لَقَدْ تَوَقَّفتُ، وَالرَّبُّ سَيَبَارِكُكَ...“

فَأثَارَتْ كَلِمَاتُهَا سَوْرَةَ سُخْطِ فِيهِ، وَقَالَ بِاسْتِيَاءٍ: ”لَا تُكَلِّمِينِي بِشَأْنِ إِلَهِكَ! لِتَكُنْ عَلَيْهِ لَعْنَةٌ!“

قَالَتْ هَامِسَةً: ”لَا تَقُلْ هَذَا!“ وَقَلْبُهَا مُفَعَّمٌ بِالْخَوْفِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا وَأَرْغَمَهَا عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ: ”أَهَذَا الْحُبُّ الَّذِي أَكُنْتُ لَكَ هُوَ مَا يَمَكِّنُكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ بَرَكَةً؟“ وَرَأَى أَنَّ قَبْضَتَهُ تَوَلَّمُهَا، فَأَفْلَتَهَا. وَابْتَعَدَ عَنْهَا بِضَعِّ أَقْدَامٍ، مُحَارِبًا عَوَاطِفَهُ: ”كَيْفَ يَكُونُ بَرَكَةً أَنْ أُرِيدَكَ كَمَا أُرِيدُكَ وَلَا أَمَكِّنُ مِنْ حَيَازَتِكَ بِسَبَبِ شَرِيعَةٍ سَخِيفَةٍ؟ لَيْسَ طَبِيعِيًّا أَنْ تُحَارِبَ غَرَائِزَنَا الْأَسَاسِيَّةَ. إِنَّ إِلَهَكَ يَسْتَمْتَعُ بِإِحْدَاثِ الْأَلَمِ“.

”إِنَّ اللَّهَ يَجْرُحُ لِكَيْ يَشْفِي“.

فَقَالَ بِضِحْكَةٍ خَشِنَةٍ: ”إِذَا، لَسْتُ تُتَكَرَّرُ الْوَاقِعَ. فَهُوَ يَلْعَبُ الْأَعْيَبَ مَعَ النَّاسِ كَأَيِّ إِلَهٍ آخَرَ تَمَامًا“.

”لَا الْأَعْيَبَ، يَا مَرْقُسُ. فَلَيْسَ مِنْ إِلَهٍ آخَرَ سِوَى اللَّهِ الْقَدِيرِ، وَمَا يَفْعَلُهُ فَإِنَّمَا يَفْعَلُهُ بِحَسَبِ قَصْدِهِ الصَّالِحِ“.

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ. مَرْقُسُ! لَقَدْ بَارَكْتَ اسْمَهُ وَهِيَ تَلْفُظُهُ، فَتَبَخَّرَ غَيْظُهُ... لَكِنْ دُونَ خِيْبَتِهِ. فَسَأَلَهَا يَأْتِسًا- وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا- ”أَيُّ قَصْدٍ صَالِحٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُسْفَرَ عَنْهُ حُبِّي لَكَ؟“ وَوَمَضَتْ عَيْنَاهَا بِالْذَّمِّ مَوْعٍ، فَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيَغْرُقُ حَالِمًا لِأَخْتِ لَهُ نَظْرَةً رَجَاءٍ فِي عَيْنَيْهَا.

”قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبِيلَ اللَّهِ لِفَتْحِ قَلْبِكَ لَهُ“.

فَتَصَلَّبَ. ”لَهُ؟“ وَأَطْلَقَ ضِحْكَةً قَطَّةً. ”إِنِّي أَفْضَلُ الْمَوْتَ عَلَى الْإِنْحِنَاءِ أَمَامَ إِلَهِكَ هَذَا“. وَاسْتَوَلَّتْ عَلَى سِمَائِهَا مَلَامِحٌ تَأْذٍ وَحُزْنٍ جَرِيحَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلِ، فَندَمَ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ. لَقَدْ رَأَى كَيْفَ مَرَّقَ بِيَدَيْهِ لَفَقَ ثَوْبِ الْعَبِيدِ الَّذِي كَانَتْ تَرْتَدِيهِ، وَالْآنَ عَلِمَ أَنَّهُ خَرَقَ قَلْبَهَا أَيْضًا بِكَلِمَاتِ غَضَبِهِ. وَإِذْ نَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا، عَلِمَ أَنَّهُ إِذْ فَعَلَ ذَلِكَ صَدَّعَ نَفْسَهُ أَيْضًا.

”أريدُ أن أعلم أي شيءٍ فيك يجعلُك تلتصقينِ بالهك غير المنظور هذا. قولي لي“. رنت إليه هَدَسَةٌ، وعلمت أنها أحبتته كما لن تُحِبَّ آخَرَ أبداً. لماذا، يا الله؟ لماذا هذا الرجل الذي لا يفهم؟ لماذا هذا الرجل الذي يرفضك بعناد؟ أنت قاسٍ، كما يقول مرقس؟

ثمَّ قالت، مُرْتَعِشَةً بشدَّة: ”لستُ أدري، مرقس“. وكانت ما تزال ترتعدُّ بتوقٍ إليه، غريبٍ شديد، وتخشى كم يسهل أن تستسلمَ لهذه الإحساسات التي أثارها فيها. إنَّ الله ما جعلها قطُّ تشعرُ شعورًا كهذا.

يارب، أعطني القوَّة. لا قوَّة لي من عندي. إنَّ الطريقةَ التي بها ينظرُ إليَّ تجعلني أذوبُ في داخلي. إنَّه يجعلني ضعيفة.

قال مرقس: ”أفهميني!“ وعلمت أنه سينتظرُ حتَّى تُجيب.

”قال أبي إنَّ الله قد اختارَ أولاده قبلَ تأسيسِ العالم، بمقتضى قصده اللطيف.“

”قصدٌ لطيف. أهو لطيفٌ أن يحرمكِ التمتعِ بما هو طبيعي؟ أنتِ تحببيني، يا هَدَسَةٌ. رأيتُ ذلك في عينيكِ لما رنوتِ إليَّ. شعرتُ به لما لمستك. لقد كانت بَشْرَتِك حارَّةً جدًّا. وقد كنتِ ترنجفين، إنَّما ليس من الخوف. أهو لطيفٌ أن يجعلكِ إلهكِ تُعانينَ على هذا النحو؟“

ولما نظرَ إليها بتلك الطريقة، لم تستطع أن تُفكِّر. فطأطأت عينيها.

أقبلَ مرقس إليها ورفعَ ذقنها. ”إنك لا تستطيعين أن تُجيبني، أليس كذلك؟ أنتِ تعتقدين أن إلهكِ هذا هو كلُّ شيء؛ أنه كافٍ. فأقولُ لكِ إنه ليس كذلك. هل يستطيعُ أن يَضُمَّكِ، يا هَدَسَةٌ؟ هل يستطيعُ أن يلمسكِ؟ هل يستطيعُ أن يقبلَكِ؟“ ثمَّ انبسطت يده برقَّةٍ على خدها، ولما رأى كيفَ انطبقت عيناها، وثبَّ نبضه. ”بشْرَتِك ساخنة، وقلبك يخفق بشرعةٍ كقلبي“. ونظرَ في عينيها، مُتوسلاً إليها. ”أجعلُكِ إلهكِ تشعرينِ بمثل ما أشعرُ أنا به؟“

أمسكت يده بين يديها، وقالت هامسةً: ”لا تفعلْ هذا بي. رجاء، لا تفعلْ هذا!“

علمت أنه أذاها من جديد، إلَّا أنه لم يعرفِ السبب. فلم يستطع أن يفهم شيئاً، وقد أغمته ذلك وأربكته. كيف يمكنُ لإنسانةٍ غاية في اللطف والهشاشة، أن تكونَ عنيدةً إلى أقصى حد؟

ثمَّ قال مرقس مُناكِداً: ”لا يستطيعُ هذا الإلهُ حتَّى التكلّمَ إليك.“

فقالت برقَّةً: ”إنَّه يتكلّمُ إليَّ فعلاً!“

سحبَ مرقس يده من يديها. وإذ تأمَّل وجهها، أدرك أنها قالتِ الحقَّ. لقد صرَّح آخرون من قبل بادعاءاتٍ من هذا القبيل: الإلهةُ قالوا هذا، الإلهةُ قالوا ذلك. ومهما قاله الإلهة، كان

لأجل أغراضهم الخاصة. أمّا الآن، فإذ نظرَ في عيني هَدَسَةٌ لم يُساوِرْهُ أيُّ شكٍ. وفضاءً، غدا خائفًا بشكلٍ يتعذّرُ تفسيره. ”كيف؟ متى؟“

”هل تتذكّرُ القِصَّةَ التي حكَيْتُها لك مرَّةً عن إيليا وأنبياءٍ بعل؟“

فعبسَ قليلاً: ”الرُّجُلُ الذي استنزَلَ نارًا من السَّمَاوَاتِ لإحراقِ تَقْدِمَتِهِ، ثُمَّ قَتَلَ لاحقًا بِضَعِ مِثَالِ مِنَ الكَهَنَةِ؟“ إنَّه تذكّر. وقد أذهله أن تتمكّنَ هَدَسَةٌ من سَرِدِ قِصَّةٍ دَامِيَةٍ جدًّا كَتَلِكَ. فاستقامَ وابتعدَ عنها قليلاً، سائلاً: ”وماذا عنها؟“

”بعدما أهلكَ إيليا الكهنة، قالَتِ المَلِكَةُ إيزابَلُ إنَّها ستفعلُ به مِثْلَ ذلك، فهربَ لأنَّه خاف.“

”خافَ من امرأة؟“

”لم تكنْ مُجَرَّدَ امرأةٍ، يا مَرْقُس. لقد كانتِ شَرِيْرَةً جدًّا، وقويَّةً جدًّا. فإنَّ إيليا هربَ إلى البرِّيَّةِ ليختبئَ من إيزابَل. وطلبَ الموتَ لنفسه، إلَّا أنَّ اللهَ بالأحرى أرسلَ إليه ملاكًا كي يخدمه. والطعامُ الذي أعطاه إياه ملاكُ الرَّبِّ، مكَّنه من السَّفَرِ سَيرًا على قدميه مدَّةَ أربعينَ يومًا حتَّى وصلَ إلى حُوريب، جَبَلِ اللهِ. هناكِ عِشْرَ إيليا على مغارة، فأقامَ فيها. وعندئذٍ وافاه الرَّبُّ. فقد هبَّتْ رِيحٌ شديدةٌ وكسَّرتِ الصُّخُورَ، ولكنَّ اللهَ لم يكنْ في العاصفة. ثُمَّ حدثتْ زَلْزَلَةٌ واشتعلتْ نارٌ، ولكنَّ الرَّبَّ لم يكنْ فيهما أيضًا. بعدئذٍ، فيما حُمِيَ إيليا في شِقِّ صَخْرَةٍ، سَمِعَ اللهُ مُتَكَلِّمًا.“

ثُمَّ رَفَعَتْ نَظْرَها إلى مَرْقُس، فإذا عيناها هادئتان ومُشْرِقتان، ووجهها مُتوهِّجٌ على نحوٍ عجيب. ”لقد تكلمَ اللهُ في همسةٍ لطيفة، يا مَرْقُس. صوتٌ مُنخَفِضٌ خفيف. صوتٌ في الرِّيحِ...“

شعرَ مَرْقُسُ بإحساسٍ ونَحْزٍ غريبٍ يسري في حَبْلِهِ الشُّوكِيِّ نُزُولًا. وانفتَلَ فَمُه في حركةٍ دِفَاعِيَّةٍ. ”ريح؟“

فقالَتِ بِرِقَّةٍ: ”نعم.“

”نَمَّةٌ نَسِيمٌ اليوم. فإنَّ وقفتُ في الخارجِ على السَّطِيحَةِ، فهل يسعُنِي أن أسمعَ صوتَ إلهكِ هذا؟“

فطأطأتْ رأسها. ”إذا فتحتَ قلبك“. لو لم يكنْ قلبك مُقَسَّى جدًّا. وأرادتْ أن تبكي

من جديد.

ثُمَّ قالَ ساخِرًا: ”هل يُكَلِّمُ حتَّى شخصًا رومانيًّا؟“ وأضافَ بجفاء: ”أرجحُ أنَّ إلهكِ

هذا لا بد أن يطلب قلبي على مذبحه، ولا سيما بعد الذي أوشكت أن أفعله بواحدة من أتباعه الأكثر ورعاً". ووقف في مدخل الباب المفتوح إلى السطیحة، وظهره نحوها: "أينبغي أن ألوم إلهك إذا على هذه الرغبة التي لدي تجاهك؟ أهي من صنعها؟" ثم دار ليواجهها من جديد.

وقال بامتعاض: "ظلال أپولو ودافني! هل سمعت بهما، هدسة؟ لقد أراد أپولو دافني، لكنها كانت عذراء ولم تستسلم. فطاردها بعنون، وهربت منه، صارخة إلى الألهة لإنقاذها". ثم أطلق صيحة خشنة. "وقد أنقذوها فعلاً. أتعرفين كيف؟ لقد حولوها إلى شجيرة ذات زهر طيب الرائحة. ولذلك ترين تماثيل أپولو وأكليل من الدافني يتوج رأسه".

من ثم رفع مرقس صوته ساخراً. "أقدم إلهك هذا على تحويلك إلى شجيرة أو شجرة كي يحمي بتولتك مني؟"

"لا".

ثم انسدل بينهما سكون طويل. وكان الصوت الوحيد في أذني مرقس هو نبض قلبه. "لقد كنت تحارين نفسك أكثر مما كنت تحارينني".

فاحمر وجهها وطأطأت عينيها مرة أخرى، إلا أنها لم تبد أي إنكار، بل قالت برقة: "صحيح أنك تجعلني أشعر بأشياء لم أشعر بها قط من قبل". ثم نظرت إليه من جديد، وأضافت: "غير أن الله أعطاني حرية الإرادة، وحذر من عواقب الفجور..."

فقال مرقس من بين أسنانه: "فجور؟" كما كانت تلك الكلمة صفة على وجهه، وأضاف: "أهو فجور أن يستمتع معاً شخصان يحبان أحدهما الآخر؟"

"كما أحببت بيثية؟"

كان سؤالها المنطوق برقة كدفقة من الماء البارد، وما لبث أن أثار غضبه. "ليس لبيثية أية علاقة بمشاعري تجاهك! فأنا ما أحببت بيثية قط".

فقالت بكل هدوء: "ولكنك مارست الحب معها!" وقد ارتبكت إذ تكلمت بهذه الصراحة البالغة.

ونظر في عينيها، فتبحر غضبه. وأحس شعوراً بالخزي، دون أن يتمكن من إدراك السبب. لم يكن أي خطأ في ما فعله مع بيثية، أليس كذلك؟ فهي جاءت إليه بملء حرقتها. وبعد المرآت الأولى القليلة، باتت بيثية تأتي إليه ليلاً حتى حين لم يستدعيها.

ثم قال بابتسامة كئيبة: "كان علي أن أمرك أمراً، أليس كذلك؟ ولو طلبت منك

الاستسلام، لكنني شعرت بأنك مُرَعَمَةٌ على طَرَحِ نَفْسِكَ من فوق السَّطِيحَةِ“.

”ما كُنْتُ لتأمرني أمرًا“.

”ماذا يجعلك مُتَيَقِّنَةً تمامًا؟“

”أنت رجلٌ شريف“.

فقال بِضِحْكَةٍ مُرَّةٍ: ”شريف؟ كم يسهلُ أن تتمكَّنَ كلمةً واحدة من جَرَفِ حماسةِ

رجلٍ... ورجائه! وهذه هي نِيَّتُكَ بلا ريب“. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بِنَبَاتٍ. ”أنا رومانيٌّ، هَدَسَةٌ. قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ، أنا كذلك. فلا تَتَكَلَّمِي كثيرًا جدًّا على انضباطي الذاتي“.

ثُمَّ انسدَلَ الصَّمْتُ بَيْنَهُمَا. فقد علمَ مَرْقُسُ أن لا شيءَ يَقْوَى على تدميرِ حُبِّه لَهَا، وأحسَّ لحظةً يأسَ. لولا هذه العقيدة التي تشبَّثَ بها بشدَّة، لاستطاعَ أن يحوزَهَا إذ إنَّهَا ملكٌ له. لولا إِلَهَهَا...

نهضتْ هَدَسَةٌ، وقالت بكلِّ لطفٍ: ”هل لي أن أنصرف، سيدي؟“ وقد عادتْ خادِمَةً

من جديد.

قال دون انعطافٍ: ”نعم“. وراقبَهَا تمشي إلى الباب وتفتحه. فقال: ”هَدَسَةٌ“، وحُبُّه

لَهَا يَحْزُنُ في صدره. إنَّ الطريقةَ الوحيدةَ التي بها يستطيعُ أن يحوزَهَا كانت تحطيمَ هذا الإيمانِ العنيد. وإذا قام بهذا، فهل يُحطِّمُهَا؟ ”ماذا فعلَ لكِ بالحقيقةِ إِلَهكِ هذا أصلًا؟“

وقفتْ ساكنةً جدًّا بضعَ لحظات، وظهرَها نحوه. ثُمَّ قالت بلطفٍ: ”كلُّ شيءٍ“،

وغادرتْ مُغلِقَةً البابَ بهدوءٍ وراءَهَا.

أخبرَ مَرْقُسُ أباه ذلك المساءَ أَنَّهُ ينوي النظرَ في شراءِ مسكنٍ خاصٍّ له. وقال: ”إنَّ انتقَالَنا المفاجئِ إلى أفسسٍ قد أثارَ بعضَ التَّخميناتِ بشأنِ سلامةِ أصولنا. فإنفاقُ وِزَنَاتٍ من الذهبِ في شراءِ دارةٍ ثانية، وإقامةِ ضيافةٍ سخيةٍ للرَّسَمِيِّينَ الرُّومانيِّينَ المُهمِّينَ، سيَبَدِّدُ التَّخميناتِ بِسُرْعَةٍ وافية“.

نظرَ دَسِمُسُ إلى ابنه، مُدْرِكًا تمامًا أنَّ أسبابَ مَرْقُسِ الحقيقِيَّةِ للمُغادرةِ ليستْ لَهَا أيَّةُ

علاقةٍ ”بالتَّخميناتِ الخارجِيَّةِ“.

”أنا أفهم، يا مَرْقُسُ“. وهو، بالحقيقة، قد فهم.

٢٩

نَادَتْ جُولِيَا حَالِمًا دَخَلْتَ الْبَيْتَ: ”هَدْسَةٌ!“ وَإِذْ رَفَعَتْ هُدْبَ بِالسِّهَاءِ، صَعِدَتْ الدَّرَجَ عَلَى عَجَلٍ. ”هَدْسَةٌ!“

فَأَسْرَعَتْ هَدْسَةٌ إِلَيْهَا، قَائِلَةٌ: ”نَعَمْ، سَيِّدَتِي“.

قَالَتْ جُولِيَا: ”تَعَالَى، تَعَالَى، تَعَالَى بِسُرْعَةٍ!“ وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ وَرَاءَهَا. ثُمَّ ضَحِكَتْ وَدَوَّمَتْ مُبْتَهِجَةً جَدًّا، نَازِعَةً غِطَاءَ الرَّأْسِ الرَّفِيقِ الَّذِي كَانَ يُغْطِي شَعْرَهَا. ”ذَهَبْنَا، وَالِدَتِي وَأَنَا، إِلَى الْأَرَطَمِيسِيِّونَ هَذَا الصَّبَاحِ، وَكَادَ يُغْمَى عَلَيَّ لَمَّا دَخَلْتُ“.

”مَنْ، سَيِّدَتِي؟“

”أَتَرَيْتِ! إِنَّهُ أَجْمَلُ بَعْدُ مِمَّا أَتَذَكَّرُ. كَأَنَّهُ إِلَهُ هَبَطَ مِنْ جَبَلِ الْأُولِمْپِ. كَانَ الْجَمِيعُ يُحَدِّقُونَ إِلَيْهِ. وَقَدْ كَانَ عَلَى بُعْدِ خَطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنِّي. وَكَانَ مَعَهُ حَارِسَانِ فِيمَا أَدَّى الْعِبَادَةَ. خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي سَامَوْتُ، وَقَدْ أَخَذَ قَلْبِي يَخْفِقُ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ“. ثُمَّ وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى صَدْرِهَا كَمَا لَوْ ابْتَعَتْ أَنْ تُهْدِئَهُ هُنَيْهَةً، وَسَرَعَانَ مَا شَرَعَتْ تُفْتَشُّ بِدَقَّةٍ بَيْنَ أَشْيَائِهَا. وَقَالَتْ بَاكْتِتَابَ: ”قَالَتْ أُمِّي إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُغَادِرَهُ سِرًّا لِلتَّعَبُدِ“.

”عَمَّ تُفْتَشِّينَ، سَيِّدَتِي؟ فَلَأَسَاعِدْكَ فِي الْعَثُورِ عَلَيْهِ“.

”قِلَادَةُ الْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ. هَلْ تَذَكَّرِيْنَهَا؟ لَيْسَتْ تِلْكَ الْبَسِيطَةُ، بَلِ الْكَبِيرَةُ ذَاتِ الْمِخْلَبِ الذَّهَبِيِّ الثَّقِيلِ. فَتَشِي عَنْهَا. عَجَلِي! قَالَ شُكْرَاسُ إِنَّهَا تُقْوِي الْخَيَالَ، وَلَسَوْفَ أَحْتَاجُ إِلَى كُلِّ مَا يُمَكِّنُنِي الْحُصُولَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيَالِ كَيْ أَهْتَدِيَ إِلَى طَرِيقَةِ الْمُقَابَلَةِ أَتَرَيْتِ“.

عَثَرَتْ هَدْسَةٌ عَلَى الْقِلَادَةِ، وَقَدَّمَتْهَا لَهَا. وَرُغِمَ كُلُّ مَا اتَّسَمَ بِهِ الْعَقِيقُ الْأَحْمَرُ بِحَدِّ ذَاتِهِ مِنْ جَمَالٍ طَبِيعِيٍّ خَالِصٍ، فَإِنَّ الْمِخْلَبَ الْمُخِيفَ جَعَلَ الْقِلَادَةَ حَلِيَّةً تَعَافُهَا النَّفْسُ، تَمِيمَةً مَقْصُودًا بِهَا أَدَاءَ السُّحْرِ. وَإِذْ نَاولَتْ سَيِّدَتَهَا الْقِلَادَةَ طَائِعَةً، قَالَتْ: ”لَا تَضْعِي ثِقَتَكَ فِي حَجَرٍ، سَيِّدَتِي“.

ضَحِكَتْ جُولِيَا عَلَيْهَا، وَلَيْسَتْ الْقِلَادَةُ. ثُمَّ تَشَبَّهَتْ بِالْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ، قَائِلَةٌ: ”لِمَ لَا؟ إِذَا كَانَتْ قَدْ نَفَعَتْ غَيْرِي، فَلِمَاذَا لَا تَنْفَعُنِي أَنَا؟“ وَأَمْسَكَتْ حَجَرَ الْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ بِكِلْتَا يَدَيْهَا بِأَحْكَامٍ بَيْنَ نَهْدَيْهَا، ثُمَّ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا. ”يَجِبُ أَنْ أُرْكَزَ أَفْكَارِي وَأَتَأَمَّلُ. غَادِرِنِي إِلَى أَنْ أَدْعُوكِ“.

افسس

لقد بدا أن العقيق الأحمر نفع جوليا. ففي ساعة واحدة، عَلِمَتْ تمامًا كيف ينبغي لها أن تُقَابِلَ أترتيس. ولم تكن تلك فكرةً تستطيع أن تُطَلِّعَ هَدَسَةَ عليها، ولا أيَّ فردٍ آخر من أهل البيت. حتَّى مَرَّقَسَ كان من شأنه أن يَعْتَرِضَ على أساليبها، غير أنها لم تُبَالِ. وقد تَأَلَّفَتْ عيناها انفعالاً وحماسة. لا، لم تُبَالِ بما يعتقده أيُّ إنسان. أَضِفْ أَنَّهُ لا داعيَ لأنَّ يعرفَ أحد... فسيكون ذلك سرًّا تعرفه هي وحدها، وأترتيس.

كانت هَدَسَةُ قد قالت لها إنَّ عليها ألا تَضَعْ ثِقَتَهَا في حجر، غير أن العقيق الأحمر فعَلْ فعَلَهُ! وقد أيقنَتْ جوليا أنها لولا ما كانت لِتستطيع أن تتصوّر فكرةً يمثل هذا الجُمُوح وهذه الإثارة البَالِغِينَ. غداً، ستقومُ بجميع التَّحضيرات الضرورية. وفي اليوم التالي، ستُقَابِلُ أترتيس في هيكلِ أَرطَميس.

تذكرُ أترتيس ثُبُوءَ أمه لحظةً رأى جوليا فاليريان وسطَ عَمَامَةٍ دُخَانِ البَخُور، داخلَ مَقْدِسِ الأَرطَمِيسِيِّون الداخلي. كان ما يزالُ ينتظرُها لتعودَ إلى صُلْبِ حياته، وقد وَقَفَتْ الآن أمامه مِثْلَ طَيْفٍ مُسْتَحْضِرٍ، أَجْمَلُ بَعْدَ مَا تذكَّرها. وفيما هي مُرتديَةٌ بِالسَّاحِرِ شَقَافًا، مُزْرَكِشًا بِتَطَارِيزٍ من ذَهَبٍ ومائِجًا حَوْلَ جِسْمِهَا الأَهْيَفِ، تَهَادَّتْ نَحْوَهُ. وقد سَمِعَ جَلِجَلَةَ الأَجْرَاسِ الخفيفةِ ورأى الخَلاخِيلَ التي طَوَّقَتْ كاحليها بها.

عَبَسَ قَلِيلًا إذ شاهَدَهَا. تُرى، كيف باتت تلك الفتاةُ الخَجَلَةُ التي تورَدُ خَدَّاهَا في اللُودُسِ مُومِسَ هيكلٍ في أفسس؟ يَقيِنًا أن ذلك كان من صُنْعِ الإِلاهَةِ، مُهْدَةَ السَّبِيلِ لِلإِتْيَانِ بها إليه. ولكنْ بَعْدَ، ماذا عرفَ عن جوليا فاليريان سوى ما قد قيلَ له؟ لقد رآها مرَّةً واحدةً فَوْقَهُ على الشَّرْفَةِ في اللُودُسِ. وها هي الآن واقفةٌ على مَقَرَّبَةٍ منه أتاحت له أن يرى نَصَارَةَ جِلْدِهَا الناعمةَ تَحْمِي تحت حَمَلَتِهِ. وقد رأى عينيها، دَاكِنَتَيْنِ وجائِعَتَيْنِ.

لم تكن لها بُرُودَةٌ سَبَقَ المُومِسِ المُصْطَنِعِ، بل كان رَغْبَتُهَا في أترتيس حَقِيقِيَّةً، حَقِيقِيَّةً جَدًّا بحيثُ أرَادَهَا كما لم يُرِدْ قَطُّ أَيَّةَ امرأةٍ من قَبْلِ. غير أن شَيْئًا ما داخله جعله يَصْطَبِرُ ويلوذُ بالصَّمْتِ.

وفيما جوليا واقفةٌ تحتَ نظره الغامضِ، شعرتْ بالتوترِ العصبِيِّ واللَّائِقِينَ. فَرطَبَتْ شَفَتَيْهَا وحاولتْ مُسْتَمِيتَةً أن تتذكَّرَ الكَلِمَاتِ التي تدرَّبَتْ عليها.

كانت قد قَصَّت ساعاتٍ في الهيكلِ مُنتظِرَةً إِيَّاهُ، رَافِضَةً مُرَاوَدَاتِ عَشْرَاتِ من الرِّجَالِ الأَخْرِينِ، مُتَسَائِلَةً عن كَوْنِهِ سَيَحْضُرُ أصلاً. ثُمَّ ظَهَرَ فعلاً. فوسطَ حِرَاسَةٍ مُشدَّدةٍ، وضعَ قُرْبَانَهُ

في يدي الكاهن، وسجدَ أمامَ تمثالِ أرطَميس. ولما نهَضَ، انتقلتُ ووقفتُ في خطِّ رؤيته. وما إن التفتَ ورأها، حتى شعرتُ بموجةِ حرارةٍ تجتاحها.

وسرعان ما أمالَ رأسه قليلاً، مُصدراً ضحكةً مُصطنعةً عالية، بُغيةً تحديها. فتكلمتُ باندفاعٍ مُتوترةً. ”هلمَّ معي كي نحتفلَ في صخب، حتى نسيرَ الإلاهةَ الأعلى سُموا!“ وقد علمتُ أنها بدتُ مبهورةَ النفس، فاحمرَّ وجهها.

قال بصوتٍ عميقٍ وثقيل اللهجة: ”بأيِّ ثمن؟“
”بأيِّ ثمن أنتَ مستعدٌ لدفعه.“

أطلقَ أتريتس حَمَلتَه من أعلى رأسها حتى قدميها المُصنَدلتين. فوجدَها جميلةً على نحوٍ مُثير، ولكنه شعرَ بقلبي غامض. أكانتَ هذه هي المرأةُ التي تنبأتُ عنها والدته؟ امرأةٌ ترتدي زيَّ بغايا الهيكل وتبيعُ نفسها مثلهنَّ؟ إلا أن الرغبةَ جعلته يتغاضى عن هواجسه. فأوماً برأسه موافقاً.

اصطحبته إلى فندقٍ يُقدِّم خدماته للزُّوار الأجانب الأغنياء، لا إلى أحد بيوت الدعارة المجاورة للهيكل. وما إن باتا في الداخل، حتى ارتمت بين ذراعيه بتلهفٍ بالغ.

ولما انتهى الأمر، شعرَ أتريتس باشمئزازٍ مُقلبي حيالَ ما جرى بينهما. فوقفَ وابتعدَ بضع خطوات. وإذا أجفلها خذلانه، رنتَ إليه بذهول. كانتِ التقاطيعُ الجميلة في وجهه الشبيه بوجهِ إلهِ جامدةٍ وباردة. فيمَ كان يُفكرُ وهو ينظرُ إليها من علِّ؟ وحاولتُ أن تُتميمَ مدلولَ سيماته، فلمَ تستطع.

”أيُّ لُعبةٍ تلعبين، يا جوليا فاليريان؟“

اتسعتَ عيناها، وتأججَ خدَّها. ”كيفَ عرفتَ اسمي؟“

”جئتُ مرَّةً إلى اللودس، مع العاهِرِ الرُّومانيَّةِ أوكتافيا. وسألتُ عنك، فقال لي باتو إنكِ متزوِّجة.“

قالت مُرتبكةً: ”زوجي مات.“

فرفعَ حاجبيه ساخرًا. ”كيفَ صارتِ ابنةٌ واحدٍ من أغنى التُّجار في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة مُومس هيكَل؟“

وقفتُ مُتقلِّبةً، وقد شعرتُ بأنَّها وهي واقفةٌ أحسنُ قدرةً على مواجهة موقفه الساخر. ”لستُ مُومسا.“

فابتسم بفتور ومدَّ يده لِيَلْمَسَ شعرَها، قائلاً: ”لا؟“

قالت بارتعاد: ”لا! بل كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكّنت من التفكير فيها لكي أقابلك“.

اقشعراً أترتيس ثانية من الرغبة التي انبعثت في داخله حالمًا لمَسَ جوليا. وسأل ببرودة:
”هذه الحيلة كلُّها للاختلاء بحارب؟“

بسّطت يديها على صدره تبهجياً، وأجابَتْ: ”لا، لا! إنّما أردتُ أن أكونَ معك. فقط معك أنت، يا أترتيس. لقد أردتُ أن أكونَ معك من أوّل يومٍ فيه رأيتك تركضُ على الطريق بقُرب كايوا“.

”أتذكّر، كانت تُرافقك يهوديّة صغيرة“.

”هل تتذكّر؟ ما ظنّنتُ أنّك لاحظتني“، قالت هذا مُستكشفةً وجهه بعينين جاععتين، وأضافت: ”هو القَدْرُ إذا...“ وبقوّة مفاجئة، جذبتُ رأسه إلى الأسفل.

فأشبعَ أترتيس جوعها. وقد استساعَ الأمر، مُتمنّيًا لو يُطيله ويجعله يدوم. إنّ جوليا فاليريان لم تكن عبدةً أرسلت إلى حُجرتِه في اللودُس كمكافأة، ولا مومسًا دفع لها أجرَتها على دَرَج الهيكل. لقد جاءت إليه بملء إرادتها، وهي ابنةُ مواطنٍ رومانيّ ذي نُفوذ، أسيرةٌ أهوائها الخاصّة.

وقد استخدمها أترتيس كبلسمٍ على الجروح التي ابتليت بها نفسه، أو خيّل إليه أنّه فعل ذلك.

أخيراً، بعدما ارتوى أترتيس، ارتدى ثيابه ليُغادر، مُبقياً ظهره نحو جوليا. وقد أرادَ جزءً منه أن يخرجَ من الباب وينسى ما حصل بينهما.

وقالت جوليا بلهجةٍ جازمة: ”متى يُمكنُ أن أراك من جديد؟“ فالتفت كي يلاحظها. لقد كانت جميلة، جميلةً جدًّا بحيث جعلته يحبسُ أنفاسه. إنّ طبيعته البشريّة كانت ضعيفةً، وعيناها الجائعتان أشبعتا جوعاً أعمقَ لَدَيْه.

فابتسم ببرودة، وقال: ”كلّما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً“. ثمّ نزعَ صرّةَ المال من حزامه، ورمّاها إلى حضنها، وغادرها قاعدةً على الأرض.

أقامَ مرقس ضيافاتٍ مُتكرّرةً في دارته الجديدة، موسّعاً حلقةَ أصدقائه الأفسسيّين المنشأة حديثاً. كذلك أيضاً تعهدَّ صداقةَ الحاكم الإداريّ الرومانيّ (البُروقنصل) وسواه من

الرسميين الرومانيين الذين عرف بعضهم سابقاً في روما. وقد وافق أبوه حالاً لما طلب أن تقوم جوليا بدور المضيفة في الولائم والاجتماعات الرسمية. وهكذا حقق مرقس بهذا الترتيب غايتين: إذ أعطى أخته بعض الحرية التي فقدتها بموت كائس، وشاهد هدسة.

وهذا المساء، كما في أمسية أخرى كثيرة، غصت دائرة مرقس بالضيوف وعجت بالحركة. وحانت منه التفاتة إلى جوليا وهي مستلقية باسترخاء على أريكة مؤسدة بجانبه تُشاهد الرقصات الأفريقيات باهتمام فاتر فحسب. فالتقت عيناها بعينيها، وابتسمت.

وإذ مالت مقتربة إليه أكثر، قالت له: ”مرقس، كانت ابنة البروفنصل هذا المساء تطرح عنك كل نوع من الأسئلة. أعتقد أنها مغرمة بك.“

”أونيكى طفلة حلوة.“

”تلك الطفلة الحلوة التي تصدّها بكل سهولة يسمع لها أبوها، وأبوها يسمع له الإمبراطور.“

فكشّر بتفضّل، قائلاً: ”إذا تزوجت يوماً، يا جوليا، فسيكون ذلك لأسباب سوى كسب النفوذ السياسي.“

فالتت جوليا بابتسامة عابثة: ”ومن ذكر شيئاً عن الزواج؟“

انتقى مرقس شيئاً من الأطايب الموضوعة على صينية أمامه، قائلاً: ”أنت تقترحين. أن أفسد ابنة بروفنصل روما.“

فرفعت جوليا حاجبها قليلاً، قائلة: ”تفسد؟ لفظة غريبة بالنسبة إلى يبقوري. اعتقدت دائماً أنك تنتهب اللذة حيثما وجدتّها.“ ثم انتقت خوخة ناضجة. ”أونيكى يانعة للقطاف.“

وإذ قضمت قضمة من الفاكهة الخمرية الرّيا، تألقت عيناها الداكنتان مرّحاً. ونهضت عن الأريكة. ”ألم يكن السبب الذي دفعك إلى مغادرة دائرة الوالد أن يتاح لك إكرام وفادة الضيوف وكسب نفوذ وسط النخبة؟ إذا، اغتنم كل فرصة حالماً تلوح لك.“ وما إن قالت ذلك، حتى قامت وانخرطت في الحشد.

راقب مرقس جوليا مستغرماً في التفكير. إن السنة التي قضتها مع كائس قد غيرتها. فهي شغلت قاعة بكاملها، محدثة إلى رجال شتى، صاحكة، ماسة قليلاً، مبتعدة بنظرة مغیظة من فوق كتفها. وأزعجه ذلك. فإنه دائماً كان يُفكر فيها على أنها أخته الصغيرة الساذجة الجميلة التي دلّها وشغف بها.

افسس

وتذكر أريا إذ شاهدت أختها تَلْفَتُ الرُّؤوسَ وتتركُ قلوبًا مُحطَّمةً في إثرها. لقد كانت تتصيَّد، ولم يبدُ أنَّ أيَّ واحدٍ في العُرْفَةِ هو من صنّف الحيوان الذي أرادته.

ثمَّ أوّمت لِهَدْسَةِ، وخرجتا إلى السَّطِيحَةِ وحدهما. وعبسَ مرْقُسُ قليلاً. فمهما كان الأمر الذي أصدرته جوليا، كان لِهَدْسَةِ شيءٌ تقولُه بشأنه. وقد ثارت جوليا، وتكلّمت ثانيةً بإصرار. ثمَّ زلّقت سِوَارَ ذهبٍ من مِعصِمِها ووضعتُه في يدِ هَدْسَةِ قبل الرجوع إلى الداخل. ولدى إيماءة الانصراف الجافية من جوليا غادرتْ هَدْسَةُ قاعةَ الوليمة.

نهضَ مرْقُسُ كي يتبعها ويطلّع على ما كان يجري. فاعترضت أونيكي برشاقة في طريقه، صادمَةً إيَّاه قليلاً في محاولة لجذب اهتمامه. ”أوه، أنا أسفة، مرْقُس. لم أكن أنظرُ قُدَّامي لأرى طريقي“. ثمَّ زنت إليه بافتتانٍ بالغ جعله يَنكِمِش.

حينئذٍ قال: ”الغلطة غلطتي أنا كلياً“. وقد تنبّه إلى استيلاء الخيبة على سيمائها لدى تحطُّبِها إيَّاه. وما إن وصلَ إلى الرُّواق، حتّى كانت هَدْسَةُ قد مضت.

انعكس ضوءُ القمر على بياض شوارع الرُّحام والهيكل، فيما شقَّتْ هَدْسَةُ طريقَها إلى اللُّدُس. ولما وصلت إلى البوابة الرئيسيّة الثقيلة، قرعتها وانتظرت. وحين فتح حارسُ البوابة، طلبت أن تكلّم سرتس. فأخذت عبر الفناء وفي رواقٍ قائمٍ إلى مكتب سرتس. وهو كان في انتظارها. فلما مدَّ يده، أعطته سِوَارَ الذهب. ففحصه بتدقيق وتأمل صنّعتَه، ثمَّ أوّماً برأسه علامة الرُّضى، وأقفل على السوار في خزانة حديدية صغيرة داخل طاولته. بعدئذٍ قال: ”هنا!“ ورافق هَدْسَةَ نزولاً على الدَّرَجِ الحجريِّ إلى الدهلز الصَّوَّانيِّ البارد المضاء بالمشاعل.

وإذ توقّف عند بابٍ ثقيل، أتى بالمفتاح الصحيح. وما إن فتح الباب، حتّى لمحت هَدْسَةَ رجلاً قاعداً على بَنكِ حجريِّ. وقد عرفته من المرّة الواحدة التي فيها سبق أن رآته على الطريق إلى كايوا، إذ كان قويّ البنية وجميلاً على نحوٍ يحبس الأنفاس. فلما نهض والتفت كي يواجهها، تفكرت في التمثال الذي يحوزة سيّدتها. وكان النحات قد صورَ غطرسَةَ المحارب وروعتَه الجِسْمانيّة، لكنَّ ما فاتَه كان الكأبة الماثلة في عينيه واليأس المخبوء تحت قناع من القوّة الباردة المكبوتة.

قال سرتس: ”لقد أرسلت سيّدتك خادمتها من أجلك. كُن عند باب التّسليم عند الفجر“. ثمَّ غادرهما.

توتّر فم أترتيس، وتحركت عيناه وضافتا على الفتاة العبدة الصغيرة النّحيلة ناظرةً إليه.

كانت ترتدي تَبِيَّكَ رقيقَ النَّسِجِ، ذا لونٍ أصفرَ باهتٍ، يصلُّ إلى كاحليها، وقد شدته بحزامٍ قماشٍ مُقَلَّمٍ يُصَاهِي الشَّالَ الذي يُغَطِّي رأسها وكتفيها. وقد نظرتُ في عينيها مباشرةً، مُتَوَقِّعًا أن يري ما اعتاد أن يراه: إمَّا التَّبَجِيلَ وإمَّا الخوفَ. غيرَ أنَّه رأى بالأحرى هدوءًا ساكنًا.

قالت: ”سأذُلكَ على الطريق“. وكان صوتُها مُنخَفِضًا ولطيفًا. فطرحَ عباءته على كتفيه، وغطَّى شعره الأشقر. وكان الصَّوتُ الوحيدُ الذي سمعته هو وَقَعُ نَعْلَيَّ صندليها اللينين فيما أترتيس يتبعها. ثمَّ فتحَ لها الحارسُ البابَ بلا كَلِمَةٍ وراقبها تحبَّزًا، وهو لا يكاد يُلاحِظُ أترتيس. بعدئذٍ صُفِّقَتْ بوابة اللُودُسِ الثقيلة وراء أترتيس، فتنفَّسَ بسهولةٍ أوفر.

وتقدَّم كي يمشي بجانب الفتاة، قائلاً: ”أنتِ يهوديَّة“.

”لقد وُلِدْتُ في مِنطَقة اليهوديَّة“.

”منذُ متى أنتِ عبدة؟“

”منذُ خرابِ مدينةِ القُدسِ“.

”عرفتُ يهوديًّا في ما مضى. كالب، من سبطِ يَهُودَا. وقد قتلَ ثلاثةً وسبعينَ مُحاربًا

على التَّوالي“. فلم تنبَسْ بكلمة. ”هل عرفته؟“

قالت: ”لا، لم أعرفه“، مع أنَّها كانت قد سمعتُ بالصدفة أوكتافيا وجوليا تتحدَّثان

بشأنه. ”إنَّ أقوى شُبَّانِ القُدسِ وأجملهم سبَّاهم تيطس إلى الإسكندريَّة ثمَّ رُحِّلوا إلى روما

لأجل الألعاب. وقد كنتُ بينَ آخرِ الأسرى الذين ساروا إلى الشمال“.

”لقد مات كالب ميتةً شريفة“.

وإذا بشيءٍ ما في عدمِ تأثُرِ صوتِهِ السافرِ حملَ هَدَسَةَ على الرُّنُوِّ إليه. فوجدتُ وجهه

الجميلَ قاسيًّا، إلَّا أنَّها أحسَّتْ شيئًا أعمقَ، شيئًا دفينًا تحتَ وجهِ قاتِلِ مُدْرَبٍ، باردٍ وعديمِ

الرَّحمة، إذ لآخَ تحتَه حُزُنٌ عذِّبه.

توقَّفتِ الفتاةُ العبدة. ودُهِّشَ أترتيس إذ تناولتُ إحدى يديه بكلتا يديها. ”عسى أن

يلقِ اللهَ وجهه إليك ويُعطيك سلامًا!“ وقد قالت ذلك بحنانٍ بالغٍ لم يستطع أترتيس إزاءه

إلَّا أن يُحدِّقَ إليها من علٍّ فحسب.

ثمَّ استأنفتِ السَّيرَ، ولم يتكلَّمْ أترتيس إليها ثانيةً. إلَّا أنَّه أبطأ في خطواته لِتُجارِي

خطواتها، تابعًا إيَّاهَا في أيِّ طريقٍ سلكته.

علمَ أترتيس أنَّه في أغنى قِسمٍ من مدينةِ أفسُس. أخيرًا، انعطفتُ خادمةُ جوليا الصغيرةُ

الغريبة صاعدةً دَرَجًا رُخاميًا. وكان عندَ آخرِ الدَّرَجِ بابٌ يَنْفَتَحُ إلى مَرَمَرٍ، يستعمله على الأَرَجِحِ سَعَاءُ التَّسْلِيمِ. فلَمَّا بلغا نهايةَ المَرَمَرِ، فَتَحَتِ الفتاةُ بابًا آخرَ يُفْضِي إلى غُرْفَةٍ تَخْزِينِ، وَقَالَتْ: "انْتَظِرْنِي هُنَا، مِنْ فَضْلِكَ". ثُمَّ غَادَرَتْهُ.

استندَ أترتيس إلى برميل، ونظَرَ حوَالِيَهُ بِكُرْهِ مُتَفَاقِمٍ. لا شكَّ أَنَّ جوليا ربَّتت راحتي سَرَتِسَ بالدَّهَبِ حتَّى يُوْتِي به إليها... يُوْتِي به كعاهِرِ لخدمة أهواءِ المرأةِ.

غيرَ أَنَّ غضبَهُ المُكَابِرَ تَبَخَّرَ لحظةً انْفَتَحَ البابُ ورآها. فقالت مَبْهورةً النَّفْسَ: "أه، ظَنَنْتُ أَنَّكَ لَنْ تَأْتِيَ إلى هُنَا أَبَدًا". وَعَلِمَ أَنَّهَا قد رَكِضَتْ إليه رَكْضًا. ثُمَّ ارْتَمَتْ بين ذراعيه، غَارِزَةً أَصَابِعَهَا في شعره، وقد وَقَفَتْ على رُؤُوسِ أَصَابِحِ قَدَمَيْهَا.

وفيما جوليا فاليريان بين ذراعي أترتيس، لم يَسْعُهْ أَنْ يُفَكِّرَ في أيِّ شيءٍ سوى مَذَاقِهَا ومَلَمَسِهَا وعَبِيرِهَا. وفي ما بَعُدَ فقط، تَذَكَّرَ كبريائه فعلاً... والثَّمَنَ البَاهِظَ لِقَاءِ شعورِ خادِعِ بالحرِّيَّةِ.

قصدتْ هَدْسَةَ إلى يوحنا في أوَّلِ فُرْصَةٍ لاحت لها. ولمَّا قرعت، فَتَحَ لها البابَ رَجُلٌ كان قد تَخَطَّى رِعَانَ الشبابِ. حقيقةً لم تُقلِّصْ تأثيرَ عينيه الأَسْرَ. وقد رَحَّبَ بها وعَرَّفَ إلى نفسه أَنَّهُ واحدٌ من أتباع يوحنا. ثُمَّ رافقها إلى الغُرْفَةِ الهادئةِ المُضاءةِ بنورِ مِصباح، حيث كان الرسولُ يكتُبُ رسالةً إلى إحدى الكنائسِ المُجاهدةِ في الإمبراطوريَّةِ. فرفَعَ نظره وابتسم بحرارة. وإذا ألقى يراعتَه التي يكتب بها جانبًا، قامَ لِيُمْسِكَ يَدَيْهَا ويُقبَلُ حَداها. حتَّى إذا تراجَعَ قليلاً، لم تُقلِّته.

قالت: "أه، يا يوحنا!" مُتَشَبِّهَةً بيديه كما لو كان حبلَ نجاتها الوحيد.

"أقعدي، هَدْسَةَ، وأخبريني بما يُثقلُ قلبك جدًّا هكذا". فظَلَّتْ مُتَشَبِّهَةً بيديه، غيرَ راغِبَةٍ في إفلاتِهما البتَّةِ. كان السيّدُ المسيح قد صُلِبَ قبلَ ولادتها بسنين، غيرَ أَنَّها في يوحنا، كما في أبيها، رأت الربَّ. وفي وجه يوحنا الكرم، وجدتْ ما لا حُدودَ له من الحنانِ والمحبةِ، وألَّتِ اليقينِ الراسخِ، وقوَّةَ الإيمانِ الحقيقيِّ. وجدتْ قُوَّةَ كقوَّةِ أبيها، قوَّةَ تفتقرُ هي إليها.

قال يوحنا: "ماذا يُحزنُك جدًّا هكذا؟"

فأجابت ببؤسٍ: "كلُّ شيءٍ، يا يوحنا. كلُّ شيءٍ في هذه الحياة. إنَّ إيماني ضعيف. لقد خرجَ أبي إلى الشوارعِ لَمَّا كان الغيورون يُقتلون الناسَ وأدَّى شهادته. ولكنِّي أنا أستحي حتَّى من النفوهِ بِاسْمِ يسوعِ جهراً". ثُمَّ بَكَتْ خجلاً، وأصافت: "إِشتراني أَخنوخُ للسيّدِ

اعتقاداً منه أنني واحدة من بني قومه، يهودية. وهم جميعاً ما يزالون يحسبون أنني يهودية. ما عدا مرقس. فقد اكتشف أنني كنت أجمع مع مسيحيين آخرين في روما، ومنعني أن أقابلهم مرةً أخرى. قال إن المسيحيين مخربون يخططون لتدمير الإمبراطورية. وقال إنه خطرٌ عليّ أن أرتبط بهم. أحياناً، يسألني لماذا أؤمن، ولكن عندما أحاول أن أشرح له لا يفهم بتاتاً، بل يستشيط غضباً فحسب.“

لقد تدفق منها الكلامُ تدفقاً.

”وجوليا. آه، يا يوحنا، جوليا ضالّةٌ جدّاً. لقد فعلت أشياءً رهيباً جدّاً، وفي وسعي أن أراها مائةً في داخلها، شيئاً فشيئاً. حكيت لها كل قصبة علمني أبي إياها أصلاً، من تلك القصص التي بنت إيماني. ولكنها لا تسمع حقاً. فهي إنما تريد أن تتسلى. إنها تريد أن تنسى. ومرّةً، ومرّةً واحدة فقط، ظننت أن أباهاً ربّما ابتداً يفهم...“ ثم هزت رأسها. فأفلتت يدي يوحنا وغطت وجهها.

”أنا أعرف الخوف، هدسة. إن الخوف عدوٌ قديم. وقد استسلمت له ليلة كان السيّد المسيح في البستان وجاء يهوذا الخائن مع الكهنة والحراس الرومانيين.“

”ولكنك ذهبت إلى المحاكمة.“

”اقتربت فقط قريباً كافيّاً كي أسمع. كنت في مأمن بين الجمهور. كانت عائلتي معروفةً جيّداً في مدينة القدس، وكان أبي يعرف بعض أعضاء المحكمة. ولكنني أقول لك، يا هدسة، أنني لم أعرف الخوف الحقيقيّ قبلما شاهدت يسوع يموت. فما شعرت قطّ بمثل تلك الوحدة كما شعرت بها آنذاك. ولم تتغيّر حالي حتى عاينت الأكفان الفارغة في القبر فعلمت أنه قد قام حيّاً.“

ثم أمسك يدها. ”هدسة، لقد أخبرنا السيّد المسيح بكل شيء، ومع ذلك كنا لا ندرِك حق الإدراك من كان ولا ماذا جاء ليفعل. كنا، أنا ويعقوب، متحمسين، متكبرين، طموحين، متعصبين. وقد سمنا السيّد المسيح ابني الرعد لأننا التمسنا أن نستنزل غضب الله على أناس كانوا يشفون مرضى باسم يسوع، إلا أنهم لم يكونوا يتبعونه معنا. أردنا أن يبقى ذلك السلطان مقصوراً علينا وحدنا. إننا كنا جاهلين أعمىين متكبرين. لقد أيقنا أن يسوع هو المسيح (المخلص المنتظر)، لكننا توقعنا أن يصير ملكاً محارباً مثل داود، وعندئذ نملك بجانبه. كان مستحيلاً علينا أن نصدق أن هذا الإنسان، وهو ابن الله، قد جاء ليكون حملاً الفصح لأجل البشر أجمعين.“

www

وما لبث يوحنا أن ابتسم بأسى، وربّت يدها. ”كانت مريم المجدليّة- لا يعقوب ولا أنا- هي الشخص الذي اختاره الرب يسوع ليكون أوّل من يراه بعيد قيامته.“
حينئذٍ تعذّر على هدسة أن تُبصر من خلال دموعها. ”كيف يُمكنني أن أمتلك قوتك؟“
فابتسم يوحنا برقة، وقال: ”إنّك تمتلكين أيّ قوّة أعطاك الله إياها، وستكون كافية لإجراء قصده الصالح. توكلّي عليه.“

٣٠

وجدت فيبي زائرة جوليا مؤثرة ومزعجة. فقد تحدّثت المرأة باللاتينية الصافية، ممّا يدلّ على طبقتها الأرستقراطية. ومع أنّها بدت شابةً، فقد أضفت على ذاتها اثرًا أنيقًا تمّ عن حنكة دنيوية تتخطى سنوات فيبي نفسها بكثير. وقد كانت الزائرة مذهلة، لا بسبب كمال ملامحها، لأنّها كانت بعيدة عن الكمال إلى حدّ بعيد، بل بسبب الميزة الأسرة في عينيها الداكنتين. فإنّ حدّتهما كانت مثيرة للأعصاب تقريبًا.

علّمت فيبي أنّ جوليا حسبت هذه المرأة صديقةً لصيقةً في ما مضى. وقد بدا ذلك غريبًا، لأنّهما كانتا مختلفتين إلى أبعد حدّ. فإنّ جوليا كانت ذات شغفٍ بشأن كلّ شيء؛ أمّا المرأة فكانت باردةً ورابطة الجأش.

كلّمت فيبي إحدى الخادمت برقةً، طالبةً منها أن تأتي إلى الباب حالما ترجع جوليا. وفي أثناء الانتظار، قدّمت فيبي مُرطبات وأجرت حديثًا لطيفًا. وما إن ظهرت الخادمة عند الباب وأمأت برأسها إيماءةً مهذّبةً، حتّى استأذنت فيبي وذهبت لتكلّم ابنتها. فرجما كانت جوليا لا تريد مُقابلة هذه المرأة.

”جوليا، لديك زائرة تنتظرك في البهو ذي الأعمدة.“

”من تكون؟“ ونزعت جوليا غطاء الرأس الناعم عن شعرها، ثمّ رمته إلى هدسة، صارفةً إيّاها بحركة رشيقة من يدها.

”كالاباه فنتانيوس. وصلت منذ ساعة، وتجادبنا أطراف حديثٍ مُشوِّق. جوليا؟“
لم يسبقَ لفبي قط أن رأّت سيماء كهذه على وجه ابنتها. فلمستها برفق، سائلةً:
”أأنت بخير؟“

ورمقتها جوليا بعينين قلّقتين. ”ماذا قالت؟“

”لا شيء بالحقيقة، جوليا.“ فقد دار الحديث حول جمال أفسس، والرّحلة الطويلة من روما، والاستقرار في بيت جديد. ”ما بك؟ يبدو عليك الشّحوب.“

هزّت جوليا رأسها. ”ما ظننتُ قط أنّي سأراها من جديد.“

”ألا ترعّبين في رؤيتها؟“

ترددت جوليا، مُتسائلةً أفي وسعها أن تأتي بعُذر ما. فإن بها صُداً من كثرة التعرُّض للشمس، وهي مُرهقةٌ من التسوق، وعليها أن تنهياً لحُضور وليمةِ مرقس هذا المساء... ثم وضعت رؤوس أصابعها على صُديغها. إنها تُعاني صُداً بالفعل، ولكنها علمت أنها لا تستطيع أن تُقدم أعضاراً اليوم. فهزت رأسها، قائلة: "سأقابلها، يا أمّاه. إنَّما لا يمكنني أن أرى كالاباه دون التفكير في كائس. هذا كلُّ ما في الأمر".

"ما كنتُ أعلمُ أنّك ما زلتِ حزينةً عليه. لقد بدوتِ أقربَ إلى طبيعتك المعهودة في الأشهر القليلة الماضية". ولثمتها على جبينها لثمةٌ خفيفة. "أنا أعلمُ أنّك أحببته كثيراً جداً".

"أحببته بجنون". ثم عصت شفقتها ونظرت نحو الباب المُفضي إلى الرواق ثم إلى البهو ذي الأعمدة. "سأقابلها وحدي، إذا سمحت".

فقال فيبي مُنفرجةً الأسارير: "بال تأكيد". وقد جعلتها كالاباه مُنزعجة. إذ تساءلت عما يجمعُ بين ابنتها الفتية وهذه المرأة الدهرية.

كانت كالاباه جالسةً في ظلالٍ مُحتلى مُظلل، مُنتظرةً، وقد بدا حضورها بذاته مألماً البهو ذا الأعمدة، حتى ضوء الشمس توارى خلف طبقةٍ من الغيوم، مُغرِقاً الفناء في ظلالٍ رقيقة. فاستجمعت جوليا شجاعتهَا ومشت نحوها بززانة، مُرغمةً شفيتها على الالتواء في ابتسامةٍ ترحيب.

"ما أبهج أن أراكِ مُجدداً، يا كالاباه! ماذا أتى بكِ إلى أفسس؟"

ابتسمت كالاباه ابتسامةً وانية: "لقد سئمتُ روما".

فعدت جوليا معها. وإذا حاولتِ جاهدةً ألا تُظهر ارتجافها الداخلي، قالت: "متى وصلتِ؟"

"قبل بضعة أسابيع. وقد قضيتُ المُدة في تعرّف المدينة من جديد".

"من جديد؟ لم أعلم أنّك زرتِ أفسس قبلاً".

"كانت واحدةً من عدة مُدنٍ زرتها قبلما تزوجت. إنني أشعرُ بأنني في بيتي هنا أكثرَ ممّا في أيّ مكانٍ آخر".

"إذاً، ستبقيين هنا؟ هذا رائع".

ودققت العينان الداكنتان النظر. "لقد تعلّمتِ التظاهر منذ رأيتكِ آخر مرة. إنَّ البسمة

التي اصطنعتها تبدو مُخلصةً تقريباً".

فصُعِقَتْ جوليا، ولم تدرِ ماذا تقول .

”لقد غادرتِ بلا خَبَرٍ، يا جوليا. وكان ذلك قاسياً“ .

”كان قرارَ الوالد أن يرجعَ إلى أفسس“ .

فقالَتْ كالاباه، مُومِئَةً برأسِها: ”أه، فهمتُ . لم يُنَحِّ لكِ وقتٌ لتوديعِ صديقاتِكِ“ . ثُمَّ

لَوَتْ فَمَها مُجَدِّداً، مُقلِّدةً جوليا تقليداً ساخراً قليلاً هذه المرَّة .

فاحمَرَّت وَجَنَّتا جوليا وأشاحت بنظرها .

وقالَتْ كالاباه بلهجةٍ لا تُبدي شيئاً: ”لقد ودَّعتِ أوكافيا“ .

فَنظَرَتْ جوليا إليها نَظرةً توَسِّل . ”لم أستطع مُواجهتِكِ بعدما مات كائس“ .

وقالَتْ كالاباه بلُطفٍ: ”فهمتُ ذلك“ .

فأقرَّت جوليا مرتعدةً: ”كنتُ خائفةً“ .

قالَتْ كالاباه: ”لأنِّي علمتُ . ألم تكفِّي عن التفكيرِ قطُّ؟ عزيزتي، لقد علمتُ كلَّ

شيءٍ . فأنتِ أفضيتِ إليَّ بعدابِكِ . وأنا علمتُ ما فعله كائس بكِ لأجلِ متعته الشخصية .

إنَّك أريتيني التلُوبَ على جسمِكِ . وكلتانا عرفنا ما كان ممكنًا أن يفعله كائس في غضبه .

جوليا، من سِواي كان يمكنُ أن يفهمَ ما كنتِ تخوضينه والقرارَ الصَّعبَ الذي اضطرَّك كائس

إليه؟ كان ينبغي أن تتقي بي“ .

شعرت جوليا بالضعف أمام حَمَلقةِ عيني كالاباه القامتين اللَّتين لا يُسبِرُ غورُهما .

وغَطَّت كالاباه يدها . ”إنَّ ما بيننا هو صداقةٌ حقيقيَّة، يا جوليا . وأنا أعرفُك كما لا يعرفُك

أحدٌ سِواي . أعرفُ ما فعلتِ . أعرفُ من أنتِ . أعرفُ ما تقدرين أن تفعله . إنَّك عزيزةٌ جدًّا

عندي . ونحن مُتماسكتان معاً“ .

وكأثما جذبتْ جوليا قوَّةَ أقوى من إرادتها، فمالَتْ مُعانقةً كالاباه . ”أنا أسفةٌ لأنِّي

رفضتُ أن أقابلُك في روما“ . فربَّتتها كالاباه برفق، هامسةً لها بالتَّشجيع . ”شعرتُ بأنَّ لكِ

عليَّ مَسْكاً ما . وقد جعلتني ذلك خائفة . أمَّا الآن فأنا أعرفُ أفضل . إنَّك الصديقةُ الحقيقيَّة

الوحيدة عندني“ . ثُمَّ تراجعتْ قليلاً . ”اعتقدُ أنَّ كائسَ علِمَ ما كنتُ فاعلةً قُبيلاً رحيله“ .

فلَوَتْ كالاباه فَمَها، قائلةً: ”على الجميع أن يتحمَّلوا عواقِبَ إخفاقاتهم“ .

واقشَعَرَ بَدَنُ جوليا . ”لا أريدُ أن أفكرَ في الأمر، ولا مرَّةً واحدةً بعد الآن“ .

فمرَّرتْ كالاباه أصابعَ باردةً على جبينِ جوليا، وقالت مُهدئةً: ”إدًا، لا تفعلِي ذلك .

أفسس

تذكرني ما علمتُكِ إيَّاه، يا جوليا. إنَّ كائسَ كانَ مُجرَّدَ قِصَّة. ولَدَيْكَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ تَحْتَبِرِينَهَا
فيما تؤولين إلى الشَّخص الذي أعلَمُ أنَّكَ ستكونينه. إنَّ كلَّ شيءٍ سيَتكشَّفُ لكَ في حينه .
نسيتِ جوليا جميعَ الأسباب التي من أجلها قد تجنَّبتِ كالاباه، وتحدَّثتِ معها بحرِّيَّةٍ
كسابقِ عهدِها في روما. وكان صوتُ كالاباه رخيماً ومُهدئاً جداً.
”هل تروِّقُ حياتكِ في أفسس؟“

”كان من شأنِي أن أتمتَّعَ بها أكثرَ لو كانت لي حرِّيَّتِي. لقد سلَّم أبي كلَّ شيءٍ إلى
مرْقُس كي يتولَّى تدبيره. وعليَّ أن أتوسَّلَ إليه في سبيل كلِّ سِتِّرس .“
”من النَّكِّد أن تُبقي النساءِ أنفسهنَّ تحت رحمةِ الرُّجال، لا سيَّما حين لا يكون
ذلك ضرورياً.“

”ما كان بيدي خيار.“

”ثمَّة دائماً خيار. أو لعلَّكِ تستمتعين بتبعيتكِ؟“

وإذ جُرِّحتِ كبرياءَ جوليا، أمالت رأسها إلى الخلف قائلةً: ”إنِّي أفعلُ ما يسُرُّني .“
بدتِ كالاباه فاترةً وساهيةً. ”وماذا يسُرُّكِ؟ صِلَّةُ غراميةٍ بمحارب؟ إنَّكِ تَهينينَ نفسكِ
مثلَ أوكتافيا.“

انفجرتِ شفتا جوليا، وقالت همساً: ”كيف عرفتِ عن أترتيس؟ مَنْ يا ترى قال لك؟“
”سرتس. إنَّه صديقٌ قديم“. وعادتِ فوضعتِ يدها فوق يد جوليا. ”إنَّما ينبغي
أن أقول لك إنَّ أفسس باتتِ تضجُّ بإشاعةٍ تقول إنَّ ابنةً واحدٍ من أغنى الثَّجَّار في
الإمبراطوريَّة قد اتَّخذتِ أترتيسَ عشيقاً لها. وستكونُ مسألةً وقتٍ فقط قبل أن يعرفَ اسمكِ
كلُّ مَنْ في المدينة.“

وإذ ثارَ غضبُ جوليا، تلفَّفتِ بالغطرسةِ قائلةً: ”لا يهمني ما يقوله الناس!“
”لا؟“

فاستولتِ الكأبةَ على سيماءِ جوليا، وقالت: ”أنا أحبُّه. إنِّي أحبُّه كثيراً جداً بحيثُ
أموتُ إذا لم يُتَّخ لي أن أكونَ معه. ولو كان حُرّاً، لتزوَّجتُه.“

”أُكُنْتِ تفعلين ذلك؟ أُكُنْتِ تفعلينَه حقاً؟ أهُوَ الحبُّ، يا جوليا، أم جماله، أو
هَمَجِيَّتُه؟ لقد أسِرَ أترتيس في بلادِ الجِرمان. إنَّه برَبْرِي. وهو يكرهُ روما بشغفٍ يتخطى
إدراككِ. وأنتِ، عزيزتي، رومانيَّةٌ بكلِّ بُوَصَّةٍ فيكِ.“

”إنه لا يكرهني، بل يحبني. وأنا أعلم أنه يحبني“.

”كان كائس يحبك أيضاً. وذلك لم يمنعه أن يستخدمك لأغراضه الخاصة“.

فطرفت عينا جوليا.

وإذ اكتفت كالاباه، نهضت قائلة: ”يجب أن أذهب. أنا مطمئنة ومسرورة لكوننا صديقتين من جديد“. وابتسمت، إذ كانت زيارتها مرضية لها كل الرضى. وما لبثت أن قالت: ”لقد دعاني پريمس لمرافقته إلى الحفلة التي يقيمها أخوك هذه الأمسية بمناسبة عيد ميلاد البروقنصل“. ثم مسّت قليلاً خدّ جوليا بقفا أصابعها، قائلة: ”لم أريد أن أزعجك بوصولي على نحو غير متوقّع“.

ذهلت جوليا. ”لقد قابلت پريمس. إنه واحد من مُستشاري البروقنصل، أليس كذلك؟“
”بلى، وهو مُتمكّن جيّداً من الآداب والعوائد الأجنبية“.
”إنه وسيمٌ ومبهج“.

فضحكت كالاباه برقة، مُسقطاً البرقع على عينيها الداكنتين، وقالت: ”پريمس هو أشياء كثيرة كثيرة“.

ثم رافقتها جوليا إلى الباب. ولما أغلقتة، تكلمت فيبي من على الدّرج. ”أكل شيء على ما يرام، يا جوليا؟“

فقالت جوليا: ”كل شيء حسن، يا أمّاه، حسنٌ تماماً“. وحاولت جاهدة أن تُصدّق ذلك.

٣١

كان دَسْمُسُ خاسِرًا معركته. فَبُعِيدَ رجوعه إلى أْفُسُس، أَدَّى قَرْصَ الإِجْلَالِ فِي هَيْكَلِ أَسْكِيْبِيوس، إِلَهِ الشِّفَاء. وَبَعْدَ اسْتِشَارَةِ الكَهَنَةِ، قَضَى سَاعَاتٍ بِقُرْبِ بِرْكَةِ ذَاتِ أَعْمَدَةٍ، بَيْنَ الأَفَاعِي. وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ الخَوْفَ وَالاسْتِمْتَازَ اللَّذَيْنِ شَعَرَ بِهِمَا فِيمَا زَحَفَتِ الحَيَاتُ المُتَلَوِّيةَ المُنْزَلِقَةَ عَلَى جِسْدِهِ أَنْ يَطْرُدَا أَيَّ أرواحٍ شَرِّيرَةٍ كَانَتْ تُسَبِّبُ مَرَضَهُ، غَيْرَ أَنَّهُمَا لَمْ يَفْعَلَا ذَلِكَ. وَلَمَّا أَخْفَقَتِ الأَفَاعِي، اسْتَشَارَ دَسْمُسُ أطِبَاءَ ارْتَأَوْا أَنْ تَطْهِيْرَ جَوْفِهِ سَيَكُونُ عِلاجًا نَاجِعًا. فَتَعاطَى مُقَيِّمَاتٍ وَمُسَهِّلاتٍ وَخَضَعَ لِلْقَصْدِ بِسَحْبِ الدَّمِ مِنْ وَرِيدِهِ مِرَارًا بِحَيْثُ بَاتَ ضَعِيفًا حَتَّى المَوْتِ. غَيْرَ أَنَّ المَرَضَ تَفاقَمَ. وَإِذْ اسْتَوَلَّتْ عَلَيْهِ الكَآبَةُ، هَوَى فِي حَالَةٍ مِنَ الخُمُولِ وَفَقْدَانِ الأَمَلِ.

وَقَدْ عَانَتْ فِيبِي مَعَهُ. فَإِنَّ رُؤْيَيْتَهُ مَشْحُوبًا مِنَ العِلاجاتِ وَمُتَأَلِّمًا بِشِدَّةِ كَانَتْ عَذَابًا لَهَا. وَاسْتَبْرَتْ أَدويةً لِتَسْكِينِ آلِهِ، غَيْرَ أَنَّ الأَفْيُونَ وَاللُّفَاحَ جَعَلَاهُ شِبْهَ فَاقِدٍ لِلوَعْيِ. وَقَدْ رَفَضَ أحيانًا أَنْ يَتناولَهُمَا لِأَنَّهُ قَالَ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ واعيًا لِمَا يَجْرِي حَوالِيهِ.

وَمَا إِنْ شَاعَ الخَبْرُ عَنْ تَدَهُّورِ صِحَّةِ دَسْمُس، حَتَّى تَقَدَّمَ خَبْرَاءُ الطَّبِّ إِلَى فِيبِي بِمُخْتَلِفِ النُّظَرِيَّاتِ وَالعِلاجاتِ المَضمُونَةِ بِأَنَّهَا سَتُعِيدُ إِلَيْهِ الصِّحَّةَ السَّليمةَ. لَقَدْ أَرَادَ الجَمِيعُ أَنْ يُسَاعِدُوهُ عَلَى التَّحْشِنِ. وَكَانَ لَدَى كُلِّ وَاحِدٍ اقْتِراحٌ، أَوْ نَظَرِيَّةٌ، أَوْ طَبِيبٌ أَوْ أَعْشابِيٌّ أَوْ مُدَاوٍ أَفْضَلُ.

ثُمَّ أَقْنَعَتْ كَلْمِيلَا- وَهِيَ وَسِيطَةٌ رُوحانيَّة- فِيبِي بِأَنَّ الأَطِبَّاءَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوثَقَ بِهِمْ؛ إِذْ زَعَمَتْ أَنَّهُمْ يَسْتَحْدِمُونَ المَرَضِي الَّذينَ يَعْجِزُونَ عَنِ شِفائِهِمْ لِتَحْشِينِ أسالِيبِ عِلاجِ جَدِيدَةٍ. فَقدِ قَالَتْ كَلْمِيلَا إِنْ طَرِئَتْ غَيْرَ عِلْمِيَّةِ سَتُعِيدُ الحَيَويَّةَ إِلَى دَسْمُس، وَوصَفَتْ لَهُ أَدويةً وَأَعْشابًا الَّتِي جَرَى تَناقُلُها عِبرَ الأَجيالِ. وَأَصْرَتْ كَلْمِيلَا عَلَى أَنَّ الصِّحَّةَ هِيَ مَسْأَلَةٌ تَناعُجُ مَعَ الطَّبِيعَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ تَجَرَّعَ دَسْمُسُ مُخَمَّرَاتِها الكَرِيهَةَ وَأَكَلَ الأَعْشابَ المُرَّةَ الغَرِيبَةَ الَّتِي وَصَفَتْها، غَيْرَ أَنَّهُما كَلَّها لَمْ تَوْدُ إِلَى التَّناعُجِ وَالتَّوازُنِ فِي الطَّاقاتِ الكَامِنَةِ داخِلَ جِسامِهِ كَمَا ادَّعَتْ كَلْمِيلَا أَنَّها سَتَفْعَلُ ذَلِكَ حَتْمًا. فَهَذِهِ الوَصْفَاتُ لَمْ تَضُرَّهُ وَلَا نَفَعَتْ.

وَاصْطَحَبَهُ مَرَقُوسٌ إِلَى الحَمَّاماتِ العَموميَّةِ كَي يَنْقَعَ جِسامَهُ فِي المِياهِ المُطَهَّرَةِ، كَمَا عَرَفَهُ

إلى أورونتس، وهو مُدْلِكٌ اشتهر بأنَّ له اللَّمسةَ الشافية. فزعمَ أورونتس أن التَّمسِيحَ سِيَشْفِي دَسِمُس. ولَمَّا أَخْفَقَ هذا أيضًا، جاءت جوليا تقول له إنَّ كالأباه أعلمتها بأنَّه هو نفسه يستطيع أن يَشْفِي ذاته إذا تيسر له فقط أن ينهلَ من مَوَارِدِ خياله وذَهْنِهِ الذاتيين. وقد أمسكت يده وشجَّعته على أن يُرَكِّزَ ويتصوَّرَ نفسه في صِحَّةٍ تامَّةٍ فيكون له ذلك. وكاد يبكي حيالَ فظاظتها غير المقصودة، لأنَّها بكلماتها لامته على مرضه وعلى كونه أضعف من أن يقهره، والحالُ أنَّه كان قد حازبه بكلِّ جزءٍ من إرادته.

وكَلَّمَا زارته جوليا، رأى في ابنته الخيبة والاثِّمَّ الحبيث، وعلم أنَّها اعتقدت أنه يفتقر إلى أيِّ "إيمان" يستلزمه شفاؤه لنفسه. وذات يوم، وضعت حول عنقه قِلادةً من بلور العقيق الأحمر، قائلة: "جرب هذا! إنَّها عزيزةٌ جدًا عليّ. فهي تتذبذبُ انسجامًا مع أنماط الطاقة عند الآلهة، وإذا استطعت أن تستسلمَ لهذه الذبذبات تنال الشفاء". وقد كان صوتها هادئًا، غير أنَّ عينها ما لبثت أن اغرورقتنا، فانطرحت على صدره باكيةً. "أه، بابا..."

ثمَّ باتت زيارتها أقلَّ تواترًا وأكثرَ قصرًا في أعقاب ذلك.

ولم يُلْقِ دَسِمُسُ أيَّ لومٍ عليها. فالرُّجُلُ المُحتَضِرُ كان جليسا مُحِبًّا لشابَّةٍ جميلةٍ مُفعمَةٍ بالحياة. ولعلَّه باتَ مُدَكِّرًا مُروِّعًا لها بأنَّها هي أيضًا عرضةٌ للموت.

لماذا لا يُتاح له أن يموتَ فتنتهي مُعاناته؟ لقد فكَّرَ في الانتحار فوقَ عَشْرِ مرَّاتٍ كي يُريحَ نفسه من الألم. وقد علم أنَّ عائلته كانت تُعاني معه، وفيبي أكثرَ الكلِّ. إلَّا أنَّه كلَّمَا واجَهَ تنفيذَ قرارٍ بقتل نفسه، تبينَ له أنَّه بالأحرى مُتشبَّبٌ بالحياة. فكلُّ لحظةٍ مهما كانت حافلةً بالألم، باتتْ ثمينةً عنده. إنَّه يحبُّ زوجته، ويحبُّ ابنه وابنته، ربَّما لغرضِ أنانيٍّ، لأنَّه -بدافعِ الحبِّ- كان ينبغي أن يُحرِّزَهم، ولكنَّ تبينَ له أنَّه لا يستطيعُ ذلك. وهو كان يعرفُ السببَ.

لقد كان خائفًا.

منذُ عهدٍ بعيدٍ، فقدَ الإيمانُ بالآلهة. فإنَّهم ما كانوا له عونا، ولا كانوا تهديدًا. ولكنَّ ما رآه دَسِمُسُ بانتظاره كان الظلامُ والغموضُ وأبديةً من العدمِ، الأمرُ الذي رُوعه. ولم يكن يستطيعُ الدُّخولَ إلى عالمِ النسيان، غير أنَّ ذلك ألحَّ عليه. فمِمْرور كلِّ يومٍ، كان يشعرُ بأنَّ جزءًا يسيرًا آخر من حياته يُفْلِتُ منه.

وقد رأَتْ فيبي ذلك، وكانت خائفةً هي أيضًا.

فإذ سهرت فيبي عليه باستمرار، أحسَّتْ صِراعَه الداخليَّ وشاركتَه في المعاناة. لقد التمسَّتْ كلَّ خبيرٍ وأسلوبٍ مُتوافرين، وباتَ عليها الآن أن تقفَ جانبًا عاجزةً وترى كيف

يُحَارِبُ الأَلَمَ غيرَ المُنْقَطعِ، ويُجَاهِدُ في سبيلِ الحَيَاةِ بَعينِها. وإذ نَكَهَتْ شِرابَهُ بِجِرعَاتِ قوِيَّةٍ مِنَ الأَفْيُونِ واللُّفَّاحِ، حاولَتْ أن تُعْطِيه أَيْةَ إِرَاحَةٍ تيسَّرَتْ لَهَا. ثُمَّ كانت تَحِلِسُ وتَمسِكُ يَدَهُ حَتَّى يَنامَ. وكانت أحيانًا تَمضي وتَقْعُدُ في واحدٍ مِنَ المِخْتَلِيَّاتِ المُظْلَلَّةِ، حيثُ لا يُتَاحُ لِأحدٍ أن يَراها، فتَبكي حَتَّى تَجفَّ دَموعُها.

تُرى، فيمَ أخطأتُ؟ وماذا يَسْعُها أن تَفعلَ لِإِصلاحِ الأُمُورِ؟ لقد صلَّت إلى كُلِّ إِلِهٍ عَرَفْتَهُ، وقدَّمتُ قِرابينَ بِيَدٍ مَبسُوطَةٍ، وصامتُ وتعبَّدتُ. وصرختُ داخلَ قلبِها مُلتَمِسَةً أجوبَةً، ومع ذلك كان عليها أن تُشاهدَ كيف يموتُ بِبطءٍ وكَرْبٍ ذلكَ الرَّجُلُ الَّذِي قد أَحَبَّته منذُ لَمَحْتَهُ لَمَّا كانت فتاةً صَغيرةً، الرَّجُلُ الَّذِي أعطَها أولادًا وحُبًّا وحياةً رائِعةً.

وأحيانًا، في هدوءِ اللَّيلِ، حينَ يَكُونُ السُّكُونُ ثَقيلًا جدًّا بحيثُ يُدَوِّي في أُذُنِها، كانت تستلقِي بِجانِبِ دَسِيسٍ أَقربَ ما يُمكنُ، مُتَشَبِّهَةً بِهِ. وكانت تُصَلِّي يائِسَةً، لا إلى إِلَهَتِها، بل إلى الإِلَهِ غيرِ المَنظُورِ الَّذِي تَؤمِّنُ بِهِ فتاةٌ عَبدَةٌ.

نَهَضَ أترِيسُ عن بَنكِه الحَجرِيِّ حالِما انفتَحَ بابُ زَنزانَتِهِ، ووقفتْ هَدَسَةُ في الرِّواقِ المِضَاءِ بِالمِشاعِلِ. ثُمَّ غادِرا اللُّودُسُ معًا، وكِلاهُما صامِتَانِ. وشعرَ أترِيسُ بِالغَضَبِ يَبداً بِالتَّعاضُمِ في داخلِهِ. أَيْنَ رَتَّبْتَ جُوليا أن يَتلاقيا هذِهِ المَرَّةَ؟ أفي فُنْدُقٍ؟ أم في عُرْفِ التَّخزينِ تحتِ دارَةِ أختِها؟ أم في وليمَةِ، حيثُ يُتَاحُ لهما أن يَسْتَرِقا بَضْعَ لِحْظَاتٍ مَعًا في حُجْرَةٍ خاصَّةٍ؟ لقد انغلَقَ فَمُه!

كَلِّما اسْتَدَعَتْهُ جُوليا بِهذِهِ الطَّرِيقَةِ، أُسْقِطَتِ شَظِيَّةٌ مِنَ كِبَرائِهِ. ولم يَكُنْ يشعُرُ بِعُودَةِ كِبَرائِهِ إِلاَّ متى عَدَّتْ بَينَ ذِراعَيْهِ، مُتوسِّلةً إِلَيْهِ أن يَحِبَّها. غيرَ أَنَّهُ في ما بَعْدَ، داخلَ زَنزانَتِهِ، حينَ لا يَكُونُ لَدِيهِ ما يَفعلُهُ بِوقْتِهِ سِوَى التَّفَكُّيرِ، كان يَكرَهُ نَفْسَهُ.

لقد قالَ لَهُ سَرَتِسُ أَمَسَ إنَّ الأَلعابَ الَّتِي تُقامُ احتِفالًا بِمَهْرَجانِ لِيِبِرايَا سَتَجري بَعْدَ أسبوعَيْنِ. وقد خُطِّطتْ مِباراةٌ تَصفيَّةٌ، يَشتركُ فِيها اثنا عَشَرَ نِثائِيًا، والنَّاجي يُعْطى حَرِيَّتَهُ. وَعَلِمَ أترِيسُ أنَّ وَقْتَهُ يَضيقُ، وأنَّ هذِهِ الفُرْصَةَ قد تَكُونُ الأَمَلِ الأَخِيرَ وَالوَحيدَ الَّذِي يُتَاحُ لَهُ عَلى الإِطلاقِ.

قَرَّرَ أترِيسُ أَنَّهُ إِذا ظَلَّ حَيًّا بَعْدَ المِباراةِ، وفازَ بِحَرِيَّتِهِ، فَلنَ يَؤتَى بِهِ إلى جُوليا مَرَّةً أُخرى. بل إنَّ جُوليا سَتأتي إِلَيْهِ! سَيَشْتري دارَةً عَلى شارِعِ كُورِيسِ، وَسَيُرْسِلُ خادِمًا كَي يَأْتِيَ بِجُوليا، مِثلَما أرسَلتُ هِيَ الآنَ هَدَسَةَ كَي تأتي بِهِ.

على مدى السنين الثلاث الماضية، كان قد جمع مالا يكفي لِعيشةٍ رغيدة في أفسس، أو لشراء حقِّ السَّفَرِ رجوعاً إلى بلادِ الجرمان، حيثُ يَشغَلُ من جديدٍ مَنْصِبَهَ الشرعيِّ زعيمًا لقبيلة الشُّطِّي. ومنذ ستَّة أشهر، ما كان لِيَثُورَ في ذهنه أيُّ سؤالٍ عمَّا يَنيوي أن يفعلَه. إذ لم تُكُنْ فِكرةُ البقاءِ في أفسس لِتَخطُرَ في باله مُجرَّدَ حُطور. أمَّا الآن، فهُنالِكَ جوليا.

فَكرَ أترِيسَ في البيوتِ المُستَطيَلةِ عندَ بني قومِه، وقارَنَها بقاعاتِ الرُّخامِ الفخمةِ التي تَربَّتَ فيها جوليا، وتساءَلَ عمَّا يَسعُه أن يفعل. فيصِفَتِها امرأته، سيكوُنُ لها مركزُ مُحترَمٍ بارزٌ في مجتمعه، ولكن هل يَسعُها أن تتكَيَّفَ مع الحياةِ كما عَرَفَها هو؟

هل تكونُ رَغبةً في التكيِّفِ؟

أصعدته هَدَسَةٌ في شارعٍ غيرِ مألوفٍ عنده. وقد مَشَتْ أبطأً من المعتاد، والآنزعاجُ بادٍ في سيمائها. ثُمَّ توقَّفتُ عندَ دَرَجٍ رُحاميٍّ مُتعرِّجٍ يُفضي إلى دارةٍ قائمةٍ على سَفحِ الجبل. فدلَّته على الطريقِ قائلةً: ”إنَّها تنتظِرُكُ هناك فوق!“ وانكفأت.

”واضحٌ أن هذا ليس فُنْدُقًا آخر. أهذه واحدةٌ من داراتِ أخيها؟“

”لا، سيدي. الدَّارةُ ملكُ كالاباهِ فُنْتانِيوس. وسيديتي تعتقدُ أنَّها صديقَتُها الأقرب.“

كان في طريقةٍ تفسيرها للأمرِ شيءٍ غيرِ مَنْطوقٍ به. فنظرتُ أترِيسَ إليها بفُضول.

وقبلَ أن يُفَكِّرَ ليَطرحَ أيُّ سؤالٍ، قالتُ: ”ادخُل من البابِ الأوطأ“. وإذ كان أترِيسُ تَوأقًا إلى الاختِلاءِ بجوليا، بدَّدَ اضطرَّابه، وصعدَ الدَّرَجَ.

ووجدَ البابَ مفتوحًا، فدخَلَ. وإذا به في دِهليزٍ على كِلا جانبيهِ عُرْفُ تخزين، وفي آخِرِهِ دَرَجٌ حجريٌّ. وقد ذَكَرَه ذلك بِلِقَاءِ آخرٍ مع جوليا؛ فلا بدَّ إذا أن تكونَ بانتظاره.

إنَّما هذه المرَّةُ وقفتِ امرأةٌ أخرى في بيتِ الدَّرَج. فمشى نحوها بِخُطىٍ واسعة، شاعرًا بِتَحْمينِها التَّقَادَ مع كُلِّ خُطوةٍ خَطَّاها. وقد وقفتُ على الدرجةِ الثالثةِ من الأسفلِ بحيثُ كانت على مُستوى العَينِ مُقابلهِ لما توقَّفتُ أمامها. فأجالتُ عَينَها عليه، ونزلتُ درجةً واحدة. ثُمَّ رفعتُ التَّعويدةَ المُعلَّقةَ حولَ عُنُقِه، وإذ أمسكتها في راحةِ يدها المَبسُوطِة، نظرتُ إليها ثُمَّ رفعتُ نظرها إليه، وقد التوى فمُّها بابتسامةٍ ساخِرةٍ، قائلةً: ”أه!“ ونظرتُ أترِيسَ في أبردِ عَينَينِ قد رأهما على الإطلاق.

ثُمَّ أزاخَ يَدَها، سائلًا: ”أينَ جوليا؟“

فصَحَّكتُ المرأةَ ضِحكةً خفيفةً، قائلةً: ”إنَّها تنتظِرُ لَدَتِها“. وأضافتُ بصوتِ خَشِينِ

جارج: ”من هنا“. ثُمَّ أَدَارَتْ لَهُ ظَهْرَهَا.

وإذ ضاقت عينا أترتيس، تَبِعَهَا إِلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ. فَقَالَتْ: ”انْتَظِرْ هُنَا“، وَفَتَحَتْ بَابًا. وَأَطْبَقَ أَسْنَانَهُ غَيْظًا إِذ دَخَلَتْ وَسَمِعَهَا تَقُولُ: ”جوليا، محاربك قد وصل!“ وذلك بِصَوْتٍ مُشْبِعٍ جَدًّا بِالْإِزْدِرَاءِ حَتَّى تَدْفُقَ الدَّمُ الحَارُّ إِلَى وَجْهِهِ. وَقَالَتْ جوليا شَيْئًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْمَعَهُ، غَيْرَ أَنْ لَهَجَتَهَا كَانَتْ مُفَعَّمَةً بِالْإِرْتِيَاكِ بَدَلًا مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالتَّوَقُّعِ.

ثُمَّ خَرَجَتْ كَالآبَاهِ مِنْ جَدِيدٍ. ”إِنَّهَا غَيْرُ مُسْتَعِدَّةٍ لَكَ. انْتَظِرْ هُنَا، وَسَتَسْتَدْعِيكَ حِينَ تَغْدُو مُسْتَعِدَّةً“. وَرَفَعَتْ أَحَدَ حَاجِبَيْهَا، قَائِلَةً: ”اعْتَنِ بِأَنْ تُحَسِّنَ خِدْمَتَهَا“. ثُمَّ مَضَتْ مَاشِيَةً عَبْرَ الرُّوَاقِ.

حَمَلَتْ أترتيس وِراءَهَا بِغَضَبٍ شَدِيدٍ، ثُمَّ انْفَجَرَ مُتَحَرِّكًا. فَفَتَحَ البَابَ بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَرَأَى جوليا جَالِسَةً إِلَى مِزْيَنَةٍ مُكْسُوَّةٍ بِزُجَاجَاتِ التَّجْمِيلِ وَالعُطُورِ. وَكَانَتْ خَادِمَتَانِ مِنْهُمَا كَتَبَتَيْنِ بِتَصْفِيفِ شَعْرَهَا، فَجَمَدَتَا كِلْتَاهُمَا لَدَى دُخُولِهِ. فَقَالَ هَاؤُا رَأْسَهُ نَحْوَ البَابِ: ”اُخْرُجَا!“ فَفَرَّتَا مُجَاوِزَتَيْنِ إِيَّاهُ كَفَأْرَتَيْنِ نَهْرَبَانِ إِلَى جُحْرَيْهِمَا.

حَدَقَتْ إِلَيْهِ جوليا بِفَرْعٍ وَهِيَ جَالِسَةٌ. ”أَرَدْتُ أَنْ أَبَدُوَ كَامِلَةً تَمَامًا قَبْلَ...“

سَحَبَهَا أترتيس مُوقِفًا إِيَّاهَا عَلَى قَدَمَيْهَا، وَجَذَبَهَا إِلَيْهِ بِعُنْفٍ مُطَوِّقًا إِيَّاهَا بِذِرَاعِيهِ. وَمَا إِنَّ فَتَحَتْ فَمَهَا لِلْإِحْتِجَاجِ، حَتَّى غَشَاهُ بِقَمِهِ. وَانْحَلَّ شَعْرُهَا تَحْتَ أَصَابِعِهِ، فَتَسَاقَطَتِ الدُّبَابِيسُ الْمُرْصَعَةُ وَتَبَعَثَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ.

قَاوَمَتْ جوليا. وَقَالَتْ لِأَهْتِءَ— حَالِمًا أَمَهَلَهَا لِحِظَةً كَيْ تَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهَا— ”إِنَّكَ تُفْسِدُ شِعْرِي“. فَقَالَ بِخُشُونَةٍ: ”أَنْظُنِّينِ أَنِّي أَبَالِي بِشِعْرِكَ؟ سَوَى أَنْ أَفْعَلَ هَذَا!“ ثُمَّ غَرَزَ يَدَيْهِ فِي شَعْرَهَا، مُتَشَبِّهًا بِهِ فِي قَبْضَتَيْهِ وَهُوَ يُقْبَلُهَا ثَانِيَةً.

فَدَفَعَتْهُ قَائِلَةً: ”إِنَّكَ تَوَلُّنِي. كَفَى!“ وَمَا إِنْ أَفْلَتَهَا فِجَاءً، حَتَّى تَرَاوَجَعَتْ بِغَضَبٍ لَامِسَةٍ شَعْرَهَا، ثُمَّ مُنْهَالَةً عَلَيْهِ فِي حَتَقٍ: ”هَلْ تَعْلَمُ طُولَ الوَقْتِ الَّذِي اضْطُرِرْتُ فِيهِ إِلَى البَقَاءِ جَالِسَةً هُنَاكَ وَهُمَا مُنْكَبِتَانِ عَلَى تَرْتِيبِ شِعْرِي حَتَّى أَبَدُوَ جَمِيلَةً لِأَجْلِكَ؟“

فَقَالَ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ: ”أُرْخِيهِ إِذَا، مِثْلَ النِّسَاءِ اللُّوَاتِي يُرْسِلُونَهُنَّ إِلَى حُجْرَتِي“.

وَقَدَحَتْ عَيْنَاهَا شَرًّا. ”أَتَشَبَّهُنِي بِعَاهِرٍ مِنَ الْعَامَّةِ؟“

وَإِذْ كَانَ مَا يَزَالُ مُسْتَشْيِبًا لِأَنَّهَا أَمَرَتْ بِأَنْ يَنْتَظَرَهَا فِي الرُّوَاقِ، قَالَ: ”هَلْ نَسِيتِ كَيْفَ التَّقِينَا؟“ فَمَنْ كَانَتْ تَنْظُهُ؟ وَمَاذَا كَانَتْ تَنْظُهُ؟

عندئذٍ ثارت حِدَّةُ طَبْعِهَا، واستدارت لِتَمْضِي، قائلةً: ”رَبِّمَا وَجِبَ أَنْ نَنْتَظِرَ مَرَّةً أُخْرَى فِيهَا تَكُونُ أَنْتَ أَحْسَنَ مَزَاجًا!“ ولوَّحت بِيَدِهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَصْرِفُهُ مِنْ مَحْضَرِهَا.

وإذ ثارَ ثائِرُهُ، أَدَارَهَا نَحْوَهُ، وَقَالَ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ: ”أَهْ لَا لَيْسَ الْآنَ“. وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقٍ، بَاتَتْ سَلْسَةً وَتَشَبَّهَتْ بِهِ مُرْتَجِفَةً. فَقَالَ بَابِتْسَامَةَ سَاخِرَةً: ”لَعَلَّكَ عَلَى حَقِّ“. وَأَفْلَتَهَا فِجَاءَةً حَتَّى تَرَاجَعَتْ مُتْرَنِحَةً، فَأَضَافَ: ”مَرَّةً أُخْرَى!“

فصاحت: ”أَتَرَيْتِيسَ! إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟“ وَقَدْ شَعَرَتْ بِأَنَّهَا مَحْرُومَةٌ وَمَخْذُولَةٌ. ”رَاجِعْ إِلَى اللُّودُسِ“.

وَأَدْرَكَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ. ”مَا بِكَ هَذَا الْمَسَاءَ؟ لِمَاذَا تَتَصَرَّفُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ؟ لِمَاذَا تَقْسُو عَلَيَّ بِشِدَّةٍ؟“ وَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ إِلَى السَّقَّاطَةِ، أَمْسَكَتْ بِهَا، قَائِلَةً: ”لَا تَتْرُكْنِي“. ثُمَّ طَوَّقَتْهُ بِذِرَاعَيْهَا وَالتَّصَقَّتْ بِهِ.

فَأَمْسَكَتْ ذِرَاعَيْهَا وَحَرَّرَ نَفْسَهُ. ”أَنْتِ تَدْفَعِينَ لِسَرْتِسَ وَتَسْتَدْعِيْنِي مِثْلَ عَاهِرٍ!“

بَدَتْ مَصْعُوقَةٌ. ”أَنَا لَا أَقْصِدُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَأَنْتِ تَعْلَمُ ذَلِكَ! لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَيْسَّرَتْ لِي كَيْ أَقَابِلَكَ مِنْ جَدِيدٍ. وَقَدْ أُعْطِيتُ سَرْتِسَ نِصْفًا جَوَاهِرِي لَكِي أَكُونَ مَعَكَ. وَيَسْرُنِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِيَّاهَا كُلَّهَا، إِذَا كَانَ ذَلِكَ مَطْلُوبًا. أَنَا أَحْبَبُّكَ، يَا أَتْرَيْتِيسَ. أَلَا تَعْلَمُ ذَلِكَ؟ أَنَا أَحْبَبُّكَ“. ثُمَّ جَذَبَتْ رَأْسَهُ نَزُولًا وَقَبَّلَتْهُ. ”أَنْتِ أَيْضًا تَحْبُبْنِي. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تَحْبُبْنِي“.

فثَارَتْ رَغْبَتُهُ عَلَى وَجْهِ الشَّرْعَةِ، مُضَاهِيَةً رَغْبَتَهَا. وَقَالَ: ”لَا تَحْبَلِينِي أَنْتَظِرُ مُجَدِّدًا!“ ثُمَّ أَطْلَقَ عِنَانَ هَوَاهُ.

وعلى مدى ساعةٍ واحدةٍ، أُتِيخَ لِأَتْرَيْتِيسَ أَنْ يَنْسِيَ كُلَّ شَيْءٍ مَا عدا حَقِيقَةَ شُعُورِهِ حِيَالِ الْوُجُودِ مَعَ جُولِيَا قَالِيرِيَانِ. وَلَكِنْ فِي الْهَدْوِ الَّذِي أُعَقِبَ ذَلِكَ، شَعَرَ بِالْفِرَاقِ. فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهَا. وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَكِّرَ.

وَسَأَلَتْ جُولِيَا: ”إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟“

فَقَالَ بِاقْتِضَابٍ: ”أَنَا رَاجِعٌ إِلَى اللُّودُسِ“. وَذَلِكَ بِلَهْجَةٍ دِفَاعِيَّةٍ، لِأَنَّ جُولِيَا لَمْ تَبْدُ قَطُّ أَجْمَلَ مِنْهَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. كَانَ مَا يَزَالُ مَفْتُونًا بِهَا، وَلَكِنَّهَا بِطَرِيقَةٍ مَا-رَبِّمَا عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ أَيْضًا- غَدَّتْ جَوْعَهُ الدَّاخِلِيَّ فَحَسَبَ، بَدَلَ أَنْ تُشْبِعَهُ.

”وَلَكِنْ لِمَاذَا؟ فِي وَسْعِكَ أَنْ تَبْقَى مَعِي حَتَّى الْفَجْرِ تَقْرِيْبًا. فَالْأَمْرُ كُلُّهُ مُرْتَبٌ“.

فقال ببرودة: "ليس بالنسبة إليّ". وأجال بصره في أنحاء المَهْجَعِ الفخم، مُفَكِّراً في المرأة المتعطّسة المقيّمة التي تملك هذا البيت. "لن أجيء إلى هنا مرّةً أخرى".

إذ ذاك جلست جوليا، قائلة: "ولكن لِمَ لا؟ لقد قالت كالاباه إن في وسعي أن أستخدم بيتها متى أردت. هذا هو مكان اللقاء المثالي لنا!" وقد أدركت الغضب المتراكم في عينيه، وتصلّب حنكه المَعَانِد. فهو ينوي أن يكون لاعقلاًئياً. "أين تقترح أن نتلاقى، يا أتريتس؟ أتتوقع مني أن أذهب إلى حُجرتك الصغيرة الكريهة؟"

فرمقها بنظرة سُخْرِيَّة، وقال: "لِمَ لا؟ سيكون ذلك اختِباراً جديداً ومُثِيراً لك".
"سيعرف كل شخص في أفسس عند الصباح".

فتصلّبت عَصَلَةٌ في حنكه. "إذاً، ذلك هو سبيل الأمر". وتناول حزامه فلبسه.

أدركت جوليا أنه أهين. "لا، ليس هو كذلك! وأنت تعرف أنه ليس كذلك. إن عائلتي لن تُوافق على علاقتنا. فأبي وأخي يشغلان مركزين مُهمّين جداً في المجتمع. وإذا عرف أيّ منهما أنني اتحدت مُحارِباً عَشيقاً لي، يُشدّدان الحِرَاسَةَ عليّ لإبعادك عني. ألا يسعك أن تفهم؟ أتريتس، إنهما سيقدّمان على تزويجي من عجوزٍ غنيّ في أقاصي الإمبراطورية. وقد فعلا هكذا مرّةً في ما مضى!"

"وإذا غدوت حُرّاً؟"

فطرفت عيناها. لقد بدت الاحتمالية نائيةً جداً حتّى حاولت ألا تفكر فيها بتاتاً. وقالت متلعثمة: "لست أدري. من شأن ذلك أن يُغيّر كل شيء". ثمّ عبست قليلاً.

وضاقت عينا أتريتس، إذ تيسّر له أن يرى ذهناً مُقلِّباً جميع الاحتمالات. والتوى فمه بابتسامةٍ ساخرةٍ لاذعة.

فقالَتْ، كما لو كانت تُخاطبُ ولدًا: "أتريتس، ستمضي سنواتٌ قبل أن تفوز بحُرّيّتك، وأنت تعلم ذلك. لا يسعنا أن ننتظر ذلك الأمل. علينا أن نتمتّع بكلّ دقيقةٍ نقضيها معاً".

انتعل أتريتس صندله. وكان الضجيج في رأسه مثل وقع طبلٍ كان يسمعه في الغابة قديماً. وإذ أحست جوليا أنّ شيئاً ما كان خاطئاً جداً بينهما، قالت: "لا تذهب!" ولما استقام،

مدّت يديها، وأصافت: "ابقِ معي. لماذا أنت عنيّدٌ جداً؟ أنت تعلم أنك تريد أن تبقى".

"هل أريدُ حقاً؟"

أنزلت يديها إلى حِصنها وشبكتهما، مُوجعةً لأنّه كان مُفرط العجرفة. فتلقّعت بكبيرائها،

وأملت ذقتها. ”أَتَصِلُ بِسَرْتِسَ لَاحِقًا هَذَا الْأَسْبُوعَ، أَمْ تَفْضُلُ أَنْ أَدْعَكَ وَشَأْنَكَ؟“
التوى فمه بشخيرة إذ فتح الباب، وقال: ”إني دائماً أمتنع عن النساء قبل أن أقاتل
في الألعاب“.

استولى عليها الخوف عندما سمعت كلماته اللامبالية. فقالت: ”في أي ألعاب؟“ وقد
ذعرت لعلها أنها قد تفقده. ثم عبر الباب خارجاً. ”أترتس!“

مشى بخطى واسعة في الممر المضاء بالمصابيح، وهبط الدرج ثلاثاً ثلاثاً. وقال لحارس
ضخم الجسم في البهو الرئيسي: ”ابتعد من طريقي!“ ثم مضى مباشرة خارجاً إلى الباب
الأمامي. وسمعها تناديه باسمه. حتى إذا بلغ قعر الدرج ووطئ الشارع في الأسفل، توقف
كي يلا رثيته بالهواء النقي. وإذا التفت إلى الورا، رأى أنها لم تهتم كفاية بأن تتبعه إلى
الشارع، حيث يمكن أن ترى.

نظر حوآليه، غير متيقن أين كان، وشم شتماً ثقيلًا. كان كل ما فكر فيه في طريقه إلى
هنا أن يكون مع جوليا مجددًا. وقد كان عليه أن ينتبه إلى الطريق انتباهاً أوفى.

وما لبث أن سمع وراءه وقع قدمين خفيفاً جعله يستدير بسرعة، مستعداً للرد على
أي هجوم. فإذا بالفتاة العبدة تقف بقرب البوابة، رافعة نظرها إليه، قائلة: ”سأدلك
على الطريق“.

”ليس قبل أن أفضي وقتاً في الشمس“.

علم أنها تتبعه، ولكنه لم يخفف سرعة مشيه. وكان في الظلام آخرون يحرسونه أيضاً،
وقد أرسلهم سرتس لحماية استثماره. فكان في وسعه أن يناديهم كي يدلوه على الطريق. إنما
كانت تلك فكرة مثيرة للحنق. أيقول لهم: أعيديني إلى السجن، قيديني من جديد؟

ثم رأى هيكل أرطيميس، ولكن بدا أن يدا ما أبعدته عنه. غير أنه، بدلاً من ذلك، وجد
نفسه يسلك طريقاً يؤدي إلى ساحة المحاربين. ولما وصل إلى هناك، وقف وقتاً طويلاً يتأمل
ساحة المحاربين تلك، سامعاً صدى الصراخ، شامئاً رائحة الدم. وإذا أغمض عينيه، تساءل
عمًا دفعه للمجيء إلى هنا لما أتاحت له سويعات من العزلة والحرية.

جال بين الأكشاك المهجورة تحت أماكن المشاهدين، حيث كان يُباع كل صنّف من
المغويات. ثم قصد إلى مدخل وصعد الدرج. وكان ضوء القمر يغمّر المدرج، فشق طريقه
بسهولة إلى المقصورة التي يقعد فيها الرسميون الرومانيون المبعجلون. وخفق فوقه قماش
الخيام. كانت إحدى الظلل محلولة، فيما الآخر مطوية إلى الورا ومثبتة، مما ترك المنصة

مكشوفةً تحت السماء.

نظر أترتيس من علٍّ إلى الرَّمَلِ . قريبًا ستكون جوليا جالسةً هنا حيث هو واقفٌ الآن، تُشاهدُه مُقاتلًا في سبيل حياته، تُشاهدُه مُنتزِعًا حياةً سواه. ولَسَوْفَ تستمتعُ بذلك .
ثُمَّ تقدّمت العبرانيَّةُ الصغيرة ووقفت بجانبه .

فقال لها: ”كِلَانَا نخدمُ جوليا، أليس كذلك؟“ ولكنها لم تُجِب . والتفت إليها فرأها تُسرحُ نظرها في أنحاء ساحة المحاربين، وكأنها لم تشهَدَ واحدةً من قَبَل . وقد كانت ترتجفُ على نحوٍ ملحوظٍ ارتعادًا من وجودها في مكانِ الموتِ ذلك .

قال: ”سأقاتلُ تحتُ هناك بعدَ أيامٍ قليلة . لقد أدخلني سرتس في برنامجِ مُباراةِ التصفية . هل تعرفين ما هي تلك؟“ فهزّت رأسها نفيًا دون أن تنظرَ إليه، فشرح لها . ثم قال بجفاف: ”يبدو أن أرتَميس قد ابتسمت لي“، وأشاحَ بناظرِهِ . ”هذه المرّة، في الأسبوعِ المُقبِلِ، سأكونُ إمّا مَيِّتًا، وإمّا رجلًا حُرًّا“ .

نظرَ أترتيس من علٍّ إلى الرَّمَلِ مُجددًا، فوجدَه مِثْلَ بَحْرِ أبيضٍ مُضاءٍ بنورِ القمرِ، نظيفًا . غيرَ أَنَّهُ تذكّرَ لطنخةِ الدَّمِ من كُلِّ رَجُلٍ قتله على الإطلاق . ”ربّما كان الموتُ هو الحرّيّةُ الوحيدة“ .

فأمسكتُ هَدِسَةَ يده، وقالت برِقّة: ”لا!“

فخفضَ أترتيس نظرهَ إليها مدهوشًا، وقد أذهله أن تلمسه أساسًا، فيما أمسكتُ بيده كما لو كان أحدهما طفلًا .

ثُمَّ قالت ثانيةً: ”لا!“ وإذ دارت لِتواجهه، أمسكتُ يده بإحكامٍ بين يديها كِلتَيْهِمَا، وأضافت: ”ليس هو الحرّيّةُ الوحيدة، يا أترتيس“ .
”أيّ حرّيّةٍ أُخرى تُوجدُ لرجُلٍ مثلي؟“
”الحرّيّةُ التي يُعطيها اللهُ“ .

سحبَ يده من يديها . ”ما دام إلهك قد أخفقَ في إنقاذِ كالب، فلن يحميني . أفضلُ أني وضعتُ ثقتي في أرتَميس“ .

”أرتَميس ليستُ شيئًا سوى حَجَرٍ جامد“ .
”إنّها تحملُ سِمَةً طيواز، الإلهِ الرُّوحِ في غاباتِ موطني السّوداء“ . ورفعَ التّعويذةَ المُعلّقةَ حولَ عنقه، أي طَلَسَمَه .

فتأملتِ الطَّلَسَمَ بحُزن. ”عَنْزَةَ تُسْتخدَمُ لجرِّ خِرَافٍ إِلَى الذَّبِيحِ!“
 وَأَطَبِقْ قَبضَتَهُ عَلَى التَّعْوِيزَةِ، قَائِلًا بِتَهْكِمْ: ”إِذَا، يَنْبَغِي أَنْ أَصِيرَ يَهُودِيًّا؟“
 ”أَنَا مَسِيحِيَّةٌ“.

فزَفَرَ نَفْسَهُ بِحِدَّةٍ، مُحدِّدًا لِيَهَا مِنْ عَلٍ كَمَا لَوْ كَانَتْ حَمَامَةً طَلَعَ لَهَا قَرَنَانِ فَجَاءَتْ. لَقَد
 كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ عَظْمًا لِسَاحَةِ الْمَحَارِبِينَ. أَمَّا السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ الْكَامِنُ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَفْهَمْ
 قَطُّ: ”أَيُّ خَطَرٍ عَلَى رُومَا سَكَلَ قَوْمٌ لَا يُقَدِّمُونَ عَلَى الْقِتَالِ؟“ رَجْمًا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي ذَاتِهِ
 هُوَ السَّبَبُ. فَالرُّومَانُ يُثَمِّنُونَ الشَّجَاعَةَ، حَتَّى لَدَى ضَحَايَاهُمْ. وَمِنْ شَأْنِ الْجَبِينِ أَنْ يُثِيرَ فِيهِمْ
 الشُّعْرَ. وَكَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يُطَرِّحُونَ طَعَامًا لِلْأَسْوَدِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَمْرًا مُخْزِيًّا، مَحْفُوظًا لِأَسْوَدِ
 الْمَجْرِمِينَ وَأَخْطَ الْجَبْتَاءُ. وَقَد كَانَتْ الْمَيْتَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَفُوقُ ذَلِكَ إِخْرَازًا هِيَ أَنْ يُعَلِّقَ الْمَرْءُ
 عَلَى صَلِيبٍ.

تُرَى، لِمَاذَا أَخْبَرْتَهُ بِأَنَّهَا مَسِيحِيَّةٌ؟ لِمَاذَا جَاوَزْتَ هَذِهِ الْمُجَازَفَةَ؟ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَشِيَّ بِهَا إِلَى
 سَرْتَسِ الَّذِي مَا يَتَوَقَّفُ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ ضَحَايَا يُقَدِّمُهُمْ لْجُمْهُورٍ مُتَعَطِّشٍ؛ كَمَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ
 يَشِيَّ بِهَا إِلَى جُولِيَا الَّتِي عَبَّرَتْ صِرَاحَةً عَنِ احْتِقَارِهَا لِلْمَسِيحِيِّينَ.

فَتَجَهَّمَتْ مُدْرِكًا أَنَّ جُولِيَا مَا كَانَتْ لَتَعْرِفَ أَنَّ خَادِمَتَهَا الشَّخْصِيَّةَ تَنْتَمِي إِلَى تِلْكَ الْمَلَّةِ
 الْمُتَحَرِّفَةِ، وَقَالَ: ”أَفْضَلُ أَنْ تُبْقِيَ هَذَا طَيِّ الْكِتْمَانِ“.

قَالَتْ هَدَّسَةً: ”لَقَدْ أَبْقَيْتُهُ. وَلطَالَمَا كَتَمْتُهُ فِي قَلْبِي. إِنَّمَا قَدْ تَكُونُ هَذِهِ آخِرَ فُرْصَةٍ تُنَاحِ لِي
 كِي أَتَكَلَّمُ إِلَيْكَ، يَا أُتْرِيْتِسْ، وَأَنَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِكَ. يَنْبَغِي أَنْ أَقُولَ لَكَ...“

قَاطَعَهَا قَائِلًا: ”لَيْسَ لِي نَفْسٌ“. وَلَمْ يَكُنْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ.
 فَقَالَتْ مُتَوَسِّلَةً: ”لَكَ نَفْسٌ. لِلْجَمِيعِ نَفُوسٌ. أَصْغِ إِلَيَّ، رَجَاءً. أُتْرِيْتِسْ، إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ.
 التَّفَتْ إِلَيْهِ. اصْرُخْ إِلَيْهِ، فَيُجِيبُ. اطْلُبْ مِنْ يَسُوعِ أَنْ يَدْخُلَ قَلْبَكَ“.

”يَسُوعُ! وَمَنْ يَسُوعُ هَذَا؟“

فَفَتَحَتْ فَمَهَا كِي تَتَكَلَّمُ.

وَفَجَاءَتْ قَالِ أُتْرِيْتِسْ بِحِدَّةٍ: ”أَسْكُتِي!“ وَسَمِعَتْ هِيَ أَيْضًا الْحُرَاسَ مُقْبِلِينَ. فَاجْتَاَحَهَا
 خَوْفٌ صَاعِقٌ إِذِ التَّفَتَتْ إِلَى فَوْقِ وَرَأَتْ الْجُنُودَ الرُّومَانِيِّينَ فَوْقَهُمَا بِبِضْعَةِ صُفُوفٍ، يُرَاقِبُونَ
 مِثْلَ الطُّيُورِ الْجَوَارِحِ. وَتَدَكَّرَتْ صُرَاحَ الْمَاتَتِينَ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ، وَغَابَةِ الصَّلْبَانِ خَارِجَ الْأَسْوَارِ
 الْمُهْدَمَةِ، وَالنَّاجِينَ الْمَتَّالِينَ، فَجَفَّ حَلْفُهَا.

عندئذ قال أحد الحُرَّاسِ: "أَنْ أَوَّانَ الرُّجُوعِ، أترتيس. الفَجْرُ آتٍ". ووقف الآخرون مُتَاهِبِينَ، في حال رَفْصِ الامتثال.

أوماً أترتيس برأسه موافقاً. وومضت عيناه لتلتقيا عيني هَدَسَةَ، وقطب قليلاً. ثم قال - بصوت استطاعت هي وحدها أن تسمعه - "كُنْتُ أَعْبَى من أن تخبريني بأي شيء". فحاولت ألا تبكي. "كُنْتُ غَبِيَّةً إذ لم أبادر فوراً إلى إخبارك بكل شيء". وأمرها: "لا تقولي شيئاً بعد!" فرأى عينيها متلاثلتين بالدموع.

ثم وضعت يدها على ذراعِهِ، قائلة: "سَأُصَلِّي لأجلك". واشتدَّت قبضة يدها كما لو أرادت أن تُوقِفَهُ في مكانه وتجعله يُصغى. "أُصَلِّي طالِبَةً أن يَغْفِرَ لِي اللهُ خوفاً وبمَنَحنا فُرْصَةً أُخْرَى للتحدُّث".

فتجهت أترتيس، إذ ارتبك وتأثر على نحو غريب. ثم دارَ وصعدَ الدَّرَج، فيما أطبق الحُرَّاس عليه وأحاطوا به. ولما بلغَ الفُتْحَةَ المُفْضِيَةَ إلى الدَّرَجَاتِ المؤدِّيَةِ إلى الخارج، التفت إلى الوراء، فإذا هَدَسَةَ ما تزال واقفةً هناك.

لم يكن قط قد تأملَ مِثْلَ عَيْنِي كالتين لديها قبلاً، عَيْنِي مُفْعَمَتِي حناناً بحيث اخترقتنا قساوة قلبه.

قالت جوليا: "لقد قال إنه سيقاتل في الألعاب بعد!" مُستاءةً لأن كالأباه كفتها عن الخروج وراء أترتيس.

"لا بد أن يُقاتل في الألعاب بالتأكيد. فهو مُحارب".

"ألا تفهمين؟ يُمكن أن يموت! فالألعاب الوحيدة المُحَطَّط لها ستقام احتفالاً بمهرجان ليبراليا، وقد رتبت سرتس مباراةً تصفية. هكذا قال لي مرقس أمس. إن أترتيس لن يُقاتل رجلاً واحداً أو اثنين فقط". ثم ضغطت صدغها بقبضتيها. "كم كنت غبيَّةً جداً، غبيَّةً جداً! حتَّى إنِّي لم أفكر قط في ما قد يعنيه ذلك. فماذا لو فقدته؟ لا يسعني أن أحتمل ذلك، يا كالأباه، لا يسعني!"

قالت كالأباه - بلهجة غريبة جعلت جوليا تلتفت إليها - "وماذا لو عاش؟"

"سيضطر سرتس إلى تحريره".

"ثم ماذا؟ ماذا يمكن أن يتوقَّع منك؟"

”لست أدري. سأترجّح به إذا أراد.“

فقالت كالاباه بازدراء: ”أتكونين حمقاء إلى هذا الحد؟ إنه أسوأ من كائس، يا جوليا.“

”ليس كذلك. ليس مثل كائس في شيء. لقد غضب عليّ لأنني تركته ينتظر خارجاً.“

”لست أتكلّم عن عنفهِ، وإن كان ينبغي النظر في ذلك. إنني أتكلّم بشأن الطريقة التي بها يُسيطر عليك. إذا جُرّحت كبرياؤه قليلاً، يُغادر. وماذا تفعلين؟ أنتتظرين فرصة ملائمة، وتبقين مُنتظرة أن يعود إلى رُشدِه ويعتذر. كان ينبغي أن تزي نفسيك، يا جوليا، جارية وراه. لقد كان مُخيّباً للأمال أن أراك تتصرّفين على هذا النحو الرديء جداً.“

تورّد خدّاً جوليا. ”أردتُ له أن يبقى.“

”كان من شأن أيّ شخص في أفسس أن يُلاحظ أنّك أردتِ له كثيراً أن يبقى. ولكن من يُسيطر على هذه العلاقة تماماً؟“

أشاحت جوليا بناظريها، مُتذكّرة ملاحظة أترتيس الجارحة بشأن الامتناع عن النساء قبل الألعاب. أياكون في صحبة أخريات حين لا يكون معها؟ لقد تمنّت أن تكون هي المرأة الوحيدة في حياته، ولكن ماذا لو كانت مُجرّد واحدة بين كثيرات؟

أمالت كالاباه ذقن جوليا إلى الورا ونظرت في عينيها. ”إنّ هذا المحارب مدِين لك بالاحترام. فمن يحسب نفسه؟ بروقنصل أفسس؟ لماذا تسمحين له بأن يُعاملك كواحدة من حاجياته للمتعة؟“ ثمّ أبعدت يدها وهزّت رأسها. ”إنّك تُحبيين أمالي، يا جوليا.“

وإذ شعرت جوليا بالأذى والحزني، قالت مُدافعة: ”إنّ أترتيس هو أشهر مُحارب في الإمبراطورية. ففي سبيله أكثر من مئة شخص أُردهم قتلَى. والناس يصنعون تماثيل إكراماً له.“

”وهل تجعله هذه الأشياء جديراً بك؟ أنتِ مواطنة رومانية، ابنة واحد من أغنى الرجال في الإمبراطورية، امرأة ذات ثروة. وما أترتيس هذا إلا حيوان برّي قدير على القتال في ساحة المحاربين، بربري يفتقر إلى أدنى قدر من التمدن. كان ينبغي أن يتشرف باختيارك إيّاه عشيقاً لك... ويكون شكوراً على كل لحظة تُوفّرنيها له!“

فحدّقت جوليا طارفة العينين في عيني كالاباه القامتين، وقالت: ”ما فكّرت قط في الأمر على هذا النحو.“

ووضعت كالاباه يدها على يدي جوليا، ضاغطة إيّاهما قليلاً. ”أعرفُ ذلك. أنتِ تبخسين نفسك قدرها كثيراً. لقد سمحتِ لنفسك بأن تصيري عبدة.“

فأشاحت جوليا بعينها ثانية، وقد تضاعف خزيها. هل كانت عبده؟ لقد تدكرت كيف توسلت إليه أن يبقى ثم جرت ورائه. ولم يثنه ذلك. لقد أذلت نفسها، وهو أدار ظهره لها.

”عليك أن تضعيه في مكانه الصحيح، يا جوليا. فهو العبد، لا أنت!“
ولكنه قد يفوز بحرّيته.“

”أفهم لماذا تفكرين بهذه الطريقة، ولكن فكري قليلاً بعد. هل علمت أن البرابرة يقتلون الزوجات اللواتي يتخذن عشاقاً سواهم؟ إنهم يعزقونهن في مستنقع. فماذا لو كسب هذا المحارب حرّيته فعلاً؟ ماذا لو تزوجت به؟ ربما تنعمين بالشورور فترةً وجيزة، ولكن ماذا لو ستمته؟ إن تجزأت على مجرد النظر إلى آخر، يمكن أن يقتلك. في روما، يحق للرجل أن يقتل زوجةً خائنة، وإن كان أفلاًءاً مُنافقين جداً بحيث يُقدّمون على ذلك أصلاً. فهذا الرجل لن يُفكر مرتين في قتلك بيديه.“

هزت جوليا رأسها. ”أنا لست مثلك. إنني أحبه. لا يسعني أن أملك نفسي. فليس في وسعي أن أتخلى عنه لأنني خائفة مما قد يحصل.“

قالت كالاباه: ”لست مضطرة إلى التخلي عنه أبداً“. ونهضت عن الأريكة.
”ماذا تقصدين؟“

وقفت كالاباه مُستغرقةً في التفكير بضع لحظات. ”في وسعك أن تتزوجي برجلٍ آخر، رجلٌ يمكنك أن تثقي به ثقةً تامةً. رجلٌ يسمح لك بحرّيته كاملة حتى تفعل ما تشائين. وفي هذه الأحوال، يمكن أن يبقى أتريتس عشيقاً لك ما دمت رغبةً في ذلك. وإذا ستمته، فلن يلحق بك ضررٌ. أعطيه هديةً رمزيةً لتسكين كبريائه، ودعيه يرحل راجعاً إلى بلاد الجرمان، أو إلى أيّ مكانٍ آخر قد يود الذهاب إليه.“

هزت جوليا رأسها رفضاً. ”لقد سبق أن تزوجت، وقد كرهت ذلك. فإن كلاوديوس كان أسوأ من أبي. وكأيس. أنت تعرفين ماذا كان كأيس.“

”سيكون عليك أن تحسني اختيار الرجل بكلّ دقة.“

”الرجل الوحيد الذي وثقتُ به يوماً هو مرقس.“

قالت كالاباه بجفاء: ”لا يسعك أن تتزوجي أخيك بكلّ تأكيد.“

اضطرب ذهن جوليا من الأفكار التي ألقتهَا كالاباه عليها، فقالت: ”لم أقصد ذلك.“

وضغطت صُدغَيْهَا النابِضَيْن بأصابعها.

”أما زلتِ تثقين بأخيكِ ثقةً بالغة؟“

”من دونِ شكِّ. ولمَ لا أثقِ به؟“

”تساءلتُ عن سببِ مجيئكِ إليَّ كي أُساعدكِ بشأنِ أتريتسِ بدلاً من ذهابكِ إلى أخيكِ. فما دمتِ تثقين به، أفترضُ أنه عارفٌ بعلاقتكِ الغراميةِ وموافقٌ عليها“. ثمَّ أمالتُ رأسها قليلاً لتتأملَ وجهَ جوليا المشاح. ”أهو عارفٌ؟ ماذا يفعلُ إذا عَرَفَ؟“ وكان في سؤالها الرقيقِ لذةٌ سُخْرِيَّة. ”كان أبوكِ مريضاً جداً مؤخراً. أرخى مرقس الزمامَ أم شدّه؟“

ضغطت جوليا شفَتَيْهَا معاً. لم تستطعْ أن تنكرَ أنَّ مرقسَ باتَ ميئالاً إلى الشدَّة. وبالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ كان يزدادُ شَبَهًا بأبيه إلى أبعَدِ حدِّ. ففي آخرِ وليمةِ حضرَتها جوليا، كادَ مرقسُ يجرُّها بذراعها من العُرْفَةِ. وقد دفعَها إلى مخدعِ خاصِّ، حيثُ اتَّهَمَها بالإفراط. ولَمَّا طَلَبَتْ أن تعرفَ قصده، قال إنَّ تصرفَها بين ضيوفه ذكَّرَه بأربا. وكان جليلاً أَنَّهُ لم يعنِ بذلكِ إطرأءها.

إنَّ مُجرَّدَ التَّفكيرِ في ذلكِ أثارَ غضبَها من جديد. ما وَجَّهَ الخطأَ في جَعَلِ كلِّ رَجُلٍ في العُرْفَةِ يرغبُ فيها؟ فضلاً عن ذلكِ، ألم يكنْ هذا هو السَّببُ الذي من أجله أرادَ مرقسُ منها أن تكونَ مُضيفتَه في المقامِ الأوَّلِ؟

وقالت كالاباه: ”أولاً أبوكِ، ثمَّ كلاوديوس وكايس. والآنَ تسمِّحين بأن يتحكَّم فيكِ أخوكِ، وأيضاً مُحاربٌ، رَجُلٌ لا يعدو كونهَ عبداً لروما. أه جوليا!“ قالت هذا بجللٍ، وأضافتُ: ”متى تتعلمين أنكِ تملكين داخلَ ذاتكِ قدرةَ السَّيطرةِ على مصيرِكِ الخاصِّ؟“

قعدت جوليا مقهورةً حيالَ تعليلِ كالاباه ورغباتها الذاتيةِ المُضطربةِ المُدومة. ”حتَّى لو تعرَّفْتُ إلى رَجُلٍ يمكنني أن أثقُ به تماماً بحيثُ أتزوَّجُه، فأنا مُضطرةٌ إلى الحصولِ على مُوافقةِ مرقسِ.“

”لا، لستِ مُضطرةٌ. فأنتِ قد سمعتِ بالزَّواجِ على قاعدةِ يوسس، أليس كذلك؟“

”مجرَّدُ مُساكنةِ رَجُلٍ؟“

”قد تُوقَعُ اتِّفافيةٌ بينك وبين الرَجُلِ الذي اخترته، إذا رغبتِ، مع أَنَّها لن تكونَ ضروريَّة. فزواجُ اليوسسِ بسيطٌ جداً، ومُلزِمٌ شرعيًّا مثلما تُريدن له أن يكون. وهو مُلزمٌ كفايةً بحيثُ يُتيحُ لكِ استعادةَ السيطرةِ على مالكِ.“

فرفعت جوليا نظرها.

وقالت كالاباه: ”نساءٌ كثيرات يستخدمن هذا الشكل من الزواج لحماية ملكياتهنّ. ولتأخذ مثلاً: لو كان هذا المحاربُ حرّاً، وأرادَ فعلاً أن يتزوَّج بكِ، فهل تعتقدين أنّه سيُسمحُ لكِ بالسيطرة على المال الذي تأتيين به إلى الزَّواج؟ هل تعتقدين أنّ في وسعكِ أن تفعلِي ما تشائين؟ لقد قابلته مرّةً واحدة فقط، غير أنّها كانت كافية لأن أدرك أنّ سيختارُ الاستبداد. وإذا كنتِ متزوَّجةً بأيّ شخصٍ آخر بمقتضى يُوَسِّس، فليسَ في وسعه أن يفرضَ ذلك النوع من السيطرة. عندئذٍ يكونُ مالكُ وحرّيَّتُكِ كِلاهُما ملكَ يدكِ، ولن يُتاحَ له أيّ سبيلٍ لانتزاع أيّهما منك. أمّا إذا تزوّجتِ به فعلاً، فكلُّ ما تملكينه يؤول إليه.“

”وإذا أرادَ الرجلُ الذي أتزوَّجُ به على قاعدة يُوَسِّس أن يفرضَ السيطرة؟“

”تخرُجينَ من البابِ فحسب. إنّ الأمرَ هو بهذه البساطة. فكما قلتُ، يا جوليا، هذا الزَّواجُ مُلزمٌ شرعيّاً فقط مثلما تريدان أنتِ له أن يكون.“

راقتِ الفكرةُ جوليا، ولكنْ واجهتها مُشكلة. ”لستُ أعرفُ أيّ رجلٍ يمكنني أن أسكنَ معه.“

وبعد صمتٍ ثقيلٍ طويلٍ، قالت كالاباه بهدوء: ”هناكِ برئيس.“

”برئيس؟“ فكَرَّتْ جوليا في الشابِّ الوسيم الذي دعاه مرّقس إلى ولائمه تكراراً. وقد كان له معارفٌ بين أهل السياسة. وكان جميلاً وفاتناً، وحلّو المعشر أغلب الأحيان؛ إنّما كان فيه شيءٌ نفّر جوليا. ”لا أجدهُ جدّاً أباً.“

ضحكت كالاباه ضحكةً خفيفة. ”من المرجحُ جدّاً ألاّ يتجنّبَ هو أيضاً إليك، يا عزيزتي. فهو مُغرّمٌ بمأبونه.“

شُحِبَت جوليا. ”أقترحين أن أتزوَّجَ بشخصٍ مثلي؟“

بدا على كالاباه نفاذُ الصبر. ”كالعادة، تُفكرينَ مثلَ ولدٍ، أو شخصٍ غائصٍ في لُجّة التفكير التقليدي، بحيثُ تُخفِفينَ في أن تُدركي نفعَ أيّ شيءٍ آخر. فأنا إنّما أعرضُ عليكِ نمطَ حياةٍ بديلاً مقبولاً. أنتِ مُغرّمةٌ بمُحاربكِ هذا، ولكنكِ تعلمين أنّكِ إذا تزوّجتِ به تكونُ لكِ حرّيّةٌ أقلُّ من التي لكِ الآن. فبوجودِ برئيس، يمكنكِ أن تفعلِي ما شئت. ففي وسعِ أترپتس أن يبقىَ عشيقاً لكِ، ويبقىَ لكِ مالكُ وحرّيَّتُكِ. إنّ برئيس هو الزَّواجُ المثاليُّ لكِ. فهو حَسَنُ المنظرِ وذكيٌّ ومُسلِّ. وهو صديقٌ لصيقٌ للبروقنُصل. وبوجودِ معارفِ برئيس، تتمتعينَ بمُخالطةِ أعلىِ مُستوياتِ المجتمع الرومانيِّ والأفسُسيِّ. وأفضلُ كلِّ شيءٍ أنّ برئيس سهلُ الانقيادِ كثيراً.“

جلست كالاباه من جديد بجانب جوليا، ووضعت يدها على يد جوليا. ”اقترحْتُ
 پريمس لأنَّ أيَّ رجلٍ آخر لا بدَّ أن يتوقَّع بعضَ الخِدْماتِ المعلومة منك، خِدْماتٍ ربَّما لا ترغِبين
 في منحِها لأيِّ شخصٍ آخر ما عدا هذا المُحارب. فإنَّ پريمس لن يفرضَ عليكِ أيَّ مطالبٍ.“
 ”لا شكَّ أنَّه سيتوقَّع الحصولَ على شيءٍ في المقابل.“

فقالَت كالاباه: ”على الدَّعمِ المالى“.

ونَهَضتْ جوليا: ”لا أحتاجُ إلى رجلٍ آخر مثل كائس يستنزِفُ كلَّ مورِدٍ لديّ“.

راقبتُها كالاباه شاعرةً بالرُضى. إنَّ جوليا باتت سائرةً في السَّبيل الذي رسمته لها منذُ
 زمن بعيد في روما. وسرت في أعصابها بهجةُ التَّأثرِ حيالَ القوَّة التي تملكها، تلك القوَّة التي
 لم تلاحظها جوليا مجرداً ملاحظَةً. ليس الآن، بل عاجلاً، ستبلِّغُ المراد.

فقالَت برقةً- وصوتها الرَّخيم يكاد يفعلُ فعلَ السَّحر- ”لا داعيَّ لأنَّ تقلقي بشأن
 ذلك، يا جوليا. إنَّ پريمس لا يُقامر، ولا يبددُ المَالَ على العُشاق. فهو مُخلصٌ لشريكه الهائم
 به. إنَّ پريمس يحيا حياةً بسيطةً، ولكنه يحبُّ أن يحيا ميسوراً. وهو مُستأجرٌ داراً صغيرةً غيرَ
 بعيدةٍ من هنا. ففي وُسْعِكِ أن تنتقلي للإقامة معه هناك، ربَّما تستعدين السَّيطرة على
 مالِك. ولديه غرفةٌ نومٍ إضافيَّة. حتَّى إذا حصلتِ على الحقِّ الشرعيِّ في التصرف بملكيتك،
 يُمكنك شراءَ دارٍ كُبرى في حيِّ أفضل من المدينة، وربَّما أقرب إلى الهيكل.“ ثمَّ التوى فمها
 تهكُّماً، وأضافت: ”أو أقرب إلى اللُّودس، إذا أحببتِ“.

وقفت جوليا صامتةً بضعَ لحظات، والمشاعرُ تخفقُ على وجهها الجميل، وقالَت:
 ”سأفكرُ في الأمر“.

فابتسمت كالاباه، عالمةً أنَّ جوليا قد قرَّرت قرارها فعلاً.

٣٣

كانت هَدَسَةٌ تنتشلُ ماءً من البئر في البهو ذي الأعمدة لما جاءت إحدى العبدات وقالت لها إنها مطلوبةٌ في مهاجع السيد. وقد وقفت فيبي وراء الأريكة التي كان دَسِمُسُ مُتَكِّئًا عليها، واضعةً يدها على كتفه. كان خداه غائرَين، وعيناه غامضَين ومُتَيْقِظَين. وتركَزَت حَمَلَقَةُ فيبي على القيثارة الصغير.

قالت فيبي: ”ما استَدَعِينَا كِي تعزِّي لنا، يا هَدَسَةُ. عندنا أسئلةٌ نسألكِ إيَّها. رجاء، اقْعُدِي!“ وأشارت إلى كُرْسِيِّ مُنْحَفِضٍ بِقُرْبِ الأريكة.

شعرتْ هَدَسَةُ بِقَشَعْرِيرَةِ البرد تحري في دمها إذ قعدت أمامهما. وراحتْ تنتظر، مُستقيمةَ الظهر ويداها مشبوكتان في حضنها.

كان دَسِمُسُ مَنْ تكلّم، وقد خَشِنَ الأَلَمُ صوته. ”أَنْتِ مَسِيحِيَّةٌ؟“
خفق قلبُ هَدَسَةَ في داخلها كعُصْفُورٍ ضَعِيفٍ مُرْفِرِفٍ. إِنَّ نَعْمًا واحدةً تنطقُ بها قد تعني موتها. فانغَلَقَت حَنَجْرُتُهَا.

وقالت فيبي بلطف: ”لا داعيَ لِأَنْ تخافي مِنَّا، يا هَدَسَةُ. إِنَّ ما تقولينه لنا لن يخرجَ من هذه العُرْفَةِ. نَعِدُكَ بِذلك. فنحنُ لا نُريدُ إِلَّا أَنْ نعرفَ عن إلهِكَ هذا الذي تعبُدِينَهُ.“
فأومأت برأسها، وهي ما تزالُ مُرتاعة. ”نعم، أنا مَسِيحِيَّةٌ.“

قالت فيبي - وقد أذهلها أَنَّ دَسِمُسُ كان على حقٍّ بشأن هَدَسَةَ - ”وأنا كنتُ أحسبُكَ يهوديَّةً طوالَ هذه المُدَّة!“

”كان أبي وأمي من سبط بَنِيامين، سيّدتي. إِنَّ المَسِيحِيَّين يعبدون الإلهَ الواحد، ولكنَّ كثيرين من اليهود لم يعرفوا السيّدَ المَسِيحَ لما جاء.“

رأى دَسِمُسُ ابنه داخلًا من عُرْفَةِ الدُّرسِ المُجاورة. وما إن رأى مَرْقُسَ هَدَسَةَ حتّى وقفَ وعَضَلَةٌ ترتعشُ في خده.

لم تلاحظْ فيبي مَرْقُسَ، فقالت: ”المَسِيحُ؟ ما كلمة المَسِيحِ هذه؟“
”معنى المَسِيحِ «الشخصُ المَسوح»، أي المَعْن، سيّدتي. لقد نزلَ اللهُ بهيئةَ إنسانٍ وسكنَ بيّننا“. وحبستْ هَدَسَةُ نَفْسَها، ثُمَّ قالت: ”إِنَّ اسمَهُ هو يسوع.“

فقال مرقس: "كان..." ودخل الغرفة. ولما تكلم، توترت هدسة. ورأى خديها يتوردان احمراراً، غير أنها لم تتحرك ولا رفعت نظرها. فحدق إلى منحنى رقبتها الطريف وحوالق شعرها الداكن الناعمة المسبلة على قفا عنقها. ثم قال بخشونة: "لقد أجزيت بعض التنقيب بشأن هذه الملة اليهودية في غضون الأسابيع القليلة الماضية".

كان مرقس قد دفع مالا لبضعة رجال كي يبحثوا في هذه الديانة، وجاءوه باسم قائد مثة روماني متقاعد يقيم خارج أفسس. فقصّد مرقس إليه على حصان كي يتحدث معه. وكان ينبغي أن يسرّ بما علمه، إذ كان يمكن أن يزعزع هذا الإيمان الذي تكته هدسة. غير أنه بالأحرى قضى أيّاماً في حالٍ من الاكتئاب، مُتجنباً اللحظة التي فيها سيكلمها من جديد.

وها هي الآن تُلقي هذه القصة السرطانية على مسامع أبيه وأمه بعينهما.

فقال موجّهاً كلامه إلى والديه: "إن يسوع هذا الذي يدعي المسيحون أنه مسيحهم كان نائراً صلب على صليب في منطقة اليهودية. فإيمان هدسة مؤسس على العاطفة، لا على حقيقة، على طلب مستميت لأجوبة عن أسئلة لا جواب لها". ثم نظر إلى هدسة من عل، وأضاف: "لم يكن يسوع إلهاً، يا هدسة. كان إنساناً ارتكب خطأ تحدى السلطات في مدينة القدس، ودفع ثمن ذلك. لقد تحدى سلطة السنهدريم (مجلس اليهود الأعلى) وسلطة الإمبراطورية الرومانية على السواء. وقد كان مجرد اسمه كافياً لإثارة العصيان المسلح، وما زال!"

فقالت أمه: "ولكن ماذا لو كان ذلك صحيحاً، يا مرقس؟ ماذا لو كان إلهاً؟"

"لم يكن. فحسبما قال إپاينيتس - وهو رجل قابلته رأى ما جرى في ذلك الزمان الماضي - كان يسوع ساحراً مشهوراً إلى حد ما أجرى آياتٍ وعجائب في بلاد اليهودية. كان اليهود متعطّشين إلى مُنقذ، واقتنعوا بسهولة أنه مسيحهم الذي طالما انتظروه. وقد توقعوا منه أن يطرد الرومان من اليهودية. فلما لم يفعل ذلك، انقلب عليه أتباعه. وقد سلّمه واحد من تلاميذه الأقربين إلى المحكمة العليا. فيسوع هذا أرسل إلى بيلاطس. وقد حاول بيلاطس أن يطلق سراحه، إلا أن اليهود أنفسهم طالبوا بأن يصلب لأنه كان ما يدعونه «مُجدّفاً». لقد مات على صليب، ثم أنزل ودُفن، وكانت تلك نهاية أمره".

فقالت هدسة برقة: "لا، بل قام حيّاً".

واتسعت حدقتا فيبي. "هل عاد إلى الحياة؟"

فشتّم مرقس مخيّباً. "لا، لم يعد، يا أمّاه. هدسة، أصغي إليّ". ثم جثا، وأدارها

بخشونة لتواجهه. ”كان تلاميذه هم الذين قالوا إنه قام، ولكن الأمر كله كان خدعة لفتت لتعزيز انتشار هذه الديانة“.

أغمضت هدسة عينيها وهزت رأسها نفيًا.

فهزها مرقس قليلاً. ”بلى! لقد كان إيبانيتس في بلاد اليهودية عند حصول ذلك. إنه الآن رجل مسن، وهو يقيم بقرنا خارج المدينة. سأخذك إليه إن كنت لا تصدقيني، حيث يُتاح لك أن تسمعي الحقيقة بنفسك. لقد كان واحداً من قواد المئات عند القبر. وهو قال إن الجثمان قد سرق لدفع الناس إلى الإيمان بأن قيامة قد حصلت!“

وإذ ساءل دسمس نفسه عن سبب تصميم ابنه القوي على زعزعة الإيمان الثمين لدى الفتاة العبدة، قال: ”هل رأى هو ذلك؟“

لم يلاحظ مرقس أي تغيير في عيني هدسة. فأفلتها ووقف.

”قال إيبانيتس إنه لم ير الجثمان يؤخذ من القبر، ولكن ذلك كان التفسير المنطقي الوحيد“.

”من تحت أنوف الحراس الرومانيين مباشرة؟“

فقال مرقس بغضب: ”هل تريد أن تصدق هذه القصة السخيفة؟“

أجاب دسمس: ”أريد أن أعرف الحقيقة! كيف يُعقل أن يبقى إيبانيتس هذا على قيد الحياة إذا كان حارساً عند القبر؟ إن الإعدام هو عقوبة إهمال الحارس لواجبه. فلماذا لم يُعَدَم من أجل إخفاقه في واجبه؟“

كان مرقس قد سأل السؤال عينه. ”قال إن بيلاطس اشماز من امتيهان الأحزاب اليهودية له. وكانت زوجته قد تأملت بأحلام قبل الإتيان بيسوع هذا للمثول أمامه، غير أن السنهدريم والرعايع اليهود أرغموه على تسليم مسيحهم هذا للصلب. وقد غسل بيلاطس يديه من المسألة كلها. فهو لم يرد أي تورط إضافي مع هؤلاء المتعصبين دينيًا، ولم يكن على استعداد للتضحية بجنود جيدين من أجل فقدان جثة يهودي ميتٍ عديم الأهمية!“

فقال دسمس: ”بدو لي أنه كان ينبغي أن يكون أمرًا بالغ الأهمية لدى جميع المعنيين أن يتيقنوا ببقاء الجثة في القبر“.

ظلت هدسة هادئة حيال خطاب مرقس، وقالت مجددًا: ”لقد قام! إن الرب ظهر لمرمى المجدلية وتلاميذه“.

فردّ مرقس: ”وهؤلاء كذبوا، على وجه الاحتمال، لإبقاء قصّة هذا المسيح سارية“ .
 فقالت هدسة: ”ظهر الربُّ أيضًا لأكثر من خمسٍ مئة شخصٍ آخرين دفعةً واحدة“ .
 رأى مرقس أملَ أمه المستميت بأيّ شيءٍ قد يُساعد أباه. فقد وضعت إيمانها في الآلهة
 والإلهات، في الأطباء والكهنة، في الوسطاء الروحانيين والمعالجين المزعومين، وكان كلُّ ما
 فعله أيُّ منهم إضعافَ قوّة أبيه. —
 ”أمّاه، لا تورّطي نفسك في هذا الأمر. فهو أكذوبةٌ أدامها أناسٌ يخدمون
 مصالحهم الذاتية“ .

دارت هدسة قليلاً على كرسيها المنخفض، ورفعت نظرها إلى مرقس. أكان أبوها يخدم
 مصلحة الذاتية؟ أم يوحناً والباقون جميعاً؟ وفكرت في أبيها خارجاً إلى شوارع مدينة
 القدس كي يتكلّم بالحقّ. لماذا؟ كانت قد صرخت مُتسكّيةً. لماذا؟ والآن، إذ نظرت إلى
 دسيس وفيبي ومرقس - ورأت الألم واليأس والضلال - علمت كم كان مرقس مُحطّاً بشأن
 كلِّ شيء. فقالت بلطف: ”أيّ سببٍ كان لديهم حتّى يكذبوا؟“
 قال مرقس - ظانّاً أنّه أخيراً قد يخترقُ السبيلَ إليها ويفتحَ عينيهَا - ”المال، السلطة،
 احترامُ الناس. هذه أسبابٌ تدفعُ كثيرين إلى الكذب“ .
 ”هل تعتقدُ أنني يمكنُ أن أكذب عليك؟“

عند ذلك لأن مرقس. وودّ لو يجثو ويمسك بيديها ويقول لها إنه أسفٌ لأنه أذاها. لقد أراد
 أن يحميها. أراد أن يحبّها. أرادها لنفسه. ولكنّ إيمانها بهذا الإله غير الموجود حال بينهما. فقال
 باغتمام: ”لا! لستُ أعتقدُ أنك يمكنُ أن تكذبي عليّ. لستُ أعتقدُ أنك قادرةٌ أن تكذبي
 على أيّ إنسان. أنا أعتقدُ أنك تُصدّقين كلَّ كلمةٍ من هذه القصّة الغريبة لأنك تزيّيتِ كي
 تُصدّقها. لقد انطبعت في ذهنك بكثرة تكرارها من حين وُلدت. غير أنّها ليست صحيحة“ .
 فهزّت رأسها نفياً، وقالت بحزن: ”أه مرقس! أنت مُحطّ تماماً. إنّها صحيحة! لقد قام
 يسوع. وهو حيّ!“ ثمّ أطبقت يديها على صدرها، وأضافت: ”إنّه هنا!“
 فقال مرقس مُخيّباً: ”هو ميت! لماذا لا تودّين الإصغاء إلى الحقائق؟“

”إلى أيّ حقائق؟ كلمة حارسٍ لم يرَ أيّ شيء. ماذا كَسب أولئك الذين اتّبعوا
 يسوع؟ لا مالاً، ولا سلطةً، ولا احترامَ الناس. لقد أهينوا كما أهينَ الربُّ. فيعقوبُ قطع
 الملك هيرودس أغريباس رأسه، وأندرأوس رُجم بالحجارة في سكيثيا. وبرثلماوس سلخ جلدُه

وهو حيٌّ ثمَّ قُطِعَ رأسُه في أرمينيا. ومثَّى مات مصلوبًا في الإسكندريَّة، وفيلبُّس في هيراپوليس، وبطرُس في روما. ويعقوب الصغير قُطِعَ رأسُه بأمر من هيرودُس أنتيپاس. وسيمعان الغيور نُشِرَ شَطْرَيْنِ في بلادِ فارس. ولا أحدٌ منهم ارتدَّ. فحتَّى في مواجهة الموت، ظلُّوا يُعلِنون أنَّ يسوعَ هو المسيح. أفكانَ من شأنهم جميعًا أن يموتوا حفاظًا على أكذوبة؟ لقد قال لي أبي إنَّهم كلُّهم كانوا خائفين لما صُلبَ يسوع، إذ هَرَبوا واختبأوا. وبعدما قام السيِّدُ المسيح وجاءَ إليهم، باتوا رجالًا مُختلفين، مُغَيَّرين. لا من الخارج، بل من الداخل، يا مَرُقُس. وقد نَشَرُوا بشارَةَ الإنجيل لأنَّهم أيقنوا بأنَّها صحيحة“.

سألت فيبي مَرَحِفَةً: ”وما بشارَةُ الإنجيل؟“

”أنَّ الرَّبَّ قد جاء، لا ليدينَ العالمَ، بل ليقدِّمَ له الخلاصَ، سيِّدتي. فإنَّه هو القيامةُ والحياة. وكلُّ مَنْ آمَنَ به فسَيحيا، حتَّى لو مات.“

فقال مَرُقُس على نحوِ غاية في القسوة: ”على جَبَلِ الأُولِبِ مع جميعِ الألهة، كما أعتقد.“

وقالت فيبي -مُحرَجةً من تهكُّمِه- ”مَرُقُس!“

فنظرَ مَرُقُس إلى أبيه. ”إنَّ هَدَسَةَ على حقٍّ في شيءٍ واحد: أنَّ التكلُّمَ بهذا المسيح يجلبُ الأثَمَ والموتَ فعلاً، ولا سَيمًا عليها إذا أصرَّت على إيمانِها. إنَّ يسوعَ هذا نادى بأنَّ الإنسانَ مسؤولٌ أمامَ الله وحده، لا أمامَ أيِّ قيصر. فإذا أسهَمْتَ في نَشْرِ هذه الديانة، فسَتكون نهايتُها في ساحةِ المحاربين.“

شجبتَ هَدَسَةَ سُحوبَ الموت: ”لقد قال السيِّدُ المسيح: «أعطوا ما لقيصرَ لقيصر، وما لله لله»“.

”وبكلماتِكَ أنتِ: كلُّ ما أنتِ عليه، وكلُّ ما تفعليته في خدمةِ إلهِكَ هذا! أليس كذلك؟ فأنتِ ملكٌ له!“

وإذ انزعجتُ فيبي من حدَّةِ ابنِها، قالت: ”مَرُقُس، لماذا تُهاجمُها هكذا؟ إنَّها لم تأتِ إلينا كي تتكلَّم بشأنِ إلهها، بل نحنُ استَدعيناها لنسألها بأنفسنا“.

فقال: ”إذا اتركها وشأنها تمامًا، يا أمَّاه. اتركا إلهها غيرَ منظورٍ ومَنسِيًّا. إنَّ إيمانها مؤسَّسٌ على إلهٍ غيرِ موجود، وعلى حادثةٍ لم تحصل قطُّ“.

ثمَّ خيَّم الصمتُ عليهم جميعًا. وتكلَّمتُ فيه هَدَسَةُ، مثلَ صَدَى في أوديةِ أذهانهم، وخَفَقَةَ نورٍ في الظلام. ”لقد أقامَ يسوعُ أبي من بينِ الأموات.“

فهمست فيبي: ”ماذا قلت؟“

ورفعت هَدَسَةَ عَيْنَيْهَا، قَائِلَةً مَرَّةً أُخْرَى - بغير ارتعاشٍ في صوتها هذه المَرَّةَ - ”لقد أقام يسوعُ أبي من بين الأموات“ .

”ولكن كيف؟“

”لستُ أعلم، سيدي“ .

ومالَ دَسِمُسُ في جلسته إلى الأمام قليلاً: ”أرأيتِ ذلكَ حاصلاً بعينيكِ فعلاً؟“

”لقد حصلَ قبلما وُلدت. في بلدتنا بالجليل“ .

فقال مَرَقْسُ - مُحاولاً أن يكظِمَ سُخْطَهُ - ”هَدَسَةُ، أنتِ تقولين إنه فعلَ فعلاً كهذا فقط بناءً على كلامِ الآخرين“ .

فرفعت هَدَسَةُ عَيْنَيْهَا، مُعَلِّناً كُلَّ الحُبِّ الذي تكُنُّه له. ”لن يُقْنِعَكَ أبداً أيُّ شيءٍ يمكنُ أن أقوله، يا مَرَقْسُ. فالرُّوحُ القُدُسُ وحدَهُ يقدرُ على إقناعك. غير أنني مُتَيْقِنَةٌ بأنَّ يسوعَ قد قام. وأنا أشعرُ بحضوره الآن، هنا، معي. وأرى بُرْهَانَ كَلِمَتِهِ كُلَّ يومٍ. منذُ الخَلْقِ فصاعداً، العالمُ كُلُّهُ يشهدُ لِحُطَّةِ اللهِ التي أعلّنتُ بواسطةِ ابنه. ومنذُ البدءِ، هو أعدنا. في انقضاءِ الفُصولِ؛ في الطريقة التي بها تطلُعُ الزُّهورُ وتموتُ وتُسْقِطُ بُرُورًا كي تبدأ الحياةُ من جديد، في الغروبِ والشروقِ. إنَّ تضحيةَ السيِّدِ المسيحِ تُمثَلُ في كلِّ يومٍ من حياتنا، لو أنَّ لنا عيونًا فنبصرُ“ .

”ولكن ألا يمكنكِ أن تبصري؟ ما ذلك إلا نظامُ الأشياءِ الطبيعيِّ فحسب“ .

”لا، يا مَرَقْسُ. ذلك هو الله مُتَكَلِّمًا إلى البَشَرِ أجمعين. وهو سيعود“ .

”إيمانك أعمى!“

نظرت هَدَسَةُ إلى دَسِمُسِ. ”إذا حدّقتِ إلى الشَّمْسِ وأشحّت بناظريك، فسترى الشمس، سيدي. وإذا حدّقتِ إلى الموت، ترى الموت. فأين يكمن الرّجاء؟“

فترجرت عيناه، واتكأت إلى الوراة قليلاً. ”ليس لدي رجاء“ .

والثقت مَرَقْسُ، فرأى الفتورَ في عيني والده، والألمَ المحفورَ في وجهه. وفجأةً غمرَ مَرَقْسُ خِزْيً شديد. فربما كان على خطأ. وربما كانت حيازةُ رجاءٍ زائفٍ أفضلَ من عدمِ الرجاءِ مُطلقًا.

”لكِ أن تنصري، يا هَدَسَةُ!“ قالت فيبي هذا مُرَبِّتَةً كتَفَ دَسِمُسِ بعزاءٍ عقيم.

وللمرة الأولى، لم تطع هُدسة أمراً. إذ جئت بجانب الأريكة، وخرقت كل قانون معلوم عرفاً بإمساكها يد سيدها بكلتا يديها. ثم فعلت ما لا يُعتقر، إذ نظرت في عيني دسيس مبشرة، وتكلمت إليه كما لو كانت نداً له.

”سيدي، إن قبول نعمة الله يجعل المرء يعيش حائزاً الرجاء. ليتك تعترف بخطاياك وتؤمن، فيغفر لك الرب. اطلب إليه، فيأتي ليقيم في قلبك، وتتعم بالسلام الذي تتوق إليه بشدة. ما عليك إلا أن تؤمن فحسب“.

لمح دسيس في عينيها حُباً، ذلك النوع من الحُب الذي طالما تاق أن يناله من ابنته بعينها. فقد تأججت أساريها البسيطة وعيناها البُنيتان بدفء نبع من داخلها، ورأى دسيس لحظة ذاك الجمال الذي أراد ابته أن يمتلكه. إنها أمنت بما لا يُصدق. أمنت بما هو مُستحيل. لا بعنادٍ وعجرفة، بل ببراءة طفولية نقية لم يستطع العالم أن يُفسدها. ودون أن تُفكر في الخطر الذي قد يجلبه ذلك عليها، قدّمت له رجاءها الخاص عسى أن يقبله.

ربما لم يُصدق أي شيء مما قالت - وربما لا يستطيع أن يؤمن بإلهها هذا غير المنظور - ولكنه آمن بها هي.

وإذ ابتسم بحزن، ألقى يده الأخرى على خدها. ”لولا جُوليا، لأطلقتكِ حرة“.

فضغطت يده برقة، وقالت همساً: ”أنا حرة، سيدي. وأنت أيضاً تستطيع أن تكون حراً“. ثم نهضت برشاقة، وغادرت الغرفة، مُغلقة الباب وراءها بهدوء.

صعد أتريتس إلى المركبة، مُستجمِعاً قواه، بانتظار بدء الهمپا، أي الاحتفالات الافتتاحية. وكانت درعُه وخوذته المصنوعتان من الذهب والفضة ثقيلتين وساخنتين، مع أن النهار كان في صباحه الباكر. فردّ الكاب الأحمر عن كتفيه، ومال كي يتمكن من مشاهدة المحاربين الآخرين يتأهبون لتقديم العرض. لقد كان عددهم الإجمالي أربعة وعشرين؛ فعليه أن يقتل خمسة منهم حتى يفوز بحريته.

كان سرتس قد رتب عرض مزيج متنوع هذه المرة. فقد اصطفّت المركبات حاملة مُحاربين مُسلّحين بالخناجر (ديماتشيري)، وآخرين يحملون غلاديوسات وتروسا (ساميتين)، ومُحاربين يُقاتلون بالرُمح (فيلائتين)، وآخرين مُسلّحين بالأقواس والسهام (ساجيتاريي). وكان هناك أربعة من المُقاتلين يستقلون مركباتهم الخاصة التي يجزّ كلًا منها حصانان (أسداريي)، يتبعهم ثلاثة آخرون يمتطون أحصنة حربية قويّة مُدرّبة (أندباتاي)، وقد اعتمَرَ

هؤلاء حُودًا أوقيةً الوجهِ فيها مُسدّلة: الأمرُ الذي يعني أنّهم أساسًا يُقاتلون مَعْصُوبي الأعيُن. وفي المركبة التي وراء أترتيس تمامًا كان رَتِيَارِيُسُ أفريقيّ، رُمعُه الثلاثيُّ الشَّعب وشبكتُه مَعروضان. فلا بُدَّ أن الرِّعاع سَيَّبَتِهجون بمعرض الوحوش.

”الكَهنةُ مُقْبِلون!“ قال هذا سائقُ مركبةِ أترتيس، عاقِدًا الرِّمَامَ بمهارةٍ على شكل أنشوطَةٍ بين أصابعه. وكان أترتيس قد رأى الكَهنة، مُرتدين تُنكاتٍ بيضاء وأوشحةً حُمْراءَ، يجرؤون ثورًا أبيضَ وكَبَشَيْنَ على رأسِ كُلِّ منهما غِطاءً ذهبيّ كي يُقدِّموا أضحايّ. ولمَّا ذبحوها، أمعنوا في النُّظر في أحشائها لِيَتَيَقَّنُوا بأنَّ هذا اليومُ صالحٌ للألعاب. فالتوى فمُ أترتيس بابتِسامةٍ سُخرية، عالمًا أنّ أيَّ يومٍ هو يومٌ صالحٌ للألعاب. فلن يجرؤُ أيُّ كاهنٍ على الأمرِ بإيقافها، مهما كانت نُذُرُ الشُّوم التي رآها في الأحشاء الدامية.

ثمَّ دَوَّت الأبواق، وُفِتِحَت الأبواب. فقال السائق: ”هيا بنا!“ وهو يصطفُ وراءَ الرِّسْميين الرومان والمتعهدين الذين يُؤولون الألعاب. وكان سَرَتِس أمامَ أترتيس تمامًا.

أخذَ الرِّعاع يهتِفون بضراوة. وسمع أترتيس اسمه يُنادى به مرارًا وتكرارًا، فضلًا عن أسماءِ بضعةٍ مُحاربين سواه. لم تكن شهرته في أفُسُس عظيمةً كما كانت في روما، ولكنّه لم يُبالِ. فإنّه ركَّزَ كُلَّ فِكره على ما ينتظره، مُقدِّرًا المُحاربين الآخرين ومُحَمِّمًا حَسَنَاتِهِمْ فيما تدورُ به المركبةُ أمامَ المُتفرِّجين كي يُشابهوه. ولم يشرُدَّ انتباهُه إلَّا مرَّةً واحدة. فبينما هو عابِرٌ بِمُحاذاةِ المقصورة التي كان البروقنصُلُ جالسًا فيها، رفعَ نظره وتأمَّلَ الضيوفَ المُحيطين بالسياسي، وإذا جوليا بينهم. وقد كانت مُرتديةً الپالَسَ الأحمرَ الذي لَبِستَه إلى هيكلِ أرطَميس. فارتكصَ قلبُه لمَّا رآها، ثمَّ أشاحَ وجهه. إذ نوى ألاَّ ينظرَ إليها مرَّةً أخرى قبل انتهاء الألعاب.

دارتِ المركباتُ بضعَ دوراتٍ أخرى حول ساحةِ المحاربين، ثمَّ اصطفتْ أمامَ البروقنصُلِ. فترجَّلَ المُحاربون، وعَرَضُوا أنفُسَهُمْ، وقد نزعَ بعضهم كبايتهم، وآخرون - لإيهاجِ الجُمهور - خَلَعُوا كُلَّ شيء. أمَّا أترتيس فلم يفعلْ هذا ولا ذاك، بل وقفَ وقَدَمَاه الثابتتان مُنفصلتان قليلاً، ويدهُ على سيفه، ولَبِثَ ينتظر. ولمَّا فرغ الآخرون من تَبَخُّرِهِم لإمتاعِ الرِّعاع وانضمُّوا إلى التَّشكيلية، استلَّ أترتيس غلاديوِسَه ورفعَه مع الآخرين.

”سلامًا، قيصر! الموشكون أن يموتوا يُحيونك!“

باشَرَ البروقنصُلُ إلقاءَ حُطبةٍ وجيزة. وأبقى أترتيس عينيه بعيدتين عن جوليا، باحثًا بالأحرى عن العبدِ الصغيرة الغريبة. وقد كانت بين الحُضور. وما إن افتتحَ البروقنصُلُ الألعابَ رسميًا، حتَّى أطلقَ الجُمهورُ صيحاتِ الاستِحسانِ الهادرة. ثمَّ صعدَ أترتيس

والآخرون إلى المركبات مُجدِّدًا، وجلدَ السائقون الحيوانات التي تجرُّ المركبات بالكرابيج حتَّى جَرَّتِ المركباتُ حول ساحة المحاربين مرَّةً أخيرة، ثُمَّ خرجت مُسرِّعةً من البوابة على وقع صُراخ الرِّعاع الصاخب.

في عُرفة الاحتِجاز، سادتِ البُرودةُ والظُّلالُ القائمة، وانتشَرتِ رائحةُ زيتِ المصابيحِ القويَّة. وكان في الجُدُرانِ الحجريَّةِ نوافذُ عاليةٌ مُشبَّكة بالحديد. ولم يَنبَسِ أيُّ واحدٍ بكلمة. وقد خلَّعَ أتريتسُ درعَه الفاخرةَ الزاهية، وارتدى تَنِيكًا بُنيًّا بسيطًا. فسَمَّضِي ساعاتٌ قبلَ أن يُقاتِلَ أيُّ منهم.

في أثناء الوليمة التي أُقيمتِ البارحة، تلا سَرتس عليهم برنامجَ الأحداث الآتية (ليبيُّس). فإنَّ الهمِما ستُحتَمَمُ بإهداءِ البروقفُصلِ الألعابِ إلى الإمبراطور. يلي ذلك استعراضُ افتتاحيٌّ ضخمٌ وإلقاءُ كلمات؛ ثُمَّ يُوَدِّي البَهْلوانانُ وراكبو الخيلِ البارِعون عُروضَهُم؛ تليها سباقاتُ الكلاب. بعدَ ذلك يُصلبُ لِصان، ثُمَّ تُطلَقُ عليهما كِلابٌ مُتوحَّشة تنهَشُهُما وتَنزِلُ أشلاءَهُما عن الصِّلبيين. ثُمَّ يُطارِدُ صيَّادون (بيستاريي) دِبةً ناندهيَّةً من جبال أيردار في كينيا. وبعدَ ذلك يُلقى سَجَناءُ طعامًا لجماعةٍ من الأسود الأورويَّة.

وفي وقتٍ ما نحو الظُّهر، تُعطى استراحةٌ قصيرةٌ من المجازِرِ مُدَّتُها ساعةٌ واحدة، في أثنائها تُنظَّفُ ساحةُ المحاربين ويؤتى إليها بزمل جديد. إذ ذاك يُوزَعُ الطعام، وتُباعُ بطاقاتُ يانصيب، ومُثَلُّ مسرحيَّاتٌ هزليَّةٌ عن المهاجع. إلاَّ أنَّ أنواعَ التَّسليَّةِ هذه كانت دائِمًا تُضجِرُ بِسرعةٍ رَعاعًا متعَطِّشين إلى مُخدِّرِ العُنفِ والدَّم.

أمَّا المُباراةُ الكبيرةُ فكان موعدها نحوَ عصرِ النَّهار.

عصفَ الخوفِ في جوفِ أتريتس. اثنا عشرُ ثنائيًا من المحاربين... أكبرُ عددٍ من الرِّجالِ واجهُهُ في يومٍ واحد... كانوا هناك. فعليه اليومَ أن يقتل خمسة، واحدًا تلو الآخر، إذا كان له أن يبقى على قيدِ الحياة.

غير أنَّ أيًّا من الرِّجالِ الذين سيواجهُهُم لم يُقلِّقه كثيرًا كما أفلَّقه الانتظارُ الطويل. لقد كان ذلك هو عدوُّه الأسوأ، إذ في أثناء الساعاتِ السابقة للقتال كان كلُّ رجلٍ وكلُّ خوفٍ يَصطَلِّحُ في ذهنه، حتَّى يُخيَّلَ إليه أَنَّهُ سيُجَنِّ.

عَرَقَتْ راحتا يدي جوليا، واستصعبت أن تُركِّزَ على ما كان البروقفُصل يقول. فلم تُكن مَعنيَّةً بالسِّياسة ولا بالاقتصاد، بل كان كلُّ ما أمكنها التَّفكيرُ فيه هو أتريتس وحقيقة كونه

قد يموت اليوم. لم تكن قد رأته منذ خلافهما قبل أسبوع. وكانت قد أرادت أن تُرسلَ هدسة لإحضاره إليها، إلا أنها خشيت أن يكونَ غاضبًا بعدَ فيرفض ذلك. من ثمَّ تريتت، أمله أن يبعثَ إليها بخبر. فلما لم يفعل ذلك، ابتلعت كبرياءها وذهبت إلى الهيكَل، أمله أن تحظى برؤيته. غير أنه لم يأت.

حينَ دخل ساحة المحاربين لأجل الهميا، تسارعت دقات قلبها لدى رؤيته. وبعدما اصطفَ المحاربون أمامَ البروقنصل ونزلَ هو، انتظرت أن ينظرَ إليها. كانت قد قصت ساعات في تهية نفسها، وعلمت أنها بدت أجملَ منها في أية مرّة سابقة. غير أنها لم ترَ رأسه يميلُ باتجاهها مرّةً واحدة. وقد وقف ساكنًا، رافعًا رأسه، فيما تبختر الآخرون كالطواويس أمامَ الجمهور.

قالت كالاباه بازدراء: "انظري كيف يتجاهلك. بوجود هؤلاء الآخرين كلهم يصرخون إليه، لماذا ينبغي أن يقلق لكونه قد كسر قلبك؟"

لقد نادى رجالٌ ونساء "أتريتس! أتريتس!" طارحين عليه زهورًا ونقودًا.

أضربت الذكري مجددًا ألمها وغيرتها، وضغطت شفتيها إحداهما على الأخرى، مُعذبةً أفكارها من سُخرية كالاباه. وكان پريمس متكئًا في الجوار، مُمتمًا المحاربين الذين رأوهم بمهارة خبير. فقال: "سأراهن على الجرمانى". ثمَّ قذف حبة عنب أرجوانية إلى داخلِ فمه. وقال رجلٌ آخر: "خمسة مئة سسترس على الأفريقي!" مشيرًا إلى راحج طويل قوي المنظر.

"هه! لن يحظى أيُّ منهما بفرصة في مواجهة أسداريس. أيُّ نفع للسيف في مواجهة مركبة؟" هكذا قال شخصٌ آخر.

فالت جوليا مُرتعبة: "يقينًا أنهم لن يُنزلوا أسداريسًا مُقابل سامنيت".

وقال پريمس: "ليس في البداية، ولكن لا تنسى أن هذه مباراة تصفية. فإنهم سينزلون الذين يتبقون اثنين اثنين: لا كياريسًا ضد سامنيت، أندباتا ضد رتياريس، ثراقيا ضد مرمو. لقد رأيت أن لديهم بعضًا من كلِّ صنفٍ هنا لأجل الألعاب، الأفضل في كلِّ فئة. وذلك هو ما يجعل القتال مثيرًا. فالمدربون على مواجهة السيف قد يُرغمون بالأحرى على مواجهة رُمح. وهكذا، فإن المنتصر سيكون التكهّن به أقل".

خفق قلب جوليا بشدة، شاعرةً بخوفٍ مفاجئ على أتريتس. وتضرعت سرًا إلى الآلهة كي يُنجّوه. وقد حملت نفسها على الاسترخاء والاستمتاع بالنعشات والمحادثة. فإن پريمس كان مُسلّيًا إلى حدِّ ما، وبدا عاكفًا على تسلّيها.

باتت مُنزِعَةً من مُشاهدة اللّصين مُعلّقين على صليبيهما. ”لماذا لا يُطلقون الكلاب المتوحّشة عليهما ويُنهون هذا الأمر؟ هل يستغرق العرّض وقتًا طويلًا جدًّا؟“
فقال پريمس ضاحكًا: ”تعطّشُ بالغُ للدم! هيّا، جوليا. سنزِلُ بكِ إلى الأكشاك، وسنرى ما يستحوذُ على إعجابك“.

وإذ كانت جوليا مُتململةً ومُتوتّرةً من الانتظار، وافقت في الحال. ثمّ صعدت الدرّج ويدها على ذراعِ پريمس. ومرّ بقربيهما باعةُ جِوَالون يحملون صناديقَ مُحمّلةً فواكه ونقاقٍ وخبزًا وأزقاقَ خمر. ”دراق فارسيّ، ريّان وناضج!“ اختلطت مُناداتهم المُتقطّعة بهديرِ الرّعاع المدوّي. ”نقاقٌ كثيرةٌ التوابل. ثلاثُ بسسترسٍ واحد!“

كذلك ملّ مُتفرّجون آخرون من مُشاهدة رجّلين مُعلّقين على صليبين، فأخذوا يطوفون تحت الأكشاك، طالبين الإثارة، فيما طافت جوليا- وپريمس بجانبها- على أكشاكِ المتجمّين والعرفّافين وباعةِ التذكّارات والطعام. وما لبثا أن وصلا إلى حُجراتٍ كانت تجري فيها تسليّات أكثرُ خِلاعةً وغيرُ معتادة. فإنّ صبيّانًا صغارًا مُلّونين، تنكّأتهم مرفوعةٌ ومُثبّنة فوق أردافهم، كانوا يجولون بين الرّبائث المُتسكّعين. وقد راقبهم پريمس باشمتراز، قائلاً: ”كان پروميشيوس مثل هؤلاء قبلما أنقذته“.

انزعجت جوليا عند ذكرِ مأبونِ پريمس، فلاذت بالصمت. وتوقّفت كي تُشاهد راقصاتٍ بربريّات يتمايلن على وقع الطبول والصنوج بضربٍ بدائيّ.

قال پريمس نصف سائلٍ: ”تكلّمت كالأباه معك بشأنِ عرّضي؟“

فقالّت جوليا بفتورٍ: ”نعم، وقد فكّرتُ فيه مليًّا“.

”هل اتّخذتِ قرارًا؟“

”سأقول لك عندما تنتهي الألعاب“.

قال سرتس: ”آن الأوان!“ واجتاحت موجةُ حارّة دمِ أترتيس، مُسرّعةً دقاتِ قلبه ومُسخّنةً بَشْرته. فأدخل ذراعَه اليمّنى في قفّازٍ مُحرّشف من جلدٍ ومعدين. وقال سرتس مُغتّمًا: ”كنتُ أفضلُ أن أبقى مالِكًا لك سنينَ قليلةً بعدُ على أن أخسرّك بهذا الشكل“.

فقال أترتيس: ”عسى أن يتسمّ الآلهةُ لي اليومَ فأفوزَ بحُرّيّتي!“ وأدخل ساقه اليسرى في واقٍ آخر (أكريّا).

”بالنسبة إلى المُحارب، الحرّيّةُ كلمةٌ أخرى تُعبّر عن المغموريّة“. وناول سرتس

أترتس ترسه البسيط (سكتكم).

فأدخل أترتس ذراعَه اليسرى في الحَمالة المَعْدِنِيَّة على قفا السكَّتم، ووقفَ مادًّا ذِراعِيه ومُباعِدًا ساقِيه، فيما فركَ عبدُ جِسْمِه المُجَرَّد بزيتِ الزيتون. ثُمَّ قال - مُحَدِّثًا ببرودةٍ في عيني سرتس - ”المغموريةُ مُفضَّلةٌ على العبوديةِ“.

قال سرتس: ”أه، ولكنْ ليس على الموت“. وناولَه غلاديوِسًا.

فأخذَه أترتس ورفَعَه عاليًا أمامَ وجهه في تحيةٍ احترام. ”في كلتا الحالتين، سرتس، سأغادرُ ساحةَ المحاربين اليومَ مُنتصِرًا“.

أُنزِلَ لاكياريُسُ راجِل، مُسلِّحًا بحبلِه، ضدَّ أسداريُس في مركبته. وأجرى الأسداريُسُ المركبةَ مائلةً، مُجاوِزًا اللاكياريُسَ بضعَ مرَّات. ومع أنَّه أخفقَ في دَفْعِ خَصْمِه إلى السُّقوط، فقد استطاعَ أن يتفادى من الحبلِ ذي الأنشوفة. ولكنْ في المرَّة الثامنة لَفَّ اللاكياريُسُ الأنشوفةَ حولَ الأسداريُس، ثُمَّ ثَبَّتَ قَدَمِيه وقذَفَ الرَّجُلَ فورًا عن متنِ مركبته المُسرِّعة. فارتطمَ الأسداريُسُ بالأرض وانكسرت رَقَبَتُه، دافعًا الرَّعاعَ إلى إطلاقِ صَيِّحاتِ الخيبةِ والاستهجان. ومن دونِ سائقِ المركبة، ظلَّ الحصانان يركضان والمركبة تدور حول ساحة المحاربين مرَّةً بعد مرَّة.

وأرسلَ بضعةَ عبيدٍ للإمساك بالفحلين وتهديتهما، فيما أقبلَ رجلٌ يرتدي تنكًا ضيقًا، وجزمةَ جلدِيَّةَ عاليةَ الساق، راقصًا على الرَّمَل. كان يُمثِّلُ شارن، النُوتِي الذي يُقَلُّ نفوسَ الموتى إلى الحادِس (متوى الأموات) عبْرَ الأسطُقس (نهر الجحيم الرئيسي). وبينما هو يقتربُ من الضحيَّة، أخذَ يُدوِّرُ وَيَتَّبِعُ على الرَّمَل، حاملاً بإحدى يَدِيه مدقَّةَ خشبيَّة. أمَّا القناعُ ذو المنقار على وجهه فكان يُمثِّلُ طيرًا جارِحًا. وقد ظهرَ رجلٌ آخرُ يرتدي زيَّ هرِمِس (دليل آخر لنفوس الموتى) مُلوِّحًا بصولجانٍ مُتوهِّجٍ بالحرارة نَحَسَ به الأسداريُسُ الصَّريع. ولما تلوَّى الجِسْمُ المأ، قفزَ شارن نحوَه وأهوى بالمطرقة الحربيَّة على رأسِ الرَّجُل، راشًا لطنخةَ قِرْمِيَّةَ على الرَّمَل ومُطمئنًا حادِسَ بالإطباق على فريسته. ثُمَّ حملَ الدَّلِيلان (اللَّبْتاريي) الجُثَّةَ عبْرَ بَوابَةِ الموتى.

إذ ذاك سرى صوتٌ كثيبٌ كموجةٍ وسطَ آلاف المشاهدين. فقد دمدموا لانتهاه المِباراة بسرعةٍ فائقة، إذ شعروا بأنهم خُدِعوا. وأطلقَ بعضهم صَرَخاتِ الازدراء والاستهجان في وجه المنتصر. كما رشَّقه آخرون بالفواكه إذ رفعَ يَدَه تحيةً للبروقُفُصَل. وقد تلقَّى إشارةَ الانصراف، إلاَّ أنَّه لم يُغادرِ بسرعةٍ وافية، لأنَّ المشاهدين شرَّعوا يصيحون مُطالبين أن يتبارى مع الرَّامح الأفريقيِّ الطويلِ القائمة.

”لِنَرَ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَهُ حَابِلٌ فِي مُوَاجَهَةِ رَامِحٍ!“

وتجاوبًا مع نزوة الرّاع، رفع البروقنصل يده قليلًا لمنسّق الألعاب، فدخل الأفريقيّ الساحة قبلَ تمكّن اللّاكياريس من المغادرة. ودارًا أحدهما حول الآخر بضع دقائق، في أثنائها طرَح اللّاكياريس حبله بضع مرّات ولم يُصب. ثمّ طعنه الأفريقيّ بالرّمح، مُبقيًا على مسافة أمانٍ بينهما. وصاح الجمهور غاضبين، إذ كانتِ الأمور تجري ببطءٍ فائق. ولدى سماع استياء المُتفرّجين وفهمه على أنّه تهديد، طرَح اللّاكياريس حبله من جديد فأصاب الرّامح في صدره. فأمسك الأفريقيّ الحبلَ بسرّعة، ولفّ طرفه حول ذراعه، ثمّ رمى رُمحه فأقحمه مُباشرةً في بطن خصمه. وخرّ اللّاكياريس على رُكبتيه، مُنحنيًا على الرّمح. وإذ طرَح الأفريقيّ الحبلَ جانبًا، تقدّم نحو الحابلَ بخطى واسعةٍ كي يُجهزَ عليه عندما يُعطى إشارةً تخفّض الأباهم (بولس فيرسو).

التفت البروقنصل حوَاليه، فرأى أيّما نظرَ أباهم تُخفّض. فمدّ يده وخفّض إبهامه أيضًا. فانتزع الرامح رُمحه من بطن اللّاكياريس، وطمع به قلبه.

قال سرّيس لأترتيس من حيثُ كان يُشاهد: ”إنهم لا يحصلون على ما يُريدون. أصح إليهم. إن استمرتِ الحال على هذا المنوال، فإنهم سيُريدون أن يُطرَح البروقنصل للكّلاب!“ ثمّ انتصر الرّامح على الرّجل السّمكة (مرملو)، ولكنّه سقط أمام قوس الساجيتاريس وسهامه. وقاتل الساجيتاريس جيّدًا أندباتا يمتطي جوادًا، غيرَ أنّه فقدَ رُسوخَ قدميه لما جرح الفارس، وسقط تحت حوافر الحصان الحربيّ الساحقة. ثمّ أجلي شارن كليهما سريعًا، وأطلق الرّاع أصوات الاستحسان الهادرة.

وما إن صاح أحدهم مخاطبًا البروقنصل: ”أنزلهم جميعًا في وقتٍ واحد!“ حتّى التفت آخرون الصّيحة إلى أن عدت أغنيةً رتيبةً مُكرّرة. ”جميعًا في وقتٍ واحد! جميعًا في وقتٍ واحد!“

واستجابةً لهذه النّزوة، شكّل المحاربون الثمانية عشر في ثنائيات وأنزلوا إلى ساحة المحاربين. فانتشروا ورفعوا أسلحتهم للبروقنصل. إذ ذاك هاجّ المشاهدون وماجوا، هاتفين بأسماء أبطالهم المُفضّلين.

أنزل أترتيس مُقابلَ ثراقيّ داكنِ البشرة، أسود العينين، مُسلّح بسيفٍ أحَدب. وإذ كَشَرَ الثراقيّ بغطرسة، لوّح بسيفه دائريًا في لُعبة سيفٍ مسرحيّة. وبعدها أدار سيفه مرارًا من أحد جانبي جسمه إلى الآخر، وفوق رأسه، وقف مُباعِدًا ما بين قدميه.

وفيما أتريتس واقفٌ في وضعةٍ استرخاءٍ خادعة، بصقَ على الرَّمَلِ .

ضحكَ الجمهور. واستشاط الثراقي عَيْظًا، فبادرَ إلى الهجوم. وتفادى أتريتس من ضربةِ الأحَدبِ القاتلة، ثمَّ صدمَ خصمهَ بترسه (السكِّم)، وأهوى بمقبضِ غلاديوسه بمحاذاةِ جبين الرجل، ثمَّ غرزَه في دِرْعِ الثراقي الصُدريَّة. وما إن تَرَ الغلاديوِسَ مُحْرَّرًا إيَّاه، حتَّى تركَ الرجلُ، القَتيلَ فعلاً، يَهوي إلى الورا.

وإذ التفتَ أتريتس، رأى رِيتاريُسًا يستخدمُ رُمحهَ الثلاثيَّ الشَّعبَ كي يطعنَ سَكبوتُّرا صريعًا، وقد وفَّرت لهذا خُوذتُه المُحرشفةَ حمايةً قليلة. فتوجَّهَ أتريتس بخطى واسعة نحو المنتصرِ تَعَمُّدًا، مُنتبِهاً إلى صَوْتِ أنصارِه المُتعاظِمِ. فحرَّرَ الرِيتاريُسُ رُمحهَ الثلاثيَّ الشَّعبَ تَبْرًا، وحاولَ استعادةَ شَبَكتهِ المُشربكةِ قبل أن يصلَ أتريتس إليه.

وهاجمَه أتريتس، فاستطاع أن يصدَّ ضربتهِ الأولى والثانية. غير أنَّ خصمَ أتريتس، من دونِ شَبَكتهِ، كان يملكُ الرُمحَ الثلاثيَّ الشَّعبَ فقط يُدافعُ به عن نفسه؛ وسنوات الجِرمانيِّ التي طواها في استِخدامِ فراميا ببراعةٍ أتنه الأفضليَّة. فيقوَّة وحشيَّة، أنهالَ على الرِيتاريُسِ بالسكِّمِ والغلاديوِسِ حتَّى لا حَتَّ له ثغرة، فاغتنمها.

صاحَ الجمهورُ بصَحَبِ جامح، وكان وَقَعُ اسمِ أتريتس أشبهَ بضربِ طبل. غير أنَّ الصَّيحةَ التي ضجَّ بها ذَهْنُ أتريتس كانت: ”حُرِّيَّة... حُرِّيَّة... حُرِّيَّة!“

قبلَ سقوطِ الرِيتاريُسِ، انفجرَ ألمُ مُحرقٍ في جَنبِ أتريتس، إذ طاشت عن قَفصهِ الصُدريِّ طعنةٌ خنجرٍ من يدِ ديماتشيرُس. فتعثَّرَ مُتراجعًا وصدَّ طعنةً أماميَّةَ بترسه. وإذ استعادَ توازنَه، أطلقَ صرخةَ ألمٍ وغيظ. لَنَ يسمَحَ لأيِّ طاعِنٍ في الظَّهرِ، صغيرٍ حقيرٍ، بأن ينتزعَ مِنْهُ هذه الفرصة! فرجَّحَ غلاديوِسَه بكلِّ قُوَّتِه ولَوَى تُرسَ الدِّيماتشيرُسِ نصفين، مُسقطًا إيَّاه على رُكبتيه. وإذ طرحَ الرجلُ السكِّمَ الذي باتَ عديمَ النفع، هبَّ واقفًا على قدميه وفرَّ هاربًا، وهو عالمٌ أنَّ خنجره لا يُمكن أن يُباريَ غلاديوِسًا. ولا يهاجَ الجمهور، ركضَ أتريتس ورائه. وبينما هو راكض، انحنى والتقطَ برشاقةٍ شَبَكَةَ الرِيتاريُسِ المطروحةَ أرضًا، وخطا خطوةً وثبَّ، ثمَّ قذفَ الشَبَكَةَ بالمهارة التي تعلَّمها في استعمالِ الفراميا.

هاجَ الرَّعاعُ وماجوا لما أصابتَ الشَبَكَةُ هدفها. فوقفَ الرُّجالُ وقَرَعوا قرعًا عنيفًا ومُتكرِّرًا على الذين أمامهم، وصاحتِ النِّساءُ بحماسةٍ مسعورة. وأغميَ على بعضِ المشاهدين إذ طغنتَ عليهم الإثارة، فيما مزَّقَ آخرون ثيابهم وتنفوا شعورهم وراحوا يَتَّبِونَ قِيامًا وقعودًا. حتَّى الأرضُ اهتزَّت تحت المَدْرَجِ.

”أتريتس! أتريتس! أتريتس!“

التَقَطَ أتريتس تعطشهم للدماء، وجعل هذا التعطش يملك. فصدَمَ بقوةٍ مِرْمَلُوا وَحَمَلَ على سامنيث. وأطلقَ عِنَانٌ غَضَبه على روما، تَارِكًا الحِقْدَ يَصُخُّ في أوصاله، باعِثًا بالقُوَّة التي يحتاجُ إليها جائِثَةً في أنحاءِ جِسمه الجريح. وإذ انتزعَ السكَنَمَ من ذِرَاعِ خَصَمِهِ، فَرَزَه وأخرجَ أحشاهُ كما لو كان سَمَكَة.

ثُمَّ دَارَ باحثًا عن أيِّ شخصٍ يقفُ حائلاً بينه وبين حرَّيته. وكان آلافُ المتفرِّجين قد هبُّوا على أقدامهم، ملوِّحينَ بِرِايَاتٍ بيضاءَ ومُنشدينَ نَعْمًا متواترًا. وقد مرَّت لحظةٌ قبل أن يَصُفُّو ذَهْنَ أتريتس ويُدركُ ما كان الجمهور يهتفون به بأعلى أصواتهم: ”أتريتس! أتريتس! أتريتس!“

لقد كان هو آخِرَ رَجُلٍ بقي واقفاً على قدميه.

ارتجفتُ جوليا بشدَّة إذ مشى أتريتس نحو بَوابَةٍ تفتَحُ إلى دَرَجٍ سيصعدُ عليه إلى المِنصَّة، حيثُ كان البروقُنصُلُ بانتظارِ مكافأةِ المنتصر. وقد تنازَعَهَا الابتهاجُ والخوف. إذ كانت تُجِبُه وتفخرُ بانتصاره، ولكنها عَلِمَت أَنَّ حُرِّيته التي فاز بها توًّا ستعرضُ حُرِّيَتها هي للخطر.

وفيما أتريتس يمشي نحو الدَّرَج، تعثَّرَ وسقطَ على رُكبةٍ واحدة. فشهِقَ الجمهورُ وخيَّم عليهم الصَّمَت، غيرَ أَنَّهُ استَخدمَ غلاديوِسَه وحملَ نفسَه على النهوض من جديد. وهتَفَ له الجمهورُ بصخبٍ جامحٍ لما بلغَ البَوابَةَ المُفضية إلى مِنصَّةِ المنتصر، حيثُ فتحَهَا له جُنديٌّ وتراجعَ احتِرامًا لدى صُعوده الدَّرَجَ الحجري. كان البروقُنصُلُ يَنتظرُ، وعلى ذِرَاعِيهِ إكليلُ انتصارٍ من الغار، وقِلادةٌ عاجيةٌ، وسيفٌ خَسبيّ.

لَمْ تَكُدْ جوليا تسمعُ ما قاله البروقُنصُلُ وهو يضعُ إكليلَ الغار على رأسِ أتريتس. ثُمَّ طَوَّقَتِ ابنةَ البروقُنصُلِ عُنُقَ أتريتس بِقِلادةِ العاجِ الصغيرةِ المُستطيلةِ التي تُعلنُ حُرِّيته. واجتاحتِ الغيرةُ جوليا كطوفانٍ حارٍّ إذ جذبتِ الفتاةُ رأسَ أتريتس نَزولًا لِتَطْبِعَ على فمِه قِبلةً لاهية. وقد صاحتِ النساءُ حولها بانتشاء، فأرادتُ جوليا أن تضغَطَ بِيديها على أذُنِها وتُشِيخَ وجهها. ثُمَّ ناولَ سَرَتِسُ أتريتسَ السيفَ الخسبي، مُعلِنًا تقاعدهُ الظافرَ من القتالِ في ساحةِ المحاربين، ووضَعَ جُنديَّانِ صُنْدُوقَ سَسترساتٍ عندَ قدمي أتريتس.

رفعَ البروقُنصُلُ يده للجموعِ الهاتفة. وفي غضونِ لحظةٍ واحدة، خيَّم الهدوءُ على المدرِّج. فامتدَّتْ آلافُ الأَعناقِ لِيَسْمَعُوا المُكافأةَ التي سَتُعطى للمنتصرِ الظافرِ تالِيًا.

قال البروقُنصُلُ بصوتٍ عالٍ: ”لَدِينَا شَرَفٌ واحدٌ آخِرٌ نُسَبِّغُه على محبوبنا أتريتس لِقَاءَ انتصاره اليوم!“ ثُمَّ دَارَ بِطريقةٍ مسرحيةٍ وتناولَ دَرَجًا من يدِ سَرَتِس. ونادى: ”إني

أَمْنَحُ هذا بأمرٍ من الإمبراطور فسبازيان! “ ومدَّ يده بالدرج إلى أترتيس، فتسلَّمه بشكلٍ آليٍّ. ثمَّ وضعَ البروقنصلُ يده على كَيْفِ أترتيس، وبرَمَه كي يُوَاجِهَ آلافَ المتفرِّجين، مُعلِنًا: ”بموجبِ هذه الوثيقة، جُعِلَ أترتيس مواطنًا رومانيًا ومُدافعًا عن روما“.

تصلَّبَ أترتيس لحظةً، وقد غدا وجهه مشحوبًا ومشدودًا بمشاعرٍ عنيفة. ورأت جوليا قبضته تتكوَّرُ لدى تلاوةِ الإعلان.

فقالت كالاباه: ”انظري كيف يكره روما!“ وقد مالت مُقتربةً من جوليا فيما الرِّعاع يهتفون له تبجيلًا. ”كان من شأنه أن يرمي الوثيقة على التراب لو لم تُعطِه كلُّ ما أراد“. وامتزجت كلمات كالاباه بصرخات الرِّعاع إذ شرعوا يهتفون باسمه مرارًا وتكرارًا. ”إنه يقومُ مساويًا لأبيك وأخيك الآن“.

أدارَ أترتيس رأسه، باحِثًا عن جوليا بين ضيوف البروقنصل. ونظرَ مباشرةً في عينيها، وعيناهُ تتأججان بالوعد، ثمَّ جعلَ دقائقَ قلبها تتسارع. وعلى مدى لحظةٍ واحدةٍ مرَّوغة، حسبت أنه ينوي أن يطلبها عندئذٍ وهناك تمامًا. إنَّما بدلًا من ذلك، واكبته سرتس وبضعة حُرَّاسٍ رومانيين فيما هبَّط الدرَّج وعَبَّرَ ساحة المحاربين إلى باب الحياة الذي وراءه ستعالجُ جراحه.

ساعدَ پريمس جوليا على الوقوف. وقال بابتسامةٍ عليمة: ”إنكِ ترجفين. ولكنَّ يُخيَّلُ إليَّ بعدُ أن كلَّ امرأةٍ في هذا المدرِّج ترجفُ لدى رؤيته. إنَّه رائع!“ فقالت- مُتذكِّرةً نظرة عينيه- ”نعم، هو كذلك“. أما وقد بات يمتلك حرَّيته الآن، أي شيءٍ يمكنُ أن يمنعه من محاولةٍ جعلها عبْدته؟ وإذا بحلقها يجفُّ.

رفَعها پريمس بسهولة إلى داخل الهودج المظلل، حتَّى يحمِلها عاليًا سيَّته من عبده. وقبل أن يُسدلَ الستائر، أمالَ رأسه وابتسم لها ابتسامَةً فاترة، لكنَّ فاتنة. ”إذًا، ماذا قرَّرت؟“ انقبضت مَعْدَةُ جوليا حتَّى ألتها. ولمَّا تكلمت، كان صوتها مُفْلطحًا. ”سأوقِّع الاتفاقيةَ هذا المساء، وأطلبُ نقلَ أشيائي إلى دارتك صباحَ غد“.

فهتفت كالاباه من وراء پريمس- وعيناها تَبْرُقان- ”كم كُنْتِ حكيمةً في هذا، يا جوليا!“ وأمسك پريمس يدَ جوليا، وقبلها.

ولمَّا أسدلَ پريمس الستائر، انكأَت جوليا إلى الوراء، وأغمضت عينيها، مُتسائلةً عن السبب الذي جعلها تشعرُ فجأةً شعورًا غايةً في الأسى والشقاء.

٣٣

انفجر إعلان جوليا بأنها ستُغادرُ المنزل وتنتقل للإقامة عند برئيس انفجارَ البُرْكان في منزل آل فاليريان. فاستشاطَ مَرُقْسُ غَيْظًا، وفزعت فيبي.

قالت أمها- مُجاهدةً للحِفاظِ على ضَبِطِ عواطفها- ”لا يمكن أن تفعلِي هذا، يا جوليا. ماذا يسعني أن أقول لأبيكِ؟“

أجابت جوليا: ”لا تقولي له شيئًا إن كُنْتِ تَحْشَيْنَ أن يُثِيرَ الأمرُ استياءه“. وقد سَدَّتْ أذنيها حِيالَ تَوَسُّلِ أمها واستسلمت لعواطفها.

وضحك مَرُقْسُ ضِحْكَةً ساخرة: ”أن يُثِيرَ استياءه؟ ولماذا يثورُ استيائه إذا تبيَّن له أنَّ ابنته ستنتقل للإقامة عندَ رجلٍ مثلي؟“

فالتفتت إليه غاضبةً: ”هذه حياتي، وسأفعل ما أشاء. سأنتقل إلى منزلِ برئيس، وليس من شيءٍ تستطيع أن تفعله بهذا الشأن! ما دام برئيس مَقِيمًا جدًّا، فلماذا دَعَوْتَهُ إلى ولائِمِك؟“

”لأنَّها ذرائعُ سياسيَّةٌ.“

قالت: ”بعبارةٍ أخرى، أنت تستغلُّه رُغمَ كونك تَكرهُه بازديراء.“

”كما سيستغلُّك إذا تورَّطتِ في هذه التمثيلية المضحكة التي تدعين أنَّها ستكونُ زواجًا.“

فقالت باستعلاء: ”أؤكد لك أنَّ الزَّواجَ سيكونُ مُفيدًا على نحوٍ مُتبادل. أريدُ حسابًا كاملاً بما أملكُه قبلَ نهايةِ الأسبوع، يا مَرُقْسُ، ومُنذئذٍ فصاعدًا سأتولَّى شؤوني المَالِيَّةَ بنفسِي. ولا داعيَ لأنَ تنظُرَ إليَّ بهذه الطريقة! سيبقى مالي ملكي. ولا يُمكنُ أن يمسَّه برئيس“. ثمَّ رمقت وجهَ أمها المصعوقِ بنظرةٍ وجيزة. ”إن كان أيُّ شيءٍ من هذا لا يُعجِبُكِ، يا أمِّي، فأنا أسِفة، ولكن ينبغي أن أفعلَ ما يجعلُنِي سعيدة.“

ثمَّ مضتْ إلى غُرفتها، ومَرُقْسُ في أعقابها. ”ستضعين يدك على ما تملكين في غضون سنةٍ واحدة. مَنْ وضعَ هذه الفِكرةَ الحمقاء في رأسِك؟ كالاباه؟“

فحملت جوليا إليه، قائلةً: ”كالاباه لا تُفكِّرُ عني. أنا أفكِّرُ لِنفسي. لستُ تلكَ

الغبيّة التي تحسبني إياها“. ثمّ أمرت أحد الخدم بإحضار عربة ريثما يُخرج الآخرون صناديقها ليحملوها.

”ما حسبتك يوماً غبيّة، يا جوليا. ليس حتّى الآن.“

تترت جوليا ذقنها عاليًا، وعيناها الداكنتان تتأججان. وقالت بغیظٍ يصحبه ارتعاد: ”صندوق جواهري، هدسة. سنغادر الآن.“

فقال مرقس، وقد فقد السيطرة على طبعه: ”أه، لا! لن تُغادرِ هدسة هذا المكان قبل موافقتي.“

فسألت جوليا برقة فاترة: ”وما هدسة تمامًا بالنسبة إليك؟ إنها عبدتي أنا، ولو بدا أنك تريدُها لنفسك.“

وقالت فيبي من مدخل الباب: ”لا تكوني سخيفة!“

”أنا سخيفة، يا أمي؟“ واضطربت عينا جوليا إذ نقلت نظرها بين أخيها وهدسة. ”خذي الصندوق إلى الأسفل، هدسة، الآن! وانتظريني قرب الهودج.“

فقال هدسة بلطفٍ بالغ: ”نعم، سيديتي!“ وامتثلت.

وأدار مرقس جوليا بقوة كي تواجهه، مُبقيًا إياها كذلك. ”لقد تغيرت!“

فألت جوليا موافقةً: ”نعم، لقد تغيرت. لقد كبرتُ واكتسبتُ عقلًا خاصًا بي. لقد انفتحت عينا، يا مرقس، انفتحتا واسعتين. ألم تُشجعني دائمًا على أن أكون هكذا؟ ألم تكن أنت من عرفني جميع الأشياء الحسنى التي يمكن أن يقدمها العالم؟ ألم تكن أنت من قال لي أن أحترس من الأشخاص الذين قد يغدرون بي؟ حسنًا، أخي العزيز، لقد تعلمتُ دروسي جيدًا. والآن أبعد يدك عني!“

فأفلتها مرقس متجهّمًا، وراقبها تخرج من الباب.

وقالت فيبي، لاحقةً بها: ”جوليا، رجاء، فكّري في ما أنتِ فاعلة! إذا ارتبطت بزواج كهذا، فسوّصمين.“

فألت جوليا ضاحكةً: ”أوصم؟ أمي، إنك محبوسة خلف أسوار الوالد منذ زمن طويل، بحيث لا تعرفين شيئًا من أحوال العالم. سأعد امرأةً مُستقلة الموارد الماليّة، امرأة ذات ممتلكات. وهل تعرفين لماذا؟ لأنني لن أضطرّ لأن أزحف إلى أبي أو أخي مُستجديّة مالي الخاص. لن أضطرّ إلى تقديم حساب لأي شخص عن أي شيءٍ أختار أن أفعله.“

قالت فيبي برقة: ”هل تكرهينني كرها شديداً، يا جوليا؟“
 ”لست أكرهكِ، يا أمي. إنما لا أريد أن أكون مثلكِ فحسب.“
 ”ولكنكِ، يا جوليا، لا تحبين هذا الرجل.“

فقالت بمرارة: ”لم أحبّ كلادويوس أيضاً، أليس كذلك؟ غير أنني لم أكفّ والدي ولا إياكِ عن إرغامي على التزوّج به. من المحتمل أنه لا يُمكنكِ أن تفهمي، أمّاه. فما تزالين تفعلين تماماً ما هو متوقّع منك طيلة حياتكِ!“
 ”إذا اشرحي لي. أفهميني.“

”الأمرُ غايةً في البساطة. لن أكون عبدةً لأيّ رجل، سواءً أباً كان أم أختاً أم زوجاً. لن يُملّيَ برئيسٍ عليّ حياتي مثلما أملى أبي عليكِ حياتكِ كلَّ حين. فأنا مسؤولةٌ نتجاة نفسي فقط.“ ثمّ لثمت خدّاً أمّها الشاحب. ”وداعاً، أمي.“ وإذ قالت هذا، غادرت فيبي واقفةً في الرّواق.

رحّبَ برئيسٍ بجوليا بقبلةٍ مُحْتَشِمَةٍ على خدّها. وقال: ”فقط عبدةٌ صغيرةٌ واحدةٌ وصندوقٌ جواهر؟ كان الأمرُ سيّئاً، أليس كذلك؟ لقد وجدتُ مرقس مُتَعْصِباً في أمورٍ مُعيّنة. فهو لم يسمع لي قطُّ بأنّ أصطحبَ بروميثيوس إلى واحدةٍ من ولائمه. ويُخيلُ إليّ أنّه حاولَ تَنكِحَ عن الانتقال للإقامة عندي.“
 ”حسبُ أنّه سيفهم.“

”عزيزتي جوليا، إنّ أخاك ليس الرجلَ الذي يبدو ما هو عليه. فوراءَ ذلك القناع الأبيقوريّ الذي يرتديه، ينبضُ قلبُ رجلٍ مُتمسِكٍ بالتقاليد.“ ورَبّت يدها مُهدّئاً. ”أمهلي أباكِ وأمّكِ وقتاً، فيتقبّلا الأمور.“ ثمّ ابتسمَ ابتسامَةً واهية. ”ماذا في وسعهما أن يفعلا سوى ذلك إذا أرادا فعلاً أن يريا ابنتهما الجميلة ثانية؟“

في تلك اللّحظة عينها دخلَ العُرفةَ غلامٌ لم يتخطَّ الرابعةَ عشرةَ من عُمره. فقال برئيس: ”أه!“ ماذا يده. فأمسك الفتى يدَ برئيس، سامحاً له بأن يجرّه إلى الأمام ويُعرّفه إلى جوليا. قال برئيس: ”هذا محبوبِي بروميثيوس!“ وراقبَ بفخرٍ انحناءَ الفتى أمامَ جوليا باحترام. ثمّ قال مُبتسماً للغلام: ”سأنضمُّ إليك عاجلاً.“ فانحنى هذا ثانيةً وانصرف.

شعرت جوليا بإحساسٍ بغيضٍ ينعقد في أسفل معدتها، وعلقت بتأدب: ”إنه وسيّم فعلاً.“

فقال پريمس مسرورًا: ”نعم، هو كذلك حقًا“.

وأرغمت جوليا نفسها على الابتسام، قائلة: ”إذا سمحت، أود أن يريني أحدهم مهجعي. ستصلُ أشياءي عاجلاً“.

”من دون ريب. سأدلكِ على الطريق“. ثم رافقها عبر الممر المُنقَطِر إلى البهو ذي الأعمدة المغمور بأشعة الشمس، ثم على الدُرج الرُحامي المُفضي إلى الطُبة الثانية، حيث كانت عُرفُها مُلاصِقةً لِعُرْفته.

وما إن انصرفت، حتى تهالكت جوليا على الأريكة. وقالت لهدسة: ”ضعي صندوق جواهري هناك“، مُشيئةً إلى منضدة صغيرة بقربها. فحطت هدسة الصندوق بانتباه. وفتحت جوليا الغطاء، ثم دسَّت يدها في الحلى والقلائد. ”أول شيء سأفعله بعد وضع يدي على مالي هو شراء أشياء بدل تلك التي اضطرتُّ إلى إعطائها لسرتس“. ثم أُلْبِقت الغطاء بضربة عنيفة.

بعدئذ قامت وأخذت تذرُعُ الغرفة. ”إن بروميثيوس يُشبه تمامًا أولئك الصبية الذين يركبون مع بأخس“. وإذ تلمست السجادة الجدارية، تذكَّرت الاحتفالات الصاخبة في روما، حين كان رجلٌ سكران يعبرُ شوارع المدينة راكبًا في عربة مُزيَّنة بالزهور يجرها نمر.

”سيديتي، أوائقة أنتِ بأنكِ ترغين في الإقامة هنا؟“

أفلتت جوليا المُطرزة البابلية، وبرمت لتواجه هدسة، قائلة برقةٍ خَطرة: ”إِذَا، أنتِ أيضًا غيرُ موافقة“.

أقبلت هدسة إليها، وإذ جثت أمسكت يدها. ”سيديتي، أنتِ مُغرمة بأترتس!“

فسحبت جوليا يدها نثرًا، ووقفت. ”نعم، أنا أحبُّ أترتس. وانتقالي للإقامة مع پريمس لا يُغيِّر ذلك. لپريمس الحرِّيَّة في أن يعيش كيفما شاء، وكذلك لي أنا“.

ووقفت هدسة خافضةً عينها، قائلة برقةٍ: ”نعم، سيديتي“.

دفعت جوليا شكوكها بعيدًا، مُركزةً ذهنها على الأمور الماديَّة. ”هذه عُرفة جميلة، لكن صغيرة جدًا. ولا تروقني الجدارياتُ الزاخرة بهؤلاء الصبية الصغار كلَّهم. حالما يُحرر مرقس مالي، سأستري دائرةً أخرى، أكبر من هذه، كبيرة بحيثُ تتسع لي ولأترتس. وفي وسع پريمس أن يحوزَ طابقه الخاص“.

ثم خرجت إلى سطحٍ ضيقة، والتفتت إلى قلب المدينة. لقد أرادت أن عملاً رثيها بهواءٍ

نقي. وكان في وسعها أن ترى الهيكل بعيداً، فتساءلت عن أترتيس أيقدم قرابين إلى الإلاهة عن انتصاره في ساحة المحاربين. وشعرت بحرقه في عينيها. ليت الأمور بقيت على حالها! ليت سرتس لم يُشرك أترتيس في مباراة التصفية!

وصل الخدم بالأشياء، وتولت هدسة إفراغ المحتويات. فأمرت جوليا: "أتركي ذلك على سايل. أريد أن أكلّمك". فخرجت هدسة إليها على السطحة. "أريد منك أن تعثري على أترتيس وتقولي له إنني دبّرت مكان إقامة دائماً، حيث يمكننا أن نختلي معاً كلما شئنا. لا تقولي له أي شيء عن بريوس. هل سمعتني؟ يُحتمل ألا يفهم. ليس الآن. فهو ما زال غير مُتمدّن كثيراً. الأفضل أن أشرح له كل شيء حين أراه. إننا قولي له إن عليه أن يأتي إليّ الآن. إنني مُحتاجة إليه".

أثقل الغم قلب هدسة. "أكون ما زال في اللؤوس، سيديتي؟"

"لست أدري. لكن اذهبي إلى هناك أولاً. وإن لم تجديه هناك، فسيكون في وسع سرتس أن يقول لك أين هو". ثم عادت إلى الداخل، وفتحت جوليا صندوق جواهرها. وأجرت يدها متجهمة على قلادة لآلي إجراء خفيفاً. ثم تحطتها إلى بروش ذهبي مرصع بالياقوت. وإذ قاست الحلية في يدها، انزمت فمها. كان البروش يروقها. فلماذا ينبغي لها أن تتخلى عنه؟ إن أترتيس بات حراً الآن. فلا ينبغي أن تُضطر إلى دفع أجرة لكي يؤتى به إليها. إن كلمة منها ينبغي أن تكون كافية لحملة على المجيء إليها بل حريته.

ثم أسقطت البروش في الصندوق من جديد، وأغلقت الغطاء بإحكام. "قولي لسرتس إنني بعثتك برسالة إلى أترتيس. فإما يقول لك أين أترتيس، وإما يعيش ليندم على عدم استجابته". ومشت مع هدسة إلى الباب، متكلمة بصوت خفيف حتى لا يسمعها الخدم الآخرون. "بلغني الرسالة تماماً كما حملتِك إليها. لا تذكرني أي شيء عن بريوس. هل تفهمين؟ سأخبرُ أنا أترتيس عن بريوس في ما بعد".

وإذ مضت هدسة لتنفيذ أمر سيديتها، تساءلت كيف أن جوليا- بعدما قضت مع أترتيس وقتاً طويلاً جداً- لم تستطع أن تعرف الرجل إطلاقاً.

بينما أترتيس ما يزال بعدُ ممدداً على الطاولة كي تُقَطَّب جراحه وتُملح، جيء إليه بعروض من رسميين رومانيين كبار يدعونه كي يحلّ ضيفاً في داراتهم. فقدم أترتيس قائلاً لسرتس: "أخرجهم من هنا!"

وقال سرتيس: "كما تشاء". لم يكن هو صاحب القرار في جعل أترتيس يُقاتل في مباراة التصفية؛ إذ إن البروفنصل طلب ذلك بعدما تلقى من الإمبراطور أمراً بإشراك الجرمانى الهمجى. وما كان في وسع سرتيس أن يرفض ذلك. ومع أن البروفنصل قد دفع لسرتيس من المال ما يكفي لتعويضه عن نفقات شراء أترتيس وإيوائه والاعتناء به، فقد رأى التاجر أرباح المستقبل تذهب أدراج الرياح. وفي كلتا الحالتين، سواء مات أترتيس أم تحرر، لا بُدَّ أن يخرج من تحت سيطرته.

غير أن سرتيس لم يكن غيباً. فقد كانت هنالك طرق أخرى لجني المال بواسطة أترتيس، لو ابتمت الآلهة للتاجر فحسب!

رجع أترتيس إلى اللودس، حيث نوى أن يقيم حتى يُقرر ماذا يفعل بحريته. وأعطاه سرتيس غرفة كبيرة، مُتصلة بغرفته، وعامله في دهاء بالاحترام الذي يليق بضيف مكرم. ومثلما توقع سرتيس، اجتمع حشد خارج بوابة اللودس الرئيسية في الصباح التالي. كان معظمهم من المعجبين (أموراثي) بانتظار إلقاء نظرة على أترتيس، ولكن آخرين كثيرين كانوا رجال أعمال جاءوا بمشاريع مريحة كي يدرسها أترتيس. فأدخل سرتيس هؤلاء إلى قاعة اجتماع كبيرة، ثم أعلم أترتيس بأن عنده ضيوفاً محترمين. وتجمهر الرجال مُصطحبين حول الجرمانى حالماً دخل، وازدادوا صخباً إذ حاول كل منهم أن يرفع صوته فوق أصوات الآخرين عند تقديم العروض. أما سرتيس فوقف جانباً وأخذ يُراقب.

أراد واحد من الرجال أن يرسم صورة أترتيس على زهريات وصوراني وحجارة كريمة منقوشة. وأراد بعض أن يبيعوه دارات. وأراد آخر له أن يصير مالكا لنصف فندق. وأراد آخر أيضاً أن يوقع أترتيس على مركباته. وقد جعل سرتيس الجلبة تتعاضم.

قال صانع المركبات في عرضه: "سأعطيك أفخر مركبة أصنعها، فضلاً عن جوادين من بلاد العرب لجرها!"

كانت لأترتيس سيماء أسدٍ مُحرج يهيم بالوثوب. والتفت إلى سرتيس كما لو كان يطلب منه سراً أن يفعل شيئاً ما. فأقسم سرتيس أن يُقرب مقدمة كبيرة إلى أرطيمس، ثم شق طريقه وسط الحشد، واتخذ له مقعداً بجانب أترتيس.

وقال سرتيس لصانع المركبات: "إن عرضك سخيف. أنت تعلم أي ربح ستجني بواسطة اسم أترتيس، ومع ذلك تُقدم عرضاً تافهاً كهذا؟"

فقال الرجل سريعاً: "سأزيد على عرضي ألف سسترس."

ورد سرتس بازدياء: ”عشرة آلاف، فيدوس الموضوع على وجه الاحتمال. نستميحك عذرا“. ثم صرف اتباه اترتس عن الرجل ومال مقتريا اليه، مكلما اياه بلطف. ”في وسعي ان اتولى هذه المفاوضات نيابة عنك، اذا احببت. لا سبب يدعوك الى البقاء هنا. ان لي خبرة في المعاملات التجارية، واعرف كيف احميهم على رفع قيمة عروضهم. ستكون اجرتي مقدارا زهيدا بنسبة خمسة وثلاثين في المئة مما تجنيه. وساقدم كل شيء اليك في سبيل القرار النهائي بالتاكيد. ساجعلك رجلا غنيا جدا“.

فشد اترتس بيد ثقيلة على ذراع سرتس، قائلا: ”اريد دارة خاصة امتلكها“.
 واما سرتس برأسه ايجابا. ”مهما اردت، فما عليك الا ان تقول لي، وانا ادبر الامر“.
 لقد نوى ان يستغل شهرة اترتس ما دامت قائمة.

ثم دخل خادم الغرفة، وشق طريقه الى سرتس. ”البرانية الصغيرة هنا، سيدي. وقد قالت انها تحمل رسالة الى اترتس“.

فقال اترتس امرا: ”خذني اليها!“ متجاهلا احتجاجات الرجال الذين ما يزالون ينتظرون منذ ساعات لكي يروه.

ورفع سرتس يديه. ”كفى! لدى اترتس امور اهم يقوم بها الان. اعدوا مقترحاتكم، وقدموا عروضكم الي. سابحث فيها مع اترتس على راحته، واطلعم على قراره. هذا كل ما في الامر!“ ثم اوما برأسه لواحد من الحراس الضخام، قائلا: ”اخرجهم من هنا. لدي لودس اديره“.

راى اترتس هدسة منتظرة تماما داخل بوابة اللودس المغلقة. فقال للخادم: ”اتركني!“
 ومشى على رمل المجمع نحوها.

طفع وجهها بشرا لما راته. فابتسمت وانحتت له انحناءة وطيئة، قائلة: ”حمدا لله على رحمته الوافرة. انت حيي وسالم!“

ابتسم لها من عل، متذكرا تلك الليلة في المدرج ووعدها بان تصلي لأجله. وملاة لطفها بشعور طيب لم يخالجه طوال سنين. اكانت صلواتها الى الهها هي ما ابقاه على قيد الحياة؟
 فقال: ”نعم، انا حيي وسالم. وانا ايضا حر. هل جيتني برسالة من جوليا؟“

وتغير سلوكها بتادب. فقد طأطأت عينيها عن عينيها فوراً، وبلغته الرسالة. فأصغى اترتس، وكل كلمة أضرمت كبرياءه. وما لبثت عصلة في حنكه ان تشنجت، ثم اشتغلت.

وقال ببرودة: ”يجب؟ قولي لسيدتك إن الأمر لن يكون بعدُ كسابقِ الحال. فأنا سأُرسلُ مُستدعيًا إيَّها عندما أكونُ مُستعدًّا“. ثم دارَ وتوجَّهَ راجعًا إلى الثُّكنة. تَبِعَتْه هَدْسَة على عَجَل، قائلة: ”أترتيس، رجاء! لا تحوّل عنها الآن.“

فحدّق إليها من علّ. ”ذكري سيدتك أنّي لم أعد عبدًا لأستدعي وفقًا لِهَواها ولأجلِ متعتها“.

ورنّت إليه مُتوسِّلة: ”إنها تحبُّك سيدي. ولا تقصدُ أيّة إساءة“.

”أه، ولكنّ سبيلَ الرومان هو توجيهُ الإساءة! وهي رومانية، أليست كذلك؟ فقد وُلِدَت وتربّت على الكبرياء والعجرفة“.

فوضعت هَدْسَة يدها برقي على ذراعه وابتسمت باغتمام. ”الكبرياء والعجرفة ليستا مقصورتين على الرومان، يا أترتيس“.

وعلى نحوٍ مُذهِل، تبخّر غضبه الضاري. ولأنّ فمه المنقبض في نصفِ ابتسامه فأطلقَ ضحكةً قارسة، قائلاً بتهكم: ”رُبّما ليستا“. لقد كانتِ امرأةٌ صغيرة غريبة ذات عَيْنين لا يُسَبَّرُ غَوْهُما، رقيقتين جدًّا بحيثُ كان لهُما تأثيرٌ بحِرِ رائق.

”كلّمها بلطف، يا أترتيس، فتفعلَ مهما طلبت“. وقد علمتْ هَدْسَة أنّ هذه كانتِ الحقيقة. فإنّ كَلِمَةً رقيقةً حنونًا من أترتيس تضمّنُ حتّى تحوّل جوليا عن الطريق الرهيب الذي كانت تسلكه الآن.

فقال بصراحة: ”لقد أقسمتُ إنّي لن ألبيّ استدعاءها إيّاي من جديد. وسأفي بهذا القَسَم“. ثمّ أوما برأسه نحو أسوار اللُودُس العالية، وقال: ”ولن أهيّنها أيضًا باستدعائها إلى هنا“. ونظرَ من علّ إلى هَدْسَة. ”قولي لسيدتك إنّي سأُرسلُ في طلبها حين يصيرُ لَدَيّ بيتٌ ويُمكنني أن أدخِلها إليه بصفتها زوجتي“. وإذ قال هذا، مشى مُبتعدًا بخطى واسعة.

ومضتْ هَدْسَة راجعةً بحُزن، غيرَ ناظرةٍ سوى المُساءة بانتظارهما كليهما.

لما رجعتْ هَدْسَة إلى دارةِ بريّس وحدها، سألتها جوليا: ”أين هو؟ أمّا قُلتِ له إنّي أردتُ رؤيته؟ لم تقولي، أليس كذلك؟ ماذا قُلتِ له؟“

”لقد بلّغته رسالتك، كما قُلتِ تمامًا“.

فصفتها جوليا. ”يا لك من يهوديّةٍ صغيرةٍ مُخادعة! لقد أخبرتِه عن بريّس، أليس كذلك؟“ ثمّ صفعتها ثانيةً صفعةً أقوى.

وارتدَّتْ هَدَسَةٌ عنها خائفةً، وقد وضعتْ يداً مُرتجفةً على خدَّها الواخِزِ. ”لم أخبره، سيديتي“.

”لو لم تقولي له شيئاً عن برعمس، لكانَ هنا الآن!“

”قال إنَّه سيُرسلُ في طلبِك حينَ يصيرُ لَدَيْهِ بيتٌ ويُمكنُه أن يُدخلِك إليه بصِفَتِك زوجته“.

إذ ذاك هدأت جوليا، مشحوباً وجهها. وحدقت إلى هدسة، ثم تهالكت على أريكتها، وباتت فجأةً غير قادرةٍ على الوقوف. فأغمضت عينيها. لقد كانت تعلم ماذا تتوقع، ولكن- بطريقة ما- سماعها ذلك مقولاً على نحوٍ غاية في الصراحة جعلها ضعيفةً في داخلها، ضعيفةً من الارتباك والتوق.

وجثت هدسة أمامها. ”رجاءً، أيتها السيدة جوليا، ارجعي إلى بيت أبيك وأمك وامكثي هناك إلى أن يُرسلَ أترتيس في طلبِك“.

أحست جوليا لحظةً من اللاتيقين. ولكن ما لبثت تحذيرات كالاباه أن مثلت في ذهنها، جليئةً ومنطقيةً. فمن شأن أترتيس أن يكونَ أسوأ من كلاوديوس وكايس مجموعين.

”لا“.

فتوسلت هدسة برقةً: ”رجاءً، لا تمكثي هنا“.

وانجلى الارتباك الوقتي الذي ارتسم على وجه جوليا. ”إذا رجعت الآن، أبدو كغبيبة. ولن يتغير شيء. فمرقس لن يوافق على علاقتي بأترتيس كما لا يوافق على هذه العلاقة ببرميس“. ثم ضحكت ضحكةً ضعيفة. ”حتى لو أعلنَ أترتيس مواطنًا رومانيًا، فهو ما يزال همجياً في الصميم. وربما لا يسمح لي مرقس بمجرد رؤيته“.

”إنَّ مرقس يُريدُ لك أن تكوني سائلةً وسعيدة“.

شالت جوليا بحاجبها إزاء الطريقة المألوفة التي بها تفوّهت هدسة باسم أخيها. فحدقت إليها من علّ لحظةً طويلةً ساكنة، فيما بدأت تطلعُ بزرة الغيرة العميقة، تلك التي زرعتها مرقس نفسه. وقالت ببرودة: ”أنت تريدان فقط أن تظلي قريبةً من أخي، أليس كذلك؟ إنك تماماً مثل بيثية والباقيات كلهن“. ثم نهضت ومشت مبتعدةً. ”لا، لن أسمع لك. سأبقى هنا تماماً. وما إن أكلّم أترتيس، حتى يفهم. إنني سأجعله يفهم“.

ستذكره كيف كان يكره عبوديته، وتساءله أذلك هو ما يتوقعه منها الآن. فالزوجة عبدة،

امرأة تحت رحمة زوجها. ولكن في وضعهما الحالي، كلاهما يتمتع بالحريّة. فلا شيء ينبغي أن يتغيّر بينهما، بل سيُكمّلان الطريق بأن يظلاً عاشقين كما كانا من قبل تمامًا. حتى إن الحال ستكون أحسن. فهي لن تُضطرّ إلى إعطاء سرتس مالا. وفي وسع أترتيس أن يأتي إليها كلما بعثت إليه برسالة. ولكن حتى لو لم يجد كلّ تسويغها المنطقي نفعًا، كانت تعلم أمرًا واحدًا من شأنه أن يدفع أترتيس إلى الامتثال.

ستُخبره بأمر الطفل الذي تحمله.

ذهبت هَدسة إلى يوحنا، وبكت على جوليا.

فأصغى إليها الرسول، ثم أمسك يديها بين يديه. ”لعلّ الله أسلم جوليا إلى شهوات قلبها حتى تتلقّى في شخصها عقاب أخطائها العادل.“

رأت إليه هَدسة، وخذّتها مبلّان بالدموع. ”لقد قضيت ساعات وأنا أرتل لها مزامير وأحكي لها قصص داود وجدعون ويونان وإيليا، وقصصًا كثيرة جدًا غيرها، ولكن لم أحك لها- ولا مرّة واحدة- القصّة العظمى. فعندما أكون مع جوليا، يجمد اسم يسوع في حنجرتي.“ ثمّ سحبت يديها من يديه وغطت وجهها.

وفهم يوحنا. ”نحن جميعًا نعاني الخوف في وقت ما.“

”غير أنّك لست خائفًا بعد. وأبي ما كان خائفًا قط.“ وتذكرت أباهة محمولاً إلى العليّة على ظهر بنايا، ووجهه الحبيب مضروبٌ بحيث تصعبُ معرفته. ومع ذلك ظلّ يخرج مُبشّرًا مرّة بعد مرّة بعد أخرى، حتى آخر يوم من حياته. إنهم يطرحون الجثث من فوق السور إلى وادي هنوم. هكذا قال مرقس أخوها يوم قتل. وفي ذهنها، كان في وسعها أن ترى أباهة مُمددًا هناك بين آلاف القتلى الذين طرّحوا من فوق سور الهيكل وتركوا يتحلّلون تحت شمس اليهوديّة.

وقال يوحنا: ”كما قلت لك، لقد خبرت الخوف جيّدًا. فلما جاءوا وأخذوا الربّ من بستان جثسيماني، مدّ جندي روماني يده ليُمسك بي، فهربت. وترك الجندي مُسكًا بقطعة قماش من كتان، كانت هي الإزار الوحيد الذي يستر جسمي، فيما قرّرتُ غريبانًا. وغامت عيناه العطوفان بظلال الخزي الذي تذكره.“ غير أنّ الخوف ليس من عند الربّ، يا هَدسة.“

”أعرف ذلك بعقلي، ولكن قلبي يرتعد رُغم ذلك.“

”اطرّحي حِمْلَكَ أَمَامَ الرَّبِّ يَسُوعَ“ .

”ولكنّ ماذا لو لم يكنْ حِمْلِي هو الخوفَ وحده. بلِ المحبّة أيضًا؟ لَدَيَّ محبّة لجوليا كما لو كانت أختي تمامًا“ .

طفحت عيناهُ حَنَانًا. ”نحنُ نزرعُ بالدموع لكي نحصدَ بالابتهاج. كوني خاضعةً لمشيئة الرَّبِّ. أحبِّي جوليا رُغمَ ما تفعله، عسى أن تُقبِلَ بواسطتكِ إلى معرفة نعمة السيّد المسيح ورحمته الفائقتين. كوني أمنيّة، عسى أن تتقدّسَ هي والآخرون“ .

”ولكنّ هل يتقدّسون إذا رفضوا أن يؤمنوا؟ ثمّ ماذا أفعلُ بشأن كالأباه“ .
”لا شيء“ .

”ولكنّها، يا يوحنا، تُمارِسُ سيطرةً مُتزايدةً على جوليا. فكأنّما جوليا تتحوّلُ إلى مُشابهتها. عليّ أن أفعلَ شيئًا ما“ .

فهزّ يوحنا رأسه نفيًا. ”لا، يا هُدسّة، إنّ مُحاربتنا ليست مع لحمٍ ودم، بل مع قُوّات الظلمة“ .

”لا أستطيعُ أن أحاربَ الشيطان، يا يوحنا. إنّ إيماني ليس قويًّا على نحوٍ كافٍ“ .
”أنتِ لا تُحارِبينه. قاومي الشرّ، وتقوّي في الرَّبِّ، يا هُدسّة، وفي شدّةِ قوّةِ الله. لقد زوّدكِ بسلاحٍ كاملٍ لخوضِ المعركة. إذ أعطاكِ حقّه وبرّه وإنجيلَ السلام. كما أنّ الإيمانَ هو ترسُّك، وكلمةُ الله هي سيفُك. فواظبي على الصلّاة بروحِ الله. ثمّ اصمّدي، حتّى يتقدّمَ الرَّبُّ أَمَامَكَ“ .

قالت برقة: ”سأحاول“ .

فتناولَ يوحنا يديها وأمسكها بإحكام، وقد اكتنفها حنائه وقوّته. ”إنّ الله لا يُخفِقُ في قصدهِ الصالح. فتوكلي عليه، وهو في حينه سيفتحُ فَمَكَ ويُعطيكِ الكَلِماتِ كي تنفّوْهي بها“ . ثمّ ابتسم، وقال: ”إنّك لستِ وحدكِ!“

بينما جوليا مُتكنةً على إحدى الأرائكِ في قاعةِ السفرة، انتفتت شيئًا من الأطايب التي أعدّها طبّاخُها الجديد. كان پريمس يحكي لها واحدةً أخرى من قصصه البذيئة، وقد دارت هذه المرّة على رسمي رومانيٍّ وزوجته الخائثة. وكانت جوليا قد تبيّنت سريعًا جدًّا أنّ لديها قابليّة نِهْمَةً لِقِصصِ پريمس، قابليّة ما زادته إلا استعدادًا لتليّبتها.

قالت: "عرفتُ بشأن مَنْ تتكلم، يا پريمس. بشأن فيتليوس. أنا على حق؟"

رفع كأسه تحيةً لها على ذكائها، مُبتسماً لپروميثيوس، وقد كان هذا مُتهالِكاً عليه. وقال متضاحِكًا: "أنتِ تعلمين أنني لا أفشي أبدًا سرًا استؤمنت عليه."

"يَمِكنِكَ أن تدعوه بأي اسم شئت، ولكنك تُحسِنُ تقليدَ شفّته جيّدًا، بحيث لا يُبقي ذلك لديّ أيّ شكّ على الإطلاق. إنّه فيتليوس، ليس غير. فيتليوس السمينُ المَغرورُ المُتأتئُ."

فقال پريمس ساخرًا: "لن يستأمنني أبدًا على سرّ آخر". ثمّ عبس مُنزِعِجًا إذ دخلت هَدَسَة القاعة حاملةً صينيّةً أخرى. فجمدَ پروميثيوس قليلًا، وابتعدَ عن پريمس فيما أطلقَ هذا شهقة سُخط. وقال أمرًا بحدّة: "ضعي الصّينيّة هناك، وغادرينا!" ثمّ التفتَ إلى جوليا. فأومأت برأسها، فخرجت هَدَسَة من الغرفة بصمت. وقال پريمس - مُحدِّقًا نحوَ مدخل الباب الختالي - "إنّها لا تروقني!"

فقالت جوليا: "ولِمَ لا؟" فيما انتقت من الطّبقِ لسانَ طائرِ طَنانٍ مُعسلاً.

"لأنّها كلّما دخلتِ الغُرفة جعلت پروميثيوس مُسَخَطًا. لماذا لا تبيعيها؟"

قالت جوليا: "لأنّها تسرّني. فهي تُغني وتُحكي قصصًا".

"سمعتُ بعضًا، ولم تُرقني أيضًا. في حال لم تسمعي، كالاباه أيضًا تكرهُ عبدتك كُرها في محلّه".

"لقد قالت لي ذلك". ثمّ أبدت نظرة نفاذ صبر، وارتشفت خمرتها. وقد علمت أنّها أخذت في الشكر، غير أنّها لم تُبال. فالشكرُ عندها أفضلُ من مُعاناة الاكتئاب. إذ لم تُكن قد سمعت أيّ خبرٍ من أترييس أو مرقس أو أمّها. فالجميعُ قد هَجروها. وما لبثت أن رأّت عيني پروميثيوس تترجرجان بعصبيّة نحو الممرّ المُقنطر، فشعرت برُضى خبيث. إذ ذاك دخلَ خادم، وقال: "سيّدتي، أخوك هنا يطلب أن يراك".

فجلست جوليا، مُريقة الخمرَ على پالسيها الأخضرِ الجديد. وحطّت الكأسَ الفِضيّة بسرعة، ثمّ وضعت يدها على رأسها المُصاب بالدوار. وضغطت بيدين باردتين وجهها الساخن، بعدما قالت: "أحضريه إليّ". ثمّ سألت پريمس: "هل أبدو في حالٍ جيّدة؟" "جميلةً مثل حوريّة بحريّة تطلّع من الرّبد".

ودخلَ مرقس الغُرفة، فبدا أنّه ملاًها بحضوره. لقد كان وسيماً جدًّا، حتّى إنّ جوليا

انتفخت فخراً عند رؤيته.

فقالت: ”مرقس! ثم مدت له يديها.

أمسك مرقس يديها وقبل خدها، قائلاً بحنان: ”أختي الصغيرة!“ ثم استقام والتفت إلى بريوس. ”أود أن أكلّم أختي على انفراد“.

رفع بريوس حاجبيه باستهزاء. ”لقد نسيت أين أنت، يا مرقس. فهذه دارتي، لا دارتك“.

قالت جوليا بنزق: ”انصرف، بريوس. لم أر أخي طيلة أسابيع“.

فقال بريوس - ملاحظاً وجه مرقس إذ أمسك بيد بروميثيوس - ”هيا، بروميثيوس! سنغادر هذين الاثنين حتى يتناقشا في خلافتهما“.

ولاحقه مرقس بحمليته. ”جوليا، لا أفهم كيف يُمكنك أن تجلسي وتظري كيف يتصرف مع ذاك الصبي!“

فردت مدافعة: ”لعلّي أكثر تسامحاً تجاه الآخرين. ومن أنت حتى تحكم على بريوس؟ لقد رأيتك غير مرّة مع بيثية“.

”ثمّة فرقٌ شاسع“.

”حقاً! إن بريوس مُخلصٌ لبروميثيوس أكثر مما كنت أنت يوماً لأريا أو فاينا أو عشرٍ سواهما أستطيع أن أسميهن“. ثمّ قعدت من جديد، وقالت بمرح: ”أضيف أنّي أجد بريوس حساساً إلى أقصى حد. لقد خاشتك لأنك جرحت مشاعره“. ومدت يدها إلى خمرتها من جديد، إذ شعرت باحتياج إليها.

”لا شكّ أنّه يُعطيك حرّيتك في كلّ ما تفعلين. وأنت تتولين سداداً جميع النّفقات، أليس كذلك؟“

”وماذا لو كنت أقومُ بذلك؟ فالملأ مالي، أفعّل به ما أشاء. وبالمناسبة، أنا اخترت هذه الدّارة. إنّها جميلة، أليست كذلك؟ ثمّ إنّها في أغنى حيّ بالمدينة. وأنا اخترت الأثاث أيضاً. وذلك أكثر مما أتيج لي إطلافاً أن تكون لي الكلمة الفصل بشأنه في حياتي“.

علم مرقس أنّ عليه أن يكبح غضبه. ”أأنت سعيدة بعيشتك هكذا؟“

”نعم، أنا سعيدة! أسعدتُ ما كنتُ مع عجوزٍ منفرّ مهووسٍ بديراساته، أو مع شابٍ وسيم كان قاسياً فوق الوصف. لو لم يمّت كائس، لكان بدّد كلّ مالي بمقامرته“. ثمّ

تهدج صوتها، فرشفت مزيداً من الخمر بسرعة. وقد كانت يدها ترتجف، فأخذت نفساً لتهديئ نفسها، وقالت بهدوء أكثر: ”إنّ برمس يطلب القليل القليل، يا مرقس. وهو لا يُشكّل أيّ خطرٍ عليّ. فهو يُصغي إلى مشكلاتي، ويُسجّعني على القيام بأيّ شيءٍ من شأنه أن يُسعِدني. ثمّ إنّهُ يُصِحّكني“.

”ينبغي لي أن أتّبه إلى ما أقوله له، أختي الصّغيرة. إنّ له ذكاءً حاداً جداً، وهو يلتقط الشائعات كما يلتقط الكلب البراغيث. ولا يقتضي الأمرُ جهداً بالغاً لدفعه إلى الهرّس ونشر كلّ شيءٍ. وولوعه بالقبيل والقال هو ما وفّر له المال على مدى سنين. فالناس يدفعون له لشألاً يتكلّم“.

استلقت جوليا على الأريكة مُجدّداً. ”أقعد، يا مرقس، واختر شيئاً تأكله“. ولوحت بيديّ أنيقة فوق الصّواني الملائنة، ثمّ أضافت: ”قد يُهدئ ذلك مزاجك“.

لاحظ مرقس أنّها كانت لابسة بضعة خواتم جديدة، وأنّ أطباق الطّعام عرضت تشكيلةً غالية من الأطياب. إلّا أنّه لم يُعلق بأيّ شيءٍ. فأبيّ نفع في ذلك؟ ربّما كان الطّعام الدّسم هو سببُ خصرها المُتخن، ولكنّ مرقس شكّ في ذلك. فقد تأكّد له تماماً أنّها حاملٌ مرّةً ثانية، وعرف من أحبّها.

وابتسمت بسخرية، قائلةً: ”ليس برمس في وضعٍ يُمكنه من إيذائي، أهو كذلك؟ ولكنّ إذا كنت قلقاً، فسأطلبُ منه أن يتغاضى عن تصرّفك الذي يُرثي له“.

”لا تطلبي منه أن يتغاضى عن أيّ شيءٍ!“

قالت بصّجّر: ”لماذا جئت؟“ وقد انزلت قناعاً ازدرائها المتعجرف على نحوٍ يكفي لأن يري مرقس وراءه أخته الصّغيرة الضّعيفة.

فتنهّد مرقس تنهّدةً ثقيلة، وتقدّم إلى أخته، قائلاً بلُطف: ”جوليا!“ ثمّ أخذ كأسَ خمريّتها من يدها ووضعها جانباً، وأضاف: ”لم أت لأجادلك“.

فقالت – وعيناها تترجرجان خوفاً: ”إنّه أبي. لقد مات، أليس كذلك؟“

”لا“.

واسترخى جسّمها. ”هل قالت له أمّي لماذا غادرت؟“

”قالت إنّك في زيارةٍ لبعض الصّدقات. ويبدو قانعاً بالرّسائل التي تقرؤها له“.

”بأيّ رسائل؟“

نظر إليها مرقس لحظةً مدهوشاً، ثم أطلقَ نفساً ليئلاً ينم عن فهم. مسكيناً أمهما! ” تلك التي تكتبها باسمك على ما يبدو“ .

فنهضت جوليا وتباعدت عنه، متمنيةً لو تفر من شعورها بالذنب.

وقال مرقس: ”جاءنا زائرٌ هذا الصّباح، حارسٌ طلبَ منه أن يأخذك سائلةً إلى أترتيس“ . فبرّمت جوليا بسرعةٍ وحدّقت إليه. ”أرسلَ أترتيس في طلبي؟“ ثم رجعت إليه وتشبّثت بيديه. ”أه، مرقس! أين هو؟ إنك لم تصرّفه مخيباً، أم فعلت ذلك؟“ واغرورت عينها.

استطاعَ مرقس أن يشعرَ بارتعاشها. ”قلتُ له إنك بعيدةٌ عن المنزل، وسألته أين يمكُن الاتصال بسيدّه حين ترجعين“ .

فأقلّته وأخذت تذرُعُ الغرفةَ بتوتّرٍ عصبيّ. ”لم أعرف ماذا جرى ولا أين مضى. ليس في وسعك أن تتصوّرَ كم كنتُ تعسةً. إنني أحبُّه كثيراً جدّاً، يا مرقس، ولكن لما أرسلتُ في طلبه، أبقى أن يأتي إلي“ .

”منذُ متى أنتِ على علاقةٍ بهذا المحارب؟“

فوقفت وأمالتُ ذقنها. ”لا تُعجّبني طريقةَ قولك مُحارب. إن أترتيس رجلٌ حرٌّ الآن، ومواطنٌ روماني“ .

”منذُ متى، يا جوليا؟“

قالت، بعدَ حين: ”منذُ ستة أشهر“ . ورأت حَمَلَقته تنتقلُ ببطءٍ نحوَ أسفلٍ جذعها.

”إذا، أنتِ حاملٌ بطفله!“

فتورّد خدّاها وغطّت بطنها على نحوٍ دفاعيٍّ، قائلةً: ”نعم“ .

”وهل يعلم؟“

فهرّت رأسها نفياً. ”لم تُتاح لي فرصةٌ لإخباره“ .

”يبدو جليلاً أنه أيضاً لا يعلمُ بأمرِ زواجك من پريمس، وإلا ما كان أرسلَ إليّ حارسه لاصطحابك إليه“ .

”نويتُ أن أخبره بهذا كلّه قبلَ أسابيع، ولكنني لم أعرف أين كان!“

”ببسيير من الجهد، كان في وسعك أن تعرفي. كيف ستقدمين على شرحِ أمرِ پريمس له؟ جوليا، لقد تكلمتُ إلى حارسه. إن أترتيس قد اشترى عِزبةً تبعدُ عن أفسس بضعةً أميال“ .

أَبَقَتْ وَجْهَهَا مُشَاحًا، فَوَقَفَ مَرْقُسُ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا. وَأَدَارَهَا حَتَّى تُوَاجِهُهُ، فَرَأَى أَنَّهَا كَانَتْ تَمْكِي. وَقَالَ بَرَقَّةً: ”إِنَّكَ لَا تَخُونِينَ شَخْصًا مِثْلَ أُتْرِيْتِسَ“.

فَانْتَفَضَتْ مُتَحَرِّرَةً مِنْهُ، صَائِحَةً: ”مَا خُنْتُهُ! أَنْتَ لَا تَتَظُنُّ أَنِّي أَنَامُ مَعَ پَرِيْمُسَ، أَتَظُنُّ ذَلِكَ؟ إِنْني لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ! أَنَا لَا أَنَامُ مَعَ أَيِّ رَجُلٍ“.

”أَرْجُو أَنْ يُصَغِيَ أُتْرِيْتِسَ جَيِّدًا بِحَيْثُ يَدْعُكَ تَشْرَحِينَ ذَلِكَ. جُولِيَا، لَيْسَ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَعْبِيَّ مَعَ رَجُلٍ كَهَذَا“.

فَقَالَتْ- دُونَ أَنْ تَلْتَقِيَ عَيْنَاهَا عَيْنِيَه- ”انْتَقَلْتُ لِلْسَكْنِ مَعَ پَرِيْمُسَ قَبْلَ تَحْرِيرِ أُتْرِيْتِسَ“.

وَصَافَتْ عَيْنَاهُ. ”بِيَوْمٍ وَاحِدٍ. أَكُنْتُ تَعَلِّمِينَ أَنَّكَ حَامِلٌ لِمَا انْتَقَلْتَ لِلْسَكْنِ مَعَ پَرِيْمُسَ؟“
وَلَمَّا أَشَاحَتْ بِنَازِرِيَّهَا، عَلِمَتْ أَنَّهَا كَانَتْ تَعَلِّمُ. ”وَحَيَاةَ جَمِيعِ الْأَلْهَةِ، لِمَاذَا انْتَقَلْتَ لِلْإِقَامَةِ هُنَا إِنْ كُنْتِ مُغْرَمَةً بِأُتْرِيْتِسَ؟“

”لَوْ أَخْبَرْتِكَ بِأَمْرِهِ، مَا كُنْتُ لِتَسْمَحَ لِي بِرُؤْيِيَتِهِ ثَانِيَةً، وَأَنْتِ تَعْرِفِ هَذَا“.

فَقَالَ مَرْقُسُ مُوَافِقًا: ”رَبِّمًا! وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ عِنْدئذٍ أَنَّكَ مَا كُنْتِ لِتَأْخُذِي بِرَأْيِي أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْتِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى پَرِيْمُسَ“. ثُمَّ أَضَافَ- مُجَاهِدًا لِضَبِطِ نَفْسِهِ- ”أَصْغِي إِلَيَّ! الْآنَ الْآنَ، أَوْافِقُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا التَّرْتِيبِ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي أَنْتِ مُتَوَرِّطَةٌ فِيهِ. سَأُخَذُكَ إِلَى أُتْرِيْتِسَ بِنَفْسِي، الْآنَ الْآنَ إِذَا رَغَبْتِ فِي هَذَا“.

”لَا! لَقَدْ انْتَقَلْتُ لِلْسَكْنِ مَعَ پَرِيْمُسَ مِنْ أَجْلِ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَطْلَعْتِكَ عَلَيْهَا“.

”إِذَا، أَنْتِ لَا تُحْبِبِينَ أُتْرِيْتِسَ“.

”بَلْ أَحِبُّهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي قَطُّ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِهِ. فَكَّرَ فِي الْأَمْرِ، يَا مَرْقُسُ. إِنَّهُ لَا يُفَكِّرُ تَفَكِيرَ رُومَانِيٍّ. وَبِالْحَقِيقَةِ، هُوَ يَكْرَهُ رُومًا، يَكْرَهُهَا كَرَهُهَا شَدِيدًا. فَمَاذَا لَوْ سَمِعَ أَحَدُنَا الْآخَرَ، وَأَعْرِمْتُ بِشَخْصٍ آخَرَ؟ أَيْتْرُكُنِي أَحْظَى بِالسَّعَادَةِ؟ لَا! إِنَّهُ بَرَبْرِيٍّ. وَقَوْمُهُ يُغْرِقُونَ النِّسَاءَ الْخَائِنَاتِ فِي مُسْتَنْقَعٍ. وَمَاذَا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِ الْجِرْمَانِ؟“ ثُمَّ صَحِيحَتْ ضِحْكَةً خَشِنَةً. ”أَفِي وُسْعِكَ أَنْ تَرَانِي سَاكِنَةً فِي كُوخٍ مُسْتَطِيلٍ نَتْنٍ، أَوْ فِي أَيِّ مَنْزِلٍ آخَرَ يُقِيمُ فِيهِ الْبَرَابِرَةُ؟ غَيْرَ أَنْ فِي وُسْعِهِ أَنْ يُرْغَمَنِي عَلَى الرَّحِيلِ مَعَهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكَوْنِي زَوْجَتَهُ!“

اسْتَمَعَ مَرْقُسُ إِلَيْهَا بِاسْتِهْجَانٍ. ”أَتَظُنِّينَ حَقًّا أَنَّ أُتْرِيْتِسَ سِيَأْتِي إِلَيْكَ وَيَكُونُ عَشِيقَكَ

وَأَنْتِ عَلَى عِلَاقَةٍ بِرَجُلٍ آخَرَ؟“

”أليس ذلك كحالك مع أريا؟“

فتجهّم. ”بِمَ تتكلّمين؟“

”لقد كنتُ على علمٍ بصِلاتها الغراميّة مع المحاربين. فهي دأبتُ في إخبارِكَ عنهم، ألا تتدكّر؟ وقد سألتُكَ عن سببِ سَمَاحِكَ لها بأن تخونكَ، فقلّت لي إنّ أريا حُرّةٌ في فعلٍ ما تشاء. وأنّت كنتِ حُرّاً في القيامِ بالمثل.“

”ما قصدتُ لكِ قَطُّ أن تنسجِي حياتكِ على منوالِ أريا!“

”أنا ما فعلتُ ذلك، بل نسجتُ حياتي على منوالِكَ أنت.“ فحدّق إليها مرّقس مصعوقاً، لاثذّاً بالصمت.

وقبّلت جوليا خدّه. ”لا تبدُ عليكِ هذه الدهشةُ البالغة! ما عسى أن تتوقّع من أُختِ مَشغوفَةٍ بك؟ والآن، قُل لي أين هو أترتيس.“ فلَمّا قال لها، جلستُ قائلةً: ”أنا مُتعبة!“ وقد أصابها دُوارٌ من كثرةِ ما شربت من الخمر. ثمّ استلقّت على الوسائد، وأغمضت عينيها. ”لكَ أن تُخبرَ أُمِّي بأمرِ الطفل، إذا شئت.“ والتوى فمها مُتصاحكةً. ”لعلّها تُفكّرُ بشأنِ پريّس فِكراً أفضل.“

انحنى مرّقس، وقبّل جبينها. ”أشكُ في ذلك.“

فأمسكت يديه بلهفة. ”هل تنوي أن تزورني ثانية.“

”نعم. فقد يسعني أن أصلح ما أفسدته.“

فلثمت يده. ”لا اعتقدُ ذلك.“ ثمّ ابتسمت، طائئةً أنّه كان يُناكدها كما اعتاد أن يفعل دائماً، غير سامعةٍ اللّهجة الثقيلة في صوته.

لَمّا خرج مرّقس من الغرفة، رأى هدسةً جالسةً على بنك، وبداها مشبوكتان بِتراخٍ في حضنها. هل كانت تُصلي؟ ورفعتُ رأسها فرأته. فنهضت برشاقة، وطأطأت عينيها عن حملقته احتراماً. وعبرَ مرّقس الغرفة، ثمّ وقفَ أمامها. وقد مضت لحظةً قبل أن يتمكّن من التكلّم. ”أُمِّي وأبي يفتقدانك.“

”أنا أيضاً أفتقدُهُما، سيّدي. كيف حالُ أبيك؟“

”هو أسوأ حالاً.“

قالت برقةً: ”أنا أسفة.“

فعلِمَ أنّها عنّت ذلك فعلاً، وأشاعَ فيه إخلاصها ألماً يتعدّر تفسيره. ومدّ يده تاركاً إيّاها

تنزلُ على ذراعها. ثُمَّ قال بصوتٍ أجشٍّ: ”سأجدُ سبيلاً لإرجاعكِ إلى البيت“. انكمشت من لَمْسَتِهِ. ”السيدة جوليا تحتاج إليّ، سيدي“.

فأنزل يده إلى جنبه. ومشت متخطيةً إياه. فقال برقةً: ”أنا أيضاً أحتاج إليك“. وسمعتها تتوقف وراءه. فأدار رأسه، ورأى أنها كانت تلتفت إليه بعينين دامعتين. فدارت مُبتعدةً من جديد، ودخلت قاعة السفرة، متوجهةً إلى جوليا.

وإذ سمع مرقس وقع صريفِ صندلٍ خفيفاً وراءه، رفع نظره بحذر.

قال پريمس - مُبتسماً له من علٍ - ”سنراك من جديد قريباً، يا مرقس، أليس كذلك؟“ وغضن وجهه كما لو كان يهئم بتقبيل مرقس، ثم قال مكشراً: ”أوه، نعم، أنا على يقين بأننا سنراك!“

وفيما تماوج ضحكُ پريمس الساخر الخافتُ نزولاً إلى البهو ذي الأعمدة، دار مرقس ومشى نحو الباب بخطى واسعة.

أمسك أترييس بمعصمَي جوليا وأنزل يديها بحدةٍ من حول رقبتِه. وبينما هو يرتجف بغَيْظٍ قاتل، دفعها بعيداً عنه. وقال من بين أسنانه المطبقة: ”لو لم تكوني حاملاً، لقتلتكِ!“ ثم مشى خارجاً من الغرفة.

وجرت جوليا وراءه. ”الطفلُ طفلك! أقسمُ بذلك! أنا ما خنتكِ. ليس پريمس شيئاً في نظري. أترييس! لا تتركني! أصغِ إليّ! أصغِ!“ قالت هذا بصراخ، وهي تبكي. ”أترييس!“ وثب أترييس إلى متنِ مركبته، وتشبث بالزمام، وصاح. فاندفع الجوادان الأبيضان المقرونان إلى الشارع. وإذ صاح ثانية، أخذ الكرباج وساقهما سوقاً أشدَّ حتى راحا يعدوان بكل قوتهما. وابتعد الناس من الطريق، مُطلقين وراءه الشتمات بصوت عالٍ.

وصل طرف المدينة، وتابع طريقه بسرعة هائلة. ولم تُبرِد الريح الهابئة على وجهه غضبه المُحتدم. وقد قامت الدارة التي اشتراها على سَفحٍ أحضر قدامه. فرأه حارسٌ مُقبلاً وفتح البوابة. فعبرها بسرعة فائقة، وانعطف بالمركبة، مُطراً المدخل بوابلٍ من الحجارة الصغيرة. وإذ رمى بالزمام من طريقه، ترجل تاركاً الحصانين المُزبدنين يقفزان بتوتر، فيما صعد الدرَج بخطى واسعة، متوجهاً إلى داخل البيت.

وصاح بالعبيد الذين كانوا يُعدون الدارة لقدم سيديتهم الجديدة: ”اغربوا عن وجهي!“ وإذ أطلق صيحةً همجيةً، كسح طعام الوليمة عن مائدته الطويلة. فإذا صواني الذهب والفضة

افسس

تَرْتَبُّمُ بِالْأَرْضِ، وَالْكَوْسُ تَصْطَدِمُ بِالْحَائِطِ مُصَدَّعَةً الْجِدَارِيَّاتِ الْمَرْسُومَةَ عَلَيْهِ. وَرَفَسَ الْمَائِدَةَ فَقَلَبَهَا، مُحَطَّمًا الرَّجَاجَ الْمَرْهِنِيَّ، وَكَبَّ الزُّهْرِيَّاتِ الْكُورَنْثِيَّةَ الْبُرُونِزِيَّةَ. وَإِذْ انْتَرَعَ الْبُشْطَ الْبَابِلِيَّةَ عَنِ الْجِدَارِ، شَقَّهَا شَطْرَيْنِ. ثُمَّ قَلَبَ الْوَسَائِدَ، وَأَتْلَفَ الْمَخَادَّ الشَّرْقِيَّةَ الْحَرِيرِيَّةَ.

بَعْدَئِذٍ خَرَجَ بِحُطَىٍ وَاسِعَةٍ إِلَى الْمَمَرِّ الْمُقَنْطَرِ، وَدَخَلَ الْمَهْجَعَ الَّذِي كَانَ قَدْ أُعِدَّ لْجُولِيَا. وَإِذْ رَكَلَ الْكُورَانِيْنَ الْمُزْخَرَفَةَ، بَعَثَ جَمْرًا مُتَوَهِّجًا تَحْتَ السَّرِيرِ الْكَبِيرِ وَدَاخِلَ الظُّلَّةِ الشَّبَكِيَّةِ النَّاعِمَةِ الْمُعَلَّقَةِ فَوْقَهُ وَحَوَالِيهِ، فَالْتَقَطَتْ نَارًا بِسُرْعَةٍ. وَفِيمَا بَدَأَ السَّرِيرُ يَحْتَرِقُ، كَسَحَ أَتْرِيَسُ صُنْدُوقًا كَبِيرًا عَنِ طَاوِلَةٍ مَنقُوشَةٍ بِالْيَدِ نَقْشًا جَمِيلًا، وَبَعَثَ اللَّالِئِ وَالْجُوهَرَ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الْفَسْفِسَائِيَّةِ الرُّخَامِيَّةِ.

وَلَدَى خُرُوجِهِ مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ، كَانَ يَقِفُ جَانِبًا عَدَدُ مِنَ الشَّابَّاتِ اللَّوَاتِي كَانَ قَدْ اشْتَرَاهُنَّ لخدمَةِ جُولِيَا، مُتَسِعَاتِ الْأَحْدَاقِ مِنَ الرَّعْبِ. فَقَالَ لَهُنَّ: ”أَنْتُنَّ حُرَّاتُ!“ وَمَا تَرَاوَعْنَ بِضَعِّ حُطُواتِ فَحَسْبِ، نَاظِرَاتِ إِلَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَ قَدْ جُنَّ، صَاحَ بِهِنَّ: ”أَخْرُجْنَ مِنْ هُنَا“ فَهَرَبْنَ مِنْهُ.

ثُمَّ مَضَى إِلَى الْفِنَاءِ الدَّاخِلِيِّ، وَانْحَنَى فَوْقَ الْبَيْتِ الْمَفْتُوحَةِ. فَاعْتَرَفَ بَعْضَ الْمَاءِ، وَنَضَحَ وَجْهَهُ. وَإِذْ كَانَ يَتَنَفَّسُ بِشِدَّةٍ، انْحَنَى بَعْدَ قَاصِدًا أَنْ يُغَطِّسَ رَأْسَهُ كُلَّهُ فِي الْمَاءِ، فَإِذَا بِهِ يَرَى صُورَةَ وَجْهِهِ مُتَمَاوِجَةً عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ.

كَانَ مَنظَرُهُ رُومَانِيًّا. فَقَدْ كَانَ شَعْرُهُ مَقْصُوصًا قَصِيرًا، كَمَا طَوَّقَتْ عُنُقَهُ قِلَادَةٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَإِذْ تَشَبَّتَ بِمُقَدِّمِ الثَّنَكِ الْمَطْرُزِ بِالذَّهَبِ، مَرَّقَهُ عَنِ جِسْمِهِ. ثُمَّ انْتَرَعَ مَدَالِيَّةَ الْمُحَارِبِ وَطَوَّحَهَا عِبْرَ الْفِنَاءِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ أَلْقَى رَأْسَهُ إِلَى الْوَرَاءِ، وَصَرَخَ بِسُخْطٍ وَحَشِيٍّ صَرَاحًا عَلا صَوْتَهُ وَتَعَاظَمَ حَتَّى سَمِعَهُ الرُّعَاةُ عَلَى سُفُوحِ الْجَبَلِ.

٣٤

أرسلت فيبي إلى مرقس وجوليا تطلب إليهما أن يحضرا حالا، إذ كان أبوهما يُحَضَّر. وقالت للخادم الذي ذهب لإحضار جوليا: ”أحرص على أن تأتي بهدسة معها“.

وصل مرقس أولاً ودخل إلى أبيه. ولما وصلت جوليا، انفجرت أسارى فيبي إذ رأت هدسة بجانبها. ودخلت جوليا، إلا أنها توقفت لما اقتربت من السرير. كانت قد مضت أسابيع منذ رأت أباهما آخر مرة، فصدمة فتك مرضه ونفراها. ففرت من الغرفة، بصرخة مكبوتة. وفي الحال لحقت بها فيبي. ”جوليا!“

فاستدارت جوليا، وتكلمت ماشية إلى الوراء. ”لا أريد أن أراه على هذه الحال، يا أمي. أريد أن أتذكره كما كان من قبل.“

”لقد طلب أن يراك“.

”لماذا؟ ليقول لي إنني قد خيبت أمالي؟ ليلعنني قبل أن يموت؟“

”أنت تعلمين أنه لن يفعل ذلك. لقد أحبك كل حين، يا جوليا.“

وضعت جوليا يدها على بطنها المنتفخ من حملها المتقدم. ”في وسعي أن أشعر بالطفل يتحرك. لا ينفخني أن أبقى هنا في الداخل. يجب ألا أتوعك! سأنتظر في البهو ذي الأعمدة. وسأبقى هناك حتى ينتهي الأمر.“

وخرج مرقس فرأى أخته على عتبة الهستيريا. فوضع يده على كتف أمه، وقال: ”سأكلّمها أنا“.

والتفتت فيبي لتعود، ناظرة إلى هدسة ومادة يدها لها، قائلة برفقة: ”تعالي معي“. ثم دخلتا معاً إلى دسمس.

شعرت هدسة بحنان غامر تجاه سيدها. كان حراماً منسوج ببراءة من الصوف الأبيض ملقى على جسمه المهزول. وكانت ذراعه ممددتين بارتخاء إلى كلا جنبيه، والعروق الزرق نافرة على بياض يديه النحيلتين. وقد خيمت على الغرفة رائحة الموت، غير أن النظرة المرتسمة في عيني دسمس هي التي جعلت هدسة تهتم بالبكاء.

ثم أدخل مرقس جوليا. وكانت قد استعادت السيطرة على نفسها، غير أنها حالماً رأت

أبأها من جديد شرعت بالبكاء. ولما التفت دسئس إليها بعينيه الغائرتين، اشتدُّ بكاءها. فرفع أبوها يده بوقن. وإذ ترددت، أمسك مرقس بكتفها ودفعها إلى الأمام. ثم ألقدها دفعاً على الكرسي بجانب السرير، فغطت وجهها بيديها وانحنت إلى الأمام، باكياً بكاءً غزيراً. ووضع دسئس يده على رأسها، غير أنها انكمشت من لمسته. فقال بصوتٍ خشنٍ ”جوليا! ومد يده إليها ثانيةً.

صرخت جوليا: ”لا أستطيع، لا أستطيع أن أحمّل هذا“. وحاولت أن تندفع إلى الخارج متخطيةً مرقس.

فقال دسئس بضعفٍ شديدٍ: ”دعها تذهب!“ وسقطت يده مرتخيةً إلى جنبه. وإذ هُرعت جوليا إلى خارج الغرفة، أغمض عينيه. وكان في وسعهم جميعاً أن يسمَعوا بكاءها وهي راکضة في الزواج. فقال دسئس بصوتٍ مُتهدجٍ: ”إنها صغيرة السن. وقد رأيت من الموت أصلاً ما يفوق طاقتها“. ثم ثقل تنفسه. ”هل هدسة هنا؟“

فقال فيبي: ”ذهبت لتكون بقرّب جوليا“.

”أحضريها إلي“.

وجد مرقس هدسة في مختلى مظلّل صغير في البهو ذي الأعمدة، تؤاسي أخته. ”هدسة، أبي يريد أن يراك“.

فأنزلت ذراعها من حول جوليا، ونهضت بسرعة.

ورفعت جوليا رأسها حالاً. ”لماذا يريد أن يراها؟“

فأمر مرقس هدسة: ”اذهبي!“ ثم التفت إلى جوليا، وقال- غير قادر على إخفاء حدة صوته- ”لعله يحتاج إلى عزاءٍ أكثر مما تحتاجين أنت، وهو يعلم أنه يستطيع أن يناله منها“.

قالت بمرارة: ”لا أحد يفهمني. ولا حتى أنت“. واستأنفت البكاء، فيما استدار مرقس

وجرى وراء هدسة. فنادت جوليا وراءه صارخةً: ”لا أحد يعلم كم ينبغي أن أحمّل!“

دخلت هدسة، وتقدّمت كي تقف عند أسفل السرير، حيث يستطيع دسئس أن

يرأها: ”أنا هنا، سيدي“.

قال دسئس بصوته الأَجشّ: ”أفعدني معي قليلاً“. فدارت حول السرير وجئت

بجانبه. ولما رفع يده بارتخاء، أمسكتها بين يديها. وقال مُتهدداً: ”أستلّة كثيرة جداً، ولم يبق وقت!“

فَقَالَتْ هَمْسًا: "بَقِيَ وَقْتُ يَكْفِي لِمَا هُوَ مُهِمٌّ". وَضَغَطَتْ يَدَهُ بِلُطْفٍ.
 "هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَصِيرَ مِنْ خَاصَّةِ الرَّبِّ، سَيِّدِي؟"
 "يَجِبُ أَنْ أَتَعَمَّدَ..."

انْتَعَشَ قَلْبُ هَدْسَةَ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ قَدْ رَأَتْ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ مِيتَاتٍ تَكْفِي لَجَلْعِهَا تُدْرِكُ
 أَنَّهُ لَمْ يَتَبَقْ وَقْتُ لِحَمَلِ دَسِمُسَ إِلَى حَمَامَاتِهِ وَتَعْمِيدِهِ. يَا رَبِّ، رَجَاءً، أَعْطِنِي حِكْمَتَكَ،
 وَسَامِحْنِي عَلَى افْتِقَارِي إِلَيْهَا! وَشَعَرْتُ بِدَفءٍ غَامِرٍ وَيَقِينٍ اسْتِجَابَةٍ.

"صَلِبَ الرَّبِّ بَيْنَ لَصِينٍ. وَاسْتَهْزَأَ أَحَدُهُمَا بِهِ. أَمَّا الْآخَرُ فَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ خَاطِئٌ، وَقَالَ:
 «يَا يَسُوعُ اذْكَرْنِي عِنْدَمَا تَأْتِي لِكَيْ تَمْلِكَ!» فَأَجَابَهُ الرَّبُّ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ
 مَعِي فِي الْفِرْدُوسِ!»

"لَقَدْ أَخْطَأْتُ خَطَايَا كَثِيرَةً وَكَبِيرَةً، يَا هَدْسَةَ."

"إِنْ أَمَنْتَ فَقَطْ وَقَبِلْتَ نِعْمَةَ الرَّبِّ، فَسَتَكُونُ مَعَهُ فِي الْفِرْدُوسِ."

زَالَتْ مِنْ عَيْنِي دَسِمُسَ نِظْرَةَ الْقَلْقِ. وَتَنَاوَلَتْ يَدُهُ الْمُرْتَجِفَةَ يَدَهَا وَوَضَعَتْهَا عَلَى صَدْرِهِ.
 فَبَسَطَتْ يَدَهَا عَلَى قَلْبِهِ. "مَرْقُسُ... خَرَّخَرَ نَفْسَهُ فِي صَدْرِهِ. وَقَدْ انْحَنَى مَرْقُسُ عَلَى
 الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ السَّرِيرِ.

"أَنَا هُنَا، أَبِي". وَأَمْسَكَ مَرْقُسَ بِيَدِ أَبِيهِ الْآخَرَى.

فَتَنَاوَلْ دَسِمُسَ يَدَ ابْنِهِ بَوْهَنَ، وَوَضَعَهَا عَلَى يَدِ هَدْسَةَ. ثُمَّ وَضَعَ كِلْتَا يَدَيْهِ عَلَى يَدَيْهِمَا،
 وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ.

"لَقَدْ فَهِمْتُ، يَا أَبِي."

وَرَنْتَ هَدْسَةَ إِلَى الْعُلَى إِذْ أَطْبَقَ مَرْقُسَ يَدَهُ بِأَحْكَامٍ حَوْلَ يَدَيْهَا.

ثُمَّ أَطْلَقَ دَسِمُسَ تَنْهَدَةً طَوِيلَةً بَطِيعَةً. وَاسْتَرَخَى وَجْهَهُ بِسُكُونٍ، بَعْدَمَا كَانَ مَشْدُودًا
 وَمُفْسَدًا مِنْ جَرَاءِ سِنُودِ الْأَلَمِ. لَقَدْ انْتَهَى الْأَمْرُ!

ارْتَحَتْ أَصَابِعُ مَرْقُسَ، وَسُرْعَانَ مَا سَحَبَتْ هَدْسَةَ يَدَهَا مُحَرَّرَةً إِثَابًا. وَلَكِنْ لَمَّا تَقَدَّمَتْ أُمُّ
 مَرْقُسَ، رَفَعَ ابْنُهَا رَأْسَهُ وَنَظَرَ مُبَاشِرَةً فِي عَيْنِي هَدْسَةَ. وَإِذْ وَثَبَ قَلْبُهَا، أَطْبَقَتْ يَدَهَا وَوَضَعَتْهَا
 عَلَى صَدْرِهَا وَتَرَاوَجَتْ عَنِ السَّرِيرِ.

فَقَالَتْ فِيبِي: "لَقَدْ رَحَلْ!" وَأَطْبَقَتْ بَرَفِقٍ عَيْنِي زَوْجَهَا. ثُمَّ قَالَتْ هَمْسًا: "مُعَانَاثُكَ
 انْتَهَتْ، يَا حَبِيبِي". وَرَطَبَتْ دُمُوعُهَا وَجْهَهَا السَّاكِنَ. ثُمَّ تَمَدَّدَتْ بِقُرْبِهِ فَلْتَمَّتْ شَفْتَيْهِ، وَطَوَّقَتْهُ

بذراعيها. وإذ ألقَتْ رأسها على صدره، استسلمتْ لحزنها.

قال پريمس - ساكبًا لجوليا مزيدًا من الخمر - ”لا شك أن الأمر كان أصعب من أن تحتّمليه. لقد كان فظًا منهم أن يتوقّعوا منك أن تقعدِي وتراقبي أباك يموت.“
”ذهبتُ إلى مُحتلّي مُظلل، وانتظرتُ هناك.“

فأمسكتْ كالاباه يدَ جوليا ولثمتها لثمةً خفيفة. ”لم يكن هنالك أي شيءٍ تستطيعين أن تفعليه، يا جوليا.“

وإذ انزعجتْ جوليا من لثمة كالاباه على نحوٍ غامض، نترتْ يدها منها وهبت واقفة. ”ربّما كان من شأن حُصوري أن يُريحه.“

فقال كالاباه برقة: ”أكان من شأن حضورك أن يُغيّر أي شيء؟ أو كان أبوك أيضًا مُتماسكًا في لحظاته الأخيرة؟“

قالت جوليا مُدافعةً الدُموع: ”لست أدري. لم أكن هناك.“ وقد علمت أن كالاباه حسبت دموعها ضعفًا.

تهدت كالاباه. ”والآن سمحت لهم بأن يجعلوك تشعّرين بالذنب. أليس كذلك؟ متى تتعلمين، يا جوليا؟ إن الشعور بالذنب انهزامٌ ذاتي. يجب أن تستخدمِي قوّة إرادتك كي تتغلّبي عليه. فركري ذهنك على شيءٍ يسرك.“
فقال جوليا ببؤس: ”لا شيءٍ يسرنِي.“

وقلبت كالاباه فمها. ”هو هذا الحملُ ما جعلك ضعيفةً جدًّا على الصّعيد العاطفيّ. مؤسفٌ أنك لم تخضعي لإجهاضٍ عاجلاً!“

فتكوّرت أصابع جوليا في قبضةٍ شاحبة. ”لن أخضع لإجهاضٍ أبدًا. لقد قلتُ لك ذلك من قبل، يا كالاباه. فلماذا تصرّين على اقتراح هذا؟“ ثمّ حدّقت إليها ويدها مُستقرّة على بطنها المنتفخ بطريقةٍ تحميه بها. ”إنه طفلٌ أترينس.“

اتسعّت حدقتا كالاباه بدهشةٍ مُصطنعة. ”إنك لا تشبّئين بعدُ بأي أملٍ بأنه سيرجع إليك، أم تشبّئين؟“

”إنه يحبّني. ما إن يُعِن في النّظر في المسألة، حتّى يرجع إليّ. أنا مُتيقّنة بهذا.“
”لقد كانت لديه بضعةٌ شهوٍ حتّى يُعِن في النّظر في المسألة، يا جوليا. وأنتِ لم

تسمعي منه أيّ خَيْرٍ“.

فأشاحت جوليا وجهها. ”لقد أرسلتُ هَدْسَةَ إليه. ستَجعلُهُ يُدركُ أَنَّ الطُّفَلَ طِفْلُهُ.“
”أَتظنّينَ أَنَّ ذلكَ سيُحدِثُ أيّ فرقٍ؟“

وتدخّلَ پريمُس، يملأهُ الحِقْدُ على الفتاة العبدَة، قائلاً: ”أنا مدهوشٌ لِكَوْنِكَ تَثِقينَ بتلكِ اليهوديَّةِ الصغيرةِ الغادِرةِ“.

فردّت جوليا بحِدَّة: ”هدْسَةُ ليست غادِرة. إنّها تعلّمَ أنّي لم أحتَلِ قطُّ بأيّ رَجُلٍ آخرٍ بعدما كنتُ مع أتريتس. وستقولُ له ذلك. عندئذٍ سيرجعُ ويتوسّلُ إليّ كي أُسامِحَه“.

”سُحاوِلُ على الأرجح أن تسرقَه منكِ كما تُحاوِلُ أن تسرقَ صديقي پروميثيوس.“
فقالَت جوليا باشمِئزاز: ”ليس لِهَدْسَةَ أدنى اهْتِمَامٍ بمأبُونِكَ!“

”ألا تعتقدين ذلك؟ لقد رأيتها جالِسةً في ذلك المَحْتَلَى المُظَلَّلِ مع پروميثيوس، وكانت مُمسِكةً يَدَهُ! فقولي لي الآن إنّها بريئة!“

ابتسمت كالاباه ابسامةً واهية، وعيناها القاتمتان متلاذبتان بلذّةٍ ضارية. وقالت-
مُضمرمةً غيرةً پريمُس لَهَبًا أكثرَ تَأجُّبًا- ”لعلّ الفتى أَخَذُ في الصَّبْرِ منك، يا پريمُس. لقد عثرتُ عليه فعلاً وهو طريُّ العودِ جدًّا، قبل أن يذوقَ ما يمكنُ أن يُقدّمَه إليه هذا العالمُ.“
فشحِبَ وجهُ پريمُس.

وقالت جوليا بعجرفة: ”هذا التلميحُ سخيف. إنّ هَدْسَةَ عذراء، وستبقى هكذا إلى أن تموت.“

فقال پريمُس: ”ليس إذا كان لأخيكِ كَلِمَةٌ فصلٍ في الأمر.“

وتصلّبت جوليا: ”كيف تحروّ؟“

فاتكأ پريمُس إلى الوراء، غيرَ عابىءٍ بغَضَبِها، راضياً تمام الرضى بتأثيرِ كلماته.
”افتحي عينيكِ، عزيزتي جوليا. هل تعتقدين أنّ مَرْقُسَ يأتي لكي يراكِ؟ إنّهُ يأتي لكي يرى عَبدَتِكَ“.

”هذه أكذوبة!“

”هل تعتقدين هذا؟ ذلك اليومَ الأوّل، لما جاءَ ليُخبرِكَ أنّ أتريتس أرسلَ في طلبِكَ، هل تذكُرين؟ ربّما لا، لأنّكِ أسرفَتِ قليلاً في شُرْبِ الخمر. فينما راح يغالِبُكَ النعاسُ وأنتِ ساهية، رأيتَ مَرْقُسَ يخرجُ خارجًا. وكانت عبرانيّتكِ واقفةً هناك تمامًا، تنتظرُه

تحت تلك القنطرة. فأمسك بيدها، وفي وسعي أن أقول لك إن سيماء وجهه كانت منظرًا يستحق المشاهدة“.

وقالت كالاباه بفضول مُتعمد: ”أما قلت إن أباك طلب رؤيتها؟“ فنظرت إليها جوليا مُنفرجة الشفتين.

فرمقت كالاباه بريئ بنظرة سريعة، وهزت رأسها، قائلة: ”وما زالتِ طفلتنا تثقُ بها!“ ثم رفعت نظرها إلى جوليا من جديد، وعيناها القامتان مملوءتان بالشفقة.

وقال بريئ بصراوة: ”لقد أرسلت أفعى خبيثة إلى عشيقك. فهل تعرفين ماذا ستفعل؟ إنها ستفعلُ تمامًا ما فعلته بصدقي بروميثيوس. ستغررُ أنيابها في أترتيس وتنفثُ فيه أكاذيب سامة“.

فأخذت جوليا ترتجف بشدة، وقالت: ”لن أصغي إليك. إنك تتكلمُ كامرأة تواقّة إلى الإغاظَة“. ثم أدارت ظهرها لهما.

وقال بريئ مُخيبًا: ”كلمها أنت، يا كالاباه. إنها ستسمعُ لك“.

فقال كالاباه بهدوء: ”لا داعي لأن أكلمها. إنها تعرفُ بنفسها فعلًا. غير أنها فقط لم تكتسب بعدُ الشجاعة كي تفعلَ أي شيءٍ بشأن الأمر“.

وقفت هَدسة بين الأطلال المحروقة المُتبقية من الدارة التي اشتراها أترتيس لأجل جوليا. وقال لها رجلٌ واقفٌ في مكانٍ قريب: ”ليس هو هنا. إنه هناك خارجًا في مكانٍ ما على التلال، وقد جُنَّ تمامًا“.

”كيف يمكنني أن أعثرَ عليه؟“

فقال الرجل: ”إذا كنتِ حكيمةً، اتركيه وشأنه“. ثم مضى تاركًا إياها وسط الركام. مضت هَدسة خارجًا، وصلت إلى الله طالبة أن يُساعدَها كي تعثرَ على أترتيس. وطافت بين التلال مدةً بدت ساعاتٍ طويلةً قبلما رأتها جالسًا على مُنحدرٍ تَلٍّ، مُحدقًا إليها من عل. كان شعره أشبه بعُرف، وكان مُرتديًا مئزرًا وكابًا من جلدِ الدب، وفي يده رُمحٌ يبدو قتلًا. وإذ تقدّمت صاعدةً إليه، حَمَلَقَ إليها بِقُتور.

قال بصوتٍ جافٍ شديد البرودة: ”انصري من هنا“.

قعدت بجانبه، ولم تقل شيئًا. فحدقَ إليها تحديقًا طويلًا وشديدًا، ثم حوّل عينيه عنها،

وَحَمَلَتْكَ مِنْ فَوْقِ الْوَادِي نَحْوَ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ. وَظَلَّ جَالِسًا سَاعَاتٍ هَكَذَا، لَا يَنْبَسُ بِكَلِمَةٍ، بَارِدًا وَجَامِدًا كَالْحَجَرِ، وَهِيَ جَالِسَةٌ بجانِبِهِ صَامِتَةٌ.

ثُمَّ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَحَيَّمِ الظَّلَامُ عَلَى الْوَادِي. فَنَهَضَ أَتْرَيْتِسُ، وَرَاقَبَتْهُ هَدْسَةُ يَمْشِي عَلَى تَرْتَرٍ بِالِ يَفْضِي إِلَى كَهْفٍ، فَلَحِقَتْ بِهِ. وَإِذْ دَخَلْتُ، رَأَتْهُ يَصْعَقُ حَطْبًا لِإِشْعَالِ نَارٍ. فَقَعَدْتُ مُسْنِدَةً ظَهَرَهَا إِلَى الْحَائِطِ.

التقطت فرامياها، وصوبته نحوها. "انصبر في من هنا، وإلا قتلتك!" فرفعت نظرها عن الفراميا إلى داخل عينيه. "انصبر في من هنا! ارجعي إلى العاهر التي تخدمينها!" فلم تحرك ساكنًا، ولا بدت خائفة حقًا، بل نظرت إليه فحسب بعينها المغممتين حنانًا.

تراجعت أتريتس على مهل، ونكست الفراميا. وفيما هو يحدق إليها، أدار ظهره، وقعد القرفصاء أمام النار، عاقدًا عزمه على تجاهلها.

طأطأت هدسة رأسها وصلت بصمت طالبة المعونة.

"إنها تتوقع مني أن أرجع، أليس كذلك؟ ما زالت تظن أنها ممسكة بي."

رفعت هدسة رأسها. كان ظهره نحوها، وكان منحنيًا على ألسنة النار المتراقصة. وقد غمرها الحزن من أجله. فقالت بصدق: "نعم".

هبت أتريتس واقفًا، وجسمه متوتر من غيظه المستولي عليه. "ارجعي وقولي لها إنها ميتة في نظري! قولي لها إنني أقسمت لطيواز وأرطيميس إنني لن أنظر إلى وجهها من جديد". ثم توجه إلى باب الكهف ووقف يحدق خارجًا إلى قلب الظلام.

قامت هدسة، ووقفت بجانبه، وسرحت بصرها في الليل الملائن بالنجوم. وبقيت ساكنة وقتًا طويلاً، ثم قالت بكل رقة: "«السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ، وَالْفَلَكَ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ»...". رجعت أتريتس إلى داخل الكهف، وقعدت. ثم مشط شعره الذهبي بأصابعه، وأمسك رأسه. وبعد لحظة، أنزل يديه، ونظر إليهما.

"هل تعرفين كم رجلًا قتلت؟ مئة وسبعة وأربعين. والعدد مسجل". ثم أطلق ضحكة خشنة. "وربما قتلت خمسين رجلًا قبل ذلك، من جنود الفيالق الرومانيين الذين زحفوا إلى داخل بلاد الجرمان متصورين أن في وسعهم أن يستولوا على أراضينا ويجعلونا عبيدًا دون قتال. وقد قتلتهم بسرور، كي أحمي عائلتي، كي أحمي قريتي".

وما لبثت أن قلب يديه وحدق إلى راحتيه. "ثم قتلت لأجل مسرة روما". قال هذا

انفس

بمرارة، وكوّر يديه قبضتين، مُضيفاً: "قتلتُ حتى أبقى حياً". ومشطَ شعره بأصابعه مرّةً أخرى. "أستطيع أن أتذكّر وجه كلِّ واحدٍ منهم، يا هُدسة. قتلتُ بعضهم دون أدنى أسف، ولكنّ كان هنالك آخرون..." ثمّ أغمض عينيه بإحكام، وتذكّر كالبّ جاثياً ورافعاً رأسه لتلقّي ضربة الموت القاضية. ومواطنه الجِرمانيّ أيضاً، مُتذكّراً كيف زجّ بالفرايميا قلب ذلك القَبليّ الشابّ.

ثمّ فتح عينيه من جديد، مُبتغيّاً أن يحوِّ جميع الوجوه من ذهنه، علماً أنّه لن يستطيع ذلك البتّة. "لقد قتلتهم لأنّ ذلك وَجَب عليّ. قتلتهم لأنّي أردتُ أن أكسب حُرّيّتي". وصرّاً بأسنانه، فنتأ الغضلُ في مُنحنى حنكته المتصلّب.

"الحريّة! إنّها ملكي الآن. إنّها مكتوبة في وثيقة رسميّة، مُعلّقة حول عنقي". وإذا أمسك بقِلادةِ العاج في قبضته، كسر سِلْسِلَةَ الذهب، ومدّ يده إليها ببرهان حُرّيّته. "في وُسعي أن أمشي أينما شئتُ أن أمشي. في وُسعي أن أفعل ما أشاء. إنّهم يُلقونَ قرابينَ عند قَدَميّ كما لو كنتُ واحداً من آلِهتهم، وقد جعلوني غنيّاً بحيثُ تسنى لي أن أسكنَ في دارةٍ بجوار دارةٍ بروقتُصل روما. إنّي حُرّاً!"

ثمّ أطلق ضِحْكَةً فظّةً بلا مَرَح، وضربَ بِقِطْعَةِ العاج وسِلْسِلَةَ الذهبِ عُرضَ الحائطِ الحَجْرِيِّ في الكهف. "لستُ حُرّاً من أيّ شيء. ما زال نيُرهم حول عنقي، يخنقني. لن أكون حُرّاً أبداً ممّا فعلته بي روما. لقد استُخدمتني لأجل متعتها. بجلّنتني لأنّي أضرمتُ النارَ في دَمِها. لقد أشبعتُ شهوتها. ما كان عليها إلّا أن تأمرَ حتى أقومَ بالأداء". ثمّ رفع نظره إلى هُدسة الواقعة في باب الكهف بوجهِها البالغ الرُقّة، وابتسمَ بمرارة. "روما. جوليا. سيّان!"

رأت هُدسة الكُربَ الداخليّ محفوراً في وجه أترتيس الجميل القاسي. "من الأعماق صرختُ إليك، يا ربّ. ربّاه، اسمع صوتي! لتكن أذناك مُصغيتين إلى استرحامي. إن كنت، يا ربّ، تُراقب الآثام، فَمَن يستطيع الوقوف أمامك يا ربّ؟ ولكنّ عندك الغفران!"

ولاحظت كيف عبّس ومضى إلى الدّاخِل، فجنّت بجانبه. "الحياةُ رحلة، يا أترتيس، وليست قَدَرنا الأخير. أنت أسيّرُ مَرارتك، ولكنّ في وُسعك أن تنالَ الحريّة".

حدّق إلى النار يائساً. "كيف؟"

فسرحت له.

وهزّ أترتيس رأسه، قائلاً بلهجة صارمة "لا!" ثمّ هبّ واقفاً. "إنّها ضعيفاً فقط يغفرُ

للذين سمروا ابنه على صليب. أمّا الإله ذو القُوّة فيبيد أعداءه. إنّه يُزيلهم جميعاً عن وجه الأرض“. ثمّ رجّع إلى باب الكهف.

”هو الحقّ ما يُبقيك عبداً، يا أترتيس. فاختَرِ العُقرانَ والحُبّ“.

فقال بازدياء، وظهره نحوها: ”الحُبّ! مثلما أحببت جوليا؟ لا. الحُبّ لا يُحرّزك. إنّه يستولي عليك ويضعفك. وحين تكونين أكثر هشاشة، حين تشعرين بالأمل، يخونك“.

”إنّ الربّ لن يخونك، يا أترتيس“.

فحدّق إليها من جديد. ”لك أن تحتفظي بإلهك الضعيف. إنّه لم يجد كالب أيّ نفع. طيوازُ إلهي. إله قُوّة!“

قالت برقة: ”أهو كذلك؟“ ونهضت. ثمّ مسّت إلى باب الكهف، ورفعت نظرها إلى قلب عيني أترتيس، وكانتا ما تزالان تتأججان غضباً. ”أهو قووي كفاية بحيث يُعطيك راحة البال التي تحتاج إليها؟“ ووضعت يدها برفق على ذراعه. ”الطفلُ طفلك، يا أترتيس“.

أبعد ذراعه تترّاً من لمسيتها. ”إذا وضعت جوليا عند قدمي، فسأمشي مُبتعداً ولن ألتفت إلى الوراء أبداً“.

وأدركت هدسة أنه يعني ما يقول. فاغزوت عيناها. وقالت بصوتٍ خافت: ”ليرحمك الله!“ ثمّ خرجت إلى قلب الظلام.

راقبها أترتيس تسلك الممرّ الضيق هابطة التلّ. ولم تتحوّل حَمَلتُه عنها، حتّى بعدما بلغت الطريق الذي سيؤدّي بها رجوعاً إلى أقسس.

انتفضت جوليا حيال طلب مرقس، ونظرت إليه باستغراب: ”أنت تريد أن ترى هدسة؟“

نعم، بخصوص أمرٍ مهمّ نوعاً ما“.

قالت- وقد بدا عليها مُجرّد الفضول- ”لأيّ أمر؟“

فقال- مُزعجاً من مُساءلته- ”مسألة شخصيّة. سأجيب عن أسئلتك بعد أن أكلمها. أهي هنا، أم أرسلتها في مهمّة؟“

قالت باستغراب: ”عادت توأ من مهمّة“. ثمّ صفقت بيديها، فكان الصوتُ أشبه باختراقٍ صاخبٍ للسكون الهادئ المُخيم على البهو ذي الأعمدة. وقالت لأحد خُدام بريّس: ”أرسل هدسة إلينا“. ثمّ نظرت إلى أخيها ثانيةً وابتسمت. وسألت عن أمهما، إلّا

أنها لم تكذب وتبدو مُبالية إذ أخبرها أن فيبي تبدو مُتحملةً حُزنها بهدوءٍ مُدهش. لدى سماعٍ وَقَعَ قدمين خفيف، التفتَ مرقس فرأى هَدَسَةَ. وقد أقبلت تحت تمرّ مُقنطرٍ إلى ضياء الشمس، ومشتتٌ نحوهما برشاقةٍ وادعة جعلته يتوقُّ توقًا موجعًا. ولم تنظرُ إلى مرقس.

قالت، مُطأطئةً رأسها: "أنتِ طلبتيني، سيديتي؟"

فقالت جوليا ببرودة: "لا، بل أخي يطلبك."

ورمقَ مرقس أخته بنظرةٍ حادة.

"عليك أن تذهبي إلى المهجع في الطبقة الثانية، وتنتظريه هناك..."

قال مرقس مُحدثًا: "جوليا!" إلا أنها تجاهلته.

"انتظري حتى يأتي إليك، ثم مهما أراد منك أن تفعليه فافعليه. فهمتِ؟"

شاهدَ مرقس وجهَ هَدَسَةَ يتحوّل قناعًا من الاضطراب والخوف، وأراد أن يضربَ أخته.

"اتركينا وحدنا، هَدَسَةَ". فتراجعتُ مرتابةً، مُقلبةً نظرًا بينهما كليهما كما لو كانا قد جُنا.

صرختَ جوليا فجأةً: "يا لك من عاهرٍ مُغوية!" وهجمتُ على هَدَسَةَ، رافعةً يدها

لتضربها. فأمسكَ مرقس معصمَ أخته، وأدارها بسرعةٍ كي تواجهه.

ثم أمرَ هَدَسَةَ بخشونة: "اتركينا الآن!" ولما غادرت، هزَّ جوليا مرّةً واحدة. "ماذا

جرى لك؟ هل سببَ لك هذا الحملُ الجنون؟"

فقالت جوليا، مُقاومةً إيّاه: "ما قاله لي پريمس صحيح."

سألها- وقد هبطت معدته- "ماذا قال لك پريمس؟"

"قال إنك جئتِ كي ترى هَدَسَةَ، لا إيّاي. وقلتُ له إنّه مُضحك! أخي يُعزّم بعبدة؟

أمرٌ سخيف! قلتُ له إنك جئتِ كي تراني أنا! وقال إن عليّ أن أفتحَ عيني وأرى ما كان

جاريًا حواليّ."

فقال مرقس بتوتر: "لم يكن أيُّ شيءٍ جاريًا. إنّما كنتِ أنتِ تشرّبين سُمّ پريمس. لا

تصغي إليه."

"إن كان ذلك غيرَ صحيح، فلماذا جئتِ طالبا أن تكلّم هَدَسَةَ؟"

"لأسبابٍ شخصيّةٍ ليس لها أدنى علاقةٍ بك أو بپريمس أو بأيِّ شخصٍ آخر."

فارتسمت على فمها ابتسامةً بغیضة، وقالت بازديراء: ”لأسباب شخصية. إنك لا تريد أن تحيب، أليس كذلك؟ لا يمكنك دون أن تعترف بأنك معني بشأن هدسة أكثر منك بشأني!“

”غيرتُك في غير محلها. فأنت أختي.“

”نعم، أنا أختك، وأستحق وفاءك، ولكن هل أحوزه؟“

”أنت تعلمين أنك تحزينه. وتعلمين أنك ما تزالين تحزينه كل حين.“ وإذ أدرك حالتها العاطفية الهشة، أمسك بيديها. ”جوليا، انظري إلي، وحياء جميع الآلهة“. ثم هزها ثانية. ”قلت لك: انظري إلي. إن ما أشعر به تجاه هدسة لا يمت بأية صلة إلى حبي لك. فأنا مشغوف بك كما كنت دائماً.“

”غير أنك تحبها.“

فتردد، ثم زفر زفرة، وقال برقة: ”نعم، أنا أحبها.“

”إنها تسرق كل واحد مني.“

فأفلتها قائلاً: ”م تتكلمين؟“

”لقد سرقت كلاوديوس.“

إذ ذاك تحيم مرقس، متسائلاً عما يدور في ذهنها. أي حقائق خطيرة لفقها پريس وكالاباه أكاذيب خبيثة، مستغلين طبيعة جوليا الغيور؟ فذكرها بفظاظة: ”أنت لم تكوني تريدين كلاوديوس. وقد أرسلت هدسة إليه، أمله أن تحوله عنك.“

”وقد فعلت ذلك، ألم تفعله؟ فقد حولت اهتمامه كلياً. هل علمت أنه لم يسأل عني مرة واحدة قط بعدما أرسلت هدسة إليه؟“ ولم تكن جوليا قد فكرت في ذلك قط حتى سألتها كالاباه عنه، ثم أدركت الحقيقة. ”وقد قضى ساعاتٍ معها، ساعاتٍ كان واجباً أن تقضيها في خدمتي.“

”لقد كانت في خدمتك. إنها فعلت ما طلبت منها. أردت أن يلهي كلاوديوس، وقد ألهي. إنه ساءل هدسة عن ديانتها.“

فنظرت جوليا إليه ببرودة. ”كيف يمكن أن تعلم ذلك إلا إذا سألته؟“

”بالتأكيد، سألته! لا بد أن تتذكرني أنني غضبت عليك لإرسالها بدلاً منك.“

قالت- وعيناها تتأرجحان- ”أتذكر. لقد غضبت لأني أعطيتة إياها. واعتقدت أن ذلك

كان اهتماماً بي، اهتماماً بزواجي. ولكن لم يكن ذلك هو السبب، أليس كذلك؟“ وقد

أثقلتِ المرأة صوتها، فهزّت رأسها وأدارت ظهرها لمرقس.

ثم قالت بصيحة قارسة: ”كم كنت عميةا! ألتفت الآن إلى الورا فأرى الأمر كله على نحو غاية في الوضوح. جميع تلك المرّات، عندما ظننت أنك جئت لتكون معي لأنني احتجت إليك“. والتفتت إليه. ”لم يكن ذلك واقع الحال قط، أليس كذلك، يا مرقس؟ ما جئت إلى كاپوا لأجلي. وما انتقلت إلى تلك الدّارة في روما، ولا جئت إلى أفسس لأجلي. لقد جئت لأجلها“.

أدارها مرقس صوته، وقال: ”جميع تلك المرّات، جئت فعلا كي أكون معك. لا تدعي أحدا يحميك على اعتقاد العكس“. فلم يحصل إلا في ما بعد، في ما بعد مُدّة طويلة، أنّه أدرك أنّ هدسة تهمة بطرق لم تهمة بمنلها امرأة أخرى على الإطلاق. وما تزال جوليا موضع اهتمامه الأول. حتى الآن.

اشاحت جوليا بناظرها بعيدا عن غضبه. ”ليتني أعرف ما قالته لأترتس في جميع المرّات التي فيها أرسلتها إلى اللودس لإحضاره، من أمور سمّته وقلبتة عليّ“.

فقال مرقس ساخطا: ”ما جرى مع أترتس لا علاقة له البتة بهدسة. لا يمكنك أن تلقى عليها اللوم من أجل أفعالك الطائشة بعينها. فأنت طردته، لا هدسة“.

”لو قالت له إنّ الطفل طفله مثلما أمرتها، لكان أتى. وهو لم يأت! لعلها ذهبت إليه فرتلت مزامير وسردت قصصها بدلا من ذلك“. ثم انفجرت بالبكاء. ”لو أنّها فعلت ما قلته لها، فلماذا لم يأت إليّ؟ لماذا هذا السكوت البغيض؟“

قال مرقس: ”لأنك تصورت أنك تستطيعين أن تحوزيه بموجب شروطك الخاصة. وأنّ لا تستطيعين ذلك“. وإذ غمرته الشفقة على أخته، تنهدت وجذبها إلى ما بين ذراعيه، قائلا: ”انتهى الأمر، جوليا. بعض الأمور لا تستطيعين أن تجبريها بعد كسر“.

فاستندت جوليا إليه واستسلمت للدموع تماما. ولما استعادت هدوءها أخيرا، تراجعته وتهالكت على بنك رُخامي بارد في المختلى المظلل الصغير. فبعد مرقس معها. ونظرت إليه باكتئاب.

”تري، لماذا يضطرم الحب بضراوة بالغة حتى ليخيل إليك أنك ستحترق به، ثم حين ينتهي الأمر لا يبقى في فمك سوى طعم الرماد؟“

”لست أدري، يا جوليا. لطالما تساءلت أنا نفسي عن ذلك“.

”مع أريا؟“

فقال: ”مع أريا ومع غيرها“.

وخفقت على وجهها الشاحب عبسةً يسيرة. ”ولكن ليس مع هدسة. لماذا؟“

فقال برقة: ”إنها مختلفة عن أية امرأةٍ أخرى قابلتها على الإطلاق“. ثم أمسك يدي أخته. ”كم من العبدات على استعدادٍ للتضحية بحياتهن لحماية سيّداتهن؟ فلولا هدسة، لقتلك كائس. لقد خدمتك بأمانة، لا بدافع الشعور بالواجب مثل أخنوخ وبيثية والآخرين، بل بدافع المحبة. إنها شخصٌ نادرٌ ورائع“.

فكررت جوليا بكاللة: ”شخصٌ نادرٌ ورائع“. وأضافت: ”غير أنها ما زالت عبدة“. ”ليس إذا حررتها“.

فرمته جوليا، وقالت بسرعة: ”أنا في حاجة إليها!“ وقد شعرت بنوعٍ من الذعر مفاجيءٍ يتعدّد تفسيره. ”أنا في حاجة إليها الآن أكثر من أي وقتٍ مضى“. نظر مرقس من علٍ إلى بطنها المنتفخ، وأوماً برأسه موافقاً، وقال برقة: ”إذا سأنتظرُ إلى ما بعد ولادة الطفل“.

لم تردّ جوليا جواباً. بل اكتفت بالتحديق إلى الأرض. وشعر مرقس بقشعريرة غريبة تجتاحه حيال الفراغ الذي لمحه في عيني أخته.

٣٥

بعدَ مَخاضِ طويلٍ وعسيرٍ، ولدَتِ جوليا ابنَ أترتيسَ. وناولتِ القابِلَةُ هَدْسَةَ الطِّفْلِ الزَّاعِقِ . وقد كان الطِّفْلُ جميلاً وكامِلَ الخِلْقَةِ، فشعرتْ هَدْسَةُ بِفَرَحٍ عَذْبٍ يَغْمُرُها فيما غسَلتَه بانتِباهٍ وفركتَه بالملح . ثُمَّ لَفَّتَه بأقمطَةٍ مُدْفِئَةٍ وأقبلتْ لتَضَعَه بجانبِ أمِّه، قائلةً بصوتٍ خفيضٍ: ” هوذا ابْنُكَ، سيِّدتي! “ وابتسمتْ إذ انحنَتْ كي تُعْطِيها إِيَّاه .

فأشاحتْ جوليا وجهَها، وقالت بصوتٍ خَسِنٍ: ” خُذِيه إلى دَرَجِ الهيكلِ، واتركيه هناك . أنا لا أريدُه . “

شعرتْ هَدْسَةُ كما لو كانت جوليا قد طعنتها، وقالت مُتوسِّلةً بصوتٍ خافتٍ: ” سيِّدتي! رجاءٌ، لا تقولي أمورًا من هذا النوع . أنتِ لا تعنينِ ذلك . إنَّه طِفْلُكَ . “

فقالَت جوليا بأسى: ” هو ابنُ أترتيسَ . فليَتَرَبَّ عاهِرَ هيكلِ، أو عبدًا مثلَ أبيه تمامًا . “ ثُمَّ رفَعَت حَمَلَتَها نحو هَدْسَةَ . ” بل أفضلَ بعد: ضعيه على الصُّخُورِ كي يموت . ما كان ينبغي قَطُّ أن يولد! “

سألتِ القابِلَةُ: ” ماذا قالت؟ “ وقد توقَّفت يداها وهما تعصِران خِرْقَةً مُدْمِئَةً في المياه الباردة . وتراجعتْ هَدْسَةُ عن جوليا، مصعوقةً .

وتكلَّم صوتٌ من العتمة: ” قالَت: ضعيه على الصُّخُورِ . “

فضمَّتْ هَدْسَةُ غريزياً الطِّفْلَ ضمًّا أشدَّ .

واحتجَّتِ القابِلَةُ: ” ولكنْ لا عيبَ في هذا الطِّفْلِ . إنَّه كاملٌ . “

” ومَنْ أنتِ ليتَّقولي هذا؟ إنَّما الأُمُّ تُقرِّرُ ما يجري للطِّفْلِ، لا أنتِ . “ قالَت كالاباهُ هذا وهي تبرزُ من ظلالِ العُرفة، حيثُ كانت تنتظرُ نِهايَةَ المِحْنَةِ، وأصافت: ” إذا كانتِ السَيِّدة جوليا لا تُريدُ ذرِّيَّةَ رَجُلٍ، فليكنْ كذلك . فلها أن تتخلَّصَ منه، أو تحتفظَ به، كما تشاء . “ فانكسبتِ القابِلَةُ حِيالَ اقتراحِ كالاباه، وحوَّلتْ هذه عينيها الباردتينِ العديمتي الحياة نحو هَدْسَةَ .

انحنَتْ هَدْسَةُ لجوليا مُستميئةً: ” رجاءٌ، سيِّدتي، لا تفعلِي هذا! انظري إليه . رجاءٌ!

إنَّه جميلٌ . “

فصاحت جوليا: ”لا أريدُ أن أنظرَ إليه!“ وقد غطتْ عينيها بيديها الشاحبتين .
وقالت كالاباه تُهدئُها- وحملتُها ما زالت مُركزةً على هدسة- ”لستِ مُضطرةً إلى ذلك، يا جوليا“.

”سيديتي، سوفَ تندمين...“

”ما دام أترتس لا يُريده، فأنا أيضًا لا أريده! ما هو بالنسبة إليّ حتّى أضطرّ إلى الشعورِ باليأسِ كلِّما كان عليّ أن أنظرَ إليه؟ لم تكنِ غلطتي أنّي حبّلت. فهل يجبُ أن أعاني إلى الأبد بسببِ غلطة؟ تخلّصي منه!“

وبكى الطفلُ معولًا على نحوٍ يُثيرُ الشفقة، فيما ذراعاه الضئيلتان تتحرّكان باضطراب، وفمه الدقيق مفتوحٌ ومُترجف .

فزعتْ جوليا بجنون: ”أخرجي به من هنا!“

ثمَّ شعرتْ هدسةً بلسعةِ أصابعِ كالاباه القارسة، وأحسّت أنّها دُفعتْ بقوةٍ نحو الباب .
وقالت كالاباه: ”أفعلّي ما أمرتِ به!“ فغادرتْ هدسةً، وقد روعها ما رأته في عيني كالاباه .
وقفتْ خارجَ الباب، مُتسارعةً دقائق قلبها، مُمرضةً ومذعورة، والطفلُ يبكي على ذراعَيْها .
وتذكرتِ الطفلُ الآخرَ مدفونًا في حديقةِ برّوما، بلا شاهدةٍ تُشيرُ أدنى إشارةٍ إلى وجوده الوجودي .
فضمّتِ الطفلُ ضمًا أوثق، وهمست: ”ماذا أفعلُ يا ترى . أيُّها الصغير؟ ليس في وسعي أن أحتفظَ بك هنا . وليس في وسعي أن أخذك إلى أبيك . أه، يا الله، ماذا أفعل؟“

أغمضتْ عينيها بإحكام، باحثةً في ذهنها عن كلماتٍ تُرشدها، فوافتها الكلمة: ”أيُّها العبيد، أطيعوا سادتكم حسبَ الجسد، بخوفٍ ورعدة، في بساطةِ قلوبكم، كما للمسيح؛ لا بخدمة العينِ كمن يُرضي الناس، بل كعبيد المسيح، عاملين مشيئةَ الله من القلب...“
ولكن هل يعني ذلك أنّ عليها أن تُطعج جوليا؟ هل يعني ذلك أنّ عليها أن تُضع ابنَ أترتس على الصُخور كي يموت؟

مشيئةَ الله من القلب! استقرّ فكرها بثباتٍ على شعاعِ النورِ هذا . مشيئةَ الله، لا مشيئةَ جوليا . ولا مشيئةَ كالاباه شيفًا فُتانيوس، تلك المشيئةُ السوداء . ولا حتّى مشيئتها الشخصية . إذًا، فلتكن مشيئةَ الله .

أخذتْ هدسةَ الطفلِ بسرعةٍ إلى حشيتةِ نومها، ولقته بِسَالِها جيّدًا حتّى باتَ مَشدودًا ودافئًا . ثمَّ حملته على ذراعَيْها من جديد، وغادرتِ المنزل .

أفسس

كان هواء الليل بارداً، وبكى الطفل على نحو يُثير الشفقة. فاحتضنته احتضاناً أوثق، وكلمته برفق كي يستكن. كان مقصدها بعيداً بعض الشيء، ولكنها- حتى في الظلام- لم تخذ مرةً عن سبيلها. ولما وصلت إلى البيت المقصود، قرعت ففتح لها الباب.

عرفت الرجل من اجتماعات سبق أن حضرتها. فقالت له: ”كلوياس، ينبغي أن أقابل يوحنا“. لقد أيقنت أن يوحنا سيتعرض للخطر إذا علم أحد أنها جاءت بالطفل إليه. وكذلك أيضاً سيتعرض للخطر أي شخص ساعدها على عصيان سيديتها. وقد اعتقد الرومان أن لهم حق الحياة والموت على أولادهم. غير أن هدسة كان مسؤولة أمام الله، لا أمام روما. ابتم كلوياس، وقد أشرقت عيناه بتأثر لم تفهمه هدسة. ”قال يوحنا إنك آتية. ما نزال نصلي منذ الصباح. ادخلي. إن يوحنا مع رصفة“.

كانت هدسة تعرف الشابة التي مات زوجها وطفلها بواحد من الأمراض الكثيرة التي ابتليت بها الإمبراطورية، وذهبا ليكونا عند الرب. فتبعت كلوياس إلى الدرج فيما اصطحبها إلى عليّة البيت. وقد كان يوحنا جالساً مع رصفة ورأسهما مطأطان، وأيديهما مشبوكة، فيما كانا يصليان معاً. وما إن دخلت هدسة، حتى كلم يوحنا رصفة، وأرخصي يديها، ثم نهض. وهمست هدسة باحترام رزين: ”يوسفني أن أقاطعكما، سيدي. لقد أرادت أن ألقيه على الصخور. إلا أنني لم أستطع فعل ذلك، يا يوحنا. ليست مشيئة الله أن يترك طفل حتى يموت، ولكنني لم أدر أين أمضى به إلى غير هذا المكان“.

فقال يوحنا: ”لقد جئت إلى حيث أرشدك الله“. ثم تناول الطفل من على ذراعيها، فوقفت رصفة على مهل وتقدمت إليه. وقد استقرت عيناهما بحنو على الطفل. وقال يوحنا: ”أم بلا طفل، وطفل بلا أم“.

بسطت رصفة ذراعيها، فوضع يوحنا عليهما ابن أترتيس. فاحتضنته رصفة بشدة على إحدى ذراعيها، ولمست وجهه. فتحركت يده الضئيلة باضطراب بحثاً عن شيء ما. ومست رصفة أصابعه الرقيقة، فتمسك بإحدى أصابعها وتشبث بها بقوة. وكف عن البكاء. فضحكت رصفة بفرح. ”حمداً للرب! لقد أبدى الله لي رحمة. يعظم قلبي الرب، لأنه أعطاني ابناً أزييه لمجده!“

تلقى مرقس من يرمس خبير إنجاب جوليا طفلاً. وانتظر بضعة أيام كي يُتيح لها وقتاً لتستريح، ثم مضى إليها.

قال بريئوس: "لا أدري هل سمعت بالخبر، ولكن الطفل مات".

فسأل مرقس مُنزعجاً: "كيف؟"

"هِيَ مَشِيئَةُ الْإِلَهَةِ. إِنْ كُنْتَ تَحُبُّهَا، فَلَا تَسْأَلُهَا شَيْئًا عَنْهُ. إِنَّهَا مُحَبَّبَةٌ جَدًّا، وَأَخْرُجُ أَمْرًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ الْبَحْثُ فِي مَا جَرَى، دَعَمَهَا تَنْسَ".

تساءل مرقس هل كان قد أساء الحكم على بريئوس. فرمما لم تكن علاقته بجوليا أنانية صرَفًا. ووافق مرقس قائلاً: "سأتوَّخَى الْحَذَرَ الشَّدِيدَ فِي حَدِيثِي مَعَهَا". ثُمَّ دَخَلَ إِلَى مَهَجِّ جُولِيَا.

كانت هَدْسَةٌ تَرْفَعُ صِينِيَّةً. فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَانْحَنَّتْ بِاحْتِرَامٍ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنَ الْغُرْفَةِ بِسُرْعَةٍ. وَانْقَبِضَتْ عَضَلَةٌ فِي حَنْكِهِ إِذْ رَاقَبَهَا تَمَاضِي، ثُمَّ اقْتَرَبَ إِلَى السَّرِيرِ. وَرُغَمَ كَوْنُ جُولِيَا شَاحِبَةً، ابْتَسَمَتْ وَمَدَّتْ يَدَيْهَا لَهُ.

قَالَتْ: "سَاعِدْنِي عَلَى الْجُلُوسِ". وَأَسْنَدَ ظَهْرَهَا بِالْوَسَائِدِ، لَكِي يُرِيحَهَا.

فَقَالَتْ: "عِنْدِي كَثِيرٌ جَدًّا أَخْبِيرُكَ بِهِ". ثُمَّ قَضَتْ السَّاعَةَ التَّالِيَةَ تَسْرِدُ قِصَصَ بَرِيئُوسِ الْمُنْمَقَةِ عَنْ شَخْصِيَّاتٍ مَعْرُوفَةٍ جَيِّدًا فِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ. وَقَدْ أَمْسَكَتْ يَدَ مَرْقُسَ بِأِحْكَامٍ، وَكَانَتْ تَضْحَكُ.

لَمْ تَأْتِ عَلَى ذِكْرِ الطِّفْلِ مَرَّةً وَاحِدَةً.

وَلَكِنْ رُغَمَ كُلِّ تَظَاهُرِهَا بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ فِي حَالِ سَوِيَّةٍ، رَأَى مَرْقُسَ أَنَّ شَيْئًا مَا قَدْ فَارَقَهَا... شَرَارَةً مَا، جُزْءًا مَا مِنْ حَيَاتِهَا. وَلَمْ يَدْرِ مَاذَا كَانَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ كُلُّ مَا عَلِمَهُ أَنَّ بَعْضًا مِنَ الثُّورِ قَدْ وُلِيَ مِنْ عَيْنَيْهَا وَأَنَّ قَسَاوَةً قَدْ حَلَّتْ مَحَلَّهُ.

قَالَتْ جُولِيَا مُدْفِعَةً: "لِمَاذَا تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا؟ وَأَنْتَ لَمْ تَكُنْ تَقُولُ كَلِمَةً وَاحِدَةً!"

أَلْقَى مَرْقُسَ يَدَهُ بِرِفْقٍ عَلَى خَدِّهَا. "إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ بِأَنَّ أُخْتِي الصَّغِيرَةَ بِخَيْرٍ".

فَرَمَقَتْ وَجْهَهُ بِنُظْرَةٍ فَاحِصَةٍ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: "نَعَمْ، أَنَا بِخَيْرٍ". ثُمَّ تَحَاوَبَتْ مَعَ لَمْسَتِهِ، وَأَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى يَدِهِ. "مَاذَا كَانَ فِي وَسْطِي أَنْ أَفْعَلَ لَوْلَاكَ؟ إِنَّكَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي فَهَمَّنِي يَوْمًا".

إِلَّا أَنْ مَرْقُسَ نَسَاءَلَهُ: هَلْ فَهَمَّهَا حَقًّا؟ هَلْ فَعَلَ ذَلِكَ؟

وَانْكَمَشَتْ جُولِيَا قَلِيلًا. "حَتَّى هَدْسَةٌ لَمْ تَعُدْ تَفْهَمُنِي".

"لِمَاذَا تَقُولِينَ هَذَا؟"

"لَسْتُ أَدْرِي. إِنَّهَا تَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِالْانْتِزَاعِ فَحَسَبَ". وَهَزَّتْ رَأْسَهَا. "لَا بَأْسَ."

سَيَزُولُ هَذَا كُلُّهُ، وَسَيَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ“.

وعند مُغَادَرَتِهِ، رَأَى هَدَسَةَ قَاعِدَةً عَلَى الْبَنكِ الرَّخَامِيِّ. غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَرْفَعْ رَأْسَهَا، وَلَا نَظَرَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَهُوَ لَمْ يُجَازِفْ بِالاقْتِرَابِ إِلَيْهَا وَإِمْدَادِ پَرِيْمُسَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْوَقُودِ لِطَاحُونَةِ شَائِعَاتِهِ. فَبَعْدَ أُسْبُوعٍ أَوْ أُسْبُوعَيْنِ، سَتَكُونُ جُولِيَا قَدْ تَحَسَّنَتْ بِحَيْثُ تُطَلِّقُ سَرَاحَهَا. وَعِنْدَئِذٍ سَيَمْضِي بِهَا وَيَتَزَوَّجُهَا.

فِي زِيَارَةِ مَرْقُسَ الثَّانِيَةِ، كَانَتْ جُولِيَا مَعَ پَرِيْمُسَ فِي قَاعَةِ الشَّفْرَةِ، مُتَّكِنَةً بِشَكْلِ مُرِيحٍ عَلَى إِحْدَى الْأَرَائِكِ، وَضَاحِكَةً لَوَاحِدَةٍ مِنْ نِكَاتِهِ الدَّاعِرَةِ.

قَالَتْ: ”مَرْقُسُ، عَلَيْكَ أَنْ تَقْعُدَ مَعْنَا“. وَقَدْ سُرَّتْ بِرُؤْيَتِهِ. ثُمَّ أَضَافَتْ: ”خُذْ شَيْئًا تَأْكُلْهُ“. وَلَوْحَتْ بِيَدَيْهَا نَحْوَ طَبَقٍ مِنَ الْأَطْيَابِ الْغَالِيَةِ. ”پَرِيْمُسُ، احْكُ لَه الْقِصَّةَ الَّتِي حَكَيْتَهَا لِي تَوًّا. إِنَّهَا سَتُصَحِّحُكَ. وَمَرْقُسُ يَحْتَاجُ إِلَى الضَّحِكِ. فَطَالَمَا كَانَ بِالْغِ الْجِدِّيَّةِ مُؤَخَّرًا“.

فَقَالَ پَرِيْمُسُ: ”حَسَنًا، مَرْقُسُ؟ كُنْتُ تَحَبُّ قِصَصِي“. وَسَكَبَ لِنَفْسِهِ مَزِيدًا مِنَ الْخَمْرِ، ثُمَّ أَضَافَ: ”إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تُسَلِّيكِ. لِيَتَنِي أَعْرِفُ السَّبَبَ“.

وَقَالَ مَرْقُسُ بِصَرَاحَةٍ: ”رَبِّمًا لِأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ عَلَى حَقِيقَتِهَا: أَنْصَافَ حَقَائِقَ مَحْبُوكَةً فِي أَكَاذِيبٍ خَبِيثَةٍ“.

”مَا كَذَبْتُ بِشَأْنِكَ قَطَّ“.

فَتَجَاهَلَهُ مَرْقُسُ وَوَجَّهَ اتِّبَاهَهُ نَاحِيَةَ أُخْتِهِ. ”كَيْفَ حَالُكَ، يَا جُولِيَا؟“

أَجَابَتْ بِتَرَاحٍ: ”أَنَا بِخَيْرٍ“. فَمُنْذُ أَنْ عَرَفَتْهَا كَالْأَبَاهِ أَكَلَّ النَّيْلُوفَرِ (اللُّوْتُسُ)، انْقَطَعَتْ أَحْلَامُهَا الْمَزْعُجَةَ وَطَفَّتْ عَلَى بَحْرِ سَاكِنِ مِنَ الْإِحْسَاسَاتِ الْغَائِمَةِ.

وَإِذْ رَمَقَهَا مَرْقُسُ بِنَظَرَةٍ مُتَّجِهَةً، فَهَقَّهَتْ قَائِلَةً: ”يَا مَرْقُسُ الْمِسْكِينِ! لَطَالَمَا كُنْتُ كَثِيرَ الْمَرِّحِ. فَمَاذَا حَلَّ بِكَ؟ أَذَلِكَ لِأَنَّكَ كُنْتُ قَلِقًا عَلَيَّ؟ لَا تَقْلُقْ. إِنِّي أَشْعُرُ بِأَنِّي أَحْسَنُ حَالًا مَنِّي فِي أَيِّ وَقْتٍ مَضَى“.

فَقَالَ پَرِيْمُسُ، رَافِعًا كَأْسَهُ: ”كَلِمَاتٌ تَسُرُّ أُذُنِيهِ وَأُذُنِي!“ ثُمَّ لَوَّى فَمَهُ، وَأَضَافَ: ”أَعْطِهِ مَا يُرِيدُ، يَا جُولِيَا. أَعْطِهِ عِبْرَانِيَّتِكَ الصَّغِيرَةَ“.

فَقَالَتْ مُتْنَهِّدَةً: ”هَدَسَةَ. هَدَسَةَ الصَّغِيرَةَ الْحُلُوةَ الطَّاهِرَةَ“. وَقَدْ عَلِمَتْ جُولِيَا أَنَّ تَرَدُّدَهَا أَثَّرَ فِي مَرْقُسَ أَقْلًا مِنْهُ فِي پَرِيْمُسَ، إِذِ ادَّعَى هَذَا أَنَّ حُضُورَ هَدَسَةَ أَرْعَجَ أَهْلَ الْبَيْتِ جَمِيعًا. فَقَدْ قَالَ إِنَّهُ بَدَأَ كَمَا لَوْ أَنَّ عِطْرًا يَكْتَنِفُهَا أَيْنَمَا ذَهَبَتْ، عِطْرًا كَانَ طَيِّبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى

بعضهم، ولكن بالنسبة إليه كان رائحة نينة تزكم أنفه. وقال إن پروميثيوس سيَتَصَرَّفُ حسب طبيعته من جديد إذا ذهبَت هَدَسَةٌ.

قالت جوليا: ”لا أدري هل يُمكنني التَّخَلِّي عنها“. ورأت وجهَ پريمس يتَوَتَّر. فقال مرقس - وصوته مَشْدُودٌ من الانزعاج - ”جوليا!“ إذ لم يكن مُضْطَّرًّا إلى تذكيرها بأنَّها قد وافقت أصلاً على التَّخَلِّي عن هَدَسَةَ، ولا بأنَّه لم يردَّ أيَّ دورٍ في تمثيليتها الجانبية مع پريمس.

”حَسَنٌ جدًّا. عِدْنِي فقط بأن تُرْسَلَهَا إِلَيَّ من جديد حين تَصْجُرُ منها“.

فخرج مرقس من العُرفة بِخُطَى واسعة، ومضى باحْتِئًا عن هَدَسَةَ.

وقال پريمس مُستهزئًا: ”لا يَسْعُه أن يَصْطَبِرَ حَتَّى يَسْتَمْتَعَ جِدًّا بطهارتها. أتساءل هل يضي عنها سليماً من الأذى؟“

قَامَت جوليا فجأةً عن أريكتيها، وتكلَّمت بصوتٍ خفيض مُفْعَمٍ بِالغَيْظ... وبالتَّهْدِيد: ”إن تَفَوَّهَتْ بكلمةٍ واحدةٍ عن أخي، فسأجعلك تندم. أتفهم؟ لا أحدٌ يضحك على مرقس. لا أحد!“ ثم خرجت من العُرفة.

وإذ لعنها پريمس في سرِّه، أفرغ كأسه في حَلِقه.

كانت هَدَسَةُ قد عَلِمَتْ أَنَّ مرقس سيأتي في طلبها. عَلِمَتْ ذلك من لحظة تناوَل دَسِمُس يدها وضمَّ إليها يد ابنه، من لحظة نظَّر مرقس إليها آنذاك. وكلَّما كان على مَقْرِبَةٍ منها، ارتجفت مَشْدُودَةً بين حُبِّها له وعِلْمِها أنَّهما لا يمكن أن يعيشا معًا، ليس والأُمُورُ على ما هي عليه الآن. وليلة بعد ليلة، جثت على ركبتيها وتضرَّعت إلى الله أن يلين قلبَ مرقس، أن يهديه إلى الحقِّ. وقد صلَّت - خائفةً ألا تحوز القُوَّةَ لكي تتحوَّل بنفسها عنه - ”يا رب، إذا لم يَهْتَدِ، فحوِّله بعيداً عني“.

ولكن لما دخلَ مرقس مهجعَ جوليا، علمتْ هَدَسَةُ أنَّها على وشك أن تُبتلى بالنَّار. فقد نظَّرَ إليها، وتأجَّجَ في عينيه الغَرَضُ من مجيئه، جاعلاً إيَّها تهيمُ برغبتها الشخصية فيه. ثمَّ أقبلَ إليها، فاحتضنَ وجهها بيدينِ مُرْتَجِفَتَيْنِ. وقبلها برقة، فأثارتْ لمسته فيها توقُّفاً حُلُواً اجتاح جسدها. وقال بصوتٍ خافت، من شدَّة العاطفة: ”لقد أطلقتْ جوليا سراحك. فحالمًا يتيسَّرُ تدوينُ الوثائق، ستكونين حُرَّة، وسأتمكَّن من التزوُّج بك“.

وخرجت عنها شهقةٌ رقيقة، صارخاً قلبها إلى الله.

ثُمَّ قَالَ مَرْقُسُ بِصَوْتِ أَجَشٍّ: ”أَنَا أَحِبُّكَ. أَنَا أَحِبُّكَ كَثِيرًا جَدًّا“. وَغَرَزَ أَصَابِعَهُ فِي شَعْرِهَا، وَقَبَّلَهَا ثَانِيَةً.

ذَابَتْ هَدْسَةٌ مُقَابِلَهُ. وَمِثْلَ طُوفَانٍ، غَمَرَهَا شَعْفُهُ وَجَرَفَهَا بِمَدِّهِ الْحَارِّ الْمُتَدَفِّقِ. فَتَسَيَّتْ أَنَّ مَرْقُسَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ. وَنَسِيَتْ أَنَّهَا هِيَ تَوْمِنُ بِهِ. إِذْ تَرَكَّزَتْ جَمِيعُ حَوَاسِّهَا عَلَى مَرْقُسَ: وَقَعَ تَنْفُسِهِ، حَسَّ دَقَّاتِ قَلْبِهِ الْمُتَسَارِعَةِ تَحْتَ رَاحَتِي يَدَيْهَا، قُوَّةَ ذِرَاعِيهِ حَوْلَهَا. وَإِذْ غَاصَتْ فِي بُحْبُوحِ الْإِحْسَاسِ، نَسِيَتْ كُلَّ مَا كَانَتْ تَعْرِفُهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَالتَّصَقَّتْ بِمَرْقُسَ.

وَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَجِفُ، تَرَاوَجَ قَلِيلًا وَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَيَدُهُ تَحْتَضُنُ قَفَا رَأْسِهَا. وَقَالَ بِصَوْتِ يَصِيرُ صَرِيحًا: ”أَنَا أُرِيدُكَ. أَنَا أُرِيدُكَ كَثِيرًا جَدًّا“. وَغَمَرَتْهُ النَّظَرَةُ الْمُرْتَسِمَةُ فِي عَيْنَيْهَا بِالْإِتِهَاجِ الشَّدِيدِ. فَقَالَ - مُحَاوِلًا أَنْ يَلْتَقِطَ نَفْسَهُ - ”أَهْ هَدْسَةٌ. كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّي أَعْرِفُ مَا هِيَةَ الْحُبِّ. كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّي أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُ“. ثُمَّ مَسَّ قَسَمَاتِ وَجْهِهَا، مُحِبًّا إِيَّاهُنَّ، مُتَتَبِّعًا إِيَّاهُنَّ بِأَصَابِعِهِ، مُحَاوِلًا أَنْ يَسْتَعِيدَ السَّيْطَرَةَ عَلَى عَوَاطِفِهِ الْمُصْطَلِحَةِ.

وَسَرِعَانَ مَا قَالَ ثَانِيَةً بِصَوْتِ أَجَشٍّ - مُبْعِدًا إِيَّاهُ عَنْهُ - ”إِنِّي أُرِيدُكَ، عَلَى نَحْوِ فَوْقِ الْحَدِّ بِحَيْثُ أَتَأَذَى. وَلَكِنِّي أَتَذَكَّرُ آخِرَ مَرَّةٍ فِيهَا سَمَحْتُ لِنَفْسِي بِأَنْ أَفْقِدَ السَّيْطَرَةَ مَعَكَ، وَلَنْ أَدَعُ ذَلِكَ يَحْدُثُ مَرَّةً أُخْرَى. لَيْسَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ“.

لَدَى سَمَاعِ كَلِمَاتِهِ هَذِهِ، أَطْلَقَتْ هَدْسَةٌ شَهْقَةً مُتَقَطَّعَةً سَيْرَةً، وَقَدْ انْقَشَعَ ضَبَابُ الشَّعْفِ أَمَامَ جَلَاءِ مَا وَاجَهَتْهُ. فَالْقَلَّتْ نَفْسَهَا بَيْنَ ذِرَاعِيهِ مِنْ جَدِيدٍ وَهِيَ تَرْتَجِفُ. وَأَسَاءَ مَرْقُسَ فَهَمَّ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهَا - مُبْقِيًا إِيَّاهَا بَعِيدَةً عَنْهُ - ”إِذَا مَارَسْنَا الْحُبَّ الْآنَ، فَلَنْ أُنْذِمَ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا. وَلَكِنِّكَ أَنْتِ سَتَنْدَمِينَ. الطَّهَارَةُ حَتَّى الزَّوْجِ. أَلَيْسَتْ هَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ شَرَائِعِ إِلَهِكِ؟ إِنَّ الدِّينَ لَا يَعْنِي لِي شَيْئًا. وَلَمْ يَعْنِ لِي شَيْئًا قَطُّ. غَيْرَ أَنَّهُ يَعْنِي لِي كُلَّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا السَّبَبُ سَأَنْتَظِرُ. فَكُلُّ مَا يَهْمُنِي هُوَ أَنِّي أَحِبُّكَ. وَلَا أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا أَيُّ شَيْءٍ يَدْعُو إِلَى التَّنْذِمِ“.

أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا. لَقَدْ قَالَ: إِلَهِي! وَمَنْ تَمَّ عَلِمَتْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَجِبْ صَلَوَاتِهَا. فَقَالَتْ هَمْسًا، مَكْسُورَةَ الْفُوَادِ: ”أَهْ مَرْقُسُ! أَهْ مَرْقُسُ...“ وَعَشِيَّتْ عَيْنَاهَا بِالذَّمُوعِ. ”لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِكَ“.

فَعَبَسَ قَلِيلًا. ”بَلَى، تَسْتَطِيعِينَ. لَقَدْ قَلْتُ لِي تَوَّأَ إِنَّ جُولِيَا وَافَقَتْ عَلَى إِعْطَائِي إِيَّاكَ. وَأَبِي أَعْطَانَا بَرَكَتَهُ. كَذَلِكَ أُمِّي أَيْضًا. فَسَتَزَوَّجُ حَالِمًا يَتَيْسَّرُ لِي تَرْتِيبُ الْأَمْرِ“.

فَتَرَاوَجَتْ عَنْهُ، وَغَطَّتْ وَجْهَهَا، بَعْدَمَا قَالَتْ: ”إِنَّكَ لَا تَفْهَمُ الْحَقِيقَةَ“. ثُمَّ أَضَافَتْ:

“آه، يا الله، لماذا يجب أن أختار؟”

رأى مرقس عذابها، غير أنه لم يفهمه. فأمسك بكتفيها. “إن جوليا قد أطلقت سراحك. إنها لم تعد تريدك.”

“لا أستطيع أن أتزوج بك، يا مرقس! لا أستطيع!” ثم التفتت بعيداً لأنها خافت أن تنظر إليه، خشية أن تضعف وتذعن له بدل أن تطيع الله.

فأدارها مرقس نحوه بخشونة: “ماذا تعنين بقولك إنك لا تستطيعين؟ أي أمر يثنيك؟ أي إنسان يمنحك؟ أنت تحبينني، يا هدسة. وأنا أشعر بذلك عندما أمسك. وأرى ذلك في عينيك.” قالت: “نعم، أنا أحبك. ربما كان هذا هو السبب. لعلي أحبك فوق الحد.”

“فوق الحد؟ كيف تستطيع امرأة أن تحب رجلاً فوق الحد؟” ثم خيل إلى مرقس أنه فهم مرادها. “أنت تخشين أن يقول أصدقائي إنني تزوجت بعبدة، أليس كذلك؟” فإن اهتمامها بالآخرين كان يتقدم دائماً على حاجاتها الشخصية. “لا يهمني ذلك، يا هدسة. فليقولوا ما شاءوا.”

علم مرقس أنه ذات مرة احتقر رجلاً حرر عبده لكي يتزوج بها، ولكنه آنذاك لم يكن قد أدرك كيف يمكن أن يهدم الحب الحواجز بين سيد وعبدة. ولم يكن آنذاك قد أدرك كم يمكن أن تكون امرأة مهمة في نظر رجل.

هزت هدسة رأسها رفضاً. “لا، يا مرقس. ليس ذاك هو السبب. فأنا لا أستطيع أن أتزوج بك لأنك لا تؤمن بالرب.”

فتنفس مرقس الصعداء. “أذلك كل ما يقلقك؟” ثم دس خصلة من شعرها وراء أذنها، وابتسم ابتسامة خفيفة. “أي فرق يحدث ذلك؟ إنه ليس مهماً. فما أومن به، أو لا أومن به، لا يغير مقدار حُبنا الشديد أحدنا للآخر. إن ذلك لا يحدث أي فرق.”

“إنه يحدث فرقاً كبيراً.”

“لا، إنه لا يحدث.” ومس وجهها برفق، محبباً ملمس بشرتها وكيف رقت عينها. “هي مسألة تسامح وتفهم، يا هدسة. هي مسألة حُبنا الواحد للآخر والإفساح للحرية داخل علاقتنا. إن أبي لم يجعل قط قضية من تعبد أمي للإلهة والإلهات لم يكن يؤمن بهم. فليكن هكذا. تعبدي لإلهك غير المنظور. إنني لن أمنعك أبداً. وستكون لك خصوصية بيتنا كي تفعلي ما شئت.”

”وماذا بشأنك أنت، يا مرقس؟ لِمَنْ سَتَعْبُدُ؟“

فرفع وجهها وقبلها. ”لك، يا حبيبتي. لك وحدك“.

صاحت: ”لا!“ متحررةً منه بعد جهد. ثم أشاحت وجهها عنه، والدموعُ جاريةً على خديها.

وضع مرقس يديه على كتفيها، وقبل عنقها. فأحس نبضها المتسارع تحت شفتيه. ”ماذا يَسْعُنِي أَنْ أَقُولَ كِي أَطْمَئِنُّكَ بِأَنَّ الْأَمَرَ كُلَّهُ سَيَكُونُ عَلَيَّ مَا يُرَامُ؟ إِنِّي أَحِبُّكَ حُبًّا شَدِيدًا يَحْمِلُنِي عَلَيَّ التَّسَامُحُ فِي أَمْرِ دِيَانَتِكَ“.

”التسامح. لا الإيمان“. ثم التفتت هدسةً، ورنت إليه، قائلةً بوهن: ”كيف يتأتى لي أن أفهمك؟ عندما يُقرن ثورانٍ معًا تحت نيرٍ واحد، يجب أن يشدَّ في الاتجاه نفسه، يا مرقس. فإن شدَّ أحدهما نحو اليمين، والآخر نحو اليسار، فماذا يحصل؟“

فقال ببساطة: ”يفوز القوي“.

”وهكذا ستكون حالنا. فلا بُدَّ أن تفوز أنت“.

”لسنا ثورين، هدسة. نحن إنسانان“.

خاضت صراعًا داخِلَ نفسها. فقد أرادت أن تكون معه، أن تحس ذراعيه حولها، أن تلد أولاده وتهرم معه... ولكنها سمعت إنذار الرب، فكان عليها أن تصغي إليه. ”إذا اقتربت بك تحت نير الزواج، إذا أصبحت لحمًا من لحمك، فسيغدو إرضائك أهمَّ شيءٍ في حياتي“.

”أليس ذلك هو ما ينبغي أن يكون؟ فالزوج يتولى القيادة والزوجة تتبعه“.

قالت: ”ستشدني بعيدًا عن الله“.

ففكر: الله! وقد ثار غضبه على إلهها غير المنظور. الله. الله. ”لقد قلتُ من توي إنك تستطيعين أن تعبدي أيَّ إلهٍ اخترته“.

ورأت غضبه، فأيد ذلك خوفها فحسب. ”أول الطريق، ستسمحُ بالأمر. ثم تتغير الحال. حتى إنك لن تدري متى أو كيف. ولن أدري أنا أيضًا. إنما سيجري ذلك بطرق يسيرة تبدو غير مهمة، ثم شيئًا فشيئًا، ويومًا فيومًا، ستشدني حتى أغدو سائرةً معك خطوةً خطوةً، لا تايعةً الله“.

”أيكون ذلك خاطئًا جدًّا؟ ألا ينبغي للزوجة أن تضع زوجها فوق كلِّ ما عداه؟“

”ليس فوق الله، ليس فوق الله أبدًا. فمن شأن ذلك أن يعني الموت لِكَلِينَا“.

فثأر نأثره. ”لا، لن يعنى ذلك. فأن تُحِبِّينى بدلاً من إلهك هذا أمرٌ لا بد أن يعنى الحياة، الحياة كما لم تختبرها قط. لا نير عليك“. وإذ أغمضت عينها، تفوه بلعنة، وأضاف:

”لماذا يجب دائماً أن نرجع إلى إلهك هذا؟“

”لأنه هو الله، يا مرقس. هو الله!“

فأمسك وجهها بإحكام. ”لا تُسِحي بناظرِكِ بعيداً عني. انظري إلي!“ ولما امتثلت، علم أنها كانت تنزلق مُبتعدةً عنه، ولم يدر كيف يتمسك بها. ”أنتِ تُحِبِّينى. وأنتِ أقررتِ بذلك. فماذا لكِ في معيَّته؟ نيرٌ عبودية. لا زوج، ولا أولاد، ولا بيت تُسمِّينه بيتك. ومُستقبلٌ مُتطوِّلاً جداً من الأمورِ نفسها، ليسَ غير“. ثمَّ لأنَّ إمساكها بها، وأضاف: ”وماذا سأعطيكِ أنا؟ الحُرِّيَّة، حُبِّي، أولادي، شَغْفِي الشَّدِيد. إنَّك تُريدين هذه الأمور، أليس كذلك؟ قولي لي إنَّك لا تُريدينها، يا هُدْسَة.“

وأفتها الدُموع، مُنزَلقةً على خديها الشاحِبين، فيما حاولت جاهدةً جداً أن تَقِفَ بثبات. ”أنا أريدُ هذه الأمورَ فعلاً، إنَّما ليسَ إذا كان الأمرُ يعنى المساومةَ على إيماني، ليس إذا كان يعنى التحوُّلَ بعيداً عن الله. وذلك هو ما سيَعينيه. أما ترى، يا مرقس؟ فإنَّ أعددتِ العُدَّةَ لهذه الحياة وانصرفتِ مُبتعدةً عن الله، أكونُ حكيمةً زَمناً سيرا، لكنَّ هالكَةً إلى الأبد“. ثمَّ وضعتْ يديها برقةً على يديه. ”وكذلك أنتِ.“

فأفلتتها مرقس.

ورأت هُدْسَة سيماءَ وجهه: الأملُ مُبدِّداً، الكبرياءُ مُهشَّمة، الغضبُ الدَّفاعيُّ مُحْتدِماً. وأرادت أن تمُدَّ له يدها. ثمَّ همست بانكسار، مُوجعةً وخائفةً منه: ”أه، مرقس!“ فماذا لو تزوجا فعلاً؟ أمِنَ شأنِ إيمانها أن يُبرِّزه؟ لقد خارت عزمُها. وقالت ثانيةً: ”أه مرقس!“

فقاومَ العاطفتين اللَّتين تَخْتُنانه: الحُبُّ لها والبُغضُ لإلهها، وقال مُتهكِّماً: ”أمرٌ مُثيرٌ للرَّثاء، يا هُدْسَة! لن تعرِّفي البتَّةَ ما قد رَفَضْتَه، أتعرفين؟“ ثمَّ تحوَّلَ عنها وخرجَ من العُرفة بِخُطى واسعة.

وإذ حارَ مرقس وتردَّد في طريقه عن كلِّ ما حوله، اجتاز الممرَّ هابطاً الدَّرَجَ اثنتين اثنتين. شاهدته جولياً يمضي، من حيث كانت واقفةً خارجَ البابِ تماماً. فتكورت يدها قبضةً. لقد سمعت هُدْسَة إذ رَفَضْتَه. عبدة ردت أخاصا خائباً! عندئذٍ أحسَّت إذلاله، وأحسَّت غيظه، فاقشعرَّ بدنها حيال ذلك.

وإذ نظرت إلى داخل العُرفة، رأت هُدْسَة جاثيةً على رُكبتيها، مُنحنيةً، باكية. فراقبتُها

ببرودة. وما كانت قط قد كرهت في حياتها أحداً مثل هذا الكره الشديد: لا أباه، ولا كلاوديوس، ولا كائس... لا أحداً.

لقد عميت عما كانت هُدسة. أما كالاباه، فقد أبصرت: "إنها ملح في جراحك". ويريمس قد أبصر: "إنها شوكة في خاصرتك". إنما هي وحدها خدعت. ورجعت إلى قاعة السفارة.

فسألها ويريمس: "هل انصرف مرقس؟" وكان واضحاً أنه أخذ في الشكر.

وإذ حاولت أن تُبقي صوتها ثابتاً وألا تُبدّي مشاعرها، قالت: "نعم! ولكن هُدسة باقية هنا مدةً بعد". لقد كان ويريمس ذكياً إلى حد يفوق المؤلف، ولم تُرد له أن يُلْفَقَ قِصصاً قتالة لإحزاء أخيه. فقالت كاذبة: "قلت له إنني غيرُ مُستعدة بعد للتخلي عن هُدسة".

إذ ذاك سب ويريمس الآلهة، سائلاً: "متى ستكونين مُستعدة؟"

قالت: "عاجلاً، عاجلاً جداً". وقد وقفت تحت الممر المُنقَطَر، رافعةً نظرها. وإذا هُدسة خارجة من الغرفة، حاملةً دلوً غسل، قائمةً بواجباتها وكأن شيئاً لم يكن. فقالت: "أما دعانا قَتليوس إلى وليمة احتفالاً بعيد ميلاد الإمبراطور فسبازيان؟" أجاب: "بلى، ولكنني رفضت من أجلك". والتوى فمه بتهمك. "قلت له إنك فقدت ابناً وإنك والهة حُزنًا عليه".

لدى ذكر طفلها، سرى في أوصالها ألمٌ غامض. ولم تُرد أن تجعله يتنبه إلى أن كلماته أصابت الهدف، فقالت: "أرسل إليه خبراً بأننا سنحضر".

"كنت أظن أنك تشمئز من قَتليوس".

فالتفتت، وابتسمت له ابتسامة ازدياء. "صحيح، ولكنني أرى أنه ينفعني في شيء".

"وأني نفع لك فيه، عزيزتي جوليا؟"

"سرتي، يا ويريمس. وأعتقد أن المسرحية ستمتعك حينما تتكشف".

سمعت فيبي جسّ مرقس عند رجوعه. فخرجت مُتلهفةً من مهاجعها، ورأته صاعداً الدرج الرُخامي. وما إن رأت وجهه حتى غاص قلبها. وإذ تنبه إلى حضورها، رفع نظره نحوها.

قال: "ستبقى هُدسة عند جوليا". ثم دخل غرفته.

وإذ أفلقتها سيماؤه، لحقت به. "ماذا جرى، يا مرقس؟"

”ليس شيء لم يكن ينبغي أن أتوقَّعه“. قال هذا بمرارة، وسكبت لنفسه شيئاً من الخمر. ثم رفع كأسه ليشرب نخباً: ”كأس إلهها غير المنظور. عسى أن يسرَّ بأمانتها!“
 راقت فيبي ابنها يجترع الكأس حتى الثمالة، ثم يُحدق إليها باكتئاب. فسألته ثانية برقة: ”ماذا جرى؟“

وضع الكأس خبطاً على الصينية. وقال، مُزدرياً ذاته: ”تبدت كبريائي، فرمت بها مُجدداً. ذلك هو ما جرى، يا أمّاه“. ثم خرج إلى السطّيحة، فتبعته فيبي. وإذ تشبّت بالدرابزين، وضعت يدها برق على يده.
 ”إنها تحبك، يا مرقس“.

فسحب يده تترًا من تحت يدها. ”لقد عرضت عليها أن أتزوج بها. أتودين أن تعرفي جوابها؟ قالت إنها لا تريد أن تكون تحت نير واحد مع شخص غير مؤمن. لا سبيل إلى المنطق حيال إيمان كالذي لها. لا مساومة. إله واحد! إله واحد فوق ما عداه جميعاً! فليكن كذلك. في وسع إلهها أن يملكها“.

ثم أشاح وجهه، وقد شحبت أصابعه على الدرابزين من جديد. وقال متجهماً- عاقداً عزمه على طرح هدسة وراء ظهره- ”لقد انتهى الأمر، أمّاه!“
 كان من شأن أمسية في الحمامات العمومية أن تُساعد على نسيانها. وإلا، فإن لدى روما مسرات أكثر إثارة تُساعد الرجل على طمس خيباته.

٣٦

تحركت الراقصات الإثيوبيات بشدّة مُتزايدة على وَجَع الطُّبول، فيما تعشى ضيوفُ فِتْلْيوس لحمَ النِّعام وطيور التَّدْرُج. وأخذَ قلبُ جوليا يدقُّ في تناغمٍ مع الطُّبول، أسرعَ فأسرَعَ، حتّى حُيِّلَ إليها أنّها ستُصابُ بإغماء. ثمّ... بُووم! انتهى الرِّقص وتوقّف قرعُ الطُّبول، وفرتِ الراقصاتُ شبهَ العارياتِ، والمزيّئاتُ بريشٍ ملوّن، من الغرفة كأنّهنَّ طيورٌ غريبةُ الشكلِ واللّون اعترّاها الذُّعر.

لقد حلّت اللحظة المنشودة. وبينما تنفّس جوليا ما زال ناشطاً، رفعت يدها قليلاً، مُستدعيّة هَدَسَةَ. لم يلاحظ أحدُ العبرانيّة الصّغيرة، إذ كانت مُجرّد خادمةٍ أخرى بين عَشْرَاتِ اللّواتي عكفنَ على خدمة سادتهنّ وسيّداتهنّ. وغطّست جوليا يديها في طستِ الماء الدافئ الذي حملته هَدَسَةَ لها، مُتسائلةً كم ينبغي أن يطولَ انتظارُها حتّى يلاحظَ فِتْلْيوس الزنارَ حولَ خصيرِ خادمتها الصّغير.

أحسّت هَدَسَةَ أنّ ثَمّةَ خطباً ما. وكانت قد سرّت بأمرِ جوليا أن تخدمها في وليمة فِتْلْيوس، بعدما كان پريمس قد أصرّ دائماً على أن تخدمَ جوليا واحدةً من الخادِمات الأخرى. غيرَ أنّه، هذه الأُمسيّة، لم يُبدِ أدنى اعتراضٍ بشأنِ قرارِ جوليا... والآن شعرت هَدَسَةَ بأنّه كان لدى جوليا قصدٌ آخرٌ أحبّت وراءَ إصرارِها على مُرافقتها. ففيما هي واقفة، حاملةً طستِ الماء، بدأ الحضورُ يُحدّقون إليها ويتهاَمسون. وأحسّت وخزَ إنذارٍ على قفا رقبتهِا.

ثمّ زلّقت جوليا المنشفة عن ذراع هَدَسَةَ، وأخذت تُنشف يديها بتأثّق.

فقال پريمس مُعتريّاً إليها. "هل تعرفين ما أنتِ فاعلة، يا جوليا؟" واصطنع ابِتسامة قسريّة، مُتظاهراً برباطة جأشٍ كان بعيداً عن الشعور بها. "إنّ فِتْلْيوس يُحملكُ إلينا كما لو أنّنا حملنا الطّاعون إلى داخلِ بيته. اصبرِ في هَدَسَةَ. اصبرِ فيها الآن."

قالت جوليا: "لا!" ورفعت رأسها قليلاً، مُحدّقةً في عيني هَدَسَةَ مُباشرةً. ثمّ التوت شفتاها بابِتسامةٍ باردة. "لا، بل ستبقى هنا تاماً."

فقال پريمس: "أعدّي نفسك إذا. إنّ فِتْلْيوس مُقبِلٌ إلينا، وهو يبدو مُستاءً جدّاً." ثمّ أضافَ بعدما نهَض: "عذراً، عزيزتي. سأحكي لكأمّنس قِصّةً، وأتركك تُفسرين مُرادك لِصُيفنا."

وبينما قَتِيلُوس يشقُّ طريقَه إلى جوليا، باتَ الضيوفُ أكثرَ هدوءًا. إذ ذاك قالت جوليا:
”ضِعِي الطستَ أَرْضًا، يا هَدَسَةَ، وضِبِّي لي بعضَ الخمرِ“.

أَحَسَّتْ هَدَسَةُ حُضُورَ قَتِيلُوسِ دُونَ أَنْ تَرَفَعَ رَأْسُهَا؛ إذ كانت ضغينتهُ مِثْلَ غَمَامَةٍ مَلْمُوسَةٍ تُحِيطُ بِهَا. فَجَفَّ حَلَقُهَا، وَأَخَذَ قَلْبُهَا يَخْتَلِجُ كَطَائِرٍ وَقَعَ فِي فَخٍّ. وَرَنَتْ إِلَى جُولِيَا تَوَسُّلاً، غَيْرَ أَنَّ سَيِّدَتَهَا كَانَتْ تَبْتَسِمُ لِمُصِيفِهَا مُحْيِيَةً. وَسِرْعَانَ مَا قَالَتْ: ”قَتِيلُوسُ، لَقَدْ أَعَدَدْتَ مَائِدَةً مُثِيرَةً لِلْإِعْجَابِ جَدًّا“.

فَتَجَاهَلَ قَتِيلُوسُ إِطْرَاءَهَا، وَحَدَّقَ بِاشْمُئِزَازٍ إِلَى الزَّنَارِ الْمُقْلَمِّ حَوْلَ خَصْرِ هَدَسَةَ. ”مَنْ أَيُّ جِنْسٍ عَبَدْتِكِ؟“

أَتَسَعَتْ حَدَقَتَا جُولِيَا، وَقَالَتْ: ”هِيَ يَهُودِيَّةٌ، سَيِّدِي“ . وَخَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْقَرِيبِينَ. فَأَجَالَتْ جُولِيَا نَظْرَهَا حَوَالِيَهَا بِبِرَاءَةٍ ظَاهِرِيَّةٍ. ”هَلْ مِنْ مَشْكَالَةٍ؟“

”لَقَدْ قَتَلَ الْيَهُودُ ابْنِي الْوَحِيدِ. إِذْ حَاصَرُوا قَلْعَةَ أَنْطُونِيَا وَاقْتَحَمُوهَا فَقَتَلُوهُ مَعَ رِجَالِهِ“ .
”أَهْ سَيِّدِي، أَنَا أَسْفَةٌ جَدًّا. لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ“ .

فَقَالَ- وَحَمَلَقْتَهُ الْخَبِيثَةَ مَا زَالَتْ مُثَبَّتَةً عَلَى هَدَسَةَ- ”مَدْعَاةُ أَسْفِ أَنْتِ لَمْ تَعْلَمِي! كَلَابٌ مَسْعُورَةٌ، كُلُّهُمْ. بَيْضُ الْعِقَارِبِ. كَانَ يَنْبَغِي لِتَيْطُسَ أَنْ يُبَيِّدَهُمْ عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ“ .

نَهَضَتْ جُولِيَا وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى كَتِفِهِ. ”إِنَّ هَدَسَةَ لَيْسَتْ مِثْلَ الَّذِينَ أَزْهَقُوا حَيَاةَ ابْنِكَ. إِنَّهَا مُخْلِصَةٌ لِي وَلِرُومَا“ .

”هَلْ تَعْتَقِدِينَ ذَلِكَ؟ لَعَلِّكَ أَكْثَرُ لُطْفًا وَسَدَاجَةً مِنْ أَنْ تَفْهَمِي عَدْرَ بَنِي جِنْسِهَا.“
”هَلِ امْتَحَنْتِهَا؟“

”امْتَحَنْتِهَا؟“

”أَتَتَعَبَّدُ خَادِمَتِكَ فِي هَيْكَلِ أَرَطَمِيسِ؟“

أَجَابَتْ جُولِيَا عَلَى مَهَلٍ: ”لَا“، وَكَأَنَّ الْإِقْرَارَ بِالْأَمْرِ دَفَعَهَا إِلَى التَّفَكِيرِ.

”هَلْ أَحْرَقْتَ الْبَخُورَ لِلْإِمْبْرَاطُورِ؟“

قَالَتْ جُولِيَا: ”لَيْسَ فِي الْعَلْنِ“ . فغَاصَ قَلْبُ هَدَسَةَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَاتِ جُولِيَا هَذِهِ. وَكَأَنَّهَا أَحَسَّتْ تَوَسُّلَ هَدَسَةَ الصَّامِتِ، نَظَرَتْ إِلَيْهَا. عِنْدئِذٍ عَلِمَتْ هَدَسَةَ الْحَقِيقَةَ. فَإِنَّ جُولِيَا قَدْ أَحْضَرَتْهَا تَعَمُّدًا لِأَجْلِ هَذَا.

افسس

ثُمَّ قَالَتْ: ” اَمْتَحِنَهَا كَمَا يَحْلُو لَكَ، يَا قَتْلِيُوسُ! “ وقد تَوَهَّجَ فِي عَيْنَيْهَا انْتِصَارٌ خَبِيثٌ. ” وَإِذَا رَفَضْتَ أَنْ تُعْلِنَ أَنَّ فَسْبَارِيَانَ إِلَهٌ؟ “
عِنْدئذٍ أَفْعَلُ بِهَا مَا تَرَاهُ مُنَاسِبًا “.

فَفَرَّقَ قَتْلِيُوسُ أَصَابِعَهُ، وَإِذَا بِحَارَسِينَ يَتَقَدَّمَانِ وَيَقِفَانِ عِنْدَ كِلَا جَانِبَيْ هَدْسَةَ. وَأَمْرَهُمَا: ” أَوْقِفَاهَا هُنَاكَ بِحَيْثُ يَرَاهَا الْجَمِيعُ! “ فَأَمْسَكَ بِذِرَاعَيْهَا. وَذَهَبَتْ مَعَهُمَا بِلاَ مَقَاوِمَةٍ. فَأَوْقَفَاهَا فِي وَسْطِ الْأَرْضِيَّةِ الرَّخَامِيَّةِ، حَيْثُ كَانَتِ الرَّاقِصَاتُ الْإِثْيُوبِيَّاتُ قَدْ أَدَّيْنَ قَبْلَ قَلِيلٍ، وَأَدَارَاهَا لِتُؤَاوِجَةِ قَتْلِيُوسٍ.
” ضَعَا الرُّمُوزَ أَمَامَهَا “.

احْتَشَدَ الضُّيُوفُ عَلَى مَقْرُبَةٍ أَقْرَبَ، يَدْفَعُهُمُ الْفُضُولُ وَالتَّوَقُّ لِرُؤْيَةِ مَا سَتَفَعَلُهُ. وَتَهَامَسُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ، كَمَا ضَحَكَ بَعْضُهُمْ ضَحْكًا خَافِتًا. وَقَدْ جِيءَ بِالرُّمُوزِ وَوَضَعَتْ أَمَامَ هَدْسَةَ. فَعَلِمَتْ أَنَّ عَلَيْهَا فَقَطُ أَنْ تُعْلِنَ أَنَّ فَسْبَارِيَانَ إِلَهًا، وَتُشْعَلَ الْقَصَبَةَ الرَّقِيقَةَ ثُمَّ تَدُسُّهَا فِي الْبَحْرُورِ قَرِيبَاتًا لَهُ، فَتَنْجُوَ بِحَيَاتِهَا.

قَالَ قَتْلِيُوسُ: ” هَلْ تَرِينَ كَيْفَ تَتَرَدَّدُ؟ “ وَقَدْ جَعَلَ الْوَعِيدُ الْمُخِيفُ فِي لَهْجَتِهِ هَدْسَةَ تَرْتَجِفُ. يَارَبِّ، أَنْتَ تَعْرِفُ مَا فِي قَلْبِي. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أَحِبُّكَ. أَعْنِي!
وَأَمَرَتْ جُولِيَا: ” خُذِي الشُّعْلَةَ، هَدْسَةَ “.

فَمَدَّتْ هَدْسَةَ يَدَهَا الْمُرْتَجِفَةَ بِشِدَّةٍ عَلَى مَهْلِ. ثُمَّ تَنَاوَلَتْ قَصَبَةً رَقِيقَةً وَدَسَّتْ طَرْفَهَا فِي النَّارِ.

يَا إِلَهِي، أَعْنِي!

عِنْدئذٍ حَضَرَتْ فِي ذَهْنِهَا الْكَلِمَةُ، مَالِئَةٌ كَيْانَهَا. ” أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ، وَلَيْسَ آخَرٌ سِوَايَ “. فَرَفَعَتْ يَدَهَا عَنِ الْقَصَبَةِ، وَرَاقَبَتْهَا تَنْكِمِشٌ وَتَسْوَدُّ فِي النَّارِ. وَأَخَذَ الضُّيُوفُ يَتَهَامَسُونَ.

وَهَمَسَ الصُّوْتُ النَّاعِمُ فِي ذَهْنِهَا: ” اِحْمِلِي صَلِيبَكَ وَاتَّبِعِي “. فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى قَلْبِهَا، وَأَعْمَضَتْ عَيْنَيْهَا. وَقَالَتْ هَمْسًا: ” اللَّهُمَّ، سَامِحْنِي! لَا تَتْبَاعِدْ عَنِّي! “ وَقَدْ أَخْجَلَهَا أَنَّهَا كَادَتْ تَسْتَسَلِمُ لِلْخَوْفِ.

” هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ، إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ “.

” خُذِي الشُّعْلَةَ! “

فرفعتْ هَدَسَةَ رَأْسِهَا، ونظرتْ إلى جوليا. ”الرَّبُّ هو الله، وليس آخَرُ سِوَاهُ“. هكذا قالت ببساطة ووضوح.

وإذ ذَهَلَ الجميع وأَسْخَطُوا، تكلَّموا كلُّهم في وقتٍ واحد.

فقال فِتْلَيْوسُ: ”أضربِهَا!“ فصَفَعَهَا أَحَدُ الحَارِسِينَ على وجهها صَفْعَةً شديدة.

وقالَت جوليا: ”فَسَبَّازِيَانُ إله. قولِهَا!“

أَمَّا هَدَسَةُ فَظَلَّت واقفةً لا تنبِسُ بكلمة.

ثُمَّ قال فِتْلَيْوسُ ببرودة: ”أَمَا قُلْتُ لِكَ؟“

”ستقولُهَا. سأجعلُهَا تقولُهَا“. وتقدَّمتْ جوليا إليها فصَفَعَتْهَا. ”انطِقي بالكلمات.

انطِقي بها، وإلَّا فسَتموتين!“

”أنا أومنُ بأنَّ يسوع هو المسيح، ابنُ اللهِ الحَيِّ“.

فهمَسَ أحدهم: ”هِيَ مَسِيحِيَّةٌ!“

وضربَتِهَا جوليا ثانيةً. ”الإمبراطورُ إله“.

فنظرتْ إلى جوليا خلالَ غَمَامَةٍ من الدَّموعِ، وقد لَسَعَ الأَلَمُ وجهَهَا وانكسَرَ قَلْبُهَا.

وقالَت بِرِقَّةٍ: ”أه جوليا، جوليا!“ مُتَسَائِلَةً أَكأن ذلكَ مِثْلَ شعورِ يسوعَ لما قبله يهوذا الخائن.

إنَّ تَوَقُّعَ جوليا إلى الانتِقامِ لكِبرياءِ أخيها المُحطَّمَةِ قد وَضَعَ قَدَمَيْهَا على هذا السبيلِ،

ولكنَّ غَيْرَتَهَا الذاتية هي التي جعلتَهَا تُبادِرُ إلى العُنْفِ حَالًا. فإذ أَطْلَقَتْ صرِخَةً سَخِطِ

وحشِيَّةً، هجَمَتْ على هَدَسَةَ. وتراجَعَ الحَارِسَانُ بِضِعِّ خُطَى فيما انهالتْ جوليا على الفتاة

بقبضَتَيْهَا.

تلَقَّتْ هَدَسَةُ الضَّرَبَاتِ بصَرَخَاتِ أَلَمٍ خفيفة، إلاَّ أنَّهَا لم تبدُلْ أَيَّ جَهْدٍ للدَّفَاعِ عن

نفسِهَا. وتوقَّفتْ جوليا لما سقطتْ هَدَسَةُ أرضًا، فاقْدَةُ الوَعْيِ. ثُمَّ ركلتَهَا في جنبِهَا، بعدمَا

قالت: ”لِكَ أن تأخُذَهَا، يا فِتْلَيْوسُ“.

عندئذِ أمرَ فِتْلَيْوسُ: ”أوقفَاها، وخُذَاها إلى أليماس!“ فامتثلَ الحَارِسَانُ. وأضافَ

فِتْلَيْوسُ: ”إنَّهُ يدفَعُ خمسةَ سِستِرسَاتٍ لقاءَ كُلِّ ضَحِيَّةٍ لِأُسُودِهِ“.

استيقظَ أَتْرَيْتِسُ بصرِخَةٍ حَنَجْرِيَّةٍ عميقة، وجلس. كان جِسْمُهُ مُبَلَّلًا بالعَرَقِ، وقلْبُهُ يَدُقُّ

بسُرْعَةٍ. وفيما هو يلهَثُ، مرَّرَ في شعره أصابعَ مُرتَجِفَةٍ، ثُمَّ وَقَفَ. وتقدَّمتْ إلى بابِ كَهْفِهِ بِخُطَى

واسعة، والتفتت ناظرًا نحو أفسس. فكان الأرطميسيون هناك، مُتألِّفًا مثل منارة تحت ضياء القمر. إلا أنه لم يكن يحترق وسط ألسنة اللهب.

فمسح قطرات العرق عن وجهه، ورجع إلى داخل الكهف من جديد. ثم جثا، وغطى رأسه.

لقد كان الحلم حقيقيًا جدًا بحيث كان في وسعه بعد أن يشعر بوطأة ذاك الحلم. وقد أراد أن ينتفض ليتحرر منه، إلا أنه وافاه ليلة بعد ليلة، وأجزاء وتفت منه تزداد وضوحًا، حتى تأكد له أنه لن يتحرر أبدًا قبل أن يفهم مدلوله.

ثم علم أن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يشرح له المدلول هو تلك الفتاة التي قصدت إليه في الليلة السابقة لابتداء الأحلام. هَدَسَة.

رفع حارس الزنزانة السفلى مزلاج الباب. وسأل: ”أترتيس، ما ترجيحات بقاء كاپيتو حيًا بعد مقاتلة سكوندس؟“ إذ كان مُتلهفًا للحصول على تعليمات بشأن المراهنة في الألعاب. ولكن أترتيس لم يجب. وفي أعقاب نظرة إلى وجه الجرمانى القاسي، لم يطرح الحارس مزيدًا من الأسئلة.

ثم إن وقع حذاء الروماني ذي المسامير القصيرة الغليظة في نعليه أعاد أترتيس بالذاكرة إلى كاپوا. وإذ تبع الحارس، تصبب العرق من جلده بسبب رائحة الحجارة الباردة والخوف البشري. فإن أحدهم صاح كثيرًا من وراء باب مقفل. وآخرون كانوا يثنون يائسين. ومن ثم - فيما كانا ما يزالان يمشيان - سمع أترتيس شيئًا مُنبعثًا من أقصى الدهاليز الرطبة... صوتًا عذبًا جدًا بحيث اجتذبه. ففي مكان ما وسط الظلام، كانت امرأة تُغني.

تباطأ الحارس، مُبيلًا رأسه قليلًا، وقال: ”هل سمعت في حياتك كلها صوتًا مثل ذاك؟“ ثم توقف الغناء، وأسرع الحارس في مشيته، حتى توقف أمام باب ثقيل، قائلاً: ”أمر يُرى له أنها ستموت مع الباقيين أجمعين غدًا.“ ثم رفع المزلاج.

وما إن انفتح الباب، حتى صدمت أترتيس نثانة مُعثية. كانت الزنزانة في الطبقة الثانية، وكانت فتحات التهوية إلى تلك الحجرة من طبقة أخرى فوقها، لا من الخارج. فكان الهواء محصورًا جدًا، حتى تساءل أترتيس كيف يُعقل أن يبقى أي شخص فيه على قيد الحياة. وقد كانت الرائحة التنتة طاغية جدًا، بحيث انقلبت معدة أترتيس وانكمش راجعًا

بِضَعِ خُطْيَ .

قال الحارس: ”أمرٌ كريه، أليس كذلك؟ بعدَ خمسةِ أيامٍ أو سِتَّة، يبدأ هؤلاء يموتون كالحشرات. لا عجبَ أن يجريَ بعضُ الشَّجَناءِ جرياً إلى ساحةِ المحاربين. فهُم يتوقون إلى نَفْسٍ واحدٍ أخيرٍ من الهواءِ المُنْعَشِ قبلَ أن يموتوا“. وناوَلَ أترتيسَ المشعلَ .

وقَفَ أترتيسَ على العَتَبَةِ، مُتَنَفِّساً من فَمِهِ، وأجَالَ بَصَرَهُ من وجهٍ إلى وجه. وقد كان مشعلٌ وحيدٌ يَحْفَقُ معلقاً على الجدارِ الجانبيِّ، أمَّا الذين في المؤخَّرِ فكانوا غارقين في العَتَمَةِ. وكان مَعظَمُ الشَّجَناءِ من النِّساءِ والأولادِ، كما كان هنالك نحو خمسةِ رجالٍ كبارِ السنِّ ذوي لِحْيٍ. فلم يُفاجأ أترتيسُ؛ إذ إنَّ الرِّجالَ الأصغرَ سِنًا يُوفِّرون للقتالِ، حيثُ يُنزلون مُقَابِلَ رجالٍ مثلِ كاپيتو وسِكُونْدُس... رجالٍ مثله هو.

ثمَّ نادى صَوْتٌ أترتيسَ بِاسْمِهِ، ورأى امرأةً نحيلةً في ثوبٍ رَثٍّ تنهضُ من حَسَدِ الأُسرى القَدْرين.

هَدَسَةً.

وسأله الحارس: ”أَتِلِكَ هي؟“

”نعم“ .

فقال: ”الْمَغْنِيَّةُ. أَنْتِ هناكِ! تعالي!“

راقبها أترتيسَ تشقُّ طريقَها بحَذَرٍ عبرَ العُرْفَةِ. وقد مدَّ الناسُ أيديهم كي يلمسوها. وأمسكَ بعضهم يَدَها، فابتسمتْ وهمستْ بكلمةٍ تشجيعٍ قبلَ أن تُجاوِزَهم. حتَّى إذا وصلتْ إلى مدخلِ البابِ، رَنَّتْ إلى أترتيسَ بعينين مُشرقتين. ”ماذا تفعلُ هنا، يا أترتيس؟“

وإذ لم يشأ أن يقولَ أيَّ شيءٍ أمامَ الحارسِ الرُّومانيِّ، أمسكَ ذراعَها وجذبها إلى الدَّهليزِ. فأغلقَ الحارسُ البابَ، وأنزلَ المِزلاجَ. ثمَّ فتحَ باباً آخرَ عبرَ الدَّهليزِ، وأضاءَ المشعلَ .

ولمَّا بقيَ الحارسُ واقفاً خارجَ البابِ تماماً، قال له أترتيسُ: ”غادِرنا!“

”لديَّ أوامري، يا أترتيس. لا يُعادِرُ أيُّ سجينٍ هذه الطَّبَقَةَ دونَ إذني خُطْيَ من البرؤُونُصُلِ نَفْسِهِ“ .

فَنَحَرَ أترتيسَ وشَخَرَ. ”أَحْسَبُ أَنَّكَ تستطيعُ منعي؟“

وضَعَتْ هَدَسَةً يَدَها على ذراعِهِ، والتفتتْ إلى الحارسِ. ”وعداً بأنِّي لن أغادرَ“. فحوَّلَ

الحارسُ نَظْرَهُ عن غضبِ أترتيسَ القتالِ إلى عينيها الوديعتين. فلاحتْ على وجهه عبسَةٌ

خاطفة مضطربة. ثم أوما برأسه موافقاً إيماءةً واحدة، وتركهما وحدهما.

أصغى أترتيس إلى وقع الأحذية ذات المسامير على الأرضية الحجرية، وأطبق قبضته بشدة. فهو كان قد أقسم إنه لن يدخل من جديد مكاناً كهذا، وما هو هنا، بمحض اختياره.

ورأت هدسةً ذُهلته، فسألت: ”هل أرسلتك جوليا؟“

”بعثت جوليا بخبر يُفيد أنك متٌ“.

فقالته هدسةً بهدوء: ”أه، كنت أرجو...“

”ماذا رجوت؟ أنني قد أرسلت لتحريرك؟“

”لا، بل رجوت أن يتغير قلب جوليا“. وابتسمت بحزن، ثم رفعت نظرها إليه

بعسة باهتة. ”ولكن لماذا ترسل إليك خبراً عني؟“

”لأنني أرسلت في طلبك. وبعد الرسالة الأولى، جاء إلي فتى، قال إن اسمه بروميشيوس وإنك صديقتُه. وأخبرني أن أليماس قد اشتراك من جوليا. فذهبت إلى سرتس، فأجرى بعض التحقيقات، وتبين له أنك محبوسة هنا“.

اقتربت هدسةً إليه أكثر، ووضعت يدها برفق على ذراعه. ”ماذا يقلقك جداً حتى تتكلف مشقات كهذه للعثور على مجرد عبدة؟“

فقال دون تردّد- ولا سؤال لنفسه عن سبب أن الوثوق بها هو أمر غاية في السهولة- ”أشياء كثيرة، ليس أقلها حقيقة كوني عاجزاً عن إخراجك من هنا“.

”ذلك لا يهم، يا أترتيس“.

فأشاح وجهه، والغضب يملأ كيانه. وقال بحشونة: ”وجب أن تكون جوليا هي المحبوسة في هذا المكان!“ مَجِيلاً نظره في الجدران الحجرية الباردة المحيطة بالحجرة الرطبة، ثم أضاف: ”هي التي كان ينبغي أن تعاني“. كم من المئات قد انتظروا داخل هذه الجدران كي يموتوا؟ ومن أجل أي شيء؟ إمتاع الرعاع الرومانيين! لما وصل إلى أبواب هذا المكان، كاذ يُدير ظهره ويمضي نفوراً من الذكريات السوداء. ”هي التي كان ينبغي أن تكون بانتظار الموت، لا أنت!“

لقد كره جوليا كرهاً شديداً حتى استطاع أن يذوق مرارة ذلك في فمه، ويشعر بتدفق حرارة ذلك في دمه. وكان من شأنه أن يستمتع بقتلها بيديه، لو لم يعن ذلك أنه سيؤول إلى هذا المكان مُجدداً، حيث ينتظر كي يقابل في ساحة المحاربين من جديد. ومن شأنه أن يزهق

حياته بنفسه قبل حدوث ذلك مرة أخرى.

لمست هدسة ذراعاه، مخرجة إياه من أفكاره القتالة. ”لا تكره جوليا من أجل ما فعلت، يا أترتيس. إنها ضالّة هالكة. إنها تبحث بذعر عن السعادة، ولكنها تغرق. وبدلاً من التثبث بالشّيء الوحيد الذي سينقذها، تتعلّق بالحطام. أصليّ طالبة أن يرحمها الله.“

”يرحمها؟“ قال أترتيس هذا، ناظرًا إلى هدسة بذهول مصعوق، وأضاف: ”كيف يمكنك أن تصلي طالبة الرحمة لمن أرسلتك إلى هنا كي تموتي؟“

”لأن ما فعلته جوليا أتاني أحلى فرح على الإطلاق.“

تأمل أترتيس وجهها. هل جعلها الحبس مجنونة؟ لظالمًا اكتنفها دائمًا منظر سلام غريب، أما الآن فكان هنالك شيء أكثر. شيء أدهشه. ففي هذا المكان المظلم، والموت المروع يواجيها، بدت مغيرة. إذ كانت عينها راقتين ومشرقتين... ومفعمتين بالفرح.

قالت: ”أنا حرة! على يد جوليا، حررتني الرب.“

فنظر تحديداً إلى الجدران الحجرية، وقال ببرارة: ”حرة؟“

أجابت: ”نعم! لقد كان الخوف ريفي الدائم، منذ الزمان الذي تعود ذاكرتي إليه. لقد كنت خائفة طوال حياتي، يا أترتيس، منذ كنت فتاة صغيرة في زيارة لمدينة القدس حتى الأيام القليلة الماضية. فما أردت قط أن أغادر أمان البيت الصغير الذي تربيت فيه بمنطقة الجليل، ولا الأصدقاء الذين عرفناهم. لقد كنت خائفة من كل شيء. كنت خائفة من فقدان الذين أحببتهم. كنت خائفة من الاضطهاد والعذاب. كنت أخاف من ذوق الموت.“

ثم تألأت عينها بالدموع. ”وأكثر كل شيء، كنت أخاف ألا أملك الشجاعة لقول الحق عندما تخين الساعة وأحوض الامتحان. وعندئذ، يُحوّل الرب وجهه عني.“

وبعدما بسطت يديها، قالت: ”ثم حدث ذلك الأمر الذي كنت أخاف منه أكثر الكل... فقد أوقفت أمام أناس يكرهونني - أناس رفضوا أن يؤمنوا، وعرض عليّ خيار: إما التراجع وإما الموت. ثم انبعثت الصرخة من داخل نفسي، صرخة أعطاني إياها الرب بنعمته. فاخترت الله.“

وسالت الدموع على خديها، إلا أن عينيها كانتا مشرقتين. ”ثم إن الأمر العجيب الأكثر إذهالاً جرى لي في تلك اللحظة، يا أترتيس. حتى فيما كنت أنطق بالكلمات، معلنة أن يسوع هو المسيح، ولّى خوفاً. لقد انزاح ثقله عن كاهليّ كأنه لم يكن قط.“

”أَمَا قُلْتِ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ مِنْ قَبْلِ قَطْعَا؟“

”بَلَى، أَمَامَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا، أَمَامَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَحْبَبُونِي. فَبِخَيْتِ لَمْ تَكُنْ مُخَاطِرَةً، تَقَوَّهْتِ بِالْكَلِمَاتِ عَنْ طَيِّبِ خَاطِرٍ. وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَمَامَ جُولِيَا وَأَمَامَ أَوْلَئِكَ الْآخَرِينَ، سَلَّمْتِ تَسْلِيمًا تَامًا. فَهُوَ اللَّهُ وَليْسَ مِنْ آخَرَ سِوَاهُ. وَقَدْ كَانَ أَمْرًا مُسْتَحْيَاً أَلَّا أَقُولَ لَهُمُ الْحَقَّ.“

فَقَالَ بَاغْتِمَامُ: ”وَالآنَ، سَمَوْتِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.“

”إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ نَمُوتَ مِنْ أَجْلِهِ، يَا أْتَرِيْتِسُ، فَلَيْسَ لَدَيْنَا مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ نَعِيْشَ لِأَجْلِهِ.“

سَاوَرَهُ حُزْنٌ مُوجِعٌ إِزَاءَ اضْطِرَارِ هَذِهِ الشَّابَّةِ اللَّطِيْفَةِ أَنْ تَمُوتَ مَيِّتَةً مَقِيْمَةً مُهَيِنَةً كَيْتَلِكِ. ”لَقَدْ فَعَلْتِ أَمْرًا طَائِشًا، يَا هَدْسَةَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلِي مَا كَانَ لِنَفْعِكَ فَتُنْقِذِي حَيَاتِكَ.“

تَمَامًا كَمَا كَانَ هُوَ قَدْ فَعَلَ، وَآخَرُونَ لَا يُحْصَوْنَ قَبْلَهُ.

”لَقَدْ تَخَلَّيْتُ عَمَّا لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أُحْفِظَ بِهِ، فِي سَبِيلِ مَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أُخْسِرَهُ.“

وَإِذْ أَلْقَى أْتَرِيْتِسُ نَظْرَهُ عَلَيْهَا، أَحْسَسَ جَوْعًا مُوجِعًا إِلَى إِيمَانِ كَيْمَانِهَا- إِيمَانِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوْتِيَهُ سَلَامًا.

وَرَأَتْ هَدْسَةَ عَذَابَهُ، فَقَالَتْ بِرِقَّةٍ: ”لَا بَدَّ أَنْكَ تَكَرَّرَ هَذَا الْمَكَانَ. مَاذَا جَاءَ بِكَ إِلَيَّ هُنَا؟“

”لَقَدْ حَلَمْتُ حُلْمًا، وَلَا أَعْرِفُ مَدْلُولَهُ.“

فَعَبَسَتْ قَلِيلًا: ”أَنَا لَسْتُ عَرَّافَةً، يَا أْتَرِيْتِسُ. إِنِّي لَا أَمْلِكُ آيَةَ قُدْرَةِ نَبْوِيَّةٍ.“

”الْحُلْمُ يَتَعَلَّقُ بِكَ. لَقَدْ بَدَأَ لَيْلَةَ جِئْتِ إِلَيَّ فِي التَّلَالِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ مُنْذُنْدٍ. يَجِبُ أَنْ تَعْرِفِي.“

فَأَحْسَسَتْ يَأْسَهُ، وَصَلَّتْ طَالِبَةً أَنْ يُعْطِيَهَا اللَّهُ الْأَجْوِبَةَ الَّتِي يَحْتَاجُ أْتَرِيْتِسُ إِلَيْهَا. ثُمَّ قَالَتْ- وَهِيَ ضَعِيفَةٌ مِنْ جَرَاءِ الْإِحْتِجَازِ وَعَدَمِ الْأَكْلِ أَيَّامًا- ”أَفْعُدْ مَعِي، وَأَخْبِرْنِي. لَعِنَ كُنْتُ لَا أَعْرِفُ الْأَجْوِبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهَا.“

”كُنْتُ أَرَى نَفْسِي مَاشِيًا وَسَطَ ظُلْمَةٍ- ظُلْمَةٍ ثَقِيلَةٍ جَدًّا بِحَيْثُ اسْتَطِيعُ أَنْ أَشْعُرَ بِهَا ضَاغِطَةً عَلَى جِسْمِي، وَكُلُّ مَا يَسْعُنِي أَنْ أَرَاهُ هُوَ يَدَايِ. وَأَظَلُّ أَمْشِي وَقَتًا طَوِيلًا، غَيْرَ شَاعِرٍ بِشَيْءٍ، ثُمَّ أَرَى الْأَرَطْمِيسِيِّونَ بَعِيدًا. وَإِذْ أَقْتَرِبْتُ إِلَيْهِ، يَبْهَرُنِي جَمَالُهُ كَمَا يَبْهَرُنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ رَأَيْتُهُ فِيهَا. وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةُ تَبْدُو الْمُنْحَوَاتُ حَيَّةً، إِذْ أَرَاهَا تَتَلَوَّى وَتَتَفَكَّكُ. وَأَرَى الْوَجُوهَ

الحجرية تُحْدَقُ إليّ من علّ فيما أُدْخَلُ إلى الفناء الداخليّ. ثمّ أرى أرطَميس، وإذا بالسّمة التي على تاجها تتأجج وتتوهج.“
 ”أيّ سمة؟“

”سِمة طيواز، إله الغابات. رأسٌ معزاة.“ وجثا أمام هدسة. ”ثمّ تبدأ صورة أرطَميس بالاحتراق. وتكون حرارة النار شديدةً جدًّا بحيثُ أنكفئُ عنها. وأرى الجدران تتهاوى، والهيكَل ينهارُ على ذاته، حتّى لم يبقَ أيّ شيءٍ سوى حجارةٍ قليلة.“
 مسّت هدسةً يده. ”أكمل.“

”يُحَيِّمُ الظلامُ على كلِّ شيءٍ من جديد. فأتابعُ سيرِي، باحثًا عمّا يبدو أنّه إلى الأبد، ثمّ أرى نحاتًا. وأمامه صنيعه، تمثالٌ لي. إنه واحدٌ كتلك التي يبيعونها في الدكاكين حولَ ساحة المحاربين، غير أنّ هذا حقيقيٌّ جدًّا بحيثُ يبدو أنّه يتنفس. وإذا بالرجل يتناولُ مطرقةً، فأعلمُ ماذا ينوي أن يفعل. وأصرخُ إليه ألاّ يفعل ذلك، إلاّ أنّه يضربُ التمثالَ ضربةً واحدة فيتحمطُ مليونَ شظية.“

ثمّ نهضَ أترتيس وهو يرتجف. ”وأشعرُ بالَم - ألمٌ لم أشعرُ بمثله قطّ من قبل. ولا أستطيعُ الحراك. وأرى حواليّ غابةً موطني، ورأيتُ نفسي غارقًا في المستنقع، فيما الجميعُ وقوفٌ حواليّ: أبي، أمي، زوجتي، أصدقائي الذين ماتوا من عهدٍ بعيد. وأصيحُ كثيرًا، غير أنّهم جميعًا يُحدقون إليّ فقط فيما أعرقُ إلى القعر. فيضغطُ عليّ المستنقعُ على غرار الظلام. عندئذٍ أرى أمامي رجلًا مادًا لي كلتا يديه، والدّم يسيلُ من راحتيه.“

راقبتُ هدسةً أترتيس يتهالكُ بوهن، مُسندًا ظهره إلى الجدارِ الحجريّ في الجانب الآخر من الزّزانة، وسألته: ”هل أمسكتَ يديه؟“
 فقال بكأبة: ”لستُ أدري. لا يسعني أن أتذكّر.“
 ”ثمّ استيقظت؟“

”لا!“ وسحبَ نفسًا على مهل، مُجاهدًا أن يُبقيَ صوته ثابتًا. ”ليس بعد.“ ثمّ أغمضَ عينيه وابتلعَ ريقه مُتسنّجًا. ”بل أسمعُ طفلًا يبكي، وهو مطروحٌ عاريًا على الصّخور قُربَ البحر. وأرى موجةً آتيةً من البحر، فأعرفُ أنّها ستجرّفه. ثمّ أستيقظ.“
 أغمضتُ هدسةً عينيهَا.

وأسند أترتيس رأسه إلى الجدار، قائلاً: ”إذًا، قولي لي: ماذا يعني هذا الحلمُ كلّه؟“

فصَلَّتْ هَدْسَةَ طَالِبَةً أَنْ يُعْطِيَهَا الرَّبُّ حِكْمَةً. وَقَدْ قَعَدَتْ وَقْتًا طَوِيلًا مُطَاطِئَةً رَأْسَهَا. ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَقَالَتْ ثَانِيَةً: ”لَسْتُ عَرَّافَةً، إِنَّمَا اللَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَسِّرَ الْأَحْلَامَ. غَيْرَ أَنِّي أَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ أُمُورًا بَعِينَهَا حَقٌّ، يَا أُتْرَيْتِسَ.“

”أَيُّ أُمُورٍ؟“

”أُرْطَمِيسَ وَتَنْ مِنْ حَجَرٍ، وَلَيْسَتْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَهِيَ لَا تَمْلِكُ أَيُّ سُلْطَانٍ عَلَيْكَ سِوَى مَا تُعْطِيهَا أَنْتِ. إِنَّ نَفْسَكَ تَعْرِفُ ذَلِكَ. وَرَبِّمَا لَذَلِكَ يَحْتَرِقُ تِمْنَالُهَا، وَيَنْهَارُ هَيْكَلُهَا.“ ثُمَّ قَطَّبَتْ قَلِيلًا، وَأَضَافَتْ: ”رَبِّمَا كَانَ يَعْنِي أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. لَسْتُ أُدْرِي.“

”وَالرَّجُلُ؟“

”ذَلِكَ وَاضِحٌ جَدًّا عِنْدِي. الرَّجُلُ هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ. لَقَدْ أُخْبِرْتُكَ كَيْفَ مَاتَ، مُسَمَّرًا عَلَى صَلِيبٍ، وَكَيْفَ قَامَ حَيًّا مِنْ جَدِيدٍ. وَهُوَ يَمْدُ لَكَ كِلْتَا يَدَيْهِ. فَأَمْسِكْهُمَا، وَتَشَبَّهْتُ بِهِمَا. إِنَّ خِلَاصَكَ قَرِيبٌ مِنْكَ.“ ثُمَّ تَرَدَّدَتْ. ”أَمَّا الطِّفْلُ...“

تَوَتَّرَ وَجْهُ أُتْرَيْتِسَ بِعَاطِفَةٍ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ السَّيْطِرَةَ عَلَيْهَا. ”أَعْرِفُ أَمْرَ الطِّفْلِ. هُوَ ابْنِي. وَقَدْ فَكَّرْتُ فِي مَا قُلْتَهُ لِي لَيْلَةَ جِئْتِ إِلَى التَّلَالِ. ثُمَّ أُرْسَلْتُ خَبِيرًا بِأَنِّي أُرِيدُ الطِّفْلَ عِنْدَمَا يُوَلَّدُ.“

وَإِذْ رَأَى أُتْرَيْتِسَ نِظْرَةَ هَدْسَةَ الْمُضْطَّرِبَةِ، هَبَّ وَاقْفًا فِي الْحَالِ، وَرَاحَ يَذْرَعُ الْحُجْرَةَ قَلْبًا. ”أَوَّلُ الْأَمْرِ، كَانَ ذَلِكَ لِإِيْدَاءِ جُولِيَا، لِانْتِزَاعِ مَوْلُودِهَا مِنْهَا. ثُمَّ أَرَدْتُهُ حَقًّا. إِذْ قَرَّرْتُ أَنْ أَصْطَلِحَ الْوَلَدَ وَأَرْجِعَ إِلَى بِلَادِ الْجُرْمَانِ. وَبَعْدَمَا انْتِظَرْتُ، جَاءَنِي خَبَرٌ يُفِيدُ أَنَّ الطِّفْلَ قَدْ وُلِدَ مَيِّتًا.“

ثُمَّ أَطْلَقَ أُتْرَيْتِسَ ضِحْكَةً مُفْعَمَةً بِالْمَرَارَةِ. ”وَلَكِنَّهَا كَذَبَتْ. فَإِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يُوَلَّدْ مَيِّتًا، بَلْ إِنَّهَا أَمَرَتْ بِأَنْ يُتْرَكَ عَلَى الصُّخُورِ كَيْ يَمُوتَ.“ وَخَنَقَتْ صَوْتَهُ الدَّمُوعُ، فَمَرَّرَ أَصَابِعَهُ فِي شَعْرِهِ. ”قُلْتُ لِكَ إِنَّهُ لَوْ وَصَّعَتْ جُولِيَا الطِّفْلَ عِنْدَ قَدَمَيَّ لِأَدْرَتْ ظَهْرِي وَمَضَّيْتُ مُبْتَعِدًا. وَذَلِكَ تَمَامًا هُوَ مَا فَعَلْتَهُ هِيَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَضَعْتَهُ عَلَى الصُّخُورِ، وَمَضَّتْ مُبْتَعِدَةً. لَقَدْ كَرِهْتُمَا. لَقَدْ كَرِهْتُ نَفْسِي. وَأَنْتِ قُلْتِ: لِئِذَا حَمَنِي اللَّهُ. فَلِئِذَا حَمَنِي!“

فَقَامَتْ هَدْسَةُ وَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ. ”ابْنُكَ حَيٌّ!“

فَتَصَلَّبَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ عَلٍ.

وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى ذِرَاعِهِ. ”لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ أُرْسَلْتَ خَبِيرًا بِأَنَّكَ تُرِيدُ الطِّفْلَ، يَا أُتْرَيْتِسَ.“

ولو عَلِمْتُ، لَجِئْتُ بِهِ إِلَيْكَ مُبَاشِرَةً. رجاءً، سامِخْني بِالْأَلَمِ الَّذِي سَبَّبْتَهُ لَكَ“. ثُمَّ هَوَتْ يَدُهَا مُرْتَحِيَةً إِلَى جَنْبِهَا.

فَأَمَسَكَ بِذِرَاعِهَا. ”قُلْتُ إِنَّهُ حَيٌّ؟ أَيْنَ هُوَ؟“

وَصَلَّتْ طَالِبَةً أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ مَا قَدْ فَعَلْتَهُ صَوَابًا. ”أَخَذْتُ طِفْلَكَ إِلَى الرَّسُولِ يُوْحِنَّا، فَوَضَعَهُ عَلَى ذِرَاعِي رِصْفَةً، امْرَأَةً فَتِيَّةً كَانَتْ قَدْ فَقدَتْ ابْنَهَا. وَقَدْ أَحْبَبْتَهُ لِحِظَةِ أَلَقَتْ نَظْرَهَا عَلَى وَجْهِهِ.“

فَارْتَحَتْ يَدُهُ، وَهَوَتْ مُبْتَعِدَةً عَنْهَا. وَقَالَ مُتَعَجِّبًا: ”ابْنِي حَيٌّ!“ وَأَنْزَاخَ عَنْهُ حِمْلُ الْأَلَمِ وَالذُّنْبِ. ثُمَّ أَعْمَصَ عَيْنَيْهِ مُنْفَرِجَ الْأَسَارِيرِ. ”ابْنِي حَيٌّ!“ وَفِيمَا ظَهَرَهُ إِلَى الْخَائِطِ الْحَجْرِيِّ، أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ نَزْوَلًا، وَقَدْ ضَعُفَتْ رُكْبَتَاهُ مِنْ جِرَاءِ مَا أَخْبَرْتَهُ إِيَّاهُ، قَائِلًا بِصَوْتٍ مَخْنُوقٍ: ”ابْنِي حَيٌّ!“

قَالَتْ بِرِقَّةٍ: ”اللَّهُ رَحِيمٌ!“ وَمَسَّتْ شَعْرَهُ مَسًّا خَفِيفًا.

ذَكَرَتِ التَّرْبِيئَةَ الْخَفِيفَةَ أَتْرَيْتَسَ بِأُمَّه. فَتَنَاوَلَ يَدَ هَدَسَةَ وَأَمَسَكَهَا عَلَى خَدِّهِ. وَإِذْ رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَيْهَا، رَأَى مِنْ جَدِيدِ النُّدُوبِ الَّتِي وَسَمَتْ وَجْهَهَا اللَّطِيفِ، وَتُحَوَّلَ جِسْمِهَا تَحْتَ التَّنَاكِ الْوَسِيخِ الْمُمَزَّقِ. لَقَدْ أَنْقَذَتْ ابْنَهُ. فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَمِضِيَ مُبْتَعِدًا عَنْهَا وَيَتْرُكُهَا تَمُوتُ؟

ثُمَّ نَهَضَ مَفْعَمًا بِالْعِزْمِ، وَقَالَ: ”سَأَذْهَبُ إِلَى سَرْتَسَ.“

فَقَالَتْ: ”لَا.“

وَرَدَّ بِتَصْمِيمٍ وَطِيدٍ: ”بَلَى“. فَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يُحَارِبِ الْأَسْوَدَ قَطُّ مِنْ قَبْلِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ فُرْصَةَ نَجَاتِهِ ضَائِلَةٌ، وَجَبَّ عَلَيْهِ أَنْ يُجْرَبَ. ”كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْأُذُنِ الصَّحِيحَةِ، فَأَكُونُ فِي سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ نَصِيرًا لَكَ.“

”لَدَيْ نَصِيرٍ أَصْلًا، يَا أَتْرَيْتَسَ. لَقَدْ انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ. وَهُوَ قَدْ انْتَصَرَ فِعْلًا“. وَأَمَسَكَتْ يَدَهُ بِأِحْكَامٍ بَيْنَ يَدَيْهَا. ”أَلَا تَرَى؟ إِذَا عُدْتُ إِلَى سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ الْآنَ، فَسْتَمُوتُ دُونَ أَنْ تَكُونَ قَدْ عَرَفْتَ الرَّبَّ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ.“

”وَلَكِنْ مَاذَا سَيَجْرِي لَكَ؟“ فَعَدًّا سَتُوجِهُ هَدَسَةَ الْأَسْوَدِ.

”إِنَّ يَدَ اللَّهِ فِي هَذَا، أَتْرَيْتَسَ. فَلتَكُنْ مَشِئْتُهُ.“

”سْتَمُوتِينَ.“

قَالَتْ: ”حَتَّى لَوْ قَتَلْتَنِي، فَسَأَبْقَى مُتَوَكِّلَةً عَلَيْهِ“. وَابْتَسَمَتْ لِأَتْرَيْتَسَ. ”مَهْمَا يَحْدُثُ،

فذاك لقصده الصالح ولأجل مجده. إنني لست خائفة“.

تأمل أترتيس وجهها بضع لحظات، ثم نكس رأسه، مكافحًا المشاعر المصطخبة في داخله. ”سيكون كما تقولين“.

”سيكون كما يشاء الله“.

”لن أنساك أبدًا“.

قالت: ”ولا أنا“. وبعدما دلته على مكان إقامة الرسول يوحنا، وضعت يدها على ذراعه ونظرت إليه، وفي عينيها سلام، قائلة: ”والآن، غادر مكان الموت هذا، ولا تلتفت إلى الوراء“.

ثم خرجت إلى الدهليز المظلم، ونادت الحارس.

وقف أترتيس حاملًا المشعل، فيما أقبل الحارس ورفع مزلاج باب الزنزانة. ولما فتحه، دارت هدسة ورفعت نظرها إلى أترتيس، وأشرق عينها حنانًا. وقالت بابتسامة رقيقة: ”ليباركك الرب ويحرسك، ليضيئ الرب بوجهه عليك، وليرحمك. ليرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلامًا!“ ثم دارت ومضت إلى داخل الزنزانة. فحيتها همهمات أصوات رقيقة، ثم أغلق الباب بخبطة حسم قوية.

٣٧

مَشَتْ هَدْسَةَ بَحْدَرٍ واحْتِرَاسَ بَيْنِ الشَّجَنَاءِ الْآخَرِينَ، وَقَعَدَتْ بِجَانِبِ الْبِنْتِ الصَّغِيرَةِ وَأُمِّهَا. وَإِذْ رَفَعَتْ رُكْبَتَيْهَا، أَسْنَدَتْ جَبِينَهَا عَلَيْهِمَا. ثُمَّ فَكَّرَتْ فِي أَتْرَيْتِسَ، سَجِينِ مَرَارَةٍ وَحِقْدِ، وَصَلَّتْ لِأَجَلِهِ. كَمَا صَلَّتْ طَالِبَةً أَنْ تَرْجِعَ جُولِيَا عَنْ سَبِيلِ الْهَلَاكِ الَّذِي اخْتَارَتْهُ. وَشَكَرَتْ لِلَّهِ مِنْ أَجْلِ دَسِمُسَ، عَلَى دَخُولِهِ مَلَكُوتَ اللَّهِ، وَصَلَّتْ لِأَجْلِ فَيْبِيِّ عَسَى أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرَّبِّ أَيْضًا. كَمَا صَلَّتْ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لِپِرُومِيثْيُوسَ طَرِيقًا لِلنَّجَاةِ. وَصَلَّتْ طَالِبَةً أَنْ يَرْحَمَ اللَّهُ پَرِيْمُسَ وَكَالَابَاهُ. وَقَدْ صَلَّتْ طَوَالَ مَا بَقِيَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَأَخِيرًا، سَمَحَتْ هَدْسَةَ لِنَفْسِهَا بِأَنْ تُفَكِّرَ فِي مَرْقُسَ. وَقَدْ صَرَخَ قَلْبُهَا أَلْمًا إِذْ وَاظَمَتْهَا الدُّمُوعُ الْحَارَّةُ. ” يَا رَبِّ، أَنْتَ تَعْرِفُ أَشْوَاقَ قَلْبِي. أَنْتَ تَعْرِفُ مَا أُرِيدُهُ لَكَ. يَا رَبِّ، أَطْلُبُ إِلَيْكَ بِاتِّضَاعٍ أَنْ تَفْتَحَ عَيْنَيْهِ. افْتَحْ عَيْنَيْهِ كَيْ يُبْصِرَ الْحَقَّ. أَدْعُهُ بِاسْمِهِ يَا رَبِّ، وَلِيُكْتَبَ اسْمُهُ فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ “.

خَفَقَ الْمَشْعَلُ مُتَذَبذِبًا، فَصَرَخَ صَوْتًا. قَالَتِ امْرَأَةٌ: ” أَنَا خَائِفَةٌ! “ وَجَاوَبَهَا رَجُلٌ: ” لَقَدْ تَخَلَّى الرَّبُّ عَنَّا “.

فَقَالَتْ هَدْسَةُ بِرَقَّةٍ: ” لَا، إِنَّ الرَّبَّ لَمْ يَتَّخَلَّ عَنَّا. لَا نَشْكُرُ أَبَدًا وَسَطَ الظَّلَامِ فِي مَا أَعْطَانَا اللَّهُ إِيَّاهُ فِي النُّورِ. إِنَّ الرَّبَّ مَعَنَا. وَهُوَ هُنَا الْآنَ. إِنَّهُ لَنْ يَتْرُكَنَا أَبَدًا “.

ثُمَّ بَدَأَتْ تَرْتَمُ بِعُدُوبَةٍ، وَانْضَمَّ إِلَيْهَا آخَرُونَ. وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ، حَنَّتْ رَأْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ، مُسْتَحْدِمَةً أَيَّ وَقْتٍ قَصِيرٍ بَقِيَ لَهَا كَيْ تُصَلِّيَ لِأَجْلِ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ تُحِبُّهُمْ. مَرْقُسَ. فَيْبِيِّ... وَجُولِيَا.

لَمَّا طَلَعَ الصَّبَاحُ، انْفَتَحَ الْبَابُ، وَدَخَلَ الْحَارِسُ الشَّابُّ الَّذِي كَانَ قَدْ رَافَقَ أَتْرَيْتِسَ. قَالَ امْرَأَةٌ: ” أَصْغُوا إِلَيَّ! “ ثُمَّ أَضَافَ - مُحَدِّثًا إِلَى هَدْسَةَ مُبَاشِرَةً - ” سَتَمُوتُونَ الْيَوْمَ. أَصْغُوا إِلَيَّ مَا أَقُولُهُ لَكُمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِسُرْعَةٍ. إِنَّ الْأَسْوَدَ الَّتِي جُوعَتْ لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ ضَارِيَةً. إِنَّهَا ضَعِيفَةٌ، وَيَسْهُلُ تَخْوِيفُهَا، لَا سَيِّمًا عِنْدَمَا يَبْدَأُ الْجُمْهُورُ بِالصَّرَاحِ. فَسَتَكُونُونَ فَرِيسَةً غَرِيبَةً لَهَا. وَالْآنَ، افْعَلُوا هَكَذَا. قِفُوا هَادِثِينَ. تَفَرَّقُوا. حَرِّكُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَجْسَامَكُمْ بِبُطْءٍ، حَتَّى تَعْرِفَ الْأَسْوَدُ أَنَّكُمْ أَحْيَاءٌ وَلَا تُشْكَلونَ حَظْرًا عَلَيْهَا. فَإِنَّ فَعْلَتَهُمْ هَكَذَا، تَهْجُمُ عَلَيْكُمْ. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَأْتِي النِّهَايَةُ بِسُرْعَةٍ “.

أفسس

ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً، وَهُوَ مَا يَزَالُ مُحَدِّقًا إِلَى هَدَسَةِ. وَسِرْعَانِ مَا قَالَ: ”إِنَّهُمْ أَتَوْنَ لِأَخْذِكُمْ“. فَهَضَبَتْ هَدَسَةُ، قَائِلَةً: ”بَارَكَكَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِ لُطْفِكَ!“

وَإِذْ مَضَى مُبْتَعِدًا، نَهَضَ الْجَمِيعُ وَبَدَأُوا يُرْتَمُونَ تَسَابِيحَ لِلرَّبِّ، حَتَّى غَمَرَ الصَّوْتُ الْحُجْرَةَ. ثُمَّ جَاءَ حُرَّاسٌ آخَرُونَ. فَصَاحُوا كَثِيرًا وَسَاقُوا الشَّجْنَاءَ دَفْعًا فِي الدَّهْلِيزِ الْمُظْلِمِ، ثُمَّ صُعُودًا عَلَى الدَّرَجِ الضِّيْقِ، وَأَخِيرًا إِلَى الْأَبْوَابِ. وَاسْتَطَاعَتْ هَدَسَةُ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْخَارِجِ صَوْتًا هَادِرًا مِثْلَ الرُّعْدِ الْمُدَوِّيِّ. وَقَدْ انْعَكَسَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ فَوْقَ الرَّمْلِ الْمُمَهَّدِ، فَبَهَّرَتْ بَصَرَهَا.

وَإِذْ فُتِحَتِ الْأَبْوَابُ، صَلَّصَلَ الْحَدِيدُ عَلَى الْحَدِيدِ. وَصَاحَ الْحُرَّاسُ بِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ، دَافِعِينَ إِيَّاهُمْ دَفْعًا: ”أَخْرُجُوا إِلَى الْوَسَطِ! أَسْرِعُوا! تَحَرَّكُوا!“ وَفَرَّقَ كِرْبَاجَ، فَأَطْلَقَ أَحَدُهُمْ صِرْحَةً أَلْمَ وَتَعَثَّرَ مُصْطَلِمًا بِهَدَسَةِ.

أَمْسَكَتْ بَذِرَاعِ الرُّجْلِ، وَسَاعَدَتْهُ عَلَى السَّيْرِ إِلَى الْبُؤَابَةِ. ثُمَّ ابْتَسَمَتْ لَهُ، وَأَفْلَتَتْهُ، وَمَشَتْ إِلَى الْخَارِجِ حَيْثُ دَاسَتِ الرَّمْلَ. وَتَبِعَهَا الْآخَرُونَ.

بَعْدَ أَيَّامٍ قَضَتْهَا فِي الظُّلَامِ، جَعَلَتْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَشْهَقُ. وَرَفَعَتْ يَدَهَا لِتُظَلِّلَ عَيْنَيْهَا. فَأَنْهَالَتْ عَلَيْهَا وَعَلَى الْآخَرِينَ صَرَخَاتُ الْاسْتِهْزَاءِ وَالشَّتَائِمِ. وَصَاحَ أَحَدُهُمْ: ”ادْعُوا إِلَى الْهَيْكَلِ حَتَّى يُخَلِّصَكُم!“ فَانْطَلَقَتِ الضَّحِكَاتُ الْهَادِرَةُ.

وَقَالَ آخَرٌ: ”إِنَّهُمْ يَبْدُونَ أَشَدَّ هُزَالًا مِنْ أَنْ يُغْرُوا أَسَدًا!“ فَطَرَحَ الرُّعَاعُ عَلَيْهِمْ فَوَاكِهَ وَخُضْرًا فَاسِدَةً، صَائِحِينَ: ”أَطْلِقُوا الْأَسُودَ! أَطْلِقُوا الْأَسُودَ!“

رَفَعَتْ هَدَسَةُ نَظْرَهَا إِلَى جُمْهُورِ الرُّعَاعِ الشُّكَارَى الْوَحْشِيِّينَ وَهُمْ يَصْرُخُونَ طَلِبًا لِلدَّمِ، دَمِهَا هِيَ. وَقَالَتْ بِصَوْتِ خَافِتٍ: ”رَبَّاهُ، ارْحَمَهُمْ!“ وَقَدْ فَاضَتْ عَيْنَاهَا بِالذَّمُوعِ.

لَدَى زَيْبِ الْأَسُودِ، سَيَطَرَتْ بُرُودَةٌ مَأْلُوفَةٌ فِي مَعْدَةِ هَدَسَةِ. كَمَا انْسَدَّتْ حَنْجَرْتُهَا وَجَفَّ حَلْفُهَا. لَقَدْ أَطْبَقَ عَلَيْهَا عَدُوُّهَا الْقَدِيمَ، وَلَكِنَّهَا عَلِمَتْ كَيْفَ تُحَارِبُ الْآنَ. فَذَعَتْ إِلَى الرَّبِّ، وَاقِفَةً بِثَبَاتٍ.

”أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ، كُنْ مَعِيَ الْآنَ. قِفْ بِي جَانِبِي وَأَعْطِنِي قُوَّتَكَ حَتَّى أَمْجِدَكَ!“ هَكَذَا صَلَّتْ، وَإِذَا بِالسَّكِينَةِ تَكْتَبِتُهَا مِنْ جَدِيدٍ، مُبَدَّدَةٌ الْخَوْفَ وَمَالِيَّةٌ إِيَّاهَا بِالْفَرَحِ لِأَنَّهَا سَتَعَذَّبُ مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ.

ثُمَّ انْفَتَحَتْ أَبْوَابٌ أُخْرَى، وَأَطْلَقَ الْجُمْهُورُ صُرَاخًا مَسْعُورًا إِذْ دَفَعَ بِأَتْنِي عَشْرَ أَسَدًا إِلَى

ساحة المحاربين. وإذ ارتاعَت الوحوش من صُراخ الرِّعاع، لَزِمَت الجُدُران، غيرَ مُلقِيَةٍ بالألَى إلى مجموعةِ الشَّجَناءِ البائسين في وسط الساحة.

أَتَتْ فتاةً صغيرةً: ”ماما، أنا خائفة!“

فأجابت أمُّها: ”اذكُري الرَّبَّ!“

وقالت هَدَسَةُ مُبتَسِمةً: ”نَعَمْ، لَنَذكُرِ الرَّبَّ! ثُمَّ انْفصلتْ عنِ المجموعة، ومَشَتْ بهدوء نحوَ مركزِ ساحةِ المحاربين، وبدأت تُرْتَمُّ مُسَبَّحَةَ اللهِ.

تعالَى الصُّراخُ المسعور من قِبَلِ الجُمهور. وإذ كانتِ الوحوش ما زالتْ تَلزَمُ حافةَ الساحة، وكَرَّها بعضُ العبيدِ بِرِماحٍ ليستْ ذاتِ رؤوسٍ حادَّةٍ مُبْعِدِينَ إِيَّاهَا عنِ الجُدُران. فاستدَارَت نحوَ المركزِ بتوتُّرٍ شديدٍ. والتَفَتَتْ لَبوَةٌ نحوَ هَدَسَةَ، وانخفضتْ ثُمَّ تقدَّمتْ بِحدَرٍ. وبينما هَدَسَةُ ما تزالُ تُرْتَمُّ، رفَعَتْ ذِراعَيْها عنِ جَنبَيْها وبسطتْهُما بِبطءٍ. فإذ رَأَتْ اللَّبوَّةُ أَنَّ هَدَسَةَ حيَّةٌ وليسَ من خَطَرٍ، هَجَمَتْ عليها، فصاحَ الرَّعاعُ صياحًا مسعورًا شديدًا. فقطعتِ اللَّبوَّةُ المَسافةَ بِسرعةٍ مُذهلة، ووثبتْ بِاسِطَةٍ بِرائثِها وفاغِرَةً فمها الهائل.

ضحكت جوليا ورمت حبات عنب على مرقس. ثم قالت: ”يا لك من مُناكِدٍ رهيب، يا مرقس!“ وقد كانت مُتَكئَةً بِارتياحٍ فيما فَهَقَهُ مرقس.

فقال مرقس- وهو مُستَرخٌ على المقعدِ ومُسندٌ قدمه على كُرسيٍّ خفيض- ”أرْفُضُ طلبًا كهذا، يعصرُ القلب، من أختي الصَّغيرةِ المحبوبة؟ لقد بدوتِ مُستِمِيَّةً في سبيلِ اصطِحابي!“

قالت: ”مَنْ سِوَاكَ أَضحَكَنِي يومًا كما تُضحِكُنِي أنت؟“ ثُمَّ فرَقَعَتْ إصبعيها قائلةً: ”انتبهي، يا بنت!“ فنقلتْ خادِمَتُها الجديدةَ المِروحةَ الكبيرةَ ثانيةً. وابتسمَ مرقسُ بِفتورٍ، إذ خفقتْ حَمَلَقَتُهُ قليلًا على جَسَدِ الفتاةِ الرشيقِ. ”خادمةٌ جديدةٌ؟“

فقالت جوليا ضاحكةً: ”يسرُّني أنَّكَ عُدتَ إلى طبيعتِكَ القديمة“. ثُمَّ أضافت- مُراقِبَةً إِيَّاهُ اختلاسًا- ”إنَّها جميلة، أليسَت كذلك؟ أجملُ من هَدَسَةَ بكثير.“

أرسلَ مرقسُ ضِحكةً فاترة، وحوَّلَ انتباهه ناحيةَ المُحاربين وهم يَستعْرِضون أُمَامَ المُشاهدين. لم يُردِ أن يُفَكِّرَ في هَدَسَةَ اليوم. لقد جاء إلى الألعابِ لكي ينسى. فمن شأنِ إِرَاقَةِ الدَّماءِ أن تكونَ إطلاقًا تَنفيسِيًّا لِحَيِّتِهِ المكتومة. وعلمًا منه بأنَّ جوليا كانت تُراقِبُه، قال:

”كاييتو وسكوندس سيتقاتلان اليوم“. إلا أنّها كانت مُستغرقةً في تفكيرٍ حالم، فتساءلَ مرقس عن السبب.

”لقد قرأتُ هذا. من سيفوز، حسب رأيك؟“
”سكوندس“.

”أوه، ولكنه مُبلٌ جدًا. فهو يتمايلُ حولَ ساحةِ المحاربين كَثَوْرٍ هَرِمٍ مُتَعَبٍ.“
فقال مرقس: ”إنَّ تمايُّله هو ما يُبقيه حيًّا. فهو ينتظرُ فرصته ثمَّ يضربُ ضربته.“

وما إن انتَهتِ اليمياء، حتَّى خرجتِ المركباتُ من الساحة مُتسارعةً وصدحتِ الأبواق، مُعلنةً بدءَ الألعاب. فهدرتُ جلبةُ الرِّعاع وتعاظمت، تملُّلاً وجوعاً. وهبَ مرقس واقفاً.

جلستُ جوليا سائلةً: ”إلى أين أنت ذاهب؟“

”كي أشتري شيئاً من الخمر“. ورفع نظره نحو السماء الصافية. ”الجوُّ يميلُ إلى الحرارة منذُ الآن. لَن تنفعنا الظُّللُ كثيراً“.

”لديّ خمر، كثيرٌ منها، من أجودِ نوع، لا تذهب. ستبدأُ الألعاب.“

”ليس من شيءٍ يُثيرُ الاهتمامَ في البداية. مُجرَّدُ بضعةٍ مُجرمين سيُطرحون طعاماً للأسود، لَدَيْنا مُتسعٌ من الوقت قبل أن تبدأُ مبارياتُ الدِّمِ الفعلية.“

مدتُ جوليا يدها قائلةً: ”اقعد، يا مرقس. إننا بالكاد تحدثنا. يستطيعُ پريمس أن يذهب لإحضارِ أيِّ شيءٍ نحتاجُ إليه. ألا تستطيعُ ذلك يا پريمس؟“

”بلى، من دونِ شك، يا عزيزتي. مهما اشتهى قلبك!“

رَبَّتْ جوليا المقعدَ المُجاوِرَ لها، قائلةً: ”اقعد هنا، يا مرقس. رجاءاً! مضى زمنٌ طويلٌ لم تُشاهدْ في أثنائه الألعابَ معاً. ما تمتعتُ قطُّ بمثلِ المرح الذي كان يكتنفني عندما أشاهدها معك. ولطالما كانت عينك كلَّ حين بصيرةً بما سيأتي. إذ كنت دائماً تُنبئني إلى أشياءٍ فاتتِ انتباهي“.

فقعد مرقس بجوارها. وأحسَّ توترها. ”ماذا هناك، يا جوليا؟“

”ليس هناك خطب، سوى أنني أريدُ أن تعودَ الأمورُ بيننا إلى سابقِ عهدِها. أريدُ أن أرجعَ إلى ما كانت عليه الأمورُ في روما، قبلما تزوجتُ كلاوديوس، قبلما اعترضَ أيُّ شخصٍ بيننا. هل تذكُر، يا مرقس، أولَ مرَّةٍ اصطحبتني فيها إلى الألعاب؟ لقد كنتُ

مُتحمِّسَةً جدًّا، وكنْتُ صغيرةَ السنِّ. وقد صَحِحَتْ عليَّ لأنِّي كنتُ مُتزمِّتةً“. ثمَّ ابتسمتُ إذ عاودتُها الذِّكْرَى.

فقال بابتِسامةٍ ساحِرةٍ: ”لقد تغلَّبتِ على ذلك بِسرعةٍ كافيةٍ“.

”نعم، وأنتِ كُنْتِ فخورًا بي. قُلْتِ إنِّي كنتُ رومانِيَّةً حقيقيَّةً. هل تتذكَّر؟“
”أتذكَّر“.

”سترجعُ الأمورُ إلى سابقِ عهدِها، يا مَرْقُس. وعدًا مِنِّي بذلك. فبعدَ اليومِ، سننسى كلَّ ما جرى بين ذلك الحينِ والآن. سننسى كلَّ شخصٍ أذانا“.

قطَّبَ مَرْقُسَ قليلاً، ولمسَ خدَّها. ففكَّر في كائِس وأترِيتس. ما تكلمتُ قطُّ عن أيِّ منهما، ولكنَّهُ علمَ أنَّ كليهما خلَّفًا ندوبًا- ندوبًا عميقةً سترتها حتىَّ عنه.

ثمَّ ركَّزتُ نظرها عليه، وسألته: ”أُحِبُّنِي، يا مَرْقُس؟“
”دون شكِّ، أُحِبُّكِ“.

ولكنَّها علمتْ أنَّه لا يحبُّها بعدُ مثلما أحبَّها في ما مضى. فقد ساوَرَ سيماءَه التَّحَفُّظُ والألمُ. إنَّ ذلك كلُّه سيَتغيَّرُ عاجلاً. فاليومُ الراهنُ سيمحو الماضيَ وينتقمُ لجراحه... وجراحِها. وسرعان ما قالت: ”كنتُ أنتِ دائماً الشخصَ الوحيدَ الذي يمكنني أن أعتدَّ عليه، يا مَرْقُس“. ثمَّ أمسكتْ يده، وأضافت: ”كنتُ أنتِ الشخصَ الوحيدَ الذي أيقنْتُ بأنَّه سيُحِبُّنِي مهما فعلتُ. ثمَّ اعترضَ بيننا آخرون، وجعلوا الأمورَ تتغيَّرُ. فنحنُ سمحنا لهم بأن يعترضوا في الطريق. وما كان ينبغي أن نفعلَ ذلك“.

”جوليا، لم أكُفَّ يوماً عن بذلِ المحبَّةِ لكِ“.

”لعلَّكَ لم تكفِّ، ولكنَّ الأحوالَ بيننا تغيَّرت. وقد جعلها قومٌ تتغيَّرُ. فكم رأيتُ طريقةً نظركَ إليَّ بعضَ الأحيان وكأَنَّكَ لم تُعدِّ تعرفُنِي. غير أنَّكَ تعرفُنِي، يا مَرْقُس. تعرفُنِي جيِّداً كما تعرفُ نفسك. فنحنُ مُتشابهانِ إلى أقصى حدِّ، كأننا حَبَّةُ فُولٍ انقسمت. سوى أنَّكَ قد نسيت“.

كانت يدها باردةً وجامدةً، فسألها بِقلْقٍ ثانيةً: ”ما مشكلتُكِ، يا جوليا؟“

أجابت: ”لا مشكلة. كلُّ شيءٍ على ما يرام. أو سيكون. لقد تيقنْتُ من هذا“.

”تيقنْتِ ممَّا؟“

”عندي مُفاجأةٌ لك، يا مَرْقُس“.

”أَيُّ مُفَاجَأَةٍ؟“

فضحكت. ”أوه، لا. لن أقول لك. ما عليك إلا أن تنتظرَ فترى. ألن يرى، يا كالاباه؟“
ابتسمت كالاباه بفتور، وعيناها باردتان وقامتتان. ”لقد بدأت الألعاب، يا جوليا.“
فقالَت بتوق، ويدها تشتدُّ على يده أكثرَ بعد: ”أوه، نعم! أوه، نعم، لقد بدأت؟
فلنشاهد، يا مرقس. سترى ما قد أعددتُ لك.“

اجتاحته قشعريرةٌ توجسٍ مُسبق، فسألها- مُرغمًا صوتَه على الهدوء والثبات-
”ماذا أعددتِ؟“

مدَّت ذراعها اليمنى مُشيرةً، وقالت: ”انظُر! الأبوابُ تفتح. هل تراهم؟ أولئك
الأدنياءُ الفاسدين الممقوتين. إنَّهم يستحقُّون الموتَ كلِّهم. كلُّ واحدٍ منهم. انظُر! هل
ترى؟ مسيحيين!“

ويقلبٍ يخفقُ بشدة، رأى مرقس السجّناء يخرجون إلى ضياء الشمس...
أه، أيُّها الآلهة...

حتى من هذه المسافة البعيدة، عرفَ هدسة. فتوقَّف قلبه، وقال: ”لا!“ بصوتٍ غدا
همسًا أجبس، مُحاولًا أن ينكرَ ما تكنت عيناه من أن تراه.

قالت جوليا: ”بلى! هدسة“. وقد رأت مدى شحوبٍ وجهه. ثمَّ أضافت: ”إنَّها تنال
ما تستحقُّه.“

حدَّق مرقس فيما هدسة تتقدَّم المجموعة إلى الخارج، ماشيةً بهدوء. ”ماذا فعلتِ،
يا جوليا؟“

”لقد سمعتُ ما قالته لك! سمعتها تردُّ حَبِكَ ضاربةً به وجهك. إنَّها فضلتُ إليها
عليك، وأنت قلتُ إنَّ في وسعِ إليها أن يأخذها. حسنًا، الآن سيأخذها.“

”أأنتِ من رتب هذا؟“ قال هذا بصوتٍ ملؤه اليأس والاشمئزاز. ثمَّ انتزعَ يده
منها، وادًا لو يضربها. ”أأنتِ من فعل هذا بها؟“

”هي فعلته بنفسها. لقد اصطحبْتُها إلى وليمة فتليوس.“

”أنتِ تعلمين أن فتليوس يكره اليهود!“

”نعم، هو يكرههم، ولسببٍ وجيه. فهم أدنى شعبٍ على وجه الأرض! تملوون
بالكبرياء. مُدنيون بالعِصيان من الرِّجم. ما كانت لتراجع. علمتُ أنَّها ما كانت لتراجع.“

علمتُ ذلك! فإنها اكتفت بالوقوف في مكانها، ناظرةً إليَّ بعينيها الحزيبتين المُفعمتين بالعاطفة، كما لو كانت تَرثي لي.“

”لقد أنقذت حياتك مرّة! أم نسيت أن كائس كاد يقتلك؟ ومع ذلك أرسلتها إلى هلاكها؟“

”إنها عبدة، يا مرقس. فلما حمتني، فعلت ما كان واجباً عليها أن تفعله. أينبغي أن أكون شكوراً على ذلك؟ إن حياتها لا تعني شيئاً.“

أحس مرقس اليأس مُنبعثاً في داخله، جاعلاً تنفّسه شبه مُستحيل. وصاح: ”إن حياتها تعني لي كل شيء! أنا أحبها!“

فجأة صرّخ الجمهور صراخاً مسعوراً، والتفت مرقس ليرى أن الأسود قد دخلت الساحة. فهبّ واقفاً على قدميه. ”لا! إنها بريئة! إنها لم ترتكب أي شيء خاطئ!“

نهضت جوليا معه، مُتشبّهةً بذراعه. ”أي شيء؟ لقد وضعت إلهها فوقك. وضعت إلهها فوق روما! إنها رائحة تبتة في أنفي. إنها شوكة في خاصرتي، وأنا أريد لها أن تُقتل، أن تُدمر. إنني أكرهها! هل تسمعي؟“ ثم التفتت إلى الساحة من جديد. ”نعم! أبعادوا الأسود عن الجدران!“

”لا!“ ودفع جوليا عنه. ”ارجعي، هُدسة! ارجعي!“

فصرخت جوليا ثانية، بمزيد من الشعر: ”ادفعوا الأسود إلى الساحة!“

”لا!“ وأبعد يدي أخته عنه. ”ارجعي، هُدسة!“

تعالى صراخ الرّاع المصّحين فيما مشت هُدسة بهدوء نحو مركز الساحة. ورضت اللبوة. فرفعت هُدسة يديها ببطء، باسيطة ذراعيها كما لو كانت تُرحّب بذلك الوحش عند هجوميّه.

”لا!“ صرّخها مرقس ثانية، وقد تشنّج وجهه إذ صدمت اللبوة هُدسة. وإذ هوت أرضاً، أشاح وجهه... ومات شيء في داخله.

فقالت جوليا بانتصار: ”هه! قضيت الأمر.“

وتعالى صوت نشوة الطرب إذ أطلق المشاهدون هتافاتهم الصاخبة. ثم زمجر مزيد من الأسود. ودوت صرّخات الخوف والألم، وتضاحك شخص بقرّب مرقس: ”انظروا الأسود تتفرّق الآن!“ وصاح آخر باستهزاء: ”انظروا هناك أسدين يتقاتلان على جثة الفتاة الأولى!“

في تلك اللحظة، استجاب الله صلاة هَدَسَة.

التفت مَرُقُس من جديد، فانفتحت عيناه فجأة فيما هو يُحدِّق إلى هَدَسَة في الأسفل، مطروحةً على الرَّمْل في كُومَة مَجْعَدَة، وتُنكُّها مُمَزَّق ومُضْرَج بالدم. وقد كانت لَبُوتَان تتقاتلان على جَسَد هَدَسَة، وإحداهما تُهاجِم الأخرى. ثُمَّ عَضَّت إحداهما ساقَ هَدَسَة وحاولت أن تجرَّها بعيداً، فهاجمتها الأخرى من جديد.

وقالت جوليا- مُتَشَبِّهَةً بِمَرُقُس- ”لقد جازَيْتُها على ما فعلته بنا. في وَسِعِنَا أن ننساها الآن!“

فقال بصوتٍ أجش: ”لن أنساها أبداً“. ثُمَّ أمسَكَ مَعْصَمِي جوليا بإحكام، ناظراً إليها كما لو كانت شيئاً فاسداً وكريهاً. ”لكنني سأنساكِ أنتِ!“

قالت: ”مَرُقُس، إنك تؤلِّني!“ وقد رَوَّعتها النَّظْرَة التي بدت في عينيه. فمضى يقول- دافعاً جوليا عنه- ”سأنسى أنه كانت لي أختٌ أصلاً. عسى أن تلعنكِ الإلهة من أجل ما قد فعلت!“

وقفت مُحدِّق إليه شاحبةً الوجه، وعيناها مُتَّسَعَتان من الصدمة. ”كيف يُمكنك أن تقول لي أشياء قاسية كهذه؟ لقد فعلت ذلك لأجلك! فعلت ذلك لأجلك!“ فتحوَّل عنها كما لو أنها لم تتكلَّم، كما لو أنها لم تكن موجودة. وقال بصوتٍ خافت، مُفَعِّم بالاشمئزاز: ”أتريدينها، يا كالاباه؟“

فأجابت كالاباه- وعيناها تتأججان بنارٍ سوداء- ”أنا أريدها دائماً.“

”لك أن تأخذها“. ثُمَّ أدارَ مَرُقُس ظهره لجوليا، واندفع يشقُّ طريقه مُتخطِّباً بِرِمْسٍ إذ كان عائداً لِتَوَّه بأزقاقِ الخمر. ”ابتعد من طريقي!“

وصاحت جوليا: ”لا! أوقفه! مَرُقُس، عُدْ إلى هنا!“

فأمسكت كالاباه يدها بإحكام، وقبضتُها قويَّةً وغير مُتراحية. ”فات الأوان، جوليا. لقد حَسَمتِ خيارِاتك.“

صرخت جوليا، باكيةً على نحوٍ هستيري: ”أفلتيني. مَرُقُس!“ وجاهدت كى تلحقَ بأخيها. ”أفلتيني!“

فقال كالاباه- وصوتُها ينضحُ بالرُضى- ”لقد ذهب!“

التفتت جوليا ثانيةً إلى هَدَسَة على الرَّمْل المُضْرَج. وانفغرَ فراغٌ هائلٌ في داخلها إذ

نظرت إلى الجسم الهامد. كما ولّى أيضاً الملح الذي كان يحول دون فسادها الكلي.
وصاحت جوليا: "مرقس! مرقس!"

اندفع مرقس متخطياً المشاهدين الصائحين، مُستميئاً في سبيل الخروج، في سبيل الهروب. وتعاطم حوَالِيهِ صَوْتُ الرَّعَاعِ فِي شَعْفٍ وَحَشِيٍّ مُسْتَهْتِرٍ، وَقَدْ أَسْكَرَهُم الدَّمُ وَالْمُعَانَاةُ الْبَشَرِيَّانِ فَأَلْحُوا فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ هَائِجِينَ مَائِجِينَ... وَبَعْدَمَا شَقَّ مَرْقُسُ طَرِيقَهُ بَعْنَاءٍ فِي وَسْطِهِمْ، وَصَلَ أَعْلَى الدَّرَجِ، وَهَبَطَ الْجَانِبَ الْآخَرَ مُسْرِعًا. ثُمَّ فَرَّ عَبْرَ الْأَبْوَابِ إِلَى الْهَوَاءِ الطَّلِقِ، وَقَدْ عَشِيَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الدَّمُوعِ. فَلَمْ يَدِرْ أَيْنَ كَانَ ذَاهِبًا، وَلَمْ يَهْمَهُ ذَلِكَ. إِذْ رَكَضَ لِيَهْرَبَ مِنَ الصَّوْتِ وَالرَّائِحَةِ وَالْمَنْظَرِ الَّذِي انْطَبَعَ فِي ذَهْنِهِ وَسَمًا. رَكَضَ لِيَهْرَبَ مِنْ صُورَةِ هَدَسَةِ مُتَكَوِّمَةً عَلَى الرَّمْلِ فِيمَا الْأَسْدَانُ يَتَقَاتِلَانِ عَلَى جَسَدِهَا كَمَا لَوْ كَانَ مُجَرَّدَ قِطْعَةٍ لَحْمٍ أُخْرَى.

وَإِذْ ضَاعَفَ الرَّكْضَ، أَحْسَسَ حُرْقَةً فِي رِئْتَيْهِ. وَظَلَّ يَرْكُضُ حَتَّى خَارَتْ قُوَّتُهُ، ثُمَّ تَعَثَّرَ بِلَا هَدَفٍ عَلَى شَارِعِ رُخَامِيٍّ تَحَفَّ بِهِ أَوْثَانٌ مَرْمَرِيَّةٌ لَا تَقْوَى عَلَى مُسَاعَدَتِهِ. كَانَتْ الْمَدِينَةُ خَالِيَةً تَقْرِيبًا؛ إِذْ كَانَ مُعْظَمُ سَكَّانِهَا فِي مُدْرَجٍ سَاحَةِ الْمُحَارِبِينَ يَسْتَمْتِعُونَ بِالْأَلْعَابِ. وَقَدْ وَقَفَ جَنُودٌ عِنْدَ كُلِّ زَاوِيَةٍ، لِلْحِيلُولَةِ دُونَ السَّرِقَةِ. فَحَدَّقُوا إِلَيْهِ وَهُوَ عَابِرٌ.

ثُمَّ اسْتَنَدَ بِتَأَقُّلٍ إِلَى جِدَارٍ، وَتَطَلَّعَ الْكَلِمَاتِ الْمَكْتُوبَةَ مُعْلِنَةً بِصَفَاقَةِ بَرْنَامِجِ الْأَلْعَابِ. وَإِذْ حَدَّقَ إِلَى تِلْكَ الْكَلِمَاتِ، تَذَكَّرَ الْمُرَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَالتِّي فِيهَا قَعَدَ دَاخِلَ الْمُدْرَجِ، مُشَاهِدًا إِرَاقَةَ دِمَاءٍ بَرِيئَةٍ دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي أَيِّ شَيْءٍ بِشَأْنِهَا. وَتَذَكَّرَ الْمُرَاتِ الَّتِي فِيهَا اسْتَرْسَلَ فِي الضَّحِكِ فِيمَا أَنَاَسَ يَرْكُضُونَ هَارِبِينَ إِنْقَاذًا لِحَيَاتِهِمْ، أَوْ أَطْلَقَ الشَّتَائِمَ مَتَى طَالَتْ مُبَارَاةُ دِمُوعِيَّةٍ فَوْقَ الْحَدِّ. وَتَذَكَّرَ جُلُوسَهُ سَمِيمًا فِيمَا الشَّجْنَاءُ يُطْرَحُونَ طَعَامًا لِلْوَحُوشِ أَوْ يُسْمَرُونَ عَلَى صُلْبَانِ.

وَإِذْ تَذَكَّرَ ذَلِكَ كُلَّهُ، رَأَى دَوْرَهُ فِي مَوْتِ هَدَسَةِ.

وَمِنْ بَعِيدٍ، سَمِعَ مَرْقُسَ الْهَدِيدِ الْمَأْلُوفِ... دَوِيَّ الْبَشَرِيَّةِ الْجَائِعَةِ. فَسَدَّ أذُنَيْهِ، وَإِذَا بِصَوْتٍ يَطْلُعُ مِنَ الْأَعْمَاقِ فِي دَاخِلِهِ، صَرِيحَةٌ أَلَمٌ وَيَأْسٌ، صَرِيحَةٌ نَدَمٍ وَذَنْبٍ. وَقَدْ انْسَلَخَ ذَلِكَ الصَّوْتُ عَنْهُ وَتَعَالَى، حَتَّى تَرَدَّدَتْ أَصْدَاؤُهُ عَبْرَ الشَّارِعِ الْخَالِيِ.

“هَدَسَةُ!”

ثُمَّ خَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. وَإِذْ تَكْوَّمُ عَلَى ذَاتِهِ، غَطَّى رَأْسَهُ وَبَكَى.

خاتمة

”هوذا عينُ الرَّبِّ على خائفيه الرَّاجينَ رحمته،

لِيُنَجِّيَ مِنَ الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ...“.

المزمور ٣٣: ١٨ و ١٩

القِصَّةُ لَمْ تَنْتَهِ بَعْدَ!

لَا تَفُتِّكِ التَّكْمِيلَةُ الْمَمْتَعَةُ وَالْمَوْثُورَةُ

لِقِصَّةِ هَدَسَّةٍ وَمَرْقُسٍ وَجُولِيَا

فِي الْكِتَابِ الثَّانِي:

صَدَى قَبْلِ الظَّلَامِ

مدى في الظلام

الفصل الأول

وقف ألكسندر ديموسيدس أمام ديموسيدس عند باب الموت، مُنتظرًا الفرصة لتعلم المزيد عن الحياة. ولما لم يكن يستمتع قط بالألعاب، فقد جاء متواريًا. غير أنه الآن شلَّ حيال ما كان يشهده، مذهولًا في أعماق أعماق كيانه.

ما تزال حدة الرعاع المسعورة تملأه دائمًا بقلقٍ غريزي. كان والد ألكسندر قد قال إنَّ المرء يختبر فرجًا في مشاهدة العُنف مُنزلاً بالآخرين، وألكسندر قد رأى بين الفينة والفينة فرحًا شبيهَ مَرَضِيٍّ على الوجوه بين الجمهور وهم يُشاهدون ما تحدُّه الألعاب من فتكٍ وهلاك. عندئذٍ قطب ألكسندر. فربما أولئك الجالسون مُشاهدين الأحوال كانوا، بمعنى من المعاني، سُكُورين لأنهم لم يكونوا هم من واجهوا الأسود، أو قاتلوا مُحاربًا مُدريًا... أو سقطوا ضحايا مَيِّتةٍ أخرى أشدَّ غرابةً وقذارةً.

بدا كأن الآلاف جاءوا ليُجدوا تنفيسًا في إراقة الدماء، وكأنَّ مُعاينة التَّشويه المقصود وفرت - بطريقة ما - حاجزًا حائلًا ما بين كلِّ من المُشاهدين وعالمهم الفاسد والمُستبدِّ على نحو مُتفاقم. نعم، كانت أمورٌ رهيبَةٌ جاريةً في الإمبراطوريَّة، ولكنها - في هذه اللحظات - لم تكن حادثةً للنُّخبة، للأُمراء، لأولئك المنتمين حقًا إلى روما. فابتسم ألكسندر بسُخريَّة، عالمًا أنَّ أقبلاءً ممن كانوا جالسين على صُفوف المقاعد لاحظوا ما كان جليًّا في نظره: أنَّ تنانهُ الدَّم على الرَّمَل لم تكن قط أقلَّ قوَّةً من تننَّ الشَّهوة والخوف المحيطين بكلِّ من في الإمبراطوريَّة. حتَّى لقد كان ذلك في الهواء الذي تنفسوه بعينه.

ومع ذلك، فاليوم... اليوم حدثَ شيءٌ مُذهِل، شيءٌ أثار في ذلك الشابِّ مثلما تأثر نادراً من قبل. والآن حوَّلَ عينيه نحو الشَّابَّة المطروحة أرضًا، وأحسَّ شعورًا بالانتصار يتعدَّر تفسيره.

تشبَّثت يدها بقضبان الحديد وهو يرنو إلى الرَّمَل، حيثُ كانت الشَّابَّة الآن مُلقاةً مَيِّتة. لقد مَسَّت إلى الأمام مُنفصلةً عن الآخرين، هادئةً وفرحةً فرحًا غريبًا. وتذكَّر ألكسندر كيف تركَّز انتباهه عليها مباشرةً. فبصفتها طبيبيًا طموحًا، كان قد دُرِّب على ملاحظة أيِّ شيءٍ غير

مُعتاد، أي شيءٍ مُختلفٍ في شخصٍ ما، وهو قد رأى في تلك الشابة شيئاً يفوق العادي... شيئاً يستعصي على الوصف.

ثمَّ إنَّها بدأت على الأثرِ تُغني، فاخترقَ الصَّوتُ العذبُ كيانه.

وما لبثت صرَّحاتُ الرُّعاع أن طَغت على وقعِ صَوْتِها. غيرَ أنَّها ظَلَّت تتقدَّم، ماشيةً على الرَّمْلِ برزانة، متوجهةً مباشرةً إلى حيثُ كان هو واقفاً. وكان في وسعه أن يشعرَ مُجدداً كيف أخذَ قلبُه يدقُّ مع كُلِّ خطوةٍ حَظَّتْها. كانت بالأحرى بسيطةً المظهر، ومع ذلك اكتنفها تألُّقٌ ما... هالةٌ نُورٍ أحسَّها بدل أن يراها. حتَّى لقد حُيِّلَ إليه أن ذراعيها المبسوطتين ستمتدان إليه وتطوقانه.

كانتِ اللَّبوةُ قد ضربتها بخبطةٍ مُغثية، وقد شعرَ ألكسندرُ بالضربة هو نفسه.

والآن أغمضَ عينيَّ، وقد سرَّت في أوصاله فُشعريرةٌ شديدة، ثمَّ نظرَ إليها من جديد. كانت لَبوتان تتقاتلان على الجَسَدِ الهامد. فأجفلَ إذ شاهد إحداهما تغرزُ برائتها عميقةً في فخذِ الفتاة وتُحاولُ أن تجرَّها بعيداً. لحظتُها وتبَّت اللَّبوةُ الأخرى، فتدحرجتِ الاثنتان وأنشبت كلتاهما منخالبها في الأخرى مُتقاتلتين على الفريسة.

حينئذٍ تماماً ركضَ ولَدٌ زاعقٌ بمُحاذاةِ البوابةِ المشبَّكة بالحديد، حيثُ كان ألكسندر واقفاً، تُطارده لَبوةٌ ذاتُ طوقٍ مُرَّصعٍ بالجواهر. فصرَّ الشابُّ بأسنانه، وأسندَ جبينَه على القُضبانِ الحديديةِ الباردة، وقد سُجبت أصابعه مع حِدَّةِ صراعه الداخلي. إنَّ منظرَ هذا المقدارِ البالغِ من العذابِ والموتِ قد انقضَّ عليه وأصابه بالغثيان.

منذ الزَّمن الذي تعودُ إليه ذاكرته، ما يزالُ يسمعُ الحُجَّجَ المؤيِّدةَ للألعاب. وقد قيلَ له إنَّ أولئك الذين يُرسلون إلى ساحةِ المحارِبين كانوا مُجرِّمين يستحقُّون الموت. وعلمَ أنَّ الأشخاصَ الذين كانوا على الرَّمْلِ الآن ينتمون إلى ديانةٍ مُحرَّضٍ على إطاحة روما. رُغمَ ذلك لم يتمالك نفسه عن التَّساؤل: ألا ينبغي أن يُفوضَ مُجتمعٌ يقتل الأَوْلادَ الذين لا حولَ لهم ولا قُوَّة؟

حتَّى إذا أُخرِست فجأةً صرَّحاتُ الولدِ المُفعمَّةِ بالرُّعب، زَفَرَ ألكسندر نفسه، وهو لا يكادُ يعلمُ أنَّه كان يجبسه. فصَحَّك الحارسُ الذي وراءه ضِحكةً حَسينة.

”لا يكادُ ذلك الصَّغيرُ يُشكِّلُ لُقمةً واحدةً!“

ولم يُجبِ ألكسندر، بل أرادَ أن يُغمضَ عينيَّ، ليحجُبَهما عن رؤيةِ المجررةِ أمامه. ولكنَّ الحارسَ باتَ يُراقِبُه الآن. وكان في وسعه أن يُحسَّ البريقَ الباردَ في عينيَّه القاسيتين

الفصل الأول

وهما تلاحظانه من وراء واقية الوجه على الخوذة المصقولة. وما كان ألكسندر ليُذَلِّ نفسه بإبداء الضَّعْف. فإنَّ كان ينوي أن يصيرَ طبيبًا جيّدًا، يجب عليه أن يتعلَّم التغلَّب على مشاعره. وكان فليغون قد نبّهه مرارًا كافية إلى أنَّ عليه أن يُقسِّي قلبه إذا شاء أن ينجح في مهنة حياته. ثمَّ إنَّ مُعلِّم ألكسندر الحبيب كان قد قال له - رُغمَ كُلِّ شيء - إنَّ الموت هو جزء من نصيب الطبيب في الحياة.

سحب ألكسندر نفسًا مُهدئًا وأرغمَ نفسه على النُّظر إلى الرَّمَل من جديد. لقد عَلِمَ أنَّه لولا الألعاب ما كانت تتاح له فرصة لدراسة علم التشريح البشري. وقد قال فليغون إنَّ ألكسندر قد بلغَ تمنونه في دراساته للمخطوطات والرُّسوم. فالآن، إذا كان له أن يتعلَّم ما يحتاج إلى معرفته لإنقاذ حياة الناس، يجب عليه أن يمارِسَ تشريح الأحياء. ومن ثمَّ كان الطبيب العتيق عنيّدًا، لعلمه بنفور ألكسندر من هذه الحقيقة، فأوقع الشاب الأصغر سنًا في شبكة من المنطق. كيف له أن يتمكَّن من إجراء عمليّات جراحية دون معرفة أوليّة مباشرة بالتشريح البشري؟ فإنَّ الخرائط والرُّسوم ليست مثل الاشتغال بكائن بشري. وفي روما، كان هنالك سبيلٌ واحدٌ فقط للقيام بذلك.

لَعَنَ ألكسندر في سرِّه القانونَ الرومانيَّ الذي مَنَعَ تشريح الأموات، مُرغمًا الأطباءَ بذلك على الممارسة المروعة بالاشتغال في أولئك الذين يؤشكون أن يموتوا. والمكان الوحيد الذي فيه يُتاح للمرء أن يقوم بأمر كهذا كان في الألعاب، حيثُ الجرحى كانوا مُجرمين.

والآن، راح الضحايا يسقطون واحدًا إثر واحد، إلى أن حلَّ محلَّ أصوات الرُّعب المروعة ذلك الهدوء التسيبي الذي واكب تناوُل الأسود طعامها. ثمَّ أعلم صوت آخر ألكسندر أنَّ وقته قريب، ألا وهو الصوتُ المُعَبَّر عن تزايد الضَّجْر وعدم الرُّضى لدى الجمهور. لقد انتهت المباراة، وأوشكت تسليمهم على الانتهاء. فلتنصرف الوحوش إلى التهام فرائسها داخل أقفاصها المظلمة، بدَل أن تُفرض على المشاهدين أن ينظروا استمتاعها المضجِر بالأشلاء!

سرعان ما لبى مُنشقُّ الألعاب رَغبات الجمهور سريعًا. إذ فُتحت الأبواب على مصاريعها، واقترَب سائسون مُستلحون إلى الوحوش، فغرزت هذه منجليتها وأنيابها بأكثر ضراوة حماية لفرائسها الساقطة. ووراء السائسين مباشرةً أقبل رجلٌ يرتدي زيَّ شارن، الدليل الذي ينقل نفوس الموتى على نهر الأسطقس. وفيما شاهد ألكسندر الممثل المتكرِّر يرقص من جثةٍ إلى تاليتها، صلَّى طالبًا أن توجد نسمة حياة في ضحيّة واحدة على الأقل. وإلا، اضطرَّ إلى البقاء هنا حتَّى تلوح فرصة أخرى.

اكتسخت حَمَلَقَةُ أَلِكْسَنْدَرِ الرَّمَلِ، بحثًا عن أيِّ ناجين، رُغَمَ تشبُّهه بقليلٍ من الأمل في العثور ولو على ناجٍ واحد. والتفت ثانيةً إلى الشابة الفتية، فلم يرَ بقربها أيَّ أسد، فوجد ذلك غريبًا إذ كانت بعيدةً عن الرجال الذين يطردون الوحوشَ نحو الأبواب. وزمَّ عينيه ناظرًا إلى جسمها الهامد، ثمَّ أحسَّ صدمةً تأثر. هل رأى حَرَكَةً ضئيلةً؟ وإذ مال إلى الأمام، حدَّقَ بتركيزٍ تحت وَهَجِ الشمس. لقد تحرَّكت أصابعها فعلاً!

وسرعان ما قال: ”انظر هناك، قُربَ المركز!“

فأجاب الحارسُ بصراحة: ”كانت أوَّلَ مَنْ تعرَّضَ للهجوم. إنها ميتة.“
وأصرَّ أَلِكْسَنْدَرُ: ”أريدُ أن أُلقيَ نظرةً عليها.“

فهزَّ الحارسُ كتفيه لامباليًا، وقال: ”كما ترعَّبُ!“ مُتقدِّمًا إلى الأمام ومُصدِرًا صَفْرَتَيْنِ حادَّتَيْنِ سريعتين. وراقبَ أَلِكْسَنْدَرُ إذ وثبَ شارُّن واستدارَ نحو الفتاة الملقاة، ثمَّ انحنى قليلًا ورأسه ذو الرِّيشِ والمنقارِ يتلَفُفُ كما لو كان يُصغي بانتباهٍ لصوتٍ أو علامةٍ يدلُّان على وجودِ حياة. وقد لَوَّحَ بمطرفته الكبيرة في الهواءِ بطريقةٍ مسرحيةٍ، مُستعدًّا أن يهويَ بها إن كان القضاء لم يجرِ والضحية ما زالت حيَّة. ولكنَّ إذ اقتنع على ما يبدو بأن الفتاة ميتة، أمسكَ بذراعها وجرَّها بفضاظة نحو باب الموت.

وفجأةً، انقلبت لَبوَةٌ على السائس الذي كان يسوقها نحو النَّق. فهبَّ الجمهور عن مقاعدهم واقفين على أقدامهم، صائحين باهتياجٍ من فرطِ الحماسة. وبالكاد استطاع السائس أن يتفادى من هجوم اللبوة، مُستخدِمًا كِرْباجه بمهارةٍ لِسوقِ الوحشِ الهائج مُجددًا نحو النَّق المؤدِّي إلى الأقفاس. فانتَهزَ الحارسُ الانشغال، وفتحَ البوابة على مصراعها.

وصاحَ بشارُّن: ”هيا!“ فركض هذا ساحبًا الفتاة إلى الظلال. ثمَّ فرَّقَ الحارسُ إصبعيه، فسارعَ عبدان وأمسكا بالفتاة من ذراعها ورجليها، وحملاها إلى الدهليز المضاء إضاءةً قائمة. قال أَلِكْسَنْدَرُ بغضب: ”على مهل!“ إذ طرحها بقوةٍ على طاولةٍ وسخةٍ مُضْرَجَةٍ بالدَّماء. ثمَّ دفعَ العبدَينِ جانبًا، مُتيقنًا بأنَّه لو كانت الفتاة حيَّة لأعدمها هذان الأخرقان بمعامَلتهما الفظَّة.

أطبقت يدُ الحارسِ الشديدة على ذراعِ أَلِكْسَنْدَرِ بإحكام، وقال بيرودة: ”إليَّ بسِّتةٍ سَسْتَرَساتٍ قبل أن تتفحصها.“

فقال أَلِكْسَنْدَرُ- رافعًا حاجبًا أرسطراطيًّا- ”هذا غالٍ قليلًا، أليس كذلك؟“

الفصل الأول

ورد الحارس، مُبتسماً بِخُبث: ”ليس على تلميذ للمعلم فليغون. لا بُدَّ أن يكون صندوقك ملاًناً بالذهب حتى تتمكن من هذه التلمذة“. ثم بسط يده.

أجاب ألكسندر بجفاء- وهو يحلُّ الصِّرة المعلقة على خصره- ”إنه صندوق يفرغ بسرعة“. إذ لم يعلم كم من الوقت سيتأخَّر له أن يشتغل بالفتاة قبل أن تموت، ولم يُرد أن يُبذد الوقت مُساوياً على قطع نقدٍ قليلة. فأخذ الحارس الرِّشوة، وتوارى عن الأنظار.

ركَّز ألكسندر انتباهه على الفتاة من جديد. كان وجهها كتلةً دامية من اللحم الممزق، كما كان تُنكها مُضرباً بالدماء. وقد كان الدمُّ كثيراً جداً بحيث تأكد للطبيب الشاب أنها لا بد أن تكون قد ماتت. وإذ انحنى ووضع أذنه بقرب شفيتها، أذهله أن يحسَّ نَسمة حياة هادئة دافئة. إذًا، ليس لديه وقت كثير للعمل.

أوماً لِعبيديه، وتناول منشفةً فمسح يديه. ”انقلها إلى القسم الخلفي، بعيداً عن هذه الضجة. بسرعة!“ فامتثل العبدان حالاً، فيما وقف ترواس- عبد فليغون جانباً يراقب. وانزَمَ فمُّ ألكسندر. لقد كان مُعجباً بقدرات ذلك العبد، دون تصرُّفه البارد، إذ كان قد عاوَن فليغون عدَّة مرَّات في الماضي وبات يعرف من شؤون الطبِّ أكثر ممَّا يعرفه مُعظمُ الأطباء الأحرار الذين يُمارسون المهنة.

قال ألكسندر: ”إليَّ بِصَوء!“ فقُرَّب مشعلٌ فيما انحنى فوق الفتاة، وقد باتت الآن مُمدَّدة على لوح في ظلمات الدَّهليز المعتمة. لقد جاء ألكسندر لِعرض واحد: أن يسَلِّح الجِلد والعَضل إلى الوراء عن منطقة الجوف، ويدرس الأعضاء التي تنكشِف. فصلَّب عزمته، وحلَّ حقيبة جلدية، وفتحها بسرعة، كاشفاً أدواته الجراحية. وسرعان ما انتقى سِكينا ربيعاً حاداً كالنوس.

كانت يده تُفرز عرقاً. والأسوأ أنها كانت ترتجف. وقد تصبَّب العرق من جبينه، وكان في وسعه أن يحسَّ ترواس مُراقباً إيَّاه بعين نقادة. فإذ لم يكن لديه مُتسع من الوقت، فكان عليه أن يتحرَّك بسرعة ويتعلم كلَّ ما يستطيعه.

مسح العرق عن جبينه، ولعن ضعفه الذاتي في سره.

قال ترواس بهدوء: ”لن تشعُر الفتاة بشيء“.

فصرَّ بأسنانه، وقطع طوق العنق من التَّنك المُضرج وشقَّه حتى الحاشية، وبسطه مفتوحاً بخذر لكي يُخَمِّن الصُّرر في جسد الفتاة. وبعد لحظةٍ وجيزة، تجهم ألكسندر. فمن الصدر حتى المفصل عند أعلى الفخذ كان عليها فقط آثارُ جروحٍ سطحية وكدماتٍ قاتمة.

قال أمرًا: "قَرِّبِ الْمَشْعَلِ!" فيما انحنى من جديد نحو جروح رأسها ليفحصها ثانية. فإذا أخذ يد عميقة مَشْقُوقَة من حَدِّ شعريها إلى ذقنها، ثُمَّ من ترقوتها قرب الكتف إلى قصصها في منتصف أعلى الصدر. وانتقلت حَمَلَقَةُ الطَّيِّبِ الشَّابِّ نزولاً ببطء، كاشفة الجراح العميقة الغائرة والعظام المكسورة في ساعدها الأيمن. وأسوأ الكُلِّ بَعْدُ كانتِ الجراحُ في فِخْذِها، حيثُ غرَزَتِ اللَّبْوَةُ برائثتها وحاولت جَرَّ الفتاة.

اتَّسَعَت عَيْنَا ألكسندر لما أدرك أنَّ الفتاة لم تنزفِ حتَّى الموت لأنَّ الرَّمْلَ خَثَّرَ جراحها- ربَّما نتيجةً لِجَرَّها- فأوقَفَ سَيْلَ الدَّمِ. وَعَلِقَ نَفْسُ ألكسندر في حَنَجْرَتِه. شَطْبَةٌ واحدة، سريعةٌ وبارعةٌ من سَكِّينِه... وإذا به يكونُ مَنْ يَقتُلُها!

تصَبَّبَ العَرَقُ نازلاً على صُدْغِيه، وأخذَ قلبُه يخفقُ بشدَّة. وراقبَ صُعودَ صَدْرِها وهبوطه، والنَّبْضَ الضَّعِيفَ في حَنَجْرَتِها، فأصابَه العَنِّيَان.

وقال ترواس ثانية: "لن تشعُرَ الفتاة بشيء، سيدي إنَّها فاقدة الوعي."

رمقَ ألكسندر العبدَ بنظرةٍ قاتمة، وقال بحدَّة: "أستطيعُ رؤية ذلك!" ثُمَّ تقدَّمَ أقربَ من جديد، ورفعَ السَّكِّينَ. كان يومٌ أمسٍ تماماً قد اشتغَلَ بِجَسَدِ مُحَارِبٍ. وقد تعلَّم من تلك الدقائق القليلة عن تشريح الجسم البشري أكثر مما تعلَّمه في ساعاتٍ من المحاضرات. ومن الخَيْرِ أنَّ الرَّجُلَ المائت لم يفتَحَ عَيْنَيْه قَط. غير أنَّ جراحه كانت أسوأ بكثيرٍ جدًّا من هذه الفتاة الممددة أمام ألكسندر اليوم.

أغْمَضَ عَيْنَيْه، مالتاً صدره بالعزم والتَّصْمِيمِ. وحاولَ التركيزَ على ما قد علَّمه إِيَّاه فليغون مرَّة، إذ كان يُشاهدُ ذلك الطبيبَ الحَبِيرَ في أثناء عمله. فبينما كان مُعلِّمه يشرِّحُ الجَسَدَ بمهارة، قال له: "عليك أن تشرطَ بِسرعة، على هذا النحو. إنَّهم يكونون أمواتاً تقريباً حين تتسلَّمُهم، ويُمكنُ أن تُمَيِّتَهُم الصَّدْمَة في الحال. فلا تُبَدِّدِ الوَقْتَ قَلْبًا بشأن كونهم يشعرونُ بشيءٍ أو لا يشعرون؛ لأنَّه ما إنَّ يَتَوَقَّفَ القلبُ حتَّى تُضْطَرَّ إلى الانكِفاء، وإلَّا كُنْتَ عُرضَةً لِعُضْبِ الآلهة والقانونِ الرومانيِّ". وقد عاشَ الرَّجُلُ الذي كان فليغون يشتغلُ به بضعَ دقائق فقط قبل أن يَنزِفَ حتَّى الموت... غيرَ أنَّ صَرَخاتِهِ ما زالت تَرِنُ في أذني ألكسندر.

والآن، التفت إلى ترواس. "كم مرَّة أشرفت على هذا، يا ترواس؟"

أجابَ المِصرِيُّ الداكِنُ البَشْرَة- لاويًا فَمَهَ بابتسامةٍ ساخرة- "مرَّاتٍ أكثرَ من أن أستطيعَ عدَّها، سيدي". ولاحظَ دهشةَ الشَّابِّ، فتصلَّبَ قائلاً: "ما تتعلَّمُه هنا اليوم سيُنقِذُ كثيرين غداً".

الفصل الأول

عند ذاك أتت الفتاة وتحركت على الطاولة. ففرق ترواس إصبعيه. وتقدم عبدا ألكسندر، فقال ذاك لهما أمرًا: "أمسكها بمعصميهما وكاحليهما، وأبقياها ثابتة".

وما إن جذبت ذراعها المكسورة، حتى أطلقت صرخة خشنة حادة، قائلة بصوت هامس: "يسوع!" ثم انفتحت عيناها طرفتين.

حدق ألكسندر من عل في عينين بُنيّتين داكنتين ملؤهما الألم والارتباك إلى أقصى حد، حتى إنه فجأة لم يقو على الحراك.

وقال ترواس بمزيد من الحزم: "سيدي، عليك أن تشتغل بسرعة".

تمتمت الفتاة بشيء ما، بلغة غريبة، واسترخى جسمها. فسقطت السكين من يد ألكسندر، ووقعت على الأرضية الحجرية. فخطا ترواس حول طاولة التشريح واستعاد السكين، وناولها إيّاه من جديد.

وقال - ناظرًا من ألكسندر إلى الفتاة - "لقد أصابها إغماء".

"إليّ بطست ماء!"

فقطب ترواس. "ماذا تنوي أن تفعل؟ أن تُنعشها؟"

ورفع ألكسندر نظره حيال اللهجة التهكمية، سائلًا بعجرفة: "أحجروا على استجابي؟" فنظر ترواس إلى الوجه الأرسطراطيّ الفتى. لقد أعيد رسم الخطّ الفاصل، ولم يجرؤ على تخطيه، بصرف النظر عن خبرته أو مهارته الذاتية. فابتلع غضبه وكبرياءه، وتراجع إلى الوراء. "اعتذاراتي، سيدي. ما قصدت إلا تذكيرك أنّها محكومة بالموت".

"يبدو أنّ الآلهة قد أنقذت حياتها".

"لأجلك أنت، سيدي. لقد أبقته الآلهة حيّة حتى تتعلم ما يجب أن تعرفه لتصير طبيبًا".

"لن أكون من يقتلها!"

"بأمر من البروقنصل، هي مينة أصلاً! ليس هذا من صنيعك. فهي لم تُرسل إلى الأسود بكلمة فمك".

تناول ألكسندر السكين منه، وطحها مجددًا بين باقي الأدوات الجراحية في حقيبته الجلدية. "لن أحاطر بالتعرض لغضب أيّ إله أنقذ حياتها بقتلها الآن". ثم أشار بيده. "كما يمكنك أن ترى بجلاء، لم تُفسد جراحها أيّ عضو حيوي".

”أَتَفْضَلُ أَنْ تَتْرَكَهَا تَمُوتَ بِبُطءٍ مِنْ جِزَاءِ التَّلَوُّثِ وَاللْتِهَابِ؟“

فَتَصَلَّبَ أَلَكْسَنْدَرُ. ”لَنْ أَتْرَكَهَا تَمُوتُ الْبَيْتَةَ!“ لَقَدْ كَانَ ذِهْنُهُ مَحْمُومًا. إِذْ ظَلَّ يُبْصِرُ الشَّابَّةَ بَيْنَمَا كَانَتْ مَاشِيَةً عَلَى الرَّمْلِ، مُرْتَلَّةً، بِاسِطَةً ذِرَاعَيْهَا كَمَا لَوْ هَمَّتْ بِأَنْ تَضُمَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ صَاحُوا بِاهْتِيَاجِ مُطَالِبِينَ بِمَوْتِهَا.

وَسَرَّعَانَ مَا قَالَ بِتَصْمِيمِ صُلْبٍ: ”عَلَيْنَا أَنْ نُخْرِجَهَا مِنْ هُنَا“.

فَقَالَ تَرُوَاسُ مُسْتَهْجِنًا: ”أَأَنْتَ مَجْنُونٌ؟“

وَلَمْ يَبْدُ أَنَّ أَلَكْسَنْدَرَ يَسْمَعُهُ، إِذْ قَالَ مُتَمَتِّمًا: ”لَيْسَ لَدَيَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِمُعَالَجَةِ جِرَاحِهَا أَوْ تَجْبِيرِ ذِرَاعِهَا“. ثُمَّ فَرَّقَ إِصْبَعِيهِ، مُصَدِّرًا أَوَامِرَ مَهْمُوسَةً لِعَبْدِيهِ.

رَاقِبَ تَرُوَاسُ ذَلِكَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِذِرَاعِ أَلَكْسَنْدَرَ، نَاسِيًا نَفْسَهُ. ”لَا يُعْقَلُ أَنْ تَفْعَلَ هَذَا!“ كَانَ صَوْتُهُ خَافِتًا وَمَكْبُوتًا، وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُسْتَسْرِيًا نَحْوَ الْحَارِسِ الَّذِي كَانَ- تِلْكَ اللَّحْظَةَ- يَرِاقِبُهُمْ بِفُضُولٍ. ”إِنَّكَ تُعَرِّضُنَا جَمِيعًا لَخَطَرِ الْمَوْتِ إِذَا حَاولْتَ إِنْقَاذَ سَجِينَةٍ مَحْكُومٍ عَلَيْهَا بِالْمَوْتِ!“

”عِنْدَتِي، يَحْسُنُ بِنَا جَمِيعًا أَنْ نُصَلِّيَ إِلَى إِلَهِنَا حَتَّى يَحْمِيَنَا وَيُعِينَنَا عَلَى إِخْرَاجِهَا مِنْ هُنَا دُونَ انْكَشَافِ أَمْرِنَا. فَالآنَ، كُفِّ عَن مُجَادَلَتِي، وَأَبْعِدْهَا مِنْ هُنَا حَالًا. خُذْهَا إِلَى بَيْتِي. سَأَتَوَلَّى أَمْرَ الْحَارِسِ، وَأَتَبَعُكَ بِأَسْرَعٍ مَا يُمكنُنِي. تَحَرَّكْ!“

أَدْرَكَ تَرُوَاسُ أَنَّ مُحَاجَّةَ أَلَكْسَنْدَرَ غَيْرُ مُمكنَةٍ، فَأَوْمَأَ بِسُرْعَةٍ لِلْعَبِيدِ الْآخَرِينَ. وَفِيمَا أَسْرَ الْمَصْرِيِّ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَوَامِرِ، بِصَوْتِ خَافَتٍ، دَسَّ أَلَكْسَنْدَرُ مِشْرَطَهُ فِي حَقِيْبَتِهِ الْجِلْدِيَّةِ، وَطَوَاهَا رَابِطًا إِيَّاهَا كَيْفَمَا اتَّفَقَ، مُتَنَبِّهًا إِلَى كَوْنِ الْحَارِسِ قَدْ بَاتَ يُرِاقِبُهُمْ بِتَرْكِيْزٍ الْآنَ. ثُمَّ التَقَطَ أَلَكْسَنْدَرُ حَقِيْبَتَهُ وَدَسَّهَا تَحْتَ إِبطِهِ. وَإِذْ تَنَاوَلَ الْمِنْشَفَةَ، مَسَحَ الدَّمَ عَن يَدَيْهِ وَهُوَ مَاشٍ بِهَدْوٍ نَحْوَ الْحَارِسِ.

صَاقَتْ عَيْنَا الْحَارِسِ ارْتِيَابًا، وَقَالَ: ”لَا يُمكنُكَ إِخْرَاجُهَا مِنْ هُنَا“.

فَكَذَّبَ أَلَكْسَنْدَرُ عَرَضًا: ”إِنَّهَا مَيِّتَةٌ، وَهِيَ يَتَخَلَّصُونَ مِنَ الْجَثَّةِ. أَنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ عَدَمُ الْاضْطِرَارِ إِلَى لَمْسِهَا“. وَابْتَسَمَ لِلْحَارِسِ ابْتِسَامَةً سُخْرِيَّةً، ثُمَّ أَتَكَأَ عَلَى الْبَوَابَةِ الْمَشْبَكَةِ بِالْحَدِيدِ، وَنَظَرَ إِلَى الرَّمْلِ خَارِجًا. ”إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَسْتَحِقُّ سِتَّةَ سَسْتَرَسَاتٍ. إِذْ كَانَتْ قَدْ بَاتَتْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ أَنْ تَنْفَعَنِي وَلَوْ قَلِيلًا“. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْحَارِسِ بِتَرْكِيْزٍ وَاضِحٍ.

فَكَشَّرَ الْحَارِسُ. ”تِلْكَ هِيَ الْفُرْصَةُ الَّتِي انْتَهَزْتَهَا أَنْتَ!“

الفصل الاول

وتظَاهَرَ ألكسندر أَنَّهُ مُهْتَمٌّ بِمَحَارِبِينَ كَانَا يَتَقَاتِلَانِ فِي سَاحَةِ المَحَارِبِينَ، قَائِلًا: ”كَمْ سَتَدُومُ هَذِهِ المَبَارَاةُ؟“

فَقَدَّرَ الحَارِسُ قُدْرَاتِ الخِصْمِينَ. ”ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً، وَرَبْمَا أَكْثَرَ. وَلَكِنْ لَنْ يَكُونَ نَاجِ هَذِهِ المَرَّةُ“.

تَجَهَّمُ ألكسندر كَمَنْ خَابَ أَمَلُهُ. وَتَوَقَّفَ قَلِيلًا، ثُمَّ رَمَى المِنْشَفَةَ المِصْرَجَةَ بَالِدَمٍ، قَائِلًا: ”فِي هَذِهِ الحَالَةِ، سَأَمْضِي لِأَشْتَرِي لِنَفْسِي شَيْئًا مِنَ التَّبِيدِ“.

وَإِذْ مَشَى فِي الدَّهْلِيزِ المِضَاءِ بِالمِشَاعِلِ، أَرْغَمَ نَفْسَهُ عَلَى السَّيْرِ بِبُطْءٍ... إِلَّا أَنْ قَلَبَهُ كَانِ يَدُقُّ مُتَسَارِعًا مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ. وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ، مَسَّتْ وَجْهَهُ نَسْمَةٌ لَطِيفَةٌ.

”عَجِّلْ! عَجِّلْ!“ سَمِعَ هَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ بوضوح، كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدًا كَانِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ بِالِحَاحِ.

وَفِيمَا قَلَبَ ألكسندر يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ، انْعَطَفَ نَحْوَ بَيْتِهِ وَأَخَذَ يَرْكُضُ، يَحْتَثُهُ عَلَى المَضِيِّ صَوْتٌ فِي الرِّيحِ، هَادِئٌ وَخَفِيفٌ.

مسردُ القِيَانِيَّ

[شرحُ الفاظِ]

أبولو:

عند الرُّومان واليونانيّين، هو إلهُ نور الشَّمس والنُّبوءة والموسيقى والشَّعر. وهو الأَجْمَل بين الآلهة.

أثريوم:

الفِنَاءُ المركزيُّ في المسكن الرومانيّ. وقد كانت مُعظَم المنازل الرومانيَّة تتكوَّن من سلسلةٍ غُرَفٍ مُحيطةٍ بِفِنَاءٍ داخليّ.

أثينا:

هي عندَ اليونانيّين إلهةُ الحِكْمَة والفنون والحرب (ابنةُ زَفَس؛ مينرفا عند الرومان).

أرطَميس:

إلهةُ القمر اليونانيَّة. كان هيكلُها الرئيسيُّ في أفسُس، حيث سقطَ نَيْرُك (حُفِظَ لاحقًا في الهيكل) مُسمِّيًا- على ما يُفترَض- أفسُس مُقامًا لأرطَميس. ومع أنَّ الرُّومان ساووا أرطَميس بديانا، فقد اعتقدَ الأفسُسِيُّون أنَّها أخت أبولو وابنة ليتو وزَفَس، ونظروا إليها حاسبين إياها إلهةً/أمًّا تُبارِكُ البَشَرَ والبهائم والثُّرْبَة بالخِصْب.

إروس:

إلهُ الحُبِّ الجسديِّ عندَ اليونانيّين. وقد جَرَّتْ مُساوَأته بالإله الرومانيّ كيوبيد.

صوت فيج الرياح

أسداريس:

(الجمع: أسداريي): "رَجُلُ المركبة"؛ مُحارِبٌ كان يُقاتِلُ وهو في مركبةٍ يجرُّها حصانان، مُزدانة بالزَّخارفِ عادةً.

أسكليبيوس:

إلهُ الشِّفاءِ عند اليونانيِّين والرومان. تزعمُ الميثولوجيا أنَّ أسكليبيوس كان ابن أبولو وحوريَّة (كورونس) وقد تعلَّم الشِّفاءِ على يد قَنطُور (شبيرون).

أفروديت:

إلهةُ الحُبِّ والجمالِ عند اليونانيِّين (أُمُّ إروس). هي الإلهةُ فينوس عند الرُّومان (نظيرتها عشتروت عند الفينيقيِّين، والزَّهرة عند العرب).

"أفي إمبراطور موريتوري تي سالوتنت":

"سلامًا أيُّها الإمبراطور. الذين يوشكون أن يموتوا يحيونك". عبارة روتينية يتفوه بها المحاربون قبل ابتداء الألعاب الرومانية.

أكريا:

قطعةٌ درع تُغطِّي الساق.

أموراتا:

(الجمع: أموراتيي): نصيرٌ معجبٌ بمُحاربٍ ما (ذكرٌ أو أنثى).

أندباتا:

(الجمع: أندباتيي): مُحاربٌ يُقاتِلُ وهو يمتطي حصانًا؛ وكان الأندباتا يعتَمِرُ حُوذةً واقيةً الوجه فيها مُسدلةً، ممَّا يعني أنَّه كان يُقاتِلُ معصوبَ العينين.

مسرد الفباني

إنسولايي:

مَسَاكِينُ رومانيَّة ضخمة وعالية (للإيجار عادةً) كلُّ مجموعةٍ منها تُشكِّل صَفَّ بيوتٍ في المَدُن الرومانيَّة.

پاتريشيان:

شخصٌ ينتمي إلى الطبقة الأرسقراطية (من الأشراف أو النبلاء الرومانيين).

پالس:

رداءٌ كالعباءة تلبسه نساءُ الرُّومان فوق الستولا.

پايجناري:

مُحاربون هزليُّون عند بدء الألعاب الرومانيَّة. ومثَلُ الألاسورابي الذين كان يُؤتى بهم بعدهم في الألعاب، كانوا يُستخدمون عند بدء الألعاب لتحميس الجمهور.

پبليوتيكًا:

غرفة المكتبة في المسكن الرومانيّ.

پتافي:

قبيلةٌ من بلاد الغال (فرنسا الآن) حاربت روما في صفِّ الشطِّي والبركتيري.

پراسارد:

قِطْعَةٌ دِرْعٍ تُغْطِي أعلى الذراع.

پرايتور:

قاضي رومانيٌّ مرتبته دون القنصل، ودوره الأساسيُّ حقوقيٌّ بطبيعته.

برُكتيري:

قبيلة جرمانيّة شاركت الشّطي في محاربة روما، ويبدو أنّ البرُكتيري حاربت الشّطي قبل اتّحادها معهم ضدّ روما.

برُوقنصُل:

حاكِم - أو قائد عسكري - لولاية رومانيّة، كان مسؤولاً أمام مجلس الشيوخ.

پريستايل:

(البهوّ ذو الأعمدة): قسم من المسكن الرومانيّ (كان في الغالب قسمًا ثانويًا) يُحيط بالفناء الداخليّ وتُحيط به الأعمدة من الداخل. وكانت مهاجّع العائلة (عُرف نومها) تقع في البهوّ ذي الأعمدة، وأيضًا المزارُ العائليّ (لاراريوم)، والموقدُ والمطبخ، وقاعةُ الشّفرة (ترِكلينيوم)، والمكتبة (ببليوتيكا). وفي بيوت الأغنياء، كان فناء البهوّ ذي الأعمدة يُحوّل إلى حديقة.

پكيوليوم:

حصّة من المال ينالها العبيد من عند مالِكهم. وكان في وُسع العبيد أن يتصرّفوا بالپكيوليوم كما لو كان ملكهم الشخصي. ولكنّ في أحوالٍ معيّنة، كان يحقّ للمالك أن يسترده منهم.

پلاتي:

مجموعة المقاعد العُليا (والأقل مرغوبةً) في مدرّج ساحة المحاربين الرومانيّة.

پلتايي:

الأسوار الدائريّة لساحة المحاربين الرومانيّة. وكان هنالك ثلاثة أسوار، مُشكّلة في أربعة أقسام متراكبة.

بليبيان:

عامّة الناس من سكّان روما (الرّعاع، الغوغاء... إلخ).

بودم:

مجموعة المقاعد الثّربى إلى ساحة المحاربين، حيث كان الإمبراطور الروماني يجلس لمشاهدة الألعاب.

بوليس فرسو:

كانت هذه، في الألعاب الرومانيّة، إشارة الموافقة على توجيه الضّربة القاضية، أو القاتلة. وكانت، في العادة، إشارة "إنزال الأباهم إلى تحت".

بيستياريي:

"الصيادون" في الألعاب الرومانيّة. كانت حيوانات مُفترسة تُطلق في ساحة المحاربين، فيعمد البيستياريي إلى اصطيادها كجزء من الألعاب.

تبيداريوم:

غرفة في الحمامات، الماء فيها ساخن قليلاً ومهدئ.

تريدنت:

رُمح ثلاثي الشّعب.

تريكلينيوم:

قاعة الشّفرة في المسكن الروماني. وكان التريكلينيوم عادةً فخماً ومزخرفاً، وله عدّة أعمدة، وفيه تشكيلة من التّماثيل.

تُوجا فيريلس:

كانت التَّوَجَّةُ هي الرُّدَاءُ الخارجيُّ المخصوص الذي يرتديه الرُّومان (مع أنَّ استِعماله بَطُلَ بالتَّدرِيج). وهو قِطْعَةٌ قُماشٍ بِيضويَّةٍ واسعة، تُسدَّل على الكتِفَيْن والذَّرَاعَيْن. وكان لُونُ التَّوَجَّةِ وشكلُها مَوْصُوفَيْن على نَحْوِ حاسم؛ إذ كان لُكُلُّ من أهل السياسة، والحادِّين على مَيْت، والرَّجال، والصَّبِيان، تُوَجَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ. فقد كان الصَّبِيان يلبسون تُوَجَّةً أَرْجوانِيَّةَ الحواشي، ولكن عند بلوغهم سِنَّ الرُّشد كان يُسَمَّح لهم بأن يرتدوا تُوَجا فيريلس، أي تُوَجَّةَ الرَّجُل، وهذه كانت من لُونِ واحد (راجع أيضًا: لِيَبَر).

ثراقِي:

مُحارِبٌ يُقاتِلُ بَخَنَجَرٍ مَعْقُوفٍ (أو سَيْفٍ أَحَدَبٍ)، وَيَسْتَعْمَلُ تُرْسًا صَغِيرًا مُدَوَّرًا (يُحْمَلُ بِالْيَدِ غَالِبًا). وكان الثراقِيُّ عادةً يُنَزَلُ ضِدَّ مِرْمَلُوم.

جونو(يونو):

إِلهَةٌ رومانِيَّةٌ، تُساوَى بِالْإِلهَةِ اليونانِيَّةِ هيرا. كانت جونو إِلهَةَ الثَّورِ وَالْإِنْجَابِ وَالنِّسَاءِ وَالزَّوْجِ. ومن حيثُ كُونُها زَوْجَةٌ لْجوبيتر، كانت هي مَلِكَةُ السَّماءِ.

حادِس:

إِلَهَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ (الْجَحِيمِ) عِنْدَ اليونانِيِّينَ.

الْحَرَسُ البريتوريُّ:

الْحَرَّاسُ الشَّخْصِيُّونَ الإمبراطوريُّونَ عِنْدَ الرومانَ.

ديانا:

إِلهَةُ الْإِنْجَابِ وَالْغَابَةِ عِنْدَ الرومانَ، تُصَوَّرُ عادةً بِهَيْئَةِ صَيَّادَةٍ (نظيرَةُ أَرْطَميس عِنْدَ اليونانِيِّينَ).

ديماتشيروس:

(الجمع: ديماتشيري): "رَجُلُ السَّكِينِ"؛ مُحَارِبٌ كَانَ يُقَاتِلُ بِسَيْفٍ قَصِيرٍ فِي كُلِّ يَدٍ.

ديونيزوس:

إله الخمر والعريضة عند اليونانيين، يُعْرَفُ عَلَى نَحْوِ أَعْمَ بِاسْمِ "بَاخُس" الروماني. وقد اقترنت بعبادته احتفالات سُكْرٍ وَمُجُونٍ.

رايدا:

عَرَبَةٌ كَبِيرَةٌ ثَقِيلَةٌ لَهَا أَرْبَعَةُ دَوَالِبٍ، يَجْرُهَا أَرْبَعَةُ أَحْصِنَةٍ عَادَةً.

رَتِيَارِيْس:

"رَجُلُ الشَّبَكَةِ"، مُحَارِبٌ يَحَاوُلُ أَنْ يُوقِعَ خِصْمَهُ فِي شَبَكَةٍ، أَوْ يُعِيقَهُ بِهَا، ثُمَّ يَطْعَنَهُ بِرُمْحٍ ثَلَاثِي الشُّعْبِ. كَانَ الرَّتِيَارِيْسُ يَرْتَدِي فَقَطُ تُنْكَأَ قَصِيرًا، أَوْ مِثْرَازًا، وَيُنْزَلُ عَادَةً مُقَابِلَ سِيكِيوْتُرٍ.

رَفْس:

مَلِكُ آلِهَةِ الْيُونَانِ وَزَوْجُ هِيرَا؛ يَتَوَحَّدُ بِالْإِلَهَةِ جُوِيْتِرِ (رَاجِع: جُوِيْتِر).

ساجيتاريْس:

(الجمع: ساجيتاريي): مُحَارِبٌ سِلَاحُهُ قَوْسٌ وَنَشَابٌ (سِهَام).

سَاعْم:

عِبَاءَةٌ حِمَائِيَّةٌ قَصِيرَةٌ كَانَ رِجَالُ الْقَبَائِلِ الْجَرْمَانِيُونِ يَرْتَدُونَهَا فِي الْمَعَارِكِ. وَكَانَتْ تُثَبَّتُ عِنْدَ الْكَتِفِ بِمِشْبَكٍ.

سامنيت:

مُحاربٌ استخدمَ السلاحَ الوطنيّ، وهو يتكوّن من: سيفٌ قصير (غلاديوس)، وتُرْسٌ مُستطيل كبير، وخوذةٌ ذات وقاءٍ للوجه مُزينةٌ بالرّيش.

سُبْراريي:

عُمّالٌ عندَ أحواضِ السُّفن، يُفرغون الحُمولة من السُّفن ويضعونها في العَرَبات.

سپينا:

مِنَصَّةٌ طويلةٌ ضيّقةٌ في وسطِ مُدرَجِ ساحةِ المحاربين الرومانيّة، كانت في آنٍ معًا ساحةً أنصابٍ للألّهة الرومانيّين وموقعَ نافورةٍ مُتقنةٍ ومُزخرفةٍ. وقد قُرّمت أبعادها - 6x70 م تقريبًا - إزاءَ طريقِ المركبات المُحيطة بها والتي كان أكبرَ منها بكثير. وكانت السپينا مَحْمِيَّةً من المركبات بأعمدةٍ صَدِّ مَحْرُوطِيَّةِ الشَّكْلِ (كقمعٍ مقلوب)، تُدعى ميناياي.

ستپاتر:

عاملٌ عندَ أحواضِ السُّفن كان يقفُ مُتوازِنًا على سِقالةٍ كي يسدَّ حُرُوزَ السُّفنِ وتروسها بالقار بعد رُسُوها.

ستولا:

ثوبٌ طويلٌ، يُشبهُ التَّنُورةَ، كانتِ النساءُ الرومانيّات يرتدينه.

سسترس:

قطعةٌ نقدٍ رومانيّة، قيمتها رُبُعُ دينار.

سكّتم:

تُرْسٌ من حديدٍ مُغطّى بالجلد، كان القَبْلِيُّونَ الجرِمانيُّونَ يستخدمونه.

سَكَرَابِي:

عُمَالٌ عند أَحواضِ الشُّقْنِ يُنْزِلُونَ الحَمُولَةَ مِنَ العَرَبَاتِ وَيضعُونَهَا على ميزان.

سِيْبِيل:

إِلهَةٌ الطَّبِيعَةُ عند أهل فريجيا، عُبِدَتْ فِي رومَا. فِي المِثُولُوجِيا، كانت سيبيل عشيقة أئيس (إله الحِصْب). اقترنتْ عبادتُها باحتفالاتِ صاحبةِ ومُجُونِ فاحِش.

سِيرِيس:

إِلهَةُ الزَّراعَةِ والحِصَادِ عند الرُّومانِ (دِيمِترِ عند اليونانِيِّينَ).

سِيْزِيُوم:

عَرَبِيَّةٌ خفيفةٌ سريعة ذاتُ دولابَيْنِ، كان يجرُّها حصانان عادةً.

سِيْقِيْتاس:

(الجمع: سِيْقِيْتاتِس): مَدِينَةٌ أو قَرْيَةٌ صغيرة.

سِيْكُوتْر:

مِحرَابٌ مُسَلَّحٌ تَسْلِيحًا كاملاً، كان يُعَدُّ ”المِطارِد“؛ أَي كان يُفْتَرَضُ أن يُطارِدَ خِصْمًا وَيَطْرَحَهُ أَرْضًا وَيَقْتُلُهُ. وكان السِيْكُوتْرُ عادةً يُنْزَلُ مُقَابِلَ رَتِيَارِيْس.

سِيْمِيْتار:

سِيْفٌ أَحَدَبٌ ذو شفرةٍ مُقَوَّسَةٍ، حُدَّها القاطِعُ فِي الجانِبِ الخارِجِيِّ المِحدَّبِ.

شارُن:

فِي سِاحةِ المِحرابِينِ الرُومانِيَّةِ، كان شارُن أَحَدَ ”دَلِيلِي المِوتِي“ (لِيْبِتِنارِيي). وقد مثَّلَه شَخْصٌ

صوت في الريح

يرتدي قناعًا ذا منقار ويستخدم مطرقة كبيرة. هذا التمثيل كان مزيجًا للمعتقدات الإغريقية والإترسكية. فعند الإغريق، كان شارن رمزًا للموت والنوتى الذي ينقل الموتى عبر نهري أسطس وأكيرون في الحدس، أو الجحيم (إنما فقط مقابل أجره وإذا كان لهم دفن لائق). وعند الإترسكان، كان شارون (شارن) هو من يضرب ضربة الموت.

شطى:

إحدى القبائل الجرمانية.

الطريق:

لفظة تستعمل في الكتاب المقدس (سفر الأعمال) للدلالة على الإيمان المسيحي. ويعتقد أن المسيحيين سموا أنفسهم "أتباع الطريق" (أو أهل الطريق). ومن المعلوم أن الطريق هو لقب استخدمه السيد المسيح بالإشارة إلى شخصه.

طيواز:

إله الحرب عند القبائل الجرمانية (شطى، بركتيري، بتافي)، يرمز إليه برأس معزاة.

عستس:

مقبلات تقدم عند بدء الوليمة.

غلاديوس:

السيف الروماني العادي، طوله نحو قدمين (نحو ٦٠ سم).

غورجت:

قطعة درع تغطي العنق.

فاز:

جَرِيش، حِنطة.

فائِم:

(الجمع: فانان): مَعْبَدٌ كانَ أَكْبَرَ من مزار، لكنْ أَصغَرَ من الهياكل المعتادة.

فراَميا:

رُمحٌ ذو رأسٍ طويلٍ حادٍّ كانت تستعملُهُ القبائلُ الجرمانية. وكان يُمكنُ أن يُرمى كَرُمحٍ عاديٍّ أو تُستعملَ قناتُهُ كهراوة.

فريجيداريوم:

عُرْفَةٌ في الحَمَّامات، الماءُ فيها بارد.

فليس:

مِحارِبٌ سِلاحُهُ الرُمحُ (رامح).

فينوس:

إِلهةُ العَرامِ والحُبِّ والوصالِ والجمالِ عند الرُّومان. تتوحَّدُ بالإِلهةِ اليونانيَّةِ أفروديت (راجع: أفروديت).

قُربِيطة:

سفينةٌ تجاريَّةٌ بطيئةُ الإبحار.

صوت في الريح

قُنْصُل:

صاحبٌ مَنْصِبٍ رَسْمِيٍّ رَفِيعٍ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ الرَّومَانِيَّةِ. كَانَ هُنَاكَ مَنْصِبًا قُنْصُلًا، يُنْتَجَبَانِ سَنَوِيًّا. لَقَّبَ مُرَوِّعٌ تَحْتَ الْإِمْبْرَاطُورِ.

كَادُوسِيَّس:

عَصَا الْحَكْمِ الَّتِي حَمَلَهَا هِرْمِس. كَانَ لَهَا أَفْعِيَانٌ مُلْتَفَّتَانِ حَوْلَهَا، وَجَنَاحَانِ عِنْدَ رَأْسِهَا.

كَاقِيَا:

صَفُوفُ الْمَقَاعِدِ فِي سَاحَةِ الْمَحَارِبِينَ الرَّومَانِيَّةِ.

كَتَامَيْت:

مَأْبُونٌ؛ غَلَامٌ يُتَّخَذُ لِأَغْرَاضٍ جَنْسِيَّةٍ شَاذَّةٍ عِنْدَ الْمُثَلَّثِينَ.

كَفِّيَّة:

غِطَاءٌ لِلرَّأْسِ يَعْتَمِرُهُ الْأَعْرَابُ (كَوْفِيَّة).

كَلْدَارِيُوم:

عُرْفَةٌ فِي الْحَمَّامَاتِ كَانَتْ الْقُرْبَى إِلَى الْمَرَاجِلِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الْأَكْثَرُ سَخُونَةً (لَعَلَّهَا تُشْبِهُ الْجَاكُوزِي أَوْ عُرْفَةَ الْبُنْخَارِ الْيَوْمِ).

كَنْفَرِيَاشِيُو:

شَكْلٌ مِنَ الزَّوْجِ الرَّومَانِيِّ كَانَ مُلْزِمًا.

كُودَارَنْس:

(الجمع: كُودَارَانِس): قِطْعَةٌ نَقْدٍ رُومَانِيَّةٍ بَرُونَزِيَّةٍ.

مسرد الفياني

كورول:

الكُرسيُّ الرَسميُّ لأعلى خُدام روما المدنيّين. وكان هؤلاء هم الأشخاصَ الوحيدَين المَحوّلين أن يجلسوا على الكورول. كان هذا الكُرسيُّ شبيهاً بالمقعد الخفيف المنجّد القابل للطي في أيّامنا، وله أرجلٌ ثقيلةٌ منحوتة.

كوس:

قطعةٌ درعٍ تُغطّي الفخذ.

كومپشيو:

شراءٌ عروس؛ شكلٌ من الزواج الرومانيّ كان سهلَ الإبطال (أي أنّ الزوجين كانا يستطيعان أن يتطلّقا بسهولة).

لارارثوم:

جزءٌ من المسكن الرومانيّ، كان عُرفةً خصوصيّةً تُنصب فيها الأوثان أو الأصنام.

لاسورايي:

مُحاربون يُقاتلون بأسلحةٍ من حَشَبٍ لتحميس الجمهور قبلَ بدء الألعاب التي فيها يتبارى المحاربون حتّى الموت.

لاكيارييس:

(الجمع، لأكياربيي): ”رَجُلُ الوَهَق“؛ مُحاربٌ مُسلّحٌ بوهقٍ (حَبليّ ذي أنشودة لاصطياد الحيوانات).

لانيستا:

مُدربُ المحاربين. كان اللانيستا الرئيسُ في اللودُس يُعامل باحترامٍ وازدراءٍ معاً.

لودس:

(الجمع: لودي): سجن/مدرسة حيث كان المحاربون يُدربون.

لودي:

(جمع): إشارة إلى الألعاب الرومانيّة: "لودي ميغالانسز".

لوكاريس:

دليل المشاهدين في الألعاب الرومانيّة (يُرهبهم أين يقعدون).

ليبر:

كان ليبر وليبرا إلهين رومانيين للخصب والزراعة. وقد وُصفا كلاهما في صفّ سيريس (إلهة الزراعة الرومانيّة). كما أنّ ليبر تَوَحَّدَ أيضًا بالإله اليونانيّ ديونيزوس، ومن ثمّ حُسِبَ إلهاً لتربية الكروم. وفي مهرجان ليبراليا، كان الأولاد الذين يبلغون سنّ الرشد يُسمح لهم بأن يُباشروا ارتداء لباس الرجال (توجا فيريس).

ليبلس:

البرنامج الذي تُدرج فيه الأحداث المقبلة في الألعاب الرومانيّة.

ليبيتاري:

"دليلا" الموتى (شارن وهريس من الميثولوجيا اليونانيّة) في أثناء الألعاب الرومانيّة. وقد أُسندت إليهما مهمّة إجلاء جثث القتلى من ساحة المحاربين. وكان يُمثّل شارن، في الألعاب، بشخص يرتدي قناعًا ذا منقار ويستخدم ميّدة (مطرقة كبيرة). أمّا هريس فكان يُمثّله شخصٌ يحملُ قضيبَ حديدٍ مُتوهجًا بالنّار (كادوسيس).

مارس:

إله الحرب الروماني.

مانيكَا:

قَفَّاز/كُم من جلدٍ وحراشف مَعْدِنِيَّة (لتغطية اليد والذراع).

ماينِيَاتُم:

صفوفُ المقاعد التي وراءَ الپوديمُ وفوقَه في ساحة المحاربين الرومانيَّة. وكان الفُرسان والحُكَّام يجلسون في صفِّي الماينِيَاتُم الأوَّل والثاني لِشَاهِدُوا الألعاب. أمَّا الثُبلاء (الأشرافُ الأريستقراطيون) فكانوا يجلسون في الصفِّين الثالث والرابع.

محاربون:

سُجْناء أو أسرى من الذُّكور يُرَعَمون على التدرُّب كي ”يَتَبَارُوا“ في ”العاب“ المحاربة الرومانيَّة. كان سِجْنُهُم/مدرستُهُم يُسمَّى لودُسًا، ومُدْرَبُهُم لانيسْتا. وقد كان هنالك عدَّة أصنافٍ من المحاربين، يُوصَف كلُّ منهم بالسُّلاح الذي يُعطاه للاستعمال، والدُّور الذي يُحدِّد له كي يؤدِّيَه في الألعاب. وفي ما عدا الأوضاع غير المعتادة، كان المحاربان يتقَاتلان إلى أن يموت أحدهما.

مِرْكوري:

في الميثولوجيا الرومانيَّة، هو رسولُ الآلهة (أو مرْسالِها) الذي يحملُ رسالِها. يتوحَّد بالآله اليونانيَّة هِرْمِس. يُقال له كذلك ”مِرْكور“، وهو إله التِّجَارَة أيضًا (وابنُ جوبيتر).

مِرْمِلو:

(الجمع: مِرْمِلونز): المِرْمِلو نوعٌ من السَّمَك. وهو مُحارِبٌ مُسلَّح على غرار الغاليين، يَعْتَمِرُ خوذةً ذات حراشف كحراشف السَّمَك ويحملُ سيفًا وتُرْسًا. وكان المِرْمِلو يُنزل عادةً ضدَّ ثراقيي.

صوت في الريح

مِلْسايي:

كاهنات عذارى مكرسات لخدمة الإلهة أرطيميس.

منشور:

(الجمع: منشريس): عامل عند أحواض السفن كان يزن الحمولة ثم يقيّد الوزن في سجلّ أساسي.

ميتايي:

أعمدة صدّ مخروطية الشكل (كقمع مقلوب) في ساحة المحاربين الرومانية، تؤدّي دور حماية السفينة في أثناء السباقات. كان واحدًا بارتفاع سبعة أمتار تقريبًا، وقد ازدانت برُسوم للمعارك الرومانية منحوتة عليها.

ميغابزوي:

كهنة خصيان في هيكل أرطيميس.

نيتون:

إله البحر (أو الماء) عند الرومان، تُرافقه أغلب الأحيان سبعة دلافين. هو بوسيدون اليوناني.

هرمس:

في الميثولوجيا اليونانية، كان هرمس هو دليل النفوس إلى الخadis. وكان أيضًا حاكم الآلهة وسفيرها (أو رسولها)، وقد اشتهر بدهائه. وفي ساحة المحاربين الرومانية، كان هرمس واحدًا من الليبيتاريي الاثنتين، وكان يُمثله شخص يحمل كادوسيسنا متوهجًا بالنار، به يطعن الساقطين أرضًا للتتحقق من موتهم.

هستيا:

إلهة الموقد والمأوى. توحدت بالإلهة الرومانية قستا.

هيرا:

مملكة الآلهة عند الإغريق. في الميثولوجيا، كانت هيرا هي أخت زفس وزوجته، وقد توحدت بـجُونو (يُونو) عند الرومان.

يشوع:

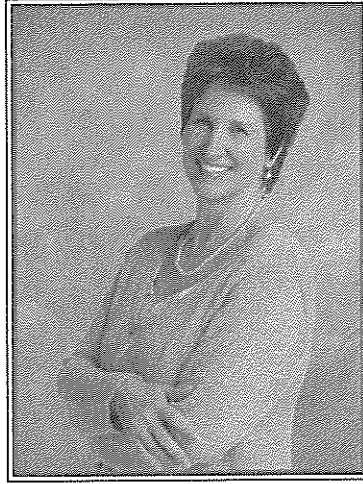
اللفظ العبراني لاسم "يسوع".

يوريناتر:

عامل في الميناء كان يغطس وراء السَّلَع التي تسقط عَرَضًا في مياه البحر عند التفرغ، كي ينتشلها.

يوسس:

أقل أشكال الزواج إلزامًا عند الرومان. ربّما كان مُشابها لما يمكن أن ندعوه في أيامنا "المساكنة" (أي العيش عيشة زوجين دون عقد أو عهد).



فرنسين ريفرز

كُتِبَتْ أكثر من عشرين روايةً من أكثر الكتب مبيعاً، وقد نالَتْ عدَّة جوائز، بينها جائزة ”الناقد لصفوة الأثار“ (Critic’s Choice Award) وجائزة ”RITA“ لَكَتَبَةِ قصص الحبِّ في أميركا للأعوام ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧م على التوالي عن أفضل الروايات الرومانسيَّة الملهمة، ممَّا أدخلَهَا قاعة مشاهير الروائيِّين، كما أنَّها نالَتْ ميداليَّةً ذهبيَّةً تقديريَّةً نظيرَ روايتها ”أكل الخطيئة الأخير“ (The Last Sin Eater).

ومن مؤلِّفاتها في العربيَّة، نُشِرَتْ رواية ”الحب المحرَّر“ من منشورات أوفير للطباعة والنشر. وللمزيد عن هذه الرواية، انظرُ الصفحة التالية:

هل تقدر المحبّة أن تُخلِّصَ أيّ إنسان؟

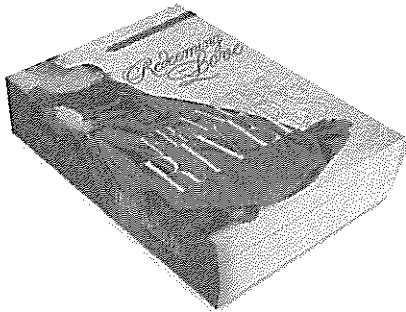
الحب المحرّر

فرنسين ريفرز

ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة،
وبيع منها ما يزيد على مليون نسخة.



بلاد الذهب الجبلية في كاليفورنيا، سنة ١٨٥٠ م.
زمان فيه كان رجالٌ يبيعون أنفسهم لأجل كيس من
الذهب، ونساءً يبعن أجسادهن لأجل مكان يبتن فيه.



محاكاة قصصية بارعة لسفر هوشع .

الحب المحرّر رواية بارعة مغيرة للحياة، محورها
المحبة غير المشروطة التي تخترق جميع الحدود
والسُدود، وتحطّم أعنى القيود.